دَير القدّيس العَظيم الأنبَا مَكارْيُوس
القس الإسكندراني الأثري
بَرّيَّة الرَّيَّان - الفيُّوم - مِصْر

Пиавит ńпа Ⲁⲃⲁⲕⲁⲣⲓⲟⲥ
прєⲙⲣⲁⲕⲟ† єтвєпⲡⲓⲱⲟⲩ
ńⲣⲁⲁⲛⲓⲧє ⲫⲓⲱⲟⲩ ńⲭⲟⲓⲥ

وشاح الألوهة

الذي يرتدي فكل من الوشاح

الذي ارتداه الخالق

مَيَامِر مار إِسْحَاق السُّرْيَانِي

العظيم فى العارفين

٧ أجزاء فى كتاب واحد

إعداد
الرَّاهِب أَفَّاسيوس الأَنْبَا مَكَارِيوس
باحث ماجستير في الآثار
باحث ماجستير في اللاهوتيات

Пiавнт нaпa Uакapioc
пpeмPaкot ετβeн пiтωoт
нPaвaнiтe Фpoн нXнн.

الوَاضِعُ وِشَاحَ الأُلُوهَةِ فَكُلُّ مَنْ يَرْتَدِي الوِشَا الَّذِي الإِتِّحَادُ الخَالِقُ

مَيَامِرُ مار إِسْحَاقَ السُّرْيَانِي

العظيم فى العارفين

٧ أجزاء فى كتاب واحد

إعداد
الرَّاهِبُ أَثَنَاسِيُوس الأَنْبَا مَكَارِيُوس
باحث ماجستير في الآثار
باحث ماجستير في البطريات

دَير القدِّيس العَظيم الأنبَا مَكارْيُوس
القس الإسْكَنْدراني الأثري
بَرِّيَّة الرَّيَّان - الفيُّوم - مِصْر

Пiавнт нaпa Uакapioc
пpeмPaкot ετβeн пiтωoт
нPaвaнiтe Фpoн нXнн.

دَير القدِّيس العَظيم الأنبَا مَكارْيُوس
القس الإسْكَنْدراني الأثري
بَرِّيَّة الرَّيَّان - الفيُّوم - مِصْر

صدر للمؤلف

مَيَامِرُ مار إِسْحَاقَ السُّرْيَانِي
العظيم فى العارفين

إعداد
الرَّاهِبُ أَثَنَاسِيُوس الأَنْبَا مَكَارِيُوس

دَير الْقِدِّيس الْعَظِيم الأَنْبَا مَكَارْيُوس
القس الإسْكَنْدَراني الأثري
بَرِّيَّة الْرَّيَّان – الفَيُّوم – مِصْر.

Πιàβнт ѝапа Uакаріос
пірешРакоϯ єтϑєN
пітшоѓ ѝРаіІаN
ѝтє Ϯіош ѝХнш.

مَيَامِر وصَلَوَاتُ

مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الْعَظِيم في الْعَارِفِين

سَبْعةً أجزاء في كِتَابٍ وَاحِد

مِنْ آباء القرن السَّابع الميلادي

نشر بتصرف

مِنَ المخطوطات والمصادر الأجنبية والسريانية والعربية المسيحية

إعداد
الرَّاهِبُ أثَنَاسِيُوس الأنْبَا مَكَارْيُوس
باحث ماچستير في الآثار
باحث ماچستير في الدراسات القبطيَّة

إسم الكِتَاب: مَيَامِر وصَلَوَات مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني سَبْع أجزاء في كِتَاب وَاحِد.
إسم الكاتب: الرَّاهِبُ أَثَنَاسِيُوسْ الأَنْبَا مَكَارْيُوسْ – بَرِّيَّة الْرَّيَّان.
تقديم ومُراجعة: أبينا الروحي الرَّاهِبُ القمص / أليشع المقاري (سبتمبر ٢٠١٦م).
الطبعة الأَولى: نوفمبر٢٠١٥م
رقم الإيداع بدار الكُتُب والوثائق المصرية: ٢٠١٥ / ٢٥٠٠٥
موبيل: 01273133270 - 01016795091

ⲭⲉⲣⲉ ⲙⲉ ⲙⲁⲣⲓⲁ ⲑⲉⲟⲧⲟⲕⲉ ⲙⲡⲉⲛⲭⲟⲉⲓⲟⲥ ⲙⲫⲙⲟⲩⲧⲉ

رَبِّنَا وإِلهُنَا ومُخَلِّصنا يَسُوع الْمَسِيح لهُ كُلّ المجد

ووالدة الإله الْقِدِّيسة الْعَذْرَاء مَرْيَم

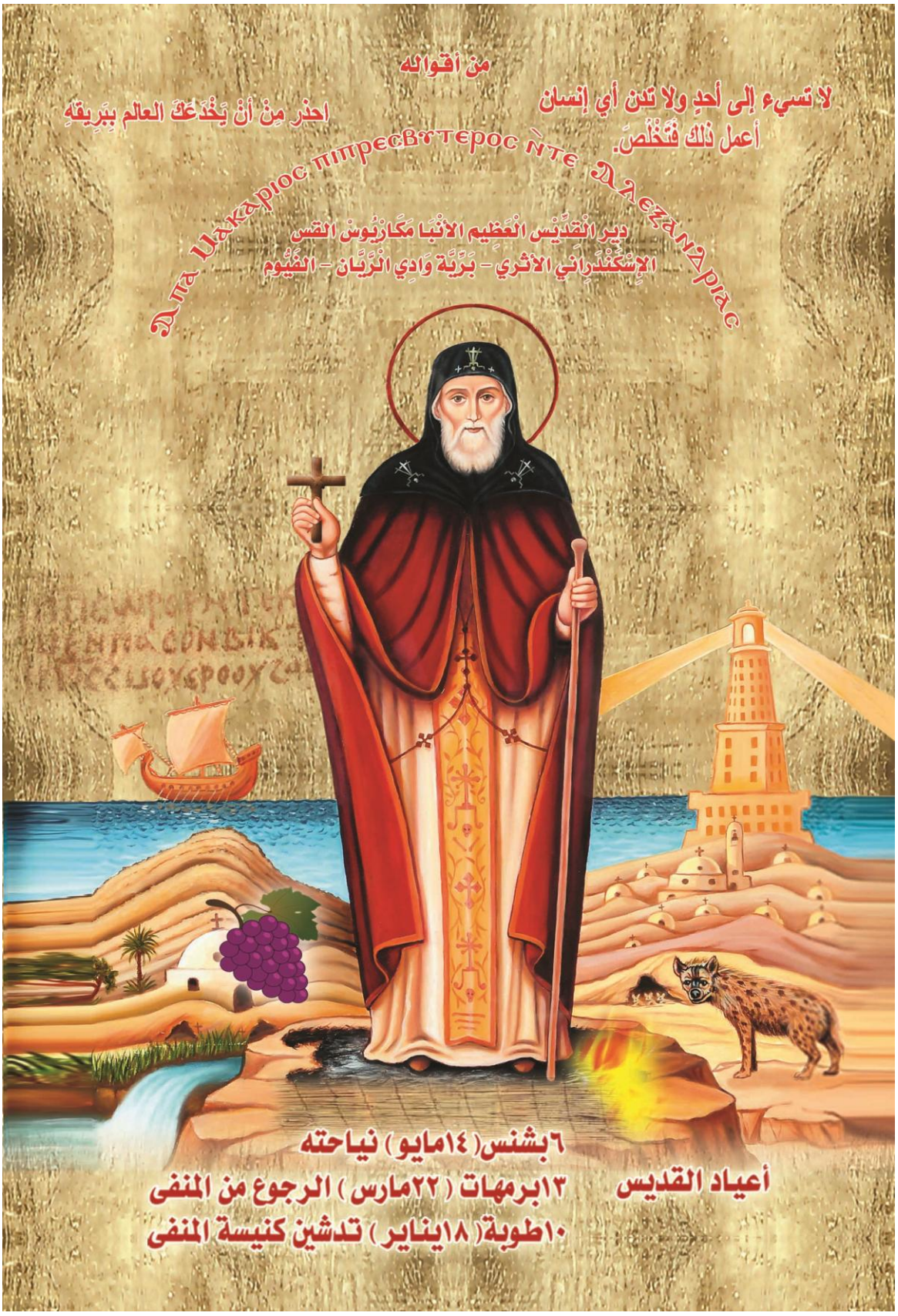

Ⲡⲓⲁⲅⲓⲟⲥ ⲡⲓⲙⲓⲱϯ ⲁⲛⲁ Ⲙⲁⲕⲁⲣⲓ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲣⲁⲕⲟϯ (Ⲁⲗⲉⲝⲁⲛⲇⲣⲓⲁ)

القِدِّيس العَظِيم أبَا مَكَارْيُوس القس الإِسْكَنْدَراني

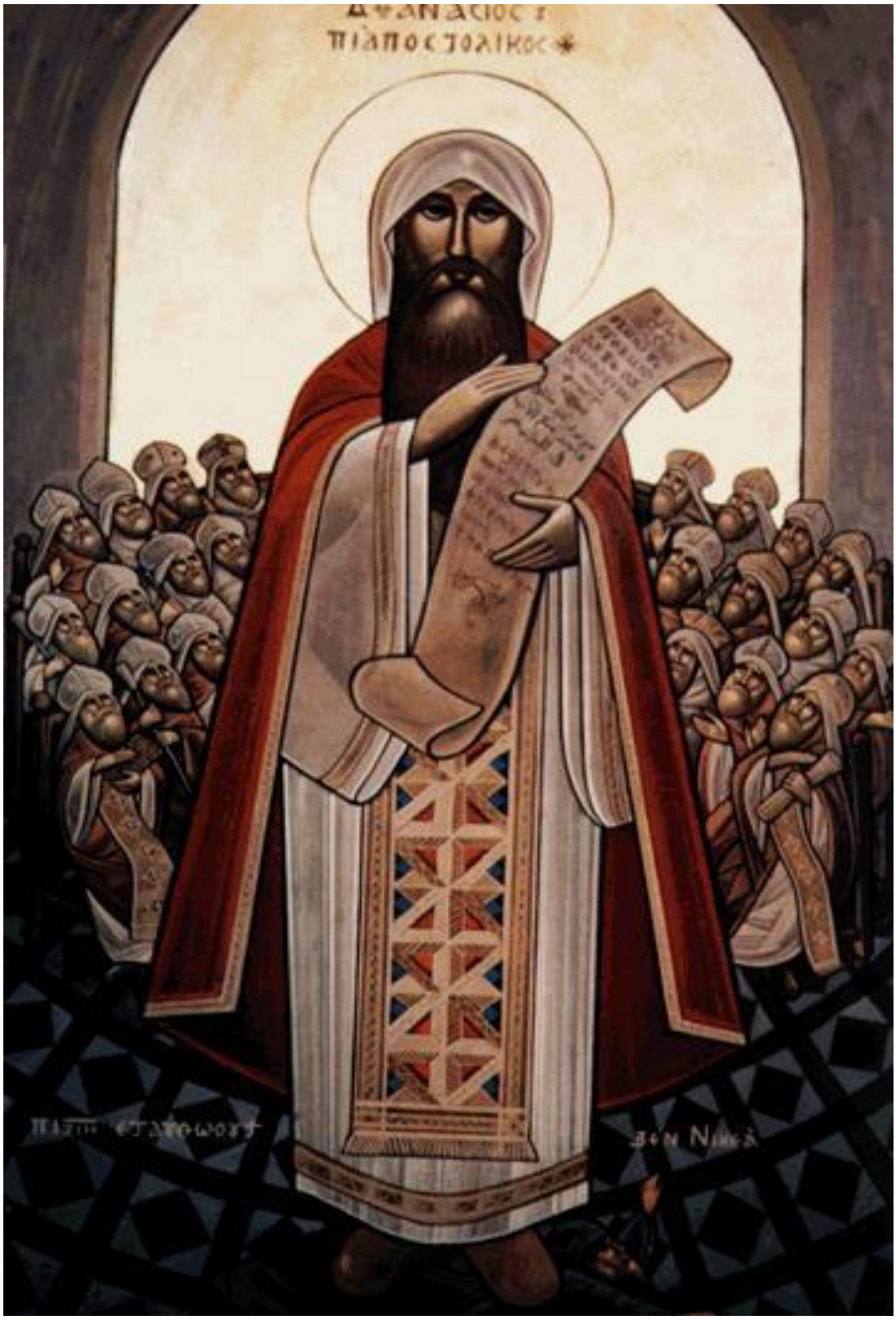

Πιὰτιος πινιϣϯ παπα Ⲁθαναcιος πιὰποcτολικος

الْقِدِّيس الْعَظِيم البَابَا أثَنَاسِيُوسْ الرَّسُولي

ⲡⲓⲁⲅⲓⲟⲥ ⲡⲁⲡⲁ Ⲓⲁⲱⲁⲇⲟⲥ ⲡⲓⲱⲁⲥ ⲛⲁⲩ ⲡⲓⲱⲁⲥ ⲣⲏ̅ ⲡⲁⲡⲁ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲣⲁⲕⲟⲧ
(Ⲁⲗⲉⲝⲁⲛⲇⲣⲓⲁ) ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲓⲱⲉⲧⲣⲉϥⲣⲱⲙⲓ ⲙ̀Ⲙⲁⲣⲕⲟⲥ.

قداسة البَابَا تَواضروس الثَّانِي الـ ١١٨
بَابَا الإِسْكَنْدَرِيَّة وبَطرِيَرك الكِرَازَة المَرقُسِيَّة

Ⲫⲙⲉⲧⲣⲉϥⲉⲧⲁϥⲛ̀ⲕⲟⲧ Ⲡⲓⲙⲉⲧⲣⲟⲡⲟⲗⲓⲧⲓⲥ ⲁⲡⲁ Ⲙⲓⲭⲁⲏⲗ ⲛ̀ⲧⲉ ⲁⲣⲭⲏ ⲡⲓⲙⲟⲛⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ. ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲁ̀ⲅⲓⲟⲥ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲡⲓⲉⲏⲅⲟⲩⲙⲉⲛⲟⲥ ⲉ̀ⲗⲓⲥⲉⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲙⲁⲕⲁⲣⲓ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲛ̀ⲁⲡⲓⲡⲣⲉⲥⲃⲩⲧⲉⲣⲟⲥ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲟⲓⲕⲟⲩⲙⲉⲛⲟⲥ ⲛ̀ⲁⲡⲓⲙⲟⲛⲁⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ.

المُتنيح المُطران الأنْبَا مِيخَائِيل (١٩٤٦ – ٢٠١٤م) رئيس الدير سابقًا، وقُدس أبونا القُمُص أليشَع المقاري الأب الرُّوحي ومُدبر الدير (١٩٩٥م – يناير٢٠٢١م).

Πενιωτ εθοταβ πιμαρτυρος απα Ⲉπιφανιος πιεπσκοπος νεν αρχι πιμοναστηριον απα Ⲙακαριος ⲛ̀τε πινιⲱϯ νεω πιοικουμενος ⲛ̀τε ναιμοναστηριον.

أبونا الطاهر الشهيد الأنْبَا إِبِيفَانِيُوس أسقف ورئيس دير القِدِّيس مَكَارْيُوس الكبير ومُشرف ديرنا (مارس - أكتوبر ٢٠١٤).

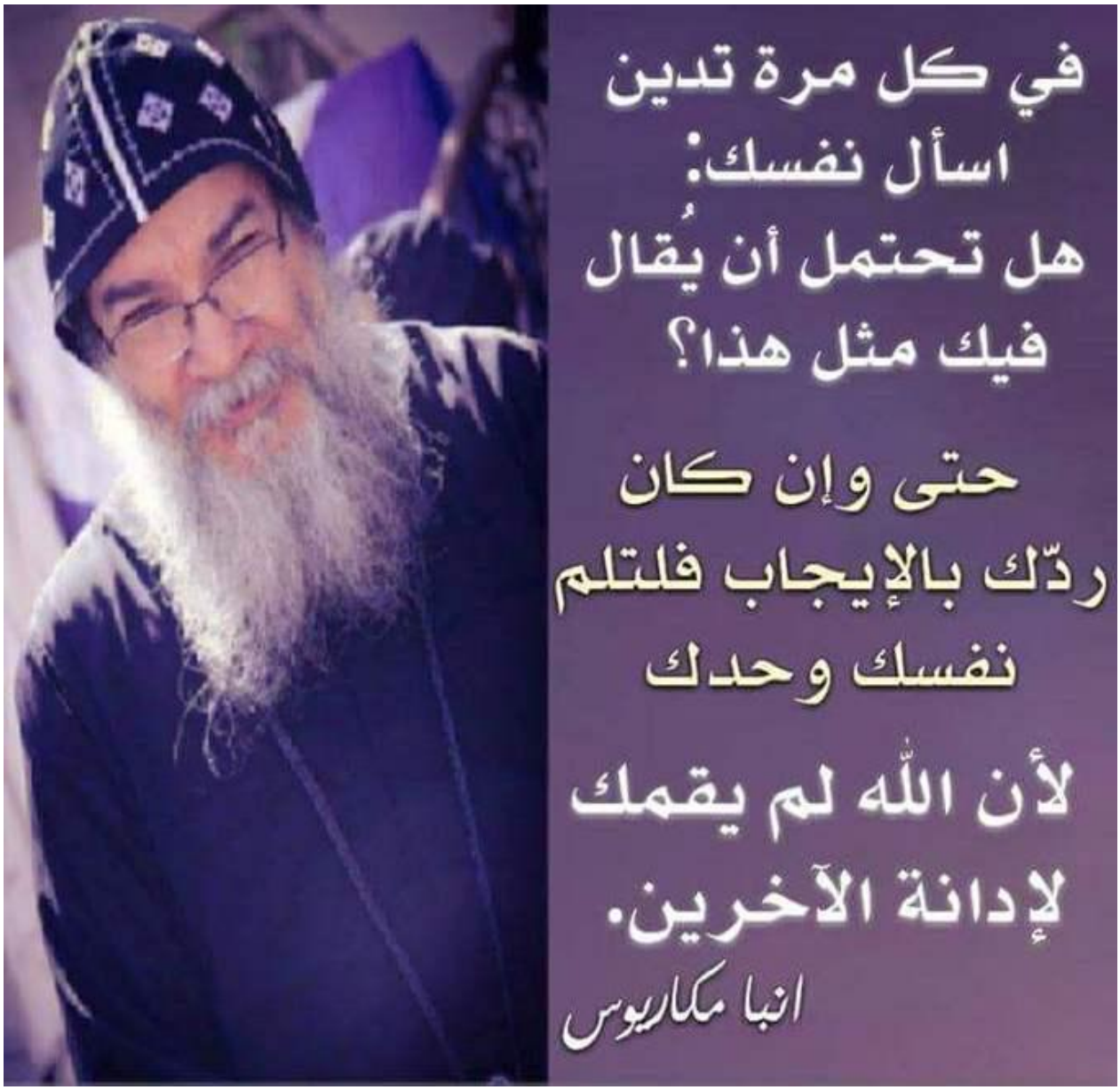

Πενιωτ εθοταβ απα Ⲙακαριος πιεπσκοπος ⲛ̀τε Ⲉλⲗⲏνια ⲛⲉⲙ πιοικουμενος ⲛ̀τε πιⲙοναστηριον πιⲁ̀ⲅιος ⲛ̀τε πινιⲱϯ απα Ⲙακαρι πιοτηβ ⲛ̀τε Ρακοϯ (Ⲁλεξανδρια) πιρεⲙ πιϲιο.

نيافة الحبر الجليل الأنْبَا مَكَارْيُوسْ أسقف عام المنيا وأبو قُرقاص ومُشرف الدير (أكتوبر ٢٠١٤ – مارس ٢٠١٨م).

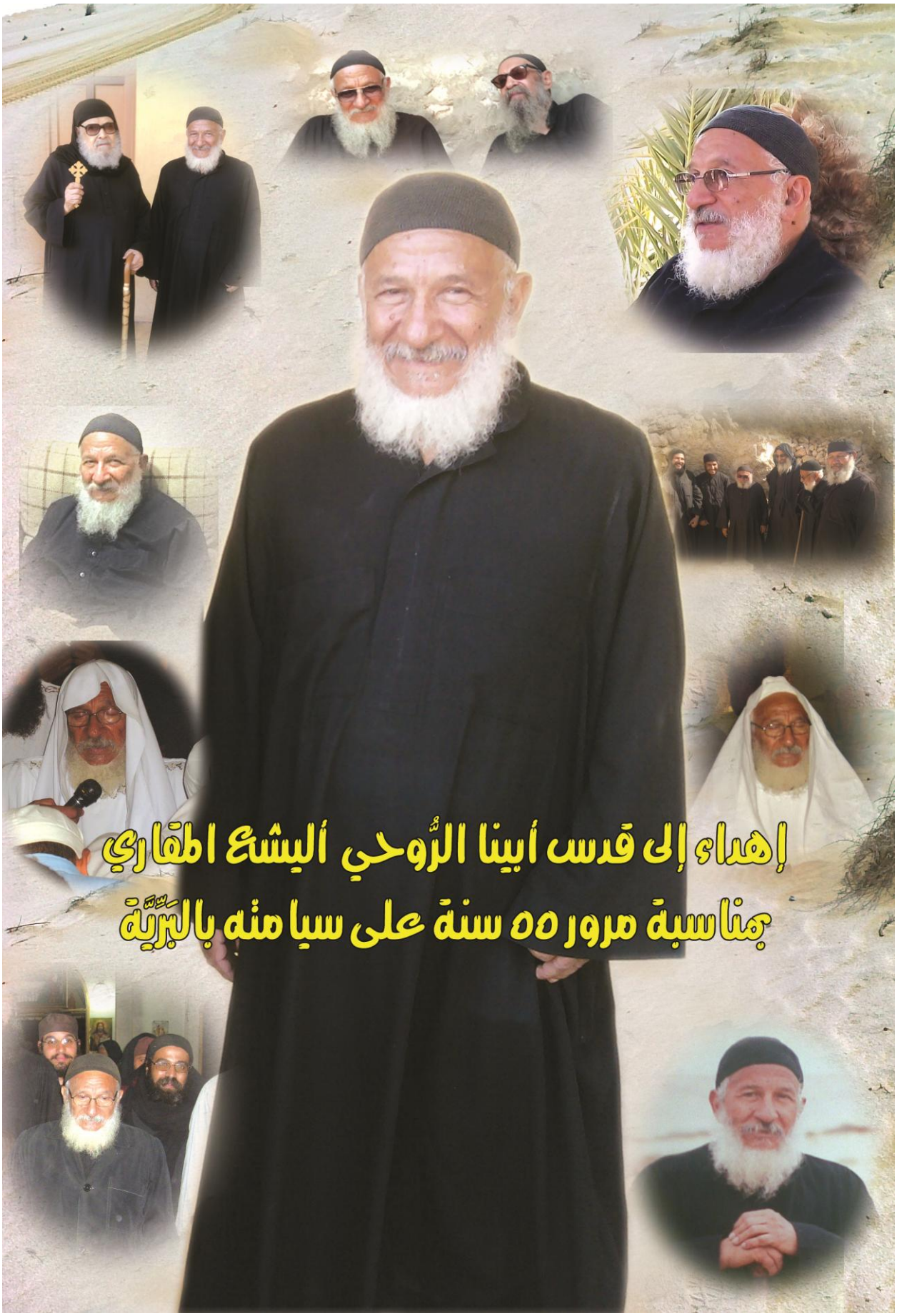
إهداء إلى قدس أبينا الرُّوحي ألبيشع المقاري
بمناسبة مرور ٥٥ سنة على سيامته بالبَرِّيَّة

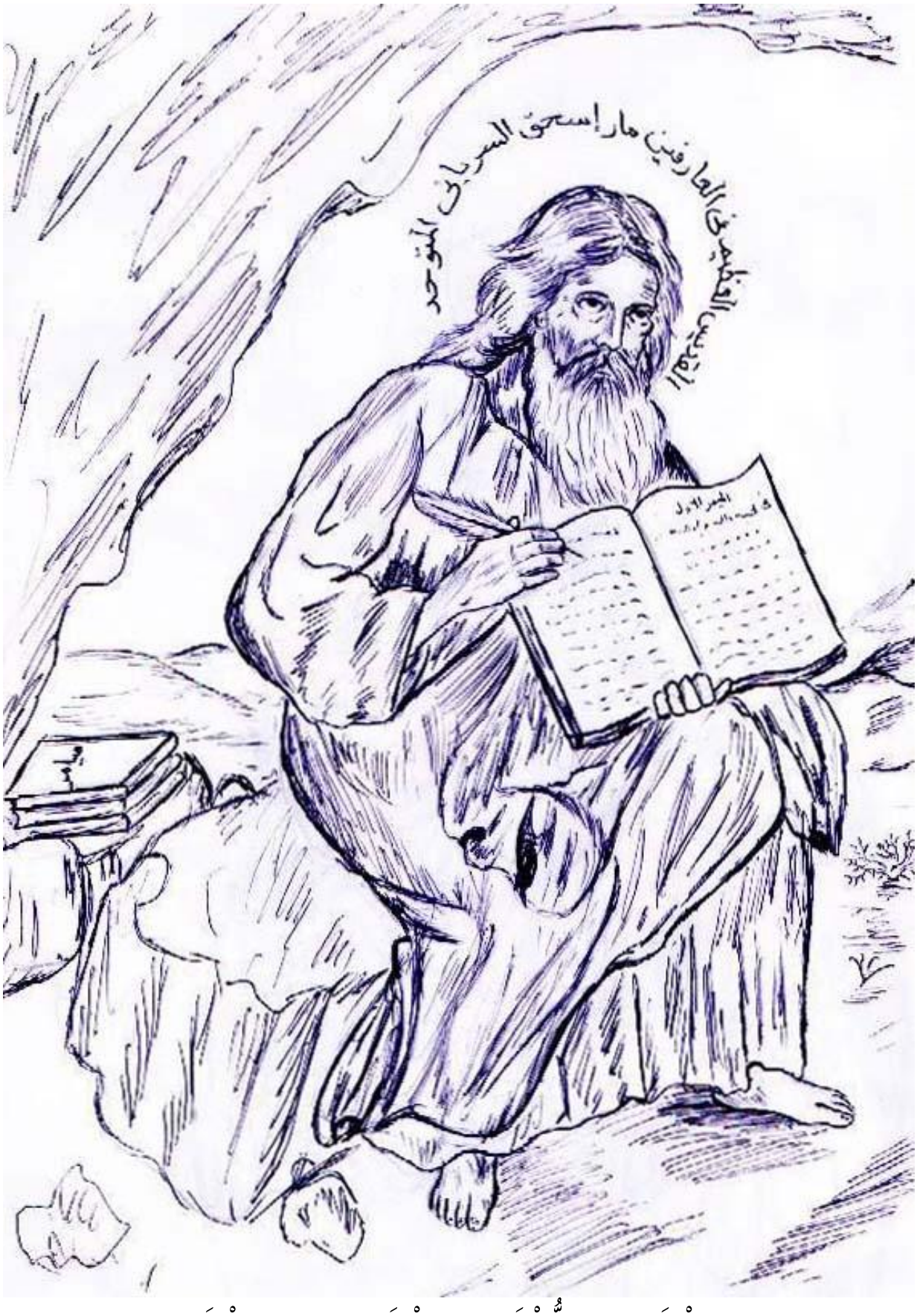

مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الْعَظِيم في الْعَارِفِين

بِاسْمِ الثَالوث الْقُدُّوس إِلهنَا
الآب وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ الإِله الْوَاحِد آمِين
مُقدمة لأبينا الرُّوحي القُمُص أَليشَع المقاري

القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني؛ الذي عشق حياة الوحدة، وعلَّم عن السكون، وعاش هو نفسه في وحدةٍ كاملةٍ، وأختبر أعماق الحياة المُنعزلة تمامًا عن العالم المُلتصقة بالله بشدةٍ، وكتب إختباراته التي إجتازها بنجاحٍ ليصل إلى الوحدة الكاملة مع الله فكانت هذه المَيَامِر المملوءة مِنْ الحكمةِ الرُّوحيَّةِ، والتي ترسم الطريق لِمَنْ يشتهي هذه الشركة القوية التي تربط النفس بخالقها، وهو يتدرج بالنفس حتى تصل للإتحاد بالله بتقديس العقل وتركيز الفكر حتى يصل الإنسان إلى الثيؤريا التي هيَ نظرة العقل للحقائق الإلهية المُطلقة، والتي ترفع النفس للشركة في الطبيعة الإلهية حتى تصير هيَ ذاتها نورًا في الرب. فمَيَامِر القدِّيس مارِ إِسْحَاق تعطي تعزيةً للسائر في طريق الملكوت وتقوده إلى ملكوت الله داخل النفس فتتلامس معه وتحيا فيه فهيَ نورٌ باهرٌ في الطريق الرهباني خاصَّة لِمَنْ يتتلمذ عليها وقد كانت مُرشدًا لآباء كثيرين سلكوا بمقتضاها وتكللت حياتهم بالمجد السماوي وصاروا لابسين الروح ممتلئين من القوة التي رفعتهم فوق العالم.

نسأل إلهنا الصالح أنْ يُعطي نعمة لكل مَنْ يقرأ هذه المَيَامِر لتكون بركة تقود حياته لمجد الشركة الأبدي مع الرب يسوع. آمين.

سبتمبر ٢٠١٦م

مَيَامِر

مارِ إسْحَاق السُّرْيَاني

الجزء الأَوَّل

الفهرس

مقدمة ١١
مُقدمة ١٥

المَيْمَر الأَوَّل :

فَ الإفراز الطبّ عَ ٢١
لأجل أنّه عار على الراهِبُ أنْ تكتشف أضرائل العلم ..... ء
فَ الثؤرًا ١٤
فَ ثؤرًا الإنسان الجوانّ ..... ء
فَ الصلاة ..... ء
ما هو حب الله وكيف تُقتنى وتنمى؟ ..... ء
فَ سرّ الملكون ..... ء
فَ الصلاة والمذبح 2

المَيْمَر الثَّانِي :

مرور ملاكو من الكول وع أسو سرائر أرواح الضرّي وأضرا الكول في سرّة الفسرك التي وي ال ارجر الوسطى فَ الريني وتحذّر من الإهوالف رَنوك انّ الوحوا في سركونف رلّ قال ربّ. ونّ ربّ إجاز عن الكتوب الكثرقي والفبإصرا على كل سرّ في بِرّ الغلي وخصف عام وجوا الوُشا والمُلي مبركي صرلاة القاس ترشكل مشتاق الفضل آمن..... ٣١
فَ الصبا لقسر ٣١
من أجل الصلاة ١
من أجل الميرام ١
من أجل المطانات 3
ضد الطفكر 3
فَ الإفرا الوسلكون 2

المَيْمَر الثَّالِث :

الائل تتوضح عض الأمور ١
فَ طرق الوحاة ومالا ولم قال ١
فَ اضا القوانّ ان تتّجع على السكان فَال هاو ١
فَ الأعمال التّتاب ربها اذا كان فلّ سلكون ٢

المَيْمَر الرَّابع :

فَ مع يالقتالذيتصرنعالشاطنبالأكار ٤

فَ مع يالأكارالرائِلتنقلمعيقالوينا ٤

فَ حرلفِكارالزنا ٤

المَيْمَر الْخَامِس :

فَ تِبْرُسْرةالكون 6

المَيْمَر السَّادِس :

فَ تتب الربحالحقوفِالعملها 2

يمنْهوالتحوايومعلمسْرته 2

فَ مع سْرلكون 23

المَيْمَر السَّابع :

فصل عرفبإضافيسوفِاصلاةالطاهرةالتبَّالطاش 6

فَ تِبْرُالكون ٩١

لالزلالأولى 6

لالزلالثاني 6

لالزلالثالث 6

الجزء الثَّانِي : ٩٥

الجزء الثَّالِث : ٢٦١

الجزء الرَّابع : ٤٠٩

الجزء الْخَامِس : ٥٢١

الجزء السَّادِس : ٦٣٧

الجزء السَّابع : ٧٢٩

تأمل : ٨١٠

صَلَوَات : القدِّيس مارِ إِسْحَاق الْعَظِيم في الْعَارِفِين : ٨١١

مُقدمة

مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني

+ يُعتبر القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني مِنْ أعظم مشاهير الكُتَّاب عن الرُّوحانية التي قدمتها الكنائس السُّرْيَانية. هذا فضلاً عن أنَّه أعظمهم تأثيراً، وذلك بفضل الترجمات المُبكرة لكثير مِنْ كِتَاباته إلى اللغتين اليونانية والعربية، ومنهما إنتقلت إلى لغات أخرى كثيرة.

+ وُلِدَ القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني (في منطقة قَطَر) في الخليج الفارسي في بداية القرن السَّابع الميلادي وهو سُرْيَانِي الأصل. وكانت (قطر) في هذا الزمان مركزاً هاماً للمسيحية، وقدّمت عدداً مِنَ الكُتَّاب المهمين في كنيسة الشرق. (مثل القدِّيس مارِ أفرام السُّرْيَاني).

+ ويقع إقليم قَطَر، الذي نشأ به القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني، على الساحل الغربِي للخليج الفارسي (وهو يُشكِّل الآن جزءاً من الأمَّارات العربية المتَّحدة). وهكذا أمضى مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني أيام شبابه بالقرب من البحر. وتتضمَّن كِتَاباته صوراً كثيرة مرتبطة بالبحر. كان يُحب الحديث عن السفن والربابنة والبحَّارة والعواصف، وعن الغوَّاصين الذين يبحثون عن اللآلِيء المقتدرين في صناعتهم. وهذا هو أحد أحاديثه بِهذا الشأن: [إذا ما رأيتَ سفينتك تبحر نحو الميناء، وأن نسمة هادئة ومناسبة لا تتوقَّف عن أن تَهب عليها، وأن تجارتك تعطي ثَمراً كثيراً بين يديك، فالأحرى بك أن تخاف لئلا تخضع حريتك فجأةً لبعض التغيّرات، ويعرض لك الإهْمال بسبب تبدُّل الحال، ولئلا يصير تعب الأسهار طوال الطريق باطلاً، لأن الظروف تدفعك إلَى الاسترخاء برغبتك][1]. وفي فقرة أخرى مشابِهة، يقول: [إن الغوَّاص إذا وجد لؤلؤة في كل صَدَفة يلتقطها لصار كل وَاحِد غنيّاً بسرعة! وإذا استطاع أن يُحضر لؤلؤة لَحظة قيامه بالغوص، دون أن يتعرَّض لِملاطمة الأمواج أو يتلاقَى مع سَمك القرش المفترس، ودون أن يصبِر على كتمان نَفَسه حتَّى يكاد يَهلك، ودون أن يحتمل الحرمان من الهواء النقي الذي يتمتَّع به كل أحدٍ، وينْزل إلَى العمق – لو كان مُمكناً أن يتفادى كل هذه المَخاطر، لكانت اللآلِيء تأتِي بكثرة وبأسرع من

[1] (ج- ـ م- .: 6

ومضات البَرق!][٢]. وهذه الفقرة الأخيرة تشير إلَى أن مار إسحاق كان على دراية بِمهنة الغوص. وربَّما كان هو نفسه، في أيام شبابه، قد مارس هواية البحث عن اللآلِيء في أعماق البحر.

+ كانت كنيسة قَطَر المسيحية في تلك الآونة خاضعة لكاثوليكوس الشرق. ونحو عام ٦٤٨م انفصل أساقفة قَطَر عن كاثوليكوس الفرس، ونتج عن ذلك انشقاق استمرَّ حتَّى عام ٦٧٦م، عندما قام الكاثوليكوس جيؤرجيوس بزيارة إلَى قَطَر وصالَحَ الأساقفة مع كنيسته. ومن المُحتمل أن يكون القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الذي كان معروفاً بسيرته النسكية الصارمة، قد رُسِمَ أسقفاً على نينوى في تلك المناسبة.

+ ترهب مع شقيقه في دير القدِّيس متَّى. أختير شقيقه لرياسة الدير لعلمه ونسكه. وقد صار القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني راهباً ومُعلماً في بلده في بداية عهده، وبعد أنْ أكمل قوانين المجمع (حياة الشركة في الدير)، انفراد في قلاية بعيدة عن الدير بضعة أميال.

+ لزم الصمت وانقطع عن كل الناس. ما كان يستجيب لرسائل أخيه الذي كان يدعوه للحضور إلى الدير. ولكنه إرتحل فيما بعد إلى جبال خوزيستان (بيت حزّايا) بسبب الإنقسام الذي حدث بين بطريركية سلوقية وأساقفة قطر. ولكنه عاد مرّة أخرى عند زيارة الكاثوليكوس جيؤرجيوس الأَوَّل للمنطقة سنة ٦٧٦م بعد مُعالجة الإنقسام. إلاّ أنَّه أخذه معه عند عودته ورسمه أسقفاً على نينوى، وكان ذلك في دير " بيت آبا " الْعَظِيم في شمال العراق. لكن القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني بعد مرور خمسة أشهر فقط، ترك أسقفيته، حيث حضر إليه إثنان يحتكمان إليه لأنَّ أحدهما طلب من الآخر أنْ يوفي ما في ذمته من المال له، فطلب المدين أن يمهله الدائن قليلاً، فأبى ذلك الغني الشقي، وتوعد بتسليمه للحاكم، فقال القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الأسقف : إنَّ الإنجيل المقدَّس يأمر بألا تطالب مَنْ يأخذ حاجتك، فلا أقل من أن تصبر عليه، فأجاب ذلك الغني الشقي وقال : دع عنك كلام الإنجيل ! فقال القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني : إنْ كان لا يسمع كلام الإنجيل، فأي شيء جئت لأعمله ! أو لسبب يعلمه الله، كما تقول بعض المصادر. وإعتزل في جبال خوزيستان ليحيا في سيرة الوحدة بجوار المتوحدين الآخرين ثم إنتقل في شيخوخته ليعيش بالقرب من

[٢] (ج- ٦ م ١: ٢

دير "ربان شابور". كما تقول بعض المصادر. أو أنَّه ترك الأسقفية، وجاء إلى إسقيط مصر المقدَّس وقضى فيه باقي أيام حياته كما تقول بعض المصادر. بلغ أعلى درجات القداسة، مِنْ ثَمَّ صار مُعلماً ومُرشداً وميناء خلاص لكثيرين.

+ أمَّا عن يوم نياحته فهو غير معروف؛ وقد جاء في أحد المصادر أنَّه فقد بصره في أواخر أيامه. وفي مصادر أخرى أنَّه إعتزل في برية الإسقيط، حتى نياحته.

+ أمَّا الوثيقة السُّرْيَانية الغربية فتحتوي بيانات مُماثلة : وتُشير بوجه خاص إلَى أن تلاميذه كانوا يكتبون تعاليمه بعد أن فقد بصره.[وكانوا يدعونه ديديموس ثانِي. وقد كان وديعاً ومُحباً ومتواضعاً، وكانت تعاليمه شيِّقة ومَحبوبة. ولَم يكن يأكل سوى ثلاثة خبزات كل أسبوع مع بعض الخضروات، ولَم يذق أبداً أي طعام مطبوخ. وقد كتب سَبْعةً أجزاء ظلَّت معروفة حتَّى هذا اليوم تتضمَّن تعاليماً تقطر حلاوة].

+ ويبدو أنَّ كِتَابات القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الكثيرة كانت حصيلة أيام شيخوخته؛ وهيَ بذلك تعود إلى العقد الأخير مِنَ القرن السَّابع. وتقول إحدي سيره إنَّه كتب خمسة أجزاء في تعليم الرهبان. فإنْ صح هذا الكلام، يكون جزء كبير مما كتبه قد فقد؛ لأنَّ ما وصلنا مما يتحقق نسبته إليه ينقسم إلى جزئين فقط. وهذان الجزءان قد جُمعا معاً في كِتَاب وَاحِد بعد نياحته. والجزء الأَوَّل هو الذي لاقى إنتشاراً واسعاً ونُسخت منه فصول كثيرة بواسطة الرهبان السُّرْيَان الأرثوذكس، إلى جانب أولئك المنتمين إلى كنيسة الشرق. وبالمثل، فإنَّ الترجمة اليونانية التي قام بها الرَّاهِبُان اليونانيان (أبراميوس وباتريكوس) في دير مار سابا في القرنين الثامن والتاسع، كانت تتألف من فصول مأخوذة مِنَ الجزء الأَوَّل.

+ وقد نُشر النص السُّرْيَاني الكامل للجزء الأَوَّل سنة ١٩٠٩م بواسطة الأب **Paul Bedjan**، الذي لم يكن يعرف الكلل في جهاده لنشر النصوص السُّرْيَانية. ومِنْ هذا النص قدم **A. J. Wensinck** ترجمته الإنجليزية المشهورة سنة ١٩٢٣م، ويشمل الجزء الأَوَّل إثنين وثمانين مقالاً منفصلاً.

+ وكان الأب **Bedjan** قد عثر على مخطوطة فريدة للجزء الثَّانِي ونشر منها مجموعة صغيرة من المقتطفات التي إستطاع أنْ ينسخها عن المخطوطة. ولكن للأسف فقد إختفت هذه المخطوطة بعد ذلك. ثم اكتُشفت حديثاً مخطوطة أخرى كاملة تحوي هذا الجزء الثَّانِي في مكتبة **Bodleian** بأكسفورد. والجزء الثَّانِي يشمل

أربعين مقالاً، منها مجموعة المقالات المطولة المعروفة بإسم "رؤوس المعرفة" التي وصفها الشخص الذي قام بتجميعها لأول مرّة بقوله إنَّها تحوي معاني روحية عالية ومعرفة كاملة وأفهاماً عجيبة كثيرة وأسراراً عظيمة مناسبة لفرح وبهجة النفس ونافعة لنموها الرُّوحي. (وهذه هي المقالات المترجمة هنا، ما عدا المَيْمَر الثَّالِث الذي لم يترجم إلى الإنجليزية).

+ وبالإضافة إلى هذه المقالات يُنسب أيضاً إلى القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني"كِتَابات النعمة"، وهو يشمل مجموعة من سَبْعةً مقالات مئوية (أي أنَّ كل مقال مركب مِنْ مئة قول) وتسمى centuries، في مواضيع مختلفة عن الحياة الرُّوحية. وهي لم تُنشر بعد كاملة، كما ولم يتم التحقق من صحة نسبتها إلى القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني.

+ في عام ١٩٨٣م إكتشف العالِم S. Brock مَخطوطة سُرْيَانِية في مكتبة بودليان بِجامعة أكسفورد تتضمَّن مَجموعة مِنَ المَيَامِر ورؤوس المعرفة للقدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني، وقام بنشرها بإسم الجزء الثَّانِي. ثُمَّ نَشَر ترجَمة إنجليزية لَها في عام ١٩٩٥م، لَم يضمِّنها المَيْمَر الثَّالِث، وهو عبارة عن أربعة مقالات مئوية عن رؤوس المعرفة، وهذه التَرجَمة الإنجليزية التي ينقصها المَيْمَر الثَّالِث هي التي أُخذَت عنها التَرجَمة العربية (عام ٢٠٠٠م) بإسم الجزء الْخَامِس. ثُمَّ صدرت تَرجَمة فرنسية كاملة للمخطوطة في عام ٢٠٠٣م للأب André Louf ، وهي التي أُخذَت عنها التَرجَمة العربية الحالية (عام ٢٠٠٥) للمَيمَر الثَّالِث الذي يحوي مقالات رؤوس المعرفة بإسم الجزء السَّادِس.

+ وقد وُجِدَ في الجزء الرَّابع من مَخطوطة دير القدِّيس مَكَارْيُوسْ الكبير ببرية شيهيت[٣] (٣٦ مَيَامِر) مَجموعة من ثلاث مقالات فقط من رؤوس المعرفة تتضمَّن ٩٦ فصلاً فقط منتخباً من المَجموعة الأصلية مع بعض فصول أخرى لَم ترِدْ في المَخطوطة السُّرْيَانية، مِمَّا يُشير إشارة واضحة إلى أنَّ هناك أجزاء أخرى باللغة السُّرْيَانية لَم يتم العثور عليها بعد.

وبالفعل فقد عثُر الأب S. Chiala مِنْ دير Bose على جزء جديد في مكتبة الأسقفية الكلدانية بطهران، جاري العمل في دراستها تَمهيداً لنشرها باسم الجزء الثَّالِث.

---

[٣] القمص منّا الملقاري المتوحا.

+ كذلك وُجِدَ في الجزء الأَوَّل من المَخطوطة العربية ١٧ فصلاً وردت في المَجموعة المُتَرجَمة حالياً. وسوف نورد في نِهاية الكِتَاب جداول تتضمَّن أرقام هذه الفصول وما يُقابلها في التَرجَمة الحالية.

+ ويُلاحَظ أنَّه تُوجَد في نِهاية بعض الفصول "إيضاحات"، يُرجَّح أنَّها لبعض النُسَّاخ القدماء، أُدرجَت فيما بعد ضمن النص الأصلي للمقالات.

+ والتَرجَمة الحالية أَخذَت الفصول التي وردت في المَخطوطة العربية كما هي دون تغيير إلاَّ في بعض المواضع التي إستلزم الأمر توضيح مضمونها، وذلك بإعتبار أنَّ التَرجَمة العربية القديمة عن السُّرْيَانية قد تكون أكثَر دقَّة من التَرجَمة الفرنسية الحديثة التي أُخِذَت عنها بقية التَرجَمة الحالية.

+ ويُسمِّيه يُوسُف حزايا (أي القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني)، في القرن الثامن: "الشهير بين القديسين". ومؤلِّف سُرْيَانِي آخر يتكلَّم عنه كما عن "معلِّم ومُرشِد جَميع الرهبان وباب خلاص للعالَم كله". وخلال القرن الحادي عشر أصبح معروفاً عند الشرقيين الناطقين باليونانية، بفضل ترجَمة كِتَاباته، ففي مَجموعة "Evergetinos" المشهورة للنصوص النسكية، تجد مقتطفات من تعاليمه مكاناً مساوياً لكِتَابات مشاهير الكِتَاب البيزنطيين القدماء.

+ وهكذا أصبح هذا القدَّيس أحد الآباء القديسين في الكنيسة الأرثوذكسية – وهي ظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ مسيحية الشرق. وأصبح يُقام تذكار القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني أسقف نينوى في ٢٨ يناير (حسب التقويم القديم) في نفس اليوم الذي تُعيِّد فيه الكنيسة للقدِّيس أفرام السُّرْيَاني.

+ وقد تتلمذ على كُتُبه قداسة البابا كيرلس السَّادِس، وقد نسخه بنفسه على ضوء شمعة في مغارته وعلى ضوء لمبة الجاز أربعة مرّات.

+ قال عنه قداسة البابا شنودة الثَّالِث: هو أكبر أستاذ كتب في الوحدة في تاريخ الرهبنة كلها.

+ وقد تتلمذ على كُتُبه أيضاً الأب الراهب القمص مينا المقاري المتوحد، وقد قام بالترجمة والنسخ بنفسه على ضوء شمعة وعلى ضوء لمبة الجاز في مغارته بدير القدِّيس مكاريوس الكبير ببرية شيهيت.

+ كما تتلمذ على كُتُبه الكثير من الرهبان في جميع الأدْيِرَة، في بلادنا مصر، وفي السُّرْيَان أيضًا....

+ وقد ترك لنا (أبديشو) الذي من نينوى، وهو أحد كِتَاب القرن الثَّالِث عشر، قائمة بالكِتَاب السُّرْيَان الشرقيين يذكر فيها سَبْعةً أجزاء للقدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني (عن التَدْبِير الرُّوحانِي، والأسرار الإلَهية، والدينونة، والعناية الإلَهية).

المَيْمَر[٤] الأَوَّل

في الإفراز الطبيعي

+ الصورة الآدمية (أي الجوهر الإنساني) فيها حركات وإفرازات ومشيئات وأنواع مختلفة من أعضاءٍ وأفكار وترتيب الجسد والنفس والحواس.

+ الجسد فيه العين والأذن والفم واليدان. والإنسان الجواني فيه حواس وأفكار كالأعضاء في الجسد. وفيه ضمير وفكر وتمييز وفهم وعقل وذهن، وفيه أيضاً إرادة وحرية. وكل هذه أعمالها معروفة، وكلٌ يتسلم من الآخر، وجميعها تشارك في عملٍ وَاحِد.

+ أول جميعها هو الضمير، والثَّانِي هو الفكر، ثم التمييز والفهم والعقل والذهن والمشيئة. عمل الضمير هو: أنْ يُضمر بما يكون. عمل الفكر: هو إنْ كان ينبغي أنْ يكون الشيء أم لا. عمل التمييزهو: أنَّ الذي يُعمل لا يفسد. عمل الفهم هو: أنْ يكون العمل حسناً. عمل الإرادة (المشيئة) هو: أنْ توافق على العمل (أو لا توافق). وهذه كلها قواتها معروفة وأفعالها مفروزة.

+ قد يُضمر الإنسان ولا يفكر، وهناك مَنْ يفكر ولا يفهم. كذلك هناك مَنْ يريد ولا يميز، وآخر يميز ولا يريد. وهناك مَنْ ينظر الشيء أنَّه حسن وما يريد أنْ يقتنيه.كذلك هناك مَنْ فيه حكمة وليس معه تمييز، أو مَنْ هو فهيم وما له تَدْبِير. وقد يوجد مَنْ يُضمر ولا يفكر، أو يفكر ولا يُريد.

فعل الإفراز هو أنْ يميز الجيد مِنْ الرديء، ويفاضل بين الشيء والشيء. فعل الحرية موضوع بين الحياة والموت، وبين البر والإثم.

+ الإنسان ما دام هو جسدانياً أو نفسانياً، فهو مفتقر إلى الحواس، فإذا بلغ إلى الرُّوحانية بطل إحتياجه إليها. لأنَّه حيثُ يكون روح الربُّ توجد الحرية.

+ إذا أراد الضمير أنْ يبني بيتاً فهذا هو فعل الضمير، ومنه (يسأل) الفكر إنْ كان ينبغي أنْ يكون ذلك أم لا، والإرادة هيَ التي تجزم وتقطع في الأمر. أمَّا ماذا يكون وكيف فهذا يُدعي معرفة، وفي أي وقت يُعمل هذه سياسة، أمَّا التمييز فهو الذي يعطي مقدار الشيء كيف يكون، والفهم هو الذي يهتم ألاّ يصير فيه عيب.

+ فكر الله في خلائقه لا يبدأ ولا ينتهي. الملائكة والنفوس والشياطين بدأوا وما ينتهون. (أجساد) الناس والعالم المحسوس بدأوا وينتهون. الله المسجود لهُ لا بدء له ولا نهاية. هذه الأربعة تُعرف بالمبدأ وبالمنتهى.

---

[٤] مَيمَر = مِيمْرا = مقالة أو عظة أو خطاب أو نص أو آية.

+ جعل الله الغضبية في الطبع لتكون إناءً للغيرة (الصالحة) لا لكي نصنع بها السخط ونؤذي (الآخرين) وننتقم لأنفسنا، بل لكي نقيم بها الحق. ووضع لنا الفم لكي نُبارك ونُسبِّح، لا لكي نلعن ونجدِّف. ووضع فينا العين لكي ننظر الأشياء ونشكر الله الخالق وليس لكي نشتهي رديأً.

+ إنْ قال أحد: لماذا لم يجعل الله كل إنسانٍ حكيماً؟ فليميِّز أنَّه ما ينبغي أنْ تكون الأرض كلها ينابيع.

لأجل أنَّه عار على الرَّاهِبُ أنْ يكتفي بفضائل العلمانيين :

+ عار عظيم للمتوحد الذي يَعِد بكمال السيرة ثم يكتفي بفضائل العلمانيين. ولومٌ عظيم ومحقرة في حقه أنْ يوجد تَدْبِيره مساوياً لتَدْبِير مَنْ هو خائف مِنْ الله وبار ومهتم بعمل البر وهو علماني متزوج. لأنَّه إنْ لم يكن الرَّاهِبُ مرتفعاً عن جميع الجسديات، ويشخص كل وقت في الله بالتَدْبِير في السكون، لا يُعرف أنَّه أفضل مِنْ العلماني البار. لأنَّ العلمانيين الفضلاء يعملون الفضائل الظاهرة بأجسادهم وبالصدقة، ولكنهم لا يحسون بالتَدْبِير الخفي الكامل الذي للمتوحدين.

+ وينبغي للراهب أنْ يعرف أنَّه كما أنَّ النفس بطبيعتها أفضل مِنْ الجسد، كذلك فالتَدْبِير الخفي بالسكون هو أفضل مِنْ تَدْبِير العلمانيين الظاهر. وكما أنَّ تَدْبِير الملائكة أفضل مِنْ عمل الناس، كذلك تَدْبِير العقل بالسكون هو أفضل مِنْ تَدْبِير الرهبان بالمجمع ومِنْ فضائلهم التي تشبه فضائل العلمانيين الأبرار.

+ وكما أنَّ حب الله أرفع وأشرف مِنْ حب الناس، كذلك عمل المتوحدين هو أفضل مِنْ عمل العلمانيين الصديقين. لأنَّ العلمانيين بمحبة الناس يُرضون الله، أمَّا الزُهَّاد فما يشتهون شيئاً مما في السماء أو على الأرض، فهم يشتاقون إلى الله وحده؛ لأنَّهم بإرادتهم قد تعرُّوا مِنْ كل شيء، وألبسوا ضميرهم نظر الله وحبه. لهذا فإنَّ عمل السكون هو عال وأفضل مِنْ جميع الفضائل.

+ وغرضنا مِنْ حفظ السكون ليس هو لأجل تكميل القوانين، بل قصدنا مِنْ حفظه إنَّما لأجل عمل القلب. لأنَّ تكميل القوانين يتخلَّف بسبب ضعف الجسد، وأمَّا عمل القلب فينمو ويزيد بالجلوس في الوحدة.

+ وعمل القلب ينقسم إلى أربعة أنواع: حزن القلب، وإتضاعه، وهمّه لأجل خطاياه السابقة، وخوفه مِنْ الزلل والسقطات الحادثة له. لأنَّه بهذه تتربَّى صلاة القلب، أي بالحزن والإتضاع والهذيد بالفضائل. أمَّا الهذيذ بالفضائل فهو تحريك (أي تأمل) حُسن تَدْبِير القدِّيسين؛ لأنَّه مِنْ هذا النوع مِنْ الهذيذ تتيقظ النفس حتى تتزين بفضائلهم، ويأخذ الرَّاهِبُ شبههم في ذاته، ويتمثل بهم في الصبر والفرح بالضيقات والتجلد في الوحدة وعفة الأعضاء والإزدراء بشهوة الجسد والإهتمام الدائم بالطهارة، وأنْ يكون غير محسوب بالكلية؛ لأنَّه مِنْ هذا يتولد فيه عدم

الغضب، الغضب غير الحريّ (غير اللائق) الذي هو دليل العظمة الكامنة داخل النفس.

+ ومثلما تتصوّر فضائل القدِّيسين في النفس، فإنَّها بغير عناء تتبع مثال صبرهم؛ لأنَّه بهذا تتنقَّى صلاتنا مِنَ الإنحلال والملل. فمِنْ (حالة) الطياشة في الأفكار (يتبدل الوضع) فتأخذنا غيرة فضيلتهم، وكم مِنْ مرّة يقبل الله صلاتنا.

+ وهذا هو القصد مِنْ عمل السكون: أنْ يتقوَّم به العقل ويتشجع ويتطهر ويطرد الكسل، حتى تكون شهوته في كل أوقاته في مفاوضة الحسنات؛ وبعدم تذكار العالم تملك فيه حرارة دائمة بذكر الفضائل، وهكذا يتدرج إلى نقاوة عمل العقل الذي هو العمل الفاضل.

+ ومِنْ هذين الأمرين (أي مِنَ الهذيذ بفضائل القدِّيسين وعدم تذكار العالم) يقتني الرَّاهِبُ أمرين فاضلين: الأَوَّل هو التفرُّس في خلائق الله، والتعجب بالسياسة الإلهية فينا مِنَ الأَوَّل إلى الآخر. والأمر الثَّانِي هو الهمُّ (الإهتمام)الفاضل بالله وحده هذا الذي يجذب للدهش في طبيعته على الدوام(الدهش هو: إختطاف العقل حيثُ يصبح هائماً في مجد السماويات)، وضميرٍ عالٍ متحكم بالرُّوح، ومعرفة فاضلة، وإيمان سري متضاعف بإهتمام العالم الجديد وبالهذيذ بالمزمعات، وإنتقال دائم (إلى العالم الجديد) بسَفَر الضمير، وظهور أسرار في الذهن تتغير بحسب المنازل فيرتقي (مِنْ درجة إلى أخرى) بغير إرادته. وينتهي أمره أنَّه يتحد بالأزلية الإلهية، ويرجع العقل إلى العلة الأَولى (أي إلى الله) في كمال تَدْبِيره. ويتفرّس في ترتيب حب الخالق وفي إرادته الصالحة للناطقين. وهنا تبطل الشكوك ويبطل الخوف.

+ إلى هذا الكمال ينتهي قصد تَدْبِير الوحدة والعمل في القلاية. لأنَّ الجسد يضعف والضمير يتشبب والحواس تبطل والمعرفة ترتفع والأفكار تشرق بالنقاوة، والذهن يطير ويرتفع إلى الله بتصوّره، والضمير ينقبض مِنَ العالم ويطيش بالله بهذيذه، ومع أنَّ الفكر مشتبك مع الجسد لكنه لا يثبت معه بل تكون مفاوضته دائماً في العُلى فيما هو أفضل. الجسد إنحطَّ وكفَّ، والقلب يُسَرُّ بالفرح. ومِنْ دون المعرفة لا يرتفع القلب.

صلاة : أيُّها الربُّ يَسُوع الْمَسِيح أخرجني مِنَ الظلمة إلى النور لكي أسبّحك تسابيح القلب لا الفم.

النوع الثَّالِث : في الثيؤريا: Θεὼρεια " رؤية الله " أي (النظر الرُّوحي) :

+ الذي قد بلغ إلى تَدْبِير الثيؤريا ومعرفة الرُّوح ينبغي له جداً الوحدة والسكون في موضع سكنه ويكون منقطعاً مِنْ كل أحد، لكي يقتني سكوناً بسكون، وبالأكثر في الليل مثلما أرانا سيدنا أنَّه كان ينطلق في الليالي إلى موضع قفر، وذلك لتعليم أبناء النور المزمعين أنْ يسيروا في أثره بهذا التَدْبِير الجديد. لأنَّ المفاوضة الفردية مع الله هو عمل الرُّتب السمائية، الذي ظهر للناس بإبن الله لمَّا نزل إلى عالمهم وأراهم عمل غير المنظورين؛ لأنَّهم يتحركون بتمجيد الله بلا فتور، ويرتفعون بتصوّر الثيؤريا (أي بالنظر الإلهي) إلى طبع الثالوث المسجود له، ويثبتون في الدهش بنظرة عِظم ذلك المجد الذي لا يُنطق به، وبهذا التَدْبِير فإنَّ جميع البشر عتيدون أنْ يكونوا في القيامة العامة.

في ثيؤريا الإنسان الجواني :

+ كلمَّا يدنو الإنسان إلى معرفة الحق، ينقص فعل الحواس ويزيد صمت الإفراز دائماً. وبقدر ما يقترب مِنْ تَدْبِير العالم بعمله تكثر فيه يقظة الحواس وتلذذها. لأنَّ تَقلُّب هذه الحياة قد أُعطيَّ لخدمة الحواس، أمَّا التَدْبِير المزمع فهو لعمل الرُّوح. بل إنَّ الحواس في هذا العالم لا تحتمل إستعلان ذلك السر، فتتخلف عن عملها مثلما تكون أثناء النوم. فالحواس ليست هيَ التي تستقبل ذلك السر الذي يُعطى كعربون، بل الإنسان الداخلي. يُعطيك الله أنْ تعرف قوة العالم المزمع، فبهذا تتخلّف عن جميع إستعمالات هذا العالم.

النوع الرَّابع : في الصلاة :

+ قصد هذه المقالة أنَّه ينبغي لنا أنْ لا نبطل أي نوع مِنْ الأنواع الجسدانية اللائقة بالصلاة برأيٍ فاسد ولو أننا نرتفع بتَدْبِيرنا إلى علو الأعالي؛ وأعني بهذا القيام في الخدمة (أي المَزَامِير) والسجود والميطانيات. لأنَّ خدمة المَزَامِير تخلِّصنا مِنْ شرور كثيرة، وبها نبلغ إلى موهبة طهارة الصلاة وإلى نظرة العقل التي هيَ الأفهام بالرُّوح؛ لأنَّ هذا هو كمال الخدمة وغاية كل ترتيب القوانين.

في ما هو حُبّ الله وكيف يُقتنى ومتى؟

+ حُبّ الله ليس هو شيئاً غير معروف يختلج (في القلب) بغير إفراز. كما أنَّه لا يُستطاع أنْ يتحرك في الإنسان مِنْ معرفة الكُتُب، ولا الإنسان نفسه متى أراد يقدر أنْ يُحب الله مِنْ معرفة القراءة وسِير الكُتُب. ولا حين يملك على العقل الإستحياء مِنْ تذكار عظمة الله ويخاف منه بإفراز خوف العبيد أو مخافة البنين ويتيقظ لعمل الفضيلة ولحرارة الصلاح والإحتراس مِنَ الأمور التي ينهى عنها الناموس، ولا بأنْ يغصب الإنسان ذاته قسراً بالجهاد والعناد لكي يتصوّر في نفسه حب الله. ولا مِنَ العادات والتحيلات البشرية؛ حتى ولا مِنَ النواميس والوصايا التي على الحب يستطاع أنْ يُحَب الله؛ لأنَّه مِنَ الناموس يتولد الخوف وليس المحبة. ولكن هيَ عطية ينالها الإنسان إذا ما قَبِل روح الإستعلانات، فتتجدد نفسه بحركاتها بحكمة الله التي تفوق العالم، ويبتدئ يحس بالله في ذاته أنَّه عظيم جداً. فبغير هذا لا يمكن أنْ يدنو إلى مذاقة المحبة المحمودة. لأنَّ الذي لا يشرب الخمر لا يسكر مِنَ الخبر على صفته، والذي لم يؤهل في ذاته لمعرفة عظائم الله لا يقدر أنْ يسكر بمحبته.

في سيرة السكون :

+ قبْل كل شيء ينبغي أنْ تعلم أنَّ تدابير المسيحية تنقسم إلى طرق كثيرة متنوعة، وذلك لمعرفة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح بعجز وضعف طبع بني البشر وكثرة إختلاف آراء المسيحيين، إذ

ليس الجميع يريدون أو يستطيعون أنْ يسلكوا في طريق الكمال التعبة العسرة لكي يدركوا بعمل الجسد وعرق النفس ذلك الشيء الذي مِنْ أجله أدركهم المسيح، أي أنْ يحبوه بالكمال بعمل وصاياه المحيية حتى إلى الموت مثلما أحبهم هو بالتمام، وأظهر حبه لهم بالفعل بكل تعب وتجربة إحتملها مِنْ أجلهم حتى إلى موت الصليب المُهين - فلهذا إستعمل معهم الرحمة، فوضع قدامهم طرقاً كثيرة وسبلاً مختلفة لكي الذي لا يقدر أنْ يسير في الطريق التعبة لأجل صعوبتها يسير في الأخرى لأجل سهولتها حتى لا يخيب أحد مِنَ المسيحيين مِنْ ميراث تنعم ملكوت السماء الذي أنْعم به عليهم بسفك دمه مِنْ أجلهم.

+ لأنَّ كل إنسان بحسب محبته لرَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، وبمقدار عمل وصاياه هكذا تكون مكافأته ويكون تنعمه. وقد قال رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح : «فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، يو١٤: ٢»، وقال مُعلمنا بولس الرسول: «لأَنَّ نَجْماً يَمْتَازُ عَنْ نَجْمٍ فِي الْمَجْدِ. هَكَذَا أَيْضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ، ١كو١٥: ٤١،٤٢». هكذا هيَ حياة الموتى كما قال الرسول. ولهذا قلنا إنَّه يوجد إختلاف كثير في سيرة المسيحية، فكل وَاحِد أفضل من رفيقة وأكمل.

+ تَدْبِير العلمانيين المسيحيين الحقيقيين شيء، وتَدْبِير المتورِّعين شيء آخر، وكذلك آخر هو تَدْبِير الرهبان الذين لا يتخذون نساء ولا يأكلون لحماً، وهم أقل مِنَ المتوحدين وأفضل مِنَ المتورِّعين. هؤلاء الرهبان يزرعون ويحصدون ويخدمون مَنْ يطرقهم؛ لأنَّ أدْيِرَتهم مبنية على قارعة الطريق. وهناك أيضاً تَدْبِير المتوحدين المبتدئين وهؤلاء هم سكان في مجامع شركة (كنوبيون)، ثم تَدْبِير المتوحدين المنفردين في القلالي ويحفظون السكون، وتَدْبِير المتوحدين الذي يحفظون سكون الأسابيع أي صوم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، وصوم الآباء الرسل، وصيام الأنبياء. وكذلك هناك قانون وتَدْبِير المتوحدين الذين يجلسون منفردين خارج المجامع وفي البراري والمغائر. وآخر هو تَدْبِير وسنن المتوحدين المتنقلين، كالذين كتب عنهم الأب إشعياء، وكالسَبْعةً الذين مضوا إلى الأب شيشوي. وآخر أيضاً هو التَدْبِير العالي الكامل الذي للسواح. ويقصر بنا الوقت أنْ نتكلم عن أشكال وتدابير هذه الرُّتب المُختلفة؛ لأنَّ كل رتبة منها تحتاج ميمراً ليظهر ما هو تَدْبِيره وما هيَ كيفية عمله.

+ في تَدْبِير المتوحد الذي يمسك سكون الأسابيع

+ والآن نتكلم عن تَدْبِير المتوحد الذي يمسك سكون الأسابيع، ولأي سبب كان الآباء - كل وَاحِد في زمانه - يأمرون الإخوة بالجلوس في السكون، ونُظهِر بعد ذلك ما هي منفعة السكون. تَعْلم أنَّ أيام القدِّيس مَكَارْيُوسْ ما كانت مثل زماننا نحن، إذ لو كانت أيامنا مثل ذلك الزمان الذي عاش فيه القدِّيسون لَما كانت هناك ضرورة تدعو الإخوة المبتدئين إلى الحبس أسابيع محدودة. لأننا نعلم من الكِتَاب الذي وضعه القدِّيس مَكَارْيُوسْ أنَّ الأخ المبتدئ لا يخرج مِنْ قلايته في وسط الأسبوع مطلقاً، ولا يزور أحدٌ أخاه. لكنهم في يوم السبت كانوا يخرجون مِنْ قلاليهم وقت العشاء، ويأتون إلى المجمع وهم صيام. لأنَّهم كانوا يتقربون عشية السبت طوال

السنة صيفاً وشتاء.

+ ولمَّا كان الآباء والإخوة يخرجون ويأتون إلى المجمع ليسمعوا القراءة، فالذي كان يتهاون ولا يحضر كانوا يقطعون عليه بحكمٍ صعب. وبعدما يتقرَّبون يدخلون إلى المائدة. وبعد الأكل يقفون في الصلاة ليلة الأحد ساهرينَ بلا نوم مِنَ العشية إلى باكر بخدمة المَزَامِير والتسابيح وقراءة الكُتُب وتفاسيرها وأسئلة الإخوة وإجابات الشيوخ ويترتبون منهم بالمواعظ. وما كانوا يعطون فرصة لا للشيطان ولا لأحد مِنَ الإخوة المُنحلِّين أنْ يتكلم كلمة تجلب خسارة لأحد، ولا أنْ يثلب أحدٌ رفيقه أو يحرك معه خصومة، أو أنْ يجلب أحدٌ ذِكر أي شيء مِنْ أمور العالم أو مِنْ سيرته الباطلة حتى لا يتأذَّى أحدٌ مِنَ الإخوة المحترصين.

+ فحتى وإنْ كان أحد يتأذى في قلايته، أمَّا مِنْ ضجر أو مِنْ قتال، فهو عندما كان يخرج إلى المجمع كان ينتفع بمنظر الآباء، ويحترّق بالغيرة كما بنار عندما ينظر أعمال الآباء ويسمع كلامهم ويشاهد فضائلهم فيتزود مما نظر وسمع بمنفعة عظيمة ومعونة في العمل والجهاد في حبسه. ورغم هذه المنفعة كلها التي تكون مِنْ إجتماعهم يوم الأحد، فمع هذا ما كانوا يسمحون للإخوة أنْ يخرجوا مِنْ قلاليهم وسط الأسبوع.

+ وأمَّا في زماننا هذا العادم مِنَ الإستقامة، الذي برد فيه الحب وتخلَّفت الحرارة وإنعدم التحفظ، فإننا كل وقت نخرج فيه إلى المجمع نوسق خسارة ليست بقَلِيلَة بسبب كلامنا الباطل، ولا تكون في صلاتنا وخدمتنا قوة. وإنْ كان فينا إخوة حريصون فإنَّ حرصهم طوال الأسبوع يتشتَّت بسبب الكلام الردئ الذي يسمعونه مِنَ المعتادين بالإنحلال. فالضرورة تلجئ الذين يهتمون بخلاص نفوسهم ويتشوقون لمحبة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح ولتكميل وصاياه المقدَّسة أنْ يداوموا الثبات في السكون كل وَاحِد حسب رتبته.

+ أولاً : يُبعد الإنسان ذاته، ويحدد لنفسه قانوناً : ألاّ يخرج مطلقاً مِنْ قلايته طوال مدة الأسبوع، ولا يسمح لأحد مِنَ الناس أنْ يعبر إليه، وإنْ أمكن ولا مِنَ الطاقة يتكلم مع أحد، حتى يأخذ لنفسه خبرة في جميع الضوائق التي تحدث له مِنَ الآلام ومِنَ الشياطين الملاصقين لعمل السكون الأسبوعي، ويميز الأفهام الرُّوحانية والتعزيات الإلهية التي تُعطى له بنعمة الله حسبما يليق بطقس عمل السكون الصغير الذي هو حبس الأسابيع. وبعد ذلك يتدرج إلى سكون أعلى مِنْ هذا، الذي هو سكون كل الأيام. وإنْ إستطاع وأراد فيكمل كل أيام حياته في السكون الكلي والإنقطاع الدائم حسب إرادة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح.

+ فإنْ كان أحد يحفظ سكون الأسابيع، ويعمل داخل سكونه بحفظ الحواس وقمع الأفكار كقدر قوَّته وحسب رتبته - لأنَّ الله لا يطلب مِنَ الإنسان أكثر مِنْ قوَّته - ولكنه عندما يخرج إلى المجمع يوم الأحد، يجد أنَّه لا يأتي إلى قدام ولا ينجح في الحفظ وفي الأعمال ولا في محبة الثبات في السكون بالقلاية، بل كم مِنْ وقتٍ يخسر مِنَ النظر والسمع، ولا يقدر أنْ يثبت في الحرص، فتكثر عليه المجاذبات والإنزعاج لأجل الأمور النافعة وغير النافعة، وينحط إلى

الإنحلال والكلام وبغض الثبات في القلاية، وتوسوس له الرخاوة أنْ يخرج ويدخل ويأكل ويشرب ويتحدث، فإنْ وجد ذلك فليسرع إلى السكون الكلي العادم مِنَ الدخول والخروج.

+ التوحد في الجبال والبراري :

+ وأمَّا قول الأب أوغريس تلميذ القدِّيس مَكَارْيُوسْ القس الإسكندراني في أمر الوحدة : «جيدة هيَ الوحدة والإنفراد»، مع بقية كلامه: «ولكن فليحذر الأخ الذي لا يقدر أنْ يثبت قبالة التجارب الحادثة عليه في السكون، وليخرج إلى المجمع لئلاّ يتأذى في عقله»، هذه الوحدة التي تكلم عنها ليست هيَ سكون الأسابيع، ولا السكون الكامل الذي يُمسك به البعض، بل إنَّه يقصد السكن في البراري والجبال الذي لا يليق لكل أحد إلاّ لأناس عارفين قد نجحت فيهم المعرفة، وتزايدت محبة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح في قلوبهم، وأقتنوا صبراً وإحتمالاً كثيراً.

+ لأنَّ ثلاث حروب صعبة تلتصق بالتَدْبِير المنفرد في القفر: الخوف المرعب في الليل، والضجر المُحزن في النهار، وضلالة الشياطين وطغيانهم. هذه الثلاث حروب تأتي على الإنسان في البراري؛ فإنْ كان جاهلاً غير مدرَّب، وليس فيه حب لرَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، وصبره قليل، وليس له مُرشد، فسريعاً ما يتأذى عقله. لأنَّ صعوبة هذه الحروب الثلاث لا تحصل للإخوة الذين في المجامع الذين يحفظون سكون الأسابيع، ولا لذلك الوسطاني، حتى ولا السكون الكامل. وإنْ حدثت (هذه الحروب) لأحد منهم يقدر المُرشد مع معونة الله أنْ يبطلها. ولهذا قال القدِّيس أوغريس تلميذ القدِّيس مَكَارْيُوسْ القس الإسكندراني: «إنْ لم ينتفع الأخ مِنَ الوحدة (في البراري) فليرجع إلى سكون الأسابيع في المجمع»، وإنَّما يفعل ذلك برأي المُعلم، وإذن المُدبر، وبمشورة الآباء، وينتفع بصَلَوَات إخوته. وإنْ لم يقبلوا منه في البداية فليداوم الطلبة إلى الله بحزن ودموع ليحرك في قلوبهم ما يليق بمنفعته. ولا ينبغي للإنسان إذا طلب شيئاً مِنْ رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، أو مِنَ القدِّيسين أنْ يظن أنَّه سوف ينال سؤاله سريعاً، بل عليه أنْ يُداوم على الطلب مدة، وبعد ذلك تُعطى له، ولا يظن أنَّه إذا تأخرت عنه الموهبة أنَّ طلبته ليست هيَ كإرادة الله.

+ وقبْل كل شيء يحتاج الذي يجلس في السكون إلى هذه الثلاثة أشياء: الغرض المستقيم، وتكميل خدمة الأوقات (صَلَوَات الأجبية)، والمُرشد. هذه الثلاثة أشياء لابد منها للمتوحد، وإنْ كان لا يقدر على الدوام أنْ يكمل قانونه في الصلاة لأجل ضعف جسده أو مِنْ أجل ضجر نفسه، فليكن مُحترصاً بغرضه (المستقيم) وبوجود المُرشد؛ لأنَّه إذا وُجدَ هذان الأمران فإنَّه لا ضعف الجسد ولا ضجر النفس يضر أو يعوق. كما قال مار أفرآم: «إنَّ طريقنا لا ينجح بدون المُرشد الذي قد وُضع مِنَ الله للذين يريدون أنْ يسيروا إليه. لأنَّه توجد معوقات كثيرة تولِّد الضلالة وتحير الذي يريد أنْ يمشي في طريق الفضيلة».

+ في الصلاة والهذيذ بالله :

+ ليس هناك تَدْبِير يقبض (يجمع) العقل مِنَ العالم وينجيه مِنَ الخطايا مثل الهذيذ الدائم بالله. هذا العمل عسر هو جداً وصعب، ولكنه خفيف ولذيذ. وأنت أيُّها الأخ، إذا كنت تريد أنْ تكون في الهذيذ الدائم بالله، الذي هو حجاب الباب أمَّام كل الأفكار الفاسدة، فإبدأ بكثرة الصَلَوَات على الدوام.

+ فالهذيذ الدائم بالله هو يجعلنا مداومين الصلاة. والصلاة أيضاً هيَ تحرك القلب للهذيذ بالله بغير فتور، وتجعل العقل سماوياً بالحركات الفاضلة. فالتعليم الإلهي والكلام الموافق لمخافة الله بالصلاة يُوجد.

+ وبحسب ما تعلَّمنا مِنْ رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح في الوصايا التي قالها عن الصلاة وكيف ينبغي أنْ تكون حياة المسيحي وما هو الذي ينبغي أنْ يطلبه في الصلاة، فإنَّه بالضرورة مثلما نريد أنْ تكون تدابيرنا هكذا ينبغي أنْ تكون صلاتنا. كما ينبغي أنْ تكون طلباتنا بحكمة عِلمنا، مُطيَّبة بالرجاء السماوي وبمفاوضة ومعرفة أسراره.

+ ولهذا فكل صلاة تكون هيَ أفهام (تعبيراً) على الحياة، كما قال المُفسر: إنَّه بكل نوع يُصلِّي العارف يأخذ الذهن فهماً ما - بحسب ترتيب العلم الإلهي - لكي يبعد عن اللحم ويرتبط بالهمِّ بالحياة وبالتقلب (أي التَدْبِير) وتذكار الأمور المزمعة. لكي بنوع الصلاة بتعليمٍ عالٍ ومعرفة فاضلة عن الحياة غير المائتة، بربوات أفهام تختلج في ضميرنا، نفهم كيف نحن مِنَ الأرض بطبيعتنا، وبيد منْ إرتفعنا وتجنَّسنا به، وبأي أسرار تحكَّمنا بالفعل.

+ فالصلاة تليق بالكمال، وهي إستقامة الضمير، ووعظ الأنواع الحسنة، والحرية إلى الأمور المرتفعة، وهذيذ الرُّوح وتذكار السمائيات والهمّ بالخفيات.

+ الصلاة التي تكون مِنَ الحب تشجِّع الضمير، وتُلبس العقل قوة؛ لأنَّ الرجاء يلهب ضمير الإنسان لَيْتَجلد على الشيء الذي هو فيه، ويصبر على الضيقات وشرور الأرض، وإذا قايسها بالخيرات الموعود بها تكون عنده كلا شيء، ولذاك الشبه ينقلب (أي يتغير) بمرآة ضميره مِنْ وقت لآخر بنعمة ومعونة الرُّوح والتشوق الإرادي.

+ والصلاة الكاملة تنير طريق الصعود بما يفوق العالم، فتنتشي النفس بالسمائيات وترذل هذا العالم بمحبتها لله، وتتشجع على الحروب التي تقابلها. وبالصلاة تنحني النعمة التي تُسمَّى الملكوت، لكي بالحسِّ بها ننسى الأرض ونكون في سلام العقل بتلك الأسرار، وتقودنا لكي نعلم أنَّ القوة هيَ من عند الله، حتى نتغير ونثبت في الأمور الفاضلة، وإذ نحن في الأرض يكون تقلُّبنا (أي سيرتنا) في السماء، فتجعلنا نحس أنْ لنا مُقوِّياً ومعيناً سمائياً غير منظور يعضدنا في كل وقت على ما يرفع طبيعتنا (إلى السماء).

+ **الصلاة بفهم** :

+ وكما قال القدِّيس مرقس: إنَّ الذي يُصلّي بفهم ينبغي أنْ يصبر على جميع ما يأتي عليه؛ لأنَّ هذا هو زيّ الصلاة أنَّها بالأفهام المدهشة تجعل العقل شجاعاً وغير قابل للآلام. وبحسب قول القدِّيس أوغريس: إنَّ كل مَنْ يُصلَي بفهم فإنَّ هذه الفضيلة تعدّه للجهاد مع الشياطين بواسطة فهم كلام الصلاة، وتشعله بمحبة أمور الدهر الآتي، والمعرفة التي فيها بأفهام الطبع تفصل العقل مِنَ اللحم (أي مِنَ الجسد). وقد أظهر هؤلاء القدِّيسون الحروب التي تتحرك والتجارب التي تقوم على مَنْ يسلك في هذا الطريق، إنْ كان مِنَ الطبع أو مِنَ الشياطين أو مِنَ الناس. وقال مار أوغريس: إنَّ المعونة التي يأخذها العقل بالصلاة تنمو بلذَّة الرجاء، وليست الحروب فقط تكون عنده كلا شيء، بل إنَّه يزدري أيضاً بالجسد الذي هو سبب القتالات.

+ هذا هو تَدْبِير الصلاة، وهذه هي منفعة الهذيذ الإلهي الذي فيها، وهذا هو العمل الكامل الذي يعمله الذهن في المصعد الإلهي (أي في طريق الصعود إلى الإلهيات). وهذا إنَّما يكون بالجلوس المنفرد والوحدة والبعد مِنْ جميع هموم العالم؛ لأنَّ هذا يولِّد الهدوء وسكون القلب، لكي بمداومة الهذيذ بالله والسكون مِنَ الأفكار يستطيع الضمير أنْ يتفرّس في كل أنواع الصلاة ويقتبس معرفةً عن الله، وبواسطة الألفاظ يكون الدخول إلى الأسرار.

+ الصلاة بهذيذها كل وقت تقرِّب العقل إلى الله، وتشجعه وتُنقيه بغياراتها، وتناوله القدس بهذيذها. هذا هو الهذيذ الذي يحبس كل هذيذ؛ لأنَّه بالضرورة يربط العقل ليستضيء بالخفيات الداخلية، ومنها تؤخذ معرفة الله، ومِنْ هنا نحس بالفعل أننا بنو الآب السماوي، ورثة وبنو ميراث رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح. وهنا نقول: «مَنْ يقدر أنْ يفصلني مِنْ حب رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، سيف أو نار...» وما تبقى، و«إني مصلوب للعالم والعالم لي».

+ بركات الصلاة : كل التماجيد تليق برَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الذي بتَدْبِيره بالجسد رفعنا مِنَ النظر للأرضيات، وأرشد عقلنا للمصاعد الإلهية التي تفوق العالم، وبمفاوضة الصلاة قدَّمنا لنظرة ملكوت السماء والهذيذ الدائم بها. ذلك الموضع هو الذي نحن مزمعون أنْ نقدِّم فيه دائماً السجود بالرُّوح الذي ليس هو بمحدود لا بالجسد ولا بأقطار العالم ولا بالإنحناء الظاهر، بل بعقل يتجلى بحركات الدهش به بلا إنقطاع ودون إنقضاء في بلد غير المتجسدين بذلك التَدْبِير المرتفع عن طقس الصلاة. لأنَّ الدهش هنا يكون عوض الصلاة، وعوض الإيمان الذي هو أجنحة الصلاة تكون النظرة الحقيقية التي هي مملكتنا ومجدنا، حيثُ يظهر لنا هناك أنَّ الله ليس محتاجاً إلى تمجيد المخلوقين، بل هو في الحقيقة تنازلٌ منه لهؤلاء جميعهم (أنْ يشاركهم في التلذذ بمجده).

+ لأننا هناك نقبل حقيقة كل شيء عن الله، ليس عن طبيعته بل عن ترتيب عظمته ومجده الإلهي وحبه لنا، حيث ترتفع كل الحُجُب والأنواع وكل أشكال السياسة والتَدْبِير مِنْ أمَّام العقل، ويتبين لنا أنَّه ليس لأجل طلباتنا يعطي مواهبه، ولا إنعامه بكيلٍ ومقدار، بل إنَّما جعل طلبتنا

واسطة وزِىّ كلامٍ يوصل العقل إلى الطياشة في أزلَيْتَه ومعرفة إهتمامه بنا.

+ فعندما نقبل (معرفة) تلك العظمة التي لم يدركها قط طقس الصلاة، ولا تَصوّر في العقل الطلب لأجلها؛ لأنَّ الشيء الذي يقبله الناطقون لم يصعد على قلب إنسان، لأنَّه ليس في طبعهم معرفته حتى يطلبوه. ولكننا نفهم أنَّه بالحب يُعطى لنا إنْ كان هنا أو هناك، وقد جعل السبب (في هذا الإنعام) نحن، ولحسن سيرتنا قطع أنْ تكون مواهبه هي مِنْ أجل إنعامه الغزير.

+ وعندما نأخذ معرفة هذه (الأمور) كلها، عندئذ نعرف الأبوة الحقيقية والحب والصلاح الأزلي، ونعرف أنَّ الله غير محتاج إلى العالم ولا للتجديد المزمع ولا لملكوت السماء؛ لأنَّ الملكوت والتنعم والنور هي طبيعته. ومِنْ أجل جوده أتى بهذا كله (أي المخلوقات والعالم) للتكوين، فخلقنا ومِنْ أجلنا خلق هذه كلها ليعطينا ملكوته ومجده وعظمته وكرامته وكل سلطان أزلَيْتَه، ويجعلنا أزليين بلا إنقضاء مثله، ولابسين نور حياتنا بغير إنقطاع، وليس لأزلَيْتَه إنقضاء ولا لمملكتنا. المجد للذي بيده الجميع، والذي قدَّمنا لهذه الأشياء، وقد دعانا نحن ذوى الطبع المائت بنينَ للآب السماوي، وعرَّفنا بالذي هو منذ الأزل.

المَيْمَر الثَّانِي

في مخافة اللّه والإحتراس

ميمر مملوء من كل وعظ في سائر أنواع الفضيلة، وإيضاح كل تَدْبِير السيرة النفسانية التي هي الدرجة الوسطى في الرهبنة، وتحذير من الإهمال في قوانين الوحدة والسكون في القلاية. ويغني بإيجاز عن كتب كثيرة، ويدل بإفصاح على كل سيرة تَدْبِير العقل، وخاصة في عدم وجود المُرشد والمعلم. بركة صلاة القدِّيس ترشد كل مشتاق إلى الفضيلة. آمين.

١- بدء مخافة الله وأساس كل صلاح وباب عزاء الرُّوح والتقرب إلى الله هو : الاحتراس في تَدْبِير السيرة، وهو يتقدم على جميع أنواع خوف الله. فقبل كل شيء اضبط هذا حسناً؛ لأنه ليس أحدٌ يتوَّج - حسب قول بولس الرسول الإلهي - إن لم يجاهد بزِيٍّ وقانون تَدْبِير ترتيب الجهاد. لأن سائر الأشياء لها ناموس وزِيٍّ وترتيب، سواء في الجهادات العالمية، أو في أعمال الصناعات الجسدية، أو في سيرة الرُّوح هذه. وكل إنسان لا يجاهد حسب ترتيب وناموس الجهاد لا يأخذ تَدْبِيره غياراً حسناً (أي أنه لا يتقدم في طريقه). هكذا في هذا الجهاد غير المنظور الذي يفوق العالم، يوجد في مصافه (أي في طقس جهاده) ترتيب وزِيٍّ، والذي يتخلف عن هذا فإن انغلابه موضوع تجاه عينيه على الدوام.

٢- الاجهاد والبذل : فينبغي للذي يتقدم إلى طريق مخافة الله أن يغصب نفسه في كل تَدْبِير يقدمه لله إن كان في الصَّوْم أو في الصلاة أو في بقية الفضائل. ولتعلم أيُّها التلميذ أننا لا نستطيع أن نثبت في الأمور الإلهية كما ينبغي إن لم نغصب أنفسنا في كل وقت في الأشياء التي تقرَّبُنَا إلى الله. حتى الذين يشقون في الأمور العالمية أيضاً إن لم يستعملوا التغصب ليلاً ونهاراً لا يبلغون - ولو جزئياً - إلى حدود إدراك إرادتهم؛ لأنه مثلما يتعب ويشقى الإنسان من أجل الله، هكذا يحيط به عونٌ إلهي ويقويه، ويسهِّل عليه كل شيء، ويُصلح الطريق أمَّامه في كل موضع.

في التغصب والقسر

٣- بركات الجهاد : طوبى لِمَنْ غصب نفسه كل أيام حياته؛ لأنه من مزبلة الفقر يتكَّرم بجنس المملكة العظمى. طوبى لمن غصب نفسه دائماً في طريق الله؛ لأنه يصير من ذات الجنس الحقير مناسباً للجنس الْعَظِيم الشريف المعقول. فالتغصب هو مغني الفقراء، ومكرِّم المحتقرين.

٤- التغصب هو بدء طريق الوحدة، وبه يسعد النشطاء في طريق ملكوت الله، وتُعد لهم التيجان من القوي القاهر. وإنْ كُنت تسأل إلى أين وإلى أي حد أغصب ذاتي؟ أقول لك: إلى حد الموت اغصب نفسك من أجل الله. وخذ لك حدود التغصب من الأشياء الصغيرة الندرة.

٥- الجهاد في الصلاة : أولاً، اغصب نفسك في صلاة الليل وزدها مَزَامِير، حتى ولو كنت مريضاً، إذا لم يكُن مرضك شديداً لئلاً تضنك في مرض صعب، بل إذا كان ضعفاً (عادياً) أو انحلال جسد، فاغصب نفسك قليلاً؛ لأنه يوجد رجاء عظيم ومعونة في التغصب من أجل الله، ولو بمَزَامِير قَلِيلَة تزيدها عن العادة أو نُسك (قليل). ليس لأنَّ الله ينتفع بشيء (من ذلك)، بل لأنَّك بها تُقدِّم نفسك إليه.

٦- اغصب نفسك قليلاً فتجد نعمة عند الله، وبقدر ما تغصب ذاتك هكذا تدنو منك المعونة من عند الله، وتأخذ قوة من الرُّوح في الخفاء. ولو كان مزموراً وَاحِداً أو انحناءً وسجوداً قليلاً زائداً عن العادة، فإن نفسك تنشو عند الله دون أن تعلم، وتحل عليك قوة، وتؤهَّل لحفظ ملائكي، ولحركات وزيارات من عندهم في يقظتك ونومك، وتاؤريات لذيذة يلقونها فيك كل حين.

٧- اغصب نفسك في ضرب الميطانيات دائماً لأنها تحرك الحزن في بالصلاة. اغصب نفسك في هذيذ المَزَامِير، وإذا حان وقت الصلاة اغصب ذاتك وقم للخدمة وألقِ عنك ثقل الجسد الذي يجذبك أن تتخلف عن الصلاة. ولا تكن كمن ينتظر الساعات والأوقات وتتماتن (أي تتثاقل). وفي الخدمة أيضاً اغصب نفسك وصلِّ بطول روح. وتأنَّ في تلاوة المَزَامِير بصبر وجَلَدٍ بعيداً عن كل ضجر، ولا تتلوها مثل مضغوط، بل مثل من يفكر أنه واقف قائم قدام الله.

٨- اغصب نفسك في الليل أن تقوم وتسجد قدام الصليب، ولو كان النوم ثقيلاً عليك، والجسد يؤخرك؛ فهذا هو الوقت المقبول، وهذه هي ساعة المعونة. جميع الآباء كانوا يصلُّون في الليل حسب المثال الذي أخذوه من رَبِّنَا؛ لأن الليل هو مفروز لعمل الصلاة مع البلد القفر.

٩- اغصب نفسك أن تثبت في قلايتك في السكون، وتأكد أنه طالما أنت فيها، فحواسك مصونة وأفكارك وحزن قلبك (أي تخشعك) محفوظ، وتكون شيئاً آخر غير ما أنت في كل أمورك، (وذلك) بالصلاة المتألمة في خفاياك.

١٠- إذا ما اشتهى فكرك مآكل مختلفة، اغصب نفسك أن تكمل شبع شهوة بطنك بالخبز فقط، واذكر أتعاب القديسين العادمة من شبع الخبز كل أيام حياتهم.

١١- كل تغصّبٍ سواء كان بالإرادة أو بغير إرادة يعطي ثقة وأجراً وعزاءً. فأعمال التغصب نوعان: من الإرادة ومن غير الإرادة، والضيقة التي من كليهما هي لأجل مخافة الله. أمَّا أعمال التغصب الإرادي فهي : الصَّوْم والصلاة والسهر والتجرد والسكون والبعد من الناس والدموع والقراءة واشتياق ضرب الميطانيات المنسحقة وما يشابه ذلك، وهي التي يقبل الإنسان على نفسه عملها لأجل خوف الله. وأعمال التغصب غير الإرادي هي: المؤذيات والأحزان والأمراض، وما يتولد منها ويحدث للجسد، وصعوبة المرض وعوز الغذاء، والضيق من الحبس والوحدة، وتخويف وعذاب الشياطين، والجوع المضني وانعدام المعونة من البشر، وضغطات وضيقات من قلة الكسوة بسبب المسكنة، وأحياناً تحصل عثرات في الجبال

والمواضع العسرة التي يعيش فيها القديسون من أجل الله.
١٢- من دون التغصب لا صوم يوجد، ولا عفة الجسد، ولا صلاة حزن، ولا خدمة إلهية، ولا ضرب ميطانيات متعبة، ولا تزمير بغير ضجر، ولا تلاوة بألفاظ هادئة، ولا مفاوضة سهر الليالي.

+ من أجل الصلاة والأعمال الحسنة :

١٣- كن مداوماً الصلاة، وألزق بها أنواعاً حسنة؛ لأنه بالأنواع الجيدة والتدابير الصالحة يتزين الإنسان أولاً، وبعد ذلك يتقدس بالصلاة، فالصلاة التي لا تقترن بأفكار عالية فاضلة هي كلام ساذج ليس لها قوة عند الله. أمَّا إذا اقترنت قوة حسن السيرة بالصلاة، فإنها تكون مثل لهيب نار في حركتها. لأن «عظيمة هي قوة الصلاة التي يصليها البار»، تأمَّل قوله إنه ليس كل من اتفق بل تلك الصلاة التي يصليها البار. فالقوة ليست للكلام والصلاة، بل للبر. وهوذا موسى ويشوع وإيليا وأليشع من غير صلاة كانوا يفعلون المعجزات.

١٤- الصلاة : هي عمل مرتفع متعال على جميع الفضائل، وفضيلة أشرف من كل الأعمال. وليس منها أو بها تقتنى الصلاة، بل إن الصلاة تتولد عند الإنسان من أمور أخرى، والذي لم يقتن واجباتها لا تصدِّق أن له صلاة . فالصلاة هي ذكر الله الدائم الذي يكون في قلوب خائفيه، أعني بذكر الله شخوص النظر الفاضل الذي يكون في قلب الإنسان. فهذا العمل هو الذي يكمل لنا الصلاة، إذا كان منا بإفراز.

١٥- الصلاة : هي أمر موضوع بين النفسانية والرُّوحانية، كشيء متوسط ضابط للسيرتين ومحركاً إياهما. فبها يكمل عمل التوبة الذي هو ندم النفس والحزن، وبها أيضاً تتحرك النفس بحركات تفوق سائر الحركات الجسدانية والنفسانية، وهذا هو ما يسميه الآباء «التَدْبِير الرُّوحاني»، والدخول إليه يُعطى إنعاماً من الله وليس من حركة أو استعداد أو إرادة. فالذي يتهاون في الصلاة ويظن أن له باباً آخر للتوبة هو مخدوع من الشياطين.

١٦- جمع العقل والطهارة في الصلاة، لا يمكن أن يكونا بدون الاحتراس الكثير في الكلام والأعمال، مع حفظ الحواس. كما أن المعرفة التي تمنحها النعمة لا يمكن أن تأتي ما لم يقتنِ الإنسان الإفراز الكثير بواسطة السكون.

١٧- وبحسب الكرامة التي يظهرها الإنسان في شخصه تجاه الله أثناء الصلاة، بجسده وعقله كليهما، هكذا ينفتح له الباب لقبول المعونة، وتقوده إلى نقاوة الحركات والاستنارة في الصلاة. لأنه على قدر اهتمامه بالزي الحسن أثناء الصلاة، إذ يظهر الحشمة والتوقير، ويبسط يديه نحو السماء ويقف بوداعة، أو يقع على وجههِ على الأرض، هكذا يؤهل لنعمةٍ عظيمة من العلاء (من أجل هذه الأفعال المتضعة). فمن يزين صلاته على الدوام بمثل هذا الزي الخارجي، يؤهل سريعاً لفعل الرُّوح الْقُدُس، من أجل أنه يعظِّم الرب في عينيه بالوقار والتكريم الذي يظهره في الذبائح التي يقرِّبها أمَّام الرب (أي الصَلَوَات) في الأوقات المحددة بناموس الحرية.

١٨- فاعلموا، يا إخوتي، أن الله يطلب (أن نهتم) جداً جداً أن نُظهر في كل الأعمال التي من أجله، الزي الخارجي الحسن وأنواع التوقير والتكريم اللائق بكل اهتمام. وذلك ليس من أجله، بل من أجل منفعتنا نحن؛ لأنه هو نفسه لا ينتفع بأشياءٍ مثل هذه، ولا يُضار (إذا نحن أهملناها)، بل إنها بالأحرى تكون من أجل طبيعتنا الضعيفة، ولو لم تكن ضرورية لَما اتخذ لنفسه مثل هذه الأشكال وهذا الزي في تجسده بنوع من السياسة، وهكذا تكلم معنا في الأسفار المقدسة.

١٩- إن كثيرين استهانوا بهذه الأشكال الخارجية، وزلُّوا بأفكارهم معتبرين أن الصلاة في القلب تكفي لله، وأنه لا يريد منا شيئاً آخر؛ ويدَّعون أنه إذا كانوا مضَّجعين على ظهورهم أو جالسين باستحقار، يكفي أن يكون لهم فقط تذكار داخلي لله؛ ولا يهتمون أن يزينوا عملهم الظاهر بالوقوف الحسن حسب قوة أجسادهم وترتيب الحواس وبرسم علامة الصليب عليها. كما أنهم حين يسجدون على الأرض لا يهتمون أن يعملوا ذلك بتوقير ورعدة كمن يتقدم إلى لهيب نار، ولا يعتنون أن يتخذوا لأنفسهم أشكالاً حسنة وزياً وتوقيراً من الداخل والخارج، أو أن يقدِّموا للرب توقيراً وكرامة خاصة بترتيب أعضائهم، والخشية والحياء على وجوههم. وذلك لأنهم لم يفطنوا إلى مكر العدو وصعوبته، ومن هنا أُسلموا لفعل الزور والبهتان، ولم يفهموا أنهم ما زالوا إلى الآن مائتين وقابلين للميالة بحركة نفوسهم التي صارت خاضعة للانحراف، ولم يتحققوا من أنهم لم يبلغوا بعد للدرجة الرُّوحانية.

٢٠- ولستُ أعني بقولي هذا أن نغصب المرضى والضعفاء أن يكونوا تحت هذا الناموس، أو إنه ينبغي للإنسان أن يتدبر بما هو غير مستطاع، بل قولي هو أنه ينبغي أن يكون عملنا بخوف ورعدة ووقار. فكل شيء يُعمل بوقار ورعدة يقبله الله كالقربان المختار، حتى ولو خرج عن حد الناموس وعُمل بخلاف العادة تحت الاضطرار. وهو لا يلوم الشخص الذي يعمل هكذا، وليس هذا فحسب، بل إنه يقبل بمسرة تلك الأشياء الحقيرة الضئيلة التي تُعمل لأجله بإرادة جيدة كالأشياء الْعَظِيمة الكاملة. فحتى إن كانت بغير الواجب، فإن فاعلها يُحمل بالرحمة من قِبل الله؛ لأنه عارف بضروريات طبعنا من قبل أن يخلقنا.

٢١- لأن الله رحوم متحنن صالح، لا يحاسب ولا يدين الإنسان على عوارض الطبع وضروریاته (أي الأعمال التي تعمل عن اضطرار)، حتى ولو كانت تستوجب اللوم، لكنه يدين على الأعمال المستطاعة لدينا إذا أُحتقرت وأُهملت منا. إنه لا يدين حتى على ميالة الطبع (نحو أي شيء) حتى ولو كان خطأ عظيماً وبالإرادة، إذا كان حدوثه بنوع عارض، [ولكنه يدين على الفعل الذي ينتهي إليه، ويؤدب بالعدل]، لعلمه أن ذلك سيقود فاعله إلى الندم وحزن الضمير، وبالأكثر إذا لم يُسِّلم الشخص نفسه بالكمال للهلاك. وإن كنا قد تكلمنا بهذا كله، لكننا نلوم الذين يفسدون ترتيب الصلاة بعنادهم، إذ أنهم بحماقة فكرهم يتصورون أنهم صاروا كاملين، وبمعرفة كاذبة يخترعون لأنفسهم شيئاً أو آخر بجهالة.

٢٢- [إن القلب يقتني حرية أعظم في الحديث مع الله في الصلاة (الخاصة) أكثر مما يفعل أثناء خدمة الأوقات (أي المَزَامِير). ولكن الإهمال التام للخدمة يقود إلى الكبرياء. وبسبب الكبرياء يبتعد الإنسان عن الله. والحقيقة أن الإنسان حين يغصب نفسه أن يخضع للقانون - في الوقت الذي يكون فيه حراً تماماً في تَدْبِير سيرته - بهذا يحفظ نفسه متواضعاً، ولا يعطي لشيطان الكبرياء أية فرصة ليعرض له أفكاره الشريرة. وإذ يداوم على اعتبار نفسه أنه حقير وغير أهل للحرية، فإنه يتضع ويمكنه حينئذ أن يُخضع أي فكر كبرياء. فليس هناك لجام أكثر من هذا فاعلية يضعه الإنسان في فم العقل الذي يعظِّم نفسه. وهذا هو السبب في أن الآباء القديسين، رغم أنهم كانوا يقتنون الصلاة الدائمة، وكانوا ممتلئين من الرُّوح، وكانوا لا يتوقفون أبداً عن الصلاة لحظة وَاحِدة، إلا أنهم كانوا يهتمون بالترتيب الموضوع لكل وقت (من أوقات الصلاة) على حدة، وبالعدد المحدد للصَلَوَات بما في ذلك مشاركة الجسد التي تتمثل في السجود، ويلاحظون ذلك ليس فقط في خدمة الأوقات بل وأيضاً في تلك الصلاة (الدائمة)؛ وكانوا يعملون هذا كله بموجب القانون الذي قرروه لأنفسهم].

٢٣- في الصلاة والخدمة (الأجبية) :

يوجد ناموس حرية وناموس عبودية، والاثنان يتدبران من الإرادة. أمَّا ناموس العبودية فهو كقولك: سوف أتلو كذا وكذا مزمور في كل صلاة من صَلَوَات الأوقات بعدد محدد دون تغيير، فتكون مرتبطاً بهذه المَزَامِير جميع الأيام. ومن يعمل هكذا يكون قد ربط نفسه بهذا الالتزام (بحدود العدد والطول ونوع المَزَامِير) التي قررها وجزم بها على نفسه. وهذا بعيدٌ تماماً عن معرفة الحق؛ [لأنَّ مثل هذا الشخص لم يأخذ في الإعتبار لا عمل النعمة ولا ضعف الطبيعة أو خطر القتالات المتعددة. إذ في الحالة الأُولى قد تعطى النعمة حتى أنه يتأخر أكثر مما وضع لنفسه؛ وفي الحالة الثَّانِية قد يتبين ضعف الطبيعة الشديد تحت ضغط صعوبة قتال الشياطين الذين يهاجمونه، وهذا يكون - بصفة خاصة - بهدف قمع الكبرياء].

٢٤- أمَّا ناموس الحرية فهو أن تحفظ بتحرِّز (أي باهتمام بالغ) عدد السَبْعةً أوقات التي حددها مجمع نيقية في البيعة المقدسة على (لابسي) هذا الإسكيم لحفظ حياتنا؛ وحاشا لنا نحن المتوحدين أن نحرج عن طاعة وحدود قوانين البيعة ورؤسائها وسننهم. ولأجل هذا نحن نحفظ (بتدقيق) حدود سَبْعةً أوقات الخدمة حسبما وضعتها علينا البيعة كالبنين. ولكن هذا لا يعني أنَّه يجب على الإنسان أن يلتزم في كل صلاة وفي كل يوم بعدد محدد من المَزَامِير، أو أن يجزم على نفسه بعدد ثابت من الصَلَوَات (الخاصة) يصلي بها بين هذه الأوقات في الليل والنهار، [أو يحدد فترة معينة لكل صلاة من هذه الصَلَوَات، أو يلتزم بكلمات معينة يقولها]. بل بالأحرى ينبغي لنا أن نثبت في كل صلاة على قدر القوة التي تكون من النعمة، وعلى قدر الوقت. ونطلب بحسب ما تدعو الضرورة إليه في تلك اللحظة، ونصلي بأي صلاة نتحرك بها، فإذا ما صلينا (بهذا الأسلوب)، فإننا نكون حينئذ بعقل منجمع ومنقبض من الطياشة [بسبب لذة هذا النوع من الصلاة. وعلى الإنسان في مثل هذه الصَلَوَات أن يوازن بين طلبته وقوة الطبيعة البشرية

والحكمة التي يمنحها له الرب].

٢٥- [وقد يقتني الوَاحِد تقدماً أكثر في الحرية مما لو كان خاضعاً للقانون، إلا أنه كثيراً ما يتفرَّع عن الحرية سبل كثيرة تقود إلى الخطأ؛ لأنه في الحرية تتخفى أنواع كثيرة من السقطات، بينما مع القانون لا مجال مطلقاً لأن يضل أحد. فالذين يثبتون تحت نير أي قانون، قد ينقادون للسقوط متى أهملوا القانون واستهانوا به. ولهذا فالقديسون القدامى، الذين أكملوا سيرتهم دون أن يضلوا، كانوا يضبطون أنفسهم بواسطة القانون. وكثيرون آخرون تركوا متطلبات قانونهم، ومع أنهم أضافوا إلى جهادهم أعمالاً أكثر مما هو موضوع لهم، إلا أن أتعابهم التي زادوها لم تمنعهم من الوقوع بين أيدي الشياطين، وذلك لأنهم تركوا قانونهم. ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا، لأن أخبار هؤلاء الأشخاص تضيئ أكثر من أشعة الشمس لإنارتنا].

٢٦- كن متقدماً على الدوام في صَلَوَاتك قبل وقتها، لكي تكون خفيفة عليك. وإذا اتفق أن فاتك وقت من أوقات الصلاة بسبب أي أمر عارض فلا تضطرب، ولا تتسجس من هذا، ولا تهملها أو تتهاون في تكميلها. فمثلاً إن كانت هي صلاة باكر، ولو كان قد مضى من النهار ساعتان، إبدأ واخدم مَزَامِيرك بحرية، وأكملها بلا نقص بجميع واجباتها بهدوء وبغير خباط (أي ارتباك)، حتى ولو كان هو وقت العشاء لا تتكدر ولا تضطرب بل (أكمل صلاتك) بهدوء عقل؛ لأنه ليس لك عمل آخر ضروري تكمِّله أعظم من الصلاة. فإن كان الرَّاهِبُ يتهاون في تكميل صَلَوَات الأوقات فما ينبغي له أن يجلس في القلاية، ولو أراد أن يثبت فيها فلن يقدر؛ لأن أصل العمل مع الله في الرهبنة هو الصلاة، وهذا قد أبطله فأي شيء آخر له أن يعمله؟ لأنه ليس للراهب عمل آخر في القلاية غير الصلاة والمَزَامِير، فإن تخلف عن ذلك فمن أجل أي شيء يجلس في القلاية؟

٢٧- حياة المتوحد وعمله المكرم عند الله هو الصلاة. والذي ليس له خدمة ولا صلاة بحسب واجباتها، والذي خدمة الأوقات مهملة عنده، فهو كسلان وبطَّال.

+ من أجل المَزَامِير (محبة المَزَامِير)

٢٨- لتكن لك محبة بلا شبع للمَزَامِير ولتماجيد الله، لأنها مفاوضة الرُّوح. واعتنِ أن تبتعد عن كل تصرف ردئ قبل أن تبتدئ في قراءتها؛ لأنك إذا ما زيَّنت ذاتك بأنواع حسنة وابتعد عقلك عن كل فكر عالمي، عند ذلك في وقت الخدمة تحل على عقلك قوة الرُّوح وتكون خدمتك رائحة زكية أمَّام الله.

السجود لله ولذكر إسمه :

٢٩- كل لفظ فيه ذكر الاسم المسجود له، وبالأكثر في التسبيح، أحْنِ رأسك بالسجود؛ لأنه بكل نوع ينبغي لنا أن نكرِّم الله: في وقتٍ بالقيام أمَّامه، وفي وقتٍ بالانحناء، وفي وقتٍ بالسجود. ليس لأن الله يكرَّم بهذا، بل لأنه في الحال يتغير نوع فكرك، ويتعفف داخلك من الأنواع الحسنة التي تصنعها بجسدك؛ لأن العقل يقبل في الأمور الإلهية تغييراً عجيباً وحرارة، ويلتهب في الله بحركاته.

+ من أجل الميطانيات

٣٠- لا تحسب أنها بطالة كثرة الثبات في السجود الكثير قدام الله، حتى المَزَامِير ليست أعظم منها؛ لأنه ليس شيء من الفضائل التي يعملها الناس مثلها، وليس شيء محبوب عند الله أكثر منها. وليس شيء مكرم في عيون الملائكة، وقاهر للشياطين، ومرعب للجن، ومفيض للمعرفة وجاذب للرحمة ومُقتني للاتضاع ومفرِّح للعقل، مثل هذا الشيء: أن يكون الإنسان جاثياً على الدوام قدام الله على الأرض. هذا هو مجمع التوبة الذي يهدف إليه وينتظره كل مجمع أفكار الندم مع الدموع. هذا هو ذخيرة المغفرة، وغسل القلب وسلام العقل. هذا هو الذي يجعل العقل شبه الله.

٣١- وليس شيء أيضاً مثل مداومة المَزَامِير بشكل ونوع متعفف. مستوجب كل ملامة هو التهاون بقراءة المَزَامِير إذا تخلَّف الإنسان عن ذلك بسبب العظمة. وأمَّا الإنقاص منها بنوع الاتضاع في السجود الذي لا ينقطع، فهذا هو كمال الأعمال، وليس هو بطالة، حاشا أن يكون كذلك. فهذا الأمر (أي السجود) يجعل الجسد مروَّضاً والعقل مجدَّداً محكَّماً بروح المواهب.

+ ضبط الفكر في الصلاة :

٣٢- لا تشتهِ أن لا تصلي إلا عندما تتنقَّى من طياشة الأفكار، بل اعلم أن من مداومتك على الصلاة وكثرة التعب فيها تبطل الطياشة وتنقطع من القلب. فإن كنت لا تُصلّي إلا إذا ارتفع الفكر تماماً من تذكار هذا العالم، وإذا نظرته هكذا عندئذ تبدأ في الصلاة، فإنك لَنْ تُصلّي إلى الأبد. لأنَّ انقباض الفكر من الطياشة إنما يكون من الصلاة.

٣٣- قد يهدأ الفكر وقتاً ما ويجتمع إلى ذاته (ويصمت) من الصلاة، وهذا الأمر سمعنا أنه يعرض - حسب قولهم - للذين يداومون الصلاة مدة طويلة من الزمان، فيجدون من أنفسهم هذا الاحتراس الحقيقي بعد جهد، (ولكن) لوقتٍ قليل وليس في كل وقت. لأن هذا الأمر (أي صمت الفكر) يعرض أحياناً بسبب الدوام في الصلاة، وما سمعنا أن أحداً نال هذا من غير مداومة الصلاة، ولا سمعنا قط أنه ما ينبغي أن نصلي إلا إذا ما ارتفع الفكر تماماً من أشكال الأمور الحاضرة وعندئذ نسجد ونصلي. والذي يخرف (يهذي) بكلام مثل هذا إنما يطلب الكمال من قبل العمل، وهذا شيء لا يمكن أبداً. لأنه إذا صمت الفكر من كل ذِكر وطياشة في الأشياء الحاضرة،

فإنه لم يعد محتاجاً إلى الصلاة؛ لأن العقل يكون حينئذ قد كمل واتصل بالله وصار الله فيه.

٣٤- فأنت أيُّها السائر قبالة وجهه، إن كنتَ تريد أن تكون منقبض الفكر من وقت لآخر فقط، فبئس ما ترى؛ لأن الشيء الذي يمكن دوامه أنت تطلبه جزئياً. وإن كنت تريده على الدوام ههنا، فاعلم أنك تطلب الكمال من غير عمل كبدعة المُصلين[٥]. أمَّا أننا لا نوافق الأشياء التي تتشكل للعقل عندما نصلي، فهذا مرده إلينا (أي في مقدورنا)، وأمَّا أن يمكث الفكر في الصمت مبتعداً عن كل ما يظهر له ومتعالياً عن كل شكل وجهاد، فهذا ليس في قوة الطبيعة.

٣٥- فإن كنت تريد أن تنقبض من طياشة الأفكار وتجد فسحة للصلاة بعقلك، اجمع ذاتك من الهيولي (الأمور المادية)، ومن الاهتمام بالأشياء، ومن الطموح والطياشة بالحواس؛ لأنه كلما نقصت هذه الأشياء وَجَدْتَ للصلاة الطاهرة موضعاً وفسحة من الطياشة. وهذا الهدوء يمكن أن يحصل جزئياً وليس على الدوام، وذلك مع الاهتمام الدائم (بجمع النفس من الهيوليات[٦] ومن الطياشة بالحواس).

٣٦- إننا لا نُدان لأجل تحرك الأشكال والأفكار فينا بل نجد نعمة إذا لم نوافقها وقاتلنا معها. ولكننا نُدان إذا كنا نوافقها ونعطيها موضعاً فينا. ولست أعني بقولي هذا أن نعطي للطياشة فسحة فينا، بل أن لا نكف عن الصلاة بسببها، وأن نحذر من أن نتخلف عن العمل. لأنه من حين يبدأ الإنسان بتَدْبِير سيرة العقل - التي هي الهذيذ الدائم بالإلهيات - إلى حيث يبلغ التَدْبِير الرُّوحاني الذي هو الدهش بالله، فهو أكثر من كل الأعمال يكون مفتقراً إلى الصَلَوَات الغصبية التي تكمل بضرب الميطانيات، ولا يبطل الصَّوْم أبداً، ويأخذ من القوت حسبما يكفي الجسد للقيام بالصلاة والعمل فيها.

+ في الانفراد والسكون :

٣٧- لا تصدِّق يا أخي أنه بدون الأعمال ينعتق الإنسان من الآلام، أو يشرق له نور النعمة. لقد رأينا أن كثرة المواهب لا يعطيها الله إلا لأناس عمَّالين. فبالأعمال تعرَّى آباؤنا القديسون القدماء من الإنسان العتيق. ولا تظن أن النسك عن الأطعمة فقط هو العمل، أو أن القيام في الخدمة يُبلِّغ الإنسان إلى النقاوة، بل الصبر عن مفاوضة الناس، والجثو دائماً قدام الصليب، ومشاركة هذه مع تلك حسب قوتك.

٣٨- الجهاد قبْل النوم : احذر أن تبطل شيئاً من خدمة الأوقات، بل قبل أن تنام أتعب جسدك في الصلاة، لكي في وقت نومك تحفظ الملائكة جسدك ونفسك من المناظر المخوفة والخيالات السمجة، ومن أذية الشياطين طوال الليل؛ لأن سريرك يكون قد تقدَّس بتماجيد الرُّوح وعمل الصلاة. وبدون تعب كثير أو مرض لا تنام إلا إن وجدت جسدك متعباً جداً من كثرة القيام في الصلاة والترتيل والسجود؛ لأننا إذا نمنا ونحن مستريحون تسخر بنا الشياطين الليل جميعه.

---

[٥] هم جماعة من الجهلة المتكبرين الذين يقولون عن أنفسهم إنهم متى شاءوا يمكنهم أن يُصلّوا «الصلاة الروحية».
آل م١١ات.

٣٩- من السكن في البعد والانفراد كم من وقت يحس المتوحد بأفكار تفوق الجسد، ولو أنه قليل الأعمال، وهذا من أجل فضيلة البعد من الناس. لأنه بمقدار ما يبعد الإنسان من العالم ومن الأمَّاكن المأهولة، ويتداخل في القفر والبراري، فإنه يقبل سكون وهدوء الأفكار، ولا يشقى كثيراً في الجهاد معها. لأن نظر القفر فقط هو بطبعه يميت القلب عن الحركات العالمية. فإذا كنا في سكن الناس (أي في مواضع سكناهم)، فإن أفكار السكن تحدث لنا، أمَّا إذا كنا في قفر البرية فإن أفكار القفر تحدث لنا. وإذا كنا مع كثيرين فأفكار الكثيرين تحدث لنا، وإذا انفردنا من الكل، فإننا نقتني ضميراً منفرداً.

الطهارة :

٤٠- لا تُحفظ مع البشاشة، والاهتمام بالأفعال والخلطة بالأمور. واعلم أن كل ألم (أو شهوة) يرتبط القلب بحبه، فبألف حيلة من الأفعال وربوات صَلَوَات ودموع ما ينعتق منه. هكذا أيضاً محبة السيرة (إذا ارتبط بها القلب لا ينفك منها). لقد حذر الآباء من التفاوض مع الذين هم لابسون أسكيمك وليسوا مشاركيك في السيرة بالتيؤريا وبالفكر الذي ينمو به الهذيذ (أي أنهم غرباء عن قصدك)، وذلك لأنهم يعوِّقونك عن سيرك فتبرد حرارتك؛ أمَّا هم فلا يُلامون لأنَّهم سائرون في طريق أخرى إلى الملكوت في هذا الشكل من الرهبنة، ولأن تَدْبِيرك مُغاير لهم فإنَّهم يخيبونك من سيرتك.

٤١- إذا ما فرزت نفسك للتوبة فكل يوم لا يصادفك فيه محقرة فلا تحسبه يوماً تأمَّا.

٤٢- الذي يتهاون بالصلاة ويقول إن له باباً آخر للتوبة فهو مسكن للشياطين. والذي لا يداوم قراءة الكتب فهو يسير في التيه؛ لأنه إذا أخطأ لا يحس.

٤٣- احذر من أن تكون جالساً وتفكر في أخيك (بالسوء)، فهذا يقلع جميع بنيان برج الفضيلة ولو كنت قد وصلت إلى حد الكمال؛ لأن الهذيذ في الأفكار الرديئة يقسي القلب. ولهذا فلنقبض حواسنا من الملاقاة ومصادفة (الآخرين) لكي تهدأ الحركات الداخلية، وتعطي أثماراً لله.

٤٤- حسب انحلال طرق تَدْبِيرنا هكذا تضطرم فينا أتون البطن، فتطلب مآكل مختلفة.

٤٥- إن من يجلس في الوحدة والحبس والسكون - وبالأكثر الأخ المبتدئ - هو محتاج قبل كل شيء إلى هذه الثلاثة أمور: الغرض والقصد المستقيم، خدمة الأوقات، والمرشد؛ إلى هذه الثلاثة مفتقر كل أخ بالضرورة.

٤٦- أمَّا القصد المستقيم فالمتوحد مضطر إليه، لأن بدونه تكون جميع أعمال الفضيلة باطلة وليس له مكافأة (عنها). والقصد المستقيم هو أنه من أجل الله ومن أجل محبته يسكن في هدوء الحبس، ولا ينتظر بفكره أن يأخذ جزاء عمله شيئاً من هذا العالم: لا نياحاً جسدياً ولا ربحاً بشرياً ولا رئاسة وتَدْبِيراً ولا مديحاً أو مجداً أو كرامة، بل يكون كل قصده وسيره أن يؤهَّل لحب رَبِّنَا يسوع الكامل ولنظرته بالرُّوح. هذا هو القصد المستقيم الممدوح الذي هو

مضطر أن يقتنيه المتوحد.

٤٧- والمتوحد محتاج أيضاً إلى تكميل خدمة الأوقات في السكون، لأنها تحفظه من أذية الشياطين أعدائه، حسب قول الأب إشعياء: «لا تهمل خدمة أوقاتك لئلا تقع في أيدي أعدائك». وأيضاً لأنه منها وبها - أي خدمة الأوقات - تتقوى نفسه وينير عقله، ويُعطى له واجبه (أي أجرته) مثل الرزق والجوامك[٧] لجند الملك، كقول الأب مرقس: «إننا إذا أكملنا خدمتنا وحفظنا الوصايا أخذنا من الرب رزق واجبنا».

٤٨- ويحتاج أيضا الأخ الحبيس إلى المرشد ليفتقده ويتكلم معه من الطاقة في الأمور التي يحتاج إليها. ويقدِّم له المشورات الصالحة عما ينبغي له أن يعمل؛ لأن قتالَيْن صعبيْن يواجهان المتوحد المبتدئ: أحدهما هو الضجر الصعب، والآخر هو الغلوة (أي الحرارة) الشيطانية، وهما ضد بعضهما، وفي هذين الأمرين هو مفتقر بالضرورة إلى أحد الشيوخ الْعَارِفِين ، لكي إذا كان محزوناً بالضجر يعزيه ويسليه، وإن أضلته الشياطين بحرارتهم (الكاذبة) يعلِّمه ويعظه ويبكته.

٤٩- ويجب أيضاً على الأخ المتوحد في الحبس ألا يتكلم مع إنسان كل أيام حبسه؛ لأنه إن لم يقبض الرَّاهِبُ حواس جسده، وبالأكثر النظر والسمع واللسان، فإنه لن يجد سكون نفسه، لأن الذهن ما يسلم من دون الجسد. وقد قال الأب مرقس: «إن المتوحد الذي يترك قلايته وسكونه وتوحده، ويخرج بانحلال في كل وقت يريد لكي يأكل ويشرب ويتحدث مع كثيرين، فهو إن كان مع وَاحِد ينبغي أن يُدعى ثانياً، وإن كان مع اثنين ينبغي أن يُدعى ثالثاً، وإن كان مع كثيرين ينبغي أن يُدعى كثيراً (وليس متوحداً)».

٥٠- جميع الآباء الذين أحبوا السكون والحبس الكامل لم يعتنوا بحب القريب لكي يكلِّموه بانحلال ذواتهم، وما كانوا يستحون من الفرار من ملاقاة الوجوه الذين يُظَن أنهم أجلاء. أنبا أرساني ما كان يرى أن يلاقي إنساناً، وأنبا تادرس إن صادف أحداً كان مثل السيف في ملاقاته، وإذا عرض أن وُجد خارج قلايته ما كان يسلِّم على أحد، كما أنَّ القدِّيس أرساني ما كان يسلِّم ولا على الذي كان يمضي ليزوره؛ لأنه قيل له من الصوت الإلهي: «اهرب من الناس فتحيا».

+ الحبس والقلاية :

٥١- إن اتفق لك سكون جيد، ولا تريد أن تخرج من قلايتك ولا أن تتناول من الأسرار المحيية، فعليك أن تجوز ليلة الأحد ونهاره كله (وأنت في قلايتك) بأفكار متضعة وحزن، وافرز لك عملاً ما لأجل كرامة ذِكر جسد الرب دمه. وإن لم تقدر أن تعمل بالجسد شيئاً يزيد على قانونك بسبب الضعف، افرز بفكرك حزناً وندماً قائلاً: «إني خاطئ ومذنب، والذي وقع في خطية يمنعه قانون

[٧] مرتبات خدام الدولة.

البيعة من تناول الأسرار المقدسة وقتاً معلوماً لكي يرضي الله بالتوبة حسب مقدار خطيته».

٥٢- فإن كنت، يا أخي، تحب تَدْبِير السكون الجزئي أو الكلي، ويستضيء ضميرك، وتَدق (أي تتعمق) حركات نفسك بحذق لكي تتفرس في حركات الآلام المختلجة فيك من تذكار خطاياك القديمة، وحسب قول الأب إشعياء، ترصد ما يأتي بمجاذبات الآلام التي هي أفكار شيطانية، هذه التي ليس لها عليك سلطان سوى أن تذكِّرك بالخطية فقط وتخضِعك بمجاذباتها للتنازل معها، أعني مع سماجة الشهوة، بذِكر امْرَأَة أو تذكر أخ قد أحزنك، مع ما تبقى من ذِكر الآلام، فعليك أن تتعلم القتال والمجاهدة معها؛ لأنه ليس في جميع المعارف ما هو أفضل من أن يعرف الإنسان ويَخْبِرَ آلامه (أي يدرك حقيقتها) ويقاتلها ويستعبدها إلى سيادة إرادته. فمن هذا الجهاد يقتني الإنسان سريعاً طهارة القلب وينظر الله.

٥٣- كل وقت تحصل لك فيه مفاوضة مع متوحد عمَّال عارف، تكلم معه بغير شبع عن نقاوة القلب التي منها وبها وعد سيدنا أن يعاين الإنسان الله كقوله: «طوبى للنقية قلوبهم لأنهم ينظرون الله». فإن كنت بالحق تحب الله، ليكن اشتياقك لنقاوة القلب أكثر من كل شيء، وإليها صوِّب كل قصدك وغرضك وسيرتك، واسأل وأقرأ وتعلَّم ما هي نقاوة القلب ومن أي شيء تُقتنى.

+ الصلاة والأفكار الشيطانية :

٥٤- فلتكن لك هذه العلامة في كل درجة ابتدائك: أن تميز وتعرف أنك عندما تكون متيقظاً ومحترساً في خدمة الأوقات (أي صَلَوَات المَزَامِير) وحفظ قوانين السكون، فإنك لا تطيش كثيراً. أمَّا عن تحريك الأفكار الرديئة فاعلم بالحقيقة أنها ليست أفكار آلامك، بل مجاذبات الشياطين؛ لأن الأفكار الألمية التي من العادات القديمة لا تتحرك في الإنسان ما دام متيقظاً ونيَّراً وحريصاً في عمله الرُّوحاني، وإن تحركت فهي سريعاً تضمحل بسبب يقظة وحرص عمله وبغضته لها. أمَّا مجاذبات الشياطين فما دام الإنسان عقله متيقظ ومضيء ومحترس في عمل البر، وبالأكثر في خدمة المَزَامِير وصلاة أبانا الذي في السموات وكلام التلاوة الذي يرتبه الإنسان من عنده ويصلي به بغير فتور إن أكل أو شرب أو نام أو مشي، فإن هذه الأعمال وهذه اليقظة وهذه الصَلَوَات بالأكثر تحرِّك الشياطين بالحسد مقابله؛ لأنهم يخافون أن يقتني منها سلاحاً ضدهم. ولهذا فهُم على الدوام يحرِّكون فيه مجاذباتهم وأفكارهم، لعله ينحل ويرتخي من الأعمال ويملّ من تَدْبِيره.

٥٥- لأنَّ خدمة المَزَامِير وصلاة أبانا الذي في السموات وصلاة التلاوة التي يرتبها الإنسان من ذاته، ويمجِّد بها الله من أجل عظم مجده، ويعترف بها بالخيرات التي أعطانا إياها ووعدنا بها، وبها (أي بتلك الصَلَوَات) يتضرع ويطلب الرحمة والشفاء والخلاص - هذه الثلاثة أنواع من الصلاة تكون للشياطين كمثل السهام المتقدة المسمومة فتقتلهم وتستأصلهم.

٥٦- وإذا ما طشت بأفكارك وأنت في السكون، ثم تهاونت بتكميل خدمة المَزَامِير وقوانينك،

فإن أفكار آلامك أنت هي التي تنمو بالأكثر داخل قلبك وتضغطك أزيد من مجاذبات الشياطين.

٥٧- ومع معرفة الآلام هذه، والجهاد مقابل مجاذبات الشياطين، والاعتناء بنقاوة القلب ونقاء الضمير وصفاء النفس، تعلَّم أيضاً، بشوق زائد ومحبة وأعمال مفروزة بالعقل، أن تقتني حقاً الصَلَوَات التي بغير فتور ولا طياشة. لأن كل تَدْبِير العقل حسب شريعة السكون هو محدود، كما قلنا، بهذه الصَلَوَات. فبالصلاة التي بلا فتور وهدم الأفكار، إذ لا يتلذذ الإنسان على الإطلاق بإرادته في شيء من دغدغات الخطية بالتنازل مع الأفكار ما خلا ما يكون من غصب وضغط صعوبة القتال، بل يقتني بغضة كثيرة لهذه الأفكار - فبهذه الصلاة التي بلا فتور مع هدم الأفكار يحلو للإنسان تَدْبِير السكون.

٥٨ - إن كنت ما تتعب جسدك وتفني نفسك في كل حين وفي كل شيء وكل موضع وبكل فعل، ولو أن فكرك قد يطيش من أجل ترتيب ابتدائك، فلن تُعطى لك الصلاة التي بلا فتور. وإن لم تتيقظ نفسك في هدم أفكار الآلام والشياطين، فلن يجود الله عليك بجمع العقل والانقباض من طياشة الأفكار.

٥٩- إن هاتين الفضيلتين: أي الصلاة بلا فتور ونقاوة الأفكار، محدود بهما ومحصور فيهما جميع سيرة العقل. وهما مرتبطتان الوَاحِدة مع الأخرى ومركَّبتان ومتحدتان معاً. وكما أن طبع الجسد شيء وطبيعة النفس شيء آخر، وباتحادهما ببعض يكوِّنان إنساناً وَاحِداً، ومن غير اتحادهما وشركتهما معاً لا يكمل لهما فعل، هكذا أيضاً فالصلاة شيء ونقاوة الأفكار شيء آخر، ولأجل شركتهما واتحادهما معاً يقام منهما تَدْبِير سيرة وَاحِدة تُسمى من الآباء سيرة العقل، وكل وَاحِدة منهما مفتقرة إلى تكميل الأخرى حسب قول القديس مرقس: «إن النية الصالحة بالصلاة توجد، والصلاة بالنية الطاهرة توجد، وكل وَاحِدة منهما محتاجة إلى رفيقتها كمثل الطبيعة».

المَيْمَر الثَّالِث

في توضيح الأمور

+ دلائل توضح بعض الأمور:

١- إذا كنت في سكون مع عمل الإتضاع الجيد، فهذه هي العلامة على أن نفسك قد دنت أن تخرج من الظلام: إن قلبك يحترق ويشتعل كما بنار ليلاً ونهاراً؛ وتصير جميع الأمور الأرضية عندك كمثل الزبل؛ ولا يحلو لك أن تدنو من الغذاء بسبب لذة الأفكار الجديدة الحارة التي تتحرك في نفسك على الدوام؛ ويُعطى لك من السكون ينبوع دموع بلا تغصب، فتختلط الدموع بجميع أعمالك، أعني مع قراءتك ومع صلاتك ومع خدمتك ومع هذيذك ومع أكلك وشربك، ومع جميع ما تصنع تمتزج به الدموع. فإذا ما نظرت هذا في نفسك ثق وتشجع.

+ في طريق الوحدة ومداومة الجلوس في القلاية :

٢- المتوحد يمكنه أن يحفظ طريق الوحدة بحلاوة، وذلك بتكميل قوانين الوحدة. أمَّا إذا رفض قوانين الوحدة وتهاون بها، فإن أفكار العلمانيين تحدث له بسياسة (أو بالضرورة) في القلاية من غير أن يشاء. ولا أعني بقولي هذا أن الضعفاء يؤذيهم السكون بدون عمل قوانينه، بل أعني أن الذي جسده صحيح وقوي، إن تهاون بتكميل قوانين العمل (لايؤذيه السكون فحسب، لكنه) لا يقدر أيضاً ولا على الثبات في القلاية على الدوام. ومن الملاقاة الشهوانية التي يصادفها على الدوام ينسى (قصده) قليلاً قليلاً، وبسبب مداومة نظر العلمانيين وأشكالهم المنحلة، ينسى أيضاً الوعد المقدس. كذلك إذا كان مشتغلاً (في قلايته) بعمل صنعة ما، ويتعطل (لهذا السبب) عن الدوران والطياشة، ومع ذلك لا يحفظ قوانين الوحدة، فإن أفكار الحيوان تكون له وتتحرك فيه وليس أفكار الحبس، ويتوه عنه أنها قلاية بل دكان حانوت. ومن ههنا تتحرك فيه حركات العلمانيين وليس البتوليين والمتجردين وحافظي العقل بالصلاة. فليست القلاية هي التي تحرس العفيف وتحفظه، بل قوانين العفة، وبالأكثر (بالنسبة) للجسد غير المروَّض والمزاج الشغِب الذي يثب دوماً تبع الشهوة.

+ في إيضاح القوانين التي تجب على السكان في الهدوء :

٣- قوانين الوحدة التي تحفظ طريق السكون باحتراس وصيانه هي: تكميل خدمة الأوقات، القراءة المفروزة، ضرب الميطانيات المحددة، الصَّوْم إلى العشاء عدا وقت المرض، تصرف حسن محترس يتدبر به الإنسان مع نفسه داخل قلايته في ترتيب أعضائه، ألا يكون له خروج ودخول على الدوام بانحلال دون أمر ضروري، وأن لا تكون قلايته مزاراً لكثيرين. هذه هي قوانين الوحدة، وهي محدودة بقياس (أي بدقة)، وليس فيها تعب كثير، وهي التي تحفظ المتوحد من العثرات والسقوط بمعونة الله.

٤- وكما أن الله يقدر أن يحفظنا في هذه الحياة بدون الأكل والشرب كما في العالم المزمع، ولكنه ما رأى أن يفعل ذلك في هذا العالم، بل بمواد كثيرة يمنح لنا الحياة، هكذا هو أيضاً قادر أن يقيمنا بدون تعبنا وهمتنا فوق كل حركة فاسدة وبضمير روحاني لا يفكر في شيء خارجاً عن الله، ولكنه ما رأى أن يفعل ذلك لأجل تعليمنا وتخريجنا.

+ الجلوس في القلاية وفوائده :

٥- القلاية هي كنز الأفهام وبلد التيؤريا ومأوى المعرفة ومكان الفرح، وكور التجارب، ورجوع النفس ونوم الخطية، ومذكرة بالموت على الدوام، وفيها تتيقظ في العقل جميع التيؤريات حسب مقدار منزلة الإنسان، ويمتد سريعاً إلى الأمور الْعَظِيمة.

٦- بنوعين يصنع الجسد نياحه (أي راحته) بحماقة فيسبب للنفس أتعاباً ومشقات وروراميز (أو تصوّرات) عظيمة للفكر وهما: عدم ضبط البطن بالخضوع لتجلد الصَّوْم، وعدم ترتيب الأعضاء التي تعطي دالة للنظر واللمس غير المتعفف الذي يحدث منه فساد هيكل الله بواسطة الأفكار الطائشة في الأباطيل. لأنه بالجلوس المتعفف وحسن ترتيب الأعضاء ينبغي أن يتيقظ الإنسان بذاته وبتصرفه داخل قلايته في الوحدة بحياء وترتيب. فإن أمكن لباسك الجواني لا تخلعه أبداً، حتى لو كنت شيخاً طالما أنك لم تعبر بعد من هذا القتال. ولا تكشف رجليك من الثياب إن أمكن من غير ضرورة أكيدة وتظهر علامة ودلائل الشغب في ذاتك، أو تنخدع لأجل نياح قليل بجسدك، لئلا يثب عليك نياحٌ ثانٍ الذي هو نجاسة الأعضاء. وحتى لو كنت شيخاً لا تطمئن وتتهاون في حفظ الأعضاء، كما لو كان لا فائدة فيها. لأن سبب الانحلال الثَّانِي (أي النجاسة) يكون من الانحلال الأَوَّل (أي راحة الجسد)، وهذا يحدث من عدم التعفف في ترتيب الأعضاء.

٧- الذي يتضيق في نفسه وفي قلبه من أجل الخوف ومحبة العفة، ويفرح بالصبر على الصَّوْم، ويأكل بقانون، لا ينخدع لانحلال الحواس ولا يهمل أبداً ترتيب نظام الصَّوْم، ومن هذه يضبط ذاته من أن يصنع دالة جاهلة مع نفسه. والذي يحترس فيما يخصه (داخل قلايته)، ويقتني عوائد جيدة باحتراس متعفف بجسده وجميع أعضائه، ويكرم الله بنفسه وجسده، معروف أيضاً أنَّه إذا اتفق وجوده خارج قلايته، فإن ذلك التحفظ يرتسم على أعضائه جميعها بحياء نظره قبالة كل عارض يصادفه، ويقتني تلك الصيانة أيضاً بسائر حواسه بسبب تأسس العادة التي اقتناها لنفسه في الخفاء داخل قلايته. فإنه من الكلام المنحل والدالة مع الآخرين الذي يعتاد عليه وهو في قلايته، وانحلاله مع نفسه إذا كان وحده، معروف أيضاً أنه يقتني تلك العادات وينفعل بها وهو خارج قلايته؛ لأن حسن نظام العوائد داخل القلاية يعلمه الحفظ خارجها. فالذي يتدبر في قلايته حسناً لا يمكن أن لا تظهر فيه وهو خارجها تلك الأنواع الحسنة؛ لأن خارج الإنسان هو مرآة ودليل على خفاياه.

+ في الأعمال التي يتدبر بها إذا كان في السكون :

٨- الصمت الدائم هو زينة وبهاء المتوحد. لأنه نقصٌ في حق المتوحد أن يكون مفتقراً إلى الاحتراس فيما ينبغي أن يكون له في السكون، مع الاتضاع الدائم. فإن انحلال تصرفه البراني هو دليل علي انحلال القلب الخفي. والمنحلُّ بحواسه هو أيضاً منحلٌ بقلبه، والمنحلُّ بقلبه منحلٌّ أيضاً بحواسه. والذي هو هكذا منحل من الداخل ومن الخارج لا يمكن أن يكون له اهتمام بالله، ولا بهذيذ تَدْبِير السيرة؛ لأن التَدْبِير البراني يصون الجواني، والتَدْبِير الجواني صيانة للبراني.

٩- العمل الأَوَّل في الفضيلة هو السكون. والعمل الأَوَّل في السكون هو الصَّوْم؛ لأن الصَّوْم يصلح كثيراً لعمل الله. فالسكون هو نقض (أي إبطال) حواسنا من العالم، أمَّا الصَّوْم فهو دليل الفعولية (أي العمل) مع الله، ودليل الاستعداد للقتال والجحود بالعالم. والعمل الثَّانِي في السكون هو الصلاة. لأنه إذا كفر الإنسان بالعالم يحصل في المفاوضة النقية مع الله، التي هي الصلاة. فالصلاة هي طيران عقلنا إلى الله، حسب قول القدِّيس باسيليوس: فلنداوم على الصلاة بإفراز لكي يقتني عقلنا حياء وتعففاً من النظر الدائم في الله والكلام الهادئ معه.

١٠- لا نقدر أن نقتني قلباً متعففاً طالما كانت الحواس تداوم الطياشة في أشياء كثيرة، وفي كثيرين. فالسكون يصلح جداً لعمل الله، ولهذا فإن القديسين قبضوا حواسهم أولاً من العالم، وبعد ذلك اهتموا باستعداد القلب بعمل الله الخفي. لأنه إن لم يرتبط الجسد أولا بعمل الفضيلة لا يتفاوض الفكر بفلاحة الفضيلة. فالجسد المتفرد (في السكون) يصلح كثيراً لعمل الفضيلة؛ لأنه من السكون يقتني ذهناً مجموعاً وضميراً هادئاً وأفكاراً غير مضطربة بمناظر العالم. فلنحب النوم الهادىء في السكون لأن خيالات أحلامه أنفع من أفكار اليقظة التي تكون خارجاً عن السكون. ولنحب الوحدة لكي نقتني منها ضميرَ متوحدٍ متحدٍ بسرِّ الوحيد الذي من حضن الآب.

+ المرض وجهاد الوحدة :

ولنحب الأمراض التي من العدم (أي العوز) لكي نؤهَّل بها للعزاء الحلو الذي يصنعه الله معنا.

١١- إن أعمال الوحدة المتعبة التي ينبغي للجسد القوي الصحيح والنفس الشجاعة تكميلها، وما يقدر الجسد الضعيف المنحط أن يكملها ، هي شيء؛ بينما تلك الأعمال التي تحتاج فقط إلى يقظة واهتمام هي شيء آخر. فهي لا تحتاج إلى قوة الجسد لتكميلها بل استعداد الإرادة. فإذا لم نقدر أن نسهر الليل كله مثل كثيرين ممن يقومون على أقدامهم من العشاء إلى باكر بلا نوم، ونخدم مراميت[٨] كثيرة في كل وقت من النهار، وصَلَوَات متواترة مع ضرب مطانيات كثيرة، وصوم أيام وطي (أي جوع)، فيمكن لمن كان ضعيف الجسد أن لا ينام من العشاء، أن يخدم أيضاً قليل مَزَامِير وقت الستار ثم ينام، وأن يغصب نفسه في الليل - إذا لم يكن مريضاً - ويكمل قليلاً من الخدمة، وإن لم يمكنه الوقوف، فيستطيع ذلك وهو جالس. وإذا لم يقدر أن يخدم سَبْع

[٨] مرميت كلمة سريانية تعني ١٢ مزموراً (أو ثلاث مزامير).

مراميت[9] في كل وقت من النهار مثل الأقوياء، فعلى كل حال يقدر أن يخدم ولو مرميت أو مزمور وَاحِد في كل وقت ولا يعبرها بإهمال ولا يبطل شيئاً من السَبْعةً أوقات. وأن يصوم إلى العشاء مثل الضعفاء أو إلى التاسعة أو لنصف النهار، ولا يأكل من باكر. وهذا الحفظ والاحتراس لا يحتاج إلى قوة جسدية. كذلك إذا لم يقدر الضعيف على الحبس الضيق مثل الأقوياء، ولا حبس الأسبوع كله مثل المتوسطين، فعليه ألا يفتح بابه كل يوم ويمضي إلى أخيه ويركِّب له الأسباب أو يطيش خارج قلايته. وهذا جميعه يقدر أن يعمله ضعيف الجسم. وأيضاً يجب عليه أن يتصرف في قلايته بحسن نظام، فلا يخلع عنه ثيابه ويتعرى ويبعد عنه الحياء والعفة، بل يتقلب (أي يتدبر) بخوف واستحياء من الله. ولا يهتم بغسل وتنظيف جسده ويديه ورجليه، ولا بتسريح شعر ذقنه وتربيته، ولا بتنظيف ثيابه، كمن يعتني أن يجلب على نفسه قتالاً على قتال، وكالزانية التي تهتم بالشهرة.

١٢- ويقدر الضعيف أن يقتني يقظة الفكر. لأنه حيث توجد مخافة الله، فهناك توجد الصلاة الطاهرة التي بغير طياشة، وهي تشجع الإنسان وتعده للصوم الكثير الذي يفوق الطبيعة. فمع مخافة الله ولو سكن الإنسان في النواويس (أي المقابر) والمغاير الضيقة جميع أيام حياته فإنه لا يتضجر. لأنه حيث لا توجد المخافة فلا توجد التوبة أيضاً. وحيث تكون مخافة الله لا يكون ذلك الإنسان محتاجاً إلى الوعظ أو الاحتراس الكثير.

١٣- كل صلاح في النفس يظهر فيه إشراق الفضيلة أمَّا من الإرادة أو من الطبع. والذي من الإرادة هو من غصبية خوف الله (الذي يحرك) إفراز الإرادة. أمَّا الذي من الطبع فهو من خاصية الطبيعة. وحيث لا يوجد هذان الأمران أو أحدهما أي أن يكون الإنسان معاناً من طبيعته أو أن يكون فيه خوف الله الذي يحرك إفرازات الإرادة، فإنه لن يخلو من شيء من الشرور. لأن كل صلاح يتحرك بالعقل في الطبيعة الناطقة، يتحرك القلب به من الله أولاً، ومنه يقوى على الثبات في الصلاح بالفكر الذي ينتبه في القلب بحرارة، وبعد ذلك تُعين حركة الصلاح التي في الطبيعة اهتمام الإرادة الحرة.

+ إهتمام الإرادة والحرية :

١٤- تحكَّم مقابل أسباب الآلام، فتهدأ عنك الآلام من ذاتها. لأن أفكار النهار هي مرآة للحركات في نومك. المَزَامِير والصَلَوَات تصلح عند النوم أكثر من كل مفاوضة نفسانية، وتنفع أكثر من التذكارات التي من الكتب في هذا الوقت (أي عند النوم)؛ لأنها (أي المَزَامِير والصَلَوَات) تضطر الأفكار أن تشخص في الله متواتراً، وتمسك النفس بتلاوتها الليل كله إلى أن ينتبه (الإنسان).

١٥- وإن كان الفكر ينجمع من القراءة، لكنه ما يقتني عفة وحياءً، وينقى، إلا من الصلاة. فالقراءة تجعل الإنسان الخفي جبلة جديدة، ومن الصلاة تنفخ فيه روح الحياة، وتلهب العقل حرارة إلهية كل حين ليطير من الأرضيات ويحل في مسكن الحياة.

[6] أي سبع صلوات كل صلاة ثلاث مزامير أو ١٢ مزمور.

١٦- من القراءة ينجمع العقل، ومن الصلاة يتردى بالحزن، ويقتني شعاعاً سماوياً؛ لأن الحياء يلبس جميع حركاته إذا ما تكلم مع الله. ومن مداومة الصلاة ينمو ويتوفر فيه الحياء والحشمة من الله، ومن دوام الشخوص ولقاء الله في الصلاة تخاف الآلام من الدنو إليه كيفما اتفق.

١٧- الهذيذ في الكتب الإلهية يُكثِر نمو النطقية في النفس إلى الله، ويُغيِّر ويقلب غرض الفكر حسب طريق (أي نوع) القراءة، فينبغي لك قراءة الكُتُب التي تُكثِر (الحديث) في الاحتراس والتحريض على تقويم السيرة، والتي فيها تيؤريا الحلاوة بالله، أو أفكار الدهش به.

١٨- تَغيُّر الكلام في معنى الفضيلة يجدد كل ساعة شهوة الفضيلة في النفس. فهناك قراءة تُعلِّمك ماذا تصنع، وهناك قراءة تشعل النفس بذكر حلاوة الفضيلة وتضع مذاقة تنعمها بالكلام الحلو في مذاقة الإنسان العقلية.

١٩- كن مداوماً على الهذيذ في الكتب وسير القديسين، لأنه من التذكار والنظر الدائم في الكتب وفي طرق سير الآباء تكثر في قلبك أفكار حارة مع عدم ضجر، وتجعل أعمال مخافة الله سهلة أمَّام عينيك، والضيقات والوحدة هينة. وحسب ما يُهمَل الهذيذ بالصلاح بعينيك، هكذا تبطل الشهوة إليه؛ لأنه بمقدار غذاء النفس صالحاً كان أم رديئاً، هكذا يتغير حسن مزاجها أمَّا لصحة الحركات وأمَّا لمرضها.

٢٠- ويتقوى الضمير جداً بسماع الأقوال النافعة، وبنظر الفكر في أعمال القديسين واختلاف طرقهم وقفر مساكنهم ومواضعهم الهادئة. وكما أن اختلاف تذكارات المدن يكدر النفس، كذلك فإن ذكر مواضع القديسين يثير فيها حرارة ويمنحها فرحاً، ويملأها أفكاراً نافعة.

٢١ - كما أنه من القدْح الكثير يخرج شرار النار، هكذا أيضاً من الهذيذ الدائم في الإلهيات تكثر الحرارة. وقد قال بولس الرسول: «لا تطفئوا الرُّوح»، فبماذا تنطفئ الرُّوح إلا بالاهتمام الزائد بالجسدانيات، وإهمال الهذيذ في أمور الله، وبالاستماع الدائم للكلام الفارغ، إذ نترك مفاوضة سير الكاملين وكلامهم الصحيح الذي يغذي النفس ويحرضها على تَدْبِير السيرة، ونجالس أناساً منحلِّين متكلمين بأشياء باطلة فارغة تطفيء الحرارة، وليس فيها شيء ينفع النفس. ضع هذا دائماً في ضميرك كلما نظرت الحرارة قد نقصت من قلبك وأنت تدرك السبب.

٢٢- وإذا ما قرأت الكتب (المقدسة) وانجمع ذهنك من الطياشة، ارجع إلى الصلاة لأن بها يتطهر العقل بالأكثر. لأنه ليس شيء ينقي الضمير مثل مداومة الصلاة، وليس شيء يمنحه حياء وحشمة مثل المفاوضة مع الله بالكلام. حتى لو كان الإنسان مرحاً جداً، فإنه إذا ما قام في الصلاة بحياء وحشمة، ينظر في الله.

٢٣- إذا ملَّ الضمير من كثرة الهذيذ في المَزَامِير والصَلَوَات، ويعرض له هذا بكثرة، وابتدأ يتحيل الأسباب لكي يطمح في الطياشة، فعليك أن تصطاده بحيلة حكيمة مثل الحمامة الوديعة بلقطٍ لذيذ. وإذا نظرته وقد ملَّ بهذه، وأردت أن تربطه بمفاوضة ما مخفي فيها نوع من

الصلاة، وبالأكثر عند النوم، فاشغله بألحان معانيت وقوانين[١٠] حلوة ذات لحن محزن تحرِّك ندامة النفس، وتجد فيها كلام تشجيع وتعزية وفرحاً وأفهاماً في سياسة الله. فبهذه الألحان (يتأثر) الجسد الذي هو شريك النفس ويسكب الدموع، حتى يأخذك النوم وذهنك غاطس في مثل هذه الأشياء، فيكون نومك حلواً خالصاً من كل حركةٍ جسدية.

٢٤- وفي الخدمة أيضاً، إذا ما قام اضطراب الأفكار على الإنسان بقوة ففي تلك الألحان كفاية لتبطلها وتجمع الفكر داخل بلدته بغير تعبٍ. بحريتك اصنع هذا إذا ما تجرَّبت من سجس الأفكار: اترك المَزَامِير (قليلاً) واشتغل بالألحان. ولا أقول لك أن تفعل هذا في كل وقت، أي أن تترك المفاوضة النافعة وتشرح ضميرك بالألحان، بل وقت الضرورة فقط، ولا تخجل من أن تربح بأشياء حقيرةٍ معونةً نافعةً في وقت الحاجة.

٢٥- اعلم يا ابني أن السكون، أي الوحدة، وكل التدابير تعطي أثمارها بحسب المدة والمفاوضة بها. فالسكون وعمل القلاية على قدر المداومة وحفظ العقل يعطي ثمره. فإن كنتَ خالياً من المداومة ومساواتها بالعمل، لا تنتظر أن يحصل لك منها عزاءٌ حقيقي. فكل تَدْبِير بغير قيام ولا دوام مدة تجده أيضاً بغير أثمار، ويكون كأنك قد بدأت به بداية فقط. أمَّا العمل الدائم ولو أنه قليل، فلأجل دوامه يُربّي كنوزاً عظيمة.

٢٦- وأنا أدلّك في هذا المعنى على شيء يليق بالضعفاء، وبه يتقدم الإنسان بسهولة، والحلاوة المتولدة منه بعد قليلٍ فيها الكفاية لأن تجذب الضمير إلى المدوامة. فإذا كنت ضعيفاً ومللت من القيام على قدميك، ومن تكميل الميطانيات المعتادة، وكم من وقت تتعطل أيضاً من الصَلَوَات الدائمة التي تكمل بالجسد، تلك التي منها تتولد الصَلَوَات القلبية، خُرّ على وجهك دفعات كثيرة وأنت جالس والكِتَاب بيدك، واثبت في التضرع، لكي تمتزج مفاوضة القراءة مع الصلاة، وتحلو لك الصلاة لأجل القراءة، وتستضيء أيضاً في القراءة بمفتاح الصلاة. فليكن لك هذا القانون كل أيام حياتك في كل موضع وكل مكان تنجمع فيه إلى ذاتك، وليس في حقارتي كفاية أن أنعت لك ما يتولد من هذا بربوات سطور.

+ أسباب الإحتراس :

٢٧- نحن نمارس الأعمال والاحتراس مع أنفسنا لأجل الخوف؛ لأننا نعرف أن الرَّاحَة الجسدية تبعدنا من الله، وتخيِّب ضميرنا من الهم به. كما أننا نتهاون أيضاً بالمفاوضة مع إخوتنا، وذلك ليس لاستخفاف أو ازدراء بهم، ولا لأنهم ليسوا أفضل منا - إذ أننا في كل وقت نستعين بصَلَوَاتهم - بل لئلا نعدم التنعم مع سيدنا بسبب المداومة مع الناس. لأن الوحدة تجعلنا نتَّحد بالله، وهي تشركنا بالعقل الإلهي، وتوصلنا إلى نقاوة الضمير في زمن قليل بغير تعويق. فكل موضع تكون فيه، صِرْ متوحداً منفرداً بضميرك، وغريباً وخاطناً. ولا تظن أن كل التَدْبِير

[١٠] أجزاء من التسبحة ومردات القداس والمدائح (معانيت أي تراتيل بالسريانية).

والعمل في السكون يتوازن مع أن يكون الإنسان غير معروفٍ ولا محسوبٍ، وبعيد عن كل أمرٍ وكل شيء؛ لأن البعد إنما يكون حدوثه من أن يكون الإنسان غير معروف، وهو بهذا يتربى ويحفظ.

٢٨- تاه عن كثيرين وما يفهمون أننا نحن المتوحدين لا نحبس أنفسنا داخل الباب لأجل عمل الفضائل، إذ أننا حتى ومن الفضائل نكون موتى؛ لأن الفضائل إنما يصنعها الأحياء الذين يعملون في وسط كثيرين، فإن كنا نحن نطلب عمل الفضائل وإخوتنا الذين في المجمع يطلبون أيضاً عمل تلك الفضائل عينها، فمالنا بالهرب وقبر القلاية؟ بل إننا نحن نترجى أن نقتني من السكون الشيء الذي إذا ما تعلقنا بجفون أعيننا ما ننناله بين كثيرين حيث لا يُستطاع اقتناؤه هناك.

٢٩- بالحقيقة إن عمل مائة أخ يصومون ويصلون في السجس والمفاوضة ما يوازن عمل متوحدٍ وَاحِد جالس في السكون ولو كان ضعيفاً، بشرط أن يكون عادماً من الخلطة ومفاوضة الناس، ومتجلداً داخل الباب بغير انقطاع، وليس من يدخل عنده ولا يخرج. لأن الذي هو في الحبس والسكون، ولم يقطع نفسه من كل تذكار واهتمام ويبتعد من كل مفاوضة ويداوم في السكون باستقامة ومحبة الأعمال، فهذا لا لخطاياه القديمة يذكر ولا لزلاته في كل يوم ينظر، ولا لآلامه يعاين، ولا لمجاذبات الشياطين يفهم، ولا للجهاد مع الآلام والشياطين يستعد، ولا لنقاوة القلب يصل، ولا الصلاة الرُّوحانية يقتني، ولا حتى للصلاة الطاهرة يستحق، ولا يشرق نور مجد المسيح الإلهي باستعلان الرُّوح الْقُدُس داخل نفسه.

٣٠- هذه المواهب والعطايا جميعها ما أُعطيت ولا تعطى أبداً خارجاً عن الحبس والسكون. أمَّا الذين يحبون السكون ويحتملون جميع ضيقاته ويصبرون فإنهم ينالونها بلا نقص. وإن كان فيهم من يخرج من هذا العالم وما ينال هذه المواهب لئلا يتكبر ويخسر، أو لأجل أمور أخرى مخفية عن معرفتنا، إلا أنه ما يخيب من العطايا الأَولى (التي توصله إلى نقاوة القلب)، وفي العالم الجديد يتنعم بهذه العطايا (أي بنور مجد المسيح) في ملكوت السموات. ولهذا قلت إن السكون ينبغي أن يكون مكرَّماً عندنا أكثر من كل شيء. ومثلما قال الْعَظِيم في الْعَارِفِين يوحنا التبايسي النبي: «إنه لا ينبغي أن نتدبر في السكون بصوم وسهر بغير قياس، أو بضيقات كثيرة بغير ترتيب، بل أن نعتني بعمل العقل». فالسكون الدائم مع تَدْبِير العقل لا يبطيء كثيراً من أن يُبلِّغ الإنسان ويوصِّله إلى ميناء الحياة والفرح.

٣١- فضيلتان تحبسان جميع الفضائل، ومنهما وبهما يقام تَدْبِير العقل جميعه، ومنهما يقتني الإنسان طهارة القلب، وهما اللتان يفتقر إليهما طقس سيرة السكون: الصلاة التي بغير طياشة ولا فتور، وهدم لمح أفكار الآلام ومجاذبات الشياطين حالما تظهر ويُحس بها وتتحرك في القلب. هاتان الفضيلتان وهذان العملان تُحدُّ بهما وتُحبس كل أعمال الذهن وكل فضائل النفس. وهما تلدان وتمنحان موهبتين إلهيتين، وفيهما تنحصر جميع مواهب الرُّوح، ويصفهما الأب إشعياء بأنهما تفوقان الفضائل، لأجل ارتفاعهما عن الفضائل، ولأنَّهما لا يُعملان بالجسد ولا

يفلَّحان بالنفس، بل إنَّما يُنْعِمَ بهما إنعاماً بقوة الرُّوح الْقُدُس من قبل أن يهتم العقل بما يفوق الفضائل. هاتان الموهبتان هما: حركة روحانية تُحرِّك بلا فتور حركات النفس بغلوة الرُّوح الْقُدُس بحب الله الكامل؛ ونظرة نور مجد المسيح.

+ أقوال الآباء عن السكون :

٣٢- مُكرَّمٌ أيضاً ومحبوب هو تَدْبِير السكون ليس عند الآباء المتوحدين فقط، بل وعند معلمي البيعة الكبار أيضاً. وتعرف هذا مما قاله القدِّيسان باسيليوس ويوحنا ذهبي الفم: إن الإخوة الحبساء لا يُسمُّون متوحدين وصدِّيقين كاملين فقط، بل وشهداء عظاماً. كذلك لمَّا أراد القدِّيس غريغوريوس: أن يعرِّف أخاه أنه بدون الصمت والسكون والحبس لا يُستطاع أن يتكلَّل (بإكليل البر)، قال: «إنَّ سياجك إن تشاء هو بستان غنى الرُّوح وموضع المصاف (أي الجهاد) الذي تُضفّر فيه الأكاليل». أعني أنه مثلما تُجمع الأزهار بعناية داخل سياجات البساتين والجُنَيْنات لكي تُضفر منها أكاليل، هكذا أيضا يمكنك أن تجمع أزاهير الفضائل وتُضفِّر منها أكاليل البر: إذا سكنت في الهدوء وأحاط بك سياجٌ خارج قلايتك وداومت الأعمال المرضية لله فهذا هو معنى قوله إن سياجك إن شئت هو غنى الرُّوح».

٣٣- وقال أحد الآباء أيضاً: إني ما وجدت غبطة في الفضائل كمثل أن يهدِّئ الإنسان ذاته من جميع الأعمال ويصمت عن كل مفاوضة وحديث، وكمالها (يعني الغبطة) هو مخفي عن معرفة الناطقين.

٣٤- وفيلسوف آخر قال: «لا ينبغي للإنسان مُحب السكون أنْ يصمت ويهدأ فقط، بل وليصنع جهاداً مع أفكاره ويقمع آلامه، وهكذا سريعاً يبلغ إلى نقاوة القلب، ويكون مسكناً للحكمة».

٣٥- احتراس الجسد وإفراز الأفكار يقني الفكر عفة نقية. وحفظ الحواس وترتيب الأعضاء حسناً يولِّد حياءً واستحياء الأفكار وضميراً نقياً من غير جهاد. أمَّا عدم الاحتراس والقرب من الناس والأمور فقد ولَّد للشيوخ العمّالين الأعفّاء أفكارَ الشبان وأقامهم في قتال الصبوة (أي الشهوة). كما أن الطياشة وعدم الانقباض تصوِّب (أو تسهِّل) للإنسان سقوطاً على الدوام. وإن لم ينهمك في الشيء لعدم توفر سبب السقطة فهي (أي الطياشة) تُقنيه عقلاً مضطرباً كل وقت، وتُبعد عنه هدوء القلب وسكونه.

٣٦- كذلك ينبغي للمتوحد أن يكون له احتراس لا من الأفكار فقط، بل وبالأكثر من الأفعال. فيجب أن يحترس من الدِّنو إلى جسد إنسان بالكلية لأي أمر من الأمور، وأن لا ينظر سرير علماني، لئلا نضيِّع هذا الزمان الذي أُعطى لنا لفلاحة الحياة، وعند موتنا نطلب زماناً للتوبة.

٣٧- الذي يحب السكون ينبغي له أن يهرب من كل محادثة؛ لأنَّه ليس شيء يرخي نشاط الضمير ويُكثر البرودة في الفكر نحو الله، مثل الأحاديث الباطلة ودوام الكلام الفارغ والسِّير الخَرِفة، فهذه تُبطِل من النفس تماماً الاشتياق لله ومحبة سيرة الوحدة المقدسة. فاعتفِ من

هذه (المحادثات الباطلة) بكل قوتك، وامضِ وَنَمْ في البطالة، أو طُف باطلاً (أي بلا عمل) في الجبل وأنت وحدك، ولا تذكر شيئاً سمعته منها، ولا تعوِّد ذاتك القرب والدنو من المعتادين بها (أي بهذه الأحاديث الباطلة)؛ وعند ذلك تعرف كم تنفع البطالة مع الوحدة أكثر من الاستماع للأمور الباطلة. لأن الإنسان إذا انقبض من مفاوضة الناس، رجع إلى ذاته وإلى تقويم سيرته حسناً قدام الله.

٣٨- متوحد هادئ متواضع معترف بعجزه مع التخلف عن تكميل قوانين السيرة، هو أفضل ممن يقوم بتكميلها بحياة منحلة وإطلاق اللسان وتسيُّب الحواس.

٣٩- «اهرب، يا أخي، من جميع أهوية قلبك التي تقيم عليك القتال - قال الأب إشعياء - ومعونة رَبِّنَا تقهر جميع أعدائك». أعني بهذا أنك إذا ما جلست في السكون، فلعدمك من الطياشة في الأفعال، وانقباضك عن مفاوضة الناس، ودوامك مع سيدك بعمل وصاياه، تغار منك الشياطين وتجذبك للتنازل في دغدغات الشهوة لكي تخيِّبك من حب رَبِّنَا ومن العزاء الرُّوحاني ومن الأجر المحفوظ لك لأجل سكونك وأعمالك. فاصنع أنت هكذا مثلما أقول لك: عندما تحرك الشياطين في قلبك أي فكر شهواني أو غضب أو مجد فارغ، أو أي شيء من الآلام، فلا توافق ذلك الفكر ولا تتنازل معهم ولا تتركهم يدخلون إلى قلبك ويلذذونه، بل اذكر سريعاً تلك اللذة المُعدَّة لك من سيدنا، وانتهر تلك اللذَّة الألمية، واغمض عيني فكرك عن النظر في الفكر الشيطاني، واغصب نفسك - كلما جذبتك لذة الخطية - أن تهرب منها، وانتقل بشهوتك لحب الله، واطلب أن يأتيك منه عون ويعطيك أن تغلب. فإذا نظر الله إرادتك، أنك حتى ولا بالفكر تريد أن تتلذذ بالخطية من أجل التنعم بمحبته، فإنه يشير إلى الملاك اللاصق بك فيطرد الشياطين المقاتلة معك بمجاذباتها كالغبار قدام الريح العاصف. وبعد مدة سنين معلومة، كثيرة أو قَلِيلَة، إذا ما اختُبرتْ إرداتك الصالحة وحبك الصادق لسيدنا، بالصبر في جهادك ومصافك (أي وقوفك) قبالة أعدائه، عند ذلك ليس فقط كل وقت تقاتلك فيه الشياطين يمدك بالمعونة لتغلب، بل إنه إذا ما انقضى زمان مجاهدتك بالكلية، يطرد عنك الشياطين ويمحق (أي يبيد) انجذابها من قلبك، وعوض تلك الأفكار الرديئة الكثيرة المتحركة فيك وقت القتال يملأ نفسك أفهاماً روحانية كثيرة، حتى يبتهج ضميرك في كل وقت بالأفكار الإلهية، التي هي: الهمّ[١١] بعظمة الطبع الإلهي؛ الهذيذ بالثالوث الْقُدُّوس؛ تذكار لا ينقطع على الدوام بالاشتياق لحب المسيح ونور مجده الإلهي الساكن فيه في السماء؛ الهذيذ بالطغمات الممجدة الملائكية؛ ذكر الفردوس وأرواح الأبرار الذين كملوا؛ استعلان مجد المسيح؛ صعود القدِّيسين إلى السماء وتنعمهم مع سيدنا؛ وأشياء أخرى مثل هذه.

[١١] أي الإهتمام أو الانشغال.

المَيْمَر الرَّابع[١٢]

في قتال الشياطين

+ في معنى القتال الذي تصنعه الشياطين بالأفكار :

١- إنَّ الجهاد مع الأفكار الرديئة الذي يكون في السكون يحدث بهذا المعنى: متى سكن الإنسان في الهدوء والحبس إلى الموت، فكل وَاحِد حسب عمله وبمقدار اجتهاده وحرصه هكذا تتصعب عليه الحروب وتشتد مقابله يوماً بعد يوم ووقتاً بعد وقت كلما تقدم إلى قدام إلى أن يبلغ نقاوة القلب، وقبل وصوله إليها بقليل تحدث عليه قتالات صعبة أكثر من العادة وتشتد علية جداً. فإن تجلَّد المتوحد وثبت في الحبس ولم يرتخِ من الجهاد، فهو يبدأ أن يجد راحةً قليلاً قليلاً، ويُعان على الدوام من النعمة. وفي كل وقت تدنو إليه الشياطين لتقاتل معه بمجاذباتها النجسة، فإنه حالما يدعو سيدنا يُعان سريعاً وتُطرد عنه الشياطين بفعل الرُّوح الْقُدُس اللاصق به بالغمز الإلهي (أي بإشارة من الله)، وبعد زمان قليل لا يُسمح للشياطين أن تعود لتقاتله بمجاذباتها بل باللمس والنظر فقط من أجل نقاوة القلب وعدم التألم الذي قد اقتناه. لأن عدم التألم لا يقبل حروباً، كما قال الأب إشعياء، لأنَّه أخذ إكليله وابتعد من الهم[١٣]. وعدم التألم هذا الذي تكلم عنه الآباء ليس هو ذاك الذي يكون بعد القيامة، بل يعنون به صحة النفس وعافيتها من مرض وسقم الآلام الذي كانت فيه أولاً.

+ في معنى الأفكار الرديئة التي تقاتل معنا بقلوبنا :

٢- أولاً: لا يمكن للآلام أنْ تدخل الضمير الذي فيه الإهتمام بالله، لأنَّ به فقط يكون مَحق الآلام واضمحلالها. أمَّا البطالة والرَّاحَة فتتولد منها طياشة الأفكار، ومن الطياشة تكون سلطة الأفكار على القلب، وبالأكثر إذا اشتركت معها الحرارة المتحركة من الجسم بألم الدغدغات الصعبة والتنازل معها.

٣- أمَّا فضيلة العقل التامة: فهي مداومة تذكار الله. وما هي مداومة ذكر الله عند القديسين؟ هي طاعتهم له بحفظ وصاياه. فإذا كان هذا الرأي والعزم للإنسان، كان الله موجوداً في الضمير العمَّال بهَمِّهِ، فإذا ملك في نفسك الهذيذ بالله والهمّ به، اعلم أنك قد قربت أن تستريح من الجهاد المتعب والحرب مع الآلام؛ لأن المفاوضة بالله هي كمال الضمير.

+ في حركة أفكار الزنا:

٤- ثانياً: كل أفكار تجذبك إلى السكون اعلم أنها تدعوك إلى العفة. وكل أفكار تجذبك إلى

---

[١٢] التقسيم إلى ميامر غير موجود في المخطوطات القديمة.
[١٣] الألم.

المفاوضة (معها) اعلم أنها تدعوك إلى النجس كمثل الطير إلى اللقط الذي على الفخ، فهكذا هي أسباب الآلام. والمبتعد عن العالم هو الذي يبغض المفاوضة مع الأفكار، ومع اهتمامات هذا العالم؛ لأن الذي يحب الأفكار معلوم أيضاً إنه يحب العمل بها، لأن من يبغض شيئاً لا يُقاتل به بضميره، كما أنه لا يكون مفتقراً لشيء يغصب به نفسه لكي يبتعد عنه، لأن من يبغض إنساناً فإنه لا يحب أيضاً أن يلاقيه. فإن كان هناك أمر من الأمور نبغضه، ومع ذلك يتعبنا الفكر به ويقاتل معنا، فمعلوم أننا وإن كنا لا نحبه هو إلا أننا نحب أسبابه. أمَّا إن كنا لا نحب أسبابه فهو يكون فكراً ساذجاً ليس له قوة أن يقاتلنا.

+ **المجد الباطل والدنس**:

٥- فإذا ما أراد الشيطان أن يدنس العقل النقي بأفكار الزنا، فهو أولاً يمتحنه بالمجد الفارغ، لأن هذا الفكر لا يُظن به أولاً أنه ألم. وبهذا المعنى يخضع الضمير المتحفظ، لأن الشيطان لا يقدر أن يلقي فيه (أي في العقل النقي) من البداية فكراً سمجاً عارياً، لكنه إذا أخرجه من حصنه بمعنى ضمير هذه الأفكار، فإنه بعد ذلك يلاقيه بمادة الزنا. ثم يعبر العقل على أمور كثيرة من السماجة والشغب، فينزعج في البداية بملاقاتها من أجل عفته واستحيائه من الأشياء التي يصادفها وقد كان متنسِّكاً عنها، ولو أنه لم يتنجس ضميره، إلا أنه يكون قد أسقطه من علوه. فإن لم يرجع ويدرك الأفكار الأَولى بحدة ويهدمها، فإنه بملاقاته هذه الأشياء دفعات كثيرة، تُعمي العادة إفراز النفس لأجل دوامها. وإذا ما خرجت الآلام من بلدها وأظهرت نفسها في القتال، عند ذلك ترتسم الصور والأشكال في الضمير، وتصير كتمثال اقتنى قوة عظيمة على العقل، ويُسجس الضمير جداً ويكدره.

٦- هناك أفكار جيدة وإرادة صالحة، وهناك أفكار سمجة وإرادة سمجة. والأَولى من غير الثَّانِية (أي الأفكار بنوعيها من غير الإرادة بنوعيها) الجزاء عنها قليل. أمَّا الأفكار فهي حركات تجوز في البحر فترتفع أمواجه، وأمَّا الإرادة (بنوعيها) فهي الأصل، وبحسب ضبط الأصل والأساس تكون المكافأة إن كان جيداً أم رديئاً وليس بحسب حركة الأفكار. لأن النفس ما تهدأ من حركة الأفكار المختلفة، فإن كان ليس لها أساس وأصل عميق (أي بالإرادة) فما أقربك كل يوم أن تغيِّر صالحك ورديئك ألف دفعة.

+ **الصَّوْم والنجاسة**:

٧- إذا ما ظهرت لك أثناء النوم أحلام رديئة بطياشة الشهوات، فاعتنِ أن تنقي ضميرك بالدموع، وامنع عن جسدك كثرة الغذاء لكي ينسحق ويتضع. وقد قال القديس أوغريس: «إن شيطان الزنى يهرب من قمع الجسد وإذلاله بالصَّوْم وبالأعمال الأخرى».

٨- الإنسان الصائم يغصب نفسه أن يتشبه بطبع الرُّوحانيين. والإنسان المداوم في عمل الله بخفاياه يُفرز من سكونه وصومه. لأنَّه بهذه الأسرار أيضاً تُكمِّل القوات غير المنظورة خدمة

تقدّيس الأزلية سيدة العوالم.

٩- كما أنَّه مِنْ عَرَقِ الصَّوْم ينمو سنبل العفة، هكذا من الشبع يتولد الفسق، ومن الامتلاء النجاسة. فالبطن الجائعة لا تقوى عليها أفكار السماجة. فاعترف بعجزك واستعن بالبساطة لكي تحيا قدام الله حسناً. لأنه لا يمكن بعد شبع البطن ألاَّ تدنو إلينا تجارب الأفكار وحركة الأعضاء. فيا للعجب من الذين يشتهون الشبع من المآكل، كيف يمكنهم أن يحفظوا العفة ولا تتنجس نقاوتها، ما لم يُمنح العقل حركات إلهية.

+ مُخالطة العلمانيين:

١٠- إنَّ الشيطان إذا نظر المتوحد قد أعدَّ نفسه للجهاد مقابله، فهو عندئذ يتحايل بكل وسيلة أن يربط عقله بالعلمانيين؛ لأنه ما يعرف فخاً أقوى من هذا يعده له، ومن ههنا ففي كل وقت يشاء يستطيع بسهولة أن يخضعه بالسقوط في ثلاثة آلام كبار هي: الحسد والغضب والزنا.

١١- كل أمر يكون الإنسان متفكراً فيه، واهتمامه متحرك به، فهو بالضرورة ينفعل بقوة هذا الشيء، وإليه يميل، وتتصاعد في قلبه كل ساعة أشكال تشبهه. كذلك أفعال النهار وأنواع تصرفه، فإن الفكر في النوم يتخيل أحلاماً تناسبها. فإنَّ كنت متفاوضاً بالله، فإن هَمّه يحرك ضميرك، وإن التفتَّ إلى الشهوة ارتسم تصورها فيك. فلو أنك أخفيت في ثيابك روائح ذكية، فإن رائحتها تفوح في أنفك من غير أن تشاء، وإذا حملت سمكة نتنة في ردائك فرائحة نتنها تفوح لك. كما أنه إذا دخل إنسان بيت الطيب، فإنه ولو لم يشترِ منه تلصق الرائحة بثيابه؛ فخذ هذا الدليل في معنى الفكر وجنسه. فان لم يكن في عقلك قوة للهذيذ في الرُّوحانيات كي تحفظ بها ضميرك من السماجات، أحضر على بالك انحلال هذا العالم وزوال أموره، والحزن الذي يُدرَك في منتهاه، وحَل تركيب أعضائك.

+ نُسك الجسد:

١٢- وأنا أتضرع إليك، أيُّها الأخ، ألا تَمَلَّ من أعمال النسك، ولا تتهاون عن السكون. لأن سكون الجسد يولّد سكون القلب، وضوائق السكون تعد لك نياحات إلهية. ولتُسَرَّ جداً بالضيقات الحادثة عليك لأنها ميناء العفة لجسدك، وهي تقدِّس ضميرك.

١٣- كما أنه لا يمكن للإنسان أن يضبط النار المنظورة ويستعملها بالفعل من دون الأجسام التي هي أنواع الوقود، هكذا أيضاً من دون العمل المحسوس بالجسد لا يمكن أنْ يؤهَّل الإنسان لنار النعمة الإلهية في قلبه ولا أن يقتني حرارة وقود الحب ومعرفة الله. فإن كنا نهتم بطهارة الضمير ولكننا نُبطِلُ الجسد من عمل فلاحة الفضيلة والاهتمام بها، فإن شوكاً وقرطباً ينبتان في حقل ضميرنا عوض الزرع الجيد. لأنه بالنار تُنظف الأرض وبحرارة الأعمال ينقى القلب ويقبل الزرع الطاهر الرُّوحاني. والأعمال التي لأجل الله هي أوانى القدس التي توجد فيها النياحة

الإلهية، وبها تُقبل النِعَم الرُّوحانية والمواهب المقدسة والقوات السماوية.

١٤- الذي استحق أن يكون بِهَمِّ الله الدائم هو الذي يؤَهَّل للدهش الدائم بالله. والذي يُشقي ذاته من أجل الله، ولأجل الخوف من الخطية، هو الذي يستحق أن ينظر في نفسه أعاجيب الله. والذي يحتمل الضيقة بإرادته يحمله الله كما على راحة يده في كل مكان. ولا يدنو منك شرٌّ إلا بنوع التجربة، وهذا لكي يعرِّفك الله بعنايته بك، كما كُتب: «إننا نتضايق ولكن لسنا نختنق».

١٥- ينبغي أنْ نَعْلَمُ، يا إخوتي، أنَّه بضغط الضيقات نقدر أنْ ندخل ملكوت الله. كما أنَّ النفس محتاجة إلى أن تتضايق بإرادتها لكي تستطيع أن تقهر عادات الانحلال، ولكي تؤهَّل للنعمة حسب قول القدِّيس باسيليوس معلم الحق: «مَنْ هو الذي نال روح الله بالاتساع والنفخة من المأكولات؟!».

١٦- إن طريق الله لا يتطلب أشياء غير مستطاعة، بل ما هو مستطاع أن يكون وما يسمح الوقت بعمله. لأن الذين هربوا من الضيقات وتهاونوا بالأتعاب هم الذين سقطوا بيد شيطان الزنا بالكمال، وإليهم أشار أوغريس في قوله: «عذِّب أفكارك بقلة الأكل ليكون هدسها (أو تفكيرها) في الجوع وليس في الزنا». والأب بيمِن قال: «إنَّ الجوع والسهر لم يتركاني أنْ ألتفت إلى السماجات». وقد أظهَرَ بقولهِ هذا أنَّه بالجوع وعدم راحة النوم تصمت الأفكار من النفس؛ لأنه من شدة الضيق لا يتفرغ (العقل) أن ينظر في شيء آخر. وكما أن الجوهرة لا يُحفظ شعاعها بغير فساد وسط النار، هكذا العفة لا تثبت بغير فساد وسط الرَّاحَات.

١٧- أساس دلائل الوحدة وعلامتها هي: عفة الجسد بالطهارة، وصيانة الحواس بحياء العفة، ومن ههنا يتولد حفظ القلب كالتاج الذي هو كمال الوحدة. فالسكون هو ميناء العفة الذي فيه بالصلاة نتكلم مع الله. وكما بلباس القدس بنقاوة الحركات من أجل دالة الأفكار النظيفة من كل وسخ، وكما بِحُلَّةِ العُرس، نتزين كل وقت أنْ ندخل قدامه بعفة ونقدسه بالنفس والجسد معاً.

١٨- نوعان من الطهارة نعرف أن الكنيسة تسلمتهما من تعليم تَدْبِير السيرة الجديدة في المسيح: النوع الوَاحِد هو طهارة الطبع، والنوع الآخر هو الطهارة التي فوق الطبيعة. فبقداسة الجسد لا ينظر العقل بعد إليه بحسب ترتيب ناموس الطبع؛ لأن العفة مفروشة كالرداء على وجههِ لئلا تنظر الأفكار إلى تذكارات حركات الجسد.

١٩- بأربعة أشياء تُحفظ الطهارة بعفة عند من يشاء أن يحفظها في نفسه ويكون فوق القتال، وحتى الشيوخ وكل رتب المتوحدين لا يمكنهم أن ينقُّوا الفكر من دونها، وهى: الاحتراس بالأعضاء من الدالة والانحلال مع ذاته، وهذا النوع يمنع عن المتوحد قتالاً عظيماً؛ ونظر حي متعفف حتى في زمان الشيخوخة، لأن التهاون في ذلك يرمي الإنسان في خطر عظيم على الدوام ويجعله متسخاً، فحفظ النظر واللمس هو الذي يحفظ المتوحد من قتالات صعبة؛ وأنْ لا يجسر أن يتطلع في وجه امْرَأَة حتى ولو كانت عجوز رديئة[١٤]؛ وأخيراً أن يحفظ سمعه من كل

[١٤] أي: ح ال: ف أر.

سيرة تُقال عن النساء، وهذا النوع أعني سماع الأخبار عنهن يثير على النفس راموزاً (أي قتالاً) أكثر من النظر، وحتى الأطهار يتسجسون بهذه التذكارات. ولهذا ينبغي أن نحترس بالعقل حتى لا يصعد فيه فكر شيء من هذا، فلا تَمِلْ بسمعك إلى أي حديث حتى ولو كان عن عفة وطهارة امْرَأَة في شكلها وتصرفاتها، ذلك إن أردت أن تكون عفيفاً.

٢٠- إن طبيعة النفس تشبه النار، وكما أن النار محتاجة إلى مواد هيولية لكي تشتعل بها ويستمر اشتعالها دائماً، هكذا النفس هي مفتقرة في كل وقت لأن تحرك فيها مواد التذكارات الجيدة لكي تسخن حركاتها وتسير بخفة في الرُّوحانيات، وإن نقصت هذه التذكارات فإنه قليلاً قليلاً تنطفئ حركاتها من الحرارة في الإلهيات.

٢١- هناك خمسة أسباب - أعني فضائل - من دونها لا يمكن لكل رتب الناس أن يكونوا بلا لوم، إن كانوا رهباناً أو علمانيين. وهذه الفضائل إذا ما حفظها الإنسان تخلَّص من كل مضرة، وصار محبوباً عند الله والناس، وهي: جسد عفيف؛ لسان محترس؛ زهد عن الرغبة والشره؛ كتمان السر في سائر الأمور بغرض مستقيم إلهي؛ وأن يكرِّم كل مقادير ومنازل الناس فوق ما يستحقون. لأن الذي يكرِّم الناس يكرَّم هو أيضاً منهم ويأخذ المجازاة من الله؛ لأن الكرامة توجب كرامة والازدراء يجلب ازدراء، والذي يكرِّم الله يكرَّم هو أيضاً منه.

٢٢- أربعة آلام كل من كان مستعبداً لها يسقط في كل ظنون رديئة سمجة، وهي: جسدٌ مشاغب؛ الرغبة في أشياء جسدانية؛ لسانٌ قاسٍ؛ ونقل الكلام من وَاحِد إلى آخر بنوع المثلبة، وهذا الفنّ مبغوض من كل أحد لأن الله يبغضه، والذي يمارسه يقع في كل خطية سمجة في كل موضع.

٢٣- والذي يتخلى الله عنه لأجل تعظمه يسقط في وَاحِدة من هذه الأنواع الثلاثة: أمَّا في فسقٍ سمج، وأمَّا في ضلالةٍ شيطانية، أو في أذيةٍ عقلية.

٢٤- العفيف: حقاً فحتى نظر عينيه لا يتركه مكشوفاً بلا غطاء، وينبغي أن يستحي حتى من ذاته. فكما أنَّ الكَرْمَ لا يُحفظ من المفسدين بدون سياج؛ هكذا العفة بدون الحياء. كذلك لا يُحفظ الفكر والقلب أيضاً بلا لوم بدون الحياء، لأنه إذا كانت الأعضاء بلا حياء كان الفكر والقلب أيضاً بغير حياء. فالقلب الذي لا حياء فيه يترك حواسه بغير حفظ، وفي كل وقت يتنجس منها.

٢٥- مخافة الله: خَفْ من الله، أيُّها الأخ، ولا تترك عنك مخافته، وبغير تَدْبِير نظام عقلي تترك بيتك أي جسدك الذي هو هيكل الله. خَفْ من الزلل أيُّها العفيف واقتن لجسدك حياء واستحياء، ولحواسك قبضاً، وبالأكثر في موضع ينبغي فيه الخوف.

٢٦- كن مداوماً هذيذ الكتب وسير الآباء؛ لأنه من التذكار والنظر الدائم في الكتب وفي الطرق التي سلك فيها الآباء تكثر فيك أفكار حارة وعدم تضجر، وتجعل جميع أعمال مخافة الله خفيفة وسهلة في عينيك.

٢٧- العفة: هي ميناء القداسة. والقداسة هي قلب نقي من كل رذيلة. وبحقٍّ هذا هو قديس الله الفاضل: الذي لا يتبكت من نيته أنه يوافق الشرور في خفاياه. والفضيلة ليست عملاً متعباً أو فعلاً عسراً، بل هي قلب بغير لوم يرضى الله، ولهذا لا يعرف (الفاضل) ولا يُفرز للعين الجسدية، بل لتلك العين الخفية الفاحصة مخازن القلب. فالذي يريد أن يحفظ قداسته بنقاوة ولكنه لا يهتم بواجباتها يسقط عنها ويخيب، لأن الذي بنظره وسمعه يخضع بلذة ويميل لنظر ولكلام يوسخ العفة، فإنه أيضاً يحب هذه السماجات في قلبه.

٢٨- طوبى لمن تأدَّب بالأحزان اللائقة بطريق القديسين، لا بالمحن والأضرار البشرية.

٢٩- الجسد المتفرد يلد ضميراً متفرداً، وحسبما يختلط الجسد كذلك يختلط العقل.

٣٠- المتوحد هو الذي يجعل مسكنه خارجاً عن مناظر العالم، وله طلبة وَاحِدة فردية في صلاته هي شهوة العالم الجديد.

٣١- البتولية ليست هي أن يحفظ الإنسان جسده فقط من الفساد والنجاسة، بل وأن يستحي من ذاته أيضاً إذا كان وحده.

٣٢- إن تهاون المتوحد بخدمة السَبْعةً أوقات الموضوعة كقانون لازم لخلاص الذين يجاهدون مع الشياطين، وأهملها من غير ضرورة أو بفعل سبب ما من الأسباب، ثم يقول لك إنه يتخلص من الخضوع لروح الزنا، فحتى ولو كان شيخاً له مدة كبيرة في هذه السيرة أمَّا بالفعل أو بالفكر؛ فاعلم عن تحقيق بغير شك أنه يُتوِّه بك ويتحايل أن يستر ويخفي خجله ويُبعد الحس عن النفس لكي لا يترك عنه الرَّاحَات ويخضع للقانون.

٣٣- آلام الجسد هي: الغضب والشهوة ومحبة المفاوضة والحديث الباطل وما شابه ذلك، وهي تهدأ وتصمت بالصَّوْم وخدمة الأوقات والجلوس المنفرد بغير طياشة. وآلام النفس هي: الطياشة وعدم المعرفة والحسد والمجد الفارغ والعظمة وما تبقى، وهي تبطل بالصلاة والقراءة والمعرفة المتولدة منها. والذي من دون هذه يروم أنْ يُسكت آلام الجسد أو يُنقِّي العقل إنما يُشقي نفسه ويتعبها باطلاً.

+ مداومة الصلاة:

٣٤- في وقت القتال والظلام علينا أنْ نَثْبتْ في الصلاة وضرب الميطانيات على الأرض حتى ولو كنا بالطياشة. وإذا لم يكن تواتر قتال، بل هو ظلام محزن أو طياشة العادة وأفكار الهمج، فلنفضِّل جزء القراءة أكثر من الصلاة ولكن نمزجهما مع بعضهما، ونأخذ من الكِتَاب دواءً نُقدِّمه للصلاة. ولا ينبغي أن نُبْطِلْ (أي نوقف الصلاة) الصلاة مع قوانينها لأي سبب من الأسباب. وطوبى لمن يَثْبَتْ دائماً على باب الصلاة فإنه لا يخزى.

٣٥- مُكرَّمة عند الله الضيقات التي لأجل البر أكثر من النذور والقرابين، ورائحة عرق تعبها أكثر من كل بخور وعقاقير ذات رائحة زكية. كل فضيلة لا يتضايق فيها الجسد فلتكن عندك كالسقط بغير نفس. قرابين الصديقين هي دموع أعينهم وتنهدهم في الأسهار. يصرخ الصديقون بأنين من ثقل هذا الجسد فيستريحون، ويرفعون صَلَوَاتهم بحزن إلى الله فتأتى القوات المقدسة إلى صراخ ضجيجهم؛ لأن الملائكة القديسين يشاركون القديسين في تجاربهم لقربهم منهم.

+ **الأعمال الصالحة**:

٣٦- الأعمال والتواضع تجعل الإنسان إلهاً على الأرض. وطوبى للإنسان الذي يعرف ضعفه، لأن هذه المعرفة تكون له أُسَّاً وبدءاً لكل صلاح وفضيلة.

٣٧- مُحِبُّ الأعمال ليس هو الذي لا يحب راحة الجسد، بل هو الذي لا يحب مفاوضات الجسد ومحادثاته. كذلك ليس كل من كانت أعماله قَلِيلَة هو محب للراحة، ولا كل من كانت أتعابه كثيرة هو محب للأعمال. فثمة من تكون أعماله قَلِيلَة ولكن نفسه مملوءة حزناً، والأعمال التي عدمها بالجسد بسبب ضعفه وانحطاطه يوفيها بعمل القلب وبالانقباض مع نفسه، إذ يلجم أفكاره لئلا تتواثب على نفسه آلام الجسد. وثمة من يعمل كثيراً حسب القوة التي في جسده، ومن وقت لآخر يضيع أعماله بانحلال الرَّاحَة وبالطياشة في كذا وكذا، وبسبب ذلك لا ينتج فيه من أعماله شيء من المنفعة، كما وينشأ فيه الافتخار من وقت لآخر.

٣٨- اعلم أن الآباء الْعَارِفِين لم يضعوا قوانين محدودة على أعمال الجسد لكل منازل ورتب الإخوة السكان في الهدوء بالتساوي، بل أذنوا لكل وَاحِد أن يتدبر حسب مقداره وحسب مزاج جسده وموضع سكنه، وحسب سِنَّه. كما أنَّ أعمال الجسد من دون حفظ العقل هي بطن مقفرة وثدي ناشفة، ولا توصل الإنسان إلى مخافة الله حتى ولو كان الجسد عمالاً للمواهب الإلهية.

٣٩- كما أن المواد الدهنية تزيد اشتعال النار، هكذا طراوة (أي دسومة) الأطعمة تنمى ألم الشهوة.

٤٠- معرفة الله ما تسكن في جسد محب الرَّاحَة. فالإنسان الذي يحب جسده لا يؤهَّل لمواهب الله. وكما يشفق الأب على ابنه، هكذا يشفق المسيح على الجسد العمال، وهو في كل وقت قريب من فمه (أي يسمعه). ومن نصيب الشيطان ومرذولة عند الله هي الفضيلة التي تكمل بالرَّاحَة.

٤١- ليس فكر فاضل ما يكون حدوثه موهبة من فوق. هكذا أيضاً الأفكار التي تضاد عمل الوصايا بقوة، إنما تكون بنوع التجربة من العدو.

٤٢- فلاح الحقل الناطق (أي العقل) هو الله وزرعه هو الأفكار الفاضلة الحارة المتحركة بضميرنا في كل وقت. وزوان الإنسان العدو هو الأفكار الرديئة التي يبذرها وسط الحنطة

زريعة صاحب الحقل الجيدة. أمَّا أنت فاقلع الزوان واحفظ الحنطة ونَمِّها لتكون غذاء حلواً للنفس.

٤٣- إنْ لم تقتنِ مادة تنفع بها المحتاجين وتعاضد المضنوكين، فَكُنْ مشاركاً طوبى الرحومين بشفقة قلبك عليهم، وإن اضطرك أمرٌ لذلك فلا تضيع بعدم شفقتك دالة قلبك قدام الله الرحوم وفي وقت الصلاة تخيب من الدالة إليه التي هي هي تنعم القديسين قدام الله وقت الصلاة، وإذا كُنْتَ هكذا وما تنخسك نيتك فاعلم أنك متدبر بلا إفراز.

٤٤- كلما احتُقر العالم عندك، كلما تزايدت فيك محبة القريب، وتتبعها نعمة الرُّوح الْقُدُس فترفع أفكارك لمحبة الله مثل ترتيب السيرة. وحسبما يتزايد فيك التمسك بالعالم، هكذا تنقص عندك محبة القريب.

٤٥- كل تَدْبِير لا يوافق الوقت عليه ولا السبب، لا يُطالَب به مَن لم يعمله، أمَّا إن كان هناك تَدْبِير يوافق الوقت لعمله، ثم يتهاون به الإنسان فإنه يكون في ناحية المذنبين.

٤٦- الرحوم الحقيقي هو الذي في استعماله الرحمة لا يفرز المستحق من غير المستحق، ولا يميز شيئاً من الرتب.

٤٧- البر هو إفراز النية قدام الله بعمل الجسد. والفضيلة هي حكمة القلب، وحيثما توجد هناك يسكن الله، وهي مفتاح ملكوت السماء. القلب غير الحكيم عديم الإفراز لا ينتفع ولا من الأعمال الجيدة؛ لأنه بجهل ضميره يفسد أعماله. أمَّا القلب الحكيم فهو من غير عمل يتكلل لأجل المشيئة التامة التي يظهرها قدام الله العارف بالكل.

٤٨- ندم النية هو هو التوبة، والاتضاع هو أن يلوم الإنسان نفسه، فهذه هي ندامة النية. ومثل هذا الإنسان (الذي يلوم نفسه) يكون محبوباً من كل أحدٍ لأن الله قد أحبه. وإذا لم يجد الله هذا في شعب إسرائيل، لامَهم على يد إرميا النبي قائلا: «ليس من يندم على شروره ويقول بئس ما صنعت، بل الجميع سالكون في أهوية قلوبهم كالفرس الذي ينجذب للقتال».

٤٩- الغريب هو الذي تغرَّب بفكره من جميع أمور هذا العالم. والنوَّاح هو الذي بالجوع والعطش يخرج كل أيامه بهذه الحياة من أجل انتظار الرجاء السمائي. محب المديح ليس هو الذي إذا مُدح يستريح بالمدح ويفرح، بل هو الذي يتحيل أسباب المديح.

٥٠- المتواضع العقل هو الذي إذا مُدح ولو عن استحقاق لا يستريح قلبه بذلك. المتواضع هو الذي ما يقاوم في شيء؛ لأن من كان متواضعاً لا يكون مقاوماً. والذي يشتعل بالغضب في تقويم الآخرين، ليس هو متواضعاً؛ لأن المتواضع الحقيقي هو مبتعد من كل غضب، ونقي من سائر حركات الغيرة، وهو يسأل بمحبة وما يتألم ولا يتكدر. لأن المتواضع تلازمه بالضرورة قوة الاحتمال والصبر؛ لأنه بدون قوة الصبر على الأحزان والضيقات ما تُعرف قوة التواضع.

٥١- المضبوط بأمور هذا العالم، والمرتبط بشيء من الأمور الزائلة ما يستطيع أن يكون متواضعاً قدام الناس ولا غير متسجس في كل وقت ولا نقي القلب. فالمتواضع هو المائت بالحقيقة الذي قلبه ليس مرتبطاً بشيء من أمور هذا العالم؛ لأنه ما يتسجس من محبة شيء من الأمور (الزائلة). فإن أردت أن تكون متواضعاً، فحُلَّ ذاتك من أمور العالم، واتبع الوَاحِد (الله) بالإيمان والرجاء والحب، وعند ذلك تجد عوض العالم الوَاحِد الذي تركته سلطان العالمين الاثنين.

٥٢- في الوقت الذي تكون فيه بطالاً من العمل بسبب ضعف الجسد ومرضه، استعمل اتضاع العشار الخاطئ الذي - من غير عمل الجسد - يتفاضل الإنسان به عند الله ويتبرر.

٥٣- لتكن نفسك محتَقَرةً في عينيك، وازدر بها في كل وقت، فتتضع قدامك جوقات الشياطين. واتعب ذاتك في الركوع قدام الرب، فتنحل من قدامك كل حيل الشيطان، وينفتح داخلك ينبوع المعونة والمعرفة. فما دمت في هذا الحياة حقِّر نفسك على الدوام بذِكر خطاياك، واعترف بها قدام الله وأنت منسحق على الأرض، فتتولد لك من هذا دالة القلب قدام الله؛ لأنه ليس يبقى بلا عزاءٍ قلبٌ منسحق خائف من الرب. لأن «ذبيحة الله هي قلبٌ منسحق وروحٌ متواضعة لا يرذلها الله»، والذي هو غريب عن هذا هو غريب عن مراحم الله ومعونته.

٥٤- إذا ما انسحق قلبنا دنت منا الرحمة والنعمة، أمَّا إذا وثق قلبك بأعماله، فافهم أن مجيء التجارب قريب منك. والأعراض المؤذية والمحزنة للجسد يكون حدوثها للإنسان بسماح من الرب لكي تسبب له التواضع والخوف. ولا تظن أنه بدون سماح من الرب تصادفك تلك التجارب التي تؤذي وتحزن وتوجع وتسحق، إن كانت من طبيعة الجسم بالأوجاع والأمراض، أو من مضادة الأشياء التي تؤذي، إن كان من الوحوش أو من لدغات دبيب أو من عثرات في الأحجار، أو كان بتوسط الناس والشياطين. فإننا نقع فيها بسماح من الرب، وبسياسة منه تتحرك علينا لأجل مقتنا (أي إذلالنا) وتوضيعنا.

٥٥- ليس عزاء لخواص الرب خارجاً عنه؛ ولا ضغطات وأحزان ومشقات من كل بُدٍّ ونوع إلا ويكون حدوثها منه. وهي لا تبطل بتحيلنا وتدابيرنا، لأنها قد أخذت قوة علينا بسماح منه. فإذا قسينا قلوبنا مقابل التجارب، فهذا علامة ودليل أن ضيقتنا سوف تتصعب جداً، ويسمح الله بذلك. وإذا استعددنا قبالة التجارب بقلب منسحق واتضاع، فهذا علامة ودليل أن الرحمة ممتزجة بالتجارب. وطوبى لمن يخاف دائماً كقول الكِتَاب، أمَّا الذي يقسي قلبه فيقع في الشرور، لأن القلب القاسي تكثر أوجاعه.

٥٦- وينبغي أيضاً أن نعلم أن المحزنات تجمع العقل إلى الله. وكل شيء نفعله بغيرةٍ وخوفاً من الخطية هو فضيلة تامة وشهادة من أجل الله؛ لأن العقل يهذ بالموت لأجل وصايا الرب، وهو يحفظ الوصايا بسبب الخوف من الخطية. والخطية هي أن يوجد فينا شيء من الأمور التي قد حُدِّد علينا أن لا نفعلها ونوجد لها مدينين؛ لأن الاحتراس من هذه الأمور بحكمة في أي نوع

كان، يكمِّل فينا الحب لله والقريب، ويُحسب لنا فعل شهادة. كقول أحد القديسين: «إن كل شيء يُفعل بآلام (رديئة) بشرية هو خطية، وكل اضطرار وضيقة من أجل الله هو اعتراف». وباختصار فإن الفضيلة هي الهذيذ بالموت من أجل الله. وهذه هي الفضيلة: أن يصبر الإنسان على الضيقات لأجل مخافة الله، وإذا ما أدَّبنا الرب في شيء من الأشياء، فلنتخذ ذلك بنوع التوبيخ والتقويم، ونَتَّجر فيه لنربح ونشكر الذي في كل أمر يطلب ربحنا ويشاء خلاصنا، ولا نفتح فمنا بوقاحة وقساوة ونلوم سياسة الله وتَدْبِيره كما لو أنه بظلم يجلب علينا التأديب.

٥٧- كلما كانت مخافة الله لاصقة بقلبك، اعلم أن عناية الله تتبعك في سائر أمورك، وتفهم هذا من عنايته بك في الأشياء الجسدانية حيث تجد المعونة منه في الأمور الظاهرة من جهة احتياجك الضروري، وفي أوقات كثيرة تجد فُسحة وسهولة في الأمور العسرة الصعبة. كذلك فهو يمزج لنا العزاء في التجارب العارضة لنا في طريق مخافة الله، لكي إذا تضايقتَ من ناحيةٍ بالتجارب يدبر لك عزاءً ومعونةً من ناحية أخرى إن كان في مرض أو في عائق أو في عوز شيء ما، فهو في كل أمر يَعرض لك يعزي ويسلي بالمعونة.

٥٨- في خمسة أبواب يدخل الإنسان إلى حكمة الرُّوح، وإلى كل معرفة إلهية: الأَوَّل الهذيذ في الكُتُب، الثَّانِي الهمَّة بعمل الفضيلة والاهتمام بها، الثَّالِث التجربة (أي الخبرة) بالحروب ومقاساة التجارب التي لأجل الفضيلة، الرَّابع أخذ تجربة عناية الله التي تعين في وسط التجارب والعوارض الصعبة. هذه الأبواب الأربعة تقدِّم الإنسان إلى معرفة الله بمادة من خارج. أمَّا الباب الْخَامِس فهو بدون مواد خارجية يُوصِّل إلى معرفة أفضل، وهو الموهبة التي تُعطى لنا من نعمة الرُّوح الْقُدُس داخل القلب. هذه (الموهبة) هي: النبوة وقوة سبق المعرفة ووجود الأسرار والاستعلانات غير المحسوسة بالعقل، واستضاءة الأفهام: ١- فمن يقرع باب الكتب بإفراز ينفتح قدامه باب الفضيلة، ٢- ومن يدخل باب الفضيلة ينفتح عليه باب التجارب، ٣- ومن يدخل في باب التجارب التي لأجل الفضيلة فإنه يأخذ تجربة (أي يختبر) عناية الله ويكون لصيقاً بالملائكة. ٤-ومن يدخل في هذا الباب فهو بتوسط التعزيات والمجاذبات التي تصادفه، يؤهل لعناية الرُّوح الْقُدُس.

٥٩- إنَّ التجارب الحادثة لنا وتعرض بدون إرادتنا بنوع من السياسة الإلهية، هي تعلِّمنا محبة الأعمال وتجذبنا إلى التوبة من غير إرادتنا. ولهذا فإن القلب المؤمن ما يخاف من شيء، بل يحتمل كل الأشياء ويُصدِّق أن الله قد جلب عليه (التجارب) بسياسة منه. لأن الله ينظر في تواضع قلبنا، ولا يتركنا أن نقع في شيء ردئ أو أن نضل منه ونهلك. فالأعمال التي لأجل الله تتبعها معونة، وباختصار فإنه بالضيقات توجد كل الخيرات، وبالضيقات يقتني الخطاة درجات القديسين، وهي رسم التوبة.

٦٠- لأنه إذا ما ثبَّتت النعمة الإنسان في الاتكال على الله والثقة به، عند ذلك تبدأ أن تدخله في التجارب قليلاً قليلاً، وتسمح أن تنطلق عليه التجارب التي تكون في منزلته كفاية ومقدرة على حمل صعوبتها. وفي وسط التجربة تدنو منه النعمة بمعونتها (بنوع) محسوس، وذلك لكي يثق

ويتشجع ويتخرج (أي يتدرب) قليلاً قليلاً، ويقتني حكمة وفهماً، ويجسر على أعدائه بثقته بالله. لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم (أي يقتني حكمة) في القتال الرُّوحاني بدون هذه (التجارب)، ولا أن يعرف مُدبِّره ويحس بالله وتثبت أمَّانته فيه خفياً بالقوة التي قبلها في نفسه بالتجربة (أي بالخبرة). وإذا نظرت النعمة أنه قد بدأ يتحرك فيه فكر عظمة ما أو ظنون بنفسه (أي غرور)، فإنها تسمح بأن تشتد التجارب عليه وتتصعب، لكي يعرف ضعفه فيهرب ويلتجيء إلى الله باتضاع. لعجيبة هي معونه الله مع الإنسان وتُعرف إذا حصل في وسط أمور خطرة مملوءة من قطع الرجاء واليأس، حيث هناك يُظهر الله قوته ويخلِّصه منها. فالإنسان لا يعرف قوة الله أبداً في الرَّاحَة والسعة، ولا يظهر قط فعله محسوساً، إلا في موضع هادئ وبرية ومواضع خالية من الاضطرابات والمفاوضات ومن مساكن الناس.

٦١- لا تعجبن من هذا، أنك إذا بدأت بالفضيلة فللوقت تنبع عليك ضيقات صعبة من كل ناحية؛ لأنها لا تُحسب فضيلة تلك التي لا يتبع عملها تعب ومصاعب، لأنه من هذا قد سُميت فضيلة، ومن عادة هذا النشاط أن تحيط به المصاعب. ومرذولة هي الفضيلة التي تكمل بالرَّاحَات. فكل فضيلة تُسمى صَلْبَاً، لأنَّها تُكمِّل وصية الرُّوح: «لأن جميع الذين يريدون أن يحيوا بمخافة الله بيَسُوع الْمَسِيح يتضايقون ويطردون»، «ومن يريد أن يتبعني يكفر بنفسه ويحمل صليبه ويأتي ورائي»، «ومَنْ يُريد أنْ يُحيى نفسه بالرَّاحَة يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها». ولهذا سبق فوضع قدامك الصلب والموت حتى تضع ذلك على نفسك وتسير وراءه وتتبعه. فليس شيء أقوى من قطع الرجاء (باستعداد الصلب)، هذا لا يعرف الانغلاب من أي شيء سواء كان في أمور يمينية أو شمالية، لأنه إذا قطع الإنسان الرجاء من حياته، فليس لبيبٌ مثله، ولا عدو يقدر أن يلاقيه. فطوبى لِمَنْ يتهاون بهذا العالم ونياحاته، ويتبع الرب ويسير وراءه، لأنه يفرحه معه في العرس في عالمه الجديد.

٦٢- أيُّها التلميذ الذي يريد أن يجد نفسه فيما لله اطلب هذا: أن تهلك جسدك بأعمال مخافة الله، وأن تحزن نفسك بالتنهد والألم على شرورها، لكي تجدها في الرَّاحَة التي لا تفسد. وصلِّ في وحدتك بهذه الصلاة قائلاً: يا لله أهلني لحزن النوح في قلبي، يا رب استأصل من قلبي مفاوضات العالم.

٦٣- الوقت الذي تريد فيه أن تترك بلدك من أجل الله، هذا هو بدء الفضيلة. فاترك الموضع الذي تتنيح فيه بالجسد وارفض أسباب الرَّاحَة من أجل الخوف في أمور النفس لئلاً تخسر في الرُّوحانيات. وإن كان الفكر يسجِّسك ويخوفك، اذكر هذا وصدِّق أن الله يوفق لك موضعاً أفضل وأوفق من ذلك، ويكون الله لك مرشداً إلى حيث تمضي. ولأنك بنوع الفضيلة قبلت على نفسك أن تقطع الهوى الجسداني الذي يريد الرَّاحَة وتهتم بفوائد الرُّوح وتتضايق في فكرك حتى تعتاد ذلك، وتغصب ذاتك وتتبع سيدنا، فهو يصوِّب لك موضعاً يعزي أكثر من الموضع الأَوَّل لكي تحمل المصاعب بفرح بقوة يهبك إياها.

٦٤- ينبغي أن يكون لك إيمان تام بالله، وهذا ضروري للإنسان، لكي يقتني به شجاعة الأفكار حتى يستطيع أن يترك بلد وموضع الرَّاحَات بقصد وغرض الفضيلة، ويؤمن أن الله يكون له مدبراً ومرشداً ومصوِّباً ومعيناً. لأنه ليس كل أحد يرفض الرَّاحَات لأجل الفضيلة ما لم يثق بسياسة الرب وتَدْبِيره الخفي وغير المنظور. فإذا ما بدأ الإنسان بالأعمال الصعبة من أجل الرب، وبدأ يُدخل ذاته بالفعل تحت الصعوبات، فهو إن لم تكن لديه هذه الثقة، لن ينظر هذه السياسة الخفية المدبِّرة لجميع الخليقة وخاصة للقديسين. فإن لم يتشجع الإنسان بفكره ويدخل إلى الجهاد، فهو لا يستطيع أن ينظر معونة الله التابعة لطريق الفضيلة.

٦٥- لأن الذي يشتاق إلى الرُّوحانيات فبالضرورة يتهاون بالجسدانيات ويرفضها بفرح ويستخف بها. والإهمال والكسل يخيِّبان الإنسان من معرفة الله، ومن أنه بالتجربة بإيمانه يثبت في الإلهيات. لأن الذي لا يؤمن يكون دائماً متعبداً للجسد. والخوف من أجل الجسد والحرارة من أجل الله لا يثبتان معاً في نفس وَاحِدة، كما أن عدم الإيمان والإيمان كليهما لا يكونان في نفس وَاحِدة. فالاهتمام الزائد وشك القلب وتَقسُّمه يتبع قلة الإيمان. لأن الإيمان يعرف أن الأمور غير المستطاعة عند البشر هي مستطاعة عند الله، لأنه ليس شيء يعسر على الله فكل شيء مستطاع للإيمان لأن المؤمن إنما يكون نظره إلى الله وليس في الأمور.

٦٦-[١٥] النفس التي تحمل غيرة الفضيلة وأعمال مخافة الله لا يمكن أن تكون بلا أحزان كل يوم؛ لأن الفضيلة والأحزان هي بالضرورة مشتبكة بعضها ببعض. فالذي يهرب من الضيقات يخيب من الفضيلة أيضاً، والذي يثبت في الفضيلة يقاسي أيضاً الأحزان. فإن اشتقت للفضيلة أسلمت نفسك لكل ضيقة. فالفضائل تولِّد الضيقات والضيقات تولِّد التواضع.

٦٧- [١٦]إن الله لا يشاء أن تكون النفس بلا اهتمام، فالذي يريد هذا (أي أن يكون بلا اهتمام) قد أوجد عقله خارجاً عن إرادة الله. والاهتمام ليس هو الذي يكون من أجل الجسدانيات، بل هو الهم من أجل الضرر الذي يتبع الفضيلة. فإلى أن نبلغ إلى معرفة الحقائق التي هي استعلان الخفايا، لا يمكننا أن ندنو من الاتضاع إلا بواسطة التجارب. والذي هو بلا أحزان في الفضيلة فإن باب العظمة ينفتح له؛ لأنه لا يمكن من غير أسباب المقت (أي المحقرة)، أن يكون الضمير في التواضع. كما أن الله لا يرفض الإنسان بالكلية أو يَكرهه لأي شيء من الخطايا، إلا إذا وجد عقله متفاوضاً بأفكار العظمة والافتراء والتجديف، ولهذا تكون الأُولى (أي العظمة) سبباً للثانية (أي رفض الله). والذين يخرجون من طريق التواضع بضميرهم، وبهذا يتعرّون من المعونات الإلهية، يسقطون: أمَّا في سماجة الفسق، أو في التجديف على الأمور الإلهية، أو يتأذون في عقولهم. أمَّا الذين يتعظمون بتَدْبِير الفضائل فيسقطون بالأكثر في الفسق السمج، والذين يتعظمون بتَدْبِير فضيلة العقل يسقطون في التجديف على الأمور الإلهية، أو يقعون في ضلالة العقل.

---

[١٥] راجع الميمر السابع من الجزء الثاني ف ٧-٢٠

[١٦] شرحه

٦٨- والعظمة: ليست هي الفكر إذا عبر في الضمير، بل هي التي يثبت فيها الضمير. أمَّا الحالة الأَولى (أي مجرد عبور الفكر في الضمير) فمن الواضح أن الندامة تتبعها، وأمَّا هذه (أي ثبوت الفكر في الضمير) فإذا ما أحبها الضمير لا يعرف الندم. وتلك الأَولى هي دليل على ضعف الطبيعة، وأمَّا هذه فهي من وقاحة الإرادة، وأحياناً تكون من مدح الناس أيضاً. فهناك من يتنجس عقله وينضرب بالتجنن، ويريد أن يكون فعل العجائب على يديه قدام الناس لكي يكثر مجد عظمته، فيحسّون أنه قريب جداً من الله.

٦٩- كثيرون تفاضلوا بتَدْبِير السيرة، وأُعطوا من الله مواهب كثيرة، وما قدروا أن يحتملوا كثرة المواهب التي حصلوا عليها، فانساقوا للعظمة ورُذلوا كالكُناسة، وابتعدوا عن الله وخابوا من عِظم الرتبة التي كانوا فيها. وكثيرون آخرون كانوا هادئين ومرتبين وذوي عقل رزين وكلامهم موزون، أعفاء في سيرتهم وفضلاء في المعرفة فصاروا علامة رعب لمن يعرفهم ومنظراً محزناً مبكياً لمن يبصرهم.

٧٠- ليس كل هادئ متضع بل كل متواضع هادئ. متواضع غير جيد ولبيب لا تجد، جيد غير متواضع تجد مثله كثيرين. لأن المتواضع في كل وقت يكون هادئاً، فلا شيء يحرك ضميره أو يزعجه.

+ الإهتمام بالجسديات:

٧١- إذا أردت أن تخرج من العالم، وتترك الأقارب والأهل والبلد، وتتبع المسيح بسيرك في طريق الفضيلة، فلا تتسجس بأفكار الهمِّ بالقوت والكسوة؛ لأنه إذا كان عملك مع الله فهو الذي يهتم باحتياجك. وهذا (الهمّ) يعرض لك من قلة الإيمان. وبهذا الشك يتساوى المؤمن مع الكافر: فالوثني يعتقد أنه ليس إله غير الصنم الذي يعبده، أمَّا المؤمن فيعتقد بالله ولكنه لا يثق به أنه يهتم باحتياجه! العالم يسرع بالسجود تحت أقدامنا ويسألنا لكي نعلِّمه الحق، ويقبل قولنا بإيمان ويسير في طريقه بفرح، ونحن نعلم الحق وبيتنا خراب من داخل! فيا من تفسر الحق لآخرين، اعرف أنت الحق من نفسك: أنه ليس أحد يتبع الله وينبغي له أن يهتم بالقوت، ولا يقدر أن يتَّكل على الله وقلبه متشكك. فالذي يثق بالله لاينبغي أن يهتم بشيء. وهذه هي وصية رَبَّنَا: «لا تهتموا أنتم بما تأكلون، وتقولون ماذا نأكل وماذا نشرب، بل اطلبوا ملكوت الله وبرَّه وهذه جميعها تزاد لكم».

٧٢- والرب لم يقل لنا إنكم لا تذوقون التجارب، فهو لم يدعُنا للتنعم. فمن هو الذي يخرج في طلب اقتناء الملكوت ولا يشقى؟ لكنه (يقول) إنني إذا ما تركتكم تتضايقون في الأحزان حسب قوتكم، فإني أرجع وأفتقدكم لكي تعرفوا من هذا الموضع (مقدار) اهتمامي بكم بالتجربة (أي بالخبرة بما تنالونه) بعد الأحزان. لأن الذي يجوع من أجل المسيح، فهو يكون له مأكلاً، والذي يعطش هو يكون له مشرباً حلواً، والذي يتعرى هو يكون له لباساً، والذي يتعب راحةً، والذي يصلي رجاءً حقيقياً، والذي ينوح عزاءً. وهذا هو ما قاله القدِّيس مرقس: «إن المسيح هو

يكون كل شيء للذي يؤمن». ولهذا ينبغي أن يكون لنا إيمان حقيقي بالمسيح أنه يستطيع أن يجري من الحجر عسلاً.

+ الإتكال على الله:

٧٣- إن كنت تثق في سياسة الله وتَدْبِيره أنَّها ضابطة جميع أمورك، فلا تستعمل التحايل البشري. فإن كنت تشتغل بهذا (التحايل)، فاعلم أنك قد اقتنيت معرفة لا يتبعها إيمان، أعني أنك اقتنيت ظنوناً عادمة من معرفة الحق. فلا تتَّكل على إنسانٍ لئلا تخيب من النعمة. وإن ألقيت همَّك دفعة وَاحِدة على الله، فاقفو (أي اتبع) بذلك إيمانك به. وإن كنت تؤمن فلا تخف، لا من شيء تحتاجه من ضروريات القوت الوقتي، ولا من شيء يؤذي الجسد، كما لو كانت الأشياء تأتي عليك كيفما اتفق أو كأنك خالٍ من العناية بهمج (أي بدون ترتيب). فحيث يوجد اقتناع الضمير لا يكون هناك رعب من الأفكار، وحيث يكون التقسُّم وشك القلب لا يهدأ الضمير من الرعب.

+ البعد عن راحة الجسد:

٧٤- كثيرون من أجل أمل الرَّاحَة الجسدانية خيَّبوا أنفسهم من غنىً عظيمٍ ومن خيرٍ كثير. حتى ولا الذين هم في العالم يتصرفون في أمور جسدانية يبلغون مقاصدهم إن لم يقطعوا على ذواتهم أن يقاسوا المصاعب. فكثيرون يتخلفون عن طريق ملكوت السموات من أجل انتظار راحة قريبة. وكل أحد يعرف أنه حتى الطير بأمل الرَّاحَة يدنو من الفخ؛ وكم من وقت يسأل الإنسان، عندما يريد أن يبدأ بعمل ما من أجل الرب، إن كان فيه راحة وإن كان يسهل المسير فيه بلا عناء ولا تعب، ولا يكون فيه شيء يضغط الجسد! ماذا تقول أيُّها الإنسان الذي تريد أن تصعد إلى ملكوت السماء، وتنال تلك الحياة الرُّوحانية، وتلك السعادة والخلطة مع الملائكة، أتسال إن كان في الطريق تعب وصعوبة؟! يا للعجب، إن الذين يشتهون أمور هذا العالم وغناه وسلطانه يجسرون على أمواج البحر ويسلكون الطرق المخوفة في أسفار مديدة مملوءة اتعاباً وضيقات، ويصبرون عليها جميعها وما يفكرون إن كان فيها عناء وتعب، ونحن في كل موضع نسأل عن الرَّاحَة!

٧٥- اهتمام الأفعال يكدر النفس، ومجاذبات الأعمال تسجس العقل وتخرجه من هدوئه وتطرد منه السلام. فينبغي للمتوحد أن يكون بلا هم في فكره على الدوام، لكي يتلو في ناموس الرب ليلا ونهاراً من غير انجذاب (لأي شيء).

٧٦- التَدْبِير الرُّوحاني: هو الدهش بالسر الذي لا يتعلمه أحد، لا من الناس ولا من الملائكة، بل يظهر في النفس من الرُّوح الْقُدُس بتكميل وصايا رَبِّنَا. والتَدْبِير الرُّوحاني ليس فيه أتعاب ولا حروب ولا ضنك جسد ولا مجاهدة مع الأفكار؛ لأنه ليس هو تحت اهتمام الحركات النفسانية. فكل تَدْبِير موضوع تحت سلطة الإرادة فيه حروب، وهو مفتقر لتعب الجسد وعناء

الضمير. وأكثر المتوحدين يسيرون بهذين التَدْبِيرين: عمل الفضيلة وتَدْبِير سيرة العقل الخفية؛ لأنهما موضوعان تحت سلطة الإرادة، وفيهما تعب وجهاد، وهما محصوران داخل الهذيذ والاهتمام البشري. أمَّا الحركة الرُّوحانية فهي ليست موضوعة تحت حرية الإنسان، ولا تُقتنى بالتعليم والتدريج والدربة (أي التمرين)، ولا تُعمل بالإرادة. لأنه لو كان التَدْبِير الرُّوحاني يُقتنى بالتعليم والدربة وأعمال إرادة النفس، لكان سائر المتوحدين الذين تحت السماء متدبرين بالرُّوحانية؛ لأنه لا يوجد (أي التَدْبِير الرُّوحاني) إلا بنقاوة القلب، تلك التي لا تُقتنى إلا بالبعد من كل العالم بالجسد وبالضمير.

٧٧- بين عشرة ربوات من المتوحدين تجد وَاحِداً قد أُهِّل للتَدْبِير الرُّوحاني في هذه الحياة. لأنه من حيث يبدأ الإنسان بتَدْبِير العقل الذي هو الهذيذ الدائم بالإلهيات، وإلى أن يبلغ إلى التَدْبِير الرُّوحاني الذي هو الدهش بالله، فهو محتاج أكثر من جميع الأعمال إلى الصلاة التي تكون بتغصب وتكمل بضرب الميطانيات، ولا يبطل الصَّوْم أبداً، وينال من القوت حسب ما يكفي الجسد ليقوم بعمل الصلاة.

+ ضرورة التجارب:

٧٨- لا تظن أن الله يدبرك في هذا العالم بغير تجارب، وبالأكثر إذا كنت محباً لله ولما يخصه. وإن عرض لك هذا الفكر فلا تثق به ولا تصدقه؛ لأن الله إنما قد حدَّ حياة بغير أحزان للعالم الجديد فقط. والذين لا يعرفون قصد الله وغرضه وسياسة تَدْبِيره ولأي حكمة قطع الله بالأحزان على حياة هذا العالم، أناس منهم يظنون أنه لأجل مكافأة الشرور فقط يجلب الله الضيقات على الناس، وهذا فكر ناقص جداً عن سبق معرفة الحكمة في تَدْبِيره، ولو أنهم أخذوا مادة لهذا الفكر بسذاجة من الكتب. فمَن مِن الناس خلا وتبرَّأ من الأحزان والضيقات؟ هوذا الأنبياء والرسل والصديقون الذين كانوا في كل الأجيال أيضاً، كم من ضيقات قاسوها وبكم من الأحزان أكملوا حياتهم في العالم، ألعل هؤلاء كانوا خطاة؟ ومن أجل أية خطية انقمعوا بالأحزان؟ وأنا أسكت عن ذِكر عملهم الصالح وسيرهم التَّعِب. أم لعلهم لم يكونوا قد انعتقوا بعد من الزلل حتى ينقمعوا لأجله؟ فمن هو الذي يعرف لأجل أي أمر أو سبب قاسوا تلك الأحزان؟ فينبغي لنا إذاً أن ننتظر الأحزان والضيقات مثل الأنبياء والرسل والصديقين، سواء كانت مكافأة من أجل خطية أو من أجل البر؛ فإنه ولا وَاحِد منهم عاش بلا أحزان أو ضيقات.

٧٩- ولنذكر أيضاً هؤلاء الذين لم يبلغوا بعد إلى الخطأ أو للتبرر، وهم كجزء من الطبيعة يشاركوننا في الأحزان والضيقات، وأعني بقولي هذا الأطفال البسطاء. فلمكافأة أية خطية ولقمع أي شرور أو لاختبار أية حرية يتضايق هؤلاء الأطفال الطبيعيون؟ فمع أنهم عادمون من هذه الأمور جميعها، إلا أنهم مثل التامين في القامة والمعرفة ينضغطون بأحزان الجسد وبأمراض مختلفة وأوجاع صعبة تُضنك أجسادهم، ويسلَّمون بيد الشياطين، وأكثرهم يخرجون من هذا العالم بضيقات مختلفة. فلأجل أي سببٍ ومكافأة لأي أمر بالعدل يؤدَّبون؟ غير أنه مثلما

قلنا سابقاً إن الله قطع على حياة هذا العالم بالأحزان الدائم والضيقات. ولولا أننا قد نتمرمر بقلوبنا ونقع في أن نلوم الخالق تعالى، لكننا نقول بإفصاح ظاهر إنه يُسرُّ ويشاء أن نتضايق في كل حال، وقد رأى أنه هكذا ينبغي أن يكون سكنانا ما دمنا مقيمين في هذه الحياة. لأنه غير لائق أنه من أجل تلك المعرفة اللذيذة والسعادة المعدَّة قد سمح بهذا، وأخفى مشيئته، ولعل سبب ذلك إنهاء الخطية. أمَّا نحن فنسجد لحكمته على سائر الأمور، وكيف أنه بسياسة لا يُنطق بها يدبِّر الكل. ولهذا فليس أحد من الحكماء الْعَارِفِين يفكر أنه يُستطاع أن يكون الإنسان خالياً من حدوث التجارب والضيقات ما دام في الجسد، وفي تصرف تَدْبِير الفضيلة.

٨٠- اعلم أنه بحسب ما تعدم أُنس الناس، وبحسب بعدك وانفرادك من المسكونة، يفتقدك الله في جميع أحزانك بتعزيات متواترة، وتحس بهذا بالفعل في نفسك. لأن إِلهُنَا الصالح الطيب لا يهمل الذي من أجل حبه يزدري ويترك الآباء والبلد ويحب القفر والبراري.

+ معنى التوحد:

٨١- السكون هو مُبْطِلُ ومُبَدِّدُ الآلام الوحشية، ومُمِيتٌ للتذكارات الباطلة، ومُجدِّدٌ للعقل العمّال، إذا قُرن معه هذان الأمران: نقص الغذاء؛ وهذيذ العقل على الدوام بأسرار العالم الجديد وربط الضمير بذكر الله بغير انقطاع، وإن انقطع نربطه عاجلاً كما علَّمنا الآباء وأفهمونا. فإن صحّ هذان الأمران فإنهما يقومان معنا ويصبحان لنا مثل اليد اليمين والشمال، وبمعونة رَبِّنَا بسهولة ندوس على رقبة الأعداء.

٨٢- إن كنه السكون يدل على معنى فعله، أي الهدوء وعدم السجس وعدم الاضطراب. ولا ينبغي أنْ نتخذ الهدوء بجزء وَاحِد فقط من أجزاء إنساننا ونترك بقية الأجزاء في المجاذبات والالتفاتات، بل نهدئ جميع أجزاء النفس والجسد. ومثلما نهدِّئ الجسد ونسكته بالحبس داخل القلاية، هكذا نكون بلا سجس في الأفعال البرانية التي تكمل بالجسد. وكما نمنع جسدنا من أن يضطرب بغير الواجب، كذلك أيضاً نجمع عقلنا من الهم والهذيذ بالجسدانيات ومن الملامة والحقد على القريب، ونسمِّره دائماً بالصليب. ونحرسه حتى لا يَنْحَلُّ وينزل من هناك. فإن داومنا على هذا بلا ضجر، وبالرجاء يوماً بعد يوم نصوِّب إليه كل غرض تَدْبِير سيرتنا، فإننا لسنا نتعب زماناً كثيراً في التجارب، لأننا بذلك نُخْضِعُ الحواس ونُقْمِعُ جميع لذاتها المتعبة التي تضطر عقلنا أن يكون تحت الخضوع لها، وتجتذبه وتحطه من القيام في بلده بهدوء، وتشغله بتحريش (أي بإغراء) الآلام الباطلة وأنواع الشهوات.

٨٣- حبس الجسد والعمل داخل القلاية يقمع الجسد من الآلام اللحمية، أمَّا الحواس فما يقدر أن يقمعها تماماً من الطموح إن لم يكن للقلب عمل خفي، الذي هو بلد السكون وبيت راحة وهدوء الحق بتحقيق. وكما نعتني أن نربط الجسد بالحبس فلنحرص أيضاً أن نكون في الحبس بلا سجس، ونضبط حواسنا من الطموح في الأفعال التي تشتت الفكر وتجعله يطيش، وذلك لكي نتمكن من حبس فكرنا داخل قلبنا بذكر رَبِّنَا وبنظرة مجده. وإن كانت هذه ليست لنا، فإن الرجل

يسلك بالصورة، وكالبخار يتشتت، وكمثل ما يذوب الشمع قدام قوة النار، هكذا يَنْحَلُّ قدام الأفكار والآلام، ولا يقدر السكون المظنون به أن ينفعه بشيء.

المَيْمَر الْخَامِس

في تَدْبِير سيرة السكون

١ - في الأزمان القديمة كان آباؤنا القديسون يأذنون لكل وَاحِد بالسكن في الهدوء: الرجال والنساء والصبيان والشيوخ، والحكماء والسذج. والذي يريد من الإخوة الرهبان أن يرضي سيدنا بتَدْبِير سيرة السكون الكريم، فليؤمن ويصدق مواعيد رَبِّنَا، ويُحَمِّي نفسه (أي يلهبها) بمحبة المسيح رجائنا، ويدخل للسكون على اتكال ورجاء نعمته، ولا يخاف من شيء. وهوذا روح المَزَامِير يعزيه ويشجعه قائلاً: لا تخف أيُّها المتوحد الجالس في السكون على رجاء سيده، أورشليم الجبال محيطة بها والمسيح رَبِّنَا محيط بك؛ وأيضاً عساكر ملائكة الرب محيطة بخائفيه وتخلِّصهم؛ لأن كل وَاحِد منا معه ملاك لازق به، يخلِّصه ويصلي عنه وينير عقله ويملأه أفهاماً روحانية ويُعَزِّيه في الخفاء.

٢ - المتوحد الذي يسكن في الهدوء وحده، ونعمة الرب محيطة به، وملاكه في كل حين يحرسه ويعزيه ويُسليه، من أي شيء يخاف؟ مبارك هو رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الذي وهبنا السكون! وطوبى للمتوحد الذي يحبه ويثبت فيه، ويصبر على ضيقاته الأَولى ويتنعم براحته الأخيرة، ويجاهد في حروبه الأَولى ويتكلل بأكاليله الأخيرة!

+ نُجرب قدر طاقتنا:

٣ – إنَّ الذين هم غير دَربين ولا فاهمين للكُتُب ولا نيِّري الأفكار ولا حادِّي الحركات ولا لطيفين (مدققين) بالمعرفة، بل سذاجة ما مختلطة بمزاجهم، وقلبهم بليد، وهم بُلهٌ في الكلام والمعرفة، ويريدون أن يرضوا الله بتَدْبِير سيرة السكون، لا ينبغي أن يخافوا من قتال الشياطين، أو يرتعبوا من مجاذباتهم؛ لأن كل وَاحِد حسب ما يقدر أن يحتمل وحسب ما هو ملائم له، هكذا يُجرَّب من قتال أفكار الشياطين وأشكالها، ولا ينطلق على إنسان قتال فوق قوته ومعرفته ومنزلته. فإذا كان يملك في قلبه حب سيده، ويسكن في الهدوء، ويعبد المسيح ويصنع مرضاته، فإن محبة الرب تحفظه وتستره من كل مجاذبات الشياطين، وتُفرِّح قلبه وتنير نفسه وتقويه حتى يُكَمَّلُ بجميع كمال البر.

٤ – اعلم، أيُّها المتوحد، أنه حين تجلس في قلايتك بغرض وقصد مستقيم من أجل الله، ولا تشتاق لمحبة شيء آخر سوى التنعم بمحبة سيدنا وتكميل وصاياه، تُعطى لك قوة لحفظ بعض الوصايا التي تشاء عملها، أمَّا الوصايا الأخرى التي لا يمكنك عملها فإن أجرك عنها محفوظ عند الله لأجل حزنك على قلة عملها، وعلى عدم اقتنائها. واعلم أنه وأنت في قلايتك يمكنك أن تعمل الوصايا، وأمَّا خارج القلاية فحتى ولا هذه الإرادة لمحبة الفضيلة تثبت فيك، لأن المحادثات البشرية واضطراب الأعمال تشتِّتها. ومن أجل أن الشيطان قاتلك بالضجر دفعة وَاحِدة وغلبك وأخرجك من قلايتك كفاشل ومغلوب، فهو أيضاً خارج القلاية يقهرك ويعوقك

ويعطلك من كل عمل الصلاح، ويملأ قلبك بالشرور، وربما يردك إلى العالم، إلى الهلاك الكلي.

٥ - عندما يجلس المتوحد في القلاية ويعمل بالوصايا، يصير عمله دواءً للعينين، فينقي عيني نفسه من صدأ الآلام الذي يغشاها فتنفتح، وينظر بعين إيمانه رَبِّنَا شمس البر الأعظم، ويرى الخيرات السمائية، ويتثبت بالرجاء يوماً بعد يوم، وبعمل الوصايا يقتني أيضاً الفرح الرُّوحاني.

٦ - طوبى للمتوحد الذي ضغطته الآلام وعذبته الشياطين ولم يشتَق إلى العزاء الذي من خارج. طوباك يا ابني في ذلك اليوم الذي يدركك فيه الموت وأنت وحدك في قلايتك وتنتقل نفسك مع ملاكك إلى الفردوس إلى جوار الملائكة وأرواح الصديقين.

٧ - إن أكلت خبزك وحدك في قلايتك، يعطيك الله موهبة ممدوحة: أن تأكل المسيح مع خبزك وتشربه مع شربك بسكرٍ وفرح روحاني، وإن اشتهيت المائدة التي من خارج يعطيك الشيطان عطية سمجة: أن تأكل أخاك مع خبزك بالمثلبة. فاحذر الآن وكن محترساً. كن وحدك واثبت في السكون لكي تنجو من العثرات. صوت إلهي قال هذا: «يا أرساني اهرب من العالم فتحيا، اهرب واصمت واستكن، فهذه هي الأصول كي لا يخطئ الإنسان». فلنحب الوحدة وهي تقدِّمنا إلى عدم الخطأ. ولا نرعب أو نخاف من أسباب المؤذيات التي في هذا المسكن، لأننا لسنا وحدنا بل معنا حارس ما يفوته شيء.

+ الضيقات من أجل الله:

٨ - طوبى للإنسان الذي يقبض نفسه من الانحلال، ولا يميل لمجاذبات ومفاوضات الناس، فإنه يحس بأشياء كثيرة لا يقدر أن يتعلمها من الدم (أي من إنسان). فالذي يشتهي الرُّوحانيات هو بالضرورة يهمل الجسدانيات. احذر من حياة الخلطة، لأنها معوِّقة لسائر أنواع التوبة. فالمحادثة مع كثيرين تعوق الحزن الذي من أجل الله، ذلك الحزن الذي يتحرك فينا من الإفراز الطبيعي ومن النعمة.

٩ - سلِّم ذاتك لجميع ما ينالك من الضيقات كإنسان وضع في نفسه أن ينزل إلى الهاوية حياً. واختر لك موتاً مملوءاً ثقة وليس فيه خوف، لا حياة بشكوك وتقسُّم وراحة بجوار الساقطين والمنحلين والذين قد انقطع رجاؤهم. واذكر أنه من أجل الاضطهاد والهرب من الخطية والخسارة الكثيرة التي نالتك قد اخترت لنفسك الموت وليس من أجل البر. وفي هذه الساعة يشهد الله وملائكته (لك) بنظرهِ ضيقاتك وشقاءك من أجل بغضتك الخطية وجحودك لها، وبثقة تبسط يديك إليه من أجل غفران الخطية.

+ ممارسة كل أعمال الفضيلة:

١٠ - فليكن تَدْبِير المتوحد متساوياً بوجود كل أعمال الفضيلة، كمقدار القراءة تكون الخدمة، وكمقدار خدمة المَزَامِير يكون ضرب الميطانيات، وكالميطانيات يكون الصَّوْم وسهر الليل، ويقرن مع هذه جميعها العمل الخفي الذي للعقل، لئلا يكون الجسد يعمل والقلب سائب بطال.

١١ - العمل الدائم ولو أنه قليل، فهو لأجل دوامه يربى كنوزاً عظيمة. وأنا أدلَّك على عمل يتقدم فيه الإنسان بسهولة إذا ملَّ الجسد ولم يقدر أن يقوم ليكمِّل مطانيات العادة من أجل ضعفه، ويتعطل عن الصلاة التي تكمل بالجسد، والتي منها تتولد الصلاة القلبية: خُرّ على وجهك دفعات كثيرة واثبت في الصلاة وأنت جالس والكِتَاب بيدك، لكي تمتزج مفاوضة القراءة مع الصلاة وتنير من الاثنين وترتفع لتنعُّم النفس، فتحلو لك الصلاة لأجل القراءة، وتنير في القراءة بمفتاح الصلاة. لأنه بالصلاة ينفتح باب الأفهام، والدهش بالأفهام يثير شهوة الصلاة حسب التاوريا التي فيها. وإن كان الجلوس في القلاية فقط ببطالة من غير عمل، وحفظ الحيطان من أجل اسم المسيح، هو انتظار رجاء عظيم، حسب قول أحد الآباء، فكم بالأكثر الذي يستعمل هذه الإفرازات في نفسه من أجل ذِكر الله الدائم، إنه ينال أشياءً عظيمة.

+ العمل الصالح من عدمه:

١٢ - بدون الصلاة والتضرع لا تمد قدميك للمسير، وبالأكثر في الطرق المظلمة. والطلبة لا تبطل من فمك واتبعها بالاعتراف بضعفك وعدم معرفتك، لكي من أجل الاتضاع تُحمل بالرحمة ولو لم تكن مستحقاً. لأن الاعتراف والاتضاع يكمِّلان موضع عوز العمل. فإذا لم يكن لنا أعمال ينبغي أن نكون محزونين في ضميرنا ومداومين ذكر خطايانا بعقل منحط منسحق قدام الله، وهادئين ومسالمين لكل الناس، ومنقبضين إلى ذواتنا بعدم الضحك والمزاح، ويكون كلامنا بالصالح على كل أحد، مع الشكر على التجارب والصمت بحكمة وحفظ الأعضاء مرتبة، وأن نتذكر في كل وقت أننا مائتون على كل حال ومنتقلون من هذا العالم. وهذه الأشياء ما تطلب عملاً بالجسد، بل حُسْن الضمير، وهي غير مفتقرة لعمل الجسد، ولا بعمله تُقام، فحتى في المرض والضعف يُستطاع اقتناؤها. فالمتهاون بها ولا يقتنيها بخفية ضميره، كيف لا يُلام من الله العادل؟ لأن الله ليس محتاجاً لكثرة عمل، بل هو يريد منا فضيلة الإرادة. طوبى للإنسان الذي يعرف ماذا يولد من محبة البشر، والرحمة إلى أين تُصعد النفس.

١٣ – اعلم، يا أخي، أن أفضل كل صلاح يفعله الإنسان في هذا العالم هو الصلاة الطاهرة. وإن لم يمت الرَّاهِبُ من كل أحد، وينقبض في السكون إلى ذاته كالميت في القبر، فهو لا يستطيع أن يقتني هذه (الصلاة الطاهرة). لأن الصلاة الطاهرة تتطلب فراغه من جميع الأشياء، لكي يقوم قدام الله بعفة وبلا طياشة في وقت الصلاة، والفكر مجموع من كل مكان ومنقبض إليه، وهو يشخص بالله فقط بسكون حركاته، ويكون متشوقاً لملاقاة معرفة الله بمداومة صلاته إليه.

+ **موت الجسد والنفس**:

١٤ - إذا ما ضعفت الآلام النفسانية وصمتت، فإن الإنسان يغلب الشهوات الجسدانية أيضاً بسهولة.

١٥ - الميتوتة الجسدانية هي أن يتغرب الإنسان من جميع معارفه ومن بلده وأقربائه، ويمضي إلى أرض غريبة ويختار لنفسه موضعاً هادئاً مستكناً من كل شلش (أي اضطرب)، وبعوز الاحتياج الجسداني يسكن وحده منقبضاً إلى قلبه وعادماً من جميع خلطة الناس ومن المحادثات والتعزيات المنظورة، وبالنوح وبالبكاء وبوجع القلب يسأل الله أن يطهره من الشركة مع الخطية ويقلع منه أعضاء الإنسان العتيق. وهذه الميتوتة تولِّد لنا الميتوتة النفسانية.

١٦ - والميتوتة النفسانية هي أن لا يشتاق الإنسان في قلبه لشيء من خيرات هذا العالم، ولا لحياته الزائلة، ولا يتنعم بطياشة فكره في الشهوات الأرضية. بل يكون عقله على الدوام متشوقاً متلهفاً بلا هدوء إلى الأمور المزمعة، وجميع هذيذه وضميره وأمل قلبه في الأشياء التي ستكون للبشر بعد القيامة، ويهدس ويهذُّ في كل أوقاته بالحياة الجديدة. فهذه هي الميتوتة بالحق للذي قد مات مع المسيح، وهي لا يمكن أن تكون بدون فعل النعمة ومعونة الرُّوح الْقُدُس. والميتوتة التي تكون هكذا، هي تولد لنا الميتوته الرُّوحية. (موت النفس هو موت الوظائف الحيوية في الإنسان، التي تهيمن عليه النفس)، (الموت الرُّوحاني هو الموت عن الأمور الجسدية وهذا يوصل إلى الرُّوحانية العميقة التي بغير ألام).

١٧ - التنعم الرُّوحاني الذي يكون من العمل لا يُحسب مع الفضيلة، لأنَّه سيد الفضيلة. لأنَّ الفضيلة هي كل عمل يكون في الظاهر، ويكمل بحواس الجسد من أجل الله.

١٨- والمتوحد ليس له عيد في الأرض، لأنَّ عيده هو النوح. وعوض الأعمال التي يفتخر بها الآخرون بالانشراح بعضهم مع بعض، هذا عزاؤه هو شقاؤه في السكون.

١٩- ألعلكَ تظن يا أخي أن عدم المفاوضة والنوح وحزن القلب والتمرغ في كل وقت بضرب الميطانيات قدام الله لا يحسب عملاً، بل تقول إن الصَّوْم وكثرة التلاوة هي العمل؟ أمَّا تثق أن عمل القلب والتجلد في الوحدة هو غاية العمل؟ وأنه سعيد وقريب من الله ذاك الذي يصبر على صعوبة الوحدة جميع حياته، ولو أنه يأكل كل يوم وينام، ولو تنهد على ذاته دفعة وَاحِدة كل يوم بحزن وهو ملقى قدام الله؟ في الحقيقة إن عمل مائة أخ يصومون ويصلون وهم في السجس والمفاوضة، ما يساوي عمل متوحد وَاحِد في السكون ولو كان ضعيفاً، على أن يكون عادماً محادثة الناس ومتجلداً داخل الباب، وليس من يدخل إليه ويخرج. ولست أعني بقولي هذا الذين يمسكون السكون بالاسم ولهم من يدخل إليهم ويخرج كل يوم، بل الذين يسدُّون بابهم ولا يفتحونه من يوم الأحد إلى يوم الأحد، وليس لهم حديث ولا مفاوضة مع أحدٍ، ولا يصادقون

إنساناً. وإن كان هناك أخ كفؤ لهذه النعمة، وقد أخذ هذه الموهبة من الله، ولكن أحداً من رؤساء ومدبري أديرة الإخوة - من أجل نياح ما أو عمل جسداني، أو من أجل حسد - يعوقه عن هذه الموهبة، فعليه دينونة قدام الله وهو مزمع أن يعطي الجواب قدام كرسي المسيح.

٢٠- لا تحب أن تُعتق من عبودية السنن والقوانين في سيرتك، إلى أن يكتب الرُّوح حريتك من العبودية، وتحس به أنه قد كتب ذلك على عقلك بلا تقسُّم (أي بلا شك).

+ **الصلاة والإحتراس**:

٢١ - إذا قمت في الخدمة بحَرس نفسك وجسدك - تلك التي فيها ربوات كنوز مخفية للذين يصلُّون بإفراز - فاسأل الله أولاً خفية في قلبك أن يفتح قدامك ينبوع الحياة الذي من عادته أن يفيض في هذه الأوقات على الأنفس التي جحدت العالم الزائل، والذي به تنظر كل وقت ميتوتة يسوع على أعضائها الخفية. ثم رتل بهدوء بغرض الصلاة، ولا تعتنِ بكثرة المَزَامِير، بل أن يُعطى لك مفتاحاً، ولو كان لفظاً وَاحِداً لكي تدخل إلى كنز تفهّمه الرُّوحاني، الذي ينفتح لك بنعمة الرُّوح الْقُدُس. وإذا ما سجدت عند بدء الصلاة، فاسأل الله بوجع قلب أن يعطيك فيها صبراً، وألا يحصل لك فيها قتال سجس، قائلاً: «أعطني يارب حركات نيِّرة شاخصة فيك بجميع هذه الخدمة بكل لفظة تخرج من فمي». وإذا ما دقَّ فكرك وتلطَّف[١٧] من غِلظ الهذيذ، وبدأ يصادف النور، فمن هنا افهم أنك بسهولة تقبل دهش الكلام، إن كان تلاوة أو كِتَابة، وللوقت يتحرك القلب بالفرح ويسكت اللسان. ولا تطلب دليلاً آخر على ظلام نفسك سوى عدمك من هذا السرور الذي ذكرته.

٢٢- يا أخي أحبب الوحدة، ولو كنت عاجزاً عن جميع حقوقها. صلاة وَاحِدة يصلي بها الإنسان وحده هي أخير من مائة صلاة يصنعها مع الناس. وبالحق إن عمل مائة يوم صوم وصلاة يصنعها المتوحد بسجس ومفاوضة، لا توازن نوم ليلة وَاحِدة في الوحدة!

٢٣- داوم أنْ تقول في صلاتك: «يا الله، جُد عليَّ بنوح القلب، يا رب استأصل مفاوضات العالم من قلبي». هذه الصلاة تُدخلك في أسرار المسيح إن اعتنيت بتفسيرها في نفسك.

٢٤- بدون السكون ما يتضع القلب، وبدون اتضاع القلب ما يتنقى من الحركات المتواترة.

٢٥- إذا ما جلست بين صَلَوَات الأوقات لكي تفاوض ذهنك بالهذيذ بالله، افتكر أيضاً ماذا كنت ولأي رجاء دُعيت من قِبل فيض مراحم الله. واجعل لك فسحة بين صلاة الليل وصلاة باكر (تخصصها) لمثل هذا الهذيذ الذي يصلح لتربيتك بمعرفة الله في كل أيام حياتك؛ لأن هذا أيضاً هو جزء كبير في عمل السهر.

[١٧] أي يروق الفكر ويصفو، فيتخطى كثافة الألفاظ ليتعمق فهم معانيها الخفية.

+ قسِّم الأوقات النهارية: فمنها (وقت) للخدمة ومنها وقت للهذيذ، وإن وجدت فسحة تكفي فلنقاوة الحركات. وإن كان العقل مظلماً زِدْ من القراءة التي توافق في ذلك الوقت؛ لأنه من ههنا يكون ينبوع النقاوة الذي تفيض منه مياه طاهرة. فإذا ما اتحد الهذيذ بالصلاة بنقاوة، عند ذلك تكمل كلمة السيد: «إنه حيث يكون اثنان أو ثلاثة مجتمعين باسمي فأنا أكون في وسطهم»: أعني النفس والجسد والرُّوح، أو العقل والهذيذ والصلاة، وينتهي أمر ثلاثتهم إلى الدهش.

+ الإتضاع والمعونة الإلهية :

٢٦- إنْ لم يتواضع الإنسان فلا تدنو منه المعونة الإلهية؛ لأنَّ نعمة الله قائمة عن بعد، وتنتظر إلى الإنسان على الدوام في وقت الصلاة، فإذا ما تحرك فيه فكر اتضاع، ففي الحال تدنو منه النعمة ومعها ربوات من المعونات. وهذه تُعطى في وقت الصلاة أكثر من بقية الأوقات، ولهذا يقيم الشيطان مع الإنسان قتالاً فيها (أي في الصلاة) حتى لا يدنو من الله بأفكاره.

٢٧ - بقطع الرجاء في حياة الجسد ورفض جميع مفاوضاته، يلقى (أو يجد) الإنسان بسهولة قنية النفس التي تفوق حواس الجسد. فإذا كان الضمير ثابتاً في رجائه، ولو أن الجسد قد يضعف، فإن النفس ما تنغلب ولا ينقص غناها. البكاء الدائم هو إذا ما ضعف الضمير وانحطَّ الجسد وتخلف عن العمل.

٢٨- الصلاة الطاهرة :هي أن لا يطيش العقل في الأشياء التي تحركها الشياطين بالأفكار، أو التي تحركها الطبيعة من التذكارات، أو التي تكون من تحريك المزاج. والصلاة التي لا تتبعها تدابير حسنة هي نسر قد انتُتفت أجنحته.

٢٩- لو أن إنساناً وصل إلى عرش اللاهوت بالاستعلانات ثم تهاون بالمَزَامِير، فانه يسلَّم في يد الشياطين؛ لأن حد العظمة يبدأ فيه من هنا، كما لو كان قد ارتفع عن رتبة الذين يستعملون المَزَامِير.

٣٠- ليس إنسان محبوباً عند الله، ويُعطى سؤله سريعاً، كمثل الإنسان الذي يطلب من أجل زلاته وغفرانها، ويطلب قوة ومعونة لتقويم طريقه. فبهذا النوع يبطل الدينونة التي عليها، وحتى لو كانت خطاياه صعبة فهو بغير شك يأخذ سؤله.

٣١ - الذي هو كامل في القامة وفيه اشتياق إلى الله، هذا بعد خروجه من العالم لا ينبغي أن يقيم كثيراً في المجمع، بل إذا ما تعلم ترتيب وتصرف الإخوة وطقس هذا الإسكيم ونوع تواضعه، يفرز نفسه في قلايته منفرداً لئلا يقتني عادة الخلطة مع كثيرين، ما خلا مفاوضة شيخ وَاحِد مشهود له بحسن السيرة ومعرفة عمل السكون، ومعه فقط يتحدث لكي يتعلم تَدْبِير الوحدة، ولا يتفاوض أبداً مع أي إنسان آخر.

٣٢- ليس أنَّ الإنسان إنْ لم يتطهر بالكمال لا يحس بالخيرات الرُّوحانية وبدلائل الحياة الجديدة، بل إنَّه يوماً بعد يوم، حسبما يقهر الآلام، يرى إشارات الطهارة، وكل ألم يغلبه يشرق الصلاح الموضوع قباله في الحال، وبمقدار ما يتطهر من الخطايا هكذا ينعتق الضمير من رباطات التفكير فيها، وعلى هذا الحد يشرق شعاع المعرفة في قلبه. وطهارة النفس هيَ التعريَ من الإهتمامات الجسدانية ومن الهذيذ بالأفكار اللحمية.

٣٣- الذين هم بطبيعتهم ودعاء وهادئون وذوو حركات نيِّرة مفرزة، معلوم أنه سهل عليهم (انسكاب) الدموع؛ لأنه حيث يوجد تواضع القلب بإفراز، لا يقدر الإنسان أن يمسك نفسه عن الدموع، فمن غير أن يريد يفيضها القلب على الدوام من الحزن الحار وانكسار القلب الذي فيه.

٣٤- هذه الأنواع الثلاثة يقتنيها الإنسان من السكون: حب الله، الدهش بأسراره، وتواضع القلب. وليس حزن أحرّ من حب الله. يا رب أهلني أن أشرب من هذا الينبوع. ولكن الذي ما له سكون فهو ما يعرف ولا وَاحِدة من هذه الثلاثة أنواع، ولو كانت له فضائل كثيرة، فلا حب الله يقدر أن يعرف ما هو، ولا معرفة الرُّوح ما هي، ولا التواضع الحقيقي الذي من القلب. وأنا أشهد لكم بالحق أنكم إن كنتم عادمين من السكون، ولو أنكم بكل أعمال الرهبنة تتعلقون بجفون عيونكم، فما تقدرون أن تؤهَّلوا للاقتراب من هذه الأسرار التي تُعطى للعمالين في السكون.

+ **السجود**:

٣٥- لا تحسب أن الثبات الكثير في السجود قدام الله هو بطالة، لأنه ليس شيء أفضل منه في جميع الفضائل لأن به يُقتنى تواضع الجسد والعقل، وبه يكون تبطيل الآلام الردية وقطع الشهوات، وبه يوجد استعداد النفس إلى الخروج من الجسد بالسر، واشتياق كثير لحب الله، وكل الخيرات الحاضرة والمزمعة، وهو حد سائر الأعمال وحابس جميع الوصايا وكمال كل الفضائل.

+ **القراءة**:

٣٦- عمل القراءة هو أيضاً مرتفع جداً، لأنه هو الباب الذي به يدخل الذهن إلى الأسرار الإلهية، ويأخذ قوة حسب نقاوة الصلاة، ومنه أيضاً يتقوى الهذيذ الذي هو مبدأ هذه السيرة. وبدون القراءة لا يمكن للذهن أن يدنو من الله؛ لأنها ترفع العقل وتقيمه عند الله كل وقت، وليس عمل يأتي به الإنسان إلى قدام مثله، هذا إذا كانت قراءته من أجل الحق.

+ **عمل العقل**:

٣٧- عمل الجسد مع بَطالة العقل لا منفعة فيه. لأنها صادقة هي كلمة القدِّيس مرقس: «إن كثيرين يعملون البر، وبالأفكار الرديئة يُفسدون أعمالهم الحسنة». وعلى كل حال، الذي ضميره بطَّال من العمل الخفي المكتوم، ومن المداومة بهمِّ المعرفة والهذيذ، فأفكاره منحلة في الأباطيل. لأنه بعمل العقل يستضيء (الضمير)، حتى لو كان الجسد بلا عمل أو مريضاً جداً. لأن عمل العقل يُيَبِّس الجسد ويُنشِّفه ويجعله مثل العود اليابس.

٣٨ - الذي ما يقبل، في وقت الخدمة، قتال الثقل والملل والكسل، وبقية أحزان القلاية، ويصبر على مقاساتها بفرح، كمثل أنها عمل تام لله، بل يريد الرَّاحَة منها بالكمال، فهو من غير أن يشاء يُسلِّم ليد شيطان الزنا، وعوض ذبيحة جسده الطاهرة التي كان من عادته أن يقدمها لله، فإنه يذبح للشيطان ذبيحة نجسة من أعضائه.

+ **فضائل السكون**:

٣٩- صدقني يا أخي، إن الملل والضجر وثقل الأعضاء والتكدر وسجس العقل، وبقية المحزنات الحادثة على النساك في جلوس السكون، هي عمل تام لله. ولا تظن أن الاستضاءة في الخدمة ونقاوة الضمير والتنعم بسرور القلب والعزاء الذي من الدموع الحلوة والمفاوضة النقية مع الله، لا تظن أن هذه فقط عمل إلهي. بالحق وحسب رأيي أقول: إنه حتى أفكار التجديف والمجد الفارغ وحركات الزنا السمجة التي تحدث باضطرار على المتوحد في السكون، وحزنه من أجلها، ولو أنه يوجد مغلوباً قدامها، ويصبر ويتجلد، ولا يخرج من قلايته، فهذه أيضاً تُحسب له كمثل ذبيحة طاهرة وعمل إلهي مقدس، ما خلا العظمة والكبرياء فقط. لأنه تجلَّد في جهاد الرب، وصبر على اليمينيات واليساريات العارضة عليه داخل المصاف(الجلوس المستقر الإنفرادي داخل القلاية)، إذا لم يكن حدوثها بسبب انحلاله وإهماله، بل تتواتر عليه بنوع القتال فقط، هذا إن لم يُغلب ويخرج من المصاف، الذي هو الجلوس الانفرادي في القلاية.

+ **ذكر اللّه ونسيان كل ذكر**:

٤٠- لأنَّ الذي يشتهي الحبس والسكون، ويفرد نفسه من مجمع الإخوة، ينبغي له أن يكون هذا غرضه وقصده: أن يقتني بسكون الجسد سكون النفس، ويجتهد أن يقتني البكاء على خطاياه القديمة، والنوح على زلاته في كل يوم، وهذا ما قاله أولئك السواح للقديس مقاريوس: «إن لم تستطع أن تكون مثلنا، فاجلس في قلايتك وابكِ علي خطاياك». ولأجل تجربة حروب الشياطين، قال القدِّيس أنطونيوس للقدِّيس بولا البسيط تلميذه: «اجلس في السكون لتأخذ تجربة حروب الشياطين». كما قال القدِّيس يوحنا النبي التبايسي: «إنَّه لا يمكن للإنسان أنْ ينظر نفسه ويفهم آلامه من غير تَدْبِير السكون». كذلك قال القدِّيس مَكَارْيُوسْ: «ينبغي للذي يجلس في السكون

مداومة تذكار الله، ونسيان كل ذكر، وأن لا يكون عنده ذكر لأي إنسان في قلايته». وقال القدِّيس يوحنا التبايسي أيضاً عن الجهاد مقابل الآلام والشياطين: «إن الحكمة الرُّوحانية هي عضو عظيم لإنسان الله. ولا تُقتنى هذه الحكمة بدون تجارب المصاف (أي الجهاد)». وقال الْعَظِيم في الْعَارِفِين أوغريس: «إذا ما جلس الإنسان في السكون، وصبر على القتال والتجارب نال طهارة القلب. وهذه تُقتنى بعدم جميع أفهام المنظورات». وقال الأب إشعياء ذو الشيبة المُباركة عن سكون العقل: «إن السكون يولِّد السكون». وقال الأب مرقس: «الصلاة الطاهرة (تُقتنى) إن أخذتَ موضعاً حصيناً للصلاة (أي السكون)». فلا تقبل معرفة الأفعال التي تُعطى لك من العدو، لئلا تُضيِّع تلك النعمة الْعَظِيمة. بل ينبغي أن تطعنه بسهام الصلاة، وهو محبوس في الموضع السفلي بالسكون، لأنه يتحايل أن يجلب لك غنيمة (من المعرفة) لكي يبعدك من التدرع قباله.

٤١- وقد أظهر القدِّيس مرقس أيضاً عظم العطايا التي يحظى بها المتوحد يوماً بعد يوم، إن هو ثبت في السكون، وقال: «الآن لنبدأ بالعمل». وما هو هذا العمل؟ هو السكون وهدم الأفكار والصلاة بغير فتور، وهكذا يأتي إلى قدام. وهو لا يجد رجاءً بالله فقط، بل وإيماناً حقيقياً وحباً لا غش فيه. ويقتني محبة الإخوة، وعدم تذكار الشرور، ونسكاً وصبراً ومعرفة داخلية وخلاصاً من التجارب، ومواهب روحية وشكراً قلبياً ودموعاً محزنة، واحتمالاً للضيقات العارضة وغفراناً لقريبنا بغير غش، ومعرفة الشرع الرُّوحاني ووجود عدالة الله وحلول الرُّوح الْقُدُس وعطايا الكنوز الرُّوحانية. هذه جميعها بواسطة السكون والصلاة يجود بها الله على المتوحدين. ومن أجل اقتنائها يشتهي الإنسان السكون.

٤٢- إنْ لم يقطع الإنسان نفسه من كل تذكار ومن كل اهتمام، ويبتعد من كل محادثة، ويداوم السكون بغرض مستقيم وبمحبة الأعمال، فإنه لا لخطاياه القديمة يذكر، ولا لزلاته في كل يوم ينظر، ولا لآلامه يفطن، ولا لمجاذبات الشياطين يفهم، ولا للجهاد مقابل الآلام والشياطين يستعد، ولا لنقاوة القلب يصل، ولا الصلاة الطاهرة يقتني ولا الصلاة الرُّوحانية يستحق، ولا لنور العقل المقدس ينظر في ذاته، ولا نور مجد المسيح باستعلان الرُّوح الْقُدُس يشرق داخل نفسه. هذه جميعها خارجاً عن السكون ما تُعطى لأحد. أمَّا الذين يصبرون على ضيقات السكون ويدومون فيه، فإنهم ينالونها جميعها. وإن كان أناس يخرجون من هذا العالم وما ينالونها ههنا - لئلا يتعظموا، أو من أجل أسباب أخرى مخفية عن علمنا - فإنهم في ملكوت السماء يتنعمون بهذه جميعها من أجل حبهم لسيدنا وصبرهم على السكون لأجل محبته.

٤٣- والذين يتجلَّدون (في السكون) يبلغون إلى طهارة القلب والصلاة الطاهرة، ولأجل أسباب خفية لا تُعطى لهم الصلاة الرُّوحانية، ولا يؤهلون لاستعلان المسيح. ولهذا حذَّر الآباء أنه، من دون مرض أو ضرورة ما، لا يتكلم المتوحد مع أي إنسان. لأنه إن لم يقبض حواس الجسد وبالأكثر نظره وسمعه ولسانه، فهو ما يجد سكوناً لنفسه. لأن العقل ما يهدأ بدون الجسد، كما قال القدِّيس مرقس. ولهذا ينبغي أن نتجرَّد من النظر والسمع مع باقي الحواس، كما قال

القدِّيس يوحنا التبايسي. لأن المتوحد المبتدئ إن لم يعوِّد نفسه أن يُسكت حواس جسده، بل يتكلم بلسانه مع الإخوة أو مع خادمه، وينظرهم بعينيه ويسمع بأذنيه كلامهم، فما هي الفائدة من الحبس؟ أو كيف يذوق حلاوة السكون إن لم يسبق ويذوق مرارته؟ وكيف يذوق هذا إن لم يؤلمه الضجر؟ وكيف يُقاتَل بالضجر إن كان يدخل خادمه إليه، أو يتكلم معه من الطاقة، أو مع الذين يطلبون أن ينظروه؟ فلا قتال صعوبة الشهوة، ولا تخويف الليل، يتمكنان منه أيضاً. لأن كل إنسان حسب مقدار سكونه وحبسه وتحفُّظه، كذلك تكون حروبه وعطاياه.

٤٤- ولما نظر الآباء تضاعف الوجوه (أي اختلاف القدرات)، أذنوا لكل إنسان أن يتدبَّر حسب قوته وحسب معرفته وحسب حرارته وحسب معونته من النعمة، على أن يكون حبيساً ساكتاً. لأنه من دون السكون والوحدة لا يستحق أن يُدعى وحيداً مع ابن الله الذي أهَّله بالنعمة لكرامة اسمه. ذاك الذي ليلاً ونهاراً، بحزن ودموع، يسأل الله أن يغفر له خطاياه ويجود عليه بقوة الرُّوح الْقُدُس، لكي يكمل حبه ويحفظ وصاياه. وإن كان ما استحق بعد لدموع النعمة، ومفتقراً أيضاً إلى دموع ندم النفس، فإن حزن قلبه وندامة نفسه يقومان له موضع الدموع. فلا يهدأ ولا يبطل من السكون والصلاة والطلبة حتى يحس خفياً بيقين الرجاء، أنه قد غُفرت له خطاياه، واشتعلت نار محبة المسيح في قلبه، وأخذ قوة لتكميل وصاياه، وتشجَّع على الآلام، وهدأت أفكاره، وخجلت المجاذبات، وشبع من نظر وجه سيده. هذا هو المتوحد، وهذا هو القصد من الوحدة.

٤٥- فضيلتان تحبسان وتجمعان كل الفضائل، ومنهما تقوم وتكمل كل سيرة العقل، ومنهما يقتني الإنسان طهارة العقل، وهما اللتان يحتاج إليهما ترتيب سيرة السكون، وهما: الصلاة بلا فتور ولا طياشة، وهدم لمح أفكار الآلام ومجاذبات الشياطين حالما تظهر ويحس أنها قد تحركت في القلب. هاتان الفضيلتان وهذان العملان اللذان بهما تنجمع وتنحصر سائر أعمال الفكر وفضائل النفس جميعها، تولّدان موهبتين وعطيتين روحانيتين، محدودة بهما جميع المواهب الإلهية، ومحصورة فيهما جميع عطايا الرُّوح؛ لأنهما لا يُعملان بالجسد، ولا يُفلَّحان بالنفس، بل إنما يحظى بهما الإنسان إنعاماً بقوة الرُّوح الْقُدُس، وهما: حركة روحانية تحرِّك بلا فتور حركات النفس بحرارة حب الله الكامل، ونظرة نور مجد رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح باستعلان الرُّوح الْقُدُس.

٤٦- إن كنت، يا أخي، تحب تَدْبِير السكون، وينير عقلك وتتلطف حركات نفسك وتدق لتتفرس في حركات الآلام المنتبهة فيك من تذكار خطاياك القديمة، ولترصد ما يأتى عليك من مجاذبات الشياطين التي تُسمى أفكاراً شيطانية، حسب قول الأب إشعياء ومار أوغريس، تلك التي ليس لها عليك سلطان، إلا لكي تذكِّرك بالخطية وتخضِعك بمجاذباتها للتنازل معها، أمَّا بذكر امْرَأَة بسماجة الشهوة، أو بتذكر أخاً أحزنك، مع بقية الآلام؛ فتعلَّم كيف يكون القتال والجهاد معهم؛ لأنه ليس في سائر المعارف كمثل أن يفهم الإنسان آلامه ويقاتل معها ويستعبدها لسيادة إرادته. فمن هذا المصاف يقتني الإنسان سريعاً نقاوة القلب وينظر الله.

+ **طهارة العقل**:

٤٧- إقرأ وإفهم وإعرف ما هي طهارة العقل، ومما تُقتنى، وما هي الآلام، وما الذي يولد منها، وبأي أعمال وبأي جهاد يغلبها الإنسان؛ لكي تقهر كل قتال في وقته، إلى أن يُعطى لك الإفراز الرُّوحاني، الذي به تقدر أن تفرز بدقة، بلا ضلالة، مجاذبات الشياطين من أفكار الآلام. واعلم أنه ما دمت متيقظاً حريصاً في صَلَوَاتك، ومجتهداً في تكميل قوانينك في السكون بلا طياشة، إن تحرَّكت فيك الأفكار الرديئة، فاعرف بالحقيقة أنها ليست هي أفكار آلامك، بل هي مجاذبات الشياطين. لأن أفكار الآلام التي من العادات القديمة لا تتحرك في الإنسان طالما كان متيقظاً في عمله الرُّوحاني، وإن هي تحركت فسرعان ما تضمحل لأجل حرصه في عمله وبغضته لها. أمَّا مجاذبات أفكار الشياطين، فإذا كان الإنسان متيقظاً مجتهداً في عمل البر، وخدمة المَزَامِير، وصلاة أبانا السمائي، وكلام التلاوة التي يرتبها من ذاته ويصلي بها بغير فتور إن أكل أو شرب أو جلس أو مشى، هذه الأعمال والصَلَوَات تحرك الشياطين بالحسد عليه: لأنهم يخافون لئلا يقتني قبالتهم سلاحاً، ولأجل هذا فهم على الدوام يُظهِرون له مجاذباتهم متواتراً، ويحرِّكون فيه الأفكار، لعله يميل إليها ويتهاون بعمله. لأن هذه الثلاثة أشياء التي هي: خدمة المَزَامِير، وصلاة أبانا السمائي، وصلاة التلاوة التي يركِّبها الإنسان ويطلب بها الرحمة والعون والخلاص، هذه الثلاثة أنواع من الصلاة هي كمثل ثلاثة سهام تطعن الشياطين وتقتلهم. أمَّا إذا كنت طائشاً بالأفكار، ومتهاوناً في تكميل خدمة الأوقات وقوانين السكون، فإن أفكار الآلام تتحرك في قلبك وتضغطك أكثر من مجاذبات الشياطين.

٤٨- ومع معرفة الآلام والجهاد مع مجاذبات الشياطين وهدم أفكار الخطية، واعتنائك بنقاوة القلب وحرارة الضمير، تعلَّم بالأكثر، بمحبة زائدة وأعمال مفرزة بالعقل، الصلاة التي بلا فتور ولا طياشة، لأن بها محدودة كل سيرة العقل التي تطلبها شريعة السكون، التي هي كما قلنا: الصلاة التي بلا فتور وهدم الأفكار. فلا ينبغي أن يتنعم الإنسان أبداً بإرادته، بانحلاله وتنازله مع الخطية بأفكاره، ولو كان من اضطرار الجهاد وصعوبة العناد، بل يقتني للخطية بغضة شديدة، لكي يحلو له تَدْبِير السكون، ولا يتعبه الضجر.

٤٩- وإنْ كنت تقتني هذين الأمرين، أعني الصلاة التي بلا فتور ولا طياشة وطهارة الأفكار، فأنت تحظى بجميع سيرة العقل. ولكن أولاً أَتْعِب جسدك ونفسك وقتاً معلوماً بالصَلَوَات التي بلا فتور، ولو أن يطيش فكرك، فبعد هذا تؤهَّل للصلاة التي بلا طياشة. لأنه إن لم تتعب جسدك حسب قوتك، وتفني نفسك كل وقت وفي كل مكان وكل فعل وحال، ولو أن فكرك يطيش لأنك بعد مبتدئٌ، فلن تُعطى لك الصلاة التي بلا طياشة. وإن لم تعوِّد نفسك أن تهدم أفكار الآلام والشياطين، فلن يُعطى لك جمع العقل من الأفكار الطائشة. لأن بهاتين الفضيلتين (أي الصلاة بلا فتور وطهارة الأفكار) ينحصر ويُحدُّ جميع تَدْبِير الضمير، وهما مرتبطتان الوَاحِدة بالأخرى ومركبتان ومتحدتان معاً. وكما أن طبع الجسد شيء، وطبيعة النفس شيء آخر، ولأجل اتحادهما معاً صارا طبيعة وَاحِدة، ومن دون اتحادهما لا يكمل لهما فعل؛ هكذا أيضاً، إذ الصلاة

شيء وطهارة الأفكار شيء آخر، ولأجل اتحادهما واشتراكهما هما الاثنين، يقام منهما تَدْبِير (وَاحِد) يسميه آباؤنا سيرة العقل، فإن كل وَاحِدة منهما محتاجة لتكميل الأخرى، حسب قول القديس مرقس: «إن النية الصالحة بالصلاة توجد، هكذا أيضاً الصلاة بالنية الطاهرة توجد».

٥٠- عوِّد نفسك واغصب ذاتك لجمع أفكارك في خدمة المَزَامِير، وبالأكثر في الليل، لكي يأخذ عقلك حس وفرح الرُّوح المكنوز في المَزَامِير؛ فإن أُهِّلت لهذا، فلن تشبع من السكن في الهدوء. واعلم أن الذي يتعب بأعمال الجسد فقط داخل الحبس، وهو لا يعمل بالضمير، بل يطيش ويطمح فهو يتهاون أوقاتاً. وأمَّا الذي مع عمل الجسد يعمل بالفكر أيضاً، فهو لا يقدر أن يتهاون؛ لأن عمل قلبه ما يتركه يستريح. فلهذا عظيم هو عمل العقل وتَعِبٌ جداً ومديد، وحسب عظم عمله هكذا أيضاً كثرة منافعه.

٥١- إن اخترت عمل الجسد والعقل، فلا تتضجر ولا تزد على عمل العقل أعمالاً جسدانية فوق قوتك ومبدأ منزلتك. بل قليلاً قليلاً ادخل وغص في تَدْبِير العقل، وهو يكون لك معلِّماً ومرشداً في كيف تحترس من الموافقة في قلبك مع الأفكار الشيطانية. هوذا أبوك الأب إشعياء، لكي يعلمك ويشجعك ويجذبك لعمل العقل، يقول لك: «أنت يا ابني، اهرب من أهوية قلبك، هذه التي تقيم عليك القتال، ورَبُّنَا يكسر جميع أعدائك». ومعنى قوله إنه إذا كنت في السكون، وأنت خال من الطياشة في الأفعال، وعادم من مفاوضة الناس، ومتفاوض مع سيدك بعمل وصاياه، تغار منك الشياطين بحسدها، وتجذبك للتنازل في الشهوات، لكي تخيِّبك من حب سيدك، ومن العزاء الرُّوحاني، ومن الأجر لأجل سكونك وعملك.

+ الحذر من أفكار الشياطين:

فاصنع هكذا مثلما أقول لك: كل وقت تُحرك الشياطين فيك فكراً ما، إنْ كان شهوانياً أو غضبياً أو مجداً باطلاً، أو مهما كان من الآلام، فلا توافقهم ولا تتنازل معهم، ولا تتركهم يدخلون قلبك وينعِّمونه، بل اذكر عاجلاً ذلك التنعم المحفوظ لك عند الرب، وانتهر تلك اللذة الألمية، وأغمض عيني فكرك عن النظر في ذلك الفكر الردئ الشيطاني، ولو أن لذة الخطية تجذبك، أغصب نفسك لكي تهرب منها وتنتقل بحبك إلى سيدنا وتسأله أن يمدك بالمعونة لكي تغلب. فإذا نظر الله إرادتك، إنك حتى ولا بالفكر تحب أن تتنعم بالخطية، وهذا لأجل التنعم بمحبته، ففي الحال يشير للملاك القديس التابع لك، فيطرد الشياطين المقاتلة معك بمجاذباتها، كمثل الغبار من قدام الريح العاصف. ولهذا قال لك الأب إشعياء: اهرب وفِر من مشيئات قلبك. أعني أنت فقط اغصب نفسك قليلاً، وأظهر للشياطين بغضتك لمجاذباتهم، ومحبتك لسيدنا، وهو يطرد عنك الشياطين، ويقطع مجاذباتهم من قلبك، وينير ضميرك، ويملأ نفسك أمناً وسلاَمًا وعزاءً من النعمة.

٥٢- لا تخف أيُّها المتوحد محب السكون، والمقاتل حتى الدم في جهاد البر مع الخطية لأجل محبة سيده. ليس يبطئ كثيراً زمن جهادك، بل بعد مدة من السنين معروفة، إذا ما اختُبرت إرادتك الصالحة وحبك الصادق للرب بالصبر في الجهاد والقتال مع أعدائه، فمنذ ذلك الوقت، ليس كل وقت تقاتل معك الشياطين يمدك بالمعونة لكي تغلب، بل إنه إذا انقضى زمان جهادك يطرد عنك الشياطين كلية ويقطع من قلبك جميع مجاذباتهم. وعوض تلك الأفكار الكثيرة التي كانت تتحرك فيك، تمتلئ نفسك أفهاماً روحانية، ويبتهج ضميرك كل وقت بأفكار إلهية، التي هى: الهمُّ بعظمة الطبع الإلهي، الهذيذ بالثالوث الْقُدُّوس، تذكار دائم لا ينقطع بعشق محبة المسيح ونور مجده الإلهي الساكن فيه في السماء، الهذيذ برتب الملائكة الممجدة، ذِكر الفردوس وأرواح الصديقين الذين كملوا، استعلان رَبِّنَا من السماء، صعود القديسين إلى السماء، وأشياء كثيرة لا يسهل علينا كِتَابتها ولا النطق بها. فبهذه الأفهام الرُّوحانية يتحرك عقل المتوحد كل وقت بتنعم لا يُنطق به، ويأخذ هذه المكافأة بعد مدة جهاده، كعربون ههنا، عوض كثرة تلك الأفكار الردية الشيطانية التي كان يتضايق بها أولاً في القتال.

٥٣- والآن يا أخي، إن كنتَ مشتاقاً لهذه (الأفهام الرُّوحانية)، ولنقاوة القلب التي بها ينظر الإنسان الله، أَعِدَّ نفسك للجهاد مع الآلام والشياطين، ولا تتضجر إذا ما ضُربت ونالتك الجراح في وجهك كل مدة مجاهدتك، ولا تعطي قفاً وتهرب من قلايتك مثل خصمٍ مغلوب. بل انتظر بصبر وبرجاء حقيقي للغلبة التي يعطيك إياها رَبِّنَا في السكون بعد مدة جهادك وكثرة الرَّاحَة والفرح التي تحظى بها، ولا تكن كالجهال البله المنحلين، الذين عندما يكونون غالبين ومنتصرين وفرحين ونيّرين، يجلسون في السكون والحبس، وعندما يتضايقون وينجرحون ويُغلبون ويحزنون ويسقطون ويُظلمون، يتركون السكون ويخرجون! بل أنت اصبر على جميع ما يحدث لك كل أيام مدة جهادك؛ إذ في وقت تضغط أنت الشياطين، وفي وقت يضغطونك، وفي وقت تسقطهم، وفي وقت يسقطونك، حتى ينظر الله صبرك ويعطيك غلبة على أعدائك ويتوِّجك بمعرفة الرُّوح.

٥٤- الجهاد مقابل الأفكار الردية في السكون، يكون بهذا النوع: من حيث أن يبدأ المتوحد بسيرة العقل، وبالحرب مع الآلام مدة من السنين كثيرة أو قَلِيلَة، فكل وَاحِد على قدر حرصه ونشاطه وعمله، يوماً بعد يوم وزماناً بعد زمان، كلما يتقدم إلى قدام، تكثر عليه الحروب إلى أن يبلغ نقاوة القلب. وقبل مدة من وصوله إلى النقاوة تشتد عليه الحروب أكثر من الأَوَّل وأصعب من العادة. فإن تجلَّد المتوحد وصبر في السكون دون أن يرتخي أو يملّ، حينئذ يبدأ أن يجد الرَّاحَة قليلاً قليلاً، ويُعان من النعمة دائماً، وفي كل وقت تدنو منه الشياطين وتقاتل معه بمجاذباتها النجسة، فحالما يدعو سيدنا لكي يعينه، يُطردون من أمَّامه سريعاً وعاجلاً بفعل الملاك القديس اللازق به، وذلك بالغمز الإلهي، ويبقى عقله في هدوء وسلام، إن خدم مَزَامِير أو صلاة، أو قرأ في الكتب، أو اهتم بالله وبخيراته. وبعد مدة قَلِيلَة لا يُسمح للشياطين أن تدنو منه بمجاذباتها كالأَوَّل، ما خلا بالقتال الظاهر الذي يكون باللمس والنظر، لأجل عدم التألم الذي اقتناه. لأن عدم التألم - كما قال الأب إشعياء - هو غير قابل للقتال، فقد أخذ إكليله واستراح من

الهم والعناء. وعدم التألم هذا الذي يعنيه الآباء، ليس هو ذاك التام الكامل الذي يكون بعد القيامة، بل هم يعنون صحة النفس من مرض الآلام وسقمها فيها. وهذا إنما استفدناه من الكتب المقدسة، ومن أفواه أناس قديسين كاملين وإلهيين. ليؤهلنا الرب بكثرة رحمته أن نسير في إثرهم، ولنكمل مثلهم في محبة الله آمين.

المَيْمَر السَّادِس

في ترتيب الرهبنة الحقيقية وكيفية العمل بها

١- مخافة الله تتقدم محبة الله. فالذي يعمل بالوصايا لأجل محبة الله، يُعطى له أولاً خوف الله، وبه يكمل كل وصايا الله بكلفة وصعوبة، لأنه يقاتل الخطية التي تقاوم الوصايا. وبجهاده مع معونة الله يقهر الخطايا بخوف الله، بحزن ورعب، لأنه يخاف من الانغلاب والسقوط. ومع هذا ينتظر الوصول إلى فرح محبة الله، التي من أجلها يعمل كل جهاد، إذا استمر كل الأيام في ترك الشر والبعد من كل خطية.

٢- العمل الذي يصل به الإنسان لكمال خوف الله، هو أن لا يخطئ خطية كبيرة أو صغيرة، حتى التي لا تكون هناك خطية أصغر منها، إلا ويسرع بالتوبة عنها. وبهذا تكمل فيه مخافة الله، التي هي البعد من جميع الخطايا، فيعطى له العمل الثَّانِي الذي هو كمال كل بر وكل فضيلة؛ لأن به يحصل الإنسان بالحقيقة على محبة الله، ويقتني عدم الأوجاع، وينعم بلذة وحلاوة نظر الله.

٣- فلا يمكن للإنسان إذاً أن يصل إلى كمال مخافة الله إلا بترك جميع الشرور، وقطع كل خطية. وبتكميله عمل كل بر يبلغ إلى محبة الله بنعمة الرُّوح الْقُدُس. ونستطيع ذلك بثلاثة أعمال: العمل الأَوَّل هو مداومة قراءة الكُتُب لكي منها نتخشع دائماً ونخاف الله ونعرف وصاياه. والثَّانِي هو العمل بوصايا الله والتحفظ بها. والعمل الثَّالِث هو أن ننقِّي قلوبنا، بصلاة دائمة بلا فتور، من كل فكر يضاد خوف الله ومحبته. فإذا لازمنا هذه الثلاث فضائل، سهلت علينا وصايا الله وكملت فينا محبته.

٤- لا يستطيع الإنسان أنْ يكون بمفاوضة الله ومفاوضة الناس، ولا أن يكون قريباً من أهله الجسدانيين ويقدر أنْ يدنو لشيء من الرُّوحانيات، لذا فالغربة توافقنا كثيراً. ألا تعلم يا أخي، أنَّ حياتنا تنقرض ساعة بساعة، ويوماً بيوم، وحتى ولو أننا كل أيام حياتنا نجتهد أن نردَّ يوماً وَاحِداً من الذي مضى فما نستطيع. فخسارة عظيمة هيَ لنا إذا نحن تغافلنا عن يوم وَاحِد لكي يجوز بلا ثمرة تمجيدنا وأعمالنا، فنتهاون من تقديم الصَلَوَات ومن التضرع أمام الله. لأن هذه كلها مرسومة ومكتوبة قدام الله، وبها يُمدح الإنسان أمام النعمة، حيث تأتي أوقاته وهي موسوقة بأعماله الصالحة.

٥- فلهذا يا إخوتي، لا نتهاون في وقت وَاحِد من أوقاتنا دون أنْ نقدم فيه أثمار التوبة. ينبغي لنا جداً الجلوس وحدنا لكي نبكي وننوح على أيامنا التي جازت باطلاً فارغة، واضمحلت، وليس ينفعنا وقت الموت أحدٌ، لا إخوة ولا أصدقاء. السعيد حقاً هو الذي يتفكر في هذا، ويجمع أفكاره إلى ذاته وينقبض من الطياشة الباطلة، ولا يتخلف وقتاً وَاحِداً عن الصلاة والتوبة. أمَّا أنا فلو أن جميع الخلائق يبكون عليَّ لأجل خطاياي، لما كان ذلك يكفي.

٦- اعلم يا أخي، إنَّه ليس لكثرة الأعمال يعطى الله الأجر، بل لشوق الإرادة والبشاشة المفرزة، كمثل الصبيان الذين يسرعون إلى الطاعة، واتضاعهم هو فخر أنفسهم. فالذي يريد أنْ يقيم كلمته، ولو أنَّها حق، هذا قد مرض مرضاً شيطانياً، والذي ينوح على ذاته ينجو من النار. لقد أعطى رَبِّنَا الطوبى للطاعة، لأنَّ المطيع هو الذي يتنعم أولاً بالطوبى. والويل للمقاوم والمحارن[١٨] لأنَّه يغتذي من مرارة نفسه كل حين.

٧- كُنْ (في كل حين) مبكِّتاً لذاتك، واضمر عن نفسك أنَّك خاطئ، وقل: ليس على الأرض من هو أعظم خطية مني. داوم على السهر الكثير، وفكر في العذاب الأبدى. الاتضاع هو مُهلك لجميع الآلام، والذين يقتنونه ينجحون في كل شيء، ويغلبون كل أمر. الطهارة والصَّوْم والصلاة والسهر والاتضاع وندامة النفس، هذه كلها فوق الطبيعة، وطوبى للمتوحد الذي عمله دائماً بها، وعقله مضبوط بها.

٨- في فضيلتين جمع الآباء القداسة كلها، وهما: التواضع والنوح. فلنتفرس في ذواتنا إن كنا في الرتبة الجسدانية مع المبتدئين، أم مع الوسطانيين، أم مع الكاملين، ونسرع لكي ندرك، ولا ننسى ونتغافل لئلا نخسر.

٩- إذا ما أُهِّلتْ النفس لغفران الخطايا، حلَّت في النور الإلهي. فضيلة وَاحِدة أو حسنة وَاحِدة تُعمل بإفراز، تقطع خطايا كثيرة. والشر ليس هو شيئاً إلا عدم الفضيلة فقط. النصراني الحقيقي له في كل يوم حرب مع ذاته؛ لأن كل من قاتل مع نفسه وغلبها، ليس له بعد قتال مع أحد. والذي دان نفسه لا تبقى عليه دينونة، ولا أحد من الناس يقدر أن يدينه. لأن الذي قد عرف عيوب نفسه، لا يتقزز من عيوب الآخرين. والذي لا يعمل شراً مع أحد من الناس هو بار. والذي يعرف دينونة الله، هو يدين نفسه ولا يدين أحداً غيره. والذي أعماله ردية، لا يقدر أن يعلِّم آخرين أعمالاً صالحة. فينبغي لنا أن نحب الله من كل أنفسنا ومن كل قوتنا، ونحب قريبنا كنفسنا، ولا نكافئ شراً عوض شرٍ.

+ صلاة اللسان وصلاة الرُّوح:

١٠- الذي يداوم ترتيل المَزَامِير بالرُّوح بلا طياشة، يمتلئ من الرُّوح الْقُدُس. أمَّا الذي باللسان فقط يصلى ويزمر دائماً ليلاً ونهاراً، فهو بار، وبعد ذلك يصير روحانياً. لأنه إذا داوم على هذا العمل الظاهر ليلاً ونهاراً مدة من الزمان، بصوم كثير وتزمير باللسان وصلاة ونسك وأعمال صعبة، فإن نفسه تمتلئ من ذكر الله، ويخاف ويرتعب من الدينونة، ويحسب كل الناس أخير منه، وإذا نظر أعمال الناس، ورأى إمَّا زانياً أو فاسقاً أو ظالماً، فإنه يعتبرهم أخير منه، وذلك من ضمير قلبه الخفي وليس بالكلام الظاهر، بل إنه يتقدم إليهم ويسجد قدامهم، ويتضرع قائلاً: صلوا عليَّ فإني خاطئ، وقد أذنبت كثيراً قدام الله، ولم أوفِ عن ذنب وَاحِد. فعندما يبلغ الإنسان إلى هذه وأكثر منها، حينئذ يبلغ أن يزمِّر قدام الله بترتيل الرُّوحانيين.

[١٨] ال الـ جج.

١١- إنَّ الله بالسكوت وبالصمت يُصلَّى قدامه بذلك الترتيل الموافق له. وإنْ كان أحد يسكت عن تزمير اللسان، وما قد وصل بعد ولم يعرف أن يزمِّر بالعقل والرُّوح، فهو بطال، ويمتلئ من الأفكار الردية؛ لأنه سكت بالظاهر، وهو في الخفاء لا يعرف أن يزمِّر من داخل، ذلك لأن لسان إنسانه الجواني لم ينبسط (بعد) لكي يرتل ويلغلغ (كالطفل) خفية.

١٢- إنَّ الصلاة التي يشير إليها الآباء ليست هي بالكلام فقط، ولا بالكلام تتعلمها؛ لأنك لست قدام إنسان تصلي، بل قدام الذي هو روح أنت ترسل حركات صَلَوَاتك. لأن الله هو روح، فلهذا ينبغي أن تصلي أمَّامه بالرُّوح. (والصلاة بالرُّوح) لا تطلب موضع الذي يُصلِّي، ولا نطق اللسان؛ لأن الصلاة الكاملة لا تطلب موضعاً. هذه الصلاة الرُّوحانية هي داخلة عن اللسان، وعميقة عن التزمير؛ وإذا ما أراد الإنسان أن يصلي بها يغطس ويتداخل عن الكلام واللفظ، وفي بلد الملائكة يقوم، كعربون، وبغير كلام يقدِّس مثلهم. فإن سكت عن هذه الصلاة، وبدأ بصلاة اللسان، خرج عن بلد الملائكة، ومن التشبه القليل بهم. فإن كنت أيُّها الأخ ما بلغت لهؤلاء، وبلدك مازال بعيداً منهم، فاثبت الآن في العمل البراني، وصلِّ وزمر بالصوت واللسان قدام الله بخوف وحب، حتى تصل إلى المحبة.

١٣- خَف من الله بالعدل لكي تؤهَّل أن تحبه الحب الطبيعي الذي أُعطيناه بتجديدنا. ولا تكن كمن يتلو كلام الصلاة خارجياً فقط، بل جاهد واعتنِ أن تكون أنت ذاتك كلام الصلاة. لأن التلاوة ليس فيها نفع، إلا أن يتجسد الكلام بك ويصير عملاً، وتبقى في العالم إنسان الله. لأن الضمير إذا ارتبط بالقراءة والصلاة، فإنه يتقوى ولا يقبل زرع أفكار الشرور، ويصير فوق كل فخاخ الشيطان. لأن حرارة الصلاة والهذيذ يحرقان الآلام والأفكار كما بنار، بالرجاء بالله. فهذا التَدْبِير (أي ربط القراءة بالصلاة) يُقتني للراهب أجنحة، ويبلغ العقل الرُّوحاني الذي به يخدم الرُّوحانيون.

١٤- وكما أن الذين آمنوا بالمسيح عندما ظهر في العالم هم أولاً أخذوا طباً حقيقياً لأنفسهم وأجسادهم، هكذا أيضاً الذين يحفظون وصاياه، عندما يظهر في ذلك العالم، ينالون مجداً وكرامة. وبقياس ما تنظر الطفل الطبيعي، هكذا بالمثل أيضاً انظر في الطفل الرُّوحاني. فمثلما هو ساكت لسان الطفل الذي لم يعرف الكلام بعد، ولسانه موضوع في فمه وليس له حركة الكلمة، هكذا أيضاً لسان العقل هو صامت من كل كلام ومن كل اهتمام، وهو موضوع ومعدّ فقط أن يتعلم تلغلغ وهجاية الكلام الرُّوحاني.

١٥- ثمَّ سكوت اللسان، وثمَّ سكوت جميع الجسد. وهناك سكوت النفس، وسكوت العقل، وسكوت الرُّوح. صمت اللسان هو إذا لم يتحرك لكلمة ردية. صمت كل الجسد هو إذا بطلت جميع حواسه. صمت النفس هو إذا لم تنبع فيها الأفكار المرذولة. صمت العقل هو إذا لم يهدس بمعرفة وحكمة مخسِّرة. وصمت الرُّوح هو إذا ما هدأ العقل حتى ومن الحركات الرُّوحانية التي للكائنات، وتختلج كل حركاته بالأزلية فقط، بدهش السكوت عليها. هذه هى الدرجات والمقادير في الكلام والصمت، أمَّا أنت فما بلغت إليها الآن، ولأن بلدك بعيد منها، داوم صلاة اللسان

ورتل قدام الله بالصوت.

+ مَنْ هو المتوحد، وما عمل سيرته

١٦- المتوحد هو إنسان قد ترك العالم وكل مجده وغناه وربحه، وأخْذه وعطاءه وبلده وأقاربه، وانتقل إلى المجامع والأديرة، أو الجبال والبراري، يجلس في السكون، ويعمل بيديه ويقوت نفسه، أو تعطى له صدقة من المؤمنين حسب عوزه فقط، ويعبد الله ليلاً ونهاراً.

١٧- أمَّا عمل المتوحد، فهو الصَّوْم من العشاء إلى العشاء، وسهر نصف الليل، وصَلَوَات لا تنقطع ليلاً ونهاراً، وضرب الميطانيات والسجود، وخدمة المَزَامِير وقراءة في كتب الآباء. المسكنة والتجرد والبعد من كل شره ورغبة، والنسك عن كل شيء ما خلا الخبز والملح والطبيخ الساذج غير الدسم. الرقاد على الأرض إلى وقت الشيخوخة والمرض والضعف، ثبات داخل القلاية في الدير، ومن غير ضرورة أكيدة لا يخرج منها إلا إن كان للصلاة، أو لتناول الأسرار في يوم الأحد، أو لأمر ضروري لأجل المجمع. البكاء والنحيب والتنهد ولباس الشعر. الرحمة ومحبة الغرباء وغسل أرجلهم. الطاعة لسيدنا بحفظ وصاياه، وللآباء القديسين وكتبهم. التواضع في كل شيء واحتقار الذات والازدراء بنفسه. حب لسيدنا بالأعمال، ولأهل تَدْبِير سيرته، ويكونون عنده كمثل الملائكة. السكون والصمت وأن يكون غير محسوب عند نفسه. الامتناع عن شرب الخمر ما خلا لأجل مرض أو ضعف ما، أو حب القريب، وهذا إذا ما عرض إلى ثلاثة أقداح لا غير. ذِكر الموت والدينونة المزمعة. تكميل سَبْعةً أوقات الصلاة. الطاعة والخضوع للرؤساء والمعلم. خدمة الضعفاء وعمل اليدين. حفظ الحواس والعفة والطهارة. الاحتراس من طياشة الأفكار. الفرح بالرُّوح والاحتمال والصبر وعدم الغضب ومسامحة كل من يضره ويحزنه. التعري من الآلام ومن كل شيء. الخوف قدام منبر المسيح والهذيذ في الصَلَوَات بالقلب وبسط اليدين إلى السماء. وباختصار: النسك والتوبة ومحبة الأعمال مع بغضة النفس والجسد إلى الموت.

١٨- فهذه الأشياء تنبغي للمتوحدين الذين خرجوا من العالم إلى الوحدة. هذا هو المتوحد، وهذه هي سيرته. وكل راهب لا يعمل هذه في ذاته حسب دعوته وحسب إسكيمه بكل مقدرته، مثلما أمر سيدنا والآباء، أن يحفظ ويعمل، بل تهاون وصنع أمراً بإهمال وكسل، فهو لا يؤهل للكمال، وهو يسير في رتبة ومنزلة العلمانيين. طوبى للذين يحفظون ويعملون، لأن سيدنا إنما أعطى الطوبى للعمالين، وليس للسامعين والقارئين الذين لا يعملون. لهذا ينبغي ألا نفتخر بالاسم، بل نجتهد في الأعمال؛ لأن العمل هو الذي يبرِّر ولو كان بلا شكل أو إسكيم أو اسم.

+ في معانى سيرة السكون

١٩- فلنحترص أن نقتني بالسكون سكوناً، أعنى أننا بسكون الجسد نمسك سكون النفس. والجحود بالنفس الذي قال عنه المسيح: «أن نرفض كل شيء ونتبعه»، هو أن يكون قلبنا في السكون. فإن لم يداوم المتوحد على هذا (الحرص) في قلايته، يكون كالذي يبني ويزين بالشمال من ناحية، وهو من ناحية أخرى يهدم باليمين ويعدّ خراباً لِمَا بناه. لأنَّه يحترس من الأمام لئلا يُطعن ويُجرح، بينما هو يُسلب من ورائه ولا يحس، ومثلما يلوم أنبا إشعياء جهالتنا وعدم معرفتنا، إذ نكون هادئين في القلاية (بالجسد فقط)، بينما إنساننا الداخل يطوف في النجاسة. أعنى أنَّ الإنسان يُقاسي الأحزان والضيقات داخل السكون وينام على الأرض ويصلى، ويحمل أحزاناً كثيرة من أجل المسيح، وليس بفرح ومحبة. نحتمل الضيقات التي تلاقينا في السكون، ونحفظ الوصايا بالظاهر، ونحن في الخفاء خاضعين للآلام، وبالأفكار الردية نفسد الأعمال الصالحة.

٢٠- ثلاثة أبواب مفتوحة، إذا أغلقناها وأصبحت تحت سلطاننا، فإننا نجد الملك المسيح داخل منها، وهى: باب القلاية، وباب الحواس، وباب القلب الجواني. ولا نقدر أن نغلق الباب الأوسط (أي باب الحواس) إن لم نغلق البراني (أي باب القلاية)، ولا يثبت الجواني (أي باب القلب) بحفظ حقيقي، إن لم نحترس في الذي هو خارج منه (أي الحواس). لأن هذه الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض، ولا يمكن غلق الجواني بدون الاحتراس باللذيْن هما خارج منه، ولا هذان الخارجيان منه يكون في العقل قوة للتحفظ بهما إن لم يحترس بحفظ الجواني، لأن به يكمل حفظهما، وهو المحتفظ بهما في الحقيقة. ولهذا إن لم يحفظ الحارس باب الجواني (أي باب القلب)، فاللذان هما خارج منه (أي باب الحواس وباب القلاية) يثيران عليه اضطراباً وسجساً كل وقت. ولأن الملك يسكن في البلاط الذي داخله، فإن كان الذهن المتيقظ يحرس أبوابه بغير فتور، فهو يأخذ من الملك سلطاناً لأجل مداومته على بابه، ويكون مخوفاً ذا هيبة ورعب على جميع من يحسدونه - الذين هم من خارج - لأجل تداخله مع الملك المسيح، وإذا ما نظروه أو سمعوا صوته هربوا واختفوا.

٢١- ويشهد على كلامى هذا، ذلك الشيخ القديس الذي قال: «يوجد من يجلس في القلاية مائة سنة، ولا يعرف كيف ينبغي الجلوس فيها». أعني الذي لا يغلق باب القلب الجواني، الذي يسكن المسيح الملك داخله، بينما هو يحارب لكي يغلق البابين الخارجيين بتعب كثير وعناء.

٢٢- وأمَّا نحن فإننا كالحكماء الْعَارِفِين بالطريق التي تقطع الدورات الكثيرة في الجبال، نحترس بجلوسنا داخل القلاية أنْ نغلق الباب الذي يحل داخله المسيح، وإذا ما أغلقناه جيداً، ندنو بعد ذلك للمفاوضة معه. فإنْ كُنا نفتحه قدام كل أحد من كثرة الداخلين والخارجين، فلا الملك يكون له وقت ليدخل، ولا نحن نجد فسحة للكلام معه. لأنه ما دامت هذه الأبواب لم تُغلق من عارفي الحق، فلا يكون للقلب هدوء، لا من أحد الأفكار ولا من أحد الآلام، لأن العقل

الناطق لا يقدر أن يبطل.

٢٣- فإذا تجلَّد المتوحد داخل سكون القلاية بالغرض الذي ذكرناه، وكان معتنياً بهذين الأمرين بإفراز وحكمة، اللذين هما: تعب الجسد، والاتضاع ومحقرة الذات في كل وقت، لا يمكث كثيراً إلا ويوجَب له سلطان من العلاء، لكي بغير تعب - داخلا وخارجاً - يحفظ كنزه بغير انسلاب.

٢٤- ليس فقط الآلام هي التي تعوق الذين يقاتلون حتى الدم داخل السكون، بل وأيضاً الأفكار الساذجة التي مثل خفافيش الليل تلزق أظفارها في سقف بيت العقل، ولو أنه ينظفها كثيراً بقوة، فهي لا تمضي من أجل ما تَقدم لها (أي بسبب سلطانها السابق). أمَّا الآلام فيدفعها المتوحد عنه بواسطة الفضيلة، أعنى بالعمل والاتضاع كما قلنا، وأمَّا الأفكار الساذجة، فيدفعها عنه بتاورية الرُّوح التي تظهر له في الصلاة، أي بواسطة الرَّاحَة التي ذكرنا أنَّها تتوجب له بسلطة داخلاً وخارجاً. وهذه الأشياء تحصل للذي تعب وأطاع بغرض مستقيم، واتضع وخضع في وقت المجمع، إذا لم يكن له غرض آخر ما خلا النظر الدائم إلى المسيح، وهو يصلي أن تكون جميع تصرفاته حسب إرادته.

٢٥- لأن كل من يجلس في القلاية، وهو لم يغلق بابه جيداً، فإنه يتقلّى بداخلها كمن هو بالجحيم، ولا يكون لفكره راحة. وإذا ما خرج من قلايته لا يقدر أن يمسك ذاته لا بالحواس ولا بالحركات الداخلة، ويبقى مثل حجر نجس في أسواق المدينة قدام كل أحد. لأنه في الأيام التي كان ينبغي له أن يكرِّم وينيِّح كل أحد، كان منتقماً قاسياً وطالباً كرامَات في غير وقتها، أو أنَّه كان يخدم ويكرِّم وينيِّح الآخرين لأجل غيرة ما، وليس بغرض وقصد مستقيم ومحبة حارة.

٢٦- كل مَنْ في أيام عبوديته - أعنى طاعة المجمع - مشى باستقامة مِنْ غير تهاون أو إهمال، وتأمل بفكره بغير انقسام بهذيذ الأمور الصالحة، وهو يأمل بشوق وفرح قلب ويفكر بماذا وكيف يزيد على تجارته؛ فكلما تتواتر عليه التجارب والصعوبات والأشياء المحزنة وقت جلوسه في السكون، فهي تضع في قلبه رجاءً وعزاءً. حتى ولو ظن أنها مضغطة، فإن حملها يكون خفيفاً عليه، ويصبر عليها بفرح، هذا إذا لم يتخلف عن غرض قصده الأَوَّل ويشتبك بشيء آخر غريب عن طريقه. وحتى إذا ما خرج من قلايته، فتلك الرَّاحَة التي له داخل القلاية تُكتب على عينيه وعلى فمه وعلى يديه ورجليه، وباختصار فإنها تملك على نفسه من داخل وعلى جسده من خارج، فلا ينعصر فكره بشيء من أنواع عمل الفضيلة، بل يكون مملوًّا فرحاً ورجاء بالله، وإيماناً في جميع ما يصادفه، ويتاجر (أي يربح) الحياة بحكمته من الأشياء التي يُظن أنها مخسِّرة. ولأن الرب جاد عليه بهذا، وأخذ منه سلطاناً، فما تستطيع العوارض المضادة المناصبة للحق أن تسلبه حريته، لا من داخل ولا خارج. وهو يعترف كل يوم بقلب منسحق متضع، وبحركات متطأطئة لله، مُبرِّرة له، ويقول: «أبي الذي أعطاني هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي شيئاً». فلا يكون له في فكره أبداً حركة تهدس بشيء كأنه من أعماله واستقامة قصده وجد مثل هذا السكون، بل إن الرب هو الذي أعطاه هذا. حتى إنه ليس فقط إذا كان جالساً داخل قلايته، بل وإذا كان خارجها، فهو يقهر الآلام البرانية التي

بالحواس، وذلك بتوجيب (أي بفعل) النعمة، وبواسطة عمله الخفي الذي من داخل، مثلما علَّم الْأَنْبَا أرسانيوس.

٢٧- فالسكون الحقيقي هو حفظ القلب الذي يُوَلَّدْ من الطاعة والإتضاع، ومن سكون الجسد ومن توجيب النعمة. ولمَّا وجد آباؤنا القدماء هذا، فمنهم من كان يطوف في المدن والشوارع، وأظهروا في نفوسهم سيرة كاملة بالجسد مع حفظ حقيقي بالعقل، الشيء الذي إنما يُعمل في البراري القفرة والمواضع غير المسكونة. وقد ضبطوا (السكون) في سائر أنواع إفرازات أعمالهم، ووضعوا هذا العمل كالإيمان والعلم تجاههم، وصوَّبوا سيرتهم نحوه، واقتنوا قلاية يدخلونها كل وقت، وبيتَ ملجأ يستترون فيه من المنافق الشرير، هي (أي القلاية) معرفة المسيح المقدسة، وهم على الدوام قائمون بالسكون داخلاً وخارجاً، ويتشبَّثون بنور وجه المسيح الذي له المجد وعلينا رحمته إلى الأبد آمين.

المَيْمَر السَّابع

فصل يعرِّف بإيضاح ويفسِّر بإفصاح،

ما هى هيئة الصلاة الطاهرة التي بلا طياشة

١- ينبغي للإنسان الحكيم إذا ما عزم في قلبه أن يسعى في طلب شيء ما ضروري، وأحب تحصيل ذلك الشيء، واشتهى أن يقتنيه، ينبغي له ألا يعتمد على السماع عنه من خارج، ولا يسعى في الحصول عليه بغير فحص وتفتيش، ومن غير أن يكون قد عرف أولاً ما هو هذا الشيء؟ وما هى هيئته؟ لئلا إذا ما وقع في يده بالفعل، فلعدم خبرته به يضيِّعه بسهولة. ولهذا ينبغي له أن يعتني بمعرفة ذلك الشيء وماهيته معرفة ثاقبة لا ضلالة فيها. فمتى عرف ما هو وما هي صفته؟ سيعرف كيف يهتم باقتنائه. كما ويجب أن يعرف بتدقيق ما الذي يسعى في طلبه، وما هو الذي يقصده ويترجاه؟ وذلك لئلا يطلبه بأمور غير مستطاعة، وينتظر تحقيقه كأنه مستطاع.

٢- اعلم، أيُّها الأخ المتتلمذ للحق، أن طهارة الصلاة وجمع العقل فيها هو هذيذ الفضيلة الحقيقي الذي يكون لنا باهتمام في وقت الصلاة. وكما أن طهارة القلب التي من أجلها يحذِّر الآباء، ليس (المقصود منها) أن يكون الإنسان بلا فكر ولا هذيذ ولا حركة تماماً، بل إنَّ نقاوة القلب (في الحقيقة) هيَ أنْ يكون القلب طاهراً من الشرور، يرى كل شيء حسناً، وينظر ويفكر بضمير الله. هكذا أيضاً هى الصلاة الطاهرة التي بلا طياشة. فهى لا تعني أن يكون العقل خالياً تماماً من كل فكر أو رَويَّة في شيء ما، بل أنه لا يطيش في الأشياء الباطلة وقت الصلاة. وأيضاً ليس أنه إذا طاش العقل في معاني الصلاح والأمور الجيدة، يكون حينئذ قد بعد عن طهارة الصلاة، بل إنه في وقت الصلاة يهتم بأشياء واجبة لائقة بضمير مُرْضٍ لله. ولا يُطلب من الإنسان أن لا تجوز فيه تذكارات (باطلة) عندما يصلى، بل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يتفطن ويطيش فيها. فهناك طياشة رديئة وهناك أيضاً طياشة جيدة.

٣- وأنت، أيُّها الأخ، لا تطمع أن لا يطيش الضمير، لأن هذا غير مستطاع، بل (اجتهد) أن تكون طياشته في صلاح. لأن الصلاة الطاهرة إنما هي أيضاً طياشة في شيء ما حسن وصالح؛ لأنها ذِكر وطلب لشيء صالح ضرورى. والطياشة الردية هي أن يطيش الإنسان بأفكار باطلة أو بهذيذ ما مخطئ وآثم، ويلحظ بهدسٍ (أي يراعى) أفكاراً سمجة وقت صلاته قدام الله.

٤- أمَّا الطياشة الجيدة فهي أن يهدس الضمير في كل مدة صلاته بالله وبمجده وعظمته، يلحظ فيها ويطيش بالتذكارات التي من قراءة الكتب وأفهام الألفاظ الإلهية والأقوال المقدسة التى للروح. لأن الذي يجاهد أن يربط فكره بالطياشة في هذه الأمور، أو أن العقل هو الذي يهدس بها من تلقاء ذاته في وقت الصلاة، جهلٌ هو أن يعتبر هذه الطياشة غريبة عن طهارة الصلاة.

لأن التذكارات النافعة التي (تنبع) من كتب الرُّوح، والأفهام وتصورات الأمور الإلهية التي تتحرك في القلب وقت الصلاة، هي ليست غريبة عن طهارة الصلاة ولا مبطلة لجمع العقل.

٥- أن يكون الإنسان منقبضاً إلى ذاته ويتفرس بهذيذ طلبته وسؤال صلاته، هذه هي الصلاة الجيدة، إن وافقت قصد وصايا سيدنا وغرضها. وهذا النوع من جمع الفكر صالح هو جداً. فإن كان (العقل) ينطلق من هذه الصلاة ويمتد للإلهيات أو يهمّ بشيء فاضل من أفهام الكتب عن الله، بما قيل لأجله خاصة، أو ما قيل لعامة الناس بنوع السياسة والتَدْبِير، ويوماً بعد يوم تقع في الفكر مثل هذه الأمور كلياً أو جزئياً، لكي منها يتحرك التمجيد لله من عمق القلب، أو الشكر والفرح بعظمته وبارتفاع تحننه ومحبته لنا. فهذا النوع من الطياشة هو أفضل من الصلاة الطاهرة، وهو حد كل (نوع من أنواع) جمع العقل ومحاسن الصلاة.

٦- وأمَّا أن يكون الضمير خالياً تماماً من كل هم وفكر، فهذا هو صمت الفكر وليس طهارة الصلاة. أن نصلي بطهارة، هذا شيء، وأن يصمت الفكر من الطياشة والأفهام في كلام الصلاة ويبقى بغير حركة، هذا شيء آخر (يختلف تماماً عنه). وجاهل هو من يريد أن يجد هذا (أي صمت الفكر) بالجهاد أو بقوة الإرادة، لأن هذه هى موهبة استعلان العقل. وليس في مقدرة الصلاة الطاهرة وإرادة المشيئة سوى هذين النوعين اللذين ذكرناهما، وهما: أن يطيش الفكر بالصلاة أو بهذيذ طلبته، أو بتاؤرية الكتب والهمِّ الحكيم بالله سيد الكل بفهمٍ واعٍ. فمن يقول إن جمع الفكر هو وجود شيء آخر غير هذا، فهو قد مرض بعدم المعرفة وبضمير خرافة.

٧- أمَّا أنت أيُّها الأخ الحكيم، فلا تطلب من العقل عدم الحركة كالجهال الذين يخرفون، فهذا الأمر ليس موجوداً للطبيعة (البشرية). بل اعتن أنت أن تجد حركات صالحة في وقت الصلاة كالحكماء، التي هى: الهذيذ بأفهام كلام الرُّوح، والفكر الدقيق (أي الحكيم) الذي يضمر في وقت الصلاة مرضاة إرادة خالق الكل. فهذا هو حد كل فضيلة وكل صلاة.

٨- فإذا ما أخذتَ قوة من النعمة، لكي ترتبط بحركاتها هذه على الدوام، فإنك تصير رجل الله، وتصبح قريباً للروحانيات، وتدنو لاقتناء الشيء الذي كنت تشتهيه وأنت لا تعرفه، أي الإحساس بالله، ودهش الضمير المنقبض من كل الأشكال، وصمت الرُّوح الذي قال عنه الآباء. وطوباك إن أُهلت لهذا الفرح والبهجة الْعَظِيمة بسيدنا الذي له المجد، وليكملنا في معرفة أسراره آمين.

+ في منازل تَدْبِير السكون:

٩- إن جميع عمل هذه السيرة المتحدة التي هى السكون تنحصر في ثلاث منازل: منزلة البداية ومنزلة الوسط ومنزلة الكمال.

+ **المنزلة الأَولى** :

١٠- ويتبعها الخوف والحزن والكآبة بسبب ذِكر ما تقدم من الإنسان (من الخطايا)، وخوف ورعب مما يوجَب عليه في الدينونة بالعدل. وهذا النوع الآخر (هو) غرض وقصد المجاذبات والعزاءات المختلفة التي بها يدنو إلى المواهب، بواسطة الطهارة التي يقتنيها من البكاء والندم. والتائب الحكيم، بدوام سكونه ونسكه التعب وهذيذه بخطاياه التي تضغطه بالحزن وتؤلمه: إذ أنه في العادة يلزق به ههنا بكاء مديد، إذا ما أكمل هذه المنزلة بالأعمال المتواترة، واختلاف أنواع التوبة بمعونة المسيح رجاء حياتنا، وبدأ يمتد إلى المنزلة الثَّانِية، ينقلب غرض توبته إلى فرح بغير إرادته، إلا أنه يحترس ويخاف لئلا تكون ضلالة.

+ **المنزلة الثَّانِية**:

١١- وعلامتها أن يبدأ الرجاء يتحرك في الضمير بواسطة التوبة، ويبدأ أن يمتزج فيه العزاء قليلاً، وتتحرك فيه من وقت لآخر اهتمامات تفعل أفراحاً، وينظر نفسه أنه يقدر أن يجمع فكره من الطياشة بسهولة. وهذا يكون إذا ما تداخل في المنزلة بالكمال: أنه يبدِّل هذيذ العادة بهذيذ آخر، له زِىّ من نوع آخر لا يشبهه، وأمور أخرى تحل في العقل ليست لهذه الطبيعة. ويبدأ أن يلاحظ الأفهام السرية المخفية في المَزَامِير، وفي القراءة وفي بقية الأفعال المحسوسة وتصور تاؤرية فلاحة عمله. ويبدأ الفرح يمتزج بعمل سيرته، إن كان بالصَّوْم أو ألفاظ الخدمة وبقية أعماله. وحالما يبدأ الصلاة تنقبض الحواس من غير الإرادة، وتبتدئ الأفكار تجتمع لأنها أحسَّت بجو حَرِيٍّ (أي أفضل) متعال عن المجاهدات والحروب. ويرى أن سفينة فكره تسير بنقاوة، بواسطة ترتيب الصلاة والفضائل، وتتقدم إلى الأمام يوماً بعد يوم. هذه الأشياء مع أمور أخرى أعظم منها تلزق بهذه المنزلة الوسطى، حتى يرتفع الإنسان بموهبة رحمة المسيح إلى تَدْبِير السيرة التي هى أعلى من الطبع (البشري).

١٢- طالما أنت في المنزلة الأَولى، فأكثر من جميع الأشياء، داوم على خدمة المَزَامِير والتلاوة الكثيرة والقراءة في الكتب. وأقرن بها الجوع الدائم، لأنه هو الذي يطهِّر وينقى الجسد بحرارته. لأن الجوع له كفاءة أكثر من جميع الأعمال أن يمنح غفران الخطايا لأجل صعوباته المضغطة، لأنه هو قوة التوبة. والعادات القديمة التي اعتادت النفس أن تتجاوز بها الشريعة بسماجة هي أيضاً تضعف بالجوع.

١٣- وعندما تدنو بالمعونة السماوية لهذه المنزلة الثَّانِية، فحسب قول الآباء، تبتدئ أن تحس في ذاتك أنك قد وصلت إليها من العلامات التي رسمناها آنفاً، إذ تنظر في نفسك شيئاً فشيئاً تلك الأمور. عند ذلك أنقص قليلاً من أعمالك الأَولى، ولكن لا تقطع أصول دوامها، بل استبدل شيئاً منها بشيء آخر. فاثبت في الصلاة أكثر من المَزَامِير، ولا يعني هذا أن تبطل المَزَامِير، بل أن تعطي موضعاً فسحة للصلاة أكثر من التلاوة. وفي الخدمة أيضاً تعطي موضعاً وإمكانية للصلاة

مع باقي السواعى الأخرى. فمن ههنا سوف تنظر الدالة التي تنالها يوماً بعد يوم. ويأخذ قلبك قوة والأفكار والآلام تضعف، ويفرح ضميرك على الدوام بالسرور. وينشىء (أي يسكر، من النشوة) بالصلاة. وترى نفسك من وقت لآخر أنك قد صرت شيئاً آخر غير ما كنت أولاً، بسبب الفرح الذي تناله بمعونة النعمة، وتحل عليك قوة إلهية إذا كنت في السكون والتحفظ.

+ **المنزلة الثَّالِثة**:

١٤ - إنه من حيث يبدأ الإنسان بتَدْبِير سيرة الفكر، الذي هو الهذيذ بالإلهيات، وإلى أن يصل إلى تَدْبِير السيرة الرُّوحانية، الذي هو الدهش بالله، فهو أكثر من كل الأعمال مضطر للصَلَوَات بتغصب، التي تكمل بالميطانيات، وأن لا يبطل من الصَّوْم أبداً، وأن يأخذ من الغذاء على قدر ما يقوم به الجسد في عمل الصلاة هذا. فإذا ما دنا واقترب من سيرة المنزلة الثَّالِثة، وحظي بحدودها، فإنه من ههنا يجد أن الأشياء التي كان يعملها بتغصب في هذا الموضع، أصبح الآن ينجذب إليها باضطرار الحلاوة في كل وقتٍ، ويتخلف عنه التغصب. والذي يجذبه إلى هذا بغير إرادته هو الدهش حيث يوجد على الدوام - من أجل تنعمه بالأفهام - جاثياً على وجهه، بلا أفكار ولا حواس الصلاة، وبلا طياشة ولا هذيذ. بل يكون له إحساس بما هو هناك. ولا أعنى بذلك عن الدهش الكامل في طبيعة المسجود له سيد الكل، بل أن العقل يرتفع عن هذه الأمور السفلية، ويبقى في حس الدهش بسياسة تدابير الله المملوة إفرازات، والعوالم والأجيال. ويقع هذا في النفس، وبالأشياء التي تنفعل بها كل يوم وفي كل وقت، إن كان في الخفاء أو في الظاهر. لأنه متى تحرك العقل في النعمة في الأمور الرُّوحانية، فلأجل حلاوة المعرفة يتخلف من الهذيذ والذكر وقتاً كثيراً وهو في دهش.

١٥- لقد شبَّه الآباء القدماء نفس المتوحد بالعين، لأنها كلما كانت هادئة من كل طنين السماع والنظر، يستطيع المتوحد أن ينظر الله وذاته بصفاء، وينشل من ههنا مياهاً عذبة، التي هى أفكار التقانة (أي نقاوة التجديد المزمع)، أمَّا إذا اقترب من السماع والنظر، فهو بسبب الاضطراب الذي تقبله نفسه، يشبه إنساناً يسير في الليل وقت انتشار السحب في الجو فلا ينظر أمامه طريقاً ولا سبيلاً، وبسهولة يتوه ويضل في بلاد قفرة مؤذية. فإذا ما هدأ مع نفسه يكون كمن تهُبُّ له ريح حسنة، وتجعل الجو بهجاً فوق رأسه، ويبدأ أن ينير أمامه، فينظر ذاته ويتميز كيف هو، وإلى أين ينبغي أن يمضى، وينظر منزل الحياة من بعيد.

١٦- ولأنَّ جيلنا الردئ هذا يا إخوتي، لا يساعدنا لكي نجد الهدوء بالتمام والسكون الحقيقي مثلما كان في الأجيال الأَولى، فأي موضع نكون فيه، فلنجلس مع نفوسنا ولو كان ليوم وَاحِد، ليس في الدير فقط بل وفي الطريق وفي أي موضع كان، ولو لساعة وَاحِدة. فقد عبر ذلك الزمان الذي كان يوافق؛ ولهذا لا تنتظر العدل والترتيب، بل يوماً بيوم نطلب أن نهدأ قليلاً، ولو تحت سقيفة أو في خرابة. باختصار، كل موضع يقع بيدنا السكون فلنضبطه حسناً بالانقباض إلى نفوسنا، إن كان يوماً أو اثنين؛ لأن الحكماء هكذا يقتنون أنفسهم في هذه المدة القصيرة

من حياتهم، لئلا يدركنا الموت بغتة، وما نبلغ أملنا.

+ وإن كان ثمة راهب فيه كفاءة لنعمة السكون هذه، وحظيَ بها من الله، ويعترضه أحد من الأساقفة أو رؤساء المجامع ليمنعه من السكون، تكون عليه دينونة ويعطي عنه الجواب قدام رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، ولرَبِّنَا المجد دائماً أبدياً أمين.

كمل بسلام من رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح إِلهُنَا الْقُدُّوس الجزء الأَوَّل للقدِّيس الْعَظِيم في الْعَارِفِين مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني. الرب يغفر لنا ولكم خطايانا وخطايا الرهبان آمين.

مَيَامِر
مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني
الجزء الثَّانِي

الفهرس

المَيْمَر الأَوَّل :

ف ً مخ ِ الله ولاز ه ا ي ِب ٌر لار بن ِ و إلهت ع ا ا ع ن ل ع ل م ١٠٠

المَيْمَر الثَّانِي :

ف آل م ل ف س ١٠٧

المَيْمَر الثَّالِث :

ف و ً أن لا ف س ن ل و ج لا و ف و م ك و ِ الله و م ع ن ل ه اون ت ع ب ي اذا ع ل ر ت ف و ً و او ب ع ٌ ا ع ن ل ع ل م
وا ق م ام ات ل ح ٌ اة؛ أل ن ه ا ح ٌ ئ ن ت ت ط ٌ ع أن ت ار ك ط ٌ ع ه ا ولا ك ن وز ل م خ أف ٌ ه ا ١١٢

ع ن ط ٌ ع ل ف س وم ا ه و خ ارج ط ٌ ع ت ه ا وم اه و ف وق ط ٌ ع ت ه ا ١١٣

ن ق او ل ض م ٌ ر ١١٥

ال ف ر ق ب ٌ ن ق او ل ق ف ك ر ف وق او ل ق ل ب ١١٥

ع ل ى م ر اح م س ٌ ا ك ٌ ف أ ه وزن ك لا م ه ون ل س ح ب ض ع ف ال ش ٌ ر ١١٩

المَيْمَر الرَّابع :

ل و اذا ق ٌ ح ص ل ف س ر ٌ ون ف و ً م ع ق ت م أل ش ٌ ا ل ل و ح ٌ ِ ف وق ل ك ف او ِ أج ر ام م ؛ ول ك ٌ ف ٌ ل ك ون ل ل ع ق ل أن
ت ٌ ف ع ون ه ا ١٢٢

ال س ل ك وت ١٢٥

المَيْمَر الْخَامِس :

أل س اب ال ت ً من أج ل ه أ ت ر ك الله ال ت ج ار ب ع ل ى م ح ٌ ه ١٣٢

المَيْمَر السَّادِس :

ع ل ى أ ه ال ن ٌ ب ً من غ ٌ ض ر ر ور ة أك ٌ ر اة أن ن س أل أو ن ش ت ه ً أن ت ك ون ع ل ى أ ر ان ا أع ج ب ِ ر أ ام ة أو
ب ت ال ن ١٣٤

المَيْمَر السَّابع ف ً غ ٌ ر ة لا و ل ع ل وما أ ك ر ب ال ط ر ٌ ق ١٣٧

المَيْمَر الثامن :

ف ً ل ٌ ار ات لا ك ٌ ر ة ل ت ت ح ص ل ل ع ل ي وت ُ ح ب ر ب ال ص لا ة ١٤١

المَيْمَر التاسع :

ع ل ى ال ع م ل ف ً ال و ح اة ي و ع ل ى س ه ر ال ل ٌ ل ي و ع ل ى ف ار ازات ل ك ٌ ر ف ً أ ل و اح ا أل ع م ال ١٤٣

المَيْمَر العاشر :

من أخبار القديسين ١٥٤

المَيْمَر الحادي عشر :

فصل في الرد على الذين يقولون: ان كان الله صالحًا فلماذا خلق هذه الشرور ؟ ١٦١

المَيْمَر الثَّانِي عشر :

على رؤساء الكهنة والمتجسدة ١٦٤

المَيْمَر الثَّالِث عشر :

الإشارة والمثال في التوراة السبت والأصحاح ١٦٨

المَيْمَر الرَّابع عشر :

في الكنيسة ١٧٠

المَيْمَر الْخَامِس عشر :

رسالة من مار مرقس الى أخوته الطقع والروحانيين في الكنيسة ١٧٣

المَيْمَر السَّادِس عشر :

في تتميز الأصحاح والعلامات التي تعمل مع الملائكة والأبرار ١٧٤

في التجسد الذي صار في الكنيسة أثناء الصلاة ١٧٤

المَيْمَر السَّابع عشر :

على فرائض الكهنوت على سلطان القديس بولس الى أي حد سلطان أن يحرك حركة الرب بتركه الصلاة ١٧٦

المَيْمَر الثامن عشر (الأَوَّل م) :

في الكلام عن المعرفة الحقة ١٨٢

المَيْمَر التاسع عشر (الثَّانِي م) :

في الأمور العامة التي تطلب النفس أن تتحرر منها لكي تكون من المتجسدين التي تذكار الأمور ١٨٤

المَيْمَر العشرون (الثَّالِث م) :

على الثالوث بالمعرفة في فرائض أعمالها ومعاملاتها ١٨٧

الرتبة الأولى من المعرفة ١٩٠

الرتبة الثانية من المعرفة ١٩٢

الرتبة الثالثة من المعرفة ١٩٢

لُخص مرتاب المعرف ِ ك الث..... ١٩٣

المَيْمَر الحادي والعشرون (الرَّابع م) :

ف ً أحوال ومع ً صفات لأرواح المعرف ِ..... ١٩٥

المَيْمَر الثَّانِي والعشرون (الْخَامِس م) :

على أرواح الصالحين ق ٍ وق ٍ ألش ٌ ا ال ً ت ً ضطر الإنس ان الى ت ذك ا ره ا على ال اوام..... ١٩٧

على ال وح اة ول ٌ من ٌ ب ً أل ن خ اف ب ل ث ب ت ل ن ا ه ل..... ١٩٩

المَيْمَر الثَّالِث والعشرون (السَّادِس م) :

من أي ش ً ت ُ خ أ ل ق ٌ أ ِ ل ق ٌ ِ ا اخ ل ال ف س..... ٢٠٠

المَيْمَر الرَّابع والعشرون (السَّابع م) :

على ال ع ش ٌ ن أ ٌ ا م م ق رب الله ً ح ٌ اة المعرف ِ..... ٢٠٤

المَيْمَر الْخَامِس والعشرون (الثامن م) :

ف ً ل ٌ ارات ال ٌ ث ٌ رة ل ت ت ن ً ع ى ال ض م ٌ ر وق ُ ي ز وت ُ ج ب ر ب ال ص لاة..... ٢٠٤

المَيْمَر السَّادِس والعشرن (التاسع م) :

على أرواح ال ض ط ائي وعلى ح او ال ب ِ ر ج م ٌ ع ه..... ٢٠٨

المَيْمَر السَّابع والعشرون (العاشر م) :

ف ً ال ٌ م ان وال س اط ِ..... ٢١١

المَيْمَر الثامن والعشرون (الحادي عشر م) :

ف ً ال ن ف ع ال ت ك ون ب ال ه رب م ال ع الم وال ف را ر ه ه ٢١٦

المَيْمَر التاسع والعشرون (الثَّانِي عشر م) :

ك ٌ ف ٌ ق ن ً الإنس ان ت ٌ ر ال ح ك ال خ ف ٌ ِ م ع ت ٌ ر س ٌ ت ه ال خ ارج ٌ ِ..... ٢١٧

المَيْمَر الثلاثون :

رس ال ل ق ا ٌ س ف ً م ع ى ال س ك ون أ س ل ه أ ل ح ت لا م ٌ ذ ه..... ٢٢١

المَيْمَر الحادي والثلاثون :

ا ٌ ض ا ت و ف س ٌ ر ب أ ال ع لى أ ر واح ال ع ق وال ت وال ت ع م ال ك ل م ن ه ا..... ٢٢٤

المَيْمَر الثَّانِي والثلاثون :

ف ص ول م خ ص ر ة م ح او اة ال م ع ى..... ٢٢٥

المَيْمَر الثَّالِث والثلاثون (الثَّالِث عشر م) :

على أنه كُفنُب لَّل عافذُوني الإلفراز الجلوسف الملكون..... 3

المَيْمَر الرَّابع والثلاثون (الرَّابع عشر م) :

ف ً لأن انتطُع أن فهم فنزل فيبْ ُرس ُتنا من غ ُار انتفلك نا؛ وعلى وتب ِ لامعوف ِ..... 6

المَيْمَر الْخَامِس والثلاثون (الْخَامِس عشر م) :

ف ً المعوف الحق ُّ ِي وعلى التجارب التَ نُب ً أن نعرف مها الحقائق..... ٤

المَيْمَر السَّادِس والثلاثون (السَّادِس عشر م) :

ف ً معنى هذا الفصل وأفهامه التَ سُطرت ف ُه..... ٤

المَيْمَر السَّابع والثلاثون :

وأض اللق ا ُس على وجع لانزا لاراي 2

المَيْمَر الثامن والثلاثون :

على رو التوبِ وك ُفت حلف ً الفوس وتسكرف ً التك ُن لامق ُن؛ وك ُفعفعلف ُهم..... ٢٤١

المَيْمَر التاسع والثلاثون :

على أرواح الفنازل..... ٤

المَيْمَر الأربعون :

ف ً ع أم قبر التولضع واوفاح ارتجه ع ا الله..... 3

المَيْمَر الحادي والأربعون :

وأض اللق ا ُسرف تَت ُب الملكون..... ٤

المَيْمَر الثَّانِي والأربعون :

ف ً ح او الكل فيبْ ُرس ُرة الوحاة..... 3

الجزء الثَّالِث :..... ٢٦١

الجزء الرَّابع :..... ٤٠٩

الجزء الْخَامِس :..... ٥٢١

الجزء السَّادِس :..... ٦٣٧

الجزء السَّابع :..... ٧٢٩

المَيْمَر الأَوَّل

في مخافة اللّه وتَدْبِير الرهبنة والإبتعاد عن العالم والزهد

+ **أساس الفضيلة**: "رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ. فِطْنَةٌ جَيِّدَةٌ لِكُلِّ عَامِلِيهَا. تَسْبِيحُهُ قَائِمٌ إِلَى الأَبَدِ مز١١١: ١٠"، كمال الحكمة مخافة الرب انَّها تسكر بثمارها سيراخ ١: ٢٠.

١ – مخافة الله هيَ بدء الفضيلة، ويقال إنَّها تتولد من الإيمان. وهي تُزرع في القلب عند إنقطاع الذهن عن التشتت بالعالم وضبط أفكاره الشاردة، وتعطيه سهولة في التخلص من مجاذبات العالم، لكي يجمع حركاته الطائشة داخله، ويصير اهتمامه (بالتأمل) في العالم المزمع (تثبيتها في التأمل بالتجديد المستقبلي للعالم Apokatastasis).

٢ – الذي يريد أن يضع أساساً للفضيلة فليس هناك شيء يناسب ذلك أفضل من أن يُبعد الإنسان نفسه من الاضطراب بأمور الحياة، وأن يداوم (الهذيذ) في كلام النور، وفي السبل المستقيمة المقدسة.

٣ – بالكاد قد تجد إنساناً صابراً، بل وربما لا يوجد مطلقاً. وهذا بسبب سرعة قبولنا الغيارات والميالة، حتى ولو كان الإنسان متشبهاً بالملائكة في سيرته.

+ **مبدأ طريق الفضيلة**:

٤ – بداية طريق الحياة هي مداومة ممارسة العقل بكلام الله (تأمل الذهن)، وملازمة المسكنة. والمنفعة التي تكون من الوَاحِدة تُعين على كمال الأخرى. أعني أن زيادة التفرغ الذي يكون من المسكنة يسهل الهذيذ في أقوال الله، وما يُقتنى من كلام الله يقوِّي ويعين ما يُقتنى من المسكنة. والمعاضدة التي تكون مِن كلا الأمرين معاً تعين بسرعة على تكميل ارتفاع بنيان برج الفضائل كلها.

٥ – لا يمكن للإنسان أن يدنو من الله ما لم يبتعد عن العالم، ولست أعني بالابتعاد خروج النفس من الجسد، بل الابتعاد عن الأمور والأشياء.

٦ – الفضيلة: هي أن يكون الإنسان خالياً من العالم بفكره. لأنه ما دامت الحواس تباشر الأشياء، فالقلب لا يمكنه أن يهدأ من تخيل تذكارها. كما أن الآلام الجسدانية لا يمكن أن تبطل، ولا الأفكار الشريرة يمكن أن تموت إلا في البرية.

٧ – إلى أن تقتني النفس سُكْر الإيمان بالله من خلال الإحساس بقوَّته، فهي لن تستطيع أن تَشفي ضعف الحواس، ولا أن تطأ (تدوس بقوة) هيولية (المادة المنظورة) الأشياء المرئية التي تشكِّل حاجزاً أمَّام الشيء الذي هو داخلها وهي (أي النفس) لا تعلم.

٨ – النطقية (أو التعقل) تلد الحرية، وثمرة الاثنتين هي الميالة. فمِن دون الأَولى (أي النطقية) لا توجد الثَّانِية (أي الحرية)، وإذا لم توجد الثَّانِية تلتجم الثَّالِثة (أي الميالة) كما بلجامٍ.

+ **إحتمال البلايا**:

٩ – إذا كثرت النعمة في الإنسان، فحينئذ يحب البرَّ والقداسة، وتهون عليه مخافة الموت، ويجد في نفسه أسباباً كثيرة (تعلِّمه) أنه ينبغي للإنسان أن يحتمل البلايا لأجل مخافة الله. وكل الأشياء التي يُظن أنها تؤذي الجسد وتتعرض لها طبيعته بالضرورة وتؤلمه وتحزنه على الدوام، تصير في عينيه كأنها لا شيء بالقياس بتلك الرَّاحَة المزمعة. لأننا لا نستطيع – من دون التجارب – أن نعرف الحق. لأن مِن جرَّاء التجارب يجد العقل اقتناعاً حقيقياً (بذلك). كما يقتنع بأن الله يعتني كثيراً بالإنسان، وأنه لا يتركه للصدفة أو كيفما اتفق، وبالأخص أولئك الذين خرجوا في طَلَبِهِ وهم يقاسون الشدائد من أجله، وهذا يراه (العقل) بكل وضوح. ولكن عندما تقلُّ كثيراً زيارة النعمة (في الإنسان)، فإن عقله يقبل ما هو مضاد لمعرفة هذه (الأمور) جميعها، فيعتقد أن الثقة بالله لا تليق في كل وقت، وأنه ليس لله عناية بالإنسان كما كان يظن، وأن الإنسان يدبِّر أموره بالمعرفة أفضل من الإيمان. إن مثل هذا الإنسان كثيراً ما يُطعن بهذه الأمور من الذين يكمنون في الظلام ويصوِّبون سهامهم إليه.

١٠ – عمل الإيمان: بدء حياة الإنسان الحقيقية هي مخافة الله. وهذا الخوف لا يبقى في النفس مع الاهتمام بالأشياء.

١١ – ضبط الحواس: بخدمة الحواس يتشتت العقل من اللذة بالله، لأن الحركات (أي الأفكار) الداخلية هي مرتبطة بالإحساس مع الحواس التي تخدمها. لكي تكون شجاعاً إبغض حُب الجسد.

١٢ – تردد القلب وانقسامه يدخلان الجُبن إلى النفس، أمَّا الإيمان فيشجع العقل حتى إلى تقطيع الأعضاء (أي الاستشهاد). فما دام حب الجسد قد تغلَّب عليك، فلن تقدر أن تكون شجاعاً وغير جبان مقابل كثرة البلايا والمضادات التي تحيط بالجسد الذي قد أحببتَه.

١٣ – الإنسان الذي يحب الكرامة لا يستطيع أن ينجو من مُسببات الأحزان.

١٤ – لا يوجد إنسان – عند تغير الأمور – لا يميل فكره بما يتناسب مع ما استجدَّ أمَّامه، ويفكر في الناحيتين حسب قياس كل منهما.

١٥ – إن كانت الشهوة تتولد – كما يقال – من الحواس، فليصمت إذاً أولئك الذي يدَّعون أنه بإمكانهم أن يحفظوا العقل في سلام مع مباشرة الحواس والتشتت.

١٦ – العفيف ليس هو الذي بسبب القتال (أي الجهاد) تكفُّ عنه حركات الشهوة، بل هو الذي تحقيق (أي يقين) قلبه يجعل نظر فكره متعففاً كي لا يتفرس في الأفكار الردية دون حياء؛

ونظر عينيه المحفوظتين بالحياء يشهد على عفة نيَّته. لأن الحياء يكون مثل حاجز قد وُضع في أعماق أفكاره الخفية، كالْعَذْرَاء العفيفة التي تحفظ طهارتها بثقة المسيح.

١٧ – محبة الكُتُب: ليس شيء يقدر هكذا أن يُبعد العوائد الرديئة من النفس، ويقمع التذكارات التي تحرك الالتهابات المضطربة في الجسد، مثل المحبة الشديدة للتعلُّم، وغوص العقل في عمق فهم ألفاظ الكُتُب الإلهية.

١٨ – الكُتُب الإلهية: عندما تغوص الأفكار بلذَّةٍ وراء الحكمة المذَّخرة في الكلام بواسطة القوة التي بها يتقبل العقل الاستنارة منها، فحينئذ يترك الإنسان وراءه المسكونة وكل ما فيها، وينسى كلَّ تذكارٍ يصوِّر له تجسُّم العالم ويمحوه من النفس. وكثيراً ما يتعطل عن الأفكار التي يحتاج أن تتدبر بها طبيعته (كالعادة)، فتبقى النفس في الدَهَش بالأشياء الجديدة التي صادفتها من بحر أسرار الكتب.

١٩ – وإن كان العقل يعوم على سطح المياه، ولا يستطيع أن يغوص بحركاته إلى العمق (ليدرك كامل كنوزه)، فإن الهذيذ بها (أي بكلمة الله) بمحبة واشتياق، يقدر أن يربط العقل جيداً بدَهَش فكر وَاحِد، ويمنع الأفكار من الإسراع باتجاه طبيعة الجسد، كما قال أحد لابسي الإله: «إن القلب المسترخي لا يقدر أن يحتمل الشرور التي تواجهه من الخارج والحروب التي تتحرك فيه من الداخل». وتعلمون أن الفكر الرديء الجسداني هو ثقيل جداً، فإن لم ينشغل العقل بالعلم، فهو لا يستطيع أن يصبر لحركة الأفكار واضطراب الجسد.

٢٠ – كما أن الثقل في كفَّتي الميزان يمنعه من الميلان مقابل اضطراب الرياح، هكذا الحياء والخوف يمنعان الفكر من الميلان (إلى هنا وهناك). وبقدر نقصان الحياء والخوف تزداد سلطة الحرية وبالتالي الميلان. فكما أن نقص الثقل في كفتي الميزان يكون سبباً لعدم ثباتهما، هكذا فإن الحرية التي تكون بابتعاد الخوف من النفس، تجعل ميزان الفكر يتأرجح ويميل لكل ناحية بشدة. وهكذا ترى أن حركة العقل هي ثانية الحرية (أي تأتي بعدها)، وغيارات الأفكار هي ثانية الميلان. [أمَّا الفكر المثقَّل بالحياء وبخوف الله فهو لا يتأثر بما يهزّه].

٢١ – كن حكيماً وضع [المخافة] أساساً لمسيرتك في طريق الله، فتبلغ الملكوت في أيام قَلِيلَة دون طواف أو دوران في الطريق.

٢٢ – روحانية الكلام: لا تنظر (بتفحصٍ) إلى ترتيب سائر المعلمين، ولا في الكلام الذي كُتب عن معرفة (أي عن خبرة)، فهو قد وُضع لتهذيب وتنمية تَدْبِيرك؛ أي لا تدهَش فيها لتعظِّم نفسك بأفهامهم.

٢٣ – افرز قصد الكلام في كل قولٍ تقابله في الأسطر، لكي تغوص نفسك في المعارف الْعَظِيمة التي وضعها أناس عارفون مستنيرون.

٢٤ – الذين ترشدهم النعمة في تدابيرهم لكي يفهموا ويستنيروا يحسُّون – على الدوام – وكأنما هناك شعاع عقلي يسير بين الألفاظ قدام الفكر ويجعله يميِّز بين الكلام البسيط وبين الأخبار (أي الأقوال) التي قيلت بمعنى مرتفع لإنارة النفس.

٢٥ – الذي يقرأ الكُتُب بسذاجة بغير تفهم للمعاني الْعَظِيمة، يقسو قلبه ويبرد من القوة المقدسة التي تعطي القلب مذاقة لذيذة من الأفهام المدهشة للنفس.

٢٦ – كل شيء ينجذب عادة لما يناسبه؛ والنفس التي فيها جزء من الرُّوح إذا سمعت كلمة مخفي فيها قوة روحية، تنجذب بحرارة إلى سيرتها.

٢٧ – ليس لكل أحد أن يدرك الدَهَش بواسطة الكلام الذي يقال بطريقة روحية ويحمل داخله قوة عظيمة. فالكلام عن الفضيلة يتطلب قلباً قد تجرَّد من الأرضيات ومن جميع مفاوضاتها.

٢٨ – الإنسان الذي يُشقي فكره بهمِّ الأمور الزائلة، لا تلفت انتباهه الأخبار التي عن الفضيلة ولا تحرِّكه لطلب اقتنائها باشتياقٍ ومحبة.

+ الإرتباط الرُّوحي باللّه:

٢٩ – الانحلال من الهيوليات (أي الماديات) يسبق الارتباط بالله. وإن كان بتَدْبِير من النعمة يتقدم الارتباط بالله على الانحلال من الهيوليات عند البعض، حيث محبة الله عندهم تغلب محبة الماديات؛ إلا أن ترتيب التَدْبِير العادي يختلف عن ذلك. أمَّا أنت فاضبط الترتيب العام، فإن تقدَّمتك النعمة فهذا أمر يخصُّها، وإلا فسِرْ في الطريق (العام) الموضوع لكل أحد، واجتهدْ لكي تصعد إلى البرج الرُّوحاني بتدريجٍ.

٣٠ – كل شيء يُعمل بالثيؤريا ويُكمَّل بموجب الوصية المختصة به، هو أيضاً يكون غير منظور للأعين البشرية؛ وكل شيء يُعمل بأفعال (ظاهرة) يكون كله مركَّباً (أي مرئياً). فالوصية التي هي وَاحِدة فقط تحتاج إلى الأمرين: التاؤريا والفعل، وذلك من أجل الجزء المتجسم وغير المتجسم فينا، والجزءان ملتحمان معاً في وَاحِد. ومن هذا الجزء وذاك (أي الاثنين معاً)، يتفهم العقل النيِّر (الوصية) مثلما سبق على يد موسى، أي أنه يفهم (منها) ما هو بسيط وما هو متضاعف (أي مركَّب).

٣١ – الأعمال (التي تهدف إلى) النقاوة لا تزيل الإحساس بالتذكارات (السالفة) من القلب، بل تزيل منه التألم (الردئ) الذي يصاحب التذكر. ومن ههنا عندما يجوز أي تذكار بالفكر يكون ذلك من أجل المنفعة.

٣٢ – شَرَه النفس لاقتناء الفضيلة يغلب شره الجسد رفيقها للمرئيات.

٣٣ – كل شيء له مقدار، ومن دون هذا المقدار الذي يُنْتَفع به يصير استعماله مؤذياً.

٣٤ – الرحمة: إن كنتَ تريد أن تشترك مع الله بعقلك، وتقتني الإحساس بتلك اللذة التي لا

تخضع للحواس، تمسَّكْ بالرحمة. لأنه إذا وُجد في داخلك الشيء الذي يشبهه (أي الرحمة)، فإنه يتصور فيه ذلك الحُسْن المقدس. لأن كليّة فعل الرحمة تُشرك النفس في مجد شعاع اللاهوت بوحدانية (أي باتحاد) لا يقطعه زمنٌ ما.

٣٥ – الاتحاد الرُّوحاني :هو الذِكْر غير المحصور الذي يتحرك في القلب بعشقٍ لا يتوقف. ويستمد القلب قوة هذا الارتباط من مداومة حفظ الوصايا، ليس بصورة مجازية ولا طبيعياً، (بل) يجد هناك مادة للنظر الرُّوحي ليستند عليه (أي ليثبت في هذا الاتحاد) أقنومياً. من أجل هذا ينجذب للدهش مُقفِلاً حواسه المزدوجة: الجسدانية والنفسية.

٣٦ – لا يوجد طريق آخر يوصِّل إلى الحب الرُّوحاني الذي تتصور فيه الأيقونة (أي صورة الله) غير المرئية، إلا إذا بدأ الإنسان أولاً بالرحمة حسب قول رَبِّنَا الذي جعلها أساساً لكمال الآب، (فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ. لو٦: ٣٦)، وأَمَرَ مطيعيه باقتنائها.

٣٧ – الحكمة: الكلمة التي (تكون من خبرة) العمل هي غير الكلام المنمَّق الذي يكون بدون تجربة الأمور. لأن الحكمة تعرف أن تزيِّن كلامها وتتكلم عن الحق من غير أن تعرفه، وتظهر الفضيلة ولا تكون قد أخذت تجربة عملها مطلقاً. فالكلام الذي يكون من خبرة العمل هو كنز الرجاء الذي يُتكل عليه، أمَّا الحكمة البطالة (أي التي بدون عمل) فهي كنز الخزي. وكمثل المصوِّر الذي يصوِّر الماء على الحائط ولا يقدر ذلك الماء أن يبرِّد عطشه، ومثل الإنسان الذي ينظر الأحلام (الجميلة)، هكذا الذي يتكلم من غير عمل.

٣٨ – الذي من تجربة أعماله يتكلم عن الفضائل هو مثل مَن يعطي من بضاعة تجارته كلمة للسامعين؛ ومن الشيء الذي اقتناه في نفسه يزرع التعليم في آذان السامعين، ويفتح فمه بثقة مع بنيه الرُّوحانيين كشبه يعقوب الشيخ مع يُوسُف العفيف بقوله: «وَأَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ سَهْمًا وَاحِدا فَوْقَ إِخْوَتِكَ، أَخَذْتُهُ مِنْ يَدِ الأَمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي». تك٤٨: ٢٢.

٣٩ – زوال الجسديات: كل إنسان تَدْبِيره رديء تكون حياة هذا الزمان عنده شهية، ويليه قليل المعرفة. ونِعْمَ ما قيل إن مخافة الموت ترعب الرجل الناقص؛ والذي له شهادة صالحة في نفسه هو الذي يشتهي الموت مثل الحياة.

٤٠ – لا يكون عندك حكيماً حقيقياً ذلك الإنسان الذي من أجل حبه لحياة هذا الزمان يستعبده فكره للأشياء (المادية).

٤١ – كل الخيرات والشرور التي تعرض للجسد فلتكن عندك مثل الأحلام. لأنه ليس فقط بموت الجسد تتحرر منها، بل ولأنها مراراً كثيرة قبل الموت تذهب وتتركك.

٤٢ – أمَّا إذا كان شيء منها له نصيب في نفسك، فاعلم أنه سيكون مقتناك إلى الأبد، لأنه يذهب معك إلى العالم العتيد. فإن كانت صالحات، افرحْ واشكر الله في قلبك، وإن كانت سيئات، احزن وتنهدْ واطلب التخلص منها ما دمتَ في الجسد.

+ **دُعينا للأعمال الصالحة**:

٤٣ ــ اعلمْ أن كل خير يُصنع فيك عقلياً وفي الخفاء، قد كانت المعمودية والإيمان ــ بالحقيقة ــ واسطة فيه، فإنك بهما قد دُعيتَ لرَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح بالأعمال الصالحة. (لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَال صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا) أف ٢: ١٠.

+ واكتم كل صالح يتحرك فيك عقلياً ولا تعلم به أحداً، لأنَّ المعمودية والإيمان أصبحا وسيطين لك عند الله، وهما اللذان دعاك بهما رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح إلى الأعمال الصالحة. الذي له المجد والإكرام والشكر والسجود مع أبيه الصالح والرُّوح الْقُدُّوس إِلهُنَا إلى دهر الداهرين وإلى الأبد آمين.

المَيْمَر الثَّانِي

في آلام النفس

١ – شكر الذي يأخذ، يُحرك الذي يعطي ليمنح مواهبَ أعظم من الأَولى. والذي لا يشكر على الصغار فهو كاذب وظالم إن قال إنه سوف يشكرُ على الكبار.

٢ – المريض الذي يعترف بمرضه شفاؤه هيِّن؛ والذي يعترف بأوجاعه فهو قريب من الشفاء. أمَّا القلب القاسي فتكثر أوجاعه؛ والمريض الذي يقاوم الطبيب يزيد من عذابه.

٣ – ليست خطية بلا مغفرة إلا التي بلا توبة؛ ولا موهبة بلا زيادة إلا التي ينقصها الشكر. فالجاهل نصيبه صغيرٌ جداً في عينيه.

٤ – قوِّم ذاتك: تذكَّر الذين هم أرفع منك في الصلاح لكي تحسب نفسك ناقصاً بقياسهم. تفرَّس في كل وقتٍ في البلايا الصعبة التي يقاسيها الذين هم في شدةٍ وضيقِ التمحيص، لكي تقدم الشكر اللائق عن الضيقات الصغيرة الموجودة عندك وتستطيع حينئذ أن تصبر عليها بفرح.

٥ – اليقظة والجهاد: في الوقت الذي تكون فيه مغلوباً مقهوراً وفي ملل وكسل، وقد قيَّدك العدو بقبح فعل الخطية، اذكرِ الأوقات القديمة حين كنتَ نشيطاً، وكيف كنتَ تهتم حتى بالأمور الصغيرة، وكيف كنت تتحرك بالغيرة مقابل الذين يعوقون مسيرتك، وتتنهد على أي شيء قليل فاتَكَ من عمل الفضائل، وكيف كنتَ تأخذ إكليل الغلبة على الأعداء. فبمثل هذه التذكارات تتيقظ نفسك كما من نوم عميق، وتلبس حرارة الغيرة، وتقوم من سقطتها كما من الأموات، وتصلب ذاتها حتى تعود إلى طقسها الأَوَّل في الجهاد الحار مقابل الشياطين والخطية.

٦ – الإتضاع: اذكرْ سقطة الأقوياء لكيما تتضع بصلاحك. واذكرْ عِظم خطايا القدماء الذين سقطوا وتابوا، وما قبلوه من شرف وكرامة بعد ذلك لكي تتعزى في توبتك.

٧ – التغصب: كن أنت ضاغطاً لنفسك مُحزناً إياها، لكيما يُطرد العدو من أمَّامك. اصطلح أنت مع نفسك، فتصطلح معك السماء والأرض.

٨ – احرصْ على أن تدخل إلى الكنز الذي في داخلك لكيما تبصر الذي هو في السماء، لأن هذا وذاك وَاحِد، وبدخولك أحدهما تنظر الاثنين معاً. دَرَج الملكوت مخفي داخل نفسك، غُصْ أنت عميقاً في ذاتك، واهرب من الخطية، وهناك تجد مصاعدَ تصعد بها.

٩ – العالم الجديد: إن الكتب لم تفسر لنا أمور العالم الجديد، ولا كشفت لنا عن هيئتها؛ أمَّا كيف نتقبل الإحساس بتنعيمها هنا بدون تغير في الطبيعة أو انتقال مكاني، فقد أظهرت لنا ذلك بوضوح، ووصفت لنا هيئتها بأوصاف الأمور المجيدة وأسماء الأشياء المجيدة، لكي تجتذبنا إليها، وذلك مثل قوله: «ما لم تره عين ولم تسمع به أذن...».

١٠ - لأن النعيم الرُّوحاني ليس هو التنعم بأمور (مادية محسوسة) توجد خارج ذات المتنعمين بها، بل هي في ذواتهم، حسب قوله: «هوذا ملكوت السماء هي داخلكم». وأيضاً: «يأتي ملكوتك». ففي داخلنا أمور محسوسة (بالإدراك العقلي)، كعربون للبهجة الموجودة في ذلك الملكوت. والعربون يكون التنعم به بالضرورة مثل الأصل. فنحن نقتني الشبه هنا كعربون جزئياً، أمَّا هناك فنمتلكه بالكمال، حسب قول الرسول: «كما في مرآة»، الذي يدل على أنه لا يُقتنى هنا بجوهره الحقيقي الأصلي، ولكنه على كل حال يشير إلى اقتناء الشبه. وبحسب الشهادة الصادقة التي في تفسير الكتب، هو فعل عقلي للروح القدس نقتنيه هنا جزئياً وهناك كلياً. وفيما عدا ذلك الانفعال الرُّوحاني الذي يُحسّ هنا (فقط) بتوسط الإدراك العقلي، لا يوجد شيء هناك محسوس (بالحواس) يخدم كوسيط لتنعم القديسين. فأحضان العقل هي التي تحتوي كل شيء بكيفية متقنة هنا. والنور المتدفق يُقصد به النور العقلي.

١١ – طريق الفضيلة: محب الفضيلة ليس هو الذي يعمل الحسنات بالحرص فقط، بل هو الذي يقبل البلايا التي تتبع الفضيلة بفرح.

١٢ – الصبر على البلايا والضيقات من أجل الصلاح ليس هو أمراً كبيراً بالنسبة للإنسان مثل أن يضبط فكره بحريّة إرادته حتى لا يتسجس بخداع أفكار الشهوات.

١٣ – كل ندمٍ يكون بعد ارتفاع الحرية (أي بعد زوال حرية الإرادة)، لا يحسب الفرح الذي يحصل منه مكافأة لمقتنيه.

١٤ – استرْ على الخاطئ وشجِّعه دون أن تخسر أنت بسببه، لكيما تحملك رحمة سيد الكل. اسند الضعفاء وصغيري النفوس بكلمة وبما تقدمه لهم بيدك، تسندك اليمين التي تحمل الكل. كن شريكاً لموجوعي القلوب بالصلاة الحزينة وبصراخ القلب، لكي يُفتح أمَّام طلباتك ينبوع الرحمة. أَتْعِبْ ذاتك في كل وقت بالطلبة قدام الله بقلب يحمل أفكاراً زكية مملوءة خشوعاً، واحفظ قلبك من الأفكار الدنسة، لئلا تُرذَل فيك طريق الله.

١٥ – اشغل نفسك دائماً في القراءة بإفراز، لئلا بسبب البطالة يشرد نظرك ويتسخ بأمر غريب. لا تجرب فكرك لكي تختبره بالتفرس في الأفكار الشريرة التي تجرِّبك ظناً منك أنك لا تنغلب؛ حكماء كثيرون أظلمت عقولهم ههنا وصاروا جهلاء. لا تحفظ لهيب النار في حضنك كما قيل، لئلا تضغطك حركات الجسد الصعبة، أعني لا تجرب فكرك بنظر أفكار الشهوة التي تجرِّبك. لأنه عسيرٌ جداً على الشاب إذا لم يتأدب بكثرة أتعاب الجسد أن يخضع تحت نير القداسة.

١٦ – علأمَّات النفس: أول بدء ظلام العقل هو إذا رأيت هذه العلامة في نفسك، وهي أن تكسل في خدمة الصلاة، فليس طريق أخرى لطغيان النفس مثل ذلك. لأنك متى حُرمت من المعونة الإلهية التي تأتيك من الصلاة، تسقط بسهولة في يد أعدائك ومضايقيك. وإذا تخلَّيْتَ عن الاهتمام بأمور الفضيلة تسقط بالضرورة فيما يضادها. لأن الانتقال من ناحية اليمين هو بداية

ما يضادها، أي الاتجاه إلى الشمال. فلتكثِّر عمل الفضيلة في نفسك، أعني أن تهتم بالصلاة؛ وأَظْهِر ضعفك قدام الله كل حين لئلا يسلب الأعداء قوَّتك عندما تبتعد عن مُعِينك.

١٧ – عمل الصليب مزدوج حسب ازدواج طبيعتنا التي تتركب من جزئين. العمل الأَوَّل هو الصبر على ضوائق الجسد، ويكمل بواسطة فعل جزء النفس الغضبي، ويُدعى «العمل». والثَّانِي هو العمل اللطيف (أي الخفي) الذي للعقل بمفاوضته الإلهية ودوام الصلاة، ويكمل بجزء النفس الشهواني، ويُسمى «التاؤريا». فالعمل الأَوَّل يطهِّر جزء النفس الألمي بقوة الغيرة. والثَّانِي ينقي جزء النفس العقلي بفعل حب النفس الذي هو الاشتياق الطبيعي (الكامن فيها).

١٨ – فالذي قَبْلَ أن يصعد إلى الجزء الأَوَّل (أي الصبر على ضوائق الجسد)، يجسر على الثَّانِي (أي التاؤريا) من أجل اشتياق لذته – بل وأقول من أجل مَلله وكسله – ينهمر عليه غضب الله. لأنه لم يُمِت أولاً أعضاءه التي على الأرض، أي أنه لم يشفِ سقم أفكاره بالصبر على أتعاب الصليب ومحقرته، بل تجاسر أن يتخيل مجد الصليب في عقله. وفي هذا قال أحد القديسين القدماء: «إن أراد العقل أن يصعد على الصليب قبل أن تهدأ الحواس من ضعفها، أي أن تُشفى من الأوجاع، يأتي عليه غضب الله». فصعود الصليب الذي يحرك رجز الله لا يأتي من الجزء الأَوَّل الذي هو الصبر على الشدائد بصلب الجسد، ولكنه يأتي من شهوة الصعود إلى التاؤريا الذي هو الجزء الثَّانِي الذي يكمل بعد شفاء النفس.

١٩ – التهاون: فالذي يكون فكره مُدنَّساً بالأوجاع القبيحة، ويتخيل في عقله هذه الأفكار والخيالات، ينزل عليه قضيب الحق ليكفَّ ويسكت، لأنه لم ينقِّ فكره أولاً بالضوائق وقمع شهوات الجسد. ولكنه من مجرد سماع الأذن وقراءة ا لكتب بدون عمل، يريد أن يجري قبالة وجهه ليمشي في طريق مملوء ظلامًا وقد عميت عيناه، ويريد أن يتشبه بأولئك الذين صحَّت أبصارهم وهي ممتلئة نوراً، وقد اقتنوا هداية من النعمة. فحتى هؤلاء يكونون في شدائد ليلاً ونهاراً وأعينهم مملوءة من الدموع، وبالصَلَوَات والبكاء يعبرون الليل مع النهار من أجل همِّ السعي والمواضع الشديدة الوعورة التي تلقاهم في الطريق مع الأشكال المتواترة والصور المخادعة التي تظهر لهم بشبه الحق.

٢٠ – الطهارة: إن أشياء الله تبادر إليك من نفسها، كما يقال، دون أن تشعر، وذلك إن كان الموضع طاهراً وغير دنس. فإذا لم يكن نظر نفسك قد تنقَّى بعد، فلا تجسر أن تشخص في قرص الشمس لئلا تُعْدَم النظر العادي، الذي هو الإيمان البسيط والشكر القلبي والعمل القليل الذي بحسب قوَّتك؛ ولئلا تُطرح بعيداً عن الله في بعض المواضع العقلية، التي هي الظلمة الخارجية شبه الجحيم، مثل ذلك الذي تجاسر ودخل إلى العُرس بثياب متسخة.

٢١ – نقاوة الأفكار تنبع من الأعمال والاحتراس؛ ومن نقاوة الأفكار ينبلج نور العقل، ومن ههنا تُرشد النعمة العقل إلى ذلك الشيء الذي ليس للحواس سلطة أن تُعلِّمه أو تتعلمه.

٢٢ – الإفراز: فكِّر وافهم أن الفضيلة هي الجسد والثاوريا هي النفس؛ والاثنان هما إنسان وَاحِد كامل روحاني، متحد من جزئين الوَاحِد حسِّي والآخر عقلي. وكما أنه لا يمكن للنفس أن تأتي إلى التكوين والميلاد قبل أن تكمل جبلة الجسد، هكذا لا تستطيع التاوريا – تلك النفس الثَّانِية التي هي روح الاستعلانات – أن تتصور في البطن الذي يتقبل مادة الزرع الرُّوحاني قبل كمال عمل الفضيلة التي هي بيت المعرفة وموضع قبول الاستعلان.

٢٣ – الثيوريا: هي الحسُّ بالأسرار الإلهية المخفية في الأمور والأسباب (التي تكلمت عنها الأسفار المقدسة).

٢٤ – ترك العالم: عندما تسمع كلمة «الهروب من العالم» أو «ترك العالم» أو «النقاوة من العالم»، ينبغي أولاً أن تتعلم وتعرف – ليس كما اتفق بل بحركات المعرفة الرُّوحية – ما هي صفة وتسمية العالم، ومِن كم نوع وأمر يتركب هذا الاسم، وعندئذ تقدر أن تعرف نفسك ومقدار بعدها عن العالم أو اختلاطها به.

٢٥ – إن لم يعرف الإنسان أولاً ما هو العالم لا يمكنه أن يعرف بكم عضو من أعضائه هو بعيد عنه وبكم عضو هو مقيد به. وكثيرون يظنون أنهم إذا ابتعدوا من العالم بعضوين أو ثلاثة، ومنعوا أنفسهم منه، أنهم قد خرجوا منه بتَدْبِيرهم. وذلك لأنهم لم يفهموا ولم يميزوا بحكمة أنهم إن كانوا قد ماتوا عن العالم بعضو وَاحِد أو باثنين، إلا أن بقية أعضائهم ما زالت حية داخل جسم العالم. لهذا لم يستطيعوا أن يشعروا بآلامهم، ولكونهم لم يحسُّوا بها، فهم لم يعتنوا بعلاجها.

٢٦ – العالم بفحص التاوريا (أي من وجهة نظر روحية) يقال إنه اسم يحوي آلأمًا متعددة. فإذا أردنا أن نسمِّيها جميعها ندعوها «عالماً»، وإذا أردنا أن نجزِّئها ندعو كلاً منها باسمه، أي نسميها «أوجاعاً».

٢٧ – فالآلام هي أجزاء هذا العالم الذي يجري فينا، فإذا بطلت الآلام تخلَّف العالم وتوقف عن جريه. والآلام هي: محبة المال وجمع الأشياء، وتنعم الجسد الذي منه يكون مادة ألم الزواج، جاه السلطة، الغطرسة والتصلف والمجد البشري الذي هو سبب الحقد، وجُبن الجسد.

٢٨ – فإذا بطلت كل هذه الأمور مِن الجريان فينا فبمقدار تخلُّفها يبطل قيام العالم فينا. وذلك مثلما حدث مع جميع القديسين، فقد كانوا أحياءً وموتى: أحياءً بالجسد ولا يعيشون جسدانياً. فافحص أنت نفسك بأي وَاحِدة من هذه الأوجاع أنت حي، وعندئذ تعرف بكم جزء أنت حي للعالم وبكم أنت مائت منه. فإذا عرفتَ من هذه الأمور ما هو العالم، فسوف تعرف مدى ارتباطك به أو تحررك منه.

٢٩ – وباختصار، العالم هو التَدْبِير الجسداني والفكر البشري. والانتقال من العالم يُعرف من هذين الأمرين: تغيير التَدْبِير واختلاف الحركات (أي الأفكار). فبإمكانك أن تعرف مقدار تَدْبِيرك من اختلاجات فكرك بالأشياء التي يطيش بها بحركاته، ومن الأمور التي تشتاق إليها الطبيعة

بلا تعب؛ وما هي الحركات الدائمة التي تحركها الأمور العارضة؛ وما إذا كان الفكر قد اكتسب حاسية الحركات غير الجسدانية أم أن حركاته جميعها هيولية، وما إذا كانت هيولَيْتَه ألمية (أي مرتبطة بالأوجاع) أم هي مجرد تصورات يتخيلها الفكر بغير إرادته ويجسِّم بها (صور) الأشياء التي يعمل بها الفضائل ويستمد منها – بشكل سويّ – حرارة الغيرة والقدرة على جمع الأفكار. لأن الفكر لسبب عدم خبرته وقلة حنكته، يعرف أن يعمل بتصور متجسِّم، بقصدٍ حسن، ولا يتألم ولا يمرض من ملاقاة رسوم أفكار الضمير الخفية، وذلك من أجل زيادة التهابه بالله الذي من عادته أن يقطع التذكارات الباطلة.

٣٠ – هذه التعاليم القَلِيلَة التي في هذا الفصل هي بمقام كتب كثيرة تكفي الإنسان وتنيره إن كان عمَّالاً ومنفرداً.

[الخوف من أجل الجسد يقوى على الإنسان إلى درجة تجعله يعجز عن القيام بأي عمل يستحق الكرامة والمديح. ولكن عندما يقوى الخوف من أجل النفس على الخوف الجسدي، حينئذ يضعف الخوف الجسدي ويذوب أمَّامه كما يذوب الشمع بقوة حرارة اللهيب].

ولإِلهُنَا المجد إلى دهر الداهرين آمين.

المَيْمَر الثَّالِث

في أنَّ النفس تلج إلى فهم حكمة الله ومخلوقاته دون تعب، إذا عاشت في هدوء بعيداً عن العالم واهتمامَات الحياة؛ لأنَّها حينئذ تستطيع أن تدرك طبيعتها والكنوز المخبأة فيها.

١ – ترك العالم: إن النفس إذا ازدرت بالاهتمامَات الدنيوية، وانشغلت بالهذيذ في الأمور التي تخص طبيعتها، لا تكون في حاجة إلى جهاد كبير لكي تجد في ذاتها حركات (أي أفهام) الحكمة عن الله. لأن السكون عن العالم هو بطبيعته يثير في النفس أفهام الخلائق، ومنها ترتفع النفس إلى الله وتثبت في الدَهَش.

٢ – إذا لم تدخل المياه الغريبة على ينبوع النفس، نبعت فيها المياه التي من طبيعتها، التي هي الأفكار الدَهِشة المنجذبة إلى الله في كل وقت. أمَّا إذا وُجدت النفس خارجاً عن هذه الأفكار، فالسبب في ذلك يكون أمَّا مِن تذكّر غريبٍ، أو أن الحواس قد حرَّكت عليها الاضطراب بملاقاة الأمور الخارجية. لأن الحواس إذاً انحجزت بالسكون الدائم (ولم يُسمح لها بالخروج)، تصبح التذكارات قديمة وبالية، وذلك بالمعونة التي تكون من الهدوء. وعند ذلك تنظر النفس أفكارها الطبيعية، وتدرك ما هيتها، وما هو طبع النفس، وأي كنوز مذّخرة فيها. هذه الكنوز هي الأفهام غير المتجسمة التي تتحرك بها من ذاتها دون عناية أو جهد؛ حتى أن الإنسان لا يدرك أن أفهاماً مثل هذه تتحرك في الطبيعة البشرية، ومَن الذي صار له معلماً، أو كيف وجد هذا الشيء الذي لو أراد أن يصف هيئته لرفيقه لَعَجز عن ذلك، ومَن الذي أرشده للشيء الذي لم يتعلمه من آخر.

٣ – آلام النفس: هذه إذاً هي طبيعة النفس. أمَّا الآلام فهي بالتالي زيادة دخلت على النفس لأسباب فيها، لأن النفس هي بطبعها غير متألمة. فعندما تسمع في الكتب المقدسة عن آلام جسدانية ونفسانية، فافهم أن ذلك قيل عن أسبابها، لأن النفس ليس في طبعها آلام. والفلاسفة المخالفون وأتباعهم لم يصدقوا هذا، أمَّا نحن فنصدق أن الله صنع صورته دون أن يكون فيها آلام. وقولي «صورة الله» لست أعني بها الجسد بل النفس التي هي غير مرئية. لأن كل صورة يتشبه فيها شبه النموذج (الأصلي)، ولا يمكن للصورة المرئية أن تتصور فيها صورة غير المرئي. ولهذا نؤمن، كما قلنا سابقاً، أن طبيعة النفس ليس فيها آلام.

٤ – فإن قاوَمَنا أحدٌ في هذا الأمر، فليقل لنا إذاً: ما هي طبيعة النفس؟ هل هي بغير آلام ومليئة بالنور، أم هي متحركة بالآلام ومظلمة؟ لأنه إذا كانت طبيعة النفس نقية (شفافة)، فقبولها لذلك النور المغبوط يرجع إلى طبيعة خلقتها الأَولى. أمَّا تحركها بالآلام فهو شيء خارج عن طبيعتها وقد خرجت هي إليه. وهذا هو اعتقاد البيعة المقدسة.

٥ – وهكذا يتضح لنا أن الآلام دخلت على النفس فيما بعد. إذاً، لا يجب أن نعتقد بوجود آلام نفسية على الإطلاق، تتحرك بها النفس. ويتضح لنا أيضاً أنها إذا تحركت بالآلام فهي

تتحرك بما هو خارج عن طبيعتها وليس بما يخصها. وإذا قيل أن الآلام التي تتحرك بها من دون الجسد هي طبيعية لها، لكان الجوع والعطش والنوم من خاصتها، ولكنها هي تعاني منها أو ترتاح بها (لاتحادها) مع الجسد، وكذلك الحال عند قطع الأعضاء والأوجاع والأمراض وما إلى ذلك. فالنفس لأجل شركتها مع الجسد تتفق معه، كما تشاركه أيضاً أفراحه (رغم تعارض ذلك مع طبعها ومغايرته لها).

+ عن طبيعة النفس وما هو خارج طبيعتها وما هو فوق طبيعتها

٦ – ما هو طبيعي للنفس أن تستوعب أفهام جميع الخلائق المحسوسة والمعقولة. وما فوق طبعها هو تحركها بالتاؤريا الإلهية. وما هو خارج عن طبيعتها هو تحركها بالآلام. فقد قال القدِّيس باسيليوس مصباح المسكونة: إذا وُجِدت النفس في طقس طبيعتها كانت في العلاء، وإذا كانت خارجاً عن طبيعتها فهي تعيش في السفليات وعلى الأرض. لأنه لا مكان للآلام فوق، في ذلك الموضع الذي يقال له إنه بلد النفس، بل إن الطبع إذا انحط إلى أسفل فهو عند ذلك يصير متألماً.

٧ – فأين هي إذاً الآلام النفسانية؟ لقد اتضح أن النفس ليس في طبعها آلام، بل هي تتحرك بآلام الجسد المرذولة مثلما تحزن معه بالجوع والعطش. ولأجل أن هذه الآلام لم يوضع لها ناموس، فليس على النفس فيها ملامة كتلك التي هي تحت اللوم. وكم مِن وقت يُؤمر الإنسان أن يفعلها ولا يلام عليها بل يأخذ مجازاة صالحة، كما حدث مع هوشع النبي الذي شارك في زواج غير شرعي، وكإيليا الذي استعمل القتل لأنه غار غيرةً لله، وكأولئك الذين طعنوا أقرباءهم بالرماح بأمر أبينا موسى رئيس الانبياء.

٨ – فإن قيل أن الشهوة والغضب هما من طبيعة النفس وليس من طبع الجسد، وأن هذه هي آلامها، قلنا إن شهوة النفس إن كانت ملتهبة بالإلهيات، كانت هذه الشهوة طبيعية فيها، أمَّا إذا انشغلت بالأرضيات وبالجسد، فلا يكون ذلك من طبعها. فإذا كانت للنفس غيرة على الإلهيات سُمي ذلك غضباً طبيعياً للنفس، أمَّا إذا كانت تلك الغيرة لأجل شهوة الجسد والحسد والمجد الباطل وما شابه ذلك، كان ذلك غضباً خارجاً عن طبيعة النفس.

٩ – إن الكِتَاب المقدس يتكلم عن أمور كثيرة ويدعوها بأسماء مستعارة، فينسب إلى النفس أحياناً ما يخص الجسد، وينسب إلى الجسد ما يخص النفس، ولا يشرح ذلك حتى لا يطول الكلام. أمَّا الحكماء فيفهمون ما يقرأونه ويعرفون قصد الكتب. ومثال ذلك ما يخص ألوهية رَبِّنَا المتعالية المرتفعة حيث ينسبها إلى بشريته وهي لا تليق بالطبع البشري، وأمور بشريته ينسبها إلى لاهوته. ولذلك فإن كثيرين لعدم فهم مقاصد الكِتَاب عثروا ههنا عثرةً لا قيامَ منها. وهكذا هو الحال بالنسبة لأمور النفس والجسد.

١٠ – إن كانت الفضيلة هي عافية طبيعة النفس وصحتها، فالآلام هي أمراضها وأسقامها التي تعرض للطبع وتحرمه من الصحة. ومن المعروف أن الصحة تتقدم في الطبيعة على الأمراض

والأسقام (التي تُعتبر أعراضاً). وما دام هذا الأمر هو حقيقي، فالفضيلة تكون بالضرورة طبيعية للنفس، وما هو عَرَضي يكون خارجاً عن طبعها. ولا يمكن لما هو قديم في النفس (أي مخلوق فيها منذ البداية)، إلا أن يكون طبيعياً فيها.

١١ – إن الآلام الجسدية هي طبيعية له وليست مستعارة. أمَّا النفس فلسبب ارتباطها بالجسد فقد نُسبت إليها الآلام كأشياء مستعارة (أي مجازاً). وهكذا يتضح ويتأكد لكل أحد أن النقاوة هي طبيعية للنفس أمَّا التألم فهو مستعار لها (دخيل عليها). لأن المرض يأتي بعد الصحة، ويستحيل أن يكون الطبع جيداً ورديئاً بخلقته. فعلى كل حال لا بد أن تتقدم إحداهما الأخرى، والمتقدمة دائماً هي الطبيعية. لأن كل شيء عارض لا يقال إنه من الطبيعة أو يخصها، بل هو يعرض لها من الخارج. كما أن كل شيء اضطراري وعارض يلحقه التغير والزوال، وأمَّا الطبيعي فلا يتغير ولا يزول.

١٢ – إنَّ الآلام الخاصة بالجسد، التي تستهدف معونته، قد وُضعت من الله فيه لأجل تربيته ونموه. أمَّا الآلام المختصة بالنفس، أي قواتها النفسية، فهي لتربية النفس ومعونتها. وإذا ما غُصب الجسد أن يخرج (أو يتخلى) عن الآلام الخاصة به ويتبع النفس، فهو يتأذَّى. وكذلك تتأذى النفس إذا هي تركت ما يخصها، حسب قول الرسول: إن الرُّوح يشتهي ما يضر الجسد، والجسد يشتهي ما يضر الرُّوح، والاثنان أضداد الوَاحِد للآخر بطبائعهما.

١٣ – فلا يجدِّفنَّ أحدٌ على الله ويقول إن الله وضع آلأمَّا وخطية في طبيعتنا، لأنه تعالى هو الذي خلق الطبائع ووضع في كل طبيعة ما يربِّيها. فإذا توافقت إحداها مع الأخرى لا تعود فيما بعد توجد فيما يخصها بل فيما يخص رفيقها. لأنه لو كانت هذه الآلام طبيعية للنفس، فلماذا تتأذى منها إذا استعملتها؟ لأن خاصيات الطبيعة لا تؤذيها. ولماذا يتربى الجسد ويتقوى بتكميل آلامه بينما هي تؤذي النفس؟ فهي لو كانت للنفس (أي في طبيعتها) لَما كانت تؤذيها. ولماذا تعذِّب الفضيلة الجسد بينما هي تنعِّم النفس؟ وهذا دليل واضح على أن الشيء الذي ليس طبيعي هو الذي يؤذي كل وَاحِدة من هذه الطبائع، وأن كل وَاحِدة من هذه الطبائع إذا اقتربت مما يخصها تفرح وتبتهج.

١٤ – فإذا أردت أن تعرف خصائص كل وَاحِدة من هذه الطبائع فانظر بأي شيء تنتفع وبأي شيء تتأذَّى إذا استعملته، فتعرف أن ما تنتفع به هو خاصيتها، وما تُضار منه ليس هو لها (بل يأتيها من خارج)، وهذا هو الحق باختصار.

١٥ – لقد تبيَّن إذاً أن كل وَاحِدة من هذه الآلام التي للجسد هي تنفعه وتريحه، أمَّا إذا استعملته النفس فلا يُحسب من طبيعتها؛ لأن خاصيات النفس هي موت للجسد. ولكن آلام الجسد تُنسب للنفس مجازاً، وذلك بسبب ضعف الجسد، ولا يمكن أن تُعتق منها ما دامت متسربلة به، لأن طبيعتها تشارك الجسد في ضيقاته وذلك لاتحاد حركاتها (أي النفس) المتشابكة بحواسه الجسدانية بالحكمة الإلهية غير المدركة.

١٦ – فهما وإن كانا مختلطين معاً إلا أن حركات الجسد منفصلة عن حركات الرُّوح، وإرادة الجسد منفصلة عن إرادة الرُّوح، فلا يتخبط الطبع أبداً ولا يكتم ما يخصه. بل لو انشغل الإنسان بزيادة سواء بالخطية أو بالفضيلة، فمن وقت لآخر يحرك كل طبع منهما إرادته ويختلج بما يخصه. وإذا ارتفعت النفس عن اهتمام الجسد جزئياً، عندئذ تختلج حركاتها بالرُّوح بكلَيْتَها وتَسْبح في قلب السماء في الأمور غير المدركة؛ ومع ذلك لا يتخلف الجسد عن ذكر ما يخصه. كما أن الإنسان إذا انهمك في الخطية فإن أفكار النفس لا تهدأ من حركاتها في العقل.

+ نقاوة الضمير

١٧ – الإنسان النقي الضمير ليس هو الإنسان الذي لا يعرف الشر، وإلا كان بهيمة. ولا الذين هم في منزلة الطفولية ندعوهم أنقياء بالفكر، ولا الذين لا يحزنون أبداً، فلسنا نطلب من البشر ما لا يخص المخلوقين. لكن نقاوة الضمير هي النقاوة بالإلهيات التي تكون بعد عمل فضائل كثيرة.

١٨ – ولسنا نجسر أن نقول إن مثل هذا الإنسان الذي اقتنى النقاوة لا يُمتحن بالأفكار، وإلا كان غير لابس جسد، لأن الأمور المضادة لا ترتفع من الطبع قبل العالم المزمع.

١٩ – وامتحان الأفكار لا يُفهم منه أن يتنازل الإنسان ويوافقها، بل يُقصد به «بدء الجهاء» مع الأفكار المتحركة في القلب التي تكون من أربعة أسباب عامة كأساسٍ لحركة كل أنواع الآلام. ولا يوجد إنسان – طالما هو في هذه الحياة – يكون خالياً من تذكار ما هو هنا وبريئاً (أي معفياً) من «بدء الجهاد»، ولو كان كاملاً مثل بولس الرسول.

٢٠ - لأن الجسد بحركاته حسب ترتيب الطبع، والعالم بطبائعه من خلال خدمة الحواس، والنفس بواسطة الأفكار والتذكارات المتحركة بقوة الميالة، والشياطين بتحريكهم هذه الأشياء التي ذُكرت، هذه الأربعة أسباب تعرِّض الناظر المجرَّب للآلام، ولكنه إذا أحسَّ بها قليلاً يُختطف إلى الأمور الفاضلة التي يراها بالأفهام.

٢١ – ومن قبل زوال العالم أو الانتقال منه بالموت، لا يمكن أن تبطل وَاحِدة من هذه الأربعة. فالجسد لن يتوقف عن طلب حاجاته مطلقاً، لأن الطبيعة تغصبه على طلب هذا الشيء وذاك من الأمور الحاضرة. وما دام هو مضطراً لها بحكم الضرورة، فالآلام تتحرك في كل إنسان لابس جسداً، وهو مفتقر دائماً للاحتراس. ولست أعني بقولي الآلام وَاحِدة أو اثنتين منها، بل كل أنواع الآلام التي تعرض لكل لابس جسد. ولكن الإنسان يجسر (أي ينتصر) بشيء ألا وهو ضعف الحركات ونقصان الجهاد (مع الأفكار)، وهذه ليست متعبة ولا تحتاج إلى احتراس كثير.

+ الفرق بين نقاوة الفكر ونقاوة القلب

٢٢ – نقاوة الفكر شيء ونقاوة القلب شيء آخر. والفرق بينهما كالفرق بين عضو وَاحِد من الجسد والجسد كله. فالفكر هو أحد حواس النفس، أمَّا القلب فهو ضابط كل الحواس الداخلية؛

وأعني أنه حسٌّ الحواس، الذي هو الأصل. وإن كان الأصل مقدساً فكل الأغصان تكون كذلك مقدسة [أي أنه إذا تنقَّى القلب تنقَّت جميع الحواس]، ولا يُقارن هذا بغصن وَاحِد تقدس.

٢٣ – أمَّا الفكر فإذا اهتمَّ ولو قليلاً بمفاوضة الكتب وبالصَّوْم والسكون، فإنه ينسى هذيذه الأَوَّل ويتطهر إذا امتنع من كل مفاوضة غريبة، ولكنه يعود ويتسخ سريعاً. [فكما أنه يتنقَّى سريعاً، فهو يتدنس أيضاً بسرعة].

٢٤ – أمَّا القلب فإنه يتنقَّى بضيقات عظيمة وجهاد مع قطع كل خلطة بالعالم والميتوتة الكاملة من كل شيء. وإذا تنقَّى لا تعود تتسخ نقاوته من الملاقاة الصغيرة، ولا ترعبه الحروب الصعبة، لأنه (كما لو كان) قد اقتنى معدة صحيحة تهضم بسهولة كل طعام تعجز عن هضمه المعدة المريضة. فَحَسَب قول الأطباء، كل طعام عسر الهضم يمنح الجسد الصحيح قوة زائدة إذا كان ذا معدة قوية.

٢٥ – كل نقاوة تُقتنى بسهولة وفي زمن قليل وبأعمال قَلِيلَة، فهي أيضاً تتسخ بسهولة [وتزول سريعاً]. وكل نقاوة تُقتنى بضيقات كثيرة وبعد مدة طويلة وبكل أجزاء النفس، لا تخاف ملاقاة الأمور الحقيرة (أو الصغيرة).

٢٦ – الحواس المتعففة تلد السلام للنفس، ولا تدعها تأخذ تجربة الأمور؛ وعدم قبولها الإحساس بالأشياء والأمور هو الغلبة بدون جهاد. أمَّا إذا تهاونت النفس من الثبات في هذا الأمر، وتباطأت حتى يدخل الإحساس، ثم تحارب بعد ذلك بشدة لكي تخرجه منها، فهي بذلك تفسد حالتها الأَولى التي هي النقاوة والوداعة الطبيعية.

٢٧ – إن أكثر الناس، إن لم يكن العالم كله، يخرجون من بلدهم الذي هو البلد الطبيعي والنقاوة الأَولى ليقتنوا معرفة أشياء كثيرة متنوعة. والذين يتورطون في العالم بزيادة، تجدهم بصعوبة كثيرة يستردُّون النقاوة، وذلك لأنهم اقتنوا معارف كثيرة. وبالكاد تجد وَاحِداً من كثيرين منهم يمكنه الرجوع إلى بلده الأَوَّل (أي النقاوة الطبيعية) بالنوع الثَّانِي. فالوداعة والبساطة هي أوفق كثيراً وأفضل من الطرق الأخرى المتنوعة التي تؤهل للغفران.

٢٨ – الطبع البشري يليق به الخوف في كل حين، لكي يتحفظ من مخالفة الوصية؛ وكذلك المحبة، لكي تحرك فيه الاشتياق للصلاح الذي من أجله يُخطف لعمل الحسنات.

٢٩ – المعرفة الرُّوحية تلي بطبيعتها عمل الفضائل، وهاتان الاثنتان يتقدمهما الخوف والمحبة، والخوف يتقدم المحبة. ومَن يتوقح مُدَّعياً باقتناء الأخيرات (أي عمل الفضائل والمعرفة الرُّوحية) قبل تحصيله الأَوَّليات (أي الخوف والمحبة)، فهو بلا شك يضع أساس هلاكٍ في نفسه.

٣٠ – لا تستبدل محبة قريبك بحب الأشياء، لأن الذي هو أشرف من الكل مخفيٌ داخله.

٣١ – كالشيء الذي يشكل حاجزاً جسمانياً أمَّام الأعين الجسدية، هكذا يكون السلوك الألمي

بالنسبة للنظر الخفي. كذلك تكون الآلام كغمام مُعتم بالنسبة للتاوريا الطبيعية الثَّانِية وأيضاً للنقاوة الطبيعية، وبهذا النوع ترتبط ببعضهما البعض. فإذا كان العقل قائماً في النقاوة الطبيعية، فهو يبقى في تاوُرية الملائكة التي هي التاوُرية الطبيعية الأَولى، وتُدعى أيضاً عقلاً عارياً. أمَّا إذا كان العقل في المعرفة الطبيعية الثَّانِية، فهو يكون كمن يرضع ويتغذى باللبن من الأثداء المتجسمة، تلك التي تُدعى لباساً آخر (خارجياً) للرتبة التي تقدم ذكرها (أي العقل العاري)، وقد وُضعت بعد النقاوة التي يدخل إليها العقل أولاً، وهذه (النقاوة) هي أيضاً المتقدمة بوجودها لأنها هي الدرجة الأَولى من المعرفة، وإن كانت الأخيرة في الكرامة، ولهذا فهي تُدعى أيضاً ثانية؛ فهي كالحروف المنقوشة التي بها يتنقَّى العقل ويتدرب على الصعود إلى الدرجة الثَّانِية التي هي كمال حركات العقل والرتبة القريبة من قبول التاوُريا الإلهية. واللباس الخارجي للعقل هو الحواس، وتعريته هي حركته بالتاوُريات (غير) الهيولانية.

٣٢ – اترك الحقيرات لتجد الْعَظِيمات. دَع عنك الزائدات (التافهة) لتجد الكريمات. كن مائتاً في الحياة، فلا تعش في الموت. ضع في نفسك أن تموت في الجهاد، ولا تعش مديوناً (بالتهاون والإهمال). ليس الشهداء هم فقط الذين ماتوا من أجل إيمانهم بالمسيح، بل وأيضاً الذين يموتون بالحرص من أجل حفظ وصاياه.

+ **ماذا تطب في الصلاة**:

٣٣ – لا تكن جاهلاً في طلباتك لله لئلا تهينه بقلة معرفتك، بل كن حكيماً في صلاتك لتستحق المجيدات. اطلب المواهب الكريمة من الذي لا يرفض، لكيما تتقبل من لدنه الكرامة من أجل اختيار مشيئتك الحكيمة. احرص أن تصلي من أجل أن تُؤهل للنعمة. سليمان طلب الحكمة، فأُعطي معها مُلكاً أرضياً، لأنه طلب الحكمة من الملك الْعَظِيم. وأليشع طلب نصيب اثنين من روح مُعلمه، فأُعطي طلبته.

٣٤ – الذي يسأل من الملك الحقيرات يقلل من كرامته. طَلَبَ إسرائيل الحقيرات فتقبل غضب الله. ترك عنه أن يتعجب بأعمال الله ويستنير بعظم أفعاله، وطلب شهوة بطنه، وكما قيل: «وإذ طعامهم بعد في أفواههم حلَّ بهم رجز الرب». أمَّا أنت فقدِّم لله الطلبات التي تليق بمجده، لكيما تعظم كرامتك عنده ويفرح بك. فكما أنه إذا طلب إنسان من ملك أرضي ملءَ كيلٍ زبلاً لا يكون قد حقَّر نفسه بدناءة طلبه وحسب، بل يكون قد احتقر الملك أيضاً، وهكذا مَن يطلب في صلاته الجسدانيات. إن الملائكة ورؤساء الملائكة الذين هم عظماء الملك يشخصون إليك حين تصلي ليروا ما الذي تطلبه من ربهم، ويعجبون عندما يرون إنساناً جسدانياً قد ترك مزبلته وهو يطلب السمائيات.

٣٥ – لا تطلب من الله الشيء الذي يعتني هو بنفسه أن يمنحنا إياه دون سؤالنا، وليس لخواصه فقط بل وللذين هم غرباء تماماً عن معرفته أيضاً.

٣٦ – لا تكونوا مكثرين الكلام مثل الوثنيين، لأن الأمور الجسدية تطلبها كل شعوب الأرض. أمَّا أنتم (فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائِلِينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ فَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَطْلُبُهَا الأُمَمُ. لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذِهِ كُلِّهَا. مت ٦: ٣١، ٣٢) فالابن لا يطلب من أبيه خبزاً، لكنه يطلب الأشياء الكريمة التي في بيت أبيه. أمَّا أمرُ رَبِّنَا أن نطلب خبز يومنا فقد أوصى به عامة الناس من أجل ضعف ضمائرهم. أمَّا ذوو النفوس الصحيحة والمعرفة الكاملة، فقد أمرهم أن لا يهتموا بقوتٍ أو كسوةٍ. فإن كان الله يعتني بالطيور التي لا نفس لها، فكم بالحري يعتني بنا؟ (لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ.مت٦: ٣٣).

٣٧ – وإذا سألتَ الله وأطال أناته ولم يستجب لك بسرعة فلا تحزن، فلستَ أنت أحكم من الله. وهذا يحدث أمَّا لأن أعمالك تجعلك غير أهل لاستجابة سؤالك، أو لأن طرق قلبك لا تناسب طلبتك، أو لأن منزلتك الخفية هي كالطفل بالنسبة للأشياء الْعَظِيمة (التي تطلبها). فليس من اللائق أن تقع تلك الأشياء المرتفعة بين أيدينا بسهولة لئلا تُهان موهبة الله بسبب سهولة الحصول عليها. لأن كل شيء يوجد بسرعة يُفقد أيضاً بسرعة، وكل شيء يُقتنى بالتعب يُحفظ بالحرص والاهتمام.

٣٨ – اِعطشْ من أجل رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح كيما يرويك من محبته. أَغمضْ عينيك عن كرأمَّات العالم كيما تستحق أن يملك سلام الله في قلبك. تعفف عما تراه عيناك من الأشياء المشتهاة الزاهرة لتستحق الفرح بالرُّوح.

٣٩ – إن كانت تدابيرك لا توافق إرادة الله، فلا تطلب منه الأمور المجيدة، لئلا تكون مثل رجل يجرِّب الله. فلتكن طلباتك بحسب استقامة تدابيرك. فليس أحد يشتهي السمائيات وهو مرتبط بهواه في الأمور الجسدانية، ولا أحد يطلب الإلهيات وكل اهتمامه في الأرضيات. لأن شهوة كل إنسان تُعرف من أعماله، والأمور التي يهتم بها يطلبها في صلاته، وذلك الشيء الذي يصلي من أجله يحرص أن يظهره باجتهاد؛ فالذي يشتاق للعظائم لا يلتفت إلى الحقيرات.

٤٠ – التجارب والأتعاب: كن حراً رغم ارتباطك بالجسد، وفي حريتك أَظْهر طاعتك وخضوعك من أجل المسيح. كن فَطِناً في وداعتك لئلا تُسرق (أي تنخدع). أحبب الاتضاع في كل تدابيرك لكي تخلص من الفخاخ غير المدركة، التي توجد دائماً خارج السبل التي يسلك فيها المتضعون.

٤١ – لا ترذل الشدائد التي بها تدخل إلى المعرفة. ولا تفزع من البلايا لأنك بها تجد الكرأمَّات. بل صلِّ كي لا تدخل في التجارب النفسانية، أمَّا التي للجسد فتهيأ لها بكل قوتك، لأنك لا تستطيع أن تقترب إلى الله إلا بها، لأن الرَّاحَة الإلهية موجودة داخلها.

٤٢ – الذي يفرُّ/يهرب من البلايا والتجارب يهرب من الفضيلة؛ ولست أعني بالتجارب تلك التي تكون من الشهوات، لكني أقصد تجارب الشدائد والضيقات.

٤٣ – ولكن كيف يقول: «صلوا لئلا تدخلوا التجارب»، وفي الوقت نفسه يقول أيضاً: «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق»، وأيضاً: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد»، «ومَن

يهلك نفسه من أجلي يجدها»؟ وهكذا في كل موضع يحثنا رَبِّنَا على احتمال البلايا، بينما نجده هنا يأمرنا أن نصلي لئلا ندخل البلايا. فأي صلاح يكون بغير بلايا؟ وأيه بليَّة أشد من الهلاك الذي أوصانا أن ندخل فيه من أجله بقوله: «مَن لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقني»؟ فكيف يأمرنا هنا أن نصلي لئلا ندخل التجارب، بينما في كل تعليمه يدعونا للدخول في البلايا، وهو قد قال إنه من غير البلايا لسنا ننال ملكوت السماء؟

٤٤ – ما ألطف وأدق تعاليمك، يا رَبِّنَا وإِلهُنَا! إن مَن لا يفطن بمعرفة عندما يقرأها يصير خارجاً منها بفهمه. إن ابنيْ زبدي عندما سألاك – مع أمهما – الجلوس معك في ملكوتك، سألْتَهما إن كانا يقدران أن يقبلا بفرح كأس التجارب بقولك لهما: «أتقدران أن تشربا كأس التجارب التي سأشربها أنا، والمعمودية التي أعتمد أنا بها»؟ فكيف يا ربُّ، توصينا هنا أن نصلي كي لا ندخل في التجارب؟ وأي نوع من البلايا هي التي توصينا أن نصلي حتى لا ندخل فيها يا رب؟

٤٥ – إن معنى قوله هو هذا: صلِّ أن لا تدخل البلايا في تجربة الإيمان. صلِّ أن لا تدخل التجربة بغرور فكرك مع شيطان التجديف والكبرياء. صلِّ أن لا تدخل – بتخلية من الله – في البلايا الظاهرة بالحواس، والتي يعرف الشيطان أن يدبرها لك ويأتي بها عليك بسماح من الله لسبب أفكارك الرديئة التي تفكرت بها. صلِّ أن لا يبتعد عنك ملاك العفة وتدخل في تجربة التهاب الشهوة بدون الملاك. صلِّ أن لا تدخل تجربة مجاذبات الأمور التي تبعدك عن الله. وصلِّ أن لا تدخل التجارب النفسانية التي ترهق النفس في جهاد الشكوك والمجاذبات.

٤٦ – أمَّا تجارب الجسد فتهيأ لها من كل نفسك، وبكل أعضائك، بينما تكون عيناك مملوءتين دموعاً، لكيما يوجد حافظك معك فيها. لأنه بدون البلايا والتجارب لا يحس أحد بعناية الله، ولا يقتني له دالة عنده، ولا يتعلم حكمة الرُّوح ولا تثبت محبة الله في النفس. قبل البلايا يصلي الإنسان لله مثل غريب، فإذا دخل التجارب من أجل حب الله، حينئذ يصير من خاصته، ومثل مَن قد وجب حقه على الله وصار من أحبائه الذين قاتلوا أعداءه من أجل مسرته. فهذا هو قوله صلِّ أن لا تدخل في التجارب المخوفة الشيطانية من أجل تعظمك، بل من أجل حبك لله، ولكي يُظهر فيك قوته. وصلِّ أن لا تدخل فيها من أجل جهالة أفكارك وأفعالك، بل لكي تُختبر أنك محب لله، ولكي تتمجد قوته بصبرك.

+ على مراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح له كل المجد كيف أنه وزن كلامه وقاسه حسب ضعف البشرية

٤٧ – لقد استخدم رَبِّنَا الرحمة أيضاً – حسب نعمته – بالنسبة لأمور الجسد بسبب ضعف الطبيعة الجسدية. لأنه من أجل انحلال الجسد لا يستطيع الثبات أمَّام صعوبة البلايا إذا ما دخل فيها. ولكونه إذا انغلب (الإنسان) من الضيقات يسقط من الحق، لهذا أمرنا إذا عرضت لنا التجارب أن نصلي إن أمكن أن نرضي الله بدونها.

٤٨ – ولكن إن اضطررنا إلى عمل فضيلة عظيمة وتبع ذلك تجارب كثيرة، فلو كانت هذه التجارب مخوفة جداً، والإنسان لا يقدر أن يكمل تلك الفضيلة ما لم يحتملها (أي التجارب) في ذلك الوقت، فلا ينبغي أن نرائي أنفسنا أو أحداً من الناس، ومن أجل الخوف تترك هذا العمل الْعَظِيم الذي فيه حياة نفسك، وتتخذ من الرخاوة سِتراً لك، وتحتج بقوله: «صلوا أن لا تدخلوا في تجربة». فالذين يتصرفون هكذا هم يحطُّون بالوصية (أي يحتقرونها) خفية.

٤٩ – ولكن إذا اتفق أنه كان على الإنسان أن يكمل إحدى وصايا الله، أمَّا من أجل حفظ العفة، أو إسكيم الرهبنة، أو اعتراف بالإيمان، أو الشهادة لكلام الله، أو أن يحفظ بحرص حدود الشريعة، وما شابه ذلك، ولم يكن هذا ممكناً من دون البلايا، فلا يجب أن يجبن.

٥٠ – ينبغي لك أن تكون واثقاً بالله، ومتهيئاً للعمل، فتجسر على الجسد، وتسلم نفسك لله، وتدخل من الباب الضيق باسم الرب بلا فزع. وذاك الذي كان مع يُوسُف في أرض مصر وصيَّره شاهداً للعفة؛ وكان مع دانيال في جب الأسود، ومع حنانيا وأصحابه في أتون النار، وكان مع إرميا في جب الحمأة ونجّاه وغطّاه برحمته وسط عساكر الكلدانيين، والذي كان مع بطرس في الحبس وأخرجه من أبواب مغلقة، وكان مع بولس في مجمع اليهود؛ وبالجملة نقول إن الذي كان في كل دهر وزمان، وفي كل حين وكل موضع مع عبيده وأحبائه، وأظهر فيهم قوته ونجّاهم وحفظهم بعجائب عظيمة كثيرة، ورأوا خلاصه ظاهراً في جميع بلاياهم وتجاربهم، هو الذي يقويك ويحفظك وسط الأمواج الشديدة التي تحوطك من أجل اسمه.

٥١ – فاتخذ لك الآن في نفسك غيرة مقابل العدو الخفي كغيرة المكابيين وبقية الأنبياء القديسين والرسل والشهداء والمتوحدين الذين حفظوا النواميس الإلهية وثبتوا في وصايا الرُّوح وسط البلايا الصعبة والأمَّاكن المرعبة، وطرحوا العالم والجسد وراءهم، وتمسكوا بالحق، ولم ينهزموا من الشدائد التي حلَّت بنفوسهم وأجسادهم، ولكنهم نجحوا وفازوا بالقوة الإلهية، ومن أجل ذلك كُتبتْ أسماؤهم في سفر الحياة إلى مجيء رَبِّنَا، ورُسمت أخبارهم في الكتب لتشجيعنا وتعليمنا، حسبما شهد بذلك الرسول، لكيما نتحكم بها ونتعلم طرق الله ونضع سيرتهم كنموذج قدام أعين ضمائرنا، ونتشبه بهم في تَدْبِيرنا قياساً على ما سار عليه القدماء.

٥٢ – سير القدِّيسين: الكلام الإلهي يلذ للنفس الحكيمة، كالغذاء الذي يُدْسِم الجسد. شهيةٌ جداً هي أخبار القديسين في مسامع الودعاء كشرب الماء للغروس الجدد.

٥٣ – تَدْبِير الله القدِّيسين: فلتكن مرسومة عندك صورة تَدْبِير الله مع القدماء كالأدوية الكريمة للعين الضعيفة، واحفظ ذكرهم عندك في كل أوقات النهار، وهِذّ وتفكَّر فيها دائماً لكي تتحكم منها كيف تقتني كرامة ذكر عظمة الله في نفسك، وتجد لِذاتك الحياة الأبدية برَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الوسيط بين الله والناس المتحد من اثنين. لأن ذاك الذي لا تستطيع الملائكة أن تقرب المجد المحيط بعرش كرامته، قد ظهر من أجلنا في العالم مُهاناً متضعاً للناس، لم يكن له منظر ولا شعاع، ذلك الذي خفيته لا تقاس ولا تدرك من حسِّ المخلوقين؛ بل من أجل اتحاده بالجسد الذي

أخذه من جنسنا، أكمل تَدْبِيره لخلاص وحياة الكل. هذا هو الذي طهَّر به شعوباً كثيرة، والرب حمَّله خطايانا جميعاً كقول إشعياء النبي: «والرب شاء أن يوضعه ويؤلمه إذ هو لم يعرف خطية». الذي من أجل تَدْبِيره في كل الأجيال من أجلنا، ينبغي له المجد والكرامة والشكر والسجود من الكل إلى أبد الآبدين آمين.

المَيْمَر الرَّابع

لماذا يتفحص النفسانيون في معرفتهم الأشياء الرُّوحية وفقاً لكثافة أجسامهم؛ وكيف يمكن للعقل أن يرتفع فوقها؛ وما هو السبب في أننا لا ننعتق منها؛ وكيف ومتى يقدر العقل أن يثبت بلا أشكال (أو خيالات) وقت الصلاة. (الحياة النقية وطلب الله – إرتفاع العقل – سبب إعتاقه – ثبات العقل وقت الصلاة).

١ – الربُّ المُباركُّ وقاره القادر الممجد يفتح أمَّامنا باباً أنْ لا نهتم بشيء إلا به (لا نهتم إلا بالله). وهكذا نتخلى ونترك كل شيء، ونصرف عقولنا إلى طلبه هو فقط، ولا نجعل الهمَّ بأي شيء يحجز بيننا وبين الله. لأن العقل – يا أحبائي – كلما طرح عنه الهمَّ بما يُرى، واهتم بذلك الرجاء بالمُستقبَلات، فهو بقدر ارتفاعه فوق اهتماماَت الجسد ومشاغله، هكذا يرقُّ ويصبح صافياً في الصلاة. وبقدر ما يُعتق العقل من رباطات الاهتماماَت (العالمية) هكذا يصفو. وكلما ازداد صفاؤه ازدادت شفافيته. وكلما ازداد شفافية ارتفع وتسامى عن حركات هذه الدنيا التي تحمل طابع الأعراض الكثيفة. عندئذ يعرف العقل أن ينظر الله كمثله وليس كما نحن (قا ١يو٣: ٢).

٢ – وما لم يُؤهَّل الإنسان أولاً للاستعلان، فهو لا يقدر أن يعرف هذا. وإن لم يصل إلى النقاوة، فلن ترقى حركاته ليبصر الخفيات. وإلى أن يُعتق من كل الأشياء المرئية ويتحرر من اقتنائها، فهو لن يُعتق من الحركات التي تكون بسببها، ولن تكف عنه الأفكار التي تظلم العقل. وحيث الغشاوة وتشويش الأفكار، فهناك تكون الأوجاع. وإن لم ينعتق الإنسان من هذه الأشياء جميعها ومن أسبابها، كما قلت، فلن يستطيع العقل أن يتفرس في الخفيات.

٣ – من أجل هذا أمرنا الرب، قبل كل شيء، بالتجرد والتمسك بالفقر، والبعد عن سجس العالم، والانحلال من همِّ الناس، حسب قوله: «مَن لا يكفر بأهله وبكل شيء له، ويكفر بنفسه أيضاً لا يقدر أن يكون لي تلميذاً». لقد قال هذا لكي لا يتأذى عقل الإنسان من شيء، لا بالنظر ولا بالسمع. لأن الرب ربط عقولنا برجائه فقط، واجتذب إليه كل أفكارنا، وربط به كل اهتمام أفكارنا، وذلك بالانحلال من الكل، لكيما يجتذبنا الشوق إلى الحديث معه بدوام الاهتمام به وحده.

٤ – والصلاة تحتاج أيضاً إلى تدريج (أي تدريب) لكيما بإطالة الوقت الذي نقضيه فيها يقتني العقل حكمة. لأنه بعد التجرد (من المقتنيات) الذي يحلُّ حركاتنا من الرباطات، تحتاج الصلاة أيضاً إلى المداومة زماناً طويلاً لكي يقتني العقل دُرْبَة ويعرف كيف يقمع أفكاره، ويتعلم من كثرة التجربة ما لم يكن ممكناً له أن يتعلمه من آخرين.

٥ – ترابط الفضائل: كل تَدْبِير يتربى من التَدْبِير الذي يسبقه، وهذا مطلوب حتى يوجد التَدْبِير الذي بعده. فالصلاة تسبقها الخلوة، والخلوة هي من أجل الصلاة. كما أن الصلاة هي من أجل اقتناء حب الله، لأننا نتخذ منها أسباباً لنحب الله.

٦ – وينبغي لنا أيضاً، يا أحبائي، أن نعرف أن كل مفاوضة سرية، وكل اهتمام حسن للعقل في الله، وكل هذيذ بالأمور الرُّوحية هو بسبب الصلاة، وباسم الصلاة يُحدُّ؛ وهي كلها تجتمع تحت هذا الاسم، سواء كانت قراءة بتمييز، أو تسابيح الله بأصوات الأفواه، أو فكراً منشغلاً بالرب في انسحاقٍ، أو مطانيات الجسد، أو تهليل المَزَامِير، وما تبقى. لأننا نقبل منها تعليم الصلاة الحقيقية التي يُولد منها حب الله. لأن حب الله هو بالصلاة؛ والصلاة هي التي تكون بالانفراد أي بالخلوة؛ والانفراد هو من أجل الصلاة، لكي يكون لنا مكان نتحدث فيه وحدنا مع الله. كما أن رفض العالم يسبق الخلوة؛ لأنه ما لم يترك الإنسان العالم أولاً، ويتفرغ ويتعرى من كل ما له، فهو لا يقدر أن يتوحد.

٧ – هكذا أيضاً فإن ترك العالم يسبقه الصبر والاحتمال. والصبر يسبقه بغضة العالم؛ وبغضة العالم يسبقها خوف جهنم والشوق إلى ما هو فوق. لأنه ما لم يَخَفِ الفكر من رعب جهنم، وما لم تجذبه محبة الخيرات العتيدة، فلن يتحرك فيه بغض هذا العالم. وإن لم يبغض العالم فلن يصبر على الحرمان من مفاوضته ونياحاته. فإن لم يتقدم الصبر في العقل أولاً، فالإنسان لا يقدر أن يختار له مسكناً منعزلاً موحشاً خالياً من السكان. وإن لم يختَرْ له حياة الانفراد، فهو لن يستطيع أن يداوم على الصلاة، وإن لم يداوم على الحديث مع الله ولم يثبت في تلك الحركات المختلطة بالصلاة وأنواع التعاليم التي قلناها سابقاً عنها، فلن يحسَّ بالحب.

٨ – لأن حب الله يأتي من الحديث معه، والانشغال بالصلاة يتولد من السكون، والسكون من المسكنة والتجرد. والمسكنة تأتي من الصبر، والصبر من بغض الشهوات، وبغض الشهوات من خوف جهنم ورجاء الملكوت. ويُبغضُ الشهوات مَن يعرف مضرتها وما تعدّه له من أذية، ومن أية خيرات سيُحرم بسببها.

٩ – وهكذا فكل وَاحِدة من الفضائل مرتبطة بالتي قبلها، وبها يتربى الإنسان ويمتد ويرتفع إلى الأخرى التي هي أرفع منها. فإن نقصت إحداها لا تثبت معه التي بعدها، ويكون مصير الكل هو إلى الانحلال والعدم. أكثر من هذا هو زيادة كلام.

١٠ – لا تحسب الدوام في الصلاة التي بلا طياشة أنها بَطَالة بسبب تركك المَزَامِير. أَحْبِبِ الميطانيات في الصلاة أكثر منها (أي المَزَامِير)؛ وإذا أعطتك يداً فهي تكمِّل لك صَلَوَاتك (أي تعوض ما فاتك من خدمة المَزَامِير). وإذا أُعْطِيتَ في الخدمة موهبة الدموع فلا تَعتبر تنعمك بها بطالة من خدمتك. لأن موهبة الدموع هي كمال الصلاة. [إن كنتَ أحياناً أثناء ركوعك في الصلاة وانجماع فكرك فيها، يصمت عقلك أو يتوقف عن الصلاة، فلا تتعجب. سوف يحدث لك هذا أيضاً أثناء الخدمة والقراءة].

١١ – تشتت العقل: في الوقت الذي يكون فيه عقلك مشتتاً، ثابر على القراءة أكثر من الصلاة. [وليكن ما تقرأه موافقاً لهدف مسيرتك]. ولكن ليست كل الكتب تصلح لذلك كما قيل. [إن معظم الكتب التي تتضمن تعاليم الكتب لا تساعد على النقاوة، لأن قراءة الكتب المتنوعة تقود العقل إلى الطياشة. فاعلم إذاً أنه ليس كل كِتَاب عن العقيدة مفيداً لتنقية العقل وجمع الأفكار. فلا تتجادل على حقيقة هذه الأمور مع إنسان لا يعرف الحق].

١٢ – أَحْبِبِ السكوت أكثر من التعب (في الأعمال). إن أمكن أَكْرِمِ القراءة أكثر من الوقوف. لأن القراءة هي ينبوع الصلاة النقية.

١٣ – لا تتهاون أبداً، بل احترس من الطياشة. أصل الأعمال هو التزمير، ولكن اِعلَمْ أن (ترتيل) الألفاظ مع الطياشة هو لتعب الجسد أكثر نفعاً. وحزن (أي انسحاق) العقل أنفع من تعب الجسد.

١٤ – أسباب الكسل: في وقت التواني أيقظْ وحرِّكْ غيرتك قليلاً، فينتبه العقل جداً ويُلهِب حركات النفس. فكما أن الغضب الطبيعي يعين مقابل الشهوة، هكذا أيضاً في وقت الغفلة والملل يحلُّ البرودة من النفس. والكسل ينتابنا بالأكثر لسببين: من كثرة الطعام وثقل البطن، أو من الضعف بسبب كثرة التعب في الأعمال. فالعمل المُنظم هو ضوء للفكر، وليس شيء يضاهي المعرفة.

١٥ – الصلاة ليلاً: فلتكن كل صلاة تقدمها في الليل أكرم عندك من عمل النهار. لا تثقل بطنك لئلا يتشوش عقلك ويضطرب بالطياشةِ إذا قمتَ في الليل، وتسترخي مفاصلك وتمتلئ كلك كسلاً ورخاوة. وليس هذا فقط، بل وتظلم نفسك وتتسجس جميع حركاتك، ولا تستطيع أن تجمع الألفاظ بسبب هذه الظلمة، وتصير مذاقة كل شيء غير لذيذة عندك، ولا تحلو لك ألفاظ المَزَامِير. لأن الذهن يتذوق حلاوة معانيها من خلال سرعة العقل وخفته وضيائه. فإذا كان طقس عمل الليل مضطرباً، حينئذ يضطرب العقل أيضاً في عمل النهار، فيغدو سائراً في الظلمة، ولا يعود يتنعم بالقراءة كعادته، لأن الظلمة تنزل كغمامة على الحركات، حتى وإن كان يتحرك في الصلاة أو في الهذيذ. فالتنعم الذي يتنعم به النساك في النهار، يتدفق على العقل النقي من ضياء أعمال الليل.

١٦ – أهمية السكوت: كل إنسان لم يحصل على خبرة في السكوت زماناً طويلاً، لا تأمل أن تتعلم منه شيئاً عن الخيرات التي للمجاهدين، حتى ولو كان حكيماً ومعلماً وله أعمال كثيرة.

١٧ – جهادات الجسد: احذر أن تُضعف جسدك جداً، لئلا يقوى عليك الملل فتبرد نفسك من مذاقة عملها. مثل الميزان الذي يزن الأشياء، ينبغي للإنسان أن يزن تَدْبِيره. حين تشبع من الطعام تحفَّظ قليلاً من الدالة مع نفسك، وليكن جلوسك بعفة وقت قضاء الحاجة. ولتكن عفيفاً ونقياً بالأكثر وقت رقادك، وكن متحفظاً ليس فقط بأفكارك بل وأيضاً بأعضائك.

١٨ – اِحذر من الكبرياء وقت الابتدال (أي التغيير) الجيد، وأَظْهِر ضعفك وقلة معرفتك مقابل دقة الظنون (أي أفكار العظمة)، وتضرع لرَبِّنَا بالصلاة الحزينة، لئلا يتخلى الله عنك فتُجرَّب بالسماجات. لأن الكبرياء يتبعها الزنى، ونسيان ذكر الله يتبعه المجد الباطل. والمجد الباطل يتبعه الغرور.

١٩ – مارس عمل يديك على قدر حاجتك فقط، ولكيما يربطك ذلك بالسكون، ولا يضعف رجاؤك بالمهتم بك. لأن تدابير الله عجيبة في أحبائه، فهو في البرية القفرة التي لا تُسْكَن، يعول أحباءه المتكلين عليه بنفسه وليس بأيدي الناس. فإذا افتقدك الرب بحاجتك الجسدانية بدون عمل – إذ تكون مهتماً فقط بما للنفس – عند ذلك يتحرك فيك فكر من حيل الشيطان القتَّال، إنك أنت السبب في هذه المعونة التي جاءتك. وللوقت تتوقف عناية الله بك؛ ومن تلك الساعة تتدفق عليك ربوات شرور وبلايا، أمَّا من تخلية المهتم بك، أو من تجدد الأوجاع ومن تحرك الأمراض في جسدك.

٢٠ – إن الله لا يتخلى عنا بسبب حركات الفكر إلا إذا دُمنا فيها. فهو لا يؤدب الإنسان أو يدينه على الأفكار التي ليست بهوانا، وإذا نحن وافقنا الفكر لبرهة وجيزة، وللوقت بدأ الحزن ينخسنا، وأدركتنا الندامة، فإن الرب لن يجازينا على مثل هذه الزلة، بل سوف يحاسبنا على تلك التي يقبلها العقل فعلاً، أعني الذين يتدبرون فيها بلا حسٍّ، ويرون أنها واجبة القبول ولا يحسبون أنها خطية.

٢١ – لَيْتَنا نصلي إلى الرب على الدوام ونقول: أيُّها المسيح ملء الحق، أضيء حقك في قلوبنا، لنعرف كيف نسلك في طريقك بحسب مشيئتك.

٢٢ – حركات الفكر: إذا تحرّك فيك فكر شيء رديء، سواء كان مستجداً أو من تلك الأشياء التي لها مدة، وظهر فيك متواتراً، فاعلم أنه بالتأكيد يريد أن ينصب لك فخاً. لذلك تيقَّظ مقابله في الحال وأَفرزه (أي ميِّز نوعه). فإن كان من ناحية اليمين والصلاح، اعلم أن رَبَّنَا يريد أن يعطيك نصيباً من الحياة، ولهذا تحرك فيك هذا الفكر على غير العادة. وإن كان هو فكراً مظلماً وأنت متشكك فيه ولم تستطع أن تميِّزه إن كان نافعاً لك بصفة خاصة أم أنه سارق مُندسٌ يكمن لك في زي الصلاح، تأهب له بالصلاة الحارة ليلاً ونهاراً مع سهر دائم؛ لا تطرده عنك ولا توافقه أيضاً، بل صلِّ من أجله ولا تهدأ من الابتهال إلى رَبِّنَا، وهو سوف يُظهر ذاته مكشوفاً من أي نوع هو.

٢٣ – السكوت: أَحْببِ السكوت أكثر من كل شيء، فهو يقرِّبك إلى الثمرة التي يعجز اللسان عن تفسيرها. نحن نكلِّف أنفسنا لنسكت قبل أي شيء آخر، وحينئذ يتولد لنا منه شيء آخر يقودنا إليه. فليعطك الرب أن تحسَّ بما يتولد من السكوت. إن بدأت بهذا التَدْبِير (فليس بمقدوري أن أشرح لك) ما هو أو كيف أو ما مقدار النور الذي يضيء لك ههنا.

٢٤ – لا تحسبْ، يا أخي، أن ما قيل عن أنبا أرسانيوس العجيب هو باطلٌ. إذ أنه كان يجلس مع الآباء والإخوة الذين يأتون إليه بالسكوت، ثم يصرفهم أيضاً بسكوت. وكان يفعل هذا بإرادته فقط، وإن كان في البداية لم يقتنِ ذلك إلا بتكلُّفٍ. لأن تَدْبِير هذا العمل مع الزمن يلد في القلب لذة تجذب الجسد وتغصبه ليدوم في السكوت.

٢٥ – تَدْبِير السكوت يتولد لنا منه دموعٌ كثيرة، ومنظر شيء عجيب يحسّ به القلب في تزميره، فتجده حيناً يحزن وفي حين آخر يتعجب. يصغر القلب ويصير كالطفل، وحالما يبدأ الصلاة يسكب الدموع. عظيمٌ هو ذلك الإنسان الذي يضبط أعضاءه، إنه يقتني في نفسه عادات عجيبة.

٢٦ – إذا وضعتَ كل أعمال هذه السيرة في ناحية، والسكوت في الناحية الأخرى لوجدتَ أن السكون يرجح كثيراً. إن عظات الآباء كثيرة، وهي أيضاً تعين على السكوت، أمَّا إذا دنا الإنسان من السكوت، صار العمل بها عنده فضلة، لأنه يكون قد ارتفع فوقها لأنه قد دنا من حد الكمال.

٢٧ – إننا إذا سَكنَّا مع كثيرين لا يكون بمقدورنا أن لا نَلقى إنساناً. وحتى أرسانيوس الذي كان مثل ملاك الله، وقد أحب السكوت أكثر من كل أحد، لم يقدر أن يتخلص من لقاء الآباء والإخوة الذين كانوا معه، ولو حتى عند ذهابه إلى الكنيسة. وحيث رأى ذلك الإنسان المستحق كل كرامة وغبطة، أنه ليس في مقدور إنسان أن يتخلص من هؤلاء ما دام ساكناً قرب الناس، لهذا فقد أبعد الطوباوي أرسانيوس مسكنه أميالاً عن الناس، وعن المتوحدين الذين كانوا في تلك المواضع. وهذا المذهب إنما تعلَّمه من النعمة ليكون سكوته دائماً. وربما كان يتكلف (لأمر ضروري) ويفتح بابه لأناس منهم، فكانوا يتعزون من منظره فقط، أمَّا الحديث والمفاوضة معه فكانوا يرفضونه (ويعتبرونه فضلة غير ضرورية). وكم مِن آباءٍ كثيرين انتفعوا بمنظره، وصاروا يتحفظون لأنفسهم لكي يزيدوا غناهم الرُّوحي من التعليم الذي قبلوه من منظر الطوباني. فكان إذا أراد أحدهم الخروج إلى العالم يضع حجراً في فمه، أو يشدُّ حبلاً على حقويه، وربما عذَّب نفسه بالجوع، لأن الجوع يساعد كثيراً على ضبط الحواس.

٢٨ – وهكذا يا إخوتي، أدركت أن آباءً كثيرين قد بلغوا الكمال بالأكثر بضبط حواسهم. لأن ضبط الحواس يتولد عنه ضبط الأفكار. وهناك أسباب كثيرة تواجه الإنسان بدون إرادته وتجعله يخرج عن حدود حريته، فإن لم يكن متحفظاً بحواسه من خلال العادة الدائمة التي سبق أن اتخذها لنفسه، تلك الأسباب تعطِّله زمناً طويلاً عن الرجوع إلى عقله واستعادة هدوئه الأوَّل.

٢٩ – تربية القلب هو الهذيذ برجائه. تربية التَدْبِير هو الانحلال من الكل. ذِكر الموت هو رباط جيد للأعضاء الخارجية يجتذب النفس للحياة، وفرح يبهج القلب بالرجاء. التجارب الدائمة التي من الحالْين المتغيرين (الجيد والرديء)، هي سَقْي المعرفة التي يشربها العقل كل يوم من الداخل.

٣٠ – [أهِّلني، يا ربي، لمعاينة رحمتك في نفسي قبل أن أرحل عن هذا العالم. وأن أحسَّ في داخلي بالرَّاحَة مع الذين انتقلوا منه في الرجاء الحسن. افتح قلبي يا إلهي، بنعمتك ونقني من أي شركة مع الخطية، ومهِّد في قلبي سبيل التوبة. يا إلهي وربي، أنت رجائي وافتخاري وملجأي القوي. أنت يا من بك تستنير عيناي، أَعطني فهماً بمعرفة حقك. اجعلني مستحقاً يا ربي، أن أتذوَّق بهجة عطية التوبة، التي تنفصل بها نفسي من فعل الخطيئة ومن مشيئة اللحم والدم. أهِّلني يا ربي، لمذاقة الانسحاق الذي يتقبل موهبة الصلاة النقية. لَيْتَني أبلغ يا مخلصي، ذلك العبور العجيب الذي به تهجر النفس العالم المرئي، وتنبع فيها الأفكار الجديدة التي تقودها للدخول إلى العالم الرُّوحي وإدراك الأفهام الجديدة!

٣١ – الإنسان الذي يبدأ ويكمل حسناً، يرتب مسيرته على هذا الأساس، وهو يداوم الابتهال إلى الله أن يُحسب أهلاً لهذا الإدراك عينه. لأن معرفة المنزلة العتيدة هي مغروسة فيه بالرجاء الذي لا يفنى، تلك المنزلة المحفوظة للناس بواسطة نعمة الله حتى نهاية هذا العالم. ومن ناحية أخرى، فالإنسان الذي يبدأ الطريق العكسي هو ينزل من فوق إلى أسفل. أي أنه يبدأ بالفرح وينتهي بالحزن، وهو خالٍ من المعرفة والرجاء، ويكون مثل جسم لا شكل له، ولم يبلغ كمال خلقته بقبول النفس، لأنه لم يكمِّل مدة الحمل به في الرحم لكي يقتني الحياة.

٣٢ – علامة النفس التي أدركت رجاءها، هي بغضتها لأحاديث العالم. اليقظة الداخلية هي نوم للأشياء المرئية. سلاح القلب هو الإيمان بالمسيح.

٣٣ – الإنسان الذي باشتياق رجائه يزدري بالموت، يعتبر الموت كلا شيء، ولا يكترث بجذْب المكان الذي يسكن فيه، كما ويستهين بحروبه مع الشياطين وابتعاده عن الناس وانقطاعه عن تعزيات هذا العالم. فماذا تكون التعزية التي تُستمد من الأشياء المرئية وارتباطاتها، بالمقارنة مع فرح الرجاء الذي يحسُّه القلب؟ إنه يكون مثل إنسان فقد إحساسه بجسده بسبب سكره بهذا الفرح. ولسبب حرارة إيمانه التي تُلهب قلبه تختفي كل الأشياء المرئية من قدامه، ولا يعرف بعد أنه موجود على الأرض من شدة حرارة جسده وأفهام نفسه. وبإيمان عقله يبدو له أنه قد صار مثل إنسان يقف الآن في ذلك الملكوت].

٣٤ – التجارب والضجر: وإن كان الضجر يحدث لنا من وقت إلى آخر بسبب الانفراد – وهي تخلية تكون لتربيتنا بحسب التَدْبِير – فلنا تعزية الرجاء، التي تفوق الكلام، بإيمان قلبنا. وحسناً قال أحد لابسي الله: إن محبة الله تكفي لأن تكون عزاءً للمؤمن مقابل هلاك نفسه، فبماذا تؤذي البلايا مَن قد رذل واحتقر التنعم والرَّاحَة من أجل الخيرات الآتية؟

٣٥ – الرحمة: أوصيك، يا أخي، أن يغلب فيك ميزان الرحمة حتى تحس بتلك الرحمة التي لله على العالم. هذه التي هي مرآة لنا، نرى فيها الأيقونة الحقيقية للأمور التي هي طبيعية لتلك الأزلية. فبهذه وبما يشبهها يمكننا أن نتحرك بالله بعقلٍ صافٍ.

٣٦ – القلب القاسي (الخالي من الرحمة) لا يتنقَّى أبداً. أمَّا الإنسان الرحوم، فهو طبيب نفسه، يطرد من داخله سحابة الأوجاع كما برياح عاصفة. فالرحمة هي أمر فاضل عند الله حسب كلمة الإنجيل.

٣٧ – [طوبى للإنسان الرحوم، لأنه سوف يحظى بالرحمة. ليس هناك فقط، بل وهنا أيضاً بطريقة خفية. أية رحمة في الحقيقة أعظم من هذا: أن يتحرك الإنسان بالرأفة على رفيقه ويشاركه آلامه، فإن الرب ينجي نفسه من معاناة الظلمة – التي هي جهنم العقلية – ويحضره إلى نور الحياة ويملأها بالفرح. وحسناً قال أوغريس: إن السبيل النقي يأتي من إظهار الرحمة.

٣٨ – ولهذا، كما قلتُ، فليملك القلب الرحيم على كل تَدْبِيرك، وأنت تعيش في سلام مع الله. احترس، لئلا في أي وقت من الأوقات، يأتي الشر على أحد بواسطتك، حتى ولو كان إنساناً شريراً. وطالما كان بمقدورك أن تخلِّص إنساناً أثيماً من الشر، فلا تهمل أن تفعل ذلك. ولا أقصد أنه إذا كان الأمر بعيداً عنك يلزمك أن تذهب وتطرح نفسك في أعمال من هذا النوع، لأن مثل هذه الأعمال لا تتعلق بسيرتك. أمَّا إذا كان الأمر بين يديك مباشرة، وكان بإمكانك أن تعمل شيئاً، (لأنه في مثل هذه الحالة التي تعرض لك فجأة، يكون الأمر بتَدْبِير من الله كامتحان لك، وقد جلبه عليك لكي يختبرك)، فاحذر أن تتأخر عن تحمل الآلام من أجل إنقاذ ذلك الرجل الأثيم، لئلا يُطلب دمه من يدك. نعم، عليك أن تحاول بكل قوتك أن تنقذه حتى ولو تطلَّب الأمر أن تموت من أجله. في هذه الساعة ستكون شهيداً بالحقيقة، وتصير مثل ذاك الذي قَبِل الموت على الصليب من أجل الخطاة. اِبتهل إلى الله لئلا تفوتك فرصة مثل هذه. فحتى لو كان إنساناً مستحقاً أن يُجازَى بالشر، فاتركه ينال العقاب عن عمله على يد آخرين؛ أمَّا أنت فليس من شأنك أن تفحص استحقاق أعماله، وليأته الخير فقط على يديك.

٣٩ – تفكَّر في ذاك الذي بيده كل الأشياء، وكيف أن أعمال كل إنسان هي أمَّام عينيه، تظهر قدامه أكثر وضوحاً من الشمس. وتذكَّر أنه قادر بمجرد نفخة من فمه أن يفني جميع البشر، إن أراد ذلك. أمَّا أنت فلم تُعيَّن لتجري حكم الانتقام على أعمال الناس وأفعالهم، بل دُعيت بالحري لكي تطلب الرحمة من أجل العالم، وتسهر في الصلاة من أجل خلاص الكل، وتشارك كل إنسان في آلامه، الأبرار والخطاة على السواء. واِعلمْ أيضاً أنه إذا كان إنسان مستحقاً للعقاب، فلن يمضي وقت طويل قبل أن يربطه القضاء على يدي آخرين مُعيَّنين لهذا العمل. وهكذا تخلص نفسك وتصير أنت شهيداً بالحياة. ثم عليك لا أن تصلي أو أن تفكر في هذا الأمر فحسب، بل وعليك أيضاً أن تبتهل وتتوسل إلى الله أن تفيض رحمته على ذلك الإنسان كي يتغير ويصير ممتثلاً لمشيئة الله، ويرحل عن الحياة في البرِّ وليس للمجازاة عن الإثم.

٤٠ – كن مُنقِذاً بدلاً من أن تكون منتقماً. كن مسامحاً بدلاً من أن تكون ديَّاناً. كن شهيداً بدلاً من أن تكون غادراً. كن مدافعاً عن الآخرين بدلاً من أن تكون لائماً لهم. ابتهل إلى الله من أجل الخطاة لكي يحظوا بالرحمة، وتوسَّل إليه من أجل الأبرار لكي يُحفظوا (في البر). اِغلبِ الأشرار بلطفك، واجعل الغيورين يتعجبون من صلاحك. اجتذب محب القضاء للخجل مقابل

رأفتك. كن متوجعاً بقلبك مع المتألمين. أحبب جميع الناس، ولكن ابتعد من الكل. تذكَّر الموت وهيئ نفسك لملاقاته، وأصلح طريقك. واعلم أن خطايا جميع الناس تتقدمهم إلى منبر القضاء.

٤١ – لا تستسلم لليأس بسبب العثرات. ولست أعني أن لا تشعر بالندم عليها، بل ألا تعتقد أنه لا شفاء لها. أن يُصاب الإنسان بكدمة أهون كثيراً من أن يموت. نعم، فإنه يوجد لنا حقاً ذلك الشافي الذي يداوي كل من يعثر. إنه ذاك الذي من فوق الصليب طلب الرحمة لصالبيه. هو ذاك الذي غفر للقتلة وهو معلق فوق الصليب. إنه قال: «كل خطية وكل تجديف يُغفر للناس»، وذلك بالتوبة. فهو من أجل لحظة بكاء قصيرة غفر لسمعان الذي أنكره، وبعد قيامته دعاه ليكون رأساً لقطيعه. ثلاث مرات سأله: «أتحبني»؟ مقابل إنكاره الثلاثي، وذلك ليؤكد له غفرانه. لقد جاء المسيح من أجل الخطاة ليشفي المنكسري القلوب ويضمِّد جراحاتهم. وهو يقول: «روح الرب عليَّ لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي منكسري القلوب، لأنادي بالحرية للمأسورين وأردَّ البصر للعميان وأشدد المنسحقين بالغفران». والرسول يقول في رسالته: «يَسُوع الْمَسِيح جاء إلى العالم لكي يخلص الخطاة». والرب أيضاً يشهد قائلاً: «لم آتِ لأدعوَ أبراراً، لأن الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب بل المرضى». كما يقول أيضاً: كان لدائن مدينان، ولأنه لم يكن لأي منهما ما يردّه، سامحهما كليهما، ذلك حينما سألاه.

٤٢ – إن طبيعتنا الضعيفة لن تقوى على احتمال قضاء عدل الله؛ لهذا فهو يستعمل معنا الرحمة طالما أننا نوجد دائماً مدانين. ولكن، لا تخطئ أيُّها الإنسان متوقعاً أنك سوف تقدم توبة، ولا تستكِن للخطية واثقاً من نوال الغفران! تذكَّر أن الموت لن يتأخر. لا تتحايل بفكرٍ خبيث أن تجد وسيلة للاقتراب من لذة الخطية! لأن الله لا يُستهزأ به، فمعرفته تسبق أفكارك. سوف تدركك المحن فجأة، وحين تصرخ فلا يستجيب لك].

٤٣ – توقع الموت: عندما تدنو من فراشك لتنام قل له: يا أيُّها الفراش، لعلك في هذه الليلة تكون قبراً لي. ولستُ أدري إن كان سيدخل إليَّ هذه الليلة رقاد الأبد بدلاً من رقاد العادة. ما دامت لك رِجلان فأسرع بهما في طلب العمل قبل أن يُربطا بذلك الرباط الذي لا يمكن حله. وما دامت لك يدان فابسطهما في الصلاة قبل أن يجيء الموت ويرخيهما. (وما دامت لك أصابع ارشم بهما ذاتك بعلامة الصليب في صلاتك، قبل أن تفقد قوتها). وما دامت لك عينان فاملأهما بالدموع قبل أن يغطيهما التراب. [قبل أن تأتي تلك الساعة دون أن تدري، حين يغطي التراب ثيابك السوداء، وتتثبت عيناك باتجاه وَاحِد دون أن ترى شيئاً. نعم، املأ عينيك دموعاً طالما كان قلبك منضبطاً بقوة التمييز، قبل أن تترنح النفس بخروجها منه، وتترك القلب مثل بيت مهجور من صاحبه. أيُّها الرجل الحكيم، لا تنخدع بتوقع حياة طويلة!].

٤٤ – أنت تشبه الزهر الذي يذبل من ريح السموم؛ هكذا ينفخ من داخلك أحد العناصر وتموت. [وتضعف ركبتاك فجأة دون أن تتوقع ذلك، وفيم تظن الأمر عادياً وأنت معتني بمداواة العلة، يقترب منك المتسلط (أي ملاك الموت) الذي يهزأ من الحكيم (أي الطبيب). فيا لشقاء طبيعتنا! كيف نوجد مُمْسَكين بمحبة هذه المادة، بينما الله لا يريد أن يتخلى عنا]!

٤٥ – أَعِدّ قلبك، أيُّها الإنسان، للرحيل وقل: هوذا قد بلغ الرسول إلى الباب؛ قد جاء ورأى ما هو جلوسي هذا (فلماذا أنا متكاسل؟) إن الرحيل هو إلى الأبد، ولا عودة بعده. [اقضِ الليل في هذا التأمل، وتفكَّر فيه أثناء النهار. وعندما يأتي وقت الرحيل، استقبله بفرح قائلاً: تعالَ بسلام! فقد كنتُ أعلم بمجيئك ولم أهمل شيئاً كان ذا منفعة لي في الطريق.

٤٦ – أَعددِ الزادَ لطريقك الطويل، أيُّها الحكيم! انزع ثقل النوم من قلبك أيُّها الضيف المدعو! رتِّب امتعتك للرحيل أيُّها الغريب! لقد لاح نور الصباح يا عابر الطريق، فلماذا تنام؟ انهض وهيئ نفسك أيُّها الملاَّح المسافر في البحر! قم وجهِّز عدَّة سفينتك لأنك لست تعلم متى تأتي الريح التي تحملك بعيداً!

٤٧ – كن مستعداً لاستقبال (ملاك الموت) الذي يسلم صورتنا للفناء، إذ يقول: «صورتهم تبلى في الهاوية» (مز٤٨: ١٤)، سوف يتخلُّون عن جمال مجد طبيعتهم وتصير أجسادهم موضعاً مهجوراً. تأمَّل كل حين منظر هذا الفساد الذي يدعو إلى البكاء. تأمَّل في انحلال حواسك وأنقاض بناء جسدك، وكيف يصير كل بنيانك مثل الطين في الهاوية. طوبى لمن يتذكر هذا الهدم بالفرح! طوبى لمن ينتظر – برجاءٍ حَسَنٍ – هذا الفعل المملوء سراً، المخفي فيه عجب قوة الخالق (أي قوة القيامة).

٤٨ – الهذيذ الرُّوحي هو ترقُّب حار ودائم لما سيكون بعد القيامة. بداءة هذا التفكير في العقل هو بمثابة عبور حدِّ التوبة. والتفكير الدائم في الأمور العتيدة يحفظ التوبة في النفس. والذي يتحرك بالتوبة قد انتقل برجائه إلى العالم الآتي. أمَّا عقل الإنسان الذي قد نسيها، فهو يمكث في هذا العالم].

٤٩ – مَن يحب الحديث مع المسيح يحب أن يكون وحده. أمَّا مَن يحب البقاء مع الكثيرين فهو محب لهذا العالم. [التوبة هي حزن القلب الدائم وهو يتأمل تلك المنزلة الْعَظِيمة التي تفوق الوصف، إذ يقول في نفسه: كيف يمكنني أن أصل إلى هذا العبور الذي لا يُنطق به؟] إن كنتَ تحب التوبة فينبغي لك أن تحب السكوت، لأنه بعيداً عنه لا تتم التوبة. إن لاججك أحد على هذا، فلا تلاججه أنت. [لأنه لا يعرف ماذا يقول. لأنه إذا عرف ما هي التوبة، فهو أيضاً سوف يعرف مكانها، وكيف أنه لا يمكن أن تكمل وسط الاضطراب].

٥٠ – إن كنتَ تحب السكوت الذي هو أب التوبة، أَحبب بلذةٍ تلك الخسارات التي تكون للجسد، والملأمَّات والمظالم التي تتعرض لها. لأنك من غير هذا لا تقدر أن تعيش في الحرية بلا قلق. فإذا استهنت بها (أي بالخسارات..) فأنت تقتني السكوت بحسب مشيئة الله.

٥١ – محب السكوت هو الذي ينتظر الموت دائماً. والذي ليس له هذا (التذكار) لا يقدر أن يدوم في السكوت. [الموت من أجل الله والحياة في الله هو غاية الحياة. ويقول أوغريس إن التفكير في الموت من أجل الله يقود الذهن إلى الاتحاد بالله].

٥٢ – واعلم هذا أيضاً أيُّها المُفرِز (أي صاحب التمييز)، أننا نحن السكان في الوحدة مع

أنفسنا في الهدوء والحبس، لسنا نعمل هذا من أجل التعب الكثير والقوانين، إذ أنه معروف أن الخلطة مع كثيرين تساعد على إتمام القوانين بسبب حرص ونشاط الجسد. فلو كانت هذه الأعمال هي الضرورية فقط، لَما كان أناس صالحون وآباء قديسون يتركون الحديث والخلطة مع الناس. حيث كان البعض منهم يسكنون في المقابر، وآخرون سكنوا المغاير والجحور، مختارين الوحدة، التي تُرخي الجسد بزيادة وتبطل همته في إتمام القوانين. ومع كل ضعف الجسد واسترخائه، وشدة الأمراض التي كانت تلحقهم، كانوا يحتملون ذلك بلذة ويصبرون عليها بفرح كل أيام حياتهم. فالبعض منهم لم يكونوا قادرين على الوقوف على أرجلهم، ولا على تقديم الصَلَوَات العادية. كما لم يكن باستطاعتهم أن يسبحوا الله بأفواههم، ولا بمزمور وَاحِد مما كانوا معتادين أن يفعلوه بالجسد. ومع أنهم كانوا في هذا الضعف، إلا أنهم ضبطوا السكوت واختاروه أفضل من القوانين، وبهذه الطريقة قضوا كل أيام حياتهم. ومع أن هذا قد يُظن به أنه بَطَالة، إلا أنهم في عجزهم وبَطَالتهم من الأعمال والقوانين، ما كانوا يرون ولا يحبون أبداً أن يتجولوا ويذهبوا إلى الكنائس لكي يتنعموا بأصوات وتسابيح الآخرين.

٥٣ ــ لأن من أحسَّ بخطاياه فقد عرف أن الوحدة أَخيْر له من أن ينفع المسكونة كلها بمنظره. والذي يتنهد على نفسه ساعةً وَاحِدةً في الوحدة، هو أفضل من الذي يقيم الموتى بصلاته ومسكنه وسط السجس. ومَن استحق أن ينظر نفسه، هو أفضل من الذي استحق أن ينظر الملائكة؛ لأن هذا بعين الجسد يشاركهم، أمَّا ذاك فبعين النفس. ومَن يلتصق بالمسيح في الوحدة بالحزن والنوح، لهو أفضل من الذي يمدحونه في المجامع. فإن تعلل أحد بقول بولس الرسول: «أنا أطلب أن أكون أنا محروماً من المسيح بدل إخوتي»، إلى آخر هذا القول؛ فالذي أخذ قوة بولس الرسول ينبغي أن يعمل أعمال بولس. لأن بولس الرسول كان يتدبر بتوجيه إلهي لكي ينفع العالم كله. وقد كان يشهد عن نفسه أنه لم يفعل شيئاً بمشيئته، ويقول: «إن الضرورة موضوعة عليَّ، فويل لي إن كنت لا أكرز». كما أن اختيار بولس لم يكن يستهدف توبته، بل لكي ينادي للمسكونة، ولهذا أُعطي قوة عظيمة.

٥٤ ــ إذاً، فلنحب السكوت يا إخوة، لكي يموت العالم من قلوبنا. ولنتذكر الموت على الدوام، وبمثل هذا الفكر نقترب إلى الله بقلوبنا وبكل قوتنا. ولنرذل هذا العالم الباطل، ولتُحتقر كل شهوته في أعيننا، وهكذا بهذا الجسد المريض البطّال، فلنصبر على المداومة في السكوت، لكي نستحق النعيم مع الذين يسكنون المغاير وشقوق الأرض، مترجين ظهور المسيح رَبِّنَا، منتظرين مجيئه من السماء. الذي له مع أبيه والرُّوح الْقُدُس المجد والسجود والعظمة إلى أبد الآبدين آمين.

المَيْمَر الْخَامِس

الأسباب التي من أجلها يترك اللّه التجارب تأتي على محبيه.

١ – محبة الله: هي مكنوزة في قلوب القديسين الذين يحتملون الشدائد من أجل اسمه ولا يبتعدون عن الأمور التي يحبها الله، وتقتني قلوبهم دالة لينظروا إليه بلا حجاب ويطلبون منه طلباتهم بثقة.

٢ – عظيمة هي قوة الصلاة التي تكون بنقاوة. ولأجل هذا يتخلى الله عن قديسيه لكي يُجرَّبوا من الأعداء، وأيضاً لكي بالتجربة يعرفون معونته وكم هو مُعتنٍ بهم؛ وكيف أنه هو مخلصهم من شدائدهم. وأيضاً لكي يقتنوا من التجارب حكمة، فلا يكونوا أميِّين بعد، ولا يُحرمون من معرفة ودُربة الناحيتين. ولكي يقتنوا من التجربة معرفة كل شيء، ولا يُسخر بهم من الشياطين. فلو أنه كان يدرِّبهم بالصلاح فقط، لظلُّوا ناقصين من الدُرْبَة في الأمور الأخرى (أي الشدائد)، ولصاروا أميِّين عديمي الخبرة في القتال.

٣ – وإن قلنا إن الله يدبرهم بدون معرفتهم من غير تدريب، فكأننا نقول إنه يريدهم أن يكونوا مثل الثيران والحمير لا حرية لهم في شيء. فالإنسان لا تكون له مذاقة الخير ما لم يُجرَّب أولاً بالبلايا وتصادفه الشرور ويُجرَّب بها بمعرفة وحرية كأنها خاصة له.

٤ – كم هي حلوة المعرفة التي تكون من الدُربة ومن خبرة الأعمال، وما أعظم القوة التي تعطيها التجربة لمن اختبر الأشياء واقتنى هذه المعرفة في نفسه. فهذه (الأمور) هي معروفة عند الذين قد اختبروا المعونة التي تكون لهم منها، وأحسُّوا بمقدار ضعف الطبيعة البشرية ومعونة القوة الإلهية. عند ذلك يعرفون أن الله في البدء قد حجب قوته عنهم، حين دخلوا في ضعف طبيعتنا وواجهوا صعوبة البلايا وشرور العدو، وعلموا أي قتال لهم وأية طبيعة يلبسونها؛ فيعرفون كيف أنهم محفوظون بالقوة الإلهية كلما تقدموا وكلما ارتفعوا؛ وكيف أنهم يضعفون ويخزون أمَّام كل وجع إذا ابتعدت عنهم القوة الإلهية. ومن هذا كله يقتنون الاتضاع، ويتقدمون إلى الله ويرجون معونته ويدومون في الصلاة. فمن أين كان لهم أن يقتنوا هذا كله لولا أنهم أخذوا تجربةً واختباراً من البلايا الكثيرة التي تركها الله لكي يُجربوا بها؟ كما قيل: « وَلِئَلاَّ أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ الإِعْلاَنَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ، مَلاَكَ الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلاَّ أَرْتَفِعَ. ٢كو١٢: ٧». ولكن الإنسان يقتني من البلايا إيماناً ثابتاً بتجربته ومعرفته للمعونة الإلهية، ويختبر ذلك دفعات كثيرة. وهنا – وبغير شك – يقتني ثقة وشجاعة من التأديب.

٥ – التجارب والبلايا تنفع لكل إنسان. فإذا كانت التجارب نافعة لبولس الرسول، فليستدَّ إذاً كلُّ فم، وليقف العالم كله مبهوتاً أمَّام الله. فالحريصون يُجرَّبون لكي يزيدوا على غناهم، والمتهاونون لكي يُحفظوا (من الأمور المؤذية)، والنيام لكي يستيقظوا والبعيدون لكي يقتربوا من الله، والخواص فلكي – بالدالة – يرتفعوا (ويدخلوا بيته).

٦ – كل ابن لا يقبل التأديب، لا يستحق غنى أبيه لكي يتقوى به. ولهذا فإن الله يؤدِّب ويُضنِك أولاً، وبعد ذلك يُظهر عطاياه. المجد لذلك الغَمْر (أي السخيّ) الذي بالعقاقير الحادة يقدمنا لنعمة الصحة.

٧ – ليس هناك أحد لا يشتد عليه وقت التأديب. ولا أحد إذا شرب من مرارة سم البلايا لا يتوجع. ولكننا بدون هذه لا يمكن أن نقتني لنا مزاجاً صحيحاً (أي بِنْيةٍ قوية). وعندما نصبر لا يكون الصبر منا، لأنه مِن أين للوعاء المصنوع من الطين أن يصمد لمجرى الماء، ما لم تشدده النار الإلهية وتقوّيه. إننا إذا انحنينا وطلبنا باتضاع وبشوق ومثابرة وتجلُّد، نأخذ كل شيء بالمسيح يسوع رَبِّنَا. آمين.

المَيْمَر السَّادِس

على أنَّه لا ينبغي من غير ضرورة أكيدة أن نسأل أو نشتهي أن تكون على أيدينا أعجوبة ظاهرة أو استعلان (عمل الآيات).

١ – إن كان الرب قريباً بمعونته من القديسين كل حين، لكنه لا يُظهر قوته علانية بأعمال أو بآية ظاهرة من غير ضرورة، لئلا تكون معونته بلا طعم وتسبب لنا ضرراً. وهذا يعمله، لأنه يهتم بهم ويريد أن يُظهر لهم أن اهتمامه الخفي بهم لا يبطل ولا لساعة وَاحِدة. إلا أنه في كل شيء يتركهم لكي يُظهروا حرصهم حسب قوتهم ويتعبوا في الصلاة. أمَّا إن واجهوا أمراً عسيراً لا تقوى عليه معرفتهم، وضعفوا وحاروا فيه بسبب عدم كفاية طبيعتهم، حينئذ يتممه الله لهم كعظيم قوته كما يجب وحسبما يعرف أنه (نافع) لمعونتهم. وهو كمقتدر يقويهم خفيةً مقابل شدة التجربة. وبالمعرفة التي يعطيهم إياها يبدد كثرة العوائق التي تسببها ضوائقهم، وينبههم بنظر التاؤريا للتمجيد، لتكون لهم منفعة من الناحيتين. أمَّا إن كان الأمر يستلزم إظهار فعله، فهو عند ذلك ولأجل الضرورة يُتمم هذا أيضاً.

٢ – إن تدابير الله حكيمة جداً، وهو يفعل بحسب الحاجة والضرورة وليس كيفما اتفق. والذي من غير ضرورة يتجاسر على هذا، أو يطلب من الله ويشتهي أن يعمل على يديه العجائب والآيات، هذا يكون قد جرَّبه الشيطان المستهزئ وضحك عليه، ولسبب الافتخار قد ضعف ضميره. لأنه ينبغي أن نسأل معونة الله وقت الشدة؛ ولا ينبغي أن نجربه من غير ضرورة، لأن هذا الأمر هو خطير، والذي يشتهي هذا لا يكون صدِّيقاً بالحقيقة.

٣ – إن جميع القديسين كان الرب يفعل (الآيات) على أيديهم بغير إرادتهم. أمَّا الإنسان الذي يشتهي هذا فهو قد سقط من الاحتراس، وقد زلَّ بعيداً عن معرفة الحق. وإذا أُعطي طلبته كمتجاسر على رَبِّنَا، يجد (الشرير) عليه علة لكي يجتذبه إلى ما هو أعظم من هذا. والصديقون بالحقيقة يفكرون في أنفسهم على الدوام أنهم غير مستحقين أن ينظروا إلى الله. وهم لا يشتهون (نوال هذه المواهب)، ليس هذا فحسب بل حتى إن أُعطيت لهم لا يسرُّون بها، ليس فقط قدام الناس، بل بينهم وبين أنفسهم. حتى أن أحد الآباء القديسين لأجل نقاوته أُعطي موهبة أن يسبق ويعرف مَن يريد أن يأتي إليه، ولكنه طلب من الله وسأل من آخرين أن يطلبوا معه أن يأخذ تلك الموهبة منه. وإن كان أحد القديسين قد رضي (بالموهبة) فذلك كان أمَّا عن ضرورة أو عن بساطة. أمَّا الباقون فالغمز الإلهي هو الذي كان يتحرك فيهم وليس كيفما اتفق.

٤ – هوذا القدِّيس أمونيوس[١٩] عندما مضى لزيارة القدِّيس الْعَظِيم أنطونيوس وتاه عن الطريق، تأمل ماذا قال وماذا فعل الله معه. [فهو لم يقل: «يا الله خذني وضعني حيث يوجد

[١٩] مُعلِّم القانون أو رئيس الإكليريكيين وأب رهبنة زوج والقديس.

أنطونيوس»، ولو أنه كان بإمكانه أن يصنع مثل هذا الأمر لسبب قربه من الله، ومن أجل الضرورة. لأنه يقال إن الذين يضلون الطريق في تلك البرية كانوا يتعرضون للخطر. لكنه على الرغم من كل ذلك لم يقل هذا للرب، بل قال له فقط هذه الكلمة: «يا رب، لا تترك خليقتك تهلك». أرأيت الاتضاع؟ أفهمت حكمة الآباء الحقيقية؟! ولأن الله كان يعرف أن ذلك الإنسان كان صادقاً، وأنه لم يتحرك بالعظمة، أظهر له عنايته بالقديسين، وعمل معه كما تستحق عظمته. وهكذا مع أن آمون لم يطلب، إلا أن الله عمل ما هو مناسب. لأن آمون رقد لينام، وحين قام رأى كما لو كانت يد إنسان في السماء فوق رأسه تُظهر له طريقه إلى أن وقفت فوق مغارة الطوباوي أنطونيوس. أرأيت عناية الله بخدامه؟ لقد كان ممكناً ألا يدعه يضل طريقه، لكن الله أراد أن يعرِّف آمون كم هو معتنٍ به، ولهذا تركه يتوه وبعد ذلك أظهر له الطريق بكل وضوح، وليس بواسطة إنسان، بل على يد ملاك وفي الهواء].

٥ – وأذكر أيضاً القديس مقاريوس حينما كان سائراً في الطريق إلى الأسقيط حاملاً زنابيله على كتفه، [أنه لما تعب وأعيى فجلس لأنه لم يقوَ على المشي أكثر من ذلك. إلا أنه لم يطلب من الله أن يصنع معه شيئاً بقوته لكي يريحه، لكنه ألقى نفسه بين يدي الله قائلاً: «يا رب، أنت تعرف أنه ما بقيت فيَّ قوة»! فللوقت حملته قوة إلهية هو وزنابيله ووضعته في الموضع الذي كان ماضياً إليه]!

٦ – إن الصدِّيقين الحقيقيين يفكرون هكذا على الدوام أنهم لا يستحقون الله، وبهذه كانوا يُختبرون أنهم أبرارٌ حقيقيون، إذ كانوا يحسبون أنفسهم حقيرين وغير أهلٍّ أن يهتم بهم. وكانوا يعترفون بذلك في السر والعلن، لأنهم كانوا يحصلون على الحكمة من الرُّوح لكي لا يتهاونوا بما هو واجب عليهم، ولا يكفُّوا عن العمل كل حين لأن زمن الرَّاحَة محفوظ لهم في العالم الجديد. والذين يحظون بسكنى الله فيهم لا يشتهون أن يكونوا في راحةٍ هنا، وهم لا يطلبون التخلص من الأحزان، وإن كانوا يُعطَون العزاء الرُّوحاني من وقت لآخر في الخفاء.

٧ – عدم التكاسل: الفضيلة ليس من شأنها أن الإنسان إذا بلغ إليها يتحرر من الاهتمام والتعب؛ بل إن مَن صار مسكناً للروح فإنه منه وبواسطته يُخضع نفسه ويغصبها على الدوام، حتى وإن كانت لديه وسيلة أخرى ليعمل بها كل شيء بالرَّاحَة. لأن هذه هي إرادة الرُّوح الذي يسكن فيهم أن لا يجلب لهم الرَّاحَة أو يعوِّدهم على الاسترخاء، بل أن يستحثهم على احتمال التعب والبلايا الدائمة، ويعلِّمهم التيقظ، وينشِّطهم بالأتعاب ويقرِّبهم من الحكمة. لأن هذه هي إرادة الرُّوح أن يعيش محبُّوه بالتعب والجهاد.

٨ – أمَّا الذين يتدبرون بالرَّاحَة، فليس فيهم روح الله بل روح الشيطان. [فروح الله لا يُسرُّ بالرَّاحَات الجسدية، وعيشة السعة غير مقبولة عنده، بل حياة الجهاد واحتمال المشقات. أمَّا الشيطان بعكس ذلك فهو يُسرُّ بالحياة المليئة بالمسرات حسب شهادة رَبِّنَا. والرُّوح الْقُدُس يبتعد عن الرَّاحَات، كقول الآباء القديسين: «إن الرُّوح الْقُدُس لا يسكن في جسدٍ محبٍ للراحة». فالرُّوح الْقُدُس يبحث عن الذين يضيِّقون على أنفسهم بأتعاب أجسادهم واستعداد

نفوسهم، فيجعل سكناه معهم، ويعلِّمهم كيف يعيشون زمن هذه الحياة القصيرة. فالذين يحبون الله يُمضون حياتهم وسط كل أنواع الأحزان. ذلك لأن جميع الصديقين قد طرحوا هذا العالم من نفوسهم بواسطة المشقات المتنوعة، وكلما ازدادوا قرباً من الله كلما ازدادت أتعابهم].

٩ – قال أحد محبي الإله إنه كان يعاهد نفسه أن يموت كل يوم. بهذا يتميز أبناء الله عن غيرهم، أنهم يعيشون في البلايا بينما يبتهج أهل العالم بالرَّاحَة والنعيم. إن الله لا يُسرُّ بأن يرتاح مُحبُّوه بالجسد، ولكن مشيئته – ماداموا في هذه الحياة – أن يكونوا في هذا العالم في الأحزان والضنك والشقاء والتعب، عراة ومحتاجين ومرضى ومهانين ومرذولين ومنكسري القلوب ومُتعَبين بالجسد، منبوذين من أصدقائهم، عقولهم ممتلئة حزناً، غرباء في منظرهم عن كل العالم، غرباء عن كل الناس في جلوسهم، متوحدين منفردين بعيدين عن نظر هذا العالم، متخلين عن كل فرح العالم وهمّه. هم يبكون والعالم يضحك، هم يعبسون والعالم يبتهج، هم يصومون والعالم يتنعم. بالنهار يتعبون وبالليل يستعدون للجهاد، وهم في الشدة والتعب. منهم مَن هم في الضيقة باختيارهم، ومنهم آخرون في ضيقات من أوجاعهم، ومنهم مُضطَهدون من الناس بالعنف والضوائق من الناس ومن الشياطين، وما يشبه ذلك. آخرون طُردوا، وغيرهم طافوا وهم لابسون لباس المسكنة. [والمذهل أكثر من ذلك أنه رغم وجودهم في مثل هذه المشقات، لم يتوقعوا النجاة أو الحصول على الرَّاحَة كقول الرسول المغبوط. المجد لذاك الذي يعطيهم الأكاليل، الذي بآلام الصليب هيأ هذا الطريق بعد أن احتمل مثل هذه الأمور في نفسه لكيما يمكن لقديسيه أن يتبعوا خطواته]!

١٠ – هؤلاء هم الذين تمت فيهم كلمة الرب: «في العالم تكونون في الشدائد يو١٦: ٣٣»، ولكن في هذا سيكون لكم فرح بي. [وبقوة هذا الفرح أُعطيت للقديسين عزيمة للصبر في الاحتمال. لَيْتَ الله الذي بقوته يجعل القديسين يثابرون على هذه الجهادات ولا يضعف رجاؤهم، أن يثبِّت إيمانه فينا جميعاً! آمين. لأنه حقاً بدون الأحزان لا تكون هناك حياة]. إن الله يعلم [أن الإنسان الوَاحِد لا يمكن أن يُوجد فيه نوعان من الفرح بآن وَاحِد؛ وأنه] لن يمكن أن يكونوا في راحة الجسد ويثبتوا في محبته، لهذا مَنعهم من راحة الجسد وملذاته. إن حب المسيح يقهر كل ميتات جسدية؛ هو يظهر فينا قوة حبه!

آمين.

المَيْمَر السَّابع

في غيرة الرُّوح والعقل وما أكرب الطريق

١ – ماذا تقول أيُّها الإنسان؟ أتريد أنْ تصعد إلى السماء وتنال ذلك الملكوت، وتحظى بالشركة مع الله، وتدرك تلك الطوبى والنياح الذي للقدِّيسين والخلطة مع الملائكة، وتقتني تلك الحياة التي لا تفنى، بينما أنت دائماً تسأل إنْ كان في هذا الطريق تعبٌ أم لا؟!

٢ – يا للعجب! إن الذين يشتهون أمور هذا العالم الباطل يعبرون البحار الهائلة، ويسلكون الطرق الصعبة، ولا يرون في هذا تعباً أو حزناً في سبيل الوصول إلى الشيء الذي يحبونه، أمَّا نحن فنسأل ونفتش في كل شيء عن الرَّاحَة! ولكننا إذا أخذنا في عقولنا طريق الصليب نفتش عنه ونفكر فيه، فأي حزن وأية شدة لا تكون هينة وخفيفة علينا؟

٣ – فإن كان لا أحد أبداً يأخذ الغلبة في القتال أو يُكلَّل أو يحصل على شهوة إرادته ما لم يقنع نفسه أن يصبر حتى الموت، هكذا ليس أحد يُمدح في الأمور الإلهية أو يقوِّم شيئاً من الفضائل والخدمات، ما لم تكن قد هانت عليه الأتعاب والأحزان أولاً، وهو يُبعد عن نفسه كل شيء يحركه للنياح الذي تتولد منه الغفلة أو الاسترخاء، والخوف الذي يكون منه العجز في كل وقت.

٤ – غيرة العقل: إذا غار العقل لأجل الفضيلة، فالحواس الظاهرة أعني النظر والسمع والشم والمذاقة واللمس، لا تقدر أن تغلب حدَّ قوة الطبيعة، ذلك بسبب مضادة شدة أعمال (الفضيلة) المعاندة لها. فإذا كان الإنسان يتدبر بالغضب، حينئذ تصبح حياة هذا الجسد هيِّنةً عليه. وإذا كان القلب يتدبر بالغيرة الرُّوحانية، فإن الجسد عند ذلك لا تقوى عليه الأحزان ولا ترعبه المفزعات، ولكن العقل يجعل الجسد صامداً مقابل كل البلايا، ويصيِّره مثل حجر المغناطيس (أو في صلابة الماس).

٥ – علينا إذاً أن نَغِير غيرة الرُّوح من أجل مسرة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، ونبعد عنا كل غفلة تُولِّد في العقل التهاون. لأن الغيرة تلد في النفس القوة والشجاعة وحرص الجسد. فأيَّة قوة تكون للشياطين إذا حرَّكت النفس غيرتها الطبيعية مقابلهم؟ ويقال إيضاً إن الغيرة تلد النشاط، ويصير في النفس قوة غير فَزِعَة. فإذا حرَّكت الغيرة قوتها للعمل، ثبتت فيها أكاليل المجاهدين التي يقبلها الشهداء في صبرهم من كلا الناحيتين، أي من الغيرة والنشاط اللذين يُولدان من قوة الغضب الطبيعي الجيد، ويجعلان الإنسان بلا حزن ولا وجع وسط شدة العذاب.

٦ – الإتضاع يجلب المواهب: إذا صنعتَ فضيلةً ولم تحسَّ بمذاقة منفعتها، فلا تتعجب من ذلك؛ لأنه ما لم يتضع الإنسان فلن يأخذ مكافأة عمله. والمواهب لا تُعطى للعمل بل للاتضاع، فالذي لا يحفظ الاتضاع يفقد العمل.

٧ – الفضيلة: هي (أمُّ) الأحزان، ومن الأحزان يتولد الاتضاع. (وبسبب) الاتضاع تُعطى النعمة والمواهب، ليس لأجل الفضيلة ولا لأجل الأحزان التي تكون بسببها، بل لأجل الاتضاع الذي يتولد منها. فإن فُقد الاتضاع ولم يوجد، فالحزن والفضيلة يصبحان باطليْن.

٨ – إنَّ عمل الفضيلة: هو حفظ وصايا الرب. وفضل العمل ونفعه هو تقانة الفكر أي هيَّته (هيئته الجيدة) التي تُقام من الاتضاع والحرص. وإن كانت قوة أعمال الفضيلة ناقصة، فهذه (أي الاتضاع والحرص) تُقبل عوضاً عنها. فالمسيح لا يطلب أعمال الفضائل فقط، بل وتقانة النفس التي من أجلها قد وُضعت الوصايا للناطقين. أمَّا الجسد فهو يعمل باليمين وبالشمال على السواء؛ أمَّا العقل فهو يتبرر أو يخطئ ويزلّ بالتغيير حسبما يشاء. وثمة مَن يقتني الحياة من خلال الأشياء الشمالية بحكمة تُعطى له من الله، وثمة مَن يصنع الخطايا بوجه (أي تحت شكل) الإلهيات.

٩ – الزلاَّت التي تعرض للمتحفظين في شيء أو آخر هي حرَّاس لعمل البر، [وهي تحدث بسماح من الله وتكون باعثاً للاتضاع. والاتضاع يصون عمل الأشخاص العظماء، ليس فقط بحفظهم من العظمة، بل وأيضاً بتذليل نفوسهم عن طريق تذكُّر سقطاتهم، وبهذا أيضاً ينالون مكافأة أعظم].

١٠ – الموهبة بدون تجارب تهلك الذين يقبلونها. فإذا عملتَ شيئاً من الصلاح قدام الله وأعطاك موهبةً، فاطلب منه أن يعطيك معرفةً كيف ينبغي أن تتدبر فيها باتضاع، أو أن يقيم لك حافظاً، أو أن يأخذها منك لئلا تكون سبب هلاك لك؛ لأنه ليس بإمكان أحد أن يحفظ الغنى بدون أذية.

١١ – الفضيلة والأحزان: النفس التي تهتم بعمل الصلاح والفضيلة وهي تعيش حقاً بخوف الله، لا تقدر أن تكون بلا حزن في كل يوم، لأن الأحزان مشتبكة بعمل الفضيلة. فالذي يهرب من الأحزان يبتعد لا محالة من الفضيلة. فإن اشتقت للفضيلة سلِّم نفسك لكل حزن، لأن الأحزان تُولِّد التواضع.

١٢ – إن الله لا يريد أن تكون النفس خاليةً من الاهتمام، فالذي يريد أن يكون بلا اهتمام يوجد خارجاً عن إرادة الله بفكره. وأعني بالاهتمام ليس الاهتمام من أجل الجسدانيات، بل الهمّ من أجل تلك الضوائق التي تلصق بالفضيلة. فإلى أن نصل إلى المعرفة الحقيقية التي هي استعلان الأسرار، لا نقدر أن ندنو من الاتضاع إلا بالتجارب. أمَّا الذي يوجد بلا أحزان في الفضيلة، فإن باب الكبرياء ينفتح له.

١٣ – مَن يشتهي إذاً أن يكون بلا حزن في فكره؟ إن العقل لا يقدر أن يثبت في الاتضاع من غير أسباب المحقرة والمَقْت، ولا أن يداوم التضرع والمفاوضة مع الله بنقاوة دون اتضاع. فأولاً يبتعد الإنسان بعقله من الاهتمام بما هو واجب عليه، وبعد ذلك يدنو إليه شيطان العظمة. فإن دام الإنسان في الكبرياء، حينئذ يبتعد عنه الملاك المعتني به، الذي إذا كان قريباً منه حرَّك

فيه الاهتمام بالبر، وإذا خالفه الإنسان ابتعد عنه، حينئذ يقترب منه المحّال (أي الشيطان)، فلا يبقى فيه إدراك اهتمام وَاحِد بالبر.

١٤ – يقول الحكيم: « قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ الموهبة الإتضاع أم١٦». وبقدر الكبرياء الظاهرة في النفس، هكذا تكون السقطة والأدب الذي من الله.

١٥ – [إن الله لا يتخلَّى عن الإنسان بسبب نوعٍ وَاحِد من الخطية، ولا يهجره تماماً حتى يصير مكروهاً لديه، إلا متى رأى عقله قد استسلم تماماً للكبرياء والتجديف. والأَولى (أي الكبرياء) هي علَّة الثَّانِية. والذين يبتعدون بفكرهم عن سبيل الاتضاع، وبهذا يعدمون معونة الله، أمَّا أنهم يسقطون في الفسق، أو في التجديف على الأمور الإلهية، أو يتعرضون لأذية عقلية. فالذين يتعظمون بسيرة الفضيلة يسقطون بالأكثر في الفسق المخزي، أمَّا الذين يتعظمون بمعرفتهم ورجاحة عقلهم، فيسقطون في التجديف على أمور الله، أو في جنون العقل].

١٦ – الكبرياء ليست هي الفكر العابر في العقل، ولا هي انغلاب الفكر منها قليلاً، بل هي تلك التي تدوم في الإنسان. الأَولى يتبعها ندامة؛ أمَّا الثَّانِية، إذا أحبها الإنسان فلا تدعه يعرف الندامة. [لأنه حتى ولو أحسَّ بالندم فهو لا يثبت فيه. والأمر المحزن ليس في أن يعمل الإنسان خطيئة أو يتكلم رديئاً ضد الله، بل أن يستمر في مثل هذا الشر. فالحالة الأَولى تدل على ضعف الطبيعة، أمَّا الثَّانِية (أي الاستمرار في الشر) فهي تدل على توقح الإرادة.

١٧ – كما أن الإنسان يختل عقله ويُضرب بالجنون بسبب مديح الناس، وذلك عندما يرغب أن يقوم بأعمال تفوق قامته لكي يرتفع شأنه ويزداد مديح الناس له ويعتقدون أنه قريب من الله، هكذا كثيرون قد تفوقوا في تدابيرهم واغتنوا بمواهب الله، وحظوا بكرامة عمل الآيات؛ ولكن هؤلاء الناس أنفسهم الذين كانوا في كرامة مثل هذه، تبدَّل حالهم فيما بعد واستحقوا ضربة من الله لأنهم لم يستطيعوا أن يحتملوا كثرة المواهب التي قبلوها فانقادوا للكبرياء. ولهذا رفضهم الله مثل النفايات، وصاروا غرباء عن المرتبة العالية التي كانوا فيها. وكثيرون آخرون ممن كانوا هادئين وذوي عقل راجح وكلام موزون، وكانت سيرتهم طاهرة ويُحسدون لأجل معرفتهم، صاروا موضع فزع ورعبة للذين عرفوهم، ومنظراً محزناً يدعو لرثاء كل من رآهم.

١٨ – لهذا ارفع صوتك إلى الله بنوح عظيم طالباً الاتضاع. املأ فمك بالبكاء وانثر التراب على رأسك؛ لا تقم عن التراب ولا ترفع رأسك من الأرض إلى أن يرأف الله بك ويجعلك تعبر من هذه الحياة، أو يظهر رحمته لك ويعطيك الاتضاع. لا تهدأ من البكاء حتى تتحقق في نفسك أنك قد حظيت به، لئلا تجد نفسك فجأة كوَاحِد من أولئك الناس. ولكن حتى عندما تقتني الاتضاع، لا ترفع عينيك وتنظر إلى السماء أو تملأ نظرك من مشاهدة الناس، أو تعطي قلبك راحة من الخوف والتضرع. لعلك بهذه الطريقة تُحفظ من الشرور التي أعدها لنا الشياطين بطول طريق مسيرتنا، هذا الطريق الضيق المملوء بالظلال والمحفوف بالعثرات، الذي يتحدى معرفتنا بسبب عجز الطبيعة البشرية عن إدراكه (أي إدراك خفايا الطريق).

١٩ – أمَّا إذا دخلت في ظلام التجارب بسبب تراجع هذا النور (أي الاتضاع)، وسُمح لك بأن تُمتحن بظلمة النفس الكثيفة التي يختبرها أولئك الذين يتخلى الله عنهم ويسلِّمهم لأيدي الشياطين، حينئذ سترى أنك تقف أمَّامهم كطفل لا يعرف أين يذهب. وتصير معرفتك كلها في اضطراب مثل صبي صغير، أمَّا عقلك الذي كان راسخاً في الله، ودقة معرفتك ورجاحة فكرك، فسوف تغرق كلها في محيط من الشكوك. وبأمرٍ وَاحِد فقط يمكنك أن تقهرهم (أي الشياطين): بالاتضاع؛ فحالما تمسك به تبطل كل قوتهم.

٢٠ – إن كنتَ تنطلق في الطريق بسهولة وبالفرح في الله، فلا تعتبر هذه علامة على صحة نفسك؛ لكن العلامة (الأكيدة) هي أن لا تصرف الاهتماماَت الأرضية عقلك عن حب الله والقريب، ولا تعطلك ارتباطات بأشخاص معينين عن الاهتمام برَبِّنَا، الذي له المجد وليحفظنا بقربهِ وبالحديث معه!

المَيْمَر الثامن

في الغيارات الكثيرة التي تحصل للعقل، وتُختبر بالصلاة (الأفكار وتميزها)

١ – إن اختيار عمل الصلاح هو من المشيئة الصالحة للإنسان المشتاق إليها؛ أمَّا تكميل الاختيار الجيد فهو يكون من الله، والإنسان محتاج إلى معونته. ولهذا نحن نَقْرِنُ بالشهوة الجيدة المتحركة فينا صلاةً دائمة، طالبين ليس معونته فقط، بل وأيضاً لكي نستطيع أن نميِّز إن كان ذلك حسب مرضاته أم لا. لأنه ليست كل شهوة حسنة تقع في القلب هي من الله، بل التي تكون للمنفعة فقط. لأنه ثمة صلاح يشتاق إليه الإنسان ولا ينفعه ولا يساعده الله على إتمامه. لأن مثل هذه الشهوة قد تعرض من الشيطان ويُظن أنها نافعة وهي في الحقيقة ليست لائقة بمنزلة ذلك الإنسان، والشيطان يتحايل أن يؤذيه بها ويلح عليه أن يعملها مع أنه لا يكون قد وصل أو بلغ إلى مقدارها، أو تكون غريبة عن شكله (أي طقسه)، أو أن الوقت لا يوافق على فعلها أو الحركة بها، أو أنه يكون غير كفؤ لذلك الأمر أمَّا بالمعرفة أو بالجسد، أو أن الزمان لا يساعدنا على ذلك، وهو (أي الشيطان) يتحايل لكي يزعجه أو يؤذي جسده أو يخفي له فخّاً في فكره.

٢ – ولهذا قلتُ إنه ينبغي لنا أن نقرن تلك الشهوة الجيدة المتحركة فينا بصَلَوَات دائمة. وليقل كل وَاحِد منا: «لتكن يا رب مشيئتك فيَّ أن أتمم هذا العمل الصالح الذي اشتهيتُ أن أعمله. فإن كان يوافق إرادتك سهِّل عليَّ عمله، لأنني بدون معونتك، وخلواً من موهبة تؤتني إياها لا يمكنني أن أعمله. فإن كلا الأمرين هما من عندك، أعني الإرادة والعمل؛ لأني لن أقتنع أن أفعل هذه الرغبة المتحركة فيَّ بدون نعمتك».

٣ – هذه هي عادة المشتاق إلى الحسنات بإفراز العقل، أن يعمل بها مع مداومة الصلاة لأجلها. وبواسطة الصلاة يقبل قوة تعينه على فعلها؛ ويقبل أيضاً حكمة ليميز بين الخير والشر، والحق من ضده. لأن الصلاح يتم تمييزه بالصَلَوَات الكثيرة والعمل والاحتراس والاشتياق الدائم والدموع المتصلة والتمسكن والمعاضدة السمائية، وبالأكثر إذا كانت هناك أفكار عظمة تضاده (أي تضاد الصلاح)، لأن هذه تمنع معونة الله عنا. أمَّا نحن فلنبطل هذه الأفكار بالصلاة.

+ تميز الأفكار:

٤ – سؤال: كيف أقدر أن أعرف الفكر الذي من الله والفكر الذي من الطبع والفكر الذي من الشياطين؟

جواب: يا أخي سؤالك هذا عظيم المقدار. إن لم تنظف العين الداخلية بعرقٍ كثير لا تتمكن من التمييز بين هذه الأفكار، لئلا تهزأ بها الشياطين وتضل بتصديقهم، لأنهم يغيرون أشكال الأمور كما يريدون لا سيما عند ذوي المعرفة بصنائعهم. لذلك اقطع مشيئتك لله، وقل له في سائر الأمور: «ليس كما أشاء أنا، بل كما تشاء أنت»، وهو يعمل معك كمشيئته. توكل على الرب

وهو يعطيك طلبات قلبك.

٥ – فاسمع إذاً يا ابني الفرق بين الأفكار التي سلف ذكرها: إذا عرض للفكر شيء بحسب مشيئة الله، ووجدتَ في الأمر فرحاً وحزناً يضاده، فاعلم أنه من الله وجاهد لكي تثبت كما ثبت بولس القائل: «إني أُخضِع جسدي وأستعبده لئلا أكون قد أنذرتُ وكرزتُ لقوم آخرين وأكون أنا متهاوناً وغير محنَّك»،(بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ، حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا.١كو٩: ٢٧) ثم تمم مشيئة الله.

٦ – فإن عرض لك أي فكر طبيعي فاجحده؛ وجحوده هو أن تترك عنك المشيئات الطبيعية. فبهذا قد افتخر بطرس الرسول قائلاً: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك». فما الذي تركه وهو لم يكن غنياً؟ إنه لم يترك إلا مشيئاته الطبيعية وهي التي تكلم عنها. فكما أن المشيئات الطبيعية لا تثبت مع المائت إجمالاً، هكذا لا تثبت أيضاً مع مَن أمَّات جسده موتاً روحانياً. فإن كنت قد مُتَّ بالجسد، فكيف تحيا فيك الأشياء الطبيعية. وأنت إن لم تكن بعد من ذوي المقدار الرُّوحاني، بل كنت صبياً وطفلاً في عقلك، فتذللْ لمعلمك ليؤدبك برحمته، ولا تعمل شيئاً بدون مشورة ولو ظننته جيداً. لأن ضياء الشياطين يصير فيما بعد ظلمة.

٧ – أمَّا أفكار الشياطين فهي أولاً مُخْبِطة (أي مشكِّكة) ومملوءة حزناً، تجذب وتسرق الإنسان خفياً (وتشدّه) إلى الوراء. وهي تلبس لباس الحملان؛ أي أنهم يحركون أفكاراً صالحة وهم من داخل ذئاب خاطفة. ومثال ذلك أنهم يخطفون ويخدعون القلوب البسيطة بالظاهر من صلاح أقوالهم. فمهما سمعته أو عرض بفكرك ونظرتَ فيه خُباطاً (أي تشككاً) ولو مقدار شعرة وتحرك ذلك في قلبك، فاعلم أنه من الشياطين.

المَيْمَر التاسع

على العمل في الوحدة، وعلى سهر الليل، وعلى إفرازات كثيرة في أنواع الأعمال

وأنه ينبغي ألا يكون عملنا محدوداً بالعدد، بل بحرية وتمييز كبنين لله مع أبيهم يعملون باشتياق المحبة. وكم هو عظيم عمل السهر أكثر من كل الأعمال الأخرى؛ وما هي الأشياء التي يهتم بها الذين يختارون هذا العمل؛ وكيف يتدبرون فيه؛ وما هي المواهب التي تُعطى لهم من الله، وأي حروب ومجاهدات تكون مقابلهم من رئيس هذا العالم.

١ – إنَّ فاتحة طريق الحياة هو تلاوة العقل دائماً بأقوال الله، وأن يتصرف الإنسان بالمسكنة. والارتواء من هذا يساعد على التمام، أعني أن الارتواء من أقوال الله يساعد في تثقيف المسكنة، وتحصيل عدم القنية يفرِّغك لتثقيف الهذيذ في كلام الله. والمعونة التي من هذين الأمرين ترفع الإنسان بسرعة وسهولة إلى الصعود وتكميل برج الفضائل كلها.

٢ – تمسَّك بالإيمان والتواضع، وفي هذين بالرحمة والمساعدة، فتجد في قلبك كلأمًّا مقولاً بالله مع حافظك الملازم لك سراً وعلانية. فإن كنت تريد أن تقتني هذا، فتمسَّك منذ البداية بالبساطة والسذاجة، وسِرْ أمَّام الله ببساطة لا بمعرفة. لأن الإيمان يتبع البساطة، أمَّا التنسيق في الأقوال وتنويعها فتتبعها الكبرياء.

٣ – فإذا وقفت مصلياً أمَّام الله، كن في فكرك مثل نملة وكالذباب الذي على الأرض وكالعَلَقة؛ وكصبي يناغي (أباه)، هكذا كن أمَّام الله، لتؤهَّل لتلك العناية الأبوية التي تكون من الآباء على الأطفال من البنين. فقد قيل «إن الرب يحفظ الأطفال»، وليس المقصود هؤلاء الأطفال الصغار السِّن أو الجسم، بل حكماء العالم الذين يتركون معرفتهم ويستندون على تلك الحكمة (السمائية) التي فيها الكفاية، والصائرون أطفالاً بمشيئتهم.

٤ – إذا شئتَ الوقوف للصلاة في خدمة السهر، فاعمل بمعونة الله ما أقوله لك: اِجْثُ بركبتيك ثم قِفْ، ولا تسارع إلى خدمتك، بل بعد صلاتك أولاً اِرشم على قلبك وعلى أعضائك برشم الصليب المحيي. ثم قف صامتاً لحظة إلى أن تستريح حواسك وتسكن حركاتك، وبعد ذلك ارفع نظرك الجواني إلى الرب، واطلب منه بحزنٍ أن يقوِّي ضعفك بمشيئته؛ وحرِّك لسانك بالتزمير وحركات قلبك، وقل بهدوء بالصلاة القلبية:

+ صلاة:

٥ – يا ربي وإلهي مدبر خليقته العارف بضعف طبيعتنا وآلامنا وقساوة عدوِّنا. أنت يا رب نجِّني من شرِّهِ، لأن قوته شديدة وطبيعتنا منحلَّة (أي ضعيفة) وقوتنا متراخية. أنت الآن أيُّها الصالح العارف بضعفنا وحامل عجزنا، خلصني من سجس الأفكار ومن صعوبة الآلام، وأهلني لهذه الخدمة المقدسة لئلا تَفْسد مذاقتها بآلامي وأُوجد أمَّامك متجاسراً.

٦ – [بهذه الأفكار ينفتح قلبك في الحال بواسطة النعمة، وتسكب عيناك الدموع في بداية صلاتك، وتتنقى أفكارك بتذكار الرب، وتقتني نفسك هدوءاً وطهارة مضيئة. وفيما يكون عقلك منجمعاً ومنيراً تبدأ خدمتك بدون اضطراب، وتكملها بفرح حتى نهايتها].

٧ – وينبغي لنا أن نسير في خدمتنا بحريَّة تامة بعيداً عن كل فكر مُقلق ورأي جاهل (صبياني). وإن رأينا أنه ليس لدينا فسحة من الوقت، (وقد يدركنا الصباح قبل أن نكمل خدمتنا)، فلنترك باختيارنا مزمورين أو ثلاثة مما جرت به العادة حتى لا ندع القلق يبيد حلاوة خدمتنا ونكدِّر (خدمة) مَزَامِير الساعة الأَولى (أي باكر).

٨ – وإن أُخِذْتَ وأنت في خدمتك ووسوس لك فكرٌ (يقول: أسرع قليلاً فالخدمة تطول)، فبادر بالتخلص منه سريعاً؛ واحذر أن تسجِّس نفسك. وإن تسجَّستَ وتخبَّطتَ في ذلك فارجعْ في الحال إلى الوراء مرميت أو أكثر، وكل استيخن يقوم بفن الصلاة (أي في هيئة صلاة) اتلوه دفعاتٍ كثيرة بفهم. وإن عاد وأزعجك القلق أو اشتد عليك، فاترك المَزَامِير واجثُ مصلياً، وقل: أنا لا أريد أن أعدَّ (أي أردد) ألفاظاً، لكني أريد أن أصلي إلى الله المبارك. لأني أريد أن أصل إلى المنزل (السمائي) في كل طريق أسلك فيه، فإن ذلك الشعب الذي صاغ العجل في البرية داروا أربعين سنة تائهين يصعدون جبالاً ويهبطون أودية، ولم ينظروا أرض الميعاد ولا من بعيد.

٩ – لا تتكل على علأمَّات الاستيخونات إن لم يتبعها تيقظ كثير وخشوع دائم في الصلاة والقراءة كل ساعة بصبر. إن شئت التمتع بحلاوة قراءة المَزَامِير في خدمتك، واقتناء الإحساس بأقوال الرُّوح التي تتلوها، دع عنك بالجملة الكمية، ولا تقف عند معرفة عددها، واترك عنك الاستظهار الذي جرت به العادة. وافهم ما أقوله لك: ليكن عقلك منتبهاً في هذيذها إلى أن تستيقظ النفس بفهمها الْعَظِيم بالانذهال من السياسة (أي التَدْبِير الإلهي). ومن ههنا تتحرك أمَّا لتمجيد الله أو لحزنٍ نافع. ومهما كان في الصلاة فخُذه على نفسك، فإذا أتقن فكرك ذلك، فإن القلق يوسع له مكاناً ويمضي.

١٠ – لأن سكون النفس لا يكون في خدمة العبودية؛ وفي حرية الأَوَّلاد وعتقهم لا تجد بلبلة الأفكار بالقلق. لأن من شأن البلبلة انزعاج حلاوة الفهم والمعرفة وتتبع المعاني. فهي كالعَلَقة التي تشرب حياة الجسد بامتصاص دم أعضائه. فالبلبلة هي مركب الشيطان، لأن الشيطان من شأنه دائماً – شبيهاً بماسك اللعنة – أن يركب العقل، ويأخذ كثرة الآلام التي له ويدخل إلى النفس الشقية ويغرِّقها في بحر البلبلة.

١١ – ميِّز هذا الأمر وتفهَّمه: أن لا تكون في استيخونات صَلَوَاتك وتلاوتك كأنك تأخذ الأقوال من غيرك، لئلا تتعجرف في العمل وتفتر من الهذيذ الدائم وتعبر وتجوز بالكلية من التخشع والفرح الكامن فيه. ولكن فلتكن الأقوال كأنها منك، لكي تقول كلام طلبتك بتفهمٍ وتخشع، وبإفرازٍ وفهمٍ حقيقي.

١٢ – في الصلاة الطويلة غير المبهرجة والمجتمعة (أي بفكر منجمع)، لا تحسب تركك المَزَامِير أنه بَطَالة. أَحبب أيضاً الميطانيات في صلاتك أكثر من الهذيذ، وإذا أُعطيتَ يداً فيها (أي أخذت معونة) فهي تكفي (لتكميل الصلاة) عوضاً عن الخدمة. وإذا أُعطيتَ موهبة الدموع في الخدمة نفسها، لا تظن أن تلك اللذة التي تنبع منها أنها بَطَالة. لأن موهبة الدموع هي كمال الصلاة.

١٣ – في الوقت الذي يكون فيه فكرك مشتتاً، اثبت في القراءة أكثر من الصلاة. ولكن ليس كل كِتَاب نافع كما قيل. أحبب الصمت والسكون أكثر كثيراً من الأعمال؛ والزم القراءة إن أمكنك أكثر من الوقوف لأنها ينبوع الصلاة النقية.

١٤ – لا تتهاون أبداً، بل تيقظ مقابل العجرفة. لأن أصل السيرة وعِرقها هو التلاوة والقراءة. اِعرفْ هذا أيضاً: أن الأعمال الجسدانية تنفع أكثر من الذكصولوجية المبهرجة. والحزن الفكري يزيد (نفعاً) على تعب الجسد.

١٥ – واعرفْ هذا أيضاً أيُّها المُفرِز وتفكَّر فيه، أن آباءنا لم يعطونا قانون الصمت والسكون والسكنى مع أنفسنا لكي نعمل الأعمال الزائدة، بل لنتصل بالله بلا قلق؛ لأن مشاركة الكثيرين تنشِّط (الجسد) أكثر. في ذلك اليوم لن يحاكمنا الله ويديننا لأجل (ترك) المَزَامِير، ولا من أجل إبطال الصلاة، ولكن لأنه بتركنا ذلك يصير للشياطين مدخل لأنفسنا.

١٦ – الرَّاهِبُ في صلاته كل ساعة ينتظر الميناء التي يشد إليها سفينته، ومنها يتزود ويصوِّب طريقه إلى جزيرة أخرى. فهكذا هي سيرة الرَّاهِبُ في هذه الحياة، كسيرة أهل العالم الذين يسيرون من جزيرة إلى جزيرة، أعني من معرفة إلى معرفة.

١٧ – ذوو الرَّاحَة لا يحل فيهم روح الله، بل روح الشيطان. احذر أن يضعف جسمك كثيراً، لئلا يقوى عليك الملل وتبرد نفسك من مذاقة عملها. يليق بك أن تَزِنْ عملك.

١٨ – إن كنت تتعب من الوقوف أثناء سهرك من أجل كثرته، ويوسوس لك الفكر متحايلاً كالحية ويقول: «لم تعد لك قوة للوقوف»، فقل له: «أنا أجلس ولكني لن أنام، وإن فرغت من المَزَامِير يسكت لساني ويتفاوض عقلي بالصلاة والحديث مع الله». لأن اليقظة جيدة على كل حال أكثر من النوم.

١٩ – ليس الوقوف فقط أو تلاوة المَزَامِير هو العمل، بل الانتباه. فهناك مَن يعبر الليل كله بالتزمير، وآخر بضرب الميطانيات والصلاة الحزينة والتمرغ على الأرض، وآخر بالبكاء والدموع والنوح على خطاياه. وقد قيل عن أحد آبائنا إنه مكث أربعين سنة كانت صلاته فيها كلمة وَاحِدة: «أنا أخطأت كإنسان، اغفر لي أنت كإله». وكانوا يسمعونه يتلو هذه العبارة بحزن وبكاء بغير فتور، وكانت له عوض الخدمة ليلاً ونهاراً. وآخر كان يخدم المَزَامِير من العشاء، ثم يقضي بقية الليل بالمعانيت والألحان. وآخر بالقراءة [وبين كل كاتسما وأخرى ينير نفسه وينعشها بالقراءة في الكِتَاب المقدس إلى أن يستريح]. وآخر ما كان يحني ركبتيه [ولا

حتى في الصلاة التي تنتهي بالتمجيد «المجد لك»، مع أن هذه هي العادة أثناء خدمة السهر؛ بل كان يقف منتصباً ويمضي الليل كله في صلاة وَاحِدة متصلة] مثل ذلك الذي كان يحارب معه شيطان الزنا. [ولم يكن الشيطان يكف عن استعمال كل الحيل معه، ولهذا كان يلجأ إلى سهر الليل، ووضع على نفسه هذا القانون ألا يحني ركبتيه على الإطلاق، بل يقف طول الليل دون أن يغمض عينيه أو يحني ركبتيه حتى الصباح].

٢٠ – [هذه هي الأنواع المختلفة لعمل السهر التي خلع بها المجاهدون إنسانهم العتيق الفاسد بجسب شهوات الغرور ولبسوا المسيح وخلصوا. بهذه الأعمال المتنوعة التي كان القديسون يتدبرون بها بحكمةٍ حُسبوا أهلاً لعَجَب الاستعلان الإلهي المذهل الذي يفوق عقل الإنسان.

٢١ – بينما كان المجاهدون يبتهجون بمثل هذه الأشياء المتنوعة وما أشبهها أثناء سهراتهم، كانوا يعبرون ساعات الليل الطويلة كلها بلا ملل. فقد كانت نفوسهم تنتشي وتفرح وتنسى لباس اللحم المنسوج من الآلام الذي كانوا يتدثرونه، ومن فرط البهجة وتَوثُّب قلوبهم (من شدة الفرح) لم يكن ذِكر النوم يخطر على فكرهم، لأنهم كانوا يظنون أنهم قد خلعوا الجسد، أو أنهم قد بلغوا تلك الحالة التي ستكون لهم بعد القيامة. ومن أجل شدة فرحهم كانوا أحياناً يتركون الترتيل ويقعون على وجوههم بسبب فيض الفرح الذي كان يغمر نفوسهم. وكان الليل عندهم مثل النهار، وحلول الظلمة مثل شروق الشمس، بسبب الرجاء الذي كان يبهج قلوبهم ويسكرهم بهذيذه، وبسبب لهيب عقولهم الذي كان يشتعل بتذكار الخيرات العتيدة. وفيما كان لسانهم ينغِّم ألحان القيثارة الرُّوحية، كانت أذهانهم تهتم بالأمور التي تخصها؛ فكانت أحياناً تنشغل بمعاني الآيات، وأحياناً أخرى تطرد عنها فكراً غريباً لاح لها من بُعد؛ وأحياناً، عندما يدرك التعب النفس يتحول الذهن إلى مضمون قراءات النهار. لأن الأخبار التي كان يجمعها من هذا المصدر ويحفظها في خزانته، كانت تزوِّده بالأفهام في مثل تلك الأوقات، فيجد فيها لذةً كثيرة حتى أنه لم يكن يوجد هناك أي مكان للأفكار الغريبة على الإطلاق. ولكن كان الذهن ينجذب مرة أخرى بسرعة إلى الاهتمام بالصلاة والترتيل، لئلا يتعوق في هذه الأفهام – ولو أن التأمل فيها يكون نافعاً – فيبتعد عن الحديث مع الله وعن نور الرؤية الإلهية التي اعتاد الذهن أن يحظى بها من الصلاة المنجمعة، حيث يتكلم مع الله فقط بأفكار وقورة في خفاء القلب. وهكذا كانوا يقضون حياتهم كلها في هذه الأشياء، كل وَاحِد منهم يرضي ربَّه بأعماله حسب قامته وقدرته وبكل قوة إرادته.

٢٢ – ولكن إذا أراد الإنسان أن يعطي جسده راحة قَلِيلَة، فلْيَتوقف ويجلس ووجهه متجهاً نحو الشرق. ومهما كان – فطالما هو جالس – فينبغي ألا يسمح لعقله أن يكون متكاسلاً، بل عليه أن يتمعن ويفكر ويتأمل في عظمة هذا التَدْبِير (أي السهر): ما يشتمل عليه، وكم أن عمله متعبٌ، وما هي عظمة إكليله، وما أبهى ثماره؛ ومقدار اليقظة التي يتطلبها؛ وكيف كان القدماء يمارسونه، وأي الأشياء كانوا يُحسبون أهلاً لها بتكميلهم جهاداتهم؛ وكيف أُنتشل هو نفسه برحمة يسوع من العالم، مع أنه كان يشقى في الأعمال الباطلة التي كانت نهايتها البعد عن الله

وقبول الخزي من أجل خطاياه؛ وكيف دُعي لهذه الخدمة الملائكية التي رجاؤها هو رجاء حقيقي، وفرحها لا يغلبه حزن، ويقينها ثابت لا يهتز أبداً. ومهما كان على الإنسان أن يتعب كثيراً، فإن تعبه يكون خفيفاً بالمقارنة بما سوف يحظى به في النهاية (كعربون لتلك الخيرات) حتى تبتهج نفسه.

٢٣ – والآن، بينما هو يتأمل في قلبه هذه الأفكار وما يشبهها، يَدْهَش. إنه يُطلِق ذهنه على مركبة روحية، ويجعله يأخذ أجنحة ويسرِّح فكره لَيْتَأمل الآباء القديسين على مَرِّ العصور، أولئك الذين قد اقتنى ميراثهم له. فيتأمل كيف استطاع كل وَاحِد منهم بطرق متنوعة أن يكمِّل هذه الفلاحة الرُّوحية، وكيف هجروا العالم الآهِل بالسكان، بل والجنس البشري نفسه، وانسحبوا من مشاغل العالم ومن حياة مملوءة بالضوضاء. ويفكر كيف ارتحلوا وأخفوا نفوسهم في الجبال والمغاير والأمَّاكن المنعزلة، لأنهم رأوا أن هذا التَدْبِير (أي سهر الليل) لا يمكن حفظه جيداً وسط الناس بسبب كثرة المعوقات. ثم يتأمل أيضاً كيف صار أولئك الرجال أمواتاً وهم مازالوا أحياء، من أجل الحياة التي هي في الله، تائهين في البراري المقفرة وبين القمم الصخرية كالذين فقدوا طريقهم، وهم لم يكن (مجد) العالم كله يقارن بمجد أي وَاحِد منهم. فالبعض منهم سكن على التلال الوعرة، والبعض على منحدرات الجبال أو في الممرات العميقة. وآخرون أقاموا في كهوف وحُفر الأرض كالذين يحفرون في الأرض ليضعوا فخاخاً للثعالب. وآخرون سكنوا في المقابر، وآخرون على قمم الجبال. البعض منهم أقام أكواخاً صغيرة في البرية وأمضوا فيها بقية أيام حياتهم. والبعض بنوا صوامع صغيرة من الحجارة على أعالي الجبال، أي قلالي صغيرة وأقاموا هناك في مسرَّة لا تدانيها مسرَّة ساكني قصور الملوك. ولم يكن لهم أي اهتمام من جهة احتياجات معيشتهم، بل كان كل همّهم كيف يمكنهم أن يرضوا الله ويكملوا جهادهم بنهاية سعيدة.

٢٤ – وأية سيرة كان هؤلاء القديسون يتدبرون بها في هذه الأمَّاكن؟ هل كانوا يحيون في الجسد، أم أن حياتهم قد سمت فوق اللحم والدم؟ هل أدركهم صغر النفس في قفر تلك البرية المنعزلة؟ هل انهارت قدرتهم على الاحتمال بصبر من طول زمان جهادهم؟ وهل ضعفت أجسادهم خلال تلك السنين الطويلة بسبب عوز الاحتياجات الضرورية التي تتطلبها الطبيعة؟ كيف حُفظت الحياة البشرية فيهم؟ وإلى جانب هذا كله، أية جهادات وأتعاب ومشقات احتملوها؟ كيف واجهوا بشجاعة وهدوء الحروب المختلفة التي كانت تثيرها الأرواح الشريرة ضدهم؟ كيف لم يتكاسلوا في أعمالهم الشاقة المتعبة خلال حياتهم كلها وحتى نهاية أيامهم؟ كيف لم تدرك الكآبة أرواحهم بسبب العزلة المطلقة، وقد انقطعوا تماماً من كل التعزيات المرئية؟ هل توجد حقاً كل هذه القوة في الطبيعة البشرية؟ كيف حفظتهم القوة الإلهية دون أن يلحقهم أي ضرر خلال كل هذه التجارب المتنوعة، وكيف زوَّدت كل وَاحِد منهم بكل أنواع المعونات بحسب تنوع أمَّاكن سكناهم، وهكذا كانت توفِّر لكل وَاحِد الحاجة التي تعوزه؟

٢٥ – لقد كان البعض منهم تعوله الطيور؛ فقد قال أحدهم: «أُنظر هوذا لي الآن ستون سنة يأتيني هذا الطائر بنصف خبزة كل يوم»! وآخرون كانوا يقتاتون من ثمر شجرة أو نخلة بطريقة تفوق الطبيعة، كما قال أحدهم، وأعني ذلك الأسقف الذي لجأ إلى البرية لَيْتَوب: «لي الآن في هذه البرية تسعة وأربعون سنة، وقد وهبني الله الحياة بواسطة هذه النخلة». وهكذا كان الحال مع ذلك القديس الذي عاش في الخطية ستة أشهر، ثم دخل إلى البرية الداخلية لكي يقدم توبة عن خطيته، وحين آلمته معدته بشدة جاء إليه ملاك وشفاه. والبعض كانت تعولهم الوحوش مثل ذلك الطوباوي الذي كان يسكن في كهف في برية سدوم. والبعض ممن كانوا يسكنون البرية القريبة من مناطق السكن، كان بعض الناس يأتون إليهم بحاجتهم، مثل ذلك الرجل الباسل الذي رآه سيرابيون، ومثل البار مرتينيانوس الذي كان يسكن في جزيرة منعزلة وكان أحد التجار يزوره مرتين كل سنة.

٢٦ – وفي المناطق النائية، حيث لم تكن هناك وسيلة من أي نوع لتوفير احتياجاتهم، كان ملاك يفتقدهم، كما قيل عن الطوباوي أبيلاّس الذي كان يسكن في مغارة صغيرة على منحدر أحد الجبال. هذا كان عمله تقديم الصلاة لله أثناء النهار، ومائة (صلاة) أثناء الليل. ودون اهتمام من ناحيته، كان طعامه يأتيه في البرية بواسطة ملاك. وكان يلبس ثوباً بدون أكمام وعلى رأسه قلنسوة صغيرة، وقد بقيت عليه طوال إقامته في البرية دون أن تبلى. أرأيت إذاً كيف يهتم الله بخدامه من كل جهة؟

٢٧ – وقد كان البعض يقتاتون بجذور بعض النباتات، وآخرون بالأعشاب التي تنمو من نفسها؛ وآخرون بالبقول الصغيرة التي تحتاج إلى نقعها في الماء، وبالخضروات المجففة التي كانت تزرع بعناية؛ وآخرون بثمار الأشجار. والبعض كانت عروق الكرفس ونضيض الماء (أي القليل منه) تكفي لحاجة هذه الحياة العابرة، لحفظ حيوية الجسد. وأمَّا بالنسبة لما تبقى، فقد كانت النعمة تحرك فيهم التذكارات النافعة في أوقات الحاجة لتعزية أولئك الرجال.

٢٨ – فحين يتأمل الإنسان في ذهنه هذه الأشياء وما أشبهها، يصير كالثمل كما لو كان من خمرٍ جيدة، فينسى ذاته. ولكنه يعود إلى نفسه مرة أخرى ويتعجب، كيف أنه خلال مسيرته هذه في الصحراء وتَقابله مع القديسين، لم يعرض له أي شيء ضار (أي طياشة أو فكر شرير) بالمرة. ويبدو له أنه كان في ذلك الوقت يعيش فعلاً مع أولئك القديسين وأنه قد رآهم بوضوح. ولأجل تذكّره حياة القديسين التي يتصورها باسترجاع سيرهم وتأمله فيهم، يختفي القنوط منذ الآن فصاعداً، ويهرب الكسل، وتتقوى رجلاه، ويفارق النعاس أجفانه، ويتشجع فكره، ويُطرد الخوف، وتنهزم الطياشة؛ وينجمع العقل ويشتعل في القلب لهيب الغيرة المتوقدة، ويملك في النفس فرحٌ يفوق الوصف. كما أن الدموع الحلوة تبلل خدَّيه، والبهجة الرُّوحية تُسكر الذهن، وتمتلئ النفس بتعزيات لا ينطق بها، ويسند الرجاء القلب ويجعله شجاعاً. حينئذ يتهيأ لذلك الإنسان أثناء السهر المملوء خيرات أنه يسكن السماء. فبهذه الأساليب وما أشبهها يتقدم الذين يجتهدون في السهر بمعرفة. لأنه ليس شيء يجعل العقل مُضيئاً وفَرحاً، ويطرد الأفكار

الشريرة، ويبهج النفس مثل الأسهار المتواصلة.

٢٩ – فمن أجل هذا السبب بالذات كان الآباء القديسون يداومون على السهر ويلتزمون بقانون سهر الليالي طوال أيام حياتهم. ولكنهم كانوا يعملون ذلك بالأكثر، لأنهم سمعوا مخلصنا في مواضع كثيرة يحثنا باهتمام شديد ويقول: «اسهروا إذاً وصلوا في كل حين»، و«اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، وأيضاً «صلوا ولا تملوا» وغير ذلك. وكما لو كان تعليمه لنا بالكلام لا يكفي، أعطانا هو نفسه مثالاً بشخصه، إذ كان في كل حين يكرم عمل الصلاة فوق كل شيء؛ وهكذا كان يعتزل دائماً وحده للصلاة، وليس بلا ترتيب، ولكنه كان يختار الليل لهذا العمل، كما اختار البرية كمكان مناسب. وبهذا علَّمنا أن ننسحب بعيداً عن كل جلبة وضوضاء، حتى يمكننا أن نصلي في هدوء كما يليق.

٣٠ – إن جميع الاستعلانات التي أعطيت للقديسين بخصوص أمورٍ شتى، سواء كانت لأجل نموهم في الحكمة أو لتعليم الناس، كانت في معظمها تأتيهم أثناء الليل وفي وقت الصلاة. وهكذا فإن آباءنا قد استلموا هذا التعليم السامي بخصوص الصلاة من مخلصنا نفسه، وتمسكوا بالسهر في الصلاة كوصية الرسل. ثم فضَّلوا السكون والابتعاد عن كل الأشياء، لكي يمكنهم أن يمكثوا بلا انقطاع بالقرب من الله بواسطة صلاتهم المستمرة. فقد لجأوا إلى البرية ليس هرباً من العوائق التي تعطل خدمتهم المتصلة فحسب، بل ولئلا يعرض لهم أي شيء غريب من الخارج ويعكِّر صفاء استنارة عقلهم، ويزعج أسهارهم البهجة التي هي نور للنفس. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يقللون من الطعام، لئلا يتسحب البخار الصاعد من البطن الممتلئة، فيغطي الذهن ويعكِّر هدوءه وتمييزه، ويحرمه من البهجة الرُّوحية التي تضفيها عليه الصلاة. وباختصار فقد كانوا دائماً ومن كل جهة متوقدين بالغيرة، حتى يمكنهم أن يتحدثوا مع الله بغير حجاب، ويكون عقلهم – على قدر المستطاع – خالياً من أي شيء مهما كان.

٣١ – ولأن الشيطان أيضاً كان يعلم بالتأكيد أن كل هذه الخيرات موضوعة في هذا العمل العجيب (أي سهر الليل) الذي هو بالنسبة لجسم الفضائل كلها كالنفس بالنسبة لجميع الأعضاء، فهو (أي الشيطان) يحسده أكثر من جميع التدابير الأخرى. وهذا الأمر يعرفه أيضاً جميع الناس بالخبرة. لأنه ليس شيء آخر عند الإنسان يُغضب الشيطان ويشعله بمثل تلك الغيرة ويجعله يرصد كل استعداداته ليحاربه، مثل سهر الليل، سواء كان هذا الإنسان متوحداً أو في حياة الشركة أو كان علمانياً. فالشيطان لا يطيق أن يمنع نفسه من الظهور، بل يظهر نفسه علانية في حرب مكشوفة ضد السهر (أو الإنسان) دون أن يستخدم وسائل وسيطة. وإن كان لا يعرف مطلقاً كل المواهب التي يحظى بها الذين يحفظون السهر في الخفاء، إلا أنه يحسدهم بوجه خاص على وقوفهم المتعفف، وعلى مقاومتهم النوم من خلال تيقظهم في التماجيد والتراتيل، وعلى صَلَوَاتهم التي يقدمونها مع الركوع ورفع الأيدي، ومع الميطانيات والانطراح على الأرض، وعلى التضرعات القلبية طوال الليل.

٣٢ – وهو يظل (أي الشيطان) يشتعل أيضاً بالغيرة بالأكثر بالنسبة للآخرين الذين كانوا يرقدون على الحصر وهم شبه مائتين، وهو يهزأ بهم كما يشاء بالمناظر الحقيرة والأحلام الدنسة، ويعمد الليل كله أن يجعلهم يتمرغون كما في الوحل بواسطة الخيالات التي تحصل لهم أثناء نومهم الثقيل من امتلاء بطونهم، ثم انتبهوا وصاروا منذ الآن فصاعداً يشكِّلون في أنفسهم حالة اليقظة التي تختص بالقيامة. وهو يرى أنهم بالرغم من كونهم ما زالوا منحصرين في حجاب اللحم، وهم في كل ساعة في مواجهة أمواج الموت، وتحدُّهم حياة خاضعة لسلطان هواء هذا العالم، إلا أنهم ما زالوا يظهرون في طبيعتهم المائتة شكل الحياة العتيدة.

٣٣ – الصلاة التي تُقدَّم بالليل تمتلك قوةً أكثر من تلك التي تُقدم بالنهار. لهذا كان جميع الصديقين يصلُّون أثناء الليل، وهم يقاومون ثقل الجسد وحلاوة النوم ويغصبون الطبيعة الجسدية. وهذا هو ما يقوله النبي أيضاً فيما كان يتنهد في صلاته الحارة: «تعبتُ في تنهدي، كل ليلة أعوِّم سريري وبدموعي أبلّ فراشي»، وأيضاً يقول: «نهضتُ في نصف الليل لأحمدك على أحكام عدلك». وفي أي توسل يتقدمون به لله من أجل أي أمر عاجل كانوا يسلِّحون أنفسهم بصلاة سهر الليل، فكانوا ينالون استجابة طلبتهم في الحال.

٣٤ – ليس شيء يرتعب منه الشيطان كثيراً مثل الصلاة التي تُقدم أثناء سهر الليل. حتى ولو كانت مقدمة مع الطياشة، فهي لا ترجع فارغة، إلا إذا كان الأمر الذي يُصلَّى من أجله غير مناسب. ولهذا فإن الشيطان يقاوم الذين يداومون سهر الليل ويبتليهم بحرب شديدة لكي يمنعهم – إن أمكن – من هذا العمل. إلا أن الذين يقاومونه ولو قليلاً، وقد تذوقوا مواهب الله التي تُعطى لهم أثناء السهر، واختبروا في نفوسهم عظمة معونة الله القريبة منهم في كل حين، هم يزدرون به تماماً وبكل حيله. ولهذا فإن طغمة المتوحدين، أكثر من جماعة الكنيسة بأكملها – يشنُّون الحرب ضده بجهاد الصلاة والسهر، وذلك لكونهم غير مرتبطين بالمرئيات، ومن ناحية أخرى لأنهم يعيشون في سكون دائم. فلأنهم قد تحرروا من كثرة الاهتمامات، لم يعد بمقدور الشيطان أن يحوِّل أفكارهم عن تذكر الله، أو يعوقهم عن التضرعات المستمرة في جهادهم مقابله. ولهذا فإنهم منذ بداية سيرتهم وحتى شيخوختهم لم يهملوا عمل السهر بأي حال من الأحوال، لكنهم عرفوا جيداً عمل الوقوف طوال الليل، وقد علِمنا ذلك من السِيَر المكتوبة عن كل وَاحِد منهم.

٣٥ – والقديس أثناسيوس في السيرة التي كتبها عن القديس أنطونيوس الذي كان قدوة ومثالاً للمتوحدين، يقول إنه كان يداوم على الأسهار الطويلة جداً حتى أنه كان يقضي الجزء الأكبر من الليل دون نوم. وكان ذلك في الحقيقة هو السبب الذي من أجله أثار الشيطان حربه الأَولى على هذا الرجل الْعَظِيم، وقد حدث هذا فيما كان القديس ما زال في صباه. ونحن نجد هذا الأمر مذكوراً في كثير من السِيَر التي كتبت عنه أنه لم يهمل أبداً خدمة السهر جميع أيام حياته، وحتى في الأوقات التي كان يمضي فيها لزيارة الآخرين. ومثال ذلك أنه عندما ذهب ليرى الشيخ الطوباوي أنبا بولا، بعد أن أكلا الخبز الذي أحضره لهما الطائر، وقفا معاً في

الصلاة طول الليل.

٣٦ – فمَن مِن المتوحدين حتى وإن امتلك جميع الفضائل، وأهمل هذا العمل لا يعتبر متكاسلاً بدونه؟ إن سهر الليل هو نور الفكر، وبواسطته يسمو الفهم وينجمع العقل ويطير الذهن لكي يشخص في الأمور الرُّوحية، ويتشبب بالصلاة ويضيء بالبهاء. فمِن خلال السهر يُمنح الإنسان عربون خيرات الحياة العتيدة، وبركات تلك المواهب التي تشير الأسفار الإلهية إلى أسرارها.

٣٧ – ولهذا لم يهمل آباؤنا هذا العمل منذ بداية تَدْبِيرهم وحتى إدراكهم قامة الكمال. وهكذا كانوا رغم تقدمهم في الأيام، حيث كانوا يجدون مشقة في الوقوف على أقدامهم، كانوا لا يسمحون للكسل أن يغلبهم، ولا يسمحون لأنفسهم بإراحة أجسادهم بالنوم قليلاً، حتى لا يعطلهم ذلك عن السهر الدائم أثناء الليل. وهذا قد علمناه أيضاً من الأخبار التي ذُكرت عن ذلك المثال الكامل للفضيلة ولكافة المآثر الرُّوحية، أعني به القديس أرسانيوس.

٣٨ – فهذا الرجل الشهير الذي من الأسقيط (أي أنبا أرسانيوس) كان قد انقطع تماماً عن ملاقاة جميع الناس، ونقل مسكنه إلى مكان بعيد في البرية، أبعد حتى من كافة الإخوة، وأعطى نفسه تماماً لعمل السهر العجيب. وقد كان وقوفه في السهر يتميز عن جميع الآباء في زمانه، وسيرته تحمل الشهادة على ذلك. فقد قيل عنه إنه كان في (ليلة) يوم الرب، يجعل الشمس خلفه ويبسط يديه نحو السماء إلى أن تشرق الشمس في وجهه. وفي موضع آخر قيل إنه كان يقضي الليل كله ساهراً وكان إذا ابتغى اقتراب الصباح حتى يمكنه أن يأخذ راحة قَلِيلَة لجسده من أجل الطبيعة، كان يصارع مع النوم ويقول: «اذهب عني أيُّها العبد السوء»! كان هذا وهو شيخ مُسن، حيث قيل عنه إنه انحنى من الشيخوخة.

٣٩ – ولكي نتعرف بوضوح على صبره وثباته في السهر، فلنسمع عنه قصة أخرى: كيف أنه كان يتحمل شيخوخته وضعفه بشجاعة عندما كان في التسعين من عمره. فقد دعا اثنين من تلاميذه، وكانا كلاهما من الآباء الكبار، وقال لهما: «إن الشياطين تحاربني ولا أعلم إن كانوا يسرقونني بالنوم، فجاهدا معي هذه الليلة في السهر وراقباني لتريا إن كان النوم يغلبني أثناء السهر». ولهذا جلسا الوَاحِد عن يمينه والآخر عن يساره من المساء حتى الصباح، وقالا: «لقد نمنا واستيقظنا ولم نلحظ أنه نام على الإطلاق، ولكن حين لاح النور سمعنا لثلاث مرات صوت تنفسه من أنفه، ولكننا لم نعلم إن كان قد فعل ذلك عمداً حتى نظن أنه نام أم أن النعاس قد غلبه حقيقة. ثم وقف وقال لنا: «هل كنتُ نائماً»؟ فقلنا له: «لا نعلم يا أبانا فقد كنا نحن أنفسنا نائمين».

٤٠ – لقد كان روّاد مسيرتنا يجدون بهجتهم في أعمال سهر الليل الحلوة. فما هي تلك اللذة التي كان يجدها أرسانيوس ذلك البطل المجاهد في هذه الشدة التي كان يعذب بها جسده؟ فمِن الواضح أنه لم يكن يصبر على احتمال كل هذه الأتعاب باطلاً. هوذا نحن نرى أنه ليس فقط إنسانه الداخلي قد أضاء بالنور الذي من العلاء وملأه بالفرح، بل وأيضاً إنسانه الخارجي،

الذي رغم فساده وكثافة طبيعته، نراه قد تسربل بالمجد الذي سوف يكتسي به القديسون في نهاية العالم، بسبب التجلي الذي يدرك الطبيعة الداخلية للإنسان بجملتها.

٤١ – وكيف علمنا ذلك؟ أتى مرة أحد الإخوة إلى قلاية الْأَنْبَا أرسانيوس وتطلع من الطاقة فرأى الشيخ واقفاً وجسده كله مثل نار مشتعلة. فقد كان ذلك الأخ الذي ذهب ليرى الشيخ مستحقاً لهذه الرؤية، لأنه لم يكن من الإخوة المبتدئين بل كان من الكبار. ولأن القديس أرسانيوس كان مشهوراً بسبب سمو تَدْبِيره، كان جميع الآباء يتوقون لرؤيته، خصوصاً أنهم كانوا نادراً ما يرونه، حتى أن أنبا مقاريوس قال له: «لماذا تهرب منا»؟ ولهذا كان الغرباء يأتون إلى الأسقيط ورغبتهم الأَولى أن يروه وينالوا بركته. والآن – لكي نكمِّل قصتنا – حين قرع ذلك الأخ الباب، خرج إليه الشيخ ولاحظ أنه كان مندهشاً من أمرٍ رآه، فقال له: «هل كنتَ هنا تقرع لوقتٍ طويل؟ ألعلك رأيت شيئاً؟ فأجابه الأخ: كلا؟ وهكذا صرفه الشيخ».

٤٢ – وماذا أقول عن القديس باخوميوس؟ فهذا الإنسان كان مساوياً لأرسانيوس، وقائداً بين البقية، متميزاً في جهاداته، متفوقاً في يقظة سهره. لقد أمضى زمناً كبيراً في الجهاد مع الشياطين مثل مصارع بارز على مثال القديس أنطونيوس. ولأن شياطين كثيرة كانت تواجهه أثناء الليل، أي في خدمة السهر، طلب من الله أن يرفع عنه النوم ليلاً ونهاراً حتى لا ينام قط ويكون قادراً أن يذلَّ قوة العدو كالمكتوب: «لا أرجع حتى أفنيهم» (مز١٧: ٣٨)، فلا قوة لهم مقابل الإيمان بالله. وقد اُستجيبت طلبته لوقت معين. ولأنه كان نقي القلب، حيث كان نظر نفسه قد تنقى بسهر الليل وبالسكون والصلاة، رأى الله غير المرئي كما في مرآة.

٤٣ – هذه هي ثمار السهر، وهذه هي البركات التي حظي بها مَن داوموا على السهر، وهذه هي الأكاليل التي تُعطى للمجاهدين فيه. فإذا اشتقتَ، يا أخي، أن تكون أيضاً شريكاً لهؤلاء القديسين ووارثاً لسيرتهم، فعليك أن تتمسك بالسكون ولا تيأس حتى يمكنك أن تداوم على الصلاة بلا انقطاع. احتمل أتعابها لكيما تقتني بركاتها. وإن كان جسدك ينتابه الضعف لأسباب متنوعة ويكفّ عن عمله، ولم تعد قادراً على تكميل أعمال السكون كالعادة، ثم يعود ضميرك فيبكتك وتصغر نفسك وتغتم لذلك، (لأن هذا هو في الحقيقة عمل الضمير الذي لا ينقطع أن ينتهرنا ويوبخنا بشدة، وبالأخص إذا كان قصدنا مستقيماً)، فلا تقل: «الويل لي أنا الكسلان! إن الأفضل لي أن أخرج من القلاية، وأقوم بأي عمل من أعمال الفضيلة أياً كان ولا يكون لي صيت كاذب أنني من أصحاب السكوت والوحدة بينما أنا متكاسل في خدمتها. نعم، فأنا متوحد وأعيش منفرداً، ولكني بعيد تماماً عن الأعمال التي تخص السكون»! لا تقل هذا على الإطلاق. لأن إِلهُنَا الطيب يحمل ثقل ضعفنا، وهو لا يطلب من الإنسان شيئاً أكثر مما عنده، ويعرف أكثر منا مقدار قوتنا.

٤٤ – فجاهد طالما بَقِيَتْ فيك قوة. وحتى لو كنتَ غير قادر أن تفعل شيئاً على الإطلاق، كن فَرِحاً واقبل بَطَالة السكون وكن صابراً. ولكن اعلم أنك إذا خرجت من السكون، فحتى ذلك الفكر الذي يحرك ضميرك ويقرعه من أجل كسلك، لن يبقى معك. وبعكس ذلك سوف تعرض لك

أحداث كثيرة بسبب طياشة وتهاون حواسك؛ وسوف تفسد عليك حتى تلك الأعمال الفاضلة التي كنتَ قد أكملتها من قبل، لأن نعمة السكون قد أُخذت منك، وسوف تقع في تجارب متنوعة وتعرض لك النكبات بغير إرادتك.

٤٥ – ولكن، حتى وإن وقعتَ في التجارب فلا تيأس. فلست تجد تاجراً يسافر وسط أهوال البحار والطرق الصعبة ولا يتعرض للخسارات؛ ولا فلاحاً يجمع حصاده بغير تعب ومشقة؛ كذلك ليس هناك مصارع لا يتلقى الضربات واللكمات حتى ولو كان سينتصر في النهاية. هكذا هو الحال في أمور الله، ومع التجار الذين يسافرون في هذا الطريق غير المرئي، إذ أنه هنا أيضاً توجد المنافع والخسارات معاً، الجروح والنصرة. فإن ضُربتَ فلا ترجع إلى خلف؛ واغفر لي].

٤٦ – إن وجدتَ أنك قد استرحت من انزعاج الآلام، فلا تثق بنفسك، لأن العدو قد أخفى لك كميناً. فتوقع بعد الرَّاحَة انزعاجاً كثيراً واضطراباً. لأنك إن عبرت منازل الفضائل جميعها، فلن تصادف راحة من تعبك، ولن تجد فسحة من القتالات إلى أن تبلغ محل اتضاع العقل.

٤٧ – ما أحسن قول الرسول: «إن الله يرحم من يشاء ويقسو على من يشاء، لأنه مَن الذي يقوم أمَّام وجهه أو يضاد مشيئته». لأنه ربما في بعض الأوقات يمنح الله عطاياه مجاناً، وفي أوقات أخرى يطلب منا الأعمال والطهارة وبعد ذلك يُعطي. وأحياناً لا يعطي في هذه الدنيا ولا بعد الأعمال ولا بعد الطهارة، ولكنه يحفظ لنا عطيته في موضعها (المناسب).

٤٨ – هوذا الله يصفح عن الخطايا مجاناً في المعمودية، ولا يطلب منا سوى الإيمان وحده. أمَّا في توبتنا عن خطايا بعد المعمودية فلا يصفح مجاناً، بل يطلب منا أن نتعب ونحزن؛ وأحزان التوبة هي: دموع ونوح وبكاء زماناً طويلاً، وبعد ذلك يصفح. لأن اللص باعترافه سامحه مجاناً على الصليب وصفح عن خطاياه ووعده بالفردوس. وفي حالة المرأة الخاطئة أيضاً طلب منها الإيمان والدموع. وطلب من الشهداء والمعترفين إيمان قلوبهم واعتراف أفواههم مع ضغطات وعقوبات وميتات مختلفة الألوان.

المَيْمَر العاشر

من أخبار القديسين

وأيضاً للقديس مما سَمع ونظر مِنَ الشيوخ.

١ – ذهبتُ في أحد الأيام إلى قلاية شيخ، ولم يكن يفتح بابه كثيراً. فلما رآني من الطاقة وعرفني قال لي: «أتريد الدخول»؟ فأجبته: «نعم أيُّها الأب المكرم». فلما دخلتُ وصلينا، جلسنا نتفاوض، وأخيراً سألته: «ماذا أصنع يا أبي لأن قوماً يأتون إليَّ ولا أنتفع بحديثهم ولا أربح شيئاً، وأستحي أن أقول لهم لا تأتوني. وهم في الواقع يعيقونني عن تكميل صَلَوَاتي في أوقاتها مرات كثيرة، ولهذا أحزن»؟

٢ – فأجابني وقال لي: «متى جاءك قوم محبُّون للبَطَالة، فبعد أن يجلسوا قليلاً، اجعل نفسك كأنك تريد أن تقوم لتصلي، واصنع للضيف مطانية وقل له: "يا أخي إنني أريد أن أصلي ولا أستطيع أن أؤخر صلاتي لئلا يثقل عليَّ الأمر، لأني أعود لأوفي ما فات في وقت آخر مما يسبب لي قلقاً، ومن غير ضرورة شديدة لا يمكنني أن أؤخر الخدمة، ولكن الآن ليست هناك ضرورة تدعوني لذلك". ولا تتركه دون أن يصلي معك. فإن قال لك: "صلِّ أنت لأني أريد أن أنصرف"، اصنع له مطانية وقل له: "من أجل المحبة صلِّ معي ولو هذه الصلاة الوَاحِدة لأنتفع بصلاتك معي". وإذا قمت للصلاة، فأَطِل صلاتك عما جرت به عادتك. فإذا فعلت ذلك، فسيعرفون أنك لا تحب البطالة، وسوف لا يأتون إلى المكان الذي يسمعون أنك موجود فيه».

٣ – احذر أن تحابي وجه إنسان وتترك عمل الله. فإن طَرَقَ بابك أحد الآباء الكبار أو غريب مُتعَب، فجلوسك معه يُحسب صلاة. فإن كان غريباً ممن يحبون الكلام البطَّال، فأرِحْه قدر قوتك، وسرِّح سبيله (سريعاً).

٤ – إذا داخلتك شهوة الاهتمام بغيرك كنوع من الفضيلة حتى يتشتت ما في قلبك من السكون، فقل له: «إن طريق المحبة جيدٌ، والرحمة لأجل الله مقبولة، ولكني لأجل الله أنا لا أريدها».

٥ – قال راهب: «قف لي، فلأجل الله أنا أجري ورائك». فقلتُ له: «وأنا أيضاً لأجل الله أهرب منك».

+ + +

٦ – ذهبتُ في أحد الأيام إلى شيخ مُسِنٍّ فاضل، وكان يحبني كثيراً، وكان أُميّاً (بسيطاً) في كلامه، مستنيراً مضيئاً بالمعرفة، عميق الغور بقلبه، وكان ينطق بما يمنحه الرُّوح من النعمة. (ولم يكن يخرج من قلايته إلا للذهاب إلى الكنيسة، وكان ساهراً على نفسه، محباً للسكون). فقلت له: «أيُّها الأب المكرم، إن فكري يقاتلني أن أمضي يوم الأحد إلى رواق الكنيسة وأجلس فيه وآكل باكراً لكيما يحتقرني ويزدري بي كل مَن يراني».

٧ – فأجابني الشيخ: «لقد كُتب إن أنت عملتَ عملاً يجلب للعلمانيين عثرة وشكاً، فلن تبصر نوراً. إنّ أحداً لا يعرفك في هذه الكورة، ولا يعرفون سيرتك، ولذا فإنهم سيقولون إن الرهبان يأكلون مبكراً. ولا سيما أنه يوجد هنا إخوة مبتدئون وهم (ما زالوا) ضعفاء الأفكار، وكثيرون منهم لهم ثقة فيك وهم ينتفعون منك؛ فإذا رأوك تفعل شيئاً مثل هذا يتأذون.

٨ – إن الآباء القدماء كانوا يفعلون هذا بسبب كثرة الآيات والعجائب التي كانوا يصنعونها، لكيما يُهانون ويُخفون مجد سيرتهم، ويبعدون عنهم أسباب الكبرياء. أمَّا أنت فما الذي يضطرك إلى عمل مثل هذا؟ ألا تعلم أن لكل سيرة وقتاً ونظامًا؟ أمَّا أنت فليست لك سيرة مفردة، وليس لك هذا الاسم، لأنك تعيش هنا كأحد الإخوة. وهذا العمل ليس فيه منفعة لنفسك، وقد يتسبب في أذية غيرك.

٩ – ثم إن هذا التَدْبِير ليس نافعاً للكل، بل لأولئك الكبار الكاملين وحدهم. لأن من شأن انحلال الحواس أن يتبعه. كما أنه يضر المبتدئين والمتوسطين، لأنهم يحتاجون إلى التحفظ والتذلل وإلى إخضاع حواسهم. أمَّا الشيوخ فقد عبروا زمان التحفظ، ولهذا فهم يربحون في كل ما يعملون. لأن (التجَّار) عديمي الخبرة الذين يجسرون على الأمور الكبيرة يخسرون خسارة كثيرة، ولكنهم ينجحون بسهولة في الأشياء الصغيرة. وأيضاً حسبما قلتُ لك من قبل لكل عمل وقت وترتيب، ولكل سيرة زمان معلوم، والذي يتعدى طوره (أي يتخطى قدرته) لا يربح شيئاً بل يسبب لنفسه الخسارة. فإن اشتقتَ إلى ذلك فاصبر على المحقرة التي تأتيك كُرهاً واقبلها بفرح من قِبَل العناية الإلهية، ولا تقلق ولا تمقت شاتمك».

+ + +

١٠ – كنتُ أتحدث مرة مع ذلك الشيخ النشيط الفائق (الحكمة) الذي أكل من شجرة الحياة بالعرق النفساني منذ فجر شبابه حتى عشية شيخوخته. وبعدما وعظني بكلام كثير عن الفضيلة قال لي أيضاً: كل صلاة لا يتعب فيها الجسد ولا يحزن فيها القلب فلتكن محسوبة عندك كالسقط الذي ليس فيه نفس.

١١ – وقال لي أيضاً: كل إنسان يحب الغلبة في كلامه، والماكر بفكره، والوقح الحواس، هذا لا تتعامل معه بالتمام لئلا يطرد منك النقاوة التي اقتنيتها بتعب كثير، ويملأ قلبك ظلامًا واضطراباً.

+ + +

١٢ – مضيتُ في أحد الأيام إلى قلاية أحد الإخوة القديسين واتّكأتُ في أحد الأركان لأني كنتُ مريضاً، لكي يفتقدني (يعتني بي) من أجل الله، إذ لم يكن لي أحد يعرفني في تلك البلاد. وكنت أرى ذلك الأخ يقوم في الليل قبل أن يحين موعد الصلاة بوقت كثير؛ فقد كانت عادته أن يستيقظ قبل جميع الإخوة. وكان يبدأ في المَزَامِير ويسير فيها قليلاً، وبغتة يترك الخدمة ويقع على وجهه، ويضرب رأسه على الأرض مقدار مائة مرة أو أكثر بحدَّةٍ من شدة الحرارة التي كانت تشتعل في قلبه من النعمة. ثم يقوم ويُقبِّل الصليب، ويسجد ثانية ثم يقوم ويقبِّله ويخر

أيضاً على وجهه. وكان يفعل ذلك دفعات كثيرة حتى أنني لم أقدر أن أحصي عدد الميطانيات التي كان يعملها ذلك الأخ بالليل. وكان يقبِّل الصليب عشرين مرة باشتياق ومحبة ممزوجة بتخشع، ثم يعود أيضاً إلى المَزَامِير. وكان من وقت لآخر، بسبب شدة حرارة الأفكار الكثيرة التي كانت تشعل قلبه بلهيبها، لا يحتمل ذلك اللهيب، ومن فرحه كان ينغلب ويصرخ بغتةً، ولم يكن يقدر أن يضبط نفسه.

١٣ – وكنتُ متعجباً من كثرة النعمة التي كانت مع ذلك الأخ، فقد كان حريصاً متيقظاً في عمل الله. وبعد صلاة باكر كان يجلس ويقرأ، وكان يشبه إنساناً قد أُختطف. ومع كل فصل يقرأه كان يخرُّ على وجهه دفعات كثيرة، وكان يرفع يديه إلى السماء ويمجد ويشكر الله بألفاظ كثيرة مرات عديدة.

١٤ – لقد كان رجلاً متقدماً في الأربعين من عمره، وكان طعامه قليلاً ويابساً؛ وكان يغصب نفسه كثيراً بما يفوق قدرته، فكان جسمه يبدو كالخيال، ووجهه مقدار إصبعين. وكنت أقول له دفعات كثيرة: «أَشفقْ يا أخي وارفق بنفسك وعلى تَدْبِيرك المستقيم، وعلى هذه السيرة الحسنة لئلا تتخبط وتنقطع، لأنها مثل السلسلة الرُّوحانية؛ ومن أجل رغبتك في عمل قليل زائد عن مقدارك تتعطل من كل سَيْرِك. كُلْ بمقدار حتى يمكنك أن تأكل على الدوام (أي دون أن تمرض). ولا تكثر جريك أكثر من قدرتك لئلا تتخلف عن السير بالكمال».

١٥ – وكان أيضاً رحوماً بشوشاً خجولاً جداً. وكان نقياً في طبعه، سهل الانطياع (الانقياد) جداً، وحكيماً بالله. ومن أجل وداعته وبشاشته كان محبوباً من الجميع. وكان يعمل الطين (البياض القلالي) مع كل الإخوة في قلاليهم لأربعة أو خمسة أيام، ويعود عند المساء إلى قلايته إلى أن يفرغ شغل الأخ الذي يعمل عنده، لأنه كان يجيد صناعة البناء. وإن كانت له حاجة فحتى لو كان مضطراً إليها، كان يخجل ولا يقدر أن يقول إنه محتاج إليها. وكان أكثر خروجه هو لمعاونة الإخوة بدافع الخجل. وكان يغصب نفسه على ذلك من غير إرادته. وقد عبَّر لي مرات كثيرة عن حزنه بسبب خروجه من القلاية. وهكذا كان تَدْبِير هذا الأخ العجيب.

+ + +

١٦ – قال لي شيخ قديس: «إنني أعجب عند سماعي أن بعض الرهبان يعملون في قلاليهم عملاً، ومع ذلك يكملون قوانين القلاية دون نقص ولا يضطربون». وقال أيضاً كلمة تدعو للعجب: «إني إذا ذهبت لأريق الماء أتخبط في ترتيب العادة وأُعاق من تكميل عملي».

١٧ – أخ سأل شيخاً: «ماذا أعمل؟ فإن لي حاجة ما وأنا مضطر إليها أمَّا بسبب المرض، أو من أجل صنعة، أو لأجل أمور أخرى أستعملها، وتساعدني على الثبات في السكون. فإذا رأيتُ أخاً محتاجاً إليها تغلبني الشفقة والحنو فأعطيها له، وقد يطلبها أحد مني فلا أقدر أن أردَّه حسب الوصية. وبعد ذلك أحتاجها، واحتياجي يلقيني في هموم واضطراب وسجس الأفكار، ويتشتت عقلي واهتمامي بما يليق بالسكون. وكم من مرة أضطر أن أخرج من قلايتي ومن

هدوئي وأسعى في طلبها. وإن تجلَّدتُ ولم أخرج أقع في ضيقة شديدة واضطراب الفكر. ولهذا السبب أنا متكدر وقلق على الدوام ولا أعرف ما هو الأوفق وماذا أعمل؟ هل أعمل الشيء الذي يُبطل سكوني لأجل إراحة القريب، أو الشيء الذي يثبِّتني في الهدوء وأهتم بحوائج نفسي فقط، وأثبت في سكوني ومسكنتي ولا أكون في اهتمام كثير من أجل أي إنسان؟ أريدك يا أبي أن تقول لي أيهما الأصوب لي».

١٨ – أجاب الشيخ: كل صدقة أو عمل محبة أو عطية، أو ما يُظن أنه واجب ولائق، أو أنه عمل لأجل الله، ويبطلك من السكون؛ ويمنعك من ترك العالم، ويقلقك باهتماماتِه، ويُكدِّرك من الهذيذ بالله، ويقطع اتصال صَلَوَاتك، ويُدخل عليك اضطراب الأفكار، ويُنسيك مفاوضة القراءة التي هي السلاح ضد الطياشة، ويبدد تحفُّظك، ويجعلك متجولاً بدلاً من حبيس ومختلطاً بالناس بدلاً من متوحد، ويثير عليك الآلام التي قد دُفنت، ويُنقص نسك حواسك، ويُقيم ميتوتتك من العالم، ويُحدرك من عمل الملائكة الذي هو الهذيذ بالوَاحِد (أي الله)، ويجعلك في مصاف خدام العلمانيين؛ فلتهلك تلك الحسنة وذلك البر. لأن تكميل واجبات محبة القريب في الأمور الجسدانية هو برُّ أهل العالم، أو الرهبان الذين يعيشون خارجاً عن عمل السكون، أو الذين في المجمع المجتمعين بعضهم مع بعض ويخرجون ويدخلون كل حين؛ فهذا الأمر يليق بهم جداً.

١٩ – أمَّا المتوحدون الذين اختاروا البعد من العالم بالجسد وبالعقل، وأرادوا أن يقيموا في ذاتهم بالصلاة الانفرادية بالموت عن جميع الأمور الزائلة واهتماماتِ جميع الأعمال، وعدم نظر أو تذكُّر الأشياء الأرضية؛ ويخدمون المسيح، ليس بعمل هذه الأشياء الجسدانية أو ببر الأمور الظاهرة وكأنهم بذلك يتبرَّرون، بل بميتوتة أعضائهم التي على الأرض حسب قول الرسول يتعبدون له ويقرِّبون له كل حين ذبائح أفكارهم النقية باكورة عملهم مع أتعاب أجسادهم واحتمالهم الضوائق من أجل الرجاء الذي ينتظرونه. لأن تَدْبِير المتوحدين هو شبه الملائكة، وليس من اللائق أن نترك السمائيات ونربح البرَّ بأمور أرضية.

+ + +

٢٠ – تَوجَّه اللوم مرة إلى أحد الإخوة لأنه لم يعمل رحمة (أي صدقة)، فأجاب لائمه بافتخار: «إن عمل الرحمة ليس بفريضة على المتوحدين». فأجابه ذاك: «إن الذي ليست الرحمة فريضة عليه، من البيِّن والواضح أنه هو ذلك الذي يمكنه أن يقول للمسيح بوجه مكشوف، كما هو مكتوب: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك". ويعني بذلك الذي ليست له في الأرض مشيئة ولا يملك فيها شيئاً، ولا يُتعب نفسه في الأمور الجسدية، ولا يخطر بباله شيء من هذه المرئيات جميعها، ولا يهتم باقتناء شيء، وإن أعطاه أحد شيئاً لا يأخذ منه إلا ما له حاجة به، ولا يحفل (يهتم) بما يفضل عنه، ويكون كالطائر في سيرته.

٢١ – فمَن كانت هذه صفته، فإن عمل الرحمة ليس مفروضاً عليه. لأنه كيف يُعطي غيره شيئاً قد انعتق هو منه؟ أمَّا إن كان يعمل بيديه ويأخذ أيضاً من الآخرين، فيجب عليه هو أيضاً أن يتصدق ويعطي، لأن إهماله هذا العمل هو تجاوز لوصايا الله علانية. فإن كان هو ليس فاضلاً

أمَّام الله بالرُّوح في خفاياه، ويتهاون في عمل الأشياء الظاهرة حسب قدرته، فبأي شيء يترجى أن يقتني الحياة؟ إنه بهذا يدلُّ على أنه إنسان جاهل.

+ + +

٢٢ – قال أحد الشيوخ: إنني أتعجب مِن الذي يُقلقون أنفسهم في سيرة السكون لأنهم يريدون أن يريحوا آخرين بأشياء جسدية.

٢٣ – وقال أيضاً: ينبغي ألا نخلط عمل السكون مع أي اهتمام أو عمل آخر فيما عدا الأشياء التي تليق بعمل السكون نفسه. ولنتحفظ في كل تَدْبِير بما يليق به، لئلا تتخبط سيرتنا ونضطرب في تَدْبِيرنا.

٢٤ – إن الذي يهتم بأشياء كثيرة هو عبد للكثيرين، والذي يرفض كل شيء ويهتم بإصلاح نفسه هو محب لله.

٢٥ – انظر، إن الذين يصنعون الصدقة ويتممون محبة القريب بأمور جسدية هم كثيرون في العالم. أمَّا السائرون في تَدْبِير السكون بحسب الواجب، والمتفاوضون مع الله، فبعد جهد تجد قليلين وأفراداً معدودين. ومَن هو مِن بين هؤلاء المتبررين بالأمور وصانعي البر بأشياء جسدية يستطيع أن ينال وَاحِدة من تلك المواهب التي ينالها العمالون في السكون من الله؟

٢٦ – وهو أيضاً قال: إن كنتَ علمانياً فتدبَّر بالسيرة الحسنة التي للعلمانيين؛ وإن كنت راهباً فعليك أن تتدبر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحدين. أمَّا إذا أردت أن تسير في التَدْبِيرين معاً، أي تَدْبِير العلمانيين والرهبان، تسقط وتخيب من الاثنين.

٢٧ – إن عمل الرهبان هو هذا: الانعتاق من كل المحسوسات، والمداومة مع الله بهذيذ القلب، وتعب الجسد في الصلاة. فهل يمكن أن تقرن مع هذا الفضيلة العالمية؟ أو هل يمكن للفضيلة العالمية أن تقوم مكان هذه الأمور إذا ما أهلمتَ عمل السكون؟ أو هل يمكن للمتوحد العمال في سيرة تَدْبِير السكون أن يكمل التَدْبِيرين الداخلي والخارجي معاً؟ أي أن يجمع بين الاهتمام بالله وبين الاهتمام بقلبه بأمور الآخرين؟

٢٨ – أمَّا أنا فأقول: إن مَن يريد أن يسير حسناً مع الله ويهتم بنفسه فقط في تَدْبِير السكون، فحتى لو هو رفض كل شيء، إلا أنه مع ذلك لا يكون كفؤاً لأن يتدبر بكل واجبات السكون بغير نقص؛ لأنه يعجز عن حمل أثقاله، حتى ولو رفض كل استعمال وهذيذ العالم؛ فكم بالحري إذا أثقل ذاته ووضع على نفسه الاهتمام بالآخرين؟

٢٩ – إن رَبَّنَا له في العالم مَن يخدم ويفتقد بنيه وعبيده. كما أنه اختار لنفسه مَن يخدمونه قدامه فقط. إن الذين يقفون دائماً أمَّام الملوك الأرضيين، نراهم جليلي القدر ومرتفعين في درجاتهم ومتداخلين في أسرار الملك أكثر من الذين يقومون بالأعمال الخارجية بالحب للملك. هكذا أيضاً في الأمور الإلهية نرى أن الذين يتحدثون مع الله في الصلاة كل حين لهم دالة

عظيمة قد اقتنوها من الهذيذ به، وقد سلَّطتهم (هذه الدالة) على غنى سماوي وأرضي؛ كما تظهر سيادتهم أيضاً على الخليقة بأسرها التي تخضع لأمرهم بدون مقاومة؛ ويجدون كل وقار وكرامة من جميع الناطقين والصامتين، أكثر من الذين يخدمون الله من الأشياء والمقتنيات الأرضية ويرضونه بأعمال البر التي يصنعونها مع عبيده ورفاقهم. وإن كانت هذه الأعمال حسنة جداً، ولكن ينبغي ألا نأخذ لنا مثالاً من الذين درجاتهم ناقصة في عمل الله، بل من النشطاء الحاذقين في طريقنا هذه، ومن القديسين أصحاب هذه السيرة وهذا التَدْبِير، الذين رفضوا العالميات وصاروا جنوداً للملكوت السمائي وهم بعد على الأرض، وتركوا الأرضيات ورذلوها دفعة وَاحِدة، ووضعوا يدهم على كنوز السماء.

٣٠ – فالقديسون القدماء الذين تركوا لنا هذه السيرة التي كانوا محنّكين فيها، بماذا أرضوا الله؟ فالقديس يوحنا التبايسي كنز الفضيلة وينبوع النبوة، ألعله كان ينيِّح إخوته والذين كانوا يأتون إليه وهو في حبسه بأمور جسدانية؟ أليس أنه كان يرضي الله بالصلاة؟

٣١ – وأنا أعترف أن كثيرين صاروا فضلاء في تلك الأعمال، ولكن ليسوا هم مثل الذين قد أرضوا الله بالصلاة وبرفضهم كل شيء، فهم أنقص من هؤلاء جداً. أمَّا المنفعة التي تكون من هؤلاء الذين بالسكون يزدادون فضيلة، فهي معروفة للناس: أعني أنهم يعضدونهم بكلام نافع ووعظ، ويُصلُّون من أجلهم وقت الضرورة. أمَّا خارجاً عن هذين الأمرين (أي كلمة التعزية والصلاة) فلا ينبغي للمتوحد أن يترك في قلبه ذكر إنسان أو اهتمام بأي شيء من الأمور الجسدية، فهذا ليس من عمل الحكمة.

٣٢ – وأمَّا قوله: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، أي ما يخص القريب وما يخص الله، فهذا ليس للمتوحدين الساكنين في الهدوء، بل لأولئك الذين يتبررون بالأعمال الخارجية. أمَّا الذي يتدبر بالسيرة الملائكية، أي بهذيذ النفس، فلا يلزمه أن يقتني الفضيلة بأمور جسدانية ويلقي ذاته في همِّ عمل اليدين، وينتظر أن يأخذ من وَاحِد ويعطي لآخر، لأن عمله هو في السماء. والمتوحد لا يليق به أن يكون له اهتمام بأي شيء من الأشياء التي تُحرك وتُحدِر فكره من القيام قدام الله.

٣٣ – وإن اعترض أحد وذكر عن بولس الرسول أنه كان يعمل بيديه ويعطي صدقة، نقول له: إن بولس هو وَاحِد ظهر في العالم وكان كفؤاً لكل الأشياء، ولم نعرف بولس آخر مثله. فإن الأمور التي تحدث بتَدْبِير إلهي والسياسة الخاصة بالكرازة لا تدخل ضمن الأفعال العامة. فعمل الكرازة شيء وعمل السكون شيء آخر.

٣٤ – فإن كنتَ تريد أن تتدبر بسيرة السكون، فكن كالشاروبيم الذين لا يهتمون بشيء من الأرضيات. وفكِّر أنه ليس في الخليقة إنسان آخر إلا أنت وحدك والله الذي كل اهتمامك وهذيذك به، حسبما تعلمت من الآباء الذين ساروا قبلك في هذا التَدْبِير. لأنه ما لم يُقسِّ (أي يقوِّي) قلبه ويضبط مشاعره بالتغصب لكي يكون بعيداً من كل إنسان، ولا يفكر في شيء من الأمور الجسدية التي تُعمل من أجل الله، بل يهتم بالمثابرة على الصلاة فقط، ولا يترك في قلبه حُبّاً أو

اهتماماً بأي إنسان، فلن يقدر أن ينعتق من سجس واضطراب الاهتمام، ولن يستطيع أن يعيش في السكون كما يجب.

٣٥ – فإذا أتاك فكر أن تهتم بإنسان بنوعٍ من أعمال الفضيلة مما يشتت منك السلام الذي يتولد عادة في القلب من ذكر الله، فقل له: إن تَدْبِير الحب والرحمة من أجل الله حسن، ولكني أنا أيضاً من أجل الله لا أريده، حسب قول ذلك السائح عندما وجد ذلك المتوحد يجري ورائه ويقول له: "قف لي فإنني من أجل الله أجري ورائك". فأجابه: "وأنا أيضاً من أجل الله أهرب منك".

٣٦ – إن أنبا أرساني من أجل الله لم يكن يفتح فمه ويتكلم، لا بكلام منفعة ولا غيره. وآخر من أجل الله كان يتكلم النهار كله ويقبل الغرباء الذين كانوا يأتون إليه. أمَّا ذاك (أي أنبا أرساني) فعوض ذلك اقتنى له الصمت والسكون، ولأجل هذا كان يسير مع روح الله داخل بحر هذا العالم بسلام مرتفع في سفينة تَدْبِير السكون حسبما ظهر لأحد القديسين بإعلان عندما فتّش وفحص عن هذا الأمر. لأن اسم السكون وكنيته هو الهدوء من كل الأشياء والهرب والفرار من كل الأمور.

٣٧ – فإن كنتَ في سكونك ممتلئاً سجساً واضطراباً، ويتخبط الجسد بعمل اليدين وأمور أخرى، وتنهمك النفس في الاهتمام بآخرين، فأي سكوت اقتنيتَ؟ إنك لا تستطيع أن تهتم بأمور كثيرة وتقدر في الوقت نفسه أن ترضي الله بسيرة السكون. واعرف هذا من نفسك: إنه أمرٌ مضحك أن يقال إنه بدون رفض كل الأشياء، وعدم الاهتمام بأي أمر من الأمور سواء بالنظر أو بالسمع، يمكن أن يَضبط أحد السكون!

المَيْمَر الحادي عشر

في الرد على الذين يقولون: إن كان اللّه صالحٌ، فلماذا خلق هذه الأشياء؟

١ – سؤال: إن كنا نقول إن الله صالحٌ، فلماذا خلق الخطية والجحيم والموت والشيطان؟

٢ - الجواب: الله لم يخلق الخطية ولا الموت ولا الجحيم، لأن هذه أفعال وليست أقانيم. فالخطية هي ثمرة الإرادة الحرَّة، وهي لم تكن موجودة، ويأتي أيضاً زمن لن توجد فيه وستعدم فعلها. أمَّا جهنم فهي ثمرة الخطية، ويأتي وقت تبدأ فيه، أمَّا نهايتها فغير معروفة. أمَّا الموت فقد حدث بسياسة حكمة الخالق، وللموت سلطان على الطبيعة إلى زمنٍ معيّن وبعد ذلك يبطل. أمَّا الشيطان فهو اسم يدلُّ ويوضح ميلان الإرادة وجنوحها عن الحق، وهذا ليس من الطبع بل من الإرادة.

٣ – هذه الأشياء وما يشابهها، لا تظن يا أخي أننا تكلمنا بها لكي نظهر أنفسنا كمعلمين، أو لكي نُمتدح بما هو من قول آخرين. بل اعلمْ أننا نحن وضيعون ونرضع من ثدي آبائنا؛ لأننا قصدنا أن نذكر هذه التاؤريات التي جمعناها ووضعناها أمَّامنا لكي يتفاوض العقل بها ويقتات. لأنه لم يَغِبْ عنا أننا لم نرتفع بعد عن رتبة المتعلمين طالما نحن لابسون هذا الجسد.

٤ – الإفراز (أي التمييز) هو حركة الأفكار الطبيعية. لأن هذه الأفكار إذا كانت تسير في حركتها بأسلوب وطريق الطبيعة فهي تصمد مقابل تغيرات العوالم والعناصر. [أمَّا إذا سارت في الطريق الأدنى (أي غير الطبيعي) فيكون لها عمل آخر خلاف الذي لها. لأن الأفكار الطبيعية في العقل عندما يكون عملها مزدوجاً، تُعرف في نوع وَاحِد فقط، أي في الرتبة التي لا تخص النفس (أي في الرتبة الجسدية).

٥ – إذا صادفتك لذة أثناء تلاوة آيات خدمتك، فإن ذهنك سوف يشتهي بشدة أن يتمتع بتلك الحلاوة على الدوام؛ فإذا أردت أن تحقق للذهن شهوته، جاهد على الفور أن تعرف "علة" مثل هذه البهجة. فإذا وصلتَ إلى معرفة ذلك بسرعة، مثل إنسان مُفرِز (أي ذي بصيرة) وليس كأعمى، فلن يكون من العسير عليك أن تتمتع بها دائماً بلا أي عائق. فما هو إذاً ذلك المحرك الفعال الذي يُسمى أيضاً "علة" أو سبباً؟ إن استعمال المبرد للحديد يجعله لامعاً براقاً دون أن يضيف إليه أي شيء، لأن هذه هي طبيعة الحديد. كيف يحدث ذلك؟ إنه يُزيل الصدأ الذي غطاه حين كان غير مستعمل. هكذا هي التاؤريا بالنسبة لطبيعة الذهن. فاستعمل المبرد (التاؤريا) لعقلك، وسوف ترى كيف يضيء أثناء الخدمة بلمعان يضارع لمعان النجوم نفسها. فإن الذهن لا يستطيع أن يتقدم للأمَّام بدون هذا الفعل، بل إنه يتأخر إذا لم يرافقه (المبرد). ولهذا قلتُ إن الذهن لا يمكنه أن يثبت في الترتيل بدون الصلاة القلبية والقراءة إلا بصعوبة. ولكنه يستطيع ذلك بمصاحبة الصلاة والقراءة للترتيل، حيث لا يحتاج الأمر إلا لعناية قَلِيلَة. لهذا كانت مساعدتهما خلال الترتيل ضرورية، لأنه بدونهما يصير أي اجتهاد في الترتيل غير مُجدٍ. كما

أنه في الوقت نفسه إذا انتعشت (الصلاة والقراءة) فهما تساعدان على الاجتهاد في الترتيل، لأنهما المصدر الذي تُستمد منه المعونة. والجائع يعرف حقاً كيف يحصل على الطعام، ولكنه بالطبع – إذا وجده – لا يرضى أن يمتنع عن أكله!

٦ – ما أحلى الخبز الذي يقتنيه العَمّال من عرقه! فإلى أن يعرق الإنسان لن يحصل على كفايته من خبز الحق. فالجسد، الذي هو العَمَّال، يعرق ويقوت الذهن العاقل؛ وهذا يحدث حين يُحرم الذهن من قُوتِه العادي غير الطبيعي.

٧ – صلاح الإرادة يلد الفضيلة الرُّوحية، وذلك ضروري، ولهذا فإن قوة العقل الطبيعية هي كامنة في حرية الإرادة وليست العبودية. ولكن حرية الإرادة حين تتحول إلى ناحية أو أخرى وتمكث هناك، فهي تلد قوة أخرى لا تنتسب إلى حالتها الطبيعية. وحين تتولد هذه القوة الجديدة تصير حرية الإرادة تحت حكم الخضوع الاضطراري. بل وأجرؤ فأقول إنها تصير مقيدة لا سلطة لها على نفسها. فالخضوع كان من قَبْلُ مسألة إرادة، أمَّا الآن فقد صار متسلطاً على الإرادة. وهذا يمكن أن يُرى في كلا الناحيتين، سواء استعبد الإنسان نفسه لليمين أو استسلم لليسار. إلا أن الذهن – بحدَّة نظره – يستطيع على كل حال أن يدرك كيف يمكن للاضطرار أن يقمع حرية الإرادة عندما تتولد فيه هذه القوة – غير الموجودة في الطبيعة – من الخضوع الاختياري. ولا أقصد هنا تلك القوة التي تتولد من العادة والتي يصعب جداً مقاومتها، بل تلك القوة الأخرى التي تدعى "الدافع الداخلي". وعلى أية حال، فإن العادة تخضع للإرادة وإن كان من الشاق مقاومة العادة. وفيما عدا ذلك نعرف قوَّتين: الوَاحِدة تستعبد الإرادة، أمَّا الأخرى فهي تسود على الطبيعة نفسها، بل إن لها السلطة أن تغيِّر الطبيعة. هذه القوة التي هي فعلٌ قادرٌ أن يهيمن على الطبيعة، هي معروفة عند الذين قد اختبروها.

٨ – إن تغيرات قلوب الناس وتباين طرق التفكير التي تتولد منها – سواء كانوا أحراراً أو غير أحرار، أحياءً أم أمواتاً – تتأثر كثيراً بتنوع التاؤريا التي تحصل في عقول الناس بخصوص أحكام الله. فمن خلال هذا التباين الموجود بين الأشياء، قد حُفظ العالم آلافاً من السنين. هذا التنوع يساعد كثيراً في تغيير المسارات الموجودة في طريق الحياة المائتة؛ وما هو أعظم من ذلك أنه يقود الناس إلى التاؤريا فيما يختص بالأحكام الإلهية، هذه التاؤريا التي تلد عربون الرجاء في الله. ولكن حالما يدخل الاطمئنان (بمعنى اللامبالاة) إلى قلوب كثيرة، فهو يكون بمثابة سُمٍّ مميت قد شربه الإنسان. لأنه حتى للأبناء الحقيقيين الصادقين، ينبغي أن نخلط عشرة أجزاء من الحُب بخمسة أجزاء من الخوف!

٩ – إن الطبيعة المائلة للانحراف ليست كفؤاً هنا لتتقبل كمال الحق الإلهي، أو لتعرف تماماً مشيئة الله بالنسبة للكائنات العاقلة. حتى مَن كان مثل بولس وأمثاله فهو يظل غير كفؤ لهذا، إلى أن يحين الوقت ويُرفع الضلال حتى لا تعود الطبيعة فيما بعد إلى الانحراف من خلال التأثير الذي تشعر به من الضلال.

١٠ – ما هيَ "التماثلية" و"عدم التماثلية"؟

إن عدم تماثل التاؤريا التي تتغير وتتنوع في النفس الوَاحِدة، هو عدم قدرة إدراك عمق فكر الله الأزلي. أمَّا تماثل (أي بساطة ووحدة) التاؤريا، فهو استعلان الحق. فلو أن الطبيعة المائلة للضلالة تقبَّلت هنا الحق الثابت لَماتت بسبب اقتحام الضلال لها. وهذا (معنى) قوله: «يا لعمق الغنى»، و«ما أبعد أحكامه عن الفحص»، و«من عرف فكر الرب»، وما يشبه ذلك. إن أموراً كهذه تحل على العقل من وقت لآخر – دون توقع – بطريقة مذهلة، وحينئذ يتنهد الإنسان بعمق. البعض يسمون هذه "سحابة"؛ ومنها يتولد عدم تماثل التاؤريا وتنوع آراء (الإنسان) بالنسبة للطلب البعيد المنال لفهم أحكام الله.

١١ – ولكن حينما تبلغ الطبيعة إلى الكمال في ذلك العالم غير المائل للضلالة، فإنها لا تعود فيما بعد تتباعد عن معرفة الحق الإلهي، خوفاً من أنها قد تميل إلى الشمال بسبب الاطمئنان (أي التواكل). لأن الاطمئنان أو التواكل ينتج عنه الازدراء (بالوصية) والتفكير بأسلوب متهور. أمَّا الخوف – من ناحية أخرى – فهو يقيِّد الضلالة ويلجمها. وسوف تكتشف هذا الخوف في نفسك من خلال التاؤريا فيما يخص تنوع أحكام الله والعوالم، وما يخص تباين مسارات حياة الناس واختلاف أنواع المكافآت التي تُعطى لكل أحد حتى في هذا الدهر، وما يخص عدل الله الذي يستعلن نفسه من حين لآخر ثم يتوقف بسبب طول أناة الله؛ ومن خلال التاؤريا فيما يخص الأبرار والخطاة، والطبيعة المضادة للمصادمات المختلفة مع الأشخاص الذين يقاومونك بسماح من الله. فحين ينظر الذهن هذه الأشياء، تتحرك النفس بجملتها، وحينئذ يولد فيها الاهتمام بفحص الأفكار والكلمات والأعمال، وتصور حدود عدل الله الثابتة.

١٢ – ولكن حين ينسحب الذهن من هذه (الأشياء) ويصعد وحده نحو الكائن الوَاحِد، بالتفرس في صفات تلك الطبيعة (الإلهية) الصالحة التي تمتلك المعرفة الأزلية التي تتقدم (أي تسبق) كل الكائنات، ويتأمل كافة صفاته الأخرى، حينئذ يُطرح الخوف خارجاً في الحال، ويتثبت العقل بالثقة.

١٣ – أمَّا إذا نزل الذهن مرة أخرى من هناك، وامتدّ أفقه نحو (تأمل) العوالم المختلفة وخصائصها، فهو يتحول لوقته إلى الهروب، ويفسح المجال للخوف. ويحدث هذا بصفة خاصة لأن العناية الإلهية لا ترتضي أن تسمح للذهن أن يمكث دائماً في تاؤرية الحق. ولهذا فهي تسحب من القلب قوة الثقة التي تحركت فيه بالتاؤريا الحقيقية، وتسمح للذهن أن يتثقل بالآراء المتنوعة. وهذا يحدث لكي لا يكف الإنسان عن التحقق من صدق أفكاره وأعماله، وبهذا يقتني الحرص، لأنه لا يعلم بأي حال سيقابل عدل الله. الذي له المجد إلى دهر الدهور آمين].

المَيْمَر الثَّانِي عشر

على رؤية طبيعة الكائنات غير المتجسدة

أسئلة وأجوبة

١ – سؤال: ما هي الطرق المتنوعة التي يمكن بها للطبيعة البشرية أن تتقبل رؤية طبيعة الكائنات غير المتجسدة ؟

٢ - جواب: إن الإدراك المباشر للطبائع البسيطة الرقيقة (أي الشفافة) التي للأجسام الرُّوحية يقع تحت حسِّ الطبيعة البشرية بطرق ثلاث: الأَولى، في كثافة الجوهر، وهي رؤية غير جوهرية (أي ليست لحقيقة الجوهر). والثَّانِية، في رِقَّة الجوهر، وهي أيضاً رؤية غير جوهرية. والثَّالِثة، بالتاؤريا الحقيقية التي هي رؤية جوهرية (أي رؤية تلك الكائنات في طبيعتها وبهيئتها الأصلية).

٣ – في الحالة الأَولى تكون الحواس هي المسيطرة؛ وفي الثَّانِية تنظر النفس جزئياً؛ وفي الثَّالِثة تكون الرؤية بفعل قوة طبيعة العقل. والحالتان الأخيرتان، إحداهما تقع تحت سلطة الإرادة والعقل، والأخرى تحت سلطة الإرادة ونور النفس وما يعززها. فالإرادة إذاً هي العلة الأَولى، وهذه (الإرادة والعقل والنفس) هي نتاج حرية الإرادة، حتى وإن كانت حرية الإرادة والسلطة الذاتية ساكنتين وقت استخدامها (أي العقل والنفس)، طالما كان عمل (الرؤية) فعالاً وثابتاً. أمَّا الحالة الأَولى فهي وحدها التي تكون فيها الرؤية منفصلة عن الإرادة وعن المعرفة الحقيقية، لأن الحواس هي التي تتقبل الرؤية كلها بمعزل عن الإرادة. والقوات الملائكية المقدسة تستخدم كل هذه الطرق الثلاث في مرافقتها لنا لتعليمنا وحفظ حياتنا.

٤ – أمَّا الشياطين الدنسة التي تقترب منا لهلاكنا وليس لمنفعتنا، فهي لا تقدر أن تستخدم سوى الطريقتين الأَولى والثَّانِية فقط، لأنها لا تستطيع أن تأتي إلينا لتقودنا إلى الضلال بالطريقة الثَّالِثة، ذلك لأنها لا تمتلك أية قوة أياً كانت لتحريك الأفكار الطبيعية التي في ذهننا. لأنه يستحيل على أولاد الظلمة (أي الشياطين) الاقتراب من النور. أمَّا الملائكة القديسون فيمتلكون هذه القدرة لتحريك الأفكار الطبيعية في أذهاننا ولإنارتها. إن الشياطين هم أولاد الظلمة المتسلطون ومخترعو الأوهام الكاذبة. فالنور، إذاً، يتقبله الإنسان من الكائنات المنيرة، والظلمة من الكائنات المظلمة.

٥ – سؤال: لماذا أُعطي هذا للملائكة وليس للشياطين؟

٦ – جواب: كل معلم يجب أن يرى أولاً في نفسه المعرفة التي يعلِّمها للآخرين؛ فعليه أن يتعلمها ويتقبلها ويتذوقها، وعندها يمكنه أن يقدِّمها لتلاميذه. إن المعلمين الأَوَّلين (أي الملائكة) ينقلون (إلينا) حقيقة الأشياء من خلال معرفتهم الصحيحة التي بمقدورهم أن يقتنوها

بسرعة إدراكهم بسبب فطنتهم العميقة ونقاوة أذهانهم الفائقة. أمَّا الشياطين فمع أنهم يمتلكون الفطنة إلا أنه يعوزها النور؛ فالفطنة شيء والنور شيء آخر؛ والأَولى من دون الثَّانِي تقود صاحبها إلى الهلاك. لأن النور يكشف الحق، أمَّا الفطنة فشبه الحق. فالنور يكشف عن حقيقة الأشياء، وهو يزداد وينقص وفق قياس سيرة الإنسان.

٧ – إن الملائكة القديسين يسكبون فينا معرفة حركات الأشياء التي سبق أن تذوقوها أولاً وأدركوها، لأنهم عندئذ فقط يمكنهم أن ينقلوها إلينا. وكذلك المعلمون الثواني (أي الشياطين) يحركون فينا الأفكار عن الأشياء بحسب درجة تصوُّرهم؛ فلأنه لن يُسمح لهم بأن يقتادونا إلى الضلالة، فالأمر يستلزم تحريك أفكارٍ صحيحة (أي لها صورة الحق) عن مثل تلك الأشياء. لكن ثق، كما قلت لك سابقاً، إننا حتى وإن كنا قادرين على تقبل رؤية إلهية حقيقية، فإنهم لا يمتلكون القدرة على تعليمنا إياها، مع أنهم كانوا يمتلكونها فعلاً منذ البداية (أي قبل سقوطهم).

٨ – كما أن كل وَاحِد من هؤلاء المعلمين: الملائكة وخصومهم (الشياطين) يلقِّنَّ تلاميذه ما يتوافق مع التَدْبِير الإلهي الذي يخضع له ذلك المعلم، وأنا أعتقد مع ذلك، أن ذهننا يستطيع بنفسه – بدون توسط الملائكة القديسين – أن يتحرك نحو الصلاح الذي لم يتلقنه، إلا أنه لا يستطيع أن يقتني معرفةً بالشر أو يتحرك به بدون توسط الشياطين أو الحواس. فالذهن لا يقدر أن يعمل الشر من نفسه، لأن الخير مغروس في طبيعته بخلاف الشر (الذي هو غريب عنه). فكل شيء غريب ويأتي من الخارج يحتاج إلى وسيط حتى يمكن اقتناء معرفته. أمَّا الشيء المغروس فينا فيكشف نفسه في الطبيعة بدون تعليم، وإن كان في صورة مبهمة نوعاً ما.

٩ – ولكن مع أن طبيعتنا تستطيع من ذاتها أن تتحرك نحو الصلاح، إلا أن نموها واستنارتها لا يحصلان دون رؤية إلهية تتقبلها من الملائكة. والملائكة هم معلِّمونا، كما أنهم يعلِّمون بعضهم بعضاً؛ لأن الأدنى يتعلم ممن هو فوقه وأكثر نوراً منه. وهكذا فإن كل رتبة تستنير من الرتبة الأعلى منها، حتى يبلغوا تلك الرتبة التي معلِّمها هو الثالوث الأقدس. ثم إن أصحاب هذه الرتبة الأَولى نفسها يقولون صراحة إنهم لا يتعلمون من ذواتهم، بل إنهم قد اتخذوا يسوع الوسيط (١تي٢: ٥) معلماً لهم، ومنه يتلقون التعليم وينقلونه إلى الذين هم أدنى منهم.

١٠ – إنني أعتقد أن ذهننا لا يملك قوة طبيعية للتحرك نحو الرؤيا الإلهية للاهوت. وفي هذا النقص الوَاحِد نحن نُعتبر مماثلين لجميع الطبائع السماوية، (فمما لا شك فيه) أن النعمة تحرك فينا وفيهم ما هو غريب بالطبيعة عن الذهن البشري والملائكي كليهما. فالرؤية الإلهية فيما يخص الألوهة، لا يعتبر ضمن أنواع التاؤريات الأخرى. لأننا نمتلك تاؤرية طبائع الأشياء بالمشاركة في طبيعتها المزدوجة، حيث يوجد جزء (مشترك) من كل الأشياء فينا. بينما نحن لا يوجد فينا أي جزء من طبيعة جوهر اللاهوت، ولهذا لا يوجد فينا (أي في طبيعتنا) رؤية له. فهذه الرؤية إذاً، لا تتحرك بالطبيعة في الكائنات العاقلة بالنسبة للرتب الأَولى والمتوسطة (أي الملائكة والبشر)، بل تتحرك في الأذهان السمائية والأرضية كليهما بفعل النعمة، لأن الطبيعة لا تزال عاجزة عن إدراك هذه الأمور (الإلهية) كما تفعل بالنسبة للأشياء الأخرى.

١١ – قبْل مجيء رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح بالجسد لم تكن تاوُرية الذهن والاستعلانات التي تتحرك بها رتبة الكائنات السماوية في متناول قدرتها لَيْتَمكنوا من الدخول إلى هذه الأسرار. ولكن عندما صار الكلمة جسداً فُتح لهم الباب في يسوع، كما يقول الرسول (كو٤: ٣).

١٢ – لكنني أعتقد بحقٍ أننا نحن البشر وإن نقَّينا وطهَّرنا أنفسنا، لا يصير ذهننا قادراً بدون وساطتهم أن يبلغ إلى تلك الأفهام والاستعلانات التي تقودنا إلى الرؤية الإلهية الأزلية (الجوهرية) التي هي الاستعلان الحقيقي للأسرار. لأنه ليس لذهننا قوة تُماثل قوة أسمى الكائنات (العلوية) التي تتلقى الإعلانات والرؤى الإلهية من الأزلي مباشرة دون وساطة. ولكن حتى هؤلاء يتقبلون تلك الإعلانات من الله في شَبَهٍ وليس بوضوح، وهكذا الحال بالنسبة لذهننا (وبالنسبة أيضاً لبقية الرتب، ما عدا تلك الرتبة الأَولى التي تتقبلها من يسوع الذي بيده صولجان الملك).

١٣ – وكل رتبة تتسلم من الرتبة الأخرى الأعلى منها الإعلان فيما يخص التَدْبِير الإلهي وتمييزه، منتقلاً من الرتبة الأَولى إلى الثَّانِية، وهكذا إلى أن يبلغ السر جميع الرتب. إلا أن هناك أسراراً كثيرة تبقى مع الرتبة الأَولى ولا تُنقل إلى بقية الرتب، لأنها لا تستطيع أن تتقبل عظمة السر مثل الرتبة الأَولى. وهناك أسرار تنتقل من الرتبة الأَولى إلى الثَّانِية فقط وتحفظ عندها بصمتٍ وتبقى مجهولة عند بقية الرتب. وثمة أسرار أخرى تنتقل إلى الرتبة الثَّالِثة والرَّابعة. كما أنه يوجد سمو ونقصان في الإعلانات التي تظهر لكل رتبة من رتب الملائكة القديسين.

١٤ – [فهناك رتبة تستغني بالإعلانات وتنكشف لها أسرار على درجة عالية من السمو، وتتقبل استنارة فائقة، ولكن هناك أيضاً رتبة أدنى من هذه يكون إدراكها لهذه الأسرار ضعيفاً جداً. وهكذا عند تقبّل الإعلانات توجد وفرة ونُدرة، جسامة وصِغرٌ بين الرتب الرُّوحية. وفيما عدا الرتبة الرئيسية الفريدة التي هي أولى جميع الرتب، تتقبل بقية الرتب الرؤية الإلهية والإشارات فيما يخص التَدْبِير الإلهي جميعه من رفقائهم]. فإذا كانت هذه أحوال الرتب السمائية، فهل نستطيع نحن أن نتقبل أسراراً كهذه بدون الملائكة وبغير وساطة؟

١٥ – إن إدراك استعلان أي سرٍّ يتم في أذهان القديسين يكون أيضاً من الملائكة. فعندما يسمح الله أن يكشف سرّاً ما يصير ذلك من الرتبة الأعلى إلى الأدنى [حتى يبلغ إلى أدنى الرتب]. وبنفس الأسلوب، حين تسمح المشيئة الإلهية بأن يصل أيّ سرٍّ إلى الطبيعة البشرية فهو ينتقل بواسطة أولئك المستحقين له تماماً، لأنه بواسطتهم يتقبل القديسون نور الرؤية الإلهية الذي يقودهم حتى إلى مجد الكائن الأزلي، هذا السر الذي لا يمكن تعلُّمه؛ أمَّا الملائكة فتتقبله من وَاحِد لآخر، «لأنهم أرواح خادمة مرسلة لخدمة المزمعين أن يرثوا الخلاص» [من خلال الأفهام الحقيقية التي تخصهم].

١٦ – لكن هذا الترتيب سوف يبطل في الدهر الآتي. لأنه وقتئذٍ سوف لا يتقبل الوَاحِد من

الآخر إعلان مجد الله الذي يحظى به لفرحه وبهجة نفسه؛ بل سوف يُعطي السيد (بنفسه) لكل وَاحِد بمفرده وفق قياس تقدمه واستحقاقه، ولا يحصل أحدٌ على العطية من رفيق له كما يحصل هنا.

١٧ – عندئذ لا يكون هناك معلم ومتعلِّم، ولا مَن هو بحاجة إكمال نقصه من آخر. لأن المُعطي هناك هو وَاحِد، وهو يُعطي بدون وساطة للذين يتقبلون؛ والذين يربحون الفرح يحصلون عليه منه. [لأنهم لا يرونه من خلال الأفهام المتنوعة، بل بإعلان (مباشر) عنه من خلال الأفكار، دون أن يبتعدوا عنه]. هناك تتوقف رتب المعلمين والمتعلمين، ويتعلق حب الجميع بالوَاحِد وحده.

١٨ – أعتقد أيضاً أن الذين يُعاقبون في جهنم يُجلدون بسوط المحبة. فهل هناك أمرّ وأقسى من عذاب المحبة؟ وأقصد أن أولئك الذين شعروا أنهم قد أخطأوا إلى المحبة سوف يعانون عذاباً أشد بسبب ذلك، أكثر من معاناتهم من أي خوف أو عقاب آخر. لأن الحزن الذي يُلمُّ بالقلب من جراء الخطية ضد المحبة، هو حزن أكثر صرامة من أي عذاب.

١٩ – إنه ليس من المناسب أن يعتبر الإنسان أن الخطاة في جهنم هم محرومون من محبة الله. المحبة هي وليدة معرفة الحق التي تُعطى للجميع (على السواء)، كما هو معروف. وقوة المحبة تعمل بطريقتين: فهي تعذِّب الخطاة، تماماً كما يحدث هنا حين يتألم الصديق من صديقه؛ بينما تصير مصدر فرح للذين تمموا واجباتها. ولهذا أقول إن هذا هو عذاب جهنم: ندمٌ مرٌ؛ أمَّا المحبة فهي تُسكِر نفوس أبناء السماء بنعيمها.

٢٠ – سؤال: متى يثق الإنسان أنه استحق مغفرة الخطايا؟

٢١ – جواب: إذا ما أحسَّ في نفسه أنه قد أبغضها من كل قلبه تماماً، وأصبح يصنع ما يضاد تصرفه الأَوَّل في الظاهر وفي الخفاء. فمثل هذا الإنسان تكون له ثقة (أنه قد حظي) بغفران خطاياه من الله، بشهادة الضمير التي اقتناها في نفسه حسب قول الرسول، لأن القلب الذي لا لوم فيه هو الشاهد على نفسه. [فعسى أن نحظى بغفران خطايانا بنعمة الآب الأزلي ومحبته للبشر مع ابنه الوحيد والرُّوح الْقُدُس الذي له المجد إلى دهر الداهرين آمين].

المَيْمَر الثَّالِث عشر

الإشارة والمثال في ثيؤرية السبت والأحد

١ – الأحد هو سر معرفة الحق التي لا يتقلبها اللحم والدم لأنها تفوق كل تصور. لا يوجد في هذا العالم يوم ثامن ولا سبت حقيقي؛ والقول: «استراح الله في اليوم السَّابع»، هو إشارة إلى سرِّ سكون طبيعتنا عن السير والجري في هذه الحياة، لأن القبر هو جسماني (أي من التراب) ومن هذا العالم. والستة أيام هي العمل في هذه الحياة وتتم بحفظ الوصايا؛ واليوم السَّابع يكتمل في القبر، والثامن في الخروج منه.

٢ – وكما أن أسرار يوم الأحد يقبلها هنا الذين يؤهَّلون لها في مثال، وليس اليوم نفسه، طالما هم في طبيعتهم المتجسمة، هكذا فإن أسرار السبت يقبلها النشطاء هنا في مثال وليس السبت الحقيقي الذي هو الرَّاحَة والتوقف عن كل حزن، وراحة تامة من كل الضغطات.

٣ – لقد أعطانا الله أن نتذوق كل الأشياء، ولكنه لم يمنحنا هنا أن نتصرف (أي نحيا) بالفعل في حقيقتها. إن السبت الحقيقي غير المِثلي (أي الشبيه) إنما يكون في القبر، وهو يوضح ويدلُّ على الرَّاحَة التامة من ضغطة الآلام ومن الجهاد مقابلها. لأن الإنسان كله، النفس مع الجسد، يُسبِّت (أي يحفظ السبت ويرتاح) هناك.

٤ – في ستة أيام رتَّب الله تقويم هذا العالم، ووضع فيه العناصر التي تتحرك بلا هدوء (بدون توقف) في خدمتها، وليس لحركتها سكون إلى أن تنحلّ (وتزول). ومن قوة هذه العناصر الأَوَّلية جبل الله جسمنا هذا، ولكنه لم يُعطِ لهذه العناصر سكوناً من الحركة، كما لم يُعطِ لجسمنا المتولد منها راحة من العمل. وقد وضع لها فينا حداً إلى أن ترجع إلى أصلها القديم (أي التراب)، وذلك بالانحلال من هذه الحياة حسب قوله لآدم: «بعرق جبينك تأكل خبزك إلى أن ترجع إلى الأرض التي منها أُخذتَ»، و«تعمل في الأرض وتنبت لك شوكاً وقرطباً»، الذي هو سرُّ عالم الشقاء والعمل ما دام هو حي في العالم. وهذا غيَّره رَبُّنَا في تلك الليلة التي عرق فيها وأبدل جِزْع العمل في الأرض المنبت للأشواك والقرطب بالعرق في الصلاة والتعب في عمل البرِّ.

٥ – لقد تُرك آدم يعمل في الأرض ويشقى أكثر من خمسة آلاف سنة، لأن طريق القديسين لم تكن قد ظهرت بعد كما قال الرسول. وفي آخر الأيام، أتى الرب بنعمته وأمر حرية إرادتنا أن تستبدل العرق بالعرق. فهو لم يأمرها أن تهدأ من العمل، بل عرَّفنا كيف نحوِّل هذا إلى ذاك من أجل كثرة تحننه علينا، ولكثرة تعبنا في الأرض. فإن توقفنا عن العرق في الصلاة، فإننا بحكم الضرورة سوف نحصد شوكاً وقرطباً، أي الآلام التي هي البَطَالة من تعب الصلاة (والعودة) إلى العمل في تراب الأرض التي تنبت شوكاً بحسب طبيعتها. لأن الآلام هي في الحقيقة أشواك تنبت من الزرع الجسماني (الكامن في الجسد). وبما أننا نحمل صورة آدم، هكذا بالضرورة

أيضاً تتحرك فينا آلامه. وكما أن الأرض لا تكف عن أن تنبت وتُنمي حسب طبيعتها، هكذا جسدنا أيضاً، الذي هو مِن طبيعة الأرض حسب قول الله لآدم: «الأرض التي منها أُخذت»؛ فتلك تُنبت الشوك، وأمَّا هذه (الأرض) الناطقة فتُنبت الآلام.

٦ – لقد صار رَبِّنَا لنا مثالاً في كل شيء بالسرِّ في كل أعمال تَدْبِيره. لأنه لم يتوقف عن العمل والتعب حتى الساعة التاسعة من يوم الجمعة، الذي هو سرُّ عمل جميع أيام حياتنا؛ أمَّا السبت فأمضاه في القبر، أعني الرَّاحَة من الأوجاع؛ (فأين إذاً هم القائلون إنه يوجد سبت في هذه الحياة نرتاح فيه من الأوجاع)؟

٧ – أمَّا عن نهار يوم الأحد، فالكلام فيه عظيم (يفوق قدرتنا). إن سبتنا هو يوم القبر، لأن فيه يسبِّت (أي يرتاح) طبعنا بالحقيقة. ولهذا ينبغي لنا بالضرورة أن نداوم على اقتلاع الآلام منه كل يوم ما دامت هذه الأرض قائمة. لأنه من مداومة العمل يتعطل (نمو) نبات الشوك، إلا أنه لا يتنقَّى منه (أي من طبعنا) تماماً. فإذا تكاسلنا عن العمل قليلاً، يصعد الشوك مرة أخرى ويغطي وجه الأرض ويخنق الزرع الصالح، ويجعل عملنا وشقاءنا الأَوَّل كلا شيء. ولهذا فنحن مفتقرون إلى التنقية كل يوم، لأن التوقف عن التنظيف والتنقية يزيد من نبات الشوك. (فلَيْتَنا نتنقَّى منه بنعمة ابن الله الوحيد المساوي له في الجوهر، الذي له المجد مع الآب الأزلي والرُّوح المحيي إلى أبد الدهور آمين).

المَيْمَر الرَّابع عشر

في السكون

١ – في أوقات كثيرة يتفق أنه في وسط ساعات النهار، لو أُعطي للمتوحد مملكة الأرض، لَمَا أطاع أن يخرج من قلايته، ولا يريد في تلك الساعة أن يقرع أحد على بابه. لأنه يكون قد اتفق له وقت التجارة والربح بغتة. وهذا يعرض في الأيام التي يظن أنه يسلك فيها بانحلال يخرج ويدخل. لأن النعمة تفتقده بغتة بدموع بلا قياس، أو بحزن حاد يتحرك في القلب، أو بفرح دون سبب، أو بحلاوة ولذة الميطانيات. لأني أعرف أحد الإخوة، كان قد وضع المفتاح في باب قلايته ليغلقه ويخرج ويرعى الريح حسب قول الكِتَاب، وإذ بالنعمة تفتقده هناك، فرجع لوقته إلى القلاية.

٢ – لا ينبغي أن يلوم أحدٌ المتوحد في الأيام التي يُمسك فيها قانون الحبس إذا ما تعطل عن الصلاة الجماعية، وبالأكثر إذا لم يكن من أولئك المعروفين بالتهاون والمنهدمين بالحديث الفارغ، ولم يكن قد أبطلها لأجل رغبته في عمل اليدين.

٣ – اعلموا يا إخوتي، أن عملنا لا يكمل أمَّام نظر الناس، لأن لنا عملٌ مخفيٌ عن نظر الناس وهو غير معروف للمبتدئين والعلمانيين، وأن المتوحد هو تحت الانفعال وليس له سلطان على نفسه. فإن اتفق وأتاه إنسان ليقرع بابه ولم يُجبه، فليرجع للوقت ولا يلوم أخاه، لأنه لا يعرف في أي حال هو في تلك الساعة.

٤ – لأن قلاية المتوحد هي مغارة الصوان حسب قول آبائنا، حيث تكلم الله مع موسى. والرهبان غير المحنَّكين في العمل وفي مذاقة السكون الحقيقي لا يعرفون هذه الأشياء، فيدينون أخاهم ويحقِّرونه، لأنهم يريدون أن ينحلَّ معهم بموافقتهم. لأن في بعض الأوقات يعرض للمتوحد قتال ضروري، ويكون في تلك الساعة في شدة وخطر، وقد وضع يديه على خده وهو مُلقى على الأرض يتضرع إلى الله، ولا يستطيع أن يسمع صوت إنسان. ويعرف هذه الغيارات الذين ساروا في هذا البحر واختبروا الرياح التي تهب فيه. وثمة وقت يتحرك في قلب المتوحد فكر توبة، وتنجمع كل خطاياه وعثراته القديمة وذكر موته، وتتصور كلها قدامه بغتة، فتظلم هذه الشمس النيرة في وجهه. وثَم مَن قامت عليه أمواج وعواصف بغتة وأغرقت سفينته في السقطات الخفية غير المعروفة لكل أحد، لأنها تعرض للمتوحد الجالس في السكون دون توقع، بسبب حرب الشيطان، فتصير له قلايته بيت النحيب والبكاء.

٥ – كثيرة هي تقلبات هذا البحر، فَمَن يقدر أن يعرف أعماله، وكثرة ربح التجارة التي فيه، والجواهر الجليلة التي في عمقه، والوحوش الضارية التي تصعد منه؟! وطوبى لمن لا يضطجع ويتهاون في كل سَيْره وتَدْبِيره إلى وقت موته!

٦ – ليس أحد يحب شيئاً إلا ويُربَّى (أي يتأدب) بسببه. ولا يقدر أي إنسان أن يتفاوض

بالإلهيات إن لم يرذل الزمنيات ويبتعد عنها، ويتغرب عن كرامَّات هذا العالم وملذاته، ويتبع محقرة الصَّلب، ويشرب في كل يوم الخل والمرارة من الآلام ومن الشياطين والناس ومن المسكنة (أي العوز).

٧ – انشط يا أخي، وكن كالتاجر الحكيم، واحمل جوهرتك وأنت في العالم، لئلا يتسخ حسن بهائها. احترس لئلا تُسلب منك برخاوتك فتنزل إلى الهاوية بالحزن. اِجْرِ يا أخي، وراء العزاء القليل المقتنى من الأعمال في حينه، لكي تؤهَّل لذلك العزاء الْعَظِيم الذي يخلو من الأحزان والضغطات الموجودة في هذا المسكن المملوء أحزاناً.

٨ – لا ترذل الحقيرات الصغيرة لئلا تعدم العظائم الكبيرة. ليس أحد يضع لحماً في فم طفل يرضع اللبن. مِن الصغيرات ينفتح قدامك الباب لتدخل إلى الكبار. أنت تشتم الله يا أخي، إذا اشتهيت أن يدبرك بلا طقس ولا ترتيب، فليس أحدٌ يؤتمن على الكبار إن لم يتحنك أولاً ويتجرب في الصغار.

٩ – ضع هذا في قلبك يا أخي، واذكرني في وقتها، أن كل منزل تصل إليه في طريق الفضيلة ومعرفة الحق، تجده أفضل وأعظم من الذي تركته بالأمس وانتقلت منه، وكنت قد تعجبت من كثرة بهائه وحُسنه. لأن مجد منزل الأمس يُبتلع بحسن المنزل الذي تدخله اليوم.

١٠ – مَن هو الذي أحسَّ بغيارات الفكر اللذيذة؟! صلِّ لكي ينفتح أمَّامك الباب، واحذر من قطع الرجاء. فليس عملك مع سيدٍ قاسٍ وظالم، بل مع رحوم طيب ورؤوف. أنت تشقى قدام ذاك الذي لم يأخذ منك شيئاً وأعطاك كل الأشياء، وإذ لم تكن موجوداً أتى بك إلى الوجود؛ ومن أجل إبداعه لنا من العدم إلى الوجود، فمَن هو كفؤ أن يوفيه الشكر والتمجيد؟!

١١ – يا للنعمة التي لا قياس لها! مَن هو كفؤ لتمجيد ذاك الذي أعطانا معرفة كل الأشياء، ليس فقط الظاهرة منها، بل والخفية أيضاً، لكي نعرف الشيء الذي لم نكن نعرفه؟ ومن أين لنا نحن المفتقرين (إلى الصلاح) أن نطلب منه أن يعطينا معرفته؟ ومَن عرَّفك يا ابن الموتى أن تتحرك بمحبة طلبة ذاك الشيء الذي ليست معرفة طلبته في طبيعتك؟!

١٢ – لا تطلب عزاءً موضوعاً خارجاً عن القلب، الذي هو معرفة الإفرازات (أي الأفهام). ابتعد عن كل عزاء يحدث بتوسط لخدمة الحواس، لتؤهَّل لذلك العزاء الذي يُقتنى من الداخل. المتوحد الذي قد تغرَّب عن العزاء العالمي ولا ينتظر كل يوم العزاء من المسيح، هو مائت خالٍ من الحياة.

١٣ – رحوم هو الله ورؤوف، وهو يريد أن يهبنا ويعطينا، ولكنه يشاء أن نكون نحن سبب العطية. وهو يفرح إذا قدم له الإنسان الصلاة بحكمة، التي هي دليل الصحة من المرض والسقم؛ وهذه هي علامتها: أننا نشتهي الخفايا (أي الأمور غير المنظورة)، وهو يعوِّق ويؤخر لأنه ينتظر الصحة الكاملة.

١٤ – الذي يملُّ في سؤاله هو رفيق المتضجر إذا ما أبطأ عنه، لأن الملل يزيل سؤال صلاته. فالكسل يمنعه من السؤال، وأمَّا الضجر فيقطع مداومة السؤال. أمَّا الانتظار (أي الرجاء) والأمل فيجعلك تقتني الصبر ويجتذبك بالأكثر إلى الصلاة وإلى الثبات فيها. لأن الأمل يخفف الثقل من الأعضاء، ويعطي القلب راحة في وقت ضوائقه وضغطاته.

١٥ – ليس وسق (أي حِمْل) أخف وأحلى من العمل مع الرجاء، ولا أنيس حلواً للمفاوضة مثله! حتى في السجن، السكن معه لذيذ! اجعل هذا الرجاء أنيسك أيُّها التائب، فلن تحسَّ بشيء من الأتعاب في جهادك. إن كنتَ في القلاية فليكن معك، وإن كنتَ في وسط الناس اشخص فيه بعقلك، فلن يطيش فكرك في أي شيء من الأشياء، ويبقى العالم عندك كغريب هو وكل ما فيه. في وقت رقادك اجعله (أي الرجاء) سريرك إلى أن تغرق في النوم. فلتكن مفاوضتك فيه، فلن يدنو منك أي فكر أو هاجس رديء. لأن مفاوضتك فيه ليست بهيئة هيولية (متجسمة)، فالشيء الذي يحمل صورة هيولية لا يقدر أن يتحرك في نظرة الفكر، ولا أن يظهر هناك. والفكر الشيطاني لا يعرف أن يظهر ذاته بغير نظر هيولي.

١٦ – من مداومة الصلاة وطول الأناة فيها، تخرج ثمرة الحياة. والرجاء والانتظار هو معين في الصلاة للمتمسك به. إن كنتَ تصلي اذكر الفلاّح الذي بالإيمان يحصد أضعافاً كثيرة. ولتكن تضرعاتك في طلب ملكوت الله وبرِّه أكثر من الزمنيات، وهو يعطينا ما نطلب حسب وعده الأمين.

المَيْمَر الْخَامِس عشر

رسالة من مار إسحاق إلى أخيه الطبيعي والرُّوحاني عندما سأله برسالة لكي يحضر إليه وينظره في ديره لأنَّه كان متعطشاً لنظره في السكون

١ – لستُ قوياً كما تظن أيُّها الأب المغبوط. ألعلك لا تعرف ضعفي وعجزي؟ وهل يسهل عليك هلاكي؟ أنت تطلب حضوري إليك على الدوام (مدفوعاً بالاشتياق إليَّ). ألقِ حركة الطبيعة من فكرك، لأنه قد تحرك فيك كعادته. ألعلك تظن أن الشيء الذي أنا مهتم به لا يستوجب الاهتمام؟ فلا تطلب مني ما يخص الجسد وفكره، يا أخي، بل اطلب ما هو لخلاص نفسي. لأننا بعد زمن قليل سوف ننتقل من هذا العالم.

٢ – تُرى كم من وجوه سألقاها إذا أتيت إليك؟ وكم هي نوعيات الناس والمواضع التي أصادفها حتى أرجع إلى مكاني؟ وكم من أسباب الأفكار تقبلها نفسي بملاقاتهم، فتضطرب من الآلام التي تنتبه فيَّ من ذلك، والتي كانت قد استراحت منها قليلاً؟

٣ – لا يخفى عليك يا أخي، أن نظر العلمانيين فقط يؤذي المتوحد، وليس النساء فقط بل والرجال أيضاً. انظر، كم من الغيارات يقبلها بفكره مَن كان قد هدأ زمناً طويلاً مع نفسه، إذا ما صادف هؤلاء بغتة، فينظر ويسمع شيئاً غير ما اعتاد عليه؟ فإن كانت ملاقات أهل زيِّه، أي الرهبان، تؤذي مَن هو بعد قائم في الجهاد ومازال له حرب مع خصمه، لاسيما إذا لم يكونوا موافقين لقصده ولا سائرين في طريقه، فبأي حفرة يسقط؟ وكيف يخلص من شماتة الأعداء؟ فكم بالأكثر نحن الذين قد اقتنينا معرفة وتجربة أشياء كثيرة؟ ولهذا لا تطلب منا أن نفعل ذلك الأمر من غير ضرورة.

٤ – يجب ألا يضل قلبنا بقوْل القائلين إنهم لا يتأذون بسماع شيء أو بالنظر، وأنهم يمكثون بحال وَاحِدة سواء كانوا في القفر أو في العَمر، في القلاية أو خارجاً عنها، ولا تتغير أفكارهم في السجس عنها في الهدوء، ولا يحصل لهم أي غيار ردئ، ولا يشعرون في ملاقاة الوجوه والأمور بشيء من ضغط الآلام. فالذين يقولون هذا لا يعرفون متى يُضربون ويُجرحون؛ أمَّا نحن فلم نبلغ صحة النفس بعد، ولنا جراحات صعبة منتنة، إذا تُركت يوماً وَاحِداً بغير المراهم والرباطات يرعاها الدود.

المَيْمَر السَّادِس عشر

في تمييز أنواع قوات العقل المعقولة التي تعمل مع استعلانات ومناظر الرُّوح

١ – النظر الإلهي هو استعلان عقلي غير محسوس. والاستعلان الإلهي هو حركة العقل بالأفهام الرُّوحية فيما يخص اللاهوت. ولكن القدرة على التحرك بهذه الأفهام إرادياً من دون استعلان النعمة، هي غير موضوعة ولا حتى في طبيعة الملائكة. لأن نظرة الكائنات شيء والحركة بالاستعلان على طبيعة الأزلية شيء آخر. فالأَولى تتخذ لها سبباً للاستفادة بها من خلال المحسوسات، أمَّا الثَّانِية فليس لها سبب من أي شيء كان، بل العقل والنقاوة الأصلية المثلثة الأجزاء (التي للنفس) حسب قول الآباء. بالكاد تجد وَاحِداً من آلاف الصديقين قد استحق أن يؤهَّل لهذا الحسِّ (أي الإدراك) الأعظم؛ حتى أن تاؤرية تجسد رَبِّنَا وظهوره بالجسد يُقال أيضاً إنَّها (تنشأ) من التاؤرية الإلهية (فيما يخص اللاهوت).

٢ – أمَّا نظر الملائكة الحقيقي فهو التحرك بالأفهام الرُّوحانية التي لهم. لأنه لا يمكن أن تُنظر طبيعة القوات الرُّوحانية خارجاً عن العقل. وإذا ما استحق إنسان أن ينظرها في طبيعتها وفي بلدتها كما هي في طبيعة خلقتها الرُّوحانية، فالنعمة هي التي تحرك عقله باستعلان الأفهام الرُّوحانية فيما يخصها. لأن النفس إذا نظرت فهي تستحق أن تنظر أنسباءها ورفاقها، ولكنها لا تقبل نظرهم بهذه العين (المحسوسة)، لأنهم ليسوا أجسأمَّا، فمِن غير النظر النفسي الذي هو التاؤريا الحقيقية لا يُرَوْن إلا إذا انتقلوا وتنازلوا بطبيعتهم (إلى مستوى الرؤية) حتى يمكن رؤيتهم. وهذه النظرة أيضاً لا يقدر أن يقبلها الإنسان من دون النقاوة الثَّانِية التي للعقل.

٣ – أمَّا ظهور الملائكة بهيئة معينة للناس، فهذا ليس نظراً حقيقياً، لكنهم يخدمون ترتيب التَدْبِير والسياسة (الإلهية)، فهم إذا ما أُرسلوا لتعزية وتشجيع السُذَّج والبسطاء فإنهم يظهرون لهم بمنظر محسوس. وهذه النظرة والرؤى تحصل حتى للذين ليسوا أنقياء. أمَّا الرتبة الأَولى فتكون لأناس نيِّرين عارفين فقط يكونون قد ارتفعوا بتَدْبِير سيرة السكون الممجد إلى مرتبة النقاوة.

في التنعم الذي يحدث في السكون أثناء الصلاة :

٤ – مَن يعرف جثو الركب الحلو اللذيذ، حين يسكت اللسان ويُمجد القلب بتسبيح صامت دون انقطاع حركته من اللذة، إذ يكون الجسد جاثياً على الركب بسكون؟! طوبى لمن اغتذى من هؤلاء على الدوام! لأن هذا (التنعم) ليس هو من الإرادة، ولا هو في كل وقت يطلبه الإنسان فيجده.

٥ – هذا هو التنعم الجزئي الذي يُعطى لتعزية ذاك الذي يتدبر بوداعة قدام الله في سيرة السكون، إن ثبت فيه ببساطة، واهتم بنقاوة عمله. فإذا تأهلت سيرته واستحق لها، فمِن بعد

وقت قليل يؤهَّل أيضاً لتلك (التعزيات) الأَولى التي ذكرناها في بداية المَيْمَر.

٦ – أمَّا الذين هم مبتدئون في هذه السيرة وقصدهم مستقيم، فالنعمة تعطيهم مذاقة تلك التعزيات وما يشبهها أثناء القراءة، وتُبعد أفكارهم من الهذيذ في الأرضيات وتجتذبها إليها. حينئذ يعملون ويسهرون ويصلون ولا يتعبون، وإذا تمرَّسوا قليلاً في أسرار السكون تحصل لهم تلك الحاسية في الصلاة وخدمة المَزَامِير.

المَيْمَر السَّابع عشر

على إفرازات كثيرة في السكون، وعلى سلطان العقل، وإلى أي حد له سلطة أن يحرك حركته الإرادية بتغيير أشكال الصلاة. وما هو الحد الذي وُضع للطبيعة في الصلاة الذي إذا وصل إليه لم يعد له سلطان أن يصلي بعد. وإذا ما عبر هذا الحد لم تعد الصلاة تُدعى صلاة. وأن هذا الشيء (الجديد) الذي يكون عندئذ يُدعى باسم الصلاة.

١ – السُّبح للذي قد أفاض مواهبه على جنس البشر، ومع أنهم جسديون فقد جعلهم يخدمون برتبة الطبائع غير المتجسدة وهم بعد على الأرض؛ وأهَّل طبيعة الترابيين أن تتكلم على مثل هذه الأسرار، وبالأكثر الخطاة مثلي، أنا الذي لا أستحق ولا لسماع الكلام عن شيء من هذه الأمور، لكنه بكثرة إنعامه فتح عمى قلبي لكي أفهم من تصور الكتب ومن تعليم الآباء الكبار. فإني لم أستحق من حرص ذاتي (أي اجتهادي) أن أحصل على خبرة وَاحِدة من آلاف مما أكتب، وبالأكثر في هذا المَيْمَر الذي أقوله لأجل اجتذاب ونفع كثيرين وتنوير نفسي والذين يصادفونه، لعلنا ننتبه بشهوة هذا الشيء وندنو من العمل. وما هو هذا الشيء؟

٢ – اللذة التي تكون بالصلاة هي شيء، أمَّا النظرة في الصلاة فهي شيء آخر. والثَّانِية أفضل من الأَولى كأفضلية رجل كامل على طفل صغير. فالتلذذ بالصلاة يكون حين تحلو الألفاظ في الفم، وكل لفظة من الصلاة يتلوها الإنسان بغير عدد، ولا يعرف الشبع منها، ولا أن يتركها ليعبر إلى لفظة أخرى. والنظر بالصلاة يكون حين تتولد من الصلاة تاؤرية وتصوُّر ما، وتقطع الصلاة من الشفتين. ويكون ذلك الشخص المنجذب بنظرتها كجثة لا نَفْسَ فيها بالتعجب. وهذه ندعوها «النظر في الصلاة»، وهي ليست شَبهاً ما أو شكلاً يتصور حسب جهل الجهلاء.

٣ – وهذه الثيؤريا التي تحصل في الصلاة، فيها أيضاً منازل وأنواع مواهب. وحتى إلى هذا الحد فهي ما زالت صلاة، لأن الفكر لم يعبر الحدَّ بعد، ولا وَصَل إلى ذلك الشيء الذي هو أفضل من الصلاة. لأن حركات اللسان والقلب هي مفتاح لذلك الشيء الأفضل، ومن بَعْدُ يكون الدخول إلى بيت الكنز. (عندئذ) تهدأ كل الأفواه والألسن، والقلب كنز الأفكار والذهن مدبر الحواس والضمير الطائر الرشيق الخفيف المتجاسر وكل التخيلات واستعمالاتها والتضرع – هذه تتوقف ههنا، لأن صاحب البيت قد أتى.

٤ – كما أن كل قوة السنن والوصايا التي وضعت للبشر حدُّها هو زكاوة (أي طهارة) القلب حسب قول الآباء، هكذا جميع أنواع وأشكال الصلاة التي يصلي بها الناس أمَّام الله، حدُّها هو الصلاة النقية. فالتضرع والحزن والخضوع والتضرعات القلبية والدموع الحلوة وجميع أنواع الصلاة الأخرى حسبما ذكرتُ حدُّها وسلطة حركتها هو الصلاة النقية. ومِن نقاوة الصلاة إلى

ما هو داخل، إذا ما عبر (الذهن) هذا الحد، لا يكون بعد للضمير صلاة ولا حركة ولا دموع ولا سلطان ولا حرية ولا تضرع ولا شهوة ولا اشتياق إلى شيء مما يُرجى ويُنتظر في هذا العالم وفي العالم المزمع. ولهذا لم تعد الصلاة النقية بعد صلاة، لأن جميع حركات الصلاة وأشكالها توصِّل العقل إلى هذا الحد بسلطان حريَّتها، ولأجل هذا يكون فيها جهاد وعناد. ومن بعد هذا الحد لا يبقى إلا دَهَش وتعجب وليس صلاة. وتتخلف الصلاة من هذا الوقت، والعقل ينظر نظراً ولا يصلي صلاة. لأن كل أنواع الصلاة تكمل بالحركات النفسية وبها يكون تحريكها. فإذا ما دخل الذهن إلى الحركات الرُّوحانية، لم تعد هناك صلاة.

٥ – لأن الصلاة هي شيء والتاؤريا أي التصور بها شيء آخر، وإن كانت كل منهما علَّةً للأخرى. أمَّا تلك (أي الصلاة) فهي بذار وزرع، وأمَّا هذه (التاؤريا) فهي حمل الأغمار (أي حُزم الحصيد). لأنه بالنظرة غير المنطوق بها يدهش الحاصد ويتعجب: كيف من حبوب حقيرة عارية (أي البذور)، نبت قدامه بغتةً أي سنبل مجيد، فيتوقف بنظرته عن كل حركة.

٦ – إن كل صلاة هي طلب شيء أو ابتهال أو تمجيد أو شكر. فتِّش وافحص إن كان العقل عندما يخترق هذا الحد ويعبر إلى تلك البلدة، يكون فيه طلب شيء ما من هذه (الأنواع). وسؤالي هذا هو لمن يعرف الحق، لأن هذه الإفرازات ليست هي لكل مَن يبحث عنها، بل للذين قد صاروا هم أنفسهم ناظرين وخدامًّا لهذه الأمور، أو لمن تربُّوا قدام آباء عارفين بها، وقبلوا الحق من أفواههم، وبهذه المفاوضات أمضوا كل أيام حياتهم بأسئلة وأجوبة على حقيقة هذا الأمر.

٧ – كما أنه بعد جهدٍ تجد وَاحِداً من بين ربوة من الناس قد أكمل السنن والوصايا أُهِّل لنقاوة النفس، هكذا أيضاً نجد وَاحِداً من بين كثيرين قد استحق – بعد حفظ واحتراس كثير – الصلاة النقية، واخترق هذا الحد واستحق ذلك السر. ليس كثيرون يستحقون حتى الصلاة النقية، بل أفراد قليلون. أمَّا السر الذي هو بعدها، ومنها يمتد إلى فوق، فبعد جهد قد تجد وَاحِداً بين كل جيل وجيل قد دنا من هذه المعرفة بنعمة الله.

٨ – الصلاة هي تضرع وهذيذ واشتياق لشيء ما؛ أو للخلاص من الشرور الحاضرة أو المزمعة؛ أو شهوة المواعيد؛ أو طلب شيء ينتفع به الإنسان ويجد عوناً من الله. بهذه الحركات تنحصر وتُحد كل حركات الصلاة.

٩ – أمَّا طهارة الصلاة أو عدم طهارتها فهي هكذا: إذا بدأ العقل في هذه الأوقات أن يذبح (أي يقدِّم) إحدى حركاته التي ذكرناها، واختلط معه فكر غريب أو طياشة بشيء من الأمور، تُدعى هذه (الذبيحة) غير طاهرة، لأنه أصعد على هيكل الرب – الذي هو القلب والقائمة العقلية (تك٢٨: ١٨) – ذبيحة من الحيوانات التي لم يأذن بها الناموس.

١٠ – أمَّا إذا غاص العقل باشتياق بشيء من حركاته إلى الداخل في وقت التضرع، تحت اضطرار الباعث، ولأجل الاشتياق الكثير، ينجذب نظر حركته بعين الإيمان إلى داخل حجاب باب

القلب، هذا الحجاب الذي تتسيج به مداخل النفس مقابل الأفكار التي تدعى «الغرباء»، والتي لم يؤذن بدخولها إلى داخل قبة الشهادة (خر٤: ٩)؛ فهذا هو ما يُسمى «ذبيحة القلب المقبولة»، و«الصلاة الطاهرة»، وحدودها إلى ههنا، ومن ههنا إلى فوق لا تُدعى صلاة.

١١ – وإن ذكر إنسان ما يسميه الآباء «صلاة روحانية»، ولم يفهم قوة (أي معنى) كلامهم، وقال إن هذه هي أيضاً ضمن حدود الصلاة، فلو أنه وصل إلى حقيقة الفهم لأدرك أن القول بأن الصلاة الرُّوحانية (هي صلاة) يُصلى بها، هو تجديف. لأن كل شيء يُصلى بالصلاة هو أدنى من بلد الرُّوحانية، وكل شيء روحاني هو مرتفع عن حركة الصلاة. فإن كان بعد جهد يقدر الإنسان أن يصلي صلاة طاهرة، فماذا نقول عن الصلاة الرُّوحانية؟

١٢ – إن مِن عادة الآباء أن يدعوا كل حركة فاضلة وكل انفعال روحاني باسم الصلاة؛ وليس الآباء فقط، بل كل مَن استناروا بالمعرفة يعتبرون حتى الأعمال الحسنة أنها صلاة. بينما أنه من الواضح أن الصلاة هي شيء آخر غير الأعمال التي تُعمل. أمَّا هذه (أي الصلاة) التي تُدعى في بعض المواضع «صلاة روحانية»، فهي تسمى أحياناً «طريق»، وأحياناً أخرى «معرفة»، والبعض يسميها أحياناً «استعلان المعقولات».

١٣ – انظر الآن كيف يغيِّر الآباء أسماء الأمور الرُّوحية؟ إن هذه التسمية بالأمور الحاضرة تتم هنا، أمَّا أمور العالم الجديد فليس لها أسماء حقيقية، بل معرفة وَاحِدة بسيطة مرتفعة عن كلا الأسماء والعلاَّمَات والصور والألوان والأشكال والصفات المركَّبة. ولهذا إذا ما ارتفعت معرفة النفس عن دائرة (هذا العالم) المنظورة، فإن الآباء يستعملون الدلائل (أي الإشارات) من أجلها حسبما يريدون. أمَّا الأسماء الحقيقية فلا يعرفها أحد، لكنهم يسندون إليها التسميات والأمثال المختلفة بحسب (حاجة) الأفكار النفسية، وذلك حسب قول القديس ديوناسيوس: «إننا نستعمل العلاَّمَات والدلائل والحروف ومقاطع الكلام بما يتناسب مع الحواس، ولكن إذا ما تحركت نفوسنا بالإلهيات بفعل الرُّوح تصبح الحواس وعملها زيادة وفضلة؛ وبالمثل فإن حركات الرُّوحانية التي للنفس تصبح لا حاجة لها إذا ما صارت أنفسنا شَبه اللاهوتية بالاتحاد غير المدرك، حيث تشرق بإشعاعات النور المرتفعة بحركاتها التي بلا أعين».

١٤ – لهذا يا أخي، فلتعرف يقيناً أن العقل ليس له سلطان أن يميز حركاته إلا إلى حدود الصلاة الطاهرة، وإذا وصل إلى هناك، فهو أمَّا أن يرجع إلى وراء أو يتخلف عن الصلاة. لأن الصلاة تكون له كوسيط بين النفسانية والرُّوحانية. فطالما تحركت (الصلاة) فهي في بلد النفسانية، وإذا ما دخلت ذلك البلد الرُّوحاني، بطلت الصلاة.

١٥ – كما أن القديسين في العالم الجديد، إذ يُبتلع العقل بالرُّوح، فهم لا يصلُّون صلاة (هناك) بل يقيمون بدهش ذاك المجد المبهج، هكذا أيضاً إذا أُهِّل العقل للإحساس بتلك السعادة المزمعة فهو ينسى ذاته وكل الأشياء الحاضرة، ولا تكون له منذ الآن حركة بهذيذ أي شيء من الأشياء.

١٦ – ولهذا يجسر الإنسان أن يقول بثقة، إن حرية الإرادة هي التي تحرك وتدبر كل فضيلة وكل رتب الصلاة، سواء كانت بالجسد أم بالفكر، بل وتحرك العقل الذي هو سلطان الحواس. ولكن حالما يتسلط تَدْبِير الرُّوح على العقل – مدبر الحواس والأفكار – تُرفع الحرية من الطبيعة، ومنذ ذلك الحين يخضع العقل لتَدْبِير آخر، ولا يكون هو الذي يدبر نفسه. فكيف يمكن الصلاة في ذلك الوقت الذي لا يكون فيه للطبع سلطان على ذاته، لأنه ينساق ويتدبر من قوة أخرى إلى حيث لا يدري، ولا يكون هو الذي يُقوِّم ويُصوِّب حركات الفكر كيفما شاء ولا حيثما أراد؟ لأنه يملك على الطبع في ذلك الوقت سباتٌ يخطفه إلى حيث لا يوجد حِسٌّ. ولا تكون للإنسان في تلك الساعة لا إرادة ولا مشيئة، ولا يعرف بالتالي إن كان هو بالجسد أم بغير الجسد حسب شهادة الكِتَاب. فأي صلاة تكون هذه للذي قد سُبي هكذا وهو لم يعد يعرف حتى نفسه؟

١٧ – لهذا لا يجدف أحدٌ ويجسر أن يقول إن الصلاة الرُّوحية في الإمكان أن يصلَّى بها. بهذه الجسارة يتكلم جماعة المصلِّين المخدوعين عادمي المعرفة، ويكذبون على أنفسهم مُدَّعين أنهم يقدرون أن يصلوا بالرُّوح عندما يريدون. أمَّا المتواضعون ذوو الفهم، الذين ينحنون لَيْتَعلموا من وعظ الآباء الْعَارِفِين حدود الطبيعة، فإنهم لا يسمحون لأنفسهم بهذه الوقاحة.

١٨ – لأي سبب تُسمى هذه الموهبة غير المنطوق بها صلاة، إذا لم تكن هي صلاة؟ ينبغي أن نقول إن السبب في ذلك هو لأنها تحلُّ على المستحقين لها في وقت الصلاة، ويكون منشأها من الصلاة. فبحسب قول الآباء، لا تحل هذه الموهبة إلا في وقت الصلاة. ولماذا تُدعى باسم «صلاة»؟ لأن العقل يُختطف من الصلاة لهذه السعادة، ولأن الصلاة تكون هي السبب في وصوله، ولا يمكن أن تحل في أي وقت آخر حسبما نفهم من كتب الآباء. فقد جاء في سيرهم أنهم عندما كانوا يقفون للصلاة كانت عقولهم تُختطف.

١٩ – وإن سأل إنسانٌ لماذا في هذا الوقت فقط تكون هذه المواهب الْعَظِيمة الفائقة الوصف؟ لأنه في وقت الصلاة – أكثر من كل الأوقات – يكون عقل الإنسان مجموعاً إليه وشاخصاً إلى الله ومنتظراً بكل اشتياق أن تأتيه الرحمة من عنده. وأقول باختصار، إن هذا هو الوقت الذي ينبغي أن يقف فيه (الإنسان) على باب الله ويسأل؛ وفي هذا الوقت يليق أن تُعطى للسائل المتضرع طلبته. فأي وقت آخر يكون فيه الإنسان مستعداً محترساً مثل وقت الصلاة؟ ألعله في وقت نومه، أم إذا كان يباشر عملاً ما، أم عندما يكون عقله مشتتاً، يُؤَهَّل لهذه الموهبة؟!

٢٠ – إلا أن القديسين لم يكن لهم وقت يوجدون فيه بطّالين (من العمل)، لأنهم كانوا في جميع أوقاتهم يتفاوضون في الأمور الرُّوحية، أعني أنهم عندما لا يكونون مستعدين للصلاة تجدهم منشغلين في قراءة سير القديسين، أو في تأمل أقوال الكتب المقدسة، أو يتصورون بعقولهم تاؤريات المخلوقات أو أشياء أخرى تُعتبر هذيذات فاضلة نافعة. ولكن في وقت الصلاة (بوجه خاص) تجد نظر عقلهم يشخص في الله وحده، وإليه يمدُّ ويوجه كل حركاته، ويقدِّم له التضرع القلبي متواتراً بحرص وحرارة. ولأجل أنه في هذا الوقت بالذات، حين لا يكون في النفس

سوى هذيذ وَاحِد فريد، يكون مناسباً أن تفيض عليها المراحم الإلهية.

٢١ – إننا نرى في الوقت الذي يكون فيه الإنسان واقفاً مستعداً باحتراس، وهو يتضرع بالصلاة وعقله مجموع إليه، يحل الرُّوح الْقُدُس على الخبز والخمر الموضوعين على المذبح. وأيضاً في وقت الصلاة ظهر الملاك لزكريا وبشَّره بالحبل بيوحنا. والقديس بطرس حينما كان يصلي على السطح وقت الساعة السَّادِسة ظهر له الاستعلان يعرِّفه بدعوة الشعوب إلى الإيمان بشكل ملاءة مدلاّة من السماء. وأيضاً كرنيليوس في وقت الصلاة ظهر له الملاك وقال له الأمور المكتوبة عنه. ويشوع بن نون أيضاً تكلم الله معه عندما كان يصلي وهو منطرح على وجهه.

٢٢ – وأيضاً الطاس الذي كان موضوعاً فوق تابوت العهد، الذي كان رئيس الكهنة يعْلم منه بالاستعلان الأشياء الضرورية، عندما كان يدخل مرة وَاحِدة في السنة في وقت الصلاة، وكل أسباط إسرائيل واقفون بخوف في الصلاة بالقبة الخارجية. في ذلك الوقت المرهوب كان عظيم الأحبار يدخل إلى القدس الداخلي ويقع على وجهه، ويسمع أقوال الله من ذلك الطاس الذي فوق تابوت العهد باستعلان مخوف جداً. كم كانت تلك الأسرار الحادثة في ذلك الوقت مرهوبة جداً!

٢٣ – هكذا أيضاً جميع الاستعلانات والمناظر التي كانت تظهر للقديسين كانوا يحظون بها في وقت الصلاة. لأنه ليس هناك وقت يكون أقرب وأوفق، ويليق فيه التقديس وقبول المواهب مثل وقت الصلاة، لأن فيه يتكلم الإنسان مع الله. لأنه في وقت الطلب والتضرع والكلام مع الله تكون حركة الإنسان وفكره منجمعة إليه بتغصب كثير، وبالله وحده فقط يهذُّ ويشخص، ويُبتلع ضميره بالكلام معه، ويكون قلبه مملوءاً فيه. من ههنا يجود عليه الرُّوح الْقُدُس بأفهام غير مدركة، حسب منزلة ذلك الإنسان، وتتحرك فيه ويأخذ منها مادة – أعني من ألفاظ صلاته – ليحرك فيه الأفهام، حتى أنه بفعل هذه الأفهام تنقطع الصلاة من الحركة ويُبتلع العقل بالدَهَش، وينسى شهوة الشيء الذي كان يطلبه، وتغوص حركته في سُكْرٍ عميق وكأنه لم يعد موجوداً في هذا العالم. ولا يكون له في ذلك الوقت تمييز لأي شيء سواء من جهة الجسد أو النفس، ولا ذِكر أي شيء.

٢٤ – وحسب قول القديس غريغوريوس: «إن الصلاة هي تقانة العقل، أي هيئته (الصافية) التي لا تنقطع إلا من الدَهَش بنور الثالوث المقدس فقط». فانظر الآن، كيف تنقطع بدهش الأفهام التي تتولد في الفكر من الصلاة حسب قولنا في بداية هذا المَيْمَر وفي مواضع أخرى.

٢٥ – وأيضاً يقول (ق. غريغوريوس): «إن هيئة العقل (أي حالته الراسخة) هي على المعقولات (أي الحقيقة العقلية الصافية) المتشبه بلون السماء، الذي يشرق عليه نور الثالوث المقدس في وقت الصلاة. وهذه النعمة يؤهَّل لها الإنسان في وقت الصلاة». ويقول أيضاً: «إذا ما تعرَّى العقل من الإنسان العتيق ولبس بنعمة الله الإنسان الجديد، عند ذلك ينظر هيئة ذاته في وقت الصلاة شبيهة بالصافيلا (خر٢٤: ٩و١٠) ولون السماء الذي يُدعى "موضع الله"

حسبما ظهر لشيوخ بني إسرائيل في الجبل».

٢٦ – ولهذا، فكما قلت، لا يليق أن تدعى هذه الموهبة صلاة روحانية. فبماذا تُدعى إذاً؟ إنها تدعى وليدة الصلاة النقية التي تُبتلع بالرُّوح. ويكون العقل في ذلك الوقت مرتفعاً عن الصلاة؛ لأنه عندما وجد شيئاً أفضل بطلت منه الصلاة وتوقفت. ومن ههنا لا يعود يصلي صلاة، بل ينظر بدهش في الأمور غير المدركة المرتفعة عن عالم الموتى؛ ويصمت العقل ويهدأ بعدم معرفته جميع الأشياء الحاضرة. وهذه هي «عدم المعرفة» التي هي أرفع من كل المعارف، والتي قيل عنها: «طوبى لمن وصل في الصلاة إلى "عدم المعرفة" التي لا يفوقها شيء».

المَيْمَر الثامن عشر (١م)

في إيضاح الكلام عن المعرفة الحقيقية.

١ – كل شيء محسوس سواء كان فعلاً أو كلمة، من شأنه أن يوضح الشيء المخفي داخله، هذا إن لم يكن حدوثه على سبيل العارض، بل كان عمله متصلاً على الدوام. لأن المكافأة تُعطى للثانية (أي العمل المستمر)، أمَّا الأَولى (التي تحدث عرضاً) فمجازاتها لا تحسب. لأن قوة الإرادة أو ضعفها تُختبر بعمل الشرور أو الصلاح، ليس في الأمور العارضة، بل في الأعمال التي لها صفة المداومة، فهي التي تُختبر فيها حرية الإرادة.

٢ – لأن الشيء العارض قد يُعطَى سلطاناً أن يتخطى الحرية الاختيارية. فإذا ما صادفت الإنسان أية عوارض جيدة كانت أو ردية، فحدوثها يكون كحافز للانقياد (أي الخضوع)، أو للاختبار والفحص، أو للتدريب أو للمكافأة. فحافز الانقياد هو العارض الجيد، أمَّا الاختبار فهو ذلك العارض الذي يُظن أنه رديء، وأمَّا العوارض التي للتدريب والمكافأة فهي تكون بالأمرين معاً (أي الجيدة والرديئة). ولا يحدث أي عارض كيفما اتفق، لأنه لا يحدث للإنسان مصادفة أو بلا ترتيب سواء أكان جيداً أم رديئاً.

٣ – إن إرادة الله تتقدم على الصلاة، وكل صلاة تتدبر منها (أي تنال استجابتها) حسبما تحدد حكمته لمعونتنا. لأنه يوجد مدبر يسوس أمور العالم، ويوجد مع كل وَاحِد منا حافظٌ لا يفوته شيء ولا يعجز. وكل عارض يكون من جهة الحافظ الذي قد أُمر بحراستنا، يحدث بنوع من السياسة (أي التَدْبِير الإلهي). ويحدث العارض بحسب هذه الأربعة أنواع (السابق ذكرها) لأجل المنفعة.

٤ – الصلاة الحزينة الحادثة من تذكُّر سيرة تليق بهذا الحزن بإمكانها أن تُغيِّر أنواع هذه الأربعة عوارض وتُحوِّلها لما يليق ويوافق: فالجيد تأخذه وتجعله ثابتاً، والرديء تغيِّره بما يضاده.

٥ – ولهذا لا تشك في قولي إن حدوث العوارض لا يكون كيفما اتفق دون سياسة المدبر. لأنه إن كانت الصلاة مع التقانة تقدر أن تغيِّر أو تقمع، لهذا يصحُّ القول إن كل عارض إنما يكون حدوثه بسياسة من المدبر، وطوبى لمن قارن بين جميع عوارضه وبين الأمور الخفية التي لغوامضه (أي أحواله الداخلية) وفحصَ عن سبب حدوث العارض، ونظرَ وأحسَّ بمدبِّره!

٦ – الذي يريد أن يكون حكيماً تجاه الله، لا يمكنه ذلك إن لم يكن مجهولاً للعالم وباغضاً مديح الناس.

٧ – عجيب هو ذلك الإنسان الذي يخفي عظم جلالة عمله بمحقرة النفس. مثل هذا الإنسان تَفْتتن به الملائكة تعجباً.

٨ – تيقن أن الزلات الحادثة من حين لآخر للمحترسين من غير الإرادة، هي حُرَّاس للبر.

٩ – ليست هناك صلاة تُقبل سريعاً مثل التي يطلب فيها الإنسان مصالحة باغضيه وأعدائه. فهو حين يأتي باللوم على نفسه تُستجاب طلبته بغير تأخير.

١٠ – إذا كنتَ تتمم كل الأشياء الواجبة عليك، وأنت محترس فيما يخصك، وترى ذاتك حقيراً ونفسك مرذولة في عينيك، ومديح الناس لك مكروهاً عندك، اعلمْ أنك سائر حقاً في طريق الله. وإذا شعرتَ أن أمورك مغايرة لهذه الأوصاف، وأنك تحسُّ بذاتك (أي تزكِّيها) وترى أن المذمات توجعك، فاعلم أنك فارغ من الحق ومسروق من المجد الفارغ.

المَيْمَر التاسع عشر (٢م)

في الأمور العميقة التي تطلب النفس أن تغوص فيها

لكي تتحرر من الأفكار المتجسمة التي تكون من تذكار الأمور.

١ – كل شيء أعلى من آخر هو مخفيٌّ من هذا الشيء الأدنى منه. وهذا ليس لأنه يقتني في طبيعته حاجزاً من جسم آخر، فهو متى شاء يقدر أن يأتي للظهور بما هو خفي، لأن أي جوهر عقلي لا يقتني خارجاً عنه أي شيء يميِّز رتبته، لكن هذه المميزات هي محدودة داخل حركاته، وهو يستضيء بالأكثر إذا ما غاص ودخل بزيادة – وبغير وساطة ما – لقبول النور الأَوَّل (الإلهي). أمَّا الرتب الأدنى فلا تختلف عن (الرتبة الأعلى) في المكان أو البلد، بل بحسب ارتفاع درجة نقاوتها، أو بقياس قوة الأذهان التي تقبل الرموز العالية.

٢ – كل جوهر عقلي هو مخفيٌّ عن الجوهر الأدنى منه، وليس هذا من حيث الطبيعة، بل من حيث فضيلة (أي قوة) حركاتها. وأعني بقولي هذا عن طغمات القوات المقدسة وطغمات الأنفس وطغمات الشياطين. فالطغمات الأَولى (أي الملائكة) أرفع من الطغمات المتوسطة (أي النفوس)، والمتوسطة أعلى من الثَّالِثة (أي الشياطين)، وذلك من حيث الطبيعة والمكان والحركات (أي الأفعال). وأفراد كل رتبة من هذه الرتب هم مخفيون عن بعضهم البعض من حيث المعرفة، سواء كانوا مرئيين أو غير مرئيين؛ وهم مخفيون عن الرتب الأدنى من رتبتهم من حيث الطبيعة. لأن نظر غير المتجسمين لا يكون استعماله خارجاً عنهم كالجسدانيين، بل يُقال إن نظرهم لبعضهم البعض هو من داخل حركاتهم بحسب قوة وقياس تلك الحركات. ولهذا فهم إن كانوا متساوين في ذلك، يمكنهم أن ينظروا بعضهم البعض – ولو كانوا بعيدين عن بعض – لا بالتخيل بل بنظر صحيح في طبيعتهم الحقيقية. وذلك فيما عدا ذاك الذي هو علة الكل، المتعالي عن هذه الإفرازات كلها، المعبود وحده والمسجود له من الجميع.

٣ – أمَّا الشياطين، إذ أنهم أنجاس جداً، فهم لا يحتجبون عن نظر بعضم البعض. ولكنهم لا ينظرون الطغمتين المرتفعتين عنهم؛ لأن نظر الرُّوح هو نور الحركات، وهي (أي الحركات) هي مناظرهم وأعينهم. فإذا أظلمت الحركات لا تنظر الطغمات المرتفعة عنها. والشياطين من أجل أنهم الأكثر كثافة من الرتب الرُّوحانية، فبقياس هؤلاء ينظرون (بعضهم بعضاً). وهذا عن الشياطين.

٤ – أمَّا النفوس، فإذا كانت مظلمة نجسة، فليس لها أن تنظر بني جنسها، كما أنها تكون عادمة النظر لذواتها ولبعضها البعض. فإن كانت تتنقى وتتطهر وترجع إلى طبيعة خلقتها الأَولى، فهي تشخص بوضوح في هذه الرتب الثلاث، أعني في الأدنى والأعلى منها وفي بعضها البعض. وهي تنظر جميع هذه الرتب – إن كان الملائكة أو الشياطين أو النفوس

أنسابها – ليس لأنها تتغير إلى أشكال جسمانية، بل تنظرهم في طبيعتهم وهم قائمون في طقس روحانيتهم، سواء كانوا ملائكة أو شياطين أو نفوساً.

٥ – فإذا قلتَ إن هذا لا يمكن، وأنه يستحيل أن تنظر الملائكة أو الشياطين إن لم يتشكلوا بأشباح، فبحسب قولك، لا تكون النفس عندئذ هي التي تنظر بل الجسد (أي العين الجسدية). فما هي الضرورة إذاً للنقاوة؟ هوذا الشياطين بل والملائكة أيضاً تظهر لغير الأنقياء، وهم ينظرون ما يظهر لهم بعين الجسد وهي ليست محتاجة التنقية والطهارة. ولكن ليس الأمر هكذا، بل إن النفس إذا تطهرت فهي تنظرهم في روحانيتهم بعينها الطبيعية وأعني بالعقل الفَهِم (أي بالنظر العقلي).

٦ – والنفوس تنظر أيضاً بعضها البعض ولو كانت في الجسد، والدليل على ذلك نأخذه من قول القديس أثناسيوس الرسولي بطريرك الإسكندرية مما ذكره في سيرة القديس أنطونيوس، أنه بينما كان أنطونيوس يصلي نظر نفساً صاعدة إلى السماء بكرامة عظيمة، وأعطى الطوبى لذلك الإنسان الذي أُهِّل لهذه النعمة الْعَظِيمة. وكانت هذه هي نفس أمونيوس المغبوط الذي من جبل نتريا. وكان بُعد ذلك الجبل عن الموضع الذي كان أنطونيوس ساكناً فيه مسيرة ثلاثة عشر يوماً.

٧ – فبهذا الدليل يتأكد القول عن هذه الرتب الثلاث التي ذكرناها، أنه حتى ولو كانت الطبائع الرُّوحية بعيدة الوَاحِدة عن الأخرى فهي تنظر بعضها البعض ولا يحجز نظرها بُعد المسافات ولا حاجز الأجسام؛ وأنه إذا تطهرت النفوس فنظرها لا يكون لبعضها البعض نظراً جسمانياً، بل بحسب الطبع الرُّوحاني. لأنه من المعلوم أن النظر الجسداني لا ينظر سوى ما هو قدامه فقط، أمَّا الشيء البعيد فيحتاج إلى نظرة أخرى.

٨ – أمَّا الطغمات العالية فهي كثيرة العدد منذ خلقتهم وبلا حد. وتوصف بينهم إفرازات (أي أنواع) ورتب، فمنهم مَن يُدعى أراخنة وسلاطين وقوات وسيادات. والمكرَّمون بالرياسة والسلطان أقل عدداً من الذين تحت أمرهم، حسب قول القديس ديوناسيوس أسقف أثينا: «إن فيهم كباراً وصغاراً من حيث القوة والأفهام حسب عظم ارتفاع طقسهم»؛ ويتدرجون ويصعدون من درجة إلى درجة حتى يصلوا إلى ذلك الوَاحِد الكبير الذي هو ذو قوة أكثر من الكل وأشرف، وهو أول وأساس كل الخلائق. وقولي "أول" لست أعني بذلك الخالق تعالى وتقدَّس، بل المتقدم الأَوَّل من عجائب إبداع الله. لأن الملائكة ورؤساء الملائكة هم ناقصون جداً عن معرفة تَدْبِير حكمة الله خالقنا وخالقهم، ومثلما هم ناقصون جداً هكذا الذين هم أدنى منهم هم أنقص منهم بما لا يحد. والأعلى والأدنى ليس هو بالنسبة للمواضع والمنازل، بل بقياس القوة والأفهام يوجد فيهم المرتفعون والناقصون، أعني أنهم بالقوة الطبيعية وبالفهم يوجد منهم شيء أعلى من شيء، وحسب مقاديرهم تكون المعرفة الثاقبة الْعَظِيمة أو النزرة اليسيرة.

٩ – والتعليم الإلهي قد وضع لجميع الجواهر السمائية تسعة أسماء روحية وهي ثلاث طغمات مثلثة مفروزة: الطغمة الأَولى هم الجلوس (أي العروش)، أعني المراتب المرتفعة العالية

المقدسة، والشيروبيم الكثيرو الأعين، والسيرافيم ذوو الستة أجنحة. والطغمة الثَّانِية ذات الثلاث رتب هي السيادات والقوات والسلاطين. والطغمة الثَّالِثة المثلثة الأجزاء هي الأراخنة (أي الرئاسات) ورؤساء الملائكة والملائكة.

١٠ – وتفسير أسماء هذه الطغمات بالعبرية: السيرافيم أي الملتهبون المتوقدون؛ والشيروبيم كثيرو المعرفة وذوو حكمة فائضة؛ والجلوس قابلو (سُكنى) وراحة الله. «وقد سُميت هذه الرتبة بالمعقولين (أي ناظرين) ليس لأنهم ينظرون الأمور الرُّوحية كما لو كان بأمثال وأشباح محسوسة، أو أنهم يفهمون من الكتب المقدسة ما يخص الأزلية، بل لأنهم يمتلئون إشراقاً ونوراً أعظم من جميع المعرفة غير المتجسمة؛ ويمتلئون – حسب ما يؤذن لهم – من التاؤريا الأزلية المثلثة الإشراق، بشعاعات حُسن الباري (أصل) كل المحاسن؛ ويؤهَّلون للشركة مع يسوع، ليس بالتصور بأيقونات مقدسة يتصور فيها شبه اللاهوت بمثال، بل هم بالحقيقة قريبون منه، وترتسم فيهم أولاً معرفة الأنوار الإلهية، ويمتلئون من جهة اللاهوتية معرفة أزلية – بخلاف باقي الملائكة – بأفهام اللاهوت الأَولى (أي الأساسية) وإشراق واستضاءة بزيادة».

١١ – وكنية الرتب العالية (بحسب نوع خدمتها) هي: الجلوس لأنهم مكرَّمون؛ السيادات مُسلَّطون على الممالك؛ والرئاسات مدبرو الجو؛ والسلاطين ذوو السلطة على الشعوب وعلى كل وَاحِد من البشر؛ والقوات المخوف منظرهم والشديدو القوة؛ والسيرافيم المقدِّسون؛ والشيروبيم الحاملون؛ والمتيقظون (أي رؤساء الملائكة) هم الحراس الساهرون؛ والملائكة هم المرسَلون.

١٢ – في اليوم الأَوَّل خُلقت ثمانية طبائع، سَبْعةً منها بسكوت، ووَاحِد بالصوت (أي بأمرٍ منطوق) كما في خلقة النور؛ وفي اليوم الثَّانِي خُلقت السماء، وفي الثَّالِث مجمع المياه ونبات الأشجار، وفي الرَّابع قسمة الأنوار، وفي الْخَامِس الطيور والدبيب والأسماك؛ وفي السَّادِس الحيوانات والإنسان.

١٣ – أمَّا وضع هذا العالم جميعه طولاً وعرضاً، فرأسه الشرق ومنتهاه الغرب ويمينه الشمال وشماله التيمن (الجنوب). والأرض شبه السرير، والسماء العالية كالخيمة، والسماء الثَّانِية كالعَجَلة ملتحمة بالسماء الأَولى. وأطراف السماء والأرض متصلة بعضها ببعض، والأوقيانوس (المحيط) يربطهما كالحيّاصة (أي المِنطَقة). وإلى ههنا جبال شامخة ترتفع إلى السماء، والشمس تصنع مسيرتها الليل كله وراء تلك الجبال العالية. والبحر الأعظم إلى ههنا (بين الجبال) وهو ضابط أربعة أمثال اليابسة، والربع يابسة.

المَيْمَر العشرون (٣م)

على ثلاث رتب المعرفة، وإفرازات أعمالها ومعاني حركاتها؛ وعلى إيمان النفس والأسرار المخفية فيها؛ وإيضاح مقدار تضاد معرفة هذا العالم وحِيَلها مع بساطة الإيمان.

١ – إنَّ النفس السالكة سبل تدابيرها في طريق الإيمان، وقد نجحت في ذلك مرات كثيرة، إن عادت للالتفات إلى استعمال حِيل المعرفة، فهي تتعطل في الحال من الإيمان، وتُعدَم تلك القوة العقلية التي تكون منه، والتي تظهر ذاتها في النفس النقية بمعونات كثيرة ومؤازرات مختلفة، ويكون استعمالها كله بلا فحص أو تفتيش، بل بالبساطة فقط.

٢ – النفس التي أسلمت ذاتها لله بالإيمان مرة وَاحِدة، وقد اقتنت مذاقة مؤازرته ومعونته بتجارب كثيرة، لن يكون لها أي اهتمام بذاتها بعدُ، بل هي تلتجم بالصمت والدَهَش، ولا تعود مرة أخرى إلى استعمال حِيل المعرفة لئلا تقع فيما يضاد هذا الإيمان وتخيب من العناية الإلهية التي تفتقدها دائماً بصورة خفية، وتهتم بها في كل شيء وفي كل مكان. فهي (أي النفس) إن ظنت أنها تستطيع أن تتدبر بقوة معرفتها، تكون في الحقيقة قد ازدرت ومقتت ذاتها.

٣ – إنَّ الذين قد أشرق نور الإيمان في قلوبهم، لن يجسروا أن يصلُّوا من أجل ذواتهم، أو أن يطلبوا من الله قائلين: «أعطِنا كذا وخُذ منا كذا»، ولا أن يهتموا بتدابير نفوسهم بأي نوعٍ كان، بل بأعين الإيمان العقلية ينظرون كل حين العناية الإلهية وهي تظلل عليهم من عند الآب الحقيقي حيث قوة محبته التي لا قياس لها تفوق كثيراً كل محبة الآباء الجسدانيين، وهو القادر أن يعيننا بأكثر مما نسأل أو نفكر.

٤ – المعرفة البشرية هي ضد الإيمان؛ لأن الإيمان يُبطل كل سُنن المعرفة وشرائعها، ولست أقصد بذلك المعرفة الرُّوحية. لأن هذا هو شرط المعرفة أن لا يعمل الإنسان شيئاً من أموره بغير فحصٍ وتفتيشٍ ورَوِيَّةٍ، بل يفتش أولاً عن الأمر، إن كان يمكن عمله أم لا؛ أمَّا الإيمان فهو يعمل بدون فحص أو تفتيش. المعرفة ليس لها أن تعمل شيئاً دون استعمال الحِيل وأبواب تعرف أنها موجودة، وهذا دليل على التردد والشك تجاه الحق؛ أمَّا الإيمان فهو يطلب فكراً وَاحِداً نقياً بسيطاً مبتعداً عن كل تصنُّع وتحايل ومكر وتفتيش. فانظر إذاً كيف يضاد كل منهما الآخر.

٥ – بيت الإيمان هو الفكر الطفولي والقلب الساذج، حسب قول الكِتَاب إنهم «كانوا يمجدون الله بوداعة قلوبهم»، وقول الإنجيل: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات»؛ أمَّا المعرفة فهي مضادة لهاتين الاثنتين (أي الفكر الطفولي والقلب البسيط).

٦ – المعرفة تحفظ حدود الطبيعة في سائر طرقها؛ أمَّا الإيمان فهو يجعل مسلكه فوق الطبع. المعرفة تُبعد عنها كل ما كان مؤذياً للطبيعة؛ أمَّا الإيمان فيقول بإفصاح: «إن دُستَ على الحية الجرداء، أو وطئتَ الأسد والتنين فهي لا تؤذيك». المعرفة يتبعها الخوف والجبن؛ أمَّا الإيمان

فيتبعه الثقة والرجاء. وكلما سلك الإنسان بحيل المعرفة فهو لا ينعتق من الخوف ولا يؤهَّل للحرية، أمَّا إذا سلك بالإيمان فهو يتصرف بسلطان في كل شيء مثل حرٍّ ومالكٍ لنفسه وكابنٍ لله.

٧ – الإنسان الذي قد حظي بمفاتيح الإيمان (يسوس) كل الطبائع مثل الله. الإيمان له سلطان أن يخلق خليقة جديدة مثل الله! (وهو يقول): «اخترتَ الآن فقام كل شيء أمَّامك» (أي٢٣: ١٣). ومرات كثيرة يكون الإيمان قادراً أن يفعل الأشياء من لا شيء. أمَّا المعرفة فلا تستطيع أن تفعل شيئاً من غير مادة.

٨ – المعرفة لا تجسر على عمل شيء لم يُعطَ للطبع أن يفعله، مثل المشي على الماء بأقدام لحمية، أو الدوس على النار المتوقدة؛ ولا تجسر على أمورٍ خطرة، بل هي تحذر أن تتجاوز هذه الحدود. أمَّا الإيمان فيأمر بسلطة ويقول: «إن وطئتَ النار لا تحرقك، وإن مشيتَ على الماء لا يغرقك» (إش٤٣: ٢)؛ وهذه الأعمال صنعها الإيمان أمَّام الخليقة بأسرها، (ولو قُدِّرَ للمعرفة أن تفحصها لَمَا فعلتها). لأن كثيرين قاموا وسط النار ولم تحرقهم، ومشوا على البحر كما على أرض يابسة، وهذه أمور فوق الطبيعة، وهي تضاد أبواب المعرفة. انظر إذاً كيف زعزع الإيمان أبواب المعرفة وجعل كل سننها وشرائعها باطلة؟! ومَيِّز كيف يجسر الإيمان أن يصنع سيره فوق حدود الطبيعة؟

٩ – إنَّ حيل المعرفة ظلت تدبر العالم خمسة آلاف سنة وأكثر، ولم تستطع أن ترفع رأس الإنسان من الأرض أو تجعله يحسُّ بقوة خالقه، حتى ظهر الإيمان وأعتقنا من شقاء الأرضيات ومن العبودية الباطلة ومن كدر الطياشة في الأعمال الأرضية. ولكننا الآن وبعد أن وجدنا البحر الذي لا قرار له والكنز الذي ليس له حد، نشتهي أن نرجع إلى النزير الفقير!

١٠ – ليست هناك معرفة غير مفتقرة ولا محتاجة، حتى ولو كانت موسرة جداً. أمَّا الإيمان فكنوزه السماء وما تحويها، ولا يعوزه شيء. والذي يسند قلبه بثقة الإيمان وإن لم يقتنِ شيئاً فله بالإيمان كل شيء، كقول الإنجيل: «كل شيء تطلبونه في صَلَوَاتكم بإيمان تنالونه»؛ وأيضاً قيل إن «رَبِّنَا قريب فلا تهتموا بشيء» (في٤: ٥و١٦).

١١ – المعرفة تطلب التحايل لكي تحفظ مقتناها، أمَّا الإيمان فيقول: «إن لم يبنِ الرب البيت ويحفظ القرية فباطلاً تعب الذي يبني ويسهر». الذي يتمسك بالإيمان لا يمكنه أن يستعمل الحِيَل. المعرفة في كل وقت تمدح الخوف حسب قول الحكيم: «الخائف القلب طوباه» (سي٣٤: ١٦)، أمَّا الإيمان فقال: «لمِّا خاف ابتدأ يغرق» (مت١٤: ٣٠)؛ وأيضاً قال الرسول: «لم تأخذوا روح العبودية لتجزعوا، بل روح البنوة» والعتق بالإيمان بالله؛ وأيضاً: «لا تخف لئلا أكسرك قدامهم».

١٢ – الخوف يتبعه الشك والتردد في كل حين؛ والشك يتبعه الفحص والتفتيش؛ والفحص يتبعه التحايل؛ والتحايل هو من المعرفة، وتفتيشها وفحصها كل حين يدل على الخوف والشك.

لأن المعرفة – كما قلنا سابقاً – لا تصيب ولا تنجح في كل وقت؛ فكثيراً ما تعرض للإنسان عوارض صعبة وعلل عسرة مملوءة مخاطر، يستحيل على الحكمة والحِيَل أن تنجِّيه من صعوبتها لأنها تفوق حدود كل معرفة بشرية؛ أمَّا الإيمان فلا يُغلب من شيء. فما هو نفع المعرفة وبماذا تؤازر وتعين في الحروب الظاهرة الحادثة من الطبائع (غير) المنظورة والقوات المتجسمة وغيرها؟ لقد تبين لك الآن ضعف المعرفة وعجزها وقوة شجاعة الإيمان وعظمتها.

١٣ – المعرفة تمنع تلاميذها من كل شيء غريب عن الطبيعة. (ولكن) انظر قوة الإيمان وكيف يأمر أولاده قائلاً: «باسمي تُخرجون الشياطين وتدوسون الحيات، وإن شربتم السمَّ القاتل فلا يؤذيكم». المعرفة تأمر كل من يسير في طرقها إنه إذا أراد أحد أن يفعل أمراً ما فينبغي أن يفحص عما يحدث منه في النهاية من قبل أن يبدأ فيه، لئلا تفوق القوة المطلوبة لعمله حدود القوة البشرية فينتهي عمله إلى الباطل ويوجد الأمر في النهاية أنه عَسِرٌ جداً وغير مستطاع. أمَّا الإيمان فيأمر ويقول: «كل شيء ممكن للذي يؤمن»، و«ليس شيء عسير عند الله».

+ يا للغنى الذي لا يُنطق به، ويا للبحر الزاخر بالأمواج! ويا لفيض قوة الإيمان! ما أكثر عزاءه وثقته؛ وما أحلى السير معه! وما أسهل وِسق (أي حِمل) الإيمان وما أهنأ عمله!

١٤ – إن الذي استحق مذاقة الإيمان وعاد إلى المعرفة النفسية بشبه مَن قد وجد جوهرة ثمينة جداً وقايضها بفلس نحاس، وترك الحرية المتسلطة ورجع إلى مَسكنة التحايل المملوء من خوف العبودية؛ ليس لأن المعرفة مرذولة، بل لأن الإيمان هو أرفع وأشرف منها. وإذا ازدرينا بالمعرفة فلسنا نزدري بها (حاشا!)، بل بالرتب المختلفة التي تسير بها بما وجدته الطبيعة في العالم، تلك الأشياء المناسبة لطغمات الشياطين، ونحن نفرزها ونبين كم من الدرجات تسير فيها المعرفة وصفات كل درجة منها، وبأية حركات تزهر في كل رتبة من تلك الرتب إذا ثبتت فيها، وبأي نوع من هذه الرتب إذا سارت فيه تصبح مضادة للإيمان وتخرج عن الطبيعة، وأية اختلافات بينها، وأي ترتيب إذا رجعت إليه تعود إلى قصدها الأَوَّل وترجع إلى طبعها القديم وتُصلح الدرجات والسبل قدَّام الإيمان بتدابيرها الحسنة. وإلى أي حد توصلها أمور هذه الرتبة وكيف ترتفع منها إلى ما هو أعلى وأرفع منها، وما هو عمل هذا الطقس الآخر وكيف يكون الأَوَّل؛ ومتى تتحد المعرفة بالإيمان وتصير معه وَاحِداً وتستمد منه حركات نورانية وتشتعل بالرُّوح وتقتني لواحظ عدم الآلام وترتفع من خدمة الأرضيات إلى بلد خالقها، مع مقاصد أنواع أخرى. ومن هذا ينبغي أن نعلم أن عمل درجات الإيمان هي أرفع من المعرفة. لأن المعرفة هي أيضاً تكمل بالإيمان وتقتني به قوة لتصعد إلى فوق وتحس بذاك الذي هو أرفع وأعلى من كل إحساس، وتنظر إشراقه الذي لا يُدرك ولا يوصف (بالذهن) ولا بمعرفة المخلوقات.

١٥ – المعرفة هي درجات يصعد بها الإنسان إلى علو الإيمان، وإذا وصل إلى هناك لا يعود محتاجاً إليها. لأننا «نعرف قليلاً من كثير، ونفهم قليلاً من كثير، وإذا أتى الكمال بَطل ذلك القليل» (١كو١٣: ١٠). والإيمان يُرينا حقيقة ذلك الكمال المزمع كما بأعين، لأننا بالإيمان

نتعلم ونعرف ذلك الشيء غير المدرك، وليس بالفحص وقوة المعرفة.

١٦ – إن جميع أعمال البر سواء كانت صوماً أو صدقة أو سهراً أو طهارة مع بقية الفضائل الأخرى التي تُعمل بالجسد؛ ومحبة القريب، واتضاع القلب، وترك الزلات، والهذيذ بالصلاح، وفحص الأسرار المخفية في الكتب المقدسة، ومفاوضة الذهن بعمل الفضائل التي تكمل بالنفس؛ كل هذه الأعمال تفتقر إلى المعرفة وهي التي ترتبها. وهي كلها درجات تصعد بها النفس إلى علو الإيمان المرتفع وتُدعى فضائل. أمَّا سيرة الإيمان فهي فوق الفضيلة، وعملها ليس فيه تعب بل راحة تامة وعزاء وكلام في القلب، وتكمل بحركات النفس.

١٧ – وكل الرتب التي للسيرة الرُّوحانية، عملها هو الإحساس بالحياة الرُّوحية وتَنعُّم النفس وسرورها ومحبة وفرح بالله. وسائر الأشياء التي تُعطى للنفس التي أُهِّلت بالنعمة لتلك السعادة في هذه السيرة المقدسة حسبما تشير إليه الكتب المقدسة، تكمل للنفس ههنا بالإيمان من عند الله الغزير العطايا.

١٨ – فإن قال أحدٌ: إن كانت هذه الخيرات جميعها وأعمال الفضيلة، وكل ما ذكرناه سابقاً، والبعد عن الشرور، وفرز الحركات اللطيفة (أي الدقيقة) المزهرة في النفس، ومعاندة الأفكار، والجهاد مقابل الآلام المخزية وغيرها، التي بدون عملها لا يقدر الإيمان أن يظهر قوته بفعله في النفس، إن كانت هذه كلها يكمل عملها بالمعرفة، فكيف تُعتبر المعرفة مضادة للإيمان؟

١٩ – لإبطال هذا الشك نقول: هناك ثلاث رتب عقلية تصعد وتنزل فيها المعرفة. فبحسب غيار المنازل والبلدان التي تسير فيها هكذا هي أيضاً تتغير وتنفع أو تضر؛ وأعني بقولي البلدان الجسد والنفس والرُّوح. والمعرفة وإن كانت وَاحِدة بطبيعتها إلا أنها تتلطف (أي ترقّ) وتتغير أنواعها وأفعال حركاتها بما يتفق مع هذه المنازل العقلية أو الحسية. ولهذا افهم الآن ترتيب عملها والأسباب التي من أجلها تنفع أو تضر.

٢٠ – المعرفة هبة من الله، جاد بها على طبيعة الناطقين، وقد أعطاها لهم من بدء خلقتهم. وهي بسيطة غير منقسمة في طبيعتها مثل نور الشمس، وهي تقتني غيارات وأقسام حسب العمل بها واستخدامها.

الرتبة الأُولى من المعرفة

٢١ – إذا كانت المعرفة مائلة لمحبة الجسد فهي تجمع الذخائر الآتية: الغنى، المجد الفارغ، الكرامة، التصلف، راحة الجسد والتحيُّل في حفظه من الأشياء المضادة لطبيعته، الحرص على تحصيل الحكمة المنطقية التي تصلح لتَدْبِير هذا العالم ولتصنيف صنائع جديدة وتعاليم وابتداع أشياء تزيِّن هذا الجسد المنظور. وهذه جميعها هي من الخاصيات التي تضاد الإيمان. وهذا النوع من المعرفة يُدعى معرفة ساذجة لأنها متعرية من كل هذيذ (أو اهتمام) إلهي، وهي تجلب على العقل ضعفاً لا يُنطق به لأجل تمسكها بالجسد ولأن كل اهتماماتها هي بهذا العالم.

٢٢ – هذا الصنف من المعرفة لا يؤمن بوجود قوة عقلية ومدبر خفي أو عناية إلهية تهتم بالإنسان وتحفظه، بل يعتقد أن كل الخير الذي يكون للإنسان وكل صلاح يحدث له ونجاته من المؤذيات وحفظه من العوارض الصعبة والمضادات الكثيرة التابعة للطبيعة ظاهراً وخفياً، إنما تحدث كلها من حرص الإنسان وتحيُّله وحسن سياسته.

٢٣ – كما أن هذا الصنف من المعرفة يناسب قول أولئك الذين يعتقدون أنه لا يوجد مدبِّر يسوس هذه المنظورات، ولهذا لا يمكنها أن تخلو من الاهتمام المستمر والخوف من أجل الجسد. ولأجل هذا يستولي على الإنسان صغر النفس والكآبة واليأس والخوف من الشياطين والرعب من الناس ومن أخبار اللصوص والسماع عن الموت والوبأ والأمراض والاهتمام بعوز ما تحتاج إليه الطبيعة من القوت، والرعب من الموت والجزع من الدبيب وما شابه ذلك من أمور (تجعل المعرفة) مثل البحر الذي تضربه الأمواج وتسجسه في كل أوقات الليل والنهار. ولأن هذه المعرفة لا تعرف أن تلقي همها على الله بثقة الإيمان به، ومن أجل هذا تستعمل التحيُّل والتصنع في جميع تدابيرها؛ فإذا ما بطلت حِيلها لأي سبب من الأسباب، فلأنها لا تنظر السياسة الخفية، فهي تخاصم الناس وتعاديهم كما لو كانوا هم الذين يعوقونها ويؤذونها ويبغضونها.

٢٤ – هذا الصنف من المعرفة مغروسة فيه شجرة معرفة الخير والشر، وهي قطع أصل الحب، وتفتيش عيوب الناس وزلاتهم وضعفاتهم، والمناقضة بالجدال وترديد الكلام، والصنائع والمكر وبقية الحِيل التي تعيب الإنسان. كما أنه يُوجد في هذا الصنف التجلل (أي الانتفاخ) والعظمة والافتخار بأن ينسب الإنسان كل شيء فيه سلامه إلى نفسه وليس إلى الله.

٢٥ – أمَّا الإيمان فينسب كل أعماله إلى نعمة الله، ولذلك لا يمكنه أن يتعظم، حسب قول الرسول: «أستطيع كل شيء بقوة المسيح»، و«لست أنا بل نعمته التي معي». وأمَّا قول الرسول بأن «المعرفة تنفخ»، فقد عَنى به هذا الصنف من المعرفة غير الممتزجة بالإيمان والثقة بالله وليس المعرفة الحقيقية، حاشا أن يكون ذلك. لأن المعرفة الحقيقية تكمِّل نفوس واجديها بالاتضاع، مثل موسى وداود وإشعياء وبطرس وبولس وبقية الرسل والقديسين الذي أُهِّلوا للمعرفة الكاملة حسب حدود الطبيعة. فقد كانوا مُفعمين بالمناظر والاستعلانات الإلهية؛ وكانت معرفتهم تُبتلع على الدوام بالنظرة العالية الرُّوحانية والأسرار التي لا يُنطق بها. وبقياس هذه كانوا يرون أنفسهم تراباً ورماداً.

٢٦ – أمَّا تلك المعرفة الأخرى فهي بالضرورة «تنفخ»، لأنها تسير في الظلام، وتُشبِّه أمورها بقياسها بالأرضيات، ولا تعلم أنه يوجد شيء آخر أفضل منها. وهكذا فكل الذين يلتصقون بهذه المعرفة يوازنون تَدْبِيرهم بما يضاهي العظمة والأرضيات وأمور الجسد، ويستندون على العمل، ولا يقنعون عقلهم بالأمور غير المدركة.

٢٧ – أمَّا أولئك الذين يهدسون (أي يفكرون) بأمواج لجة شعاعات اللاهوت الممجد، وعملهم هو في العلاء، فلا تميل أفكارهم لتهدس بالخرافات والأفكار الباطلة. لأن السائرين في النور لا

يمكنهم أن يضلوا؛ ولهذا فكل الذين هم عادمون من نور معرفة ابن الله يزوغون عن الحق ويسيرون في هذه السبل (التي ذكرناها). وهذه هي المرتبة الأَولى من المعرفة التي يتبع فيه الإنسان محبة الجسد، وهي التي نرذلها وندعوها ضداً ليس فقط للإيمان بل ولكل أعمال الفضيلة.

الرتبة الثَّانِية من المعرفة

٢٨ – إذا ما نبذت المعرفة الغرض الأَوَّل (أي محبة الجسد)، ورجعت إلى الهذيذ بمحبة النفس (أي بما تحبه النفس)، فهي تعمل جميع الفضائل التي ذكرناها بحركات النفس، بنور طبيعتها مع (مؤازرة) حواس الجسد. وهذه الأعمال هي: الصَّوْم والصلاة والرحمة، وقراءة الكتب المقدسة بقصد الفضيلة، وتعلُّم الجهاد مقابل الآلام والشياطين وغيرها. وباختصار فإن جميع الأعمال الحسنة والإفرازات والمعاني الفاضلة التي تنظر في طبيعة النفس، والترتيبات (طقوس الخدمة) الموجودة في بيعة المسيح، يتممها الرُّوح الْقُدُس بفعل قوته في هذا الصنف المتوسط من المعرفة.

٢٩ – هذه المعرفة تطرق السبل التي توصل العقل إلى الإيمان، وبها يجمع زاداً (لمسيرتنا) لذلك العالم الحقيقي. لكن المعرفة تبقى حتى الآن معرفة جسدية ومركَّبة، ولو أن هذيذها هو بالفضيلة، وهي الطريق التي توصلنا إلى درجة الإيمان، إلا أنه توجد رتبة أخرى أرفع من هذه وأفضل. فإن نجحت ونشطت وأظهرت تقدماً بمعونة المسيح، فحينئذ يمكن للإنسان أن يرتقي إلى تلك الرتبة الثَّالِثة، إذا وضع أساساً لعملها السكون من الناس، والهرب من المحادثات، والمفاوضة بقراءة الكتب المقدسة، ومداومة الصلاة، وبقية أعمال الصلاح التي تُكمِّل بها كل ما يخص الرتبة الثَّانِية. وهذا هو الصنف الثَّانِي من المعرفة التي بها تُعمل كل الحسنات، وهي تُدعى معرفة الأعمال، لأنها تكمِّل أعمالها بالأفعال المحسوسة من خلال حواس الجسد على المستوى الخارجي.

الرتبة الثَّالِثة من المعرفة

٣٠ – اسمع الآن كيف ترقُّ المعرفة وتتلطف، وتقتني اتساعاً، وتشابه سيرة القوات غير المنظورة التي خِدمتها ليست هي بأفعال محسوسة، لكنها تكمل بهذيذ العقل فقط.

٣١ – إذا ما ارتفعت المعرفة عن الأرضيات وهَمِّ الأعمال، وبدأت حركاتها تمتحن الأشياء المخفية عن نظر العينين، وازدرت ومقتت جزئياً تذكارات الأمور التي يتولد منها انحراف الآلام والتواؤها، وبسطت ذاتها إلى العلو والتصقت بالإيمان بهذيذ العالم المزمع ومحبة المواعيد والفحص عن الغوامض، عند ذلك يَبتلع الإيمان المعرفة (ويحوِّلها) ثم يلدها من جديد حتى تكون كلها بالرُّوح.

٣٢ – عندئذ تتمكن (المعرفة) من التطواف في بلد غير المتجسمين وتجسُّ أعماق بحر السياسة الإلهية العجيبة الذي ليس له قرار، الموجود في الطبائع العقلية والحسية، وتفحص عن أسرار الرُّوح التي تُدرك بالعقل البسيط الرقيق (الشفاف)، عندما تنتبه الحواس الداخلية لعمل الرُّوح حسب ذلك التصرف (النظام) الذي لا ميتوتة فيه ولا فساد؛ لأنها تقبل القيامة العقلية من ههنا بالسر، دليلاً حقيقياً على ذلك التجديد العام.

٣٣- في هذه الرتب الثلاث ينحصر ويُحدُّ كل تَدْبِير الإنسان، إن كان بالجسد أو بالنفس أو بالرُّوح. لأنه من الوقت الذي يبدأ الإنسان فيه أن يفرز بين الجيد والرديء وإلى أن يخرج من العالم، تتداخل معرفة نفسه بهذه المنازل الثلاث. ونهاية كل إثم ونفاق، وحدُّ كل البر وجميع العدل، وحسُّ أعماق كل أسرار الرُّوح، هذه تفعلها معرفة وَاحِدة في هذه الرتب الثلاث، وفيها تكون كل حركات العقل التي بها يصعد ويهبط، إن كان بالصلاح أو بالشرور، أو بما هو وسط بين هذين الأمرين.

٣٤ – وهذه الرتب الثلاث يدعوها آباؤنا: الطبع، وخارج الطبع، وفوق الطبع؛ ولهذه الثلاثة وجوه (أي مستويات) يتعالى أو ينزل تذكار النفس الناطقة. وحسب قول أوغريس: إن كان بالطبع فهي تفعل البر، أو فوق الطبع يُختطف تذكارها بالتاؤريا الإلهية، أو خارج الطبع حيث تذهب لترعى الخنازير مثل ذاك الذي ضيَّع غنى إفرازه بعمله مع الشياطين.

مُلخص مراتب المعرفة الثلاث

٣٥ – المنزلة الأَولى من المعرفة هي التي تلد برودة النفس وتشتتها عن أعمال البر والصلاح. والمنزلة الوسطى من المعرفة هي التي تُلهب النفس وتُبهجها بحرارة السير بدرجة الإيمان. وفي المنزلة الثَّالِثة تتخلف النفس عن العمل، وهي مثال ذلك التصرف الذي يكون بعد القيامة، حيث تتنعم النفس بهذيذ العقل في الأسرار المزمعة.

٣٦ – ولأنه إلى الآن لم يرتفع الطبع من رتبة الميتوتة ومن ثقل الجسد لكي يكون بالكمال في تلك المرتبة الرُّوحانية المرتفعة عن الميلان، فهو لا يستطيع أن يسلك بكمالٍ لا عَوَزَ فيه وهو في عالم الميتوتة هذا، و(لا يقدر أن) يترك طبيعة الجسد كلياً مادام هو الآن عائشاً فيه. لأنه ينتقل بالتغيير من حال إلى آخر؛ فهو حيناً يكون كمسكين ومعوز تتفاوض نفسه في الرتبة الوسطى من المعرفة بالفضائل التي قد وضعت في طبيعتها للاستعمال من أجل طبيعة الجسد؛ وفي حينٍ آخر يكون مثل الذين قد نالوا روح كنز البنوة، فتتنعم النفس بموهبة الرُّوح حسب ما يحسن بإنعام المُعطي المانح، ولكنها لا تلبث أن تعود لمسكنة عالمها، أي الجسد الذي تعيش فيه. وهي تكون دائماً مفتقرة إلى الاحتراس لئلا يسبيها بالشهوات الموجودة في عالمه بحركاته المسجِّسة والمائلة.

٣٧ – إن النفس طالما كانت محصورة داخل حجاب الجسد، فهي لا تكون لها ثقة، لأنه ليس في العالم عتق ولا حرية كاملة، بل إن كل عمله تعب وتدريب. أمَّا أعمال الإيمان فهي لا تُعمل بالتعب، ولكنها تُتمم بالحركات الرُّوحانية بفعل النفس الذي يفوق الحواس. فكما أن المعرفة هي ألطف (أي أدق) من الأفعال المحسوسة، كذلك الإيمان هو ألطف من المعرفة وأرق.

٣٨ – وجميع القديسين الذين أُهلوا للتَدْبِير الرُّوحاني الذي هو الدَهَش بالله، يتدبرون بقوة الإيمان بتنعم ذلك التَدْبِير الذي هو فوق الطبيعة. ولا أعني بالإيمان هنا أن يؤمن الإنسان بفرز (أي تميز) أقانيم الأزلية المسجود لها وخاصيات طبعها، والسياسة الإلهية العجيبة، والتَدْبِير الذي حصل للبشر بتجسده من طبيعتنا – وإن كان هذا (الإيمان) هو عظيم جداً – بل أعني بالإيمان ذلك النور الذي يشرق في النفس من النعمة، ويسند القلب بشهادة الضمير، ويثق بغير تَقسُّم (تردد) بيقين الرجاء المبتعد من كل الظنون (أي الغرور)، وليس من التقليد وسماع الأذن؛ ويكشف لها – بالعين الرُّوحية – الأسرار المخفية في النفس وغنى اللاهوت المكتوم والمستتر عن أعين الجسدانيين، ويظهر بالرُّوح للذين يتربُّون على مائدة المسيح بهذيذ شرائع سننه، حسب قوله: «إن حفظتم وصاياي أرسل إليكم الباراقليط روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، وهو يُظهر لكم كل الحق». وهكذا يظهر للإنسان القوة المقدسة التي تحل عليه في كل وقت وزمان، (والحفظ يكون بتلك القوة العقلية التي تحميه دائماً وتبعد عنه كل أذية فلا تلمس نفسه ولا جسده. والذهن المضيء يدرك هذه القوة المقدسة بعيني الإيمان، ويقتني القديسون معرفة أكثر عنها بالخبرة).

٣٩ – هذه القوة هي هي الباراقليط، الذي بقوة الإيمان يشعل كل أجزاء النفس كما بنار، فيجعلها تجسر على كل المخاطر بسبب ثقتها بالله واتكالها عليه؛ وبلواحظ (عيون) الإيمان ترتفع من دائرة هذه الخليقة المنظورة. ويكون الإنسان كالسكران على الدوام بدَهَش الاهتمام فيما لله، وبالنظر غير المركَّب والأفهام غير المنظورة على الطبيعة الإلهية، وينتبه العقل لينظر بالهذيذ في أموره الخفية.

٤٠ – فإلى أن يأتي ذلك الذي هو كمال الأسرار، ويؤهَّل الإنسان بغتة لاستعلاناته، يخدم الإيمان ههنا بين الله والقديسين أسراراً لا يُنطق بها. فليجعلنا المسيح مستحقين لها ههنا عربوناً وهناك في حقيقتها في ملكوت السموات مع جميع محبيه آمين.

المَيْمَر الحادي والعشرون (٤م)

في أحوال ومعاني وصفات أنواع المعرفة

١ ــ المعرفة إذا كانت تطيش في المنظورات، وتقبل التعليم عنها بالحواس فهي تُدعى عندئذ معرفة طبيعية. وإذا كانت منشغلة في داخلها بالقوات العقلية وبالطبائع غير المتجسمة، فهي تُدعى معرفة روحانية؛ لأنها تقبل الحسَّ بالرُّوح وليس بالحواس. وهذان الأمران (الإحساس بالحواس وبالرُّوح) يكون مصدرهما من مادة خارج النفس.

٢ ــ وإذا كانت المعرفة (منحصرة) في الأزلية، فهي تُدعى «فوق الطبع»، و«عدم المعرفة» التي هي أعلى من كل معرفة؛ والنفس لا تقبل التاؤريا عليها أو التصور بها من غير مادة خارجاً عنها مثل المعرفتين الأَوَّلِيْتَين، بل من غير مادة تظهر بغتة داخلها دون توقع، إنعاماً من الله؛ لأن ملكوت السموات هو داخلنا ولا يأتي من مكان آخر بانتظار أو مراقبة حسب قول رَبِّنَا، ولكنه يظهر من الداخل في صورة العقل الخفي من غير علة ولا سبب وبدون هذيذ فيه، لأن العقل ليس فيه مكان لأي مادة من أجله.

٣ ــ المعرفة الأَولى تأتي من التعليم الدائم والحرص على (اقتناء) الحكمة. والمعرفة الثَّانِية تكون من التدابير المتقنة وإيمان العقل. أمَّا المعرفة الثَّالِثة فتكون من الإيمان فقط، فهناك تبطل المعرفة ويُوضع حدٌ للأعمال، ويكون استعمال الحواس زيادة لا حاجة لها. وكلما انحطت المعرفة عن هذا الحد ثَقُلت، وإذا زاد انحطاطها ثَقلت أكثر، فتصل إلى الأرض والأرضيات. فالمعرفة هي سيدة كل شيء، وبدونها تصير كل الأشياء معطلة وباطلة.

٤ ــ أمَّا إذا رفعت النفس نظرها إلى فوق، وبسطت لواحظ حركاتها إلى السمائيات، واشتاقت لذلك الشيء الذي لا يُرى بأعين الجسد، وليس للَّحم سلطان عليه، عند ذلك بالإيمان يقوم كل شيء؛ (الذي نرجو أن يهبنا إياه الرب يَسُوع الْمَسِيح المبارك إلى دهر الداهرين آمين).

المَيْمَر الثَّانِي والعشرون (٢٥م)

على أنواع الصلاة وبقية الأشياء التي يضطر الإنسان إلى تذكارها على الدوام، ويحتاج إليها جداً وتنفع كثيراً إذا قرأها بتمييز وتمسك بها

١ – أن يتيقن الإنسان (من استجابة) صلاته وطلباته بثقة واتكال على الله، فهذا جزء كبير من مواهب الإيمان. وتحقيق الإيمان بالله ليس هو صحة الاعتراف – وإن كانت هذه هي أمُّ الإيمان – بل إنما أعني النفس الناظرة في حقيقة الله، وذلك بقوة تدابير سيرتها الفاضلة.

٢ – عندما تجد الإيمان في الكِتَاب المقدس مخلوطاً بالتدابير، فلا تظن أن هذا يشير إلى صحة الاعتراف فقط؛ لأن الإيمان الذي يُعطِي يقين الثقة لا يُطلب من غير المعمَّدين، أو من الذين فسد ضميرهم وزاغ عن معرفة الحق، أي الهراطقة، بل إن حقيقة الإيمان تظهر ذاتها في النفس حسب مقياس تداخلها في السيرة بقصدٍ وغرضٍ يليق بوضع وصايا رَبِّنَا التي هي نور النفس وضياؤها.

٣ – الهذيذ الدائم في الكتب المقدسة يرسم في العقل تذكارات نافعة للتحفظ والاحتراس من الآلام، والمداومة مع الله بالمحبة وطهارة الصلاة، وتُقوِّم أمَّامنا طريق السلام التي وطئتها أقدام القديسين.

٤ – لا تتكل على علاَّمَات الألفاظ إن لم يتبعها يقظة كثيرة وحزن متصل في الصَلَوَات كل وقت (من أوقات الخدمة). الكلام الذي يقال عن خبرة وحنكة اقبله بالضرورة حتى ولو كان قائله ساذجاً أميّاً؛ لأن كنوز الملك الأرضية لا تأبى أن تقبل زيادة من فلس الفقير، ومن نزيزات صغيرة يتجمع نهر غزير الفيض.

٥ – إن كان ذِكر الفضلاء يجدد فينا شهوة الفضيلة إذا ما تفاوضنا معهم بأفكارنا، فإن ذكر الفسقة أيضاً يجدد في ضميرنا الشهوة النجسة إذا ما ذكرناهم. لأن ذِكر أي منهما يرسم في عقلنا إفراز (نوع) أعماله، ويشير لنا كما بإصبعٍ مُظهراً رذائل أعمال هؤلاء، أو شرف ارتفاع فضائل سيرة أولئك. وتضطرنا محادثة الذِكر إلى الميلان أمَّا لليمين أو لليسار، وأن يهدس بها في فكرنا في الخفاء؛ وتصوُّر نوع سيرتهم في خيال فكرنا يضطرنا إلى النظر إليها بحرص. وليس الهذيذ (في هذه الأمور الباطلة) فقط هو الذي يؤذي المتمسك به، بل وأيضاً نظر وذِكر الذين يعملونها. كذلك ليس عمل الفضائل فقط هو الذي ينفع مُكمِّليه جداً، بل وأيضاً الخيال المتصوَّر (في الذهن) من ذِكر وجوه عاملي الفضيلة.

٦ – ومن ههنا نستدل على أن الذين اقتربوا من الوصول إلى رتبة الطهارة يؤهَّلون على الدوام لنظر أناس قديسين في (رؤى) الليل، وتكون لهم في النهار مادة للجَذَل (أي الفرح) والانشراح بالمفاوضة العقلية بفكرهم. لأن منظر القديسين إذا ما ارتسم في النفس يزيد فيها

حرارة عمل الفضائل، ويشعل فيها ناراً مضطرمة بمحبة الفضيلة. ويقال أيضاً إن الملائكة القديسين يتخذون شكل أناس فضلاء قديسين ويظهرون للنفس في خيالات النوم في طياشة حركاتها، وذلك لأجل الفرح والبهجة الزائدة. وفي النهار أيضاً يُحركون هذه المناظر في أفكارهم، فيخفَّ عليهم تعب النهار بسبب سرورهم بهؤلاء القديسين، وبهذا يزيدون على عملهم وجريهم.

٧ – وهكذا أيضاً في وقت تواتر الحروب؛ لأن مَن اعتاد دائماً على التنازل للمفاوضة الرديئة تصنع الشياطين معه هكذا وتتشكل وتأخذ لنفسها أشباهاً وخيالات وتُظهر للنفس مناظر تثيرها بزيادة، وتذكِّرها في النهار بهذه الأشياء التي أظهروها لها في الحلم. وفي أحيان أخرى ترعب النفس وتزعجها بمناظر مخيفة فتضعفها وتظهر لها صعوبة سيرة السكون والوحدة وأمور أخرى.

٨ – أمَّا نحن، يا إخوتي، فينبغي أن يكون لنا إفراز لهذه التذكارات ونعرف بأي نوع منها نتفاوض بهذيذنا، ولأي نوع نطرد منا عاجلاً حال اقترابه من فكرنا، سواء كان من فعل الشياطين الذين يُلقون فينا مادة الآلام أو الغضبية، أو كان من الملائكة القديسين الذين يمنحوننا إشارات تُوجب الفرح والمعونة لأفكارنا ويحركونها فينا لقربهم إلينا، أو من ذكر الأمور القديمة والتأثر بها تتحرك فينا أفكارٌ تليق بأحد هذين النوعين (أي التذكارات التي من الشياطين والتي من الملائكة). وبتجربة هذين الأمرين بمعرفة مُفرِزة نقتني نظرهم أو مفاوضتهم أو فِلاحة أعمالهم، ونختبر كل وَاحِد من هذين الصنفين في الحال بصلاة خاصة تليق به.

٩ – الحب الذي يكون سبب قيامه من الأشياء هو كالشعاع الصغير الذي يتغذى بالزيت وقيام نوره منه، وهو كالنهر الذي يتجمع من المطر، لأنه عندما تنقص مادة قيامه (أي عندما يتوقف المطر) تبطل حدّة مجاريه (شدة تدفقه). أمَّا الحب الذي من الله فهو مثل ينبوع تتدفق المياه من أعماقه فما يتوقف جريانها. لأن الرب هو وحده ينبوع الحب الذي لا تنقص مادة كنزه أبداً.

١٠ – إن شئتَ أن تتنعم في مَزَامِير خدمتك وتقتني الإحساس بكلام الرُّوح المقول لك، اترك عددها ولا تهتم بمعرفة المقادير، ولتكن قراءتك الاستيخونات بقصد وغرض الصلاة، واترك عنك تلاوة العادة. وافهم ما أقوله لك: الكلام الذي قيل بأسلوب السِّير اجعل عقلك ينظر فيه وأنت تتلوه (كما لو كنت تتأمل) في سياسة الله، لكي تنتبه نفسك للأفهام الْعَظِيمة الموجودة بها بالدَهَش والتعجب من تَدْبِير الله؛ ومن ههنا تتحرك أمَّا للتمجيد أو للحزن النافع. والكلام الذي قيل بأسلوب الصلاة خُذه على نفسك، لكي إذا تثبت فكرك في هذه (التأملات) يزول عنك الاضطراب.

١١ – ليس في عمل العبودية سلام للفكر، ولا في حرية الأَوَّلاد سجس الخباط (التشويش) الذي من شأنه أن يمتص مذاقة الأفهام ويسلب التمييز (أي المعاني) الذي فيها، مثل العَلَقة التي تمتص حياة الجسد ودم أعضائه. لأن الخباط ينبغي أن يُدعى مركبة الشيطان، لأن

الشيطان مثل النوتي من عادته أن يركب على العقل بشكل دائم، ويأخذ معه حشود الآلام ويدخل النفس الشقية ويغرقها في هوة الخباط.

١٢ – وافهم هذا أيضاً بإفراز: أن لا تكون تلاوة الكلام بألفاظ تزميرك وصلاتك كمن يقولها عن آخر غريب، لئلا يُظن أنك تقوم بعمل المراسلة، وتخيب تماماً من الحزن والفرح الموجود فيها، بل قل الكلام عن ذاتك بتضرع وحزن وتحقق من أنك تقوم بذلك مثل من يقوم بعمل يخصه بالحقيقة.

١٣ – الضجر يتولد من طياشة الأفكار؛ والطياشة تحدث من البطالة من الأعمال والقراءة، ومن المحادثات واللقاءات الباطلة، ومن ملء البطن.

١٤ – إذا كنا لا نستعمل ترديد الأفكار مقابل المتكلمين فينا من الداخل، بل نقطع كلامهم بتضرع الصلاة، فهذا دليل واضح على أن العقل قد اقتنى حكمة وقوة من النعمة، وقد عتقته معرفته الحقيقية (من الأتعاب الكثيرة) باكتشافه سُبلاً قاطعة وإدراكه طريقاً (وَاحِدة) قطع بها دورات وطرق متعددة. لأنه ليست لدينا في كل وقت قوة لنحارب كل الأفكار المضادة ونسكتها بترديد الكلام مقابلها؛ بل قد يعرض لنا في بعض الأحيان أن نُجرح منها بجراح يصعب شفاؤها لزمن طويل. أتقيم نفسك في المجادلة وترديد الكلام مقابل الذين لهم ستة آلاف سنة؟! إنهم أيضاً هم أكثر استعداداً منك، ولهم أشياء يجرحونك بها أكثر من حكمتك وفطنتك. فحتى لو أنك غلبت الأفكار فإن عقلك يتسخ منها، وتمكث رائحة نتنها في أنفك زمناً طويلاً. أمَّا بالنوع الأَوَّل (أي بقطع المجادلة والتضرع بالصلاة) فإنك تنعتق من هذا جميعه وتستريح من هذا الرعب. لأنه ليس شيء يعين ويعاضد مثل الله.

١٥ – الدموع في الصلاة هي دليل على الرحمة الإلهية التي حظيت بها النفس، وأن توبتها قد قُبلت وبدأت تدخل إلى برية النقاوة من خلال دموعها. إذا لم تُنتشل الأفكار من الهذيذ في الأمور الزائلة، ولم يُنزع منها رجاء هذا العالم، لا يتحرك فيها الازدراء به (أي بالعالم). وإذا بدأ الإنسان بإعداد الزاد ليوم الانتقال بتأمل النفس في أمور الدهر الآتي، حينئذ لا تحتمل الأعين إلا أن تسكب الدموع؛ لأن هذه الدموع تحدث من الهذيذ الحقيقي الذي بغير طياشة، ومن الأفكار المتواترة غير المائلة، ومن تذكُّر أي شيء دقيق يقع في الفكر ويُحزن القلب بالهمِّ به. فمِن هذه الأشياء تتواتر الدموع.

١٦ – عندما ترجع إلى عمل يديك وأنت في السكون، لا تجعل وصية الآباء من أجله غطاءً لمحبة الفضة، بل اشتغل بعمل قليل من أجل الضجر، بصناعة ليس فيها سجس ولا اضطراب للعقل. وإن كان الفكر يهدس فيك (يراودك) بأن تعمل بحجة الصدقة، فاعلم أن الصلاة رتبتها أرفع من الصدقة. وإن كان عملك من أجل حاجات الجسد فلا تشره في ذلك، بل اعمل بحسب اعتيازك فقط. لأن رَبِّنَا لم يترك عبيده يحتاجون شيئاً من الأمور الزائلة، حسب قوله: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه وهذه كلها تزاد لكم» من قبل أن تسألوا.

١٧ – قال أحد القديسين: «ليس هذا هو غرض سيرتك وقصدها أن تُشبع الجياع، أو أن تكون قلايتك ملجأ للغرباء؛ لأن هذه السيرة تليق بالذين يريدون أن يتدبروا في العالم حسناً، وليست هي للمتوحدين المنعتقين من جميع المنظورات، الذين قصدهم هو حفظ (نقاوة) العقل بالصلاة».

+ على الوحدة وأنه ينبغي ألا نخاف بل نثبت قلبنا بالله، ونقتني شجاعة بالإيمان الراسخ لأن الله هو حافظنا وحامينا:

١٨ - إن كنتَ قد أُهِّلت للوحدة الخفيفة الوِسق في مملكة حريتها، فلا تدع فكر الخوف يرعبك كالعادة بكثرة أنواع الأفكار المختلفة والتقلبات التي يُردِّدها. بل ثق وتيقن أن حارسك معك؛ وكن مثل إنسان متحقق – بحكمة ثاقبة – أنك أنت وكل الخليقة تحت يد سيِّدٍ وَاحِد، وبإيماءه وَاحِدة يحرك الخليقة كلها ويهديها ويسوسها ويدبرها؛ ولا يقدر أحد منها أن يؤذي رفيقه من غير سماح وأمر الخالق والمدبِّر، والجميع هم تحت العناية والسياسة الإلهية.

١٩ – فانهض الآن وثق وتشجع! لأنه إن كانت حرية الإرادة قد أُعطيت لأحد من الخليقة، ولكن ليس في كل شيء. فلا الشياطين ولا الوحوش الضارية ولا الدبيب ولا الناس الأشرار يمكن لأحدهم أن يصنع إرادته بأذية رفيقه إن لم يُسمح له من إرادة المدبِّر ويُوضع له حداً (لا يتعداه). لأن الله لم يترك للشياطين أو الناس أن تدنو من خليقته بحرِّيتها وتعمل حسبما تريد لأذيتها.

٢٠ – إذاً، قل لنفسك دائماً إن معي حارساً، ولا يستطيع أحد المخلوقات أن يظهر قدامي – مجرد ظهور فقط – من غير سماح من فوق. ولو أنك نظرت بعينيك وسمعت بأذنيك تهديداتهم لك، فلا تصدق أنهم يجسرون عليك. لأنهم لو كانوا قد سُمح لهم من الغمز (التَدْبِير) السمائي لَما كانوا مضطرين للتهديد بالكلام، بل كانوا يفعلون كل ما يريدون عمله.

٢١ – وقل لنفسك أيضاً: إن كانت إرادة سيدي أن يتسلط الأشرار عليَّ، فلستُ أتضايق أنا من ذلك وأكون مثل إنسان يريد أن يبطل إرادة سيده. وبهذه الطريقة تمتلئ فرحاً في تجاربك مثل مَن أحسَّ وعرف أن إيماءة سيده هي التي تدبره. فاسند قلبك بثقة الإيمان بالرب ولا تجزع من «خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار»؛ لأن إيمان الصدِّيق بالله يجعل وحوش البرية أليفة كالغنم.

٢٢ – وقل لنفسك: «إن كنتُ لستُ صدِّيقاً لأتكل على الله وأثق به، ولكني متيقن أنني من أجل عمل البر قد خرجت إلى البرية والقفر المملوء من كل ضيقة؛ ومن أجل هذا أنا خادم مطيع لإرادة الله». وإن لم يكن الأمر هكذا فباطلاً تشقى وتكابد الأحزان وتقاسي الضواغط، لأن الله لا يريد شقاء الناس وإحزانهم، بل أن تُقدِّم له ذبائح المحبة التي هي أحزان قلبك. بهذا القصد يُظهِر كل محبي الله نيتهم، أنهم من أجل محبته يتضايقون كما قال الرسول: إن «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بمخافة الله بيَسُوع الْمَسِيح يتضايقون»، وبعد ذلك يُسلِّطهم على خفايا كنوزه.

+ + +

٢٣ – قال أحد القديسين: «كان هناك متوحد شيخ عظيم، مضيت إليه وأنا مضغوط ومضنوك من الأحزان والتجارب. وكان مريضاً طريح الفراش، فلما سلَّمتُ عليه جلستُ عنده وقلت له: «صلِّ عليَّ يا أبي لأني مضغوط من تجارب الشياطين». ففتح عينيه وتَميَّزني جيداً وقال لي: «يا ابني أنت شاب والله لا يترك عليك تجارب». فقلت له: «إني شاب ولكن تجارب الرجال الأقوياء قد أتت عليَّ». فقال: «اعلم أن الله يريد أن يحكِّمك». فقلت: «كيف أتحكَّم وأنا كل يوم أذوق الموت»؟ أجابني: «اسكت، فإن الله يحبُّك وهو مزمع أن يجود عليك بموهبة». ثم قال: «اعلم، يا ابني، أن لي ثلاثين سنة وأنا أجاهد الشياطين، وفي العشرين سنة الأَولى لم أنتفع بشيء بالكلية؛ وفي السنة الْخَامِسة والعشرين بدأت أحسُّ براحة، ثم أخذتْ هذه الرَّاحَة تزداد شيئاً فشيئاً، وفي السنة الثامنة والعشرين كثرت جداً. وفي السنة الثلاثين كثرت الرَّاحَة حتى أصبحت لا أعرف لها مقدار. وعندما أريد أن أصلي لا أقرأ سوى مزمور وَاحِد، وبعد ذلك أمكث ثلاثة أيام بالدَهَش مع الله، ولا أحس بتعب. فانظر أية راحة لاحدَّ لها تولدت من عمل زمن كثير»!

+ + +

٢٤ – كان أحد الآباء يأكل مرتين في الأسبوع. وقال لنا: «إنني في النهار الذي أتكلم فيه مع أي إنسان لا أقدر أن أمسك قانوني في الصَّوْم، بل أضطر أن آكل قبل إتمامه». ففهمنا نحن جميعاً أن حفظ اللسان لا يوقظ العقل ويرفعه نحو الله فقط، بل إنه يمنح أيضاً الأعمال الظاهرة التي تُعمل بالجسد قوة عظيمة خفياً، ويُنشِّط الإنسان على تكميلها، ويضيء العقل في عملنا الخفي على الدوام حسب قول آبائنا: «إنّ صَمْتَ الفم يوقظ النية ويرفعها نحو الله، إذا كان سكوت الإنسان بمعرفة».

٢٥ – وكان هذا القديس يسهر كثيراً؛ وكان يقول: «إنني في الليلة التي أسهر فيها من العشاء إلى باكر وأستريح بعد ذلك قليلاً، فبعد أن أستيقظ من النوم، أمضي نهاري كله مثل مَن ليس هو في هذا العالم، فلا يخطر على قلبي أي فكر أرضي، ولا أحتاج إلى تكميل القوانين المحددة، ولكني أثبت نهاري كله بالدَهَش».

٢٦ - «وفي أحد الأيام، وكان هو اليوم الذي أريد أن آكل فيه، وكان لي أربعة أيام لم أذق شيئاً، لمّا قمتُ لأصلي وقت العشاء قبل أن أفطر، قمتُ في دار قلايتي، وكانت الشمس عالية، وأتذكر أنني بدأت بمزمور الخدمة فقط ومكثت (بالدهش) إلى ثاني يوم حتى أشرقت الشمس في جهي وحَمِيَت الثياب التي على جسدي ولم أحسّ أين أنا. ولما أحْمت الشمس وجهي تجمَّع عقلي إليَّ ونظرتُ وإذا هو نهار ثانٍ. فشكرت الله على كثرة إنعامه على جنس البشر، ولأي رفعة وعظمة أهَّل طالبيه».

+ + +

٢٧ – شيخ آخر كان مكتوباً على حيطان قلايته كلام وأفكار مختلفة؛ وعندما سألوه عنها أجابهم قائلاً: «هذه هي أفكار البر التي أحظى بها من ملاك العناية (الماكث معي) والأفكار النابعة من حركات الطبع المستقيمة. وأنا أكتبها حين أكون في تلك المنازل لكي أتفاوض بها في أوقات الظلام، فتخلصني من طغيان الضلالة». [هذا هو ما ينبغي للإنسان أن يعمله كل أيامه].

+ + +

٢٨ – شيخ آخر مدحته أفكاره لأجل أعمال سابقة كأنه قد أُهِّل لرجاء عدم الفساد. فأجاب الشيخ أفكاره قائلاً: «أنا الآن ما زلت سائراً في الطريق، فباطلاً تمدحونني لأن الطريق لم تبلغ منتهاها بعد». [بالحق إن هذا التأمل صادق. فإنه يليق بنا أن نجعل يوم الانتقال راية نصرتنا. فقبل الموت لا يمكن أن يقال عن أحد أنه منتصر، وذلك لأن أعداءه ما زالوا أحياء والطريق ما زال قائماً أمَّامه، وهو لا يعرف ما الذي قد يقابله في طريقه. نعم، فإن طريقنا ليس آمناً، وهو لم يبلغ بعد زمن الطمأنينة. ولهذا ينبغي لمن كان مُرتبكاً في الأفعال الشريرة ألا ييأس، لأنه بإمكانه أن يربح الحياة طالما أنه ما زال يعيش. إن باب الرجاء مفتوح أمَّامه مثلما هو مفتوح أمَّام كل من يسلك في سيرة صالحة. لماذا أيُّها الإنسان تصدم الخاطئ؟ إن أعمال تجارتك لم تدخل بعد إلى الميناء، والرب لم يقطع الرجاء بالنسبة لذلك الذي تتعالى عليه. إنه عن قليل سوف يتفوق عليك في الفضيلة ويصير أكثر قرباً إلى الله منك. فالموت لم يأتِ بعد ليختم على سيرة جهاد كل منكما. وما دام الإنسان عائشاً تتعرض حياته لتغيرات كثيرة، لكن الله يتطلع إلى النهاية وليس إلى ما قبل ذلك. فكثيرون كانوا أبراراً وسقطوا من برِّهم، وكثيرون خطاة ارتقوا وأخذوا مكانهم. لهذا لَيْتَ الصدِّيق لا يستعلي، لأنه ما زال حياً؛ ولَيْتَ الخاطئ لا ييأس، لأن الله قريب منه وهو يطلبه ومستعد أن يقبله إذا غيَّر سيرته واتجه إليه].

المَيْمَر الثَّالِث والعشرون (٦م)

مِن أي شيء تُحفظ اليقظة الخفية داخل النفس، وما هي الأسباب التي تسمح بدخول التراخي والبرودة على الفكر (وتطفئ الحرارة المقدسة في النفس وتميت الشوق نحو الله)

١ – ليس للغاش الماكر قوة ليضاد ويعوق مُشتهِي الفضائل إن لم يجد فرصة وتساهلاً من مُحبي الفضيلة أنفسهم. والأمر هو حسبما أقول: كل حركة تختص بمحبة الفضائل عند بداية حركتها تتبعها غيرة تشبه جمر النار في حرارتها. وهذه الغيرة تحيط بتلك الحركة كالسور وتطرد من أمَّامها كل أمرٍ يضادها ويعوقها. وهي تمنح عصمة عظيمة وقوة جسيمة لا يُنطق بها، وتحصِّنها كل حين لئلا تتراخى وتجبن من صعوبة الضواغط والضيقات.

٢ – النوع الأَوَّل (الحركة الأَولى) الذي هو محبة الخير، يحدث من قوة الشهوات المقدسة المغروسة في طبيعة النفس؛ وأمَّا هذه الغيرة فتتحرك من قوة الغضبية المختلجة في النفس، وهي التي وضعها الخالق فيها لتحفظ حدود الطبيعة وتُطلق حركة حِدَّتها لتكميل الشهوات الطبيعية التي للنفس، أي الفضيلة. ولا يمكن عمل الفضيلة وتكميلها بدون هذه القوة التي تسمى الغيرة. لأنها هي التي تَغير وتُحرِّك وتُشعل وتُلهب الإنسان من وقت لآخر لكي يجسر على الجسد بكل الضوائق والتجارب المهولة التي تصادمه، ويسلِّم نفسه للموت متواتراً، ويواجه قوات العدو المارد من أجل تكميل الشيء الذي أحبته نفسه فيما يخص الفضيلة.

٣ – وقد ذكر أنبا أوغري هذه الغيرة في كِتَابه ودعاها "كلباً" حافضاً سنة الله وشرائعه، أي الفضيلة؛ فالفضيلة هي تكميل شرائع الله. وتعتصم قوة هذه الغيرة وتتيقظ وتلتهب لتحفظ البيت بنوعين من الأسباب، وتضعف أيضاً وتنام وتتهاون بسببين آخرين:

٤ – السبب الأَوَّل ليقظة الغيرة يكون عندما يتحرك في الإنسان خوف لأجل الفضيلة التي اقتناها في نفسه أو هو مزمع أن يقتنيها، لئلا تُسلب منه أو تفسد بسبب حدوث عارض يصاحبها. وهذا الشعور يتحرك من العناية الإلهية في كل محبي عمل الفضيلة المُحقِّين من أجل حفظ يقظة النفس وغيرتها على الدوام حتى لا تتراخى وتتهاون.

٥ – ومتى تحرك هذا الخوف في الطبع عند ذلك ينهض الكلب الذي ذكرناه، ويلتهب بحرارة كالتنور المشتعل وينبه الطبيعة لتكون يقظة كالشاروبيم (تراقب على الدوام كل ما يحيط بها)، ومثلما يُقال إنه لو عبر أمَّامه أي طائر فإنه يتحرك وينبح بحدَّة قوية لا ينطق بها.

٦ – فإذا كان هذا الخوف من أجل الجسد، فهو خوف شيطاني، لأنه (أي الإنسان) يكون متقسم الفكر بالنسبة لعناية الله وقد شكَّ في إيمانه ونسي كيف أن الله يعتني بالذين يهتمون بعمل الفضيلة، ويهتم بمصالحهم كل حين حسب قول الرُّوح على فم النبي: «عينا الرب على الصديقين» (مز٣٣: ١٦)، و«ضمير الرب على خائفيه» (مز٢٤: ١٤)، وبقية الكلام. وهو

أيضاً – نيابة عن الرب – يقول لخائفيه: «لا يدنو منك شر ولا ضربة» وبقية الكلام (مز ٩٠: ١٠).

٧ – وإذا كان هذا الخوف من أجل النفس بسبب العوارض التي تحيط بالفضيلة، ولكي لا تُسلب وتتأذى بأي نوع من الأنواع، فإن هذا الخوف يكون فكراً إلهياً واهتماماً صالحاً، وأن ما يحصل من حزن وضنك هو من العناية الإلهية.

٨ – أمَّا السبب الثَّانِي لعصمة الكلب (قوّته) وتوقُّده، فهو يكون عندما تزداد شهوة الفضيلة في النفس، فكلما ازدادت محبة الفضيلة في النفس يزداد معها لهيب هذه الغيرة لأجل حفظ الفضيلة.

٩ – أمَّا أسباب برودة الغيرة وضعفها، فالسبب الأَوَّل يكون متى بردت المحبة ونقصت من النفس. والسبب الثَّانِي يكون متى دخل الإنسان فكر ثقة بنفسه وسكن في قلبه، فيتكل الإنسان ويثق أن لا خوف عليه من أي مكان، وأن لا شيء يقدر أن يؤذيه أو يضرَّه. وبهذه الطريقة يلقي عنه سلاح الغيرة، ويكون كبيت بغير حارس، وينام الكلب ويتغافل عن الحراسة والحفظ.

١٠ – بهذا المعنى بالأكثر – أي بفكر الثقة بالنفس – تُسلب البيوت العقلية. وهذا يحدث عندما تظلم نقاوة شعاع المعرفة المقدسة من النفس. وما الذي يجعل هذا الشعاع يظلم؟ يحصل ذلك أمَّا من فكر كبرياء دقيق يدخل ويسكن في النفس، أو مِن زيادة الاهتمام بالأمور الجسدانية التي يعتني بها الإنسان، أو من لقاءات مستمرة تتفق له من العالم، أو من شره البطن سيدة كل الشرور. لأن المتوحد كلما اصطدم بملاقاة العالم تضعف نفسه في الحال وترتخي، وبالأكثر من ملاقاة امْرَأَة.

١١ – أمَّا المغرمون بمحبة المجد الفارغ فيزداد لهم هذا بملاقاة الكثيرين. ونقول على سبيل الإيجاز إن العقل الميَّال الذي يلاقي العالم في كل حين يشبه النوتي الذي يسير في البحر بهدوء، ولا يلبث أن يقع بغتة بين الصخور (وتتحطم سفينته). لأنه بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويهتم بمخافة الله، تدنو منه العناية الإلهية ويحسُّ بمعونتها خفياً، وتُعطى له حركات ومعاني يفهمها.

المَيْمَر الرَّابع والعشرون(٢٠) (٧م)

على العائشين أيامهم بقرب اللّه في حياة المعرفة

إن سلكت بعمل الفضيلة حسناً ولم تحس بمذاقة معرفتها فلا تتعجب من ذلك...

المَيْمَر الْخَامِس والعشرون(٢١) (٨م)

في الغيارات الكثيرة التي تأتي على الضمير وتُفرَز وتُختبر بالصلاة

أمَّا الاختيار لعمل الصلاح فهو من الإرادة الجيدة...

[٢٠] هذا الميمر تكرار للنصف الثاني من الميمر السابع مع اختلاف بسيط في الأسلوب قد يدل على أنه منقول عن ترجمة أخرى (انظر الميمر السابع الفقرات ٦ – ١٦. وهو ضمن العظة ٥٧ في الترجمة الإنجليزية

[٢١] هذا الميمر تكرار للنصف الأول من الميمر الثامن. وهو العظة ٥٨ في الترجمة الإنجليزية

المَيْمَر السَّادِس والعشرن (٩م)

على أنواع الفضائل، وعلى حدود التَدْبِير جميعه، وعلى عِظم (الرحمة) ومحبة البشر التي – بغرض روحاني – تكمِّل القديسين وتضع فيهم شبه اللّه بحبه الوفير الذي جاد به على جنس البشر

١ – حد تَدْبِير السيرة يكون بهذه الأمور الثلاثة: التوبة، والنقاوة، والكمال.

٢ – وما هي التوبة؟ ترك الأمور الماضية والحزن من أجلها.

وما هي النقاوة؟ قلب رحوم على جميع طبائع الخليقة.

وما هو الكمال؟ هو عمق الاتضاع، ورفض كل ما يراه الإنسان وما لا يراه، ما يُرى بالحواس وما لا يُرى بالهذيذ به.

٣ – وسُئل أيضاً الشيخ في وقت آخر: ما هي التوبة؟ قال: «قلب منسحق». وما هو الاتضاع؟ فقال: «هو تضاعف ميتوتة الإرادة من جميع الأشياء (الداخلية والخارجية)». وما هو القلب الرحوم؟ قال: «حُرقة القلب على كل الخليقة: على الإنسان والطير والوحوش والشياطين، وعلى جميع الأشياء، حتى أنه بمجرد ذكرها فقط تفيض الدموع من عينيه من شدة الرحمة التي تعتصر القلب. ومن كثرة شفقته يصغر القلب ولا يقدر أن يسمع أو ينظر أيّة أذية أو حزن يحدث لشيء من الخلائق، حتى الخلائق غير الناطقة، وأعداء الحق، والذين يؤذونه. فهو في كل وقت يصلي من أجلهم بدموع كي يحفظهم الله ويغفر لهم؛ كما ويصلي أيضاً من أجل طبيعة الدبيب، وذلك لسبب الرحمة الغزيرة الفائضة في قلبه بغير كيل بشبه الله».

٤ – وسُئل أيضاً: ما هي الصلاة؟ فأجاب: «هي إفراغ الضمير من جميع الأشياء الحاضرة، وقلبٌ قد شخص نظره بالكمال نحو اشتياق الرجاء المزمع. والذي هو مفروز (بعيد) عن هذا المعنى هو مثل مَن يبذر في فلاحته خليطاً من البذور، ومثل مَن يحرث على ثورٍ وحمارٍ معاً».

٥ – وسُئل أيضاً: كيف يُقتنى الاتضاع؟ فقال: «بتذكار الزلات القديمة على الدوام، وانتظار الموت قريباً، ولبس الثياب الزريَّة، واختيار الإنسان لنفسه – في كل وقت – الموضع الحطيط، والإسراع في كل شيء إلى عمل الأعمال الحقيرة، وعدم المقاومة، والصمت الدائم، وعدم محبة ملاقاة الجموع، وأن يكون غير معروف وغير محسوب وغير متميز وحده بفعل أي أمرٍ من الأمور، وأن يبغض مفاوضة الوجوه، ولا يحب الأرباح، وأن يكون فكره خالياً من اللوم والعتاب لكل أحد، وخالياً من الغيرة، ولا تكون يده على أحد بل تكون يد الكل عليه، ويكون منفرداً فيما يخصه، متوحداً لا يحمل هَمَّ أحد على الأرض ما خلا همّ نفسه. وباختصار، فإن الغربة والمسكنة والسيرة المنفردة تُولِّد فيه الاتضاع وتطهِّر القلب».

٦ – أمَّا الذين وصلوا إلى الكمال فهذه هي علأمَّاتهم ودلائلهم: إنهم لو أُسلموا كل يوم عشر مرات للحريق من أجل محبة الناس فلا يشبعون من حبهم، كما قال الطوباوي موسى لله: «إن لم تغفر لبني إسرائيل امحني من سفرك الذي كتبته»، وكقول السعيد بولس: «أنا الذي العالمين وكل شرفهم وحزنهم لا يقدرون أن يفرزوني من محبة المسيح، أريد أن أكون محروماً من المسيح وبنو إسرائيل يدنون من إيمان الحياة»، إن كان يمكن أن يكون هذا، لكي ببعدي يكون قربهم ويؤمنون بالمسيح ولا يتغربون عن الله الحي. وكقوله: «إني أفرح بالضوائق لأجلكم أيُّها الشعوب». وكبقية الرسل الذين من أجل محبة الناس قاسوا ميتات شتَّى.

٧ – وأكثر من ذلك كله إن الله سيد الكل أسلم ابنه لموت الصليب من أجل محبته للخليقة، «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد من أجله». ليس لأنه لم يكن قادراً أن يخلصنا بشيء آخر، بل لأنه أراد أن يظهر لنا بذلك كثرة محبته، لكي بموت ابنه يقرِّبَنَا إليه؛ ولو كان لديه شيء آخر أكرم منه لكان أعطاه لنا لكي يُخلِّص به جنسنا. فمِن أجل كثرة محبته لنا لم يشأ أن يغصب حرِّيتنا إذ كان قادراً على ذلك، لكنه أراد أن ندنو نحن إليه بدافع من محبة ضميرنا. كما أن رَبَّنَا أطاع أباه من أجل حبه لنا، وقَبِل على نفسه المحقرة والآلام بفرح حسب قول الكِتَاب إنه «لأجل فرحه احتمل الصلب وجسر على الخزي». ومن أجل هذا قال رَبَّنَا في الليلة التي أُسلم فيها للصلب: «هذا هو جسدي الذي يُعطى للحياة لأجل خلاص العالم، وهذا هو دمي الذي يُهرق لغفران الخطايا لأجل الكل». وقال أيضاً: «لأجلكم أنا أقدس ذاتي».

٨ – وهكذا أيضاً جميع القديسين وصلوا إلى هذا الكمال عندما كملوا وتشبهوا بالله بفيض الحب والرحمة على البشر. وبهذه العلامة كانوا يستدلُّون في أنفسهم على التشبه بالله؛ إذا صاروا كاملين في محبة القريب. وهكذا أيضاً كان الآباء المتوحدون يصنعون، إذ كانوا يحملون في أنفسهم على الدوام شَبَه المملوء حياة المسيح رب الكل.

٩ – والقديس أنطونيوس لم يَرَ قط أن يفعل ما يليق به أو يصلح له، بل ما ينفع للقريب. فقد كان له هذا الرجاء أنَّ نَفْعَ قريبه هو عملٌ فاضل. وقد قيل أيضاً عن الْأَنْبَا أغاثون إنه قال: «أريد أن أجد إنساناً مُبتلى في جسده، أعطيه جسدي وآخذ أنا جسده». فهل رأيت الفكر الكامل؟ إنه حتى في الأشياء الخارجية لم يكن يحتمل إلا أن يريح قريبه بما يخصه. مثل ذلك الذي كان له ثوب مُخيَّط، ورآه شخص وأحبه، فلم يدعه يخرج من قلايته إلا وقد أعطاه له. وأشياء أخرى كثيرة مثل هذه قد سُطِّرت عنهم.

١٠ – وكثيرون أسلموا نفوسهم للنار والسيف والوحوش من أجل أقربائهم. ولكن لا يمكن لأحد أن يبلغ هذه الرتبة من المحبة إلا الذي قد أحسَّ خفياً برجاء أمله. فالذين يحبون هذا العالم لا يمكن أن يقتنوا محبة القريب، لأن الذي اقتنى الحب قد اقتنى الله معه. كما أن الذي اقتنى الله هو بحكم الضرورة لا يرى أن يقتني معه شيئاً آخر، بل إنه يتعرَّى حتى من جسده. أمَّا إن كان مُقتنياً للعالم أو محباً لهذه الحياة الوقتية، فلن تدعه هذه أن يقتني الله؛ وذلك حسبما شهد هو وقال: «مَن لم يرفض كل شيء ويبغض كل شيء حتى نفسه، لا يستطيع أن يكون لي

تلميذاً»، ليس أنه يرفض الأشياء فقط بل ويبغضها أيضاً. فإن كان مَن لا يترك العالم هكذا لا يستطيع أن يكون له تلميذاً، فكيف يمكن أن يسكن فيه؟

١١ – سؤال: لماذا يكون الرجاء حلواً لذيذاً وأتعابه خفيفة وعمله سهلاً على النفس؟

جواب: لأجل الاشتياق الطبيعي المتيقظ في النفس، فهذا يسقيها كأس الأمل ويرويها. ومن تلك الساعة لا يحسُّون بتعب، ويثبتون دون إحساس بالضوائق، وفي كل جري سيرتهم يظنون كأنهم يسيرون في الهواء بغير أقدام بشرية. ولا تظهر لهم صعوبة الطريق وخشونتها، ولا أنه يُوجد أمَّامهم أودية وروابي وكيمان، بل «يصير الوعر قدامهم سهلاً» (إش٤٠: ٤)، والموضع الحرج كالبرية، لأنهم في كل وقت ينظرون إلى حضن أبيهم.

١٢ – وهذا الأمل يشير إليهم كما بالإصبع ويريهم الأشياء البعيدة غير المرئية، ويتفرسون فيها بالأمثال بعين الإيمان الخفية كما لو كانت هي بالحقيقة جواهر تلك الأشياء. ولأن كل أجزاء النفس تلتهب كما بالنار بالاشتياق للأمور البعيدة تصبح كأنها قريبة، ويمدّون لواحظ (عيون) أفكارهم إليها، ويسرعون لبلوغها.

١٣ – وإذا ما دنوا من عمل إحدى الفضائل فهم لا يعملونها جزئياً بل كلياً إذ يتممون الكل مرة وَاحِدة. وهم لا يسيرون في الطريق الملكية كالآخرين، بل يختارون سبلاً قاطعة، تلك التي أفراد (قلائل) من الجبابرة والشجعان قدروا على السير فيها، وهي التي توصلهم بسهولة إلى المنازل السمائية. فإن الرجاء يلهبهم كالنار ولا يدعهم يُهدِّئون من سرعة جريهم المتواصل لأجل فرحهم. فيعرض لهم ما قاله إرميا النبي: «إني قلتُ لا أعود أذكره ولا أنطق باسمه، فصار في قلبي كالنار المتوقدة المضطرمة في أعضائي» (إر٢٠: ٩). هكذا يصير ذِكر الله في قلب الذين سكروا برجاء مواعيده. والسبل القاطعة أعني بها الفضائل الحابسة (الشاملة) التي ليس فيها تطواف ولا دورات ولا عدة سبل كثيرة توصل الوَاحِدة إلى الأخرى، ولا تحتاج لوقت أو تشتت، بل إنهم حالما يبدأون في الفضيلة يكملونها لوقتهم.

١٤ – سؤال: ما هو عدم التألم؟

جواب: عدم التألم لا يعني أن الإنسان لا يحسُّ بالآلام، بل إنه لا يقبلها. فلأجل كثرة الفضائل المتواترة عليه، والتي قد اقتناها ظاهراً وخفياً، ضعفت الآلام ولم يعد من السهل عليها أن تدخل النفس، ولا يحتاج الفكر في كل وقت أن يلتفت إليها، لأنه يكون ممتلئاً بحركاته كل حين من الهذيذ ومفاوضة المعاني الفاضلة والأفهام المتحركة في العقل. فإذا ما بدأ الألم يتحرك فإن الفكر يُختطف من عنده بغتة بسبب فهمٍ ما قد ظهر في القلب فيصبح الألم بطالاً، حسب قول القديس مرقس إن العقل الذي بنعمة الله قد أكمل كل أعمال الفضيلة ودنا من المعرفة لا يحس بجزء النفس الجاهل إلا قليلاً لأن معرفته تختطفه إلى العلو وتبعده من جميع أمور العالم.

١٥ – لأن القديسين من أجل طهارتهم قد تلطَّف عقلهم ورقَّ (أي اقتنى شفافية) وصار خفيفاً

وذا حدَّةٍ. كما أنه من أجل النسك قد تنقَّى العقل لأن الجسد قد يَبُسَ، ومن فرغة السكون وطول المدة فيه، يلحظ (يرى) شيئاً شيئاً، وتجتذبه التاؤريا إلى الدهش والتعجب بها، ولهذا يكون تصورهم متواتراً ولا تعوز فكرهم فيما بعد مادة الأفهام؛ هذا بالإضافة إلى أن الرُّوح يحرك فيهم ثماره.

١٦ – والتعود مع طول الزمن يقطع من القلب التذكارات التي تحرك الآلام في النفس لئلا تتوافق النفس مع الآلام بهذيذها فيها. ولأن النفس تكون قد اُختطفت بواسطة هذيذ آخر مستمر، لهذا لا تقدر الآلام فيما بعد أن تنشب مخالبها الحادة في حواسها الرُّوحانية.

١٧ – سؤال: ما هي خاصية الاتضاع؟

جواب: كما أن الظن (الفكر المترفع) هو مشتت النفس بتخيلات طياشته، ومن شدة قوة حركته يجعلها تطير وتحلق في سحابة الأفكار لكي تطوف في الخليقة بأسرها، هكذا الاتضاع هو قابض ذاته بسكون الأفكار وانقباض النفس داخلها. وكما أن النفس ليست معروفة ولا منظورة لأعين البشر، كذلك المتضع ليس هو معروفاً بين الناس. وكما أن النفس هي داخل الجسد، وهي مستترة فيه من نظر وخلطة كل أحد، هكذا هو المتواضع الحقاني، ليس فقط أنه لا يشاء أن يُنظر ويُعرف بين الناس من أجل تواريه وانقباضه من كل أحد، بل وحتى من نفسه إن أمكن يشاء أن يكون منقبضاً ومنجمعاً، ويغوص داخله بسكون حركاته وحواسه تماماً، صائراً كمن هو غير موجود في الخليقة، وكأنه لم يأتِ للتكوين، ولا يُعرفُ أو يُحسُّ حتى من نفسه. وبمقدار ما يكون منقبضاً من العالم مخفياً مستتراً، كذلك يكون منجمعاً إلى سيده.

١٨ – المتضع لا يفرح أبداً بالتجمعات، ولا بكثرة ضجيج الناس والصراخ والأحاديث، ولا بالسعة والتنعم والاهتمامات التي يكون منها الطموح والتشتت، ولا بالمفاوضة والحديث الذي يكون منه طموح الحواس. لكن الانقباض بالانجماع إلى ذاته هو مختارٌ عنده أكثر من كل شيء، لكي يقتني الهدوء ويسكن مع نفسه منفرداً بتوحدٍ من كل الخليقة، ومهتماً بنفسه بالبلد الهادئ.

١٩ – وعلى كل حال فالتجرد والمسكنة والعَوَز مُستحبَّة عند المتضع. وهو لا يلقي نفسه في أفعال كثيرة وأعمال متواترة، بل في كل حين يريد أن يكون متفرغاً عادم الاهتمام وغير مضطرب في الأشياء الحاضرة حتى لا تخرج أفكاره خارجاً عنه. لأنه قد علم أن الأفعال الكثيرة تُولِّد اهتمامات شتى، والاهتمامات الكثيرة تُولِّد أفكاراً غزيرة، وبهذه يخرج من الهدوء ومن أن يكون مرتفعاً عن كل همٍّ أرضي بسلامة أفكاره فيما خلا الأمور الضرورية التي لا بد منها، ولا يعود ضميره حاملاً اهتماماً وهذيذاً وَاحِداً بحركاته الهادئة. لأنه إن لم يبتعد من المحادثات لا تتركه الضرورة أن لا يؤذي أحداً أو يتأذى من أحدٍ؛ ومن ههنا ينفتح عليه باب الآلام ويبطل هدوء التمييز، ويهرب منه الاتضاع وينسدُّ باب السلام. ولأجل هذه الأسباب يحفظ المتضع

نفسه على الدوام من الأمور الكثيرة لكي يوجد في كل وقت هادئاً وديعاً مسالماً لبيباً.

٢٠ – المتضع لا يعرف انزعاجاً ولا اضطراباً ولا حركات حادة مسرعة متعجلة. فحتى لو هبطت السماء والتصقت بالأرض، فإن المتواضع لا ينزعج ولا يتسجس. وليس كل لبيب متضع، لكن كل متواضع لبيب. ولست تجد متضعاً غير لبيب، أمَّا اللبيب غير المتضع فتجد كثيرين. فهذا هو المتواضع بحسب قول سيدنا: «تعلموا مني فإني هادئ متضع في قلبي، فبهذا تجدون راحة لنفوسكم». فالمتواضع يكون هادئاً في كل وقت، لأنه لا يوجد له شيء يحرك فكره؛ ويسهل على الإنسان أن يحرك جبلاً ولا يمكنه أن يحرك أو يزعج ضمير المتواضع. وليس هو أمراً ممتنعاً أن يقال إن المتواضع ليس هو من هذا العالم، إذ أنه لا في الأشياء المزعجة المحزنة يضطرب، ولا في الأمور المفرحة يبتهج ويطمح، بل إن فرحه وسروره الحقيقي هو في مرضاة سيده وإنعامه.

٢١ – الاتضاع تتبعه المتانة (قوة الاحتمال)، وانقباض الذات، وازدراء الثياب، والصوت المنخفض، والكلام القليل، ومحقرة النفس، والمشي المرتب، والنظر المُطاطئ، والرحمة الفائضة، وسرعة سكب الدموع، والنفس المتفردة، والقلب المنكسر والمنسحق، وعدم تحرك الغضب، وقلة طموح الحواس، والقناعة في الأشياء وفي الاحتياجات، والاحتمال والصبر وعدم الخوف وشجاعة القلب الناتجة من بغضة الحياة الوقتية، والتجلد في التجارب، والحركات الهادئة غير المسرعة، وقلة الأفكار، وكتمان السر، والتعفف والحياء والورع. وأكثر من هذه كلها الصمت علىالدوام وادِّعاء عدم المعرفة.

٢٢ – المتضع لا تصادفه أبداً أية ضرورة تجعله يتسجس. المتواضع حتى إذا كان وحده فهو يحتشم من نفسه. وأنا أعجب إن كان هناك متواضع يتجاسر أن يطلب من الله شيئاً في الصلاة، أو أنه إذا دنا إليها يثق من نفسه أنه يؤهَّل أن يطلب منه شيئاً؛ حتى أنه لا يعرف بماذا يصلي، بل يكون هادئاً في جميع حركاته منتظراً الرحمة فقط، ومتقبلاً أي أمرٍ يخرج عليه من قِبل العظمة المسجود له. وعندما يحني وجهه إلى الأرض، ونظر قلبه الداخلي شاخص نحو باب قدس الأقداس المتعالي الذي إشراقه يُبهر أعين السارافيم، وشعاعه يرهب طغمات صفوفهم، والصمت مُلقى على جميع رتبهم، وهم ينتظرون ظهور الأسرار التي من داخل خفيته، بجوٍ بلا فضاء، وحركة بغير صوت، وبحواس غير متجسدة، وبحسٍّ لا شبيه له، وباستعلان فائق بجوهر غير منظور، يشدد قوة حركاتهم لَيْتَجلدوا تجاه لُجة أسراره، (عندئذ يجسر فقط أن يتكلم ويصلي قائلاً: لتكن مشيئتك يارب فيَّ).

٢٣ – إنني لم أعتنِ بهذا (الكلام) لأجل إيضاح الأمر، لأنه من مجرد القراءة فيها فقط ينسى العقل تصرُّف وسيرة هذا العالم وحياته الجسدانية، وينتقل بفكره إلى عالمه الحقيقي. [وأنا أتوسل إلى محبتك، حين تطَّلع على هذه الأسرار، ألا تتركها دون أن تقتني منها منفعة، حتى لا تكون بالنسبة لك مجرد كلمات ميتة، ويصيبك ما أصاب أولئك الذين دُعوا إلى الوليمة الرُّوحية فرفضوا الحضور. هوذا المائدة قد أُعدِّت، والملذات الرُّوحية قد وُضعت، وها الأشياء المبهجة

قد تهيَّأتْ، والعريس يتنظرنا لكي ندخل ونفرح معه. فلَيْتَنا لا نستعفي لئلا تُقال لنا تلك الكلمات التي قيلت لأولئك؛ وما هي هذه الكلمات؟ «الحق أقول لكم إنه ليس أحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي»].

+++++++++ +++++++++

++++++++++++

المَيْمَر السَّابع والعشرون (١٠م)

في الإيمان والبساطة

١ – أيُّها الإنسان الشقيّ، إن أردت أن تجد الحياة فتمسَّك بالإيمان والتواضع لكي تجد بهما رحمة ومعونة وكلأمًا مقولاً من الله في القلب، مع الحافظ الذي يقف بجانبك في الخفاء وفي الظاهر. وإن أردت أن تقتني هذه الأمور التي هي مفاوضة الحياة فأَمسِك منذ البداية بالبساطة واسلك أمَّام الله بسذاجة وليس بالمعرفة. لأن الإيمان يتبع السذاجة، ودقة الأفكار وترديدها تتبع الظنون (أفكار العظمة)، والظنون يتبعها البعد عن الله.

٢ – إذا ما سجدت قدام الله في صلاتك كُن في فكرك مثل النمل والدبيب الحقير الذي يدب على الأرض، ولَغْلِغ فلاّحياً (بسذاجة)، ولا تتكلم قدامه بمعرفة، بل اسلك أمَّام الله بقلب طفولي، لكي تؤهَّل لتلك العناية التي تكون من الآباء لأولادهم الأطفال.

٣ – قيل إن «الرب يحفظ الأطفال». فالطفل يدنو من الثعبان ويمسكه من رقبته ولا يؤذيه؛ وهو يسير عرياناً في شدة برد الشتاء، بينما الآخرون مكتسون لابسون ثياباً والبرد يؤلم جميع أعضائهم. الطفل يكون عارياً جالساً في وسط الجليد ولا يتألم، لأن جسده البريء قد انحجب (بلباس آخر) لا يُرى (مُنح له) من العناية الخفية التي تحفظ نعومة الأعضاء الطِفلية حتى لا تدنو منها أية مؤذيات.

٤ – ثق الآن وصدِّق أن ثمة عناية إلهية تحفظ نعومة الجسد الغض الضعيف جداً من سائر المؤذيات لأجل نعومته وضعف أعضائه وقلة ثباته، فيُحفظ في وسط المضادات فلا تؤذيه ولا توجعه.

٥ - «الرب يحفظ الأطفال»، ليس فقط الذين في الجسد، بل والذين كانوا حكماء في العالم ورفضوا معرفتهم لأجل ثقتهم بالحكمة الخفية التي فيها كل الكفاية، وصاروا أطفالاً بإرادتهم، يتعلمون تلك الحكمة التي لا تُقتنى بتلقين وهجاية الكلام. وحسناً قال الحكيم بالإلهيات بولس الرسول: «من يظن أنه حكيم في هذا العالم فليَصِرْ جاهلاً ليكون حكيماً» (١كو٣: ١٨).

٦ – فاطلب من الله أن يجود عليك بالوصول إلى مقادير الإيمان؛ لأنك إذا أُهِّلت أن تحسَّ بنعمته في نفسك فلن يعود أي شيء يمنعك من الدنو إلى المسيح، حيث تُسبى في كل وقت (بعيداً) عن الأمور الأرضية، وتنسى هذا العالم الضعيف مع كل أموره. مِن أجل هذا صلِّ كل حين بلا ملل ولا كسل، واطلبها (أي نعمة الإيمان) بدموع وحرارة، وتضرع باهتمام كثير لكي تحظى بها، وأنت لا تعود تشقى. إنك سوف تؤهَّل لها إذا ما غصبت ذاتك أن تلقي همَّك كله على الله، وتستبدل عنايتك بعنايته. فعندما يرى إرادتك أنك قد ائتمنته على كل أمورك بضمير نقي، وغصبت ذاتك للاتكال عليه أكثر من نفسك، فسيجود عليك بقوة لم تكن تعرفها، فتحلّ عليك وتدرك قوَّته إدراكاً حسياً بغير شك ولا ارتياب. هذه هي القوة التي لما أحسَّ بها كثيرون

جسروا على النار بغير خوفٍ ومشوا على الماء ولم تتقسم أفكارهم ولم يخافوا من الغرق. لأن الإيمان يشجع حواس النفس كما لو كان يمنحها يقيناً غير منظور فيحسّ به حتى لا يضعف الفكر ولا تلتفت لنظر الأمور المرعبة المخوفة، بل تلحظ الأشياء بنظرٍ مرتفع عن الحواس.

٧ – احذر لئلا تظن مطلقاً أن المعرفة الرُّوحية تُقبل من خلال هذه المعرفة النفسانية. فالذين قد تدربوا بهذه المعرفة النفسانية حتى ولا بالحسِّ يؤهَّلون لتلك المعرفة الرُّوحانية. وإن كان أحد يريد أن يدنو من اقتناء معرفة الرُّوح، فإن لم يجحد كل أبواب دقة هذه المعرفة وعيون شِباكها ويقوم بطفولية الضمير فهو لا يقدر أن يدنو منها (أي من معرفة الرُّوح). لأن عادات المعرفة النفسانية وحركاتها الملتوية تعوقه جداً إلى أن يستأصلها قليلاً قليلاً (من عقله). لأن المعرفة الرُّوحانية بسيطة، وهي لا تشرق في الأفكار النفسية. فإلى أن ينعتق الضمير من الأفكار الكثيرة ويأتي إلى بساطة النقاوة، لا يقدر أن يحسَّ بالرُّوحانية.

٨ – وترتيب هذه المعرفة (الرُّوحية) هو أن يحسَّ الإنسان بتنعم حياة العالم الجديد من ههنا في هذه الحياة؛ وعند ذلك يرذل كثرة الأفكار. لأن المعرفة النفسانية لا يمكنها أن تعرف شيئاً آخر خارجاً عن الأفكار المتواترة. فهي لا تقدر أن تعرف الشيء الذي يقبله الضمير البسيط حسب كلمة رَبِّنَا التي لا تتغير، لأنه قال: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال فلن تقدروا أن تدخلوا ملكوت السموات». كثيرون لم يصلوا إلى هذه البساطة، ولأجل أعمالهم الحسنة (يُوجد) لهم نصيب في ملكوت السموات مع رَبِّنَا جزئياً، كما نفهم من معنى التطويبات التي وضعها في بشارته بأنواع مختلفة، حيث بيَّن فيها أنواع تدابير سِيَر كثيرة ومعاني مختلفة للتطويبات. فكل من يريد أن يتدبر في أي منزلة وبأي طريق منها، ينفتح أمَّامه باب ملكوت السموات. وأمَّا قوله: «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال»، فقد أظهر به أن الإنسان يحسُّ من ههنا بتنعم الملكوت. لأن ملكوت السموات حسبما يُقال هي التاؤريا الرُّوحانية، وهذه لا تحصل في عالم الأفكار ولكن الإنسان يذوقها من النعمة. وإلى أن يتطهر الإنسان ويتنقَّى، لن يكون كفؤاً ولا للسماع بها، لأنها لا تُقتنى من التعليم أو التلقين.

٩ – فإن كنتَ يا ابني قد بلغتَ إلى النقاوة التي تُقتنى في القلب من الإيمان والسكون من الناس، ونسيت معرفة هذا العالم، فإنك من غير أن تعلم تجدها بغتة داخلك دون بحث أو فحص. «أقم لك قائمةً (عموداً) واسكب عليها زيتاً» (تك٢٨: ١٨)، فتجد الكنز في حضنك. أمَّا إن كنتَ مرتبطاً بعيون شبكة المعرفة النفسانية ومقيداً بها، يكون أسهل عليك أن تنفكَّ من قيود الحديد من أن تُحلَّ منها، ولن تكون بعيداً على الدوام من شراك ومصايد الطغيان، ولن تتمكن أبداً من أن تجد دالة وثقة القلب، ويكون سيرك في كل وقت على حد السيف، ولا يمكنك أن تكون بغير ألم وحزن أبداً.

١٠ – اِحْتَمِ بالعجز والضعف، وسِرْ بالبساطة لكي تحيا أمَّام الله حسناً وتكون بغير همٍّ. لأنه كما يتبع الظل الأجسام هكذا تتبع الرحمة الاتضاع. فإذا كنتَ تريد أن تكون سيرتك بهذه الأمور فلا تستمع أبداً لأفكار الجبن والرخاوة؛ ولو أحاطت بك سائر المحزنات والضواغط والمخاطر

لتهددك وتخيفك فلا تلتفت بنظرك إليها ولا تحسب لها حساباً.

١١ – فإن كنت قد ائتمنتَ الله دفعة وَاحِدة ووثقت به أنه كفؤ أن يحفظك ويدبِّرك، ومضيت أنت وراءه وتتبعت أثره، فلا ترجع مرة أخرى لتهتم بشيء من هذه الأشياء، بل أقنعْ نفسك وقل لها: إن الذي أسلمتُ له نفسي دفعة وَاحِدة هو كفؤ ويعرف كيف يدبرني (ولم أعد أنا المدبِّر لحياتي بل هو). عندئذ تنظر أعمال الله وكيف أن خلاصه قريب في كل وقت من خائفيه، وعنايته محيطة بهم بحالٍ غير منظورة. ومع أن حافظك غير منظور لعين الجسد، فلا تشك في وجوده، لأنه ثمة وقت يظهر فيه لعين الجسد أيضاً لأجل تثبيتك.

١٢ – لأنه إذا ما رفض الإنسان كل معاضدة منظورة وكل أمل بشري، والتصق بالله بالإيمان وبنقاوة القلب، فإن النعمة تتبعه في الحال وتظهر فيه قوتها بمعونات مختلفة. فهي تظهر قوتها أولاً بعنايتها به في الأشياء الجسدانية الظاهرة، لكي بهذه بالأكثر يقدر أن يحسَّ بقوة العناية الإلهية، ومن خلال فهمه لهذه الأمور الظاهرة يفهم تلك الخفيات بما يتناسب مع طفولة فكره وعدم تدرُّبه؛ ويعرف كيف يُعدُّ له احتياجه من غير تعب ومن غير عناية منه، وتزول عنه عوارض كثيرة ممتلئة مخاطر كانت قريبة منه، دون أن يتحفظ هو منها لأنه لم يحسّ بحدوثها، ذلك لأن النعمة تدفعها عنه بعجب عظيم وتحرسه كصيانة المربية التي تبسط جناحيها على أولادها لئلا يدنو منهم أذى، ويميِّز بعينيه كيف كان موشكاً على الهلاك.

١٣ – وتدرِّبه النعمة أيضاً في الأشياء الغامضة الخفية، وتفضح أمَّامه الأفكار والهواجس العسرة الفهم لكي يدرك فهمها بسهولة، ويعرف اتصالها بعضها ببعض، وحِيل ضلالتها، وما هو الذي يتبع الآخر منها، وكيف تتوالد من بعضها وتهلك النفس. وتُشهر أمَّامه كل كمائن الشياطين وأفكارهم المستترة وما يتبع كل وَاحِد منهم. وتمنحه فهماً لكي يميز الشيء الذي يحدث، وتشرق داخل بساطته نوراً خفياً ليحسَّ بكل شيء وبقوة هواجس الأفكار الدقيقة. وتشير إليه كما بإصبع أنه لولا هذه (الإشراقة) ما كان يعرف ما هو مزمع أن يظهر له. وهكذا يتولد عنده (يقين) أن كل شيء كبيراً كان أم صغيراً (يجب أن) يُطلب بالصلاة من مدبره.

١٤ – ومتى جعلته النعمة يتحقق من معونتها في هذه الأمور كلها، وثبَّتت ضميره في الثقة بالله، عند ذلك تبدأ تدخله التجارب قليلاً، وتسمح أن تنطلق عليه حسب قياس قدرته، تجارب هو كفؤ لحملها، وتظهر له معونتها بصورة محسوسة لكي يتشجع ويتدرب قليلاً قليلاً، ويقتني حكمة ويجسر على أعدائه بثقته في الله. لأنه بدون هذه (التجارب) لا يمكن للإنسان أن يقتني الحكمة في القتالات الرُّوحانية، ولا أن يعرف مدبِّره ويحسّ بإلهه ويثبت في الإيمان به خفياً بالقوة التي نالها في ذاته من التجربة.

١٥ – أمَّا إذا رأت النعمة أن الإنسان قد بدأ يتحرك فيه فكر الظن (العظمة) قليلاً، وبدأ يتفكر بالعظائم على نفسه، فهي تسمح للتجارب أن تتقوى عليه لكي يعرف ضعفه وعجزه ويهرب إلى الله ويلتجئ إليه بالاتضاع. وبهذه الأشياء يبلغ الإنسان منزلة الرجل الكامل (ويرتفع إلى المحبة) بالإيمان والرجاء بابن الله.

١٦ – إن محبة الله للإنسان عجيبة، وهي تُعرف إذا ما دخل الإنسان في وسط أمور مملوءة من قطع الرجاء، حيث يُظهر الله هناك قوته بخلاصه منها. ولا يقدر أحد أن يتعلم ويعرف القوة الإلهية بالاتساع والرَّاحَة. كما أن الله لا يظهر فعله أبداً بصورة محسوسة إلا في بلد قفر هادئ وبرية ومواضع خالية من المحادثات ومن سجس مساكن الناس.

١٧ – لا تتعجب إذا ما بدأت بعمل الفضيلة وانطلقت عليك ضوائق ومصاعب من كل ناحية، فإنها لا تحسب فضيلة ما لم يتبعها مصاعب وتعب وعناء في فلاحتها. لأن الفضيلة بهذه (الصعوبات) قد دُعيت وسُميت فضيلة، كما قال القديس يوحنا التبايسي: «إن من عادة النشاط والنجاح أن تحدث له مصاعب، والفضيلة إذا ارتبطت بالرَّاحَات تكون مرذولة». وقال القديس مرقس: «إن كل فضيلة كائنة تُسمى صَلباً لأنها تكمِّل وصية الرُّوح»؛ ولأجل هذا فإن كل الذين يريدون أن يعيشوا بمخافة الله يتضايقون، حسب قول الرب: «من يريد أن يتبعني فليجحد نفسه ويحمل صليبه ويتبعني، ومن يريد أن يخلِّص نفسه فليهلكها، ومَن يُحيي نفسه بالرَّاحَات إنما يهلكها، ومَن يهلك نفسه من أجلي يجدها». ولهذا سبق الرب فوضع أمَّامك الصلب لكي تقطع بالموت على نفسك وبعد ذلك يطلقها لتسير في إثره.

١٨ – لا يوجد شيء أقوى من القطع باليأس؛ إنه لا يعرف أن يُغلب من شيء، لا من الأمور اليمينية ولا من اليسارية. لأن الإنسان إذا قطع باليأس من الحياة في فكره لا يكون هناك مَن هو أشجع منه، ولا مِن لبيب مثله؛ ولا يقدر أي عدو أن يلاقيه أبداً، ولا ضيقة يُضعف خبرها فكره. لأن كل ضيقة هي أدنى من الموت، أمَّا هو فقد قطع على نفسه عهداً بالموت.

١٩ – فإن كنتَ في كل أمرٍ وفي كل فعل وفي كل وقت وفي كل ما تريد أن تفعله تضع في فكرك انتظار التعب والشقاء، فستجد نفسك ليس فقط لبيباً وغير ملولٍ في كل وقت، بل وتجسر أيضاً على كل صعوبة تحدث. ومن خلال شجاعة أفكارك تهرب منك كل فكرة جبانة مرخية، هذه التي من عادتها أن تتولد في الإنسان إذا ما كانت أفكاره تنتظر الرَّاحَة، حتى أنك ترى جيمع الصعوبات والمضغطات التي تصادفك سهلة هيِّنة، بل وكثيراً ما تجد الأمور المضادة موافقة لك بالنسبة للشيء الذي تنتظره، وقد لا تعرض لك هذه الصعوبات قط.

٢٠ – واعلم أن انتظار الرَّاحَة يخيِّب الناس من خيرات كثيرة (ويحرمهم) من تذكارات فاضلة. وحتى الذين يتدبرون في هذا العالم بالأمور الجسدانية لا يمكنهم أن يبلغوا إلى تكميل إرادتهم إلا إذا قطعوا في أفكارهم أن يحتملوا الصعوبات. ولأن التجربة هي الشاهدة على ذلك فلا حاجة بعد للإقناع بالكلام. لأنه في سائر الأجيال السابقة وحتى يومنا هذا لم يوجد شيء آخر يرتخي الناس بسببه ويخيبوا من الظفر والغلبة ويتهاونوا من الأعمال الفاضلة، وباختصار (يتراجعوا) عن الدخول إلى ملكوت السموات، إلا بانتظار الرَّاحَة القريبة النزِرة (في هذه الحياة). وليس هذا فقط، بل إن هذا الانتظار في أكثر الأحيان يُعِدُّ لهم تجارب صعبة وعوارض مؤلمة تواجه كل من يضع قصد فكره هذا الأمر (أي انتظار الرَّاحَة)، وإليه يصوِّب إرادته، لأن مدبِّر هذا

الشيء هو إرادة الشهوة.

٢١ – أليس الطير أيضاً بطمع الرَّاحَة يدنو من الفخ؟ ألعل معرفتنا أنقص من معرفة الطير الذي يرى أن يستتر في مواضع وجروف مخفية بعيدة عن الأمور والبلدان؟ لأن الشيطان هو أيضاً منذ البدء – بخداع وطمع الرَّاحَة – من عادته أن يصيدنا. ولهذا قلت إنه ينبغي لنا في كل وقت أن نضع قدام فكرنا انتظار الضيقة في كل أمر نريد أن نفعله في الطريق التي توصِّل إلى رَبِّنَا لكي نبلغ نهايتها الحسنة بنشاط.

٢٢ – كم من وقت يسأل الإنسان إذا أراد أن يبدأ بعمل ما لأجل المسيح هل في ذلك العمل راحة؟ هل عمله سهل وليس فيه شيء يضغط الجسد ويتعبه؟ فانظر كيف أن طلب الرَّاحَة موجود في كل شيء.

٢٣ – ماذا تقول أيُّها الإنسان؟ أتريد أن تصعد إلى السماء وتنال ذلك الملكوت، وتحظى بالشركة مع الله، والرَّاحَة مع القوات الرُّوحانية، والسعادة والخلطة مع الملائكة، والحياة التي لا موت فيها، وأنت تسأل إن كان في الطريق تعب؟!

٢٤ – يا للعجب! إن الذين يريدون أن يقتنوا أمور هذا العالم الزائل يجسرون على أمواج البحر الصعبة وعلى السلوك في الطرق الوعرة المخوفة، ولا يقولون إن في هذا الأمر صعوبة أو أهوالاً لأجل قصد وغرض إرادتهم، ونحن في كل شيء نسأل ونفتش عن الرَّاحَة. لكن إن كنا نضع في ضميرنا أن نسير دائماً في طريق الصلب، ونفكر في حمل الصليب كل حين، فأي حزن أو ضغط لا يكون سهلاً عندنا؟ ترى هل يوجد إنسان لم يختبر هذا الأمر: إنه ليس أحد يظفر في القتال ويأخذ الإكليل غير الفاسد، أو ينال شهوة إرادته في الأمور الممدوحة، أو يكمل شيئاً من أمور الفضيلة، إن لم يصبر على الأتعاب والضوائق، ويُبعد عنه فكرة منحلَّة جزعة تحرِّضه على الرَّاحَات وتولِّد فيه الملل والجبن الذي يكون منه الانحلال والرخاوة في كل شيء؟

٢٥ – إذا غار العقل لأجل الفضيلة فالحواس الظاهرة التي هي الشم واللمس والسمع والنظر والذوق، لا تنغلب من مصادمة الأشياء المنظورة والأفعال الغريبة خارجاً عن العادة وعن حدود قوة الطبيعة. وفي الوقت الذي تحرك فيه الغضبية فعلها في الطبع، عند ذلك تبقى حياة الجسد عنده كالزبل. لأنه إذا ما غار القلب بغيرة الرُّوح، لا يتوجع الجسد بالضوائق ولا يتألم بالعذاب ولا يرتعب من الأمور المخوفة الهائلة، بل يقيمه العقل مقابل التجارب مثل المغناطيس (صُلباً كالماس).

٢٦ – لَيْتَنا نغير بغيرة الرُّوح لأجل إرادة رَبِّنَا يسوع، ونُبعد عنا كل ملل يولِّد فينا فكراً منحلاً. لأن الغيرة تولِّد النشاط وحرص النفس واجتهاد الجسد. فأي قوةٍ تكون للشياطين إذا ما حركت النفس غيرتها الطبيعية مقابلهم؟ لأن الغيرة تُولد من الغضب الطبيعي وتُقوِّي النفس بكل عصمة إذا ما أخرجت قوتها للفعل، وفيه تثبت فيها أكاليل الاعتراف التي يقبلها الشهداء الفاتكون (الشجعان) بتجلُّدهم، والتي تكون من هذين الأمرين معاً: الغيرة والحرارة المتولدتين من قوة الغضب الطبيعي، فتجعلهم لا يحسُّون ولا يتألمون وسط شدة ألم العذاب.

المَيْمَر الثامن والعشرون (١١م)

في المنفعة التي تكون بالهرب من العالم والانفراد منه لأن الآباء اختبروه بتمييز الحكمة وحرصوا عليه جداً

١ – إنَّ الجهاد الذي يكون بواسطة (القرب) من الأمور (التي للعالم) صعب جداً وخطير بالحقيقة، حتى ولو كان الإنسان فاتكاً شجاعاً جداً. لأنه إذا كانت (الأسباب التي تثير الحروب) قريبة منه، حركت عليه القتال دون مواجهة الأعداء، فيصير الخوف والرعب ملازمين له والسقطة سهلة عليه أكثر من ملاقاة الشيطان نفسه في حرب ظاهرة إذا ما ظهر أمَّام عينيه.

٢ – فطالما لم يبتعد الإنسان عن الأشياء التي يخاف منها القلب على الدوام، ففي كل وقت يضطجع فيه (يتراخى)، أو يعرض له إهمال قليل، يتخذ العدو من ذلك فرصة لكي يهلكه بسهولة. أمَّا في البعد (أي البرية) فهو يخاف من أية أذية تحصل للجسد، ولكن أسباب الخطية تكون على كل حال بعيدة عنه. أمَّا هنا في المواجهة (أي في العالم)، فالنفس تقبل جرحاً غير منظور، ولا يتعب العدو في الجهاد معها. فإن مواجهة الأمور في حد ذاتها فيها الكفاية لتحريك السجس والاضطراب في كل وقت، حيث ينساق إليها (الإنسان) بسهولة ويُسبى دون أن يصطفَّ ضده العدو في القتال من الخارج؛ إذ يكون الإنسان هو الذي جلب على نفسه الحرب بمجاذبة الأشياء الموضوعة تجاه حواس الجسد، حسب قول القديس يعقوب السروجي: «إذا انغلبت النفس لمصادمات العالم المؤذية المخزية، فتلك المصادمات نفسها تكون لها شماتة (أي عثرة)، فإذا كانت قريبة منها وتجاه عينيها، تنغلب وتنقهر لها كما لو كانت أموراً طبيعية».

٣ – لقد عرف القديسون القدماء الذين ساروا في هذا الطريق أن العقل لا يكون في كل وقت في صحةٍ، ولا يقدر أن يثبت دائماً في حالة عدم الميلان محتفظاً بذاته. لأن النفس في أكثر الأحيان تحصل (تبقى) في ظلام فلا تقدر أن ترصد الأشياء المؤذية، ولهذا فهم قد ميَّزوا الأمر بحكمةٍ وتسلحوا بالتجرد كالثوب، لأنه يعتق الإنسان من جهادات كثيرة وينجِّيه حسب ما كتب أنه «ثمة مَن يفلت من الخطايا لأجل فقره».

٤ – وهكذا هربوا إلى البراري والقفار حيث لا توجد الأمور التي هي أسباب الآلام. لأنه إذا ما عرض لهم الانغلاب في القتال في أي وقت تكون أسباب السقطة غير موجودة، أعني بهذا الشهوة والغضب والأمَّارة (الرئاسة) والمجد الفارغ وما تبقى. لأن هذه الأشياء تكون معدومة بسبب الفقر، لأنهم استتروا فيه كما في حصن منيع لا يُقهر. وهكذا استطاع كل وَاحِد منهم أن يكمل جهاده في السكون، حيث لا تجد الحواس فرصة لتكون خصماً في الجهاد بملاقاة الأشياء المؤذية، لأنه ينبغي لنا الموت في الجهاد ولا الحياة في السقوط.

المَيْمَر التاسع والعشرون (١٢م)

كيف يقتني الإنسان تغيير الحركات الخفية مع تغيير سيرته الخارجية

١ – طالما بقي الإنسان في التجرد، فإن ذكر الانتقال من هذه الحياة يتحرك في قلبه على الدوام، ويهدس كل حين بتلك الحياة التي بعد القيامة، مجتهداً بكل حيلة أن يقتني الاستعداد اللائق بها، وينشأ في قلبه الصبر عن كل كرامة وراحة، ويختلج في فكره احتقار هذا العالم في كل وقت، ويصير لبيباً بفكره، ويقتني دائماً قلباً شجاعاً ويجسر على كل أمرٍ مخوف وعلى كل شيء خطر أو مميت، لأنه لا يخاف من الموت نفسه إذ أنه في كل وقت ينتظره كأنه قريب منه. وهو يلقي همَّه على الله بثقةٍ بغير شك ولا ارتياب؛ وإذا صادمته العوارض الصعبة والضوائق يعرف بتحقيق أنها (كما لو كانت) تعدُّ له أكاليل، فيحتملها بصبر وتُسَرُّ نفسه بقبولها، لأنه يعرف أن الله هو الذي سمح بحصولها له من أجل منفعةٍ ما، ولأسبابٍ غير معروفة بسياسة غير ظاهرة.

٢ – وإذا ما اتفق له بسبب من الأسباب أن يحصل على شيء من الأمور الزائلة فيقتنيه بغواية ذلك الحكيم في كل الشرور، أي الشيطان، تبدأ حينئذ تتحرك في فكره محبة الجسد، ويتفكر (يأمل) في حياة طويلة، وتتحرك أيضاً في قلبه أفكار تلزم لراحة الجسد، ويتحفظ لجسده حتى إن أمكن لا تدنو منه أذية، ويتحايل بما يليق لراحته، وتبتعد عنه كل فكرة عن الحرية غير المتعبدة لشيء من أفكار الخوف. ومن ههنا يتفكر ويهدس في كل حركات الخوف والرعب وأسبابها، ذلك لأنه قد أُخذت منه تلك الشجاعة القلبية التي كان قد اقتناها في نفسه بارتفاعه عن العالم من خلال التجرد الذي كان قد اقتناه في نفسه. ولأجل أنه صار وارثاً للعالم بحسب قياس مقتنياته، صار متألماً أيضاً بالخوف حسب سياسة الله وترتيب ما شرَّعه وحكم به أنه لأيةِ ناحيةٍ أعددنا أعضاءنا لفلاحتها نكون عبيداً لها بخضوع الخوف حسب قول الرسول (رو٨: ١٥).

٣ – عزَّة النفس ومحبة الذات تتقدم الآلام جميعها، بينما احتقار الرَّاحَات يتقدم كل الفضائل. مَن يغذِّي جسده بالرَّاحَة ينضغط بالضيقة في بلد السلام. والذي يتنعم في شبابه يصير عبداً في شيخوخته ويتنهد في آخرته.

٤ – كما أن مَن يحبس رأسه داخل بئر عميق مملوء ماءً لا يتمكن من استنشاق الهواء اللطيف المتدفق في هذا الفضاء الفارغ، هكذا مَن غطس ضميره في اهتمامات الأمور الحاضرة لا يستطيع أن تتقبل نفسه استنشاق حِسِّ العالم الجديد.

٥ – وكما أن رائحة السُّم المميت تُفسد مزاج الجسد، هكذا المنظر الرديء يخبط (يؤذي) سلامة الضمير. وكما أنه لا يمكن أن تكون الصحة والمرض في جسدٍ وَاحِد ولا يُفسد أحدهما الآخر، هكذا لا يمكن أن تسكن البغضة والمحبة في بيتٍ وَاحِد ولا تُفسد إحداهما الأخرى. وكما أن الزجاج بتقلبه مع الأحجار لا يثبت دون أن ينكسر، هكذا لا يمكن لأحد أن يكون طاهراً

وتثبت عفته بغير دنس وهو مداوم النظر والكلام مع المرأة.

٦ – وكما أن الأشجار تنقلع من شدة جريان الماء، هكذا محبة العالم تنقلع من القلب من حدَّة التجارب الحادثة على الجسد. وكما أن الأدوية المسهِّلة تزيل الكيموس الرديء من الجسد، هكذا فإن شدة الضوائق تقلع الآلام من القلب.

٧ – وكما أن المائت لا يمكن أن يحسَّ بأمور الأحياء، هكذا فإن المتوحد المدفون داخل السكون كما في القبر تكون نفسه خالية من راموز (أي اضطراب) المجمع ومن الإحساس بالأمور الحاصلة بين الناس.

٨ – وكما أنه لا يمكن لمن يشفق على عدوه المخاصم له في مصاف القتال أن يظلَّ بغير أذية، هكذا لا يمكن أن يشفق المجاهد على جسده وتنجو نفسه من الهلاك.

٩ – وكما أن الطفل عندما يخاف من المناظر المرعبة يجري نحو والديه ويتمسك بأذيال ثيابهما، هكذا النفس كلما تضايقت من رعب التجارب تسرع بالالتجاء إلى الله بتواتر الصلاة والتضرع، وكلما كثرت التجارب تزيد هي من التضرع؛ ولكنها إذا حظيت بالرَّاحَة اندفعت إلى الطياشة.

١٠ – وكما أن الذين يسلَّمون لأيدي الولاة لكي يعاقبوهم على شرورهم، عندما يبدأون بجلدهم يتضايقون ويقرُّون بما فعلوه فيقلّ جَلدهم ويخلصون سريعاً بضيقة قَلِيلَة؛ أمَّا إن وُجد بينهم مَن كان جاهلاً يقسي قلبه ولا يقرُّ بما فعله، فهؤلاء يكثر جَلدهم ويضطرون أخيراً للاعتراف بغير إرادتهم بعد جَلْدٍ كثير وبعد تقطيع جوانبهم دون أن يربحوا شيئاً. هكذا نحن أيضاً إذا تركنا زلاتنا بغير تقويم نُسلَّم من أيدي المراحم الإلهية لحكم العدالة، فتأمر بأن يمدُّونا قدام عصا التجارب هنا حتى لا تتصعب عقوباتنا هناك. فحالما يدنو منا الجلْد بعصا الحاكم نتضع ونذكر ذنوبنا ونعترف قدام المنتقم فننجو سريعاً وبتجارب خفيفة. أمَّا إذا تقسَّت قلوبنا في الضوائق ولم نعترف بأننا نحن السبب في هذا الأمر، وأننا نستحق أكثر من ذلك، بل نحتج أحياناً بالناس وأحياناً بالشياطين وأحياناً أخرى بسياسة الله وعدله، ونزكي أنفسنا ونعتبر أننا بلا لوم وأنه ليست لنا ذنوب تستوجب هذه الضوائق، ولا نفكر أن الله أعلم منا وهو يعرفنا أكثر مما نعرف نحن أنفسنا، لأن «أحكام الرب هي في الأرض كلها»، وأنه بدون أمره لا يُؤدَّب أحد؛ حينئذ تكثر أحزاننا وتشتد ضيقاتنا ونُسلَّم من شدةٍ إلى أخرى كما بحبلٍ حتى نعرف أنفسنا ونتضع ونحسَّ بخطايانا، لأنه دون أن نحسَّ بها لا يمكننا أن نتقوم، وفي النهاية إذا تضايقنا كثيراً عند ذلك نعترف بجهلنا اعترافاً لا منفعة منه ولا يحصل لنا منه شيء من العزاء.

١١ – لأن إحساس الإنسان السريع بخطاياه هو موهبة من الله تحلُّ في الضمير إذا ما نظر الله كثرة شقائنا في أنواع التجارب لئلا نقاسيها وننتقل من هذا العالم بلا منفعة. وعدم فهمنا ليس هو من القساوة بل من عدم المعرفة. فهناك من ينتقل مِن العالم وهو في هذه التجارب ولا يعترف أنه أذنب وأخطأ، بل إنه يقاوم ويلوم. والله الرحوم ينتظرهم لعلهم يتضعون فيغفر لهم ويريحهم حتى أنه لا يُبطل منهم التجارب وحسب بل ويغفر لهم خطاياهم باعتراف بسيط من قلوبهم.

١٢ – مَن اقتنى في صلاته دموعاً هو كإنسان يقدم قرباناً عظيماً للملك، وقد اقتنى عنده وجهاً بهجاً. فإن الدموع المنسكبة أمَّام الله الملك الْعَظِيم سلطان كل الدهور تمحو كل أنواع خطايا الإنسان وتجعله يقتني عنده وجهاً بهجاً.

١٣ – كالنعجة التي تخرج من الحظيرة وتطيش وتمضي لتقف عند جحور الذئاب، هكذا هو الرَّاهِبُ الذي يترك الموافقة مع رفاقه ويحتج باسم الجلوس في الوحدة ويداوم النظر في الخليقة (أي ينشغل بأمور العالم). ومثل إنسان يحمل جوهرة ثمينة ويمضي في طريق قد شاعت عنها أخبار سيئة، فيكون في كل وقت مرعوباً خشية من السالبين، هكذا هو من اقتنى جوهرة العفة ويسير في العالم الذي هو طريق الأعداء، لا يكون له رجاء أن يفلت من أيدي اللصوص السالبين إلى أن يدخل منزل القبر، الذي هو بلد الثقة والطمأنينة. وكما أنه ليس من الممكن لذاك (أي حامل الجوهرة الثمينة) أن لا يخاف، هكذا أيضاً مَن اقتنى جوهرة العفة، لأنه لا يعرف في أي بلدٍ وفي أي وقتٍ يخرج اللصوص عليه بغتة ويجردونه من كل أمله ويحرمونه من رجائه؛ فقد يُسلب الإنسان عند باب داره الذي هو زمن الشيخوخة.

١٤ – وكأنسان يشرب خمراً وقت الحزن فيسكر وينسى كل وجع حزنه، هكذا الذي يسكر بحب الله في هذا العالم الذي هو بيت الندب والأحزان، ينسى وجع أحزانه جميعها؛ ولأجل سكره لا يحسُّ بكل آلام الخطية، ويتقوى قلبه بثقته في الله، وتكون نفسه مثل الطير الخفيف الذي يرتفع فكره عن العالم كل حين ويطير في علو السماء في هذيذ أفكاره، ويتنعم بمواهب العلي الأزلية [وصلاته تكون بلا انقطاع، فيكون مثل إنسان يمتطي الريح كالحصان حتى لا يدركه عدوه، فكلما أقبل إليه هرب سريعاً.

١٥ – مَن يقتني شفقة على الحزين، هو كإنسان وجد محامياً أمَّام منبر القضاء.

١٦ – كما أن الإنسان الذي يواجه خطر نوءٍ وسط البحر فيطرح كل أمتعته في الماء، هكذا أيضاً مَن يسير في طريق الله وسط هذا العالم الذي هو بحر مستعد أن يغرِّقه، يزدري بالعقبات التي تقابله؛ فالعقبات لن تنتهي أبداً.

١٧ – لماذا تُقلق نفسك في بيتٍ ليس هو لك؟ اتخِذْ مِن منظر إنسانٍ ميت معلماً لك يُعرِّفك برحيلك من ههنا. لماذا تُضاعف قيودك؟ تمسَّك بالحياة قبل أن يظلم نورك فتبحث عن المعونة ولا تجدها. إن هذه الحياة قد أُعطيت لك للتوبة فلا تضيعها في أعمال باطلة.

١٨ – الصليب هو الباب الذي يؤدي إلى الأسرار. فالذهن يدخل من هذا الباب إلى معرفة الأسرار السمائية. ومعرفة الصليب هي مخفية في آلام الصليب، فكلما زادت شركتنا في آلامه، زاد الإدراك الذي نقتنيه من خلال الصليب. فكما يقول الرسول: «كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً»؛ والتعزية تعني التاؤريا التي تفسيرها رؤية النفس، فالرؤية تلد التعزية.

١٩ – إن نفسنا لا يمكن أن تعطي ثمراً روحياً ما لم يمت قلبنا عن العالم؛ فالنفس التي ماتت مع المسيح، يقيمها الآب في الرؤيا الإلهية سائر الدهور، وأنت أيضاً ما لم تمت عن العالم لا يقوم آدم الرُّوحي فيك. فالإنسان حين يموت عن جميع تصرفات هذا العالم، من خلال هذه الذبيحة الرُّوحية، ويستودع نفسه للحياة التي تكون بعد القيامة، حينئذ تحل عليه النعمة وتُثبِّت أسلوب حياته روحياً؛ وهو حين يبغض العالم يدرك سيرة الإنسان الجديد التي هي أعلى بكثير من حقارة مسكن البشر، ويصير أهلاً للإعلانات الإلهية.

٢٠ – إنه من غير الممكن لنا أن نكون أمواتاً عن العالم ونحن ما زلنا في العالم طالما أن فكرنا ينشد الرَّاحَة، والعالم يقوم بأشيائه أمَّام حواسنا، ويجدد تذكاراتنا من خلال أحاسيسنا، ويثير الشهوة في الجسد بقربه من الأشياء مستخدماً النظر والسمع واللمس والشم والذوق.

٢١ – موت النفس عن العالم هو إخلاء القلب من كل هذيذ في تذكارات العالم، وامتناع النفس من الأفكار فيما يخص أشياء العالم، وضبط الإرادة عن محبة التمعن فيها. لأنه يستحيل على قلبنا أن يتنعم بالسلام الذي يعلو عن كل اضطراب، وبصفاء الحب الذي يفوق هذا العالم، بينما تتسرب إليه الأسباب التي تجدد التذكارات بملاقاة الأشياء من خلال الحواس التي تحسُّ بها. فلا يمكن للنفس أن تقتني الموت عن العالم إلى أن يبتعد الجسد تماماً عن مرأى الأشياء والإحساس بها].

المَيْمَر الثلاثون

رسالة للقديس في معنى السكون أرسلها لأحد تلاميذه

١ – اضطرني الواجب، يا أخي، أن أكتب لك هذه الرسالة كما وعدتك لكي أعرِّفك بالأمور الضرورية. وأُعرِّف محبتك بأني إذ وجدتك تريد أن تسير بحسب الواجب وبتدقيق في سيرة السكون والجلوس الانفرادي، فأنا أيضاً بما سمعته من الْعَارِفِين بهذا العمل أجمع رأيهم وكلامهم مع ما باشرته بنفسي بالتجربة والفعل وأكتبه لك بكلام موجز، لكيما إذا قرأت هذه الرسالة تنفع ذاتك بكلامها لأجل حرصك واجتهادك، إذ أنك تقرأ رسالتنا هذه خارجاً عن سياق العادة وتأخذها كنورٍ لباقي قراءتك من أجل الأفهام المتواترة والقوة الخفية فيها. [لأن الذهن يقتني منها سلاحاً مقابل طياشة الأفكار وضد اليأس الذي من عادته أن ينشأ عن الأعمال الصارمة وطول السكن في الهدوء؛ وبواسطة الحرارة التي يستمدها مما يصادفه في القراءة (من الأفهام) يعطي ظهره للعالم ويهتم بعمله الخاص].

٢ – (وغرض هذه الرسالة أن تعلم) ما هو الجلوس في الوحدة وعمل السكون، وأية أسرار مكتومة في هذا العمل، [تلك الأسرار المخفية عن الكثيرين، والتي بعد أن يكتشفها النشطاء يجرون طالبين أن يحصلوا عليها في السكون]؛ ومن أجل أي شيء يرذلون البرَّ المصنوع بين الناس ويختارون الضوائق والجهاد في الجلوس الانفرادي في السكون، [ومِن فَهْم هذه الأمور، وبسبب ما يجدونه في هذه الرسالة، سوف يغبطون المتوحدين الذين يقضون حياتهم في هذا العالم بانجماعهم مع أنفسهم؛ أمَّا الذين ليست لهم دراية بهذه الأمور، فإن هذا التعليم وما يتضمنه من نصائح فيما يختص بدرجات السكون يصير زيادة لا منفعة منها. إنني أكتب هذا لأناس حكماء، وأقدِّم النصيحة بالحب].

٣ – فإذا كنتَ تود، يا أخي، أن تجد الحياة غير الفاسدة في أيامك القصيرة هذه، فينبغي أن يكون دخولك إلى السكون بتمييز، وفتِّش وافحص عمل السكون ولا تجرِ وراء الاسم فقط، بل غُصْ وانقبض واهتم بلجاجةٍ لتدرك مع القديسين ما هو ارتفاع هذا العمل وعمق هذه السيرة.

٤ – وكما أن كل عمل يريد الناس أن يبدأوا بعمله يكون لهم فيه قصد وغرض؛ والأمل الذي ينتظرون (تحقيقه) يحرك فكرهم أن يضعوا أساساً لذلك الشيء، وغرضهم فيه هو الذي يشجع فكرهم على احتمال الضواغط الموجودة في العمل، والعزاء الذي ينتظرونه منه يكون كشيء ضابط يمسك العقل إلى أن يكمل الفعل، هكذا أيضاً عمل السكون الجليل، فهو ميناء كل الأسرار، والعارفون لهم فيه قصد وغرض وإليه يشخص نظر الفكر في كل أعماله المديدة وصعوباتها، من حين يبدأ بوضع الأساس إلى أن يكمل حدَّ البنيان.

٥ – وكما ترصد عينا النوتي النجوم، هكذا يكون المتوحد شاخصاً بنظره داخله في كل تَدْبِير سيرته وجَرْي (سعي) طريقه حسب الغرض والقصد الذي وضعه في فكره منذ اليوم الأَوَّل الذي

بذل فيه نفسه للسير في بحر السكون الحرج إلى أن يجد الجوهرة التي من أجلها ألقى نفسه في لجة هذا البحر الذي ليس له قرار، وانتظار أمله يخفف ويُهوِّن عليه ثقل العمل والضوائق الخطرة والمصاعب التي تصادفه في هذه السيرة. والذي من بداية دخوله إلى السكون لا يضع لنفسه هذا القصد والغرض ولا يصوِّب إليه كل جهاد عمله، بل يعمل بالهمج أو كيفما اتفق، فهو يكون كمن يزرع الريح، ولن يتخلص أبداً من روح الضجر كل أيام حياته. ويعرض له أحد أمرين: أمَّا أنه لا يقدر أن يتجلد لثقل صعوبة الحبس فيخرج من السكون نهائياً، أو إن تجلَّد وثبت فيه تكون قلايته له مثل السجن فينقلي فيها، لأنه لم يعرف أن ينتظر العزاء الذي يتولد من السكون، ولم يطلب بوجع قلب ولم يبكِ بحزنٍ في الصلاة ولم يشتَق لشيء ما ليجده، هذا الشيء الذي أشار إليه آباؤنا المملوؤون رحمة ومحبة لأولادهم ووضعوا في كتبهم العلأمَّات لاستعمال حياتنا.

٦ – قال أحدهم: «إن منفعتي من السكون هي أنني إذا عُدت من المعسكر الذي أنا جالس فيه، يتفرغ عقلي من استعداد القتال ويرجع إلى عمله (الأَسمى)».

٧ – وقال آخر: «أنا أجري بسرعة إلى السكون لكي تحلو في قلبي ألفاظ القراءة والصلاة، وبلذَّة أفهامها يصمت لساني، وبسبب انقباض حواسي وحركاتي أقع كما في نعاس النوم، وبمداومة السكون يهدأ قلبي من الانقباض واضطراب التذكارات وتنطلق عليَّ بغتة وبصورة دائمة أمواج الفرح النابعة من معاني الحركات الداخلية التي تفيض بغتة من غير انتظار لتُنعِّم قلبي، وعندما تحيط بسفينة نفسي فهي (تختطفها) من سجس هذا العالم ومن حياة هذا الجسد البائدة وتغرِّقها في دهشات السكون الحقيقي في الله».

٨ – وقال آخر: «السكون يقطع الأسباب التي تجدد الأفكار ويبيدها داخل حصنه، ويُنسِي التذكارات السابقة. وإذا ما بلَيْتَ المواد القديمة ونُسيت فعند ذلك يرجع العقل للتقويم الطبيعي».

٩ – وقال آخر: «افهمْ مقادير خفاياك من إفراز معاني حركاتك، وأعني تلك الأفكار المستمرة وليس ما يحصل بصفة عارضة أو في وقتٍ ما ثم يبطل. لأنه لا يوجد إنسانٌ لابسٌ جسداً لا يخطر له طارق في بيته من الغيارين الجيد والرديء. فإن كان هو من النشطاء العمَّالين (تعرض له التغييرات في الأمور الصغيرة) بسبب ضعف الطبيعة أو من الضجر أو من الطبع نفسه آب الأَوَّلاد. وإن كان من المتهاونين (فتعرض له التغييرات) في الأشياء العالية، (إلا أنه ينجو منها) بسبب خمير النعمة الذي أُلقي في طبيعتنا لكونه قد تجنس بجنس المملكة المرتفعة».

١٠ – وقال آخر: «اختَرْ لك العمل المبهج الذي هو سهر الليل الدائم، لأن به تعرَّى الآباء من الإنسان العتيق واستحقوا بهجة العقل. لأن النفس تحسُّ في هذه الأوقات بتلك الحياة غير المائتة، وبالحسِّ بها تتعرى من لباس الظلمة وتقبل الرُّوح».

١١ – وقال آخر: «إذا عاين الإنسان وجوهاً كثيرة وسمع أصواتاً مختلفة غريبة عن هذيذه الرُّوحاني وتحدث وتفاوض معها، لا يقدر حينئذ أن يتفرغ عقله لينظر في ذاته في الخفاء ويتذكر خطاياه ويهدم أفكاره ويرصد ما يأتي عليه ويتفاوض بالصلاة خفياً. كما أنه لايقدر الإنسان أن يُخضع حواسه تحت سلطة النفس من دون السكوت والبعد من الناس، لأن النفس العاقلة اتحدت بها (أي بالحواس) واقترنت معها شخصياً، فهي تنجذب مع حركات الجسد إن لم تكن متيقظة بالصلاة الخفية. لأن السهر بتيقظ مع الصلاة والقراءة هو أيضاً يُنعِّم ويُفرِّح ويُبهج ويُنقي النفس، والذين تدربوا بهذه السيرة كل أيام حياتهم بالنسك الحقيقي يعرفون هذا بالتحقيق».

١٢ – وأنت أيُّها الأخ محب السكون تمسَّك بهذه الإشارات التي من كلام الآباء، ضعها أمَّامك مثل الهدف ووجِّه إليها كل تَدْبِير سيرتك وقوِّمها. وقبل كل شيء ميِّز بتدقيق الأشياء التي توافق غرض سيرتك، والتي من دونها لا يمكنك أن تتمسك بمعرفة الحق، واحرص جداً عليها، وأظهر تجلدك وثباتك فيها.

١٣ – السكوت هو سرُّ العالم الجديد، أمَّا الكلام فهو أرغن وآلة هذا العالم. الإنسان الصائم يجهد نفسه أن يتشبه بطبع الملائكة الرُّوحانيين. ومن سكوته وصومه الدائم يُعرف الإنسان المداوم على العمل الإلهي في خفاياه، لأن بهذه الأسرار (أي بالسكوت والصَّوْم والصلاة) تكمل الخدمة المملوءة أسراراً إلهية (ويتم) تقديس الأزلي سيد العوالم كلها.

١٤ – والذين أفرزوا نفوسهم ليدخلوا داخل الأسرار الإلهية قد انطبعوا (خُتموا) بهذه الرسوم (أي بالسكوت و..)، فمنهم مَن ائتُمنوا على تَدْبِير شعب عظيم؛ وبعضهم ائتُمنوا على العناصر بالسلطة عليها، وبعجب عظيم خضعت سائر الطبائع لأمرهم؛ ومنهم مَن أئتمنوا على إظهار الخفايا المستترة في صمت سيد الكل لتجديد العامة. لأنه لم يكن من اللائق أن تُخدم أسرارٌ كهذه ببطن مفعمة ملآنة وعقل طائش مشتت بسبب الشره. فالقديسون لم يجسروا على المفاوضة مع الله والارتفاع لخفايا أسراره إلا بضعف الأعضاء، ولون مُصفر من ألم الجوع، وعقل هادئ قد رجع إلى مذاقِه بالتجرد من جميع الأفكار الأرضية.

١٥ – فإذا مكثت زماناً داخل قلايتك وأنت متدبر بأعمالٍ تعبة وحفظٍ خفي وقمع للحواس من كل لقاء ومصادفة، تحل عليك قوة السكون، فتصادف أولاً الفرح والبهجة التي بغير سبب من وقت لآخر تملك في نفسك. وعند ذلك تنفتح عيناك وتنظر صنعة الله وحُسن خلائقه حسب قياس نقاوتك. وإذا انجذب العقل بدَهش هذه النظرة يصير الليل والنهار عنده وَاحِداً بدهش تمجيد أعمال الله، ومن ههنا تُسرق حاسية الآلام من النفس ذاتها بلذة هذه النظرة، وبها تدخل إلى درجتي الإعلانات العقلية اللتين تأتيان في الترتيب بعد الزكاوة ومنها إلى أعلى. الرب يؤهِّلنا لها، آمين.

المَيْمَر الحادي والثلاثون

إيضاح وتفسير بأدلة على أنواع المعقولات واستعمال كل منها

١ – العقل هو حسٌّ روحاني قد جُعل لقبول القوة الناظرة، مثل حدقة العين الجسدانية التي ينسكب فيها النور الحسِّي. والنظر العقلي هو المعرفة الطبيعية التي امتزجت مع تقانة الطبيعة ويسمونها النور الطبيعي. والقوة المقدسة هي النعمة، الشمس التي تميز بين الأشياء، وقد وضعت بين النور والنظر. والطبائع هي أشياء وسيطة تُدرَك للنظر بواسطة النور. والآلام هي كجواهر مُصمتة متوسطة بين النور والنظر، وهي تمنع عنه تمييز الأمور. والزكاوة هي صفاء الجو العقلي الذي يطير في وسطه الطبع (الرُّوحي) الذي فينا.

٢ – إن لم يكن العقل صحيحاً في طبعه (أي خواصه الطبيعية) فلن تفعل فيه المعرفة، ويكون كالعين الجسدانية التي إذا ما تأذَّت من أي سبب من الأسباب يؤخذ منها البصر. وإن كان العقل صحيحاً والمعرفة ليست موجودة، فلا يستطيع أن يميز الأمور الرُّوحية بدونها، كالعين التي تكون صحيحة في كل ما يخصها، ولكنها باهرة (أي خالية) من حسِّ النظر وتكون عادة متعطلة. وإن كانت هذه كلها (أي العقل والبصر..) محفوظة فيما يخصها والنعمة ليست قريبة، تبقى جميعها بغير فعلٍ خالية من كل خدمة تمييزها مثلما تبقى بغير فعل أثناء الليل لسبب عدم وجود الشمس رغم أنها كلها صحيحة وتامة بكل ما يخصها، وأعني بذلك العين وقوة نظر الأمور، وليس ما يُفرز بالنظر أو لا يفرز. وهذا هو معنى ما قيل إنه «بنورك نعاين النور». وإن كانت النعمة، الشمس العقلية، قريبة وهي تجذب النفس وتخضعها وتوقظها وتحركها، بينما لا توجد فيها الزكاوة، التي هي مثل الجو الخالي من عبوقة (أي تكاثف) السحب والمواد المظلمة التي تمتد بسهولة إلى أشعة الشمس، وتجعلنا نتنعم بالنور الحسن المشتهى بحلاوة النظر في كل ما هو روحاني، (فإذا لم توجد هذه الزكاوة) فإن النظر يتعطل من التمييز، ويبطل الطبع من الفعل، وتخيب النفس من الحسِّ بلذة الشمس الثَّانِية (أي نعمة الله) التي تشرق على الكل، بسبب حاجز جسماني يعوق إشراقات الحق من الوصول إلينا.

٣ – ولهذا فنحن مضطرون لجميع هذه الأمور التي ذكرناها. ولكن لأنه بعد جَهد توجد هذه كلها في إنسان وَاحِد بغير نقصان، فإن كثيرين لا يستطيعون أن يبلغوا ولا للكمال الجزئي من المعرفة الرُّوحانية. ومثل هذا العوز يكون سببه أن العقل ليس كفؤاً، وأن القصد ليس مستقيماً، وبسبب عدم قطع الهوى، وعوز الزكاوة، وعدم وجود المرشدين، وتعويق المعلمين، وامتناع النعمة؛ لأن: «الغِنى لا يليق للجاهل ولا السعادة ولا اقتناء الأشياء الْعَظِيمة» (حكمة١٤: ٣).

المَيْمَر الثَّانِي والثلاثون

فصول مُختصرة محدودة المعنى

١ – اِعلموا يا إخوتي أن العين المحسوسة بقوتها الناظرة – التي تصل إليها من المخ كما في شيء يشبه القناة – لا تقدر أن تدرك التمييز بين الأمور دون اشتراكها مع نور آخر. وجميع الأمور الحسية الطبيعية هي بهذا القياس على السواء مع الأمور العقلية التي لسيرة الرُّوح. والقوة الطبيعية التي للعقل تسمى معرفة نفسانية، ولا تقدر النفس أن تقبل النور الإلهي دون أن تشترك مع الحق بتصورها (أي بالتاؤريا)، والتاؤريا تُقتنى من السيرة الفاضلة بعد أن يُبنى بها جزء النفس المتألم ويثبت في الصحة الطبيعية.

٢ – كثيرون من أهل رتب الفلسفة (رغم انغماسهم) في الآلام النفسانية والجسدانية، جسروا باستنادهم على هذه (الفلسفة) وحدها (أن يدركوا تلك الرؤيا) فزاغوا عن الحق الذي كانوا ممسكين به وحُرموا أيضاً من النظر (العقلي) العادي. فكما أن الأعين تبصر الخيالات في الجو بسبب ضعف بصرها الذي صار معتماً من تأثير المواد الرطبة التي فيها، هكذا كل وَاحِد من هؤلاء (الفلاسفة) اِعتقد أن الشبه الذي تخيله أمَّامه هو الحق. وعندما اجتمعت كل هذه التخيلات معاً ظهرت أشكال كثيرة متعددة عوض الحق الوَاحِد. وقد عرض هذا الأمر لهم لأنهم لم يطلبوا شعاعات النعمة التي تشرق (من خلال) التطهير النفسي.

٣ – الحق هو الحسُّ بالله الذي يتذوقه الإنسان في ذاته بحاسية حواس العقل الرُّوحانية. زهرة معرفة الرُّوح هي الحب الإلهي الذي يتولد من الأفهام المتوقدة بواسطة الرُّوح، وتوجد بالصلاة. الحب هو ثمرة الصلاة التي بالتصور الذي يكون منها تجتذب العقل بلا شبع لمحبة الله إذا ثبت الإنسان فيها بغير تضجر، سواء أكان يصلي بتلك الصلاة المحسوسة بالجسد بحرارةٍ وحِدَّةٍ أم بتلك التي بحركات الضمير الهادئة.

٤ – الصلاة هي ميتوتة حركات الإرادة من الحياة اللحمية. فالصلاة الحقيقية والموت عن العالم هما على السواء. وهذا هو جحود الإنسان بنفسه، أن يكون مداوماً على الصلاة. ومعروف لكل من ينظر في الكتب المقدسة ما هو طلب الصلاة الحقيقية؛ ومعلوم أيضاً عند الذين قبلوا هذا الضمير الوحيد الفريدي لكي يقتنوا بتوسلاتهم الصلاة الفريدية (بحسب قياس اشتياقهم) – أنهم لا يكونون على الدوام فيما يريدونه، وأنه يجب ألا يثيروا السجس على أنفسهم من خلال الآلام المضادة التي تتحرك في نفوسهم بعد انتهاء الصلاة. وهكذا يتضح أن حب الله يُوجَد بجحود النفس.

٥ – كما أنه من بذار عَرق الصَّوْم ينبت سنبل العفة، كذلك أيضاً يتولد الفسق من الشبع والنجاسة من الامتلاء. فالأفكار النجسة لا تجسر أبداً على البطن الجائعة. كل طعام نتناوله يكون منه زيادة في مادة الزرع الطبيعي الذي ينجمع في الجسد؛ وإذا امتلأت الأعضاء التي هي أواني الزرع من النزيز الذي يرد إليها من الجسم عندما يعرض للإنسان أن ينظر جسداً ما أو

يتحرك في فكره ذِكر شيء من غير الإرادة، فحالما يتحرك الفكر تتحرك مادة اللَّذة من هناك وتنطلق في الجسم كله. وهنا، حتى ولو كان الفكر شجاعاً جداً وعفيفاً ونقياً في حركاته، يضطرب تمييزه في الحال بسبب ذلك الحسِّ الذي سَرى في أعضائه، فيهبط من السلام الذي كان قائماً فيه كما من قمة عالية، وتتسخ عفة أفكاره النقية، وتتنجس عفته بسبب اضطراب ذلك الألم الذي تحرك في القلب من توقد الأعضاء. وفي الحال يفقد نصف قوته، وينسى قصده وغرضه الأَوَّل ورجاءه وأمله من قبل أن يدخل إلى مصاف (أي صفوف) القتال ويوجد مغلوباً من غير قتال، فلا يتعب عدوه في الجهاد معه لأنه انغلب بخضوعه لإرادة الجسد الفاشل. وهذا كله يفعله الشبع الدائم، فيؤذي إرادة الإنسان الجيدة التي تتدبر بالتقانة (أي الانضباط) في ميناء العفة، ويجعل الإنسان ينحني ويخضع للشيء الذي لم يخطر على باله أبداً، فإذ به وهو راقد وحده تحيط به عدة أفكار لابسة أشكالاً نجسة، ويصير سريره الطاهر فندقاً للزواني ومسرحاً للمناظر، يشترك ويتكلم معها بسُكْرِ الأفكار، ويدنس أعضاءه الطاهرة دون أن تدنو منه امْرَأَة. أي بحر يضطرب هكذا من النوء مثلما يضطرب العقل المتقن السديد من قوة الأمواج الثائرة عليه في جسمه من امتلاء البطن؟

٦ – آه أيتها العفة! ما أبهى حسنك بالرقاد على الأرض وألم الجوع يشتت منك النوم بسبب نشوفة الجسد وخلوِّ البطن الذي يجعلها مثل الجب العميق بين الأضلاع والأمعاء من قلة الأكل ونقصان الغذاء!

٧ – إن كل طعام وكل راحة يدخلان إلينا تتشكل منهما أشكالٌ وصورٌ رديئة، وتظهر لنا في بلد عقلنا الخفي وتجذبنا إلى الشركة معها خفياً بأعمال الفسق. أمَّا فراغ البطن فيكون للضمير مثل البرية القفرة الخالية من الأفكار، الهادئة من تشويش التذكارات. أمَّا البطن المملوء من الشبع (فيكون) مثل بلد المشاهد والمناظر، ومحضر السماعات النجسة الرديئة. بل وحتى إذا كنا في البرية والقفر وحدنا، فإن الشبع يشتهي أشياء كثيرة مثل هذه.

٨ – إذا أهِّلتَ من نعمة الله لعدم التألم النفساني، فلا تظن أنه لا تجوز فيك الأفكار الدنسة أو اختلاج الحركات في الجسد، بل إنها لا تتمكن منك، وذلك ليس لأنك تغلبها بسهولة، أو لأن الفكر لا يتنجس ولا يضطرب على الإطلاق، وإن كانت هذه حالة عالية ومرتفعة جداً، بل إن ذلك يتحقق من عمل العقل الفاضل واشتعال الفكر فيه، إذ لا يدع الذهن يقاتل معها ويبيدها، لأنه حالما تبدأ الأفكار في الظهور يُختطف العقل من عندها اختطافاً خارجاً عن إرادته، وذلك لأنه بفعل النعمة والعادة قد احتفظ بخميرة (روحية) في القلب الذي هو بيت العقل.

٩ – العقل المجاهد شيء وترتيب الكهنوت شيء آخر. الضمير الذي قد مات عن العالم بالرحمة السمائية لا توجد فيه سوى أفكار ساذجة عن الأمور من غير جهاد القتال، أمَّا إن كانت من حركات الأعضاء فهي حسٌّ (أو نبضات) الموت.

١٠ – الكمال المرتبط باللحم والدم يملك على الأمور التي تتولد وتفيض من اللحم والدم، ولكنه لا يُبطل خاصيات الطبيعة ما دام الإنسان في هذه الحياة التي تختلج حركاتها من العناصر، وأساس عقله يستمد التغيرات في كل لحظة من الأربعة عناصر.

المَيْمَر الثَّالِث والثلاثون (١٣م)

على أنَّه كيف ينبغي للعارفين ذوي الإفراز الجلوس في السكون

١ – اِسمع أيُّها الأخ الحبيب، إن كنتَ تريد أن لا تكون أتعابك فارغة وأيامك باطلة وعديمة المنفعة التي يترجى العارفون ذوو الإفراز أن ينالوها في السكون، فليكن دخولك إلى السكون بإفراز ومعرفة وليس كيفما اتفق أو بحسب العادة، لئلا تكون مثل كثيرين. بل فليكن لفكرك غرض وقصد تُوجِّه إليه كل عمل سيرتك، واسأل الذين يعرفون هذا من الخبرة في نفوسهم وليس من القراءة فقط. ولا تهدأ حتى تتخرج (تتمرس) في جميع أعمال السكون. وكل خطوة تخطوها فتش وافحص إن كنت سائراً على الطريق أم انحرفت عنها إلى بعض السبل التي توصل إلى المتاهة. ولا تصدق أن تَدْبِير السكون الحقيقي يكمل من الأعمال الظاهرة فقط.

٢ – فإن كنتَ تريد أن تدرك الخبرة بنفسك، فلتكن لك علأمَّات وإشارات ودلائل خفية في نفسك على كل خطوة تخطوها، وبها تميز الحقيقة التي يُعلِّم بها آباؤنا من ضلالة الشياطين. وأنا أضع أمَّامك القليل (من هذه العلأمَّات) لكي تتحكم بها في طريقك.

٣ – إذا كنتَ في السكون ورأيتَ أن فكرك يستطيع أن يستعمل حركاته بحريَّة في الأمور اليمينية، ويمارس سلطته بالنسبة لكل منها دون تغصب، فاعلم أن سكونك مستقيماً. وإذا كنت أثناء خدمة المَزَامِير تقدِّم خدمتك بإفراز بعيداً عن الطياشة بقدر الإمكان، وتنقبض الألفاظ من لسانك بغتة وتُلقَى على نفسك قيود الصمت خارجاً عن حريتها، وأن ذلك يحدث على الدوام، فاعلم أنك ناجح ومتقدم في سكونك، وأن بساطته بدأت تتضاعف فيك. لأن السكون الساذج هو مرذول بالعدل، والتَدْبِير الساذج محسوب عند ذوي الإفراز كمثل العضو الوحيد الذي ليس له معاضدة من أي عضو آخر.

٤ – وإن كنت تنظر نفسك مع كل فكر يتحرك فيها وكل تذكار في السكون تمتلئ عيناك بالدموع وتُمطر على خديك دون تغصب، فاعلم أن الكَسْرة قد بدأت تظهر في عسكر الأعداء.

٥ – وإن كنت تجد ذاتك أحياناً وقد غاص فكرك داخلك – دون أن تعتني أنت بذلك – خارجاً عن ترتيب العادة، ويثبت (في تلك الحالة) دقيقة أو ساعة أو أقل أو أكثر من ذلك، وبعد ذلك تجد أعضاءك كما لو كانت في ضعفٍ كثير، وقد ملك السلام على جميع أفكارك، ويحدث هذا على الدوام، فاعلم أن السحابة بدأت تظلل المسكن.

٦ – أمَّا إذا أمضيت في السكون زماناً ووجدت نفسك قد تسلَّطتْ عليها أفكارٌ مشتتة تنساق فيها كل وقت رغماً عنها، وينجذب فكرك كل حين إلى الأشياء التي فعلتها قديماً، وتشتهي أن تفتش وتبحث في الأمور الباطلة، فاعلم أنك تشقى في السكون باطلاً، وأن الطياشة متسلطة على نفسك ولها أسباب من الخارج، أو أنك متهاون في الأمور الواجبة في الداخل. فاستعمل السهر والقراءة وأصلح أمرك.

٧ – وإن كنتَ في حال دخولك لا تجد سلأمًّا بسبب كثرة إلحاح الآلام، لا تعجب من ذلك. لأن جوف الأرض إذا غابت عنها أشعة الشمس تحتفظ بسخونتها مدة طويلة؛ ورائحة الأدوية وبخور اللبان إذا انسكب في الفضاء يثبت زماناً حتى يتشتت ويبطل. فكم بالأكثر تكون الآلام؟ إنها تشبة الكلاب التي اعتادت أن تلحس الدم في بيت الجزار، فإذا انقطعت عنها مادة عوائدها القديمة (وقفت عند الأبواب نابحة ولا تفارقها حتى تبطل قوة عادتها الأَولى).

٨ – إذا بدأ الإهمال يسرقك ويدخل إلى نفسك، وبدأتَ ترجع إلى وراء في الظلام، وقد قَرُبَ أن يمتلئ البيت ظلأمًّا، تحسُّ في ذاتك بهذه العلأمَّات خفياً: يضعف إيمانك، وتطمع في الأشياء الظاهرة، تنقص ثقتك، تشكُّ في قريبك، وتكون بكل نفسك مملوءاً ملامة بالفم والقلب لكل إنسان وعلى كل أمرٍ وفي كل شيء تلاقيه إن كان بالأفكار أو بالحواس، حتى وعلى الرب العالي، وتخاف من مؤذيات الجسد التي بسببها يتسلط عليك صغر النفس، وتُرعب نفسك بالخوف في كل وقت وتجعلك تجبن وتخاف حتى من خيالك. (وذلك لأنك طمرتَ إيمانك بالشك)، وقولي الإيمان لستُ أعني به الإيمان العام الذي هو أساس (اعتراف كل إنسان)، بل تلك القوة العقلية التي تسند القلب بنور الفكر، وبشهادة النيَّة تحرك في النفس ثقة كبيرة واتكالاً على الله، فلا يحمل الإنسان بعدُ همَّ نفسه، بل يلقي على الله همَّه في كل شيء.

٩ – وإذا تقدمتَ في العمل فسوف تجد في نفسك أيضاً هذه العلأمَّات والدلائل: تحسُّ في نفسك أنك تتشجع بالرجاء في كل أمرٍ، وتنجح في الصلاة، ولا تعدم مادة المنفعة من فكرك على الدوام في كل شيء تصادفه، وتحسُّ بضعف وعجز الطبيعة البشرية، لكي بهذا تتحفظ من العظمة من جهة، وتهون عليك زلاّت قريبك من جهة أخرى، وتشتهي الانتقال من الجسد بشهوة قرب الأشياء التي نحن عتيدون أن نوجد فيها في الدهر الآتي. وفي كل عارض من الأمور المحزنة المصادفة لك في الظاهر أو في الخفاء تجد أنها قد عرضت لك بعدلٍ وعلى وجه الحقيقة لتبعدك من الظنون (أفكار العظمة)، وعلى هذا كله تقدم الشكر والاعتراف.

١٠ – هذه الإشارات والدلائل قد وضعتها للمحترصين والمداومين في السكون الذين يريدون أن يبلغوا إلى تحقيق (كمال) السيرة في تَدْبِيرهم. أمَّا ذوو الانحلال والمتهاونون فلا حاجة بهم إلى الدلائل الدقيقة لكي تحفظهم من مكامن السقطات لأنهم بعيدون تماماً عن الفضائل الخفية. فإذا بدأت إحدى هذه (العلأمَّات) تظهر في نفسك، مَيِّز في الحال لأية ناحية قد مِلْتَ، فتعرف حالاً من أي نوع هي. وليعطنا الله المعرفة الحقة، آمين.

المَيْمَر الرَّابع والثلاثون (١٤م)

في أننا نستطيع أن نفهم منزلة تَدْبِير سيرتنا من غيارات فكرنا؛ وأنَّه يجب ألا نتكل كالبُله على كثرة غيارات أعمالنا فقط، بل كحكماء نعرف منزلة أنفسنا من التجديد الخفي الذي نحسُّ به يوماً بعد يوم؛ وعلى رتبة المعرفة

١ ــ تفرَّس في ذاتك دائماً أيُّها الأخ الحبيب، وانظر في جميع أعمالك والضوائق التي تعرض لك وبلد سكناك القفر ودقة عقلك وحدَّة معرفتك وطول مدة سكونك مع أدوية التجارب الكثيرة التي تتواتر عليك من قِبل الطبيب الحقيقي لأجل صحة إنسانك الداخلي: أحياناً من الشياطين وأحياناً من الأمراض وأوجاع الجسد وأحياناً أخرى من الخوف والرعب الذي يُلمُّ بحركات نفسك بذكر الأمور المحزنة المزمعة أن تكون في الآخرة، وأحياناً من تليين (الجروح) وجَبار (أربطة) النعمة ومن الحرارة والدموع الحلوة والفرح بالرُّوح.

٢ ــ وباختصارٍ فإنك من هذه جميعها تنظر هل بدأ جرحك يلتئم؟ أي هل بدأت الآلام تضعف؟ واتخذ لك دليلاً وعلامة على ذلك، وغُصْ داخلك دائماً وانظر أي الآلام قد ضعف أمَّامك وأياً منها بدأ يسكت وأياً منها قد اضمحل وانقطع تماماً. وهذه تتحققها من صحة نفسك وليس من بُعد الأسباب التي تحركها وعدم وجودها، ومن الفكر الذي قد تشبب وليس من عدم الأسباب. وافحص أيضاً جيداً وانظر إن كان جرحك المتقيح قد بدأ ينمو عليه لحمٌ حي، الذي هو سلامة النفس.

٣ ــ ولاحظ أيضاً أية آلام ما زالت تضغط متواتراً أو من وقت لآخر، وإن كانت هي آلام جسدية أم نفسية، وإن كانت تتحرك بسلطة أم بضعف وهي متخفية، أو أنها تقوم على النفس بقوة وجسارة. وكيف يواجهها العقل الملك المتسلط على الحواس إذا ما قرَعَتْ: هل يقاتلها ويكسرها بقوته؟ أم أنه لا يلتفت إليها كلية ولا يعتدُّ بها؟ وهل هي فضلات الأشياء القديمة أم أنها قد تشكلت جديداً؟ وهل تتحرك الآلام عن طريق الأشكال أم بغير أشكال أم بتذكارٍ بغير ألم، أم حركة بدون إثارة ومجاذبة؟ لكي من هذه الأمور نقدر أن نعرف منزلة نفسنا وأين هي قائمة.

٤ ــ فإن كانت النفس قائمة في الحالة الأَولى فهذا يعني أنها لا تنجح في شيء لأن القتال ما زال ثابتاً في النفس حتى ولو أظهرت قوتها وشجاعتها (مقابل الآلام). أمَّا بالنسبة للحالة الثَّانِية فهذا يُعرف معناه من قول الكِتَاب إن داود «جلس في بيته لأن الرب أراحه من جميع أعدائه المحيطين به» (٢مل٧: ١). ولا تظن أن هذا قيل عن ألمٍ وَاحِد فقط، بل وعن الآلام الطبيعية أيضاً، أعني الشهوة والغضب، وألم محبة المديح الذي يصور الوجوه ويتخيلها وينجذب إليها، وألم محبة الفضة الذي تشاركه النفس خفية وإن لم تخضع له بالفعل لكنه يصوِّر في العقل صور الأشياء والمقتنيات بمحبة الفضة، ويُخضع النفس لتفكر فيها ويوسوس لها باقتنائها مع الأشياء الأخرى.

٥ – والآلام لا تقاتل جميعها بالمجاذبة (الإغراء)، لأن منها ما يضغط النفس ويحزنها بالضوائق، مثل الملل والضجر والكآبة التي لا تقاتل بالمجاذبة ولا بالخداع ولا بالرَّاحَة، بل تضع على النفس ثقلاً فقط. أمَّا نشاط النفس فلا يظهر إلا بالفَتك (الجرأة) والغلبة على الآلام التي تقاتلها بملقٍ وخداع. فينبغي للإنسان أن تكون له معرفة دقيقة حاذقة وعلأمَّات لهذه الأمور جميعها لكي يحسَّ في كل خطوة يخطوها إلى أين وصل، وفي أي بلد بدأت نفسه تسلك، هل في أرض كنعان أم عبر الأردن؟

٦ – وتفرَّس أيضاً إن كان ضياء نور نفسك فيه كفاية لمعرفة هذه الإفرازات أم أنك تميزها بعتامة وبغير وضوح، أم أن نفسك قد عدمت تماماً معرفة هذه الأمور؟ لأنه كلما بدأت الأفكار في النقاوة تخلَّت الطياشة عن العقل وقت الصلاة. وانظر أيضاً أي ألم يسجس العقل عندما يدنو من الصلاة؟ وهل تحسُّ في ذاتك أن قوة السكون قد حلَّت على النفس بذهولٍ وهدوءٍ، وأن السلام قد تولَّد في الفكر على غير العادة؟ هل يُختطف العقل على الدوام من غير العادة بحركات غير متجسمة لا يؤذن للحواس أن تصفها؟ وهل يتوقد فيك بغتة فرحٌ بغير قياس يصمت اللسان بالتنعم به؟ وهل تفيض من القلب على الدوام حلاوة ما تجذب الإنسان بكلَيْتَه؟ وهل ينسكب في الجسد من حين لآخر – دون أن يحسَّ – تنعمٌ وسرورٌ لا يستطيع لسانٌ بشري أن يصفهما، وتصير جميع الأرضيات عنده مثل الزبل والرماد فلا توجد في فكره؟ أمَّا الفرح الأَوَّل فيكون أحياناً في وقت الصلاة، وأحياناً في القراءة، وأحياناً أخرى في الهذيذ الذي يتواتر على الدوام بهذيذ الفكر وحرارة العقل (من مداومة النظر). أمَّا النوع الآخر من الفرح فهو خارج عن هؤلاء، وأحياناً كثيرة يوجد في أي عمل كان، ويحدث أحياناً في الليالي بين النوم واليقظة، فيكون الإنسان كأنه نائم وهو ليس بنائم، وكأنه مستيقظٌ وهو ليس متيقظاً، فيتحرك هذا التنعم في جسمه كله، حتى يظن الإنسان في ذلك الوقت أن ملكوت السموات ليس هو شيئاً غير هذا.

٧ – مَيِّز أيضاً إذا كانت نفسك قد اقتنت قوة لكي ترذل التذكارات المحسوسة بواسطة قوة الرجاء والأمل التي تملك على القلب وتشجع الحواس الداخلية باقتناع لا تفسير له؛ وإن كان القلب قد تيقظ – من غير اهتمام سابق من جهتك – لكي يُسبى بعيداً عن الأمور الأرضية بسبب المفاوضة التي بلا انقطاع والعمل الدائم مع مخلصنا.

٨ – واقتنِ أيضاً معرفة أنواع دعوات المفاوضة إذا سمعت بها. لأن السكون بلا انقطاع يجعل النفس تذوق هذه الأمور بدوام عمله، كما أنها تبيد وتضيع أيضاً بعد وجودها بسبب تهاون وإهمال قابليها، وبعد مدة توجد. وبهذه (الأمور) يجسر الإنسان أن يقول بثقة بشهادة النيَّة، ما قاله بولس الرسول: «إني واثق أنه لا موت ولا حياة ولا الأشياء الحاضرة ولا المزمعة.. مع بقية الأشياء، تقدر أن تفرزني من محبة المسيح». نعم، ولا ضيقة ولا عري جسد ولا جوع ولا عزلة ولا حبس ولا سيف ولا شيء خطر، ولا ملائكة الشيطان بأنفسهم ولا جميع قواته بصنائعهم المملوءة شراً، ولا المديح الباطل بخداعه وتملقه وإغراءاته الجاذبة، ولا المذمَّات والتعييرات مجاناً وبلا سبب.

٩ – فإن كانت هذه يا أخي، لم تبدأ بالظهور في نفسك جزئياً بقليل أو كثير، فاعلمْ أن عملك وضوائقك وسكونك كلها شقاء وتعب مجاناً، فلو أنك كنت تصنع العجائب وتقيم الموتى فذلك لا يقاس بها. ولهذا ينبغي لك أن تعرف ذاتك وتسأل محيي الكل بدموع أن يرفع الحجاب عن الباب لكي تنقشع ظلمة سحابة الآلام من الرقيع (الفَلَك) الداخلي لكي تؤهَّل لنظرة إشراق الشمس، لئلا تكون جالساً في الظلمة إلى الأبد كمائتٍ.

١٠ – السهر الدائم مع القراءة وضرب الميطانيات بينها متواتراً لا يبطئ طويلاً حتى يمنح هذه الصالحات للحريصين. والذين نالوها قد وجدوها بهذه الأمور؛ والذين يريدون أن ينالوها بهذه أيضاً يمكنهم أن يقتنوها. فإذا داوم الإنسان على السكون مع العمل بها (السهر والقراءة والميطانيات)، ولم يرتبط عقله بشيء ولا بإنسان آخر خارجاً عن نفسه فقط، من خلال أعمال الفضيلة التي يكون عملها من الداخل، حينئذ بهذه الأعمال نؤهَّل قريباً لهذه (الصالحات) ونجدها في نفوسنا جزئياً بإحساس حقيقي، وبه نتحقق بيقينٍ بالنسبة للبقية.

١١ – والذين بثباتهم في السكون قد اقتنوا خبرة طِيب الله، لا يحتاجون إلى إقناع كثير، ولا تضعف نفوسهم بمرض عدم الإيمان كالمتقسِّمين (البعيدين) على الحق، لأن شهادة ضميرهم وحدها فيها الكفاية لإقناعهم أكثر من ربوات كلام بغير خبرة.

المَيْمَر الْخَامِس والثلاثون (١٥م)

في المعرفة الحقيقية، وعلى التجارب التي ينبغي أن نعرف منها الحقائق

١ – إنَّ الذين يُجرَّبون ليسوا هم فقط الناس الضعفاء والمنحلِّين وغير المدرَّبين، بل والذين وصلوا أيضاً إلى عدم الآلام وأدركوا كمال الضمير، واقتربوا من الزكاوة الجزئية المرتبطة مع الميتوتة، ووصلوا إلى الارتفاع عن الآلام؛ فهؤلاء أيضاً يُجرَّبون بسماح من الله. فطالما هم في هذا العالم، وحياتهم مرتبطة مع الجسد المتألم، فالجهاد والقتال موجود، وهم ينضغطون من الآلام بسبب الجسد، وتحصل لهم التخلية على الدوام (ممتزجة) بالرحمة لسبب الخوف من حرب العظمة؛ وقد يزلُّون من وقت لآخر لكنهم يشفون أنفسهم بالتوبة وتقبلهم النعمة.

٢ – إنَّ الميلان يجوز في الطبيعة الناطقة كلها بدون تمييز، وتحدث التغيرات لكل أحد في كل الأوقات، ولأجل كثرتها يستطيع العارف أن يفهم ذلك من التجارب التي تحدث له كل يوم، ومنها يقتني حكمة متزايدة إن كان محترساً ومتحفظاً بذاته وبما قد اقتناه. فكم من غيارات الهدوء والذهول يقبلها الفكر كل يوم، وكيف ينقلب من هدوئه وسلامه بغتة إلى الاضطراب دون سبب، فيحصل له أمر خطير عظيم لا ينطق به.

٣ – وقد كتب القديس مقاريوس عن هذه الأمور بعناية كثيرة واهتمام زائد، لكي يذكِّر الإخوة ويعلِّمهم ألا يميلوا إلى قطع الرجاء في أوقات التغيرات المضادة. لأن الذين هم قائمون في رتبة الزكاوة يحدث لهم أحياناً مثل غيار الهواء (أي تحوله أحياناً من الحرارة إلى البرودة)، إذا لم يكونوا في حالة تهاون أو تراخٍ بل كانوا سائرين بحمية واجتهاد، فتحصل لهم عوارض مضادة لغرض وقصد نيَّتهم.

٤ – والقديس مرقس يشهد على هذا أيضاً عن خبرة حقيقية أكَّدها في كِتَابه لتثبيت الحق بتأكيد كثير، لئلا يظن أحدٌ أن ما قاله الْأَنْبَا مقاريوس في رسالته هو كيفما اتفق وليس عن خبرة حقيقية. وعلى كل حال فمن شاهدين مثل هذين يقتنع الفكر بغير تشكك ولا انقسام لكي يتعزى وقت الحاجة والضرورة.

٥ – قال القديس مقاريوس: «إن الغيارات تحصل لكل أحد كما يحصل التغير في الهواء». افهمْ قوله "لكل أحد"، لأن الطبيعة البشرية هي وَاحِدة؛ فلئلا تظن أنه قال هذا عن الضعفاء والحقيرين فقط وأن الكاملين هم خالصون منعتقون من التغيير وقائمون في رتبة وَاحِدة بعدم مَيلان، لا تتحرك فيهم الآلام حسب قول جماعة المُصلِّين، لهذا أوضح الأمر بقوله "لكل أحد".

٦ – كيف تقول أيُّها القديس؟ «في وقت يكون برد وبعد قليل حرارة، وربما يكون برد وبعده صحو صاف. وهذا يحصل لتدريجنا (لنموِّنا) ولتدريبنا: وقت قتال ووقت معونة من النعمة، وقت تقع النفس في نوعٍ وتتواثب عليها أمواج صعبة ثم يحدث التغيير وتفتقدها النعمة وتملأ القلب فرحاً وسلاَمًا من الله وأفكاراً عفيفة سليمة». وهو بقوله "أفكاراً عفيفة" يشير

بوضوح إلى الأفكار البهيمية النجسة التي حدثت قبلها. وحدَّد ذلك قائلاً: «إنه إذا حدث بعد هذه الأفكار العفيفة أن تواترت العوارض الرديئة على العقل، فلا نحزن ونقطع الرجاء؛ كذلك يجب ألا نفتخر وقت افتقاد النعمة، بل بالأحرى في وقت الفرح ننتظر الضيقة».

٧ – وقوله "لا نحزن" إذا ما تواترت علينا الأعراض لا يعني أن لا نقوم مقابلها أو أن يقبلها فكرنا بفرح كما لو كان هذا الشيء يخصنا وهو أمر طبيعي، بل إنما يعني أن لا نقطع الرجاء كإنسان يطمع وينتظر أن يكون بلا قتال ويعيش في راحة كاملة ليس فيها أي تغيير ولا بقي له جهاد ولا تعب ولا شقاء ولا حركة بشيء من الأمور المضادة. لأن الله رأى ألا يُعطي هذه الرَّاحَة لطبعنا في هذا العالم لئلا نوجد بطالين من التعب والجهاد بالكمال، وبهذا الرأي ترتخي بقطع الرجاء وتتخلف عن سعيك وجَرْيك.

٨ – ويقول: «بل تيقن بالحقيقة أن جميع القديسين كانوا في هذا التعب. أمَّا نحن فطالما كنا في هذا العالم فإنه يكون لنا وسط الضيق عزاءٌ زائدٌ في الخفاء». لأنه في كل يوم وفي كل وقت ينبغي أن نظهر صدق محبتنا لله بالجهاد مقابل التجارب، وهذا هو معنى قوله "لا نحزن"، أي لا نقصِّر ولا نتضجر في الجهاد.

٩ – ثم يقول: «لأن هذا هو ترتيب طريقنا، والذي هو مختلف عن هذا هو من نصيب الذئاب». يا للعجب من قول هذا القديس! كيف أنه بكلمة صغيرة حصر هذا الفصل الزاخر بالأفهام، وطرد الشك تماماً من فكر القارئ بقوله إن المختلف عن هذا هو من نصيب الذئاب! أي أنه لا يريد أن يسلك في الطريق، لهذا يقع تحت دينونة هذا الحكم لكونه يريد أن يسلك وحده في طريق لم يَسِرْ فيها الآباء والقديسون، فيكون من نصيب الذئاب القديمة المرتدية لباس الحملان لكي تخطف النفوس الجاهلة بشكل الحق، لشرودهم.

١٠ – أمَّا قوله: «في وقت الفرح ننتظر الضيقة»، فهذا معناه أنه إذا فاضت في نفوسنا من فعل النعمة بغتة حركات ومعانٍ عظيمة ودهش بنظرة العقل في الأشياء التي هي فوق الطبع، حسب قول القديس مقاريوس إنه عندما يقترب منا الملائكة القديسون فهم يملأوننا بالنظرة الرُّوحية فيهرب جميع المضادين لنا، ويكون لنا عندئذ سلام وهدوء لا ينطق به؛ ففي الوقت الذي تكون فيه في مثل هذه الأشياء، وقد حلَّت النعمة عليك وأحاطت بك الملائكة القديسون، ولأجل هذا ابتعد عنك المجرِّبون، لا تتعظم وتظن في نفسك أنك قد بلغت إلى الميناء الهادئ غير المتحرك والجو الساكن غير المتغير، وأنك قد ارتفعت بالكمال من وسط هذه الحوطة (أي التجارب المحيطة) وليس لك منذ الآن أي شيء يضاد ولا رياح متقلبة ولا بقي هناك عدوٌ ولا ملاقاة شيء رديء. فإن كثيرين فكروا هكذا فسقطوا في أمور خطيرة، كما قال القديس نيلوس.

١١ – كذلك لا تظن أنك أرفع من كثيرين، وأنه من الواجب أن تكون في هذه الأمور السامية وعن استحقاق، بينما الآخرون فمن أجل حقارتهم وعدم استحقاقهم ونقص سيرتهم إذ ليست في معرفتهم كفاية، عدموا هذه الأمور، وأنت فعن استحقاق قد حصلتَ عليها إذ قد وصلتَ إلى العفة الكاملة والدرجة الرُّوحانية العالية والفرح الذي لا يتغير. ولكن عليك أن تتذكر تلك الأفكار

النجسة والصور القبيحة التي ارتسمت في ضميرك وقت الراموز (العاصفة) واضطرابات الأفكار المشوشة التي وثبت عليك منذ قليل حينما كان الظلام القاتم مستحوذاً عليك، وكيف خضعت حينئذ للآلام وتفاوضت معها وقت تكدُّر الفكر، ولم تخجل من النظر الإلهي ومن المواهب والعطايا التي نلتها. واعلمْ أن النعمة الإلهية المدبرة لكل أحد بسياسة تليق به، قد أتت بهذه (الآلام) لأجل إذلالنا ولكي نتضع. وإنْ تعظَّم الإنسان بمواهبه تخلت عنه النعمة وسقط بكلَيْتَه في الفعل بالأشياء التي كان يُمتحن بها بالفكر فقط.

١٢ – واعلمْ أن قيامك هذا ليس هو من حرصك ولا من فضيلتك، بل لأن النعمة قد حملتك على راحات يديها لئلا تتحرك وتزلّ. تذكَّر ذلك وقت الفرح، وإذا تعظم فكرك قل: «يا أبانا الذي في السموات» وابكِ واحزنْ وانتحب وتمرَّغ على الأرض بوجهك من أجل زلاّتك التي حصلتْ وقت التخلية، لعلك بهذا تنجو (من العظمة) وتقتني منها الاتضاع، ولا تقطع رجاء نفسك، بل اغفر خطاياك بأفكار التواضع.

١٣ – لأن الاتضاع من غير عمل يغفر خطايا كثيرة، بينما الأعمال (وحدها) بلا اتضاع تفعل ما هو ضد ذلك وهي بلا منفعة، بل إنها تعدُّ لك شروراً كثيرة؛ ولهذا اغفر خطاياك بالاتضاع كما قلتُ لك. كما أن الملح يصلح لجميع الأطعمة، هكذا الاتضاع يصلح لكل الفضائل. فالاتضاع يقدر أن يمحق خطايا عظيمة صعبة. ولهذا نحن مضطرون لاقتنائه لكي يتألم الفكر على الدوام باتضاعٍ وحزنٍ بتمييز. فإذا اقتنيناه فهو يجعلنا أبناء الله، ويقيمنا أمَّام الله (حتى وإن لم نقدِّم له) أعمالاً فاضلة. لأنه من دون الاتضاع يكون كل عمل وكل فضيلة باطلة. ولهذا يسمح الله بالتغيير للعقل، لأننا بالفكر نتفاضل (نصير فضلاء) وبالفكر أيضاً نتنجس، والتواضع وحده دون غيره فيه كفاية أن يقف أمَّام الله ويعتذر من أجلنا.

١٤ – اشكر الله واعترف له بغير فتور، كيف أنك تقتني طبيعة ضعيفة سهلة الميلان، وإلى أين ترتفع من وقت لآخر بسبب معونة النعمة، ولأي مواهب تؤهَّل، وكيف تبقى فيما يفوق طبيعتك؛ وإذا حصلت لك التخلية فإلى أية هوة تسقط وتقتني عقل البهائم والحيوانات. واذكر حقارة طبيعتك وسهولة التغيير الملتصق بها، حسب قول أحد الشيوخ: «إذا أتاك فكر عظمة بتذكار فضيلتك قُل له، أيُّها الشيخ انظر زناك»، أي الزنا الذي يكون وقت التخلية وأعني به الذي يتجرب به بالأفكار بحسب سياسة النعمة، أمَّا بالقتال أو بالمعونة حسبما يوافق ويليق لنا.

١٥ – أرأيت هذا الشيخ الْعَظِيم كيف قال هذا بإيضاح: إذا أتاك فكر لأجل ارتفاع سيرتك قل: «يا شيخ انظر زناك»؟ والأمر واضح أنه قال هذا لإنسان عظيم، لأنه لا يمكن أن يتأذى بأفكار العظمة إلا الذين هم في رتبةٍ عالية وسيرة تستحق المديح. لأن ألم العظمة يثب على النفس بعد عمل فضائل كثيرة لكي يُفقرها بالكلية. إن أردت أن تعرف في أية رتبة هم قائمون أولئك القديسون الذين يتخلى عنهم لكي يُجرَّبوا بها، يمكنك أن تعرف ذلك من إحدى رسائل القديس مقاريوس. وهذه هي بداية الرسالة: «الأب مقاريوس يكتب لجميع أولاده الأحباء».

١٦ – والْأَنْبَا مقاريوس يوضح في تلك الرسالة بإفصاح كيف يدبِّرهم الله بالسياسة، بالحروب وبمعونات النعمة التي يحسن لدى حكمة الله أن يتدبر بها القديسون طالما هم في هذه الحياة لأجل (اقتناء) الفضيلة وذلك بالجهاد مقابل الخطية، ولكي يشخص نظرهم إليه في كل وقت، لكي بالنظر الدائم إليه ينمو فيهم حبه المقدس، وبالخوف على الدوام من اشتداد ثورة الآلام ورعبة الميلان يسرعون إليه ويثبتون في الإيمان والرجاء والمحبة.

١٧ – من الواضح أن هذه الرسالة لم تُكتب لأجل الذين هم عائشون بين الناس ويتجولون بالطياشة، والمنغمسون في الأفعال والأفكار الدنسة، ولا لأجل الذين يعملون البرَّ بأعمال ظاهرة خارجاً عن السكون وتصطادهم الحواس في كل وقت وتقيمهم الضروريات والعوارض التي تصادفهم على الدوام في خطر السقوط بغير إرادتهم ومن غير أن يفهموا، ولا لأجل الذين ليس فقط أفكارهم بل وحتى أيضاً حواسهم لا يستطيعون أن يحفظوها كلية. ولكنها كُتبت لأجل الذين يحفظون أجسادهم وأفكارهم باحتراس عظيم، ويبتعدون تماماً عن السجس ومحادثات الناس، وبرفضهم كل شيء حتى أنفسهم يتفرغون لحفظ عقلهم في الصلاة؛ والذين يثبتون في السكون الكامل (ويتقبلون) هذه الغيارات بحسب سياسة النعمة، ويتدبرون تحت ذراع معرفة الرب، ويتحكمون من قِبل الرُّوح خفياً، وذلك بالسكون من الأفعال والنظر في كل الأشياء، وقد اقتنوا ميتوتة الضمير من العالم؛ فهؤلاء لا تموت الآلام فيهم، بل يموت الفكر عنها بسبب البعد من الأمور وبمعونة النعمة.

المَيْمَر السَّادِس والثلاثون (١٦م)

في معنى هذا الفصل والأفهام التي سُطِّرت فيه

١ – غرض هذا الفصل هو أن يُعرِّفنا أننا في كل ساعة من هذه الأربع والعشرين ساعة الليلية والنهارية نحن مضطرون للتوبة. ومعنى اسم التوبة كما نفهمه بحقيقة العقل هو: التضرع الحزين في كل وقت بالصلاة المملوءة ندماً التي نقدمها لله من أجل غفران الأشياء الماضية، وطلبة من أجل الحفظ في الأمور المقبلة. ولهذا فإن رَبَّنَا يسند ضعفنا بالصلاة بقوله: «تيقظوا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، و«صلوا في كل وقت ولا تملُّوا»، و«اسهروا وصلوا كل حين»، و«اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم، كل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد، ومن يقرع يُفتح له». وقد أكد لنا كلامه بزيادة وحثَّنا بالأكثر في المثل الذي قاله عن الذي مضى إلى صاحبه في نصف الليل وسأله خبزاً، وقال: «الحق أقول لكم إنه إن لم يُعطِه من أجل الصداقة فهو لأجل اللجاجة يقوم يعطيه جميع ما طلبه». وهكذا أنتم صلوا ولا تملُّوا.

٢ – يا للتشجيع الذي لا يُنطق به! إن الذي يُعطي هو يجذبنا قائلاً اسألوني وأنا أعطيكم المواهب. وإن كان هو يدبر كل شيء حسبما يوافق ويليق، ولكن كلامه هنا مملوء من كل ثقة وتشجيع عظيم. لأن رَبَّنَا لم يرفع الميَلان عنا الآن قبل الموت، وما دام هذا الميَلان موجود فالتغير من الفضيلة إلى الرذيلة حاصل، لأن الطبع البشري قابل للعوارض. ولهذا السبب يحثنا على التضرع الدائم، لأنه لو كان في هذا العالم موضعٌ للثقة، إذا بلغه الإنسان ارتفع الطبع عندئذ من العوز وتخلص عمله من الرعب، لَمَا كان يحثنا على الصلاة ويوصينا بذلك باهتمام.

٣ – والقديسون في العالم الجديد لا يقدمون لله صَلَوَات وتضرعات لأجل أي شيء. لأن طبيعتنا لا تقبل أي غيار في بلد الحرية ذاك، وليست هي خاضعة تحت رعب المضادات بل هي كاملة تامة في كل شيء. ولهذا فهو يحثنا ليس من أجل الصلاة والاحتراس فقط، بل ومن أجل دقة ولطافة (أي غموض) الأشياء الحادثة علينا على الدوام وعدم إمكانية إدراكها لكونها تفوق قوة معرفتنا، ودفعات كثيرة نوجد داخلاً منها دون إرادتنا في كل وقت، حتى ولو كان ضميرنا ثابتاً جداً ويريد الصلاح.

٤ – فكم من مرة تلقينا سياسة الله في إسقيط التجارب حسب قول السعيد بولس: «لكي لا أتعظم بكثرة الإعلانات أُسلمتُ بجسدي لشماتة ملاك الشيطان ليضربني، وسألت سيدي من أجل هذا ثلاث دفعات ليبعد عني التجربة، فقال لي تكفيك نعمتي أن قوتي في الضعف تكمل».

٥ – فكأن الرسول يقول: لهذا يا سيدي إن كانت هذه إرادتك، وهكذا طفولَيْتَنا محتاجة للمعلم أن يؤدِّب وينبِّه؛ حتى وإن لم يكن هناك إنسان قد شغف مثلي بمحبتك، ولا تلهف للصلاح حتى أن العالم لم يُرَ له بالكلية لأجل سُكره بمحبته لك، ومن أجل ذلك أوصلْتَني للمناظر والاستعلانات التي لا يقدر لسان الجسد أن يشرحها، ولكي أنظر وأسمع صوت خدمة الرُّوحانيين، وأهلتني

بالرُّوح لنظرتك المملوءة قدساً، مع هذا كله فأنا لست كفؤاً أن أحرس ذاتي، أنا الإنسان الكامل في المسيح، وهناك شيء بعدُ لأجل لطافته (أي خِفيته) يفوق قوتي (ولا أستطيع إدراكه)، أنا الذي اقتنيت عقل المسيح. ولهذا يا رب، أنا أفرح بالأمراض والضيقات والحبس والقيود والشدائد، إن كانت من الطبع أو من أولاد الطبع أو من أعداء الطبع. فأنا الآن أصبر على أمراضي، أعني تجاربي، لكي تحلَّ عليَّ قوة المسيح. وإن كان مع هذا كله أنا ما زلت محتاجاً لعصا التجارب لكي يزداد بها حلولك فيَّ وأحتمي بالقرب منك، لأني أعرف أنه ليس شيء محبوب عندك أكثر من نفعي، فإنك رفعتني أكثر من كثيرين بما أعطيتني إياه، أي معرفة تمجيدك التي لم تعطها لأحد من الرسل رفاقي، ودعوتني إناءً مختاراً مؤتمناً على حفظ رتبة محبتك؛ وإن كان عمل الكرازة يزيد وينمو لو كنتُ حراً من قيود التجارب، فأنا أعلم أنك كنت ستمنحني الحرية من أجل هذا (أي من أجل نجاح الكرازة) لو كان ذلك يوافقني، لكنك لم تشأ أن أكون بلا ضيقة ولا همّ في العالم، ولم تهتم أن يزيد عمل الكرازة والبشارة في العالم أكثر من اهتمامك بانتفاعي أنا بالتجارب وبأن تحفظ نفسي سليمة لك.

٦ – انظرْ أيُّها المفرِز (صاحب التمييز) ما أعظم موهبة التجارب! لأنه حتى ولو ارتفع الإنسان إلى الغاية في الرُّوحانية كرتبة بولس، فهو مفتقر إلى الاحتراس والتحفظ وإلى المنفعة التي ينالها من مصادمة التجارب. فمَن هو الإنسان الذي وصل إلى بلد الثقة في عالم الميتوتة هذا المملوء من اللصوص السالبين، وحَظي بعدم الميلان الذي لم تنله الملائكة القديسون «حتى لا يكملوا بدوننا» (عب١١: ٤٠)، وهو يتخيل أنه قد فاق رتب الرُّوحانيين والجسدانيين حتى أنه يريد أن يتدبر بلا غيار وأن لا تدنو منه ولا تجربة وَاحِدة بالفكر! إن ترتيب هذا العالم حسب رأي كافة الكتب المقدسة هو أنه ولو كنا ننجرح ألف دفعة كل يوم، يجب ألا تصغر قلوبنا ولا نتضجر ونتخلف عن الجري في المصاف (أي ساحة القتال). لأنه قد يتفق لنا أنه بسبب أمر وَاحِد صغير نحرز الغلبة على الأعداء ونتوَّج بإكليلنا.

٧ – إن هذا العالم هو مصاف الجهاد وميدان الجري والسير، وهو وقت الجهاد وبلد الجهاد. وزمان الحرب والقتال لم يوضع عنه ناموس ولم يقطع فيه حد؛ أعني أن الملك لا يضع على جنوده حدوداً إلى أن تنقضي الحرب ويجتمع الكل إلى باب ملك الملوك، وهناك يظهر مَن قد ثبت وتجلَّد في الحرب ولم يقبل الانغلاب مِمن أعطى قفا وولَّى هارباً. لأنه كم من وقت يتراءى للإنسان أنه لا يصلح لشيء، ومن قلة دِربته يوجد على الدوام مطعوناً ومُلقى على الأرض ويكون مغلوباً في كل حين؛ ثم يتفق له أن ينهض فجأة ويخطف العَلَم من يد عساكر الجبابرة (أبناء العمالقة)، ويشتهر اسمه أكثر من الشجعان الفاتكين المعروفين، ويأخذ الإكليل والهدايا والمواهب أكثر من جميع رفاقه وأجلَّ منهم.

٨ – لذلك يجب ألا يقطع الإنسان رجاءه ويقع في اليأس، ولا يتهاون في الصلاة، ولا يمل من طلب المعونة من رَبِّنَا. ولنضع هذه في فكرنا دائماً أنه ما دمنا في هذا العالم وساكنين في الجسد، فلو أننا ارتفعنا إلى علو السماء فلا يمكن أن نكون بغير تعب أو شقاء أو اهتمام. هذا بإيجاز واختصار، وما زاد على ذلك فالزيادة هي خرافة. ولإِلهُنَا المجد والعزة والجلال إلى دهر الدهور، آمين.

المَيْمَر السَّابع والثلاثون

على وجع الزنا الرديء

١ – إن الطبع المخلوق المائل للتغيير إذا ما توقَّف وتخلَّف عن العمل اليميني لا يثبت هادئاً، بل يرجع إلى الأمور اليسارية. والبطَّال من الاهتمام بالفضيلة والسير بها، يهدس بتخيل الخطية، حسب قول أحد فلاسفة سيرتنا هذه. فقد قال: إن العقل الناطق لا يقدر أن يتوقف عن تكميل العمل اليميني حتى ولو أدرك الكمال، لأنه إذا توقف عن عمل الصلاح فهو بالضرورة يرجع إلى الأمور اليسارية، وإذا ابتعد عن الأمور اليسارية فهو ينجذب بالطبيعة إلى اليمينية. وقال آخر: الذي لا يريد أن يعمل أعمال البرِّ يضطر أن يعمل أفعال الإثم.

٢ – موضع السكن والابتعاد عن الأشياء يساعد أيضاً في ترتيب الجهاد والتخلف عن السقطة الظاهرة. ولو أن الحُرَّ العفيف قد يُجرح من تسلط الأفكار ويوجد مغلوباً مقهوراً في خفيته، إلا أنه من الأوفق لنا أن نُمتحن بالأمور الرديئة بالفكر ولا نتنجس بالشهوة بالفعل وبالجسد لسبب عدم وجود الشيء والقرب منه. لأنه في حالة ما نكون بعيدين عن الفعل لأجل عدم وجود المادة، فلو أن الضمير يُغلب ويرتخي إلا أننا نرجع بسهولة إلى التوبة ونتذمر على تكاسلنا ونحزن ونلتفت بحرارة إلى عملنا. أمَّا إن كنا حاضرين بقرب الأمور ومدمنين على اللقاء الدائم من أجل الأسباب التي نرتبها بأنفسنا أو التي تعرض لنا مصادفة، فلا نستطيع أن نعمل ولا وَاحِدة من أعمال التوبة، كما ولا نستطيع أن نمسك أنفسنا من الفعل الرديء، ولا نندم على سقوطنا، ولا نرجع إلى عملنا لكي نندب ذواتنا ونحزن ونتجدد بالتوبة ونُطهِّر الفكر بالحزن الحاد.

٣ – كم من نفع ومعونة تحصل لمن كان وحده وهو يتصرف بانفراد ويسكن وحده مع نفسه؛ ولو أنه يسقط كل يوم بأفكاره من أجل ضعفه، إلا أنه ينهض ويقوم كل يوم؛ وإن كان كل يوم ينغلب، فهو كل يوم أيضاً يندم. والمعونة الكائنة من السكون يجود بها الله عليه بقوة لكي يقاوم مقابل أفكاره ويُبعد عنه الانضجاع ويُطهِّر ذاته بالنقاوة لله. ولهذا ليس شيء أصلح من أن لا تنظر امْرَأَة كلما أمكنك؛ وإذا عرض لك أن تصادفها فلا تتفرس فيها؛ وحيث تكون جالسة لا تتهاون وتقف هناك. لأن الذي ينظر بسلطة في وجه امْرَأَة وشكلها يكون قد أخضع قلبه للألم النجس سواء أراد أن يعرف الحق أو لم يُرِد.

٤ – فبكل احتراس احفظْ قلبك، فإن حيل هلاكك كثيرة. إن تجارتك شريفة ولكن لصوصك ماكرون مخادعون؛ وطريقك مخوفة وطبيعتك رخوة ضعيفة، ولأجل هذا يقوم عليك قتال الزنا قاتول الرهبان. ولهذا تفرَّس في ذاتك أيُّها الأخ، وانظر نفسك إن كنت قد مِلتَ حقاً إلى الانغلاب وتألمت بذاتك، أو إن كان فكرك قد ضعف في الجهاد وارتخى وقرب من الخضوع للعدو بالسقوط مع جسد أو بتلك الأخرى التي تكون بلمس اليد بالتحايل لراحة تكميل الشهوة المتوقدة، أو بالنظر بلذَّةٍ في شيء من الصور التي ارتسمت في الفكر وتريد أن تسبيك

بمداومة الكلام معها، أو إن كانت النفس الشقية تمكث في تغيير الأفكار والتراكيب النجسة التي تجذبها بمختلف الأنواع والأشكال التي تضعفها مع بقية الأشياء التي يعرف الشيطان أن يعلِّمها للنفس التي ارتخت واستسلمت لقبول اللذة.

٥ – يا أخي، انظر نفسك، فإن كنت قد انغلبت بالأفكار فاعلمْ أنك لا تقدر أن تقوم مقابل الأفعال. وعندما تجد أن الأفكار قد دخلت إلى البيت إن بالغصب أو بالإرادة، وقد بدأ الطبع يتوقد بالشهوة ولو قليلاً، وحرَّك الأعضاء وألهَبها، أَدركْ ذاتك في الحال قبل أن يخرجك من عقلك، وأَلقِ نفسك من الكهف (اخرج) ولا تتأخر، واذكر القديسين القدماء الذين لم يكونوا يشفقون على أنفسهم إذا ما عرض لهم مثل هذا القتال. فإن كان في الشتاء والوقت ليلاً، اصلب نفسك عارياً تحت السماء؛ وإن كان صيفاً ونهاراً، عذِّب نفسك بالحرِّ؛ وإن لم يكن أحد هذين الأمرين ولا يساعدك الوقت على فعل ذلك، احرق الأعضاء بالنار بلا شفقة، وقُل: أنتم الذين تريدون أن تفعلوا النجاسة احترقوا بهذه النار، ولأجل أنكم قد التهبتم خفياً بنار الشهوة فأنتم تستحقون أن تحرقكم هذه النار ظاهراً. وإن وافقك الوقت عَذِّب نفسك بالجوع والعطش وقلة النوم.

٦ – ينبغي لنا أن نعيش بالضيقة مع حب المسيح ولا نتنعم حتى ولا دفعة وَاحِدة بالخطية التي الندم ملتصق بها ونحسّ به قبل فعلها. انظر ما هو السبب؟ إن كان الفعل من أمرٍ عارض، أو من العادة، أو أنك مرتبط بأمر ما وبسببه يعذِّبك هذا الألم، أو من الإهمال في السيرة، أو من تذكار قديم أو من سماع متجدد، أو من تخيل حديث باطل بسبب عشرتك مع المعتادين بالأحاديث العالمية، أو من لقاءات دائمة تثير عليك القتال بسبب عدم موافقة المسكن الذي أنت فيه حيث تكثر عليك فيه الأسباب علىالدوام. فميِّز إن لم يكن شيء من هذه فاعلمْ أنها تخلية من الله قد حصلت لك لأجل ظنون (أي أفكار عظمة) تفكرت بها، أو لكي يظهر نشاطك ويختبر صبرك، لأن الشيطان طلب أن يُسمح له بتجربتك وبعد ذلك أنت عتيد أن تنال راحة كاملة إذا تجلَّدت وثبتَّ هنا بنشاط.

٧ – فإن كان الأمر هو بالمعنى الأَوَّل، فقوِّم أمرك وأصلح الأشياء ولا تتركها ولا تهلك نفسك لأجل هذه الأسباب بتَدْبِيرك سائر أمور السقوط التي هي من عندك وبإمكانك إصلاحها، بل اقطعها من نفسك. لأن العالم كل مآله إلى الهلاك وهو محفوظ للفناء، أمَّا عفة سيرة المتوحدين فلا ينبغي أن تتنجس ولا لمحة صغيرة.

٨ – فإن كان لك زمان وأنت في راحة من هذا الألم سالكاً بالعفة، فانظر ألا تثق بعملك أو تعبك أو بأن بلد تصرفك هو برية (هادئة)، ولا تنسى ضعف طبيعتك، لأنه ليس لك انعتاق حتى باب القبر. ولتَخَفْ حتى من نفسك أيُّها الأخ، وإذا كنت وحدك احذر بالأكثر ولا تنقض قلبك أبداً، ولا تبعد منك الندب والحزن. وإذا قرب وقت النوم هيئ نفسك للصلاة واملأ عينيك دموعاً، واجتهد واهتم بذلك لكيما إذا اضطرك النوم تكون مفعماً من الصلاة. ولا تترك في هذا الوقت أي هذيذ في قلبك سوى الصلاة فقط، لئلا يعبر في عقلك ذِكرٌ رديء أو هذيذ نجس فيزهر بغتةً ويتطلع القلب إليه بدالة، فما أكثر حيل السقوط.

٩ – كذلك فلتَخَفْ أيضاً من الظن بنفسك لئلا إذا تحرك فيك هذا الفكر (أي فكر العظمة) مع ضعف البشرية وحيل العدو تحصل لك التخلية من العلاء، ولا يعود لك أمل ولا رجاء. فماذا تعمل بعد هذا العمل والاحتراس سنينَ كثيرة؟ أواه، أواه، إن كان بعد هذا التعب كله والشقاء والعمل والتضرع والبعد من جميع الرَّاحَات والتنهد الدائم في الصلاة والتضرع الدائم إلى الله مع الدموع من أجل العفة، وبعد هذا كله يكون السقوط! الويل لنا ثم الويل، ويا للحزن الْعَظِيم!

١٠ – أيُّها الرب المملوء رحمة، يا خالقنا الشفوق لا تدخلنا في مثل هذه التجربة، أعني السقوط. نموت بأيدي الشياطين، تأكلنا الوحوش، يضمحل جسدنا من الصَّوْم والجوع، نسكن القبور، نصبر على التجارب المضغطة لأجل الحق، ولا ننظر سقوطنا من الله.

المَيْمَر الثامن والثلاثون

على روح التوبة وكيف تحل في النفوس وتسكن في التائبين المحقِّين؛ وكيف تفعل فيهم

١ – إنْ سكنتْ روح التوبة في الإنسان فهذه هي أفعالها: تملأ النفس ندماً وفرحاً؛ ندماً على الزلات القديمة وفرحاً لأجل الخيرات المنتظرة. وتكون للتائب مثل الأم المربيَّة تشير إليه قائلة: إن كنتَ بالحق قد أعطيتَ نفسك للتوبة بالتغصب، فإن المسيح يغفر لك جميع خطاياك القديمة برحمته ويقطعها بالكمال. ولكنها (أي روح التوبة) لا تجعله يصدِّق هذا في الحال، لئلا من أجل ثقته بالغفران تتولد فيه الرخاوة والانحلال فيتخلف عن العمل ويهلك، إنما هي تقنعه قليلاً قليلاً حسب العمل والتوبة ومدة ثباته فيها. وأحياناً تُخيفه بالرعب المحزن وإنذارات الله المخوفة وحكم الدينونة في الجحيم. وأحياناً أخرى تبهجه بالفرح الذي يشرق عليه مثل الشعاع الذي يظهر على الأرض من وسط قتام السحاب. وإن كان صبوراً تُظهر له حدود الآلام الداخلية والآلام الخارجية، وتكشف له الخطايا التي تُفعل في الخفاء والخطايا الظاهرة الخزي والخجل.

٢ – كما وتعلمه روح التوبة قائلة: «إن كنتَ تغصب ذاتك دفعة وَاحِدة وتقمعها، وتقطع من القلب أصول الآلام الداخلية التي تتولد منها الآلام الخارجية، فإنك تنعتق بسهولة من الآلام والخطايا، وتؤهَّل للزكاوة وعدم التألم الذي تكلم عنه الآباء». وهي تُحرك في قلبه الحِيل التي تُقهر بها الآلام من الفكر، وتجعله يقاوم نفسه ويغصبها ليكمل جميع أعمال الفضائل كالصَّوْم والسهر والنسك والسكون والحبس وما تبقى من غير أن يشاء القلب. وتجعل الإنسان يهين نفسه كل حين ويمقتها خفياً وظاهراً، ويرى نفسه مثل كسلان وقد أغضب الله حتى ولو أنه كان يكمل الفضائل على الدوام. وتعلِّمه احتقار النفس وازدراء الذات اللذين هما سياج وحصن كل الفضائل.

٣ – هذه الأمور وما يشبهها تعملها روح التوبة في قلب التائبين المحقِّين، وتنقِّيهم وتعدُّهم لقبول الرُّوح الْقُدُس. وأنا أشير عليك أيُّها التائب المتضع لأجل الحب ومن الخبرة، إن ظفرتَ بالرحمة ونُقيِّت بالتوبة، وبدأت تدخل في إدراك المنزلة الثَّانِية، تلك التي تورِّثك ذاتها ليس بما هو غير معروف بل بإحساس واضح ودلائل ظاهرة، وتوصِّلك إلى الانفعال بالرُّوح، احترس ألا تهمل حواسك وحفظ قلبك ونسك بطنك. بل وكن محترساً بزيادة بحفظ الوداعة التي فيك، لئلا يكون ظفرك انغلاباً وسقطتك تحذيراً لنهوض وقيام كثيرين. وبالأكثر احتفظ بلسانك وتضرع للمسيح بدموع لكي يحرسك بغير فتور خفياً وظاهراً. ورتِّل مع داود بن يسَّى على الدوام قائلاً: «روحك الْقُدُّوس يا رب لا تنزعه مني»، مع بقية الكلام.

٤ – واعلم أنه ولو أن القلب يتقدس بحلول الرُّوح ويؤهَّل لاستعلان أسرار المعرفة، فإنه متى استعمل الإنسان الانحلال وعدم الاحتراس وتهاون في التَدْبِير وبالأكثر بالشبع من الطعام، يرجع إلى قيئه الأَوَّل ويُظْلِم قلبه أيضاً بالتخلية ويخيب من النور والحياة والنعمة.

المَيْمَر التاسع والثلاثون

على أنواع المنازل

١ – جهاد المبتدئين الأَوَّل هو الطاعة بانبساط بجميع ما نؤمر به. أمَّا الثَّانِي فهو تغيير العادات والأنواع والخاصيات والتصرف السابق من عدم الترتيب الطبيعي إلى الترتيب الطبيعي. أمَّا الثَّالِث فهو الصبر والاحتمال بالتغصب مقابل الآلام بواسطة حفظ الوصايا، لكي ينسحق القلب ويتضع ويتنقى. أمَّا الرَّابع فهو التخلف عن اضطراب الغلوات، أي الحرارة المخبِّلة، والبدء في عمل التمييز لكي مع الأعمال الخارجية يهدس الفكر أيضاً ويتفهم القوات الخفية الفاعلة في طبائع المخلوقات، ويميِّز أفهام الكتب؛ ومن ههنا تنفتح عينا العقل ليحسَّ بحكمة الله وعنايته وسياسته في هذا الكون. أمَّا الْخَامِس فهو عقل يهذُّ بالتاؤريا العالية غير المتجسِّمة. والسَّادِس هو عقل يهذُّ ويتسارر (يتناجى) في الأسرار على اللاهوت المسجود له. والسَّابع هو عقل يؤهَّل لفعل النعمة بسرٍّ يفوق الكلام، ويُبتلع من وقت لآخر بالحب الإلهي.

٢ – كل تَدْبِير نمسكه ينبغي لنا أن نحترَّ بمحبته لكي ندخل إليه بحرارة، وبهذا نذوق الحلاوة المخفية فيه؛ ومن ههنا نفهم أن كل ألمٍ انضبط القلب بمحبته وشغف به، فبألف حيلة من الأعمال وربوة صَلَوَات ودموع بعد جهد يمكن أن ينعتق منه.

٣ – كتب القديس غريغوريوس إلى باسيليوس يقول: إن الأفكار تنبع من الكلى من حيث تنبع الشهوة، وتتصاعد بشبه البخار حتى تصل إلى المخ، ويقوم القلب بتشكيلها بأشكال يميزها كالرسوم إن كانت لليمين أو لليسار. لهذا ينبغي لنا أن نحفظ قلبنا بكل احتراس، لأن منه مخرج الحياة والموت حسب الكلمة السيدية أن «من داخل القلب تخرج الأفكار الرديئة» وبقية الكلام. وقال أيضاً ذلك الغيور في أمور سيدنا الذي اغتذى بالشهد واختبر أنه مع الأقوال والقوانين: «مَن هو الذي يسكب جواهر الدموع على الأوراق المبهجة»؟ (أي لينعش النفس). ينبغي لنا ههنا الإفراز والاحتراس لكي نحفظ حراسة القلب من سرقة الأفكار ونهديها بالسلام، ونحفظ بيت القلب الذي هو مسكن المسيح بغير أذية لعله يظهر الزهر الذي يكون منه رجاء الثمر.

٤ – إن عرفت السكون الكامل والتَدْبِير الملائكي احترس من الظنون والأفكار الباطلة التي تشعل النفس (وتجذبها) إلى الأمور المرتفعة. ويعرف هذا مَن كان قد اختبرها في نفسه، فإن كثيرين قد سقطوا بها وتأذَّت عقولهم. فاحترس بالأكثر من التدابير الشمالية التي تتشبه بالتدابير اليمينية كالزوان المتشبه بالحنطة.

٥ – إن كنتَ تحب معرفة الحق فأنا أريك الطريق: قوِّم غرضك من الكل إلى الوَاحِد، وبينما أنت موافق ومُساكن للكثيرين انقطع من كل أحد، ولا ترتبط بشيء ما ولا بإنسان من غير ضرورة، ولا تطلب ربحاً زمنياً، ولا تشفق حتى على جِبَّتك ومئزرتك، بل ارفضها من وقت لآخر، ولتكن نفسك مثل الصالومية التي كتب عنها الآب إشعياء.

٦ – إنَّ الآباء يعلموننا أن اللقاءات مع كثيرين لا توافقنا إلى أن ننصبغ بالصلاح كلية، وتحل علينا قوة السكون حسب القول: «أنت يا رب تسكنني في الهدوء وحدي» (مز٤: ٨) إلى أن يجوز الاضطراب والضجر ويملك العزاء والنعمة. وهذه هي دلائل وإشارات الرحمة أن الحواس الخارجية والآلام الداخلية تهدأ، وتنتبه حركات الرُّوح ويملك العزاء الخفي، وتتنقى عيناك من النظر إلى الشرور، وتستطيع أن تتغذى من جميع أثمار الفردوس على السواء دون أن تكره صورة الله، وتكون كلك ملحاً للجميع ونور الإنجيل لكل من يلاقيك، وتظهر فيك ثمار الرُّوح التي كتبها الرسول، حتى أن ملائكة النور يدنون إليك من حين لآخر ويملأونك فرحاً وسلأمًّا وعزاءً وسروراً واستعلان أسرار المعرفة.

٧ – فإن كنتَ قد أَعطيتَ قفاً بالاهمال والضجر، وتخلَّفتْ حرارتك، فاجلس مع نفسك واجمع أفكارك، وميِّز بدقة ولطافة ما هو سبب الإهمال ومن أين بدأ؟ وما هو الذي يبطِّلك من مفاوضتك الرُّوحانية؟ وإن كان الموضع موافقاً للتقويم قوِّمه بمعرفة، وإن كان يجب أن تقطعة اقطعه منك في الحال ولو كانت معيشتك منه، ولا تشفق أبداً. وإن لم تكن كفؤاً وليس لك معلم تشاوره في أمور سيدنا، فارجع إلى أول الطريق الذي ابتدأت منه، واعمل الفصح بمرارة، وذكِّر مَرْيَم بزناها وإسرائيل بانقلابه، وآلِم الغليظ (القلب) بمرارة وأَوجعه وأعطِه كِتَاباً يهديه، وضع له صَلَوَات الآب أوغريس مع مرارة الفصح؛ وأنت في زمن قليل تحتَّر وتحس بالحق وتصعد إلى الموضع الذي انحدرتَ منه وسقطتَ، وتنظر أثناء صعودك الثَّانِي المنازل التي عبرتَ عليها في الصعود الأَوَّل.

٨ – الويل لنا إذا لم يكن للحق أصل داخلنا، أعني إذا كان القلب يميل ناحية اليسار. وقد حذَّر الآباء أيضاً من هذا الأمر: ألا تتفاوض مع الذين هم ليسوا مشاركيك في المسيرة والتَدْبِير بالتصور والفكر بينبوع الهذيذ، لأنهم يعوقونك عن سيرك، فتبرد حرارتك ويتخلف جريك، وهم لا يلامون على ذلك لأنهم يسلكون طريقاً آخر للملكوت في سيرة الرهبنة، أمَّا أنت فلسبب تغير واختلاف طريقك عنهم يجعلونك تخيب من سعيك.

٩ – إن كنتَ محتاجاً إلى معرفة الحق المخفية في الكتب، فلتكن قراءتك بفهم وتمييز. فإننا نعلم أنه إذا انفتحت أعين ضميرنا لاحتاجت كل كلمة إلى مجلد إذا ما هَدَسنا فيها مع صَلَوَات وانفتحت أفهامها أمَّامنا. وإذا قرأنا في كتب الآباء ووجدنا المكتوب فيها على معرفة الحق، لا نطغى ونظن أننا بقراءة الكلام فقط وتفكيرنا فيه بمعرفة نفسانية نصير بغتة داخل أسرار سيرتهم الرُّوحية (العالية). لأنهم قد احتملوا أولاً ضوائق كثيرة مدة طويلة، وصلبوا أنفسهم بالأعمال لأجل المسيح، وطهَّروا قلوبهم من كل دنس الجسد والرُّوح، وأشرق لهم الشعاع الممجد الرُّوحاني، ونظروا قدس الأقداس والمسيح ساكن فيه، واتحدوا به بكلية الرجاء، وفرحوا به بعربون الغبطة والنور الذي وُعِدَ به القديسون في العالم الجديد. وهم كأناس رحومين كتبوا لنا دلائل وعلأمَّات ساروا هم فيها أولاً ووجدوا كنز الحياة؛ ونحن الضجورين إذا ما قرأنا في كتبهم عن الدلائل والإشارات التي نجدها فيها، نركِّب لأنفسنا تشابيه تشبه ما

ذكروه ونظن أن هذا هو الحق الذي تكلم عنه الآباء.

١٠ – لقد نادى الأنبياء قبل مجيء المسيح وبشروا سراً بالحبل به وبميلاده وبجميع تَدْبِيره. ولكن قبل ظهوره لو كان أحد تكلم عن الإيمان بالآب والابن والرُّوح الْقُدُس لصار عندهم مثل مجنون أو عابد وثن. كذلك نحن النفسانيين، إذا تكلم إلينا أحد عن ذخيرة الحياة وعن أسرار آبائنا الخفية نستهزئ به ويكون عندنا كجاهل وكمن قد زاغ عن الحق. وقد كان بولس الرسول مُحِقاً عندما كتب أن الإنسان النفساني لا يقدر أن يقبل الرُّوحانيات لأنها جهالة عنده. فالويل لنا، من أية نعمة نحن خائبون بإرادتنا!

١١ – إذا أفرزتَ نفسك للتوبة فكل يوم لا تصادفك فيه محقرة لا تحسبه يوماً تأمَّا. وكل يوم لا تجلس فيه ساعة مع نفسك وتتفكر بأي الأشياء أخطأت، وفي أي أمرٍ سقطت، وتقوِّم ذاتك فيه، فلا تحسبه من عداد أيام حياتك.

١٢ – الويل لمن لا يبكي ولا يتضايق ولا ينقي عيوب نفسه هنا ما دام يوجد وقت للتوبة، لأنه هناك ينقيها بغير إرادته في أمواج النار حتى يوفي الفلس الأخير أي الزلة الصغيرة.

١٣ – الذي يتهاون في الصلاة، ويظن أن هناك باباً آخر للتوبة، هو محل للشياطين. والذي لا يداوم على قراءة الكتب هو سائر في التيه، لأنه إذا أخطأ لا يحسّ. الذي هو متنسك عن الأطعمة وشرب الخمر ويوجد في قلبه حقد مخفي وأفكار رديئة على أخيه، هو آلة وأرغن للشيطان. احذر من هذه الخِلَّة أن تكون جالساً وأنت تهذُّ بدينونة أخيك، لأن هذا يقلع جميع بنيان برج الفضائل الْعَظِيم، ولو كنت قد بلغت إلى غاية الحد، لأن القلب إذا ما تفكر بالشر (على أخيه) يتقسَّى جداً ويبقى مثل الباب الحديد. أمَّا القلب الوديع المتضع فهو ينفتح من نفسه بالرحمة.

١٤ – الحرية التي لا يتقدَّمها خضوع إرادي وعبودية اختيارية، هي عبودية للآلام يسقط فيها الإنسان ويقوم ولا يكون سيداً عليها أبداً. وكل مَن لا يحترّ في البداية بعدم المعرفة لا يصل إلى عمق المعرفة. وكل من لا يصل إلى الحرارة المخبلة ويهزأ به الجهال في البداية، لا يبلغ إلى قامة الرجل الكامل في المسيح. هذه المنازل ومقادير تربية إنساننا الداخلي قد وضعها الرُّوح الْقُدُس ورتَّبها هكذا مثل مقادير تربية الإنسان الخارجي. هذه بالطبيعة وتلك بالإرادة.

١٥ – مَن اقتنى الفضائل الْعَظِيمة مثل الصَّوْم والسهر والنسك ولم يقتنِ حراسة القلب واللسان، فهو في الباطل يعمل ويتعب. وإذا وُضعت كل أعمال التوبة في ناحية وحِفظ القلب في ناحية أخرى، فالحفظ هو الذي يرجح. فإن المسيح قد وضع فأسَ الوصايا على أصل الأفكار القلبية، وموسىً على الأعمال المحسوسة. إن حفظت عينيك وأذنيك لئلا يدخل من خلالهما ما يكدر نقاوة نفسك، فلن تخطئ بلسانك.

١٦ – الذي يسهر بإرادته في الخدمة والصَلَوَات بينما أفكاره تطيش في أفعال أخرى، فهو يشقى عاملاً في الباطل. طوبى لمن يكون حاضراً حيث يخدم ويصلي. طوبى لمن اقتنى تصور الكتب وهذَّ فيها بفهمٍ. طوبى للنفس التي أكلت الخبز من مائدة الله. طوبى للذي على الدوام يحسُّ بالناس المتألمين، لأنه من ههنا يشرق في قلبه نور وحياة. الويل لمن له وقت وإمكانية ويساعده جسده ولكنه يتهاون في أعمال التوبة، لأنه عندما ينتبه سوف يبكي وينتحب ويطلب زمان الرَّاحَة ولا يجد. زبل وماء التوبة هو الضوائق والمحقرات والتجارب؛ وموت (الإنسان) هو حب الأرباح والكرامة والرَّاحَة. حد تَدْبِير سيرة المعرفة هو أن يعرف المتوحد أن يحفظ جسده مع تَدْبِيره بإفراز لئلا يتعطل ويعتزّ ويسقط فيتأخر عن رفاقه.

١٧ – الذي يريد أن يبتدئ بسيرة الفكر ينبغي له أولاً أن يقيس المقدار والتربية وكفاءة العقل، فإن كان قد نجح وتفلَّح بالسيرة الخارجية عند ذلك فليبدأ. لأني في الحقيقة وجدت أن تَدْبِير سيرة الفكر يتولد من تَدْبِير السيرة الخارجية، والرَّاحَة الداخلية تتولد من الضوائق الخارجية، والفرح وعزاء النفس يتولدان من الحزن والكآبة من أجل الله. وبإيجاز فإن السلام الذي لا يتكون من الأعمال هو ضلالة. وإذا لم يبطل لساننا من تلاوة المَزَامِير وتهليل الرُّوح في الوقت وغير الوقت، لا يجد الشيطان فرصة أن يلقي فينا سهامه الملتهبة.

١٨ – النفس المتواترة بالأثمار هي التي تعرَّت من الكآبة وضيق العَطَن (أي السأم من المكان) والضجر، ولبست اتساع النفس والسلام والفرح بالله، وربطت أبواب الأفكار المخبلة، وفتحت باب الحب لسائر الناس، وصبرت وتجلدت ليلاً ونهاراً على باب قلبها، وطردت من داخله قوله هذا صالح وذاك شرير، هذا بار وذاك خاطئ، وجلست على كرسي قلبها العالي، وأبصرت قواتها ومساعديها الذين هم العقل والضمير والمعرفة والتمييز، ورتبت أمر إصلاحهم بالنقاوة لئلا يهدس أحدهم بالغضب أو بغيرةٍ أو بشرٍّ، فتُظلم النية بقتام السجس. والنفس العاقرة هي التي قد لبست الحقد والغيظ وضيق العَطَن والضجر والكآبة والاضطراب، وصارت تدين قريبها بجيدٍ ورديء.

١٩ – أساس تَدْبِير الوحدة هو الصبر والاحتمال بالتغصب، وبه ينمو (المتوحد) ويبلغ إلى كمال تام، وهو يُصلح قدامه سلماً يصعد بها إلى السماء. إن كنتَ تخاف من الطياشة اقطع عنك الهذيذ الرديء الذي قد تجمع من انحلال السيرة، وسدّ طاقات الحواس التي تُدخل الصلاح والشرور للقلب. لأن القلب هو ميناء كل جيد ورديء مما تجمعه الحواس من الخارج، وهو لا يقدر أن يكتم شيئاً مما قيل، بل يعطيه للذهن والأفكار لكي تتغذى به.

٢٠ – العقل هو ينبوع القلب، وهو لا يهدأ من الطياشة العادية. فإن كنت تحب نور الضمير الذي يكون من جمع الأفكار، اقطع عنك أولاً كل هذيذ رديء بالصبر القسري والتغصب، وافلحه زماناً كبيراً، وعوِّد عقلك على الغذاء الرُّوحاني الذي هو تلاوة مَزَامِير الرُّوح والهذيذ بالتماجيد وتصور الكتب وتفهمها، واربطه بمحبة العلم الرُّوحاني. وكلما كنت في حفظٍ وصونٍ درِّبه على الهذيذ في الإلهيات حتى إذا هرب من التلاوة من غير إرادته مضى وحده بالغصب بفعل العادة

ليطيش في أمور الرُّوح التي قد تعود عليها. لأن رباطات النفس هي العادات التي يعتاد عليها الإنسان إن بالجيد أو بالرديء.

٢١ – سُئل شيخ: ماذا تشبه رهبنة القدماء ورهبنة زماننا هذا؟ أجاب: كان هناك إنسان غني مُوسر وحكيم، وكان يطلب المِسك الخالص، ولما لم يجد الحق حسب إرادته، قطع جبالاً كثيرة وسافر بحراً وبراً حتى مضى إلى الصين، وقدَّم هدايا للملك هناك وطلب منه أن يعطيه مِسكاً خالصاً، فسمح له وأمره أن يقطع هو بيده. فأخذ المسك وجاء وأعطاه لأولاده؛ وقليلاً قليلاً غشوه وخلطوه بالزغل وسلموه بعضهم لبعض حتى بقي الغش مكان المِسك، وعَدِم رائحته ولم يتبقَّ منه غير الاسم فقط. كذلك فإن الآباء القدماء قد جسروا على الحياة والموت، وذاقوا كل التجارب واحتملوا كل الضوائق، وأسلموا ذواتهم ذبائح روحانية، وتضرعوا إلى المسيح بدموع حتى جاد عليهم بمواهب النعمة، فأُهِّلوا لمعرفة الرُّوح، وصاروا مسكناً لله، وصنعوا العجائب وأحسُّوا بالأسرار والاستعلانات، ووصل (السرُّ) إلينا شيئاً فشيئاً نحن الذين لنا الاسم والشكل فقط.

٢٢ – إن زمان التاؤريا ليس هو زمان العمل، وإن كانا متصاحبين ومؤازرين لبعضهما البعض. ولكن هناك وقت يساعد على التاؤريا ووقت للعمل، وقت للبهجة والفرح ووقت كآبة وضجر، وقت للمرض ووقت للصحة. فهكذا الصالحات والشرور هي متوفرة في هذا العالم.

٢٣ – أمور سيدنا مريرات حلوات، مظلمات نيِّرات، محزنات مبهجات. وأمور العالم حلوات مريرات، نيرات مظلمات، مبهجات محزنات. ويعرف الحق كل مَن ذاق في نفسه هذه الأشياء وليس من سماع الآذان فقط.

المَيْمَر الأربعون

في عِظم مقدار التواضع وارتفاع درجته عند الله

١ – أريد، يا إخوتي، أن أفتح فمي وأتكلم عن الاتضاع الشريف، ولكني خائف كمن يريد أن يتكلم عن الله؛ لأن التواضع هو حُلَّة اللاهوت، لأن الكلمة الأزلي تجسد ولبسها وتكلم بها معنا من خلال الجسد الذي أخذه منا.

٢ – وكل من يتسربل بالاتضاع قد تشبَّه حقاً بذاك الذي نزل من ارتفاعه، وأخفى شعاع عظمته، وحجب شرف مجده، لئلا تضمحل الخليقة بمنظره.

٣ – إن الخليقة لا تستطيع أن تنظر إليه من غير الجزء الذي أخذه منا وبه تكلم معنا، ولا تقدر أن تسمع منطق فيه وجهاً لوجه. فكيف تستطيع الخليقة الآن أن تقبل نظره، وهو الذي لم يقدر بنو إسرائيل أن يسمعوا صوته حين تكلم معهم من الغمام، حين قالوا لموسى: «هو يتكلم معك، وأسمعنا أنت ألفاظه، ولا يتكلم هو معنا لئلا نموت» (خر٢٠: ١٩).

٤ – لقد كان هذا المنظر مخوفاً جداً حتى أن الوسيط نفسه (أي موسى) قال: «إني خائف ومرتعب». لأنه لمّا ظهر شعاع مجده على طور سيناء، دخَّن الطور كله وتزلزل بسبب ظهور الاستعلان عليه، حتى أن الوحوش لمّا اقتربت من أذيال الجبل كانت تموت. وقد استعد جميع بني إسرائيل حسب أمر موسى، وطهَّر كل وَاحِد منهم نفسه ثلاثة أيام لكي يؤهَّلوا لسماع صوت كلام الله ولنظر استعلانه. ولكن لمّا حان الوقت لم يقدروا أن يقبلوا نظر نوره وشدة صوت رعده!

٥ – أمَّا الآن فقد أفاض إنعامه على العالم بمجيئه، لا بصوت رعدٍ ولا بنارٍ ولا بصراخ مرعب شديد، بل «نزل كالمطر على جزّة الحملان، وكالندى المنحدر بهدوء على الأرض» (مز٧١: ٦). لأنه بزيٍّ آخر أراد أن يتكلم معنا (أي بالجسد) الذي اتخذه له بإرادته في بطن الْعَذْرَاء والدة الإله مَرْيَم، حتى إذا نظرنا المتكلم معنا أنه من جنسنا، لا نرتعب من نظرته.

٦ – فلهذا كل من تسربل بهذه الحُلَّة التي ظهر بها خالقنا في الجسد الذي لبسه، فهو يلبس المسيح. لأن الشبه الذي ظهر به المسيح لخليقته وتصرف به معهم، قد اشتهى هو أن يلبسه في إنسانه الداخلي ويظهر به لرفاقه، وعوض لباس الكرامة والمجد الظاهر فقد تزيَّن بالاتضاع. ولهذا فكل مَن تنظره الخليقة الصامته أو الناطقة لابساً هذا الشبه تسجد له كما للرب من أجل كرامة سيدها، لأنها رأته قد لبسه (أي التواضع) وتصرف به في العالم.

٧ – أي خليقة لا تستحي من نظر المتواضع؟ لقد ظلت هذه النظرة المملوءة قداسة محتقرة عند كل أحد حتى الوقت الذي ظهر فيه مجد التواضع. والآن لمّا ظهرت عظمته تجاه العوالم كلها، أصبح كل أحد يوقِّر ويكرّم هذا الشبه في كل مكان بنظره. لأن الخليقة استحقت بهذه الوساطة أن تقبل منظر خالقها. ومن أجل هذا أيضاً لم يعد التواضع مرذولاً، ولا عند أعداء

الحق، حتى وإن كان من يلبسه أحقر من كل الناس، فإنه يتكرم به مَن قد عرفه كما بتاجٍ وأرجوانٍ.

٨ – المتواضع لا يبغضه أحد، ولا يُحزنه أحد بكلمة، ولا يزدري به أحد، لأن سيده قد جعله محبوباً عند الكل؛ فكل أحد يحبه، وفي كل موضع يحضر فيه ينظرون إليه كملاك نور، ويقدمون له الكرامة. يتكلم الحكيم والمتفلسف فيسكتونه ليعطوا فرصة للمتواضع لكي يتكلم، وأعين الكل تراقب فمه، وتكون ألفاظه عندهم مثل ألفاظ الله، وسذاجة منطقه مثل منطق الحكماء المتفلسفين يفتشون عن معنى فهمه. كلامه حلو في مسامع الحكماء أكثر من مذاقة الشهد لآكليه؛ وهو محسوب عند الجميع كإله وإن كان أميَّاً في كلامه حقيراً في منظره.

٩ – مَن يتكلم على المتواضع باستهزاء وازدراء ولا يعتبره من الأحياء، هو كإنسان أطلق لسانه على الله. وكلما يحقِّر المتواضع ذاته ويُرذَل في عيني نفسه، تتواتر كرأمَّاته بالأكثر عند سائر الخليقة. المتواضع يدنو من الوحوش الكاسرة، وحالما تراه تهدأ وحشيتها وتقترب منه وتلتجئ إليه كما إلى خالقها، وتحرك رؤوسها وأذنابها أمَّامه، وتلحس يديه ورجليه، لأنها تستنشق منه الرائحة التي كانت تستنشقها من آدم في الفردوس الذي أُخذ منا وعاد سيدنا المسيح فجدده وأعطاه لنا بمجيئه، لأنه هو الذي طيَّب رائحة الجنس البشري.

١٠ – المتواضع إذا اقترب من الدبيب السام القاتل ولمس أجسادها بيده، يبردُ في الحال سم شرها القاتل، فيفركها بيديه كالجراد. وإذا اقترب من الناس نظروا إليه كما إلى سيدٍ؛ ولماذا أقول الناس؟ بل وحتى الشياطين رغم كل شرور مرارتهم وافتخار قلوبهم، إذا اقتربوا من المتواضع صاروا مثل التراب وبطل شرهم وكل حِيَلهم وصنائعهم. والآن بعد أن أظهرنا عِظم كرامة الاتضاع عند الله والقوة المخفية فيه، نظهر ما هو التواضع، ومتى يؤهَّل الإنسان لقبوله بالتمام كما هو (في حقيقته)؛ كما ونميِّز بين المتضع بالوجه وبين الذي قد استحق الاتضاع الحقيقي.

١١ – الاتضاع هو قوة سرية يقبلها القديسون الكاملون بعد تكميل جميع الفضائل، ولا تُعطى هذه القوة إلا للذين قد أكملوا جميع تَدْبِير الفضيلة في ذواتهم بقوة النعمة، وبحسب ما هو في الطبع (البشري) من كفاءة لذلك؛ فالنعمة هي جامعة كل الفضائل. ولهذا لا ينبغي أن نحسب كل إنسان متواضعاً كيفما اتفق إلا الذين قد أُهِّلوا لهذه الرتبة التي ذكرناها.

١٢ – وليس كل مَن كان بطبعه هادئاً ساكناً وديعاً مسالماً، يكون قد بلغ إلى درجة الاتضاع، ولكن المتواضع الحقيقي هو مَن يملك في نفسه شيئاً مخفياً يستوجب الارتفاع فلا يتعظم به في أفكاره، بل يعتبر نفسه كالتراب والرماد. كما أن الذي يذكر خطاياه وزلاته وينسحق قلبه إذا ما ذكرها وينزل عن حركات العظمة، لا يمكن أن ندعوه متواضعاً – وإن كان هذا الأمر ممدوحاً جداً – لأن فكر العظمة ما زال قائماً فيه إلى الآن، وهو لم يقتنِ الاتضاع، بل إنه يحاول أن يقترب منه (بوسائل متنوعة). فإن كان هذا ممدوحاً كما قلت، إلا أنه لم يحصل على الاتضاع

إلى الآن، لكنه يسعى في طلبه.

١٣ – أمَّا المتواضع الكامل فهو الذي لا يحتاج أن يتحايل بفكره (أن يجد) أسباباً لكي يتواضع، بل إنه قد أكمل هذا وقد اقتناه طبيعة له بلا تعب. فالتواضع موهبة عظيمة ليس لها في الخليقة جميعها ما يساويها، قد اقتناها هو بالطبيعة في داخله، ومع هذا فهو في عيني نفسه مثل خاطئ وحقير ومرذول، ومع أنه يكون متداخلاً في كل أسرار الطبائع الرُّوحانية، وهو كامل حقاً في معرفة حكمة كل الخليقة، إلا أنه هو عند ذاته كمن لا يعرف شيئاً. وهو لا يتحايل أن يكون هكذا، بل قد صار هكذا بكل قلبه بغير تغصُّب.

١٤ – هل يمكن أن يكون الإنسان هكذا؟ وهل يستطيع الطبع أن يغيِّر ذاته بهذا الشكل؟ لا تشك في هذا، إنه قد نال قوة سرية وهي التي تكمله في جميع أعمال الفضيلة بلا تعب. هذه القوة هي التي قبلها الرسل القديسون بمنظر ناري، ولهذا أوصاهم سيدنا أن لا يبتعدوا من أورشليم حتى يقبلوا القوة من العلاء، أي البارقليط، الذي تفسيره روح العزاء، وهو روح المناظر. وهذا هو ما كُتب عنه في الكتب أن الأسرار تنكشف للمتواضعين، وأعني بهذا روح الاستعلان الذي يكشف الأسرار، والذي يُؤهَّل المتواضعون لقبوله داخلهم. وعن هذا قال أحد القديسين: إن الاتضاع يكمل النفس بالمناظر الإلهية.

١٥ – لهذا ينبغي ألا يتجاسر أحد ويظن في نفسه أنه قد أدرك ووصل إلى منزلة الاتضاع لمجرد فكر وَاحِد يخطر بباله من وقت لآخر بنوعٍ من الندم، أو بفيضٍ قليلٍ من الدموع ينسكب من عينيه، أو من أجل حسنة وَاحِدة في طباعه أو قد اقتناها بقسرٍ وتغصبٍ، فيظن أنه قد نال ما هو حابس كل الفضائل وحده (أي الاتضاع) وأنه قد اقتناه بأعمالٍ قَلِيلَة. ولكن إن كان أحد قد غلب جميع الأرواح المضادة، ولم يَفُتْه ولا عمل وَاحِد من أعمال الفضائل جميعها، بل إنه قد تعب لأجل كل وَاحِدة منها، وغلب كل الحصون الشامخة، وبعد ذلك أحسَّ في نفسه بالرُّوح أنه قد قَبِل هذه الموهبة، لأن الرُّوح يشهد لروحه كقول الرسول، فهذا إذاً هو حدُّ الاتضاع، وطوبى لمن اقتناه، لأنه في كل وقت يحضن صدر يسوع!

١٦ – وإن سأل إنسانٌ: ماذا أفعل؟ وكيف أقتنيه؟ وبأي نوع أستحق أن أقبله؟ فهوذا أنا أغصب نفسي وأظن أني قد اقتنيته، وإذ بي أحسُّ بحركات العظمة تضاده وتطيش في قلبي. ولهذا أنا واقع في قطع الرجاء. نُجيب على مَن يسأل هكذا: إنه «ينبغي أن يكون التلميذ مثل معلمه، والعبد مثل سيده». فانظر إلى ذاك الذي أمر بهذا وهو المانح إياه؛ كيف وبماذا اقتناه، وتشبَّه به. لأنك تجده يقول: «إن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيَّ شيء». فانظر كيف أنه بكمال جميع الفضائل يُقتنى الاتضاع، وتشبه بالذي أمر به إذ قال: إن «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، أمَّا ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه». الذي له المجد من جميع الذين كملوا وتقدسوا وتكملوا بكل الأسرار، مع الآب مرسله والرُّوح الْقُدُس، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

المَيْمَر الحادي والأربعون

وأيضاً للقديس في ترتيب السكون

١ – يا ابني، اغصب نفسك في الخدمة الليلية وزِد فيها مَزَامِير. وهذا هو العمل الذي تتدبر به: الاهتمام بالصلاة والخدمة، والتفرغ الدائم من العالم، والصمت بالسكون من كل الأعمال؛ لأن مبدأ كل شيء هو الهرب من محبة الأرباح، لأن محبة المنظورات ومحبة الجسد لا تترك للصلاة مكاناً.

٢ – الإنسان الهادئ المتواضع المعترف بضعفه وتَعَطُّلِهِ من تكميل كل قانون أعمال الجسد، والمنقبض إلى ذاته، والعائش بالعوز والمسكنة، والمجتمع إلى نفسه، والمحتمل ثقل ضعفه بشكرٍ وحزن قلب، هو أَخْيَر أمَّام الله ممن يقوم بتكميل القوانين مع حياة منحلَّة وانطلاق الفم وطموح الحواس وتسيُّبها.

٣ – اعلمْ، يا أخي، أنه ليس بمقدورنا أن نثبت في خدمة المسيح كما يجب، إن لم نغصب أنفسنا كل وقت على الأشياء التي ترضي الله. طوبى لمن يغصب ذاته على الدوام، لأن التغصب هو مبدأ الصناعة التي يستغني بها النشطاء الفائزون في طريق الملكوت.

٤ – الإنسان المرتبط بالآلام العالمية لا تُقبل صلاته. فكن أنت مائتاً عن كل رجاءِ وأملِ هذا العالم وجميع آلامه، وتَزيَّن بالأعمال الجيدة، فتحل قوة الرُّوح على نفسك وذهنك في وقت الصلاة، وتصير خدمتك رائحة طيِّبة أمَّام الله. فبقدر ما تُلقي همَّك على الرب، وتتهاون بأمور الجسد لئلا تتعطل بسببها عن الأمور الواجبة عليك أمَّام الرب، هكذا هو يُظهر اهتمامه بك بزيادة.

٥ – الجبن يتولد من البرودة، والذي يغير مقابل نفسه يُضعف أعداءه، أمَّا المشفق على ذاته فيشجع الخوف على نفسه. والذي يُبعد الغيرة من نفسه يقع في البرودة، والذي يقع في البرودة يُسلَّم لكل سيرة وتَدْبِير انحلال.

٦ – توجد خمسة أبواب يدخل منها الإنسان إلى إدراك كل حكمة روحانية: الأَوَّل هو القراءة والهذيذ في الكتب؛ والثَّانِي هو الاهتمام بعمل الفضيلة التي تُعمل في السكون المتحرر من سائر الهموم حسب الإمكان؛ والثَّالِث هو تجربة الحروب من أجل الفضائل. والرَّابع هو قبول خبرة عناية الله الظاهرة في وسط هذه التجارب والعوارض المؤلمة، وتغيُّر الأمور المفاجئ بنوع السياسة وغيرها. هذه الأربعة أبواب يدنو بها الإنسان من معرفة الله بتوسط المادة التي من الخارج. أمَّا الباب الْخَامِس (فبدون) وساطة المادة الخارجية يوصِّل إلى معرفة أفضل، التي هي موهبة تُعطى داخل القلب من الرُّوح الْقُدُس.

٧ – فالذي يقرع باب الكتب بإفراز يُفتح أمَّامه باب الفضيلة؛ والذي يدخل في باب الفضيلة ينفتح أمَّامه باب التجارب؛ ومَن يدخل في باب التجارب لأجل الفضيلة يأخذ خبرة عناية الله؛ ومَن يدخل في هذا الباب فبواسطة ما يصادفه من عزاء ومجاذبة ينال تطهير النفس، هذا الذي يؤهَّل به لنعمة الرُّوح الْقُدُس. والعادم من الأَوَّليات يخيب من الثَّانِيات؛ والذي يملُّ من الدخول في هذه الأبواب، فهو بلا شك يخيب من الذي يأتي بعدها.

٨ – العمل الأَوَّل هو السكون؛ والعمل الأَوَّل في السكون هو الصَّوْم، والصَّوْم يصلح كثيراً لعمل الله. والسكون هو انقباض وحلّ الحواس من العالم، والصَّوْم هو علامة الفعالية مع الله. والعمل الثَّانِي في السكون هو الصلاة.

٩ – فلنحب النوم الهادئ في السكون، لأن تخيلات أحلامه أفضل من أفكار اليقظة التي تكون خارجاً عن السكون. لأن اللقاءات الكثيرة والجموع والمحادثات تنقض احتراس الفكر.

١٠ – لا تتكل على إنسان لئلا تخيب من النعمة. إن ألقيت اهتمامك على الرب دفعة وَاحِدة، اتبعه بإيمانك. وفي كل أنواع تَدْبِير سيرتك، لتكن عفة الجسد متوفرة فيك. فإن الجسد إذا ما تعفف بكل أعضائه، لا يتسخ القلب ولا يقبل أفكاراً مضادة. فالعفة هي أساس تَدْبِير القديسين، فإذا فَسَدَت لا يدعى الإنسان فيما بعد إنسان الله. لهذا ينبغي أن نحرص عليها ونعتني بها أكثر من حياتنا، ونتحمل من أجلها سائر الضيقات والأتعاب لئلا نتغرب عنها.

١١ – الفكرة الجبانة تنشأ في الإنسان من خمسة أسباب: فالرجل المحلول في سيرته يكون جباناً، والعادم من معرفة الحق يكون جباناً؛ والمرتبط بهذا العالم يكون جباناً، والمحب لجسمه يكون جباناً؛ والخالي من الإيمان يكون جباناً. واسمع خلاصة الكلام: اذكر في كل حين سرعة غيار طبيعتك، ولا تتعظم بفضائلك. فإن كانت لك فضيلة أو عمل أو موهبة أو فعل من الله، اذكر فضائل كثيرين أخرجهم غيار الطبيعة منها جميعها في لمح البصر. فلا تثق بشيء ولا تتكل أبداً أن لك شيئاً، ولا تتكل على ثباتك وتجلدك في المشقات، ولا على نار حرارتك، بل بتذكر حياة خائفة كن متضعاً ومحزوناً ومحترساً من التهاون حتى في أقل الأشياء.

١٢ – السكون الدائم يصلح لتقويم السيرة، والذي لا يكون مع نفسه وحده لا يأتي إلى تقويم نفسه بالكمال. والرَّاهِبُ في حالة وجوده مع الناس ولقاءات العالم يصلح له الاحتراس الزائد بالحواس؛ وفي حالة جلوسه في السكون يلزمه احتراس القلب.

١٣ – الضيقات والصبر تسبقها الغربة والتجرد والسكون والعوز الجسداني والوحدة، وهذه تساعد على الصبر بسهولة، لأن الرُّوح يعين ضعفنا، والله ينظر إلى اتضاع قلبنا ولا يدعنا نقع في شيء رديء أو نضل عنه ونهلك. التعب من أجل الله تأتي بعده المعونة، والذي يعتفي من الضوائق التي لأجل الفضيلة هو منحلٌّ وفاشل وعادم من الفضيلة ومغلوب من الشهوات. فالذي يعتفي من الضوائق يعتفي من حياة البر، أي أنه يعتفي من الحياة الأبدية. وباختصار فإنه بالضيقات قد تكمَّل جميع القديسين وبلغوا لدرجاتهم المرتفعة.

١٤ – وَاحِدة هي المطلوبة في كل وقت أيُّها الإنسان، وهي التي ينبغي أن نصنع كل شيء من أجلها: أن نحرص لكي نرضي الله ونجده وحده ونضيِّع كل شيء ونزدري بكل شيء ونبغض كل شيء لكي نجد الوَاحِد الذي هو لنا كل شيء. ولنهتم بأن نجد الله بإهلاك نفوسنا، وعند ذلك نجده حقاً، لأن هلاك نفوسنا من أجل الله هو مبدأ لِما قلناه.

١٥ – كل موهبة يكون الهذيذ المتواتر في الكتب هو المحرك والمنبه لها. ومن قبل أن يكمل الضمير ويثبت في الله، إن تخلَّف عنه الغذاء والشراب الدائم من الكتب يبرد ويضرس (أي يكلّ) وينتهي به الحال إلى الملل، ويرجع إلى الرخاوة والانحلال. مَيِّز وانظر بدقة كيف أنك إذا توقفت عن قراءة الكتب يوماً وَاحِداً أو يومين يبرد فكرك ويضرس من محبة الضيقات والأعمال وبقية الأشياء. وهذا الأمر معروفٌ عند جميع خائفي الله. وقد قال الآباء أيضاً إننا إذا توقفنا من التذكار النافع ولو إلى ساعة وَاحِدة، فإننا نملُّ من ثقل الفضيلة، بل ومن السكون أيضاً. (لأنه) من دون ضروريات الأسباب تدخل التذكارات إلينا وتثير فينا ما يخصها؛ ويعرف هذا الذين اختبروا ذلك. فإنه من التذكارات الرديئة والسماعات واللقاءات الدائمة الغريبة عن الطرق التعبة التي سار فيها القديسون يرتخي الضمير ويضعف ويظلم.

١٦ – النفس التي تسير في مصاف ميدان الفضيلة ومعها قتالات ونعمة، وقت نور ووقت ظلام، وقت حرارة ووقت ملل وبرودة، وغيارات أخرى أيضاً حسبما قال الآباء، ومع هذه جميعها نغصب أنفسنا في هذه الأوقات لضرب الميطانيات وخدمة المَزَامِير والقراءة، ولو لم يحلو ذلك لنا، ولو أنه يثقل العمل علينا، ولو أن تكون أفكارنا باردة ومملوءة طياشة وأفكاراً غير نافعة، وفي هذه جميعها نغصب أنفسنا، فسوف تأتي لنا القوة من الله، ونمتلئ حرارة وأفكاراً عفيفة، ونحظى براحة؛ والمتغير عن هذه هو طريق الذئاب.

١٧ – إذا اشتهينا أن نبدأ السير في طريق الفضيلة، فإننا نكون مضطرين إلى أمرين بهما ترتفع من أمَّامنا كل المعوقات، وأي منهما على كل حال إن لم يلازم طريقنا فما نقدر أن نسير في طريق الله بغير تعويق: أمَّا معرفة ضوئية نيَّرة، وأمَّا حرارة حادة. فمِن دون وَاحِدة من هاتين لا يقدر إنسان أن يجسر على الرعب الذي يكون من الأسباب العارضة على الدوام أو من الاهتمام؛ وهذا الأمر غير مستطاع بالكمال، لأن المرتخي تخيفه أفكاره كل حين، والمنحلّ يكون دائماً ضعيف الإيمان. أمَّا الرجل المؤمن فالمعرفة تعتقه من كل خوف.

١٨ – خمس فضائل لا يمكن من دونها أن تكون كل رتب البشر بلا لوم، إن كانوا رهباناً أو علمانيين، لأن الإنسان إذا اقتناها تخلَّص من كل ضرر، وصار محبوباً عند الله وعند الناس. وهذه هي: جسد عفيف، ولسان محترس، والبعد من الشره والشهوة، وكتمان السر على كل أمر بغرض مستقيم إلهي، وأن يُكرِّم كل مقادير ومنازل الناس بدرجة تفوق منزلة كل وَاحِد. لأن من يُكرِم الناس يتكرم من الناس ويأخذ المكافأة من الله. لأن الكرامة تجلب الكرامة، والمحقرة تجلب المحقرة، ومن يُكرم الله يتكرم من الله.

١٩ – علامتان حقيقيتان أعطيك إياهما يا أخي، لكي تحس بهما بنور نفسك حين يؤهِّلك الله أن تنير من الداخل، وفيهما الكفاية لإرشادك إلى الحق. وإذا بدأتْ استنارة الفكر التي يتكلم عنها الآباء تظهر في نفسك بنعمة ومراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، فهاتان العلامتان تؤكدان لك ذلك. وحين لا تجدهما في نفسك، فلو أنك كنت تظن أنك سائر حسناً، فاعلم أنك بعيد عن ذلك.

٢٠ – العلامة الأَولى على أن هذا النور الخفي قد بدأ يظهر في نفسك، أن فكرك حين يخرج من القراءة ومن الصلاة ينضبط بلفظةٍ ما أو بموضوع من هناك، ويهدس ويفحص ويفتش من تلقاء ذاته عن غرضها الرُّوحاني، وهكذا يرتبط بها ولا يخرج من هناك ليطيش في أي شيء من الخليقة. ويعرض هذا الأمر للعقل من تلقاء نفسه ودون أي اهتمام من جانبه، أمَّا بكثرة كلياً أو بقليل جزئياً.

٢١ – العلامة الثَّانِية التي تحقق مثل هذا أيضاً هي أنه إذا ما خرجت النفس من الظلام وأنارت من الداخل، يُعطى للمتوحد ضرب الميطانيات على الدوام، ويحلو له الثبات فيها؛ حتى ولو أنه يلبث ثلاثة أيام جاثياً على الأرض في الصلاة فما يحس بالتعب من الحلاوة واللذة، ولا يريد أن يقوم من على وجهه. لأنه كل وقت يرفع رأسه ويقوم يعود فينجذب أيضاً من تلك الحلاوة المتحركة في قلبه فيخر جاثياً. ويكون له نصيب قليل من الصلاة، لأنه حين تجوز الصلاة في قلبه يحس في الحال بالمعونة ويكثر تنعمها حتى يلتجم لسانه ويصمت قلبه، ويمسك في قلبه وأعضائه ذلك السكون الحلو، حتى يظن أن ملكوت السماء لا يقاس نعيمها بسكون هذه الصلاة، حيث يكون مُلقى على وجهه ليلاً ونهاراً وهو ساكن. وهكذا فإنه بقدر مداخلته في استنارة العقل يؤهَّل لضرب الميطانيات.

٢٢ – ولست أعني بقولي هذا يا إخوتي، أولئك الذين يستهزئون بهذه الأمور التي تكون من الله للقديسين بسرٍّ لا يُنطق به، فما من ضرورة تلجئنا أن نتكلم عن الشيء الذي لا يمكن وصفه لأنه يفوق القول. أَعطِ نفسك لعمل الصلاة، وأنت تجد الشيء الذي لا تقدر أن تسمع عنه من أي أحد، لأنه ليس في كل أحد كفاية لسماعه، ولا كل أحد يصل لنعمة الصلاة النقية أو يقتني القوة التي فيها، لأن وجودها يكون بعد أتعاب كثيرة. وكل وقت يتأخر الإنسان عن الأسباب التي سبق أن ذكرناها يخيب أيضاً من المسبب لها، ولا يمكن أن ينظر هاتين العلامتين في نفسه. فينبغي لك إذاً أيُّها الرَّاهِبُ أن تطلب هذين الأمرين في نفسك.

٢٣ – حين يصعب عليك ضرب الميطانيات ويصير عملها مستثقلاً عندك، وإذا ما خرجتَ من قراءة الكلام الإلهي ومن الصلاة وأنت بلا ثمرة، ولا يبقى في فكرك ذكر أي شيء منها، وأنت في طياشة، فاعلم أن ظلاًمَّا عظيماً موجود في داخلك. وما دام الضجر موجوداً عندك فباب الحياة لن ينفتح داخلك. ودواء هذا الظلام يتولد من الصلاة إذا جاهد الإنسان وثبت فيها. فإنه عندئذ يحس سريعاً بالمعونة التي تكون من الصلاة إن لم يكن له سبب من خارج، أي إن كان كل اهتمام الإنسان داخل منه.

٢٤ – وينبغي لنا أيضاً – بحكم الضرورة – أن نعرف أن هذه الطرق والإفرازات التي في هذا العمل الهادئ الطيب الذي هو السكون لا يجدها الإنسان في مبتدأ سيرة السكون، لأن أول الطريق ومبدأ السيرة هو وَاحِد لجميع الرهبان وهو معروف لكل أحد، لأن عمله ظاهر ومتفرد عن غيره، وهو خدمة المَزَامِير والصَّوْم الظاهر المنظور، وأن يكون للإنسان قراءة في الكتب. كما أنه في البداية لا يحس بفهم ما يقرأه ولو كان معلماً فطِناً جداً وحاذقاً في القراءة العادية وفي منطق الكلام. لأن الفهم الحقيقي الذي هو حسب الرُّوح يكون على قدر تربية الإنسان الداخلي في هذه السيرة، وبقياس تقدمه ونجاحه في التَدْبِير الخفي؛ فبقياس ذلك يذوق القوة الإلهية التي تسوسه وتدبره وسط هذا البحر المتسع الذي هو السكون.

٢٥ – ولهذا حسبما قلت، فإن المبدأ هو وَاحِد والطريق وَاحِدة لكل مَن يتدبر في سيرة السكون، وبعد ذلك إذا نجحوا فيه تبدأ أن تتفرع منه الطرق والسبل التي ذكرناها وأفرزناها. لأنه قد يتفق أن أحد الناس يربح في جزء من الأعمال أكثر من غيره بما يجده من النجاح وسهولة التقدم فيه، وبالأكثر من مداومة معاناته له يحظى بنقاوة الأفكار واستنارة العقل أكثر من بقية الأعمال، ولهذا يداوم العمل به (أي بذلك الجزء)، ويجعله مفضَّلاً على غيره، وهذا ليس كما اتفق أو بالهمج بل بعد تجربة كثيرة؛ ومن مذاقة إفرازاته يدرك ربحه وأثمار المعرفة المكنوزة التي قد ادَّخرها في نفسه. وهذا يكون أمَّا قراءة أو خدمة مَزَامِير أو صلاة أو هذيذ أو ضرب مطانيات أو التلاوة القلبية التي يصلي بها خفياً حسبما قيل: إن الكاملين ليس عليهم ناموس، فإنهم لا ينظرون في البشر ولا في أنواع وعادات البشرية، وكل عمل يبدأونه بتحقيق وخوف يعملونه بلا تهاون، ولأجل هذا يحظون بالمعونة وينجحون ويتقدمون.

٢٦ – خوفٌ عظيم ومرعب جداً أن نقترب إلى الله برخاوة وبوجه (بقصد) دالة أو بنوع حرية، لئلا يصادفنا بغتة حكم القضاء في هذا الموضع. أمَّا تحس أيُّها الشقي، قدام مَن أنت واقف؟ ولمن تذبح حركات أعمالك؟ ألعلك لم تختبر قساوة الله إذا ما أراد أن ينتقم من الذين يظهرون الاحتقار نحوه، وكم هو شديد في غضبه ورجزه ومملوء غيرة حين يسخط، ولا يرجع ولو سألته كثيراً؛ وأنت تريد أن تتقدم إلى خدمته والصلاة أمَّامه برخاوة، وتريد أن تصلي بزيٍّ متهاون بالجسد؟!

٢٧ – إن الذين يعملون قدامه ليس لأجل المكافأة والأجرة بل لأجل المحبة، هؤلاء يؤهِّلهم لعزاءٍ كثير. أمَّا الذين لأجل المكافأة يعملون، ويصبرون على الضوائق والمحزنات وبقية الضواغط من أجل سيدنا، فهم يفرحون أولاً، وبعد ذلك إذا ما عملوا قليلاً ولم يجدوا عزاءً حسب أملهم، ينتهي أمرهم إلى الملل والضجر وصغر النفس، لأنهم لم يضعوا في قلوبهم أن الضيقة من أجل الله هي عيد عظيم لهم ولو كنا سنبقى إلى انقضاء حياتنا بلا عزاء على الدوام. فالذي لا يقبل الضوائق ولا يتجلد من أجل الله بهذا الاستعداد القلبي، لا يضمه ويجمعه إليه رَبَّنَا كخاصته، ولا يجد داخله مكاناً للصبر. حقاً إن الذين يزرعون بالدموع بفكر غير محدود، كالبنين يحصدون بفرح أكثر مما كانوا يأملون بضميرهم.

٢٨ – إذا جلس الإنسان في السكون باحتراس وتحفُّظ، وليس مَن يدخل إليه ويخرج، فمن بعد ضجر كثير يتولد فيه اتساع القلب قليلاً قليلاً دون أن يعرف له سبباً من مكان. طوبى لمن يصبر على الضجر – الذي هو اختبار لفضيلته الخفية وتربية للفكر ونموه – ويحتمل على رجاء نعمة الله.

٢٩ – إن لم يضعف الجسد بالأعمال الإرادية لا تنير النفس ولا تقوم في حسن طبعها. وإذا أشرقت في النفس معرفتها فهي تطلب الجسد قرينها لكي تقرع فيه (أي تصلي) وتمجد الخالق. ولكن إن كان الجسد قد تخلَّف تماماً، فهي أيضاً تتعطل وتبطل من فعلها وتبقى (في النفس) كالصنعة في يد الصانع من غير آلة. وبحسب رأيي أشير على التائب الحقيقي: أَتعِب الجسد جزئياً حتى يتقوَّم، واجلس ليلاً ونهاراً على باب قلبك، واقتل وعذِّب بلا رحمة حسب الكلمة السيدية أنه من القلب تخرج الصالحات والرديات.

٣٠ – كما أن البنيان الذي يُبنى في النهار ويتهدم في الليل لا يرتفع ولا يكمل، هكذا سيرة السكون التي تعمل بالأسابيع والسبوت في سَبْعين سنة (بتشتت) لا تنجح ولا تُخرج ثمار الرُّوح التي قال عنها بولس الرسول. ويكون عمل ونسك الذي يتعب ويُشقي نفسه ويقتل ذاته، باطلاً وفارغاً. ثلاث سنين في سكون دائم كلي من غير تشتت ولا انتقال، مع تكميل واجباته وهو محبوس في قبر القلاية ومستتر من حركات هذا العالم المسجِّسة حتى تُنسى الحيل والأنواع والعادات، وتنصرف مفاوضات هذا العالم بالكلية، وينهض الإنسان الجديد بشبه صورة خالقه، وينفخ فيه روح العزاء الخفي، (فهذه السنين الثلاث) هي أَخْيَر من سكون سَبْعين سنة بتشتت، يهدم ويبني، ويبني ويهدم بدون قيام.

٣١ – رأس النفس هو الإيمان الحقيقي مع المعرفة الحقيقية. ورأس السيرة المتقنة هو الغرض المستقيم مع صلب الإرادة مقابل الآلام بواسطة عمل الوصايا.

٣٢ – بداية تَدْبِير السيرة المتقنة هي الميتوتة من كل مفاوضات الوجوه بشهوة الأمور الإلهية، لأنه من هذه الأمور يتولد داخل العقل حب وحرارة لتَدْبِير السيرة الحقانية.

٣٣ – حرارة النفس تتولد من القراءة الدائمة في تَدْبِير السكون المقرون بأعمال الصلاة المتواترة، ومن الصلاة الحارة التي تكون من الحرارة الطبيعية. والصَلَوَات إذا امتزجت بالقراءة الدائمة بإفراز توصلنا إلى هذيذ العقل. ومن الهذيذ الرُّوحاني الذي للعقل، يتولد فينا انجماع الفكر. ومن جمع الفكر يتولد العتق من الطياشة. ومن اتفاق هؤلاء معاً تتولد فينا الصلاة الخفية ومفاوضة العقل.

٣٤ – إذا ما حُفظت واجبات السكون بتغصب وانجذاب، تتربى (النفس) بالنعمة بإرشاء الأب الرُّوحاني في مدة من الزمان، وتُمحى من القلب كل الصور والرسوم والتذكارات الغريبة الخارجة عن سيرة السكون، وتصطبغ بالفضائل الكبار الرئيسية التي هي السلام والاتضاع والهدوء والحب والطِّيبة والفرح والعزاء الرُّوحاني. وهذه الفضائل ترسم في النفس الصلاة الرُّوحانية. ومن موافقتها معاً تؤهَّل (النفس) بالرحمة لاتحاد العقل بالله والإحساس السري الذي للعقل. ومن ههنا، وبواسطة

إيمان النفس وكلِّية المعرفة والرجاء، يجود الله علينا إنعاماً بما هو فوق الطبيعة، بعربون حريتنا، دالة وثقة البنوة بشهادة النية، إلى صلاة الحب الإلهي.

٣٥ – صلاة الحب الإلهي هي سكون العقل الذي قد ارتسم بالله، وهو ينتبه ويلغلغ (أي يناغي) خفياً بلا فتور بحس العقل. وإن كانت درجة الحب الإلهي أرفع من الصلاة، ولكن من دون الصلاة والتضرع الدائم والدموع المحزنة واشتياق القلب مع السهر والأعمال والنسك، لا تنجح.

٣٦ – الرَّاهِبُ الذي في زمان الطاعة والخضوع اختار لنفسه الرَّاحَة والحرية، هو في زمان الرَّاحَة الحقيقية يبكي بعدلٍ، ويجوع ويشقى وينضني بالندامة. والرَّاهِبُ الذي في زمان الحصاد وشمول الفرح يملك عليه الندم والكآبة، هو شاهد على نفسه أنه في أوان الزرع والخضوع والعمل لم يغصب نفسه أن يحتمل ويصبر على شدة البرد والجليد، ليشق بالمحراث خطوطاً عميقة في أرض قلبه ويطمر فيها زرع خبز الحياة، وهو الآن يشقى بالجوع في الحصاد.

٣٧ – أعمال التوبة والصَلَوَات والدموع باتضاعٍ وانكسار قلبٍ لا تقلع الآلام والخطايا فقط من النفس، بل وتقيمها (أي النفس) أيضاً من الموت. حفظ الحواس يقطع الخطايا، وحفظ القلب يقطع الآلام التي هي أمّهات ومولِّدات للخطايا. والرَّاهِبُ الذي يحارب مقابل الآلام بعمل الوصايا لكي يقطعها من قلبه، لا تهدأ النعمة من أن تساعده خفياً.

٣٨ – اجمعْ عقلك من الكل بالقراءة المفروزة، ثم قُم للصلاة. وفي وقت الصلاة اِلفتْ نظرك إلى البشارة، وانظر الصليب والمسامير والحربة، واحزن وتنهد وابكِ، واعجب من الجموع الصارخة: اصلبه اصلبه، وانصتْ لمخلص الكل كيف يصرخ بنوع الصلاة قائلاً: «يا أبتاه لا تحسب لهم هذه الخطية»، وتشبَّه به بكل قوَّتك، وابدأ الصلاة والدموع.

٣٩ – عقل المتوحد هو المسيح، وإيمانه هو رجاء المواعيد، وعلامة الحب له هي حفظ الوصايا، وعمله هو الجهاد مقابل الآلام، وغلبته هي استئصال ذِكر العالم، وتمييزه هو تمجيدات العالم الجديد. الفُلك الذي تدخله النفس وتحل فيه هو نور عدم التألم، وترديدات قلبه هي سذاجة معرفة الصيادين (أي الرسل).

٤٠ – الاتكال على البشر يمنع تماماً الاتكال على المسيح، والعزاء الظاهر يمنع العزاء الخفي، والاهتمام يمنع الاهتمام، والذِكر يمنع الذِكر، والفرح (الظاهر) يخيب من الفرح، وهكذا بقدر ما يكون الرَّاهِبُ منفرداً متوحداً يُخدم من العناية الإلهية ومن الملائكة القديسين.

٤١ – اعتنِ بأن تحسَّ بتغير الأوقات التي فيها تقترب إلينا في الصلاة الملائكة القديسون أو الشياطين الأنجاس، والمنفعة والخسارة الحاصلة منهم.

٤٢ – إن أردت أن تحسَّ بالمنازل التي هي بداخلك، كن حقيراً ومُزدرى في عيني نفسك (وأقل) من الكل، فيكون رجاؤك عظيماً في الله. محاسن الصلاة هي التغصب والصبر والاحتمال وطول الرُّوح والتجلد وعدم قطع الرجاء منها. والصلاة هي صراخ العقل الذي يصرخ به من غير الإرادة بحرقة القلب.

المَيْمَر الثَّانِي والأربعون

في حدود كل تَدْبِير سيرة الوحدة

١ – يا ابني، إن كنتَ تريد أن تسير بإفراز حسب قول السيد في الطريق التي بدأ كثيرون السير فيها، وقليلون هم الذين أكملوا، فمِن بعد أن تقوم بهذه (الأمور) وتوفي واجبات المعرفة النفسانية جزئياً، وقد عرفتَ أن تفرز الحق من شِبه الضلالة، ابدأ طريق الصليب بتغصب وتكبُّدٍ (أي احتمال)، واصبر على كل ما يأتي عليك (من أمور) عامة أو خاصة كما لو كانت لك، وكمَن أشالهم (أي وضعهم) على نفسه وحرَّكتهم على الجهاد مقابلك، حسبما قيل: «يا ابني إن سلَّمت نفسك لله، فقد أسلمت ذاتك لجميع التجارب» وما تبقى (سي٢: ١)، فاصلب ضميرك وأفكارك مقابل الآلام بواسطة عمل الوصايا بتغصبٍ وقسرٍ.

٢ – بدء تَدْبِير سيرة الصلب هو الصبر بتغصب والانقطاع من كل محادثة الوجوه محبةً للصليب، وليكن الإنسان بغير اهتمام وعدم ذكر كل جيد ورديء، مع بغضة الكرامة والصبر بشجاعة على الظلم والعار والهزء على مثال ذلك الذي هزأوا به على الصليب وهو الذي يعطي الحياة للعالم.

٣ – المتوحد الذي يحب عدم التألم بإرادته، وقد قطع في فكره أن يبغض جميع الآلام والشهوات، وبدأ بالجهاد مع الآلام والشرور، عليه أن يعدَّ نفسه لكي يحتمل بإرادته الضوائق المختلفة والتجارب المتواترة والعوز مع ربوة من الشرور. لئلا إذا أتت عليه بالسياسة خارجاً عن إرادته يتسجس ويتذمر، ويكابدها بتغصب بدون شكر، ويصبح ألم الخَلق (أي الاحتداد) مادة لألم الحزن، ويكون عمله فارغاً من النقاوة. لأن العالم المتألم ذا الميالة (أي المتغير) لا يجلب لمن هو هكذا كرامة ونياحاً، بل إنه بعكس ذلك يُشقيهم ويؤلمهم ويشبعهم ازدراءً وعاراً ومحقرة بكل نوع حسبما يُسمح له.

٤ – مُخامرةً (أي مخاتلةً وخداعاً) قد أقام على العالم المتألم المتغير المملوء آلامًا الرَّاهِبُ الذي يريد أن يكون غير متألم بالآلام التي هي آلة هذا العالم؛ لأن عدم تألم القديسين مقابل الآلام والخطية هو فوق الطبعية، ومن دون إنعام ومراحم وعون رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح في الخفاء وفي الظاهر لا يتقدسون بالرُّوح.

٥ – يا من يريد أن ينصب سلَّم عقله لكي يصعد بسيرة الفكر مع يسوع لصليب الحياة، لا تُضلّ نفسك، بل كما اختبر الآباء وسلَّموا لنا، فإن مخافة الله تسبق محبة الله، وصليب المَعْيَرة والبصاق والمرارة والحربة يسبق صليب الحياة؛ ومرارة السيرة تسبق فرح السيرة؛ والضجر والكآبة والملل وعجز القلاية تسبق سلام القلاية، والحروب والتجارب والضواغط وضيقة السيرة التي يتصفى (يتنقى) بها الرَّاهِبُ ويُختبر، تسبق أثمار القلاية؛ وعبودية الآلام وعمل الوصايا تسبق سيرة الحرية؛ وترتيب الحواس وحفظ القلب يسبقان سيرة العقل.

٦ – المحبة التي تكون قبل المخافة هي زنا، لأنها بدغدغات شهوة اللذة تخدع النفس وتسبيها بحب السيرة المرتفعة بغلوة حرارة حركات وتخيل العقل، لكي يصعد إلى صليب الحياة قبل طرد الآلام. وهذا هو ما كتبه الآباء أن الذي يريد أن يصعد على الصليب قبل الأوان يأتي عليه غضب الله. لأن أمور الرب تأتي من تلقاء نفسها إن كان بلد القلب طاهراً غير نجس.

٧ – إن كنت حقاً تريد أن تصعد لصليب الحياة أيُّها الحبيب، أولاً غُصْ واسبح في الكتب بالكلية، واجعل قلبك فردوس الكتب وعقلك ينبوع الحب، وغَذِّ نفسك بمذبحيْ الدور التي على سياسة الله وحكمته المملوءة إفرازات، وعلى تَدْبِيره في جميع الأجيال.

٨ – وإن كنتَ تتضايق من حدة حركاتك ودقة فهمك، أَوْفِ دين معرفة اليونانيين جزئياً، واعجبْ من عمل صبرهم وكيف كانوا عادمين من معرفة الحق. واشكر الله الذي أَهَّلك للإيمان بالمسيح مجاناً. فإن ملوكاً وأنبياءَ كثيرين اشتهوا أن ينظروا وأن يسمعوا الشيء الذي نظرناه نحن وسمعناه ونستريح عليه، ولم ينظروه.

٩ – لأننا بواسطة الإيمان بالمسيح استحققنا معرفة الحق. وبالإيمان بالثالوث الْقُدُّوس أخذنا ذخيرة البنين التي بها ندعو الله أبانا السمائي. ومن الإيمان لبسنا سلاح الرُّوح لكي نعمل فوق الطبيعة بتَدْبِير سيرة الملائكة القديسين، وبالإيمان بالمسيح استحققنا هذه النعمة أن نكون ورثة الله وبني ميراث يَسُوع الْمَسِيح. وإذ نحن نحيا في جسد متألم ميَّال نحسُّ بالعربون الموعود به للقديسين في النور.

١٠ – بر المسيح عتقنا من بر العدالة (أي الناموس)، وبالإيمان باسمه خلصنا بالنعمة مجاناً بالتوبة. فالْبس السلاح الذي لا يُغلب الذي هو الإيمان والرجاء والمحبة، وابدأ بالعمل. اقرأ لكي تعمل، وافهم لكي تؤمن وتصدق مواعيد الرُّوح. ضع كنزك في السماء لتثبت في الرجاء. أَرسل خبزك على وجه الماء بالشفقة ودون تمييز بين الصالحين والطالحين لتكون نفسك مسكناً لله.

١١ – اصلب ذاتك مقابل الآلام وأسرع في طلب سلام قلبك. واحرص أولاً أن تغيِّر بالتغصب ما هو خارج الطبع فيك إلى ما هو طبيعي. واستبدل الأنواع والعوائد والتدابير السابقة بالتقانة (الانضباط)، وهدِّئ وحشية الآلام بعمل الوصايا. لا تثبت مع أي فكرٍ كان، ولو بدا نزراً حقيراً، لئلا تتأسس فيك عوائده، واضطرار العادة يجعلك عبداً لذلك الألم.

١٢ – المتوحد الذي يخدم الآلام هو تلميذ الآلام، واضطرار عادة معلمه تغصبه ليكون مثله من غير إرادته حسب كلمة السيد. فكل ملك ولو أنه حقير فهو فاتك وقوي في بلده، وكل ألم ولو أنه صغير فهو يظهر سلطانه في بلده.

١٣ – العادات تشجِّع الآلام، والأعمال تؤسس الفضيلة. سلاح الآلام والفضائل هو تغير العادات والخاصيات. العادات تطالب بما سبق أن ارتبطت به النفس، وهي بسهولة تقتنيها وبصعوبة تنحل منها. الآلام والفضائل التي تأسست في مدة من الزمن بسبب التعود، تكون مثل الشجاع العاري من السلاح. الأنواع والعادات التي عتقت في الإنسان تصير له مكان الطبع. لا تترك

عادة تتأصل فيك وتُردِّد الأفكار دون قيام، لئلا تتجدد فيك الآلام التي قد هدأت قليلاً. الهذيذ بأمور كثيرة هو غذاء للنفس سواء كان هذيذاً صالحاً أو رديئاً أو مختلطاً منهما. الهذيذ بالوَاحِد هو الانحلال من الكل، والانحلال من الكل هو ارتباط بالوَاحِد.

١٤ – إن كنتَ مشتاقاً لسلام القلب وراحة الضمير اللذين هما ثمار شجرة الحياة، اقلع من قلبك معرفة الجيد والرديء التي أُمر مبدأ جنسنا أن لا يذوقها لئلا يموت، لأنها تولِّد السجس في النفس وتقلع السلام من القلب. إذا تعثرتَ بفرز خاصيات الإخوة، فإنك بالضرورة وعلى كل الأحوال سوف تخسر من تَدْبِير سيرتهم؛ وإذا لم تحس فسوف تلوم سائس ومدبر الكل بتشامخك، وتزكِّي نفسك بجنونٍ.

١٥ – إن كانت نفسك قد استعدت لتدابير الصلب وتحمُّل عار الصليب والجري وراء يسوع ابن الله، احذر من معرفة الأفعال، ومن فخاخ المعرفة المخفية عن يمين سيرة الصليب ويسارها. وإذا استنار عقلك في السكون بواسطة أعمال النسك، احذر من معرفة أهل أثينا الكثيرة الأبواب التي تخضع النفس وتجتذبها إلى الهلاك بكثرة عيونها. ومتى استنارت معرفتك بأفهام الكتب وتفسير الأسرار المخفية فيها، احذر من الظنون والعظمة والجدال وطلب الردود مقابل كل البدع، ومن تمييز الدعوات وتغير الألفاظ، وبقية هذه الأمور. واتبع ببساطة الإيمان تعليم الصيادين، مثل مَن قد أعدَّ نفسه للصلب، وسِرْ في أثرهم بهذيذ عقلك على الدوام.

١٦ – الحسّ الإلهي الذي تتشوق إليه هو فوق العقل. وإن كان جناحا معرفتك يطيران يميناً ويساراً ليعوما في سائر العلوم، فلن يرتفع عقلك إلى العلو ليحسَّ بجو الحرية التي تكلم عنها الآباء.

١٧ – الهذيذ الذي يرعى دائماً في مروج العادة، وينتقل من ذِكرٍ إلى ذِكرٍ، ومن فكرٍ إلى فكرٍ، ومن فهمٍ إلى فهمٍ، إذا ما ارتبط بطريق هذيذ وَاحِد، أمَّا بصلاة أو تزمير أو بصمت العقل، فهو يتضيق وينضنك، واضطرار العادة يقطع حبل الصبر، فيمضي لكي يرعى في طياشة عادته. هكذا العقل الذي له مدة وقد اعتاد على هذيذ وَاحِد، إذا بدأ يرعى متنقلاً (من هذيذ إلى آخر) يتضايق، واضطرار العادة يجذبه إلى حلاوة الوَاحِد.

١٨ – محبة العلم التي لم تُملَّح بيسوع وبأفهام كتب الرُّوح الْقُدُس وبتغير منازل العالم الجديد في تَدْبِير سيرة النسك، لا تقدر أن تقطع الآلام بسيف الوصايا. النفس المحبة للأشياء الجديدة لا تشبع، وقِلْع قلبها مصلوب لكل ريح لتدفعه إلى كل أمر يجذبه إليه العقل. الرَّاهِبُ الذي حدة حركات معرفته واستضاءه فهمه بالكتب تجعله كسِفْرِ أخبار يردد الأفكار بغير قيام، وتخيِّبه من مفاوضة الرُّوح والاتحاد بيسوع، لا يختلف عن الغَنِي الذي أفرزه غناه عن ملكوت السماء.

١٩ – خمس تاؤريات مقدسة أوصى الآباء أن يطوف بها العقل الإلهي: في الأَوَّل إن لم يقبض العقل ذاته ويتحد بالوَاحِد ويسكر بحبه ويُبتلع بمحبته، فهو عقل طائش طوَّاف. جمع الفكر والاتحاد بيسوع وصمت العقل هي فوق الطبيعة وتُقيم الذهن بالدهش، ومن دون فعل الرُّوح لا

يكمل في مدة من الزمان. اقلع من قلبك كل الرسوم والصور والأشكال، وكل فكر وكل ذِكر الهيوليات، لكي يقبل عقلك رسم الحب الإلهي وحده. ارسم عقلك بيسوع بغير انتقال (أي بلا انقطاع) مثل المجدلية، فيعظم شأنك على كل من يسير معك.

٢٠ – أواه من البطالة التي تشتهي ما لا يوجد وتبغض ما يوجد. أَكثِرْ ووفِّر عمل الصلاة والقراءة والهذيذ للعقل، لكي يهتم بما يخصه وليس بما هو خارج عنه.

٢١ – المتوحد الذي وجد داخله عزاءً خفياً أو وجعاً يؤلمه على الدوام، لا يجد في نفسه كفاية لأن يفرز الأشرار من الصالحين والخطاة من الصديقين، ولا يحس بالكرامة أو المحقرة التي تأتي عليه من الخارج.

٢٢ – العقل الذي ذاق السرَّ وتغذَّى بتذكاره مدة، وارتسم في القلب مثل الطيب، فبصمت العقل تفوح لذَّته في النفس النقية. التاؤريا والأفهام التي من القراءة والهذيذ اللطيف العميق متى غاصت وابتُلعت بالأسرار الإلهية، تدخل وتجعل العقل والذِكر يغوصان داخل الأفكار بنوع من الحلاوة. هكذا أيضاً عندما تطمح الحواس والذكر وتتسبب في الطياشة فإنها تلقي العقل والأفكار في الأباطيل.

٢٣ – بعد جهد تجد قليلين وأفراداً معدودين يرذلون غنى العلم الذي جمعوه واقتنوه، ويختارون عليه تَدْبِير سيرة الصليب، ويحبون بساطة الصيادين، فيصيرون بسذاجة قلوبهم أكاليل في تاج الملك.

٢٤ – إن كنت تحب سيرة السكون الملائكية وتَدْبِير الصليب وفرح العقل بالمسيح، فلا تلقِ نفسك، أيُّها الأخ الحبيب، في أمور كثيرة، ولا يخرج فكرك خارجاً عن فردوس الكتب المقدسة أبداً. إن كانت الطياشة بالجسد رديئة، فطياشة النفس هي أردأ منها بمائة ضعف.

٢٥ – هذه هي مرضاة الله: أن نكون أنقياء مثلما خلقنا. فنحن إنما نحزنه إذا غيَّرنا الصورة التي خلقنا هو عليها. النفس هي بصورة الله، ونحن الذين طالبناها أن لا تتعبد لله بل للآلام. ما أردأ هذا الأمر، أي الخضوع للآلام. لأنه بمقدار الآلام التي تتعبد لها النفس هكذا يكون عدد أسيادها. فما دام الإنسان ثابتاً في الآلام فليس هو عبداً لله بل عبداً لآلامه.

٢٦ – التواضع هو أن يحسب الإنسان نفسه أقل وأحقر من كل أحد، ويكون هذا من كل قلبه، كتعليم رَبِّنَا: «تعلموا مني لأني متواضع هادئ بقلبي». ينبغي للإنسان أن يبتعد عن جميع الأسباب التي تجلب له مجداً باطلاً، وأن يشتهي الأشياء المتواضعة ويستعملها على الدوام. ولرَبِّنَا المجد دائماً أبدياً آمين.

كمل الكِتَاب الثَّانِي للعظيم الفاضل مار إسحاق في مخافة الله، بركة صلاته تحفظ وترشد كل قارئ ومجتهد في الفضيلة إلى الأبد. آمين.

مَيَامِر
مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي
الجزء الثَّالِث

المحتويات

الموضوع الأول في محبة الله والزهد والرجاء في الله..... ٤

الموضوع الثاني: في التوبة عن الآثام وعن كل ما يُخجل منه..... 3

الموضوع الثالث في أن النفس تبلغ الرفاهية في أعمال النسك... 2

الموضوع الرابع: فيما تتطلبه الرقة من أوامر وفضائل بالسؤال والجواب..... 6

الموضوع الخامس في توبة السيرة الرديئة وأسبابها وإحجاز وكيفية بر أي سيرة لتتوب وفضائل بعضها من بعض..... ٣١٣

الموضوع السادس: في أدواء الحروب الممتلئة بالشيطان أعني الكبرياء والطرق الفاضلة لذي الأعمال..... ٣١٥

الموضوع السابع: في ما يُفعل الإنسان فيتراءى من الله في قلبه وما يرى به القلب الحقيقي الذي يبصر من الأمور ما هي لائقة بالقداسة..... ٣٢١

الموضوع الثامن في الخطايا التي من الاستماع والإراءة الرأي والتي تكون من جهة عارض ٤

الموضوع التاسع: في ما يضر من أدوية الأمراض التي تحظى بالهوى والتي تأتي بسبب ضعف النفس وسوء الخلق وأن تخرج من الله حرًا. وأن هذه الشرور أن تخرج من الخطيئة..... ٤١

الموضوع العاشر: كيف أحمى السيرة الرديئة وكيف تمجا الله منها..... 2

الموضوع الحادي عشر في أن هذه التي جعلها الله لذين تجرأ من العالم وخرجوا طلبوه أن لا يعودوا بنفوسهم لطرق العالم لكن يلزموا الطريق الضيق وأن لا يخافوا من هذه الأمور وأن التبرارة من الشوق إلى الله تأتي بطرق شتى وفضائل الوقت..... 6

الموضوع الثاني عشر: في التواضع وأنه أحد الطرق الموصلة إلى الله وهو الذي يُعرف بالوداعة وهو زراعة غرس الخوف..... ٤١

الموضوع الثالث عشر: في أن الرجاء بالله؛ ومن هو الذي يُرجى أن يرجو الله؛ ويهون الوعد على سبيل التجارب..... ٤١

الموضوع الثالث عشر (ب) في رفض العالم والاستماع من الأمم عن الناس..... ٤١

الموضوع الرابع عشر: في أن هذه على ذوي الشركة تعطل من المقامات وأن الدخول والخروج

مخسر له ي وك ل ك ت ش ب أ ل م ور 2
اليوم الخامس عشر: فضل السيد المسيح على الله والتقرب إلى الله أعم من الناس من كل الذنوب؛ فإن الذنوب التي تذنبها كل أمم الخطية..... ١
اليوم السادس عشر: فضل الصوم ومن أي الأشياء يتقوم ومن كل ما يبطله..... ١
اليوم السابع عشر: فضل الصلاة بالروح 3
اليوم الثامن عشر: فضل الأمانات وفضل محبة الله على..... 6
اليوم التاسع عشر: فضل الخطية وغربتك..... ٣٥١
اليوم العشرون فضل الصوم الأربعيني وثمراته؛ فإن أنت صمت حقيقة كنت مع الملائكة..... ١
اليوم الحادي والعشرون فضل الصلاة 2
اليوم الثاني والعشرون: فضل الصلاة بالروح وأنها أجر من أجر الصلاة تذنب ذنوبًا أي وفيرة من الإنسان الهبة..... ٣٦١
اليوم الثالث والعشرون: عن الصلاة..... ١
اليوم الرابع والعشرون: فضل الصلوات وما فيها من الحلاوة..... ١
اليوم الخامس والعشرون: فضل الطهارة الجسدية والطهارة النفسية..... 2
اليوم السادس والعشرون: نقص من الأعمال الصالحة 2
اليوم السابع والعشرون: فضل التوبة والمحبة..... 6
اليوم الثامن والعشرون فضل الصلاة والإيمان..... ٣٧١
اليوم التاسع والعشرون: شرح مثل الفريسي والعشار وأراحتك الصلاة من الشر وفرح الصالحين 3
اليوم الثلاثون فضل الصلاة التي تكون أعمالها الملائكية والتشبه بالسيد المسيح في أمور الروح 2
اليوم الحادي والثلاثون فضل العمل الصالح في الإنسان..... ٣٨١
اليوم الثاني والثلاثون: فرح الذي وجد الدرهم الذي فقد وفرح السيد المسيح بالخاطئ التائب وأمور أخر 2
اليوم الثالث والثلاثون فضل الصلاة عن الضرر الناتج عن الخطية التي تتخذ شكلاً خفيًا في العين التي تقتل من الواقع؛ ومواضيع أخرى..... 2

اليوم الرابع عشر الثلاثون: فأل فلكار الرأل الحلك ِكر ها من التول ً الكطائن نلى ها..... 26
اليوم الخامس عشر الثلاثون: فً الصبر من أجل محبِ الله ولكُفت وجا المعون فُه..... 6
اليوم السادس عشر الثلاثون: على س ُرنل اسلكون..... 6
سر القرر أس مرارسار حق: لكتبه رل ارى أبمحر رب اللى رك ورنهر ركُر فحتُر رال نلى ر ُطان أن عُطرل لاحر ُص ُن على المما ومِ فلَّ اسلكون بحج محبِ لاخ ُل لل ُق رُب ول لج ُل لل ُق رار. ولكُرُف ُحرب لعرى لاتوحرر ا أن ُفوض كرلش رً رً لأجل مغفرر اللتر المكرن لاصرول غُفر الفرر رً لل ر ر ر

المَيْمَر الأَوَّل

في محبة الله، والزهد والرَّاحَة في الله

١ – النفس المحبة لله تجد راحتها فيه وحده فقط. بادر إلى حلِّ كل رباط خارجي من ذاتك، حينئذ تقدر أن تربط قلبك بالله؛ لأنَّ الإنفصال من الهيولي (أي المادة) يسبق الاتصال بالله.

٢ – الخبز يُعطَى للطفل بعد الفطام، والإنسان الذي يريد أن يحظى بالإلهيات ينبغي له أولاً أن يتغرب عن العالم، كما يتغرب الطفل عن ثدي أمه.

٣ – الأعمال الجسدانية تتقدم الفِلاحة النفسانية كتقدم التراب على النفس المنفوخة في آدم (تك٢: ٧). والذي ليس له أعمال جسدانية لا يقدر أن يقتني العمل النفساني؛ لأن الثَّانِي يتولد من الأَوَّل كما تتولد السنبلة من الحبَّة المجردة. ومَن ليس له العمل النفساني قد عَدِمَ المواهب الرُّوحانية. لأن الأتعاب والأحزان الزمنية من أجل الحق لا تُقاس بالنعيم المعدّ للعاملين بالفضيلة (رو٨: ١٨). كما أن أغمار السرور تتبع باذري بذار الدموع (مز١٢٥: ٥)، هكذا الفرح يتبع الأتعاب والأعمال من أجل الله. والخبز الذي من العرق يلذُّ للفلاح، وهكذا الأعمال التي من أجل البر تبهج القلب الذي قد قَبِل معرفة المسيح.

٤ – اصبر على المحقرة والاتضاع بفكر وقصد الفضيلة لكي تفوز بدالة القلب عند الله. كل كلمة صعبة قاسية يحتملها الإنسان بمعرفة بدون ذنبٍ (أساء به إلى مخاطبه)، فإنه في ذلك الوقت يقبل على رأسه إكليلَ شوكٍ من أجل المسيح، وطوباه لأنه في وقتٍ لا يشعر به يُتوَّج بتاجٍ لا يلمّ به فساد.

٥ – الهارب من التشرُّف (أي التكريم) بمعرفة، هذا قد أحسَّ في ذاته برجاء العالم المزمع. من قال إنه قد ترك العالم، وهو مع ذلك ينازع الناس في شيء ما، لئلا يعوزه شيء من راحته، فهو ضرير بالكلية؛ لأنه قد ترك الجسم كله بإرادته، بينما هو يخاصم ويناقض من أجل عضو وَاحِد من أعضائه.

٦ – والهارب من الرَّاحَة الحاضرة، هذا قد لاحظ عقلُهُ العالمَ المزمع. أمَّا المرتبط بحب القنية فهو عبدٌ للآلام. ولا تظن أن اقتناء الذهب والفضة هو فقط حب القنية، بل وكل ما تعلقت إرادتك بشهوته. ولا تمدح الذي يتعب بجسده بينما هو ينحلُّ ويطمح بحواسه، أي السمع وانفتاح الفم وعدم انضباط اللسان وطموح العينين.

٧ – إذا وضعت على نفسك أن تتدبر بأفعال الرحمة، فعوِّدها أن لا تلتمس العدل في أمور أخرى، لئلا تكون بمنزلة من يعمل بيدٍ وَاحِدة ويفرِّق بالأخرى؛ لأنك أنت مضطر هناك إلى الشفقة، وأمَّا هنا فإلى سعة القلب. واعلم أن الصفح عن ذنوب المذنبين إلينا ليس هو عمل العدل؛ حينئذ ستعاين سلأمًّا يسري في فكرك من كل ناحية. أي أنك إذا كنتَ تتدبر في طريقك فوق الواجب والعدل، حينئذ ستقترن بالحرية في كل أمرٍ.

٨ – قال أحد القديسين في هذا المعنى: «إن الرحيم إنْ لم يكن عادلاً فهو أعمى». أي أنه ينبغي له أن يمنح الآخرين مما تعب فيه بنفسه واكتسبه بالعدل لا مما اقتناه بتوسط الكذب والجور والتحايل. وقال أيضاً في موضع آخر: «إن كنتَ تؤثر أن تزرع في (حقل) المساكين فازرع مما يخصَّك؛ لأنك إن زرعتَ من بذار الآخرين، فاعلم أن ذلك أمرٌ من الزوان».

٩ – وأنا أقول إنه إن لم يرتفع الرحوم فوق العدل فليس برحيمٍ. أعني أنه لا يعطي فقط الناس مما يخصه، بل ويكون ذلك بفرحٍ واغتباطٍ، صابراً على ظلم قومٍ ثم محسناً إليهم. فإذا ما غلبتَ العدل بالرحمة، حينئذ تتكلل، لا بأكاليل أبرار الشريعة (أي الناموس)، بل بإكليل الكاملين في الإنجيل. لأن إعطاء المرء للمساكين مما يخصه وإلباسه للعاري ومحبته للقريب كذاتِهِ وألا يظلم ولا يكذب، أمور قد أتى بها الناموس القديم. أمَّا كمال بشارة التجسد فيأمر قائلاً: «الآخذ ما لك لا تلتمسه منه، وأَعْطِ كل من سألك». وليس ينبغي لك فقط الصبر على الجور من جهة المقتنيات وبقية الأمور التي تأتي عليك من الخارج، بل وأن تبذل النفس من أجل الأخ. لأن هذا هو الرحيم، وهو ليس الذي يرحم أخاه بما يعطيه له فقط، بل هو من رأي أخاه محزوناً أو سمع أنه كذلك، فالتهب قلبه؛ هذا هو رحيم بالحقيقة. ومثل هذا أيضاً من لطمه أخوه فلم يُقْدِم على إجابته بكلمةٍ، ولم يحزنه بشيء.

١٠ – أكرم عمل السهر لتجد عزاءً قريباً في نفسك. ثابر على القراءة في الهدوء لكي يُرشَد عقلك دائماً في أعاجيب الله. أحبب المسكنة بتجلٍّ لتجمع فكرك من التشتت. امقت الاتساع لكي تُصان أفكارك من الاضطراب. انقبض (أي ابتعد) من المحادثة مع كثيرين واحمل همَّ تَدْبِيرك وسيرتك لكي تخلص نفسك من تشتت هدوئها الداخلي.

١١ – أحبب العفة حتى لا تخزى في وقت صلاتك قدام (المسيح) واضع جهادك. اقتنِ نقاوةً في تَدْبِيرك لكي تنير نفسك في وقت صلاتك، وبذكر الموت يشتعل السرور في فكرك. تحفَّظ من الصغيرات لئلا تقع في الكبيرات. لا تكسل من الأعمال حتى لا تخزى إذا ما مثلت وسط رفقائك. لا تكن بغير زاد لئلا يتركك خلاّنك وحدك وسط الطريق ويمضوا. اصنع عملك بمعرفة وتمييز لئلا تتعطل وتتخلف عن سيرك كله. اقتنِ حرية في تَدْبِيرك لتنعتق من الخباط (أي القلق). لا تربط حريتك بأسباب الرَّاحَة لئلا تصير عبداً للعبيد. أحبب الثياب الزرية الحقيرة لكسائك لكي تنبذ الأفكار التي تعظِّم القلب بالتيه والصلف؛ لأن محب الثياب اللامعة لا يقدر أن يقتني أفكاراً متضعة؛ فالقلب بالضرورة يتشكَّل من الداخل حسب الأشكال التي من خارج.

١٢ – من ذا الذي أحبَّ الهذيان (أي الثرثرة) فقَدِرَ أن يكون ذا فكرٍ عفيف؟ من ذا الذي يتحايل أن يتصيَّد التكريم من الناس ويمكنه أن يقتني أفكاراً منسحقة؟ من ذا الذي يكون فاسقاً ومنحل الأعضاء ويمكنه أن يكون طاهر العقل متضع القلب؟ لأنه متى انجذب العقل مع الحواس، أكل معها غذاء الوحوش (أي الأوجاع). أمَّا إذا انجذبت الحواس مع العقل فهي تتناول معه طعام الملائكة.

١٣ ــ المجد الفارغ هو خادم الزنا إذا ما تدبَّر (الرَّاهِبُ) بالعظمة، أمَّا الاتضاع فيتبعه النسك والانقباض. المجد الفارغ يتبعه الانفساح (أي السِّعة) والتيه (أي العُجب)، أمَّا الاتضاع الذي من الانقباض الدائم فيقود إلى التاؤريات ويسلِّح القلب بالعفة. المجد الفارغ، من مداومة طياشة الفكر بسبب مصادفة الأمور، يكنز ذخائر سمجة ويدنس القلب؛ فينظر طبائع الأمور بنظرٍ فاسق، ويلهب العقل بأفكار نجسة. أمَّا الاتضاع فبتاؤريتها (أي بتأمل طبائع الأمور) ينقبض انقباضاً روحانياً، ويحرك مقتنيه على التسبيح والتمجيد.

١٤ ــ لا تقايس صانعي الآيات والمعجزات والقوات في العالم بالساكتين بمعرفة في الهدوء. أحبب بطالة السكوت أكثر من إشباع جياع العالم، ورَدِّ أمم كثيرة إلى السجود لله تعالى. لأن الأفضل لك أن تفك ذاتك من رباط الخطية من أن تعتق عبيداً من عبوديتهم، ومن سجن أَسرهم. اصطلح أنت مع ذاتك باتفاق الثالوث الذي فيك، أعني الجسد والنفس والرُّوح، أكثر من أن تصالح المتغاضبين بتعليمك. لأن الثاؤلوغوس يقول: «حسن هو الكلام عن (أمور) الله تعالى من أجل الله، وأجلّ من هذا أن يطهِّر الإنسان ذاته لله سبحانه». الأصلح لك أن تكون قليل الكلام، مع أنك عالمٌ ومحنَّك وذو معرفة من تجربة الأشياء بداخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع حدِّة عقل من اكتساب السماع (وقراءة) الأسطر. الملائم لك أن تهتم بإقامة ميتوتة نفسك من الآلام إلى الحظوة بالله، أكثر من إحيائك أمواتاً.

١٥ ــ كثيرون صنعوا قواتٍ، وأقاموا أمواتاً، وتعبوا في ردِّ ضالين وعملوا أعاجيبَ عظاماً، وكثيرون اهتدوا على أيديهم إلى معرفة الله. وبعد هذا، هؤلاء الذي أحيوا آخرين، سقطوا في آلام نجسة مرذولة وأمَّاتوا نفوسهم، وصاروا شكاً للذين آمنوا على أيديهم بما ظهر من انقلاب عملهم أخيراً. لأنهم كانوا مرضى النفوس، ولم يهتموا بإيراد الصحة عليها، بل انصبُّوا إلى بحر هذا العالم رغبةً في أن يعالجوا نفوس آخرين، وهم بعدُ مرضى، فأهلكوا ذواتهم وخابوا من رجاء الله تعالى، كما ذكرتُ. لأن ضعف الحواس لا يقدر على ملاقاة لهيب الأمور التي من شأنها أن تزيد من ضغط الآلام على الذين هم بعدُ محتاجون إلى التحفظ والاحتراس، أعني أن لا ينظروا نساء، ولا يلتمسوا نياحاً، ولا يقتنوا مالاً أو أثاثاً، ولا يرأسوا آخرين، ولا يترفعوا على أقوام آخرين.

١٦ ــ الأوفق لك أن يُظنَّ بك أنك من الجهَّال لقصور معرفتك عن الجواب والاحتجاج، لا أن يُعتقد فيك أنك من الحكماء لأجل التوقح. كن فقيراً من أجل الاتضاع ولا تكن موسراً بسبب التوقح. وبِّخ المجادلين بقوة فضيلتك لا بالكلام، والطامحين بحواسهم بهدوء شفتيك وعفة عينيك المنقبضتين إليك بهدوء. خجِّل الفَسَقة بعفة سيرتك وليس بالكلام.

١٧ ــ اِحسب نفسك غريباً كل أيام حياتك وحيثما توجهتَ؛ ليمكنك أن تتخلص من الخسارة التي تتولد من الدالة. تصوَّر ذاتك في كل وقتٍ أنك لا تعرف شيئاً، ليمكنك أن تنجو من الملامة الناجمة فيك من الظن أنك كفؤ لتقويم آخرين. بارك دائماً بفمك، فإنك لا تُذمّ من أحدٍ؛ لأن المذمة تولِّد مذمة، والبركة تُحدث بركة.

١٨ – اِعتقد أنك مفتقر في كل أمر إلى التعليم، فستكون حكيماً مدة حياتك كلها. لا تسلِّم لأحد شيئاً لم تحكمه، ولا تَدْبِيراً لم تصل إليه بعدُ، حتى لا تخزى في ذاتك ويتبين كذبك من قياس سيرتك. إذا ما فاوضت إنساناً في أمرٍ من الأمور النافعة أو في أشياء واجبة، فتحدَّث معه كمتعلِّم لا بتعظم وسلطةٍ وتوقح. وبادر بالحكم على ذاتك، وإقامة البرهان على أنك أدنى منه، وذلك لكي تُري السامعين ترتيب الاتضاع، وتحثهم بزيادة على استماع أقوالك والمسارعة إلى العمل، وتكون مكرَّماً في عيونهم. وإن أمكنك تكلَّم معهم في مثل هذه الأمور ببكاء ودموع لتنفع ذاتك وسامعيك، وتشملك نعمة الله تعالى.

١٩ – إن أدركتَ تفضل (نعمة) الله جل وعز، وأُهِّلتَ للتنعم بتصوُّر برايا الله المنظورة، الذي هو أول عمل المعرفة، فأعدَّ نفسك وسلِّحها مقابل روح التجديف. ولا تمكث في هذه البلدة بغير سلاح، لئلا يميتك سريعاً المتربصون المضلون إياك. وليكن سلاحك الدموع والصَّوْم مع السجود المتواصل. وتحفَّظ من قراءة الكتب التي تفرز تعاليم وآراء المخالفين، فإياك الدنو منها؛ لأن هذا الأمر هو الذي ينهض (ويسلِّح) بالأكثر روح التجديف عليك. إذا ملأت بطنك فلا تتوقح وتُقْدِم على شرح أو فحص شيء من الإلهيات، لئلا تندم فيما بعد. اِفهم ما أقوله لك: إن علم أسرار الله، سبحانه، لا توجد في جوفٍ ملآن.

٢٠ – اِقرأ دائماً من غير شبع في كتب أناس نيِّرين التي تتكلم عن سياسة الله، سبحانه، والتي تُظهر اختلاف أعماله في خليقته ومعرفة طبائع العالم، لَيْتَقوى منها عقلك، وتقتني حركات نيِّرة مضيئة من دقة معانيها، ويسير فكرك بطهارة إلى التمعن في خلائق الله جلّ اسمه، ومعرفة قصد خلقة هذا العالم حسب حكمة فكر خالق الطبائع.

٢١ – اِقرأ أيضاً في الجديدة والعتيقة، العهدين اللذين وضعهما الله تعالى لمعرفة المسكونة كلها، لكي تتزود من قوة عنايته في كل الأجيال، ويَلِج (أي يدخل) قلبُك إلى عجائب الله، سبحانه؛ لأن هذه القراءة تلائم قصدك.

٢٢ – لتكن قراءتك في هدوءٍ من الكل، واعتق ذاتك من فرط الاهتمام بالجسد ومن اضطراب الأمور، حتى تذوق في نفسك مذاقةً لذيذةً بأفهام حلوة تفوق الحواس، وتحس بها نفسك بمداومتها بهذه الأفهام.

٢٣ – لا تكون أقوال المحنكين بالتجربة (أي ذوي الخبرة) عندك بمنزلة أقوال الأفَّاكين بائعي الكلام الذين يصرِّفون الأقوال الإلهية إلى غير وجهها؛ لئلا تمكث في الظلام إلى نهاية حياتك، وتُحرم من فائدتها، وتنزعج في وقت القتال انزعاجَ مضطربٍ، وتقع في هوَّةٍ وحفرةٍ بحجة أنه وجه حق.

٢٤ – لتكن لك هذه العلامة في الأمور التي قربت من الدخول فيها داخل ذلك البلد: إذا ابتدأت النعمة أن تفتح عينيك لتحسَّ بجوِّ إدراك الأمور إدراكاً حقيقياً، حينئذ تبدأ عيناك في سكب الدموع الغزيرة حتى أنها على أكثر الأمر تبلّ الخدين بكثرتها. وفي الوقت تسكن حرب

الحواس، وتنقبض بلذَّة داخل منك. إن علَّمك إنسانٌ ما يضاد هذه الأمور فلا تثق بقوله، فغير الدموع لا تطلب من الجسد دليلاً واضحاً على الإحساس بالحق بعلامة ظاهرة إلا الهدوء فقط من انفعال الأعضاء. أي أنه إذا ارتفع العقل عن الكائنات، عند ذلك فالجسد أيضاً تزول منه الدموع وكل حركة وإحساس ما خلا حياته الطبيعية. لأن تلك المعرفة لا تتنازل أن تأخذ معها مشاركة ولا تستعير – بنظر العقل – شيئاً من أشكال هذا العالم المحسوس. «إن كان بالجسد أو بغير جسد لا أعلم، الله هو العارف»، وإنه سمع «كلأمًّا لا يُنطق به». كل ما يُسمع بالآذان يمكن أن يُنطق به. فهو لم يسمع بصوت محسوس ولم ينظر بأشكال متجسمة بالحسِّ، بل بحركة الفكر بانخطافه من الجسد، وليس بمشاركة الإرادة. فالشيء الذي لم تنظر عينٌ مثله، ولا سمعتْ أذنٌ قياسه، ولا تخيَّل القلب شبه منظره لكي يتصور فيه تذكار أنواع معرفته، هذا الشيء هو الذي أعده الله لأنقياء القلوب بميتوتهم من العالم. فهو ليس منظراً جسدانياً تُقبل معرفة خصائصه بأعين جسدانية، ولا خيالات مستعارة تتصور في الفكر، بل بسهوة (أي بدهش) تاؤرية المعقولات بالتصديق المحق، أمراً يفوق القياسات والتقسيمات المعروفة التي توضح أيقونات (مركّبة) من العناصر.

٢٥ – حسب قوة نظرك اِشخص قبالة قرص الشمس لكي تتنعم بشعاعات إشراقه فقط ـــ، وليس لتفحص سرعة مسار فلكه، لئلا يسلب منك النظر القياسي (أي العادي المحدود). فإذا ما وجدتَ عسلاً كُلْ منه بمقدار معتدل، لئلا تتقيأ عند الامتلاء.

٢٦ – إن طبيعة النفس خفيفة (لا وزن لها)، فربما تشتاق أن ترتقي وتعلم ما فوق طبيعتها. والدليل على ذلك أنها قد تدرك أمراً ما من قراءة الكتب ومن تصور الأمور، فإذا ما قايست ما قد وصلت إليه من معرفتها بما قد أدركته (بالفعل)، فإنها توجد ناقصة وحقيرة بحسب مقدار تَدْبِيرها، حتى أن الخوف والوجع يُلمَّان بأفكارها، فتحرص على الرجوع إلى ورائها من الخوف، إذ هي بمنزلةِ متوقحةٍ على أمور نورانية تفوقها، ويقمعها الجُبن لأجل مهابة تلك الأمور. ويشير الإفراز على عقل النفس بالصمت وترك التوقح، وألا تطلب ما فوقها ولا تفحص عن الموجودات التي هي أعلى منها، لئلا تهلك.

٢٧ – إذا ما أُنعم عليك بالمقدرة على الإدراك والتصور، فتصور ولا تتوقح على الأسرار، بل اسجد ومجِّد واشكر بسكوتٍ غير المدرَك؛ لأنه أظهر لك ما يفوق مقدارك، ولا تتصعب في بقية أعماله. لأنه كما أنه ليس بمحمود أكل الكثير من العسل، هكذا أيضاً ليس من الصواب الفحص عن الأقوال العالية الشريفة، لئلا إذا أردنا أن ننظر (أي نتأمل) لمدة طويلة ولم نصل بعد إلى قرب إدراكها، لأجل خشونة الطريق، تضعف قوة الصلاة الناظرة وتتأذّى. لأنه ربما شوهدت الخيالات بدلاً من الحق. فإذا ضجر العقل من البحث ينسى قصده (أي هدفه). فقد أحسن إذاً سليمان في قوله: «إن الإنسان الذي ليس بصبور يشبه مدينة لا سور لها».

٢٨ – ما هي الضرورة التي تلجئنا أن نجول السماء والأرض لنبحث عن الله، وأن نطوف بعقلنا وراءه في الأمَّاكن؟ طهِّر نفسك، أيُّها الإنسان، وأَزِلْ عنك ذكر اهتمام الأمور الخارجة عن

الطبيعة، وهذيذ التذكارات البرانية، وعلِّق ستر العفة والاتضاع على باب حركات ذهنك؛ فإنك بتوسط هؤلاء تجد الله داخلك. والدليل على ذلك أن الأسرار تنكشف للمتواضعين.

٢٩ – إن كنتَ قد أعطيتَ نفسك للصلاة المطهِّرة للعقل، ولمداومة سهر الليالي لتقتني فكراً نيِّراً، فأبعد ذاتك عن نظر العالم، واقطع مفاوضة المحادثات، ولا تستجز إحضار الأصدقاء إلى قلايتك، ولا ذوي الألفة، ولا بقصد الفضيلة أيضاً، بل المماثلين إياك والذين يشاركونك في الطريق والأغراض والفهم. ومع هذا اِحذر من تشويش المفاوضة النفسانية التي من شأنها أن تتحرك كرهاً في الخفاء دون أن نشاء نحن. ومن بعد انقضاء المحادثة البرانية، اِقرن صلاتك بالفضائل والصدقة لتنظر نفسُك شعاعَ الحق. لأنه بمقدار ما يهدأ القلب من الأمور والتذكارات التي من خارج، يقبل العقل الدهش من (تصور معاني) الأقوال الإلهية. فمن شأن النفس أن تستبدل (بسهولة) محادثة بمحادثة، إذا ما اجتهدنا أن نُظهر اهتماماً يسيراً (وصبراً). فلكي تستبدل محادثة بأخرى (أي تنتقل من الأحاديث النفسانية إلى الإلهية)، اعكف على قراءة الكتب التي تُظهر لك دقة طرق التَدْبِير والتاؤريا، وعلى فهم سير وتَدْبِير القديسين، وإن لم تحس في البداية بحلاوتها بسبب الأفعال والتكدر التي تكون من التذكارات القريبة العهد.

٣٠ – وإذا ما نهضتَ إلى الصلاة والقانون، فعوض الهذيذ بالأمور العالمية، يرتسم في فكرك الهذيذ الذي من الكتب، وبهذا الهذيذ يُمحى من نفسك ذكر الأشياء التي نظرتها وسمعتها من قبل. ويبتدئ بعد ذلك عقلك بالطهارة. وهذا هو معنى المكتوب: «إن النفس تُعان من القراءة إذا ما مثلت في الصلاة»، وأيضاً: «تستنير في الصلاة من القراءة». أي أنه عوض الطياشة في الأمور الخارجية تزوِّد القراءةُ النفسَ بمادةٍ لمختلف أنواع الصلاة: هي أفهام حقيقية تتصور بالفكر من التذكارات المدهشة لما قرأتَه. وكم من وقت يصمت (الفكر) بالذهول من الصلاة، وتقيمه تلك القوة التي من تاؤرية الكتب بغير حركة! وفي هذه الأوقات لها عادة أن تقطع حتى الصلاة بسبب الحلاوة التي تكلمت عنها، وتُلقي على القلب هدوءًا وسكوناً، وتُسكت حركات العقل بتخلف وانحلال أعضاء النفس والجسد أيضاً. ويعرف ما أقوله أولئك الذين أخذوا تجربة (أي اختبروا) هذا الأمر في أنفسهم، وحصلوا داخل هذه الأسرار، وليس من تعليم آخرين ولا اختطافاً من الأسطر التي من شأنها في أوقات كثيرة أن تكذِّب الحق.

٣١ – ما أقبح بفاسقي الأجسام وذوي الشره ومحبي البطن أن يفحصوا أو ينظروا في الأمور الرُّوحية مثلما هو قبيحٌ وسمجٌ بالزانية أن تتحدث عن العفة. الجسد الضعيف جداً يأبى السمين من الطعام، والنية تنفر وتلوي عنه، والعقل المملوء من العالم ومحادثاته والمضطرب بأموره، ما يقدر أن يدنو من الفحص عن الأمور الإلهية. النار لا تشتعل في حطبٍ رطب، والحرارة الإلهية لا تشتعل في قلبٍ يودُّ الرَّاحَة والحديث. الزانية لا تصرف محبتها إلى شخصٍ وَاحِد فقط، والنفس المرتبطة بأمور كثيرة لا تدوم أمَّانتها للتعاليم الإلهية. كما أن الذي لم يعاين الشمس بعينيه لا يقدر أن يصف لإنسانٍ ما هو ضوؤها، ومن السماع وحده لا يقدر أن يتخيل نورها في فكره، ولا يستطيع أن يأخذ له شبهاً في نفسه لكي يحس ببهاء شعاعها، هكذا الحال

مع الذين لم يذوقوا في نفوسهم حلاوة الأعمال الرُّوحانية، ولا استحقوا من سيرة تَدْبِيرهم أن يقتنوا خبرة بالأسرار الرُّوحية، بل اتخذوا في فكرهم تشبيهات للحق من تعليم الناس ومن الدربة في قراءة الكتب. هؤلاء لا يمكن أن يقتنوا في نفوسهم اقتناعاً حقيقياً وإدراكاً صحيحاً لحقيقة الشيء.

٣٢ – إن كان لك شيء يفضل عما تحتاج إليه في يومك أَعْطِهِ للمساكين، وهلم بدالة قدِّم صَلَوَاتك، أي تحدث مع الله تعالى كما يتحدث الابن مع أبيه. لأنه ليس شيء يقدر هكذا أن يقرِّب القلب إلى الله مثل الرحمة، ولا أمر من الأمور يصنع هدوءًا في العقل مثل المسكنة الاختيارية.

٣٣ – الأفضل لك أن يدعوك الأكثرون عاميّاً لأجل بساطة يدك في العطاء بغرض مخافة الله وليس لطلب مدحه؛ ولا يدعونك حكيماً رزين العقل لأجل عدم اضطرابك مع كل أحد (أي بالشُّح في العطاء). إن مدَّ إليك فارسٌ يده طالباً منك صدقةً، فلا تردَّه؛ لأنه في ذلك الوقت يكون محتاجاً بالفعل كوَاحِد من الضعفاء. وإذا أعطيته فليكن ذلك بطيب نفس وانشراح وجه، وأَعْطِهِ أكثر مما طلب، لأنه يقول: «أرسلْ خبزك على وجه المياه وستحظى بالمجازاة بعد زمانٍ كثير». لا تفرِّق بين غني وفقير، ولا تؤْثر أن تعرف المستحق من غير المستحق، بل ليكن الناس كلهم بالسواء عندك في عمل الخير. لأنك بهذا الأسلوب تقدر أن تجتذب إلى الخير حتى الذين ليسوا بمستحقين؛ لأن النفس تنجذب سريعاً من الجسدانيات إلى مخافة الله تعالى. والدليل على ذلك أن الرب، تقدس اسمه، شارك في موائد عشارين وزواني، ولم يفرز الذين ليسوا بمستحقين حتى يجتذب الكل بهذه الطريقة إلى مراقبة الله تعالى، ولكي بالشركة في الجسدانيات يقرِّبهم للشركة في الرُّوحانيات. ولهذه العلة ساوِ أنت بين جميع الناس في الخير والكرامة. فلا توبِّخ إنساناً قط، واحرص أن يكون الناس كلهم عندك بالسواء، يهودياً كان أو قاتولاً أو كافراً، لا سيما أنه أخوك في الطبيعة، وإنما قد ضلَّ من الحق لعدم العلم.

٣٤ – إذا صنعتَ مع إنسانٍ ما جميلاً فلا تتوقع منه المكافأة قريباً، فسيجازيك الله، سبحانه، عن الأمرين كليهما. وإن أمكنك فاصنع ذلك ليس من أجل المكافأة المزمعة بل لكي تتفاضل بزيادة في محبة الله. لأن درجة الحب غويصة هي وأفضل جداً من العمل لأجل المكافأة، والحب يتفوق بسرِّه أكثر من فعل الخير كتفوق النفس على الجسد.

٣٥- إن وضعتَ في نفسك أن تعيش بالمسكنة فستنعتق، بتفضل الله تعالى، من الهموم وتصير بمسكنتك أعلى من العالم. فإياك أن تحب القنية من أجل محبة المساكين، لئلا تكون صدقتك من هذا الوجه، فتلقي نفسك في خباط (أي اضطراب) إذ تأخذ من وَاحِد وتعطي آخر، وتبيد كرامتك بخضوع الطلب من الناس، وتخيب من حسبك وتعدم حرية فكرك باهتمامك بالأمور العالمية؛ لأن منزلتك هي أعلى من منازل المحسنين. وأنا أسألك ألا تنخدع؛ فإن الرحمة مشابهة لتربية الطفل، وأمَّا السكوت فهو غاية الكمال. فإن كانت لك مقتنيات فرِّقها مرةً وَاحِدة، وإن لم يكن لك فلا تؤثر أن يكون لك. أزلْ من قلايتك كل وسائل التنعم والأشياء الزائدة؛ لأن هذا يقودك إلى النسك وإن لم تشأ. لأن العوز في كل شيء يعلِّم الإنسان الإمساك؛

لأننا إذا تمكَّنا من (اقتناء) الأشياء وتوسَّعنا في ذلك، فلا نقدر على إمساك ذواتنا.

٣٦ – الظافرون في الحروب الخارجية إنما يتشجعون (تجاه) الخوف الذي من الداخل. ولا شيء يمكن أن يجتذبهم كرهاً وعن اضطرار إذا ما ضُيق عليهم بالقتال الذي من قدام ومن وراء. وأشير بالقتال إلى الحرب التي يثيرها الإنسان على نفسه بجهالة من خلال الحواس ومن التواني: أي من الأخذ والعطاء والنظر والسمع والكلام وشره البطن، ومن كثرة الأعمال المتزايدة التي يضعها على نفسه، تلك الأمور التي تجلب على النفس العمى. ذلك لأن النفس، بسبب الاضطراب الذي يلاقيها من الخارج، لا تقدر أن تتأمل ذاتها في الحروب المتحركة عليها خفية. أمَّا في السكوت والهدوء، فهي تقدر على الفتك بما يتحرك ضدها من الداخل. لأن الإنسان إذا ما أغلق أبواب المدينة، أي الحواس، عند ذلك يحارب في الداخل وجهاً مقابل وجه، دون أن يخاف من الكمين الذي من وراء المدينة.

٣٧ – مغبوط هو الإنسان الذي يعرف هذه الأمور ويلازم السكوت والهدوء، ولا يكثر لنفسه الأعمال، بل ينقل كل الأعمال الجسدانية إلى عمل الصلاة، وإن أمكنه لا يشارك مع عمل الله – الذي هو الصلاة وقراءة الكتب وخدمة المَزَامِير – شيئاً آخر من الأشغال، واثقاً أنه بمقدار ما يعمل مع الله عزّ وجلّ، ويصرف كل اهتمامه إليه ليلاً ونهاراً، لن يعوزه شيء مما تدعو إليه الحاجة الضرورية؛ لأنه من أجل الله قد امتنع من العمل. وإن كان إنسان لا يقدر أن يحفظ السكوت دون عمل اليد، ولا أن يثبت في القلاية، فليعمل بيده ويستعِن به ولا يُفرِط فيه رغبة في الربح والكسب. لأن هذه وصية ثانية هي، وليست لازمة، فعمل اليدين موضوع برسم الضعفاء، أمَّا الكاملون فإن ذلك مزعج لهم. لأن عمل اليدين يعتبرونه معوِّقاً ومعطِّلاً لتذكار الله. والآباء قد رسموا العمل للمساكين والضجورين، لا على أنه أمر ضروري.

٣٨ – في الوقت الذي يخشِّع الله قلبك من الداخل، ثابر على السجود والميطانيات متواتراً. وإذا ما ابتدأ الشياطين أن يقنعوك أن تشتغل بأمور أخرى، لا تدع عقلك يهتم بأي شيء. حينئذ انظر وتعجب مما هو عتيد أن يتولد لك منها. لا تعتبر شيئاً من الأعمال أفضل من أن يُلقي الإنسان ذاته قدام صليب المسيح ليلاً ونهاراً ويربط يديه إلى وراء (مثل مذنبٍ). أتؤثر أن لا تبرد حرارتك وتجف مدامعك؟ كن ملازماً لها. وطوباك، أيُّها الإنسان إن اهتممت بالمقولات لك ليلاً ونهاراً ولم تطلب معها شيئاً آخر. عندئذ يشرق النور لك من الداخل كالصبح، ويلمع برُّك سريعاً، وتصير كالفردوس المزهر وكمَعِين ماءٍ لا ينتقص.

٣٩ – تأمل أية خيرات تتولد للإنسان من الجهاد! فما أكثر ما يوجد الإنسان جاثياً على ركبتيه في الصلاة، ويداه ممدودتان إلى السموات، وهو شاخص بوجهه إلى صليب المسيح، وجامع كل حركاته وفكره إلى الله في الصلاة. وبما أنه متوسل إلى الله (بانسحاق ودموع)، يتفجر في قلبه ينبوع حلاوة: وتنحلُّ أعضاؤه، وتنغمض عيناه، ويلفت وجهه إلى الأرض، وتتبدل أفكاره، حتى أنه لا يقدر أن يسجد من الفرح الموجود في جسده كله.

٤٠ – تأمل، أيُّها الإنسان، ماذا تقرأ. ألعلَّ من قراءة الأسطر يعرف الإنسان هذه الأمور؟ أو أن مذاقة العسل تعبر في فم القارئ من غير عمل؟ لأنك إن لم تجاهد ما تجد، وإن لم تدق الباب دائماً بحرارة وتواصل السهر فلن يُسمع منك. مَن ذا الذي يسمع هذه الأمور فيشتاق إلى البرِّ الخارجي؟ غير أنه يوجد من لا يقدر على الصبر في السكوت والحبس في القلاية، وهو منحل وحواسه سائبة بالخلطة مع كل أحد، ولكن على كل حال إن لم يقدر على إحكام ذلك – لأن وجود الإنسان داخل الباب إنعام من الله – فلا يتخلف عن الطريق الأخرى (أي الشركة) لئلا يعدم طريقي الحياة كليهما.

٤١ – ما لم يمت الإنسان الخارجي من أعمال العالم، لا من الخطية فقط بل ومن كل عمل جسداني، وما لم يمت الإنسان الداخلي أيضاً من الأفكار والتذكارات الخبيثة وتضعف حركة الجسد الطبيعية حتى أن حلاوة الخطية لا تتحرك بعدُ في القلب: فحتى ذلك الحين لا يفعل روح الله حلاوته في حياته، ولا تظهر في أعضائه الحياة، ولا يعاين في نفسه المعاني الإلهية. وما لم يعطل الإنسان كل اهتمام بالأمور العالمية، ما خلا حاجة الطبيعة الضرورية، ويعتمد على الله تعالى في الاهتمام بذلك: لا يتحرك فيه السكر الرُّوحاني، ولا يحس بذلك الذهول الذي كانوا يعيرون به الرسول: «إن قراءة الكتب الكثيرة جعلتكَ تخرِف يا بولا».

٤٢ – ولم أقل هذه الأمور قاطعاً للرجاء، أي أنه إن لم يبلغ الإنسان إلى نهاية الكمال فلن يؤهَّل لنعمة الله، ولن يحظى بالعزاء. لأنه من الحق الواضح أن الإنسان إذا ما رذل وترك عنه الشرور وابتعد من كل المحادثات الباطلة ولحق بالأشياء الجيدة، فهو في زمان قليل سوف يحسُّ بالمعونة. وإن هو جاهد قليلاً يجد عزاءً في نفسه، ويحظى بغفران الخطايا، ويؤهَّل للنعمة، ويقبل خيرات كثيرة. ولكنه ناقص جداً بالقياس بكمال ذاك الذي قد عزل ذاته من العالم، ووجد في نفسه أسرار السعادة التي في ذلك العالم العتيد، وأدرك ذلك الشيء الذي من أجله جاء المسيح. الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصالح والرُّوح الْقُدُس إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.

المَيْمَر الثَّانِي

في الابتعاد عن العالم وعن كل ما يعكر الذهن

١ – إنَّ الله، تبارك اسمه، قد تفضل على الناس بكرامة جزيلة بالعلم المتضاعف الذي أعطاه لهم. فهو من كل النواحي قد فتح للإنسان باباً لكي يدخل منه إلى المعرفة (المخلِّصة). فاطلب من الطبيعة شاهداً صادقاً على نفسك، فلستَ تضلّ. وإن كنتَ قد خرجتَ من هناك (أي خارج الطبيعة)، فتعلَّم من الشاهد الثَّانِي (أي الكِتَاب المقدس)، وهو يدلّك على الطريق التي تهتَ عنها.

٢ – العقل الطائش لا يقدر أن ينجو من النسيان، والحكمة لا تفتح بابها لمثل هذا. مَن استطاع أن يدرك بمعرفة ثاقبة إلى أي مساواة تبلغ نهاية كل الناس، فلن يفتقر إلى معلم آخر يعلِّمه الابتعاد والهجر لأمور العالم.

٣ – الناموس الأَوَّل الذي أعطاه الله تعالى للإنسان من قديم هو تصوُّر طبائع برارياه. أمَّا الناموس المكتوب فقد وُضع بعد المخالفة.

٤ – الذي لا يُبعد ذاته من أسباب الآلام طوعاً تجذبه الخطية كرهاً. وهذه هي علل الخطية: الخمر، النساء، الغنى، وصحة الجسد. وهذه ليست بطبيعتها خطية، بل إن الطبيعة (بسبب ضعف الإنسان) باستعمالها إياها بغير ناموس تنثني بسهولة إلى خطايا كثيرة، ويتسخ بها الطبع أكثر من كل شيء. ولهذا ينبغي للإنسان أن يجتهد في التحفظ من ذلك. وإن أنت تذكرتَ دائماً ضعفك، فلن تتجاوز حد التحفظ.

٥ – أمَّا عند الناس فإن الفقر مرفوضٌ، وأمَّا عند الله فمنبوذٌ أكثر النفس المترفعة القلب والعقل المتشامخ. الغِنى جليلٌ عند البشر، وأمَّا عند الله فالنفس المتواضعة.

٦ – متى عزمتَ على الشروع في عمل إحدى الفضائل، فأعدد ذاتك نحو التجارب الوافدة إليك لأجل تلك الفضيلة. لا تناقض الحق؛ فإن العدو – خزاه الله – إذا ما رأى إنساناً قد ابتدأ بعمل شيء من الفضائل بسيرةٍ صالحة وأمَّانةٍ حارة، يتلقاه بتجارب مرهبة وعلى ضروب شتى لكي يخيفه، فيبرد حب عزيمته الحميدة، ولا تكون له حرارة تُدنيه من الأعمال الإلهية. ذلك ليس لأن للمعاند مثل هذه القوة، وإلا ما قَدِرَ أحدٌ أن يصنع خيراً بأي حال، بل إنما يتم له ذلك بتسامح من الرب جل وعز، كما علِمنا من خبر أيوب الصديق. أمَّا أنت، أيُّها الإنسان، فأعدد ذاتك إذاً بشجاعة لمصادمة التجارب الملمَّة بالفضائل، وعندئذ ابدأ بعملها. وإن لم تتهيأ لمواجهة المحن والحوادث، ابتعد من عمل الفضائل.

٧ – الإنسان الذي يشك في مؤازرة الله تعالى له في العمل الصالح، يفزع من ظلِّه ويجوع في أوان الخصب، ويكون ذا اضطراب وقلق في أيام السلام. أمَّا الإنسان الواثق بالله فهو قوي القلب، ويظهر شرفه لكل الناس، ويكون مديحه تجاه عينيه.

٨ – إن وصايا الله هي فوق كل كنوز العالم، والذي يقتنيها يجد الربَّ داخله، ويقتني الربَّ مُساكنه. الذي في كل وقت يهتم بذكره وينثني لإرادته، يكون له حافظاً والملائكة السمائيون مرشدين.

٩ – الخائف من الهفوات يقطع الطرق المخوفة من غير عثرة، ويجد تجاهه نوراً في الوقت المظلم. إن الربَّ يحفظ خطوات الخائف من الذنوب، وفي أوان الزَلَق تدركه مراحم الله. من تصوَّر أن زلاته صغار، يقع في ما هو أسوأ منها، ويُقاصصُ سَبْعةً أضعاف. اِزرع صدقاتك بتواضع، تحصد رحمةً في القضاء.

١٠ – الأشياء التي فيها ضيَّعتَ وأتلفتَ الخير، فيها بعينها عاود اقتناءه. وإن كان لله عليك درهم، فلن يقبل منك لؤلؤةً، لأن الدرهم هو الذي يصلح هنا. هل أهلكتَ منك العفة، لا تترك الزنا مكانها وتعطي صدقةً من أجلها؛ فهو لا يقبل هذا منك. فمكان القدس يطلب منك قدساً، أعني أنك إذا أضعتَ العفة فلن يقبل الله منك صدقةً لأنك مقيمٌ على الزنا ولأنه يريد منك طهارة جسدك. وإذ قد تجاوزتَ الوصية فلا تظن أنك قد تركتَ قنية العالم موضعها وأنت تنازع من أجل أشياء أخرى. محبة العالم بالرحمة والتجرد تُقتلع، وأنت قد تركتَ النبات (أي محبة القنية) في موضعه وتقاتل مع آخرين، حسب كلام المعلم الْعَظِيم مار أفرام.

١١ – في وقت الحصاد والقيظ لا تجاهد مع الحر وأنت في ثياب الشتاء! فكل ما يزرعه الإنسان إياه يحصد، وكل مرض يُعالج بالأدوية التي تخصه. وأنت، إن اتفق واستولى عليك الحسد، فلماذا تجتهد أن تحارب النوم؟ بادر إلى قلع الخطية ما دامت هي عشب، لئلا تنمو وتزهر وتغطي الأرض كلها. ولا تتوانى إذا ما ظهرت لك زلّة صغيرة، وإلا فستجدها أخيراً سيداً قاسياً تسير قدامه كعبدٍ مقيَّد. أمَّا الذي يجاهد منذ الابتداء فإنه يتغلَّب عليها بسهولة.

١٢ – من استطاع أن يحتمل الظلم بفرح، مع أنه قادرٌ على الردِّ، فإن هذا قد قبل العزاء من الله محسوساً بإيمانه دائماً به. ومن يصبر على السباب (أي الشتائم) الواردة عليه باتضاع، فقد بلغ الكمال، والملائكة القديسون يفتتنون به تعجباً. لأنه لا توجد فضيلةٌ أشرف من هذه ولا أكبر، وهي عسرة التثقيف.

١٣ – لا تثق بنفسك أنك قوي إلى أن تدخل التجارب فتجد ذاتك غير متغير. هكذا اختبر نفسك في كل أمر. اقتنِ إيماناً مستقيماً في ذاتك حتى تطأ أعداءك. اتضع بفكرك، ولا تعتمد على قوتك، لئلا تُترك في ضعف طبيعتك، وحينئذ تعرف ضعفك من سقطتك. ولا تثق بمعرفتك، لئلا يصيدك العدو بمكره وصنائعه المخفية فتتخبط.

١٤ – اقتنِ لساناً متضعاً، فلا يلمّ بك الهوان بالكلية. اقتنِ شفاهاً عذبة، فسيكون الكل لك أصدقاء. لا تفتخر بشيء من أمورك بلسانك؛ لأنه ليس في الخليقة شيء لا يلمّ به غيار، لئلا يتضاعف خزيك إذا ما وُجدتَ بضد ما افتخرتَ به. لأن كل أمرٍ يفتخر به الإنسان يسمح الله تعالى بتغييره لَيْتَواضع. لذلك ينبغي أن تنسب كل شيء إلى سابق علم الله، ولا تعتقد أن شيئاً

في هذه الدنيا لا يتغير.

١٥ – هكذا كن دائماً، وارفع نظرك إلى الله دائماً؛ لأن عنايته تشمل الكل وتدبِّرهم. وليس أحدٌ ينظر عنايته إلا الذين طهَّروا أنفسهم من الخطية، وهم دائماً يهذُّون به. هؤلاء خاصةً تتبين لهم عناية الله إذا دخلوا في تجربة عظيمة من أجل الحق؛ لأنهم حينئذ يحسُّون بها وكأنهم ينظرونها بعيونهم، كل وَاحِد بحسب قياس التجربة التي تعرض له. وإنما يفعل الله هذا ليشجع المجاهدين، كما جرى مع أيوب ويشوع بن نون والفتية الثلاثة وبطرس وبقية القديسين الذين ظهرت لهم عناية الله تعالى في شكل إنسان، وشجَّعتهم وقوَّتهم على حسن العبادة.

١٦ – فإن قلتَ إن هذه الأمور صارت من الله لأجل السياسة (أي العناية الإلهية) والتَدْبِير، فاستحقَّ هؤلاء بصفةٍ خاصة هذه المناظر، فليكن الشهداء القديسون لك مثالاً على الشجاعة. فهؤلاء جاهدوا على اسم المسيح أفراداً وجماعات في مواضع شتَّى وبطرق متنوعة، وصبروا رغم انحلال قوتهم، وبالقوة الخفية التي كانت تعضدهم احتملوا بأجسامهم الطينية تبضيع الحديد (أي تقطيع الأعضاء) وأصناف العذاب، التي هي أمور فوق الطبيعة. فلمثل هؤلاء أيضاً ظهر الملائكة القديسون، ليعلم كل أحد أن العناية الإلهية توجهت إلى هؤلاء الذين احتملوا من أجله، بكل وجه، كل تجربة وكل ضنك، لتشهر نجابتهم وحميد شجاعتهم وخزي أعدائهم. لأنه بمقدار ما كان القديسون يتقوون بهذه المناظر، كان المعاندون لهم يغتاظون بالأكثر ويتنمَّرون من صبرهم.

١٧ – وماذا ينبغي أن أقول عن النسَّاك الغرباء والمبتعدين (عن العالم)، الذين تدبَّروا في البرية وجعلوها مسكناً للملائكة ومنزلاً؟ فهم دائماً يترددون إليهم، لسبب مساواتهم لهم في العبادة وجميل سيرتهم. وبما أنهم جُنْدُ سيِّدٍ وَاحِد، فقد كانوا يجتمعون بعضهم بالبعض من وقتٍ إلى آخر. هؤلاء هم الذين قد أحبوا البرية كل أيام حياتهم، وجعلوا سكناهم في الجبال والمغاير وشقوق الأرض من أجل محبة الله تعالى. لقد عشقوا السمائيات بقدر ما رفضوا الأرضيات، فصاروا نظراء للملائكة؛ فالملائكة هم أيضاً ماكانوا يخفون أنفسهم عن نظرهم، بل كانوا يظهرون لهم ويعلِّمونهم كيف ينبغي أن يسلكوا ويتدبروا. فهم تارة يوضحون لهم أموراً عسرة الفهم، وتارة يُسلُّونهم. ودفعة يرشدونهم في الطريق إذا تاهوا، ودفعة أخرى يخلِّصونهم من تجارب يقعون فيها. وتارة ينشلونهم بغتة من وسط شدة قد غشيتهم، أي من حيَّات وصخور وشقوق في الأرض وحجارة قد شارفت على الوقوع. وتارة كانوا يظهرون لهم إذا ما جاهدوا العدو في قتالهم، حتى أنهم كانوا ينظرونهم بعيونهم، وكانوا يقولون لهم: «إننا قد أُرسلنا لمعونتكم»، فكانوا يفيدونهم شجاعة وجسارة وعزاء. وأحياناً كانوا يشفون أوجاعاً بتوسطهم، وأحياناً أخرى كانوا يبرئون القديسين (أنفسهم) من آلام قد حصلت معهم. كما كانوا في بعض الأحيان يقوونهم تقوية عجيبة بلمس اليد أو بالقول، إذا ما ضعفت أجسامهم لعدم الغذاء. وأحياناً أخرى كانوا يأتونهم بالخبز، وربما أحضروا لهم ترمساً وأشياء أخرى. وكانوا ينذرون قوماً بانتقالهم، نعم وبجهة وكيفية الانتقال.

١٨ – ولستُ أسهب في الحديث عن محبة اجتماع الملائكة بجنسنا ومراعاتهم للأبرار، نقول ونُجمع: إنهم يهتمون بنا اهتمام الإخوة الأكابر بالأصاغر. وإنما ذُكرت هذه الأمور ودُوِّنت ووضعت لكي يعلم كل إنسان أن الربَّ قريبٌ من كل الذين يدعونه بالحق، ويعرفون مقدار العناية التي يظهرها نحو الذين قد أسلموا حياتهم بيده وتبعوه بكل قلوبهم.

١٩ – إن كنتَ تؤمن أن الله تعالى يهتم بك ويراعي أحوالك، فلِمَ تصرف اهتمامك إلى الأمور الجسدانية الوقتية؟ ولماذا تتحيل في تَدْبِير ذاتك؟ وإن كنتَ متشككاً في كونه يهتم بك ويدبر احتياجاتك، وتظن أنك أنت المهتم بذاتك دونه، فأنت أشقى جميع الناس، ولا حاجة لك في الحياة. أَلْقِ على الربِّ همَّك لتتشجع مقابل كل أمرٍ مخيف يعرض لك.

٢٠ – مَن قد وقف (أي كرَّس) ذاته لله تعالى من أول وهلة، فإنه يتصرف في هدوءٍ من العقل. لا تقدر النفس أن تنعتق من خباط (أي تشويش) الأفكار دون التجرد من القنية، ولا أن تحس بسلامة الفكر دون هدوء الحواس. لن يقدر الإنسان أن يقتني حكمة الرُّوح خلواً من الدخول في التجارب، ولا أن يعلم لطيف الأفكار (أي دقة معانيها) من غير المثابرة على القراءة. والعقل لا يتحرك بالأسرار المخفية خلواً من سلامة الأفكار. والنفس لا تقدر على الإقدام على الأمور المحزنة والتجارب العسرة من غير الثقة التي تكون من الإيمان. والقلب لا يمكنه أن يتكل على الله دون أن يقتني خبرة فعلية بعنايته. وما لم تَذُق النفس الآلام من أجل المسيح بمعرفةٍ، لا تقدر أن تدخل في شركةٍ معه.

٢١ – أعتقد أن هذا هو إنسان الله حقاً: مَن قد أعوز ذاته في كل وقت من الحاجة الضرورية لفرط تحننه. لأن المحسن إلى الضعفاء قد اقتنى الله مهتماً بأحواله. ومَن تفاقر من أجل الله فقد وجد كنوزاً لا تنقص.

٢٢ – إن الله لا يحتاج إلى شيء. ولكنه يبتهج إذا رأى إنساناً ينيِّح صورته (في الإنسان) ويكرمها من أجله. إن طلب منك إنسانٌ شيئاً متوفراً لديك، فلا تَقُلْ في قلبك أحتفظ بهذا الشيء من أجل راحتي، والله يرزقه بحاجته من آخرين؛ لأن هذا القول هو كلام الظالمين الذين لا يعرفون الله سبحانه. لأن الرجل البار الصالح لا يعطي كرامته لآخر، ولا يسمح أن يعبر وقت النعمة (أي فرصة عمل الخير) بغير عمل. فالإنسان الضعيف والمحتاج يرزقه الله، لأنه لا يتخلَّى عن أحد. أمَّا أنت، فبِردِّكَ الضعيف خائباً، تكون قد انثنيتَ (أي تخلَيْتَ) من الكرامة التي كرَّمك بها الله تعالى، وأبعدتَ منك نعمته.

٢٣ – فإذا ما أعطيتَ اِفرح وقلْ: اللهم المجد لك، أشكرك إذ قد أهلتني أن أجد إنساناً أريحه. وإن لم يكن لك ما تعطيه اِفرح أكثر وقلْ: اللهم أشكرك على ما أنعمتَ به عليَّ من هذه الكرامة، التي هي الفقر من أجل اسمك؛ وعلى تأهيلك إياي أن أذوق الحزن الموضوع في طريق وصاياك، وفي المرض والفقر، حسب ما ذاق القديسون الذين سلكوا في هذه الطريق.

٢٤ – وإذا مرضتَ قلْ: لسعيدٌ هو من تأهل للتجربة حسب قصد الله وغرضه بما يأتيه عليه؛ لأنه في هذه الأمور يرث الحياة. ذلك لأن الله إنما يجلب الأمراض لأجل صحة النفس.

٢٥ – قال أحد القديسين: إنه قد ثَبُتَ لي الدليل على أن الرَّاهِبُ الذي لا يخدم الرب خدمة ترضيه، ولا يجتهد في خلاص نفسه، بل هو متهاون في عمل الفضائل، فبكل تأكيد يسمح الله أن يقع في التجارب لئلا يميل إلى الشر لكثرة البطالة. ولهذا السبب يجلب الله التجارب على المتوانين ذوي الكسل والفشل، لكي يهذُّوا فيها دون الأمور الباطلة. وهذا يفعله دائماً مع الذين يحبونه ليؤدِّبهم ويحكِّمهم ويعلِّمهم إرادته. ومتى سألوه لا يستمع منهم سريعاً إلى أن يضعفوا ويعلموا علماً لا يشوبه شك أن ذلك قد عرض لهم من أجل توانيهم وكسلهم. لأنه مكتوبٌ: «إذا ما مددتم أيديكم نحوي، فإني ألفت نظري عنكم، وإن أطلتم الطلب لا أستمع منكم». فمع أن هذا قيل عن آخرين، إلا أنه على كل حال قد كُتب عن الذين يتخلون عن طريق الله.

٢٦ – فإن سأل سائلٌ قائلاً: إذا كنا نقول إن الله تبارك اسمه كثير الرحمة، فلماذا عندما تغشانا التجارب ندق (أي نقرع) ونسأل فلا يسمع منا؟ إن جواب هذا السؤال نستفيده بلا شك من النبي القائل: «إن يد الرب لن تقصر عن أن تخلص وتنقذ، ولا هو بثقيل السمع، لكن خطايانا فصلت بيننا وبينه، ونفاقنا عَطَف وجهه عن الاستماع منا».

٢٧ – اذكر الله دائماً في كل وقت، ليذكرك هو أيضاً إذا ما وقعتَ في شرور. إن طبيعتك قابلة للعوارض؛ وقد خلقك ووضعك في هذا العالم الذي كثرت فيه أسباب العوارض والتجارب. والشرور ليست بعيدة منك، بل تنبع من داخلك، وتجري تحت رجليك ومن الموضع الذي أنت واقف فيه، إذا ما أعطى الله إشارة بذلك.

٢٨ – كما أن الأجفان قريبة من بعضها، هكذا التجارب قريبة من الناس. وهذه الأمور قد دبَّرها الله بحكمة لأجل منفعتك، لكي تثابر على قرع بابه، وبخوف المحزنات يغرس ذكره في فكرك، وتَقْرب منه بواسطة التوسلات، ويتقدس قلبك بمواصلة ذكره. تضرَّع إليه فيسمع منك، لتعلم أن الله هو الذي ينقذك، وتحس بخالقك الذي يقويك ويحفظك، والذي صنع من أجلك عالميْن: وَاحِداً وقتياً بمنزلة المعلِّم والمؤدب، والآخر هو بيتك الأبوي ومسكنك الأبدي.

٢٩ – إن الله لم يخلقك غير قابل للآلام لئلا تشتهي درجة اللاهوت فترث ما ورثه من قبلك الشيطان الذي صار شيطاناً لأجل شموخه فورث ما ورث. ولم يخلقك أيضاً غير مائل وغير متحرك، لئلا تكون بمنزلة الطبائع التي لا نفس لها فيكون خيرك لا فائدة له ولا جزاء، مثله مثل الحسنات الطبيعية التي للحيوان غير الناطق. فإنه من السهل على الكل أن يعرفوا كم من الفوائد والشكر والاتضاع يتولد من وفود هذه النواجز (أو الآلام) والميالة. فقد تبين إذاً أن الجهاد في عمل البر والابتعاد عن الشرور هو بحسب إرادتنا، والكرامة والهوان اللذان ينتجان عنهما منسوبان إلينا. أمَّا الهوان فنخزى منه ونرهب، وأمَّا الكرامة فنشكر الله بها ونتزايد في الفضيلة.

٣٠ – وإنما أكثر الله لك هذه الأمور المؤدِّبة والمرشدة حرصاً عليك من أن تنساه، وإذا ما انعتقت منها ولم يَنَلْكَ من الضواغط منالٌ وصرتَ أعلى من كل خوف، فأنت تنحرف عنه وتهوى إلى هوة النفاق وتقع في الاعتقاد بكثرة الآلهة كما ضل كثيرون. فإن هؤلاء كانوا مثلك قابلين للآلام ومحتاجين وقد أتت عليهم كل هذه المحزنات، ولأجل سلطان حقير زمني وغنى يسير وصحة قَلِيلَة (غير دائمة)،لم يهبطوا إلى القول بآلهة كثيرة فقط، بل وجسروا أن أسموا ذواتهم آلهةً تجاهلاً.

٣١ – لهذا السبب يسمح الله أن تلمّ بك الضوائق لئلا تنحرف عنه وتغضبه، وبإيراد العقوبة عليك يقصيك من أمَّام وجهه. وأنا أُمسك عن ذكر النفاق وبقية التجاديف التي تتولد من صفاء العيش (أي الرفاهية) في العالم وزوال الخوف، وإن جسر على ذكرها جاسرٌ. ولهذا فبالآلام والضوائق أكثرَ الله ذِكرَه في قلبك، لكي من خوف المضادات يوقظك إلى قرع باب تحننه؛ وإذ يخلِّصك منها يزرع فيك المحبة له، حتى إذا ما وجدت الحب أدناك به من كرامة البنوة وأراك مقدار نعمته الغزيرة وعنايته الدائمة بك. وبعد ذلك يجعلك تحس بقدس جلالته وبالأسرار الخفية التي لعظم طبيعته. فمِن أين كان لك أن تعرف هذا لو لم تعرض لك الأضداد؟ وعلى أكثر الأمر فإن محبة الله يمكن أن تكثر من هذه الأمور: أي من تفهم إنعامه، وذكر كثرة عنايته بك. وهذه الصالحات جميعها تتولد لك من المحزنات، التي كان الغرض منها هو أن تفهم وتشكر.

٣٢ – فاذكر الله إذاً لكي يذكرك هو ويخلِّصك، لكي إذا ذكرك وخلَّصك تحظى بجميع هذه الخيرات. ولا تَنْسَه بالطياشة في الأمور الباطلة، لئلا ينساك هو في وقت تجاربك. كن مطيعاً له وأنت في راحة العيش لتحظى بالدالة عنده في أوان شدائدك بمواصلة قلبك الصلاة والطلبة.

٣٣ – ليحل ذكر الله في قلبك دائماً فيما أنت (قائم) تجاهه، وفي كل الأوقات ليكن الاهتمام بذكره في فكرك. وإياك أن يطول بك الزمان بمعزل عن ذكره، فتصير بغير دالة (إذا ما وقفت بعد ذلك أمَّامه)، ولسبب الخجل لا تقدر أن تتحدث معه. لأن الدالة عند الله إنما تكون من مواصلة مفاوضته ومداومة الحديث معه في الصلاة. أمَّا الاتصال بالناس فيكون بالجسد، أمَّا القرب من الله فيكون بتذكر النفس (أي الهذيذ) والصلاة والتضرع. ومن الإمعان في ذكره ينتقل العقل من وقت لآخر إلى الدهش والتعجب. لأن «قلب طالبي الرب يبتهج»[٢٢].

٣٤ – فاطلبوا الربَّ أيُّها الخطاة والمذنبون وتشجَّعوا بالرجاء؛ التمسوا وجهه[٢٣] دائماً بالتوبة، فتتقدسوا بقدس وجهه، وتتطهروا من آثامكم[٢٤]. بادروا إلى الرب يا معشر المتدنسين، فهو القادر أن يغفر الخطايا ويصفح عن الزلات، لأنه بالقَسَم أقسم: «حيٌّ أنا، إني لاَ أُسَرُّ موت الخاطئ بل أن يرجع ويحيا»[٢٥]. وأيضاً قال: «مددتُ يدي كل النهار إلى شعبٍ

---

[٢٢] أطْلُبُوا الرب يُبْتَهِجُ قَلْبُ طَالِبِي الرب. مز ١٠٥: ٣.

[٢٣] اِطْلُبُوا وَجْهَهُ دَائِمًا. مز ١٠٥: ٤.

[٢٤] وَيُغْفَرُ لِكُلِّكُمْ أَنْتُمْ وَكُلِّ الْبَقِيَّةِ مِنْ كُلِّ هذَا الشَّعْبِ أَيْضًا... حز ١٤: ٢٢.

[٢٥] قُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا... حز ٣٣: ١١.

عاصٍ معاند»[٢٦]. وأيضاً: «يا بيت إسرائيل، لماذا تموتون» بخطاياكم[٢٧]؟ «ارجعوا إليَّ فأرجع إليكم»[٢٨]. وأيضاً: «في اليوم الذي يرجع فيه الأثيم عن طريقه، ويُقبل إلى الربِّ، ويصنع إنصافاً وبرًّا، فإني لا أذكر ذنوبه، وحياةً يحيا يقول الرب. والبار إن تخلَّى عن برِّه وأَثِمَ وأخطأ، فإني لا أذكر برَّه وأضع أمَّامه مَزِلة (أي حجر عثرة)؛ فيموت في ظلمة أعماله إن تمسَّك بإثمه وثبت فيه»[٢٩]. ولماذا؟ لأن الخاطئ في اليوم الذي يرجع فيه إلى الرب، لا يتعرقل بخطيته. أمَّا البار فلا يخلِّصه برُّه في اليوم الذي يزِلّ فيه، إن أكمل على هذا الأساس بنيانه (أي إن استمر في خطيته).

٣٥ – وقال الله لإرميا النبي: «خذ لك طرساً وكل ما قلتُه لك من أيام يوشيا ملك يهوذا إلى هذا اليوم اكتبه، حتى إذا سمع الإنسان بكل الشرور التي قلتُ لك إني أجلبها على هذا الشعب، لعله يتخلَّى عن طريقه الرديئة. وإذا ما عاد الناس وتابوا أصفح عن ذنوبهم»[٣٠]. وقالت الحكمة: «من يكتم جريمته لا يحظى بصلاح، أمَّا من يقرُّ بزلاَّته ويتخلف عنها فسينال من الله رحمةً»[٣١]. وإشعياء النبي يقول: «اطلبوا الربَّ فإذا ما وجدتموه ودنوتم منه فتضرَّعوا إليه. والخاطئ منكم فلْيَترك طريقه الرديئة، والرجل الأثيم لينبذ أفكاره. واقبلوا إليَّ فسأرحمكم. لأن أفكاري ليست كأفكاركم ولا طرقي كطرقكم»، «وإن سمعتم مني فستأكلون خيرات الأرض»، «هلموا إليَّ وأطيعوني فستُحيوا نفوسكم»[٣٢].

٣٦ – فإذا ما حفظتَ طرق الربِّ وصنعتَ مراده، عندئذ اتكل عليه وادعُه، فإذا هتفتَ إليه يقول لك: «ها إني حاضر»! [٣٣] المنافق إذا ما أتت عليه محنة لا تكون له ثقة أن يدعو الله، ولا يتوقع من جهته خلاصاً؛ لأنه في يوم راحته ابتعد عن مشيئته. قبل أن تشرع في القتال التمس المعين؛ وقبل المرض اطلب الطبيب؛ وقبل أن تَرِدْ إليك المحزنات تضرَّع إلى الله، فإنك ستجده وقت حلولها وسوف يسمع منك. وقبل أن تنزلق، توسل وابتهل؛ وقبل أن تتجه إليه مصلياً استعد بما يجب عليك. لأن سفينة نوح صُنعت في وقت السلام، لكن أخشابها زُرعت قبل

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مئة سنة؛ وفي وقت الرجز هلك الظالمون، أمَّا الصدِّيق فشملته المعونة.

٣٧ – فم الظالم (الأثيم) يلتجم وقت الصلاة، لأن توبيخ الضمير يزيل من الإنسان الدالة. القلب الطاهر يفيض الدموع بفرح أثناء الصلاة. الصبر الاختياري على الظلم يطهِّر القلب، وهذا الصبر ينبع من رفض الإنسان لهذا العالم. لأنه إذا ما نظر حقيقة الأشياء، عند ذلك يثبت بغير حزن على الظلم والجور. لأن الذين قد صار العالم لهم بمنزلة المائت، يصبرون على الضيقات بفرح؛ هؤلاء هم الذين قد ماتوا بأفكارهم من العالم. أمَّا الذين رائحة هذه الحياة (الأرضية) موجودة في فكرهم فمحبة المجد الباطل لا تتركهم، فهم أمَّا أن يلتهبوا بالغضب أو يقعوا في أفكار الكآبة التي تتولد منه. آه، ما أصعب تقويم هذه الفضيلة! وما أكثر مجدها عند الله! من أراد أن يقتني هذه الفضيلة، أي الصبر على الظلم والإهانة، فينبغي له أن يتغرب ويبتعد عن وطنه؛ لأنه ما يمكنه أن يقوِّمها في الوطن. لأن احتمال هذا اللذع بين الأهل والأقارب إنما هو لقوم أكابر وأقوياء، ومن كان العالم عندهم مائتاً وقد انصرف عنهم (رجاء) العزاء الحاضر.

٣٨ – كما أن النعمة تدنو من الاتضاع، هكذا العوارض المؤلمة تقترن بالعظمة. عينا الرب إلى المتواضعين ليبهجهم، ووجهه لدى المتعظمين ليواضعهم. الاتضاع يجتذب الرحمة من الله تعالى دائماً؛ أمَّا القلب القاسي القليل الإيمان فتوافيه الأهوال والمفزعات إلى أن يقوم عليه الشر بغتة ويُسلَّم لفناء سريع. أوضِع ذاتك وصغِّر قدرك في كل أمر عند جميع الناس فستعلو على رؤساء هذا العالم. اسبق الكل في تقديم حُسن السلام بسجود متضع، فيجلّ قدرك ويسمو على ذوي الثياب المذهبة(٣٤).

٣٩ – كن مرذولاً مهاناً في عيني نفسك، فسترى مجد الله تعالى في ذاتك؛ لأنه حيث يزهر الاتضاع، فهناك يتوفر مجد الله. إن اجتهدتَ في أن تُرذَل علانية من الناس كلهم، يرفع الله قدرك ويُنوِّه به. إن اقتنيتَ في قلبك الاتضاع أظهر الله مجده في قلبك. تواضع في علوِّك ولا تتعظم في حقارتك. احرص على أن يُزدرى بك، فستمتلئ من إكرام الله. لا تلتمس أن تُكرَّم وأنت مملوء من داخل جراحات. أبغض الكرامة لتُكرَّم، ولا تحبها لئلا تهان. لأن من جرى وراء الكرامة هربت منه، ومن هرب منها قصدته، وأنذرت كافة الناس باتضاعه. إن صَغَّرتَ نفسك لكي تُكرَّم، يفضحك الله؛ وإن أنت امتهنت ذاتك لأجل الحق، فإن الله تعالى يطلب من برایاه أن يمدحوك، ويفتحوا أمَّامك باب مجده الذي منذ الأزل يتكلم عنه(٣٥)، ويمجدونك كالباري تعالى؛ لأنك بالحقيقة على صورته ومثاله.

أسمو أكثر من الذين قاموا ١١ من ذهب لوفر "يملأوا وجوههم الخزي لكي يطلبوا اسمك يا رب. ليخزوا ويرتعبوا إلى الدهر ويخجلوا ويهلكوا. ليعلموا أنك أنت اسمك يهوه وحدك العلي على كل الأرض". (مز ٨٣: ١٦ إلى ١٨)

تكلم مع الله أي عن خالقه.

٤٠ – مَن ذا الذي شاهد إنساناً متعالياً بالفضائل، (وهو) محتقر (بمظهره) بين الناس، نيِّر في سيرته، حكيم في معرفته، متواضع في نفسه؟ لسعيدٌ ومغبوطٌ مَن تواضع في كل أمر؛ لأنه يرتفع في كل شيء. لأن من وضع قدره وصَغر مكانه من أجل الله، يشرِّف الله قدره. ومن جاع وعطش لأجل الله، يرويه الله من خيراته ويسكره بها. ومن تعرَّى لأجل الخالق جلّ وعزّ، يلبسه حلة المجد وعدم الفساد. ومن افتقر من أجله، يعزيه بغناه الحقيقي. حقِّر نفسك من أجل الله، فسيتوفر مجدك وأنت لا تعلم. اعتقد أنك خاطئ مدة أيام حياتك لتتزكى دائماً. كن أمِّياً في حكمتك ولا تتظاهر أنك حكيمٌ وأنت عامي. إن كان الاتضاع يعلِّي شأن الأمِّي والذي لا علم له، فالقوم الأجلاء الأمَّاثل كم كرامة تظن أن الاتضاع يسببها لهم؟

٤١ – اهرب من المجد الباطل تتمجد. خَفْ من العظمة فستُعظَّم؛ لأن الكبرياء لم توزع على أولاد الناس، ولا العظمة على مولودي النساء. إن كنتَ قد هجرتَ كل أمور الدنيا، فلا تنازع أحداً في شيء منها البتة. وإن كنتَ قد رفضتَ المجد الباطل فاهرب من المتصيدين له والشغوفين به. ابتعد من محبي القنية المغرمين باكتناز الأشياء، مثلما تهرب من المقتنيات. أَقْصِ ذاتك من المتنعمين كما من التنعم. اهرب من الفسقة كهربك من الفسق. لأنه إن كان مجرد ذكر هذه الأمور التي تقدم شرحها يزعج الفكر، فكم بالأحرى رؤيتها والتصرف (أي التعامل) مع أصحابها؟ اقترنْ بالأبرار فإنك بتوسطهم تدنو من الله. أكثِرْ من الاختلاط بالمتواضعين فتتعلم طرقهم. لأنه إن كان تصور ما يقال عنهم ينفع، فكم بالأكثر (مثال سيرتهم) وتعليم أفواههم؟

٤٢ – أحبب المساكين لأنك بتوسطهم تحظى برحمة الله تعالى. لا تؤثر القرب من المتشاجرين ومحبي الخصومات، لئلا تصير بحكم الضرورة خارج الهدوء. لا تتكرَّه روائح المرضى، ولا سيما الضعفاء منهم؛ لأنك أنت أيضاً لك جسد. لا تؤلم منسحقي القلب، أكانوا موسرين أم معسرين، لئلا تُضرب بالعصا التي ضُربوا بها، وتطلب معزِّياً فلا تجد. لا تحتقر وترذل المعاقين وذوي العاهات؛ لأن ذلك لا يدخلهم إلى الهاوية.

٤٣ – أحبب الخطاة وامقت أعمالهم، ولا ترذلهم من أجل زلاتهم، لئلا تُمتحن بما امتُحنوا به. اذكر أنك من الطبيعة الأرضية ومساهم لهم بنتن آدم، وأيضاً مشارك لهم في الميالة؛ فأحسِنْ إليهم جميعاً. مَن كان مفتقراً إلى صلاتك ومحتاجاً إلى كلمة تعزية، لا تبكِّته لئلا يهلك فتُطالب بنفسه. بل ماثِل الأطباء الذي يعالجون الأمراض الحارة بالأدوية الباردة (أي الملطِّفة)، والباردة بما يقابلها.

٤٤ – إذا ما لقيتَ قريبك، أَكْرِه ذاتك على إكرامه بأكثر مما يستحق. وقبِّل يديه ورجليه، وحرِّك قلبك بمحبته بصدقٍ وعفة، وضع يديه على عينيك، وامدحه بما ليس فيه. وإذا ما فارقك قل عنه كل صالح وجميل، وكل ما يؤول إلى التكريم. لأنك بهذه الأمور تجذبه نحو الخير، وتضطره (بمدحك له) إلى أن يستحي من (خلُّوه من) الصفة التي وصفته بها، ويأبى أن يكون إلا بحسبها، فتزرع بذلك فيه زرع الفضيلة.

٤٥ – ومن هذه العادة التي تعوِّد نفسك إياها، يرتسم فيك رسم الخير، وتقتني في ذاتك اتضاعاً كثيراً، وتنجو من قتالات كثيرة عسرة، وتنعتق من أمور عظيمة من غير مشقة، تلك التي بتعبٍ كثير وجهادٍ شاق يتخلص منها آخرون. وليس هذا فقط، بل وإن كان إنسانٌ له مناقص وأكرمته قَبِلَ منك المداواة بسهولةٍ بمجرد إشارة منك فقط. وذلك لخجله من الكرامة التي عاملته بها، ومن دلائل الحب الذي يراه منك.

٤٦ – ليكن هذا التَدْبِير دأبك مع الكل، أعني الإكرام والملاطفة، ولا تحتد على أحد، ولا تسخط ولا تغلب عليك المرارة. لا تبكِّت ولا تَلُمْ أحداً، لا من أجل الإيمان ولا من جرَّاء قبح الأعمال، لأن لنا قاضياً عادلاً في السماء لا يراعي الوجوه. ولكن إن آثرت أن ترد إنساناً إلى الحق بنوع الشفقة، فاحزن من أجله وخاطبه بانسكاب دموعٍ خطاباً موجزاً مرة ومرتين، ولا تشتعل عليه غضباً فيرى فيك علامة العداوة على وجهك. لأن المحبة لا تعرف الغضب والانتهار واللوم بانفعال على أحد.

٤٧ – دليل المحبة والمعرفة هو الاتضاع المتولد من الضمير الصالح من داخل الفكر، برَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الذي له المجد والإكرام مع أبيه الصالح والرُّوح الْقُدُس إلى آباد الدهور، آمين.

المَيْمَر الثَّالِث

في أنَّه لمنفعتنا يسمح الله أنْ تكون النفس قابلة للانفعال، وفي أعمال النسك

١ – الزلل في خطيةٍ ما هو دليل على ضعف الطبيعة. لأن الله تعالى سمح أن تكون طبيعتنا قابلة للانفعال، لأن ذلك ملائم لها؛ وما رأى أن تكون أعلى منه قبل أن تنتهي الطبيعة إلى الخلقة الثَّانِية (التجديد). وهذا القبول للعوارض والانفعالات نافع في ردع الضمير؛ أمَّا الثبات فيها وملازمتها فَقِحَةٌ وخزي.

٢ – كل نفس ناطقة تقدر أن تدنو من الله تعالى بثلاثة أنواع: أمَّا بحرارة الإيمان، أو من الخوف، أو من قِبَل التأديب الوارد منه تعالى. أمَّا رتبة الحب (الإلهي)، فهي قائمة بذاتها وحدها، ولا يقدر أحد أن يدنو منه إن لم يُسبِّب إليه (أي يوصله إليه) أحد هذه الأنواع الثلاثة.

٣ – كما أن اضطراب الأفكار يتولد من نهم البطن، هكذا الجهل وحيرة العقل يتولدان من كثرة الكلام والمحادثات التي ليست على نظام. الاهتمام بالأمور العالمية يقلق النفس، ويضطرب العقل من جهتها، ويفقد هدوءه، ويبعد من طريق الحق.

٤ – ينبغي للراهب الذي قد تجرَّد (وأسلم ذاته) للفِلاحة السمائية أن يكون بغير همٍّ عالمي على الدوام بفكره؛ حتى إذا رجع إلى ذاته لا يجد فيها شيئاً منه. لأنه إذا ابتعد من الأخذ والعطاء، وتعطل من الأسباب العالمية، أمكنه أن يهذَّ في ناموس الله ليلاً ونهاراً من غير تشتت. وهذا يكون إذا ما تفرَّس في ذاته ولم يجد فيها شيئاً من أمور هذا العالم، ولا هذيذاً بشيء من الأشياء المنظورة؛ فمن بِطالته من هؤلاء بالكمال يتلو باسم الرب بغير تشتت (أو انجذاب إليها).

٥ – التعب الجسداني بغير طهارة العقل يكون كرحم عاقر وأثداء يابسة؛ لأنه لا يقدر أن يُدني من معرفة الله. فهو إنما يُوعِك الجسم ولا ينفع؛ لأن الذين يتعبون على هذا النمط لا يهتمون بقلع جذور الآلام من فكرهم، ولهذا فهم لا يحصدون شيئاً. كما أن الزارع في الشوك لا يتوجه له حصاد، هكذا الحقود ومحب المال لا تتوجه له فائدة، بل تجده يتنهد على مضجعه من فرط السهر وكثرة الزهد. والكِتَاب يشهد على ذلك ويقول: «إنهم يلتمسون مني عدلاً وحقاً كشعب يصنع البرَّ، ولا يتوانى في وَاحِدةٍ من وصايا الربِّ، ويؤثرون الدنو مني، أنا الله، قائلين: لأي حال صُمنا ولم تلتفت إلينا؟ ولماذا وضعنا أنفسنا ولم تعلم؟ فيجيب: لأنكم في أيام أصوامكم صنعتم إرادتكم»[٣٦] وقدَّمتم أغراضاً ذميمة وأفكاراً رديئة كما تُقدَّم المحرقات للأصنام! وقد ضحَّيتم لها ما لكم (أي حريتكم)، وهي أكرم من كل ضحية؛ أعني أنكم تمسَّكتم بضمائر رديئة وأفكار شريرة كآلهة في نفوسكم، تذبحون لها كل يوم حرية إرادتكم. وقد كان الخليق بكم أن

[illegible] :2

تنذروها لي بتوسط صلاح فعلكم وطهارة قلوبكم.

٦ – كالأرض الصالحة المهندمة (أي المفلَّحة جيداً) التي تسرّ فلاحها بأن تغل له بدلاً من الوَاحِد مائة، كذلك النفس المستنيرة بذكر الله ليلاً ونهاراً ومواصلة السهر في ذلك. فإن الرب ينشئ على قاعدتها وحولها غمامة تظللها في النهار وتبدد ظلامها في الليل؛ ومن داخل قتامها يشرق النور.

٧ – كما أن الغيم يستر ضوء القمر، كذلك البخار الراقي (أي الصاعد) من الجوف يستر حكمة الله تعالى عن النفس. إن جسداً جوفه ملآن طعامًا يشبه حاله حال لهيب النار في الحطب اليابس. كما أن المادة الدهنية تزيد اشتعال النار، هكذا تنوع ألوان وأصناف الأغذية تزيد ألم الشهوة داخل الجسم. معرفة الله عزّ وجلّ لا تسكن في نفس إنسان يحب جسده، والذي يحب جسده لا يحظى بالمواهب الإلهية.

٨ – كما أنه من أوجاع الولادة تتولد ثمرة تسرُّ الوالدة، هكذا من (تعب) الأعمال تتولد في النفس معرفة أسرار الله سبحانه. أمَّا الكسالى ومحبو اللَّذة والأحاديث الباطلة فيتولد فيهم ثمر الخزي. وكما أن الأب يشفق على ابنه، هكذا المسيح يشفق على الجسد العمّال (الذي يحمل المشقة من أجله) ويكون دائماً قريباً من فمه (أي يستجيب له سريعاً). والعمل المنوط بحكمة هو ذخيرة كريمة لا يعادلها ثمن.

٩ – الغريب هو الذي لا يخطر بفكره شيء من أمور هذا العالم، والمبتعد من كل اهتمام وكل حديث بطَّال. النوَّاح هو الذي يصرف كل أيام حياته في الجوع والعطش من أجل رجاء الخيرات العتيدة. الرَّاهِبُ هو الجالس خارج مناظر العالم، وليس في صلاته إلا طلبة وَاحِدة: هي شهوة العالم المزمع. غنى الرَّاهِبُ في قلبه؛ وهذا هو غناه: أمَّا عزاء كائن من النوح، أو فرح ينجم عن الإيمان الذي ينير في خزائن قلبه.

١٠ – العفيف بالكمال ليس هو الذي يحفظ جسده من دنس المعاشرة، بل المستحي من ذاته متى خطر ذكر ذلك في نفسه. إن كنت تحب العفة أَزِل عنك الأفكار السمجة بمواصلة الهذيذ والقراءة وتواتر الصلاة، حينئذ تتسلح في الداخل مقابل علل الطبيعة، ومن دون هؤلاء لا يمكن أن يشاهد الإنسان في ذاته طهارة.

١١ – الرحوم هو الذي لا يميِّز بفكره وَاحِداً عن الآخر، بل يعطي الكل. إن أردتَ أن تكون رحيماً وتصير الرحمة لك مَلَكة، عوِّد نفسك أولاً طرح كل الأمور، لئلا ينجذب العقل بثقلها ويخرج الفكر من حدود قصده الأَوَّل؛ لأن حقيقة الرحمة تتبين بالصبر على الظلم، وكمال الاتضاع هو احتمال الافتراءات الكاذبة بفرح.

١٢ – إن كنتَ رحيماً بالحقيقة، فإذا ما انتُزع منك مالك ظلماً لا تحزن في الداخل، ولا تشرح خسارتك لآخرين من خارج. بل لتكن الخسارة التي غشيتك من ظالميك مغتفرة برحمتك، مستورة بصدقتك، كما تُستر لذعة الخمر وسط مياه كثيرة. هكذا أَظهر أنت علامة النقاوة

(وصِدق رحمتك) من الخير الذي تقابل به ظالميك وأنت مبتهج، كما فعل الطوباني أليشع مع أعدائه الذين آثروا أن يأسروه. لأنه عندما صلَّى وغشيت الظلمة أعينهم، دلّ بذلك على القوة الموجودة في صلاته (وأنه لو أراد لصاروا كلا شيء أمَّامه)؛ وعندما أعطاهم طعامًا وشراباً ومكَّنهم من المضي، أظهر رحمته التي اقتناها في داخله.

١٣ – وإن كنتَ متواضعاً على الحقيقة، فإذا ظُلمتَ لا تضطرب ولا تدافع عن نفسك من أجل الأمر الذي ظُلمتَ بسببه، بل اقبل المثلبة وكلام الظلم كأنه حق، ولا تصرف اهتمامك إلى إقناع الناس بأنك قد ظُلمتَ، بل اطلب والتمس العفو. لأن قوماً قد سمُّوا أنفسهم فَسَقَةً بإرادتهم، ولم يكونوا كذلك. وآخرون صبروا على اتهامهم بالزنى، وهم بعيدون عنه، وكانوا يُربُّون الثمرة التي ليست منهم بالدموع كما لو كانت تخصهم، ويلتمسون الصفح من ظالميهم والذين يُشهِّرون بهم، بنحيبٍ ودموع وبكاء عن إثم لم يفعلوه، بينما أنفسهم متوَّجة بكل طهارة وعفاف. وآخرون أيضاً كانوا يتشكلون بزي الجهَّال، لئلا يُشَرَّف قدرهم ويُمجَّدون بما فيهم من السيرة الفاضلة التي يخفونها، مع كونهم قد تملَّحوا بالملح الإلهي وهو ثابتون بكل هدوء ورزانة العقل، حتى أنهم من سمو أفعالهم الكاملة حظوا بالملائكة القديسين منادين بعظم شرفهم. وأمَّا أنت يا هذا، فإنك تظن أنك ذو اتضاع، مع أنك لا تقدر أن تمسك نفسك عند السبِّ ولا تستطيع أن تحتمل ساكتاً. فإن كنتَ تريد أن تعلم أنك متواضع، اختبر نفسك بما ذكرناه لترى إن كنتَ تتكدر وتضطرب بهؤلاء أم لا.

١٤ – إن المخلص يشير بقوله «منازل كثيرة في بيت أبي» إلى مقادير منازل ضمائر الساكنين في تلك البلدة، أعني أنواع العطايا والدرجات الرُّوحانية التي بحسبها يتنعمون تنعماً معقولاً (أي روحياً). فهو يشير إلى اختلاف رتب المواهب لا إلى اختلاف مواضع معروفة مُعدَّة للسكنى لكل وَاحِد فوَاحِد موضع مخصوص.

ولكن كما أن كل وَاحِد يتنعم بالشمس المحسوسة حسب صفاء قوة بصره، وعلى قدر ما يمكن أن يقبله باطن عينيه من انسكاب نور الشمس؛ وكما أنه إذا ما كان في بيتٍ وَاحِد مصباحٌ وَاحِد يضيء يصير لمعانه عند كل وَاحِد بخلاف ما هو عند الآخرين دون أن ينقسم ضوؤه البسيط (إلى عدة أضواء) ويختلف في منظره، هكذا جميع الأبرار والصديقين يتدبَّرون في الدهر العتيد في بلدة وَاحِدة دون أن تنقسم إلى مواضع منفصلة، وكل وَاحِد يستنير من شمس وَاحِدة عقلية حسب ما يستحقه قدر تَدْبِيره، ويجتذب لنفسه المسرة والتنعم كمِن هواء وَاحِد ومكان وَاحِد ومنظر وَاحِد وشكل وَاحِد، ومسكن وَاحِد.

وهناك لا ينظر أحدٌ منزلة من هو أعلى منه أو دونه لئلا يعرض له من قِبَل ذلك حزن وكآبة، أعني إذا ما قاس نقصه إلى كمال غيره، وحاشا أن يكون مثل هذا حيث لا يوجد حزن ولا تنهد؛ بل كل وَاحِد يُسرُّ في داخله بحسب النعمة التي تُعطى له جزاء عمله. فالكل منظرهم وَاحِد من خارج، والبلد وَاحِد من نوع مساكن عساكر الملائكة القديسين؛ موضع وَاحِد منظور وجو وَاحِد متساوٍ للجميع. ومعقول درجاتهم الخفي (أي معرفتهم بالأسرار الخفية) هو بحسب استعلان

التاؤريا لكل رتبة من رتبهم، يتغير ويختلف من رتبة إلى أخرى، بالانفعال من الأقانيم الأزلية (من خلال) الحركات والضمائر، وهذا ليس خارجاً عن العقل. ولا يوجد ترتيب متوسط بين هذين الترتيبين، أعني المنزلة العليا والمنزلة السفلى (في القضاء الأخير)؛ بل إنما هو علو كلي وسُفلٌ كامل. فأمَّا أن يكون الشخص من العلويين أو من السفليين، وداخل ذلك وهذا توجد رتب مختلفة في المجازاة حسب الاستحقاق.

وإذا كان هذا حقاً، وهو حقٌ، فمن ذا يكون أجهل وأحمق من القائلين: يكفينا النجاة والهرب من جهنم، ولسنا نبالي إن لم ندخل الملكوت! لأن الخلاص من الجحيم هو الملكوت؛ والحرمان من الملكوت هو جهنم. والدليل على ذلك أن الكِتَاب الإلهي لم يعلِّمنا أن هناك ثلاثة أمكنة، بل قال: «متى جاء ابن البشر في مجده، يقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار». فقد تبيَّن من هذا الكلام أن الطغمات ليست ثلاثة بل اثنتين: وَاحِدة عن اليمين والأخرى عن اليسار. وميَّزَ حدود منازلهم بقوله: إن هؤلاء (أي الخطاة) يمضون إلى العذاب الأبدي، وأمَّا الصديقون فينيرون كالشمس. وأيضاً: يأتون من المشارق والمغارب ويستريحون في حضن إبراهيم في ملكوت السموات. وأمَّا أولاد الموعد الذي لم يكونوا طائعين فيخرجون إلى الظلمة الخارجية، حيث البكاء وصرير الأسنان، أعني البكاء النفساني، وصرير الأسنان الذي هو أصعب من كل نار. أفهمتَ الآن ما قلناه أن التخلف عن الصعود هو هو جحيم العذاب؟

١٥ – حسن هو أن يعلِّم الإنسان الناس الخير، ويجذبهم من الضلالة إلى معرفة الحق بمواصلة العناية بهم؛ لأن هذه الطريقة هي طريق المسيح ورسله، وهي عالية جداً. أمَّا إن أحسَّ هذا المرء في نفسه أن ضميره قد ضعف من هذا الحال ومن مواصلة الخلطة ومن تصور الوجوه، وأن هدوءه قد اضطرب ومعرفته قد اظلمت؛ لأن قلبه (ما زال) يحتاج إلى تحفظ وإلى إخضاع الحواس، وأنه قبل أن يشفي الناس ويطببهم مَرِضَ هو نفسه، وأن صحته أصبحت في اضمحلال وقد خرج من حرية إرادته إلى اضطراب قلبه؛ فليذكر قول الرسول واعظاً إن «الغذاء القوي هو للكاملين». وليرجع إلى الوراء لئلا يسمع منهم ما جاء في المثل: «أنت أيُّها الطبيب المملوء جراحات، اشفِ نفسك». وليدِنْ نفسه ويحفظ حُسن حاله ويهتم بصحة نفسه فقط، ويجعل سيرته الصالحة تنوب عن أقواله المحسوسة، وعمله يعلِّم بدلاً من كلام فمه. وإذا عَلِمَ أن نفسه في صحة، حينئذ ينفع الآخرين ويطببهم؛ لأنه إذا حفظ صحته ينتفع منه الآخرون ويُشفون هم أيضاً بعافيته. ولو كان بعيداً عنهم، فإنه ينفعهم بغيرة أعماله أكثر من وعظه بالكلام ومصاحبته لهم بنفسه وهو مريض؛ لأنه يكون مفتقراً إلى الطبيب أكثر منهم. لأن المثل يقول: إن أرشد الضرير ضريراً يسقطان كلاهما في حفرة. الغذاء الكامل هو للأقوياء، الذين قد تدربت حواسهم واشتدت لقبول كل غذاء، أعني جميع ما يصادف الحواس، إذ يباشرونه ولا تمرض قلوبهم ولا تتأذى من كل ما يصادفهم بسبب تدرُّبهم في الكمال.

١٦ – إذا ما أراد الشيطان أن يدنِّس عقل مثل هذه الطبقة، بذكر الزنا، فهو أولاً يمتحن ويختبر عقولهم بمحبة المجد الباطل؛ لأن ابتداء هذا الفكر لا يُظن أنه ألم. هكذا اعتاد أن يفعل للمتحفِّظين بعقولهم، وهم الذين لا يمكنه أن يُلقي فيهم فكراً سمجاً عارياً. فإذا ما أخرج العقل من حصنه وابتدأ أن يفاوضه في الفكر السابق (أي المجد الباطل) ويبعده من ملجأه، حينئذ يباشره ويتلقاه بمادة الزنا، ويجتذب العقل إلى أمور الفسق، ويشغل الفكر بخيالات الأمور النجسة.

فأولاً ينزعج الإنسان – لسبب سابق عفته – من مصادمة الأفكار المباغتة، الأمور التي كان العقل غريباً منها وبعيداً عنها. ومع أنه لا يتدنس بالكلية، إلا أنه (أي الشيطان) قد أحدره من رتبته المتقدمة. فإن رجع إلى الوراء، وبادر إلى إدراك الأفكار الأَولى – أي المجد الباطل – وحطمها سريعاً؛ لأنها هي التي كانت سبب وفود أفكار الزنا، حينئذ يتمكن بمعونة الله من غلبة الآلام بسهولة. وإذا ما أهمل حتى صادمته الأمور دفعات كثيرة، فإن العادة تعمي إفراز النفس لسبب دوام تنازله، وحسب كيفية ونوعية الآلام الأَولى، يكون انخداعه وسقوطه في الثَّانِية.

١٧ – الأفضل لك أن تسترقَّ الآلام (أي تستعبدها) بذكر الفضائل دون أن تقاومها، فهذا خيرٌ من أن تحاججها وتغلبها في القتال. لأن الآلام إذا برزت من موطنها وتحركت في القتال، فهي حينئذ ترسم في العقل الأشكال والصور، لأنها بمثل هذا الترتيب في الحرب تستولي بشدة على العقل وتأخذ قوة على الفكر فتقلق خواطره وتزعج هواجسه. أمَّا حسب الحد (أي الترتيب) الأَوَّل الذي ذكرناه، فإنه ولا بعد طردها يتبقى أي أثر للآلام في العقل.

١٨ – التعب الجسماني والهذيذ في الكتب الإلهية يحفظان الطهارة، والرجاء والخوف يُثبتان وجوب التعب. والبعد من الناس والصلاة الدائمة يُقرِّران في العقل الخوف والرجاء.

١٩ – إلى أن يقبل الإنسان البارقليط المعزي، هو مفتقر إلى الصحف الإلهية لكي يرتسم في قلبه ذكر الصلاح، ومن مداومة القراءة تتجدد فيه الحركة نحو الفضيلة، ولكي يحفظ نفسه من خداع طرق الخطية؛ لأنه ما اقتنى بعد قوة الرُّوح التي تطرد الضلالة التي تسلب التذكارات النافعة من الإنسان، وتقوده إلى البرودة الموجودة في تشتت العقل. أمَّا إذا حلَّت قوة الرُّوح في القوات العقلية التي في النفس العمَّالة في الفضيلة، حينئذ ترتسم في القلب وصايا الرُّوح بدلاً من ناموس الكتب. ويتعلم القلب من الرُّوح خفية، وما يحتاج بعد إلى المعونة الواردة من المادة المحسوسة بواسطة الحواس. لأنه كلما كان القلب يتعلم من المادة، تَبِعَ تعليمه طغيانٌ ونسيانٌ؛ وأمَّا متى كان التعليم من الأشياء غير الفاسدة، فإن ذكره أيضاً يثبت قائماً بغير فساد.

٢٠ – ثمة أفكار صالحة وإرادة صالحة، وثمة أفكار رديئة وإرادة رديئة. والأَولى – أي الأفكار – بغير الثَّانِية – أي الإرادة – المكافأة عنها قَلِيلَة. لأن حركات الأفكار تخطر في العقل مثل الريح التي تهب في البحر وترفع أمواجه. أمَّا الثَّانِية (أي الإرادة) فهي أصل وقاعدة، وحسب قصد وضبط الأساس تكون المجازاة عن الأعمال الجميلة والرديئة، وليس بحسب

حركة الأفكار. والنفس لن تهدأ من حركة الأفكار المختلفة، فإذا حسبْتَ المجازاة عن كل فكر منها مع أنه لم يكن لها أساس في القلب، فما أقربك أن تغيِّر تقديرك لما تستحقه من مكافأة أو دينونة عنها مرات هذا عددها كل يوم.

٢١ – كطائر صغير لا جناح له، هكذا هو العقل الذي انفكَّ حديثاً من مشابكة الآلام بأعمال التوبة، فهو يجتهد في وقت الصلاة أن يعلو عن الأرضيات فلا يقدر، بل هو بعد يَسفُّ على وجه الأرض (حيث تزحف الحية)، لأنه لا يتمكن من الطيران. إلا أنه (أي العقل) إذا ما جمع أفكاره بالقراءة والأعمال والخوف والاهتمام بأعمال الفضيلة – لأنه خارجاً عن هذه الفضائل ما يعرف شيئاً – فإنها تصونه من الدنس وتنقي الضمير زماناً يسيراً. وبعد ذلك تأتي التذكارات أيضاً وتزعج القلب وتدنسه، ذلك لأنه لم يحس بعد بجو الحرية الهادئ الذي يجمع العقل في هدوء وسكون دون تذكار الأمور زماناً طويلاً. لأنه اقتنى أجنحة جسمانية، أعني الفضائل الجسدانية الظاهرة. ولكنه لم يشاهد بعد ثاؤرية الفضائل التي اقتناها، ولا أُهِّل بعد للإحساس بها. هذه (الثاؤريات) هي أجنحة العقل التي يدنو بها من السمائيات ويبتعد عن الأرضيات. لأنه طالما كان الإنسان يتعبَّد لله ويخدمه خدمة محسوسة (أي مدركة بالحواس) وبتوسط الأمور، فإن صور تلك الأمور ترتسم في فكره، فيقيس الإلهيات بأشكال جسدية. فإذا ما أخذ إحساساً بما هو موجود داخل الأمور، حينئذ حسب مقدار إحساسه يصير العقل أعلى من أشكال الأمور وصورها في حينه.

٢١ – «عينا الرب على متواضعي القلب، وأذناه نحو طلبتهم». صلاة المتواضع هي من الفم إلى الأذنين (أي أذني الله). اهتف بأعمال اتضاعك الصالحة في وقت صلاتك قائلاً: ربي وإلهي، أَنِرْ ظلمتي.

٢٢ – إذا كنتَ في السكوت مع أعمال الاتضاع الحسن، فحين تقترب نفسك أن تخرج من الظلام، هذه العلامة تكون لك: يلتهب قلبك ويسخن كما بالنار ليلاً ونهاراً حتى أنك تعتقد أن كل العالم كناسة ورماد، ولا تعود تحتاج إلى طعام ولا يلذُّ لك ذلك من حلاوة الأفكار الجديدة الحارة المتحركة دائماً في نفسك. ويُعطَى لك ينبوع دموع بغتة، يفيض فيض النهر من عينيك بغير عنف ولا تَغَصُّب، مختلطة بكل أعمالك، أعني بقراءاتك وصلاتك، ومع خدمتك وهذيذك وأكلك وشربك. وبالجملة فإن الدموع تكون ممزوجة بكل عمل لك.

٢٣ – فإذا رأيتَ مثل هذه الأشياء في نفسك، ثق وتشجع، واعلم أنك قد قطعت البحر. زِد بعد ذلك في أعمالك واحترس نِعْمَ الاحتراس كي تتكاثر النعمة يوماً فيوماً. وإلى أن تصادف هذه الأشياء، فأنت إلى الآن لم تكمِّل بعد طريقك، ولستَ بمتمِّم النهج الموصل إلى جبل الله تعالى.

٢٤ – فإن كفَّت الدموع بعد وجودها وتحصيلك نعمتها، وبردتْ حرارتك دون انتقال إلى أمر آخر أنت مزمع أن تناله بعدها، فالويل لك، ماذا أضعتَ! لأنك أمَّا أن تكون قد نَخوْتَ (أي افتخرتَ) وتعظمتَ، أو أن تكون قد فشلتَ وارتخيت.

أمَّا ما يتبع الدموع بعد تحصيلها، وما الذي يصادف الإنسان بعد جوازه منها، وما الذي يوافي بعد ذلك أيضاً، فهذا سنتكلم فيه أخيراً في الفصول المرتَّبة على تَدْبِير السيرة الرهبانية، بحسب ما حصلنا عليه من الاستنارة من الكتب المقدسة ومن الآباء الذي اؤتمنوا على مثل هذه الأسرار.

٢٥ – إن لم تكن لك أعمال فلا تتكلم عن الفضيلة. كريمة لدى الله تعالى هي الضوائق والأحزان التي تكون من أجل البر أكثر من النذور والقرابين، ورائحة عرق تعبها أكثر من كل نسيم، وعرقها يفوق كل طِيب. كل فضيلة لم يتضيق فيها الجسد، اِعتقد أنها كسقطٍ لا نَفْس له. قربان الأبرار دموع عيونهم، وذبيحتهم المقبولة هي تنهدهم في الأسهار. الصديقون يصرخون إلى الرب سبحانه منضغطين بثقل الجسد، وبالتنهد والحزن يرسلون صلاتهم إلى الله، فتأتي على ضجيجهم الطغمات المقدسة لتساعدهم وتشجعهم وتقوي رجاءهم وتعزيهم. لأن الملائكة يساهمون مع القديسين في أحزانهم وتجاربهم بقربهم منهم.

٢٦ – الأعمال والاتضاع يجعلان الإنسان إلهاً على الأرض، أمَّا الإيمان والرحمة فيوصلانه إلى النقاوة سريعاً. ممتنعٌ أن يصير في نفس وَاحِدة حرارة وانسحاق بآن وَاحِد، كما أنه ممتنعٌ أيضاً أن يكون إمساك وضبط للفكر عند من هم سكارى بالخمر. لأن الحرارة متى أُعطيت للنفس يزول منها انسحاق النوح. الخمر إذا ما استُعملت تفيد بهجة ونضارة، أمَّا الحرارة فتعطي للنفس مسرةً وبهاءً. الخمر تسخِّن الجسد، أمَّا كلام الله فيفيد الفكر توقداً. والملتهبون بالحرارة بهذيذ العقل في الرجاء، يُخطفون بأفكارهم إلى العالم العتيد. كما أن السكارى بالخمر يتخيلون صوراً مختلفة، هكذا الذي قد سَكر والتهب بالرجاء: لا يعرف ضيقة، ولا العالم، ولا شيئاً مما فيه. هذه الأشياء تعرض للبسيطي القلوب والمتوقدين بالرجاء. فهؤلاء يذوقون في بداية الطريق، بواسطة إيمان النفس فقط، أشياءَ كثيرة تحدث بعد أعمال مديدة وطهارة قد أُعدت للسالكين في طريق الصلاح؛ لأن الرب تعالى كل ما يريد يصنع.

٢٧ – طوبى للذين أطلقوا أنفسهم في بحر الضوائق والأحزان، ببساطة لا يشوبها فحص أو اعتراض، من أجل حرارة محبتهم لله، ولم يرجعوا إلى الوراء؛ لأنهم سريعاً ما يبلغون إلى ميناء المواعيد سالمين، ويستريحون في منازل الذين جاهدوا وتعبوا حسناً، ويتعزون بعد تعبهم، وينعتقون من شقائهم، ويتنيحون بفرح رجائهم.

٢٨ – الذين يتدبرون بالرجاء لا يقفون لينظروا مؤذيات الطريق ولا منعطفاته، ولا يتفرغون للبحث عن أشياء مثل هذه، لكنهم إذا ما قطعوا البحر تأملوا تلك المنعطفات والمؤذيات المخوفة، حينئذ يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الخلاص من تلك الوِهاد (أي المنخفضات العميقة) والصخور والغيارات الكثيرة دون أن يعلموا؛ لأنهم ما اعتنوا أن يسمحوا لأنفسهم أن ينظروا شيئاً من هذا. أمَّا الذين يكثرون التفكير ويريدون أن يكونوا حكماء، ويشغلون أنفسهم بالقياسات وتردد الأفكار وما يلزم ذلك، ويستسلمون للخوف، ويؤثرون أن ينظروا ويفحصوا العلل المؤذية؛ فإن هذه الطبقة من الناس يُوجدون عادة جلوساً

على أبواب دورهم دائماً.

٢٩ – مثل كسلان إذا أُرسل في طريق فقال: «إن سَبْعاً في الطريق وقَتَلة في الرحاب»، وكالقائلين مثل بني إسرائيل: «إننا عاينَّا هناك أولاد الجبابرة، ونحن لديهم كالجراد»، و«مدنهم حصينة وأسوارها تعلو إلى السماء»، هؤلاء هم الذين في وقت انقضائهم وموتهم يُوجدون عند بداية الطريق. فهم المؤثرون دائماً أن يكونوا حكماء، ولكنهم لا يرون البتة أن يبتدئوا. أمَّا الساذج الأمِّي (أي البسيط)، فبالحرارة الأَولى يسبح ويعبر، ولا يهتم بالجسد ولا يفكر في نفسه إذا كان بمقدوره أن يتمم شيئاً مما يسعى إليه أم لا.

٣٠ – لا تجعل كثرة حكمتك عثرة لنفسك وفخاً أمَّام وجهك، بل ثق بالله تعالى وتشجَّع وابتدئ بالطريق المرشوشة بالدم، لئلا توجد دائماً فقيراً وعارياً من معرفة الله تبارك اسمه. لأن الخائف ومَن يتوقع الأهوية ما يزرع البتة. والأوفق لنا الموت في المعركة لأجل محبة الله أفضل من حياة منوطة بخزي التواني.

٣١ – إذا ما أردت أن تشرع في عمل الله عزّ وجلّ، اِضمر في نفسك أولاً أنك كمن ليس له حياة في هذه الدنيا، وكمن تهيأ للموت وقطع رجاءه ويئس من هذه الحياة الحاضرة وقد بلغ وقت أجله. وليكن هذا (راسخاً) في فكرك على الحقيقة، حتى لا تتعرقل بأمل هذه الحياة عن الجهاد والظفر. لأن رجاء هذه الحياة يرخي العزيمة والفكر. لهذا لا تتفلسف بزيادة في أمورك، بل اجعل للإيمان مكاناً في قلبك. وتذكَّر دائماً الأيام التي بعد موتك فما تُلمُّ بك رخاوة البتة، حسب قول الحكيم: «إن ألوف سني هذا العالم الحاضر ما هي مثل يوم وَاحِد من عالم الصديقين».

٣٢ – ابتدئ بشجاعة كل عمل الفضيلة، ولا تُقدِم إليه بقلبيْن. وفي طريق سيرتك لا يشك قلبك برجاء نعمة الله سبحانه؛ لئلا يصير تعبك بغير نفع، ويثقل عليك عمل فلاحتك. بل تحقق في قلبك أن الرب رحيم ومجيب طالبيه ومتفضل عليهم بنعمته، لا بحسب أفعالنا بل بمقدار حب أنفسنا وإيماننا به، لأنه يقول: «ليكن لك كما آمنتَ».

٣٣ – أمَّا أنواع الأعمال (التي يقوم بها أولئك الذين يسلكون بحسب الله) فهي هذه: وَاحِد يلطم هامته طول النهار ويستعيض بهذا عن الاجتماع في صَلَوَات الساعات. وآخر يثابر على الميطانيات ويصلي عدد صَلَوَاته. وآخر يملأ مكان صَلَوَاته بكثرة دموعه ويكتفي بها فلا يطلب معها شيئاً آخر، فهي له أفضل من كل شيء. وآخر يجتهد في هذيذ عقله ويستغني به عن القانون المحدد. وآخر يعاقب نفسه بالجوع حتى أنه لا يقدر أن يتمِّم صَلَوَاته. وآخر يثابر على ترتيل المَزَامِير بهذيذ متوقد بغير انقطاع. وآخر يعكف على القراءة في الأسفار الإلهية، ويلتهب قلبه بها، بينما آخر يُسبى بالأفهام (النابعة منها). وآخر يُذهل من معاني الألفاظ ويستولي عليه الصمت فيُعاق عن قراءته المألوفة.

والبعض يذوقون هذه الأمور كلها ويشبعون، ويعودون إلى الوراء ويتخلفون. وآخرون ينالون منها النزر اليسير، فيداخلهم التيه والصلف ويفتخرون ويضلُّون. وهناك مَن لسبب كثرة أمراض جسده وشدة ضعفه يتعطل عن حفظ قانونه. وآخر تستولي عليه شهوة أمرٍ ما أو حب رئاسة، أو مجد فارغ، أو الشره أو حب الأمور والقنية.

ولكن آخرون ينشطون وينهضون، ولا يرجعون إلى وراء إلى أن يأخذوا الجوهرة الثمينة.

٣٤ ــ أمَّا أنت، فابتدئ دائماً كل عمل من أجل الله بفرح ونشاط. وإن كنتَ طاهراً من الآلام ومن تقسُّم القلب، فإن الله تعالى سيوصلك إلى القمة ويعينك ويهبك الحكمة؛ وحسب إرادته وبصورةٍ عجيبة يقودك إلى الكمال. الذي له يليق المجد والتسبيح مع أبيه الصالح وروحه الْقُدُّوس إلى أبد الآبدين. آمين.

المَيْمَر الرَّابع

في التدابير المتقنة، وسائر أنواع الفضيلة بالسؤال والجواب

١ – سؤال: بأي رباط يُربط القلب حتى لا يبادر إلى الشرور؟

جواب: بأن يتبع دائماً الحكمة، ويُقبل بشَرَهٍ على تعليم الحياة؛ لأنه لا يوجد رباط آخر لاضطراب الفكر أقوى من هذا.

٢ – سؤال: ما هو حَد جَرْي الذين يطلبون الحكمة، ومتى يكمل سبيل التعليم بها؟

جواب: الوصول إلى هذه الحدود واستقراء غايتها أمرٌ ممتنع، حتى أن الملائكة القديسين قد قصروا عن البلوغ إلى كمال الحكمة، لأن طرقها لا تنتهي؛ ولا يزال تابعها يعلو إلى أن توحِّده بالله تعالى. والدليل على ذلك أن تصورها غير متناهٍ، وليس حدٌّ لفهمها؛ لأن الحكمة هي الله تعالى.

٣ – سؤال: ما هو الطريق الأَوَّل والبداية التي تقرِّبُنَا إلى الله؟

جواب: هو طلب الله عزّ وجلّ بكل القدرة والاجتهاد في ذلك مدى الحياة وإلى الموت، وإن دعت الحال إلى نبذها وخلعها (يعني الحياة) من أجل محبة الله، فلا نتوانى.

٤ – سؤال: مَن هو المستحق أن يُدعى فهيماً ولبيباً؟

جواب: هو الذي قد فهم بالحقيقة أن لحياته هذه حدًّا، وهو قادر أن يضع حدًّا لذنوبه. فأي علم أو فهم يكون أجلّ من هذا العلم، أعني أن يسلك الإنسان طريق الحكمة ليعرف كيف يخرج من هذه الحياة بلا فساد وليس له عضو متدنس برائحة الشهوة، ولا وسخ قد شاب نفسه من لذتها الرديئة. لأن الإنسان الذي يتلطف ذهنه ويقف على أسرار كل الطبائع ويَغزُرُ علمه وفهمه وإدراكه، بينما تكون نفسه متدنسة بوسخ الخطية وما قد أدرك الحق برجاء نفسه أنه سيصل بأمَّان إلى ميناء الثقة، فهذا الإنسان ليس في العالم من هو أجهل منه؛ لأن أعماله قد انتهت به إلى رجاء هذا العالم وأوقفته في سبله.

٥ – سؤال: مَن هو الأقوى حقيقة؟

جواب: هو المسرور بأحزانه وضيقاته الوقتية التي قد سُتِر فيها مجد غلبته وظفره، ولا يُؤْثر السعة التي قد تخفَّتْ فيها حياة الخزي، وتسقي في كل وقت من يجدها كأس التنهد.

٦ – سؤال: إذا انحرف إنسانٌ سائر في طريق الله عن الأعمال الصالحة بسبب التجارب، فهل يضرُّه ذلك؟

جواب: لا يمكن لأحدٍ أن يدنو من المسيح خلواً من ضنك، ولا يمكن أن يُحفَظ برُّ الإنسان بمعزل عن الغيار خلواً من الضيقات أيضاً. فإن قَطَعَ الأعمال التي تنمِّي البرَّ وتحفظه، يصير مثل كنز غير محروس، وكمجاهد عارٍ من سلاحه إذا ما أحدقت به طغوم أعدائه، وكسفينة ليس لها آلاتها (أي أشرعتها)، وكبُستان قُطِّع عنه ينبوع الماء.

٧ – سؤال: مَن هو المستنير في معقولاته؟

جواب: هو الذي قد أدرك وجود المرارة المدفونة في حلاوة العالم، ومنع فمه من أن يشرب من هذه الكأس. وهو الذي يبحث دائماً عن خلاص نفسه، ولا يكفّ عن الجري إلى أن ينحلَّ من هذا العالم؛ وقد أغلق أبواب حواسه لئلا يدخل إليه شوق هذه الدنيا فيسرق كنوزه المخفية.

٨ – سؤال: ما هو العالم، وكيف نعرفه، وما هو الذي يؤذي محبيه؟

جواب: إن العالم (يشبه) زانية ما، اجتذبت بشهوة جمالها الناظرين إليها (واستمالتهم) إلى عشقها. والذي يُقتنص بحبه ويرتبط به ارتباطاً جزئياً لا يقدر أن ينفكَّ من يديه إلى أن يسلبه حياته. وإذا ما عرَّاه من كل شيء وأخرجه من بيته يوم موته، حينئذ يعرف أن العالم مُضلٌّ، وأنه كان مُطغِياً له. ومتى اجتهد المرء في الخروج من ظلمة هذا العالم، فما دام مدفوناً في قبور شهواته فإنه لا يقدر أن يرى شِباكه. وعلى هذه الصفة فالعالم يمسك لا تلاميذه وأولاده المرتبطين به فقط، بل والذين لا يقتنون شيئاً منه والنسّاك الذين قطعوا رباطاته وصاروا في دفعة وَاحِدة أعلى منه، ويشرع في صيدهم بطرق متعددة الأنواع ويطَؤهم بأشكال مختلفة.

٩ – [سؤال: بما أنك قد أثبتَّ لي أن العالم هو بالحقيقة يسحق الذين يسكنون فيه؛ ثم إنه من الصعوبة إدراك قيوده الماكرة؛ فلذلك أنا أريد أولاً أن أعرف ما هو منشأ هذه الحركة التي تبعث الشك في العقل من جهة العالم، طالما أن كل قيوده لذيذة، وأشكال أغلاله مخفية.

جواب: عندما يتحرك فكر المحبة في الإنسان (لخلاص) نفسه، فإنه بسبب حركة (أو قوة) هذا الفكر يصير العالم مكروهاً أمَّام عينيه، ويميل الإنسان للشك بخصوصه.

١٠ – سؤال: متى يقتني الإنسان هذه القدرة لكيما يتحرك بهذه الكيفية، حتى أن الأشياء التي كان دائم الثناء عليها كل الأوقات ويعتبرها جميلة؛ إذا بها فجأة تبدو غير مقبولة لديه ثم يشعر بتبكيت على حياته ومعرفته السابقة التي لم يكن له فيها فكرٌ صائبٌ عن العالم؟

جواب: في البداية تعطيه الطبيعة هذه الحركة المُفرِزة وتوضح له في صمت عدم ثبات هيئة هذا العالم، ونهاية مسيرته، والطبيعة الزائلة لكل الداخلين إليه، لدرجة أنه يرى العالم مجرد معبر لأولئك الذين يدخلونه من الأجيال الكثيرة وللأعداد المهولة غير المعروفة التي سبقته. فهم يدخلون العالم كمثل عابر سبيل يدخل إلى نُزُل (فندق) ليبيت ليلته ويخرج منه ولا يعود إليه أبداً. بعض منهم كانوا ملوكاً وحكأمًا والبعض حكماء وشرفاء، بعضهم كتبة وخطباء، وآخرون كانوا قضاة أو جنوداً، بعضهم كانوا ذوي كنوز وفيرة أو أصحاب ممتلكات، لكن الآن بعد رحيلهم لم يعد هناك وجود بعد لعلوّ مقامهم وتاج ملوكيتهم وقوة عروشهم، وترف أطيابهم، وتملُّق الذين يمجدونهم أو محبة أصدقائهم وتنعمات أجسادهم، وحسن جمال الأشياء المسلية لهم أو تشامخ رفعة مقامهم، وأيضاً ثقافتهم العقلية وذهنهم المتوقد بالأفكار، أو غزارة فيضان نهر جيحون، أقصد معارفهم التي تتدفق من أفواههم وتسلب القلوب بظرافتها. ها إنهم الآن نائمون في الجحيم لدهور عديدة كما لو كانت ليلة وَاحِدة! ولا يُدرى كم تبقَّى من الزمن في رقادهم الطويل هذا، ومتى يدركهم فجر القيامة ليوقظهم من سباتهم. فعندما يتأمل الإنسان لماذا هم تُركوا في مثل هذه الحالة فهو يكتئب بمرارة مفكراً أنه كم من أجيال مجهولة يحتويها تراب الأرض، وأنه سوف يعبر مثلما عبروا، وأنه لملعون هو الغنِى والرَّاحَة!

عندما يتفكر الإنسان في هذا، فإن خوفاً شديداً يغشى قلبه ويمتلئ عقله بالعذاب. ومن ضغطة ضيقته فإن دموعه تسقط بحزن عظيم، ويبتدئ يزدري بالعالم ويكتئب على حياته وينوح على نفسه بمراثي عديدة مريرة. وبحسرة يقول لنفسه: أين ستكونين يا نفسي الشقية، وأين ستستقرين بعد الوفاة؟ وربما تصعد عليه هذه الأفكار لتقول له: ألم يكن من الأفضل ألا أوجد في هذه الحياة وأخرج من بطن أمي! فبهذه التأوهات يذرف دموعاً حلوة من انحسار قلبه، وتبتلُّ ملابسه من نواحه. وهكذا يصير هذا العالم أمَّام عينيه كسجن، وتصبح كل حلاوته السابقة أكثر مرارة من كل شيء. وتتحول حينئذ محبة الحياة والجمال الذي كان يشتهيه إلى رمزٍ للجحيم.

عندئذ يتحول عقله إلى الكتب المقدسة التي تبث فيه الإيمان بالقيامة وبزوال كل الأشياء التي في العالم، وبالوعود الثابتة في الكتب والمعطاة للذين يسلكون باستقامة فيه (أي في العالم). ويتأمل كذلك في الدينونة الإلهية التي تتوعد الذين يخالفون الوصايا، والذين أحبوا أن يسيروا في طريق الخطية الواسع إبَّان حياتهم القصيرة. وكمثل إنسانٍ يتواجه مع النور، فإنه في التوِّ

يتخلص من ضيقته الأليمة، وتتحرك فيه بهجة عظيمة، كمثل مَن وجد رجاءً ثميناً حقيقياً.

ولكن هذه الأشياء وأمثالها لا تقدر طبيعة الإنسان أن تضطلع بها من ذاتها، ولكن يمكن فهمها بالإيمان فقط من خلال إشارات الكتب المقدسة. فالإنسان، بطبيعته وبقوة الحركات المُفرِزة التي تنهض بداخله، لا يستطيع تماماً أن يقتني لنفسه تعليماً واضحاً فيما يخصه. ولكننا نستطيع أن نتعرف على أعمال تَدْبِير الله سواء في المستقبل أو في الماضي من الكتب المقدسة، أو من الاستعلان الرُّوحي. وهكذا فإن عين الإنسان العقلية تستنير بواسطة أشعة الإيمان والكتب المقدسة، والقدرة على الإفراز التي في طبيعته تضيء، وهكذا ينهض لكي يهتم (بخلاص) نفسه. وبعد ذلك فإنه يتدبر الوسائل التي يطلق بها حياته حرَّة من العالم حتى يمكنه قبل أن يرحل عن الجسد أن يعدَّ الزاد الذي يفيده هناك.

١١ – سؤال: كيف يستطيع الإنسان أن يخرج كلياً من هذا العالم؟

جواب: ذلك يكون من الاشتياق الذي ينشأ عن تذكُّر الأمور الْعَظِيمة العتيدة التي تزرعها الكتب الإلهية في القلب بما لها من الكلمات العذبة المملوّة رجاء. فما لم يواجه الإنسان تلك الأشياء المعتبرة عظيمة وشهية – والتي كان متعلقاً بها من قبل – بالاشتياق للأشياء الأفضل (أي السماوية)، فإنه لن يستطيع أن يتخلى عن حبه السابق (لأمور العالم).

١٢ – سؤال: إن طبيعة الإنسان ضعيفة ولا تستطيع فجأة أن تجحد عاداتها السابقة، وأن تتقبل حياة الضيقات!

جواب: ما لم يقارن الإنسان في عقله، بحكمة عالية، عظمة الحياة العتيدة بخفة ضيقة هذه الحياة القصيرة، فهو لن يستطيع أن يتشجع لَيْتَقدم إلى احتمال الضيقات لكي يمكنه أن ينطلق في رحلته في طريق العالم الجديد. وأنا أدعوك أن تقدِّر في فكرك عدد السنوات التي سوف نحياها في الموضع الذي نعيش فيه، ثم امتدّ بفكرك قدر ما تستطيع وقارن هذا العدد بأيام العالم الآتي، وانظر إن كان عدد ما سوف تعطيه يوازي عدد ما سوف تأخذه بالمقابل. وتأمل أيضاً إذا كنتَ تعقد مبادلة متكافئة بين ما تتخلى عنه وما سوف تناله عوضاً عنه هناك.

لذلك فالإنسان الحكيم إذ ينذهل بعظمة ولا نهائية الحياة في ذلك العالم المزمع بمقارنتها بالحياة القصيرة هنا، يقول إن أيام سني الإنسان إن طالت فهي مئة عام، وهي أشبه بدلو ملآن من ماء البحر، أو بحبة رمل وَاحِدة. لأن يوماً وَاحِداً في عالم الأبرار خير من ألف سنة في هذا العالم الحاضر.].

١٣ – سؤال: ماذا نفعل بالجسد إذا ما أحدق به المرض والثقل وارتخى معه العزم والإرادة من شهوة الصلاح، ومن النشاط الأوَّل؟

جواب: إنما يحدث هذا الأمر من أجل أن الإنسان الذي هو بهذه الصفة يكون قد خرج نصفه وراء الله تعالى والنصف الآخر قد مكث في العالم. ولهذا فإن قلوبهم لم تنصرف أغراضها عما هنا، بل قد انقسمت أنفسهم: فهم تارة ينظرون إلى قدام وتارة أخرى إلى وراء. وعلى ما أظن فإن الحكيم يعظ هؤلاء المقتربين إلى الله تعالى مع انقسام مآربهم، ويقول: «لا تدنُ منها (أي الحكمة) بقلبين»، بل اقترب إليها كزارع وكحاصد.

ولأن الربَّ يعرف أنه بين الذين يرفضون العالم كلية هناك من قد استعدوا لذلك بإرادتهم بينما هم منقسمون بأفكارهم وراجعون إلى وراء لسبب الخوف من الضغطات، ولكونهم لم يطرحوا بعد شهوة الجسد عنهم؛ فقد آثر تعالى أن ينبذوها من ألبابهم، ولهذا حدَّ لهم حداً فقال: «من أراد أن يأتي ورائي فليجحد أولاً ذاته».

وما هو هذا الجحود الذي يذكره هنا؟ إنه جحود الجسد، إذ يكون مستعداً كمن قد دُعي للصعود على الصليب متصوراً في فكره الموت. وهكذا يخرج كإنسان غير مفكر في شيء من هذه الحياة. فمن آثر أن يتمم قول الرب: «يحمل صليبه ويتبعني»، فعلى هذه الصفة يجب أن يكون؛ لأن الصليب يدل على الإرادة المستعدة للقاء كل ضيقة.

ولما أراد الرب أن يوضِّح لنا العلة في أن هذا الأمر هو هكذا (أي بالصفة التي ذُكرت)، قال: «مَن يريد أن يحيا في هذا العالم فسيهلك ذاته من الحياة الحقيقية». أمَّا الذي يهلك ذاته ههنا من أجلي، أي يسير في طريق الصلب ويضع خطواته فيها، لكنه يعود مرة أخرى ويهتم بهذه الحياة، فقد أهلك ذاته من الرجاء الذي بتوسطه خرج للقاء الضيق والضنك. لأن هذا الاهتمام لا يدعه يدنو من الحزن الذي من أجل الله تعالى؛ بل إنه (أي العالم) يجذبه بعد قليل ويخرجه من وسط جهاد الحياة السعيدة؛ وينمو فيه هذا الفكر ويقوى عليه حتى يقهره تماماً. أمَّا الذي يقبل في فكره أن يهلك نفسه من أجل اقتناء حب المسيح، فإنه يُحفظ لحياة أبدية بلا لوم أو أذى. وهذا هو معنى قوله: «من يهلك نفسه من أجلي يجدها».

فمِن هنا إذن أَعدد نفسك لهلاك كامل من هذه الحياة العالمية فأجُود عليك بحياة دهرية حسبما وعدتُك، وأُظهر لك وعدي بالفعل في هذه الحياة (مؤكداً) حقيقة الخيرات العتيدة. فإذا ما تهاونتَ بهذه الحياة، حينئذ تظفر بالحياة الدهرية. وإذا ما اقتنيتَ هذا الاستعداد على الدوام، فحينئذ يقلّ في عينيك قدر كل ما كنتَ تظن أنه مُتعِب ومخيف. لأن العقل إذا ما تهيأ هكذا، لا يكون له جهاد ولا حزن لحظة هول الموت. لهذا ينبغي أن نعلم بكل تأكيد أنه إن لم يبغض الإنسان حياته في هذه الدنيا شوقاً إلى الحياة المنتظرة، فلن يقدر على احتمال الضيقات والأحزان (التي تصادفه كل ساعة).

١٤ – سؤال: كيف يقطع الإنسان عاداته الأُولى بالفعل، ويعوِّد ذاته طيلة حياته على التصرف بالعوز والنسك؟

جواب: إن الجسم لا يمكنه أن يعيش خلواً من حاجته، ولكن العقل يتمكن من إمساكه عن الغذاء والاسترخاء بمقدار ما يكون بعيداً عن الأشياء التي تسبب له الاسترخاء. لأن الجسد إذا نظر كل حين علل التنعم، تتيقظ فيه شهوة مضطرمة. ولذلك أوصى المخلص تعالى تابعيه أن يتعرُّوا ويخرجوا من العالم. لأن الإنسان ينبغي له أولاً أن يطرح عنه علل التنعم والرخاوة، وبعد ذلك يدنو من العمل. والرب نفسه عزَّ وجل عندما ابتدأ في محاربة الشيطان، إنما حاربه في برية مجدبة جداً. والطوباني بولس يرسم لحاملي صليب المسيح أن يخرجوا من المدينة، ويقول: «ينبغي أن نخرج معه ونأخذ عاره، لأنه تألم خارج المدينة». لأن الإنسان بانفصاله من العالم ومن أموره، ينسى سريعاً عاداته الأَولى، ولا يتعب وقتاً طويلاً فيما هو بسبيله (أي في جهاده). أمَّا القرب من العالم ومن أموره، فإنه سرعان ما يرخي قوة فكر المرء. [لذلك ينبغي أن يعرف الإنسان أن الانعزال عن العالم يعينه جداً ويرشده على طريق التقدم في الجهاد الصعب الذي للخلاص]. إذن فثبات الرَّاهِبُ في قلايته في عوزٍ وعدمٍ، حيث تكون القلاية خالية من كل ما يحرك شهوة الرَّاحَة، هو أمر موافق وملائم ومعين لهُ في الجهاد. لأنه إذا ما بعدت أسباب الاسترخاء عن الإنسان، فهو لن يتكبد مشقة كثيرة في القتال المتضاعف، أعني الذي من الداخل ومن الخارج. كما أن الإنسان البعيد من الملذات يمكنه أن يَقهر ويَغلب بلا تعب، بعكس من يكون قريباً منها ومما يمكن أن يتحرك فيه من جهتها؛ لأن الجهاد هنا يكون مضاعفاً.

أمَّا إذا كان الإنسان فقيراً في مسكنه، فإن حوائجه أيضاً تكون حقيرة ولا يعبأ بها ولا يفكر فيها أو يشتهيها ولا في وقت الحاجة إليها. وهو يُقنع جسده بالشيء اليسير وحتى هذا ينظر إليه باستهانة، وما يدنو من الغذاء من أجل لذَّته، بل ليسند به الطبيعة ويقويها فقط.

فهذه الوسائل هي التي تُرقِّي الإنسان سريعاً إلى النسك بغير تعب ولا مجاهدة ومكافحة أفكار. ولهذا يليق بالرَّاهِبُ أن يهرب من أي شيء يسبب له القتال، ولا يختلط بالذين يحاربونه، بل وأن يتحفظ حتى من النظر إليهم ويبتعد من مجاورتهم. وقَولي هذا ليس من أجل البطن فقط، بل ومن أجل كل ما يُمتحن به المرء وتُختبر به حرية الرَّاهِبُ.

لأن الإنسان إذا ما أراد أن يقترب من الله عزَّ وجل، ينبغي له أن يعاهده على الابتعاد من كل هذه الأمور التي أصفها، وهي: أن لا ينظر وجه امْرَأَة، ولا يرنو إلى الحسان المناظر، ولا يؤثر التنعم، ولا يشتاق إلى شيء مما لا ينبغي ولا يطمح ببصره إلى جمال الملابس ولا رفاهية أهل العالم، ولا يسمع أقوالهم، ولا يكون متعلقاً بهم. لأن الآلام تتقوى من القرب منهم ومن السماع عنهم فترخي المرء المجاهد وتغير عقله وقصده (وتجعله يتراجع عما شرع فيه).

لأنه إذا كانت مناظر الأمور الفاضلة تحرك الضمير بالغيرة على المنافسة وتدفعه إلى العمل

بها، فمن البيِّن أن أضداد تلك الأمور لها أيضاً قوة على جذب القلب إليها. فإن لم يحدث في الفكر الهادئ أي أمر كبير سوى أنه يلقي ذاته في جهادات القتالات، [فحتى هذا يكون مضرة عظيمة؛ لأن الإنسان الذي يُلقي ذاته بإرادته من الهدوء إلى الاضطراب يتكبد خسارة جسيمة]. فإن كان أحد الشيوخ النساك وهو كبير في القديسين، عندما نظر شاباً أمردَ (أي بدون لحية) يشبه النساء، اعتبر ذلك مؤذياً لفكره ومخسراً إياه في جهاده، فكيف يكون حال من يتهاون بأمور أخرى غير هذه؟ ولا سيما أن هذا القديس والشيخ الحكيم لم يسمح لنفسه بالدخول (إلى دير ليسلم على الإخوة) حتى لا يلتقي بهذا الأخ ولا يسلم عليه. لقد تميز الأمر وقال: إن أنا تفكرت فقط في هذه الليلة أن ههنا شيئاً كهذا لكان لي ذلك خسارة عظيمة. ولذلك قال لهم: أنا يا أولادي لا أخاف، ولكن لماذا أجلب على نفسي حرباً بلا سبب؟ ولماذا يدخل على فكري ذكر هذه الأشياء عوض نقاوة عملي؟ لأن فكر مثل هذه الأمور يزعج القلب إزعاجاً لا فائدة منه. ولأن للإنسان قتال في كل عضو من أعضاء جسده، لهذا ينبغي له أن يحفظ ذاته ويبعدها من قتال هذه الأمور؛ لأنها إذا ما دنت منه، فحتى إن جاهد في اتِّباع الخير، إلا أنه على كل حال يقاسي منها الأهوال؛ وذلك لأنه إذ ينظر إليها يجذبه الاشتياق، أمَّا إذا بعدت عنه يكون له جهاد قليل فقط بسببها.

إننا نعلم أنه في الصيف توجد عقاقير (حشائش طبية) كثيرة تكون مستترة في الأرض ولا يعرفها أحد بسبب شدة جفافها في الحر؛ لكنها إذا ما تندَّت بالماء وفاحت رائحتها بفعل برودة الهواء، حينئذ يتبين كل نوع منها أين كان مدفوناً في الأرض. هكذا الإنسان إذا ما كان في نعمة السكون وفي حرارة النسك، فإنه يكون مستريحاً من آلام كثيرة؛ فإذا ما اقترب من أمور هذا العالم، ينظر كيف ينهض كل وَاحِد من الآلام ويرفع رأسه من موضعه، لا سيما إذا تنسَّم رائحة الرَّاحَة. وقد قلتُ هذا حتى لا يتجاسر أحد، ولا يثق ما دام حياً في هذا الجسد وإلى أن يموت؛ ولكي أُظهر مقدار المعونة التي يحظى بها المرء في جهاده من الهرب وإبعاد ذاته من علل الشرور التي ذكرناها. لذلك ينبغي لنا أن نخاف من الأشياء التي تجلب لنا خزياً وحزناً بتذكرها، وأن لا نطأ ضميرنا أبداً أو نهمله من جهتها.

ولهذا فإن الأوفق لنا أن نذهب بالجسد إلى برية (خالية من علل القتال) لكي نقتني له صبراً. والأفضل من هذا كله هو أن نبتعد عن علل القتال؛ لأن الإنسان إذا كان بعيداً من ذلك الشيء الذي هو سبب قتاله، ولو أنه يتضايق بالفكر، إلا أنه يكون بلا خوف من السقوط، بينما إذا انغلب بالفكر وكان الشيء قريباً منه سقط أيضاً بالفعل.

١٥ – سؤال: الذي نبذ وطرح عن نفسه كل تعلق ودخل في الجهاد مقابل الخطية، أي ابتداء يكون له في القتال، ومن أين يبدأ في المصارعة؟

جواب: هذا الأمر معروف عند الكل: أن تعب الصَّوْم هو مبدأ كل جهاد ضد الخطية والشهوة، وخاصة في الجهاد مقابل الخطية التي بداخلنا. وعلامة بغض الخطية وشهواتها من هنا تتبين

للذين يتهيأون قبالة هذا القتال غير المنظور، كونهم يبدأون بالصَّوْم. والذي يساعد أيضاً على هذا الأمر مع الصَّوْم هو سهر الليل.

إن الذي يحب مواظبة الصَّوْم كل أيام حياته يكون صديقاً للعفة. وكما أن راحة البطن مبدأ لكل الشرور، وخيرات هذا العالم والاستلقاء في النوم ينهض شهوة الزنا، كذلك فإن الصَّوْم والسهر في خدمة الله تعالى وصَلب الجسد طوال الليل مقابل عذوبة النوم، هو مبدأ طريق الله المقدسة وأساس كل فضيلة. فالصَّوْم هو حافظ الفضائل، ومبدأ الجهاد، وإكليل النساك، وجمال البتولية والقداسة، وبهاء العفة، وابتداء طريق المسيحية، وأم الصلاة، وينبوع التضرع، ومعلم السكون، ومتقدم ومتفوق على كل المناقب الجميلة. وكما أن العيون الصحيحة يتبعها الاشتياق إلى النور، هكذا الصَّوْم بإفراز تتبعه شهوة الصلاة. فإذا ما ابتدأ الإنسان أن يصوم فمن ههنا يشتاق في فكره إلى مباشرة محادثة الله عزَّ وجل. والجسد الصائم ما يتم له أن ينام على فراشه كل الليل. [فالصَّوْم بطبيعته يدفع النفس إلى اليقظة أمَّام الله، ليس فقط أثناء النهار بل وفي الليل أيضاً. لأن جسم الصائم لا يتعب كثيراً في الجهاد مقابل النوم. وإن كانت حواسه قد تضعف، إلا أن عقله يظل متيقظاً أمَّام الله في الصلاة. فمن الأفضل للإنسان أن يتوقف عن خدمته بسبب الضعف الناتج من الصَّوْم، وليس بسبب الكسل الناتج عن امتلاء البطن].

بمقدار ما يتوفر المرء على الأصوام ويختم فمه بخاتمها، هكذا يتصل هذيذه بخشوع، ويحرك قلبه للصلاة، ويظهر الانقباض والعبوسة (أي ملامح الجدِّية) على وجهه، وتبتعد عنه الأفكار السمجة، ويختفي الجزل والطرب من بين عينيه، ويصير عدوّاً للشهوات والمحادثات الباطلة. فلم يَر أحدٌ قط صائماً بإفراز قد استعبدته شهوة سمجة. لأن الصَّوْم بتمييز هو أساس عظيم لكل فضيلة ومنزل حاوٍ لكل خير؛ ومن تهاون به فقد أزال عنه كل خير وزعزع كل فضيلة. فالصَّوْم هو الوصية الموضوعة لطبيعتنا منذ البدء للحفظ والصيانة، ومن هنا سقط مبدأ جبلتنا. ولذلك فمن حيث توجه الهلاك الأَوَّل (على آدم بمخالفة الوصية)، من هذا الموضع بعينه أقبل المجاهدون إلى خوف الله عندما شرعوا في حفظ نواميسه.

والمخلِّص جلَّ اسمه، عندما ظهر للعالم في الأردن، من ههنا ابتدأ. والدليل على ذلك أن الرُّوح بعد العماد أخرجه إلى البرية، فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة. وكل الذين خرجوا مقتفين أثره، وضعوا بداية جهادهم على هذا الأساس؛ لأنه سلاح مصنوع لنا من قِبل الله، فكيف لا يلام من استهان به؟ فإن كان واضع الناموس نفسه قد صام، فمَن مِن المؤثرين حفظ الناموس لا يحتاج إلى أن يصوم؟ فإنه إلى ذلك الوقت لم يكن جنس الناس قد عرف الغلبة، ولا المحال (أي الشيطان) جرَّب انغلابه من طبيعتنا البتة؛ لكنه بهذا السلاح ضعف منذ البداية. ورَبَّنَا كان هو البادئ بالظفر، وجاد أولاً بتاج النصرة على رأس طبيعتنا. فإذا نظر المحال المعاند والعدو المارد هذا السلاح على إنسان، فهو للحين يخاف ويتذكر سريعاً انخذاله وانهزامه في البرية من جهة المخلص تعالى، وتنكسر قوته بنظر السلاح الذي أعطانا إياه رئيس جيشنا. يا لَيْتَ شعري أي سلاح يكون أقوى منه، ويمنح القلب شجاعة في المصارعة ضد أرواح الشر، أعني

الجوع من أجل المسيح سبحانه وتعالى؟ لأن بمقدار ما يتعب الجسد ويشقى حين يحدق جيش الشياطين بالإنسان، هكذا يعتصم قلبه بالثقة. والذي قد توشح بسلاح الصَّوْم يضطرم بغيرة إلهية في كل الأوقات. فإيليا الغيور عندما غار من أجل ناموس الله قصد الصَّوْم قصداً لأنه يذكِّر مقتنيه بوصايا الرُّوح.

الصَّوْم واسطة ما بين الناموس القديم والنعمة المعطاة لنا من المسيح، ومن تهاون به فإنه يتراخى ويضعف عن بقية الجهادات. ويصير الاسترخاء علامة تدل على نفسه، ويعطي مُحاربه موضع فتكٍ. ولأنه تقدم إلى الجهاد عارياً من سلاحه، فمن البيِّن والمؤكد أنه سوف يتراجع عن الجهاد دون أن ينتصر؛ لكونه لم يُدرِّع أعضاءه بدرع الصَّوْم، وسلاح الجوع، الذي يحرس الإنسان ويجعله ذا فكر ثابت ومستعد دائماً لمواجهة الآلام الصعبة والضيقات المحزنة.

لقد قيل عن كثيرين من الشهداء، إنهم في اليوم الذي كانوا يتوقعون فيه قبول إكليل الشهادة، إذا علموا ذلك أمَّا بإعلان أو من جهة أحد رفقائهم، ما كانوا يذوقون شيئاً في تلك الليلة؛ بل كانوا ينتصبون من العشاء إلى الصباح ساهرين في الصلاة، وممجدين الله بالمَزَامِير والتسابيح والتماجيد الرُّوحانية. وكانوا يستقبلون تلك الساعة بفرح وسرور مثل قوم مستعدين للعرس، وينتظرون لقاء السيف بصومهم. فالخليق بنا نحن أيضاً المدعوين إلى الشهادة غير المنظورة وإلى قبول إكليل القداسة أن نتيقظ ولا نعطي لأعدائنا علامة الانكسار ولا في عضوٍ وَاحِد من أعضائنا.

١٦ – سؤال: إن طائفة من الناس غالباً ما تكون لهم هذه الأعمال، ولكنهم لا يحسون بسكون الآلام ولا بهدوئها، ولا بسلامة الأفكار.

جواب: إن الآلام المدفونة في النفس، يا أخي، لا تهدأ ولا تسكن بالأعمال الجسدانية فقط؛ لأن أعمال الجسد وحدها لا تقدر أن تصد أو تمنع الأفكار والهواجس المنتبهة دائماً بتوسط الحواس. فهذه الأتعاب تحفظ الإنسان من الشهوات لئلا يُقهر منها وينغلب، كما وتحفظه من الشياطين لئلا يؤذوه في شيء؛ أمَّا السلام والهدوء فلا تقدر (هذه الأتعاب الجسدانية) أن تعطيها للنفس أو تفيدها بشيء. لكن الأعمال والأتعاب تمنح النفس عدم التألم، وتميت الأعضاء التي على الأرض، وتجود بالرَّاحَة على الفكر، إذا ما توفرنا على السكوت وأشركناه معها، وسكنت الحواس الخارجية من الانزعاج وثابرت على عمل الحكمة مدة من الزمن. لأن الإنسان لا يقدر أن يعرف آلامه ويفهمها إلى أن يُعدم لقاء الناس ويصون أعضاءه من مجاذبة أمور كثيرة ويجمع ذاته إلى ذاته (أي يجمع أفكاره داخل نفسه). لأن السكون حسبما قال القديس باسيليوس هو ابتداء طهارة النفس. فإذا ما كفَّت الأعضاء الخارجية (عن نشاطها الخارجي) وعن كل تشويش من الخارج، عند ذلك يرجع العقل من الطياشة إلى بلده (داخل نفسه)، ويستيقظ القلب للفحص عن الحركات والمعاني التي بداخل النفس. فإذا ما أحسن الإنسان الثبات في هذا، فإنه يأتي (تدريجياً) إلى طهارة النفس.

١٧ – سؤال: أما يمكن للنفس أنْ تتطهر بتصرفها[٣٧] خارج الباب؟

جواب: الشجرة التي تُسقى كل يوم، أيجف أصلها؟ والإناء الذي يمتلئ كل يوم، متى ينقص؟ فإن كانت الطهارة ليست شيئاً آخر سوى نسيان التصرف الفاقد الحرية (المُستَعبد للأوجاع)[٣٨]، والتخلي عن عادات هذا التصرف؛ وإن كان الإنسان، بفعلٍ من نفسه أو من آخرين، يجدد ذكر هذا التصرف (الذي هو معرفة الشرور) في نفسه بتوسط الحواس، فمتى يمكن للنفس أن تتطهر من هذا الأمر؟ أو متى يتفرغ من مصارعة الأشياء التي من خارج إن كان ما زال يعاينها؟ وإذا كان القلب يتدنس كل يوم، فمتى يمكنه أن يتنقَّى من هذا الدنس؟ فإن كان الإنسان لا يقدر أن يقاوم الفعل والسقوط (الذي يأتي عليه من الخارج)، فهو بالأَولى لا يقدر أن يطهر قلبه وهو ماثِل وسط المعسكر يسمع كل يوم نذائر الحرب وأخباره الصعبة. ومَن هو هكذا كيف يتجاسر أن ينادي بالسلام لنفسه؟ أمَّا إذا ابتعد من هناك، فحينئذ يقدر بعد قليل أن يسكِّن المنادي الأَوَّل الذي من الداخل (أي الحرب الداخلية)؛ لأن النهر إذا لم يُسدَّ من أعلاه لا تجف مياهه من أسفل. فإذا ما أتى الإنسان إلى السكوت حينئذ تقدر نفسه أن تميز الآلام، وتبحث عن حكمة ذاتها. ويستيقظ الإنسان الداخلي أيضاً لعمل الرُّوح، ومن يوم إلى يوم يحس بالحكمة الخفية المزهرة في نفسه.

١٨ – سؤال: ما هي الأدلة الأكيدة والعلاَّمات السديدة على أن الإنسان بدأ ينظر في عمله الثمار الخفية التي للنفس؟

جواب: يكون ذلك إذا ما تأهل الإنسان لموهبة الدموع الواردة من غير تغصب ولا تكلف. لأن الدموع قد وُضعت للعقل كحد بين ما هو جسداني وما هو روحاني، وبين التألم والطهارة. فإن لم يؤهَّل الإنسان لنعمتها، فعمله بعدُ يكون في الإنسان الخارجي، ولا يكون قد أحسَّ ولو قليلاً بالعمل الخفي الذي للإنسان الرُّوحاني. فإذا ما بدأ أن يترك جسدانية هذا العالم (أي أموره المادية)، وعبر هذا الحد إلى ما هو داخل هذه الطبيعة المرئية، فإنه يصل في الحال إلى هذه النعمة أي نعمة الدموع. ومن ملازمته المنزل الأَوَّل الذي للتَدْبِير الخفي والسيرة المكتومة، تبتدئ هذه الدموع وتوصل الإنسان إلى كمال محبة الله عزَّ وجل. وبمقدار ما يتقدم إلى هناك، هكذا يتوفر (أي يزداد) نصيبه منها، حتى أنه من كثرتها ودوامها يشربها في كأسه ويتلذذ بها مع غذائه.

هذه إذن هي العلامة الأكيدة على أن العقل قد انصرف عن هذا العالم، وأن الفكر قد خرج من ههنا وأحسَّ بذلك العالم الرُّوحاني. ولكن هذه الدموع تقلّ بمقدار ما يقترب الإنسان بفكره من هذا العالم. أمَّا إذا انغمس وأُمسك العقل بالكلية في هذا العالم، فإنه يُحرم كلِّية من هذه العَبَرات.

---

[3] التصرف عن السلوك.

[2] [illegible]

وهذا دليل على أن مثل هذا الإنسان قد دُفن في قبر الآلام.

والدموع على ضربين، منها ما يحرق ويُلهب، ومنها ما يُبهج ويُزهر. أمَّا الدموع التي تكون من (انسحاق) القلب لأجل الهفوات، فإنها تُيبِّس الجسم وتحرقه، وفي أغلب الأحيان يحس الإنسان في رأسه بالألم عندما تفيض، وفي البداية يواجه الإنسان بالضرورة هذا النوع من الدموع؛ فهذه هي المنزلة الأَولى من منازل الدموع، وبتوسطها يُفتح له بابٌ يدخل منه إلى الرتبة الثَّانِية التي هي أفضل من الأَولى، وهو الموضع الذي يقبل فيه الإنسان الرحمة. أمَّا الدموع التي تفيض من الأفهام فهي التي تدسم الجسم وتُنضِّره، وهي تنحدر من ذاتها من غير إكراه أو تغصب، فتجعل منظر الإنسان يتغير، والجسد يدسم؛ لأنه يقول: «إذا ما فرح القلب أزهر الوجه»، وحَسُنَ الجسم. [فبينما يكون الفكر صامتاً تفيض هذه الدموع لتغطي الوجه كله؛ ويتقبل الجسد منها نوعاً من التغذية، وترتسم المسرة على الوجه. والذي قد اقتنى خبرة هذين النوعين يفهم هذا].

١٩ – سؤال: ما هي قيامة النفس التي يذكرها الرسول ويقول: "إن قمتم مع المسيح"؟

جواب: عندما قال الرسول في موضع آخر: «إن الله القائل إن النور يشرق من الظلام، هو قد أشرق في قلوبكم» دلَّ على أن القيامة هي الخروج من (الحالة) العتيقة التي هي مثل هاوية الجحيم التي تُغلق على الإنسان لئلا يشرق له نور الإنجيل بالسر الذي هو نسمة الحياة برجاء القيامة، والتي بواسطتها تظهر الحكمة الإلهية داخل القلب؛ ولكي يصير الإنسان جديداً ليس فيه شيء (من الإنسان العتيق)، أو من الأمور الحاضرة. وهذا ما يقوله النبي أيضاً: «وسأجود عليهم بقلبٍ جديد وروح جديد»، وعندئذ بالحقيقة يرتسم فيهم المسيح بتوسط روح الحكمة وانكشاف الاستعلان لمعرفته.

٢٠ – سؤال: ما هي قوة فعل السكون، على سبيل الإيجاز؟

جواب: السكون يميت الحواس الخارجية وينهض الحركات الداخلية؛ بينما التصرف (أي السلوك) الذي يكون في الخارج يفعل ضد هذا، أعني أنه يقيم الحواس الخارجية ويميت الحركات التي بالداخل.

٢١ – سؤال: ما هي علة المناظر والاستعلانات. وذلك لأن قوماً من الناس ينظرون، وآخرين يتعبون أكثر منهم ولا يفعل فيهم المنظر فعله.

جواب: إن علل المناظر والاستعلانات كثيرة: فمنها ما هو على سبيل السياسة (أي العناية الإلهية) وتَدْبِير العامة، ومنها ما يكون من أجل التعزية ولتقوية وتعليم الضعفاء. وهذه كلها

إنما تتوجه إلى الناس من قِبل رحمة الله (وبحسب تَدْبِيره) أولاً، وهي على الأكثر تُمنح لثلاث فئات من الناس: أمَّا لقوم بسطاء وعادمي الشر وودعاء للغاية؛ وأمَّا لقديسين كاملين؛ وأمَّا لقوم لهم غيرة تتوقد في الله تعالى، قد هجروا العالم ورفضوه بالكلية، وابتعدوا من مساكنة الناس وخرجوا وراء الله مجردين لا يتوقعون معونة ما من أي شيء مرئي؛ فحين يغشاهم خوف الانفراد، أو حين يحدق بهم ما يضاهي الموت خطراً من الجوع والمرض أو غير ذلك من الضيقات والكوارث حتى أنهم يدنون من اليأس وقطع الرجاء، حينئذ تأتيهم التعزيات. وهي تأتي لمثل هؤلاء بينما لا تُعطَى لمن لهم أعمال أكثر منهم؛ والعلة الأَولى في ذلك هي الطهارة أو عدمها، وأعني طهارة الضمير. أمَّا العلة الثَّانِية فهي في الحقيقة هذه: بمقدار ما يكون للإنسان عزاء بشري أو من جهة أي شيء من المرئيات، فإن هذا العزاء – أي عزاء المناظر والإعلانات – لا يُعطَى له إلا لأجل سياسة إلهية من أجل (منفعة) الجماعة. وكلامنا هذا هو من أجل المبتعدين المنفردين.

وَاحِد الآباء يشهد لما قيل، إذ أنه توسل وتضرع بخصوص هذا العزاء فسمع: «تكفيك للعزاء مفاوضة الناس». وآخر كان بهذه الصفة، فعندما كان منفرداً سالكاً في تَدْبِير المتوحدين وعائشاً بهذه الحال، كان يتمتع بهذا العزاء من النعمة كل ساعة. ولما قَرُب من العالم التمسه كالعادة فلم يجده، فابتهل إلى الله أن يدلَّه على العلة في ذلك قائلاً: «أتُرى يا رب انصرفتْ عني نعمتك لأجل الأسقفية»؟ فقيل له: «لا، بل هناك كانت برِّية، فكان الله هو الذي يهتم بك». لهذا نقول إنه لا يمكن أن يشترك العزاء الرُّوحاني مع العزاء المنظور الجسداني، ولا يتوجه إلى أحد من الناس إلا لتَدْبِير خفي إلهي من التدابير التي تقدم ذكرها.

٢٢ – سؤال: هل المنظر والاستعلان شيء وَاحِد، بل كما أنهما مختلفان في الاسم هكذا هما مختلفان بالفعل؟

جواب: هناك فرق بين الاثنين، (فالاستعلان هو أعمّ من المنظر). والاستعلان يقال عادة عن كلا الاثنين، لأن ما هو خفي يُستعلَن؛ شيء ما كان مخفياً أولاً وخرج الآن للظهور في كلا الحالين. فكل منظر هو إعلان وليس كل إعلان يقال إنه منظر. لأن الاستعلان في أكثر الأحوال إنما يحصل في الأمور المعلومة والمُذاقة (والمدرَكة) من العقل. أمَّا المنظر فيكون من كل نوع بمثالات وأشباه ورسوم كما صار إلى القدماء قديماً، أمَّا في نومٍ عميق وأمَّا في يقظةٍ. وتارة يكون المنظر حقيقياً، وتارة كالخيال وكالشيء المتواري. ولذلك كان الناظر نفسه في أغلب الأحيان لا يعرف ما قد نظر، وإن كان قد شاهد الأمر ساهراً أو راقداً (أي نائماً)، ولا إذا رجع إلى نفسه يعرف إن كان حقاً قد حصل له الشيء الذي كان [أم أنه كما لو كان حلماً. ويحدث أيضاً أن يسمع صوت نجدةٍ]، وأحياناً يرى رسماً ما، وأحياناً ينظر منظراً أكثر وضوحاً، أي وجهاً لوجه، في النظر والحديث والأسئلة والإجابات. والقوات المقدسة تظهر أيضاً للمستحقين، وتصنع الاستعلانات وتخبر الذين في القفار والأمَّاكن البعيدة عن الناس، حيث يكون الإنسان

بالضرورة محتاجاً إليها، لأنه ليس له في المكان مؤازرة ما ولا عزاء. أمَّا الاستعلانات التي تدرك بالفهم وبالعقل، فتحصل وتُقبل بتوسط الطهارة، ويكون وجودها للكاملين الْعَارِفِين فقط.

٢٣ – سؤال: ما هي العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى طهارة القلب؟ ومتى يعلم هو في ذاته أن قلبه قد طهر؟

جواب: متى رأي الناس كلهم جياداً، ولم يظهر له ولا وَاحِد منهم دنساً أو غير طاهر، حينئذ يكون قلبه قد طهر حقاً. وإلا فكيف يتمم قول الرسول أن يكون كاملاً في كل فضيلة ويحسب جميع الناس أنهم أفضل منه من كل قلبه وبالحق؟ وكيف يصحُّ أيضاً قول القائل: «إن عيناً نقية لا تنظر أموراً رديئةً»؟

٢٤ – سؤال: ما هي الطهارة وما هو حدُّها؟

جواب: الطهارة هي نسيان أنواع معرفة العالم الخارجة عن الطبيعة؛ الأمور التي وجدها الطبع في العالم واقتناها منه. وحدُّها هو الانعتاق من هذه الأمور حتى يأتي الإنسان إلى بساطة طبيعته الأَولى وعدم الشر، ويصير كطفل في كل شيء، بمعزل عن النقائص إلا ما كان منها للطفل فقط.

٢٥ – سؤال: هل يمكن للإنسان أن يبلغ هذه الرتبة؟

جواب: نعم، فهوذا الأب شيشوي قد بلغ إلى هذا المقدار حتى أنه سأل تلميذه إن كان قد أكل أم لا. وآخر من الآباء في زماننا هذا، وهو شيخ متقدم في الأيام، وصل إلى الطهارة وإلى هذه البساطة والوداعة حتى قارب الأطفال ونسي كل ما هو هنا (من أشياء هذه الحياة)، وأكل قبل تقدمه لتناول الجسد الإلهي، ولو لم يمنعه بعض تلاميذه لكان قد تناول وهو لا يعلم بأنه قد أكل، وكان تلاميذه يقرِّبونه للتناول كالطفل. (أمَّا بالنسبة للعالم فقد كان طفلاً) وأمَّا في النفس فقد كان كاملاً أمَّام الله.

٢٦ – سؤال: أي هذيذ ومفاوضة ينبغي أن يكون للناسك في موضع سكونه وحبسه حتى لا يشتغل عقله بأفكار باطلة؟

جواب: أعن الهذيذ تسأل؟! وكيف يتصرف الإنسان المائت عن العالم في قلايته؟! وهل يحتاج الإنسان الحريص المتيقظ في نفسه أن يسأل كيف يتصرف وأي عمل يكون له إذا كان وحده؟ فما هو هذيذ الرَّاهِبُ في قلايته إلا البكاء؟ ألعله يجد وقتاً يخلو من البكاء يُمكِّنه من الإصغاء إلى فكر آخر؟ وأي هذيذ يكون أفضل من هذا الهذيذ؟

إن جلوس الرَّاهِبُ (في قلايته) وانفراده، بشبه القبر العادم من كل مفرحات هذا العالم، يعلِّمه أن البكاء هو عمله والنوح هو دَيْدَنه (أي اهتمامه الدائم). وهذا اللقب الذي يُلقب به يحرضه أيضاً على ذلك؛ لأنه يدعى نوَّاحاً، ويعني: المرّ القلب. وجميع القديسين خرجوا من هذه الدنيا وهم نائحون.

فإذا كان القديسون قد ناحوا وانتحبوا وامتلأت أعينهم دموعاً إلى أن خرجوا ورحلوا من هذا العالم، فمن ذا الذي لا يبكي؟!

عزاء الرَّاهِبُ يتولد من البكاء. فإن كان الكاملون الغالبون قد بكوا هنا (في هذه الحياة)، فالمملوء جراحات كيف يحتمل أن يكفَّ عن النحيب؟ والذي له ميت مُلقى بين يديه، هل يحتاج إلى من يعلِّمه ويعرِّفه بأي فكر يذرف العَبَرات؟ نفسك مائتة بالذنوب مُلقاة بين يديك، وهي أفضل عندك من كل العالم، وتفتقر إلى البكاء؟! فإذا أتينا إلى السكون يمكننا الصبر وملازمة البكاء، ولهذا نحن مفتقرون إلى أن يكون الرب تعالى في فكرنا دائماً ليمنحنا هذا الأمر. لأننا إن ظفرنا بهذه النعمة التي هي أفضل من بقية النعم وأجلُّ، ندخل بواسطتها إلى الطهارة. وإذا دخلنا إليها لا تنتزع منا إلى أن نخرج من هذه الدنيا.

فيالغبطة أنقياء القلوب؛ لأنه لا يوجد وقت لا يتمتعون فيه بهذه النعمة، أعني نعمة الدموع، وفيها يشاهدون الرب عزَّ وجل دائماً. وحينما تكون الدموع في العيون، يؤهَّلون لمشاهدة استعلاناته في علوِّ صَلَوَاتهم؛ ولا توجد لهم صلاة بغير عَبَرات. هذا هو معنى قول الرب: «لَسُعداء الباكون لأنهم سيتعزَّون»؛ لأن الإنسان من البكاء يأتي إلى طهارة النفس. لكن الرب لما قال: «لأنهم سيتعزَّون» لم يفسر أي عزاء هو هذا العزاء. لأن الرَّاهِبُ إذا ما استحق أن يجوز بلدة الآلام بتوسط انسكاب الدموع، ويصل إلى ميدان طهارة النفس، يصادف بها هذا العزاء الذي لا يزول ممن وجده من ههنا. حينئذ يفهم أي عزاء أثمره النوح عند اكتماله من خلال الطهارة التي يجود بها الله على الباكين النائحين. لأنه لا يمكن للآلام أن تضغط إنساناً يبكي على الدوام؛ لأن البكاء هو بمعزل عن الآلام. فإن كانت الدموع تقدر أن تنقل العقل النائح نوحاً وقتياً من ذكر الآلام، فماذا نقول عن الذين صار لهم هذا العمل كدّهم ودَيْدَنهم ليلاً ونهاراً؟ من هو الذي يعرف المعونة التي تحصل من البكاء، إلا الذي أسلم نفسه لهذا العمل. فجميع القديسين اشتاقوا إلى هذا الدخول، وبتوسط الدموع فُتح الباب أمَّامهم ليدخلوا إلى بلدة العزاء التي قد رُسمت فيها آثار (محبة) الله بتوسط الاستعلانات.

٢٧ – سؤال: إذا لم تكن للإنسان قدرة على مداومة البكاء بسبب ضعف الجسد، فهل هناك شيء آخر يضبط به فكره لئلا تقفز عليه الآلام من أجل بطالة عقله؟

جواب: الآلام لا تستطيع أن تثور على النفس وتضغط المتوحد الذي يكون قلبه فارغاً خالياً من أمور العالم لأجل سيرته الانفرادية في سكون قفر البرية العادم من اضطراب وأصوات سجس

الخليقة، إلا إذا تهاون في تكميل صَلَوَات قانونه بما يليق بعمل الوحدة. فإذا كانت له مع مفاوضة الكتب الإلهية أفكار يتساعد بها، أعني نظر الأفهام (أي تأمل المعاني)، من هنا تبتعد عنه الأفكار الباطلة السمجة، ولا يستطيع العقل أن يتفرغ (من تلك الأفهام) لكي يلتفت إلى العالم بالكلية بسبب حلاوة تلك المفاوضة التي يرتفع بها العقل كالسكران بتوسط السكون الحادث من قفر البرية، فينسى ذاته وهذيذه الأَوَّل ويكون كإنسانٍ قد سكر ولم يعد يذكر هذا العالم كلية. ويكون ذلك بالأكثر إذا ما أخذ يهذُّ في عقله بعظمة الله ومجد طبيعته ويتعجب من أعماله، ويفكر في حقارة الإنسان ذاته، إلى أين وصل حتى أنه يفكر ويهذّ بهذه العظمة، وأي أفكار يجسر أن يأخذها في نفسه لتنعُّمه لكي يهدس كل وقت بدهش حركاته كالتصرف (أي التَدْبِير) الذي سيكون بعد القيامة.

والسكون يساعد كثيراً على هذا الأمر، لأنه يفسح مكاناً للعقل ليرجع إلى ذاته بواسطة السلام الذي يتوفر له من السكون. ومن هنا يتحرك بما يناسب قصد تصرفه؛ ويأخذ في فكره مجد العالم المزمع، والرجاء المعد للصديقين، وتلك الحياة المتحركة بالرُّوح المزهرة بالله، وذلك التصرف الجديد الذي ليست فيه حركة تَذكُّر شيء من هذا العالم.

وإذا ما سكر بهذه الأمور، ينتقل بتصوره من هناك إلى هذا العالم (الذي ما زال يحيا فيه) ويقول متعجباً: «يا لعمق غِنى حكمة الله وضميره غير المفحوص ولا مدرَك، وأحكامه التي لا تُعرف»! فإذا كان الله قد أعد عالَماً عجيباً هكذا لكل الناطقين ليدخلهم إليه ويحفظهم بغير انتقال لحياة لا نهاية لها، فما هو السبب الذي لأجله صنع هذا العالم أولاً ثم وسَّعه جداً بتواتر (أي تتابع) كثرة الطبائع ووضع فيه علل وأسباب الآلام الكثيرة وقتالاتها؟ وكيف وضعنا فيه أولاً وركَّز في طبيعتنا محبة الحياة المديدة فيه، ثم ينقلنا منه بعد ذلك بالموت، ويحفظنا مدة طويلة بغير حس ولا حركة كالحجارة والأخشاب، ويفسد أشكالنا ويحل عناصرنا ويخلطها بالتراب، وتسقط هيئتنا هذه وتنتثر حتى تفقد شكلها البشري؟! وفي الوقت المحدد بحكمته، إذا ما شاء، ينهضنا ويقيمنا بشكل آخر يعرفه هو، وهيئة أخرى!

ولسنا نحن فقط، بل والملائكة القديسون الذين ليسوا بحاجة إلى استعمال هذا العالم لسبب طبيعتهم العجيبة، ولأنهم أنقص قليلاً من الكمال، فهم ينتظرون أيضاً قيامتنا ونهوضنا من الفساد، حين يقوم جنس البشر من التراب ويتحرك ويأتي إلى التجديد. لأنهم متعوقون من الدخول بسببنا إلى أن ينفتح باب العالم الجديد الذي ينتظرونه لنا ولهم مرة وَاحِدة. لأن خليقة الملائكة تتنهد معنا من ثقل هذا الجسد الذي ينظروننا فيه، وينتظرون ويترجون استعلان بني الله، لكي تنعتق الخليقة من عبودية الفساد بعتق مجد أبناء الله، بعد أن تُهدم تقانة (أي تركيب) هذا العالم وكل ترتيبه ويتلاشى أمره، كما تُعدم تقانة جسدنا القديم.

ويرتفع الرَّاهِبُ أيضاً بعقله إلى مبدأ هذا العالم قبل أن تكون هذه الخليقة، حيث لم تكن لا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا شيء من هذه المتكونات، ويفكر كيف أتى بها الله بغتةً إلى التكوين، وأنه حيث شاء خلق كل شيء وقام أمَّامه تأمَّا.

ثم ينزل بفكره إلى جميع خلائق الله، ويتفرس في أعماله العجيبة وحكمة خَلْقِه المدهشة، وسياسة تَدْبِيره غير المدرَك من كل العقول، وقوة استطاعة فعله العجيب. وكيف أنه أتى بالخليقة من العدم إلى الوجود بأنواع كثيرة لا عدد لها. وكيف هو مزمع أن يلاشي هذا الترتيب العجيب من جمال الطبائع، وانتظام حركة الخلائق والأزمنة والأوقات، وتوافق الليل والنهار، وغيارات فصول السنة، وأمور الأرض وأنواع الزهور المختلفة التي فيها، وبنايات المدن الشامخة، وجَرْي الناس المستمر وطبيعتهم المُتعَبة من بدء دخول الإنسان إلى العالم إلى أن يخرج منه. وكيف سيبطل بغتة هذا الترتيب العجيب، ويأتي عالم آخر لا يصعد فيه على قلب إنسان ذكر أي شيء من هذا العالم، ويكون تصرف آخر وأفكار أخرى وهذيذ آخر. ولا يعود الطبع البشري يذكر هذا العالم ولا تصرفه السابق فيه؛ لأن نظر عقل الإنسان ينضبط (بمشاهدة) هيئة وتقانة ذلك العالم الآخر، فلا يتفرغ أن يفكر في شيء من اهتماماًت اللحم والدم، فمع زوال هذا الدهر يبدأ ذاك. (حينئذ سيقول كل إنسان:) أيُّها الوالدة (يقصد الأرض) التي تعدم بغتة أولادها الذين ولدتهم وربَّتهم وحملتهم، وفي لمح البصر يُجمعون إلى حضن آخر ويصبحون بنين حقيقيين للعاقر التي لم تلد! «افرحي، أيتها العاقر التي لم تلد» بالبنين الذين ولدتهم لكِ الأرض!

ويفكر في هذا الأمر متعجباً ويقول: تُرى متى يزول هذا الدهر ويبدأ الدهر الآتي؟ وكم هي مدة رقاد الأجساد بهذه الصورة وهي ممتزجة بالتراب؟ وكيف سيكون ذلك التصرف (أي الحياة الجديدة)؟ وبأي شبه تقوم هذه الطبيعة، وبأي كيفية تأتي إلى الخليقة الثَّانِية؟ وإذ يتأمل في هذه الأمور وما يشبهها يقع عليه سكون وذهول، ويقوم في تلك الساعة ويجثو بركبتيه ويقدم الشكر والتمجيد للرب الحكيم في أعماله.

مغبوط هو المهتم بهذه الأشياء ليلاً ونهاراً. وطوبى لمن تفاوض بها كل أيام حياته! [وهذا الاهتمام نافع لكل وَاحِد وللراهب بوجه خاص الذي يليق به أن يهدس بهذه التذكارات كل حين؛ فيحتفظ بها في فكره حتى إذا ما انتهى من صلاته يهدُّ ويتأمل فيها. فهو حين يكون منشغلاً بهذه الأمور والتأمل فيها، لن يكون هناك موضعاً في فكره لأي تذكار غريب يبعده عن تذكار الله]. وإن كان في البداية لا يحس بالمعونة التي تكون من هذه (المناظر الإلهية)، بسبب طياشته، فعليه ألا يضجر أو يمل؛ لأن الفلاح عندما يلقي البذار في الأرض لا ينظر السنبل مباشرة (أي في الحال). فالزرع يعقبه ضجر وتعب وألم في الأوصال (وقطع الصداقات والانفصال عن العادات. ولكن بعد أن يصبر الإنسان على هذه الأشياء يأتي أوان المسرة والفرح) حيث يلذُّ للفلاح أن يأكل من خبز عرقه. هذا الهذيذ في السكون والتحفظ يسكب في القلب حلاوة لا حدَّ لها، ويجذب العقل بسرعة إلى دهش لا ينطق به. فطوبى لمن انفتح أمَّامه هذا الينبوع (الإلهي) وشرب منه في كل ساعات الليل والنهار، (حتى نهاية حياته الوقتية هذه).

٢٨ – سؤال: ما هي غاية كل أعمال هذا التَدْبِير حتى إذا ما وصل إليها الإنسان يعرف أنه قد بلغ إلى كمال السيرة؟

جواب: إذا ما أُهِّل للصلاة الدائمة. لأنه إذا بلغ إليها يكون قد وصل إلى غاية كل الفضائل، ومنذ الآن يصبح مسكناً للروح. فإن لم يقبل الإنسان موهبة الباراقليط بالحق، فإنه لا يمكنه أن يصلي على الدوام براحة. لأن الرُّوح إذا ما سكن في الإنسان (يجعله) لا يفتر عن الصلاة؛ حيث إن الرُّوح هو نفسه يصلي (فيه) على الدوام. فسواء كان راقداً أو مستيقظاً لا تنقطع الصلاة من نفسه. وإذا أكل أو شرب أو نام أو فعل أي شيء، حتى لو كان غارقاً في نوم ثقيل، فإن بخور الصلاة يرتفع داخل قلبه بغير تعب. ولا تكون له عند ذلك أوقات محددة للصلاة، بل تلازمه في كل حين؛ وإذ يكون صامتاً تجده يخدم بالصلاة خفياً. وقد قال أحد القديسين: إن صمت الأنقياء هو صلاة؛ لأن أفكارهم هي حركات إلهية، وهواجس الضمير النقي هي أصوات هادئة يرتلون بها للخفي خفياً.

٢٩ – سؤال: ما هي الصلاة الرُّوحانية، وكيف يستحقها الإنسان؟

جواب: هي حركات النفس التي قد شاركت (فعل) الرُّوح الْقُدُس بالطهارة الحقيقية. وَاحِد فقط من ربوات الناس هو الذي يؤهَّل لها. لأنها سر التصرف الذي يكون في العالم الجديد حيث يرتفع الطبع ويتخلف من حركة كل تذكار للأمور الحاضرة. وليست هي صلاة تصلي بها النفس، ولكنها إحساس تُدْرَك به الأمور الرُّوحية التي لذلك العالم الآخر؛ شيء يفوق عقل البشر، وفَهمٌ لهذه الأمور التي يتحرك بها (بفعل قوة الرُّوح الْقُدُس). لأنه نظر عقلي وليس حركة صلاة وطلبة، وإن كان يأخذ بدايته من الصلاة. لأن الذين هم هكذا، فقد بلغوا إلى غاية النقاوة، ولا يجوز بهم وقت لا تزهر فيه حركاتهم الداخلية بالصلاة كما قلنا. وكل وقت يزورهم فيه الرُّوح الْقُدُس يجدهم في الصلاة؛ ومن الصلاة يخطفهم إلى الثاؤريا التي تفسيرها النظر الرُّوحي. وهم ليسوا بحاجة إلى مدة طويلة في الصلاة أو إلى ترتيب خدمة (محددة)، بل يكفيهم ذكر الله وهم في الحال يُسْبَون بالمحبة ويُخطفون. ولكنهم مع ذلك لا يهملون القيام، بل يقدمون للصلاة كرامة بأن يقفوا على أقدامهم في هذه الأوقات المعروفة وليس على الدوام[٣٩].

وهوذا القديس أنطونيوس إذ كان واقفاً على قدميه في صلاة الساعة التاسعة أحسَّ أن عقله قد ارتفع. وقديس آخر كان واقفاً ويداه مبسوطتان في الصلاة مكث في الدهش أربعة أيام. وكثيرون آخرون جاء في سيرتهم أنهم كانوا (يُسبَون أثناء الصلاة بقوة تذكرهم لله ومحبتهم له)، وهكذا كانت تعطى لهم هذه الموهبة. والإنسان يصير أهلاً (لهذه الصلاة) حين يتعرى من الخطية من داخل ومن خارج بحفظ وصايا سيدنا؛ لأنه شرَّعها لقلع الخطية. وإذا ما عمل الإنسان بها كما ينبغي، يضطره الأمر تغصُّباً أن يهرب من كل الأفعال البشرية حتى أنه – كما

[6] جا ت فلك ترجم: بالإضافة إلى التهم المستمرة.

يقال – يريد أن يتعرى من الجسد، ليس من طبيعته بل من استعمالاته. لأنه ليس أحد سار بحفظ الوصايا حسب قصد واضعها وقَدِرت الخطية أن تثبت فيه؛ ولهذا يجعله سيدنا مسكناً له بحسب وعده في إنجيله المقدس.

٣٠ – سؤال: ما هو كمال أثمار الرُّوح؟

جواب: إذا أُهِّل الإنسان لحب الله الكامل.

٣١ – سؤال: وبأي أمر يعرف أنه أُهِّل لذلك؟

جواب: كل وقت يتحرك فيه ذكر الله في الفكر، يحتَّر القلب في الحال كما بنارٍ بمحبته، وتنسكب الدموع من عينيه بغزارة. لأنه من عادة المحبة أنه من ذكر المحبوب تفيض الدموع. (فمن كان محباً لله لا تفارقه الدموع أبداً)، لأنه يجد على الدوام ما يشدّه إلى ذكر الله، حتى أنه أيضاً في النوم يتفاوض معه. لأن من عادة المحب أن يفعل هكذا. وهذا هو كمال الإنسان في هذه الحياة.

٣٢ – سؤال: الذي من بعد أعمال كثيرة وأتعاب وجهادات ونشاط في الفضيلة يهجم عليه فكر العظمة متخذاً مادة لذلك محاسن فضائله، ويذكِّره بأتعابٍ نالها، بماذا يمكنه أن يضبط أفكاره ويقتني لنفسه احتراساً لئلا يخضع لهذا الألم الرديء؟

جواب: بأن يعرف بكل يقين أنه هكذا قد يسقط من الله كمثل الورقة اليابسة من الشجرة. وعند ذلك يعرف قوة ذاته وأنه ليس بقوته اقتنى الفضائل واحتمل لأجلها كل هذه الحروب. فعندما يقبض الرب عنه قوة معونته ويتركه وحده في الجهاد مع الشيطان ولا يمده بالعناية كالعادة وبتلك القوة التي تعاضد النشطاء في جهادهم، ههنا تظهر قوة الإنسان أو بالأحرى ضعفه.

إن عناية الله ترافق القديسين وتعضدهم وتحفظهم في كل وقت، وبها يستطيع كل رتب البشر أن يغلبوا في جهادهم، إن كان في الشهادة أو في مُقاساة الصعوبات والضغطات التي تكون لأجل الأمور الإلهية. وهذا أمرٌ معروف وواضح وليس فيه أي شك. وإلا فكيف يستطيع الطبع البشري أن يصبر مقابل هذه الدغدغات (أي الإثارات) التي تتحرك في أعضائه بلا فتور، وتشدّه للشهوة والتنازل؟ وكيف يمكنه الغلبة عليها وقهرها؟ وكيف أن كثيرين يحبون هذه الغلبة ويشتاقون إليها ولم يقدروا، وهم يتعبون كثيراً ويجاهدون، وكل يوم ينغلبون ويبكون وينوحون على شقاء نفوسهم، بينما أنت تحتمل بسهولة صعوبات الطبيعة وضغطها ولست تتضايق كثيراً؟ وكيف يقدر آخر أن يصبر بهذا الجسد المتألم على تمشيط الحديد وتقطيع الأعضاء وكل أنواع العقوبة والعذاب – وهو الذي لا يقدر أن يحتمل شوكة صغيرة تعبر في أحد أصابعه – فيتجلد للعذاب بكل أنواعه ولا يتألم أو يتوجع حسب عادة الطبيعة؟ فكيف احتمل كل ذلك لولا أن قوة أخرى خلاف قوته الطبيعية هي التي كانت تقمع وتردّ عنه قوة العذاب؟

وليس عندنا مانع من أن نذكر هذه السيرة في كلامنا عن عناية الله، لأنها تدهش سامعيها (وتشجع الإنسان في جهاده): قال سقراطيس كاتب سير البيعة، إنه كان في أيام يوليانوس الملك، شاب يُدعى ثيؤدوروس قد دُفع للعذاب في مدينة أنطاكية لأجل اعترافه بالمسيح. وبعد عذاب عظيم مشَّطوا جسده بأمشاط من الحديد حتى انتثر لحمه كله على الأرض. وبعد ذلك تركوه لمعرفتهم أنه لن يعيش. لكن الله الرحوم نجّى القديس بعد كل هذا العذاب وعاش مدة طويلة بعد هذا الاعتراف. ثم إن كاتب هذه السيرة بعد مدة من الزمن سأل تادرس نفسه: هل لم يكن يتألم وقت العذاب؟ فأجاب إنه كان يحس بشيء قليل من وجع العذاب؛ لأنه كان ينظر شاباً واقفاً إلى جانبه يمسح عرق جهاده ويشجعه ويقويه ويريحه ويفرِّحه في وقت عذابه. يا لمراحم الرب! ما أقرب نعمته من الذين يقاسون الجهاد من أجله ويصبرون على الآلام.

لا تجحد عناية الله الساهرة عليك، أيُّها الإنسان. لأن لست أنت الغالب، بل أنت مثل آلة والرب هو الغالب فيك، وأنت تأخذ اسم الغالبين موهبة مجاناً. فما الذي يمنعك أن تطلب منه، كل حين، أن يجود عليك بهذه المعونة لكي تنشط وتغلب في كل أوقاتك وأنت معترف بهذا أمَّام الله؟ أمَّا سمعتَ أيُّها الإنسان، كم من شجعان ونشطاء، من بدء الزمان وإلى وقتك هذا، سقطوا من علو مراتبهم لما جحدوا هذه العناية ولم يقدموا الشكر عنها؟

كثيرة هي مواهب الله لجنس البشر ومختلفة، وفيها درجات وأنواع شتى لقابليها. وهي تتفاوت كبراً أو صغراً، وزيادة أو نقصاناً. وإن كانت جميعها عجيبة، لكن توجد فيها موهبة تتمايز على الأخرى بالمجد والكرامة، ودرجة أرفع من درجة حسب قول الكِتَاب. وإن كان إنسان يُفرز (أي يكرس نفسه) لعمل الصلاح ولسيرة خدمة الله، فحتى هذه تعتبر وَاحِدة من مواهب الله الكبار. ولأن كثيرين ضلُّوا عن معرفة هذا الأمر؛ إذ مع أنه لم يكن هناك فرق بينهم وبين بقية الناس، فقد أُهِّلوا هم من الله أن يكونوا مستحقين لهذه الموهبة وخدمة الرب. لكنهم عوضاً عن الشكر الكثير والاعتراف الذي كان ينبغي أن يكون في أفواههم، مالوا إلى الافتخار وزَلقوا في العظمة بأفكارهم. (وأنكروا) أن الله هو الذي أهَّلهم أن ينالوا هذه النعمة وأن يخدموه بالسيرة الطاهرة والأعمال الرُّوحانية، بل ظنوا أنهم هم الذين يولونه معروفاً، وأنهم هم المحسنون إليه، وكأنهم أشرف من بقية الناس كونهم صاروا من خاصته وعارفي أسراره. ولم ترتعد نفوسهم عندما فكروا بهذه الأمور، مع أنهم نظروا (عاقبة) غيرهم لما ألمَّت بهم هذه الأفكار، كيف أُخذت منهم القوة التي كانت تحفظهم وسقطوا في لمح البصر من كرامتهم وزلُّوا في الفسق ورجعوا إلى أعمال الخزي وتَدْبِير الحيوان غير الناطق.

ولأنهم لم يختبروا قوة أنفسهم (أي لم يعرفوا ضعفهم)، ولم يعترفوا ولم يذكروا على الدوام ذاك الذي أهَّلهم لهذه الكرامة أن يكونوا خدامه في جلال مُلْكه، وجعلهم خِلاَّناً للروحانيين، وقرَّبهم من سيرة الملائكة القديسين؛ لهذا نبذهم من خدمته، وأراهم في الوقت – بتغير تَدْبِيرهم (وانتقالهم من السكون) – أن ثباتهم في السيرة الحسنة، والصبر على ما يعرض من الطبيعة وشر الشياطين وبقية المصاعب والضغطات، لم يكن من قوتهم بل من قوة عنايته

تعالى وموهبته. فالشيء الذي إذا سمعه الناس لا يصدقونه لسبب صعوبته، ثبتوا هم فيه ولم ينغلبوا، لأن القوة اللازقة بهم كانت قادرة أن تحفظهم وتعضِّدهم في كل شيء. أمَّا هم فلجحدهم هذه المعرفة، كمل عليهم قول الكِتَاب: «لأنهم لم يحكموا من أنفسهم أن يعرفوا الله – أعني سيِّدهم الذي أهَّل التراب وقرَّبه من خدمة الرُّوحانيين – أسلمهم الله للرأي الفاسد، ونالوا في ذواتهم جزاء ضلالتهم».

٣٣ – سؤال: إذا جسر إنسان وخرج للوحدة، وترك سكن الناس ومضى إلى البرية غير المسكونة والقفر الصعب بغيرة حسنة، أتراه يموت من الجوع أو من عدم توفر موضع يستتر فيه؟

جواب: الذي أعدَّ موضعاً للوحوش قبل أن يخلقها، واهتم بكل ما تحتاج إليه، كيف يتخلى عن أصفيائه؟ وبالأكثر الذي خرج في طلبه بسذاجة بغير فكر ولا استعداد، بإرادة توافق مرضاة الله، ولم يفكر في الجسد ولا بما قد يعرض له، لكيلا يحيا في سيرة رديئة مملوءة من الخزي إذا ما جبن من الضواغط. لقد صار عنده أمراً مختاراً أن يتغرب عن هذا العالم بتدابير سيرة الطهارة، ويشقى في الجبال ويتوه في بلاد الوحوش، ولا يتنيح بالجسد في حياة مملوءة من كل دنس. إنه يُعدُّ نفسه للموت في كل وقت، حتى لا يتخلف عن السيرة العفيفة المرضية لله سبحانه وتعالى.

قال أحد القديسين: إن الجسد يصير مصاحباً للخطيئة إذا ما جبن من مقاساة الضيقات لئلا يُضغط ويموت بالحياة. ولهذا فإن روح الله يضطره أن يموت؛ لأنه معلوم أنه إن لم يمت لا يغلب الخطية. فالذي يريد أن يسكن فيه سيدنا، يضغط جسده ويخدم الله (بحفظ) وصاياه المكتوبة في الإنجيل والرسل. لأن الجسد الممزوج بالخطية يرتاح على أعمال اللحم، أمَّا روح الله فيرتاح على أثماره. فإذا ضعف الجسد بالصَّوْم والاتضاع، عند ذلك تتشجع النفس في الصلاة بالرُّوح.

إن من عادة الجسد أنه إذا ما انضغط كثيراً بضيقة السكون والعوز، وقربت حياته من الاضمحلال، تجده يسألك قائلاً: «اتركني قليلاً أتدبر بمقدار، لأني قد تقوَّمت وتروَّضت بتجربة الضيقات». فإذا ما سمحتَ له قليلاً وأرحته من الضيقات زماناً قليلاً بشفقتك عليه، عند ذلك يخادعك قليلاً قليلاً حتى تخرج أيضاً من البرية. لأن مخادعاته كثيرة، إذ يقول لك إنه يتدبر بسيرة حسنة بالقرب من العالم، ويقول أيضاً: إننا قد تحنكنا كثيراً واختبرنا كل شيء، فامتحنِّي وانظر إن كنت لا أسير حسب اختيارك، وإلا نرجع إلى البرية. فلا تثق به ولو وعدك بأشياء كثيرة؛ لأنك إذا سمحت له بشيء صغير خدعك في أمر كبير لا يمكنك أن تتخلص منه. وإذا تضجَّرت ومللتَ من كثرة الضيقات، قُل أنت لنفسك: ألعلكِ تشتهين الحياة النجسة؟ وإن قال لك (الجسد) إنها خطية أن تقتل نفسك، قُل: إنني أقتل نفسي لأنني (إن كنتُ لا أفعل ذلك) لا أقدر أن أحيا بالطهارة. أموت ههنا في البرية ولا أنظر موت نفسي الحقيقي من الله. أوفق لي أن أموت من أجل الطهارة ولا أعيش بحياة ردية في العالم. وقد اخترتُ لي الموت بإرادتي لأجل خطاياي؛ فأقتل نفسي لأني أخطأت قدام الله حتى لا أعود أُغضبه، فما لي والحياة المبتعدة عن الله. أَصبر لهذه الشرور لئلا أكون غريباً عن الرجاء السمائي، فما هي المنفعة عند الله من حياتي بالرداءة والسماجة في العالم وأنا أُغضبه، وهو الذي تُمجده كل البرايا.

المَيْمَر الْخَامِس

في ترتيب السيرة الرهبانية وأقسامها بإيجاز،

وكيف وبأي وسيلة تتولد الفضائل بعضها من بعض

١ – العمل الذي يغصب الإنسان نفسه فيه ويقسرها عليه، تتولد منه حرارة تفوق المقدار؛ وهيَ التي تلتهب في القلب بفعل الأفكار الحارة التي تنشأ حديثاً في الذهن. هذا العمل وهذا الاحتراس يصقلان العقل بحرارتهما، ويمنحانه نظراً. وهذا النظر يولِّد الأفكار الحارة التي ذكرتُها بواسطة عمق النظر النفسي وهو الذي يُدعى ثاؤريا، أي التصور العقلي. وهذا التصور يولِّد الحرارة، وعن هذه الحرارة التي تتبع النظر الذي من النعمة يتولد انسجام الدموع. وتأتي الدموع للإنسان في البداية قَلِيلَة أي ليوم وَاحِد على الأكثر، ثم تتوقف، وبعد ذلك تعود بتواتر بكثرة وبلا انقطاع. ومن هذه الدموع (الدائمة) تقبل النفس سلامة الأفكار؛ ومن سلامة الأفكار ترتقي إلى نقاوة العقل. وبتوسط نقاوة العقل يأتي (الإنسان) إلى نظر الخفايا (أي أسرار الله)؛ لأن الطهارة مدفونة في السلامة من القتالات. وبعد هذه الأمور يبلغ العقل إلى نظر الاستعلانات والأدلة التي شاهدها النبي حزقيال (بخصوص المياه الخارجة من تحت عتبة الباب: حز٤٧: ٣-٥)، وهي التي ترسم وتمثل هذه المنازل الثلاث التي تدنو بها النفس من الله سبحانه، حيث المنزلة الثَّالِثة منها نهر لا يُستطاع عبوره. وبداية هذه المنازل كلها هي الإرادة الجيدة والنية الصالحة نحو الله، وأنواع أعمال السكوت التي لا تتغير والاستقامة التي تتولد من الانقطاع الطويل والابتعاد عن العالم وأموره.

وإن كانت ليست هناك ضرورة تلجئنا أن نصف كل نوع من أنواع الأعمال، لأنها معلومة عند الكل، ولكن على كل حال بما أن شرحها للحاضرين لا خسارة فيه، بل هو بالأكثر ذو منفعة كثيرة جداً، فمن الواجب – على ما أرى – أن نبين ذلك فنقول، إن هذه الأمور هي: الجوع، والقراءة، والسهر بيقظة كل الليل حسب قوة كل وَاحِد، والميطانيات الكثيرة التي يصنعها الإنسان في سواعي الليل والنهار. وينبغي أن تكون الميطانيات ثلاثين في كل دفعة، وبعد ذلك يقبِّل الصليب المكرم ويأخذ في الركوع. وقوم يزيدون على هذا المقدار حسب قوَّتهم؛ وقوم يمكثون في صلاة وَاحِدة ثلاث ساعات بعقول متيقظة، ويطرحون نفوسهم على وجوههم وعقلهم منجذب إليهم من غير تغصب ولا طياشة أفكار. وهذان النوعان (من الصلاة)، إن كانت تلك التي بالغلوة الحارة وبكثرة العدد، أو كانت تلك التي بالهدوء الذي تقبله النفس وتجمع بصلاة وَاحِدة كثرة عدد الصَلَوَات التي ذُكرت، فكلاهما يدلاَّن ويوضحان كثرة النعمة ووفرة غناها الذي تفتقد به كل إنسان حسب استحقاقه.

أمَّا عن هذه الصلاة الأخرى الخالية من التغصب والمعتوقة من العنف، و(كيفية) الثبات فيها، فما أظن أنَّه من الواجب والعدل إظهار ذلك وإيراد ترتيبه لا بالقول باللسان ولا كِتَابة، خوفاً من أن يظن القارئ إذا قرأ ولم يحصل على شيء منها أن ما سُطِّر لا فائدة فيه، أو إن

كان هو نفسه من الْعَارِفِين بهذا الأمر فيستزري بمن لا يعرف، فيصير من هذا مذمَّة ومن ذاك ضحكاً، وأُوجد في كلامي عن هذه الأمور كبربري حسب قول الرسول عن الذي يتكلم بلسان. فمن يؤثر إذن أن يعرف هذه الأمور فليَسِر في الطريق التي قد سُطرت سابقاً ويتبع ذلك بالعمل في فكره؛ فإذا ما باشر ذلك (بالفعل) عَلِمه من نفسه. لأنه يقول: «اجلس في قلايتك وهي تعلِّمك كل شيء».

المَيْمَر السَّادِس

في أنواع الحروب المُختلفة التي يواجه بها الشيطان أولئك السالكين في الطريق الضيق الذي يفوق العالم

١ – إنَّ مُعاندنا الشيطان من شِيَمِهِ أن يتلطف ويحتال على مُبارزيه الذين يتقدمون إلى هذا الجهاد بأن يوزع عليهم أنواع مصادماته بما يناسب سلاحهم، ويغيِّر طرق جهاده ضدهم حسبما يلوح له من وجوههم. فالذين يراهم فاشلين ذوي عزيمة ضعيفة ونيَّة متوانية، يجدُّ منذ البداية في مقاتلتهم ويثير عليهم تجارب قوية، ويحرص على أن يُذيقهم من الابتداء أنواع شروره وصعوبة الطريق ليشملهم الجبن من أول الجهاد وتظهر لهم السبيل خشنة حرجة وشاقة المسلك، ويقولون: إن كان ابتداؤها هكذا صعباً وقاسياً، فمن ذا الذي يقدر أن يواجه الجهادات الكثيرة الموضوعة فيها حتى إلى نهايتها؟ فمن ذلك الحين لا يقدرون أن يثبتوا أو يتقدموا إلى الأمَام. نعم، ولا يمكنهم أن ينظروا شيئاً آخر بسبب ما قد دهمهم من الهمِّ (من جهة تلك الجهادات). ثم يُصعِّب الشيطان قتاله معهم قليلاً حتى يهربوا بالفعل. والأَولى أن نقول إن الله عزَّ وجلّ يُفسح له في هذا ويمكِّنه أن يقوى عليهم، ولا يعاضدهم في شيء البتة، لأنهم ولجوا (أي دخلوا) إلى جهاده سبحانه بشكٍ وعزائم باردة. لأنه يقول: «ملعون كل من يعمل عمل الرب بتوانٍ ويمنع سيفه من الدم»[٤٠]، وأيضاً: «إن الرب قريبٌ من خائفيه»[٤١].

٢ – لأن الرب تبارك اسمه يأمر أن نصادم الشيطان خلواً من الجبن وبرود الهمَّة، إذ يقول: «الآن اِبتدئ بإبادته، وانهض إليه مقاتلاً، وبارزه بشجاعة، فسأضع خوفك على كل أعدائك الذين تحت السماء»[٤٢]. لأنك إن لم تمت موتاً محسوساً طوعاً بإرادتك من أجل محبة الله، فإنك تموت بغير إرادتك موتاً عقلياً من الله الذي هو نصيبك وأنت من خاصَّته. فلا تتكره أن تقبل من أجله بإرادتك آلأمَّا وقتية وتدخل إلى مجده؛ لأنك إن متَّ في جهاد الله بالجسم، فإنه يتوِّجك بنفسه ويكِّرم أعضاءك كما كرَّم أعضاء الشهداء.

٣ – لذلك كما قلتُ، فإن المتوانين والمتراخين منذ البداية، والذين لا يغصبون أنفسهم ويُكرهونها إلى الموت في الجهاد، من ههنا يُوجدون فاشلين في كل حرب. والأَولى أن نقول إن الله تعالى يسمح أن يُضطَهدوا ويُقاتَلوا لأنهم ما طلبوه محقِّين، بل كمجرِّبين وهازئين، حاولوا إتمام عمل الله تعالى. لهذا عَرَفهم الشيطان منذ البداية، وخَبَرَ حال أفكارهم أنهم جبناء ومحبون لأنفسهم، كما أنهم يشفقون على أجسادهم. ولذلك يعصف بهم ويطردهم كالزوبعة، لأنه ما شاهد فيهم القوة العقلية التي اعتاد أن يشاهدها في القديسين. لأنه حسب انصباب إرادة الإنسان نحو الله تعالى، ومحبته للأتعاب من أجله، يعاضده ويريه عنايته واهتمامه به.

---

٤٠ مَلْعُونٌ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الرَّبِّ بِرِخَاءٍ، وَمَلْعُونٌ مَنْ يَمْنَعُ سَيْفَهُ عَنِ الدَّمِ.إر٤٨: ١٠.

٤١ لأن يخافوني رب من يخطئ وإلى نصيبي الوجع يأرضوا. مز 2: 6.

٤٢ لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكُمْ. اَلرَّبُّ إِلهُكُمْ يَجْعَلُ خَشْيَتَكُمْ وَرُعْبَكُمْ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ الَّتِي تَدُوسُونَهَا كَمَا كَلَّمَكُمْ. تث١١: ٢٥

٤ – لأن الشيطان لا يقدر أن يدنو من الإنسان ولا يورد إليه تجارب دون أن يتوانى بإرادته، أو يُفسح الله له ذلك، أو إن أرخى الإنسان نفسه بالطياشة في أفكار سمجة، أو تعظَّم وشكَّ وتقسَّم، فمثل هؤلاء القوم يلتمس الشيطان من الله أن يجربهم. أمَّا المبتدئون السذَّج فما يسمح الله تعالى أن يجرِّبهم مثل الكاملين الغالبين. وهو أيضاً (أي الشيطان) يعلم أن الله لا يسلمهم في يده؛ لأن ليست فيهم كفاءة لاحتمال تجاربه. لذلك فهو لا يسلمهم له إلا إذا وجد فيهم سبباً وَاحِداً من أسباب التجارب التي ذُكرت، عندئذ تبتعد منهم قوة عناية الله.

النوع الثَّانِي من قتالات العدو:

٥ – القوم الذين يرى الشيطان أنهم أبطال أقوياء لا يعدُّون الموت شيئاً، وقد خرجوا (إلى الجهاد) بغيرة حارة، وأسلموا أنفسهم لكل التجارب متهاونين بحياة الجسد وكل المحن (التي تخصه)، هؤلاء لا يتصدى لهم في الحال، ولا يظهر نفسه لهم صراحة، بل يضبط نفسه ويُفسِّح لهم ويعطيهم مكاناً، ولا يهجم عليهم في بداية نهوضهم، ولا يصافقهم (أي يواجههم) في القتال؛ لأنه يعلم أن كل بداية قتال تكون بحدّة واجتهاد، وقد تصور أن مُبارِزه ذو غيرة كثيرة، وأن ذوي الحمية من المقاتلين لا ينغلبون كيفما اتفق. ولا يفعل الشيطان هذا لكونه يخاف منهم، بل لأنه يخاف من القوة الإلهية المحيطة بالمؤمنين لسبب حرارة غيرتهم وأنواع أعمالهم. فبقدر ما يشاهدهم على هذا الحال، لا يجسر على الدنو منهم؛ إلى أن يراهم قد بردت حرارة عزائمهم، ورموا السلاح الذي كانوا قد أعدُّوه في قلوبهم وسلَّحوا به أفكارهم بالأقوال الإلهية المتنوعة والتذكارات المعينة لهم. ويترصّد وقت تضجيعهم (أي تكاسلهم) وتراجعهم قليلاً عن أفكارهم الأَولى. وكم من وقتٍ هم أنفسهم يُوجِدون له سبل الفتك بهم من الملق والخداع الذي ينبع من عقولهم؛ ويحفرون لأنفسهم وهدة الهلاك بطياشة الأفكار المتولدة في القلب من جراء التواني والكسل اللذين منهما تملك البرودة فيهم، أعني في قلوبهم.

والشيطان لا يتباطأ عن محاربتهم من تلقاء نفسه، أو لسبب إشفاقه عليهم، ولا يستحي منهم لأنه لا يعدّهم شيئاً، بل على ما أعتقد أنه يفعل ذلك لأنه يرى قوة تحيط بالذين قد تزكوا عند الله سبحانه بحرارة الغيرة، والذين قد خرجوا واصطفُّوا (للقتال) من غير تفكير كالأطفال، راجين من الله حُسن الدفاع عنهم، واثقين بالإيمان به وبتلطف معونته لهم، وغير عالمين مع مَن هم يحاربون. ولذلك يصرف الله عزّ وجل دهاء الخبيث عنهم، فلا يمكنه أن يقترب إليهم. ولهذا السبب يلتجم العدو إذ يرى [الملاك] الحافظ لهم (يحرسهم بصفة دائمة). وطالما هم لم ينبذوا عنهم أسباب المعونة التي هي التضرع والتعب والاتضاع، لا يبعد عنهم المعين والناصر أبداً.

٦ – تأمل هذا الأمر واكتبه في طرس (أي صفحة) قلبك أن محبة اللَّذة والشغف بالرَّاحَة هما سبب التخلية. فإن لازم الإنسان الإمساك وعفَّ عن هذه الأشياء بجلدٍ، فلن يُعوَز من معونة الله أبداً، ولن يُسمح للعدو أن يهاجمه. وإن أفسح له دفعة وَاحِدة أن يهاجمه بقصد التأديب، إلا أن

القوة القدسية تتبعه وتشمله، فلا يخاف من تجارب الشياطين لأن عقله واثق (بتلك القوة)، وهو يزدري بهم من أجلها.

٧ – هذه القوة الإلهية تعلِّم الناس كما يعلِّم المدرب الطفل الصغير السباحة، وإذا ما أشرف على الغرق ينتشله لأنه يسبح فوق يَدَيْ معلمه؛ وإن ضَعفتْ مُنَّته (أي قوته) خوفاً من الغرق، يهتف إليه مشجعاً وقائلاً: لا تخف فهأنذا أحملك. وكما أن الأم تعلِّم ولدها الصغير المشي، فتبتعد عنه وتستدعيه إليه، فإذا اتجه إليها وابتدأ يرتعد ويشارف الوقوع لنعومة رجليه تسرع إليه عَدْواً وتحمله في حضنها، هكذا نعمة الله تعالى تحمل وتعلِّم الناس ذوي الطهارة والبساطة الذين ألقوا مقاليدهم في يَدَيْ باريهم، ونبذوا العالم من كل قلوبهم، وساروا وراءه سبحانه وتعالى.

٨ – وأنت أيُّها الإنسان الخارج وراء المسيح، اذكر دائماً وقت الجهاد غيرة بداية الطريق التي خرجتَ بها من دارك ومسكنك الأَوَّل وتقدمت إلى مصاف القتال، وامتحن نفسك كل يوم لئلا تبرد حرارتها من جهة بعض الأسلحة التي أنت متسلح بها، وحرارة الغيرة المضطرمة فيك منذ بداية جهادك، (فتخسر أي سلاح منها). وارفع صوتك دائماً داخل المعسكر، وشجِّع أولاد اليمين، أعني الأفكار الخاصة بك، وقوِّ مُنَّتهم، وحقق للآخرين، أعني قوات المضاد، أنك متيقظ. فإذا رأيتَ في البداية هجوم المجرب، وقد نهض ليخيفك، فلا تسترخ، فلعل ذلك موافق لك؛ لأن مخلِّصك لا يسمح لأحدٍ أن يدنو منك جزافاً دون أن يكون ذلك بسياسة ما، عائداً عليك بصلاح حالك. فلا تُظهر أنت تكاسلاً من البداية، لئلا إذا تراخيتَ من ههنا، لا تقدر أن تثبت فيما بعد على ما يَرِد إليك من الأحزان؛ أي لا تَنْثَنِ عن قصد واضع الجهاد من أجل جوع أو ضعف أو خيالات مرهبة، أو ما أشبه ذلك. لأنه هو الذي يجود عليك بالمؤازرة على العدو، حتى لا يجدك عدوّك كما كان يتوقع. بل تضرع إلى الله سبحانه دائماً وابكِ تجاه نعمته ونُحْ وكابد الشقاء إلى أن يرسل إليك المعونة. لأنك إن رأيتَ مخلصك قريباً منك من أول وهلة، فإنك لن تنهزم بعدُ أمَّام المعاند لك.

النوع الثَّالِث من القتال وهو نحو الأبطال:

٩ – إذا وثب الشيطان، بعد هذه الأقوال كلها، على إنسان ما، ولم يقدر عليه في الجهاد لأجل الملاك الذي قواه وأعانه، والذي بواسطته استطاع أن يتغلب الإنسان على الشيطان، لأنه أخذ (من الملاك) قوة وصبراً، حتى أن الجسد الكثيف استطاع أن يغلب الجوهر العقلي الذي لا جسم له؛ فمتى رأى الشيطان هذه القوة التي قد حظي بها الإنسان من الله تعالى، وأن حواسه البرانية لا تُقهر من الأشياء المنظورة والأصوات المسموعة، ولا أفكاره تسترخي من الخداع والملق (أي الإغراء)، حتى أنه يتجاسر على (احتمال) الضربات من العدو، حينئذ يلتمس الغاش وسيلة (جديدة) يتوصل بها إلى إبعاد الملاك المعين عن الإنسان حتى يصير بلا معونة، ويحرك فيه أفكار العظمة ليظن أن هذه القوة كلها هي من مقدرته، وأنه هو الذي اقتنى هذه

الشجاعة بنفسه، وأنه بقوته يحرس نفسه من المضاد وقتَّال الناس. وتارة (يجعله) يقول في فكره إن نصرته على عدوِّه إنما كانت بطريق الصدفة، وتارة يعتقد أن ذلك كان بسبب ضعف العدو. وأنا أصمت عن ذكر الطرق الأخرى وأفكار التجديف التي تجعل النفس ترتعب من مجرد ذكرها. وأحياناً يأتي بطغيانه في شكل استعلان من الله عزَّ وجلّ، ويُظهر له في نومه أموراً متنوعة، ويتصور له أيضاً أثناء يقظته في صورة ملاك نور. ويبذل كل الجهد في إقناع الإنسان أن يوافقه على رأيه حتى يستسلم في يديه. فإن احترس المرء اللبيب من أفكاره وضبطها بحرصٍ، وتوقَّر على ذكر الله، ونظر إلى السماء بعين قلبه كي لا يلتفت ويلحظ هذه الوساوس، فإن الشيطان يسلك طرقاً أخرى من طرق التخيُّل.

النوع الرَّابع من عناد العدو في القتال:

١٠ – هذا الآن هو ما تبقى للشيطان من أنواع القتال، والطبيعة لها علاقة به، ولذلك يتوقع هلاك الإنسان به بصفة خاصة. وما هو هذا الأمر؟ هو مصادمة الإنسان من خلال لوازم طبيعته. فهو يتحايل بكل الوسائل أن يقاتله بالأشياء التي كم من وقت صار مديناً مغلوباً لها من أجل طبيعته. لأن قلب المجاهد يُظلِم عندما ينظر الأشياء المحسوسة ويقترب منها، فيُغلب بسهولة في هذا الجهاد، وبالأكثر عندما تصبح هذه الأشياء تجاه عينيه مباشرة. لأن الشيطان الداهية (أي الشرير) يستعمل هذه الحيلة عن معرفة وخبرة، أعني من التجربة مع كثيرين من المجاهدين الأجلاد (أي الصبورين) الأقوياء الذين زلُّوا بسبب هذه الأشياء. وهو يفعل ذلك بمكرٍ وخداع شديد على طريقة السوفسطائية، أعني طريقة القياسات التي تقوم على المغالطةً والخداع! لأنه إن لم يتمكن من إقناع الإنسان أن يسقط بالفعل، لسبب التحفظ الذي يوفِّره السكون والابتعاد من العلل والأسباب (التي تؤدي إلى الخطية)، إلا إنه على كل حال يحرص أن يُخيِّل قدامهم أشكالاً، ويصور صوراً وخيالات كاذبة في شكل الحق. ولكي يجعلهم الشيطان مُغرمين بهذه الأشياء، يحرك فيهم حركات اللذة والدغدغة لكي يتفكروا أفكاراً سمجة ويخضعوا لها فيصيروا تحت جريرتها (أي مذنبين)، فيبتعد عنهم المعين. فهو يعلم جيداً أن نصرة الإنسان وانهزامه، وكنزه وسنده، وكل ما للناسك إنما قوامه في الفكر، وأن تحوُّله يحدث بأصغر إشارة؛ حتى أنه مع حركة الفكر فقط ينحطّ إلى الأرض من ذلك العلو، ويُظهر الاستجابة والمَيل والاختيار ولو إلى لحظة، كما عرض لكثيرين من القديسين من تخيل جمال النساء. لأن الشيطان أحياناً كثيرة قد دفع بالفعل نساءً للذهاب إلى القريبين من العالم الذين يسكنون على مسافة ميل أو اثنين منه. أمَّا المبتعدون عن العالم، فلكونه لا يقدر أن يعمل معهم هذا الأمر، فهو يصور لهم جمال النساء تارة بحسن الثياب وتصور الفسق، وتارة في شكل امْرَأَة عارية، فيريهم ذلك ويَغلب. فبهذه الأمور وأمثالها قد قهر كثيرين منهم بالأفعال، وآخرين بالخيال. وطائفة منهم هزأ بهم بسبب رخاوة أفكارهم وضعف مقاييسهم حتى تمكَّن منهم قطع الرجاء واليأس ومالوا إلى العالم وخابوا من الرجاء السمائي.

لكنّ آخرين أقوى من هؤلاء ممن قد استناروا بالنعمة، قهروه وكل خيالاته، وداسوا ملاذ الجسد، ووُجدوا ثابتين في محبة الله. ودفعات كثيرة أيضاً كان العدو يجعلهم يتخيلون ذهباً، وأشياء ثمينة، وكنوزاً خفية، وربما أراهم هذه الأشياء حقيقة حرصاً منه على أن يُعوِّق بها بعضهم عن مسيرتهم، إذ يعرقلهم بوَاحِدة من هذه الفخاخ والشباك.

صلاة: لكن اللهم رَبِّنَا، أنت الخبير بضعفنا، لا تدخلنا في مثل هذه التجارب التي بالكاد أفلت منها الأقوياء والمجرِّبون وظفروا ناجين من هذه المصارعة.

١١ – هذه كلها يُسمح للمجرب الشيطان أن يجرب بها عقول القديسين لكي تُمتحن محبتهم لله عزَّ وجل بتوسط هذه المحن، ويوجدوا وادِّين له سبحانه؛ ولكي يُختبر بها حبهم: هل لسبب البعد وعدم وجود تلك الأمور (أي كنوز الشياطين!) هم يحبون الله ويثبتون حقاً في محبتهم وموذَّتهم الصادقة له؟ ولكن حتى ولو كانت هذه الأشياء قريبة وموجودة عندهم، فهم يجتهدون ويرذلونها من أجل محبتهم لله، بابتعادهم وانصرافهم عنها. فلأنهم يحبون الله حقاً، فهم يلازمون بغضة تلك الأشياء بازدرائها ونبذها دون أن ينغلبوا لها أو ينخدعوا بملق (أي إغراء) الشيطان، فلا يحوِّلون محبتهم لله عما هي عليه، بل يثبتون ثبات الأبطال.

١٢ – فهم يجرَّبون بهذه الطريقة، ويسمح الله بذلك، ليس لكي يعرفهم هو فقط، بل ولكي يختبرهم الشيطان نفسه (ويدرك عظمة محبتهم). ذلك لأنه – خزاه الله – يؤثر كثيراً أن يجرِّبهم ويختبر صبرهم جميعاً إن كانوا يقبلون منه أم لا. ويطلبهم من الله كما طلب أيوب الصديق وتكلم في حقه قائلاً: «أباطلاً يعبد أيوب الله»؟ وعندما يسمح الله تعالى بذلك لوقت قليل، يقترب منهم ويجرِّبهم حسب قوة احتمالهم؛ ويصادمهم المنافق حسب غرضه. وهكذا يُختَبرون منه، ويتبين ثباتهم في محبة الله تبارك اسمه، وإخلاصهم له، إن هم ازدروا بهذه الأشياء كلها واعتبروها كلا شيء بالقياس إلى محبة الله، وأذلُّوا ذواتهم على الدوام ممجدين مؤازر الكل وعلة نصرتهم، وأسلموا نفوسهم في يديه قائلين له في جهادهم: «أنت يا رب هو القوي، ولك الجهاد، فقاتل وانتصر فيه من أجلك». وعندئذ يتنقون مثل الذهب في الكور.

١٣ – بهذه الاختبارات يتبين الوسخون منهم، ويُنبذون مثل الكُناسة، إذ قد مكَّنوا عدوهم منهم، ويخرجون (من ميدان الجهاد) مغلوبين (ومُدانين) لتراخي عقولهم (أو بداعي كبريائهم)، ولذلك لم يؤهَّلوا لقبول القوة التي كان القديسون يحظون بها معينةً لهم في الشدائد مُظافرةً لهم في الضيقات والمصاعب. لأن القوة المؤازرة لنا لا تُقهر، والرب القادر على كل شيء هو أقوى من الكل، ويغلب في كل وقت في هذا الجسد المائت إذا ما نزل معهم في القتال. وإن هم انهزموا، فمن الواضح أن انهزامهم كان بمعزل عنه؛ وذلك لأنهم عرُّوا أنفسهم منه باختيارهم جهلاً. ولسبب جحودهم لم يُؤهَّلوا للقوة الناصرة للمجاهدين والمؤازرة للغالبين؛ بل ويحسُّون في وقت القتال أنهم فارغون حتى من قوّتهم العادية التي كانوا يألفونها في أوقات الحروب الصعبة، وأنها قد زالت عنهم. وكيف يحسُّون بذلك؟ إنهم يرون سقطتهم لذيذة في عيونهم، وأن الصبر على عناد العدو مستصعباً عندهم. لقد كانوا يقهرون العدو سابقاً بغيرةٍ

خالصة تحركها الطبيعة بنهضةٍ في تلك الأوقات بحرارةٍ وحدّةٍ؛ أمَّا الآن فلا يجدونها في نفوسهم.

١٤ – والفاشلون المتراخون في بداية أمورهم لا يخافون من هذه المعارك وأمثالها وحسب، بل ينزعجون حتى من حفيف ورق الشجر، أو من ضيقة يسيرة بسبب الجوع والعوز، أو من مرض قليل، فينغلبون وينكسرون ويرجعون إلى الوراء.

أمَّا المحنّكون الحقيقيون فما يشبعون ولا من الحشائش والبقول؛ وحتى إن كانوا لا يغتذون سوى من جذور نبات يابس فهم لا يستجيزون تذوق شيء قبل ساعة الغذاء. وهم مع هذا تجدهم منضجعين على الأرض لسبب ضعف أجسادهم ودوار عيونهم من فرط خلو أجسامهم؛ وحتى لو باشر الوَاحِد منهم الخروج من الجسد من أجل الشدة التي هو مكابد لها، لا يسمحون لأنفسهم بالانغلاب والسقوط من الغرض المستقيم. لأن احتمال الأهوال من أجل حب الله صار حلواً عندهم دون الرغبة في هذه الحياة الوقتية وكل راحة فيها. ومتى أَلَمَّتْ بهم التجارب فهم (يفرحون بها) لكونهم يعرفون أنهم بها يكملون. كما أن الشدائد وضغطات الجسد لا تجعلهم يرتابون في محبة المسيح، بل وحتى إلى الخروج من هذه الحياة، يحلو عندهم الموت من أجله، ولا يفترقون من حبه.

ولإِلهُنَا المجد إلى دهر الداهرين، آمين.

المَيْمَر السَّابع

في ما يفيد الإنسان في الاقتراب من الله تعالى بقلبه، وما هو السبب الحقيقي الذي يقرِّبه سراً من المعونة، وما هي العلة التي تقوده إلى الاتضاع

١ – طوبى للإنسان الذي يعرف ضعفه، لأن هذه المعرفة تصير له أساساً وبداية لكل الصلاح والحسنات. لأنه إذا علم الإنسان وأحسَّ بالحقيقة أنه ضعيفٌ وعاجزٌ، عندئذ يجمع نفسه من الطياشة والاسترخاء الذي يشتت المعرفة؛ ويكنز لنفسه يقظة واحتراساً.

٢ – ولا يقدر أحدٌ أن يحسَّ بضعفه دون أن يُهمَل قليلاً لكي يُجرَّب. فإذا ما أحاطت به التجارب سواء بأشياء تُوعك الجسم أو بآلام تضغط النفس، حينئذ من قياس ضعفه يعرف عظمة معونة الله سبحانه.

٣ – وأيضاً متى عاين الإنسان كثرة حيله واحتراسه ونسكه وتحفُّظه، واجتهاده في توفير أسباب الثقة والأمن لنفسه، ووجد أن كل ذلك لا يجلب له سكوناً من الخوف، ولا هدوءاً للقلب من الرعب، حينئذ يتميز ويعرف أن جزع قلبه هذا إنما يدل ويوضح أنه مفتقر إلى آخر يعين ويساعد. لأن القلب من داخل يشهد بالخوف الملقى فيه على أنه في عوز لشيء ما. ولذلك فهو لا يقدر أن يسكن آمناً، لأنه يقول: إن معونة الله تعالى هي التي تخلِّص.

٤ – فإذا علم الإنسان أنه محتاجٌ إلى المعونة الإلهية، فليكثر من الصلاة؛ فإنه بمقدار ما يكثر منها يتضع قلبه، لأنه ليس أحد يسأل ويتضرع ولا يمكن ألا يتضع أولاً؛ لأن الباري عزَّ وجل لا يرفض قلباً منسحقاً متواضعاً. فإلى أن يتضع القلب لا يقدر أن يكف عن الطياشة؛ لأن الاتضاع يجمعه.

٥ – وإذا ما اتضع الإنسان ففي الحال تحيط به الرحمة، ويحس القلب بالمعونة الإلهية؛ لأنه يجد قوة التوكل والثقة متحركة فيه. وإذا شعر بحضور المعونة الإلهية لمساعدته، يمتلئ القلب في الحال من الإيمان؛ ومن هنا يعرف أن الصلاة هي معدن المعونة، وينبوع الخلاص، وكنز الثقة، والميناء المنقذ من ارتفاع الأمواج، ونورٌ للذين في الظلمة، وعكاز للضعفاء، وملجأ للخلاص في أوان المحن، ومعونة في حدَّة المرض، وترس خلاص في القتال، وسهم مسموم قبالة الأعداء. وببساطة نقول: إن كل هذه الخيرات بتوسط الصلاة تجد لها مدخلاً ويحظى الإنسان بها. وبعد ذلك يتنعم بصلاة الإيمان؛ وأمَّا قلبه فيبتهج بالثقة والرجاء، ولا يمكث بعد في عماه السابق ونُطق الفم المجرد فقط. وإذا عرف هذا، فهو حينئذ يتوفر على الصلاة، ويقتنيها في نفسه كالكنز، ومن فرحه بها تتحول صلاته إلى هتاف شكرٍ وحمد.

٦ – وهذا هو قول أنبا أوغري الذي حدد لكل نوع من الأمور شكلاً خاصاً: «إن الصلاة بهجة وتأتي بشكرٍ». ويرمز بهذا إلى الصلاة التي تكون بعد قبول معرفة الله. وقوله: «تأتي بشكر»، لأن الإنسان لا يصلي في ذلك الوقت بتعب ومشقة كبقية الصَلَوَات الحزينة التي كان

يصلي بها قبل اختباره هذه النعمة. لكن القلب من فرحه ينبع حركات شكر دائم بسرور وتعجب وجثو ركب لا يصاحبها نطق. ومن كثرة حركته بالدَهَش والتعجب من أفهام نعمة الله تعالى، يرفع صوته بغتةً ممجِّداً ومسبِّحاً بلا شبع، شاكراً الله ومحركاً اللسان لَيْتَلو متعجباً.

٧ – ومن وصل إلى ههنا، بالحقيقة وليس بالتخيل، وحصل في نفسه على دلائل كثيرة على حقيقة هذا الأمر، ولسبب كثرة خبرته بالتجربة تعرَّف على أنواعه المختلفة، فهو يعلم أن ما أقوله ليس فيه شيء يخالف الحق. ومن الآن فليكفَّ عن تصور الباطل، ويلازم الله تعالى بواسطة الصلاة الدائمة، خائفاً ومراقباً وهَلِعاً لئلا يَعدم كثرة معونته.

٨ – وكل هذه الخيرات تتولد للإنسان من معرفته لضعفه الخاص به؛ لأنه من أجل شوقه لمعونة الله، يدنو إليه تعالى بمثابرة صلاته وتضرعه. وبمقدار ما يتقدم إليه بفكره، يقترب هو تعالى منه بتوسط مواهبه، ولا يرفع عنه معونته ونعمته لسبب كثرة اتضاعه، ولأنه قد ضارع الأرملة التي تواصل صراخها إلى القاضي لكي ينصفها من خصمها.

٩ – لكن الله الرؤوف يقبض نعمته عن العبد لهذه العلة بالذات: أن يصير له هذا الأمر طريقاً إلى الدنو منه تعالى؛ لأنه من جرَّاء حاجته إليها يلازم المانح إياها. فهو يجود عليه بقضاء بعض (طلباته) سريعاً، أي الأمور التي لا يمكن أن يخلص وتستتب حاله بدونها؛ وبعضها لا يقضيه له. وأحيانا يطرد لهيب العدو عنه، وفي غيرها يسمح بأن يتجرب ليصير له ذلك سبباً للقرب من الله كما ذكرتُ، ولكي يتأدب أيضاً ويتحنَّك بالمحن. وهذا مثلما جاء في الكِتَاب، إذ يقول إن الرب ترك أمماً كثيرة دون إهلاكها، ولم يسلِّمها إلى يدي يشوع بن نون لكي يجرب بهم بني إسرائيل ويؤدِّبهم، ولكي تتعلم قبائل إسرائيل وتعرف القتال.

١٠ – إن الصدِّيق الذي لا يعرف ضعفه هو في خطرٍ، وليس ببعيد من السقطة، ولا من الأسد المفترس، أعني شيطان الإعجاب. وأيضاً، مَن لا يعرف ضعفه فقد أعوزه الاتضاع؛ ومَن أعوزه الاتضاع فقد عَدِمَ الكمال. ومَن خلا من الكمال فهو دائماً خائفٌ، إذ يجد العدو في أي وقت سبيلاً إليه؛ لأن مدينته لم تؤسس على أعمدة حديدية ولا على أعتاب نحاسية، وأُشير بهذه إلى الاتضاع.

١١ – ولا يقدر أحد أن يقتني الاتضاع من دون أسبابه التي بها ينسحق القلب على الدوام، وتُهدم أفكار الظنون (أي الغرور) والعظمة. ولهذه العلة غالباً ما يجد العدو سبباً ليُميل الإنسان (عن الطريق). فبدون الاتضاع لا يكمل عمل الإنسان، ولا يوضع خاتم الرُّوح على كِتَاب عِتْقِهِ؛ بل يظل عبداً وعمله ليس بمعزل من الخوف. لأن الإنسان لا يثبت عمله بغير الاتضاع، ومن دون المحن لا يقتني الأدب والحكمة، ومن دون الحكمة لا يحصل على الاتضاع.

١٢ – ولهذا يطلق الرب على القديسين علل الاتضاع وانسحاق القلب والصلاة الحزينة التي بغير طياشة، (لكي يقترب إليه تعالى الذين يحبونه بواسطة التواضع). وكثيراً ما يفزعهم بآلام طبيعتهم، وبزلل الأفكار النجسة الدنسة، وبشتائم الناس وهزئهم وسخريتهم، وتارة بأمراض

وأوجاع جسدانية، وتارة أخرى بفقر وعوز الحاجة الضرورية. وقد اعتاد أيضاً أن يخيفهم من الشدائد الصعبة والتخلية، ومن حروب الشيطان الظاهرة؛ وأحياناً يُرعبهم بتهاويل أخرى مختلفة كل وَاحِدة أصعب من الأخرى. وهذه كلها يوردها عليهم (الله) لكي يظفروا بأسباب الاتضاع، ولئلا يعرض لهم الفشل والتواني (ونوم الغفلة) سواء من جهة الأمور التي يمرض بها المجاهد، أو من جرَّاء الخوف من الأمور التي ستأتي.

١٣ – فالتجارب إذاً هي بالضرورة نافعة للناس. ولستُ أقول هذا بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يسترخي للقبائح بإرادته لكي يتوجه له بذكرها سبباً للاتضاع، أو أن يحرص أن يدخل في تجارب أخرى؛ بل أقول إن الخليق به أن يصنع الخير ويتيقظ في كل وقت، ويفكر أنه مخلوق ومتسربل بالميالة (أي قابل للتغير) ولذلك فهو سريع الزلل. لأن كل مخلوق مفتقر إلى قوة الله تعالى ناصره ومعينه؛ وكل فقير إلى معونة غيره هو ضعيف بطبيعته؛ وكل من عرف ضعفه تلزمه الضرورة أن يتواضع لكي ينال بُغيته من القادر على إعطائه. ولو كان الإنسان قد عرف ذلك منذ البداية وأدرك خموله وتكاسله، لما كان قد تهاون، ولو لم يتهاون لما كان قد نام وأُسلم إلى يد العدو الذي يحزنه لكي يوقظه (من جديد).

١٤ – والآن ينبغي للسالك في طريق الله عزَّ وجلّ، أن يشكره على كل تجربة تأتي عليه، وأن يلوم نفسه ويذمَّها عالماً أنه قد أُسلم للمجرب بأمر المدبِّر سبحانه لكي ينبهه أمَّا لكونه أهمل وتوانى، أو لأنه تعظَّم وتصلف؛ وذلك لكي يستيقظ ويتوب ويلوم نفسه. فلا ينبغي أن يقلق، (أو يهرب من ميدان الجهاد)، لئلا يتضاعف عليه الشر إذا ما زكَّى نفسه. لأن الله يُفيض العدلَ ولا جورَ عنده. وحاشا أن يكون ذلك للذي هو ينبوع البر والتحنن. فله المجد إلى دهر الدهور، آمين.

المَيْمَر الثامن

في الخطايا التي من الاستعداد والإرادة الردية، والتي تكون من جهة عارِضة.

١ – ثمة خطية تكون من الضعف وتحصل للإنسان بنوع عارض، وخطية أخرى تكون من الإرادة، وأخرى من عدم المعرفة، وأخرى تعرض له مصادفة؛ ومنها ما يكون بسبب المداومة في الشر أو من العادة. وهذه هي رتب وأنواع الخطايا، وكلها محصورة تحت اللوم، إلا أنه في العقاب عنها يوجد اختلاف وزيادة ونقصان؛ فمنها ما يكون صعباً وقبول التوبة عنها عسراً وملامتها عظيمة، ومنها ما هو قريب من المغفرة. والدليل على هذا أن الله لام آدم وحواء والحية ولم يبرئ أحداً منهم من الخطية وجزاء ذنبه؛ إلا أنه يوجد اختلاف كبير بين لعنته للحية، وما أوجبه على حواء وما قضى به على آدم، وهكذا جرى الحال مع أولادهم.

٢ – إن كل إنسان حسب اهتمامه ومحبته للخطية، هكذا تُصعَّب الدينونة عليه. لأن ثمَّ من لا يحب الخطية ولكنه لسبب توانيه في أعمال البر وعدم احتراسه ينجذب إلى الخطية، فهذا دينونته صعبة. أمَّا إن كان مهتماً بعمل البر ثم تصادفه التجارب ويخطئ، فالرحمة قريبة منه، وهي تغسله بلا شك.

٣ – فقد يكون الإنسان مهتماً بعمل الفضيلة، ومداوماً فعلها ويفكر فيها ليلاً ونهاراً لئلا يعتاز شيئاً من واجباتها، وهو يحمل ثقلها في كل وقت، واهتمامه كله في عمل البر. ثم من عدم المعرفة، أو من اضطرار الأمور المضادة التي في طريق الفضيلة وأمواج اللذة المتحركة كل وقت في أعضائه، أو من الميالة (أي الميل إلى الانحراف) الموضوعة فينا لأجل اختبار حريتنا؛ فمن هنا ترجح كفة ميزانه قليلاً إلى ناحية الشمال، ويزلّ الإنسان – لسبب ضعف بشريته – في شيء من أنواع الخطية، وهو متألم محزون من أجل ذلك، فيتنهد على نفسه بحزن وألم لأجل انغلابه وعدم ثباته مقابل العوارض التي تصادفه من حين لآخر.

٤ – وشيء آخر يختلف عن ذلك، هو أن يكون الإنسان متراخياً في عمل البر، أو أنه قد تخلَّى تماماً عن طريق الصلاح. ويسرع مثل عبد لكل طاعة للذَّات الخطية، ويبحث بكل اهتمام عن فرصة، ويتحيل لكي يكملها؛ وكعبدٍ مستعدٍ يحرص لعمل إرادة أعدائهِ، وقد جعل أعضاءه سلاحاً للشيطان باختياره. وهو لا يلتفت إلى الندامة، ولا يفكر في الاقتراب من الفضيلة، ولا أن يجعل حداً لإثمه.

٥ – وشيء آخر هو الزلل والسقطات الموضوعة في طريق الفضيلة وسبل البر، حسب قول الآباء إن طريق الفضيلة فيها سقطات وفيها غيارات ومقاومات وما أشبه ذلك. وشيء آخر يختلف تماماً عن ذلك وهو سقوط النفس والهلاك الكلي والرفض الكامل.

٦ – ومن هذه الحالات يتضح أنه إذا زلَّ أحد وسقط يجب ألا ينسى حب الآب، وإن زلَّ بأنواع كثيرة فعليه ألا يتعوق عن حرصه في عمل الفضيلة، ولا يتخلف عن سيره، بل يكافح

لكي يقوم أيضاً في الجهاد، ولا يملُّ حتى في وقت انغلابه، وإذا انهدم بنيانه كل يوم فعليه أن يجتهد كل يوم في (تجديد) وضع الأساس (لبنيانه المتهدم)، وكلمة النبي لا تنقطع من فمه إلى آخر يوم في حياته: «لا تفرح أيُّها العدو بسقوطي؛ لأني أعود وأقوم؛ وإن جلستُ في الظلمة فالرب ينير لي». وعليه ألا يهدأ من الجهاد إلى ساعة الموت، ولا يعطي ذاته للانغلاب البتة مادام في الحياة؛ وإذا انكسرت مركبه كل يوم وسقطت تجارته في العمق، لا يهدأ، بل يقترض (لكي يقتني بضاعة جديدة لتجارته) ويركب سفناً (أخرى) ويسير على الرجاء؛ إلى أن ينظر الرب إلى حرصه على الجهاد، ويشفق على انكساره، ويرسل له مراحمه، ويمنحه حركات (أي دوافع) شجاعة تمكِّنه أن يصبر ويصادم سهام العدو المتوقدة. هذه هي الحكمة التي يهبها الله؛ وهذا هو المريض الحكيم: لأن قطع الرجاء واليأس لا منفعة فيه. فإنه من الأوفق لنا أن ندان على زلاتٍ ما، وليس على رفض الفضيلة بالكمال. ولهذا يحذِّرنا الأب مرتينيانوس وينصحنا ألا نمل من كثرة التجارب وأنواع الحروب المتواترة التي تواجهنا في طريق البر، ولا نرجع إلى الوراء حتى لا نعطي للعدو فرصة للفتك بنا في شيء من أنواع الشر؛ وكأب مُحبٍ يرسم لنا الأمور بوضوح ويقول: **نصيحة للقديس مرتينيانوس**:

٧ – يا أولادي، إذا كنتم بالحقيقة حريصين على اقتناء الفضيلة والاهتام بنقاوة العقل والعمل بما يرضي الله، فبحكم الضرورة ينبغي لكم أن تصبروا للحروب والمجاهدات التي لأجلها؛ إن كان من آلام الطبيعة ومجاذبات العالم أو من شرور الشيطان المعاند التي اعتاد أن يثيرها عليكم باستمرار. فلا تتراخوا وتجبنوا من مداومة الجهاد، ولا تجزعوا من تواتر شدة العناد، ولا ترتعبوا من كثرة عساكر الأعداء، ولا تيأسوا إن سقطتم في شيء من الخطايا أو إن أصابتكم الضربات والجراحات في وجوهكم أثناء الجهاد. فلا تبتعدوا من أجل ذلك عن تحقيق إرادتكم الجيدة؛ بل اثبتوا في سيرة تَدْبِيركم الحسن. لأن هذا يُحسب لكم مِدْحَةً ومجداً أن تكونوا مصطبغين بدم جراحاتكم وأنتم منتصبون في الجهاد ولم تتخلفوا عن المصارعة بعناد مقابل الأعداء أبداً.

٨ – هذه هي تحذيرات الشيخ الْعَظِيم. ولهذا ينبغي لنا ألا نتراخى ونيأس من الجهاد. والويل للراهب الذي يجحد عهده ويدوس ضميره، ويمد يده للشيطان ويعطيه فرصة للدخول إليه بشيء وَاحِد من أنواع الخطية، فلا يعود بإمكانه أن يقوم مقابل الأعداء أو ينهض من الوقعة التي صنعها في نفسه. فبأي وجه يظهر (أمَّام الديان) إذا ما اجتمع رفقاؤه الأعفَّاء الأطهار معاً، وهو قد فرز طريقه منهم ليمضي في طريق الهلاك، وخاب من دالة الأطهار عند الله، وحُرم من الصلاة التي تصعد من القلب النقي وترتفع إلى ما فوق عساكر الملائكة، ولا تتعوَّق حتى تأخذ طلبتها وترجع إلى فم مرسلها بفرح. وما هو أصعب من هذا أنه كما أفرز طريقه منهم (أي من رفقائه الأطهار) ههنا، كذلك يفرزه المسيح منهم هناك في اليوم الذي فيه تحمل السحب النيّرة الأجساد التي تنقَّت بالطهارة، وتدخلهم أبواب السماء. لهذا، «لا يقوم المنافقون في الحكم»؛ لأن عملهم قد قُضي عليه هنا، «ولا الخطاة في مجمع الأبرار» في قيامة الدينونة، ولا الفسقة في صفوف القديسين.

المَيْمَر التاسع

يتضمن أقوال الكِتَاب الإلهي التي تحضُّ على التوبة والتي قيلت بسبب ضعف الناس لئلا يهلكوا ويخيبوا من إحسان الله الحي. وأنه لا ينبغي أن نتخذها حجة لعمل الخطيئة

١ – إنه لا ينبغي لنا أن نعتقد في التشجيع الذي أودعه الأنبياء والرسل والآباء في كتبهم عند ذكر التوبة، أنه السبيل المؤازرة للغِيّ والهفوة، واحتقار تهديدات القضاء الإلهي، ونقض حدود (أي أحكام) الرب التي لا تُنقض، وهي التي حددها بقوته سبحانه منذ الأيام القديمة على أفواه القديسين في جميع الكتب والمواعظ من أجل إزالة الخطية. لأن الله عزَّ وجلّ، لرغبته في أن يكون لنا أمل في الخلاص، تلطَّف بأن أزال خوف اليأس من إحساس الإنسان، وذلك بالرجاء الذي أعطانا إياه في التوبة؛ لئلا توجد لنا من اليأس فرصة لكي نخطئ بلا مراقبة وبغير جزع. ولكن لا يجب أن نتخذ من الرجاء الذي ينشأ فينا من التوبة علّةً للتخلص من الإحساس بالخوف، لئلا يقودنا ذلك إلى فعل الخطية بحرية وبلا خوف، في تلك الأنواع التي ربطها الله بالخوف بكل أنواع التهديدات التي تَثَبَّتتْ بأختام كلام الله في جميع الكتب لخلاصنا. ومن ذلك ما كشفه جزئياً بما جلبه من العقوبات على فاعليها في الحال، وبرهن بذلك على أن الخطيئة ممقوتة عنده تعالى.

٢ – فالجيل الذي كان على أيام نوح، لماذا غرق بكامله بالطوفان؟ أليس بسبب الفسق الذي توسوسوا به من قِبل جمال بنات قايين؟! حيث لم يكن في ذلك الوقت حب مال أو عبادة أوثان أو سحر أو حروب. ولماذا احترقت مدن سدوم؟ أليس لأنهم توفروا على الشهوة النجسة، حتى أنها استولت عليهم كلهم فاستعملوا كل الأفعال النجسة غير الطبيعية حسبما أرادوا؟ أوَ ليس من أجل زنا إنسان وَاحِد مات في لحظة وَاحِدة من بني إسرائيل – بكر الله – أربعة وعشرون ألفاً؟! ولأي سبب أقصى الله شمشون الجبار، وهو الذي كان مُفرَزاً لله من البطن، وقد بُشِّر بولادته بواسطة ملاك كيوحنا بن زكريا وتأهل لقوة عظيمة ولعمل الآيات الجسيمة، [والذي بسبب القوة الفائقة للطبيعة التي وضعها الله في جسده قتل ألف رجل (من الفلسطينيين) بفك حمار، وصار مخلِّصاً وقاضياً لإسرائيل]؟ أليس لأنه دنَّس أعضاءه الطاهرة بجمال زانية؟ ولهذا السبب ابتعد الله عنه ومكَّن منه أعداءه. وداود الذي كان قلبه كقلب الله تعالى، والذي لأجل فضائله استحق أن يصدر موعد الآباء من زرعه، وأن يظهر منه المسيح سبحانه لخلاص المسكونة كلها؛ أليس بسبب زناه بامْرَأَة وَاحِدة عُوقب، حين نظر جمالها بعينيه وانغرس سهم هواها في نفسه؟ ولهذا السبب أثار الله عليه قتالاً من داخل بيته، واضطهده الذي كان من صلبه (أي ابنه أبشالوم). وحدث له هذا بعد أن تاب وسكب الدموع الكثيرة حتى أنه بلَّ فراشه من كثرتها، وبعد أن قال الله له على لسان النبي إنه قد غفر له خطيئته.

٣ – وإني أوثر أيضاً أن أذكر قوماً قبل داود. لأي علةٍ شمل الرجز بيت عالي الكاهن والشيخ الصدِّيق الذي حَسُن تصرفه في الكهنوت مدة أربعين سنة؟ أمَّا كان ذلك بسبب نفاق ولديه حفني وفينحاس؟ لأنه هو نفسه ما أجرم، ولا هذان فعلا ما فعلاه عن رأيه؛ إلا أنه لم تكن له غيرة وحمية في أخذ حق الله منهما، بل أحبهما أكثر من أوامره.

٤ – فلئلا يظن أحدٌ أن الله أظهر سخطه فقط على الذين قضوا كل أيام حياتهم في الإثم، ها إنه بسبب سماجة هذه الخطية المبغوضة منه تعالى، قد أظهر غضبه على كهنته ورؤساء شعبه وأناسه القديسين الذين رأى إجراء معجزاته على أيديهم؛ فإنه لا يغفل، بأي حال، عن المتجاوزين سننه والذين ينبذون فرائضه، كما كتب في حزقيال النبي: «وقال للإنسان الذي رسم له ضَرْبَ أورشليم بالحربة غير المرئية: ابتدئ من أمَّام المذبح، ولا ترحم شيخاً ولا شاباً». هذا لكي يقيم البرهان على أن السالكين بخوفٍ وخشوع قدامه وصانعي إرادته هم قديسوه وأحباؤه ذوو الفعل الفاضل والنية الطاهرة؛ ولكنهم إذا ما طرحوا طرق الرب تبارك اسمه، فإنه يطرحهم ويقصيهم عن وجهه، ويرفع منهم نعمته. والدليل على ذلك ما أقوله: لماذا خرجتْ القضية بغتةً على بلشاصر وضَرَبَهُ بشكل يد؟ أليس لأنه تجاسر على ما أخذه من أورشليم من الأواني (المقدسة) التي ما كان يُدنَى منها، وشرب بها هو وجلساؤه (وسراريه)؟ هكذا فالذين نذروا أعضاءهم لله، ثم يتجاسرون على استعمالها مرة أخرى في الأعمال الأَلَميَّة (أي آلام الخطية)، يهلكون بضربةٍ لا تُعايَن، ويُقضى عليهم كبلشاصر الذي جسر على الأواني المقدسة التي أخرجوها من بيت الرب.

٥ – فإذا كان الأمر هكذا، فلا نزدرينَّ بأقوال الله وتهديداته بأمل ورجاء التوبة والتشجيع الذي يتوجه إلينا من الكتب الإلهية، ولا نسخطه بقبيح أفعالنا، ولا ندنس أعضاءنا التي قد جعلناها من أول وهلة مكرسة لخدمته. لأننا قد (تكرسنا له) وتقدسنا به كإيليا وأليشع وأولاد الأنبياء وبقية القديسين والأطهار الذين كانوا يجترحون العجائب والآيات الْعَظِيمة؛ وكانوا يخاطبون الله تعالى وجهاً لوجه، وكل من كان بعدهم مثل يوحنا الحبيب البتول، والقديس بطرس، وجماعة المبشرين والكارزين بالجديدة (أي بالعهد الجديد)، الذين نذروا أنفسهم لله، فقبلوا منه الأسرار – قوم من فمه، وقوم آخرون بتوسط الاستعلان – وصاروا واسطة بينه وبين الناس، خاطبين المسكونة إلى الملكوت.

المَيْمَر العاشر

كيف يُحفظ جمال السيرة الرهبانية وكيف يتمجد الله بها

١ – ينبغي أن يكون الرَّاهِبُ في جميع أموره رسماً ومنفعة لناظريه، لكي من كثرة فضائله البهية ومناقبه التي تضارع الشمس نوراً، حين يراها أعداء الحق يعترفون رغماً عنهم بأن للمسيحيين رجاء خلاص أكيد، فيسارعون إليه من كل مكان كملجأ لهم. وهكذا يرتفع قرن البيعة على أعدائها، ويتحرك كثيرون لمماثلة فضائله فيخرجون من العالم، ويكتسب بنو البيعة البهاء من جمال سيرته. لأن السيرة الرهبانية هي فخر بيعة المسيح تعالى.

٢ – فلهذا ينبغي للراهب أن يتشكل بكل أشكال الفضيلة، ويقتني سائر جوانبها الجميلة: من طرح كل المنظورات، والتوفر على عدم القنية بدقة، والتهاون الكلي بالجسد، والصَّوْم النقي، وملازمة السكوت، وحسن ترتيب الحواس، وحفظ النظر، وقطع كل خصومة تتعلق بهذا الدهر، والإيجاز في الكلام، وعدم الحقد والنقاوة من وسخه، والبساطة بإفراز، وأن يعلم أن هذه الحياة بائدة وسريعة الزوال، وأن تلك الحياة الرُّوحانية الحقيقية قريبة، مع سلامة قلبٍ، وسذاجة بتعقل. ويكون مجتمعاً إلى ذاته في كل وقت، غير معروفٍ بين الناس، ولا مرتبطٍ برفقة أحد، وليس له تعلق بإنسان. وأن يكون موضع سكناه هادئاً، وأن يهرب من الناس كحمار الوحش، وأن يلازم الصَلَوَات والقراءة باستمرار. وألا يحب الكرامة ولا يفرح بالضيافات؛ ولا يربط ذاته بهذه الحياة؛ وأن يصبر على المحن بجلادة، ويعتق نفسه من الاستماع (للأخبار) العالمية والبحث عنها؛ وأن يثبت في القلاية بسكون من كل أحد. وأن يكون اهتمامه وهذيذه الدائم بوطنه الحقيقي. ويكون وجهه مقطباً معبساً، وعيناه تسكبان الدموع ليلاً ونهاراً. وما هو أكثر من ذلك كله أن يحفظ عفته ويتنقَّى من نهم البطن، وأن يحفظ حواسه من مصادمة الملاقاة من الأصاغر إلى الأكابر.

٣ – فهذه هي بإيجاز فضائل الرَّاهِبُ الظاهرة التي تشهد له بالموت الكلي من العالم، وقربه من الله. فينبغي لنا دائماً، يا إخوتي، أن نهتم بهذه المناقب في كل وقت ونقتنيها. وإن قال قائل: ما الحاجة إلى تحديد هذه الفضائل بالتفصيل، ولماذا لم نذكرها جملة وبإيجاز؟ أجبته: إن الذي اضطرني إلى ذلك هو لكي يعلم المرء المهتم بنفسه نقصه وما قد أعوزه من جملة هذه الفضائل إذا طلب وَاحِدة وَاحِدة مما تقدم ذكره منها فلم يجدها، فيصير له ذلك مُذكِّراً بها. وإذا ما اقتناها كلها حسبما حدَّدتُ، حينئذ يُعطَى علماً بما تبقى مما لم أذكره، ويصير للناس والملائكة والقديسين علة تمجيد لله. وهكذا يُعدُّ لنفسه من ههنا مكان راحة قبل رحيله من هذه الدنيا. ولإِلهُنَا المجد إلى دهر الدهور، آمين.

المَيْمَر الحادي عشر

في أنه ينبغي لعبد الله تعالى الذي قد تجرَّد من العالم وخرج في طلبه أن لا يعود فيسبب لنفسه اضطراباً بالمحادثات الباطلة لكونه لم يدرك الحق، وأن لا يكف من الطلب تخوفاً من هذه الأمور، وأن لا تبرد حرارته المتولدة من الشوق إلى الإلهيات ويعطل بحثه عن أسرارها التي قد وضحت سراً، لئلا بهذا السبب يتخلف الفكر في الطياشة والتذكارات الألمية.

١ – المراتب التي ينجح فيها الإنسان ثلاث: الأَولى مرتبة المبتدئين، والثَّانِية المتوسطة، والثَّالِثة الكاملين. أمَّا الذي في المرتبة الأَولى فإنه وإن كان عقله يميل إلى الخير، إلا أن فكره يتحرك في الآلام. أمَّا المرتبة الثَّانِية فإنها متوسطة ما بين التألم والرُّوحانية، والأفكار التي من اليمين والتي من اليسار تتحرك فيها بالسواء. والذي هو في هذه المنزلة لا يهدأ من أن يصدر عنه ظلامٌ ونورٌ على السواء كما قيل. فإذا توقف قليلاً عن مواصلة هذيذ الكتب الإلهية، التي بتأملها يلتهب باستنارة الحق (الذي فيها) حسب قوته، وإن توقف كذلك عن التحفظ من الخارج الذي منه يكون السهر الداخلي والعمل الخفي؛ فإنه عتيد أن يُجتذب إلى الآلام. وإن هو غذَّى حرارته الطبيعية بما قد قلتُ، ولم يكفَّ عن البحث والتفتيش والطلب والاشتياق إليها (أي إلى الأمور الإلهية) من بعيد، فإنه وإن لم يعاينها، إلا أنه مما تُلوِّح به (أي تظهره) قراءة الكتب الإلهية يغذي أفكاره ويجمعها لئلا تميل إلى ناحية اليسار فتقبل زرعاً شيطانياً بتخيلات من الشياطين بشبه الحق، ويحفظ نفسه بشوق، ويطلب من الله تعالى بصَلَوَات حزينة وطول اصطبار، فعندما يشاء الله أن يجود عليه بملتمسه، فإنه يفتح الباب قدامه، ولا سيما لأجل تواضعه؛ لأن الأسرار تنكشف للمتواضعين قلباً. وإن هو مات في هذا الأمل، ولم يعاين تلك الأرض عن قرب، فعلى ما أظن أن ميراثه يكون مع الأبرار القدماء الذين ترجوا أن يدركوا الكمال ولم يعاينوه، حسب قول الرسول إنهم بالرجاء عملوا ما عملوه كل أيام حياتهم، ورقدوا.

٢ – لأنه ماذا عسانا أن نقول إن لم يلحق إنسان أن يدخل إلى أرض الموعد التي هي رتبة الكمال، أي أنه لم يدرك الحق إدراكاً واضحاً حسب مقدار كفاءة الطبيعة؟ أتراه من أجل ذلك يُعاق عن هذا، ويمكث في المنزلة الأدنى كالذي تميل كل عزائمه إلى جهة اليسار؟ أو لأجل أنه لم يحصِّل كل الحق، ألعله يثبت في هجونة (أي مذلة) المرتبة السفلى والدرجة الحطيطة التي لا تعلم هذه الأمور ولا تشتهيها؟ أو هل يليق أن يعتلي إلى المرتبة الوسطى التي ذكرتها؟ لأنه إن كان لم يشاهدها ولا كما في مرآة، إلا أنه ظل يترجاها من بُعد، وبهذا الرجاء قد انضمَّ إلى مصاف آبائه. وإن لم يكن قد أُهِّل من ههنا للنعمة الكاملة، إلا أنه لأجل هذيذه الدائم في (أسرارها)، وترديده إياها في عقله، قد شغف بها، واستطاع طيلة أيام حياته أن يقطع الأفكار الخبيثة؛ وإنه ليخرج من هذا العالم وقلبه ملآن من هذا الرجاء.

٣ – فإذن كل (شيء) ذي اتضاع هو بطبيعته على أحسن نظام. لأن كل تأملات العقل الرُّوحية التي من أفهام الكتب على محبة الله المرتبطة بالشوق (الدائم إليه)، تحجز مداخل النفس (أي تحرسها) قدام الأفكار الغريبة، وتحفظ العقل وتصونه في تذكر الخيرات العتيدة، لئلا يتراخى بسبب البطالة وينشغل بتذكار الأمور العالمية؛ لأنه منها تبرد حرارة حركاته وتنقلب إلى الشهوات.

المَيْمَر الثَّانِي عشر[٤٣]

في التغيير الحادث للسالكين في طريق السكون المرسومة من الله سبحانه؛ لأنه يعرض لهم أحياناً ضيق واختناق نفس، يتحول بغتة إلى فرح وحرارة غير مألوفة

١ – من رأى أن يسير بعقله في التَدْبِير الانفرادي والوحدة مع ذاته، فليرتب نفسه ويتصرف بقية أيامه بحسب نظام السكوت والعمل بأنواع ترتيبه. فإذا ما عرض لك، كالمألوف في ترتيب السكون المحدد من النعمة الإلهية، أن تنحلَّ نفسك وتتغشى من داخل بالظلام، الذي يستر عنها الإشراق الإلهي كما يستر الضباب الصاعد من الأرض والغمام شعاع الشمس؛ وأن تعدم زماناً قليلاً العزاء الرُّوحاني ونور النعمة، بسبب ديجور (أي ظلمة) الآلام، وتنقبض عن نفسك القوة المفرحة، ويحيط بالعقل قتام غير مألوف؛ فلا تنزعج في نفسك، ولا تمِلْ مَيل الجهال وعميان النفوس، بل اِصبر وواظب على قراءة الكتب التي وضعها أفاضل المعلمين، وداوم على الصلاة واغصب نفسك عليها، فستوافيك النعمة والمعونة وأنت لا تعلم.

٢ – لأنه كما أن شعاع الشمس يزيل عن وجه الأرض ظلمة الهواء المحيط بها، هكذا فإن صلاتك تقدر أن تبدد عن قلبك غمامة الآلام، وأن تنير عقلك بنور السرور والعزاء، هذا النور الذي يتولد في أفكارك منها كالمألوف؛ ولا سيما إذا ما أخذتَ مادة (للمعونة) من الكتب الإلهية، واقتنيتَ سهراً يجلو العقل. لأن النظر الدائم في كتب القديسين يملأ النفس دهشاً لا يوصف وفرحاً إلهياً.

[٤٣] مخطوطة بالمتحف القبطي برقم ٣٧٠ وأرقامها من نسخ أخرى.

فصل عن ذوي السكوت[٤٤]

متى يبتدئون أنْ يتصوروا الجهة التي وصلوا إليها بأعمالهم في هذا البحر غير المتناهي، أي سيرة السكوت؛ ومتى يمكنهم أنْ يترجوا قليلاً في أنَّ أتعابهم قد بدأت تجود عليهم بالثمار.

١ – إنني، يا صاح، لأذكر لك أمراً وإياك أن تزدري به كأنه شيء حقير، ولا تتشكك في بقية أقوالي؛ لأن الذين سلَّموها لي صادقون: إن أنت عَلَّقتَ ذاتك من جفون عينيك [أمَّام الله]، فإلى أن تصل إلى سكب الدموع، لا تظن أنك قد أدركتَ شيئاً أو بلغتَ أمراً في سيرتك. لأن خفاياك (أي حواسك الداخلية) ما زالتْ إلى الآن تخدم العالم؛ أي أنك ما زلتَ قائماً في سيرة العلمانيين، وصانعاً عمل الله بتوسط الإنسان الخارجي. أمَّا (الإنسان) الذي من داخل فخالٍ من الثمر؛ لأن ثمره يبتدئ من الدموع.

٢ – إذا ما وصلتَ إلى بلدة الدموع، فاعلم حينئذ أن فكرك قد خرج من سجن هذا العالم ووضع رجله في طريق الإنسان الجديد، وابتدأ يستنشق نسيم ذلك الدهر الجديد العجيب. حينئذ يبتدئ أن يسكب الدموع؛ لأن طلق ولادة الطفل الرُّوحاني قد دنا. لأن النعمة العامة أُم الكل حريصة أن تلد للنفس بالسرِّ صورة الله لنور العالم الجديد. حينئذ يتحرك العقل بأمور ذلك العالم الجديد؛ وهو في هذا يشبه حال الطفل (الوليد) الذي يستمد الهواء من داخل الأعضاء التي خلق بها؛ ولأنه (أي العقل) لا يقدر أن يحتمل ما لم يكن معتاداً به، يبتدئ أن يحرك جسده إلى بكاء مخلوط بفرح يفوق حلاوة العسل. وبمقدار ما يغتذي الطفل (الرُّوحاني) من داخل تكون زيادة البكاء. ولكن هذا النوع من الدموع الذي ذكرتُه ليس هو ذلك الذي يعرض للساكتين جزئياً، حيث يحدث العزاء من وقت لآخر لكل من يعمل مع الله في السكوت. فتارةً يأتي حين يكون منشغلاً بالتأمل بعقله، وتارةً حين يتطلع في أقوال الكتب، وتارةً أثناء الصلاة والتضرع. ولكن كلامي هو في ذلك العزاء الكلي الموجود في الباكي الذي تنسكب دموعه ليلاً ونهاراً بلا انقطاع.

٣ – ومَن أَلِفَ ذلك بالحقيقة، فقد وجد الحق الذي يكون داخل السكون. لأن عيني مثل هذا الإنسان تصيران شبه مَعين الماء مدة سنتين أو أكثر؛ وهذا يحدث في وقت العبور، وأعني بقولي العبور السري. ومن بعد الدموع يدخل إلى سلام وأمَّان الأفكار؛ وبسلام الأفكار هذا، يدخل إلى تلك الرَّاحَة الإلهية، التي تكلم عنها بولس الرسول، وذلك جزئياً بمقدار ما تستوعبه الطبيعة. ومن بلد الأمَّان والرَّاحَة هذه، يبتدئ العقل أن ينظر الأسرار. حينئذ يبتدئ الرُّوح الْقُدُس أن يكشف له الأمور السمائية، ويسكن الله تعالى فيه، ويُنهض فيه أثمار الرُّوح. ومن هنا يحسُّ بالتغيير العتيد أن تقبله الطبيعة العامة عند تجديد الكل، إحساساً متوارياً وكالرمز (أو كما في مرآة).

---

[٤٤] النسخ الأخرى تعتبر هذا الفصل من الفصل السابق (رقم ١٤).

٤ – وهذه الأشياء إنما كتبتُها تذكيراً لنفسي ولكل مَن ينظر في هذا الكِتَاب حسبما أدركتُ وحصَّلتُ من معاني الكتب، ومن أفواه الصادقين، ومن خبرةٍ يسيرة، لتكون لي معونة بصَلَوَات المنتفعين منها. لأني ما تعبتُ فيها تعباً قليلاً.

٥ – واسمع، يا أخي، أيضاً شيئاً آخر أقوله لك، وهو ما تعلَّمتُه من فمٍ لا يكذب، وهذا مضمونه: إذا ما دخلتَ بلدة سلامة الأفكار حينئذ تؤخذ منك كثرة الدموع وتواترها، وبعد ذلك تأتي بمقدار وقياس. وهذا هو الحق باختصار، والموثوق به من البيعة كلها، ومن الحاذقين والرؤساء المجاهدين أولادها.

المَيْمَر الثَّالِث عشر

في أصناف الرجاء بالله؛ ومَنْ هو الذي يليق أنْ يرجو الله؛ ومَنْ الذي يرجو على سبيل التجاهل

١ – ثمَّ رجاء واتكال على الله يحدث من إيمان القلب، وهو رجاء حسن وذو تمييز ومعرفة. وقد يكون آخر مخالفاً لهذا، وحدوثه من الجهل والنفاق، وهو رجاء كاذب.

٢ – أمَّا المرء الذي لا يصرف اهتمامه كُلِّيَّةً إلى الأمور الوقتية الزائلة، بل قد وقف ذاته للرب عزَّ وجل ليلاً ونهاراً؛ ولم يعد يهتم بشيء عالمي بسبب كثرة اعتنائه باكتساب الفضيلة، وقد جعل اهتمامه كله في تحصيل الأمور الإلهية، ولذلك تجده يتهاون في إعداد الغذاء لنفسه، أو توفير لباس أو مكان لسكناه، ولم يعد يهتم بأي شيء آخر مما أشبه ذلك؛ فإن هذا الإنسان هو الراجي لله سبحانه بمعرفة وعلى ما ينبغي، لأنه متكل على الله واثق أنه يُعدُّ له كل ما تدعو الحاجة إليه. فرجاؤه إذاً هو رجاء حقيقي (وحكيم بآنٍ وَاحِد)؛ وبالعدل يتكل مثل هذا على الله تعالى، إذ هو عبده وحامل اهتمام عبادته من غير إهمال أو توانٍ لأي سبب من الأسباب. ومن المناسب أن يُظهر الله لمن هذه صفته جميلَ الاهتمام به ويخصه بعنايته دون بقية الناس؛ لأنه حفظ وصيته القائلة: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه»، و«لا تهتموا بالجسد». لأننا إذا اتَّبعنا ذلك فإن العالم يهتم لنا بكل شيء كأنه عبد لنا، ويطيع أقوالنا، ويخضع لأوامرنا من غير شك، ولا يناقض إرادتنا. وبالإجمال يكون قياسه إلينا قياس العبيد إلى سادتهم. ولئلا يتعطل – أعني مثل هذا الإنسان الفاضل – من دوام قيامه واتصال مثوله أمَّام الله تعالى، فهو لا يرى أن يشتغل ولا بما تدعو الضرورة إليه من احتياجات الجسد. ولأنه لا يهتم بشيء آخر إلا بأن يكون خالياً من أي اهتمام بالأشياء التي تقود إلى اللذة والرَّاحَة، صغرت أم كبرت، لأجل خوف الله تعالى؛ فإنه يحظى بما يحتاج إليه، بطريقة عجيبة دون أي اهتمام من جانبه، وبلا كدٍّ ولا تعب من أجلها.

٣ – أمَّا الذي قلبه مملوء تماماً من الأمور الأرضية، وهو يغتذي دائماً بالتراب مع الحية، ولا يُعنَى بشيء من الأشياء التي ترضي الباري سبحانه، بل قد صرف كل عنايته إلى الأمور الجسدانية، وتعطل عن كل فضيلة بسبب كثرة حديثه وصنوف احتجاجه، وتعظُّم جفائهِ؛ فإنه لأجل كسله وفشله يخيب من عمل الفضيلة. وإذا ما ضاقت به الحال، أو ضغطه الموت، أو أحزنته ثمرة جهله بأمرٍ ما، وانعصر بسوء أعماله، يقول: «على الرب أَتَّكلُ، وسيرفع عني الهمَّ ويجود عليَّ بالرَّاحَة». فيسمع: «أيُّها الجاهل، إلى الآن ما ذكرتَ الله تقدس اسمه، بل إنك قد سَبَبْته بانحلال أعمالك، واسمه بسببك يُفترى عليه بين الأمم كما كُتب؛ والآن تتجاسر أن تقول بكل قلبك (بملء فمك): عليه أتكلُ وإياه أرجو وبه أعتصم، وهو يساعدني ويراعي أحوالي»؟!

٤ – ما أحسن ما قاله الله تعالى على لسان النبي مُخجِّلاً مثل هؤلاء القوم: «إنهم كل يوم يطلبون ويؤثرون أن يتعلموا طرقي كقومٍ صانعين براً، وغير متخلفين عن عدل إلههم ويلتمسون منه قضاءً وعدلاً». والجاهل من هذه الطبقة هو الذي ليس بقريب من الله تعالى (حتى) بفكره؛ ومع ذلك، إذا ما ضغطته المصائب وَاحِدقت به التجارب والضيقات، فإنه يرفع إليه يديه بثقةٍ ويسأل. هذا الإنسان ينبغي له أن يكتوي (كما بنارٍ) من هنا ومن هناك لكي يتأدب؛ لأنه ما اقتنى عملاً يجعله أهلاً للاعتماد على الله سبحانه. ولكنه لأجل وخيم أعماله وذميم أفعاله وتهاونه وَجَبَ عليه الأدب؛ إلا أن الله تعالى يتغاضى عنه ويحتمله ويتأنَّى عليه، لأجل وفور رحمته وتكاثر رأفته.

٥ – ومن هو بهذه الصفة، فعليه إذاً ألا يخدع نفسه وينسى نظام سيرته؛ ثم يقول إنه يعتمد على الله عزَّ وجلّ؛ لأنه سيؤَدَّب لا محالة لكونه لم يقتنِ عمل الإيمان، وعليه ألا يمد رجليه في بطالة (أي تكاسل)، ويقول: لي ثقة بالله تعالى أنه ينعم عليَّ بما تدعو إليه الحاجة؛ وكأنه قد سلك في سبله وعمل مرضاته. ولا يتجاهل ويلقي نفسه في هوَّةٍ من جراء جهله؛ وإذ لم يصعد ذكر الله أبداً على قلبه، يقول الآن وبعد أن سقط: «على الرب أتكلُ وبه أستعين وهو يخلِّصني». لا تضل، أيُّها الجاهل؛ فإن الاعتصام بالله تعالى يجب أن يتقدمه التعب في طاعته، والعرق في عمله. فإن كنتَ تؤمن بالله، فحسناً تفعل؛ إلا أن الإيمان يفتقر إلى أعمال، والاعتماد على الرب يحتاج إلى شهادة الضمير التي تتولد من التعب في الفضيلة. ثِقْ وصدِّق أن الله يسوس برایاه وأنه قادر على كل شيء، ولْيَتْبع إيمانك عمل مناسب، وحينئذ يستمع منك. فلا تحاول أن تمسك الرياح في كفك، أي أن تقتني الإيمان بلا عمل.

٦ – كثيراً ما يحدث أن يسير إنسانٌ (دون أي يدري) في طريق فيها وحش مفترس أو أناس قتلة أو ما أشبه ذلك، ومن هنا تتبين عناية الله؛ فكم من مرة ينقذ من هذه المضرة، بأن يعوق المرء عن السير بسبب من الأسباب إلى أن يعبر ذلك الوحش، أو يسبب له من يلقاه ويردّه عن طريقه لأجل ما ذكرناه عن الآفة التي تعترضه. وربما كان أيضاً في الطريق صِلٌّ ملتفٌّ غير ظاهر؛ ولأن الله عزَّ وجلّ لا يؤثر إلقاء الإنسان في هذه التجربة، فيبعث الصِلّ في الحال على الصفير، أو المضي من المكان، أو السعي قدامه فيراه ويحترس منه وينجو من أذيته. فهو وإن لم يكن أهلاً لهذا التفضل بسبب ذنوبه الخفية التي لا يعلم بها إلا هو وحده، إلا أن الله ينقذه من هذا الخطر المؤلم جوداً عليه ورحمةً به. وأيضاً ربما عرض لبيت (أو حائط أو صخرة) السقوط، وكان هناك قومٌ جلوس، فيتحنن الله عليهم ويأمر ملاكاً بإمساك البيت ويمنعه من السقوط إلى أن ينهضوا منه، أو يخرجهم بسبب من الأسباب، لئلا يؤخذ أحد منهم تحته، ومع خروجهم يهوى في الحال. حتى وإن اتفق أن يوجد إنسانٌ ما تحت الردم، فإنه يحفظه من الضرر. لأن الله يريد بهذا أن يظهر عظمة قدرته التي لا تُحدّ.

٧ – فهذه الأمور وما شابهها تشهد بعناية الله الشاملة؛ أمَّا الصدِّيق فلا تفارقه هذه العناية، فقد اقتنى هذه النعمة على الدوام بصفة خاصة دون عامة الناس. أمَّا بقية الناس فقد أمرهم الله تعالى أن يدبروا أمورهم بتبصُّر وتمييز، ويقرنوا المعرفة بعناية الله. أمَّا الصدِّيق فلا يحتاج أن يدبِّر أمره بتوسط هذه المعرفة؛ لأنه قد استعاض عنها بالإيمان الذي بواسطته «يهدم كلَّ علوٍّ يرتفع ضد معرفة الله»، ولا يخشى من أي شيء مما ذكرناه. لأنه مكتوب أن الصدِّيق يتجاسر على كل أمر واثقاً كالأسد بتوسط الإيمان؛ لا كمن يجرِّب الرب، بل كواثق به، وبمنزلة من قد تسلَّح ولبس قوة الرُّوح الْقُدُس. وبمقدار ما يكون اهتمامه منصرفاً دائماً نحو الله تعالى، فإن الله يقول له: «أنا معه في الحزن وأخلِّصه وأشرِّف قدره وأُطيل عمره، وأريه خلاصي». أمَّا الرَّاهِبُ الفاشل المتراخي في عمله، فما يقدر أن يقتني هذا الرجاء، ولا تكون له هذه الثقة. لكن هذا الرجاء يخص الملازم لله دائماً في كل أمر، والقريب منه دائماً بمشكور أعماله وحميد أفعاله، والشاخص بنظر قلبه إلى نعمته دائماً، كقول داود الإلهي: «كلَّت عيناي من انتظار إلهي»، الذي له المجد والكرامة والسجود إلى الدهور، آمين.

المَيْمَر الثَّالِث عشر (م)[٤٥]

في رفض العالم والابتعاد من الدالة مع الناس

١ – إذا ما أحببنا أن نهرب من العالم وأن نتغرب من أموره، فليس شيء يفصلنا هكذا منه، ويميت الآلام التي فينا، وينهضنا ويحيينا في الأمور الرُّوحية، مثل النوح وتوجع القلب المرتبط بالتمييز. فإن وجه الإنسان المستحي والوقور يماثل اتضاع الحبيب. كذلك ليس شيء يبعثنا على التصرف في العالم والخلطة مع أهل العالم وسكِّيريه ويبعدنا من كنوز الحكمة ومعرفة أسرار الله، مثل الضحك، وعدم الانضباط، والدالة. وهذا الأمر هو آلة شيطان الزنى.

٢ – وإذ قد اختبرتُ محبتك للحكمة، أيُّها الحبيب؛ فأنا أسألك، بمحبةٍ، أن تحترس من دهاء العدو لئلا يبرِّد نفسك بكلام المزاح من حرارة محبة المسيح، الذي ذاق المرارة على خشبة الصليب من أجلك، ولئلا بدلاً من حلاوة ذلك الهذيذ والدالة مع الله، يملأها بخيالات كثيرة وأنت ساهر، ويأسرها وأنت نائم بأحلام سمجة لا تحتمل الملائكة القديسون رائحتها ونتنها، فتصير عثرة للآخرين ومنخاساً لنفسك.

٣ – فاغصب إذاً ذاتك على التشبه بتواضع المسيح لكي تزيد اشتعال النار التي ألقاها فيك، والتي بها تزول كل حركات العالم التي تقتل الإنسان الجديد وتدنس ديار الرب الْقُدُّوس القوي. وأنا أتجاسر وأقول مع القديس بولس: «إننا هيكل الله». فالخليق بنا إذاً أن نطهِّر هيكله، كما أنه هو طاهر، لكي يؤثر السكنى فيه؛ وأن نقدسه، كما أنه هو قدوس، وأن نجمِّله بكل الأعمال الصالحة الكريمة، ونبخِّره ببخور راحة مشيئته بصلاة القلب النقية التي لا يمكن أن تُقتنى بمشاركة العالميات؛ بهذا فإن سحاب مجده يظلل النفس وينبسط عليها، ويشرق داخل القلب نور عظمته، فيمتلئ جميع سكان بيت الله فرحاً وسروراً، أمَّا الوقحون فيضمحلُّون بلهيب الرُّوح الْقُدُس.

٤ – بكِّت نفسك دائماً، أيُّها الأخ، وقل لها: ويحكِ أيتها النفس الشقية، لقد دنا أوان انحلالك من الجسد، فلماذا تفرحين بما أنتِ عتيدة اليوم أن تتركيه، الذي إنما تتنعمين بمنظره وقتاً يسيراً وتعدمينه إلى الأبد؟ انتبهي لما هو قدامك، وفكِّري في ما قد صنعتِ وكيف، ومع مَن قد أمضيتِ أيام حياتك، ومن هو القابل تعب أعمال فِلاحتكِ؟ ومن ذا أبهجتِ بجهادك لكي يخرج للقائِك في وقت انتقالك؟ ومَن ذا فرَّحتِ بسعيك حتى تستريحي في مينائه؟ ولمن شقيتِ وتعبتِ حتى تلتقيه بفرح؟ وأي صديق أقتنيتِ لك في الدهر الآتي لكي يأتي الآن ويستقبلك عند خروجك؟ في أي حقل استأجرتِ نفسك، ومن الذي سيدفع لك الأجرة عند غروب شمس حياتك؟

---

[٤٥] هذا المَيْمَر مرجعيٌّ رفيع مخطوط لا يُرى ونادراً ما يُقتنى عن النسخ التي رجع من النص الوارد التي تترجم بها مكتبة الفاتيكان الأطلسي ١٠٦٠ للشهداء ١٣٤٤ التي أبقت منه في المتوحا(.

٥ – يا نفسي، اختبري ذاتك وانظري في أي أرضٍ سيكون نصيبك. وإن كنتِ قد عبرتِ (أو قضيتِ عمرك) في الحقل الذي يثمر للذين يفلِّحونه مَرارة، فاصرخي واهتفي بتنهدٍ وتوجع إلى الله تعالى بهذه (الكلمات) التي يرتاح إليها ويرضى بها أكثر من الذبائح والمحرقات. وليَفِضْ فمُكِ بأصواتٍ حزينةٍ، تلك التي يطرب لها الملائكة القديسون. اصبغي خدَّيكِ بالبكاء لكي يحل فيكِ الرُّوح الْقُدُس ويغسلكِ من وسخ رذيلتكِ. استعطفي الرب بالدموع لكي يأتي إليكِ (لمعونتك). استدعي مَرْيَم ومرثا لتعلماكِ النوح. اصرخي إلى الرب الباكي على لعازر، المتعطف على انسجام العبرات، والمتنهد عليه قائلة:

صلاة:

٦ – أيُّها الرب يَسُوع الْمَسِيح إِلهُنَا، يا من بكيتَ على لعازر وذرفتَ دموع الحزن والشفقة عليه، اقبل دموعي المُرَّة. بآلامك عالج أوجاعي؛ بكلومك طيِّب جراحاتي؛ بدمك طهِّر دمي. امزج بجسدي رائحة جسدك المحيي؛ وحَلِّ نفسي بالمرارة التي شربتَها من الأعداء على الصليب، من المرارة التي سقانيها المعاند. جسدك الممدود على عود الصليب، يا محب البشر، فليمد إليك عقلي متعالياً، ذلك العقل الذي جذبَتْهُ الشياطين إلى أسفل. رأسك الذي أحنيته على الصليب، فليرفع رأسي المقروع من معانديَّ. ويداك الْقُدُّوستان المسمَّرتان، ليرفعاني إليك من وهدة الهلاك، كما وعد فمك الْقُدُّوس. وجهك الذي قَبِل اللطم والبصاق من الملاعين، ليبهج وجهي المدنس بالذنوب ضياءً ونضارةً. ونفسك التي أسلمتها إلى الآب وأنت على الصليب تُهدني إليك بنعمتك.

ليس لي، يا رب، قلب متوجع في اِلْتماسك، ولا توبة لي ولا خشوع، تلك التوبة التي تردّ الأبناء إلى ميراثهم الخاص. ليس لي، يا سيدي، دموع استعطاف. قد أظلم قلبي بالأشياء العالمية، وما يقدر أن يرنو إليك بتوجع. قد برد قلبي من كثرة المحن، ولم يعد بإمكانه أن يسخن بدموع المحبة لك.

لكن أنت، ياربي وإلهي يَسُوع الْمَسِيح، يا كنز جميع الخيرات، جُد عليَّ بتوبة كاملة وقلب متوجع لكي أخرج بكل نفسي في التماسك. ولأني بالبعد عنك والانفصال عنك أعدم كل خير، فأنعِم عليَّ إذاً، أيُّها الصالح، بنعمتك. وأبوك الذي ولدك من ذاته ولادة أزلية، وبمعزل عن الزمن، فليجدد فيَّ ملامح صورتك.

قد تركتُكَ، يا رب، فلا تتركني. خرجتُ من حضرتك الكريمة فاخرج أنت في طلبي، وأَدخلني إلى مرعاك، وأحصِني مع أغنام رعيتك المختارة، وأطعِمني معها من عشب أسرارك الإلهية التي مسكنها القلب النقي، وفيه يعاين إشراق استعلاناتك الذي هو عزاء وسلوان للذين يشقون من أجلك ويصبرون على الأحزان والضغطات وأصناف الإهانات المتنوعة. لَيْتَنا نوجد كلنا مستحقين أن ننال هذا الإشراق بنعمة مخلصنا يَسُوع الْمَسِيح ومحبته للبشر، الآن وفي الدهر الآتي، وإلى أباد الدهور، آمين.

المَيْمَر الرَّابع عشر

في أنَّه نافع لذوي السكوت التعطل مِنْ الاهتمامَات، وأنَّ الدخول والخروج مُخسِّر لهم، وكذلك التشبُّك بالأمور

١ – إنسان كثير الاهتمام لا يمكن أن يكون وديعاً هادئاً؛ لأن علل الأمور الضرورية التي يشقى ويتعب فيها تضطره أن يتحرك (أي يفكر) فيها مُكرَهاً مُجبراً فتبدِّد منه السكون والهدوء. فينبغي إذاً للراهب أن يوقف ذاته مباشرة لدى وجه الله تعالى، ويكون شخوصه إليه دائماً، إن كان يؤثر حقاً أن يحفظ عقله وينقي (منه) الحركات اللطيفة (أي الصغيرة) التي تدب فيه، ويتعلم مع سكون الأفكار أن يميز ما يخرج وما يدخل منها إليه. لأن الأشغال المفرطة دليل واضح على استرخاء الرَّاهِبُ عن الاستعداد لإتمام وصايا المسيح؛ وإنها لتبرهن على تقصيره في الأمور الإلهية.

٢ – لا تلتمس نوراً في نفسك دون التحرر من الاهتماماَت، ولا سكوناً وهدوءاً مع تسيب الحواس، ولا انجماعاً وضبطاً للحواس مع تواتر الأشغال. فإذا لم تُكثر من الأشغال، فإنك لا تجد في عقلك اضطراباً، (ولا في صلاتك). لأنك لا تقدر على الدنو من الله تعالى وأنت بمعزل عن الصلاة الدائمة. فما ينبغي إذاً أن نجعل للعقل اهتماماً آخر مع الصلاة؛ لأن ذلك يشتت الفكر.

٣ – الحركات الحارة التي تتحرك فيك وقت مذاقتك حلاوة الله بالاشتعال الحار في الأشياء (الإلهية) التي من أجله؛ إذا عُدْتَ ووجدتَها قد بردتْ وعدمتَ مذاقتها داخل نفسك (فاعلم أن ذلك سببه) أمَّا من هذيذ مفاوضة إنسانٍ تَحرَّك داخلك من أي جهة، أو أنك أكرمت العمل الجسداني أكثر منها وتوفرت على الشغل، ولهذا بردت حرارة أفكارك.

٤ – إن الدموع، ولطم الرأس في الصلاة، (والانطراح على الأرض) والتلاوة بحرارة، تثير حلاوة حرارتها داخل القلب وتجعله يطير إلى الله بذهول ممدوح هاتفاً: «عطشت نفسي إلى الله القوي الحي. متى أتقدم وأعاين وجهك يا رب»؟ والذي شرب وارتوى من هذه الخمر، ثم عَدِمها بعد ذلك، هو وحده يعرف في أي شقاءٍ هو، وما الذي قد سُلب منه بسبب تراخيه.

٥ – يا إخوتي، ما أردأ النظر والحديث لذوي السكوت والعائشين في الهدوء. فإن مضرتهما لتؤثر فيهم أكثر من الذين هم خارج السكون. وبالحقيقة يا إخوتي، كما أن الجليد إذا ما سقط على أطراف النبات يجعلها تيبس وتجف، هكذا مفاوضة الناس، وإن قلَّت جداً وكانت على ما يبدو من أجل أمرٍ جميل؛ فإنها تجفف زهر الفضائل الذي أزهر حديثاً من ضياء فضاء السكون الذي أحاط – بالبساطة والنعومة – شجرة النفس المغروسة على مجاري مياه التوبة. وكما أن شدة البرد إذا ما تعرَّض لها النبات في بداية نموه تحرقه وتعقف (أي تُحني) رأسه وتدخله في

الأرض، هكذا محادثة الناس تجفف أصل العقل الذي بدأ يُورق بعشب الفضائل، وتُحني رأسه وتعقفه إلى أسفل وتقطع نضرته. وإذا كانت مفاوضة القوم الذين هم من أحد الأوجه أفاضل وذوو نسك وتحفظ، ومن وجه آخر لهم بعض النقائص الصغيرة، من شأنها – بسبب إعاقتها للعمل المعتاد – أن تؤذي النفس، فكم بالأكثر تكون محادثة العوام والجهال والنظر إليهم؟ ولا أحتاج أن أذكر العلمانيين، فإن محادثتهم تؤذي كمثل نار في قش. فكما أن الإنسان الحسيب النسيب إذا ما سَكِرَ فهو ينسى شرفه الخاص ونسبه، وتُهان منزلته، ويُستهزأ بكرامته بسبب الأفكار الغريبة (المؤسفة) التي تسلطت عليه فجأة من قوة الخمر، هكذا فإن عفة النفس تتعكر من محادثة الناس ومشاهدتهم وتنسى عادة تحفُّظها، ويُمحى من فكرها غرض إرادتها، ويُقلع من عروقها كل أساس السيرة الحسنة.

٦ – الاستماع ومشاهدة الوجوه، حتى ولو كان الإنسان ساكتاً وعرضت له، أو أنه صادف قربها بالنظر والسمع، فيهما كفاية – بالشيء الذي يدخلانه خلال أبواب عينيه ومسامعه – لتعكير الفكر وتبريد حرارته من الإلهيات. فإن كان تكدرٌ قليلٌ أو مجرد نظر الناس فقط يُحدث للراهب خسارة هذه صفتها وهذا مقدارها، وحديث وقت قليل يصنع هذا الفساد كله في المتوحد المتحفظ، فماذا نقول عن اللقاء المتصل المتواتر والإدمان على هذه الأمور المتوفرة؟

٧ – إن البخار الذي يصعد من البطن يُحدث ظلأمًا لا يسمح للقلب بتقبل معرفة الإلهيات، مثلما يفعل الضباب المتصاعد من رطوبة الأرض من إظلامٍ للهواء. أمَّا الإعجاب فيجعل صاحبه لا يفهم أنه سالك في الظلام؛ وبسبب هذا الظلام المتقدم ذكره لا يدرك معنى الحكمة. فهو يستعلي على الكل وهو أحقر منهم، ولا يقدر أن يفهم طرق الرب. أمَّا الرب فيخفي عنه إرادته لكونه لم يؤثر المسير في طريق المتواضعين.

المَيْمَر الْخَامِس عشر

في السبل التي تقرِّب إلى الله، والتي تظهر للإنسان من أعمال السهر الليلي اللذيذة؛ وفي أن الذين يجتهدون في ممارسته يغتذون شهداً كل أيام حياتهم.

١ – لا تظن أيُّها الإنسان أن في كل أعمال الرهبان شيئاً أفضل من سهر الليل. حقاً يا أخي إنه إن لم يحدث للناسك تشتت واضطراب في الأمور الجسدانية والاهتمام بالأشياء السالفة (أو الزائلة) أثناء النهار، بل يحفظ ذاته بالانقطاع من العالم، ويحرس نفسه مع (ممارسة) السهر، ليطيرنَّ فكره كما بأجنحة في زمن يسير، ويصعد إلى الله ببهجةٍ، ويتفرس في ذلك المجد بسهولة، ويسبح في تلك المعرفة التي تفوق التصور البشري بتوسط خفته (وشفافيته).

٢ – الرَّاهِبُ الملازم للسهر بتمييز من العقل لا تظن أنه ذو جسم؛ لأن هذا العمل هو في الحقيقة لرتبة الملائكة. وإنه لممتنع أن يكون السائرون في هذه السيرة دائماً خالين من المواهب الْعَظِيمة، ينالونها من الله تعالى ليقظتهم وإنارة قلوبهم وملازمة أفكارهم له تعالى وصرف كل اهتمامهم إليه. إن النفس التي تنعكف على هذه السيرة – أي جهاد السهر – وتتعب فيها (وتنجح)، سوف تكون لها أعين الشاروبيم تنظر بها دائماً بخفة وحدّة التاؤريات السمائية.

٣ – أمَّا أنا فأعتقد أنه ممتنع على الذي يختار هذا التعب الإلهي الْعَظِيم، ويحفظ نفسه بمعرفة وتمييز، ويعتني بحمل هذا الثقل، ويجاهد بغيرة في هذا العمل الشريف الفاضل والنصيب الكريم الصالح الذي ارتضاه؛ ممتنع أن لا يهتم مثل هذا أن يحفظ ذاته في النهار من اضطراب المحادثات ومن اهتمامات الأعمال الباطلة، لئلا يوجد خالياً من الثمر العجيب والتنعم الْعَظِيم الذي يرجو قطافه وينتظر إدراكه من سهره.

٤ – أمَّا الذي يهمل هذا الأمر (أي التحفظ من الأحاديث واهتمامات الأعمال الباطلة)، فأتجاسر وأقول إنه يجهل العلة التي لأجلها يتعب ويمنع نفسه من النوم. فهو يشقى في قراءة الأسطر الكثيرة مع تعب اللسان في التلاوة طول الليل والوقوف على قدميه؛ ويكون تعبه هذا باطلا، طالما أن عقله ليس حاضراً هناك، وهو لا يصغي ولا ينصت لمعنى التزمير والصلاة، بل ينقاد كالعادة بغير تمييز أو إدراك. وإن لم يكن الأمر هو هكذا كما قلتُ، فلماذا يُحرَم من أن يقطف، من زرع أعماله المتواترة، الثمار الفاضلة؟ والدليل على ذلك أنه لو كان قد انعكف على النظر (أي التأمل) في الكتب الإلهية الذي يقوي الذهن، ويشجع بصفةٍ خاصة على الصلاة، ويساعد على السهر، الذي هو رفيق (الصلاة)، ونور الفكر ومرشد الطريق وزارع بذار التاؤريا أثناء الصلاة، والذي يربط الفكر حتى لا يطيش لئلا يطمح في الأمور الباطلة، ويزرع ذكر الله الدائم في النفس ويرشدها إلى سبل القديسين الذين أرضوه، ويلطِّف العقل ويفيده حكمة وصفاءً؛ فلو أنه انعكف على ذلك (أي على قراءة الكتب الإلهية) كما قلتُ، لوجد ثمرة هذه

الأعمال يانعة.

٥ – فلماذا، أيُّها الإنسان، تدبر أمورك بلا تمييز؟ إنك تقف الليل كله في الصلاة وتجهد ذاتك في التماجيد والطلبات، أفيصعب عليك الاحتراس قليلاً خلال النهار لكي تؤهَّل لنعمة الله من أجل تعبك هذا؟ ولماذا تُتعب نفسك وتزرع بالليل، بينما أنت في النهار تضيِّع أتعابك فتوجد بلا ثمرة؟ ولماذا تبدِّد تلك اليقظة والحرارة التي اقتنيتها وتضيِّع ربحك بالمحادثات مع الناس والانشغال بالأمور التي تجلب التشويش؟ إنك لو كنتَ قد أضفت إلى هذيذ الليل فلاحة النهار، وحرارة القلب (في الهذيذ استمراراً لتأملك بالليل)، ولم تفصل بينهما، لكنتَ عانقت في أقل وقت صدر يسوع. إلا أنه قد تبين من ههنا أنك تصرَّفتَ وسرتَ بلا تمييز، ولم تعلم لماذا يجب على الرهبان أن يسهروا. فأنت تظن أن هذه الأمور قد وُضعت من أجل التعب فقط، وأنه لا يتولد منها أي شيء آخر.

٦ – أمَّا الإنسان الذي أهَّلته النعمة أن يفهم من أجل أي رجاء يجاهد المجاهدون، والقديسون يعاندون النوم ويُكرهون الطبيعة ويغصبونها لكي يكونوا متيقظين بأجسادهم وأفكارهم في تقديم الصلاة جميع الليل، هذا الإنسان سوف يعرف أيضاً القوة الصائرة من التحفظ أثناء النهار، ومقدار المعونة التي يحظى بها العقل في هدوء الليل، وأي سلطان على الأفكار وأية طهارة تمنحه مع اجتماع ذهنٍ وجميل تصورٍ، لكي بغير تغصب ولا جهاد يشخص الفكر بحرِّية في عظم معنى الكلام (الذي يتلوه في خدمة السهر). أمَّا أنا فأقول أيضاً إن الجسم إذا استرخى من العمل لأجل ضعفه ولم يقدر على الصَّوْم، فإن العقل يستطيع بواسطة السهر وحده أن يقتني للنفس ثباتاً في الصلاة، ويهب القلب تمييزاً ومعرفة لإدراك القوة الرُّوحية، هذا إذا لم يُدخل عليه اضطراباً من الانحلال في الاهتمامات خلال النهار التي من شأنها إتلافه وإضراره.

٧ – لذلك أتضرع إليك يا من تؤثر أن تقتني يقظة العقل ومعرفة الحياة الجديدة، وأقول لك: لا تتوانَ في سيرة السهر طول حياتك؛ لأنه بتوسط السهر تنفتح عيناك فتنظران كل مجد التَدْبِير (الرهباني) وقوة طريق البرِّ. وإن عرض لك أيضاً (مرة أخرى) – وحاشا أن يكون ذلك – فِكر استرخاء وسكن فيك كتجربة (مرسلة إليك) من ناصرك الذي هو معتاد أن يثبتك ويُحكِّمك في مثل هذه الغيارات بهذه الأمور، أعني أمَّا في حرارة وأمَّا في برودة، أو من أسباب أخرى، أو من ضعف الجسد، أو لأنك لا تقدر على تحمل التعب المألوف منك، من التوفر على التزمير والصلاة وتواتر السجود، الأمور التي كنتَ دائماً تألف إكمالها: فأنا أتضرع إليك بمحبة، إن أنت جُرِّبتَ بمثل هذه الأشياء ولم تقدر على القيام بالأعمال الأَولى، فاسهر – ولو وأنت جالس – سهراً قلبياً ولا ترقد، بل حاول أن تعبر الليل بكل وسيلة جالساً ومفكراً أفكاراً صالحة بالهذيذ المعتاد، فإذا لم يتقسَّ قلبك ويظلم من قِبل النوم، فإن الحرارة الأَولى والخفة والقوة ستعود إليك بفعل النعمة، فتفرح بها وتطرب مُقدِّماً الشكر لله تعالى.

٨ – إن الله يسمح بأن تأتي البرودة والثقل على الإنسان بهذه الصورة (كما ذكرنا) لكي يتحنَّك ويُختَبر. فإذا أنهض نفسه بحرارة ونفضهما عنه، وغصب ذاته قليلاً، حينئذ تدنو منه النعمة كما كانت، وتأتي إليه قوة أخرى مخفي فيها كل خير وأنواع كثيرة من المعونات. فيتعجب الإنسان ويذهل عندما يتذكر الثقل الأَوَّل، والرَّاحَة والقوة المتجددة الواردة إليه الآن، وكيف قَبِلَ بغتة هذا التغير الْعَظِيم. ومن ذلك الوقت يصبح حكيماً، حتى أنه إذا ما ألمَّ به مثل هذا الثقل مرة أخرى يعرفه من خبرته الأَولى. ولو لم يجاهد في المرة الأَولى، لَما أمكنه أن يقتني مثل هذه المعرفة. أرأيتَ، يا أخي، كم يصير الإنسان حكيماً إذا ما أيقظ نفسه قليلاً وصبر في أوان القتال؟ أمَّا إذا ضعفتْ طبيعة الجسد فقط، ليس من القتال بل من اضطرار المرض؛ في مثل هذه الحالة لا يليق أن تحارب الطبيعة، لأن ذلك لا ينفع. أمَّا في ما عدا ذلك فجيدٌ للإنسان أن يُجهد نفسه ويغصبها في كل ما ينفعه.

٩ – السكوت الدائم مع قراءة الكتب وغذاء بقياس والسهر يحرك العقل بسهولة إلى التعجب والذهول، ما لم تحدث أسباب تبطل دوام السكوت. أمَّا الأفهام التي تتحرك من ذاتها بغتة، عن غير قصد أو اختيار، من أعمال السكون، فهي تجعل العينين مثل بِركة المعمودية بالدموع الفائضة التي تغسل الخدَّين بكثرتها.

١٠ – إذا ما تروَّض جسمك بواسطة النسك والسهر وتواصل الصَّوْم في السكون والتحفظ، ومع ذلك أحسستَ فيه بحدّة ألم الزنى وقد تحرك خارجاً عن الحركة الطبيعية، فاعلم أنك قد امتُحِنْتَ من أفكار العظمة في عقلك. فللوقت امزج في غذائك رماداً، وألصِقْ بطنك بالأرض، وافحص ماذا تصورتَ، واعرف تغير طبيعتك، وأن عملك يفوق طبعك، فلعل الله تعالى يرحمك ويرسل لك نوراً تعرف به الاتضاع، فلا تنمو رذيلتك. فينبغي لنا إذاً، يا إخوة، ألا نكف عن الجهاد والحرص إلى أن تستريح التوبة في قلبنا ونجد الاتضاع، ويستريح قلبنا في الله رجائنا، الذي له المجد والعزة إلى الأبد، آمين.

المَيْمَر السَّادِس عشر

في قوة أفعال الخطية، ومن أي الأشياء تتقوَّم ومن أيُّها تبطل

١ – ما دام الإنسان لم يبغض علة الخطية وسببها بكل قلبه حقاً، فهو لا يُعتق من لذة فعلها. وهذا هو الجهاد الشديد الذي يقاوم به الإنسان حتى الدم، وفيه تُمتحن وتُختبر حريته من جهة وحدة (أي صِدق) محبته للفضائل. وهذه هي القوة التي يدعونها «تحريضاً وحرباً»، وهي التي من رائحتها تضعف النفس الشقية، أعني بسبب المجاذبة والإثارة الشديدة الموضوعة فيها والتي لا مناص منها. وهي القوة الْعَظِيمة التي للخطية، والتي بها قد اعتاد العدو أن يدنس نفوس الأعفّاء ويخبطها (أي يُكدِّرها)، وأن يضطر حركاتهم الطاهرة إلى أن تتجرب بما لم تُباشره البتة. فالخليق بنا، أيُّها الأحباء، أن يَظهر هنا صبرنا؛ لأن هذا الوقت هو أوان الشهادة الخفية، والذي فيه يُقال إن مصاف الرهبان يغلبون دائماً. والعقل السديد المُتقن إن لم يجاهد أعظم جهاد ويحترس جداً فهو يتنجس ويتخبَّل من مصادمة هذا القتال.

صلاة:

٢ – اللهم ينبوع كل معونة والقادر على كل شيء، أعطنا معونة في هذه الأوقات، أعني أوقات الشهادة. والنفوس التي قد خطبت ذواتها لك، أيُّها الختن السمائي، وعاهدتك على القداسة بكل نقاوة وحركات بغير التواء، أَنعِمْ عليها بقوةٍ تهدم بها أسواراً منيعة، وتُخفض كل علوٍ يرتفع على الحق، لئلا تميل عن غرضها وتخيب من مقصدها بسبب الضغط الشديد غير المحتمل (الذي تتعرض له) في ذلك الوقت الذي يكون فيه الجهاد حتى الدم!».

٣ – فالجدير بنا، أيُّها الإخوة، أن نتحفظ من البطالة، لأن فيها يكمن الموت العقلي (أي الرُّوحي)؛ ذلك لأنه لا يمكن أن يسقط الرَّاهِبُ في يدي الذين يجاهدون لأَسْرِهِ بدونها، أي بدون البطالة. إن الله تعالى لا يديننا في ذلك اليوم من أجل عدم التزمير، ولا من أجل التعطل عن الصلاة؛ بل يديننا لأننا بتركنا إياهما يتسنى للشياطين أن يدخلوا إلى قلوبنا؛ لأنهم إذا وجدوا موضعاً، دخلوا إليه وأغلقوا أبواب عيوننا (العقلية). حينئذ يُكمِّلون فينا – بنفاقهم وتمردهم وغضبهم – كل الأشياء التي تُوجب على فاعليها القضاء الإلهي المنوط بأصعب انتقام. وهكذا نصبح عبيداً مذلولين، لسبب التخلف عن الأمور الصغيرة التي يرى العارفون أنها تستوجب الاهتمام من أجل المسيح، كما هو مكتوب عند الحكماء: إن من لا يُخضع إرادته لله، فهو بالضرورة يخضع لمُعانِدِهِ.

٤ – فلتكن عندك هذه الأمور الصغيرة (أي التزمير والصلاة) بمنزلة أسوار حصينة تجاه الذين يحاولون أسرنا. فهذه الأمور الصغيرة التي تظن أنها ليست شيئاً، هي التي رتبها رؤساء الحكماء بروح الاستعلان وبحكمةٍ للعمل بها داخل القلاية لحفظ حياتنا. أمَّا الجهال فيهملون ممارستها ويعتبرون ترك الصلاة أمراً صغيراً، ولا يفكرون في الخسارة المتولدة عن ذلك. فهؤلاء بداية طريقهم ووسطها حرية خالية من الأدب، وهي أُمُّ الضرر والآلام. لأنه من الأفضل

لنا أن نجاهد كي لا نتخلّى عن هذه الأمور الصغيرة من أن نعطي الخطية موضعاً بالرَّاحَة منها؛ لأن هذه الحرية التي ليست في أوانها آخرتها عبودية صعبة.

٥ – طالما كانت حواسك حية عند مباشرة (أي مواجهة) الأمور العارضة، احسب نفسك مائتاً من الله؛ لأن لهيب الخطية ما تخلَّف عنك في كل الغيارات (التي تحصل لك) بكل أعضائك، ولأنك لست بقادر أن تقتني السلام لنفسك. ومن قال من الرهبان إنه في مثل هذه الأحوال يحترس في قلبه، فإنه لا يريد أن يتعلم متى يُضرب. إن من خدع غيره هو مستوجب لعنة الناموس؛ أمَّا من يغالط نفسه فبأي انتقام يحظى؟ لأنه يتجاهل عن علمٍ، أي أنه يعرف (شرَّ عمله) ويدَّعي أنه لا يعرف. والدليل على أنه يعرف، هو توبيخ ضميره له، وظهور ذلك عنده أمر مُستثقل؛ لأنه يعرف الأمر الذي يتظاهر بأنه يجهله.

عن الآلام[٤٦]:

٦ – إنَّ أسباب الآلام عذبة حلوة. والدليل على ذلك أن الإنسان قد يتمكن من قطع الآلام، وفي دفعها والكف عنها يقتني السكون، وفي إبطالها يفرح ويبتهج؛ أمَّا أسبابها فلا يقدر على تركها! ولهذا نُجرَّب كارهين بغير إرادتنا. فبينما الآلام تسبب لنا حزناً، إذ بنا نراعي أسبابها ونود أن تثبت عللها فينا! إننا لا نؤثر الذنوب، لكن الأسباب التي تجلبها نقبلها بلذة. ولذلك تصير الأسباب (أو الدواعي) عِللاً لفعل الذنوب. فالإنسان الذي يحب علل الآلام هو بالضرورة متعبد لهذه العلل قسراً، ومتعبد للآلام بغير إرادته. فالذي يبغض كل ما يختص بالآثام والخطايا، سيكفُّ عنها؛ ومن يعترف بها سيحظى بالعفو والغفران. ولا يمكن للإنسان أن يترك الخطايا التي قد اعتادها إن لم يبغضها ويعاديها؛ ولا ينال الصفح إن لم يعترف بالآثام. لأن بغضة الخطايا ومعاداتها هي علَّة الاتضاع الحقيقي، أمَّا الإقرار بها فهو علَّة الخشوع التابع للقلب من الخزي.

٧ – إن لم نبغض ونمقت ما يستوجب الذمّ من الأمور، فلن تكون لنا قدرة على الإحساس بنتن فعلها؛ وما دمنا نحملها في أنفسنا فلن نستطيع أن نحسَّ بتقليبها (أو برائحتها الكريهة). ولذلك لا يمكنك أن تعرف الخزي الذي يحيط بك، ولا الخجل الذي يتولد منه، دون أن تطرح عنك السماجة (المعيبة). إذا ما شاهدتَ أثقالك في آخرين، حينئذ تعرف الخزي الذي يشملك. اِبتعد من الشر وأنت تعرف نتنه في الحال؛ لأنك إن لم تهجره فلست بعارفٍ هذا منه، بل إنك سوف تضمُّ إليك نتنه كأنه عرفٌ (أي رائحة) زكي تشغف به، وعُري فضيحتك كأنه رداء مجدٍ.

٨ – لسعيدٌ هو الإنسان المبتعد من الظلام، والمتأمل الذي ينظر نفسه! لأن النظر والتمييز لا يعملان في السالكين في الظلام. (فهل يمكن لمن كان سالكاً في الظلام، إذا تعكرت بصيرته أن يميز ما هو ضروري)؟ مغبوط هو من يطرح عنه ثقل سُكره وقد عاين في آخرين جهلَ وزللَ سُكره هذا؛ إنه يدرك في الحال (عاقبة ذلك في الآخرين) ويفهم من ذلك خزيه هو نفسه. ولكن

---

[٤٦] قال القديس الترجمان الروسي.

ما دام الإنسان متوفراً على السكر من الخطية فإن كل ما يفعله يبدو جميلاً عنده. لأن الطبيعة إذا خرجت عن نظامها الخاص بها، فسيَّان عندها أن تكون سَكرى بالخمر أو بالشهوات؛ لأن الأمرين كليهما يبعدانها من الواجب (أي اللياقة)، ويحركان في الجسم لهيباً وَاحِداً. قد تختلف الأنواع، أعني الخمر والشهوات ولكن مفعولها وَاحِد والتجبن (أي الفساد) الناتج عنها وَاحِد. أمَّا أنواع الأسباب فغير متساوية، لكنها تُفرز حسب قبول كل وَاحِد لها.

٩ – كل راحة تعقبها مشقة، وكل مشقة من أجل الله تتبعها راحة. كل ما في هذا العالم متغير، والتغير يكون بقبول ما يضاده، أمَّا الآن وأمَّا في المستقبل وأمَّا في وقت الخروج (أي عند الرحيل من العالم)؛ ولا سيما لذة الفسق فإنها تفسد (أي تبطل وتزول) بالشقاء المضاد لها (الذي يحتمله الإنسان) من أجل التطهير والتقديس. لأن الله تعالى في جوده ومحبته للبشر يدبر هذا الأمر، أي أن يذوق الإنسان العقاب – أمَّا في الطريق، وأمَّا في آخرها – على سبيل الجزاء (عن اللذّة)، وبغنى رحمته يعبر إلى الرَّاحَة كعربون (للراحة الأبدية، عوض المشقة التي تكبدها من أجل التطهير والتقديس). لأن فائدة (أو أجرة) الخير لا تتوقف حتى إلى الساعة الأخيرة، أمَّا الشرور فلا، كما كُتب إن الذي لا يتأدب ههنا يغتذي من جحيمه.

١٠ – احذر يا أخي، من الحرية التي تتقدم التعبد (أي الطاعة والخضوع). وتحفَّظ أيضاً من العزاء الذي يكون قبل مباشرة القتال. واحذر كذلك من المعرفة التي تسبق ملاقاة التجارب. وبالأكثر من الحب الذي يكون قبل كمال التوبة. إن كنا كلنا خطاة، وليس وَاحِد أعلى من التجارب، فمن المؤكد أن ولا وَاحِدة من الفضائل تعلو على التوبة. (لأن الإنسان لا يستطيع أن يكمِّل عمل التوبة. وهي دائماً توافق جميع الذين يريدون الخلاص سواء كانوا خطاة أم أبراراً. وليس للكمال حد؛ لأنه حتى كمال الكاملين هو في الحقيقة بلا نهاية. ولهذا فإن التوبة أيضاً لا تنحصر في فترات أو أعمال لزمن محدود، بل إنها تستمر حتى الموت). وتذكَّر أن كل لذة يتبعها بالضرورة كراهية ومرارة كرفيقين لا يفترقان.

١١ – تحفَّظ من الفرح الذي لا يقترن به سبب التغير (أي الفرح الذي لا يعتريه تغيير وهو خطرٌ). فكل شيء يحدث بتَدْبِير خفي من العلو، عَسِرٌ على المعرفة أن تدرك علة وحدود تغيره. فلتخف من تلك الأمور التي تظنها لا تقبل التغير. (والذي يظن ذلك) يُقال إنه يسير خارجاً عن الطريق المسلوكة. لأن مدبر سفينة العالم بحكمته قد ربط كل ما فيه بالتغير والتحول وما كان خارجاً عن هذا (النظام) هو شبه (ووهم وخيال).

١٢ – إن راحة الأعضاء يتبعها طياشة الأفكار واختلاطها، والعمل الذي بغير قياس يتبعه ضجر؛ والضجر أيضاً تتبعه طياشة وحيرة. أمَّا الطياشة الأُولى (التي تتولد من الاسترخاء) فيتبعها قتال الزنا. أمَّا الثَّانِية (التي تتولد من الضجر) فيتبعها ترك المكان المرسوم للهدوء، والتنقل من موضع إلى موضع. وأمَّا العمل المعتدل الدائم فلا يُقدَّر بثمن، والتراخي فيه يجلب الشهوة، أمَّا الإفراط فيجلب الحيرة.

١٣ – اِصبر، يا أخي، على جهل الطبيعة الذي يتغلب عليك، لأنك قد تهيأتَ أن تبلغ تلك الحكمة التي لا يزول تاج رئاستها. لا تجزع من اضطراب الجسم الآدمي المعدّ لأن يصير في ذلك النعيم، الذي العلم به هنا يفوق عقل ذوي الأجسام، إذا ما لبس الصورة السمائية التي هي مَلِك السلام. لا تقلق من تضاد التغيير الحاصل بسبب اضطراب الطبيعة؛ لأن الشقاء الذي يحدث بسبب ذلك لمن يقبله بفرح ولذة، هو إلى وقت قليل. فالآلام تضارع الكلاب التي أَلِفت أمَّاكن القصابين، فهي تهرب بمجرد أن تسمع صوت الفم فقط، أمَّا إذا تهاونتَ وتفاوضتَ معها صارت كالأسود الضارية. اِزْدَرِ بقدر لذة الشهوة اليسيرة لئلا تُحدق بك شدة ناريتها؛ لأن الصبر القليل تجاه الأمور الصغيرة يزيل ضرر أمور كبيرة. لأنه يستحيل عليك أن تغلب الشرور الْعَظِيمة وأنت لم تغلب الأمور الصغيرة الحقيرة.

١٤ – تذكَّر، يا أخي، منزلتك وذلك الشكل الذي أنت عتيد أن تكون فيه، الذي حياته ليست بتوسط الكيموس والأخلاط (أي السوائل الممتزجة بالجسم كالدم وخلافه)، بل هي تلك الحياة التي بها تضمحل الميتوتة. وهي تلك الحالة التي لا توجد فيها حرارة المِزاج (أي التركيب الطبيعي للإنسان) الذي بملق لذَّته يُضنك ويُشقي الطبيعة الطِفليّة. احتمل بصبر تعب الجهاد الذي دخلتَ إليه لكي تتحنَّك وتُختبر، وتأخذ إكليلاً من الله وبعد قليل تعبر من هذا العالم وتستريح. وتذكَّر أيضاً تلك الرَّاحَة التي لا نهاية لها، وتلك الحياة التي لا يشوبها خداع، وتلك القامة التامة والنظام الكامل، وذلك التَدْبِير الذي لا يحول (أي لا يتغير)، وذلك السبي الباعث على محبة الله والمستولي على الطبيعة(٤٧).

١٥ – لا يمكن أن نغلب الأفكار الردية التي تتحرك – بالتنازل معها – في الجسم، أو نقهر السلاح المتضاعف الموضوع تجاهنا، أو نُسكت هذه الأفكار، مع الشبع من الخبز والماء والنوم والدنو من الأمور التي تحرك الحواس. فالخليق بنا الموت من هذه الحياة ولا العيش بالخزي، إذا رأينا أن هذه الأمور (أي عدم الشبع من الخبز والماء والنوم، وعدم الاقتراب من الأمور التي تحرك الحواس)، أنها تلزم لتبطيل الانفعال من الأعضاء الجسدانية. لأنه لا يمكننا أن نهتم بالأشياء المحسوسة ونقدر مع ذلك أن نبطل الآلام ونقوِّم نفوسنا. ومن دون الصلاة الحزينة الدائمة مع التضرع وجثو الركب، لا يمكن أن تأتينا الرحمة. وكيف يمكن اقتناء هذه الأمور إن كنا لا نزال نعتني بالأشياء المحسوسة؟ لأنه بدون الاهتمام بالأشياء الصغيرة لا يمكننا أن نفلت من الشرور الكبيرة.

[3] نُ تةَالم ُمر منف الَّتترجم ِالوُنانُ ِ. والفقرة ١٥ موجوافقطف بَعضالم خطوطاتالعرب ِالمترجم ِعنالسرُّيانُ ِ.

المَيْمَر السَّابع عشر

في حفظ القلب، وفي الرؤية الرُّوحية

١ – لا تَفُتْ معرفتك تلك القوة الموضوعة في الألحان الرُّوحية إذا ما استعملتها بمعرفة وإفراز؛ لأنها تسبي الفكر من العالم، وتسرق الطياشة من العقل. وإن كان المظنون بها أنها تليق بالأطفال فقط، إلا أن العقل المشتت ينتفع بها في الحال. فإذا كنتَ وحدك في القلاية، هِذّ دائماً في الأطروباريات (أي الألحان والتسابيح الكنسية)؛ لأنه بهذه يُحفظ قلبك إذا كنتَ ما اقتنيتَ بعدُ قوة الرؤية الرُّوحية التي هي مفاوضة المعرفة والتمييز. وإلا فاحفظ ذاتك بمداومة ذكر الموت وتأمل الأشياء المرجوَّة مع الاهتمام بالواجبات التي تصنع الحلاوة، التي هي الابتعاد من الأمور التي تحرك الآلام، وبما تأتيه من التحفظ القليل في قلايتك.

٢ – إن كنتَ بعد كثرة العبودية (للقوانين) قد وجدتَ الحرية (التي هي الرَّاحَة من الآلام)، فأمسك بها؛ أمَّا إذا رأيتَ أنها (أي الحرية) تقودك لأعمال الجهالة؛ فاربطها بالقوانين؛ لأنها تتقوَّم بها هنا بسهولة. وإذا كنتَ بهذه الغيارات والأفهام المختلفة، وبتوسط التمييز، تسير بسفينة القلاية المحمَّلة بالذخائر والكنوز حملاً عظيماً مملوءاً من كل ربح النشطاء، عند ذلك افحص بدقة كثيرة عن الأَوَّلاد المخالفين الذين يولدون لك من الغيارات المحسوسة. وسوف ترى بحقٍ كيف أن كل حلاوة روحية تسبقها ضيقات وصَلب؛ وأن لذة الخطية يكون منشأها في الجسم من الرَّاحَة والنياح. كما أنك سوف ترى أن تاؤرية الرُّوح التي توجد في ميناء الطهارة هي تشفي العقل، والحب الرُّوحاني بها يُقتنى (أي بالتاؤرية الرُّوحية). ولا يمكن وجود الثَّانِية (أي التاؤرية) من دون تحصيل الأُولى (أي الطهارة)، ولا الفضيلة الثَّالِثة (أي الحب الإلهي) من دون التي قبلها (أي التاؤرية الرُّوحية). لأن أجنحة العقل تنمو في بطن الطهارة، وبها يرتفع (العقل) إلى الحب الإلهي؛ وبواسطة الحب الإلهي يتجاسر العقل على الدنو من السحابة (التي يسكن فيها الله). وفَهم هذه الأشياء يمنح الإنسان قوة عظيمة لكي يستعمل الحفظ والاحتراس في جميع أموره، (وفي الوقت نفسه تُزوِّده بما يحضه على الشجاعة). والتَدْبِير الذي يُمارَس بلا أعين يبطل؛ لأنه يجلب الضجر بسهولة بسبب الطياشة. فتضرَّع إذاً إلى الله أن تحظى في كل أعمال سيرتك بعيون يقظة، فمن هنا يبتدئ الفرح أن ينبع فيك؛ وحينئذ تجد أن الأحزان أحلى من العسل، ويحلو لك حبس القلاية مثل حجلة العريس!

٣ – ليس أحد يقدر أن يقهر الآلام إلا بفضائل محسوسة منظورة؛ أمَّا طياشة العقل فلا يقدر أحد أن يغلبها إلا بملازمة مفاوضة المعرفة الرُّوحانية. لأن عقلنا شيء خفيف هو؛ إن لم يُربَط بفكرٍ ما فلن يكفَّ عن التصاعد والطياشة. وبدون إدراك كمال الفضائل التي تَقدَّم ذكرها لا يمكن اقتناء هذا الاحتراس؛ لأنه إن لم يقهر الإنسان الأعداء لا يمكنه أن يكون في سلام. وإن لم يملك السلام فكيف يمكن أن يجد ما هو موضوع داخله (أي كنوز السلام)؟ لأن الآلام هي كالسياج حول فضائل النفس الخفية؛ فإن لم يسقط هذا السياج أولاً بتوسط الفضائل الظاهرة،

فلا يمكن أن ترى تلك (الفضائل) التي بداخل (النفس)؛ فليس أحد يكون خارج السور ويقدر أن يتصرف ويتكلم مع الذين في الداخل، ولا أحد ينظر الشمس والضباب منبسط، ولا يرى فضيلة النفس واضطراب الآلام مُقيمٌ بعدُ.

٤ – تضرَّع إلى الله أن يهبك الإحساس بغرض الرُّوح واشتياقه؛ لأنهما متى وفَدا إلى نفسك، حينئذ يبتعد العالم منك، وتتخلف أنت منه. ولا يمكن الإحساس بهما من دون النسك والسكون ومفاوضة القراءة بخصوص هذه الأمور. وبغير هذه (أي النسك والسكون والهذيذ) لا تطلب تلك (أي الإحساس باشتياق الرُّوح)؛ لأنك إن طلبتها بغير ذلك تتبدل بعد قليل وتصير جسدانية (أي تتغير من اشتياق الرُّوح إلى شوق الجسد)؛ ومَن يستطيع أن يفهم فليفهم. لأن الله تعالى رأى بمسرة حكمته أن يكون تناول هذا الخبز بالعرق؛ ولم يصنع ذلك على سبيل الشر، بل خوفاً من أن تحصل لنا تخمة، ويقودنا ذلك إلى الضرر فنموت. لأن كل وَاحِدة من الفضائل هي أمٌ لثانيةٍ؛ فإذا تركتَ الأمَّ التي تلد الفضائل ومضيتَ تلتمس البنات (أي الفضائل) دون أن تكون قد اقتنيتَ الأمَّ أولاً؛ فإن تلك الفضائل تصبح مثل الأفاعي لنفسك، وإذا لم تطرحها عنك فسرعان ما تموت (بسمومها).

المَيْمَر الثامن عشر

في علاّمات وأفعال محبة الله تعالى

١ – إذ قد تكلمنا (في المَيْمَر السابق) عن الإحساس بالرُّوح وعن حركاته، ينبغي أن نوضح هنا ما هو. إنه قوة متوارية خفية تزهر في القلب من المحبة، وتكون في البداية بغير أسبابٍ أو فهمٍ أو فكرٍ ينفعل به. فهو إحساس ما، يحرك المزاج (أي كيان الإنسان) من غير نظر حقيقي أو فهمٍ أو فكر فعَّال؛ ولهذا السبب يُظن به أنه من غير سبب، ذلك لأن العقل ما زال قائماً في غمامٍ حتى الآن. وهذا يكون لغير المختَبِرين؛ أمَّا الكاملون فيظهر لهم السبب بعد ذلك، حيث يصير الاشتياق الرُّوحي واضحاً وقوياً جداً. لأن الحلاوة تسري حينئذ في القلب، وينطلق جزء منها في الجسم والجزء الآخر إلى قوات النفس؛ لأن القلب موضوعٍ في الوسط بين حواس النفس وتلك التي للجسد: أمَّا الأَولى فتكون لها (الحلاوة) كآلة، أمَّا الثَّانِية (أي حواس الجسد) فتكون طبيعية لها. والقلب يوجه مذاقة حلاوة فعله إلى كلا الناحيتين. ولهذا السبب يبتعد العالم عن القلب، حينما يتخلف الإنسان من أمور العالم. والآن ينبغي لنا أن نفحص عن هذا السبب.

٢ – إن محبة الله حارة بطبيعتها، ومتى انسكبت على إنسان بغزارة أذهلت نفسه بإحساسه بها. ولهذا فإن القلب عندما يحس بهذه المحبة لا يقدر أن يسعها ويثبت دون أن يشاهَد فيه تغيرٌ غير مألوف حسب قياس مقدار المحبة. وهذه هي علاَّماتها المحسوسة: يصير وجه الإنسان أحمرَ وبهجاً وجسمه حاراً، ويزول منه الخوف والخجل، ويصبح كالذاهل، وتهرب منه القوة التي تجمع عقله فيصير كمن تاه عقله. وهو من الآن يعتقد أن حياته ليست شيئاً بقياس محبته (للمحبوب). ويعتبر الموت مسرة حتى ولو كان أمراً مرعباً جداً. لقد ثبَّت نظرة عقله نحو الله بلا انقطاع، ومع أنه بعيد إلا أنه يتكلم معه كمن هو قريبٌ جداً، وإذ هو خفيٌ يهذّ بخفائه كأنه معروفٌ جيداً لديه. وتكون نظرة (ذلك الإنسان) طبيعية ولكنها غير مرتبطة بالحواس. ويصبح في أعماله وفي مظهره كأنه ملتهب. يسكن وحده ولكن فكره يكون كمن يتحدث دائماً مع آخر، ويمتلئ ذهولاً.

٣ – بهذا الانفعال الرُّوحي سَكِرَ الرسل والشهداء. أمَّا الرسل فطافوا العالم كله في شقاء وتعيير، أمَّا الشهداء فرغم تقطيع أعضائهم، وهرق دمائهم كالماء، ومعاناة أشد أنواع العذابات، إلا أنهم لم يضعفوا بل احتملوا بشجاعة، ومع كونهم حكماء حُسبوا كمن لا عقل لهم. والقديسون تاهوا في القفار بغير نظام مع أنهم كانوا ذوي ترتيب سديد، وحقَّروا ذواتهم بإفرازٍ مع كونهم وقورين. وصاروا غير متألمين (أي غلبوا الأوجاع رغم سكناهم في الجسد)؛ متوسلين دائماً وهم ساكتون دون تغصُّب.

٤ – ونحن نسأل الله أن يؤهِّلنا نحن أيضاً لهذه الجهالة بمراحمه الوافرة. هذا الذي جسده من طبيعتنا، وبواسطته جاد علينا بهذا كله. وهو الذي قد تجرَّب في كل شيء مثلنا ما خلا الخطية من أجل اتحاده بالجسد الطبيعي معنا – وإلى الأبد – من غير اختلاط اتحاداً طبيعياً، ابنٌ وَاحِد وأقنوم وَاحِد، الجالس عن اليمين، الذي له وعلى يديه نسجد ونمجد الآن وفي الحياة المزمعة التي لا انقضاء لها وإلى أبد الآبدين. آمين.

٥ – إذا رأيتَ ذاتك مستريحاً من ضغط الآلام قبل أن تدخل مدينة الاتضاع، فلا تطمئن لذلك؛ لأن العدو يكون قد نصب لك كميناً. لكن توقع بعد هذه الرَّاحَة اضطراباً كثيراً؛ لأنك إن لم تعبر على كل منازل الفضائل فلن تصادف راحة من تعبك ولا انعتاقاً من حيل أعدائك إلى أن تصل إلى منزل الاتضاع.

المَيْمَر التاسع عشر

في أنواع الفضائل، وغير ذلك

١ – النسك هو أُمُّ القداسة التي تتولد منها مذاقة إحساس أسرار الله الأَولى التي يسمُّونها الرتبة الأَولى من معرفة الرُّوح. فلا يخدعنَّ أحدٌ ذاته ويتصور تخيلات كاذبة؛ لأن النفس المدنَّسة لا ترتقي إلى الملكوت الطاهر – سواء بمثالٍ أو حقيقة، ولا تجتمع بأرواح القديسين (أو الملائكة). لكن إذا ما انحلت عناصر الجسد واختلطت بأمثالها، وذلك بانحلال الاتحاد الطبيعي (بين النفس والجسد عند الموت)، عندئذ تُحفظ النفس الشقية لدينونة عظيمة مزمعة. لهذا، يا أخي، اِصقل جمال عفتك بالدموع والأصوام، وبالسكون منفرداً مع نفسك.

٢ – وإذا ما انتهى فَلكك الطبيعي هذا من سيره المستقيم، وبلغتَ إلى النور الأعظم الذي يغذي أقراص كواكب كثيرة ذات أقانيم متنوعة كما يقول بولس الرسول عن دلائل القيامة المزمعة، واختلطْتَ بشعاعات ذلك النور – وليس بطبيعته – عند ذلك تُربط المركبة برباط عدم المعرفة (أي أعلى من كل معرفة)، والينبوعان اللذان يفيضان بغزارة (أي العينان) يتوقف جريان نهريهما. عند ذلك يخرج الكهنة من المقدس من أمَّام سحابة مجد الرب (أي تتوقف خدمة الصلاة العادية بسبب الذهول الذي يستولي على القلب بحلول سحابة مجد الرب: ١مل٨: ١١). وفي هذا الوقت يكون سليمان ملكاً لإسرائيل، أعني السلام الذي يولد من التواضع، وهو الذي يبني بيتاً للرب ويزينه بكل أواني القدس.

٣ – إن ضيقة يسيرة لأجل الله هي أفضل عنده من العمل الْعَظِيم الذي يُعمل بغير انضغاط (أي مشقة)؛ لأن الحزن الذي نحتمله باختيارنا يوضح إخلاص إيمان المحبة، أمَّا العمل براحةٍ فيكون من اكتفاء الضمير وارتياح النية. ولذلك جُرِّبَ القديسون من أجل محبة المسيح بالأحزان وليس بالرَّاحَة. لأن العمل الصائر بدون تعب ومشقة إنما هو برُّ أهل العالم الذين يتصدقون بمالهم ويتبررون بالأشياء الخارجة عنهم ولا يتفاضلون (أو ينتفعون) بشيء في ذواتهم. أمَّا أنت، أيُّها المجاهد، رغبةً في مماثلة آلام السيد المسيح، فجاهد في ذاتك، وذُق آلامه لكي تستحق مذاقة مجده. لأننا «إن كنا نتألم معه فسوف نتمجد معه أيضاً». ومن الواضح أن العقل لا يتمجد مع يسوع إذا لم يتألم الجسد مع يسوع. ولذلك فإن من يحتقر المجد البشري هو الذي يؤهَّل لمجد الله، كما ويتمجد جسده مع نفسه. ومجد الجسد هو الطاعة والسلوك بالعفة أمَّام الله، أمَّا مجد العقل فهو التصور الحقيقي لله (أي الرؤية الإلهية). والطاعة الحقيقية على ضربين: بالأعمال وبالإهانات؛ لأنه عندما يتألم الجسد فإن القلب يشاركه أيضاً في الآلام. وإذا كنتَ لا تعرف الله فلا يمكن أن تتحرك فيك محبته؛ ولا يمكنك أن تحبه دون أن تراه؛ ورؤية الله تحصل من معرفته؛ لأن الرؤية الإلهية لا تسبق معرفته.

صلاة:

٤ – أهلني يا رب أن أعرفك وأحبك، لا بالمعرفة المتحصلة من ممارسة التعلّم المرتبطة بتشتت العقل؛ بل أهلني لتلك المعرفة التي بها يمجد العقل طبيعتك حين يشخص إليك بالرؤية الإلهية التي تسلب الفكر من الإحساس بالعالم. اِحسبني أهلاً أن أرتفع من نظر الإرادة التي تولِّد لي التخيلات؛ وأن أعاينك على الدوام مدفوعاً بربط الصليب في الجزء الثَّانِي من صَلب العقل (أي ارتقائه إلى التاؤريا)، الذي فيه تبطل حريته من الحركات (أي نشاط الأفكار) بالنظر الدائم والرؤية المتصلة التي تفوق الطبيعة. اِغرس فيَّ محبتك لكي آتي وراءك من هذا العالم (منجذباً إليك) بحرارة محبتك. حرِّك فيَّ تأمل وفَهم اتضاعك الذي سَلكتَ بحسبه في هذا العالم، في الحجاب الذي احتجبتَ به من جسدنا (أي بالجسد الذي اتخذته من أعضائنا بواسطة الْعَذْرَاء القديسة مَرْيَم)، لكي بهذا التذكار الدائم الذي لا يشوبه نسيان، أقبل بلذةٍ اتضاع طبيعتنا.

٥ – الصعود على الصليب على ضربين: الأَوَّل: صلب الجسد؛ والثَّانِي: ارتقاء العقل إلى التاؤريا. أمَّا الأَوَّل فيكون من حريَّتك؛ وأمَّا الثَّانِي فهو من الأعمال (بفعل الرُّوح الْقُدُس). فمن لم يخضع له جسده، فحتى عقله لن يخضع له. تَملُّك العقل هو بصلب الجسد. والعقل لا يخضع لله إن لم تخضع الحرية الذاتية للجزء الناطق (أي العقل).

٦ – صعبٌ هو تفويض أمور مرتفعة لمن هو مبتدئ في سِنِّه وطفل في قامته؛ «ويلٌ لكِ أيتها المدينة إذا كان ملكك شاباً»! مَن أخضع ذاته ووضعها فهو قريب من أن تخضع له كل الأمور. ومن يعرف ذاته يُعطَى له معرفة كل الأشياء؛ لأن معرفتك لذاتك هي كمال معرفة كل شيء، وبخضوع ذاتك تخضع لك كل الأمور. وفي الوقت الذي يملك فيه الاتضاع على تَدْبِير سيرتك سوف تخضع نفسك لك، وتخضع معها كل الأمور؛ لأن سلام الله يولد في قلبك. أمَّا إذا كنتَ، يا أخي، خارجاً عنه (أي عن الاتضاع) فلستَ عرضة للانضغاط من الآلام وحسب، بل ومن العوارض أيضاً بلا انقطاع. حقاً، يا رب، إننا إن لم نتواضع فلستَ تكفَّ عن تذليلنا وتوضيعنا. الاتضاع الحقيقي يتولد من المعرفة، والمعرفة الحقيقية تتولد من التجارب.

المَيْمَر العشرون

في الصَّوْم الدائم والثبات في موضع وَاحِد، وفيما يتولد عنهما؛ وفي أن تعلُّم حقيقة ذلك يكون بمعرفة الإفراز

١ – إني قد تجرَّبتُ زماناً طويلاً بالأمور اليمينية واليسارية، وتحنَّكتُ في هاتين الجهتين بغيارات شتى؛ ولقد قبلتُ من جهة العدو المعاند ضربات غير محصاة عدة مرات؛ وأُهِّلتُ لمعونات عظيمة سرياً؛ واقتنيتُ في نفسي خبرة سنوات طويلة، وتعلَّمتُ هذه الأمور بالخبرة (وبنعمة الله)، وعرفتُ أن أساس كل الخيرات واسترجاع النفس من أسر العدو، والطريق المؤدية إلى النور والحياة تتولد من أمرين: أن يلزم الإنسان موضعاً وَاحِداً، وأن يصوم دائماً، أعني أن يُقنِّن نفسه (أي يضع لها قانوناً) بإمساك البطن بحكمةٍ، وبالجلوس بعفةٍ في مكان وَاحِد دون أن يتزعزع أو يتحول عنه، وبالانشغال الدائم بالهذيذ بالله تعالى. فمن هنا يكون قمع الحواس وخضوعها؛ ومن هنا يكون تيقظ العقل؛ وبهذا تهدأ الآلام الوحشية المتحركة في الجسم. ومن هنا تكون وداعة الأفكار، وحركات الذهن النيرة، والاجتهاد في عمل الفضيلة، والأفهام العالية اللطيفة، والدموع الغزيرة المنسكبة في كل وقت، (وتذكار الموت)، والعفة النقية التي تُبعد من العقل كل تخيلات الأشكال، والنظر الحاد للأمور عن بُعد، وتمييز عميق يغوص ويدرك قوة الأسرار التي في الكتب الإلهية، والحركات الخفية التي في أعماق النفس، وتمييز الأرواح والتفريق بين المناظر الحقيقية والخيالات الباطلة. ومن هنا ينتج خوف السبل والطرق الموجودة في بحر الفكر، هذا الخوف هو الذي يقطع التواني والتمارض. ومن هنا أيضاً يشتعل لهيب الغيرة الذي يطأ كل هول وخطر، ويجسر على كل أمر مخيف؛ والحرارة التي ترذل كل الشهوات وتزيلها من الفكر، وتولِّد نسيان كل تذكار للأمور الزمنية العابرة وغيرها. وأنا أوجز فأقول إنه من هذين الأمرين (أي الصَّوْم الدائم والثبات في موضع وَاحِد على الدوام) تُولد حرية الإنسان الحقيقية، وفرح النفس والقيامة مع المسيح في ملكوته.

٢ – ومن يهمل هذين الأمرين فليعلم أنه لا يخسر ذاته ويُخيِّبها من كل (البركات) التي ذكرناها وحسب، بل أنه باحتقاره وازدرائه بهاتين الفضيلتين يزعزع أساس كل الفضائل. وكما أن هذين الأمرين هما للنفس بداية ورأس كل عمل إلهي وباب وطريق للمسيح – إن تمسك المرء بهما ولازمهما – هكذا إن انفصل منهما وتباعد عنهما لاقى نقيضيهما، أعني الترفع الجسداني الذي هو طياشة الجسد، ونهم البطن على سبيل السماجة. فهذان الأمران هما بداية لما يضاد ما تقدم ذكره، ويهيئان للآلام مكاناً في النفس.

٣ – أمَّا بداية أولى هاتين الرذيلتين (أي طياشة الجسد)، فإنها أولاً تفك لُجم الحواس وتطلقها من رباطها بعد أن كانت خاضعة منقبضة. فإن سألتَ وقلتَ: ماذا يحدث الآن من هذا الأمر؟ أجبتك: إنه من هنا تأتي أمور شنيعة لم تخطر على بال بالقرب من أمَّاكن الزلل والسقوط، ومن مصادمة ملاقاة سمجة. ويتولد منها اضطراب أمواج قوية ولهيب العيون الحاد

الناتج من النظر، والذي يستولي على الجسد ويجمع في القلب معاثر سهلة بالفكر. ومن هنا أيضاً تتولد أفكار لا يمكن ضبطها تدفع (الإنسان) بسرعة نحو السقوط، ويحصل فتور الاشتياق إلى أعمال الله، واسترخاء تدريجي في تقدير أهمية السكون، بل ومن استيفاء قانون السيرة بالكمال. وهكذا تتجدد الشرور القديمة التي نُسيت، ويتعلم الإنسان أشياء أخرى لم يكن يعرفها من أصناف المناظر والسماعات التي تُلمُّ به دائماً بغير إرادته بسبب انتقاله من موضع إلى موضع ومن مكانٍ إلى مكان. كما أن الآلام التي كانت قد ماتت من النفس بفضل نعمة الله ونُسيت وزال ذِكرها من الفكر، تبتدئ بالتحرك والنهوض من جديد وتضطر النفس إلى فعلها. ولخوفي من الإسهاب أُمسك عن إيراد كل ما تبقى؛ وأقول إن هذه الأحوال (التي ذكرتُها) تنفتح على الإنسان من العلة الأَولى: أعني من التوسع الجسداني، أي من الطياشة وترك ملازمة تعب الهدوء.

٤ – وماذا يحدث من العلة (أو الرذيلة) الثَّانِية التي هي من فعل الخنازير؟ ترى ما هو فعل الخنازير سوى السلوك بحسب البطن سلوكاً لا حدَّ له؟ فهي تملأ بطونها باستمرار دون أن يكون لها وقتٌ محدد لإشباع حاجة الجسد كما هي الحال عند ذوي النطق. فماذا يحدث إذاً عن هذه الرذيلة الثَّانِية؟ ينتج عنها ألم حاد في الرأس وثقل شديد في الجسد مع ارتخاء المنكبين. ولذلك يضطر الإنسان إلى التخلف عن خدمة الله ويحدث له كسل في السجود أثناءها؛ وتوانٍ وإهمال فيما جرت به العادة من الجثو على الركب؛ وظلمة وبرودة وتكدُّر في الفكر وغلظ في العقل وعدم تمييز بسبب انزعاج الأفكار وظلمتها؛ وقتام كثيف حالِك يغطي النفس كلها؛ وضجر شديد في كل عمل إلهي. كذلك يتعطل كثيراً عن القراءة الواجبة لعدم تذوقه حلاوة أفهام الكلام. وتستولي عليه بَطالة كثيرة من غير ضرورة، ويصير عقله غير منضبط ومشتتاً بالطياشة في كل الأرض. كما يتجمع كيموس كثير في الأعضاء، وتحدث له في الليل خيالات نجسة بصور دنسة قبيحة ملأى بالشهوة التي (تجوز) في النفس وتتمم فيها ما يخصها إتماماً نجساً. وهكذا يتدنس فراش الإنسان الشقي ولباسه وجسده كله بسبب كثرة ذلك السيلان النجس الفائض منه كما من عينٍ. وهذا الأمر لا يحصل في الليل وحسب بل في النهار أيضاً؛ لأن الجسم دائماً يسيل ويدنس الفكر حتى أنه بتوسط هذه الأمور ينكر العفة لأن لذّة الدغدغة تعمل في كل الجسم بلهيبٍ لا يكف ولا يُحتمل. كذلك تحدث له هواجس أفكار مثيرة للذة تصوِّر الجمال أمَّامه وتحرك العقل وتلهبه بمفاوضتها وشهوتها في كل الأوقات ويتنازل العقل معها، ويوافق باشتياق وهذيذ بسبب عمى بصيرته. وهذا هو ما قاله النبي: «هذا جزاء أخت سدوم التي تنعمت فأكلت خبزاً أكل امتلاءٍ». وقد ذكر هذا أحد الحكماء الأجلاء إذ يقول: «إن كل من يغذِّي جسده وينعِّمه فهو يُلقي نفسه في حربٍ عظيمة. وإن رجع إلى نفسه وحاول ضبط نفسه بالغصب والقهر فلن يقدر بسبب شدة لهيب حركاته الجسدية، ومن جراء اضطرار الدغدغة التي أسرت النفس بقوة». أرأيتَ يا أخي دقة هذا الإنسان البعيد عن الله؟! ويقول هذا الحكيم أيضاً: «إن تنعيم الجسد بالترف والرفاهية (واعتياده النعومة والرخاوة) يوجب حدوث الآلام بقوة؛ حينئذ يصبح الموت

أمراً محزناً للنفس، وتمكث في فزع من دينونة الله».

٥ – أمَّا النفس التي تهذّ دائماً بذكر الأمور الواجبة (والنافعة)، فإنها تستريح في حريتها (من الآلام)، وتقلّ اهتماماتها، ولا تندم على شيء قط، وتراعي أمر الفضيلة بكل اهتمام؛ لأن الاعتناء بالفضيلة يقهر الآلام. وهكذا تتزايد فضلاً ورفعةً ونمواً بلا انقطاع، وتمتلئ فرحاً وسروراً لا يشوبه همّ، وتحظى بحياة صالحة وميناء لا خطر فيه.

٦ – أمَّا التنعمات الجسدية فهي لا تُقوّي الآلام فحسب بل إنها تؤكِّدها وتثبِّتها في النفس كما لو كانت جذوراً لها. وبالإضافة إلى ذلك فإنها تلهب البطن وتقودها إلى فساد المزاج والنظام؛ وتخرج بها إلى حد الجهل، وتضطر الإنسان إلى تناول ما يحتاج إليه الجسم في غير وقته. والإنسان الذي أصابته هذه الأمور لا يريد أن يحتمل قليلاً من الجوع لكي يضبط نفسه التي أَسَرتها وسَبَتها منه الآلام والعوائد الذميمة كُرهاً.

٧ – هذه هي أثمار الخزي الناجمة عن نهم البطن، أمَّا التي قبلها فهي أثمار عدم الصبر في موضع وَاحِد والحياة في السكون. والعدو اللازق بنا في كل وقت، هو يعرف هذه الأزمان، وأنه بهذين الأمرين بالأكثر يتكدر الطبع وتتحرك فيه الآلام ويتخبط العقل، أعني من نظر العيون ومن راحة البطن. وهو أيضاً (أي العدو) يحرص أن يزيد على ما في طبيعتنا، فيزرع فينا في هذه الأوقات أشكالاً وأنواعاً كثيرة من الأفكار الشريرة، حتى إن أمكن تتسلط الآلام على الطبيعة بفعل شدة القتال وتُغرِّق الإنسان في السقوط.

٨ – فالخليق بنا، أيُّها الإخوة – بما أن العدو يعرف الأوقات (التي يحارَبِّنَا فيها) – أن نعرف نحن أيضاً ضعفنا ومقدار قوة طبيعتنا وأنها لا تقدر أن تثبت في تلك الأوقات مقابل الهجمات والحركات، ودقة الأفكار التي تصيب عيوننا كالغبار والتراب، فلا نقدر أن ننظر ذواتنا ونثبت أمَّام العوارض أو نلقيها عنا. فلأجل كثرة الامتحانات التي قد تجرَبِّنَا بها من العدو دفعات كثيرة، ينبغي لنا أن نتحكم، فلا نُرخي أنفسنا في الانحلال، ولا نعمل إرادة راحتنا، ولا ننقهر للجوع. بل وإن ضيَّق علينا (العدو) كثيراً وتضايقنا منه، فالأَولى بنا جداً أن لا نتزعزع أو نترك مكان سكوننا وننزل إلى حيث تتوجه إلينا هذه العوارض بسهولة، ولا نُصلح (أو نرتب) لنا الأسباب والحجج كي نخرج من البرية. فهذه هي حيل ومكامن العدو الظاهرة. فإن صبرتَ، يا أخي، في برية السكوت فلن تُجرَّب، لأنك لا ترى فيها نساءً أو شيئاً آخر يؤذي سيرتك، ولا تسمع أصواتاً غير لائقة.

٩ - «والآن مالك وطريق مصر لكي تشرب من ماء جيحون»؟ اِفهم ما أقوله لك: أَظهر للعدو صبرك في الأمور الصغيرة حتى لا يطالبك بالأمور الكبيرة. ولتكن لك هذه الصغيرات حداً (فاصلاً) لتقهر المعاند بواسطتها فلا يجد فرصة لكي ينصب لك فخاخاً كبيرة. لأن مَن لا يطيع العدو ولا يخرج من مكان سكونه وهدوئه ولا خمس خطوات، كيف يقبل أن يخرج من البرية أو يقترب من قريةٍ؟ ومن لا يسمح لنفسه أن يتطلع من طاقة قلايته، كيف يرضى أن يخرج منها؟ ومن بالكاد يقتنع أن يتناول القليل من الطعام عند العشاء – لأنه يريد أن يطوي يومين – كيف

ينخدع من أفكاره أن يأكل قبل الوقت؟ ومن يستحي من أن يمتلئ (أي يشبع) من الأشياء الحقيرة البسيطة، كيف يشتهي الأشياء (أي الأطعمة) الفاخرة؟ ومن لا يسمح لنفسه أن ينظر إلى جسده الخاص به، كيف ينشط أن يتفرس في جمال غريب؟

١٠ – فمن البيِّن أن الإنسان إذا تهاون في مثل هذه الأمور الصغيرة وانغلب لها، فإنه يُوجِد للعدو سبيلاً إلى محاربته بالأمور الكبيرة. فالذي لا يلتفت إلى هذه الحياة الوقتية ولا يعتني بالبقاء فيها، كيف يفزع من الضيقات والأحزان التي تقود إلى الموت الذي يشتاق إليه؟ هذه هي الحرب التي يخوضها الحكماء بتمييز؛ فالحكماء لا يسمحون للعدو أن يستميلهم إلى الجهادات الْعَظِيمة؛ لأن صبرهم الذي يظهرونه في الأمور الصغيرة هو الحافظ لهم، وهو الذي يوفر عليهم مشقة مباشرة الأتعاب الكبيرة.

١١ – فالشيطان يجاهد أولاً أن يبطل صلاة القلب الدائمة، وبعد ذلك يقنع الإنسان أن يتهاون بصَلَوَات الساعات والقانون الذي يتممه جسدياً. (وهكذا يقع الفكر في الفتور) ويسترخي أولاً في الأمور الصغيرة التافهة ثم ينساق إلى تناول الطعام قبل الوقت. وبعد الهبوط من منزلة النسك يسقط في الشره والجهل والتهور. فهو (أي الرَّاهِبُ) أولاً ينغلب، أو بالأحرى يعتقد أنه ليس نقصاً أن ينظر بعينيه إلى جسمه العاري أو إلى جمال عضوٍ من أعضائه إذا ما خلع سراويله أو خرج لقضاء حاجة الجسد أو لتبديد الماء فترتخي حواسه؛ أو أن يُدخل يده بجسارة داخل ثيابه، حينئذ تَرد إليه أمور أخرى. والذي كان أولاً يحفظ العقل بحرصٍ، ويحزن لأجل أمرٍ وَاحِد من هذه الأمور، تجده الآن يُنقص من احتراس حواسه ويتهاون بشيء من هذه الأمور الصغيرة، ولهذا يفتح على نفسه مداخل للأمور الجسيمة الصعبة.

١٢ – إنني أتكلم على سبيل المثال فأقول إن الأفكار كالمياه، إذا حُصرت من سائر الجهات سارت في مجراها الطبيعي، أمَّا إن خرجت عن مسارها فإنها تفتح السد وتهدم الجسر المتين وتجعل المكان خراباً. هكذا هي الأفكار؛ لأن العدو – خزاه الله – يقف تجاه عيوننا ليلاً ونهاراً يرقب أي مدخل ينفتح أمَّامه من خلال الحواس لكي يدخل منه. فإن وقع الإهمال من جانبنا في أحد الأمور الصغيرة التي تقدم ذكرها، حينئذ يرسل إلينا هذا الغاش الماكر ما يختص به (أي سهامه الملتهبة). وقد ترغب الطبيعة أحياناً من ذاتها في الرَّاحَة؛ لأن طبعنا يحب الرَّاحَة والدالة والضحك والمحادثة والفرجة والانشراح والتكاسل، فتصبح الطبيعة هي نفسها ينبوعاً للآلام وبحراً من الاضطراب. وأحياناً أخرى يثير العدو بنفسه هذه الأمور. لهذا ينبغي لنا أن نستعيض عن الأتعاب الْعَظِيمة وأسباب المخاطر المحزنة بأتعابنا الصغيرة القَلِيلَة التي يُظن أنها لا شيء. لأنه إن كانت هذه الأمور الصغيرة، إذا ما تهاونا بها تثير علينا جهادات عظيمة هذا مقدارها، وأتعاباً شاقة كثيرة ومنازعات متواصلة وجراحات خطرة شنيعة، فمن ذا الذي لا يحرص أن يقتني الرَّاحَة العذبة بتوسط الأتعاب اليسيرة التي يُحفظ بها المدخل (أي الحواس)؟

١٣ – أيتها الحكمة، كم أنت عجيبة! وكيف تنظرين كل شيء من بُعد! لسعيدٌ هو الإنسان الذي يجدك، لأنه يتحرر من نوم الضلالة؛ لأن الذي يطبب آلأمَّا عظيمة ويعالج أمراضاً جسيمة

بيسير من التلطف (أي التدقيق) وصغيرٍ من التَدْبِير فقد أحسن في فعله وأجمل. ويُروى عن أحد الفلاسفة أنه تحرك حركة ضعيفة (أو أخذته غفوة)، وأحسَّ بنفسه فتلافى الأمر سريعاً وقوَّم نفسه، فرمقه آخر وضحك عليه، فأجابه: «إنني لم أَخَف من هذا الأمر، بل إن خوفي هو من التهاون؛ لأن الإهمال اليسير غالباً ما يصير سبباً لبلايا عظيمة. أمَّا وقد انتبهتُ بسرعة عند خروجي عن نظامي، وبادرتُ إلى تقويم ذاتي وإزالة تلك الهفوة، فقد برهنتُ بذلك على أني متيقظٌ وغير متهاون حتى في الأمور التي لا تستحق الخوف». وفي هذا غاية الحكمة، لأنه حرَّض ذاته على التيقظ وإيثار السداد (أي التقويم). فهذه هي محبة الحكمة: أن يتيقظ الإنسان دائماً حتى في الأمور الصغيرة التي يعملها؛ لأنه بذلك يكنز لنفسه راحة عظيمة. ولا يغفل لئلا يُصيبه أمرٌ مضادٌ؛ فهو يقطع العلل قبل الوقت بواسطة أمور صغيرة قَلِيلَة، ويحتمل الحزن القليل وبواسطته يفلت من الكبير.

١٤ – أمَّا الجهلاء فيفضلون الرَّاحَة القريبة (أي الوقتية) الحقيرة على راحة الملكوت الجليلة، غير عالمين أن الصبر على العذابات في الجهاد هو أفضل من الرَّاحَة على فراش ملك أرضي تحت مذمَّة الفشل. أمَّا الحكماء فإن الموت أفضل عندهم جداً من أن يُلاموا بأنهم فعلوا ما فعلوه بدون انتباه وتيقظ. ولذلك يقول الحكيم: «كن منتبهاً ويقظاً في حياتك لأن نوم الذهن هو صورة الموت الحقيقي». أمَّا الإلهي باسيليوس فيقول: «إن من يتكاسل في أموره الصغيرة لا تثق به في الأمور الكبيرة».

١٥ – لا تضجر من الأمور التي تحيا من قِبلها، ولا يثقل عليك أن تموت من أجلها؛ لأن صغر النفس هو دليل الضجر وأُمّ هذين معاً هو التهاون. والإنسان الجبان يدل على أنه قد مرض مرضين: حب الجسد وعدم الإيمان؛ ومحبة الجسد هي دليل على عدم الإيمان. أمَّا الذي يزدري بمحبة الجسد فهو يحقق بذلك أنه يؤمن بالله من كل قلبه، وأنه ينتظر الدهر الآتي.

١٦ – إن وجدتَ إنساناً استطاع أن يدنو من الله تعالى بدون أهوال وجهادات أو تجارب، فتمثَّل به! إن جسارة القلب والازدراء بالأهوال يتولدان من أحد أمرين: أمَّا من قساوة القلب وأمَّا من الإيمان الشديد بالله. أمَّا قساوة القلب فيتبعها العُجب، أمَّا الإيمان فيتبعه تواضع القلب.

١٧ – لا يقدر إنسان أن يقتني الرجاء بالله دون أن يتمم أولاً مشيئته بدقةٍ. لأن الرجاء بالله وشجاعة القلب إنما يتولدان من شهادة الضمير، وبشهادة ذهننا الحقيقية نقتني الثقة بالله. أمَّا شهادة الذهن (أو الفكر) فهي أن الإنسان لا يلومه ضميره على تكاسله وإهماله فيما يجب عليه عمله بحسب مقدرته. لأنه «إن كان قلبنا لا يديننا فلنا إذاً دالة عند الله». والدالة إنما تكون من التدابير الحسنة والفضائل والنية الجيدة. إن الاستعباد لخدمة الجسد أمر محزن وقاسٍ، أمَّا من يحسُّ ولو قليلاً بالرجاء بالله فما يستجيز أبداً أن يتعبد لهذا المولى القاسي أي الجسد الترابي الفاني.

المَيْمَر الحادي والعشرون

في السكون والهدوء[٤٨]

١ – يلازم الإنسان الصمت الدائم وحفظ السكون لأحد أسباب ثلاثة: أمَّا لأجل تمجيد الناس أو من أجل غيرة حارة أو بسبب هذيذ إلهي داخله يجذب فكره إليه. فمن لا يكون صمته وسكونه من قِبل أحد السببين الأخيرين فهو بالضرورة يتراخى للسبب الأَوَّل (أي تمجيد الناس).

٢ – الفضيلة ليست هي أعمال كثيرة متنوعة تُعمل بالجسد ظاهراً، بل هي القلب الحكيم في أمله ورجائه؛ لأنه يُوصِل (أي يربط) أعماله بالقصد المستقيم. ففي أحيان كثيرة لا يتمكن الإنسان من تكميل الأعمال (الجسدية)، أمَّا الذهن فيقدر أن يتفاضل ويعمل الصلاح بدون أفعال جسدية؛ وأمَّا الجسم فإن فعل فعلاً ما بمعزلٍ عن حكمة القلب فلن يتولد له من ذلك منفعة (مهما تعب). على أن إنسان الله إذا ما وجد فرصةً لعمل الخير فهو لن يصبر دون أن يظهر محبته لله بمشقة الأعمال الظاهرة. أمَّا الطبقة الأَولى (أي عمل الذهن بدون عمل جسدي) فدائماً تنجح، أمَّا الثَّانِية (أي تكميل الخير بأعمال الجسد) فهي تنجح في وقت ولا تنجح في وقت آخر. فلا تظن أن الابتعاد عن علل الآلام أمر قليل أو شيء صغير.

في حركات الجسد[٤٩]:

٣ – إن حركة أعضاء الجسد السفلى التي تشتد حدتها بمعزل عن الأفكار، أي تلك اللذة السمجة التي تتحرك بالتهاب (أسفل البطن) وتدفع النفس إلى التجنن والشقاء كرهاً بغير إرادتها، هي بلا شك تنشأ من امتلاء البطن؛ لأن هذا الأمر لا يتولد في الجسم بدون ذلك. ثق أن الابتعاد (من كل ما يسبب الإثارة) ومن مشاهدة النساء هو سلاح عظيم في هذا الجهاد؛ لأن المعاند نفسه لا يقدر أن يفعل فينا ما تقدر الطبيعة أن تفعله بقوتها. ولا تظن أن الطبيعة تنسى ما غرسه الله فيها غرساً طبيعياً لإكثار النسل وللامتحان في الجهاد. إلا أن الابتعاد من الأطعمة يميت الشهوة الموجودة في الأعضاء ويبعث على نسيانها.

٤ – إن أفكار الأمور البعيدة عنا تمر في الذهن مروراً عابراً، وتُحدث حركة باردة ضعيفة في حدِّ ذاتها، فهي شيء آخر يختلف عن تلك الأفكار التي تنشأ من رؤية المادة وتغرق الفكر بصورٍ يصعب نسيانها، وتحرك الآلام وتثيرها بقربها من الإنسان، وتغذي فيه الشهوة كما يغذي الزيت لهيب المصباح، وتشعل الألم الذي كان قد انطفأ ومات، وبحركاتها المضطربة تُهيِّج بحر الجسم على سفينة الفكر. وهذه الحركة الطبيعية (الساكنة فينا لأجل النسل فقط) لا يمكنها من ذاتها أن تخبط وتزعج إرادة الطهارة، ولا تضغط (أو تؤذي) العفة، بدون زيادة تأتيها من الخارج؛ لأن الله لم يعطِ الطبيعة قوة لتغلب الإرادة الجيدة المطابقة لمشيئته تعالى.

---

[2] وج ا هذا الفصل لم يتبع الرقم المرسل قبل بعض النسخ.
[6] وجاء كرقم مرسل بعد بعض النسخ.

ولكن متى انغلب الإنسان، أمَّا من الغضب أو من الشهوة، فلا تكون القوة الطبيعية هي التي غصبته ودفعته إلى الخروج عن حد الطبيعة وعدم التزامه بواجبه، بل يكون ذلك بسبب الزيادة التي نضيفها نحن إلى الطبيعة بإرادتنا بواسطة الأمور التي من شأنها أن تؤذينا. لأن كل ما صنعه الله هو حسن وبنظام متزن. فطالما يُحفظ فينا نظام الأمور الطبيعية سليماً، فإن الحركات الطبيعية لا يمكن أن تضطرنا أن نحيد عن الطريق المشروعة، بل يتحرك الجسد بحركات هادئة. فينبغي لنا إذاً أن نعلم أن العارض الطبيعي موجود فينا لا لكي يدغدغ ويضغط ويمنع من السلوك في منهج العفة، ولا لكي يُظلم العقل بفعل الغضب ويخرجنا من السلام إلى الحرد والسخط غير الطبيعي. ولكن إذا حدث أن اِنقدْنا مع الأشياء الحسية (التي بواسطتها يثور الغضب ثوراناً خارجاً عن الطبيعة)، مثل المآكل والشراب الزائدين عن الحد، والانشغال بالقرب من النساء والنظر إليهن والتحدث بأمورهن، مما يشعل نار الشهوة ويجعلها تتأجج في الجسد؛ فإننا حينئذ نحوِّل الوداعة الطبيعية إلى وحشية سواء بكثرة الكيموس أو بسبب مناظر الأمور المختلفة.

٥ – وقد تكون حركة هذه الأمور في بعض الأوقات من التخلية بسبب تعظمنا وغرورنا، غير أن هذه الحركة ليست كسابقتها. لأن الحركات التي سبق ذكرها ندعوها قتالات الحرية، وهي سبيل الطبيعة العامة، أمَّا القتال الناجم عن التخلية التي تكون بسبب تعظمنا وغرورنا فنحن نعلم أنه يأتي علينا بسماح من الله لكي نتعلم الاتضاع إذا كان التزامنا بالتيقظ والأعمال زمناً طويلاً جعلنا نتصور أننا قد أحكمنا شيئاً ما. أمَّا الحروب الأخرى التي تفوق قوتنا وليست من هذا السبب (السابق) فهي تحدث لنا بسبب تهاوننا وتكاسلنا؛ لأن الطبيعة إذا قبلت زيادة – خلاف رغبة البطن – من خلال الحواس، فلن يعود بإمكانها أن تحفظ نظامها الطبيعي الذي جُبلت عليه. فمن يرفض الأحزان ويتخلى عن الثبات في مسكنه (أي قلايته) يضطر بغير إرادته أن يحب الذنوب والخطايا كرهاً. لأننا بدون هذين الأمرين، أي التعب والثبات في القلاية، لا نقدر أن نبتعد عن المجاذبات بالفكر؛ لأنه بمقدار ما يزداد التعب تقلّ هذه المجاذبات. فالضيقات تُبيد لذة الآلام، أمَّا الرَّاحَة فتجلبها وتنمِّيها.

٦ – فإذا علمنا بوضوح أن الله تعالى وملائكته يبتهجون بالشدائد والضيقات (التي تحدث لنا)، بينما يُسر الشيطان وجنوده بالنياح والرَّاحَة (وتنعم الجسد)، وإذا كانت الوصايا تُكمَّل بالأحزان والضيقات وضغطات الجسد، وكنا نحن نزدري بها، أفلا يعني ذلك أننا نتحايل في إهانة الموصي بها بسبب محبة الآلام التي تتولد من الرَّاحَة وإبطال علة الفضيلة أي الضيق والشدة؟ كما أننا بمقدار ما ندركه من الرَّاحَة نكون قد أعددنا في نفوسنا موضعاً للآلام؛ لأن الأفكار لا تقدر أن تَغرق (أو تطيش) في الاهتمامات الباطلة إن بقي الجسد في ضيق وضنكٍ. أمَّا إذا تحمل الإنسان الأتعاب والأحزان بفرح، فإنه يتمكن من أن يلجم الأفكار بقوة؛ لأن الأفكار هي نفسها تتعطل بالأعمال والتعب. وإذا ما تذكر الإنسان خطاياه وآثامه السابقة وعاقب نفسه من أجلها بالأتعاب، حينئذ يهتم به الله ويريحه؛ لأنه تعالى يُسَرُّ بالإنسان إذا وضع العقاب على

نفسه لأجل جنوحه عن طريق الله، وهذا هو طريق التوبة الصادقة. فبمقدار ما يُعنِّف الإنسان نفسه ويضع من شأنها، هكذا تزداد له الكرامة من الله. وكل فرح لا تكون علته من الفضيلة يحرك فينا في الحال حدة حركات الشهوة، ولكن اِعلم أننا تكلمنا بهذا عن كل شهوة ألمية وليس عن تلك الطبيعية فقط.

المَيْمَر الثَّانِي والعشرون

في أنواع التجارب المختلفة وأن الصابرين عليها من أجل الحق يتلذذون بلذة عظيمة، وفي المنازل والمراتب التي يسير فيها الإنسان اللبيب

١ – إنَّ الفضائل تَخْلِف بعضها البعض (كالسلسلة)، وبذلك لايكون منهج الفضيلة شاقاً ثقيلاً، بل يكون تثقيفها (أي ممارستها) بنظام وترتيب حتى تصبح خفيفة؛ وهكذا تصير المصاعب من أجل الخير مستحبة كالخير نفسه. وليس أحد يقدر أن يحصل على (فضيلة) عدم القنية بالفعل دون أن يقنع ذاته أولاً أن يصبر على التجارب بمسرة. وليس أحد يتمكن من احتمال الضيقات والصبر عليها دون أن يؤمن أن هناك شيئاً أسمى من الرَّاحَة الجسدية (يناله) عوضاً عن الضيقات والأحزان التي هيأ ذاته لقبولها. إذاً كل من أعدَّ نفسه لعدم القنيان، فأول شيء يتحرك فيه هو حب المحن والضيقات، وحينئذ يأتيه فكر الزهد في مقتنيات هذا العالم. وكل من يدنو من هذا الحزن فإنه يتقوى أولاً بالإيمان، وبعد ذلك يباشره (أي يواجه المحن بمسرة). ومن حرم نفسه من الأشياء المادية ولم يتجرد من فعل الحواس – أي النظر والسمع والكلام – فقد جلب لذاته حزناً وضيقاً مضاعفاً، وهو سيكابد الشقاء والضنك مكابدة مكررة. لأنه أية منفعة للإنسان إذا حرم نفسه من (استعمال) الأشياء المحسوسة عينها وهو ما يزال يتنعم بها من خلال الحواس؟ فهو يتأذى وينفعل بالآلام التي تسببها تلك الأشياء تماماً مثلما كان يشقى بالأشياء نفسها من قبل بالعمل الفعلي؛ ذلك لأن ذِكر ما اعتاد عليه من مخالطة الأشياء المحسوسة لم يبارح ذهنه. لأن مجرد تخيل الصور التي تكون في الفكر يضر بالإنسان ويؤذيه من غير وجود الأمور ذاتها. فإن كان تخيلها عقلياً يسبب للإنسان وجعاً، فماذا نقول إذا كانت الأشياء نفسها موجودة وقريبة منا؟ إذاً الابتعاد والوحدة حميدةٌ جداً، وهي تقدم لنا معونة عظيمة. لأن الابتعاد يسكت الأفكار باقتدار، ويوفِّر قوة في الجهاد، ويعلِّم الإنسان الاحتمال والصبر الْعَظِيم على ما يداهمه من المحن والشدائد.

٢ – لا تطلب المشورة ممن لا يماثلك في السيرة أو ممن لا يكون قصده وغرضه مساوياً لك في التَدْبِير، حتى ولو كان حكيماً جداً. بل ماثِل الأُميّ الذي اختبر الأمور (الرُّوحية) بالفعل، وشاوره أكثر من الحكيم المتفلسف الذي يبحث ويفحص الأمور (عن طريق القياسات العقلية) دون تجربة (أي خبرة) فعلية بالعمل. وما هي الخبرة؟ الخبرة ليست أن يلاقي الإنسان الأمور ويرصدها دون أن يكون قد اقتنى في ذاته مذاقة عملها، بل أن يحس بمدى منفعتها أو مضرتها إحساساً واضحاً بطول زمان ممارسته لها. لأنه كثيراً ما يبدو شيء ما مؤذياً حسب الظاهر، بينما يكون في باطنه ذا منفعة عظيمة. والعكس أيضاً صحيح؛ أي أنه قد يكون مفعماً بالمنفعة حسب الظاهر، بينما هو في باطنه مُخسِّر وضار. ولذلك فإن كثيراً من الناس يخسرون من أشياء (كانت تبدو لهم) مملوءة ربحاً: وهؤلاء شهادة معرفتهم ليست حقيقية. ولكن اتخذ لك مرشداً ذاك الذي عرف أن يختبر بصبر سائر الأمور التي تتطلب التمييز. فليس كل أحد ثقة أن

تُقبل مشورته دون أن يكون قد تدبَّر أموره أولاً أحسن تَدْبِير، ودقَّق في تحرير ذاته، وامتلك معرفةً اقتناها بالخبرة في كل أمر، ولم يحب ذاته في شيء، وقد انعتق من العوارض التي تجلب العبودية؛ فهو لا يخاف من مذمةٍ ولا يخشى وقيعة.

٣ – إذا ما وجدتَ في طريقك سلأمًّا لا يتغير، حينئذ خَفْ؛ لأنك بعيدٌ عن السبل المستقيمة (الإلهية) التي وطأتها أقدام القديسين التعبة. فإذا كنتَ تسير في طريق الملكوت وتقترب من مدينة الله، لتكن لك هذه العلامة: أن التجارب تحيط بك بشدة، وبمقدار ما تنجح وتتقدم هكذا تزداد عليك التجارب. فمتى أحسستَ في نفسك بمحنٍ قوية مختلفة، اِعلم أن نفسك قد قبلت بالفعل في ذلك الوقت منزلة أخرى عالية قبولاً خفياً، وقد ازدادت فيها النعمة في الحال عن الرتبة التي كانت قائمة فيها من قبل. لأن الله يُدخل النفس إلى ضنك التجارب بحسب عظم الموهبة التي يمنحها لها. ولست أعني هنا التجارب العالمية التي تحصل لكي تُلجم الرذيلة والأعمال الشريرة الظاهرة، كما ولا يُفهم أن هذه التجارب هي مخاوف جسدانية؛ بل هي محن تليق بالرهبان العائشين في السكون، وهي التي سنقسمها ونتكلم عن أصنافها فيما بعد.

٤ – ولكن إن كانت النفس ضعيفة ولا تقدر على مصادمة التجارب الْعَظِيمة، والتمستْ من الله أن لا يُدخلها فيها، واستمع منها، فاِعلم يقيناً أنه بمقدار عجزها عن حمل الضيقات الصعبة هكذا تكون غير مؤهلة للظفر بالْعَظِيم من المواهب والنعم، وكما أنه قد مُنعت عنها الشدائد الهائلة هكذا تُمنع عنها الفوائد الجليلة. لأن الله قد رأى بحسن حكمته – التي لا تدركها خلائقه – أن تكون النِعم بمقدار المحن وليس أن تكون الموهبة عظيمة والتجربة ضعيفة، لأن المواهب مرتبة على قدر التجارب. وهكذا فإنك من خلال الصعوبات والضيقات التي تعرض لك بسياسة من الله تعالى، تقدر أن تدرك مقدار عِظم النعمة التي قبلَتْها نفسك من الله، لأنه بمقدار الحزن تكون التعزية.

٥ – فإن سألتَ قائلاً: إذاً ما الحال؟ أتأتي التجربة أولاً وبعد ذلك الموهبة، أم أن الموهبة هي التي تأتي أولاً ثم تعقبها التجربة؟ أجبتك: إن التجربة لا تأتي دون أن تكون النفس قد قبلت أولاً في داخلها (خفياً) قوةً تفوق منزلتها الأَولى، ونعمة روح البنوة التي كانت قد قبلتها أولاً. والشاهد على حقيقة هذا الأمر هو تجربة الرب؛ وأيضاً تجارب الرسل، لأنه لم يسمح بدخولهم في التجارب إلا بعد ما قبلوا المعزي. إذاً فالذين يشاركونهم في الخير يليق بهم أن يحتملوا أيضاً مِحنهم؛ لأن مع الخير حزنه، وهذا هو ما رأى الله الحكيم أن يفعله في كل شيء. وإن كان الأمر هكذا منذ البدء، أعني أن النعمة تسبق التجربة، إلا أن الإحساس بالمحن بالضرورة يسبق الإحساس بالنعم، وذلك لأجل اختبار حرية الإنسان؛ لأن النعمة لا تتقدم إلى أحد البتة قبل أن يكون قد ذاق التجارب. فالنعمة إذاً تأتي أولاً في العقل بينما يتأخر إدراكها في الحسِّ. فالجدير بنا إذاً أن نقتني في أوقات المحن أمرين متضادين ومختلفين تماماً هما الفرح والخوف. أمَّا الفرح فلأننا نسير في الطريق التي وطئتها أقدام القديسين، أو بالحري التي وطئها محيي الكل؛ وهذا يصير واضحاً لنا حين نتميز بدقة التجارب الواردة إلينا. أمَّا الخوف

فينبغي لنا أن نقتنيه لئلا نُجرَّب بهذه التجارب بسبب العظمة. والمتواضعون تهبهم النعمة حكمةً حتى يمكنهم تمييز هذه الأمور، فيعرفون ما هي التجربة التي تكون من ثمار العظمة وما هي التي تكون من لطمات المضروبين من المحبة الإلهية. فالتجارب التي تأتي على الإنسان لتُنهضه وتحثَّه على التقدم في السيرة والنمو في الصلاح، تختلف عن تلك التجارب التي تنجم عن التخلية تأديباً له بسبب تعظم النفس.

٦ – والدليل على ذلك أن المحن الوافدة (على أحباء الله) من جهة العصا الأبوية، تحرك النفس على التقدم والنمو، وهي التي تتدرب وتُمتحن بها لكي تصير نشيطة. هذه التجارب هي: كسل، ثقل الجسد، ضعف الأعضاء، ضجر، تشويش الذهن، أمراض جسدانية، انقطاع وقتي للرجاء، ظلمة الأفكار، نقصان المعونة البشرية، عوز الأشياء الجسدانية، وما أشبه ذلك. ومن هذه التجارب يقتني الإنسان نفساً متوحدة ومتضعة وقلباً مائتاً، وهو يُختبر بذلك ويتحرك فيه الشوق إلى خالقه. والعناية الإلهية تدبر هذه الأمور (أي التجارب) لكل وَاحِد حسب القوة وحسب احتياج الذين يقبلونها. وبها تمتزج التعزيات والأحزان، والنور والظلمة، والحروب والمعونات. وباختصار أقول إنه يُضيِّق ويفرج، وهذه هي علامة (نجاح الإنسان) وازدياد معونة الله.

المَيْمَر الثَّالِث والعشرون[٥٠]

عن العظمة

١ – أمَّا التجارب التي تأتي عن تخلية الله تعالى على المتوقحين والمترفعين بقلوبهم تجاه صلاحه والذين يسيئون إلى خيريته بتعظمهم فهي هذه: تجارب الشياطين الظاهرة التي تفوق قوة النفس البشرية، فقدان قُوى الحكمة، إحساس قوي بحركات الزنا التي تُطلق عليهم توضيعاً لترفُّعهم، سرعة الغضب، قيام الهوى والتمسك بالمشيئة الخاصة، محبة الغلبة بالكلام، الانتهار بشدة، ازدراء القلب، ضلالة العقل الكاملة، التجديف والافتراء على اسم الله تعالى، آراء سخيفة مُضحكة أو بالحري مُبكية، الازدراء من جهة الناس وضياع الكرامة، استهزاء بأنواع كثيرة من جانب الشياطين خفياً وظاهراً، محبة الاختلاط بالعالم والعيش فيه، الثرثرة والهزر دائماً بكلام جهالة؛ أن يطلب الإنسان لنفسه دائماً أموراً جديدة بتنبوءات كاذبة، وأن يبشر ويعد بأشياء كثيرة فوق قدرته. فهذه كلها هي تجارب النفس.

٢ – أمَّا التجارب الجسدانية فهي: أن تعرض للإنسان عوارض صعبة أليمة وعسرة الحل تمكث معه وتلازمه دائماً، وتصادفه شرور كثيرة، وملاقاة أناس كفرة، ويقع بين أيدي أشرار يحزنونه، ويتحرك قلبه دائماً بالخوف بلا سبب، ويتعرض لسقطات عظيمة فوق صخور أو من أمكنة عالية، وما شابه ذلك مما يسبب للجسم أذية شديدة. وأخيراً يصير القلب معوزاً تماماً من الاستناد على العناية الإلهية ومن ثقة الإيمان. وأنا أوجز فأقول إنه تأتي على الإنسان أمور صعبة وكل ما هو فوق حدود مقدرته؛ لأن هذه الأشياء التي عددناها هي كلها من تجارب العظمة.

٣ – ويبدأ ظهور هذه التجارب في الإنسان عندما يبتدئ أن يعتقد في ذاته أنه حكيم ولبيب وعالم، ويتصور له في عيني نفسه أنه كذلك فعلاً. والإنسان الذي يكون بهذه الصفة، يتحرك في كل هذه الشرور حسب مقدار قبوله لأفكار العظمة. فمن أنواع تجاربك اِعرف واِفهم دقة طرق فكرك؛ فإن رأيت بعض هذه التجارب ممتزجة مع المحن التي سبق ذكرها (أي التي لأحباء الله)، اِعلم أنه بمقدار ما نالك منها هكذا تكون العظمة قد ألمَّت بك.

٤ – اسمع أيضاً أمراً آخر: إن كل الضيقات والأحزان التي ليس لك فيها صبرٌ واحتمال سيكون عذابها مضاعفاً، لأن صبر الإنسان يزيل مصائبه، أمَّا صغر النفس فهو أُمُّ العذاب.فالصبر هو أُمُّ العزاء، وهو قوة تتولد من سعة القلب. ومن العسير على الإنسان أن يجد هذه القوة في محنةٍ بدون النعمة الإلهية التي يحصل عليها من تواصل الصلاة (الحارة) وفيض الدموع.

[٥٠] هذا المقال مترجم عن مقال سريالي قبطي غير منشور.

٥ – ومتى أراد الله أن يُحزن الإنسان بزيادة، فإنه يسمح له بالوقوع في يدي صغر النفس. وهذا الأمر يولِّد فيه ضجراً قوياً يجعله يذوق الاختناق النفسي؛ وهذا هو (سبق) تذوق جهنم. ومن هنا تأتي الحيرة، ومنها تتولد وتنبع تجارب عدة مثل: التشويش والغضب والافتراء ومحبة الذمّ (أي التأفف) وانحراف الآراء والأفكار والتنقل من مكان إلى مكان، وما شاكل ذلك. وإن سألتَ عن علة ذلك، أجبتك: أن سبب هذه كلها هو توانيك. والدليل على ذلك أنك لم تحرص على التماس شفائها. وطب هذه (التجارب كلها) وَاحِد، وهو الذي يجد فيه الإنسان سريعاً عزاءً في نفسه: إنه تواضع العقل، وبدونه لا يستطيع أحد أن يهدم حصن هذه الشرور، بل إنه يجدها بالأكثر متجبِّرة عليه.

٦ – ولا تغضب مني لأني قلتُ لك الحق: إنك لم تطلب الاتضاع بكل نفسك. فإن كنتَ تريده حقاً ادخل إلى بلدته، فسوف ترى كيف يزيل عنك الشر. لأنك بمقدار اتضاعك ينعم عليك بالصبر في أحزانك، وبحسب احتمالك يخف عليك ثقل شدائدك وتحظى بالعزاء، وبقياس العزاء تعظم محبتك لله، وبمقدار محبتك تعظم مسرتك بالرُّوح الْقُدُس.

٧ – أمَّا الأبناء الحقيقيون، فأبانا الرؤوف متى رأى أن يريحهم في تجاربهم، فهو لا يرفعها عنهم بل يجود عليهم بالصبر عليها تكميلاً لنفوسهم. فبصبرهم على التجارب يحظون بكل الخيرات. ونحن نسأل المسيح إِلهُنَا أن يؤهلنا بجوده للصبر على الشرور بقلب شاكر ونفس مستعدة، لأجل محبته تعالى. آمين.

المَيْمَر الرَّابع والعشرون

في شرح أنواع الفضيلة وماهي قوة كل وَاحِدة منها وماذا يميزها

١ – إن التَدْبِير الجسداني الصائر في السكون يطهر الجسم من الهيولي الذي فيه. أمَّا تَدْبِير فضيلة الفكر فيضع النفس وينقيها من الحركات والأفكار السمجة بخصوص الأشياء التي ستفسد وتزول، لئلا تفكر فيها تفكيراً ألمياً (أو بدافع الشهوة)، بل تتحرك جيداً برؤيتها الإلهية (الداخلية). هذه الرؤية الإلهية تقرِّبها من تعرية العقل (أي تجرده من كل الأمور المرئية)، وهذا هو ما نسميه «تاؤريا غير متجسدة»، وهو التَدْبِير الرُّوحاني؛ لأنه يرفع العقل من الأمور الأرضية ويُقرِّبه من تاؤرية الرُّوح الأَولى، ويقيمه عند الله، فينظر مجده الذي لا يوصف الذي هو حركة الأفهام على عظمة طبيعته، ويفصله من هذا العالم ومن الإحساس به. ومن هذا يتحقق تماماً رجاؤنا المزمع، ونتيقن من ذلك عملياً، وهذه هي الثقة التي تكلم عنها بولس الرسول، وننعم عقلياً برجاء الأمور الآتية التي وعدنا بها. فما هي هذه (التدابير)؟ وما هي صفتها وَاحِدة فوَاحِدة؟ فاسمع:

٢ – التَدْبِير بالسيرة الجسدانية التي ترضي الله، نسميها الأعمال الجسدانية التي تُعمل بواسطة الجسد لتطهيره، وذلك بممارسة الفضيلة بأعمال ظاهرة يعملها الإنسان بنفسه ويتنقَّى بها من نجاسة الجسد. أمَّا التَدْبِير بسيرة الفكر فهو عمل القلب، أعني اهتمامه الدائم بتذكر الدينونة الْعَظِيمة المزمعة، وبصلاة القلب الدائمة التي لا تتوقف، وتصور سياسة الله وعنايته الموجودتين (أو العاملتين) معاً في هذا العالم فردياً وجماعياً بآن وَاحِد، والتحفظ من الآلام الداخلية (أي الخفية) لئلا يلاقي منها شيئاً في البلد الخفي الرُّوحاني؛ فهذا هو عمل القلب الذي يسمونه سيرة الفكر. وبفعل تَدْبِير هذه السيرة التي تدعى أيضاً عملاً نفسياً، يتلطف (أي يتنقَّى) العقل وينفصل عن مشاركة حياة الفساد الزائلة التي هي الخروج عن حد الطبيعة. فإنه من هذه التنقية وهذا الانفصال يبتدئ العقل أن يتحرك كل حين بالفهم فيتأمل في المخلوقات المحسوسة التي خُلقت لاستعمال الجسد ونموه وتربيته، وكيف يأخذ الجسد منها قوة للأربعة عناصر[٥١] التي يتركب منها.

٣ – أمَّا تَدْبِير السيرة الرُّوحانية فهو فِعل بمعزلٍ عن الحواس. وهو الذي كتب عنه الآباء: إن عقول القديسين إذا ما قبلت التاؤريا التي هي التصور الأقنومي، عندئذ ترتفع وتزول كثافة الجسم، ومن ذلك الحين تصير نظرتهم نظرة روحانية. لأن التصور الأقنومي يشير إلى تلك الحالة التي خُلقت عليها طبيعة الإنسان الأَولى (أي الرؤية التي كان يمتلكها الإنسان قبل السقوط). ومن هذا التصور الأقنومي (أي الأصلي) يرتقي العقل بسهولة لكي يتحرك بأفهام المعرفة التي تُسمّى «معرفة وحدانية» وتفسيرها بكل وضوح هو الدهش والتعجب بالله. وهذا هو ترتيب سيرة ذلك التَدْبِير الْعَظِيم المزمع، الذي يُعطَى في حرية الحياة التي لا يشوبها موت،

[٥١] حسب الاعتقاد القائمي وه النار والهوا والما والتراب.

في حياة ما بعد القيامة. لأن الطبيعة البشرية هناك لا تكف أبداً ولا تنقطع من الدَهَش الدائم بالله، ولا تتصور أي شيء البتة من الخلائق أو ترتبط به. لأنه لو كان شيءٌ آخر مشابهاً لله، لكان العقل يتجه إليه فيتحرك تارة في الله وتارة أخرى في ذلك الشيء. ولكن بما أن جمال كل المخلوقات في التجديد المزمع يكون أحطّ من جماله تعالى، فكيف يمكن للعقل أن يتحرك بتصوره خارجاً عن جمال الله؟ فماذا يا تُرى يُحزن مثل هذا الإنسان؟ هل يُحزنه الموت أو ثقل الجسد أو عوز حاجات الطبيعة أو التغيرات الموجودة في العناصر أو حديث مفاجئ مع إنسان أو ضجر صعب ومضنٍ أو تعب جسدي شديد؟ كلا بأي حال. فهذه الأمور كلها وإن كانت موجودة في العالم، إلا أنه حين يُرفع حاجز الآلام عن عيني العقل ويشخص الإنسان في ذلك المجد، فإنه في الحال يتعالى عقله بالدهش. ولكن لولا أن الله قد وضع حداً في هذه الحياة الحاضرة لمثل هذه الأمور (أي الدهش والتعجب بالله)، لكان يحق للإنسان أن يتباطأ فيها طيلة حياته، ولو أمكنه لا يخرج من هناك على الإطلاق. فكم بالأكثر هناك حيث تكون هذه الأشياء (التي تحزن الإنسان) غير موجودة؛ لأن تلك الفضيلة غير محدودة، وسوف نكون بالفعل قائمين داخل المنازل الملوكية، إن كنا قد تأهلنا لذلك بواسطة سيرتنا!

٤ – إذاً، كيف يمكن للفكر أن يخرج ويبتعد من رؤية عجائب الله وينشغل بأمور أخرى؟ الويل لنا، لأننا لا نعرف نفوسنا، ولا لأي سيرة قد دُعينا؛ ولأننا نعتقد أن هذه الحياة الزائلة والعالم بكل أحزانه وضيقاته وشروره وراحاته، شيء موجود باقٍ.

صلاة:

٥ – ولكن، يا مسيحي، القدير وحدك، «طوبى للإنسان الذي قد حظي بمعونتك ووضع مصاعد في قلبه». اردد، يا رب، وجهنا من العالم بالاشتياق إليك إلى أن ننظره كما هو، فلا نثق بالظل كأنه حق. وإذ قد جدّدتنا يا رب، جدِّد في فكرنا الاجتهاد والحرص قبل الموت، لكي نعلم قبل خروجنا الغرض من دخولنا إلى هذا العالم وخروجنا منه؛ لكي إذا أكملنا العمل الذي دُعينا إليه بحسب قصدك بوضعنا أولاً في هذه الحياة، نرجو بفكر مملوء ثقة أن نقبل تلك العظائم، بحسب ما بشَّرتْ به الكتب، تلك المواعيد التي أعدَّتْها محبتك لنا في التجديد الثَّانِي، الأمور التي يبقى ذكرها محفوظاً في الإيمان بأسرارك. والمجد لك يا رب، آمين.

المَيْمَر الْخَامِس والعشرون(٥٢)

في طهارة الجسد وطهارة النفس وطهارة العقل

١ – طهارة الجسد هي النقاوة من دنس اللحم. وطهارة النفس هي الانعتاق من الآلام الخفية الكامنة في الفكر. أمَّا طهارة العقل فتكون باستعلان الأسرار، لأنه به يتطهر من كل حركة تقع تحت الحسِّ بسبب كثافتها. والأطفال الصغار هم أطهار بالجسد وبغير آلام بالنفس، إلا أنهم لا يُوصفون بطهارة العقل. لأن طهارة العقل هي الكمال بوجود التاؤريات السمائية التي يتحرك بها العقل، بمعزلٍ عن الحواس، بالقوات الرُّوحانية التي للعوالم العلوية باندهاش يفوق الوصف. وهذه القوات تتنوع درجات شفافيتها وتتميز بخدمتها غير المنظورة بحركة الاستعلانات المختلفة المتواترة في كل الأوقات.

المَيْمَر السَّادِس والعشرون

يتضمن أقوالاً نافعة مملوءة من حكمة الرُّوح(٥٣)

١ – الإيمان هو باب الأسرار. وكعمل الأعين الجسدية بالنسبة إلى الأمور المحسوسة، هكذا هو عمل الإيمان بالنسبة للكنوز الخفية التي تُرى بعيني العقل. فنحن – كما يقول الآباء – لنا عينان نفسانيتان مثل عيني الجسد، ونحتاج إلى كل وَاحِدة منهما، إلا أن استعمالهما (بالنسبة للرؤية الإلهية) ليس وَاحِداً. فبالعين الوَاحِدة ننظر خفايا مجد الله المخفية في الطبائع (أي الكائنات)، أعني أننا نرى قوته وحكمته وسياسته وقصده الأزلي (من نحونا)، وندرك ذلك كله من أنواع تَدْبِيره لنا. وكذلك نرى بها الطغمات السمائية التي تتعبد لله مثلنا. أمَّا العين الأخرى فنعاين بها مجد طبيعته المقدسة. وحين يشاء الله أن يدخلنا إلى الأسرار فإنه يفتح بحر الإيمان في فكرنا.

---

(٥٢) هذا المَيْمَر يتبع المَيْمَر السابق وقد تبع بعض المخطوطات.

(٥٣) هذا المَيْمَر والذي يليه كانا مَيْمَراً واحداً في المترجمات الأخرى؛ ولكن الاختلاف حدث شُرِّح أن هذا يتضمن عدة أقوال نافعة من الآباء والمعلمين.

المَيْمَر السَّابع والعشرون

في التوبة والمحبة

١ – التوبة قد أُعطيت للناس كنعمة فوق نعمة؛ لأن التوبة هي الميلاد الثَّانِي من الله. وما قبلناه كعربون بالإيمان في المعمودية نقبل موهبته بالتوبة. التوبة هي باب الرحمة المفتوح لطالبيه، وبتوسط هذا الباب ندخل إلى الرحمة الإلهية. ولسنا نجد رحمة خارجاً عن هذا الباب والمدخل؛ لأننا كلنا قد أجرمنا، كما يقول الكِتَاب الإلهي، ونتزكى مجاناً بنعمته.

والتوبة هي النعمة الثَّانِية، وتتولد في القلب من الإيمان والخوف. والخوف هو عصا أبوية (تؤدبنا) وترشدنا إلى أن نصل إلى فردوس عدن الرُّوحاني؛ وإذا أوصلتنا إلى هناك تتركنا وتعود.

٢ – الفردوس هو حب الله الذي فيه نعيم كل الخيرات، حيث اغتذى السعيد بولس الرسول بالغذاء الذي يفوق الطبيعة. وعندما ذاق من شجرة الحياة الموجودة هناك، صرخ قائلاً: إن الله قد أعدَّ لمحبيه ما لم تنظره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر. من هذه الشجرة مُنع آدم بتوسط مشورة الشيطان. وشجرة الحياة هي محبة الله التي خاب منها آدم، فلم يعد يرى فرحاً بعد ذلك، بل مكث يعمل ويشقى في أرض الشوك. والمحرومون من محبة الله – حتى ولو سلكوا بالعدل والبر – يأكلون بأعمالهم خبز العرق الذي أُمر بأكله الإنسان المخلوق أولاً بعد سقطته. وإلى أن نجد المحبة فعملنا هو في أرض الشوك، وفي وسط الشوك نزرع ونحصد ولو كان زرعنا زرع العدل (أو البر)، وسيظل الشوك يَخِزْنا كل حين ومهما تبررنا فإننا بعرق وجهنا نعيش. أمَّا إذا وجدنا المحبة، فإننا سنأكل الخبز السمائي ونغتذي به دون عرق أو تعب. والخبز السمائي هو المسيح النازل من السماء والواهب الحياة للعالم، وهذا هو غذاء الملائكة.

٣ – مَن وجد المحبة فهو يأكل المسيح كل ساعة وبه يصبح غير مائت؛ لأنه يقول: «من يأكل من هذا الخبز الذي أنا أعطي لا يرى الموت إلى الأبد». لسعيدٌ هو الذي يأكل خبز المحبة الذي هو يسوع! لأن الذي يأكل من المحبة يأكل المسيح إله الكل، بهذا شهد يوحنا وقال: «إن الله محبة». إذاً، من يحيا في المحبة في هذا العالم (يجتني ثمر هذه الحياة من الله)، ويستنشق نسيم القيامة من ههنا؛ لأنه بهذا النسيم يتنعم الأبرار في القيامة. المحبة هي الملكوت الذي وعد به رَبَّنَا الرسل وعداً سرياً، أعني أن يأكلوا في ملكوته. لأننا حين نسمعه يقول: «تأكلون وتشربون في مائدة ملكوتي»، ما الذي نظن أننا سنأكله إن لم تكن المحبة؟ المحبة تكفي لتغذية الإنسان عوضاً عن المآكل والمشارب. هذا هو الخمر المفرِّح قلب الإنسان، ومغبوطٌ من يشرب منه. من هذا الخمر شرب الفسقة الوقحون فصاروا ذوي عفاف وحياء، وشرب السكيرون منه فصاروا صوَّامين؛ وشرب منه الخطاة فنسوا سبل المعاثر. الأغنياء شربوا منه فأحبوا الفقر، والفقراء فاغتنوا بالرجاء، والمرضى فصحّوا، والضعفاء فتقووا، والعوام فصاروا حكماء.

٤ – كما أنه لا يمكن عبور البحر الْعَظِيم بدون مركب، هكذا لا يمكن لإنسان أن يعبر إلى المحبة بغير الخوف. فهذا البحر المنتن الموضوع بيننا وبين الفردوس العقلي، يمكننا أن نعبره بواسطة سفينة التوبة التي مجاديفها هي الخوف. وإن لم يكن جدَّافو الخوف هم الذي يسوسون سفينة التوبة التي بتوسطها نعبر بحر هذا العالم إلى الله فإننا سنغرق في البحر المنتن. فالتوبة هي السفينة والخوف هو مدبِّر السفينة والمحبة هي الميناء الإلهي. وهكذا يُجلسنا الخوف في مركب التوبة ويقطع بنا بحر العالم المنتن إلى الميناء الإلهي التي هي المحبة، ويرشدنا إلى ذاك الذي شاهده جميع المتعبين وثقيلي الأحمال بالتوبة (وأقبلوا إليه) فاستراحوا. فنحن متى أدركنا المحبة نكون قد وصلنا إلى الله، وقد أنهينا طريقنا وجزنا إلى جزيرة العالم الكائن هناك، حيث الآب والابن والرُّوح الْقُدُس الذي له المجد والعزة، وإياه نسأل أن يجعلنا أهلاً لمجده ومحبته بتوسط مخافته، آمين.

المَيْمَر الثامن والعشرون

في عظمة مقدار المعرفة والإيمان

١ – إنَّ المعرفة نوعان: معرفة تسبق الإيمان، ومعرفة تتولد منه. والمعرفة التي تسبق الإيمان هي معرفة طبيعية، أمَّا التي تتولد منه فهي معرفة روحانية. وما هي المعرفة الطبيعية؟ هي المعرفة التي تميز بين الخير والشر، وتُسمَّى إفرازاً طبيعياً، وبواسطتها نعرف أن نميز بين الخير والشر (بالفطرة) من غير تعلُّم. لأن الله قد غرسها في الطبيعة الناطقة، وهي تنمو وتزيد بالتعليم والتلقين، ولا يوجد أحد ليست له هذه المعرفة الطبيعية. فقوة المعرفة الطبيعية التي للنفس الناطقة هي التمييز بين الخير والشر، وهذا التمييز يظل عاملاً فيها على الدوام. والعادمون التمييز هم دون طبقة الطبيعة الناطقة، أمَّا الذين يمتلكونه فهم قائمون باستقامة في طبيعة نفوسهم ولم ينقصهم شيء مما أُعطي لهم من الله إكرامًّا لطبيعتهم الناطقة. أمَّا الذين ضيَّعوا هذا التمييز الذي يفصل بين الخير والشر فإن النبي يعيِّرهم قائلاً: «كان الإنسان في كرامة فلم يفهم». فكرامة الطبيعة الناطقة هي التمييز الذي يفرز الخير من الشر، والذين أضاعوه فقد شبّههم، بحقٍّ، بالبهائم التي لا فهم لها ولا نطق ولا تمييز. بهذا التمييز يمكننا أن نجد طريق الله. وهذه هي المعرفة الطبيعية التي تسبق الإيمان، كما قلنا، وهي الطريق إلى الله، وبها يقدر الإنسان أن يفرِّق بين الخير والشر وبين الجيد والرديء، وأن يقبل الإيمان. وقوة الطبيعة تشهد بأنه يليق بالإنسان أن يؤمن بمُبدع الكل إلى الوجود، وبأقوال وصاياه، وأن يعمل بحسبها. ومن هذا الإيمان يتولد خوف الله. ومتى تبع الإنسان وصايا الله (وجمع بين عمل البر وبين مخافة الله، وتقدم في العمل بها قليلاً، تتولد فيه المعرفة الرُّوحية).

٢ – إذاً فالمعرفة الطبيعية التي غرسها الله في طبيعتنا هي التمييز بين الخير والشر، وهذه المعرفة الطبيعية هي تقنعنا بأنه يجب علينا أن نؤمن بالله خالق الكل. والإيمان ينشيء فينا الخوف، والخوف يضطرنا إلى التوبة والعمل. وهكذا تُعطَى للإنسان المعرفة الرُّوحية التي هي الإحساس بالأسرار، وهذا الإحساس يلد فيه إيمان الرؤية الإلهية الحقيقية. إلا أن المعرفة الرُّوحية لا تتولد ببساطة من مجرد الإيمان وحده؛ لأن الإيمان الساذج (أي البسيط) لا يلد المعرفة الرُّوحية، بل إن الإيمان يلد مخافة الله، وبعمل الخوف المستمر فينا تتولد المعرفة الرُّوحية كما قال القديس يوحنا ذهبي الفم: «لأن الإنسان حين يقتني إرادة تابعة لخوف الله وللتفكير المستقيم فإنه بسهولة يحظى باستعلان الخفايا». ويشير باستعلان الخفايا إلى المعرفة الرُّوحية.

٣ – إلا أنَّ مخافة الله لا تلد هذه المعرفة الرُّوحية؛ لأن الشيء الذي ليس هو موضوع في الطبيعة لا يمكن أن يولد منها، بل إن هذه المعرفة الرُّوحية تُعطَى إنعاماً من خلال عمل خوف الله. وإذا فحصتَ جيداً عمل خوف الله لوجدتَ أنه هو التوبة، ومن هذه التوبة تنشأ المعرفة الرُّوحية. وهذا هو ما قلناه أولاً بهذا الخصوص: إننا قبلنا في المعمودية عربونه ونقبل

بواسطة التوبة نعمته وموهبته، وهذه الموهبة التي قلنا إننا سنأخذها بواسطة الإقلاع عن الزلات (أي بالتوبة) هي المعرفة الرُّوحية التي تُعطَى إنعاماً من أجل عمل خوف الله. لكن المعرفة الرُّوحية هي الإحساس بالأمور الخفية. ومتى أحسَّ الإنسان بهذه الأمور التي لا تُرى، وهي أمور فاضلة وجليلة جداً، وهي التي يُستمد منها اسم روحانية المعرفة؛ حينئذ يتولد من الإحساس بها إيمان آخر، لا يناقض الإيمان الأَوَّل بل يُثبِّته ويؤكده. وهذا ما يسميه الآباء: «إيمان الرؤية الإلهية»؛ هناك كان السمع، أمَّا الآن فالنظر الإلهي؛ والنظر مؤكد أكثر من السمع.

٤ – هذه الأمور كلها إنما تتولد من المعرفة الموجودة في الطبيعة والتي تميِّز الخير من الشر، وهي زرع الفضيلة الصالح كما قلنا. فإذا سترنا هذه المعرفة الطبيعية بإرادتنا المنعكفة على اللذات فإننا نخيب من كل هذه الخيرات. والمعرفة الطبيعية يتبعها وخز دائم في الضمير، وتذكّر متصل للموت، وهمّ من جهة الخروج من العالم والدينونة المزمعة، وحزن وكآبة من أجل الذنوب السالفة، واجتهاد لائق بواجباتنا، وخوف الله واستحياء من الطبع، وتأمل الطريق المشتركة (أي طريق الموت) والاهتمام بزادها وطلبة بنوحٍ إلى الله من أجل أن يكون دخولنا من هذا الباب نِعْمَ الدخول، فهو مِعبر الطبيعة البشرية جمعاء؛ والتهاون بالعالم (أي الازدراء به)، مع حرص واجتهاد كثير لأجل الفضيلة. وهذه كلها موجودة في المعرفة الطبيعية.

٥ – إذاً فليميز الإنسان أعماله ويقارنها بهذه الأمور؛ لأنه متى وجد نفسه في وسطها فهو سائر في الطريق الإلهية، ومتى تجاوزها ووصل إلى المحبة يكون قد فاق حدود الطبيعة، وعندئذ يزول منه اجتهاد الخوف والتعب والعناء في كل الأمور. وهذه الأشياء هي لوازم المعرفة الطبيعية، ونحن نجدها في أنفسنا إذا لم نُغطِّ المعرفة بإرادتنا المُحبة للَّذة، وسوف نوجد عائشين فيها إلى أن ندرك المحبة التي تعتقنا منها كلها. إذاً، فليفحص الإنسان نفسه من جهة هذه الأشياء التي ذكرناها ويقيس أموره في أي منها هو سائر: هل في تلك الأمور الموجودة في الطبيعة أو في التي فوق الطبع أو في التي خارج الطبع. فمن هذه العلاَّمَات الواضحة التي تقدم ذكرها يستطيع الإنسان بسهولة أن يدبِّر كل حياته. فإذا لم يجد نفسه في الأمور الطبيعية التي قد حددناها، ولا في التي فوق الطبيعة، فمن الواضح أنه منبوذ ومُلقى في التي هي خارج الطبع.

المَيْمَر التاسع والعشرون

يشتمل على معانٍ نافعة وعظات مفيدة كان القديس قد ذكرها في المحبة لَمَنْ كانوا يسمعونه باتضاع

١ – لا يوجد فكر صالح يحل في القلب إلا ويكون من النعمة الإلهية. ولا يوجد فكر خبيث يدنو من النفس إن لم يكن على سبيل التجربة والامتحان. الإنسان الذي قد عرف مقدار ضعفه وعجزه يكون قد وصل إلى كمال الاتضاع. مرشد إنعام الله إلى الإنسان هو الشكر المتحرك في القلب على الدوام. ومرشد التجارب إلى النفس هو التذمر المتحرك في القلب بصفة دائمة. إن الله يحتمل كل ضعفات الإنسان، لكنه لا يحتمل إنساناً يتذمر دائماً دون أن يؤدبه، والنفس البعيدة من إشراق المعرفة تُوجد في هذه المعاني (أو أسيرة للتذمر). الفم الذي يشكر دائماً يقبل البركة من الله تعالى، والقلب الذي يلازم الحمد والشكر تحل فيه النعمة. الاتضاع يسبق النعمة، والعظمة تتقدم الأدب. الإنسان المتعظم بالمعرفة في ضميره يُهمَل فيسقط في التجديف، ومن يتباهى بعمل الفضيلة يُترك فيسقط في الزنا، والمترفع (أي المتعظم) بحكمته يسقط في فخاخ الجهل المظلمة.

٢ – الإنسان البعيد من ذكر الله كليةً هو المهموم دائماً في فكره بإيقاع السوء بقريبه. والذي من أجل مداومته ذكر الله يكرم كل إنسان، فإنه يتلقى معونة من كل إنسان بإشارة الله الخفية. والذي يدافع عن المظلوم يجد الله نصيراً مناضلاً عنه. من عاضد قريبه يعاضده الله بذراعه. ومن سبَّ أخاه برذيلته كان الله تعالى له سابَّاً ومبكِّتاً. من يصلح ويقوِّم أخاه في قلايته وعلى انفرادٍ فهو يطبب شرَّه الخاص به؛ أمَّا مَن بكَّت واتهم إنساناً في وسط جماعة فهو إنما يُقوّي جراحاته (فتصير أردأ من الأَوَّل). ومن شفى أخاه خفية فقد أوضح قوة محبته؛ ومن فضحه في أعين رفاقه وأصدقائه فقد دلَّ على قوة حسده. الصديق المحب الذي يبكِّت ويؤنِّب خفيةً هو طبيبٌ حكيم، وأمَّا الذي يطبب أخاه أمَّام أعين كثيرين فهو في الحقيقة مُستهزِئ ومعيِّر.

٣ – علامة الرحمة والشفقة هي المسامحة عن كل ذنب؛ وعلامة الفكر والضمير الرديء هي لوم المذنب (ومنازعة المخطئ). الذي يؤدِّب بقصد التطبيب إنما يقود إلى الصحة وبمحبة يؤدِّب؛ أمَّا من يطلب الانتقام فهو فارغ من المحبة. إن الله تبارك اسمه إنما يؤدِّب بمحبة وليس على سبيل الانتقام، حاشا أن يكون كذلك، فهو إنما يطلب أن يشفي صورته، وهو لا يحتفظ بالغضب للوقت (الذي يصبح فيه التقويم مستحيلاً) لأنه لا يطلب الانتقام لنفسه. فهذا هو دليل المحبة؛ لأن تأديب المحبة هو للتقويم وليس بهدف العقاب أو المجازاة. الإنسان الصدِّيق الحكيم يشبه الله، لأنه لا يؤدب إنساناً قط لأجل الانتقام عن شرِّهِ وذلَّته، بل لكي يصلحه ويقوِّمه، أو لكي يخاف الآخرون. وإن لم يكن الأدب على هذه الصفة فهو ليس بأدب. لأن قصد الله إنما هو تقويم الناس لا غير؛ فلو أن ذلك يبطل كرامة حريتنا لمَا كان يستعمل الانتهار والتأديب في تقويمنا. لأننا إذا فعلنا الصلاح بحرية إرادتنا نالت النطقية (أي طبيعتنا الناطقة) بهجةَ وجهٍ

وكرامة. ولهذا أيضاً نسجد لعظم صلاحه؛ لأنه[٥٤] يريدنا أن نبتهج ونُسرَّ ليس كما لو كان بما يخصه، بل أن نفرح كما لو كان ذلك مكافأة أعمالنا نحن. ومع أن كل شيء هو من صلاحه وهو من عنده، لكنه لا يُسرُّ أن نحسب ذلك له، بل أن نفرح بما هو له كما لو كان لنا!

٤ – من يفعل الخير من أجل المكافأة المزمعة فإنه بسرعة يتغير. والذي قوة معرفته تجعله يدهش ويتعجب بنظر (أي تأمل) محبة الله، هذا ولو تقطع جسده فهو لا يتعظم بفكره ولا ينثني عن الفضيلة أبداً. الذي يستنير عقله من جهة إحسانات الله التي يُغدقها علينا، هذا قد بلغ إلى عمق الاتضاع نفساً وجسداً. لأن الإنسان قبل أن يدنو من المعرفة يظل متقلباً في سيرته صعوداً وهبوطاً؛ أمَّا إذا دنا منها فإنه كله يتعالى في كل وقت ويظل مرتفعاً؛ ومهما ارتفع فإن ارتقاءه في المعرفة لن يكمل إلى أن يأتي دهر المجد، وحينئذ يأخذ كل غناه. لأنه بمقدار ما يدركه الإنسان من الكمال عند الله تعالى، هكذا يزداد اجتهاده في اتِّباع أثره. أمَّا في ذلك العالم الحقيقي فسيريه الله وجهه، وليس ذات أزلَيْتَه. لأن الأبرار بمقدار ما يبلغون إليه هنا من تصوره (بالرؤية الإلهية)، فبذلك المقدار ينظرون صورته كما في لغز وكمثل الصورة التي تتشكل بالمرآة؛ أمَّا هناك فإنهم ينظرون استعلان الحق بالحقيقة.

٥ – إن النار المشتعلة في حطب يابس بصعوبة تنطفئ، والحرارة الإلهية التي تحل في قلب الإنسان الذي يهجر العالم لا يخمد اضطرام لهيبها، بل تكون أشد اشتعالاً من النار. إن الخمر إذا دخلت قوتها إلى الأعضاء جعلت العقل ينسى حقائق الأمور، وذكر الله إذا ما تأسس وثبت في النفس فإنه يبيد من القلب كل ذكر يحدث عن الأشياء المنظورة. العقل الذي قد وجد حكمة الرُّوح هو كإنسان وجد سفينة معدَّة تماماً في البحر، فإذا جلس فيها قطعت به بحر هذا العالم وأوصلته إلى جزيرة العالم الجديد. هكذا أيضاً الإحساس بأمور الدهر الآتي في هذا العالم يشبه جزيرة صغيرة في البحر كل من دنا منها لن يقاسي فيما بعد هول أمواج خيالات هذا الزمان.

٦ – إن التاجر إذا أنهى عمله، فهو يجتهد أن يمضي إلى منزله، والرَّاهِبُ بمقدار ما يعوزه من زمان لتكميل عمله، هكذا يحزن ويقلق عند تفكيره بالرحيل من الجسد، ولكنه إذا أحسَّ في نفسه أنه قد افتدى وقته وأخذ العربون، فعندئذ يشتاق إلى العالم الجديد. إن التاجر ما دام في البحر فالخوف متملك في أعضائه لئلا تتعالى عليه الأمواج فيغرق ويخيب أمله من عمله؛ والرَّاهِبُ ما دام في بحر هذا العالم فالخوف مُستولٍ على سيرته لئلا تفاجئه عاصفة وتصيبه أذية فيهلك عمله الذي تعب فيه منذ شبابه حتى شيخوخته. فالتاجر عينه إلى البَرِّ، والرَّاهِبُ يرمق ساعة الموت.

٧ – النوتي ينظر إلى النجوم متى كان سائراً في وسط البحر، وبحسب ما تدلّه يسير ويوجه سفينته إلى أن يصل إلى الميناء؛ والرَّاهِبُ ينظر إلى الصلاة لأنها تشدده وتقوِّم مسيرته إلى الميناء الذي ينشده. يشخص الرَّاهِبُ بالصلاة كل حين لكي تدلّه على جزيرة يربط بها سفينته

---

[٥٤] من هنا حتى نهاية الفقرة مأخوذ عن الترجمة الإنجليزية.

لكي يتزود بما يحتاج إليه، مثل النوتي، ثم يوجه مسيرته إلى جزيرة أخرى. هكذا هي مسيرة الرَّاهِبُ ما دام في هذه الحياة، فهو ينتقل من جزيرة إلى جزيرة، أعني من معرفة إلى معرفة، وبتغير الجزائر يجد معارف مختلفة حتى يخرج من بحر هذا العالم ويبلغ المدينة الحقيقية التي سكانها لا يعاودون الحركة والمسير، بل كل وَاحِد يستريح في غِناه (أي بثروته التي اقتناها). طوبى لمن لم تضطرب مسيرته في هذا العالم الفاني وسط هذا البحر الْعَظِيم! وطوبى لمن لم تنكسر سفينته فيه بل وصل إلى الميناء بفرح وابتهاج!

٨ – إن الذي يَسبح عارياً يغوص في البحر إلى أن يجد اللؤلؤة، والرَّاهِبُ الحكيم يسير في هذه الدنيا عارياً (أي متجرداً من كل شيء) إلى أن يجد فيها الدرَّة الحقيقية التي هي يَسُوع الْمَسِيح، وإذا ما وجده لا يطلب أن يقتني معه شيئاً آخر من الموجودات. الجوهرة تُصان في الخزانة، ونعيم الرَّاهِبُ محفوظ داخل السكون والهدوء. إن الْعَذْرَاء تتأذّى بالمجامع والمحافل، وفكر الرَّاهِبُ تضرُّه المحادثات مع الكثيرين ومناظرهم. الطائر يهرب من كل مكان ويسرع إلى وكره ليفرخ، والرَّاهِبُ الحكيم صاحب التمييز يسرع إلى قلايته ليصنع فيها ثمر الحياة. الحية إذا ترضض جسمها كله فإنها تحفظ رأسها وحده، والرَّاهِبُ الحكيم يحرس ويصون إيمانه كل حين، فهو رأس حياته. السحاب يغطي الشمس، والكلام الكثير يبلبل النفس التي أشرفت على الاستنارة بالنظر الإلهي في الصلاة.

٩ – إن الطائر الذي يدعى هيرون (أي اللقلق) يجذل ويفرح – حسب قول الحكماء – حين يبتعد عن الأمَّاكن الآهلة ويمضي إلى مكان قفر ويسكن فيه؛ هكذا نفس الرَّاهِبُ تقبل الفرح السمائي عندما تبتعد عن الناس وتمضي وتسكن في بلدة السكون وتنتظر هناك وقت خروجها. وقد ذُكر عن الطائر المعروف بالسيرين أن كل من سمع تلحينه وتغريده يأسره صوته فيهيم وراءه في البرية حتى أنه من لذة اللحن ينسى حياته فيسقط ويهلك (ويموت)! وهذا يشبه ما يحدث مع النفس؛ لأنه إذا حلَّت فيها الحلاوة السمائية، فإنها من عذوبة لحن أقوال الله التي تصل إلى الإحساس العقلي تمضي بجملتها وراءه حتى أنها تنسى حياتها الجسمانية، وتحرم الجسد من شهواته، وترتقي من هذه الحياة إلى الله. حياة هذا العالم لذيذة عند من يحياها بحسب شهوات الجسد ولكن لذتها لا تقارن بلذة من ينفصل عنها بالشهوة في الله.

١٠ – الشجرة لن تأتي بأغصان جدد إن لم تطرح عنها أولاً الورق العتيق؛ والرَّاهِبُ إن لم يطرح من قلبه أولاً ذكر أموره وأفعاله السالفة ويبتعد من كل ملاقاة، فلن يقدم ليَسُوع الْمَسِيح أثماراً جديدة وأغصاناً غضَّة. الهواء يسمِّن (أو يُنضج) الثمار والاهتمام بأمور الله يسمِّن أثمار النفس. يقال إن اللؤلؤة تتولد في الصَدَفة إثر شرارة من البرق ثم تأخذ مادتها من الهواء، فإن لم يحدث هذا تظل الصَدَفة جسماً مجرداً. وقلب الرَّاهِبُ إن لم يقبل المادة السمائية بواسطة الأفهام الواعية، فإن عمله يبقى عقيماً وليس له ثمر عزاء داخل الصدَفة. أثمار الشجر عَفِصَة ومُرَّة جداً في مذاقتها، ولا تصلح للأكل حتى تقع فيها الحلاوة من الشمس؛ هكذا الأعمال الأَولى للتوبة تكون مُرَّة جداً لا تعطي أي عزاء للراهب حتى تقع فيها حلاوة التاؤريا (أي النظر

الإلهي) وتنقل القلب من الأرضيات بحيث ينسى حتى ذاته.

١١ – الكلب الذي يلحس المبرد يشرب من دمه ولا يحس بالمضرة لسبب حلاوة دمه؛ والرَّاهِبُ الذي ينثني إلى شرب كأس المجد الباطل فهو إنما يشرب من نفس حياته ولا يحس بمضرته بسبب العذوبة (الزائلة) التي تحدث له كل ساعة. مديح العلمانيين يشبه صخرة مستورة في البحر لا يعلم بها النوتي إلى أن تصطدم بها سفينته وتُثقب من أسفلها وتمتلئ ماءً، هكذا يفعل المجد الفارغ للإنسان إلى أن يُغرقه ويُهلكه. والآباء يقولون إن الآلام التي سبق أن غلبتها النفس وطردتها تعود إليها مرة أخرى بفعل المجد الباطل. غمامة صغيرة تستطيع أن تحجب قرص الشمس، وبعد عبورها تعود للشمس حرارتها؛ وضجر يسير يظلِّل النفس، والفرح بعد زواله عظيم. المغنِّي الذي يعزف بالناي لا يشبع بصوت ألحانه، وعندما يتوقف عن العزف يشعر بألم الجوع الشديد في معدته؛ هكذا فإن حلاوة (ترتيل) الكلام بدون أعمال لا تنفع الإنسان، لأنه إذا ما توقف عنها يخزى بالأكثر. كما أنه لا يمكن لإنسان إذا شرب خمراً أن لا تفوح رائحتها من فمه، هكذا أيضاً لا يمكن أن يؤهَّل إنسان للعزاء الرُّوحاني بتَدْبِير سيرته ولا تظهر غيارات أموره للحكماء. القلب الذي قبِل الزرع السمائي يتغير في كلامه ويتغير في تفكيره ويتغير في سيرته ويتغير في حواسه. ومثل هذا الإنسان يصبح مختلفاً في كل شيء عن بقية الناس، ويشبه إنساناً كان نائماً ثم انتبه من نومه.

١٢ – لا تقترب من أقوال الأسرار الموجودة في الأسفار الإلهية دون أن تصلي وتلتمس معونة من الله تعالى، بل قل: «يا رب جُد عليَّ بإحساس القوة الموجودة فيها»! اِعتبر أن الصلاة هي مفتاح الفهم الحقيقي للكتب الإلهية. إذا أردتَ أن تدنو من الله بقلبك فأَظهِر له أولاً شوقك بالأمور (أو الأعمال) الجسدانية؛ فمنها بداية السيرة لأنها عظيمة. والقلب يقترب جداً من الله بعوز الحاجات (الجسدية) والاكتفاء بنوع وَاحِد من الغذاء والاجتهاد في الأعمال؛ فالرب قد وضع من هذا أساساً للكمال. اِعتبر أن البطالة هي بداية ظلمة النفس، وأن الأحاديث والمجادلات ظلمة فوق ظلمة، وأن الثَّانِية (أي الأحاديث) تنشأ عن الأَولى (أي البطالة)، لأنه إذا كانت كلمات المنفعة التي تقال بغير نظام تصنع ظلمة، فكم بالأكثر تصنع الأحاديث الباطلة؟ إن النفس تتبهدل بكثرة الأحاديث المطوَّلة حتى ولو كانت في خوف الله. اعتبر أن ظلمة النفس هي التي ينشأ عنها التشويش؛ وظلمة النفس تتولد من رداءة نظام السيرة وعدم الترتيب.

١٣ – الاعتدال في السيرة بقياس والمداومة زماناً طويلاً ينيران القلب ويطردان التشويش. إن اضطراب وتشويش الذهن الحادث عن رداءة نظام السيرة يصنع في النفس ظلمة، والظلمة تجلب الكدر. السلام يَنتج من النظام وحسن التَدْبِير، ويُولِّد النور في النفس؛ ومن السلام يتولد الجو الصافي النقي في العقل (ويجعله مبتهجاً). وعلى قدر اقتراب القلب من الحكمة هكذا يقبل الفرح بالله. ويمكن التمييز بين حكمة الرُّوح وحكمة العالم بما يحسّه الإنسان في نفسه: أمَّا في حكمة الرُّوح فإن الصمت يستولي على النفس، وأمَّا في حكمة العالم فإن ينابيع الطياشة والتبجح (أي الافتخار والتباهي) تفيض فيها. فعندما تجد نفسك حكمة الرُّوح فإنك تمتلئ

اتضاعاً كثيراً ووداعة ويملك سلام على جميع أفكارك؛ فتهدأ أعضاؤك من التشويش ويزول التعدي على النظام. أمَّا بعد وجود حكمة العالم فإن عقلك يتعظم وتحصل فيه أفكار وظنون ومعانٍ مختلفة لا توصف، ووقاحة وتصلف في الحواس.

١٤ – لا تظن أن الإنسان المقيد بأمور جسدانية يمكنه أن يقتني دالة في الصلاة أمَّام الله. نفس البخيل تعدم الحكمة، أمَّا النفس الرحيمة فتنال حكمة من الرُّوح. وكما أن الزيت يُغذِّي نور المصباح، هكذا الرحمة تغذي المعرفة في النفس. المفتاح الذي به تدخل المواهب الإلهية إلى القلب يُعطَى بمحبة القريب؛ وبمقدار تحرر القلب من رباط الجسد هكذا ينفتح قدامه باب المعرفة. عبور النفس من عالم إلى عالم آخر هو قبولها للفهم (أو البصيرة). إن محبة القريب حسنة وممدوحة إذا لم يصرفنا الاهتمام بها عن محبة الله! وما أحلى محادثة الإخوة الرُّوحانيين إذا قدرنا أن نحفظ معها المحادثة مع الله! جيدٌ إذاً هو الاهتمام بذلك على قدر ما يسمح به الواجب طالما كان ذلك لا يعطلنا عن العمل الخفي والسيرة الداخلية والحديث (أو الهذيذ) الدائم مع الله؛ لأن تشويش الحديث الدائم مع الله يتسبب عن الاهتمام الكثير بالقريب، ذلك لأن العقل لا يستطيع أن يشتغل بنوعين من الحديث في آن وَاحِد.

١٥ – إن مفاوضة العلمانيين تسبب التشويش للنفس التي هجرتهم من أجل عمل الله. الحديث الدائم حتى مع الإخوة الرُّوحانيين يؤذي؛ أمَّا أهل العالم فمجرد منظرهم عن بُعد يؤذي! المصادمات التي تعرض للحواس لا تعوق العمل الجسدي، أمَّا من يريد أن يقطف (أو يقتني) المسرة من سلامة فكره بواسطة العمل الخفي، فإن مجرد سماع الأصوات فقط خلواً من النظر تزعج هدوء قلبه. الأمَّاتة الداخلية لا تتقوم بدون بطالة عمل الحواس. تَدْبِير السيرة الجسدانية تتطلب إيقاظ الحواس، أمَّا تَدْبِير السيرة النفسانية فتحتاج إلى تيقظ القلب وانتباهه.

١٦ – كما أن النفس، في طبيعتها – هي أسمى من الجسد، فإن عملها هو أيضاً أفضل من عمله. وكما أن خلقة الجسد في البداية سبقت (نفخة) النفس، فهكذا الأعمال الجسدانية تسبق عمل النفس. إن السيرة الصغيرة الدائمة هي قوة عظيمة؛ لأن قطرة الماء اللينة الصغيرة المتساقطة باستمرار تثقب صخرة صماء!

١٧ – عندما يقترب نُهوض الإنسان الرُّوحاني فيك، يتيقظ فيك (عمل) الأمَّاتة من كل الأمور، وتشتعل حرارة السرور في نفسك (بفرح) لا مثيل له في الخليقة جمعاء، وتنضبط أفكارك في داخلك بسبب اللذة الموجودة في قلبك. أَمَّا إذا ابتدأ العالم أن ينهض فيك فعندئذ تكثر طياشة الأفكار في قلبك وتزداد تفاهة أفكارك وعدم ثباتها؛ وأعني بالعالم تلك الآلام التي يلدها الافتخار والطياشة، ومتى وُلدت وكملت صارت خطايا وقتلت الإنسان. والآلام لا تتكون خلواً من تعظم القلب. وكما أنه لا يولد بنون من غير أمّ، فكذلك لا تُولد الآلام دون طياشة الأفكار، ولا تكمل خطية بدون مفاوضة الآلام.

١٨ – إذا ما كثر الصبر في نفوسنا فإن ذلك يكون دليلاً على أننا قد أخذنا خفياً نعمة العزاء؛ فقوة الصبر هي أشد من قوة الأفهام الحاصلة من الفرح في القلب. الحياة في الله هي انهدام الحواس وخمولها؛ فإن القلب إذا ما عاش انهدم منار الحواس، أمَّا قيامة الحواس فهي موت للقلب، ذلك لأنها إذا ما نهضت صارت دليلاً على موت القلب (وابتعاده) من الله.

١٩ – إن العقل لا يحصل على الاستقامة من الفضائل المصنوعة بين الناس؛ وذلك لأن الفضيلة التي يصنعها الإنسان بتوسط آخرين (أو بدافع منهم) لا تقدر أن تطهر النفس لأنها تُحسب أمَّام الله كعمل يستدعي المكافأة. أمَّا الفضيلة التي يعملها الإنسان بذاته (أو في داخله) فهي تكمل الأمرين معاً، أي أنها تستدعي المكافأة وتطهر النفس. فالجدير بنا إذاً أن نبتعد من النوع الأَوَّل (أي الفضيلة المصنوعة بين الناس) ونسعى وراء النوع الثَّانِي (أي الفضيلة التي يصنعها الإنسان بذاته). لأن إهمال النوع الأَوَّل والاستهانة بالنوع الثَّانِي هو خيبة ظاهرة من الله؛ أمَّا النوع الثَّانِي فإنه يكمل موضع النوع الأَوَّل دون فعله.

٢٠ – كن مائتاً في هذه الحياة لتصير حراً في ميتوتك. كن مائتاً من الكل لتكون منعتقاً من السنن التي يتدبرون بها؛ لأن ولا وَاحِد منهم وصل إلى تكميلها في هذه الحياة. الإنسان المائت في هذه الحياة قد انعتق (أو صار حراً) وهو حي، وقد صار حياً لما مات! عدم الاهتمام بتزيين الأقوال هذا يُعرف عند الله ببساطة القلب. النفس التي قد أحسَّت بالحياة التي تفوق الجسد لا تهتم بما لهذا العالم. والإنسان الذي لم يجد الأَولى (أي الحياة) بالكاد وبعد جهد يقدر أن يزدري بالأخرى (أي بما لهذا العالم)، إلا أنه لا يستطيع أن يزدري بها بالكمال. وإذا غصب نفسه على هذا إنما يحرك على نفسه جهاداً عظيماً، لكنه حالما يجد تلك الحياة (التي تفوق الجسد) يصير بمقدوره أن يجحد هذه (الأمور الأرضية) بدون جهاد.

٢١ – الرَّاحَة والبطالة هلاك للنفس، وهما يؤذيان أكثر من الشياطين. فالنفس إذا كانت نيِّرة ومجتهدة بأعمال الفضيلة، فإن الشياطين لا تقدر أن تعبر إليها. أمَّا النفس المظلمة فهي التي ترشد الشياطين إليها ليكملوا كل الشرور. إذا أكرهت جسدك، حال ضعفه، على عمل ما يزيد على قوته، فقد وضعت في النفس ظلأمَّا فوق ظلام وأدخلت إليها تشويشاً واضطراباً عظيماً. أمَّا الجسم القوي إن أنت نيَّحته وأرحته من العمل، فإن كل رذيلة سوف تتم في النفس الساكنة فيه، وحتى لو آثر الإنسان الخير بعد قليل فإنه يُنتزع منه، بل ومن الاهتمام الذي كان يقتنيه في نفسه بعمل الخير. متى سكرت النفس بفرح رجائها وبمسرتها في الله، فإن الجسد لا يعود يحسّ بالأحزان حتى ولو كان ضعيفاً بسبب الفرح بالله. فهو عندئذ يحتمل ثقلاً مضاعفاً دون أن يكترث بذلك لأنه يستريح ويتنعم مع النفس ويشترك معها في فرحها الرُّوحي. هذا هو ما يحدث عندما تدخل النفس إلى الفرح الرُّوحي حتى ولو كان الجسد ضعيفاً.

٢٢ – إذا صُنْتَ لسانك، يا أخي، فإن الله يجود عليك بنعمة الخشوع واتضاع القلب حتى أنك ترى نفسك غنية بهما وبواسطتهما تدخل إلى فرح الرُّوح. أمَّا إذا كان لسانك يغلبك، فصدقني فيما أقوله لك، إنك لن تقدر على التخلص من الظلام أبداً. إن لم يكن لك قلبٌ نقيٌ فلا أقل من أن يكون لك فمٌ طاهرٌ، كما قال القديس يوحنا ذهبي الفم(٥٥).

٢٣ – إذا أردتَ أن تعظ إنساناً من أجل خير يعمله، قدِّم له ما يريحه جسدياً ثم أَكْرِمه بكلام مودة؛ لأنه ليس شيء يبعث الإنسان على الخجل والانتقال من الرذائل إلى الفضائل مثل الخيرات الجسدية والكرامة التي يراها منك. أمَّا الوسيلة الثَّانِية للإقناع فهي حرصك على وجود الصلاح في نفسك، لأن الذي وجد نفسه بالصلاة والاحتراس يستطيع بسهولة أن يجتذب رفيقه إلى الحياة من غير وعظٍ بكلام مسموع، أمَّا التهاون والانحلال فإنه ليس يضرّ الذين يستسلمون له فقط، بل إنه يضرّ أيضاً من ينظرونهم وخلاّنهم. ليس أحد يقدر أن يصف بكلامٍ عِظم أجر ذلك الإنسان الذي يجذب رفاقه بصلاح أعماله ويبث فيهم الغيرة على عمل الخير، ويحيي بمنظره المتراخين. لأن العمل الصامت له أثر أقوى في تقويم الآخرين من كلام الوعظ ممن يتبكت من انحلال سيرته. فإنك إذا قوَّمت نفسك فسوف ينتفع منك رفيقك منفعة ليست بقَلِيلَة.

٢٤ – بمقدار ما يدخل الإنسان للجهاد من أجل الله، هكذا يصير لقلبه دالة في صلاته. وما دام الإنسان ينجذب من أشياء كثيرة، فإنه يعدم المعونة من الله. النفس التي قد هدأت من كثرة الاهتمام بأمور الجسد تقتني أيضاً هدوءاً في أفكارها. كن حراً بالجسد لكيما تؤهَّل لتلك الحرية التي بالرُّوح. كن مرتبطاً بحريتك لئلا تصير مربوطاً بنير العبودية لأعدائك. إن كنتَ قد أظهرتَ في نفسك منذ البداية مثال الانحلال من هذه الحياة الزمنية (أي بالخروج من العالم)، فلتكن إذاً مائتاً بالكمال من خلال توقفك عن الاهتمامات بأمورها مقدماً بذلك دليلاً واضحاً على ذلك التوقف المزمع أن يكون (في الحياة الآتية)، طالما كان الاهتمام بكل شيء مادي هنا سوف يبطل منك بالموت. لا تحزن بسبب العاهات والمؤذيات التي تصيب الجسد، فإن الموت سيرفعها عنك بالكمال. ولا تخف من الموت لأن الله قد رأى أن يجعلك – بواسطة الموت – أعلى من الموت. له المجد والعزة إلى دهر الداهرين، آمين.

ف ٥٥ النسخ الوزنية: يوحنا الراجح.

المَيْمَر الثلاثون

في الحركة الملائكية التي توقظها فينا النعمة الإلهية فتبعث على تقدم النفس في الأمور الرُّوحية

١ – إنَّ الحركة (أي الفكرة) الأَولى التي تحل على الإنسان من قِبل محبة الله للبشر فتدخل إلى القلب وترشد النفس إلى الخلاص هي التأمل في خروجه من هذه الطبيعة الزائلة. وهذه الحركة يتبعها بالطبع الازدراء بالعالم، ومنه تبتدئ في الإنسان كل حركة صالحة تقوده إلى الحياة. فهذه هي الحركة التي تضعها القوة الإلهية المرافقة للإنسان، تضعها فيه كأساس، متى أرادت أن تظهر فيه الحياة. فإذا لم يطفئ هذه الحركة بالانشغال بالمعاملات والاهتمامات العالمية وبالكلام الباطل، بل اهتم بتنميتها في نفسه بالسكون وملازمة التصور (أي التأمل) فيها، فإنها تقوده إلى تاؤرية أو نظر إلهي عميق لا يمكن لأحد أن يعبِّر عنه أو يشرحه. وهذا الفكر (أي تأمل الخروج من العالم) ما أكثر مقت الشياطين له! إنه يحرص بكل قوته على قلعه من الإنسان، ولو أمكنه لأعطاه ملك العالم كله، يلهيه ويشغله به، في سبيل أن يقلع من فكره هذا الخاطر. فلو قدر كما قلنا لَفَعَل ذلك باجتهاد؛ لأن الغاش يعلم أن هذا الفكر إذا ثبت في الإنسان فإن عقله لا يستقر بعد في أرض الضلالة، كما أن حيل الغاش لا يمكن أن تقترب منه أو تلمسه. وليس كلامنا هنا عن ذلك الفكر الأَوَّل الذي يحرك فينا ذكر الموت بالتذكر فقط، بل عن كمال هذا الفعل الذي يرسِّخ في الإنسان ذكر الموت دون توقف، والذي بمداومة الهذيذ به يقوده إلى حالة من التعجب الدائم منه. أمَّا ذاك الفكر الأَوَّل فهو فكر جسداني، أمَّا هذه (الحالة) فهي منظر روحاني (أو تاؤريا) ونعمة عجيبة. وهذه النظرة الرُّوحية تكون متسربلة بحركات نورانية وبأفهام فاضلة، ومن اقتنى هذه النظرة لا يعود فيما بعد يهتم بأمور هذا العالم، ولا يجنح (أو ينجذب) إلى الجسد.

٢ – حقاً، أيُّها الإخوة الأحباء، لو أن الله ترك الناس يتمتعون بهذا النظر الإلهي الحقيقي زماناً قليلاً، لَبقيَ العالم بلا خَلَفٍ (أي بغير أجيال متعاقبة). فهذا النظر الإلهي رباط شديد لا تقدر الطبيعة أن تصمد أمَّامه. والذي حصل على هذا الهذيذ في نفسه فقد حظي بنعمةٍ من الله أقوى بكثير من كل الأعمال الخاصة الأخرى. وهذه الموهبة تُعطَى للذين هم في الدرجة الوسطى المؤثرين التوبة باستقامة قلب؛ وتُمنح بصفة خاصة للذين يعرف الله أنه يليق بهم حقاً الانعزال من هذا العالم لطلب الحياة الأفضل إطاعة لمشيئته الصالحة التي ألقاها فيهم. وهذه الموهبة تنمو فيهم وتدوم معهم إذا ما التزموا بالسكن المنفرد. فينبغي لنا أن نلتمس هذه الموهبة (أي النظر الإلهي) في صَلَوَاتنا، وأن نسهر السهر الطويل ونسكب الدموع من أجلها لكي يجود بها الرب علينا، فهي نعمة لا مثيل لها. فالجدير بنا إذاً أن نطلبها فلا يضعف قلبنا بعد ذلك في شقاء هذا العالم. هذه هي بداية أفكار الحياة، وهي تُكمِّل في الإنسان كمال البر.

المَيْمَر الحادي والثلاثون

في العمل الثَّانِي الموجود في الإنسان

١ – ويوجد بعد هذا العمل الأَوَّل (أي تأمل الموت) عملٌ آخر: إذا ما سلك الإنسان سلوكاً حسناً، وتقدَّم في السيرة الصالحة، ونجح في صعوده درجة التوبة، واقترب من مذاقة تاؤرية عمله (أي النظر الإلهي المتولد من أعماله الصالحة)؛ وإذا ما أدركته نعمة من العلاء، وبدأ يذوق حلاوة معرفة الرُّوح؛ فمن هنا يبتدئ العمل الثَّانِي فيجعل الإنسان يتأكد أولاً من عناية الله بكل إنسان، ويستنير بمحبته للخليقة، ويمتلئ عجباً من إبداعه للكائنات الناطقة واهتمامه الكثير بها. ومن هنا يبتدئ فيه الشغف بالله (أي بتذوق حلاوته) واضطرام نار محبته التي تشتعل في القلب وتحرق كل ألم في النفس والجسد معاً. ويحسُّ بهذه القوة، ويدرك (من خلال التأمل والفحص والتمييز بأسلوب روحي) أنها موجودة في كل طبائع الخليقة وفي كل ما يحيط به. (وبمثل هذه الغيرة وهذا الاهتمام الإلهي بضمير صالح يندفع الإنسان نحو المحبة الإلهية، وفي الحال) يسكر منها كما من الخمر من وقتٍ لآخر، وتنحل أعضاؤه، ويمكث فكره حائراً (أي في ذهول)، ويُسبى قلبه وراء الله، ويصير كما قلت مثل إنسان قد سكر من الخمر. وبمقدار ما يجتهد الإنسان في التَدْبِير الجيد والاحتراس والمواظبة على القراءة والصَلَوَات، بذلك المقدار تتمكن فيه قوتها وتثبت. حقاً يا إخوتي، إن الإنسان يأتي إلى هذه (الحالة من الذهول) في الأوقات التي لا يذكر فيها ذاته أنه لابس جسد ولا يعلم أنه موجود في هذا العالم.

٢ – فهذا العمل الثَّانِي هو بداية التصور الرُّوحاني (أي التاؤريا) في الإنسان، وهو بداية كافة استعلانات الفكر، وبه ينمو الذهن ويتقوى في الأمور الخفية، وبه أيضاً يتدرج إلى إعلانات أخرى تعلو على الطبيعة البشرية. وباختصار أقول إنه بيد هذا التصور الرُّوحاني تنتقل إلى الإنسان كل التاؤريات الإلهية واستعلانات الرُّوح التي يتقبلها القديسون في هذا العالم، وكل ما يمكن للطبيعة البشرية أن تعرفه في هذه الحياة من الإعلانات والمواهب. هذا هو أصل الإحساس الذي لنا بخالقنا. فمغبوط هو الإنسان الذي حفظ هذا الزرع الصالح منذ أن أُلقي في نفسه وأنماه، ولم يبدده منه في الأباطيل أو بالطياشة في الأمور الوقتية الزائلة.

المَيْمَر الثَّانِي والثلاثون

في التغيير الذي يحدث في النفس كل حين بتنقلها بين النور والظلام وبين أمور اليمين واليسار

١ – جدير بنا، أيُّها الأحباء، أن نتأمل في أنفسنا في وقت الصلاة إن كان لنا تصور (أي نظر إلهي) في ألفاظ التزمير والهذيذ والصلاة، لأن هذا يُولد من السكون الحقيقي. ويجب علينا أيضاً ألا نقلق في الوقت الذي نوجَد فيه في ظلام، ولا سيّما إذا لم يكن السبب منا. واعلم أن هذا الأمر يحدث بسياسة (أي بتدبير) من الله، ولأسبابٍ يعلمها الله وحده، حيث تختنق نفسنا، وتصير كأنها بين الأمواج، ويكون الإنسان في ظلام يتبعه ظلام، يذهب صنف ويأتي صنف، إن قرأ في كِتَاب أو قام في خدمة (الصلاة) أو أي عمل مهما كان. وكثيراً ما يترك الصلاة ولا يقدر أن يقترب من أي عمل آخر. ومَن كانت هذه صفته فهو لا يؤمن البتة أنه سيخلص من هذه الحال وأنه سوف يستعيد سلامه مرة أخرى. أمَّا هذه الساعة فإنها تكون مملوءة من كل يأس وخوف، ولا توجد فيها الثقة بالله ولا عزاء الإيمان به. وتصير النفس كلها مملوءة من كل شكٍ وتَقسُّمٍ وجزعٍ.

٢ – والذين يُمتحنون بأمواج هذه الساعة هم يعرفون من الخبرة التغيير الحاصل في نهايتها. لأن الله لا يترك النفس في هذه الحالة يوماً كاملاً وإلا خابت من رجاء المسيحيين، (لكنه سيجعل لها مع التجربة أيضاً المنفذ). فحتى إن طال ضغط هذه الظلمة أكثر من ذلك فعليك أن تتوقع في وسطها تغييراً سريعاً إلى الأفضل.

٣ – وأنا أُشير عليك، أيُّها الإنسان، إن لم تكن لك قوة لتضبط نفسك، وتسجد على وجهك في صلاتك، بأن تَلفَّ رأسك بملفَّتك وتنام إلى أن تزول عنك ساعة هذه الظلمة، ولكن إياك أن تخرج من مسكنك. وهذا النوع من التجارب يُمتحن به الذين يرومون أن يعيشوا بسيرة تَدْبِير العقل، والذين يشتاقون إلى عزاء الإيمان في سيرهم. ولهذا السبب تجلب لهم هذه الساعة (أي ساعة الظلمة) وجعاً وتعباً أكثر من كل وقت، حيث يستولي الشك على الفكر، ويتبعه تجديف قوي. وأحياناً يعرض لهذا الإنسان الشك في القيامة، وفي أمور أخرى ما يليق بنا أن نتفوَّه بها. وقد تجرَّبْنَا بهذه كلها مراراً عديدة. والذي دفعنا إلى الكِتَابة عن هذا الجهاد هو إيثار تعزية كثيرين.

٤ – أمَّا الذين يتدبرون بالأعمال الجسدية فقط فلا يتعرضون لهذه التجارب على الإطلاق. لكنهم يُمتحنون بنوع آخر من الضجر، معروف من الجميع، تختلف أحواله عما ذكرناه من تجارب وما شابهها. ودواء هذا الإنسان وشفاؤه من هذا (الضجر) إنما ينبع له من السكوت والهدوء نفسه، وهذا هو عزاؤه. أمَّا المحادثة والمفاوضة فلا تعطي أبداً نور العزاء، ولا يُشفى المرض بمخاطبة الناس، بل يهدأ إلى حين ولا يلبث بعد ذلك (الضجر) أن يعود إليه أكثر وأقوى مما كان. فهو بالضرورة يحتاج إلى إنسان آخر مشير وله حنكة وخبرة بهذه الأمور لكي

يستنير بواسطته ويتقوى، عند الحاجة وليس دائماً.

٥ – طوبى لمن يصبر في هذه الأشياء داخل الباب (أي في القلاية)! فإنه – حسب أقوال الآباء – سيبلغ إلى ثبات وقوة عظيمة (في مسكنه). وعلى كل حال فإن هذا الجهاد لا يزول في ساعة، ولا يذهب بسرعة (بل تدريجياً)، والنعمة أيضاً لا تأتي دفعة وَاحِدة وتسكن في النفس، بل قليلاً قليلاً من هذا الأمر إلى ذاك: وقت تجربة ووقت عزاء. ولا يزال الإنسان ملازماً لهذه الأمور إلى أوان الخروج. فسبيلنا ألا نتوقع أن نحظى بحرية كاملة من هذا الجهاد، ولا أن نجد التعزية التامة في هذه الحياة: فإن الله هكذا رأى أن يدبر حياتنا ههنا، وأن يكون السالكون في هذه الطريق مباشرين (أي في مواجهة) لهذه الأشياء. له المجد إلى أبد الدهور، آمين.

المَيْمَر الثَّالِث والثلاثون

في الضرر الناتج عن الغيرة الحمقاء التي تتخذ شكلاً إلهياً، وفي المعونة التي تكون من الوداعة؛ ومواضيع أخرى.

١ – الإنسان المماحك (أي المحب للجدال) لا يظفر بسلامة الفكر. والعادم من السلام هو عادم أيضاً من الفرح. ولأن سلام الفكر – كما يقال – هو الصحة الكاملة، والمَحَاك (أي منازعات الكلام) هو ضدّها، إذاً فالإنسان ذو المَحَاك الرديء هو مريض بمرض عظيم. فإن كنتَ أيُّها الإنسان تظن أنك تُنهض غيرتك (بالمجادلات) مقابل أمراض ونقائص الآخرين، فإنك بذلك تكون قد أقصيتَ الصحة عن نفسك؛ الأحرى بك أن تجتهد من أجل صحة نفسك. وإن كنتَ تؤثر أن تداوي الضعفاء، فاعلم أن المرضى هم في حاجة إلى العطف أكثر من الزجر والانتهار. كما أنك إذا لم تعاضد الآخرين، فإنك تُلقي نفسك في مرض عظيم أليم. والمماحكة لا تُعرف عند الناس كنوعٍ من أنواع الحكمة، بل كأحد أمراض النفس، التي هي: ضِيق العقل وكثرة الجهل وعدم المعرفة؛ والمريض بالمماحكة هو سقيم بكل الآلام. بدء الحكمة الإلهية الهدوء والوداعة واللطف التي تتولد من نفس جليلة وتحمل ضعفات الناس، حسب قوله: «أنتم أيُّها الأقوياء احملوا ضعف المرضى، وأَصلحوا كل من أُخذ في زلة، بروح الوداعة». وهذا الأمر يكون من نفسٍ جليلة القدر وعقل سديد وقلب مكين، لأنه يحمل عجز المقصِّرين من الناس. والرسول يعتبر أن إصلاح من يزلّ بروح الوداعة إنما هو من أثمار الرُّوح الْقُدُس، وكذلك السلام والاحتمال.

٢ – القلب المليء بالحزن بسبب ضعفه وعجزه عن القيام بالأعمال الجسدانية الظاهرة، هو يقوم مكان الأعمال الجسدانية كلها. وأعمال الجسد متى كانت خالية من حزن العقل فهي كجسد لا نفس له. والحزين بقلبه إذا ترك حواسه للانحلال والتسيب يشبه مريضاً يتألم جسده ومع ذلك يُولع فمه بكل غذاء يضرُّه. الحزين بقلبه إذا أطلق العنان لحواسه يكون كإنسان له ولد وحيد وهو يذبحه بيديه قليلاً قليلاً. حزن القلب موهبة كريمة من الله، ومن يتحمله بكل واجباته كما ينبغي هو كإنسان يحمل القداسة في أعضائه. والإنسان الذي يطلق لسانه على الناس بكل جيد ورديء لا يُؤهَّل لهذه النعمة. توبة مع أحاديث تشبه خابية مثقوبة. مواهب (أو تكريم ومديح) تخفي المذمة والمحقرة[٥٦]، تشبه سكيناً ملطخاً بالعسل. عفة ومحادثة مع امْرَأَة كلبوة مع خروف في بيت وَاحِد. أعمال (صالحة) مع قساوة هي في عيني الله كإنسان يذبح ولداً أمَّام أبيه. من يريد أن يُقوِّم رفاقه بينما هو نفسه مريض، يشبه إنساناً أعمى يقود آخرين في الطريق.

[٥٦] أو: جوا واحسان مع زجر وا مل ٍتشبه...

٣ – رحمة وعدل – بتمييز المستحق من غير المستحق – في نفسٍ وَاحِدة هما كإنسان يسجد لله وللأصنام في بيت وَاحِد! لأن الرحمة ضد العدل. والعدل هو مقابلة الوَاحِد بما يستحق دون انحراف أو محاباة في العطية. أمَّا الرحمة فإنها حزن (وشفقة) يتحرك من النعمة ويتجاوز للكل عن هفواتهم مسامحة إياهم، كما أنها لا تكافئ المسيء عن سيئةٍ، وتضاعف الخير لمستحقيه. فإن كان من الواضح أن الرحمة تُنسب إلى البر، إذاً فالعدل يُنسب إلى الجور. كما أن القش والنار لا يثبتان في بيتٍ وَاحِد، هكذا العدل والرحمة لا يقيمان في نفس وَاحِدة. وكما أن حبة صغيرة من الرمل لا تُقاس قيمتها بالذهب الكثير، هكذا قضاء الله العادل لا يقاس ولا يقدر برحمته.

٤ – كحفنة رملٍ وقعت في بحر عظيم، هكذا خطايا البشر بالقياس إلى ينبوع رحمة الله. وكما أن العين التي تفيض مياهاً غزيرة لا يمكن أن تنسد بحفنة تراب، هكذا ذنوب البرايا لا تغلب رحمة الخالق تعالى. الحقود يستثمر من صلاته ما يستثمره الزارع في البحر من حصادٍ. كما أن لهيب النار لا يمكن أن تمنعه من الطلوع إلى فوق، هكذا فإن صَلَوَات الرحومين لا يمكن ألا ترتقي إلى السماء. كما أن جريان الماء لا يتجه إلا لأسفل، هكذا قوة الغضب إذا ما أَلِفتْ موضعاً في فكرنا. من اقتنى اتضاع القلب فإنه قد مات عن العالم، ومن مات للعالم فقد مات للآلام. ومن مات بقلبه من خواصه وأصحابه فقد مات الشيطان منه. ومن وجد الحسد فقد وجد معه الشيطان الذي أوجده (أي الذي أوجد الحسد) منذ القديم.

٥ – الاتضاع نوعان: الوَاحِد من مخافة الله، والآخر من المحبة له. فهناك إنسان يتواضع بسبب خوفه من الله، وآخر يتضع بسبب الفرح. أمَّا المتواضع من أجل خوف الله فتلزمه وداعة (وتعفف) الأعضاء مع حُسن ترتيب الحواس وقلب منسحق كل حين. أمَّا المتواضع بسبب الفرح فتلزمه بساطة كثيرة وقلب ينمو دائماً ولا يُقيَّد.

٦ – المحبة لا تعرف الحياء ولا تخجل، ولهذا فهي لا تهتم بأن تظهر بشكلٍ أو ترتيبٍ خاص بالنسبة للجسد. فالمحبة بطبيعتها لا تستحي، وتنسى مقدارها. طوبى لمن وجدكِ أيتها المحبة، يا ميناء كل السرور! إن جماعة المتواضعين محبوبة عند الله كجماعة السارافيم. والجسد العفيف كريم لدى الله أكثر من الذبيحة الطاهرة. فالتواضع والعفة يهيئان في النفس مسكناً للثالوث القدوس.

٧ – ليكن تصرفك مع أصحابك بتخشع (أو بتحفظ). فإنك إذا صنعتَ ذلك نفَّعتَ ذاتك وإياهم، لأن النفس كثيراً ما ترمي عنها لجام الاحتراس بحجة المحبة. تَحفَّظ من المحادثات فإنها لا تنفع في كل وقت. استعمل الصمت في الجموع لأنه يمنع من خسارة كبيرة. احترس من جهة البطن، ولكن احترس بالأكثر من جهة النظر؛ فمما لا شك فيه أن القتال الداخلي أخف من الحرب الخارجية. لا تصدق، أيُّها الأخ، أن الأفكار الداخلية يمكن أن (تُضبَط) وتُعاق عن عملها ما لم يُضبط ترتيب الجسد ويكون سلوكه بنظام وبحالٍ حسنةٍ. خَفْ من العادات أكثر من الأعداء؛ لأن من يربي عنده عادة هو كإنسان يربي ناراً بكثرة الوقيد؛ والدليل على ذلك أن

مقدار قوة الاثنتين (أي العادة والنار) يقاس بالمادة التي تغذيهما. لأن العادة إذا طلبتْ شيئاً دفعةً ولم تُجَبْ إلى طلبتها، فإنك تجدها في وقتٍ آخر ضعيفة؛ أمَّا إذا تمَّمت رغبتها ولو مرة وَاحِدة فإنها تتقوى عليك في المرة الثَّانِية أكثر مما سبق.

٨ – تذكَّر دائماً وفي كل شيء أن المعونة التي تجدها من الاحتراس هي أفضل من المساعدة التي تحصل عليها من الأعمال. لا تكن صديقاً لمن يحب الضحك والمؤثر أن يسخر بالناس ويُشهرهم لأنه سيقودك إلى اعتياد الاسترخاء. لا تظهر بشاشة في وجهك للمُنحلّ في سيرته، ولكن تحفَّظ من أن تبغضه؛ وإن أراد النهوض فآزره واهتم به إلى الموت. أمَّا إذا كنتَ ضعيفاً فامقتْ التطبيب، لكن أَعطِهِ – كما يقولون – طرف عصاك[٥٧]. لا تتكلم قدام المفتخر البعيد الغور (أي الداهية) المتوفر على الحسد إلا بتحفظٍ؛ لأنه سيؤوِّل كلامك في قلبه كما يُحب، ويأخذ من مناقبك (أو أقوالك) الجميلة مادة يعثر بها آخرين، ويغيِّر أقوالك في فكره لتناسب نوع مرضه. عَبِّس وجهك لدى من يبتدئ أن يقع في أخيه قدامك؛ فإنك إذا فعلتَ ذلك تكون متحفظاً[٥٨] عند الله وعنده.

٩ – إذا أعطيتَ شيئاً لمحتاج اِجعل بشاشة وجهك تتقدم العطية، وعزِّ حزنه بلطيف الكلام؛ فإنك إذا صنعتَ هذا كان لبشاشتك وقعٌ جميلٌ في قلبه وعقله أكثر من عطيتك له بما يقوم بأود جسده. إذا فتحت فمك وتكلمت بانتهار وطعنت في إنسان ما، فاعلم أنك مائت عند الله وأن أعمالك كلها باطلة ولو ظننتَ أن الذي دفعك إلى الكلام رغبتك في التقويم والبنيان. تُرى أية ضرورة تلجئ الإنسان أن يهدم بناءه ويأخذ في بناء رفيقه وتثقيفه؟

١٠ – في اليوم الذي يكون لك فيه حزن جسداني أو نفساني من أجل شخص مريض بوجه من الوجوه، سواء كان من أخيار الناس أو من الأشرار، فاعتبر نفسك شهيداً في ذلك اليوم، وكن بمنزلة متألم من أجل المسيح وقد حُسبت أهلاً للاعتراف، وتذكَّر أن المسيح مات من أجل الخطاة وليس من أجل الأبرار. تأمل إذاً مقدار عِظم هذا الأمر أن يحزن الإنسان من أجل الأشرار، ويُحسن إلى المجرمين أكثر من الأبرار! هذا الأمر يذكره بولس الرسول على أنه يستحق التعجب منه. إن قدرتَ أن تتبرر في ذاتك بنفسك فلا تصرف اهتمامك بطلب البرّ من موضع آخر. في كل ما يختص بك لتتقدم فيك عفة الجسد وطهارة الضمير في جميع ما تفعل؛ فكل شيء بدونهما باطل عند الله. واعلم أن كل عمل تعمله من غير روية وبحث وبدون مشورة هو باطل ولو كان لائقاً؛ لأن الله يقدِّر عمل البرِّ بحسب التمييز، ولا يلتفت إلى عمل يُعمل دون غرض وقصد (أي دون إفراز) بل كيفما اتفق.

١١ – صِدِّيق ليس بحكيم هو كسراج في الشمس. صلاة الحقود كبذار وقع على الصخر. ناسك غير رحيم هو كشجرة لا ثمر فيها. توبيخ صادر عن حسد هو كسهم مسموم. مُشير

---

[3] »اذا رأيت الرجل ناسكاً لكنه يتطلع أن يتسلط على مُعاصريه ويجذبه خارجاً عن كل اذا مات ذاك وأنت غير ذاك أو أنت اجتذبك هو تكون كمن أوقد النار أو أشعل جمراً في ثوبك هو يحترق كما«أنوار الآباء ٣٣١

[2] محترساً أو متحذراً)Prudent(

أحمق هو كضرير مرشد. مجالسة الذين ليسوا حكماء تُفتت القلب. مديح الغاش فخ مخفي. محادثة الفضلاء ينبوع عذب. مشير حكيم هو كسور رجاء، والصديق الجاهل ذخيرة خسارة. الأفضل أن تشاهد النادبات في منزل البكاء من أن ترى حكيماً تابعاً لأحمق. الأجود أن تسكن مع الوحوش دون السالكين بسيرة رديئة والحكماء في أعين أنفسهم. جالس الضباع ولا تجالس الشَّره الذي لا يكتفي. صاحب القاتل ولا تصاحب محب الخصام والمشاجرة. تحدَّث مع الخنازير ولا تتكلم مع نَهِم البطن؛ لأن ممرغة الخنازير ذات الحمأة (أي الطين الكَدر) أفضل من فم الأكولين. جالس المجذومين لا المتعظمين. كن مطروداً (أو مضطَهَداً) لا طارداً. اقبل الصلب ولا تصلب أحداً. اقبل الظلم ولا تظلم. احتمل الذمَّ ولا تذمّ أحداً. كن وديعاً ولا تحتدّ أو تنافس أحداً في الشر. تمسك بالرحمة وليس بالعدل.

١٢ – العدل ليس هو من تَدْبِير المسيحيين، ولم يرد ذكره في تعليم المسيح. اِفرح مع الفرحين وابكِ مع الباكين، فهذا الأمر علامة النقاوة. تَألَّم مع المرضى، ونُحْ مع الخطاة، وافرح مع التائبين. كن صديقاً لكل إنسان إنما كن وحدك في فكرك. ساهم الكل في آلامهم وابتعد من الكل بجسدك. لا توبِّخ أحداً ولا تعيِّر أحداً بسيرته حتى ولو كان من الأشرار جداً. طوبى لمن ابتعد عن الكل بالمفاوضة مع سيده. ابسط رداءك على المذنب واستره. وإذا كنتَ لا تقدر أن تضع على نفسك أوزاره، وتقبل التأديب والعار عوضاً عنه، فلا أقل من أن تصبر عليه ولا تُخْزِهِ. لا تخاصم الناس من أجل البطن. ولا تُبغض أحداً من أجل أن تُكرَّم. ولا تحب الرئاسة. واعلم، يا أخي، أن السبب الذي من أجله ينبغي لنا أن نكون داخل القلاية هو لئلا نعلم أمور الناس الرديئة، وبهذا يكون الجميع في أعيننا صالحين وأفاضل من أجل جهلنا بأحوالهم؛ وهكذا نبلغ إلى نقاوة الفكر. أمَّا إن صرنا موبِّخين ومؤدِّبين وفاحصين وديَّانين ومُنتقمين ولائمين للناس، فما الفرق بين حياتنا والحياة في المدن؟ وإن لم نتخلَّ عن هذه الأمور فماذا يكون أخسَّ من جلوس البرية؟

١٣ – إن كنتَ لا تقدر أن تهدأ في قلبك، فلا أقل من أن تُسكِّت لسانك. وإن كنتَ لا تقدر أن ترتب أفكارك وتضبطها، فلا أقل من أن ترتب حواسك ترتيباً سديداً. وإن لم تقدر على الانفراد في فكرك، فلا أقل من أن تكون وحيداً بجسدك. وإن لم تتمكن من العمل بجسدك، فاحزن بفكرك. وإن لم تقدر أن تقف في سهر الليل، فاسهر وأنت جالس على فراشك أو مستلقياً. إن لم تقدر أن تصوم يومين فصُم إلى العشاء؛ وإن لم تقدر ولا على هذا فتحفَّظ من أن تشبع. وإن لم تكن قديساً بقلبك فكن طاهراً بجسدك. وإن لم تَنحْ بقلبك، فلا أقل من أن يَغشى النوح وجهك. وإن لم تقدر أن ترحم وتعطي صدقة فتكلم مثل خاطئ. إن لم تكن مسالماً مصالحاً فلا تكن محباً للإزعاج. وإن لم تكن مجتهداً نشيطاً فلا أقل من أن تكون في فكرك بصورة مقصِّر ومتكاسل. وإن لم تكن غالباً فلا تترفع على المغلوبين. إن لم تستطع أن تسد فم المتكلم على رفيقه، فلا أقل من أن تحفظ فمك من مساهمته في هذا الأمر.

١٤ – واعلم أنه إن خرجتْ منك نار وأحرقت آخرين فإن الله سيطلب من يدك أنفس المحترقين بنارك. وإذا لم تكن أنت الذي ألقيت النار بل وافقت راميها وأرضاك فعله فإنك تشاركه في الدينونة. إن كنتَ تحب الوداعة فلازم السلام، وإن أُهِّلت للسلام فابتهج به كل حين. التمِس فهماً لا ذهباً. البس الاتضاع لا الأرجوان. اقتنِ سلأمًّا لا مُلكاً.

١٥ – لا يوجد لبيب فهيم ليس بمتضع، والذي يعوزه الاتضاع هو ناقص الفهم. ولا يوجد متواضع العقل دون أن يكون مسالماً ومن ليس بمسالم فهو ليس متضع العقل. ولا يوجد مسالم دون أن يكون فرحاً باشاً طلق الوجه. في جميع الطرق التي يسلكها الناس في العالم لا يجدون سلأمًّا إن لم يقتربوا بالثقة من الله. والقلب لا يهدأ ويَسلم من التعب والمعاثر إلى أن يدرك الثقة بالله. لأن الثقة والرجاء يملآن القلب سلأمًّا ويفيضان عليه بالبهجة، وهما اللذان ذكرهما الفم المسجود له والمملوء قداسة إذ يقول: «هلموا إليِّ أيُّها التعابى والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم»؛ أي: اقتربْ مني بالرجاء والاعتماد عليَّ فأريحك من عملك وخوفك.

١٦ – الرجاء بالله يرفع القلب ويعليه، أمَّا خوف جهنم فيسحقه. نور العقل يولِّد الإيمان، والإيمان يمنح عزاء الرجاء، والرجاء يقوي القلب. الإيمان هو استعلان الأفهام، وإذا أظلم العقل يختفي الإيمان وينقطع الرجاء ويستولي الخوف. الإيمان المكتسب من التعليم لا يعتق الإنسان من العظمة والظنون والشك، بل الإيمان الذي يشرق بالفهم، ويُنظر بالعقل ويُسمى استعلان الحق. وما دام العقل يعرف الله كإله بإعلان الإيمان به للفهم، فلا يمكن أن يدنو الخوف من القلب. أمَّا إذا تُركنا في الظلام وضاع منا هذا الفهم، لكي نتضع، يعرض لنا الخوف لكي يقودنا للاتضاع والتوبة.

١٧ – إن ابن الله احتمل الصليب، فلنتشجع بالتوبة نحن الخطاة. لأنه إن كان شكل التوبة حوَّل السخط عن آخاب الملك، فإن توبتنا الحقيقية الآن بالتأكيد لا تذهب باطلاً. وإن كان شكل الاتضاع الذي أظهره ذاك الذي لم يكن صادقاً فيه (أي آخاب) قد حوّل عنه الرجز، فكم بالأَولى يعمل الاتضاع فيكم أنتم الذين تحزنون بالحق لأجل هفواتكم؟ لأن حزن القلب يفي بكل عمل جسداني.

١٨ – يقول القديس غريغوريوس: إنَّ المتحد بالله، المثابر على الاهتمام بدينونته، هو هيكل للنعمة. وما هو الاهتمام بدينونته إن لم يكن التماس راحته دائماً؛ والحزن والنوح كل حين من أجل التقصير عن بلوغ الكمال لسبب ضعف طبيعتنا؛ والحزن الدائم الذي يحمله العقل من أجل هذا الأمر ويقدمه أمَّام الله كالقربان في صلاته بأفهام عفيفة وندم متضع؛ والاستهانة باهتماماًت الجسد على قدر استطاعته وبكل قوته. فهذا هو الإنسان الذي يحمل في نفسه ذكر الله الدائم. كما يقول القديس باسيليوس: إنَّ الصلاة التي بلا طياشة هي التي تصنع في النفس تَصور الله دائماً، لكي بذكر الله الدائم الذي نهذّ به يسكن فينا، وهكذا نصير هيكلاً لله؛ فهذا هو الاهتمام الذي يكون بانسحاق القلب باستعداد (قبول) راحته.

المَيْمَر الرَّابع والثلاثون

في الأفكار الردية الحادثة كرهاً من التواني الكائن قبلها

١ – الأفكار الردية الحادثة من غير الإرادة إنما تكون من الانحلال الكائن قبلها. لأن قوماً من الناس يرون تقوية الجسد ويؤثرون إراحته قليلاً من أجل عمل الله إلى أن يتقووا ثم يعودون إلى عملهم. فعلينا إذاً في أيام استراحتنا القَلِيلَة ألا ننقض تحفظنا كلية أو نسلِّم أنفسنا بالكمال إلى الانحلال والاسترخاء كأناس لا يرغبون في العودة إلى عملهم. هؤلاء هم الذين يُرشَقون بسهام العدو في وقت السلام، إذ يدَّخرون لأنفسهم علة لهذا من خلال عدم انضباط إرادتهم. وهكذا ينظرون نفوسهم في البلدة المقدسة – أعني في صلاتهم – لابسين ثوباً وسخاً من الأفكار التي تتحرك في نفوسهم وقت الصلاة وتَصوُّر الله. فهذه الأشياء التي اقتنيناها في وقت توانينا هي التي تخزينا في وقت الصلاة، فلا نقدر أن نقدمها طاهرة. لأن هذه العثرات صارت ملازمة لنا بسبب عدم انضباط حواسنا (في وقت الرَّاحَة).

٢ – التيقظ والاحتراس يساعدان الإنسان أكثر من الأعمال، أمَّا الانحلال فيؤذيه أكثر من الرَّاحَة. والدليل على ذلك أن الرَّاحَة يتسبب عنها حروب خاصة تضغط العقل، إلا أن للإنسان سلطاناً أن يبطلها. لأنه متى ترك راحته وعاد إلى مكان عمله فإن تلك الحروب ترتفع عنه وتهرب منه. ولكن ليس الأمر هكذا بالنسبة لما يتولد من الانحلال وإن كان التراخي يتولد من الرَّاحَة. والدليل على ذلك أنه مادام الإنسان في مكان حريته أثناء راحته، فهو بإمكانه أن يرجع أيضاً ويُدبِّر ذاته بملازمة قانونه لأنه ما زال بعدُ في بلدة حريته. أمَّا في التراخي فإنه يكون قد خرج من ديار الحرية. لأنه لو لم يترك الإنسان عنه التحفظ لَما اضطر أن يخضع كرهاً للأمور التي لا تريحه وينغلب لخداعها. ولم لم يُخلِ من نفسه تماماً حدود الحرية لَما صادمته عوارض تربطه وتردعه رغماً عنه، فلا يقدر على مقاومتها.

٣ – أيُّها الإنسان، لا تترك بلد الحرية بأي حاسة من حواسك لئلا يصعب عليك العودة فلا تقدر أن ترجع إليها. الرَّاحَة تضر الشباب فقط، أمَّا التراخي فإنه يؤذي الكاملين والشيوخ أيضاً. والذين وثبوا من الرَّاحَة إلى الأفكار الردية يمكنهم العودة إلى التحفظ والثبات في سيرتهم العالية. أمَّا الذين أهملوا التحفظ متكلين على رجاء عملهم، فقد اقْتُنِصوا في سبي يقودهم من سيرتهم العالية إلى حياة الانحلال. وقد يوجد من يُجرح (فقط) في بلدة الأعداء ولكنه يموت في زمن السلم. وقد يخرج آخر (من العالم) بحجة اقتناء الحياة، ولكنه يأخذ في نفسه سهماً وخزياً.

٤ – ينبغي لنا أن لا نحزن إذا ما زلقنا في أمرٍ ما، بل نحزن إذا لازمنا تلك الزلة؛ لأن الزلل قد يعرض للكاملين أيضاً، لكن البقاء فيه هو موت تام. والحزن الذي نحزنه من أجل هفواتنا تحسبه لنا النعمة عملاً طاهراً. أمَّا الذي يزلّ ثانية بأمل التوبة فإنه يسير مع الله بمكر ودهاء، وهذا يدهمه الموت وهو لا يعلم، فلا يبلغ الوقت الذي كان يأمل أن يتمم فيه عمل الفضيلة. وكل مُنحَلٍّ بحواسه هو أيضاً مُنحلٌّ بقلبه ومتراخٍ.

في الذين يتزيّون بزيّ الحماقة ويتظاهرون بها:

٥ – عمل القلب هو رباط للأعضاء الخارجية. والإنسان الذي يتمم عمل القلب بتمييز حسب مثال الآباء الذين تقدمونا يُعرف بالتأكيد من تصرفاته في الأمور الخارجية: كونه ليس بمرتبط بربح جسداني ولا بمحب لنهم البطن، وأن الغضب بعيد عنه كليةً. لأنه إذا وُجدت هذه الثلاثة في إنسان: أي شهوة الربح الجسداني بالقليل أو الكثير، وحدّة الغضب بسهولة، والانغلاب من نهم البطن، ولو بدا ذلك الإنسان كأنه يشبه القديسين القدماء، فاعلم أن انحلاله في هذه الأمور الخارجية هو من قلة صبره في الجهاد الداخلي، وليس بسبب تحقيره لنفسه بتمييز كما يدَّعي. فإن كان لم يزدرِ بالأمور الجسدانية فإنه ما اقتنى الوداعة بعدُ. لأن محقرة النفس بتمييز يتبعها أن لا يرتبط الإنسان بشيء وأن يرفض الرَّاحَة والاشتياق إلى الناس. فإن استعد إنسان لقبول الخسارة بفرح من أجل الله، فهو نقيٌّ من الداخل. وإن لم يزدرِ بأحدٍ من أجل العيوب الموجودة فيه، فهو حرٌّ بالحقيقة. وإن لم يُسرّ بمن يكرِّمه ولم يعبِّس وجهه قدام من يهينه، فإنه قد مات حقاً للعالم (ومن هذه الحياة). فالتحفظ بتمييز هو أفضل من كل تَدْبِير وسيرة تتم بكل نوع وكيفية وبكل مقدار ممكن لدى الناس.

يجب ألا نبغض الخاطئ بل أن نبكي ونصلي من أجله:

٦ – لا تبغض الخاطئ؛ لأننا كلنا خطاة أثمة. إن تحرك قلبك بسببه من أجل الله، فابكِ عليه وصلِّ من أجل نفسه. لماذا تبغضه؟ الجدير بك أن تبغض زلاته، وتتضرع من أجله، لكي تكون متشبهاً بالمسيح الذي اتكأ مع الأثمة غير واجدٍ عليهم بل متشفعاً لأجلهم. أمَّا ترى كيف انتحب على أورشليم؟ إن الشيطان يضحك علينا في أمور كثيرة، فلماذا نبغض إنساناً قد ضُحك عليه مثلنا من الشيطان الضاحك علينا؟ فلماذا تمقت الخاطئ أيُّها الإنسان؟ ألعل ذلك لأنه ليس بصدِّيقٍ مثلك؟ ولكن أين هو برُّك، وكيف تكون باراً وليس لك حبٌّ؟ لماذا لا تبكي عليه بدلاً من أن تضطهده؟ هناك قوم يتحركون بجهل ويغضبون على الخطاة ظانين أنهم ذوو إفراز.

في صلاح الله تعالى:

٧ – كن كارزاً ومنادياً بصلاح الله، إذ أنه يسوس أمورك رغم عدم استحقاقك لذلك. ومع أنك مدين له بالكثير، فهو لا يطالبك بشيء؛ بل إنه يكافئك بالأمور الْعَظِيمة عن أعمالك الصغيرة التي تعملها. لا تَدْعُ الله تعالى عادلاً، لأن عدله غير ظاهر في الأمور التي تخصك. وإن كان داود النبي سماه عادلاً ومستقيماً، إلا أن ابنه عزَّ وجلَّ أظهر لنا أنه جوَّاد جداً وصالح، فهو يقول إنه صالح للأشرار والمنافقين. وكيف تسمي الله عادلاً إذا كنتَ قد قرأتَ ما قاله عن أجرة الفَعَلة؟ «يا صاحب، أنا ما ظلمتك. إني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. فإن كانت عينك خبيثة، إلا أني أنا جوَّاد». وكيف يمكن أن تدعوه عادلاً إذا ما قرأتَ أيضاً فصل الابن الشاطر الذي بذَّر غناه في الجهالة، كيف بما أظهره من الخشوع فقط، أسرع إليه أبوه واستلقى على عنقه

وقبَّله، وأعطاه سلطاناً على كل مقتنياته؟ ولم يذكر هذه الأمور عنه شخص آخر حتى تتشكك فيها، بل ابنه نفسه قد شهد بذلك. فأين إذاً هو عدل الله إذ ونحن بعدُ خطاة مات المسيح عنا! فإن كان ههنا رحيماً، فنحن نؤمن أنه لن يتغير أبداً.

٨ – حاشا لنا أن نفكر هذا النفاق، (أو نقول إن الله يمكن أن يكون عديم الرحمة)، إذا كانت خاصية الله لا تتحول كما هو الحال عند الأموات. لأن الله لا يقتني شيئاً لم يملكه، ولا يفقد شيئاً كان عنده، ولا يضيف شيئاً إلى ما هو عنده، كالمخلوقات. فكل ما هو له من البدء هو معه لا يفارقه إلى الأبد، كقول القديس كيرلس في تفسير الخليقة (أي سفر التكوين): خفْ من الله حبًّا به وليس بسبب الاسم القاسي الذي يُنسب إليه. أحببه لأن محبته دين عليك ليس من أجل ما سوف يعطينا إياه، بل من أجل ما قد أخذناه، وبالأخص من أجل هذا العالم الذي صنعه من أجلنا؛ فترى مَن ذا الذي يستطيع مكافأته؟ وأين هي مكافأتنا له في أعمالنا؟ مَن الذي بعثه أن يخرجنا إلى الوجود منذ البدء؟ ومن الذي تضرَّع إليه (من أجلنا) حين كنا غير مذكورين ولم نكن أتينا بعد إلى الوجود؟ ومَن الذي أنهض جسمنا إلى الحياة وقرن بهذا التراب المعرفة والتصور؟ فيا لرحمة الله العجيبة! ويا لنعمة بارينا المذهلة وقوته القادرة على كل شيء! ويا لصلاحه الذي لا يحيط به مقدار الذي يجود على طبيعتنا نحن معشر الخطاة بالوجود مُجدداً! ومن ذا الذي يفي بتعديد شرفه ومجده، إذ يقيم من الأموات المتجاوز سننه والمفتري عليه، ويجدد التراب الفاقد النطق ويجعله ناطقاً عاقلاً، ويجمع العقل المشتت والحواس المتفرقة ويجعلها طبيعة ناطقة أهلاً للتصور والتفكير، لأن الخاطئ لا يستطيع أن يتصور نعمة قيامته. أين هي جهنم القادرة أن تحزننا؟ وأين هو العذاب الذي يرهبنا بطرق متنوعة ويغلب فرح محبته؟ وماذا تكون جهنم إذا قيست بنعمة قيامته لنا، حين ينهضنا من الهاوية (بمجدٍ) ويلبس هذا الفاسد عدم فساد ويرفعه إلى الشرف والمجد بعد أن كان هابطاً إلى الهاوية؟

٩ – هلموا يا ذوي التمييز، وتعجَّبوا! ويا ذوي القلب الحكيم لنعجب من جود بارينا كما يليق! إذ (أنه قد) جازى المجرمين عوض المجازاة العادلة، بالقيامة من الأموات؛ وألبسهم بدل تلك الأجساد التي داسوا بها ناموسه، مجد الكمال. هذه هي النعمة العظمى، أعني إقامته إيانا بعد هفواتنا؛ وإنها لأَجلّ من تلك النعمة، أعني إبداعنا من العدم.

١٠ – السبح لجودك يا رب، الذي لا يقاس ولا يُحصى! يا رب، إن أمواج نعمتك جعلتني أصمت، ولم تُبْقِ فيَّ فكراً حتى لحمدك وشكرك. بأية أفواه نعترف لك أيُّها الملك الصالح، يا من تحب حياتنا؟ المجد لك على العالَمَيْن اللذين أبدعتهما من أجل نمونا ونعيمنا، يا من تقودنا بواسطة كل ما أوجدته إلى معرفة مجدك، من الآن وإلى الأبد، آمين.

المَيْمَر الْخَامِس والثلاثون

في الصبر من أجل محبة الله، وكيف توجد المعونة فيه

١ – بمقدار ما يزدري الإنسان بهذا العالم ويجتهد في مخافة الله، هكذا تدنو منه العناية الإلهية، ويحسُّ بمعاضدتها إحساساً خفياً، ويُعطَى أفكاراً نقية لكي يفهمها. ولو عَدِم الإنسان الخيرات العالمية كرهاً من غير إرادته، فإنه بمقدار ما يُحرم منها هكذا تتبعه رحمة الله وينشله جوده (وتحضنه محبته للبشر). المجد لمخلصنا الذي يعاملنا بحسب رحمته في الأمور اليمينية واليسارية، ويجعلها سبيلاً لإدراك حياتنا! لأن الذين يعجزون عن اقتناء حياتهم (بسبب عدم قدرتهم على احتمال الأحزان) بإرادتهم، يبعث الله نفوسهم على الفضيلة بأحزان ليست إرادية. والدليل على ذلك أن لعازر المسكين لم يعدم خيرات هذا العالم بإرادته، بل كان إلى جانب فقره مضروباً بالقروح في جسده، ولكنه باحتماله هذين الألمين المرّين – الوَاحِد منهما أردأ من الآخر – تكرَّم أخيراً في حضن إبراهيم. إن الله قريب من القلب الحزين الصارخ إليه صاحبه وقت الشدة. ونحن إذا حُرمنا في أي وقت من الأمور الجسدانية أو جُزنا بأي نوع من الأحزان، فما دمنا صابرين فإنه يجعل في ذلك لنا معونة، كالطبيب الذي يتلطف في إيجاد الصحة للمريض بمرض صعب بما يقوم به من عمل (جراحي)؛ بل ويعزيه الرب كثيراً بقدر صعوبة الأحزان التي كابدها في وقت شدَّته.

٢ – إذا كان الاشتياق لمحبة المسيح لا يملك فيك بقوة حتى أنه يجعلك لا تكترث بالآلام في كل أحزانك لأجل فرحك به، فاعلم أن العالم حيٌّ فيك أكثر من المسيح. وإذا كان المرض والعوز وانحلال الجسد والخوف من الأشياء المؤذية يزعج فكرك ويحوله عن بهجة أملك ورجائك، ويصرفه عن ذكرٍ وهذيذٍ طاهرٍ بالله، فاعلم أن الجسد حيٌّ فيك وليس المسيح. ويمكن القول ببساطة إن الشيء الذي تحبه ويملك فيك ويكثر ويقوِّي شوقك إليه، هو الذي يحيا فيك. أمَّا إذا كنتَ لا تعاني من العوز وكل ما تحتاجه متوفر عندك، وكان جسدك صحيحاً، ولا يُلمّ بك خوف من الأضداد، وتقول حينئذ إنك تقدر أن تسير نحو المسيح مسيراً طاهراً، فاعلم أنك مريض العقل وعادم لمذاقة مجد الله. وليس قولي هذا لك على سبيل الدينونة، بل لكي تعلم فقط مقدار ما قد عدمته من الكمال، حتى وإن كان لك جزءٌ ما من سيرة الآباء القديسين الذين سبقونا.

٣ – ولا تَقُلْ إنه لا يوجد إنسان قد ارتفع فكره بالكمال فوق ضعفه، أو أن شوق محبته للمسيح لا يقدر أن يغلب حزن قلبه حينما يتوعك جسده من التجارب والأحزان. إنني أسكت عن ذكر الشهداء القديسين لئلا أعجز عن الوقوف أمَّام عمق آلامهم وعن إدراك عِظم صبرهم النابع من قوة محبتهم للمسيح، وكيف تغلَّب (صبرهم) على شدة ضيق ومعاناة الجسد. لأن مجرد ذكر هذه الأمور فقط يُحزن الطبيعة البشرية، وهي تزعج الإنسان بجسامتها ورهبة تصورها.

٤ – والخليق بنا، على الأقل، أن نتأمل الكفرة الموصوفين بالفلسفة، [لكي من مثال صبرهم يمكننا أن نتعرف على ضعف إرادتنا. إلا أننا سنرجئ الحديث عن هذا الأمر إلى حين ونعود إليه في موضعه، حين نكون قد عرفنا أن مثل هذا الضعف هو أيضاً علامة مرض. ونحن لا نحكم على الأمر من جهتنا؛ لأنه ينبغي لنا أن نتأكد من سوء حالنا ونؤمن أنه بإمكان الإنسان أن يكون فوق هذه الحالة (من الضعف) تماماً. فالسكير لا يمكن أن يصدق أنه يوجد كثيرون لا يذوقون الخمر، والشهواني لن يصدق أبداً أنه يوجد كثيرون يعيشون في البتولية على الدوام، والإنسان المغلوب لأي شهوة لن يصدق أن هناك من لم ينغلب مطلقاً لهذه الشهوة، والمريض بمرض عضال لن يصدق أنه يوجد أحد لم ينضنك بالمرض. فهؤلاء وأمثالهم لا يقدرون أبداً أن يغلبوا شكوك عقلهم، فهم يجدون عزاءهم الوحيد في الاعتقاد بأنه لا يمكن لأي إنسان أن يتحرر تماماً من الانهزام أمَّام المحن والضيقات. وهم لا يصدقون على الإطلاق أنه يوجد أناس قد قويت فيهم محبة المسيح على ضعف الطبيعة البشرية، وجعلتهم يزدرون تماماً بالجسد ورغائبه. إنهم لا يصدقون أن هناك أشخاصاً لا تكف عقولهم أبداً عن فرحها في المسيح. وأنهم يقاومون قابلية طبيعتهم للانهزام أمَّام هجمات الضيقات الجسدية، وأن النعمة الإلهية تنتصر فيهم على عجز الطبيعة البشرية.

٥ – ولست أقصد أن أقول عن مثل هؤلاء الناس إن الأمَّاكن الوعرة في طريق الله قد انتهت بالنسبة لهم تماماً، أو إن هناك من يسلك هذا الطريق دون أن تلحق به التجارب. ولكنني بعكس ذلك أقول إن الإنسان الذي يحيا في الفضيلة سوف يجد أن الأحزان تزداد عليه يوماً بعد يوم، وكلما تقدم في سيره كلما وجد نفسه محاطاً بمحنٍ أكثر. وهذه هي في الواقع علامة صحة مسيرة الإنسان: أن يعيش في هذا العالم بالضيق والمرار وأن يغادر هذا الجسد بالألم. لأن هذا العالم ليس هو عالم الأبرار، ولا يمكن للأبرار أن يعيشوا فيه بدون أحزان. إلا أن إرادة الإنسان يمكن أن تحظى بقوة النعمة الإلهية لكي تزدري بالأحزان وتحفظ العقل ثابتاً في فرح محبة المسيح.

٦ – والحقيقة أن كثيرين قد أدركوا هذا الفرح، والآن أيضاً يمكن للناس أن يدركوه بفضل المعونة القوية التي يحظون بها من نعمة المسيح. أيُّها الإنسان، لا تحكم على أعمال جميع الناس حسب حالتك الخاصة! ولا تقِسْ تَدْبِيرهم بمقياس ضعفك! فإن أردتَ فابدأ بالرجاء وأنت تحظى بالمعونة؛ ولا تكن مرتاباً لئلا يتخلى عنك ذاك الذي يزرع هذا الرجاء فيك؛ لأنه إذا تخلّى عنك فستعرف حينئذ مقدار عِظم عجزك بالمقارنة بهؤلاء الذين انتصروا بالكمال على العالم واضطرابه.

٧ – وإن لم تصدق الكنيسة، فتعالَ إلى الفلاسفة لترى كم تقتني الإرادة من القوة حتى أنها تستطيع أن ترتفع فوق الجسد وتظل ثابتة لا تهتز فيما عقدت العزم عليه. وسترى كيف أن هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون الله قد قدَّموا للعالم نموذجاً بصلابة عزمهم وقوة ثباتهم في العمل البطولي، وأظهروا مقدار عِظم القوة التي تمتلكها طبيعتنا الداخلية بحيث أنها متى أرادت

استطاعت أن تقوى على كل شيء. ولهذا حين يقرأ الإنسان سِيرهم تأخذه الدهشة ويتعجب من عِظم القوة التي وضعها الله في الطبيعة البشرية؛ لانها متى شاءت غلبت الكل. ولكن لأننا نحن لم نستعمل إرادتنا نجاهر بصوت عالٍ ونعلن ضعف طبيعتنا! وإذ نخفي قوة طبيعتنا وراء ضعف إرادتنا نقول: مَن يستطيع أن يقوى على هذه الأمور؟!]

٨ – قيل عن أحد هؤلاء الفلاسفة أنه قرر في نفسه أن يحفظ الصمت زماناً ما، فتعجب ملك الروم حين سمع عنه هذا الأمر وأراد امتحانه، فأمر بإحضاره. فلما رآه صامتاً لا يجيب عن الأسئلة التي وجهها إليه غضب وأمر بقتله لأنه لم يحترم منبره ولا تاج مجده. أمَّا هو فلم يَخَفْ من هذا الأمر، بل ظل محافظاً على ما فرضه على نفسه، وتهيأ للصمت حتى الموت. وقال الملك للسيافين: إن هو جزع من السيف ونقض قانونه فاقتلوه، أمَّا إذا لم يكترث للموت وظل ملازماً صمته فردّوه إليَّ حياً. فلما اقتربوا من المكان المحدد أخذ السيافون يضيّقون عليه ليضطروه أن يحل قانونه حتى لا يموت. أمَّا هو ففكر في نفسه وقال: الأفضل أن أموت في ساعة وَاحِدة وأحفظ إرادتي – إذ قد جاهدتُ من أجل ذلك زماناً هذا مقداره – من أن أنغلب للخوف وأهين فلسفتي وأوجد فاشلاً وأعرِّض نفسي للذل من أجل الشيء الذي لابد لي أن أذوقه يوماً من الأيام. ثم مد عنقه للسيف بغير انزعاج. فلما علم الملك بذلك أعجب به كثيراً وأطلق سبيله بإكرام.

٩ – وفلاسفة آخرون داسوا على الشهوة الطبيعية؛ وقوم منهم احتملوا السب والإهانة بسهولة؛ وغيرهم صبروا على أمراض صعبة بغير حزن؛ وآخرون أظهروا صبراً عظيماً على الكثير من الشدائد والضيقات الصعبة. [وآخرون أيضاً كانوا يقومون بأعمال إرادية متنوعة؛ فالبعض منهم احتملوا العري الكامل فكانوا لا يلبسون شيئاً فيما عدا الستر الذي تحتاجه العفة، والبعض الآخر احتملوا العزلة في أمَّاكن منفردة واكتفوا بالأعشاب الخضراء طعامًا لهم. حتى أن اسكندر الملك حين ذهب مرة ليرى أحدهم لم يسمع منه سوى كلامٍ عن رفض العالم!

١٠ – وهم قد فعلوا كل هذه الأمور لكي لا يضطروا أن يتعطلوا عن الدرس والتأمل في حكمتهم. فإذا كان تعلّم وتَدْبِير الحكمة قادراً أن يقوم ببسالة بمثل هذه الأعمال بدون معونة خوف الله وبغير نور الإيمان ورجاء العالم الآتي، فمَن منا لا يتبكت من ضميره؟ لأنه على الرغم من نور المسيح الذي أشرق على العالم، والمواهب الكثيرة التي قد انسكبت بغزارة، والرجاء الإلهي الذي تؤيده الأعمال من يوم إلى يوم، إلا أنه حتى مع هذا كله فإن المحن وملذات الجسد ما زالت تتقوى على الإنسان ولا يستطيع أن يستخف بها بفرح ويصمد مقابلها كالماس بمحبته لله. أمَّا إذا كان هناك من لا يزال يرتاب: كيف يقدر الناس أن يتقووا على هذه الأشياء، فيجب على مثل هذا أن يعرف أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً بقوته الخاصة، وأنه يمكن بمعونة الله، حين تكون إرادته مستعدة، أن تجد كل شيء خاضعاً لها. وهذا الأمر يدركه جيداً كل إنسان حكيم.

١١ – مثل هذه الاعتبارات جعلت رهباناً كثيرين يمتلئون غيرة وحماساً، فأقدموا في الحال على ترك العالم وكل مقتنياته، وصمدوا واحتملوا بصبر كل محنة، وبثبات إرادتهم وبمعونة الرب (الحال فيهم) تقووا على كل صعوبة. وكثيرون صاروا هكذا لِما سمعوه عن الفلاسفة؛ لأنهم قالوا: إن أولئك الحكماء الملحدين الذين كانوا متغربين عن طريق الله ارتضوا أن يحتملوا مثل هذه الأشياء من أجل حكمة بشرية زائلة وعِلم هذا العالم الفاني، وقد تغربوا عن العالم ومكثوا بمعزل عنه في كافة شئونهم لكي يحققوا رغبة إرادتهم؛ ورغم عدم استقامة تأملاتهم، ورغم أن أعمالهم كانت بمعزل عن رجاء أي شيء بعد الموت، فإنهم فعلوا كل ما فعلوه وليس لهم من هدف غير الأمَّال الكاذبة الفارغة. فكم بالأَولى يجب علينا نحن معشر الرهبان المدعوين إلى مشاركة المسيح، أن نثبت في محبة الله ونزدري بكل صعوبة من أجل الرجاء الْعَظِيم الذي صار لنا الوعد به! فبهذه الاعتبارات تشددوا وغلبوا رخاوة أفكارهم وأقبلوا على الجهاد ولم يرجعوا إلى وراء حتى نالوا الإكليل. وهكذا صاروا نموذجاً للأجيال القادمة ومثالاً للعالم كله، وأوضحوا أنه ينبغي على من يختار هذا الطريق أن يُقبل إلى الجهاد (بشجاعة)]. لَيْتَنا نوجد أهلاً لذلك بشفاعة سيدتنا والدة الإله الفائقة القداسة والدائمة البتولية مَرْيَم، وجميع الذين أرضوا المسيح بعرق جهادهم، الذي ينبغي له المجد والإكرام والسجود مع أبيه المساوي له في عدم الابتداء وروحه المحيي المساوي له في الأزلية والطبيعة الوَاحِدة الآن وكل أوان وإلى أبد الدهور كلها، آمين.

المَيْمَر السَّادِس والثلاثون

على سيرة السكون

١ – حِب السكوت، يا أخي، بحرص لأنك فيه تجد نفسك الحياة. وليكن نظرك إلى ذاتك ولا تتركه خارجاً عنك؛ لأنك مادمت تنظر إلى غيرك فأنت لا تقدر أن تبصر نفسك، أمَّا إذا رددتَ نظرك إليك استطعت حينئذ أن تنظر نفسك. هدّيء حواسك الخارجية حتى يمكنك أن تُسكت الداخلية. لا تهتم بالأشياء الباطلة حتى تكثر لك المغفرة. هَدّيء نفسك من الاهتمام الباطل لكي تجد الفهم. اِجمع نظرك إليك حتى تفحص نفسك المعرفة. أحبب السكوت بتمييز لأنه ينبوع المعرفة؛ لأن العقل بالسكوت يتنقّى والفكر بالصمت يستغني؛ لأن السكوت يُكسب الحكمة ويجمع الحواس للمعرفة.

٢ – يا أخي، انتبه لذاتك دائماً، لأنك فيها تجد المعرفة. وإن أحببتَ الخلطة، فقد أبعدتَ عنك سترك. لا تتنازل مع المتراخين وإلا صيّرتَ ذاتك في الدرجة السفلى؛ بل اِجعل مناجاتك مع محبي الخير ليكن سكناك معهم في العلا. وفي المواضع التي فيها المعرفة العليا ليكن هناك مقامك بشجاعة. إلى بلدة النور تعالَ، ولا تتنازل عند الخطاة.

٣ – إن حياة الحكماء مضاعفة، وذلك لأن مناجاتهم هي مع الفوقانيين (أي السمائيين) بالرُّوح. لأن الذي يقتني الحكمة تجعله رجل الرُّوح. والذي يتدبر بالمعرفة وسط الجهال، يصير ملاكاً لابساً جسداً؛ وكمثل النور في الظلمة يشرق نوره بين المائتين. لأن الذي قد استضاء فهو يضيء لقوم آخرين؛ لأن نوره معه دائماً. والذي قد عرف نور الأنفس هو يرشد قوماً آخرين، وإن كان قد عرف المعرفة الحقيقية فهو يصير عيناً للآخرين. والذي بإفرازه قد وجد خلاص نفسه هو قادر أن يردّ الذين طغوا وهلكوا. وما دام الإنسان لم يجد بعد خلاص نفسه، فهو لا ينفع الآخرين. وما دام خيره مخفي عليه فهو لا يقدر أن يقدم الخير للآخرين. وما دامت نفسه خفية عنه فهو يكون أعمى في هذا العالم؛ وكذلك ما دام لا يبصر ذاته فهو لا يقدر أن يرى شيئاً في هذا العالم.

٤ – لأنه ليس بنظر الجسد يبصر الإنسان عالم الرُّوح. فالنظر الحقيقي إنما هو للنفس فقط. لأن النفس تنظر كل شيء على حقيقته بمعرفة. والنفس تنظر دون مشاركة الجسد، أمَّا الجسد فإذا نظر بدون العقل فهو يكون شبه البهيمة، والنفس بغير الجسد تنظر نظراً روحانياً. كما أن العقل والنفس هما غير مرتبطين بشيء؛ لأن النفس وإن كانت ساكنة في الجسد إلا أن معرفتها هي في الكل. وهي وإن كانت مرتبطة بالجسد فأفكارها منفصلة عنه. كذلك وإن كانت مقيدة مع هذا الجسد الثقيل، فسيرتها هي مع الرُّوحانيين. وإن كانت وهي على الأرض يحتويها هذا الجسم فهي تزرع دائماً في السماء. وإن كانت محبوسة في هذا الوطأ، فهي تُحسب مع الفوقانيين. وهي وإن كانت داخل هذا الجسد، فهي تطير بأجنحة خفيفة. وإن كانت مشتركة مع الترابيين فهي مختلطة مع الرُّوحانيين؛ لأن لها أجنحة خفيفة (وأفكارها) مثل السارافيم ومعهم

دائماً تمجد الخالق وتسبِّحه متى شاءت (أي النفس).

٥ – فاجمع نفسك يا أخي، واحرص أن يكون مسكنك عند سيدك. ارفع أجنحتك عن الأرض واطلع إلى البلدة التي استعدَّت لك، لأن الخالق يشاء أن يكون مسكنك هناك دائماً. هو مشتاق إليك، عطشان لرؤيتك، فاطلع وكلِّم خالقك. لأنه يحب كلامك وحديثك أفضل من المراتب العالية؛ وهو مشتاق إلى صوتك أعظم من صيحة الرُّوحانيين؛ وهو يحب هذا الترابي أفضل من مجمع النورانيين؛ وهو يفرح بحسن هذه الأقوال منه أفضل من بهاء السارافيم، ويحب صورة الإنسان أفضل من شعاع السمائيين، وسماجة آدم الذي خلقه هي أحسن عنده من كل الخليقة، وجبلة يديه أفضل عند الخالق من الكل. فهو يريدك أفضل من الكل، ومن أجلك خلق الكل، وأنت أكرم عنده من الكل، وهو الخالق الذي خلق الكل. إنه أتى ليطلبك من أجل محبته لك؛ فاخرج أنت في طلب ذاك الذي خرج ليطلبك. هو تنازل إلى عند حقارتك حتى تتعالى أنت إلى علوه، وأظهر نفسه عند السفليين لكي يرفعك أنت إلى بلدته الحقيقية.

٦ – فبالمحبة التي أتى بها الرب إليك اسلك بها أنت وامضِ إليه. وفي تلك الطريق التي نزل بها إلى بلدتك تعالى فيها أنت إلى علوّه. إنه سكت أولاً في الحشا وبعد ذلك خرج وخاطبك، فاخترْ أنت السكوت مثله حتى تختص بمناجاته. لقد سكت الرب في الحشا وبعد ذلك في خروجه خاطب البشر، فاسكت أنت من اضطراب جسمك وبعد ذلك تكون مخاطبتك مع الرُّوحانيين، ويكون سكوتك مثل الطفل في أحشاء والدته ومنها تولد الكلمة، ومن السكوت تأتي للكلام مع الرب خالقك.

٧ – من السكوت خرج الرب وتنازل وأتى إليك، فاسكت أنت من المناجاة وبعدئذ تقدر أن تهذّي أفكارك. لأنه ما دامت خلطتك كثيرة فأفكارك تكون تائهة، فقلِّل خلطتك بالكثيرين حتى تقتني فكراً جيداً، واقطع حديثك مع المائتين حتى تتعلم الحديث مع الأحياء. اجمع نظرك من كل المناظر حتى تنظر خالقك وتتأمل في عظمته. فإن صرتَ ساكتاً مع نفسك فإنك تحسّ بالسكوت الإلهي. وإن سكتَّ وانقطعت عن الحديث مع الآخرين، تنظر بعد ذلك إلى سُبح خالقك. وإن صرتَ وحيداً في مسكنك فإنك تصير وحيداً في فرحك بالله؛ لأنك لا تقدر أن تتأمل بمنظر خالقك الفرِح إن لم تَبعُد من الناس وتُبعِد نظرك وأفكارك عنهم.

٨ – لأنك ما تجد أحلى من خلطتك مع الرب، وما تجد ألذّ وأنعم من حديثه، ولا تجد أَخْيَر من كلمته! فأَحبب كلامه حتى تتحكم؛ لأن كلمة الرب شهية لمن يقدر أن يسمعها، فليست كل أذن تقبل هذا التعليم الرُّوحاني، ولا كل فرحة تساوي فرحة رؤية ذلك الوجه المملوء كل فرح. فكل حُسن في الدنيا ما يساوي حُسنه، ولا يستطيع البشر أن ينظروه. إن الله محبوب عند كل من قد أحسَّ به، ومحبته عنده تثبت. أمَّا الذي قد أحب الله وأحسَّ به فهو يحب الله وحده فقط، والباقون كل وَاحِد منهم على قدر رتبته يخدم الله بمخافة. مِن السماع، الله مرهوبٌ، أمَّا الذي جرَّب محبته فهو أحب إليه من الكل. فإلى أن تختبر محبته خَفْ، ومن يخاف يحفظ وصاياه. أمَّا التجربة فتوصِّل صاحبها إلى المحبة التي لا تنقضي (ولا يُنطق بها).

صلاة:

٩ – فأهلني يا رب أن أكون من خاصتك، وقوِّم ونقِّ أفكاري لأني ناقص عن الرجال الأبرار القديسين الكاملين. فاجعلني أخدمك في إنساني الباطن أنت يا من تفحص القلوب والكلى. فلأكن من الخارج مبغوضاً من المرئيين، ومن الداخل أخدم أزلَيْتَك. من خارج اجعلني أخدمك، ومن داخل أهِّلني لكرامتك. في نيرك الخفيف أخدمك أنت الذي تقبل إليك النذور والعشور. اغفر ذنوب نفسي وخطاياها، لأنها تطلب إليك بتنهد. أعطني يا رب أنا الفاعل المتواني الذي أجاز أيامه بالبطالة، أن أجتهد في عمل التوبة حتى أرث الحياة بنعمتك، لكي يتشجع بي الخطاة البطالون ويحرصون على خدمتك، وأكون شاهداً للظالمين بكثرة محبتك التي أظهرتها نحوي. لأني لا أستحق خبز يوم وَاحِد ولكنك ائتمنتني على خيراتك. فلتكن رحمتك عوناً لي في ذلك اليوم البهي، في مجيئك المرهوب، حتى أبغض مبغضيك، وأكون صديقاً لقديسيك الذين أرضوك في جهادهم وأبعد عن كنيستك السجس والرياح، حتى يهتم كل إنسان بذنوبه. وأهِّلني أن أرث الحياة في ملكك أنت يا يسوع رجاء الساجدين لك. واطرح سلامك في المسكونة، وأَبطل الشرير عنا، لأنه ينصب لنا كل يوم فخاخه. وليخز الشيطان وكل جنوده؛ ونقدم نحن السبح لأزلَيْتَك، وتفرح الملائكة في السموات برجوع الخطاة، آمين. ولك ينبغي المجد والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

رسالة لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي

كتبها إلى أخ مُحب للسكون، في كيف يحتال الشيطان أنْ يعطل الحريصين على المداومة في السكون بحجة محبة الخير للقريب ولجليل القدر. وكيف يجب على المتوحد أنْ يرفض كل شيء لأجل معرفة الله التي لا يمكن الحصول عليها إلا في السكون كسيرة آبائنا القدماء

١ – لمّا كنتُ أعرف أنك محب للسكون، أيُّها الأخ الفاضل، وأن الشيطان، لمعرفته بقصد ضميرك، يحاول أن يعرقلك باهتمامات كثيرة بحجة فعل الخير، لكي يُشتِّتك ويصدّك عن هذه الفضيلة الكثيرة الجزاء والمشتملة على كل خير؛ فكما يساعد الأخ أخاه، أردتُ أنا أن أُشدد شوقك الحسن بكلمة منفعة مما جمعته من أناس حكماء في هذا التَدْبِير، ومن الأسفار الإلهية ومن الآباء ومن الخبرة التي اقتنيتها بنفسي، فأقول لك: إن لم يَزدرِ الإنسان بالكرامة وبالمحقرة، ويصبر من أجل السكون على العار والهزء والخسارة وحتى الضرب، ويصبح هدفاً للسخرية، ويظن كل من يراه أنه أحمق وتائه (ومخبول)، فهو لا يقدر أن يقتني السكون. لأنه إذا فتح باب قلايته مرة وَاحِدة لإنسانٍ ما بسببٍ من الأسباب، فلن يهدأ الشيطان من أن يبعث إليه بأناس لأسباب كثيرة، ويقوده إلى لقاءات لا تُحصى، مفتعلاً لذلك حججاً كثيرة متنوعة. فإذا كنتَ، يا أخي، تحب فضيلة السكون الذي ليس فيه سجس ولا تنقل ولا انقطاع في مسيرته التي بواسطتها انتصر الأَوَّلون، فإنك تستطيع أن تحقق رغبتك هذه الممدوحة إذا تشبهت بآبائك وحفظت في عقلك مثال سيرة حياتهم. لأنهم قد أحبوا السكون بالتمام، ولم يهتموا بمحبة القريب ولم يسمحوا لأنفسهم بالانحلال من أجل إراحته، كما ولم ينخدعوا للقاء أوجه الناس الشرفاء.

٢ – لقد كانوا يتدربون في سكونهم بهذا الأسلوب، ولم يفعلوا ذلك لأنهم كانوا يزدرون بإخوتهم، كما أن أحداً من الحكماء وذوي المعرفة لم يَلُمهم كمهملين أو متكبرين أو عديمي التمييز. بل إن أحدهم في دفاعه عن الذين يكرِّمون السكون والانفراد أفضل من لقاء الناس، قال: «إن الإنسان الذي قد تعلم من الخبرة وذاق حلاوة السكون في قلايته، لا يحتقر أخاه عندما يهرب من ملاقاته، ولكنه يهرب من أجل الثمرة التي يجتنيها من السكون». ثم أضاف: «وإلا فلماذا كان الآباء يهربون؟ فالأَنْبَا أرسانيوس لم يكن يرتاح بلقاء إنسان. وأنبا تادرس، مع أنه كان يلتقي بالناس إلا أنه كان في ملاقاته كالسيف (أي أنه كان يتركهم بسرعة)، ولم يكن يسلم على أحد وهو خارج قلايته. وكذلك القديس أرسانيوس لم يكن يسلِّم حتى على الذين كانوا يأتون ليسلِّموا عليه. فقد ذهب أحد الآباء مرة ليراه، وفتح الشيخ بابه معتقداً أنه تلميذه، فلما وجد آخر غيره انطرح بوجهه على الأرض. فألحَّ ذلك عليه كثيراً أن ينهض ويباركه قائلاً: قم يا أبي حتى أسلِّم عليك عند الباب فقط وأمضي. فأجابه القديس وقال: «لن أقوم حتى تنصرف»، ولم يقم حتى مضى ذلك الأخ. وقد فعل الطوباوي ذلك حتى لا يعوِّدهم أن يأتوا إليه.

٣ – تأمل معنى الكلام، لئلا تظن أن الشيخ قد احتقر الأخ لسبب وضاعة حاله، أو أنه كان يحتقر الوَاحِد ويكرم الآخر، بل كان يهرب من الجميع على السواء، وكان الكل عنده بمنزلة وَاحِدة. لقد وضع أمَّام عينيه شيئاً وَاحِداً فقط أن يرفض لقاء الكل، الكبير والصغير، ويحتمل تعييراتهم من أجل كرامة السكون والصمت. ويؤكد ذلك ما نعلمه عما حدث مع الْأَنْبَا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية عندما ذهب إليه يوماً وكان معه والي البلاد بسبب كرامته وشوقهم إلى رؤيته. فلما أتوا إليه لم يتفوَّه بكلمة وَاحِدة تكريماً لهم، وقد كانوا مشتاقين أن يسمعوا كلامه. فلما طلب إليه رئيس الأساقفة أن يكلمهم سكت الشيخ قليلاً ثم أجابهم وقال لهم: «إن أنا قلت لكم أتحفظون كلامي»؟ فقالوا له «نعم». فأجابهم الشيخ وقال: «أينما سمعتم بأرساني فلا تتقدموا إليه».

٤ – أرأيتَ أعجوبة الشيخ؟ أرأيتَ زهده في تكريم الناس؟ هذا هو حقاً الإنسان الذي يعرف كيف يقطف ثمرة السكون! لأن القديس لم يتفكر أنه أمَّام رجل شريف ورئيس الكنيسة كلها، بل قال في نفسه: إني قد مُتُّ للعالم مرة وَاحِدة، فما هي منفعة الميت للأحياء؟ ولقد لامه الْأَنْبَا مقاريوس الطوباوي على ذلك لوماً مليئاً بالمحبة، حيث قال له: «لماذا تهرب منا»؟ فأجابه القديس بجواب عجيب يستحق الثناء: «الله يعلم أني أحبكم، ولكني لا أستطيع أن أكون مع الله ومع الناس». ومرة أخرى أرسل إليه رئيس الأساقفة يطلب أن يراه، فبعث إليه الشيخ يقول: «إن جئتَ فتحتُ لك، وإن فتحتُ لك فأنا أفتح للكل، وأن فتحتُ لكل الناس فما أقدر أن أُقيم ههنا». فهذا الكلام العجيب لم يتعلمه من آخر، إلا من الصوت الإلهي الذي قال له: «يا أرسانيوس اهرب من الناس وأنت تخلص».

٥ – فلا يتجاسر أحد من البطالين ومحبي الحديث ويشوِّه كلامه هذا ويناقضه مدعياً أنه حيلة بشرية استعملها (القديس) طلباً للسكون؛ إنه حقاً تعليم سماوي. ولكن لئلا يُظَن أن هذا الكلام قيل له عن الخروج من العالم فقط وليس عن الهروب من الإخوة، فهو بعد أن ترك العالم وأتى إلى الدير صلّى أيضاً إلى الله وقال: كيف أستطيع يا رب أن أحيا وأعيش كما ينبغي؟ دبِّرني أنت وأرشدني كيف أخلص. وقد كان يظن أنه سيسمع شيئاً آخر؛ ولكنه سمع أيضاً الصوت الإلهي يقول له: «يا أرساني فر واصمت واسكن (أي الزم السكون)؛ فإن كان منظر الإخوة وحديثهم نافعيْن جداً، إلا أن الانشغال معهم لا ينفعك مثلما ينفعك الانفراد منهم».

٦ – فعندما تقبَّل الطوباوي هذا الإعلان الإلهي، وأمره أن يهرب، كان لا يزال في العالم؛ ولما صار مع الرهبان قيلت له هذه الكلمة أيضاً أن يهرب، حينئذ اقتنع وعرف أن الهروب من أهل العالم وحده لا يكفي لكي يقتني الحياة الفاضلة، بل إنه يلزم أيضاً أن يهرب من الكل على السواء. أَلعله يمكن أن يبطل كلام الله أو يقاومه؟ وقد قيل أيضاً للأنبا أنطونيوس بإعلان إلهي: إن كنتَ تريد أن تعيش في سكون فلا يكفي أن تذهب فقط إلى طيبة، بل إلى البرية الداخلية. فإذا كان الله يأمرنا أن نفرَّ من الكل وأن نحب السكون بهذا المقدار؛ وإذا كان من يحب الله يثبت في السكون، فمن هو الذي يلتمس العلل لنفسه لكي يدوم في المفاوضة والقرب من الناس؟ فإذا

كان الاحتراس والانفراد أمرين نافعين لأنطونيوس وأرسانيوس فكم بالأكثر ينفعان للضعفاء؟ وإذا كان أولئك – الذين كان العالم كله محتاجاً إلى صَلَوَاتهم وتعاليمهم وكلامهم والمنفعة بمنظرهم – قد أكرم الله ثباتهم في السكون أكثر من منفعة الناس (أو الإخوة) كلهم، فكم بالأكثر جداً هو الحال بالنسبة لمن لا يقدر أن يحفظ نفسه جيداً؟

٧ – ونحن نعرف عن اثنين من القديسين كانا إخوة بالجسد، مرض أحدهما وكان الآخر قد حبس نفسه في قلايته وصبر كل زمان مرض أخيه دون أن يخرج ليفتقده. وعندما اقتربت ساعة انتقاله أرسل إليه قائلاً: «تعالَ الآن حتى أبصرك قبل موتي؛ تعالَ ولو بالليل لكي أسلم عليك وأتنيح». لكن (ذلك الأخ المغبوط) لم يجبه، ولا في تلك الساعة التي تتحرك فيها (مشاعر) الرحمة والشفقة الطبيعية وتغلب ما قررته الإرادة؛ بل فكر في نفسه قائلاً: «إن أنا خرجتُ لن يكون قلبي نقياً أمَّام الله، لأني لم أذهب لافتقاد بقية الإخوة الرُّوحانيين، وأكون قد أكرمت الطبيعة (أي القرابة الجسدية) أكثر من المسيح». فمات أخوه ولم يبصره.

٨ – (فلا ينبغي لأحد – بسبب أفكار الكسل والتراخي – أن يتعلل بأن هذه الأمور مستحيلة ولا يمكن تتميمها، أو أنها ليست بتَدْبِير من العلاء، فيبطل سكونه رافضاً تَدْبِير الله له. فإذا كان القديسون قد تغلَّبوا على الطبيعة القوية بهذا المقدار؛ وإذا كان المسيح يحب أن يرى السكون مكرَّماً عند القديسين حتى ولو كان في ذلك إهمال لأولاده، فأية ضرورة أخرى يستحيل عليك تركها إذا عرضت لك؟) لقد كان القديس أرسانيوس يزدري بنفسه في كل شيء لأنه كان يكرم السكون بسبب الوصية القائلة: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، وأكثر من العالم وأكثر من الطبيعة وكل متطلباتها؛ وهذا يتحقق لك إذا ثبتَّ في السكون. أمَّا الوصية التي تأمر بمحبة الأخ، أي أن تحب القريب، فتحتويها وصية محبة الله. لأنك سوف تقتني في نفسك محبة قريبك بحسب وصية الإنجيل عندما تبتعد عنه، لأنه حينئذ تشتعل فيك حرارة حبه، وتشتاق إلى منظره كمن يشتاق أن ينظر ملاك النور. وإن كنتَ تريد أيضاً أن يتعطش إليك أحباؤك، فانظر إلى وجوههم في أيام محدودة فقط. والخبرة هي بالحقيقة تعلِّم كل شيء. كن معافى بالرب، آمين.

رسالة لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَانـي

للردِّ على سؤال لأحد الإخوة بخصوص عمل الرحمة

سؤال:

لماذا حدَّد رَبِّنَا أن عمل الرحمة هو تشبّه بالآب السماوي ومع ذلك يختار المتوحدون السكون أكثر منها؟

الجواب:

١ – حسن هو قولك إذ قد أخذتَ مثلاً من الإنجيل لتقارن به بين عمل الرحمة وتَدْبِير السكون. ونحن لا نعارض هذه الوصية ولا نطلب إبطالها. إن الرب قد حدد أن الرحمة هي تَشبُّه بالآب السماوي؛ ذلك لأن الرحمة تُقرِّب الذين يعملونها إليه، وهذا أمر صحيح لا شك فيه. ونحن الرهبان لسنا نلزم السكون بدون الرحمة، ولكننا نجتهد قدر المستطاع أن نبتعد عن الاهتمام والتشويش ونتحفظ في ذلك جداً. لكن هذا لا يعني أننا نريد أن نرفض عمل الأمور الضرورية متى عرضت لنا، بل إننا نتوفر على السكون حتى نَثبت ملازمين لله تعالى؛ فبهذا السكون يمكننا أن نُروِّق نفسونا وننقيها من الكُدرات ونقترب من الله. فإن كانت الضرورة قد تلزمنا أحياناً بمساعدة الإخوة بعض الوقت، فما يليق بنا (مع ذلك) أن نهمل السكون. ولنغصب أنفسنا أن نكون في كل حين كاملين في الرحمة داخلياً لسائر طبائع الناطقين، فهذا هو ما يأمرنا به تعليم المسيح، وهو بالفعل ما يتميز به سكوننا. ولسنا نكتفي بحفظ هذه الرحمة في داخلنا فقط، بل ومتى دعت الحاجة إلى العمل من أجل أمر من الأمور الضرورية، فما يليق بأحدنا أن يتأخر عن إظهار محبته بالفعل بكل وضوح؛ ولا سيما أولئك الذين لم يقطعوا على أنفسهم بالسكون الكلي، بل يحفظون فقط سكون الأسابيع (سواء كانوا يخرجون فقط كل أسبوع أو كل سَبْعةً أسابيع)؛ لأن هؤلاء لا يمسكون أنفسهم عن عمل الرحمة للقريب حتى ولو كانوا يضبطون قانون سكونهم حسبما حددوه لنفوسهم. إلا إذا وُجد إنسانٌ قاسٍ وعديم الإنسانية فهذا يكون سكونه مراءاةً وتظاهر أمَّام أعين الناس. لأننا قد عرفنا أنه لا يمكن للعقل أن يستنير بالحديث وبمحبة الله بدون محبة قريبنا.

٢ – والآن مَن هو الرَّاهِبُ الحكيم الذي يكون له الكساء والطعام ويحتمل أن يرى أخاه أو قريبه جائعاً أو عرياناً ولا يعطيه كل ما عنده دون أن يُبقي لنفسه شيئاً؟ أو من هو الذي يشاهد أخاه مريض الجسم وليس له من يفتقده، ويرى هو – لسبب شهوة السكون – أن يحافظ على قانون الانفراد والتوحد والسكون، مفضلاً ذلك على راحة أخيه وقريبه؟ فإذا لم تكن هذه الأمور حاصلة ولا هي قريبة منا، فلنحفظ عندئذ محبة ورحمة القريب في عقلنا. أمَّا إذا كانت الأمور (التي تستوجب عمل الرحمة) قريبة منا، فعلينا أن نكمل عمل المحبة والرحمة للقريب بالفعل أيضاً؛ لأن الله يطالبنا (في ذلك الوقت) أن نكملها بأعمال ظاهرة بالفعل. أمَّا إن كنا لا نملك شيئاً

من القنية، فإنه من الواضح أيضاً أنه لا يأمرنا أن نُلقي أنفسنا في الاهتمامات والتشويش من أجل المساكين. لأن الله لا يطلب منا إلا ما هو في استطاعتنا أن نعمله. كما أنه إذا كانت سيرتنا تُوجب علينا الابتعاد من الناس ومن نظرهم ومن الاختلاط بهم ومن الجلوس معهم، فإنه لا يليق بنا أن نترك قلايتنا وموضع توحدنا وعزلتنا، ونسلم أنفسنا للتجول والطواف في العالم لكي نتعهد بالمرضى ونتشاغل بمثل هذه الأعمال. فمن الواضح أن هذه الأمور هي انحطاط وانحدار من الأعلى إلى الدون. أمَّا إذا كان الإنسان قريباً من الآخرين وكان مسكنه في جوار الناس، وهو يستريح بأتعابهم، سواء كان ذلك في زمان صحته أو في مرضه، فيجب عليه هو أيضاً أن يعمل معهم كما عملوا هم معه، ولا يطلب راحته فقط من الآخرين. والذي يرى ابن جنسه الذي يشاركه شكله وزيَّه في ضيقٍ، أو الأحرى أن يقال إنه يرى المسيح طريحاً ومضنوكاً بالتعب فيهرب ويخفي نفسه منه ويتظاهر بالسكون الكاذب، فلا شك أنه عديم الرحمة، هو وكل مَن يشابهه.

٣ – وإن ذكرت لي أمر يوحنا التبايسي وأرسانيوس ومن يشبههما قائلاً: مَن من هؤلاء أسلم نفسه لأعمالٍ من هذا النوع، أو اهتم بأحدٍ من المرضى والمساكين وأهمل سكونه؟ فأنا أقول لك: لماذا تتكلم عن أعمال أناس أمثال هؤلاء! إنك لو ابتعدت عن كل راحة بشرية وزهدت تماماً في لقاء الناس مثلهما، لسمح الله لك أن تترك عنك مثل هذه الأعمال. فإن كنتَ بعيداً عن طريق الكمال، وأنت مداوم على أتعاب الجسد وملازم لمحادثة الناس وقُربهم في كل حين، فلماذا تتهاون في حفظ الوصايا التي يقتضي مقدارك حفظها، وتحتج بالسيرة الْعَظِيمة التي لآباء قديسين كاملين وأنت بعيد عن طرقهم كل البعد؟

٤ – ولا يفوتني هنا أن أذكر ما جاء عن ذلك الأب الْعَظِيم (القديس مقاريوس الكبير)، لأجل قطع حجج الذين يزدرون بإخوتهم. فقد كُتب عنه أنه ذهب مرة ليفتقد أخاً مريضاً، فلما سأله عما يشتهيه قال له: إنني أشتهي خبراً طريّاً (قال ذلك لأن رهبان ذلك المكان كانت عادتهم أن يخبزوا خبزهم مرة وَاحِدة كل سنة!)، فمضى ذلك المستحق الطوبى من الأسقيط إلى الإسكندرية، وكان ابن سَبْعين سنة، وأبدل خبزه اليابس بخبز طري وأحضره إلى الأخ.

٥ – أمَّا الْأَنْبَا أغاثون (وقد كان شبيهاً بالقديس مقاريوس) فقد عمل عملاً أعظم من هذا، وهو الذي كان يلزم الصمت والسكون والهدوء طول أيام حياته أكثر من كل أحد. ذهب هذا الإنسان العجيب مرة إلى الريف ليبيع شغل يديه، فوجد في السوق إنساناً غريباً مطروحاً مريضاً (وليس له من يهتم به)، فحمله واستأجر له بيتاً وأقام معه يعمل بيديه ويدفع أجرة البيت وينفق عليه، وظل يخدمه ستة أشهر حتى شُفي. وكان أيضاً يقول: إنني أشتهي أن أجد رجلاً مجزوماً أعطيه جسدي وآخذ جسده. هذه هي المحبة الكاملة؛ محبة الخائفين من الرب.

٦ – فالذين يخافون الله، أيُّها الحبيب، يحفظون الوصايا باجتهاد ومسرة؛ فإذا ما عرض لهم عملها وتكميلها، وإن كانت شاقة جداً، فما كانوا يتركونها تفوتهم. ونحن نجد في قول الرب إن كل الناموس والأنبياء يتعلق بهاتين الوصيتين: محبة الله ومحبة القريب. أمَّا الوصية الأَولى،

أي محبة الله، فهي تجعل الإنسان يقتني هدف تاؤرية الرُّوح. وأمَّا الثَّانِية، أي محبة القريب، فهي تصلُح علماً وعملاً. فلأن الطبيعة الإلهية هي بسيطة وغير مركبة ولا مرئية، وغير محتاجة بطبيعتها، فإن الفكر لا يحتاج في فعل محبة الله إلى عمل جسدي أو أفكار مجسمة، ذلك لأن فعلها بسيط بحسب بساطة عِلَّة الكل المسجود له. فهو (أي فعل محبة الله) يكمل بجزء مفرد وحيد بالعقل بطريقة تفوق الحس الجسدي واللحمي، (أي بالتأمل فقط). أمَّا الوصية الثَّانِية التي هي محبة القريب، فبحسب الطبيعة البشرية المزدوجة (أي المركبة من نفس وجسد)، هكذا يكون عملها أيضاً مزدوجاً، أي أنه ينبغي أن تكمل (محبة القريب) بالتصور في العقل بحال غير منظورة، وأن تكمل أيضاً بالجسد بالفعل الظاهر. وما نكمله بالأعمال الخارجية الظاهرة ينبغي أن نتممه بالنيّة أيضاً.

٧ – فلأن الطبيعة البشرية مكوّنة من جزئين أي النفس والجسد، هكذا تصرُّف الإنسان يكون متضاعفاً حسب تضاعف خلقته. ولأن العمل يسبق العلم (أي النظر الإلهي) في كل الأمور، فلا يمكن لأحد أن يرتفع إلى علو ذلك الجزء العالي (أي النظر الإلهي) قبل أن يكمِّل أولاً الجزء الأدنى (أي العمل) بالجسد بالفعل. كما أنه لا يقدر أحد أن يقول إنه يكمِّل محبة القريب أو إنه يقتنيها إذا ما تخلَّف عن هذا الجزء، أعني الذي يُكمَّل بالجسد حسب قوته وإمكانيته، وحسب اتفاق الوقت والمكان، هذه الأمور التي تسهِّل عليه تكميل العمل. ولا يصح أن يقال عنه أيضاً إنه يقتني ذلك الحب الذي يُكمَّل بالتصور العقلي، لأنه بهذا (أي بتكميل العمل بالفعل) يُعرف ذلك الحب. وعندما يُكمِّل المؤمن المحق محبة القريب (بجزء الجسد) حسب استطاعته، فحينئذ تُعطى للنفس أيضاً قوة لكي تمتد إلى ذلك الجزء العالي الجليل الذي هو التصور الإلهي بالأفهام البسيطة التي ليس لها مثيل. أمَّا إذا لم يقدر الإنسان أن يكمِّل محبة القريب بأعمال منظورة تتم بالجسد، فيكفي عندئذ أن يحفظ بفكره محبة القريب مع محبة الله؛ هذا إذا صحَّ معنا اقتناء ذلك الجزء العالي (أي محبة الله) الذي هو كافٍ وحابس (أي شامل لكل شيء).

٨ – أمَّا إذا كنا ناقصين عن تكميل عمل هذا الجزء العالي الشامل لكل شيء، فينبغي لنا عندئذ أن نكمل عوزه بالوصية الثَّانِية الجزئية أي محبة القريب بالعمل الحسّي الظاهر حسبما تدعو الضرورة، فنكمِّل راحة إخوتنا بتعب أجسامنا، لئلا تكون حريتنا حجة للخضوع لهوى الجسد حين نتمسك بالمفاوضة (مع الله) في السكون بالاسم فقط بينما نحن نهدس ونشقى في الأباطيل. لأنه معلوم لكل أحد أن مَن ابتعد عن المحادثات والخلطة مع الناس وانقطع عنهم بالكلية وصار مائتاً عنهم من أجل مفاوضته مع الله وحده، لا يُسمح ولا يُطلب من مثل هذا الإنسان أن يخدم الناس. فإن كان ممسكاً بالسكون بقانون الأسابيع فقط، وبعد كمال قانونه يخرج ويختلط بالناس ويتعزى بالمفاوضة معهم، ولكنه يهمل الاعتناء بأخيه إذا رآه في ضيقة أو مريضاً، ويظن أنه بهذا يحفظ قانون الأسابيع، فمثل هذا الإنسان يكون قاسياً في الحقيقة، وأمره معروف أنه لسبب عدم الرحمة والغرور والأفكار الكاذبة لا يريد أن يتنازل (لمساعدة

الإخوة) بشيء من هذه الأمور. وهذا دليل واضح أنه لا يمتلك رحمةً.

٩ – فاِعلم هذا: أن مَن يزدري بالمريض لن يبصر نوراً؛ ومن يلفت وجهه عمن هو في ضيقة يُظلِم عليه النهار؛ والذي يغفل عن صراخ من يتألم من تعبٍ فهو في الظلام يسلك.

١٠ – فلا ينبغي أن نمتهن الاسم الْعَظِيم، اسم السكون بجهلنا. لأن لكل سيرة وتَدْبِير وقتاً وزماناً وتمييزاً، والله يعرف الكل، وهو بحسب قدرة كل وَاحِد يقبل عمله، وبغير هذا فباطل عمل الساعين بكل منزلة وراء الكمال. فالإنسان الذي يرجو أن يتسلّى بالتعزية من الآخرين وقت مرضه أو ضيقته، عليه أن يتضع هو أيضاً ويتعب مع أخيه في وقت ضيقته وتجربته حتى يصير عمله في سكونه بفرح بعيداً عن كل كبرياء وغرور وكل ضلالة للشيطان. لأن العمل الملائكي الذي هو عمل السكون يكون عظيماً جداً عندما يمتزج به التمييز بهذه الصفة؛ لأننا في حاجة إلى التواضع الذي إذا أهملناه نُسرق من حيث لا نعلم. فقد قال أحد القديسين ذوي المعرفة إنه ليس شيء ينجي الرَّاهِبُ من شيطان العظمة ويساعد على حفظ العفة أثناء اشتداد قتال الزنا مثل افتقاد المضنوكين في الأمراض والأسقام.

١١ – وقد قلتُ هذا، يا أخي، لا لكي نهمل ونحتقر عمل السكون، فنحن نحضّ عليه في كل موضع، ولا نوجد هنا مناقضين لما قلناه في موضع آخر. فلا يأتي أحد بكلمة مجردة يقتطعها من أقوالنا ويتمسك بها بغير تمييز ويترك أقوالنا الأخرى. فأنا أتذكر أنني قلتُ في مواضع كثيرة داعياً وطالباً أنه حتى وإن عرض لإنسان أن يكون في عطلة كاملة بسبب مرضٍ ألمَّ به، فلا ينبغي لهذا السبب أن يختار الخروج من قلايته نهائياً ويظن أن العمل البراني أفضل من الثبات في القلاية بدون عمل. لكنني لست أعني بهذا أنه إذا اتفق في وقتٍ ما أن دعت الحاجة إلى عمل ضروري فنضطر أن نخرج من قلايتنا بسببه لكي نربح راحة أخينا أو حياته، أن نحسب هذا الخروج بطالة. ولكن إن فكَّر أحدٌ أنه أعلى وأرفع من جميع أمور هذه الحياة الحاضرة بسبب ثباته ومداومته (المفاوضة) مع الله وابتعاده من كل عمل ظاهر منظور، (لكان) يحق له أن يمتنع عن هذه الأمور (ويبقى في السكون). عظيم جداً هو عمل التمييز بالنسبة لقومٍ يساعدهم الله! فليعطنا الرب بكثرة رحمته أن نتمم قوله: «كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا». الذي يليق به المجد والتسبيح مع أبيه وروحه الْقُدُّوس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

رسالة لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَانـي

إلى أحد الآباء، عن السكون

١ – إنَّ طلبتك، أيُّها الحبيب، لا تليق لكل أحد، بل للذين لهم سر الرُّوح، وللقلب الذي قد هدأ بالسلام وبالنعمة وذاق الحق خفياً، وهو يسعى تابعاً النقاوة بالميتوتة عن الكل؛ لأن السلام يُدعى موضع الله. والمتوحد الذي يريد أن يكون قلبه مسكناً لله، ينبغي أن يُفلِّحه بالأعمال النشيطة، ويُهدِّئه من جميع الحركات المسجِّسة التي للناس ومن المفاوضات والملاقاة النافعة والمخسِّرة، وبالأكثر مع القريب؛ لأن الشيطان يسجِّسه بواسطته، فيكدِّر نقاوة نفسه. كذلك ينبغي أن يتحفظ كي لا يهدس الضمير في داخله مع أي أحد بالكلية، ولا يذكر الأصدقاء والأقارب، بل يضبط حبه بالمودة للكل على السواء، ويهدِّئ قلبه دون تمييز للوَاحِد عن الآخر.

٢ – ولأن هذا العالم هو مسجَّس ومتكدر، يُفعل فيه الصلاح والشرور، لذلك فلا يمكن أن نتخلص ونحن في العالم من الشرور. فإن كنا نريد أن نعمل الفضيلة الطبيعية بالبر كنوح وإبراهيم وأيوب (في العالم) فهذا مُستطاع، ولكن أن نبلغ ونحن في العالم أن نكون مسكناً لله بالطهارة وبنقاوة نفوسنا، فما نستطيع ذلك. وإن كان أفراد قلائل قد أدركوا ذلك، فبمعونة من الله بنوع من السياسة (أي بالتَدْبِير الإلهي). ولهذا كان آباؤنا القديسون يهربون من العَمْر إلى القفر، ويعيشون كإخوة في جماعة وَاحِدة باتفاق ومحبة، كما كُتب في الإبركسيس، وأي شيء كانوا يقتنونه كان للجوِّ (أي المخزن العام)، حيث كان عندهم كل شيء مشتركاً. وجميع الإخوة كانوا نفساً وَاحِدة برأي وَاحِد بسلام ومودة وبلا انقسام قلب. وكانوا بملاقاة بعضهم بعضاً يصعدون إلى السماء باتفاق ضمائرهم.

٣ – أمَّا في زماننا هذا فقد كمل علينا المكتوب أن اثنين ينقسمان على ثلاثة وثلاثة على اثنين. ويكون الناس محبين لذواتهم محبين للشهوات أكثر من حب الله، مفتخرين متكبرين وأشر من ذلك. فالذي يفهم في هذا الزمان يسكت ويهرب من الشلش إلى السكون لأنها أيام ردية. وفي جيلنا هذا ليس اثنان فقط منقسمين الوَاحِد على الآخر، بل إن الوَاحِد نفسه منقسم على ذاته ومتكدِّر من كثرة المناقضة التي تلاقيه كل يوم. لأن قلبه يهدس داخله، ومع أنه في السكون فهو يهدم ويبني على الدوام بلا قيام بسبب المصادفات الضرورية المتواترة عليه. وفي الأيام الأخيرة أيضاً لمّا كثرت المجامع، بدأ الانحلال يتواتر، وبردت المحبة. والآباء الذين وُجدوا في تلك الأجيال، لمّا كانوا مهتمين بخلاص نفوسهم بالأعمال النشيطة، اضطروا إلى الحبس والسكون في القلاية وسط المجمع؛ وعندما أحسُّوا أنه قد بدأت تظهر فيهم أثمار الرُّوح، التجأوا إلى السكون الدائم، هاربين من الاضطراب والتكدر، لئلا يضيِّعوا سلام قلوبهم بكثرة التشويش الحاصل من الملاقاة الضرورية بين أولئك الذين يسكنون في وسطهم.

٤ – وحسبما أظن أنه كمثلما بدأت الوحدة المباركة في البداية حيث كان الإخوة المتوحدون يجلسون في مكان وَاحِد منفردين ويعملون الفضائل بالسلام (فيما بينهم)، عندما اتسعت المجامع والأديرة ونمت كثيراً جداً، هكذا هو مزمع أن يحدث في المنتهى، كما يلوح لنا من رمز كلام رَبِّنَا ومن كلام الآباء. ولأنه عسر على الكاملين أن يسكنوا مع كثيرين بسبب اختلاف سير الإخوة، يضطرب الضمير المتحفظ المصلوب إلى الوَاحِد (أي المرتبط بهدف وَاحِد) عندما يريد أن يسير في جميع سبل وأعمال الفضيلة، وتتخبط معرفة الأخ المفرِز وسط طرق الإخوة. وذلك لأن الطبع الضعيف الذي قد شقي في برية التوبة كل زمانه ليس هو كفؤ أن يتضيق ويتكدر وسط كثرة السبل الأخرى، بسبب الإخوة المنحلين؛ لأن الشيطان يصنع القتال عن طريقهم مع النشطاء الذين يريدون تكميل الفضيلة. كما قال أوغريس إن الشياطين يثيرون الإخوة المنحلين على الشيوخ العمالين في المجمع.

٥ – ولهذه الأسباب هرب الآباء من المجامع، مثلما هرب شيشوي وسكن في مغارة أنطونيوس. لأنه قال: كنتُ أولاً مستريحاً مع سَبْعةً إخوة، أمَّا الآن فما أقدر أن أسكن مع كثيرين؛ لأن قلبي يتكدر ويتخبط حينئذ بغير إرادتي. وآخرون كانوا يبتعدون من المجامع بالجسد، ولكن حاجتهم كانوا يحصلون عليها من المجمع باتفاق مع الإخوة. والأب آمون قال للأب بيمين عندما اضطرب من أجل أخيه: «أنت الآن حي يا بيمين، مُت الآن من كل أحد واضمر في نفسك أن لك سنة في القبر لعلك تهدأ». وأيضاً الآباء الذين كان الله يرسلهم لبنيان النفوس، هؤلاء كانوا أولاً يكملون في القفر والوحدة وبعد ذلك يُرسَلون لخلاص آخرين. ومنهم مَن سكن في المغاير والنواويس (أي المقابر) والجبال والجزائر، ونجّوا حياتهم من الاضطراب.

٦ – ربما يقدر الذي يسكن بين كثيرين أن يبلغ إلى الصلاة الطاهرة، أمَّا الصلاة الرُّوحانية وأن يكون القلب قدساً للرب، فإن لم يتجرد الإنسان ليس من المفاوضة البشرية فقط، بل ومن كل تذكار عالمي، لكي يتجرد قلبه بالرُّوح ويتفاوض عقله خفياً مع الرُّوحانيين ومع أرواح الصديقين الذين كملوا، إن لم يدرك هذا فما يُؤهَّل (للصلاة الرُّوحانية). كما كتب القديس يوحنا التبايسي: إن الذي يبتعد إلى حرية السكون ينجو من أمور كثيرة تضنكه من خارج، وينعتق قلبه من مناقضات غير مرتبة تُصادف سمعه كل يوم في ملاقاة ضرورية، وينجو أيضاً من المثلبة والدينونة والغضب والحيل التي تفضح الإنسان وتنجِّس زكاوته وتكدر نقاوة نفسه. وكما قال القديس مقاريوس: إنَّه إذا غضبنا على الإخوة ينقلع تذكار الله مِنْ قلوبنا ويظلم العقل ويتكدر، وإذا غضبنا على الشيطان يثبت العقل بلا ضرر.

٧ – وكان الآباء يطلبون من أجل الشياطين والنار والوحوش، وينتفعون (بسبب) عزاء سذاجتهم! أمَّا (أمور) الإخوة المنحلِّين وتغيرات تدابير الإخوة العمالين والملاقاة النافعة والمخسِّرة الحاصلة في وسط المجمع، فما كان القديسون يُصلُّون من أجلها حتى لا يتأذوا (بتذكرها) ولا الله كان يغضب (منهم بسبب ذلك)! والفضائل الكبار والأعمال الصعبة التي يعملها المتوحد في المجمع وسط كثيرين، كانت تُعتبر في عينيه ناقصة بقياس أعمال الآخرين.

لأنه ليس أحد كفؤاً أن يكمل جميع أعمال التوبة أو أن يضع على نفسه المناسك المتنوعة التي يصنعها كل وَاحِد فوَاحِد من الإخوة، لأنه ما أخذ قوة من النعمة لتكميل الجميع، بل جزءاً مثل عضو من الجسم. وَاحِد من المتوحدين قال للشيخ: إن النار والوحوش قد اصطلحت معي؛ فأراد الشيخ العارف أن يكسر افتخاره فقال له: إن أردت أن تعرف كمالك امضِ أَخضع نفسك في المجمع؛ لأنه هناك ليس لك سلطان على كوز ماء!

ولرَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح المجد إلى أبد الآبدين، آمين.

مَيَامِر
مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني
الجزء الرَّابع

الفهرس

قاالت لامعرفِ)١(

فً لتجرا ولاسركون..... ٤١١

فـقَت ٌّر رأواحألفـلكار..... ٤١٥

مشورات نافـع فـسٌّرة معرفِ لاحق..... ٤١٦

علـى لأاالم لامحزن لاح لك علـى الدٌّن ٌّتبلـرون بجبلِ ٌّر لامعرفِ فـلاسركون..... ٤

قاالت لامعرفِ) ٤..... 2ً

الة:..... ١ً

قاالت لامعرفِ) ٤..... ١ً

رؤوس لامعرفِ

لايمٌّم رالأول..... 3ً

لايمٌّم رالثل ً..... 3ً

لايمٌّم رالثالث..... 3ً

لايمٌّم رالربلع..... 33ً

لايمٌّم رالٌّخامس..... 22ً

لايمٌّم رلسااس..... ٥٠١

لايمٌّم رلسربلع..... ٥١١

الجزء الْخَامِس :..... ٥٢١

الجزء السَّادِس :..... ٦٣٧

الجزء السَّابع :..... ٧٢٩

مقالات المعرفة (١)

في التجرد والسكون

١ – اِعلم أن مبادئ سيرة تَدْبِير المتوحدين هي التجرد والسكون وعدم الارتباط بإنسانٍ أو بأمرٍ ما. والعمل الذي فيه هو الصبر على ما يعرض والاتضاع والصلاة. والأثمار التي من هذه كلها هي: الدخول إلى الرجاء والتنعم بالفرح في الله. والمخرج الصالح بها هو تناول مفاتيح أسرار الرُّوح الممجدة. وحدُّ الطريق هو مذاقة الحب والدالة (التي نقتنيها) من ههنا إلى ذاك الذي نحبه. والذي ليست له مبادئ الطريق، أعني التجرد والسكون، واضح أيضاً أنه لا تواضع له ولا صلاة. والذي هو بطّال من هذا، هو أيضاً بالضرورة مشتبك بالخطية. والخاطئ ليس فقط أنه لا مكان له في الملكوت، بل إنه قد اقتنى في الجحيم موضعاً معروفاً!

٢ – إذا أردتَ أن تعرف رجل الله، فاستدل عليه من دوام سكوته ومن بكائه ومن انقباض نفسه إلى ذاته. وإن أردت أن تعرف الرجل السائب القلب، فاستدل عليه من كثرة كلامه ومن تخبُّط (أي تشوش) حواسه ومن مقاومته لكل شيء يُقال، ودائماً يريد أن يغلب. لأن الذي ذاق الحق لا يقاوم ولا يحارن حتى ولا على الحق أيضاً. لأن الذي يظن أنه يَغير لأجل الحق بحِرانِه (أي عناده) مع الناس، هذا إلى الآن لم يعرف الحق كيف هو؛ لأنه لو اختبره بتحقيق ما كان يُحارن بالغيرة لأجله. لأن محبة الله ومعرفته ليست هي سبباً للسجس والصراخ، بل هي مملوّة سلأمًا وهدوءًا. فإنه حيث يحل الرُّوح، هناك أيضاً يوجد الحب والاتضاع. وهذه هي علامة وجود الرُّوح أنه بهذا يُكمِّل مَن يحلُّ فيه.

٣ – لا يعجب أحدٌ من هذا: أنه ليس بسهولة يوجد جمع العقل، حتى ولا الانجماع الجزئي الذي يكون في وقت الخدمة والصلاة. لأن جمع العقل لا يكون من أعمال الجسد فقط، كما ولا يكون لأناس مبتدئين، ولا كيفما اتفق؛ ولا يصبح سهلاً في وقت قليل، بل بسكون كثير وبعمل القلب يُعطى لأناس قد تركوا العالم بالكلية، وماتوا بالكمال من نظر الناس ومن سماعهم. فإن كان أحد يُعدُّ نفسه هكذا ويتهاون (أي يزدري) بالجسد وبالعالم من أجل محبة الله، فهو أولاً، كمن يذوق شيئاً ما، يؤهل لجمع العقل الجزئي (أي الذي يكون في وقت الخدمة والصلاة)، وبعد ذلك ينمو به هذا الأمر مثل الزرع، ويبلغ بنعمة المسيح إلى تلك الموهبة التي ليس لها قياس. فلتجذبنا، يا أحبائي، شهوة هذه الموهبة فنقطع منا أمور هذا العالم وننبذه، ونسرع سيرنا تبع المسيح له المجد.

٤ – إلى أن تبدأ فيك بنعمة المسيح حركات أفكار الاتضاع قليلاً قليلاً، فلستَ تحسّ بمذاقة جمع العقل ولا بالمعونة التي تكون من أعمالك، ولن ينقبض ضميرك من الطياشة. ولا يمكنك أن تصبر بثبات وبغير اضطراب ولا سجس مقابل العوارض التي تحدث لك وتصادفك. فإذا ما بدأتْ تتحرك وتتأسس فيك أفكار الاتضاع برحمة الله، فقبل كل شيء يُرفع عنك الضجر ويُعطى لك اعتراف وشكر دائميْن. حتى إذا كنتَ جائعاً أو عطشاناً أو مريضاً أو مضنوكاً من إنسانٍ،

فإنك تعترف وتشكر دائماً، ولا يهدأ لسانك من الشكر ساعةً وَاحِدة. كما أنك تجد ذاتك على الدوام أنك أنت مذنبٌ لكل أحد في كل حين وفي كل شيء. ولن يظهر لك أن أحداً من الناس أساء إليك أبداً؛ بل إنك أنت هو السبب في جميع الشرور التي تحدث لك، وفي كل ضنك وحزن يصيبك. وأقول لك الحق باختصار: ما دمتَ لم تجد الاتضاع بعد، فإنك تُجرَّب بالضجر أكثر من كل شيء؛ والضجر يولِّد لك إلقاء اللوم على الآخرين دائماً، ويجعلك ترى أن أكثر الناس قد أساءوا إليك. وإذا كنتَ تنظر[٥٩] في الصلاة حسناً فإنك بموجبها سوف ترى أنك مُدبِرٌ وغير جيد. أمَّا إذا كنتَ لا تنظر في الصلاة فسوف ترى كل شيء بضد الواجب.

٥ – لا تحب الرَّاحَات لئلا تكون ينبوعاً للأفكار، ولستُ أقول ميناءً للرذائل. لا تصدق يا أخي أنه من دون العمل يمكن أن ينعتق الإنسان من الآلام، أو يشرق النور داخله لتنعُّمه. فنحن نرى أن جميع مواهب الرُّوح قد أُعطيت من الله لأناسٍ عمَّالين. وليس أحدٌ ابداً نال من الله مواهب بدون أعمال، ولا استضاء عقله، ولا أخذ قلبه دالةً ليطلب منه. ولا اختلجت فيه حركةُ شيءٍ من هذا. وآباؤنا القديسون بالأعمال تعرُّوا من الإنسان العتيق فاستحقوا تجديد النفس.

٦ – ولا تظن أن التورع من الأطعمة فقط هو العمل، أو أن القيام في الخدمة (أي صَلَوَات الساعات) والصَّوْم وحدهما يوصلان الإنسان إلى النقاوة؛ بل وأيضاً الصبر على البعد من مفاوضة الناس، والجثو الدائم قدام الصليب – إذ تقرن تلك مع هذه حسب المقدرة - والتواضع القلبي الكثير؛ وبقية مفاوضة سيرة المعرفة المُسطَّرة في كتب أناس نيِّرين عارفين، ووُضعت للتربية بالإلهيات التي تجد قليلاً منها مرسوماً في رؤوس المعرفة هذه.

٧ – الذي لا يقبل انحلال الأعضاء والملل والضجر في وقت الخدمة، والاختناق والظلام المحزن وبقية أحزان القلاية، ويفرح بحمل صعوبتها كمثل عمل تام قدام الله، بل يريد الانفراج والرَّاحَة منها بالكلية؛ هذا من غير أن يشاء يُسلَّم ليد شيطان الزنى، وعوض ذبيحة جسده الزكية التي يقربها بتلك (الأتعاب) قدام الله كل يوم، يذبح للشيطان ذبيحة دنسة من أعضائه. صدقني، يا أخي، إن الضجر والملل وثقل الأعضاء والسجس وتكدر الضمير وبقية المحزنات الحادثة على النساك في الجلوس الفريدي هي عمل الله التام. ولا تظن أن الاستضاءة في الخدمة ونقاوة الضمير وسرور القلب والعزاء الذي من الدموع الحلوة والهذيذ النقي مع الله، لا تظن أنها هي فقط العمل الإلهي. بالحق حسب رأيي أقول: حتى وفكر التجديف والمجد الباطل وحركات الزنا السمجة التي تحدث بتغصب على الرَّاهِبُ في سكون القلاية، وتألمه من أجلها، ولو أنه قد يوجد مغلوباً في وقتٍ ما قدامها، فيصبر ولا يخرج من قلايته؛ أقول إنه حتى هذه تُحسب له ذبيحة نقية وعملاً إلهياً، ما خلا العظمة فقط. لأنه تجلَّد في جهاد الرب وصبر على اليمينيات واليساريات التي عرضت له، إذا لم يكن حدوثها بسب انحلاله وتهاونه، بل بنوع القتال فقط، هذا إذا لم ينغلب ويخرج من مصاف المعركة، الذي هو الجلوس الفريدي بتجلُّدٍ.

[6] قُص الن أرال روح يَ لأن يمن قتن ٌه لا لٌوم أح البل ٌرى فس ه لئما قصرا.

٨ – ليس شيءٌ محبوباً عند الله ومكرَّماً في أعين الملائكة ويضعف الشيطان ويخيف الجان ويهزم الخطية ويُفيض المعرفة ويجتذب الرحمة ويستأصل الخطايا ويُقتني الاتضاع ويُحكِّم القلب ويجلب التعزيات ويتجدد به العقل، كمثل أن يوجد المتوحد على الدوام جاثياً على الأرض في الصلاة. هذا هو ميناء التوبة الذي إليه تُصوَّب جميع أفكار الندم والدموع. وهو كنز الغفران وغسل القلب ومنهج الزكاوة وطريق الاستعلانات وسلَّم الذهن. هذا يجعل العقل شبه الله ويختلج دائماً بأفكار المزمعات. هذا لديون وقت طويل يفي في وقت قليل، وأنواع أعمال مختلفة كثيرة توجد داخل حدوده؛ (فهذا هو السجود الدائم في الصلاة). ليس شيء أعظم من مداومة المَزَامِير بزيٍّ عفيف، وإن كان يغفل عنها قليلاً من أجل أنه (أي الرَّاهِبُ) قد ابتُلع بشهوة هذا السجود. فإنه لا يُحسب كمتهاون بل كمن قد ارتفع إلى درجة أفضل وعمل أعظم، يدنو بهما إلى الله وبتداخل أكثر، ويكون قد استحق موهبةً.

٩ – لا تنتظر إلى أن تتطهر من الطياشة حتى يمكنك حينئذ أن تقتني شهوة الصلاة، بل إنه من مداومة الصلاة وكثرة العمل فيها تبطل الطياشة من الضمير. لأنك إن كنت تنتظر إلى أن ترى الضمير كاملاً ومرتفعاً عن كل تذكار عالمي وعند ذلك تبدأ أن تصلي، فإنك لن تصلي إلى الأبد! وكما أنه لا يمكن أن تنقي نظرة القائم بجانب الدخان إلا إذا ترك المكان وابتعد من هناك، هكذا لا يمكن أن تقتني نقاوة القلب والسكون من الأفكار بدون الوحدة المبتعدة من دخان هذا العالم الذي يَبخر قدام الحواس ويغشى عين النفس. فلا يُظهر أحدٌ معرفةً خَرِفة ويحارن بمقاومة على هذا الأمر؛ لأنه إن كنا سكاناً في العمران والإنس فأفكار الإنس تحدث لنا، وإن كنا في القفر فأفكار القفر تحدث لنا. وإذا كنا مع كثيرين فأفكار الكثيرين تعرض لنا؛ أمَّا إذا انفردنا من كل أحدٍ فإننا حينئذ نقتني ضميراً متوحداً. وما هي أفكار القفر سوى حركات تخرج من قلب مائت عن العالم؟ فإذا كنا بحركاتنا موتى للعالم، فإننا بالضرورة نتحرك بالله، لأن سكون الحركات العالمية يُعطي فسحةً للتحرك بالله، وبضنك الجسد نقتني ضميراً متوحداً.

١٠ – لا ينبغي لنا أن نتضجر من إطالة الخدمة وامتداد الصلاة والتلاوة الكثيرة أثناءها، لأنه من العمل في تلاوة الكلام والصبر بثبات في الخدمة والصلاة تتولد المداومة (التي بها تبطل الطياشة) كما قلت. وينبغي لنا أن نعلم أن هذه (الأمور) ليست هي الثمرة (التي نشتهيها)، بل هي الأصول التي من دونها لا تظهر الثمرة ولا تقع بأيدينا؛ ونعلم أنه كما أننا محتاجون إلىالثمرة كل يوم وفي كل وقت لكي نغتذي بها ونتنعم، هكذا إذا رذلنا تلك الأصول كما لو كانت لا حاجة لها فإننا نبرد، بل ونخيب أيضاً من الثمرة التي من عادتها أن تظهر فينا بواسطتها من وقت لآخر. لأننا لسنا نتساغي (أي نتخلى) عن المداومة بها طالما نحن لابسون هذا الجسد؛ ولا يظن أحد أن لها حدًّا في هذا الوقت الحاضر.

١١ – الذي هو كامل في القامة ومقتنٍ تشوقاً إلى الله، هذا من بعد خروجه من العالم لا يليق به أن يمكث طويلاً في المجمع بالدخول والخروج مع كثيرين، بل بعد وقت قليل إذا ما تعلم تَدْبِير الإخوة وترتيبهم ونوع الإسكيم وزيِّه واتضاعه، يفرز نفسه ليكون منفرداً في قلاية، لئلا

بوجوده مع كثيرين يقتني اعتياد المكر، وتنقلب بساطة ابتدائه بسبب مفاوضة الإخوة المنحلين الذين في المجمع. لأني رأيتُ كثيرين عند خروجهم من العالم لما جاءوا إلى مجمع الإخوة، كانوا ودعاء أنقياء، وبعد أن مكثوا زماناً كثيراً في المجمع صاروا ماكرين وقحين، ولم تعد لهم تلك الوداعة الأَولى. فهذا (الأخ المشتاق إلى الله) ينبغي له أن يفرز نفسه وتكون مفاوضته مع شيخ فاضل مشهود له بحسن السيرة ومعرفة السكون، فيتفاوض معه فقط ويُعْلِمه بسرِّه ويتعلم منه سيرة السكون، ولا تكون له من ذلك الوقت مفاوضة مع إنسانٍ آخر غيره، لكي يؤهل في وقت قليل لمذاقة المعرفة.

١٢ – ليس بالعلم الكثير ولا بالكتب المختلفة نقتني النقاوة أو نجدها، بل بالاعتناء بالصلاة. فماذا تنفع معرفة كتب كثيرة وتفسير معانيها، وأي حاجة بها لجمع الضمير ونقاوة الصلاة؟ في الحقيقة إن الرَّاهِبُ بعد أن يكون قد ترك العالم، إن هو عاد فقرأ شيئاً من الكتب ما خلا كتب سيرة الرهبنة، فسواء كان عالماً حكيماً أو أميًّا، فهو يكون قد ضيَّع أول[٦٠] طريق الرهبنة وقد مال ضميره ليطلب الانشراح بتلك الكتب الأخرى. ولو أصعدتك الكتب البرانية إلى السماء، فالقراءة فيها لا تنفعك؛ لأنها تعلِّمك طرقاً أخرى غريبة. تكفيك كتب الحديثة (والعتيقة) والتي على سيرة الوحدة (لترشدك) إلى كمال المعرفة وحُسن الضمير، وبعد أن تبلغ إلى النقاوة قليلاً أو كثيراً، إن قرأت في تلك الكتب لست تتأذى. هوذا قد أشهدتك الحق فيها.

١٣ – إنْ تطلب عزاءً حقيقياً في الصلاة، اهتم بتنقية نيَّتك؛ وإن تطلب تقويم النية وتعديلها، اهتم بالصلاة. لأن الاهتمام بكل وَاحِدة من هاتين يصنع طهارة رفيقتها. فإصلاح النية يصنع طهارة الصلاة، ونقاء الصلاة يجلب دالة النية. الزكاوة مع الخلطة لا يمكن أن تُحفظ، ولا تذكار الله يمكن أن يُحفظ مع الهمّ بالأعمال وخلطة الأمور. كثيروة بشهوة البرِّ يلقون أنفسهم في اضطراب هذه الأمور فيخيبون من نصيب هذا البرّ الأعظم (أي مداومة ذكر الله)؛ لأنهم يظنون أن جميع أنواع البرِّ وكل وصايا رَبِّنَا تلزم لكل وَاحِد من الناس، وأنه ينبغي لكل وَاحِد حفظ جميعها. ولا يعرفون أن وصايا رَبِّنَا قد وضعها لسائر الرتب، لكل رتبة ما يليق بها، وليست جميعها موافقة لرتبة وَاحِدة. وذلك حسبما أفرزها الْعَظِيم في القديسين فيلون، لأنه أفرز وصايا عظيمة تليق بالكاملين، مثل قوله: اترك كل شيء واتبعني، وقوله: لا تهتموا بالغد، وصلوا كل حين ولا تملُّوا. وبقية ما يشبه هذه الوصايا التي لا يقدر أن يحفظها الضعفاء في الإيمان والمبتدئون المفتقرون إلى البقل لكي يتقووا به، أو إلى اللبن لينموا به. مثل المرأة الحكيمة التي تقدم لأولادها طعامًا يليق بتربية قامة كل أحد. لأن الحدث في الإيمان والمبتدئ هو طفل، والكامل في السيرة هو كرجل تام قد وضع له وصايا عظيمة حسب التطويبات التي أعطاها. فلهذا قلنا إنه لا يليق حفظها جميعها لإنسانٍ وَاحِد.

[٦٠] أو أل.

١٤ – كيف يشبه قوله: «طوبى للباكين لأنهم يتعزون»، قوله: «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدْعَون»؟ فكيف يقدر الذي هو جالس في النوح يبكي ليلاً ونهاراً، أن يبذل نفسه ويَدور في العالم لكي يصلح المتغاضبين ويصنع السلام بين كثيرين؟ أو كيف يشبه قوله: «اسهروا وصلوا كل حين»، وقوله «ادخل خزانتك واغلق بابك وصلِّ لأبيك في الخفاء»، قوله: «كنتُ مريضاً فافتقدتموني وغريباً فآويتموني ومسجوناً فزرتموني»؟ فالذي أُمر أن يسهر ويصلي في خزانته كيف يقدر أن يفتقد المرضى ويَدور على السجون ويحمل الاهتمام بالغرباء؟ بل إن قوله: «ادخل إلى خزانتك»، «واسهر وصلِّ إلى الله في الخفاء»، تناسب قوله: «طوبى للنوَّاحين». لكي بالحزن والسكون تنقى الصلاة، وبالصلاة يقبل عزاء الباكين الذي لا يكون ولا يكمل إلا بالنوح.

١٥ – فالذي هو وحده منقبض مع ذاته، حتى وفي العالم، هذه هي سُنَّته: البكاء. إنه لا يهتم بشيء آخر في أيام بكائه إلا بالنوح فقط، وهو عادم الاهتمام بكل شيء آخر. لأن النوح هو حزن وَاحِد فريد يضبطه (النائح) كسور وأسٍّ في القلب، ولا يمكن أن يقبل قنوعاً لنوحه (أي لا يرضى أن يخفف منه) إن لم يجد العزاء من الداخل في الشيء الذي ينوح من أجله.لأنه يوجد بكاء خفي داخل القلب غير البكاء الظاهر. والذي يحمل في قلبه حزناً دائماً من أجل خطاياه، أو قد انفرشت على قلبه كآبة بتذكار تواضع رَبِّنَا له المجد، أو هو حزين لأجل أناس خطاة، أو حزين من أجل الأمور السمائية بانتظارها دائماً؛ هذا لا يتعزَّى بشيء من أمور هذا العالم، ولا يتسلى إلا إذا وجد شهوته التي ينوح من أجلها. هذا هو النوح الدائم الذي يكون بغير دموع ظاهرة بالجسد، نوح الإنسان الذي يبكي دائماً في خفاياه. والذي قد اقتنى أي نوع من هذه الأنواع داخل نفسه فله «طوبى للنائحين لأنهم يتعزون». ولو أبطأ عزاؤك أيُّها النائح بتمييز، فلا تحزن؛ لأنه قبل أن تنتقل من هذا الجسد يُظهر لك سعادتك وعند ذلك ينقلك من الجسد.

في تغيير أنواع الأفكار

١ – الفكر الذي يفحص دائماً ضعف وعجز قريبه ويُقوِّم آخرين لا يدرك النقاوة. والفكر الذي يبكِّت ذاته دائماً على رذائله ويطلب في نفسه صالحات قريبه، هو ساكن بسلام الضمير.

٢ – الفكر الذي يتنبأ دائماً بالمزمعات وضميره مائل لمرضاة الناس ويتغير مع الضمائر لكي يُظن به أنه بار وحكيم ومحب لكثيرين، هو عبدٌ لمحبة المديح والكرامة. وهذا لا يؤهَّل لحرية الفكر ولا لنظر ضميره، ولو أنه يتعب كثيراً إلا أنه لا يقوم لهدف الحق.

٣ – الفكر الذي على الدوام يُلام من نيته ويندم ويُغيِّر ويغصب ذاته ويعدِّل زلاَّته، يؤهل للحرية وينعتق من الطياشة. أمَّا الفكر الذي يُلام من نيته دائماً ويُسوِّف ويدوسها ويتركها بلا تقويم، وإن كانت عناية الله في وقتٍ تنبهه للتوبه، وفي وقتٍ آخر توَدبه، وفي وقتٍ تقمعه وفي وقتٍ تكرِّمه، وفي وقتٍ آخر ترذله وتحزنه بالعوارض والأمراض والخسارات، وتجذبه بالرحمة للتقويم، ومع ذلك يظل هو مزدرياً متهاوناً بطالاً، ويحتقر هذه الانفعالات، ويتغافل عن نخز

النية؛ هذا ترتفع منه النعمة بغتة، ويقع بيد العدالة لتقويمه، ولن يفلت حتى يوفي الفلس الأخير، أعني الذنوب التي صنعها دون أن يذكر الآخرة.

٤ – الفكر الذي من الظنون (السيئة) ومن تردد الأفكار ومن الأخبار والحكايات: أن هكذا هو فلان، وهكذا قال فلان؛ والذي يحب سماع الأمور الغريبة ويتلهف إلى الأخبار التي من بعيد، ويعثر بهذه جميعها ولا يقمع ذاته، بل بالعكس يتجاسر؛ هذا لا ينعتق من الغيرة والسجس وتكدّر الضمير؛ ولا يؤهل للطهارة ولا لنياح الأفكار. لأن محب المفاوضات والطياشة ليس له طب إلا القمع بالتغصب والقسر.

٥ – الفكر الذي ليس من الطبع بل من الأعمال الاختيارية يغصب ذاته في كل الأمور التي تخصه، هذا قلبه قد قرب من ميناء السلام، إن حرص مع تلك (الأعمال) أن يقتني الأمور الأخرى الواجبة. الضمير الذي يتحايل دائماً أن يضع على نفسه نقائص قريبه كما لو كان هو الذي قد أخطأ، ويبرر قريبه ويشجب نفسه، هذا هو ابن السلام. الضمير الذي يتحايل لكي يقال عنه من كثيرين ويُظن به أنه ليس فيه عيب، ولا يقطع أسباب الخسارة، بل قصده فقط أن يخفي الزلات التي صنعها بالغش والمكر؛ هذا هو عبدٌ غاش قد رهن نفسه للمديح البشري، وهذا يُمقَت من النعمة ويَظهر مكره.

٦- الضمير الذي ابتُلع بمحبة صورة الله، ولا يهتم لنفسه في شيء أكثر مما يهتم لقريبه، ويعتبر نفسه بطالاً بقياس آخرين؛ هذا هو مكمل الوصايا. والضمير الذي يبكِّت نفسه ويعترف أنه غير مستحق، النعمةُ تعمل فيه. والضمير الذي اقتنى في داخله عزاءً خفياً، هذا في زمان الضيقات والتجارب ينتظر المزمعات.

٧ – الضمير الضجور المتكدر المتسجس، فرحه حزن وعزاؤه ندامة. والضمير الماكر يخفي غش قلبه، وهو بمراضاة الناس يأكل مخ عظام أصدقائه، وفي النهاية يثلبهم. والضمير الشيطاني بزلةٍ وَاحِدة ينسى ربوة صلاح. وكل فكر يَعِد بالغلبة والمجد بسرعة بغير صلاة وفحص، اِعلم أنه يسبب لك خزياً وإهانة.

مشورات نافعة في سيرة معرفة الحق

١ – الإنسان الذي يغصب نفسه دائماً لكي يتدبر بمقتضى حكم النية، لا يخطئ بلا توبة. الذي ضميره يهدس بالصلاح لا ينظر نقائص قريبه. والذي يُعوِّد لسانه أن يقول الصالحات على الأخيار والأشرار، يملك السلام في قلبه سريعاً. والذي قد فرش مراحمه بلا إفراز على الصالحين والأشرار بالشفقة عليهم، هذا قد تشبَّه بالله. أمَّا الذي يبغض صورة الله، لا يمكن أن يُحبَّ من الله.

٢ – من يغلب على الدوام خُلُق مشيئته (أي طباعه)، هو مجاهد نشيط، والنعمة تعمل فيه بزيادة. ومن يغصب نفسه دائماً ويغير ضعف خاصيات عاداته إلى الحسنات، هذا قد ربط ذاته

بأعمال الحفظ، وإكليل متضاعف محفوظ له. أمَّا الإنسان الذي كم من مرةٍ يُلام من نيته ولا يُقوِّم نوع عاداته، فهذا ترتفع منه النعمة ويُترك في التجارب ويتبهدل. والذي يجلب هواه ناحية اليمين ويغلب طباعه، لا ينغلب انغلاباً. والذي من قبل أن يتألم القلب ويتضع، وتتقوم النية، يطلب منهما الصلاح، هذا ليس هو مفروزاً من الذي يطلب عنباً من شوكٍ أو تيناً من قرطبٍ.

٣ – الذي استحق موهبة معرفة الإفراز، وأحسَّ أن السماء والأرض وكل ما فيهما وملكوت الله وملائكته المختارين ماثلين (في ذهنه) بتصوره، وبدأ يتجدد بسر معرفة الحق؛ هذا إن غصب ذاته في السكون بحفظ واجباته، فإنه ينعتق من الطياشة ويؤهل للانفعال بالرُّوح. والذي يد الكل عليه ويده على الكل، هذا لا يتفرغ لكي يستريح في السكون؛ لأنه لا يمكن أن يكون مع وَاحِد ومع كثيرين بآنٍ وَاحِد. والذي من أجل أن يكون له (مدح) حسن من الآخرين يتقلب مع الضمائر بمراءاة الحب ويتكلم حسب شهوتهم، هو فاسق. لأن الذي يشغل ضميره بأشياء كثيرة لا يمكنه أن يتفاوض مع الوَاحِد.

٤ – المتوحد الذي قد أحسَّ بالرَّاحَة التي تكون من احتقار الذات، هو أَخْيَر من الذي وجد تكريماً من تاج المملكة. أمَّا المتوحد الذي قد انضرب بألم حب المديح والكرامة من الناس، فهذا ليس لجرحه شفاء؛ وإذا كان بأعمال سيرته يقوِّم كثيرين، فإنه في العالم المزمع ستكون تدابير سيرته مُبكتةً له في عذاب الجحيم. والذي هو حريص أن ينيِّح كثيرين، لا يمكنه أن يكون عادماً من الكل في السكون؛ لأن من يريد أن يكون محباً للسجس ويحب السكون أيضاً، لا يستطيع أن يرضي كثيرين ويداوم السكون في الوقت نفسه.

٥ – المتوحد الذي لا يحتمل من أجل السكون التعيير والخسارة والتذمر والاستهزاء والمحقرة والضيم مع جميع التجارب، فإنه لا يمكنه أن يتخلص من الشكوك والمفاوضات التي تصادفه. ولن يستطيع أن يهدأ في السكون. والذي في كل وقت سيرته منحلَّة، هذا يكون ضميره بعيداً عن الله؛ والذي قلبه ليس منسحقاً ومحزوناً أمَّام الله، لا ينعتق من الطياشة؛ والذي لا ينشق قلبه بالتحسر والتنهد، هو فارغ من صلاة الدموع.

٦ – الذي هو عادم من القراءة، هو سائر في التيه؛ لأنه إذا أخطأ لا يحس. والذي يمزج قراءاته بالتدابير والصلاة والحفظ والهذيذ بالفضائل، هذا ينعتق من الطياشة. والذي إذا ما زلَّ وضلَّ عن الحق، أو تهاون وانحلَّ وأخطأ، يعرف سبب مرضه، فهو بالسهولة يُشفى بالتوبة. الذي يقرع على الدوام، ولو أنه لا يُستجاب له سريعاً لأجل تحكيمه، فإنه يُعان ويُفتح له أخيراً. أمَّا الذي يطلب دائماً بوقاحة ويأخذ سريعاً لسبب اضطرابه وعدم تأدبه، هذا كم من وقتٍ يضيع ما يأخذه.

٧ – الذي يصوِّم فمه من الغذاء، ولا يصوِّم قلبه من الغضب والحقد ولسانه من الأباطيل، هذا صومه يكون باطلاً. لأن صوم اللسان أَخْيَر من صوم الفم، وصوم القلب والأفكار أَخْيَر من الاثنين. قوت الجسد الأطعمة، وغذاء النفس الكلام والحكايات؛ وكما أن شره كثرة الأطعمة هو رغبة الجسد، هكذا السكون هو ثمرة الحكمة المزمعة. الذي يزيل من ضميره هفوات قريبه،

يزرع السلام في قلبه، فيصير موضعاً خالياً من أي طعن في القريب أو حركة تُنشئ الغضب، أي لا يكون فيه زجر ولا تجريح للنفس.

٨ – المتوحد الذي من بعد أعمال نشيطة قد أُهِّل لطفولية المعرفة وتخلَّف عقله عن تركيب الكلام، ونهض فيه صمتُ السر الجديد، هذا قد استحق بالحقيقة أن يرتل مع الملائكة خفياً. البحر الهادئ الساكن ليس لحسنه حدٌّ. وبحر الضمير الهادئ السليم ليس لشرفه حدٌّ. الانقطاع من الكل هو بداية البساطة، وحَدُّ البساطة هو بداية النقاوة، وحَدُّ النقاوة هو بداية الحرية، وحَدُّ الحرية هو بداية الدالة في الصلاة، وحَدُّ الدالة في الصلاة هو بداية الاتحاد بالمسيح.

٩ – المتوحد الذي لا يزجر الفكر أو الذكر الذي يصعد على قلبه ويُسكته، بل يقبله بأمَّان ويتفاوض معه بفرح ويتجاوب معه ويخرج في طلبه، هذا يوجد بداخله سوق عظيم وتجار كثيرون، يبيعون ويشترون في وقتٍ ما سم الموت وفي وقتٍ آخر دواء الحياة؛ فإن لم ينتهرهم بل يتفاوض مقابل الأفكار النابعة منهم، هذا آخرته تكون هلاكاً من الحق العتيد. أمَّا المتوحد الذي يفطن في نفسه إلى الكلمة التي تتولد من تردد الأفكار الداخلة وتكدر نقاوتها، وعند ذلك تتركب وتتميز (أي الكلمة) وترسل إلى المرسل إليه، ويعدّ نفسه (أي المتوحد) لسكون الضمير الذي يولد منه الصمت البسيط، هذا يسدُّ مسمعه عن صوت الكلام وتردد الأفكار لئلا تتولد منها تجارة المناقضات والشكوك التي منها يكون الحقد والغضب والحنق والكآبة التي تخنق النفس. حتى وهو في السكون أيضاً يهرب من ينبوع الأفكار والتذكارات، ويستعين بصمت الضمير البسيط الذي هو صَلب العقل، والاتحاد مع الرب يسوع الذي هو السر الجديد وثمرة الحكمة البسيطة.

١٠ – إن كانت كل شجرة تُعرف من ثمارها حسب الكلمة السيدية، فهكذا أيضاً كل كلام يُعرف من الأعمال التي تُفلَّح بها التدابير. وكما أنه إن لم يلبس الإنسان ثياباً لتغطي جسده، تظهر فضيحته وتُرى عيوب جسده ويتبهدل من ناظريه، هكذا أيضاً إن لم تُلبس النفس زيًّا لكلامها تظهر فضيحتها وتتبهدل. مَن وجد علماً بلا تأديب، ليس هو مفروزاً من الذي بغتة وجد ذخيرة ليست له، ومع الذخيرة أهلك حياته. الساذج الحكيم بالله هو أخْير من الفهيم الغاش بضميره. فاعل الأفعال ينبغي أن يتكلم إذا ما حصل من صمته أذية لكثيرين؛ والعارف ينبغي أن يتكلم إن كان كلامه يبني كثيرين وينفعهم.

١١ – مَن يأكل شِبعه وينام شِبعه هو ينبوع الآلام؛ لأن أتون البطن إذا ما توقد بزيادة بأطعمة قوية دسمة، فإنه يتسع بالأكثر ويتلهف ويطلب. مَن قمع واستعبد بطنه ولسانه هو أخْير من الذي استعبد أسداً. ومَن قمع الكلمة في قلبه هو أخْير من الذي طمر وزنةً في الأرض. ومَن يفشي السر هو ابن لجهنم، سِرَّ قلبه لم يحفظه، فكيف يحفظ وديعة الرُّوح؟ الإنسان العادم الصلاح، ودائماً يجادل على الفضائل، ليس هو مفروزاً من الأعمى عادم النور الذي يجادل على حُسن الفصوص الكريمة والألوان الجميلة.

١٢ – الذي لا يفرح بالضيقات المصادفة إياه بسياسة (الخالق)، هذا يضل من مراحم عدل الله. ومَن يماحك قبالة التأديب، يُبعد عنه المراحم الأبوية. ومَن يتذمر ويضطرب مقابل التجارب، تتضاعف عليه. الذي لا يتأدب ويتمحص بالتجارب ههنا، هذا يتعذب هناك بلا رحمة؛ والذي يصبر على التجارب بشكر وفرح، هذا قد وجد أثمار الرُّوح داخله. والذي وجد عزاء الرُّوح داخله واقتنى دالة وقت الصلاة، هذا قد انعتق من السبي.

١٣ – الذي حتى عندما يكون خارجاً يهدس ضميره بكلام الله، هذا قد ربط نفسه بعمل متضاعف والنعمة تعمل فيه. والذي قد عوَّد نفسه أن يكون محترساً داخلاً وخارجاً، هذا جهاده عظيم؛ فإن تجلَّد في السكون يأتي إلى قدام. الذي يغطس داخله في السكون، ويتحايل دائماً أن يكون بمفاوضة إنسانه الجواني، هذا ينعتق من الطياشة. أمَّا الذي وهو داخل السكون يشتّ ضميره خارجاً عنه ويفحص في صلاح وشر آخرين، فإن عمله في السكون هو باطل.

١٤ – الذي يبتعد زماناً طويلاً عن مفاوضة الكلام ونظر الوجوه، هذا تنقلع منه التذكارات القديمة. والمتوحد المرتبط بوَاحِد أو بكثيرين، لا بد له أن يتحرك معهم ويحزن ويفرح، مثل أغصان الشجر التي تحرك بعضها البعض، فلا يأتي إلى قدام بالله. أمَّا العادم من الأصدقاء بتمييز فهو أيضاً عادم من الضنك. والذي يفيض حبه ويرحم الكل رحمة إلهية بلا إفراز، فهذا قلبه هو ينبوع الأفراح. وإن شئتَ أن تكون محباً بلا فرز لصورة الله، فلا تفتش دواخلهم.

١٥ – الشجرة الكثيرة الأثمار تنحني أغصانها من ثقل أثمارها ولا تتحرك لكل ريح؛ أمَّا الشجرة عديمة الثمار فتتشامخ أغصانها وتتحرك من كل ريح، هكذا هو أيضاً المتوحد.

١٦ – المتوحد الذي خطب نفسه بإرادته للمسيح ليحفظ حريته منفرداً بلا دنس، وفي السكون يتوسوس ضميره ويفتش ويدين ويخاصم قريبه، هذا بتذكاره هو عمَّال بالفسق تجاه المسيح خطيبه. والمتوحد الغاش بضميره وذو أمرين، هذا يشتم ابن الله. والمتوحد الذي خرج في اهتمام الأمور المرئية، هذا قد نسي وعده الأَوَّل.

١٧ – المتوحد الذي في وسط كثيرين يعمل بالوحدة، هو مجاهد نشيط، وهو محتاج للمعونة المقدسة المُطيَّبة باحتقار الذات وطول الرُّوح والاتضاع والانحطاط، لكي يحمل نفسه ويصبر على ما يأتي عليه، لأنه لا يجد احتياجاته في كل شيء إلا في القليل، وباحتمال التغصب. والمتنسك الذي يتغصب ويصبر مدة في السكون والوحدة بالاختفاء عن الوجوه، هذا تبطل منه العادات والتدابير الأَولى والحِيَل التي هي رباطات النفس التي بها يموت ويعيش الإنسان. والذي يحاول أن يُنهض إنسانه الجواني قبل أن يتعرى إنسانه العتيق، هذا باطل هو عمله، وهو يفهم كلامي بالفعل. والذي يبدأ أن يزيِّن داخله بالمحاسن الرُّوحية قبل أن يعدِّل عاداته وأنواع تصرفاته ويرتب حواسه، هذا لا ينعتق من وثب الاضطراب جميع أيام حياته.

١٨ – المتوحد ذو القلب القاسي والذي يُقيم كلمته، إن هو قوَّم غرضه لكي يكون غضبه ضد الآلام فقط، فإنه يصير ناسكاً وعمَّالاً في السيرة، وبعد جهد يؤهل لبساطة الإيمان ونقاوة

النفس. والمتوحد المتضع النفس والطفل القلب والبسيط، الذي لا يقيم كلمته ولو يُظن عنه أنه أبله، هذا إن تقدم إلى تَدْبِير العمل فإنه يبلغ بسهوله إلى الزكاوة والنقاوة؛ لأن مساعدة الطبع لأي ناحية يميل إليها تعمل نصف العمل كما قال الآباء، هذا إن كان يرافقه النوح والتغصب.

١٩ – الذي كل فكر يصعد على قلبه بغتة يفعله بلا صلاة ولا مشورة ولا اختبار ولا فحص النية، هذا ليس هو مفروز من البهيمة، وفي الآخِر يندم. الضمير النقي البسيط هو مسكن النقاوة، والضمير الغاش القاسي هو مسكن الآلام. الطِّيب الذي يصعد من اللبان (أي البخور) تفوح رائحته حسب نوع المادة التي يتركب منها، وسلام وفرح القلب يُعطيان حلاوة في النفس حسب المادة التي يتركب منها (السلام).

٢٠ – المتوحد الذي لا يلتزم في تَدْبِيره بترتيب منازل السيرة من بداية الألف باء إلى كمال القامة التامة، بل باستعمال التحايل يصيد أنواع الكمال، هذا يسقط بغتة ويُدان مع السالبين بيت القدس.

٢١ – المتوحد الذي تعرى من الآلام بواسطة الفضائل، وأُهِّل لعمل العجائب وهو لم يكمل بعدُ بالحب الخالص والرحمة التي بلا فرز (أي بلا تفريق)، هذا إلى الآن مازال ناقصاً. المتوحد المحزون بحب المسيح، وقلبه منسحق بالشفقة على الصالحين والأشرار ببساطة، هذا قد لبس المسيح خفياً واستضاء عقله بالرُّوح، وأحسَّ بالتجديد المزمع طبعنا أن يقبله. إن جعلت جسدك ذبيحة بالأعمال، وتنقَّت نفسك حتى أنك تصنع العجائب، وأنت لم تقتنِ بعد دالةً وقت الصلاة تُقنعك أنك قد اقتنيت التجديد بروح يسوع، فلا تضل، إنك لن ترث من هنا ميراث القديسين.

٢٢ – الإنسان الذي يهدِّئ نفسه على الدوام، ويتحايل بكل الوسائل أن يقلع من قلبه الحسد والشر ويزرع في نفسه الحُبَّ الصادق لكل أحد، هذا قد أعدَّ داخله محلاً للثالوث المقدس، وهومزمع أن يحصد من أرض قلبه أثمار الرُّوح التي هي الرجاء والفرح والعزاء الخفي. الذي يصالح نفسه أخْير من الذي يصالح شعوباً منقسمة وهو مغضب منقسم على نفسه.

٢٣ – المتوحد الموجود داخله عزاء بلا سبب، هذا قد وجد يسوع (فصار) متهللاً بالرُّوح معترفاً لأبيه الذي أظهر مجده للأطفال بالمسيح. الذي قد أحسَّ أن إنسانه الداخلي قد نهض، وانبسط لسانه بالشكر، وبدأ يشخص في الصلاة الخفية والتسبيح الملائكي، هذا يجب عليه أن يميت أعضاءه الأرضية ويتجرد من التحايل ويدوم متفرداً لمفاوضته، لئلا يتضايق ويُضنك ويطغى أو ينتقل، وهناك يكون البكاء وصرير الأسنان بالندم.

٢٤ – كما أن الأبله الذي يعرف الكِتَابة تكون له نظرة خاصة لازقة بمعرفته، هكذا الذي تفعل فيه النعمة تكون له نظرة أخرى وقوة لازقة بكل شيء يعمله. وكما أننا لا نتعلم الصنائع من حكمة الكلام، هكذا فإن فضائل السيرة التي هي: الصَّوْم والسهر والنسك والصَلَوَات، لا نقدر أن نتعلمها من قراءة الكتب وحِدَّة الحركات ودقة الفهم دون تجربة (أي خبرة) طويلة في نفوسنا باحتمال فلاحة الأعمال. والأبله الذي يصنع صناعة بالتجربة بنفسه، هو أخْير من

العارف الذي يتعلم سيرة الرُّوح من أسطر الكتب ومن تسليم آخرين بدون تجربة محكمة بنفسه! فالذي قد فهم أن كل شيء يُزرع أو يُغرس تثبت عروقه أولاً في السفل وبعد ذلك ينمو إلى فوق، هو أيضاً ينبغي أولاً أن يُفلَّح ويتدرب ويقوم ويقع في السفل وبعد ذلك ينمو بالرُّوح إلى فوق.

٢٥ – الناسك الذي يعمل بالتوبة ويُفلِّح بالنسك كل الأعمال وجميع أنواع الفضائل، ويتكل على برِّه وليس علىالنعمة، هذا ليس هو مفروز من الذي يجمع حجارة لتعوقه (عن السير). هناك من يبعده صومه عن الحق، وآخر نسكه، وآخر تجرده، وآخر سهره، وآخر عمله، وآخر صدوقيته، وآخر احتماله، وآخر كمال أعماله الإلهية، وكل ما نريد أن نقوله؛ لأن رَبَّنَا قد جزم أنه «بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً»، أعني بالهدوء وتواضع القلب اللذين أنا قد غلبت العالم بهما. فإن أعمال الفضيلة الممتزجة بالهدوء والتواضع والخوف والحياء والصبر والتحفظ، إن وافقت غرض ذلك المرفوع على الصليب ومُعطي الحياة للعالم، تصبح دَرجاً لمصعد السيرة؛ وسيرة الحرية (التي) من بعد ذلك هي عربون ملكوت السماء.

٢٦ – الذي قد وجد في داخله ذخيرة فليحرص من نار الحسد ولا يُظهر السر، لئلا يحرق أغمار قلب رفيقه ويدان من الحق، وليحذر بالأكثر من الذين يغيرون بالحسد. فالذي يصدِّق أن النار تشتعل من شرارة صغيرة، عليه أن يحترس لئلا يجمع داخله نار الحسد والشر؛ لأنها حيث تجد مادة تلتهب وتُفسد بغتة العُرَم[٦١] والأكداس وكل أفراح أرض قلبه، ودخانها يعمي أعين كثيرين. وكما أنه لا يمكن أن تدفن ناراً في تبن وما يحدث فساد، هكذا لا يمكن أن يحتفظ أحد في داخله بنار الحقد والحسد والشر، أو يتنازل مع ألم الزنا أو مع ألم حلاوة المجد الباطل والكرامة، دون أن يناله منها أذيه.

٢٧ – المتوحد الذي اختبر بنفسه بكمْ أنواع (أي تدابير) متواترة وأعمال مديدة، وبكمْ من الصَلَوَات انفلح القلب والعقل ووجدا قوة وغلبا الحواس وقطفا العُقَب[٦٢] من الإنسان الحافظ لها دائماً، هذا يميِّز ويزن ربح الناحيتين (أي الأعمال والصَلَوَات) لئلا تكون غلبته انغلاباً وربحه خسارة له. هذيذ الضمير ينفع إذا ما ترتبت الحواس، وهدأت واتفقت الأفكار والعقل والضمير بالسلام والمودة. والذي هدَّأ نفسه بالسلام، ووفَّق المنقسمين الذين بداخله، وزرع السلام بينهم، هذا هو إلهٌ وجميع الخلائق تتفق معه.

٢٨ – الذي يريد أن يهدِّئ وحشية الحسودين، ويسالمهم بنقاوة حبه الإلهي، فليخطف لضميره وأفكاره سلأمًا طفولياً مع سذاجة، ويقابلهم أولاً بالمديح والعطايا، ويلاقيهم بالتبجيل والكرامة، ويسلِّم عليهم باتضاع، ويُخجل وجوههم بتقديم المائدة حسبما تأمر الكتب والآباء، لئلا نُضيِّع بسببهم سلام قلبنا. الذي لا توافقك مصادقته، احذر أن تجعله عدواً لك، بل أحببه كشرع الناموس الرُّوحي وأنت مبتعد عنه جزئياً. ولتكن ملاقاتك له بوداد وسلام، لئلا يتكدر

---

[٦١] أي خزوم الحصا.
[٦٢] أي الدوام والحلاوة.

ضميرك وتُضيِّع سلام قلبك.

٢٩ – اصنع كل شيء وتحيل بكل وسيلة أن لا تضيع سلام قلبك وتتجرد من الله. وإذا قيل عنك رديئاً وانحصر ضميرك، ولو أنك تطوي يومين يومين بالمسوح والتوبة وبكل أنواع الصلاة والدموع؛ فإنك لن تنعتق من ضنك الضمير، ولا يعطيك رَبَّنَا راحة، إلا إذا كنت من كل قلبك تُضمر أنك أنت المسيء بالحقيقة، سواء أخطأت أو لم تخطئ، وباقتناع قلبي أنك بالحق قد أسأت. فالمتوحد الذي يتدبر بحكم النية، ويسرع لحفظ سلام قلبه بالحق، وإن أخطأ أو لم يخطئ يأتي باللوم على نفسه، هذا ينيحه رَبَّنَا. لأن الذين يتدبرون بحكم النية من أجل سلام قلبهم، هؤلاء يكون جريهم بحسب الشرع الرُّوحاني مضاداً جداً للشرع النفساني العادل.

٣٠ – المتوحد الذي بحكم النية يتدبر، وقد اختبر أن معاشرة الناس العظماء والحقيرين والأبرار والخطاة، لا يمكن أن تكون بدون الغضبية والشهوة ومراءاة الحب، وقد أحسَّ بالخسارة التي من هذه الأشياء؛ فليفر على الدوام إلى السكون، ويستَعِن بالصمت كعاجزٍ، لئلا يضيع سلام قلبه.

٣١ – الذي يخسر بضعفات الإخوة ليس لضربته شفاء. أمَّا الذي ينظر الخشبة التي في عينه فهو لا يتفرغ لينظر القذى التي في عين أخيه. والذي قد ارتسمت في قلبه صورة الفريسي والعشار بلا نسيان، هذا لا يفتخر في أعماله بأنه نشيط. الذي راحته هي ضنك وتعب لآخرين هو ضد الله. والذي بواطنه لا توافق ظواهره، ومع ذلك يسرع لكي يحسَّ بميراث القديسين، هذا مضلٌّ لنفسه. والذي يعتني أن يقوِّم في نفسه النقائص التي تظهر له في الآخرين الذين هو ساكن بينهم، هذا قد وجد داخله مرآة روحية.

٣٢ – المتوحد المتهاون المرتخي هو الذي يدعو الآلام لكي تَفزّ (أي تثور) عليه. أمَّا النشيط في الأعمال والأفعال فترعب منه الشياطين؛ وهم بغشِّهم (يحاولون أن) يوقدوه بالحرارة إلى فوق. والعارف المتدبر بالمعرفة والتمييز يسبب للشياطين أوجاعاً عظيمة، أمَّا هم فيرصدون عقبه ليلاً ونهاراً لكي يصطادوه. والمتوحد الذي يدوس نيته في النور، هو عتيد أن يُجلد منها بمرارة التبكيت وظلمة الندم.

٣٣ – كما أنه بجلوس الطير على البيض يسخن ويصنع فراريج السلام، هكذا أيضاً المتوحد ما دام في سكون القلاية هو مثل البيضة والنعمة تحل عليه وتحتضنه مثل الأم، فيسخن بالحب الإلهي ويحتر بالرُّوح، ويزهر في قلبه ثمر الرُّوح. أمَّا الذي يبعد نفسه بإرادته من تحت النعمة التي هي أمّ العامة ويطيش ويتشتت بالدوران خارجاً فيبرد ويُرذل.

٣٤ – النياحة المقدسة التي تكون للنفس بعد أعمال التوبة، ليس لحلاوتها قياس ولا في لسانٍ كفاية أن ينعت نوع مذاقتها. كما أن الأشجار التي تنثر ورقها في زمان الشتاء وتيبس، هي في زمان نيسان (أي الربيع) – ليس من ناحية أخرى بل من داخل حقارتها – يخرج مجدُ وبهاء كرامتها بأوراق وأزهار وأثمار؛ هكذا القديسون الذين بإرادتهم قد أمَّاتوا أعضاءهم

الأرضية بالضيقات والأحزان والشقاء وأعمال النسك، وبعد حفظهم الوصايا غلبوا الآلام وتطهَّروا، فإنهم – ليس خارجاً منهم بل من داخل حقارتهم وتواضع صبرهم في التجارب – تحيا نفوسهم وتتجدد بسر القيامة وتلبس حلة المجد، وتشرق عقولهم كما في الحياة الجديدة. لأن قيامة الصديقين العقلية هنا هي سرٌّ ومثالٌ للقيامة العامة.

٣٥ – المتوحد الذي مشيئات أعمال سيرته ملتحمة مع مشيئات أعمال ضميره، هو ابن أبي الرُّوح، وعاجلاً ينعتق من طياشة الضمير. وكما أن الأطباء لا يأمرون مريض اليرقان أن يأكل عسلاً، بل بعكس ذلك يسقونه مرارة الأفسنتين لكي يتغصص به، كذلك فإن الآباء الرُّوحانيين لا يأمرون الذي لم ينعتق بعد من الآلام أن يذوق بإرادته شيئاً من شهد سلام القلب ونياح وفرح الرُّوح، بل بعكس ذلك أن يذوق مرارة الأعمال وشقاء النسك وضيقات وتجارب مختلفة في الوحدة والعوز والوحشة، لكي من وسط الشقاء توجد المراحم الإلهية. أمَّا الذين قد انعتقوا وصحُّوا فنقول إنهم محتاجون أيضاً إلى التغصص بالأدوية المطيَّبة بالازدراء والتجارب والضيقات، مثل بولس الرسول الذي من أجل كثرة الاستعلانات أُسلم إلى شماتة الشيطان لكي يلطمه لئلا يتعظم. لأن جنسنا جميعه هو خاطئ وميَّال (إلى الشر)، وهو في كل وقت مفتقر إلى التوبة.

٣٦ – الناسك الذي من أجل سيرته الإلهية يسكر بالغرور وينتفخ، إن تخلَّت عنه النعمة قليلاً وأُسلم ليس بيد الشياطين وحدهم، بل بضعف جسده هو نفسه، ومن اضطرار الأمراض والأوجاع المختلفة يعتني بخدمة بطنه دائماً ويتعذب من عبودية نتنها؛ لأنه ليس قتال أصعب ولا أردأ ولا أشنع منها؛ عند ذلك هو من نفسه يعرف موهبة الله ومراحمه وعنايته بطبيعتنا الحقيرة. لأن الصلاة التي تخرج من شبع البطن هي في الحقيقة نجسة حتى عند صاحبها.

٣٧ – الفضائل المجتمعة بالمجد الباطل هي في الآخر تبيد بمحبة المديح. والمتوحد الذي يشتهي أن يُعلِّم ويقوِّم كثيرين هو مسروق لمحبة المديح بوجه الفضيلة دون أن يحس؛ لأن حكمة الكلام لا تنجح في كل وقت ولا مع كل أحد، أمَّا سيرة تَدْبِير الفضيلة والنسك فهي كل حين وفي كل مكان حتى وعند الزواني يمدحونها. الكلام المقفَّى المصقول عن السيرة وعن الحكمة ومعرفة الحق حتى وعند الأنفس الطمثة يوجد. أمَّا تَدْبِير سيرة الحق فليس هو كلاًّ مصقولاً مزيناً، بل طهارة ونقاوة النفس. لأنه كُتب أن قلة الخبرة في الكلام لا تخسر في طريق الكمال. كثرة المياه تخرج من الصخرة لتسقي فردوس الأفراح، وكثرة العلوم في سيرة الحق تنبع من قلب النفسانيين لتسقي نفوس البسطاء في الرب العمالين في سيرة الرُّوح.

٣٨ – المتوحد الذي يحب السكون، إذا انمقت من الذين ينجحون في السيرة التي هي خارج السكون، فتوجَّع من كلامهم ولم يُحنِ عنقه بالخضوع لهم بفرح وبالصلاة من أجلهم، بل هو يريد أن يتكرم ويُمتدح منهم، ويُظهر أنه يُحب أن يحس بأهلية القديسين، هذا إنما هو ممسِك بزيّ السكون فقط بتخيلات زائفة يتخيلها من السماع عن عزاء القديسين الخفي.

٣٩ – من تَدْبِير سيرة الغلوة الأَولى التي للبسطاء في الإيمان التي تُشعل النفس بالدموع

وتسحق القلب بالخوف من عذاب جهنم، ومن المواعيد التي تجذب النفس للتنعم بملكوت السموات، جميع الناس يدخلون إلى ملكوت السموات. وأمَّا الذين من تَدْبِير الحرية الذين يفحصون الحق ويفتشون عن السيرة، فهؤلاء بعد جهد تجد قليلين منهم يُؤهلون لعلو شرف السيرة. فالإيمان يعطي اقتناعاً للضمير بالاتكال على الله ويطرح الخوف خارجاً. وليس عذاب الجحيم سوى النفس المضنوكة المتضايقة بالكآبة، وبسبب عدم إيمانها وثقتها في الله تكون عادمة من العزاء الخفي. أمَّا ملكوت السموات فهو ضمير يفرح برجاء المواعيد.

٤٠ – إن كان الذين يسكرون بالخمر ويتلطفون بالأدوية يخرجون عن حدود المعرفة النفسانية، فمعروف أيضاً أن الذين يسكرون بالحب الإلهي ويتلطفون بعمل السيرة الرُّوحانية يثبون بفرح رجائهم على حدود النقاوة ويحسون بالأسرار التي هي فوق الطبع. وإن كان طبع الحب حلواً وحاراً طبيعياً، فمن الضرورة أنه إذا ما فاض الحب الإلهي في وقت الصلاة على أنفس القديسين، فإن القلب يحتَّر وتفيض النفس بالفرح وتؤهل للنظرة العجيبة.

٤١ – ليس كل أحد يؤتمن على ذخيرة الرُّوح، ولا كل أحد يحفظ وديعة النعمة. المتوحد الذي يتشوق إلى عظائم الله أكثر من مقدار سيرة رتبته، إن كان هو غير مُدرَّب ولا محترس، كم من وقت تصادفه عظائم الشيطان. والذي قد أهِّل لموهبة الرُّوح، ولم يحفظ الوديعة بواجبات الحب الإلهي والتواضع، هذا عند كمال سيره يُسلَّم للمعذبين فيستهزئون به.

٤٢ – إن كان الوَاحِد بالتوحيد قد اتحد بالله الكلمة، فمعروف أن ذِكراً وَاحِداً وفكراً وَاحِداً متفرداً يتحد بيسوع بالسر.

٤٣ – ليس كل من يحفظ الوصايا ينعتق من الآلام؛ لأن كثيرين يحفظون الوصايا ولا يحسون بالآلام القاتلة لهم. فكل الفضائل تتولد من الصبر والتغصب، وبالأكثر السكون والحفظ؛ أمَّا نقاوة النفس ونور الضمير فيتولدان من تَدْبِير سيرة الحرية. ومُحب السكون والحفظ، جميع المفاوضات من كافة الوجوه تسبب له خسارة.

٤٤ – الصلاة التي يقدمها القديسون لله من أجل الخطاة تشبه الدواء الذي يقدمه الطبيب للمرضى. والدواء يقدر أن يعين المريض حسب قوته الطبيعية؛ فإذا كانت قواته الطبيعية قد تخلَّفت عن العمل، فإن أدوية الأطباء لا تنفعه بشيء. هكذا بالمثل إذا وُجد الإيمان ونية مخافة الله في النفس، فإن أدوية الصلاة تقدر عندئذ أن تعين الضعيف. فالنفس هي محتاجة لهذين الأمرين: الإيمان ونيَّة مخافة الله، لكي يحيا بالأفعال ويتقوى بالمعونة التي من الأدوية. لأن صَلَوَات القديسين تشبه السلاح، والقوي إذا لبس السلاح تعمل فيه الغلبة؛ أمَّا المُنحلُّ فيزدري بالسلاح ويموت. فإذا لم يجد سؤالنا استجابة، ينبغي ألا نلوم صَلَوَات القديسين، بل علينا بالأحرى أن نقوِّم تَدْبِيرنا. لأن تدابير الحرية ليست هي انحلالاً في السيرة أو تسيُّبَ لسانٍ، بل هي طفولية معرفة الصيادين الذين بسذاجة قلوبهم يسبحون الله الذي انتخبهم من العالم، لكي بجهالة كرازتهم يُخزون حكماء العالم بحُسن تَدْبِيرهم.

٤٥ ــ المتوحد الذي دائماً يكافئ بالصلاح عوض الشرور حسب وصية رَبِّنَا، هذا قلبه هو ينبوع السلام، وهو يثبت غير مضطرب. الكلمة اللينة تحطم الأعضاء، وشرارة الغضبية والبغضة إن نفختَ فيها أثارت الحنق، وإن تُلاقيها بسلامٍ وحبٍّ تطفئها. والأمران كلاهما تحت سلطة حرية إرادتك، والاثنان يخرجان كلاهما من داخلك، أعني الكلام الطيب والسلام، وكلام التشامخ والغضب.

٤٦ ــ القلب المتوقد بالغضب هو فارغ من العزاء الخفي، وهو عادم أيضاً من العزاء الذي من خارج. لأن العزاء الداخلي هو الذي يقبل العزاء الخارجي ويهتم به ويجد راحته فيه. فإن لم يكن فينا من داخل عزاء خفي، فلا يوجد فينا موضع للعزاء الخارجي لكي يستريح فيه. وعلى هذا النمط أيضاً فإن الصلاح الجواني هو الذي يقبل الصلاح الذي من خارج؛ والشرور تقبل الشرور؛ والأفراح تقبل الأفراح؛ والأحزان تقبل الأحزان. لأن كل جنس يقبل أبناء جنسه ويريحهم ويجد راحته منهم. فإن كان الشيء الذي نقبله بالحواس ليس داخلنا ابن جنسه لكي يريحه، فهو للحال يمضي كالخاطر. فلهذا ممدوحة جداً هي جودة النفس أكثر من جميع الفضائل.

٤٧ ــ إن قلب الإنسان قد مثَّله رَبِّنَا له المجد بالأرض، والكلمة بزرعٍ في الأرض. اِفهم إذاً كم من غيارات تقبلها الأرض من تغيُّر الأعمال؛ من تسميد وسقي وحرثٍ. فكم بالحري الأرض البائرة غير المُفلَّحة ولا مُسمَّدة وهي عادمة من السقي؟ اِفهم أيضاً غيارات الزرع الجيد والزرع الرديء الذي تزرعه فيها، وتشبيه القلوب بأنواع الأراضي، ونوع الكلام بنوع الزرع الذي يُزرع فيها. وافطن لخفايا أرض قلبك وتغير أنواع كلامك من تغير الأراضي وتغير الزروع التي من الخارج. وإن كانت المعرفة قد تمثلت بالماء كقول الكتب، فافهم كم غيارات (أي أنواع) تقتني الأفهام بقياس بعضها ببعض، وهكذا أيضاً تغيّر أنواع المعرفة وتغيّر الثاوريات. وافهم أن المعرفة تتخذ صورة عقلية داخل أنفس الناس.

٤٨ ــ الذي ينضِّد مائدة جسدانية فهو يزينها بكل أنواع الأطعمة، حلو ومر، مالح وعذب، حريف وحامض، لكي يأكل كل وَاحِد حسب مزاجه وشهوته. هكذا هي الكتب الإلهية التي هي مائدة النفس، فقد زيَّنها الرُّوح بجميع أنواع المذاقات، لكي تغتذي النفس من كل كِتَاب حسب مقدار منزلتها وقوتها وتَغيُّر شهواتها. فلهذا لا ينبغي أن نلوم الكتب الإلهية الموضوعة بالرُّوح، إذ توجد فيها مضادة وتَغيُّر لمنفعة كل العامة.

٤٩ ــ كما أن بعض الأجسام تقبل الغذاء من خبز ساذج، والبعض الآخر من لحمٍ وخمر، أو من أنواع فواكه وبقول، هكذا فإن النفوس تغتذي بأنواع تدابير مختلفة وتتعزَّى بسيرٍ متنوعة؛ فالوَاحِد يغتذي بخدمةٍ زائدة، والآخر بصَلَوَات، وآخر بقراءةٍ وتصور وفهمٍ وهذيذ، وآخر بمحبة العلوم ومعرفة أمور جديدة، وآخربصومٍ ونسكٍ، وآخر بتجردٍ وسياحة، وآخر بثباتٍ وسكون، وآخر بتواضع وصبر وطاعة، وآخر بسكون كامل، وآخر ينيح كثيرين بعمله وهو أيضاً يتنيح بهذا التَدْبِير من الآخرين. وهذه التدابير كلها قد دبَّرها الخالق عزَّ وجل لمنفعة كل العامة.

على الظلام المُحزن الحادث على الذين يتدبرون بتَدْبِير المعرفة في السكون

١ – في وقت الظلام يوافق وينفع ضرب الميطانيات أكثر من كل شيء. واِعلم أن عدم عملك الميطانيات وعدم تجلّدك فيها هو في الحقيقة قتالٌ من الشيطان. لهذا ينبغي أن تجاهد مقابله في هذا (الأمر). لأن الشيطان يعرف المعونة التي تحصل من ضرب الميطانيات، ولهذا فهو يجاهد بكل قوته ويحرص أن لا يتركك تعملها. فإذا ما كنت على وشك أن تخرَّ على وجهك تجده يُسجِّسك. ولو أنك غلبته وبدأت بضرب الميطانيات فهو يغصبك أن لا تثبت فيها. ولكن حتى وإن كانت أفكارك باردةً مظلمةً، فينبغي لك أن تثبت في عمل الميطانيات. ولو كان قلبنا مائتاً في تلك الأوقات، وليست لنا صلاة، ولا نعرف ماذا نقول، ولا تأتينا ألفاظ الطلبة حتى ولا التضرع، مع ذلك ينبغي أن ننطرح على وجوهنا دائماً ولو أننا نظل صامتين.

٢ – إذا ما احتجنا لمعونة الله في شيء ما ولم تأتِنا، فإننا نكون قد حُرمنا منها بعدلٍ، لأننا لا ندنو من الله في الصلاة بحرص وحرارة ليلاً ونهاراً، ولسنا نصرخ إليه بوجع، بل ننتظر أنه هو من ذاته يعطينا. أمَّا هو فإنه يُدبِّر لنا وسيلة لكي نتقدم بواسطتها إليه، ولهذا يتركنا نتضايق، وإذ يتأخر في الاستجابة فإنه بذلك يدفعنا أن نثابر نحن على قرع بابه بالطلبه لمنفعتنا. أمَّا نحن فعندما تأتينا أسباب المنفعة نتغافل ونتخلف، ونتقاعد عن السؤال، ونسلِّم أنفسنا للملل والضجر، ونصير أكثر برودة من الماء.

٣ – في كل شرٍّ وتجربة تأتي عليك، سواء كان من داخل أو من خارج، هوذا طريق الصلاة مفتوح أمَّامك: خرّ على وجهك ليلاً ونهاراً وتضرع إلى الله بحزن قلب، فإن الرب رحوم وصالح، وهو لن يتأخر عن أن يعطيك عزاءً وراحة إذا نظر أنك تسأله بحزن القلب، هذا إن لم تكن مسألتك خارجة عن هذا الطريق.

٤ – في كل أيام حياتك هكذا تعمل: تأخذ وتضيِّع؛ وأيضاً تسأل بحزن فيعطيك، وأيضاً يروح منك. وتُصادف شيئاً ما في وقتٍ، وتظن أن هذا هو نهاية القصد (أو الهدف)، وتطلبه في وقت آخر فما تجده. اِفهم أن هكذا هو ترتيب هذا الطريق فلا (يصغر قلبك) ولا تتضجر.

٥ – إيضاح الكلام: ليس أن الله سيد الكل بسؤالنا يأخذ زيادة على بحر مراحمه الذي ليس له قرار؛ نفاقٌ وإثمٌ هو أن نعتقد هذا الأمر. بل إننا بطلبنا متواتراً نستضيء نحن ونقتني عزاءً من المفاوضة باستمرار في الأمور الضرورية.

٦ – في وقت ذلك الظلام المحزن الذي يثقل على النفس علينا أن نحذر من قطع الرجاء! اسمعني، يا أخي: مثل المرأة وهي في آلام الولادة، ومثل إنسان مُلقى في عذاب وعقوبات شديدة، احترس (وجاهد بكل قوتك) أن لا تخرج من قلايتك! لأن العدو يحتال باستمرار، أكثر من كل شيء، أن يخرجك من قلايتك بسبب قلة صبرك في وقت المعركة. فهو يغصبك بكل قوته كي تخرج، لئلا إذا ثَبَتَّ في القلاية تدنو من ضرب الميطانيات؛ لأنه يخاف جداً من هذا العمل

أكثر من كل شيء.

٧ – كما أن القش والنار لا يتفقان في موضع وَاحِد، هكذا العدل والرحمة لا يتفقان في موضع وَاحِد، أي في نفسٍ وَاحِدة. إن أفضل مواهب الله عند العبد هي معرفة ما هية الحق. والمعرفة هي التي يعرف الإنسان بها الخالق، ويعرف ما فوق الطبيعة. وهذه المعرفة يكتسبها الإنسان بالتعليم، ويطلبها بالصلاة والخشوع، وتُعطى له بنعمة الرُّوح الْقُدُس وتوصله إلى معدن النور. وهي تحصل للإنسان بالتواضع وبالعقل الذي تجرَّد من الهم. ومتى أدرك الإنسان طريق الحق أحسَّ في نفسه بحياة قد تجددت له؛ لأن الحق يشرق في قلب من قد عرفه. فإذا أردت أن تظفر بالمعرفة الصحيحة، احفظ نفسك من الشبه. لأن الله قَرَنَ المعرفة بالإيمان، فحيثما كانت أحداهما تكون الأخرى معها؛ لأنه بالإيمان يُعطى للإنسان كل سؤاله.

٨ – احفظ قلبك من الأفكار الرديئة، فإنه معدن الخير والشر والموت والحياة. يحتاج الإنسان إلى هذه الأربعة: معرفة الله، والإيمان به، والخوف منه، والرضى بتَدْبِيره. ينبغي لمن تشبَّه بالملائكة وانفرد عن البشر أن يرفض الشهوات الجسدية لكي يحصل على غنى الرُّوح. قرابين الأبرار مقبولة بالدموع والخشوع؛ فإذا دعوا أُجيبوا، وإذا سألوا لم يُمنعوا.

٩ – الرَّاهِبُ هو من خرج من سلطان بطنه، وسَلِمَ من لواحظ عينيه وخواطر فكره وزلات لسانه. فإن كان (الإنسان) الفاضل هو في العِشرة، فالعبادة هي في الوحدة. علامة قبول الصلاة هي فرح القلب بالتسبيح لله، وانحدار الدموع وقت التضرع من غير تعمُّد البكاء. رأس الرهبنة طهارة الجسد والحواس من الخطية، وعِمارة القلب من التواضع والرحمة، وذِكر الموت ليلاً ونهاراً. أصعب الجهاد هو الصبر على الوحدة، والرضى بما يدبره الله.

مقالات المعرفة (٢)

١ – الله هو في الحقيقة آب الناطقين الذين ولدهم بالنعمة ليكونوا وارثين مجده في العالم الجديد المزمع لتنعيمهم. والحق مخفي في ذاته من جميع ما خَلق، وإلى هنا لزمان كثير يسكن الناطقون الذين خُلقوا من أجله؛ وفي الوقت المناسب يظهر لهم كما يليق بالحق، وأمَّا كماله فهو مخفي في أزلِيَّتَه.

٢ – أربعة غيارات فاضلة تحدث لنا، أعنى للطبع الناطق، وهي: الغيار الأَوَّل نجده في الذي يرجع من رداءة السيرة إلى حسن السيرة، والغيار الثَّانِي في الذي يرجع من ضلالة العقل إلى الإحساس بالحق في الكائنات الثَّانِية (أي البشر)، والغيار الثَّالِث في الذي يرجع من الدرجات السابقة إلى حركة خلقته الطبيعية بالمعرفة الرُّوحانية، والغيار الرَّابع في حركة الحياة الأبدية كالتاؤريا الإنجيلية. والذين تقدموا في الكرامة سبقوا بالتغيير، والذين سبقوا بالتغيير هؤلاء صاروا مرشدين للتغير. وعظيم هو ظلم الذين بدأوا من الذين قبلوا.

٣ – دعوة الأزمان تسير (أي ترتبط) مع حركة الأجسام. وحيث لا توجد أجسام لا يوجد أيضاً تغير. وحيث لا يوجد تغير لا يوجد أيضاً زمان ولا متجسمون. وحيث لا يوجد متجسمون، لا يوجد أيضاً فوقانيون ولا سفليون، بل أقنوم وَاحِد للكل بمساواة، وحسب مساواة الأقانيم بالجواهر غير المتحدة. وإن كان ليس مساواة إفرازات (أي درجات) هناك، فلا أيضاً ألوان (أي أنواع). وعلى هذا النمط تسير كل تاؤرية هذا الفصل.

٤ – الذين يقولون إن رؤية رَبِّنَا تكون في هذا العالم بنوع آخر خارج عن نظرة التاؤريا، هؤلاء هم رفاق الذين يعتقدون أنه يوجد في العالم الجديد شيء محسوس للتنعم بملكوته، أو استعمال عنصري (أي مادي) أو كثافة أقانيم. فهذان الاثنان قد زاغا عن الحق. لأن بشبهه (أي بشبه الرب) يكون إخوته أيضاً، إن كان يمينية أو شمالية، خلاف من درجات وإفرازات بسكون. لأنهم بشبهه يرتفعون من الأشكال الأرضية إلى شكل ممجد جداً. ولا يُظلَم الجسم، بل يتكرم بالغيار الذي يقبله، شيئاً يفوق شكله الأَوَّل. أوغريس شاهد أمين لهذا الأمر؛ لأنه قال: إن كان الجسد البشري هو جزءٌ من هذا العالم، فإذا ما زال هذا العالم فإن شكل هذا الجسد أيضاً يزول.

٥ – المتوحد الذي يُزرع في قلبه زرعٌ روحاني ويؤتمن على كنزٍ، ولم يجعل ذاته أخرس وأطرش بالنسبة لجميع المفاوضات البشرية والأفعال العالمية، والاهتماماَت بالأشياء المرئية، هذا يُضيِّع الوديعة التي عنده. والذي على الدوام يلوم نفسه ويشجبها ويضعها تحت كل إنسان، هذا ترتعب منه الشياطين، ولا تستطيع شياطين الغضب والحسد والحزن أن تقترب منه؛ بل تمتلئ نفسه بالأمَّان والسلام والحب والفرح، ويصير محبوباً عند الله والملائكة والناس. أمَّا الذي يزكي ذاته ويلوم قريبه ويدينه بقلبه، فإن شيطان الغضب يسلِّمه لشيطان الحزن، وشيطان الحسد لشيطان الخَلق (الغضب)، ويكون في كل وقت متكدراً متسجساً غاضباً على الذين لا يمدحونه.

٦ – بمقدار ما يزدري الإنسان بهذا العالم ويهتم بعمل مخافة الله، هكذا تدنو إليه عناية الله ويحس بمظافرتها ومعونتها خفياً، وتُعطى له حركات نقية لَيْتَنعم بها. ولو أن يكون الإنسان عادماً من خيرات هذا العالم بغير إرادته، فهو بمقدار ما يكون خالياً منها هكذا تلزق به الرحمة الإلهية. المجد للذي باليمين والشمال يضع لنا أسباباً للخلاص.

٧ – إذا لم ترجح (أي تكثر) فيك محبة المسيح لكي تكون بلا حزن في جميع الضيقات الحادثة عليك من أجل فرحك به، اعلم أن العالم حيٌّ فيك أكثر من المسيح.

٨ – السهر في التاؤريا مع تَدْبِير المعرفة للذي قد أكمل الأعمال الجسدانية ودنا من الشيخوخة وانحطاط الجسد، هذا (السهر) يقدمه إلى التَدْبِير الرُّوحاني، بالانقطاع فقط من البشر ويقظة وحرص العقل على الدوام، حيث يكمل عليه القول: إن الليل يضيء كالنهار. فينبغي أن يستيقظ قليلاً مقابل تجارب التجديف في هذا الباب. فإن كان الاتضاع موجوداً عنده، فهو ينعتق بسهولة بواسطة نور الإيمان الذي يشرق له بالنعمة. أمَّا إذا مال إلى التشتت والمحادثات، فإنه يُظلِم في التاؤريا ويضل عقله ويُمتحن بالتجديف. لأنه إذا ما دنا من هذا التَدْبِير (أي السهر)، فلن تؤذيه الرَّاحَة مثلما يضرّه الحديث وتشتت الحواس وطموحها.

٩ – الاستضاءة في التاؤريا تسير دائماً مع الهدوء وعدم (تصور) الرسوم الظاهرة، لكي يكون العقل قادراً أن يقوم دائماً ويتأمل أي تاؤريا تظهر له. والذي يقاومنا في هذا الأمر ليس فقط يُضلُّ الآخرين، بل إنه هو نفسه قد زاغ عن الطريق دون أن يحسَّ، وهو يسير تبع الفَيء (أي الظل) بتخيل عقله.

١٠ – في وقت القتال والظلام، ولو أن نكون في الطياشة، علينا أن نثبت في الصلاة وعمل الميطانيات على الأرض. فإذا لم يكن القتال متواتراً ولا الظلام محزناً، بل إنما هو طياشة عادية بطموح أفكار الهمج، علينا أن نزيد جزء القراءة أكثر من الثبات في الصلاة، ونمزج الاثنين معاً، ونأخذ من الكِتَاب دواءً نقدمه للصلاة.

١١ – ليلاً ونهاراً لا تبطل هذه الصلاة من قلبك قائلاً: «يا رب نجني من ظلام النفس». وهذا هو حد كل صلاة مفرزة.

١٢ – النفس المظلمة هي الجحيم الثَّانِي. أمَّا العقل النيِّر فهو شريك السارافيم. طوبى لمن انفتح قلبه وأحسَّ بالشيء الذي الله مزمع أن يعمله مع جنس الناطقين! يا للعجب، كيف تصبر الطبائع العقلية لهذه البهجة! لأنهم يعرفون يقيناً لأي رجاء قد دعينا نحن وهم.

١٣ – التَدْبِير الرُّوحاني هو عمل بغير حواس، وعقل مشترك مع الله باستعلان أسراره. والآباء يدعونه "عقلاً عارياً"، ويدعونه أحياناً "نظرة تفوق الأجسام". لأنه (أي العقل) يرى في ذاته نور بهاء نفسه، وهو في وقت الصلاة ينظر في ذاته مناظر سمائية، أعني أنه يرى مجد الله في نفسه الذي هو نظر أسراره. ونظرة مجد الله هي أن يتحرك فيه (أي في العقل) فَهمٌ على عظمة طبيعته ويرفعه من هذا العالم بالحسِّ به. وفي هذا الموضع يتحقق من الرجاء

المزمع، وهذا هو قنوع (أي يقين) العقل الذي تكلم عنه الرسول بولس.

١٤ - إن الصلاح موضوعٌ في طبع النفس كالنار الموضوعة في طبع الحجر والحديد، وهي مفتقرة إلى من يحركها أي نعمة الله، وحرص الإنسان واجتهاده اللذان يرتبط بهما ههنا بلا تغير بانقباضٍ حرٍّ من أي اضطرار. وإلى أن نخاف ونمتنع من الشرور، فإن محبة الصلاح لن تتحرك في الإنسان بحلاوة وحرارة.

١٥ – كما أن معقول الآب هو منظور عند الملائكة المقدسين، هكذا أيضاً معقول المسيح هو منظور في البشر. والذي في السكن الهادئ يتنعم بتاورية خاصيات المسيح، هذا قد أخذ عربون الملكوت العتيدة من ههنا ميراثاً له.

١٦ – الرَّاحَات تعمي الإنسان فلا ينظر في الأمور الإلهية بالدهش، بل يتفرس فيها بطلبٍ فارغ (أي محاولاً أخذها عبثاً). الجلوس المنفرد يتبعه دهش العقل وعدم التشتت؛ والأعمال بالضرورة هي تحرك الدهش بواسطة الحكمة التي تولِّد في القلب حركات حارة مدهشة. كشرب الماء للنصبات (أي الغروس الجدد)، هكذا هو الصمت الدائم لتربية النفس. والمعرفة وكلام الحكمة هي كمثل التعرية للعضو الذي يُستحى منه.

١٧ – رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح هو بكر وهو وحيد. ولا يُقام هذان الأمران في طبيعة وَاحِدة: أن يكون بكراً لإخوة كثيرين وفي الوقت نفسه يكون وحيداً من غير أن يولد (أحدٌ) قبله وبعده. فصحَّ (أي وضح) هذان الأمران في الإله المتأنس المتحد لوجه (أي أقنوم) وَاحِد، ولم تتخبط خاصيات الطبائع بسبب الاتحاد.

١٨ – السحابة المعقولة هي العقل المبتلع بالدهش بفهمٍ روحاني يقع بغتة في النفس ويقيم العقل بلا حركة، وتنحجب عنه كافة المنظورات ويصير تجاهها بلا معرفة وبلا حسٍّ، ويثبت العقل هادئاً كالسحابة التي تحيط بالأمور وتحجز النظرة المتجسمة.

١٩ – الشهيد بالحياة هو التائب الحقيقي؛ لأن الدموع تغلب الدم بالفعل عند الذين قد اقتنوها، والتوبة (تغلب) الشهادة. أمَّا أولئك (أي الشهداء) فهم يتقدمون بالأكاليل على هؤلاء (أي التائبين)؛ لأن التائبين يأخذون الأكاليل في القيامة العامة، أمَّا الشهداء فيأخذون أكاليلهم قبل (القيامة) العامة، وهكذا يتبين أن التائب الحقيقي إكليله متضاعف.

٢٠ – الغرض من التزمير هو الكلام الهادئ مع الله بتضرعٍ سَكِينٍ وغير متسجس. فلا نكثر العدد كالجهال بينما نطيش بأفكارنا في الزبالة، ونخرج من الصلاة ونحن فارغون من جميع الخيرات التي من عادة العقل المُفرِز أن ينالها في مثل تلك الأوقات.

٢١ – كما أنه لا يُستطاع أن يقبل الإنسان سمع الكلام من دون تركيب الصوت، هكذا لا يمكن أن يتفاوض العقل مع الآلام داخله من دون الهيوليات. وكما أنه لا يُستطاع أن يظهر طبع الشيطان للعين إن لم يتخذ أشكال الحواس التي نحن لابسوها، هكذا لا يمكن له أن يحرك أفكاره

داخل القلب ويلفت العقل نحوها من دون خيالات الأمور.

٢٢ – قصد (أو غاية) ثاؤرية العالم الجديد تظهر في عقل الملائكة والقديسين بنعمة الخالق؛ لأن هذا هو غرضه منذ البدء أن يكمل كل خليقة الناطقين إلى مساواة وَاحِدة، ولا يكون هناك فرق بين أولئك (أي الملائكة) وهؤلاء (أي القديسين)، لا بالتضاعف ولا بالانبساط، ولا يُظلَم الجسد الطبيعي، ولا يعودون يأتون للفحص عند ذلك. (أي أنه لا يوجد وجه للمقارنة فيما بينهم).

٢٣ – كثيرون إذا ما ضربوا مطانيات وكانت لهم صلاة حزينة يقطعون حركتهم ويبطلون الميطانيات المملوءة صلاة نافعة، لظنهم أن ذلك يعوقهم عن تكميل المَزَامِير وعن القراءة والهذيذ، ولم يفهموا منافع الثبات الكثير في هذا العمل الْعَظِيم (أي الميطانيات)، ولم يعرف، هؤلاء الفضلاء، أن استعمالنا المَزَامِير والقراءة والتلاوة والهذيذ بها إنما هو لكي يتطهر الضمير من الطياشة، ويتحرك بنقاوة في الصلاة التي هي المفاوضة مع الله، التي كل شيء نعمله إنما هو لأجلها[٦٣] (أي لأجل المفاوضة مع الله).

٢٤ – الإيمان هو حركة مملوءة يقيناً وثقة بنعمة الله، تظهر في العقل من جهة أمور لا يمكن أن ترسمها الأسطر. لأن العقل المؤمن هو الذي له سلطان أن يعرف الأمور التي تُستعلن للأصحاء، أمَّا المريض الذي غذاؤه البقل فلا يُعطى له غذاء الأصحاء.

٢٥ – الثيؤريا التي تظهر لنا متضاعفة بالأفهام على الطبائع العقلية هي شيء، والتاؤريا التي ترمز (أي تدلّ) على العطايا الطبيعية التي نالوها من الخالق هي شيء آخر. الوَاحِدة منهما تدلُّ على سرِّ خليقة القيامة العامة، وبأي طقس وبأية صورة هو عتيد أن يكون سر القيامة. والأخرى ترمز إلى ذلك التصرف الجديد الذي يكون للناطقين في تلك الحياة مثلما يليق بعِظم إنعام الخالق، والذي يؤهلهم لذلك البلد الرُّوحاني. لكي من كلا هاتين التاؤريتين تظهر لنا أسرار العالم العتيد المستترة، وأي شيء تحملها هذه الجواهر (أي الطبائع) السعيدة التي شاء الخالق أن يُعرِّفنا بها. وقد سبق أن رَمَزَ منذ مبدأ هذا العالم إلى الشيء الثابت المُحقّ عنده، الذي سوف يعمله مع الخليقة في المنتهى، وإلى فضل التكوين (أي التجديد) الثَّانِي التي هي عتيدة أن تقبله، وبأي نوع يكون دخولها وتصرفها في تلك التقانة (أي التجديد).

٢٦ – محب الأعمال ليس هو الذي لا يحب راحة الجسد، بل هو الذي لا يحب مفاوضة الجسد. إذا ما ضعفت الآلام التي في النفس بواسطة السكون وصمتت، فإن الإنسان يستطيع أيضاً أن يقهر شهوات الجسد بسهولة. والذي يعمل باستقامة يجب أن يكون له هذا الغرض في أعماله: أن يجعل عقله غير مغلوب من الآلام، وأن يقيمه صحيحاً بلا تحريك منها.

٢٧ – غرض المعرفة هو أن تُدني العقل من موهبة النظرة الإلهية التي هي كمال التاؤريا. والحسّ العقلي بالنعمة يوجد بعمل التوبة العقلي. وعمل التوبة العقلي هو بكاء الإنسان

[٦٣] أو للذي كل شيء عمله إنما هو لأجله أي لأجل الله في حين نسخ أخرى.

الجواني المُلقى في القلب على الزَّلل، من أجل حبِّ الآب وليس بسبب رعبة الدينونة. هذا (البكاء) هو الذي يتفاوض به الإنسان بالهذيذ الدائم بالله، بتضرع خفي، بالعقل الحامل حزناً يقدمه كذبيحة ترضي الله في كل وقت. والحسُّ العقلي (الذي يبلغ إليه الإنسان) في السكون هو التنعم بالرجاء المفرح، بمذاقة العقل للحب الفائض الذي ينبع من داخل القلب. وهذا هو معنى قوله: «طوبى للحزانى لأنهم يتعزون».

٢٨ – إذا ما بلغ الإنسان (السالك) في طريق الفضيلة إلى فرح الرجاء في عمله، عند ذلك يتخلف عنه الشقاء ويخفّ عليه ثقل العمل. ومن ههنا يترك عنه عمل المخافة ويبدأ بعمل الحب، فينبذ عنه الرعب وخوف الطريق، ويثق قلبه ويبتهج ضميره، ولا يعود ينظر هذا العالم بالكلية. لأن رجاء المزمعات يتحرك دائماً في نفسه ويملأه بهجة في كل وقت، فينحجب هذا العالم من قدام عينيه، ولا يعرف سبب ذلك قط؛ غير أن نفسه تفرح من وقت لآخر كمن هو قائم في العالم العتيد. وهذه الأمور ينظرها الإنسان في نفسه دائماً في السكون، وهي حسب قولهم تكون في الوقت الذي تبتدئ فيه النفس في الانعزال من الشركة مع الخطية، ويبتدئ القلب بواسطة السكون الدائم أن يُنقى من أنواع التذكارات التي تولِّد فيه الصور التي تنبِّه أعضاء الإنسان العتيق.

٢٩ – إذا ما بدأت حركة الرجاء في ضمير الإنسان، والبهجة التي تنمو منها في قلبه بلا سبب في كل وقت، فإنه من ههنا لا يعود يعرف تعباً ولا ثقلاً ولا ضجراً ولا رعبة من الموت. لأني بالحقيقة أعرف أخاً قد بلغ إلى هذا الفرح جميعه حتى أنه عندما يريد أن يمجد الله ويشكره، ينكسر لسانه بسبب ذلك الفرح فلا ينبسط ليبارك به الله، فيلغلغ كالطفل، ويتكلم مع الله كطفل صغير مع أبيه. هكذا يُسكر الفرح الإنسان. وفي هذا يقولون إن القلب يصفو ويكون دخوله إلى الاستعلانات. هذه هي المذاقة الأَولى التي بها يدخل قومٌ إلى الميناء الإلهي. هذا هو كمال التوبة؛ وهذا هو العزاء الذي وُعدنا به في الإنجيل المقدس. ولكن الإنسان يُحرم من هذا العزاء من وقت لآخر لكيما يتضع؛ حيث تثور عليه شكوك وسجس وظلام، ثم يعود أيضاً فيفرح ويتنعم. هذا (الفرح) يا إخوتي، يحدث لنا من السكون الدائم والبعد الزائد من خلطة الناس، ومن التفاوض بهذه الأمور ومايشبهها.

٣٠ – يا الله، أهِّلني لتلك المذاقة المفرحة الموضوعة في التوبة الحقيقية، والتي يغتذي منها التائبون المحقُّون كل يوم، هؤلاء الذين لا يرذلون البكاء بل يدعونه عمل الأطفال. وهم يغتذون (منه) الشهد. ومن دون النظرة الرُّوحية كان البكاء مُكرَّماً عند الآباء، مثلما قيل عن القديس أرسانيوس إن جفون عينيه انتثرت من مداومة البكاء. وذلك الجبار الطوباني بولس إناء الرُّوح التام الذي لم تهدأ عيناه من البكاء مدة ثلاث سنين.

٣١ – إلى إن يبلغ الإنسان إلى مذاقة الإيمان في طريق سيرته، يظل قائماً مقابل الآلام بعجزٍ وضعفٍ، وتثقل عليه أعمال السيرة. الميتوتة الرُّوحانية هي التي (تكون) بنظر الأمور غير المنطوق بها، (حيث) يتفاوض العقل بالانفعال بالإلهيات، فتسكت منه كل الأفكار الأرضية بشبه

التصرف العتيد، ويحصل في دهشٍ بأفهام الأمور التي ليست هي من عالم الموتى هذا، ويقبل (من ههنا) عربون ذلك الملكوت بحواس الرُّوح بصعوده إلى تلك المنازل التي بلا جسد ولا دم. وهذا معنى قوله: «ليأت ملكوتك»؛ فقد أمرنا رَبِّنَا أن نطلبها قبل الوقت بالصلاة، وأن نهدس فيها كل وقت، ونتشوق إليها بلا فتور.

صلاة:

٣٢ – أيُّها السر الخفي الذي ظهر بجسدنا الذي كان قد بليَ، أَظهر فيَّ سرَّ تجديد القديسين الذي يقبلونه ههنا بالعربون لتحقيق الخيرات العتيدة. يا الذي بتعرِّي جسده فضح الأراخنة والسلاطين، وألبَسَ طبيعتنا لباس عدم الفساد، أنت يا رب عَرِّني من الإنسان الفاسد بسرِّ التجديد، وحَرِّك في أعضائي حركات الإنسان الجديد الذي ألبستني إياه بالسر في المعمودية، والذي يُعطَى في العالم الجديد المزمع بالفعل لتنعيم جميع مُحبي محبتك الذين تعبوا لأجلك ههنا.

مقالات المعرفة (٣)

١ – القول عن اتحاد المؤمنين بالآب والابن الذي قاله الابن في وقت الآلام بنوع الصلاة إلى الآب بسبق إظهار السر، هذا القول يكمل بالفعل في العالم الجديد إذا ما انتهت أمور هذا العالم وبلغ مبدأ تلك التقانة (أي التجديد)، عندما يرتفع رَبِّنَا له المجد مع جوقات القوات السمائية مُبجِّلين عظمته، من بعد أن يدين الأرض دينونةً ممتزجةً بالرحمة، ويرتفع معه جميع المستحقين من هذا البلد الوسطاني إلى ذلك البلد الأبدي. حيث الآب والابن بغير حد ولا قياس، والوسيط يَسُوع الْمَسِيح رَبِّنَا الذي به نعاين نظر الثالوث المقدس بغير إدراك كما في مرآة، وبه نقبل التنعم الذي يفيض من ينبوع الحياة. عند ذلك بواسطته يدنو إلى الله الآب جميعُ الناطقين الأَوَّلين والآخرين، وينالون الفرح الذي لن يفترق منهم إلى الأبد. وقد قال الآباء إنه في تلك الساعة التي فيها يُختطف القديسون بواسطة الغمز الإلهي ليرتفعوا إلى سعادة ملاقاة رَبِّنَا، التي تجذبهم قوته كحجر المغناطيس الذي يجذب إليه قطع الحديد، عند ذلك تنضم جميع الرتب السمائية وجوقات أولاد آدم إلى كنيسة وَاحِدة، وعند ذلك يكمل قصد مشيئة الخالق الذي كان ينتظره منذ إنشاء العالم. لأنه لما خلق الخليقة بالنعمة، جعل جميع جَرْي هذا العالم بإفرازاته وتغيراته في خدمة الناطقين، وحدد لهم هذا المخرج (أي النهاية) أن يكونوا مثل السيد في ديار الملكوت، يتنعمون بالعالم الذي لا انقضاء له ولا غيار لتنعم حياته.

٢ – الذبيحة بالهيولي (أي بأعمال جسدية) هي ذبيحة جسدانية تشترك معها النفس بإرادتها الفاضلة. والذبيحة التي بلا هيولي هي ذبيحة نفسانية يشترك فيها الجسد بالخضوع العفيف. الذبيحة التي بلا رسم (أي بدون تصور الأشكال) هي سجود العقل الذي يشخص بالرُّوح بالكلمة غير الهيولية (أي بدون صوت)؛ وفي جميع حركاته يطاطئ رأسه قدام العظمة. والمعرفة في الصلاة التي بلا هيولي هي أفضل من الصلاة التي بلا رسوم. لأن المعرفة في الصلاة التي بلا هيولي هي حسٌّ روحاني في الصلاة، والكلمة التي بلا رسوم (أي بغير تصورات) في الصلاة هي الصلاة الطاهرة. فهناك كلمة هيولية بلا رسوم في الصلاة، وهناك كلمة غير هيولية وبلا رسوم أيضاً: الوَاحِدة يشارك فيها فعل الرُّوح الْقُدُس، والأخرى (تشارك فيها) الإرادة الصالحة النشيطة والنعمة بمعونتها خفياً، بغير معرفة وبدون حسّ المعرفة. (وقد يوجد) أيضاً في الهذيذ الفاضل حركات أقنومية ولكن بدون آلام، وهذه إنما تكون في الأنقياء والفضلاء وليس في الصلاة. فكل رسوم أقنومية (أي صور مجسمة) في الصلاة هي نقص للعقل في وقت الصلاة، وإن كان حدوثها بسبب العجز أو البلادة فليس على العقل في ذلك لوم؛ أمَّا إن كان قد تأخر منها شيء بسبب موافقة العقل لها، ولم يجاهد مقابلها، فهي تجعل المتوحد تحت اللوم قدام الله، هذا إذا وُجدت في العقل خارجاً عن الهذيذ الفاضل، سواء كانت ألمية أو كان تصورها بغير ألم. استعمال التقويم الثَّانِي الذي يحد كل مساواة، ويحرك هذا القيام الكثير الإفرازات (أي الحس الرُّوحاني في الصلاة)، يبدأ عند منتهى ذلك الذي تقدم بمعرفته في الضمير.

٤ – المجد لعظمة حبك الذي لا قياس له! المجد لعجب نعمتك التي لا شبه لها! المجد لتنازلك غير المدرك الذي أقام الرُّوحانيين بالتعجب الذي ليس له تفسير، وفي الآخر بواسطته، بحقيقة أجسادهم، رَفعهم إلى تاؤرية فِكرها أزلياً على تقانتهم (أي كمال حسنهم في التجديد المزمع).

٥ – كل وقت يذوق فيه العقل أفهام التاؤرية الرُّوحانية الأَولى الوحيدية، هكذا تنشأ به الدالة إلى الشيء الذي يؤخذ من التاؤريا، وهناك تتخلف. وكل عقل بحسب مقدار الأفهام التي يستنير بها يُعطى موهبة، وتكون الدالة بحسب كمية النور. ولكن صغر النور وكبره لا يقاس في العقل الذي يقبله، ولهذا فهو يدنو في الأفهام إلى حد الدهش، ومن الأفهام وبواسطتها يُعرف مقدار الفيض أو قياس النور في العقل، وتُعرف نقاوة النظر أو ظلامه.

٦ – ليس كل ظلام وصعوبة جهاد تتبعه موهبة، بل لا بدَّ لكل موهبة أن يسبقها ظلام وصعوبة جهاد، أمَّا من قبلها بوقت قصير أو من قبلها بيوم أو بشهر أو بسنة، وذلك حسب مقدار العطية. لأنه لا يمكن أن يأتي الصلاح إن لم يسبقه السجس والتكدر وظلام عظيم وتجربة. ولهذا فكل وقت يؤهل فيه العقل لقبول موهبة نياح من نوع ما، فهو يجد قدامه جهاداً عظيماً وشراً كثيراً، وبخروجه من هناك يلاقيه النور. وبحسب مقدار الضغطة يكون النور؛ فإن كانت الضغطة شديدة كذلك تكون الموهبة عظيمة. لأننا نرى أن جميع القديسين هكذا يحصل لهم، وبالأكثر إذا ما أُهِّلوا أن يدنوا من النعمة الإلهية. فإنهم في البداية يدخلون في تجربة عظيمة؛ أمَّا في جهاد محسوس مع الشياطين وأمَّا في تجارب خفياً. ولكن طوبى لمن لا يميل إلى الانحلال ويُسيِّب نفسه في المحادثات والنياحات ويهرب من السكون ويستعين بالرَّاحَة في هذه الأوقات المختبرة.

٧ – حرارة القلب التي تكون في وقت الصلاة، عندما تنحلُّ الأعضاء وتنقبض الحواس ويضعف اللسان ويتخلف عن الحركة مع العقل، في ضرب الميطانيات في مكانه مدة طويلة، أحسسنا أن هذا يحدث من القراءة بمعرفة، هذه التي بها يُعرف الحق منيراً بثبات. فعندما يدنو الإنسان إلى الصلاة، فإن تذكار القراءة يلهب المصلي بأفهام الكلام الصحيح الذي قيل عن الله وقد كان يتلو به من قبل.

٨ – إلى أن يؤهَّل الإنسان لاستعلان الأسرار الإلهية التي بالطهارة التامة يُعرَّف العقل بها بفعل الرُّوح الْقُدُس، فإن الذين يسيرون في طريق المعرفة يذوقون التنعم المعقول، إن كان في هذيذ المَزَامِير أو في مفاوضة القراءة أو في الصلاة أو في هذيذ العقل، ويستحقون بالفعل (من وقت لآخر) هذا الدهش الجزئي بالعقل، ويتنعمون بسرور القلب وبالفرح بالله، ويقبلون فهم ذلك الشيء الذي كان متوارياً عنهم. هؤلاء هم الذين من أجل معرفة الله يعدُّون أنفسهم ولا تصغر روحهم ويتركون السكون.

٩ – المجد للذي قد صار لنا وسيطاً لمثل هذه الخيرات وبه استحققنا أن نقبل ونعرف ونحسَّ بالإيمان بذلك الشيء الذي لم تنظره عينٌ ولم تسمعه أذنٌ، ولم تستطع حواس النفس أن تضمر بشيء من هذه الخيرات. والأشياء المكتومة عنده منذ الابتداء الآن قد أخرجها

للظهور بواسطة الجسد الذي أخذه منا ذاك الذي هو صورةٌ حقيقيةٌ لغير المنظور المتحد به الطبع الإلهي، الذي لأجل رجاء الناطقين قد أخذه منا، وبه قد عرَّفنا بشيء من تلك الأشياء لكي نتحقق بقية الأشياء التي ستحدث لنا في التجديد الذي سوف نقبله، أي تلك التقانة الوَاحِدة التي تشركنا مع العقل الإلهي وتُدنينا لنقاوة الضمير في أسرع وقت بغير تعويق.

١٠ – في وقت نظرة النور والسفر (أي الصفاء) في الجو، استعمل الحيل الظاهرة باجتهاد، يعني ضرب الميطانيات وطول التضرع وبقية ما يشبه ذلك. فتبدأ الشمس بغتة أن تصعد دون توقع وتطلق شعاعاتها من وقت لآخر في وسط الرقيع (أي مجال الرؤية الرُّوحية).

١١ – البرِّية القفرة، لأجل الهدوء الذي فيها، تُقني لنا ميتوتة القلب وتُخضع العقل وتخلطه بالله، وذلك بسبب الشخوص والنظر الدائم إليه ليلاً ونهاراً.

١٢ – التواضع هو حد انجماع العقل، وحين يكون النور مشتَّتاً والإنسان مبتعداً عن التواضع يكون انجماع العقل قد انفسخ (أي بطل وزال). وإن كنتَ تقول إن هناك مَن هو منقبض داخله وفي الوقت نفسه يهدس في الشر، أَرني وَاحِداً من آلام الشرور يمكن أن يُقام في العقل بدون تصور الأمور. فإن كان العقل يتصور أشكال الهيولي، فليس هناك إذاً انجماع؛ لأن الانجماع الحقيقي يُعرف من كون العقل منعتقاً من تصور أشكال الآلام. فسكون العقل هو قيام الحق في النفس؛ لأن الحق إنما يُعرف بغير تصور أشكال. والحق هو نقاوة الهذيذ الإلهي المتقوم في الذهن.

١٣ – كل موضع تحلّ فيه كن منفرداً بضميرك متوحداً غريباً بقلبك، غير مختلط بشيء. لأنه إن كانت جميع مصادفات النظر والسمع تنتهي إلى تربية الأفكار بالداخل، فأية منفعة إذاً تكون للذين يُسرعون باجتهاد للملاقاة، ويُمارون (أي يجادلون) أن يُسكتوا الأفكار؟

١٤ – لا تقايس كل السيرة والأعمال العجيبة التي بها بأن يكون الإنسان غير معروف ولا محسوب، وبأنه يهرب من الكل؛ لأن الهروب ينشأ من أن يكون غير معروف ولا محسوب.

١٥ – ثق أن كل الأشياء التي تقع تحت التاؤرية الطبيعية الثَّانِية (أي تأمل الخليقة)، سوف تبطل في العالم الجديد مع جميع زِيِّها؛ لأن شكل هذا العالم يزول مع جميع ترتيباته، ومعلومٌ من هذا أن التاؤريا التي تخصه مع النظر أيضاً تبطل. فإن كان العقل لا يحتاج إلى شيء من تلك الأشياء التي تحرك التاؤريا لا الجسدانيات ولا الحواس التي تقع عليها قبل استئصال قوامها الجسداني، فمعروف أيضاً أن ذكرها ينقطع من الطبع بالكمال. إذ بأي شكل تُرى عند ذلك بعد زوال قوامها؟

١٦ – القداسة هي أن الإنسان يتقدس في الصلاة بقوة فعل الرُّوح الْقُدُس. إلى أن يتقدس قلبنا بروح الرب ما نقدر أن نفرز ضوئياً الحركات التي من فعل الشياطين والتي من الملائكة والتي من الطبع والتي من تحريك الرُّوح الْقُدُس. وإلى أن تتقدس كلمتنا بقوة الرُّوح لن تكون

مخوفة على الشياطين ولن تخضع لها الطبائع الناطقة أو الصامتة.

١٧ – إلى أن نطهر من انفعال الخطية ما يحل في أنفسنا انفعال الرُّوح الْقُدُس، ولا نستطيع أن نكون أواني لحلول الرب بكر جميع الخلائق المنظورين وغير المنظورين. لأنه هو قد وُلد أولاً لحياة العالم الجديد بقيامته من الأموات، فهو بالحق قد صار لنا بكراً لكونه ليس أحد قبله وُلد هناك، وحسناً قد دُعي بكراً، ليس لنا فقط بل وللطبائع غير المتجسمة؛ لأن خلقتهم أيضاً تنتظر هذه الولادة.

١٨ – ينبغي أن تسجد الخليقة كلها لصورة الملك. حتى الآن لم ننظر أحداً من البشر قد سجدت له الملائكة إلا الذي الخليقة كلها، المنظورة وغير المنظورة، تترجاه وتسجد له؛ لأنه دُعي باسم الله، وتليق به هذه التسمية وهذه الصورة التي هو مزمع أن يتقدم بها الكل إلى الله، وبجسده الظاهر ننظر ذاك الخفي غير المدرك.

١٩ – الملائكة المقدسون ليس فيهم وَاحِد أكبر من الآخر بطبع خلقته، ولكنهم من بعد ما خلقهم الرب قسم لهم درجات وكرأمَّات كما شاء. أمَّا من جهة المعرفة وحرارة الحب، فيوجد فيهم أولون ومتوسطون وأخيرون؛ وليس في الرتب الحطيطة مَن يتقدم بالاستعلان والمعرفة على من هو أعلى منه رتبة، ولا الأعلى يتأخر في التعقل بعد من يليه طقساً ودرجة.

٢٠ – إذا ما قبل العقل الإحساس بحسن طبيعته، عند ذلك ينمو في تربية الملائكة، ومن ههنا يؤهل للشركة مع الملائكة باستعلان عقله؛ لأنه قام في ترتيب طبع خلقته الأَولى، تلك التي فيها إمكان لقبول التاؤريا.

٢١ – الحلاوة الأَولى التي للاستعلان العقلي هي تاؤرية (أي تأمل) عناية الله تعالى التي تظهر قوتها الفاعلة للعقل بالحسِّ بأفعال محسوسة. والحلاوة الثَّانِية هي تاؤرية عنايته بالكائنات. والحلاوة الثَّالِثة هي تاؤرية خلقته. والحلاوة الرَّابعة هي تاؤرية حكمته فيها (أي في الخليقة) وقوة فكرته غير المدركة (التي تُرى) في الغيارات غير المتشابهة لأحكامه. بالنظرة الأَولى يتخلى (العقل) عن التحايل البشري، وهذا هو إيمان الكائنات الأَولى. وبالنظرة الثَّانِية يتحقق ويثبت في الثقة والاتكال على الخالق. وبالنظرة الثَّالِثة يُبتلع بالحب كالطفل الذي قد أحسَّ بوالدته. وبالطقس الرَّابع ينحجب بسحابة حكمة الباري المملوءة إفرازات. وبالاختلاج الْخَامِس (أي بالحركة الباطنية) يتحرك بذهول على عدم الإدراك العسر التفسير.

٢٢ – إلى أن تمتزج قوة الرُّوح بهذيذ العقل لا يمكن أن يختلط العقل في حركاته بالدهش في الله. وإلى أن يصفو العقل لا يمكن أن يشترك في فعل الرُّوح. فإذا ما بدأت حركات العقل أن تصفو، عند ذلك يتضع القلب ويصير كمن هو مقيمٌ في عمقٍ ما، ومن هذا التواضع يدنو للنقاوة.

٢٣ – أحببْ الوحدة، يا أخي، ولو أنك عاجزٌ عن تكميل جميع حقوقها. صلاة وَاحِدة يقدمها الإنسان لله وهو وحده أخْير من مئة صلاة يخدمها مع الناس. بالحقيقة إن عمل مئة يوم في

السجس والخلطة يصوم فيها المتوحد ويصلي، ما توازن نوم ليلة وَاحِدة وهو وحده! صلِّ في وحدتك دائماً قائلاً: «يا الله اجعلني مستحقاً لحزن النوح في قلبي. يا رب اقطع مفاوضات العالم من قلبي». هذه الصلاة تدخلك في أسرار الله، إن كنتَ تهتم بتكميل حقوق تفسيرها بعملك. العمل الذي يُعمل بين الناس فيه افتخارٌ، والضعف في السكون فيه انسحاق قلب. ومن دون السكون ما يتواضع القلب؛ ومن دون تواضع القلب ما يتوقد من الحركات المتواترة؛ ومن دون هذا فإن جميع أعمال المتوحد تراب ورماد هي.

٢٤ – كما أن النور غير الناطق قد خُلق وأُؤتمن لتمييز الأجسام، هكذا أيضاً بالنور الحي نعاين الإفرازات الرُّوحية. وإن كان العنصر النيِّر هو لاستعلان الأجسام ولخدمة الحواس الجسدية، وكانت الأشياء التي تفرزها الحواس يأتي وقت لا توجد فيه بعد، فمن البيِّن أن هذا النور حينئذ لا تكون هناك أية حاجة إليه.

٢٥ – نقِّ ضميرك من الأفكار الجسدية لكي تذوق التنعم الذي لا يقع تحت تركيب اللسان. رجاء الأشياء المزمعة يُنسي تذكار الأشياء الأرضية من الضمير. ارفع ضميرك دائماً واشخص في تلك المنازل التي أنت مزمعٌ أن تبلغ إليها أخيراً. قطع الرجاء يخرج الإنسان من نقاء الأفكار ويطمر قلبه في الأرض. أمَّا حفظ الرجاء فهو يطهِّر القلب ويسكره على الدوام ويجعله يتنقَّل بشهوته من الأرضيات ويطيش بحركاته في المنازل السمائية؛ لأن القلب يُنقَّى بسهولةٍ بواسطة الأمل.

٢٦ – مذاقة الملكوت هي حركة القلب بالفرح الذي يملك في النفس بقوة من أجل المزمعات، فتنحلّ جميع أعضاء الجسد قدامه؛ لأنه يُقهر من الصبر على تلك العظمة، وحتى الشرايين والعظام تتحلَّى بذلك السرور الذي يفوق طقس الطبيعة.

٢٧ – بقطع رجاء الإنسان من حياة الجسد يصادف اقتناء النفس الذي يوجد خارجاً عن حواس الجسد. إذا كان الضمير ثابتاً في رجائه، فلو أن الجسد ينحط بالضعف، فإن النفس لا تنغلب ولا تنقص من غناها. البكاء الدائم هو إذا ما ضعف العقل وانحط الجسد وتخلف عن السير. احذر لئلا يعطلك ضعف الجسد عن حياة الوحدة ويَبطل نجاحك مضاعفاً بانحطاط الجسد من الحياة الهادئة مع الله. احذر لئلا تحصل في مرضيْن مولِّدين الموت لغير المائت، اللذين هما بطالة الجسد وانحلال النفس بواسطة الحواس؛ لأن مرض الجسد مع الحرص لا يؤذي شيئاً.

٢٨ – إن كان النور الناطق يمتد بسهولة وبلا عائق إلى النور الأَوَّل، وهذا بالنسبة للناطقين الأَوَّلين الذين قد تشبه بهم الكلمة المخلص، فمعلوم أن السرَّ يكون في العالم غير المتجسد، وبه أيضاً يقبلون ميراث النور، وليس بما هو دون الناطق والمتكلم[٦٤] كما يخرِّف عديمو المعرفة.

٢٩ – قصيرة هي مدة حياتنا، يا إخوتي، وصناعتنا طويلة والخيرات التي وُعدنا بها لا يُنطق بها. لذيذة هي أسباب الآلام، ولكن ليست هي كأثمار البرِّ. مريرة ومحزنة هي أسباب

---

[٦٤] ر ا ي ق ا ل ن ب و ج و أ ش ا ج س ا ل ف ا ل م ا م ز م ع.

البرِّ، ولكن ليس كنهاية الخطية. لذيذة هي أسباب الخطية، ولكن مُرّ جداً هو نهاية فعلها. مريرة هي الأسباب التي تربي الفضائل، ولكن حلوة جداً هي الأثمار التي تشرق منها. ولكن لا حلاوة الأُولى (أي الخطية) ولا مرارة الثَّانِية (أي الفضائل) تدوم كثيراً، بل إن ما يثبت عند من يضبطونها هو النهاية التي تكون منها.

٣٠ – ما أعجب الفكر على تقانتك أيُّها الإنسان، وأعجب منه هو سرُّ قيامتك؛ ومحزنٌ جداً هو الفحص عن انحلال تركيبك، ولكن عظيمٌ جداً هو شرف قيامتك. نفسي حزينة حتى الموت، ولكني أتعزَّى وأتشجع بالإيمان من أجل ذاك الذي سبق ومات وقام، وأعطى بقيامته عزاء الرجاء لجنس البشر،.

٣١ – خمسة هي القوات النفسانية التي تقتنيها النفس الناطقة وهي في الجوهر المتحد بها (أي الجسد): الشهوة الطبيعية التي للنفس، والقوة الغضبية المساعدة لشهوتها؛ لأن الغضبية هي بالطبع قد وُضعت أن تتحرك بعد الشهوة، وحركة الحياة التي تختلج في النفس بلا فتور، والنطق البسيط والنطق المركب. من هذه الخمس قوات النفسية اثنتان تبطلان بالكمال عند افتراقها من الجسد، وهما القوة الغضبية والنطق المركب؛ لأن هناك ليس شيءٌ يُنادى به بالصوت، ولا أمر مضاد للصلاح تُستعمل الغيرة (أو الغضب) مقابله. وهناك اثنتان أخريان أيضاً تُحفظان بلا حركة إلى ما بعد القيامة لأجل استعمالهما في العالم الجديد؛ لأن بهما تكون السيرة السمائية: إحداهما هو النطق البسيط الذي هو العقل العارف؛ لأنه به تتحرك النفس بالتاؤرية على تلك الأزلية التي هي حد كل ملكوت السماء؛ لأنه ينضمّ داخل الدهش بها عقل جميع الناطقين الأَوَّلين والآخِرين. والأخرى هي شهوتها الطبيعية؛ لأن بها تتحرك النفس بحلاوة عظم محبة الخالق التي بها مزمع أن يكمل عند ذلك جميع طبع البشر والملائكة؛ أمَّا الملائكة فهم فيها من الآن بالكمال، وأمَّا البشر فمن حين لآخر فقط. فيتبقى للنفس شيء وَاحِد من قواتها، وهو يثبت معها عند افتراقها من الجسد إلى أن تعود لتلبسه بغمزٍ إلهي من الخالق القوي، وهو حياتها الطبيعية، هذه فقط تبقى فيها وتصحبها إلى ذلك العالم. والنفس التي مع الجسد وبه أخطأت أو تبررت ليس من العدل والواجب أن تنال وحدها من دونه أفراحاً أو أحزاناً.

٣٢ – الطبائع العقلية قد تفاضلت بلا حدٍّ في المعرفة بما فهمته من تَدْبِير تجسد سيدنا المسيح، الأمور التي ما كانوا يعرفونها من قبل، تلك التي من أجل عتقهم وتكميلهم هم ونحن قد جاء؛ لأنهم من بعد مجيئ المسيح قد اقتنوا (أعني الطبائع العقلية) هذه المعرفة الفاضلة على حكمة الله؛ لأنهم نظروا بأية سياسة فاضلة دبَّر أن يجمع الكل إلى وَاحِد بتجسد المسيح، الشيء الذي إذا نلناه فنحن كلنا مزمعون أن نصير وَاحِداً، نحن الذين من ههنا نجتهد بمخافة الله، ونحن عتيدون – إن ثبتنا فيها – أن نحظى بخيرات كثيرة مع القوات غير المرئية ومع المسيح سيدنا، وهناك نصير جميعاً بيعةً وَاحِدةً لرَبِّنَا.

٣٣ – هناك فكرٌ ملائكي، وهناك تاؤرية ملائكية. أمَّا الفكر الملائكي على الفضيلة فينشئ فينا ندماً حاراً، أو تعجباً على طبائع الأمور. وأمَّا التاؤرية الملائكية فعلى أسرارهم تقع نظرتها في أنفسنا. تلك الأَولى تحصل لكل الإخوة الفضلاء الأتقياء، أمَّا هذه الثَّانِية (أي التاؤرية الملائكية) فهي تكون لأناس قديسين فقط.

٣٤ – ثلاث معارف يقال إنها فوق الطهارة، جميع حركات العقل هي محدودة بحركتها الرُّوحانية: بالوَاحِدة يتدرب، وبالأخرى يكمل، وبالثَّالِثة يتكلَّل؛ اثنتان هما في حدود الطبيعة، والثَّالِثة هي فوق الطبع. الأَولى تُدعي المعرفة الطبيعية الثَّانِية، والثَّانِية هي المعرفة الطبيعية الأَولى، والثَّالِثة التي يتكلَّل بها العقل هي معرفة الثالوث المسجود له بسر الرُّوح بثبات وتحقيق.

٣٥ – منتهى التوبة هو مبدأ الطهارة؛ وكمال الطهارة هو مبدأ النقاوة. الطريق إلى الطهارة هو عمل الفضيلة، أمَّا النقاوة فتكون من فعل الاستعلانات. الطهارة هي التعري من الآلام، والنقاوة هي التعري من الظنون واختلاف الضمائر (والارتقاء) إلى تحقيق معرفة الأسرار التي بها يتدرب العقل ويرتفع إلى كمال حركاته. ومتى صادف العقل استعلان حدِّ كلِّ الأسرار التي لم تتحقق بعد، فعند هذا الحد يُبتلع بلا تذكار. وهذا الترتيب يَضبط بلا حدٍّ التصرف المزمع أن يكون.

٣٦ – الحسُّ الرُّوحاني بتاؤرية المتجسدين وغير المتجسدين هو طبيعي للعقل الناطق حسب قول الآباء؛ وإذا ما هدس في الثَّانِية فهو يقوم بتكميل حركاته الطبيعية، وإذا ما كان في الأَولى فهو يقوم في الترتيب الطبيعي الذي بعد الكمال. لأن الشيء الذي يُعرف بواسطة (التاؤرية) الثَّانِية هو – كما يُقال – موهبة أعلى من الطبيعة.

٣٧ – العقل المتوحد يتولد من تفرُّد الجسم، وحسب اختلاط الجسد هكذا يختلط الضمير. كما أنه ما ينغسل الثوب من الوسخ إن لم ينعصر وينمرس بالصابون، هكذا أيضاً ما يَنقى القلب من الآلام أن لم ينسحق الجسد بالأتعاب والتوحد.

٣٨ – يوجد عملٌ يدلُّك على سبل قاطعة، ومن أنواعه وزيِّه يعلِّمك التواضع، ويؤهلك للمعرفة ويُحببك فيها ويجعلك قريباً. وهناك عملٌ آخر يجعلك تطوف على جانب الطريق بنشاط، ويضع قدامك سَفراً طويلاً؛ وإذ يكون المدخل أمَّامك يمنعك من أن تنظره ويجعل سيرك دورة كبيرة. والاثنان يوصلان إلى ربٍّ وَاحِد من خلال العمل بهما. لأنه ليس أحدٌ ينظر غير المحدود وهو قريب؛ والذي يقرأ يفهم معنى هذا الفصل.

٣٩ – طهارة الصلاة هي إسكات مفاوضة الأفكار الجسدانية وتحريك ما يخص النفس. هكذا أيضاً نقاوة القلب هي حسُّ الضمير الذي بلا اجتهاد ومن غير الإرادة قد اقتنى اختلاجاً دائماً بالخفيات، فلا تعود ترتسم في العقل تذكارات أمور الجسد.

٤٠ – إن معرفة الحروب هي شيءٌ، ومعرفة التأديب شيءٌ آخر. لأن سائر حركات معرفة الحروب هي مفتقرة إلى التجربة، هذه التي كثيراً ما يتحير بها ذوو العقل والحكمة بتأديب رياضاتهم، أمَّا السُّذَّج والأميُّون في المعرفة فيقتنونها من العمل. فكما أنه لا يُستطاع تَعلُّم صناعة رمي النشاب (أي السهام) بين الجموع وفي الأسواق، بل في موضع قفر خالٍ يصلح سوقاً للخيل ولرمي النشاب لكي لا تتعطل من الانطلاق نحو الأمَّاج (أي الهدف)، هكذا أيضاً ما يقدر إنسانٌ أن يتعلَّم صناعة القتال الرُّوحاني والجري الدائم نحو الأمَّاج الإلهي حسناً، وما يقدر أن يعرف صنعة الأفكار وحكمة النوتية الرُّوحانية في هذا البحر المخوف ويتحنَّك بحيل وصنائع كثيرة، إن لم يثبت في السكون الدائم والفرغة من كل شيء ينضبط فيه العقل ويبطل به ويتخلف عن الصلاة والتضرع الدائم. والذي ما يصنع هذا يسقط.

٤١ – إذا ما تحرك العقل في الأمور (الكائنة هنا) بنعمة الله، فهو لأجل حلاوة تلك المعرفة يتخلف عن الهذيذ والتذكار وقتاً كثيراً وهو ساكت ومتعجب. ولست أعني بهذا (السكوت) ذلك الانقباض الكلي الذي يكون في التاؤرية الإلهية، حيث تتغير حركات العقل إلى الدهش ويبقى بلا حركة يوماً أو يومين أو أكثر، أو الذي يكون في شيء من التاؤريات الأخرى. فليس هو ذلك التخلف (أي التوقف) الكلي بالفكر وخروج الطبع من المعرفة (الواعية) إلى عدم المعرفة التي هي أعلى من كل معرفة، حسب قول الآباء، بل إنما هو سُكرٌ وحرارةُ قلبٍ وسلامٌ وفرح. فالدهش الكلي في الصلاة يلازمه عدم إحساس تام بهذه الأمور الحاضرة أو بشيء من المعارف أو بحلاوة الرُّوح ما خلا شيئاً وَاحِداً فقط. أمَّا النوع الآخر من الدهش فعندما يحصل للإنسان ويذوق حنك عقله التنعم الرُّوحاني، فإنه لا يكون خالياً من معرفة الأمور التي هنا، بل إنما تنقبض الحواس داخله وتصمت من هذيذ العادة فقط بينما يُحفظ عنده معرفة شيء من ههنا، ويعرف ويسمع ويحسُّ ولكنه يكون منقبضاً من الطياشة ولا يميل إلى أي هذيذ، بل يكون متمتعاً بلذة ذلك التمييز الرُّوحاني الذي وقع فيه، ويدهش ويقوم بصمت أو ينحني على الأرض من اضطرار تلك الحلاوة التي لا ينطق بها، ذلك لأن الجسد لا يصبر على حمله فتنقبض حواسه وتتخلف أعضاؤه من غير الإرادة ويقع على وجهه. أمَّا بضميره فهو يكون مرتفعاً عن هذه الأرضيات، ويصير كمن قد بلغت سفينته ذلك التَدْبِير المزمع، ويكون عنده إحساسٌ خفي بغير هذيذٍ بالأشياء التي هنا؛ لأنه ينجذب بلذة ذلك التمييز الرُّوحاني الحاصل. والذين قبلوا تجربة هذه الأشياء بأنفسهم هم يعرفون الشيء الذي أتكلم عنه وأن هذا هو معناه. أمَّا أن يكون الإنسان بلا فكر ولا معرفة ولا حسٍّ بالطبع لمدة أيام، كما كتب الآباء، فهذا يحصل عند الحسِّ بالله فقط. وفي الأمور الأخرى ولو أن العقل يكون هادئاً إلا أنه يظل محتفظاً بالحسِّ بالأشياء الحاضرة. أمَّا إذا حصل للعقل استعلان بالله فلا يبقى فيه عند ذلك أيُّ حسٍّ (بالأشياء الحاضرة).

٤٢ – بقدر ما تقلُّ أفكار العالم من الضمير هكذا ينفتح قدامك الباب إلى فرح رَبِّنَا، ولا يمكن أن يحسَّ عقلك بهذا الفرح إلا بعد انقباض دائم في الصلاة. جميع الآباء القديسين من أجل نقص المجاهدة مع الأفكار، التي هي القيام من السقوط في الطياشة، جعلوا سكنهم في المواضع التي تسبب نقص الأفكار وليس كثرتها. فهم لم يقدروا أن يجدوا انقباض العقل في الصلاة بشجاعتهم في الجهاد مع الأفكار، ولكنهم عندما نقصت الأفكار حظوا بالهدوء ووجدوا هناك فسحة (للانقباض في الصلاة). واعلمْ أن هذا الأمر لا يمكن أن تحظى به مع مداومة ملاقاة البشر والبشريات. ولعلك تقول إنه ليست لي مقدرة على الحبس الدائم الذي بلا انقطاع، ولا على البعد الكلي من العالم بالسكن المنفرد؛ فإن كان، يا أخي، هذا حالك فلا تطلب الشيء الذي لا يحظى بوجوده إلا الذين يتدبرون بما يفوق العالم، أي بالسكون من تواتر الأفكار. لأن السكون من تواتر الأفكار هو سبب الفرح الحاصل من الانقباض في الصلاة بفكرٍ وَاحِد متشوق بالله، ومن ههنا يُؤَهَّل لنقاوة القلب، وينتقل على الدوام من العالم خارجاً عن الإرادة، بقيام العقل دائماً بالله.

٤٣ – بحسب موضع تصرُّفك تنقص أو تكثر الأفكار، وبالتالي يقل أو يزداد الجهاد الذي يدنو إليه الإنسان. ومن بُعد موضع السكن كم من وقتٍ يحسُّ فيه المتوحد بحركة تفوق الجسد، ولو أنه قليل الأعمال؛ وهذا يكون بسبب كثرة الميتوتة من الناس. لأنه بمقدار ما يبعد الإنسان من سكن العالم ويدخل في قفر البرية، هكذا يحسُّ القلب بالبعد من الطبع، وبحسب ذلك يقبل سكون الأفكار ولا يتعب كثيراً في الجهاد معها؛ لأن نظر القفر هو بالطبع يميت الحركات العالمية (من القلب) ويجمعه من تواتر الأفكار.

٤٤- كما أنه لا يمكن أن تصفو نظرة من هو قائمٌ بجانب الدخان إلا إذا فرّ وابتعد من هناك، هكذا لا يمكن أن يقتني (الإنسان) طهارة القلب والسكون من الأفكار من دون الوحدة المبتعدة من دخان هذا العالم الذي يَبخر قدام الحواس ويعمي عيني النفس.

٤٥ – لا ينبغي لأحد أن يَخرِف بمعرفة باطلة ويقاومنا في هذا: أنه إذا كنا قرب سكن الناس فأفكار السكن تحدث لنا؛ وإذا كنا في القفر فأفكار القفر تحدث لنا؛ وإذا خالطنا كثيرين فأفكار كثيرين تحدث لنا؛ وإذا انفردنا من الكل فإننا نقتني ضميراً منفرداً. وما هي أفكار القفر غير حركات تخرج من قلبٍ مائت؟ وإذا كنا موتى من العالم في حركاتنا، فبالضرورة لا يمكن أن لا نتحرك بالله. لأن سكون الحركات العالمية يعطي فسحةً وموضعاً للتحرك بالله.

٤٦ – اِضنِك الجسد بالأتعاب والأعمال في مواضع القفر؛ لأنه من شقاء وتعب الجسد نقتني أيضاً ضميراً منفرداً. أمَّا في الخلطة فلو أن الجسد يسقط ثم يتريض فهو مع ذلك يميل إلى الرخاوة والانحلال ويمتلئ آلأمًا بسبب المفاوضة (مع الناس). أمَّا في وحدة القفر، فإن طهارته تثبت فيه؛ وبهذا يمكننا أن نترك أعمالنا الأَولى (أي العادات القديمة) ونتجرد منها، وبواسطة الأعمال (وتعب الجسد) مع نقص الأفكار الحادث من القفر وسكونه، هكذا ندخل سريعاً إلى حرية النفس التي تفوق العالم، ونأخذ في أنفسنا إشارات إلهية بتجديد العقل، ونقبل بسهولة

موهبة الله.

٤٧ – إن كنتَ ترى، يا أخي، أنه من أجل البعد والشقاء في السكون والوحدة تصغر نفسك وتحزن إذ تجد هذه الحياة قد اضمحلت والجسد قد تخلَّف وضَني (أي اشتد مرضه)، وترى فكرك قد ضعف وفزع لهذا الأمر، ضع قبالة ذلك فكراً عادلاً وضمير مخافة الله، وعزِّ نفسك بهذا الشيء الذي هو حقٌّ: أنه أوفق لك حياة قصيرة تحياها بالبر حسب إرادة الله، ولا عمر طويل بما يغضبه. واذكر حياة القديسين القدماء الذين لم يحسبوا أنفسهم شيئاً بالقياس إلى إرادة الله، وبمثل هذه الحياة صبروا جميع أيام حياتهم، إن كان في المسكونة أو في القفر إلى حين انتقالهم وتركهم جسد هذا الاتضاع، وبعد جهدٍ كثير قدروا أن يكملوا طريق مخافة الله بسبب عطلة الجسد. وعند انتقالهم من هذا العالم فرحوا فرحاً عظيماً جداً؛ لأنهم استطاعوا بضيقاتٍ قَلِيلَة حاضرةٍ أن يتخلصوا من الشرور التي تحارب لكي تفسد النفس، ووُجِدوا في وقت انتقالهم في أهلية الله وما يخصه.

٤٨ – الطهارة هي بلد الهدوء للطبع الذي قد أَغلق مقابله باب الآلام؛ هذا الذي إذا فتحه إنسانٌ لا يمكنه أن يدخل إلى بلد الطبع الهادئ؛ لأنه إذا أُهِّل للدخول، فهو حسب ظني يقبل حسَّ تجديده بواسطة الإشارات النقية المتحركة في عقله، مع تخلف الإنسان من ترتيب مصاف الجهاد بدخوله إلى الطقس الذي يبدأ بعده باتساع خصب العقل، الذي هو طقس تَدْبِير الإنسان الجواني.

٤٩ – إذا انقبض الإنسان بمعونة الله من الهمِّ الذي من خارج ومن الهمِّ الذي من الهذيذ بأمور الكثيرين، وصار إنساناً وَاحِداً؛ فإنه من ههنا يبدأ أن ينظر في ذاته أموراً جديدةً وإشاراتٍ وعلاَّماتٍ محسوسةً وخفيةً، ومن ههنا يؤهَّل لذلك التجديد الذي يكون في قيامة الكل، ويذوقه بالغمز، إذ أنه دفعات كثيرة في وسط النهار يحسُّ في نفسه أنه قد انقبض إلى ذاته، في صمتٍ لا يُفسَّر، من غير أن يعتني هو بذلك، ليفهم القارئ. وهذا يحدث أحياناً في وقت الخدمة، وأحياناً أخرى في وقت القراءة. والذين أُهِّلوا للزكاوة تختلف حركات أحلامهم في النوم عن الذين هم متألمون بالعقل، إن كانوا الآن يجاهدون في القتال مقابل هذه الآلام.

٥٠ – إن كنتَ تريد العزاء الحقيقي في الصلاة فاهتم بتقويم نيَّتك، وإن كنتَ تطلب تقويم النية، اهتم بالصلاة؛ لأن الاهتمام بإحداهما يصنع طهارة رفيقتها: فتقويم النية يصنع طهارة الصلاة، وطهارة الصلاة تمنح دالة النية. الطهارة ما تنحفظ مع التشابك والخلطة، ولا الذِكر (أي الهذيذ) يثبت مع الاهتمام بالأفعال والارتباط بأمور كثيرة. فالذين يشتهون البرَّ البراني (أي برّ أعمال الفضائل مع الآخرين)، يُلقون أنفسهم في الاضطراب والسجس، ويتعطلون ويخيبون من نصيب البرِّ الأعظم.

٥١ – بدء تَدْبِير الوحدة هو التجرد والسكون وعدم الارتباط بإنسانٍ أو بأمرٍ أو بفعلٍ ما. والعمل في السكون هو الصبر على ما يعرض والتواضع والصلاة. والثمار المتولِّدة من هذه هي الدخول إلى الرجاء والتنعم والفرح بالله، والهدف الصالح من هذه هو تناول مفاتيح أسرار

الرُّوح الممجَّدة، وحدُّ الطريق هو مذاقة الحب والدالة من ههنا مع ذاك الذي نحبه. والذي لم يقتنِ مبادئ الطريق، أي التجرد والسكون، واضح أنه ليس له صلاة ولا تواضع. والذي هو بطَّال من هاتين هو بالضرورة مشتبكٌ بالخطايا. والذي هو خاطئ ليس فقط أنه لا موضع له في ملكوت السموات، بل وإنه قد اقتنى مكاناً معروفاً في الجحيم.

٥٢ ــ إذا أردتَ أن تعرفَ رجلَ الله فإنك تعرفه من دوام صمته ومن بكائه ومن انقباضه مع نفسه. هكذا أيضاً الجاهل وعادم العقل تعرفه من كثرة كلامه ومن تخبيط الحواس وقيام الهوى.

٥٣ ــ لا تحسب المداومة والثبات الكثير في الصلاة قدام الله أنها بَطَالة؛ لأن ليس مزمور أعظم منها، ولا في الأعمال شيء أفضل منها، ولا شيء في كل الفضائل التي يعملها الناس ما يساويها، ولماذا أقول الفضائل؟ بل حتى ولو كان الإنسان مائتاً من عمل الفضائل. لأن مدامة الصلاة مع الله هي دليل الميتوتة من العالم، وجميع الخيرات الحاضرة والمزمعة بها توجد. فلا تكن قَلِيلَة في عينيك هذه المداومة، إن كنتَ تستطيع أن تثبت فيها بلا فتور، إذ تجحد كل شيء حتى نفسك وتداوم الصلاة فقط. فما تُنعت طوباك بلسانٍ أرضي إن أنت بذلت ذاتك لها؛ لأن الشيء الذي نحظى به ونلاقيه منها هو أمر عجيب حقاً: لأننا من ههنا نقتني الخروج الكامل من العالم بالحق، ومن كل التدابير الفاسدة، وهو حدّ كل الأعمال وحابس كل الوصايا وكمال سائر الفضائل.

٥٤ ــ إذا ما وجد العدو أن المتوحد قد أعطى نفسه واستعد للجهاد مقابله وجَسر عليه، فهو في كلِّ أمرٍ يتحايل بكثرة دهائه لكي بجميع الوسائل يربط عقله بالعلمانيين، ومن هنا ودون تعويق يريد أن يخدعه بسهولة ويرميه في ثلاثة آلام كبار: الزنى والحسد والغضب. لأنه إذا سبق وقيَّد يدي المتوحد ورجليه بشباكها فهو يسقط فيها علىالدوام، ويصعب عليه ويثقل جداً الاهتمام بالصلاة والتَدْبِير بالسيرة والطهارة.

٥٥ ــ محب الأعمال ليس هو الذي لا يحب راحة الجسد، بل هو الذي لا يحب المفاوضات الجسدية. والإحساس العقلي بالنعمة يوجد في عمل التوبة العقلي.

٥٦ ــ لقد تاه عن كثيرين هذا الأمر، فلم يعرفوا ولم يفهموا أننا نحن المتوحدين لسنا نحبس أنفسنا داخل الباب من أجل أن نعمل الفضائل، بل وأن نكون أيضاً موتى من الفضائل. لأن الفضيلة التي تُعمل في السُكنى مع كثيرين إنما يعملها الأحياء. فإن كنا نحن نطلب في السكون عمل الفضيلة التي يعملها إخوتنا الأتقياء في المجمع، فما لنا والهرب والحبس في قبر القلاية؟ ولكننا إنما ننتظر أن نقتني من عمل السكون الشيء الذي إذا تعلقنا بجفون عيوننا لا نقدر أن نجده في السُكنى مع كثيرين. ولو كان قصدنا عمل الفضيلة، فما هو المانع من عملها في السكن مع كثيرين؟ ما أعنيه هنا هو الصَّوْم وخدمة الأوقات والصدقة وما تبقى مما يشبه ذلك، وهي الأعمال التي يُنشِّط المجمع بالأكثر على عملها، ولا تُعرف فضيلة خارجاً عنها. إن التنعم الذي يوجد في العمل الخفي المكتوم لا يُعدّ مع الفضيلة؛ لأنه هو سيد الفضائل. أمَّا الفضيلة

فهي كل عمل ظاهر بحواس الجسد من أجل الله. ولكننا نعمل هذه الفضائل أولاً في المجمع، وبعد أن نتخرج ونتدرب ندخل السكون ونحن نأمل أن نقتني فيه شيئاً معروفٌ أن صوت الطير يكدِّره!

٥٧ – اترك الخروج والدخول الكثير والمناظر الدائمة. هوذا أنت ترى كثيرين من الآباء الرُّوحانيين لم تكن لهم في جسدهم قوة ليكملوا بها الفضائل، ولكنهم ما رأوا أن يتركوا السكون، بل كانوا مطروحين داخل الباب، والباب مسدود في وجوههم، وكانوا هادئين فقط. ألعله كان ينبغي لهم أن يتركوا السكون لأنه ليس لهم أعمال؟ أمَّا هم فما كانت حلاوة الوحدة تدعهم أن يعطوا أنفسهم لنظر المجمع على الدوام. لقد كان حلواً عندهم أن يقدموا لله صلاة وَاحِدة بقلبهم وهم مُلقون في السكون بحزن حلو واتضاع، أخْير من ربوات صَلَوَات وأعمال يقدمونها لله خارج قلاليهم، وأفضل من نظر ومفاوضة فضلاء العالم وحضور الأعياد.

٥٨ – حدُّ الفضيلة هو المفاوضة الوحيدة والهذيذ العقلي الهادئ بالله. والمتوحد ليس له عيد على الأرض؛ لأن عيد المتوحد هو حزن نوحه. وعوض الأعمال التي يفتخر بها كثيرون بالنزهة مع بعضهم، هذا عزاؤه هو شقاؤه في السكون. ألعلك، يا أخي، ما تعدّ عدم الأنس والمفاوضة والنوح والحزن العقلي والتمرغ كل وقت قدام الله، ما تعدّها عملاً، بل تحسب أن الصَّوْم وكثرة التلاوة فقط هو عمل؟ ولكن اِعلم أن عمل القلب والتجلد في الوحدة هو العمل الفاضل. وصدِّق أنه سعيدٌ حقاً ومؤهَّلٌ لله مَن يأكل كل يوم وينام وهو مداوم السكون وصعوبة الوحدة جميع أيامه، ولو أنه يتنهد على نفسه دفعة وَاحِدة (فقط) في النهار وهو محزون ومُلقى أمَّام الله.

٥٩ – تَميز أن كثيرين، وربما جميع النصارى، يعملون أعمال الجسد بحلاوة وشجاعة، ويعملون كل الفضائل المذكورة بفرح، أمَّا السكون فما يجسرون عليه! فلا تحزن أيُّها الأخ الضعيف الجسد الساكن في الهدوء لأنه ليس لك أعمال جسدانية؛ فإن نصيبك هو أعظم من نصيب أولئك الذين يعملون الفضائل الكبار وهم خارج السكون. عظيمة حقاً هي الموهبة التي حظيت بها أفضل من كل أعمال الجسد، وهي السكون بتجلد ومحبة.

٦٠ – لقد أطلتُ هذا الفصل أكثر من البقية، والسبب في ذلك أنني أرى أنه قد تحصل لكثيرين خسارة ليست بقَلِيلَة من هذا الأمر. إذ أنهم يصلحون لتَدْبِير السكون من أجل استنارتهم وتواضعهم وحرارتهم الكثيرة وازدرائهم بالعالم، ولكن لأنه ليس لهم قوة جسدية في الأعمال، أي أنهم لا يقدرون أن يصوموا ويسهروا ويعملوا بالجسد مثل كثيرين، فإنهم يقطعون رجاءهم من السكون. وكثيرون من الحكماء المفتخرين بالجسد يعطلونهم بكلامهم الخَرف من هذا العمل، أي من الحبس والانقباض مع أنفسهم في السكون، هذا العمل الْعَظِيم والعجيب جداً، الذي لم يحظَ به سوى أفراد قلائل فقط بنوع الموهبة والإنعام من الله: أن يتشجعوا وهم في ضعف أجسادهم ويصبروا على الوحدة وصعوبتها، وعلى العمل وحزن القلب الذي ينفر منه الجبابرة والشجعان!

٦١ – بالحقيقة إن عمل مئة من الرهبان يصومون ويخدمون في السجس والخلطة ما يوازن عمل راهب وَاحِد في السكون حتى ولو كان ضعيفاً عاجزاً، ماعدا أن يكون فقط عادماً من الخلطة ومفاوضة الناس وحبيساً داخل قلايته بلا انقطاع وليس أحد يدخل إليه ويخرج. ولا أعني بقولي هذا عن الذين يمسكون السكون بالجسد (فقط) ولهم من يدخل إليهم ويخرج بسهولة، بل أعني الذين يسدُّون بابهم من يوم الأحد إلى يوم الأحد وليس لهم خلطة ولا مفاوضة مع أحد، ويحبسون أسابيع محدودة أو جميع السنة، ما خلا تناول الأسرار الإلهية، ولا يلاقون أحداً ولا يحضرون الأعياد ولا الكنائس حيث الجماعات.

٦٢ – فإن كان هناك متوحد كفؤ لنعمة السكون، وقد حظي بهذه الموهبة من الله، ومنعه أحد الأساقفة أو رؤساء أديرة الإخوة، أمَّا من أجل غيرة أو حسد، وأمَّا من أجل عمل جسداني أو نياح، عليه دينونة قدام الله ويكون مزمعاً أن يعطي جواباً أمَّام منبر المسيح.

٦٣ – فإن كان، يا إخوتي، جيلنا هذا الرديء لا يساعد على إيجاد موضع موافق للسكون الحقيقي كما كان في الأجيال السابقة، فكل موضع نحلُّ فيه يمكننا أن ننقبض مع أنفسنا ولو أنه يوم وَاحِد، أمَّا في دير وأمَّا في طريق أو تحت صخرة، ولا ننتظر الترتيب والاستعداد، بل كل وقت يقع السكون بأيدينا علينا أن نضبطه حسناً يوماً أو يومين؛ لأن الحكماء هكذا يقتنون أنفسهم مدة حياتهم القصيرة هذه، لئلا يدركنا الموت بغتة ولا نبلغ مقصدنا ولا ندرك أملنا.

رؤوس المعرفة

تفيد العقل للبلوغ إلى بلد السلام، وترسم بمصعد القلب تصور أسرار العالم الجديد الذي يُعطي إنعاماً للمتوحدين المحقِّين، وترشد القارئ من تصوّر إلى تصوّر حتى توصله إلى المعرفة المُقدسة.

المَيْمَر الأَوَّل

١ – الإيمان بالمسيح هو نور عقلي وحياة. وتعاليم يسوع هي معرفة الحق الذي بواسطة كلمة النور يفيض على (قلوب) المؤمنين ويعطيهم نوراً وحياةً حقيقية. نفخة الرب في وجه تلاميذه وقوله لهم: «اقبلوا الرُّوح الْقُدُس»، هي مواهب ودالة قد منحها لهم. قيامة يسوع هي مثال القيامة العامة. والباراقليط، روح العزاء الذي قبله الرسل في العلية مانحاً إياهم التجديد، هو سر التجديد العقلي والعزاء الذي يقبله القديسون هنا في إنسانهم الجواني.

٢ – الإيمان الحقيقي هو رأس النفس، والحق هو رأس التدابير المتقنة الذي يجذب ويخضع (النفس) لحرية الإرادة.

٣ – النور العقلي وحياة الناطقين هو معرفة الحق، والذي بالرجاء والإيمان يخرج في طلبه بالصلاة، فإنه يجد داخله كنز الحياة، أمَّا الذي يبعد عنه فهو يسير في الظلام.

٤ – الذي له العزاء الداخلي فإنه يطرد عنه المفاوضة الخارجية لئلا يضيع منه عزاؤه الداخلي. لأن الذي قد وجد الحق داخله لا يعمل بعد بالحِيَل.

٥ – الذي له نور عقلي ليس هو محتاجاً للنور المحسوس، لأن نور العقل، كما يقولون، هو معرفة الحق الذي به تميز النفس بين الحق والتشبه. والذي وجد هذا، قد اقتنى ذخيرة الحياة.

٦ – الذي له غِنى، هو ناقص عن غنى المملكة؛ لأنه هو مع غناه للملك، وهو تحت الخوف من البرانيين والجوانيين. وأمَّا الذي قد أبهج الملك فسكب عليه مواهبه وجعله ابن سرِّه ومتداخلاً في المملكة، فهو ولو أنه حقيرٌ ومسكين إلا أنه متفاضلٌ على جميع رفقائه؛ لأن ذخيرة المملكة لا تقع تحت خوف السالبين، ما دام لا يصير سبباً للخطايا بإرادته.

٧ – الذي قد وجد الكنز داخله، ليس يطلب صدقةً من البرانيين ولا يتحدث مع إنسان، بل يحترس بما له وهو مسالمٌ مع كل أحد، لئلا يُضيِّع وديعة الحب ويتسجس.

٨ – إن كانت معرفة الخير والشر تتولد داخل القلب كما قال الرب، فما دام قلبنا مضبوطاً من شيطان الغضب والحسد ومحبة المجد الباطل، ويهدس مع الناس، فالأَوَّلاد المولودون منه هم بالضرورة يشبهون آباءهم في معرفة الغضب وما تبقى؛ وهكذا أيضاً هي أفعالهم. وعلى هذا النمط اِفهم أيضاً سلامة القلب التي يتولد منها ضد هذه.

٩ – الملائكة هم بالنار والهواء، والشياطين بالظلمة واللجج، أمَّا الناس فهم بالهواء والماء بحرية إرادتهم.

١٠ – إن كانت المعرفة التي على أسرار الثالوث المقدس هي أقدم من كل المعارف، وتحوي كل المعارف، وتفعل في الكل؛ فهي أفضل من الكل، فمعلوم أيضاً أن الذي هو عادم منها هو بعيدٌ من الحقِّ.

١١ – معرفة الأنواع والحِيَل (أي الطرق والمناهج) هي معرفة الصبيان التي بتأديب التغصب والقسر توصلنا إلى معرفة الحق.

١٢ – معرفة الحق هي نور معرفة البنين التي بواسطة تدابير الحرية الاختيارية تكلِّل العمَّالين بها. وإن كانت المعرفة هي سابقة التدابير (النسكية)، إلا أنها في كور التدابير تتفلَّح.

١٣ – لَحسنة هي المعرفة، وهي تشرق وتجلب الأثمار الصالحة.

١٣م – [أساس كل معرفة الحق هو التَدْبِير النسكي الفاضل، وأساس التَدْبِير الفاضل هو الصبر في الأعمال الصالحة].

١٤ – إن كان السكون يلد سكوناً، والمعرفة تلد معرفة، والتَدْبِير يلد تَدْبِيراً، كقول الآباء، فمن الواضح أيضاً أن الصبر على الأعمال بقَسرٍ وتغصُّبٍ يلد الصبر الإرادي.

١٥ – إذا ما كمل الصبر وهدأ بواسطة التدابير التعبة التي للحق، فهو يلد اتساع النفس والاتضاع والهدوء والجود والمسالمة والحب؛ مع بقية الأثمار الرُّوحية التي كتبها معلمنا بولس.

١٦ – حُسن الفضائل لا يُمتدح من فرز أسمائها، بل من فرز غرض وقصد فاعليها.

١٧ – الفضائل ليست بإقنومها (أي بطبيعتها) فيها صلاح وشرور، بل بقوتها وفعلها، وبإرادة وهدف فاعليها تُختبر.

١٨ – إن كانت قوة الفضائل نقتنيها بإقنومنا، إلا أن تكميل أفعالها وتمييز الخير والشر يأتيان للظهور بحرية إرادتنا.

١٩ – الفضائل التي تُعمل بالجسد تُدهش من ينظرها وتُقَدِّمه للتوبة، مثلما تنير الشمس المنظورة الأعين الخارجية، وبنورها تخلِّص كثيرين من الظلمة.

٢٠ – أمَّا الفضائل التي تُعمل خفياً داخل النفس، وعقلياً بهذيذ العقل، فهي تنير عيني النفس وتمنحها نظر حُسن إلهي يفوق الطبع بلذةٍ ليس لها تفسير.

٢١ – الفضائل لا تُقتني الناطقين تنعم الملكوت أو عذاب الجحيم من طبيعتها، بل من فرز غرض ونوع فاعليها.

٢٢ – مراحم عناية الله بنا تصطادنا للحياة الجديدة في الله بواسطة مجاذبات تنعم الملكوت وخوف عذاب الجحيم.

٢٣ – إذا ما تسلَّطت الشهوة على النفس واستعبدتها إن كان لليمين أو للشمال، فإنها تخرجها من حرية نطقيتها وتجذبها غصباً لتكميل الشيء الذي تأمرها به الشهوة، ولا تنقلع من النفس إلا بمحبة شهوة أخرى تضادها، لأن الشهوة بشهوةٍ أخرى أيضاً تبطل، وكذلك محبة بمحبةٍ وعادة بعادةٍ ومفاوضة بمفاوضةٍ. هذه كلها تتغير وتنقلع من النفس بذكر الله وبالصلاة والدموع.

٢٦ – الغضبية ليس لها أن تقاتل لأجل ذاتها، ولكنها تكون مثل كلب ينبح لأجل صاحبه. لأن الغضبية هكذا تنبح مقابل الآخرين لأجل الشهوة أو لأجل أي ألم آخر، وهي أولاً تُسجِّس وتكدِّر بيت صاحبها وبعد ذلك تؤذي الآخرين.

٢٧ – ما دام الاتضاع في النفس فهي تكون هادئة مسالمة، وموجود فيها ذكر حب المسيح وكم احتمل لأجل الخطاة والمنافقين والضعفاء، ولا يكون هناك موضع للسجس أن يدخل على النفس الشقية لكي يفتح باباً للآلام لتدخل وتتسلط عليها وتكدرها وتنجسها بالأمور السمجة غير اللائقة.

٢٨ – أنواع التدابير المختلفة تتولد من أنواع الأغراض، وأنواع الأغراض تتولد من مَيالة حرية الإرادة.

٢٩ – إن جميع فضائل سيرة التوبة والنسك التي اقتنيناها بتعبٍ وأعمال متواترة، إن كنا نتهاون بعملها فهي تضيع قليلاً قليلاً. أمَّا الفضائل الخاصة بالسكون فلا يهلك أقنومها فقط، بل وتذكار اقتنائها أيضاً يضيع ويُنسى. كما قال الأب مرقص: إن الأشياء التي تتهاون بالكمال من عمل تَدْبِيرها، يُنسى أيضاً عملها قليلاً قليلاً.

٣٠ – إذا ما طهر العقل وقام بنور طبيعته فإنه يقبل الاتحاد بالمسيح، ليس بالانتقال من موضع إلى موضع، بل به وفيه يرتفع بالانفعال من تصور إلى تصور ومن معرفة إلى معرفة، حتى يُتوَّج بنور طبيعة خلقته.

٣١ – إذا ما تهاون العقل عن العمل الخفي، وبدأ يطيش بإرادته في طلب أباطيل هذا العالم، ويُسبى بالضلالة، ويُظلِم من الحق، فهو ليس انتقالاً تنتقل منه ذخيرة الحياة، بل إنه يخيب هو منها وتبطل عنه بآلام الإهمال.

٣٢ – إذا ما كمل الإنسان بتربية معرفة الحق، فهو يتغير ويتجدد بالرُّوح، ويتعرى من الآلام العتيقة، وينهض الإنسان الجديد الرُّوحاني، ويشرق فيه نور العالم الجديد.

٣٣ – معرفة الطغيان تبطل بتربية معرفة الحق. وبالهذيذ الدائم في الخيرات العتيدة يضمحل ويذوب هذيذ هذا العالم ومفاوضته الباطلة، ويبقى الإنسان متوَّجاً بطبيعة خلقته.

٣٤ – إذا ما تقدس مذبح قدس الأقداس القلبي بترفرف الرُّوح عليه، عند ذلك تُرفع عليه الذبائح الرُّوحانية التي هي الأفكار البكورية التي يذبحها العقل مُقدِّمها بالصلاة الطاهرة التي لا تؤخذ من حيوانات الشرور، ولا تؤخذ وتنقسم من تثنية القلب.

٣٥ – مذبح القلب الداخلي الذي لم يتطهر ويكمل بنور عدم الآلام، ولم يُفرز ويتقدس بحلول الرُّوح، ولو أن يقدِّس عليه رئيس الكهنة بالصَلَوَات المتواترة، فتقدمته هي قربان ساذج وليس ذبيحة مقبولة. كما أن المذبح الخارجي الذي للأسرار الإلهية إن لم يُفرز ويتقدس بالتكريس، إن قُدِّمت عليه القرابين لا تُدعى ذبيحة محيية، جسد رَبِّنَا ودمه.

٣٦ – ذبيحة الصلاة الرُّوحانية إذا ما قُدِّمت على المذبح الداخلي المُفرز والمقدَّس بالرُّوح، فإن العقل الكاهن يقبل الحسَّ إن كانت ذبائحه الكاملة قد قُبلت أم لا، مثلما يحس الرامي بالقوس إن كانت النشابة قد أصابت الهدف أم لا.

٣٧ – حينما يشرق نور النعمة على نور عدم الآلام، فإن النفس عندئذ تنظر ذاتها تشبه لون الصافيلا أو لون السماء الذي رآه بنو إسرائيل تحت أرجل الله، الذي دعاه الآباء "موضع الله داخلنا"، وترى حُسن أقنومها، وتقانة الذهن، وميراث القديسين بني النور.

٣٨ – هذه هي العلامة أنه قد أُفرز وتقدس المذبح الجواني، قدس الأقداس، للذبيحة الرُّوحانية بالكمال: أن أنجاس الشرور لا تصعد عليه، بل ينسكب على أرض القلب البخور المختار الذي هو الحب والسلامة والصلاح والود، مع رائحة وَاحِدة طيِّبة لذيذة التي هي الفرح الرُّوحاني الذي ليس له سبب أو حد.

٣٩ – إذا ما استحق الذهن لقليل أو كثير (لتجديد) تقانته الأَولى، عند ذلك تبطل عنه التخيُّلات وتتخلف الأفكار مع اختلاج الحركات الداخلة، وفي وقت الصلاة يتكلل العقل بإكليل متضاعف (أي) بالنور والمجد، وذلك حسب مقدار هدوء تقانته في بلد السلامة، ويرجع إلى موضعه.

٤٠ – تقانة العقل تُقام من الطهارة والنقاوة وعفة النفس الهادئة، ومن تواضع القلب والحب الغزير، ومن النعمة التي تُقدس وتهدي طاهري القلوب.

٤١ – العقل الذي تأسَّس فيه الحب الإلهي واستحق بالنعمة لمعرفة الحق، ليس يهدأ من الهذيذ الرُّوحاني بالأسرار بالله، فهو في وقتٍ يهدس بعناية الله الملازمة لكل الموجودات، وفي وقتٍ آخر يتفرس في سياسة مراحمه في كل الأجيال، وفي وقتٍ ينظر في حكمة خلقته الكثيرة الأنواع. ثم يرجع أيضاً (لَيْتَأمل) تضاعف تقانة نفسه، ويتعجب من اتحاد النفس بالجسد، ومن الأسرار المخفية فيه، ومن التاؤريات التي تظهر فيه فوق الطبع، وكيف هو هكذا شريف ومُمجد ومهان ومرزول، متعالٍ عن الفساد ونجس مسجون في الفساد بالميالة (من جهة إلى

أخرى)، بآن وَاحِد.

٤٢ – النفس التي ترتقي بأجنحة الفضائل إلى ارتفاع تَدْبِير العقل لتعبر إلى بلد السلامة والهدوء، تجوز في بلاد صعبة وتجارب عسرة مختلفة وضيقات مرَّة شديدة، وتكون قد أعدَّت ذاتها لمقاساة ذلك؛ لأنه لا بد منها بسبب حسد الشيطان وتجارب الجسد والحركات الصعبة التي من الطبع ومن القريب. فهي (أي النفس) مفتقرة إلى النعمة وإلى صيانة التحفظ، وإلى إفرازات المعرفة، وإلى الصبر مثل الأرامس (أي الموتى سكان القبور)، لئلا تنسحب (أي ترتد) من الوثبات المحيِّرة والآلام المضطربة ومن حيل الشياطين الدغلة والتجارب الصعبة الحادثة من الجسد ومن القريب.

٤٣ – إذا رتَّب العقل الحواس، وسعى في طلب الأفكار والكلام والأفعال ووفَّق انقسامهم، واصطلح الثالوث الذي فينا (أي النفس والجسد والرُّوح)، واهتدت الحركات الجوانية، وتوقف (العقل) عن طلب وهذيذ وتصور تاؤرية الأجسام وغير الأجسام وقام بما يخصه، عند ذلك يلبس الكاهن الجواني حُلَّة الكهنوت ويضع على رأسه إكليل القدس المشرق بالمجد والنور الذي لا شبيه له ويقرِّب ذبائح وبخوراً زكياً.

٤٤ – الصلاة الطاهرة وانقباض الضمير الصغير والاستنارة التي من أفهام الكتب وعزاء النفس الذي من القراءة والصَلَوَات، وما تبقى من تدريب النفس واستنارة العقل وحِدَّة الحركات، هذه يستطيع أن يدركها – بمعونة الله – أولئك الذين يغلون بالتدابير ويتفاوضون بهذيذ الكتب ويحترسون بأعمال التوبة بنشاط.

٤٥ – أمَّا مفاوضة الصلاة الرُّوحانية الذهنية، ونظرة الضمير، والعقل المشترك مع الله باستعلان أسراره، والحس بالحياة الجديدة، والفرح بالله الذي بغير علة ولا سبب، هذه وما يشبهها لا يمكن أن تحصل من دون عدم التألم الهادئ الذي يفوق الطبع وفعل النعمة.

٤٦ – بمقدار ما هي مرتفعة درجة البنين عن رتبة العبيد، هكذا هي متعالية تدابير الحرية عن تدابير التغصب.

٤٧ – الصلاة الرُّوحانية تتولد من حرية النفس، والحرية تكون من قلب قد انعتق من الآلام واصطلح مع الكل، وأفاض حبَّه بمودة على الصالحين والأشرار دون تفريق مثل الله.

٤٨ – كما أن الذي يقف في موضع عالٍ يتنفس الهواء النقي ينشرح ويتقوَّى أكثر من الذي يقف في موضع سفلي في الظلمة وكَمرة الجو، هكذا أيضاً الذي على رجاء المواعيد يعمل بإيمان حقيقي، فإنه يقبل عزاءً وفرحاً وتسليةً (ويتقدس بالرُّوح) أكثر من الذي بالندم والحزن ومرارة القلب يعمل بتغصبٍ شديد دون أن يقتني عزاء بلوغ ميناء الرجاء.

٤٩ – ما دامت غيرة النفس تهدس وتنبح مقابل الآخرين من أجل البرِّ، فليست فينا بعد حرية المسيح.

٥٠ – إذا ما غاص الذهن (مبتعداً) عن كل شيء، وتداخل وقام في حرية طبيعته، فإن نور عدم الآلام يُشرق فيه. وإذا ما تعرَّى من الكل واختفى عن كل شيء، فإنه يلبس شمس البرِّ.

٥١ – إذا ما التهب وتوقد حب يسوع في قلوب القديسين، فإنه يرسم في نفوسهم (أمور) السماء الجديدة.

٥٢ – نور يسوع هو نور عقلي، وطوبى للنفس التي استحقت نظرته!

٥٣ – قبل ظهور مخلصنا كانت معرفة الكائنات ترشد الأبرار والصديقين إلى الحق. أمَّا باب القديسين فهو يسوع وبه يدخلون عند أبيه، وطوبى للذي دخل فيه!

٥٤ – صلاة القديسين هي كمال الوصايا في نفوسهم بالعمل، وغلبتهم هي استئصال الآلام، وإكليل رؤوسهم هو نور عدم الآلام الذي يظهر في إنسانهم الداخلي.

٥٥ – النفس التي بلا مَيالة تصرخ إلى الله بحزن قلب وانسحاق وأوجاع، لا يغفل الله عن إجابتها.

٥٦ – عمل القديسين بني النور هو عمل مِيخَائِيل وجبرائيل وهم يغتذون معاً من مائدة وَاحِدة.

٥٧ – صَلَوَات القديسين بني النور لا تنقطع. لأن هيكل أنفسهم قد تقدَّس لله، وقد مُسح الكاهن الداخلي (أي العقل) وأُعدت المائدة الرُّوحية (أي القلب). وقام الكاهن ليقدِّم ذبيحةً محيية لأجل شعب المسيح.

٥٨ – النفس التي بأعمال متواترة مختلفة قد دخلت إلى ميراث القديسين وأُحصيت بكهنوت السماء واتكأت على مائدة الأسرار، ينبغي أن تحترس بذهنها، لئلا عندما تكون متكئة على مائدة حضن يسوع لتقبل الأسرار الممجدة التي للملكوت، يفسق ذهنها ويطيش بشوارع الأسواق ليهدس مع الآلام، فلا يُظهر الكهنة سرَّ الحياة الجديدة، وينمحي اسمها من سفر الحياة، وعوض ميراث القديسين ترث مَخنقة الندم والظلمة وتخيب من النظرة الرُّوحانية التي هي عربون ميراث القديسين.

٥٩ – نُطقية الإنسان قد جُعلت مسكناً للأَّهوت المسجود له، وهو (أي الإنسان) بحرية إرادته يمضي أمَّا إلى النعيم وأمَّا للعذاب في الجحيم.

٦٠ – هيكل الله لا يقع تحت عبودية الموت البسيط، وهو (أي الإنسان) بميالة حريته يختار لنفسه الموت العقلي أو حياةً جديدةً تفوق الطبع بالنعمة. ومعونة المسيح تلتصق بعمل البرِّ وليس بالخطية.

٦١ – أمَّا أن يكون الإنسان أو لا يكون هذا ليس لنا. أمَّا أن يكون باراً أو خاطئاً فهذا في مقدورنا، ومعونة المسيح هي تساعدنا؛ لكن معونة نعمة المسيح تلزق بعمل البرِّ وليس

بالخطية.

٦٢ – مسكن الله (أي الإنسان) قد خُلق بلا عوز. وهيكل الله وقدس الأقداس الداخلي وملكوت الله هي جميعها داخلنا. والنفس مفتقرة إلى أعمال التوبة وإلى تعليم الكتب وحفظ الوصايا والصَلَوَات الدائمة، لكي بحرِّيتها تقتني من الكنز الذي في داخلها حياةً عقليةً جديدةً تفوق الطبع أو موتاً عقلياً خارج الطبع بتغافل إرادتها.

٦٣ – لقد خلق الله الإنسان العاقل ذا إرادة حرة، وهو بحرِّية إرادته يختار أن يُعدَّ لنفسه في كمال سعيه، إن شاء، إكليلَ البرِّ والفضائل بمعونة الله؛ وإن اختار الخزي والعذاب بالميالة إلى تلذذ دغدغات الآلام.

٦٤ – إن كانت الضيقات التي لأجل التوبة صعبة هي بسبب تواتر الأحزان المختلفة الحادثة على النفس الشقية، ولكن عظيم هو ومجيد العزاء الخفي الذي يظهر في القلب لتعزية ضعفنا. والذي يبدأ التوبة، فيسأل عن أي نوع من النسك وانكسار القلب والانسحاق يقدمه في التوبة، لكي يكمله في نفسه بالفعل، وبأي نوع أعانه الله ونجح فيه، عليه أن يعمل هذا النوع بأقنوم ذاته بغير شبع.

٦٥ – ذوو القلوب الحزينة والنفوس المريرة والمضنوكون والمتضايقون والمتألمون، إن كان لا يدركهم العزاء بمراحم الله بغتة خفياً لَمَا عاش كلُّ ذي جسد.

٦٦ – إذا ما كان هذيذ تذكار الإنسان يهدس بمفاوضة العالم الجديد، فإنه ينمو ويبتهج بالله وتمتلئ نفسه رجاءً وعزاءً وفرحاً. أمَّا إذا هَدس في أمور هذا العالم وتركيب حِيله المؤذية، فهو يمتلئ كآبةً وحزناً وندماً.

٦٧ – إن الباري سبحانه قد صوَّب إرادته للعالم الجديد، ولكنه سبق وأتقن هذا العالم الحاضر لأجل منفعة الكل. وأعطى لأولاده حرية الإرادة، لكي باختيار إرادتهم يُعدُّون لأنفسهم أيَّ موضع أرادوا، أمَّا موضع عذاب، أو مكان نعيم.

٦٨ – وقد وضع ههنا (لأولاده) جهاداً ومَصافاً ومحاربين، وجعل لهم أيضاً في طبع خلقتهم معرفة الغلبة وعار الانغلاب، وأظهر شرف الغلبة وعار الانغلاب من خلال وصاياه المحيية، كما وضع في طبيعتنا قوة الغلبة مقابل العدو، ومجاذبات الخير مع حرية الإرادة.

٦٩ – الذين لا يعطون لذواتهم راحة في هذا العالم من أجل الحرب الموضوعة قبالتهم، هؤلاء يستريحون في العالم الجديد من ثقل أعمالهم، ويتنعمون بالرُّوحانية التي يقتنونها بنعمة المسيح تنعماً لا يزول، عندما يرتفع الفساد وتبطل الميالة ويكون الله الكل في الكل. وبضد هؤلاء يلبس الخطاة الخجل ويُنبذون مع الشياطين المردة الذين تنيحوا معهم هنا.

٧٠ – الله خالق الطبائع هو غير محدود في أزلَيْتَه، وهو مخفي عن الكل. أمَّا معرفة لاهوته (وأموره غير المنظورة)، فقد وضعها في الطبائع والخلائق (منقوشة) كمثل الكِتَابة على

الألواح من الخارج، وجعلها مرسومة على قلوب البشر من الداخل؛ لكي بنور الأفهام وتمييز المعرفة يقرأ فيها العقل، وبنور نطقيته يدرك ذاك الذي هو مخفي ومكتوم، وهو الفاعل في الكل.

٧١ – التهاون والضلالة هما أسباب الخطايا.

٧٢ – الازدراء بالقريب ومقته هما سبب عدم المعرفة وقلة الإيمان والتجديف.

٧٣ – المعرفة الساذجة (أي المجرَّدة) المبتعدة عن التدابير المتقنة وأعمال التوبة، وهي مرتبطة بحدَّة الحركات وإدراك الأفهام، هي تولد الازدراء والتعظم والافتخار.

٧٤ – ملح التدابير المتقنة وأعمال التوبة والنسك والصبر والمخافة والحياء، هذه يتولد منها طول الرُّوح واتساع النفس والاتضاع الحقيقي.

٧٥ – الشياطين المردة، ولو أنهم أعداء خلائق الله، إلا أنهم من دون أن نكون نحن بإرادتنا سبب التخلية ويجدون فينا مادة لشرورهم، لا يقدرون أن يؤذونا.

٧٦ – صنارة النفس هي محبة ذلك الشيء الذي ترتبط النفس بشهوته. فهي (أي النفس) تُجتذب غصباً من كل ناحية لذلك الشيء الذي تحبه، ولا ترى معه شيئاً آخر غير الذي تريده وتحبه سواء كان صالحاً أو رديئاً.

٧٧ – الأم المربية لا تقتني رحمة وحباً مع ولدها كمثلما تقتني عناية الله، الملتصقة بضعفنا منذ البداية، رحمة وتحنناً؛ وهي تربي وتحرس طفولَيْتَنا من كل المؤذيات إن كنا نثبت نحن في طفولَيْتَنا ولا نميل بحرية إرادتنا بالكمال إلى لذة الشهوات ودغدغة الآلام.

٧٨ – عناية الله هي من بدء خلقة العالم لازقة لكل طبع خُلق، وذلك لثبات أزلَيْتَه وليس لتقويم ميالته (أي الإنسان)، لأنه مكتوب أن عنايته تسير تبع حرية الإرادة، ودينونته العادلة تُقام بعد حرية إرادة الإنسان.

٧٩ – أزلية الطبائع تثبت بعناية الله، فإن ارتفعت هذه من الوسط ينتهي أمر الخليقة إلى العدم وليس للتغير. السماء والأرض مملوءة مني، قال الرب.

٨٠ – كما أن النفس مخفية في الجسد وهي التي تحركه، وعندما تنتقل منه يصير جثة ويفسد، هكذا عناية الله، فهي ملتصقة بالخليقة وبها تحيا وتثبت وتتحرك وتوجد، فإذا انقبضت منها (أي من الخليقة) فإن أمرها يؤول إلى العدم، وليس للفساد مثل الجثة.

٨١ – إن كانت عناية الله ترتفع عن إبليس وشياطينه المردة فإن أزلَيْتَهم تنتهي إلى العدم وتتلاشى. لأن عناية الله تقمعهم ولا تتركهم يكملون بالفعل شرور خُلقهم وإرادتهم الردية.

٨٢ – ملائكة النور الْمُعيَّنون لخدمة حياتنا لم يُسمح لهم أن يساعدوا بالغصب ميالة حريتنا، ولا أن يُظهروا بالفعل رحمة وَجود إرادتهم لنا.

٨٣ – الملاك المرافق لنا دائماً لا يتكدر ولا يغضب بشيء آخر أكثر من أن نُبعد أنفسنا – من غير ضرورة مُلحَّة – عن خدمة الأسرار المقدسة وتناول القربان المحيي. لأنه في الساعة التي يُقدِّم فيها الكاهن ذبيحة جسد المسيح ودمه المحيي يحل الرُّوح الْقُدُس ويمنح الغفران للخليقة. والشاروبيم والسارافيم والملائكة يقفون بدهش عظيم وخوف وفرح، ويفرحون بالأسرار المقدسة بعجبٍ لا يُنطق به. وكذلك يبتهج الملاك المداوم عندنا، لأنه هو أيضاً يشترك بنظر ذلك المنظر المخوف، ولهذا فهو لا يرغب أن يخيب من تلك المفاوضة الكاملة.

٨٤ – لأن الرُّوحانيين يفرحون روحانياً بالأسرار المحيية ويتنعمون بها مثلما يفرح القديسون إذ ينظرون بعين الرُّوح إلى الأسرار التي تُقرَّب.

٨٥ – إن كان بيننا أحدٌ قد منعه من التناول قانون محدود أو ضرورة ملزمة أو سبب نافع نفساني، ينبغي له في ذلك الوقت المخوف لدى الملائكة، أن يكون في مفاوضة الصَلَوَات الدائمة المتواترة بغير انقطاع، لئلا يُوبَّخ من نيته أنه قد قصَّر عن الحق حسبما تصل إليه قدرته.

٨٦ – في تجديد العامة (أي القيامة) لا يستحي الإنسان أو يتبكت من الجموع العلوية والسفلية مثلما يتبكت من نيته ويستحي من ملاك العناية المرافق له.

٨٧ – الملائكة والقديسون يفرحون فرحاً متضاعفاً إذا ما بلغت سفينتهم إلى الميناء، ويحزن الشياطين.

٨٨ – ملائكة الناس الخطاة يحزنون عندما تفارق أنفسهم أجسادهم بلا توبة، بينما يفرح الشياطين الذين كانوا لهم خادعين ومحرِّضين على ألم الخطية.

٨٩ – الإنسان الذي قد جعل لفمه حدًّا أن لا يدخل أو يخرج منه شيء دون نطق العقل (أي دون تمييز)، هذا قد قمع وحشية جميع حصون الآلام المرذولة.

٩٠ – النفس التي انعتقت من المجاذبات والخباط، ثم تسيَّبت في تبع أفهام كثيرة، وتصور عقلها في وقتٍ يهدس بتماجيد الله وبأسرار معرفة الحق وتمتلئ فرحاً، وتعود بعد ذلك إلى ما يخصها، فهي مع سكون عقلها يبطل أيضاً فرحها.

٩١ – كما أن الهذيذ بالمنظورات هو طياشة بالقياس إلى الهذيذ بالمعقولات، هكذا أيضاً الهذيذ بالمعقولات هو طياشة بالقياس إلى الهذيذ بأسرار معرفة الثالوث المقدس.

٩٢ – الهذيذ العقلي بكلام الله ووصاياه، وبحكمته وشرف خلقته للعالم الجديد، هو أحلى من العسل والشهد، وهو تحت الحدود.

٩٣ – الهذيذ بأسرار معرفة الثالوث المقدس، هو يجعل القلب والنفس والعقل كلها تصطبغ بالنور والحق والحياة وتمتلئ فرحاً لا حدود له.

٩٤ – الذهن المشتاق أن يحسَّ باستعلان أسرار الله، يجب عليه أن لا يقتني مع الله شيئاً ولا يقبل أن يُدخل بداخله أيَّ فكر غريب، لا صالح ولا رديء.

٩٥ – الهدس بأمور كثيرة هو غذاء للنفس، إن كانت صالحة أو رديئة أو خليطاً من هذه وتلك.

٩٦ – بعد جهدٍ تثبت النفس عند هذيذ وَاحِد، وهذه هي (النفس) التي كملت بالله أو كملت بالشيطان. أمَّا المتوسطة بين الاثنين فهي تطيش في المضادات.

٩٧ – والنفس التي كملت بالله ترتفع من معرفة إلى معرفة ومن فهمٍ إلى فهم ومن تصور إلى تصور حتى تبلغ إلى الحق. أمَّا النفس التي كملت بالشيطان فهي تنتقل من عدم معرفة إلى عدم معرفة، وتنحدر إلى ضلالة الشيطان الكاملة. والهذيذ المختلط (من الصالح والرديء) هو عذاب للنفس، وبعد جهد تُشفى ضربتها. لأن الذي هو نفساني في معرفته، يطيش ذهنه بمعرفة الصالحات والشرور معاً.

٩٨ – الهذيذ بالوَاحِد هو الانحلال من الكل، والارتباط بالوَاحِد هو الابتلاع بمحبته والمفاوضة معه.

٩٩ – إذا ما انحلت النفس من الكل وارتبطت بالوَاحِد وابتهجت به وشغفت بشهوته، لا يكون لها عزاء من أي جهة أخرى؛ لأنها لا تنظر معه شيئاً: لا روحانيين ولا جسدانيين، وهي تفهم أن السماء والأرض مملوّتان منه؛ ونحن به أحياء ومتحركون وموجودون. ولا تستطيع أن تهدأ من التهاب محبته، وتعرفه كما يُعرف؛ لأن طبيعته هي أرفع من نظرة ومعرفة الرُّوحانيين.

١٠٠ – ابن الله لكي ينيِّح بولس الرسول عندما كان يلتهب بحبه، فبالنظرة العجيبة التي تفوق الطبع، بالمرآة، نيَّحه من تعبه كما يعرف هو، ورجع إلى بلد غربته.

المَيْمَر الثَّانِي

١ – حقانية المسيح تُقني العالم النور والحياة. كلمة يسوع هي أعلى من كل المعارف، وبوصاياه المقدسة ظهرت معرفة الحق في قلوب المؤمنين.

٢ – الباب الذي يدخل منه القديسون لمعرفة الحق هو تعليم الكتب المقدسة؛ لأنهم بنور نطقية النفس (أي قوتها العاقلة) يَجسُّون الأسرار المخفية في الكتب، وبالأفهام العميقة يعرفون عناية الله وسياسته وحكمة (أعمال) خلقته، وأمجاد العالم الجديد.

٣ - وكلما تزداد وتتلطف (أي ترتقي) التدابير، كلما يزداد (القديسون) بالأكثر في العلم والأفهام، فيجسُّون السماء والأرض وكل ما فيهما، وذلك بحسب غرض ضميرهم. وأكثر الناس يُصطادون كالحَجَل[٦٥] في قفص العالم، ولكن بعضهم كالسُّحب يُحيون أنفس كثيرين بكلامهم، ومنهم من ينهمك بالخلق (أي العناد) والحسد وبقية الآلام، وآخرون يكونون كالسُّرج على منارة البيعة. ولكن بعد جهد تجد فيهم قليلين يحبون مسكنة صليب يسوع، ويهملون غِنى العلم الذي جمعوه ويختارون بساطة الصيادين وسذاجتهم، وبوداعة قلوبهم يكونون إكليلاً بتاج المسيح[٦٦].

٤ – ما أصعب جداً تحصيل غنى العلم! وأصعب منه بأضعاف كثيرة تبديده!

٥ – الويل لمن لا يقتني غِنى العلم بالأعمال النشيطة، لأنه أعمى من تمييز نور الحق. والويل ثم الويل للذي جمع وفرَّق؛ لأنه لم يتفرغ من الأمور الكثيرة ليكون وَاحِداً مع يسوع وبسيطاً بسرِّ محبته.

٦ - آه من غِنى النفس التي كلما تسعد وتزيد معرفتها بتعليم الكتب تشبك ذاتها بالأكثر بالحيل (أي الطرق) العويصة التي للآلام الدقيقة وخداع الضلالة، ولم تشأ أن تدنو من حلاوة يسوع وتنازله مع الضعفاء والخطاة.

٧ – الإنسان النفساني هو ديَّان وقاضٍ للأبرار والخطاة الأحياء والأموات، وقد نُصبت في قلبه شجرة معرفة الخير والشر – التي أُمر رأس جنسنا (آدم) أن لا يذوقها لئلا يموت – ومنها تغتذي معرفته كل حين.

٨ – عقل النفساني يطير على الدوام على شجرة الحياة، ومن وقت إلى وقت يحلُّ عليها وينشرح بأوراقها مثلما تفعل الشياطين، وأمَّا أن يأكل من لذيذ أثمارها فما يقدر، حسب قول السيد.

٩ – ليس لنا أن نأكل من شجرة معرفة الخير والشر وأن نأكل من شجرة الحياة في الوقت نفسه؛ لأن تلك تولِّد تكدُّر الخُلق وتثير الحسد، وهذه تجلب الهدوء وتولِّد طِيب الحب وتسكب

---

[٦٥] طائر.
[٦٦] أو أكاليل من الشوك.

على العقل نوراً. لأن النفس بطبيعتها هي غير قادرة أن تنشغل بالهذيذ في كلا الناحيتين بآن وَاحِد. وهي أيضاً لا تقدر أن تذوق شيئاً من إحداهما ما لم تنعتق من الأخرى؛ لأنه متى وُضع على النفس أن تنشغل بهذيذين أو ثلاثة فإنها هي نفسها تنقسم إلى كثيرين، ويكون تمييزها للوَاحِد بالغش وتتكلم مع الآخر بالحِيل وتتعامل مع الثَّالِث بالضلالة (أو بالتهاون). وإذا انقسمت النفس على ذاتها لابدّ لها أن تخرب حسب قول الرب.

١٠ – العقل الذي يسعد روحانياً بكل معرفة وتعليم وفهم وتصور وكرامة، ويُلقي وراءه هذه جميعها، ويُصلح الثالوث الذي فيه من أجل يسوع، ويغلي بحبه ويلتهب بمحبته ويرتبط بالهذيذ ومفاوضة الصلاة بالهدوء، ولا ينظر معه شيئاً آخر، ولا يبطل فيه وقيد حبه ومحبته إلى أن يتحد معه ويرتسم هو في قلبه بلا انتقال كمثل صورة الملك المرتسمة في الدينار؛ هذا هو بالحقيقة المسكين بالرُّوح الذي قد ورث داخله ملكوت الله.

١١ – المجاذبات التي تخيف ورعب العذاب والحرارة الطبيعية المولِّدة للحرارة المخبِّلة، ووحشية الآلام ومعرفة الحِيَل والأعمال المتنوعة؛ هذه وما يشبهها تنفع إلى حيث بلوغ معرفة الحق. أمَّا معرفة الحق فهي تتولد من نور عدم الآلام، ومن هناك يُنادَى بملكوت الله بالسرِّ كما بمرآة، بحرية النفس ومعرفة الذهن وسلام القلب وراحة الضمير وهدوء الأفكار والفرح بالله المبتعد من كل خباط، لأن هذه جميعها تُولَد من تَدْبِير العقل اللابس المسيح.

١٢ – إكليل عقل القديسين الأزلي هو قُرص بلون الصافيلا في مجده، وإشراق نور طهارته هو نور مجد الرُّوح الْقُدُس.

١٣ – بدء تَدْبِير الإنسان الجديد في هذه الحياة الحاضرة هو طهارة النفس من الآلام، عندما تتعرَّى من جميع حركات الجسد المتكدرة وتُسالم ذاتها وتقلب قوة الغضب والشهوة والأفكار غير الطبيعية، (وتحوِّلها) إلى الطبيعية.

١٤ – الميناء الذي تقصده التدابير المتقنة (أي الراسخة) التي للإنسان الجديد، بقدر ما تستطيع النفس أن تدركه في هذه الحياة الحاضرة، هذا الميناء هو النقاوة وهدوء النفس حين تقوم (أي تثبت) في طبيعة خلقتها الأَولى.

١٥ – النقاوة هي ميناء القديسين الذي شقوا وتعبوا هنا بسبب الآلام، والذين نجُّوا حياتهم بمعرفة الله (ودخلوا) إلى البلد الخالي من عثرات الشرور والحسد والخلق والمفاوضات ومرارة النفس، وامتلأوا بالسلام والأمن والفرح.

١٦ – إذا ما انقلعت من النفس زروع الشرور التي زرعها الشيطان، ونبتت ونمت مكانها الزروع الطبيعية التي لطبيعة خلقتنا والتي كانت محجوبة بشرور الآلام، وقام الطبع بمجده الخاص؛ حينئذ يشرق نور عدم التألم للصديقين وينبع الفرح للنقية قلوبهم.

١٧ – النقاوة لا تُسمَّى فضيلة؛ لأنها ليست طريقاً تتفلح بها فضائل السيرة، بل هي نياح القديسين، والبلد الصافي الخالي من شرور الآلام والمملوء سلامًا وفرحاً. (هنا تتوقف الأتعاب) ويستريح القديسون المتعَبون، ويتنعمون باستعلان أسرار الله، ويُؤهَّلون بعقولهم لمعرفة سرِّ العالم الجديد الرُّوحاني.

١٨ – راحة القديسين الكاملة هي أرض الميعاد، أورشليم السمائية، التي لا يدخلونها طالما هم لابسون هذا الجسد. لكنهم يؤهَّلون لنظرة مجدها كما في مرآة في بلد النقاوة، مثل الْعَظِيم موسى. ويستريحون من شقائهم في بلد السلامة، بمقدار ما يؤهَّلون للتجرد من الجسد وما يخصه؛ لأنهم يتنعمون بالنظرة المدهشة.

١٩ – ليس لنا أن نبلغ إلى الميناء الهادئ بالوثبات، ولا أن نعبر إلى البلد النقي دون صبر على الضيقات والتجارب المختلفة، ولا أن ندخل إلى بلد السلامة من غير مقاساة شر الشياطين والجهادات والحروب الصعبة حتى الدم، ولا أن نحس بالحق بدون النعمة وهداية الأب الرُّوحي.

٢٠ – بعد جهد، الشيوخ الأعفاء الذين من الصبوة إلى الشيخوخة أضنكوا أنفسهم بالنسك في كرم الرب بالتدابير الحسنة، يؤهَّلون جزئياً لوَاحِدةٍ من مواهب بلد السلامة. أمَّا الصبيان، بحرارة الوثبات الطبيعية والغلوة المُسَجِّسة يتراءون بما هو ليس لهم، ويتخيلون بحدَّة حركات الآباء (أي بالأسرار) المخفية في كتبهم، أو يقبلون بالتعليم والتسليم من آخرين أموراً غير واجبة؛ هؤلاء تمقتهم (أو تقمعهم) النعمة وتعلِّمهم أن يصبروا ويطيلوا أرواحهم ولا يفزُّوا على العظائم (أي لا يندفعوا في طلبها)، بل أن يعملوا في الكرم بهدوء إلى زمان الرَّاحَة الحقيقية.

٢١ – فإذا تجاسروا بزيادة، فإن النعمة تتخلى عنهم قليلاً ويقعون في ربوة تجارب ويُبتلون بآلام الجسد، وهي الآلام التي كانت مُزدراه في أعينهم، ويتعبون بظلمات نفسانية وتستهزئ بهم الشياطين، وتعرض لهم زلات متواترة وحيرة وضجر وصغر نفس. فإذا لم يرجعوا إلى نفوسهم ويُصلحوا أمورهم، فإنهم يصلون إلى حدِّ التجنن.

٢٢ – ما أصعب وأقسى الضيقات والتجارب والفخاخ الموضوعة في هذا الطريق الضيق الذي لسيدنا أمَّام الذين، بواسطة الدوافع الطبيعية والحرارة المخبِّلة وحِدَّة الحركات والتسليم من آخرين (لأمورٍ غير واجبة)، يريدون أن يدخلوا إلى منزل الحياة ليأكلوا من شهد الرُّوح!

٢٣ – بعد جهدٍ، النساك المحقُّون الذين أضنكوا أنفسهم بالنسك وتخلفت عنهم الوثبات الطبيعية والحرارة الأَولى، بعد جهد يسيرون بهدوء السلام في الطريق بغير ألمٍ ويستحقون مواهب الرُّوح.

٢٤ – لأن أمور سيدنا تأتي من نفسها إن كان الموضع طاهراً وغير دنس من الآلام والشرور. لأن ملكوت السماء لا يأتي بمراقبةٍ.

٢٥ – النفس التي كرَّست ذاتها للمسيح، وأحسَّ ذهنها بأسرار الملكوت، واتكأ على المائدة الرُّوحانية، وذاق عظائم أسرار الله في مفاوضة الصلاة الخفية، وصار ناظراً تمجيداته المتعالية

عن الطبع، (لكنها) نسيت ذاتها وبدأ ضميرها يطيش في أفهام الخلائق ويغوص في المنظورات، ويقايض مائدة بموائد ومفاوضة بمفاوضات؛ أولاً توقظها النعمة بنخز النية، وبعد ذلك تخوِّفها في أحلام النوم وتُفزعها بالمناظر العجيبة وتمحقها بالمؤذيات الخفية والظاهرة. والأمر هو لها، أن تختار لنفسها الحياة الجديدة أو الموت العقلي.

٢٦ – الباب الذي به يريد غير المؤهَّلين أن يدخلوا إلى الطهارة بوَثبات الغلوة هو الالتهاب بفعل شهوة الزنى من غير ألم القتال، من هو كفو أن يفهم فليفهم، مع ربوات من التجارب والمصاعب والانغلاب وانفساد الدم التي تصادفه.

٢٧ – الباب الحقيقي الذي به يدخل الشيوخ العمالون إلى أرض الميعاد هو غطسهم في نهر الأردن بمجاري الدموع المنسكبة من عيونهم، لا عن إرادة ولا بتغصب، بل من الفرح الذي يفوق الطبع. ومع هذا فهم يكونون مفتقرين لمعونة النعمة وهداية الأب الرُّوحي.

٢٨ – المتوحد الذي أُهِّل لعدم الآلام وأحسَّ بأسرار عظائم الله بما يفوق الطبع، لا ينبغي أن يأتي إلى قطع الرجاء عندما ينغلب للآلام الطبيعية؛ بل عليه أن يشفي جرحه بالتوبة. لأن آلام الطبيعة ثابتة في الطبع، (وهي تقوِّيه) ولذلك فهي تضغط القديسين بالضيقات، وهم مفتقرون إلى التوبة إلى آخر نسمة.

٢٩ – طالما كان الألم ثابتاً في القلب والنفس تتنازل معه بمحبة، فإن روح الله لم يجد راحة إلى الآن فيها. وهو يقرع ولكنه يعبر (ولا يدخل). فإذا قاومت النفس الألم، فهو (أي الرُّوح) يُظهر دلائل محبته فيها (ويثبت معها).

٣٠ – الإنسان الذي قد وُلد روحانياً من المعمودية المقدسة وتتلمذ للتَدْبير الملائكي، ينبغي له أن يعمل ويجاهد مقابل الآلام ويسأل نعمة الله أن يُولد للطهارة ويؤهَّل لسرِّ استعلان الرُّوح بما يفوق الطبع. لكي من ههنا يقبل باستعلان سرِّي عربون مجد البنوة الذي هو عتيد أن يقبله بالفعل في تجديد العامة.

٣١ – المتوحد يسكن في رَبِّنَا، ورَبِّنَا يسكن في المتوحد عندما يبلغ قلبه إلى منزل الطهارة ويعاين في ذاته نور عدم الآلام.

٣٢ – عندما ينسكب نور استعلان المسيح (فجأة) على نور العقل، يصمت العقل بالدهش ويرجع إلى بلده.

٣٣ – العقل الذي أهِّل لاستعلان الرُّوح واتحد مع سيدنا سرِّياً لا ينبغي أن يَدخل إلى حجلته تذكارٌ أو فكرٌ غريب، حتى لا ينجِّس مسكن الرُّوح الْقُدُس.

٣٤ – نحن نأخذ الرُّوح الْقُدُس في المعمودية كعربون لتبطيل الخطية وقوة لنقاتل ضد الآلام والشيطان. وعندما نؤهَّل لنقاوة القلب بواسطة أعمال السكون والجهاد مقابل الآلام، فإن الرُّوح هو أيضاً يزيد لنا قوته لكي نستطيع أن نكون فوق الطبع وأن نقبل مجد رَبِّنَا باستعلان نور

مجده غير المنطوق به.

٣٥ – وقوة الرُّوح الْقُدُس هذه، هي التي أكملت الأبرار والصديقين في أجيالهم، وهي أيضاً تكمِّل القديسين بالنعمة بما يفوق الطبع، بالاتحاد[٦٧] بيسوع الكلمة المتحد بالله فوق الطبيعة.

٣٦ – هذا هو الرُّوح الْقُدُس الذي دعاه رَبَّنَا: روح الباراقليط، ودعاه الرسول: مكمِّل القديسين، ووصفه الآباء بروح الاستعلانات.

٣٧ – إلى أن تكمل النفس بنور طبيعتها وتؤهَّل لقبول نور استعلان رَبَّنَا عليها، فهي – كما قال الآباء – تقبل غيارات كثيرة: ظلام وإشراق، قتام ونور، طغيان وحق.

٣٨ – كما أنه توجد غيارات كثيرة في منازل ومقادير زكاوة ميراث[٦٨] القديسين، هكذا أيضاً كثيرة هي غيارات استعلانات رَبَّنَا للقديسين.

٣٩ – إن كان عقل القديسين، بأنواع مختلفة وكثيرة، يستضيء بتاؤريات متنوعة بكلام الرُّوح وبالإيمان بالمواعيد وبالهذيذ بمجد العالم الجديد وبالصلاة الخفية بذهن منجمع، مع ما تبقَّى؛ وإن كان المسيح يهبهم جميعاً العزاء بطريقةٍ سرِّية؛ إلا أنه – بصفةٍ خاصة – يفعل بالأكثر استعلانه الممجد بواسطة نور عدم الآلام، عندما يتعرَّى الضمير من كل شيء (ويتسربل) بنور طبيعته ويُبتلع بمحبته ويصير وَاحِداً معه (أي مع المسيح).

٤٠ – قال الآباء الذين صاروا أهلاً لنور الضمير إنه يشرق بالليل وبالنهار في وقت مفاوضة الصلاة والهذيذ، حسب إرادته، على قدر بهجة أو قتام فضاء جو رقيع القلب.

٤١ – الشمس التي تشرق وتغيب متواتراً هي علامة على عدم التألم والتهاون (كليهما) في الإنسان.

٤٢ – إكليل عقل القديسين هو إشراق القرص (أو الكوكب) الطاهر في رقيع القلب.

٤٣ – عندما يصير جو القلب صافياً، وإن لم يكن هناك قمر عقلي، فإنه يجد العزاء من إشراق نور الكواكب. أمَّا إذا وُجد (القلب) في قتام الكآبة، فلن يجد فيها عزاءً بل ظلمة وتمتلئ النفس ندماً.

٤٤ – الشمس التي تظهر في رقيع القلب تحجب سحابة الحسد والخُلْق والشر شعاعاتها جزئياً، أمَّا غمامة الغضب والسخط فتستأصلها كلية.

٤٥ – سلام القلب وراحة الضمير وهدوء الأفكار والفرح بالله تتولد من بعضها. وإن كان الأمر هكذا إلا أن الإنسان لا يؤهَّل لجميعها بالسواء في هذه الحياة الحاضرة إلا جزئياً وعند الانتقال.

---

[3] بسبب اتحاد النفس وحياتها المتحد بالله الكلمة فوق الطبع (ترجمة).

[2] مرآة القلب والنفس (ترجمة).

٤٦ – الضمير الوحيد الذي قد مات من العالم ومعرفته، وهو يهدس على الدوام بتماجيد العالم الجديد، هذا تكون ظهيرته (أي وقت الظهر) بَهِجةً جداً[٦٩].

٤٧ – أفعال استعلانات المسيح كثيرةٌ ومتنوعة؛ وهي تفوق الكلام ولا تقع تحت حدٍّ أو قياس.

٤٨ – ما دامت النفس تفعل قواتها في كلا الناحيتين: الشمال واليمين، فلن يظهر لها عُري طبيعتها. وإن تجاسرت وألقت في ذاتها شعاع مجدها، فهي تنبهر.

٤٩ – إذا ما صنع المتوحد الجهاد وكل الأعمال الجسدانية والنفسانية وأوفى ديون الآلام وصار أهلاً للنقاوة، عندئذ يستحق عقله (أن يرتقي) إلى ما فوق الطبيعة ويبلغ إلى التَدْبِير الرُّوحاني. هذا التَدْبِير لا يُقام من أعمال الجسد أو أتعاب الضمير (أو القلب)؛ لأنه حركة روحية من النعمة، تختلج وتناغي خفياً في مخازن القلب وتحرك حركات النفس للصلاة الرُّوحانية.

٥٠ – نظرة الضمير ونمو القلب وعقل منجمع وهادئ، هي سوق (أو عيد) روحاني للنفس وبيت إقامة للروح القدس.

٥١ – إذا ما اهتدت حركات النفس بالسلام، يتقدس المذبح الداخلي. حينئذ يلغلغ ويمجد العقل الكهنوتي (أو مثل كاهن)، بلسان الملائكة بحاسية الذهن.

٥٢ – لن تهدأ حركات النفس ولن تأكل من شجرة الحياة ما دامت شجرة معرفة الخير والشر لم تنقلع بعد من القلب حسب قول الرب.

٥٣ – شجرة معرفة الخير والشر هي حاجز (أو مَربِض) من الآلام، وأبوابها المظلمة التي تُظلم النفس.

٥٤ – الضمير المستضيء بحدَّة الحركات (أو الأفهام)، وبها ينشغل في تاؤرية الكائنات، تجده بعد جهدٍ يهدأ. أمَّا الذي يلتهب بالحرارة ويشتهي (الأمور العالية) بِشَرَهٍ، فهو يُهلك ذاته.

٥٥ – الضمير المتعالي بالأعمال الصعبة والجهادات العسرة، بجهدٍ عظيم يتضع قبل أن يُؤدَّب من النعمة. أمَّا الذي يفتخر بالعظمة والقوة فهو مسكن للآلام.

٥٦ – الضمير المستضيء بتصديق المواعيد يحيا، والذي يهذُّ في أمجاد العالم الجديد ينعتق من الطياشة، والزكي السكران بالحب يعاين المسيح.

٥٧ – الضمير الذي بتكميل الأعمال الصالحة يرضي الله باتضاع، ينير تَدْبِيره، ويُضيء إنسانه الداخلي بالنعمة كالشمس.

٥٨ – إن لم يتقدم تواضع النفس بالدموع والحزن بإفراز، على التقلبات (أو الأحاسيس) العقلية الهادئة التي تنبع من القلب وتذهل الإنسان الداخلي؛ وإن لم تبكته نيته على الزلات التي

[6] كون أمرا خرقًا (المترجم).

صدرت منه بسبب ميالة طبيعته؛ وإن لم تؤدبه أيضاً النعمة مربيته ويُلام من ضميره لكونه كم من مرةٍ يزلُّ ويُخطئ دون أن يحسَّ بذلك؛ وإن كان ضميره لم يضعه ويحطَّه من انتفاخ العظمة والغرور بالندم على تلك الذنوب؛ فسوف يهلك ذلك الإنسان الشقي.

٥٩ ــ الفضائل التي يعملها القديسون يخفيها المسيح من تذكار الضمير لئلا تهلك أنفسهم بسببها. فقد كُتب أنه إن لم يضع الطحَّان الغمامة على عيني البهيمة فإنها ترجع وتأكل أجرتها.

٦٠ ــ إذا دنت أصبع الله من الإنسان المُفرز، إن كان (في وقت) التأديب أو في السلام، فهي ــ إن كان ذا فهم ــ تعطيه تذكاراً. فبالتأديب تقوِّم زلَّته، وفي السلام تهبه حرصاً.

٦١ ــ أحد الإخوة في بداية دخوله القلاية أراد أن يغلب الطياشة كلية من قبل أن يقوِّم حواسه الخارجية ويرتب حركاته الداخلية، فطلب أن يزمِّر ويصلي بلا طياشة وبراحة قبالة وجهه بخاطره فقط. وفي أحد الأيام وهو يضابر (أي يجاهد في جمع فكره) انضبط بغتة بتلذذ حركة الشهوة وانضنك قلبه وتغطى بها حتى قارب الموت، كمثلما أخبر هو. وسمع صوتاً يناديه دون أن ينظر أحداً، ويقول له: لا تتذمر، بل قاسِ جيداً، فإن عدتَ لتضابر بمقاومة وتطلب بغير واجب، هكذا يلاقيك قتال الشهوة.

٦٢ ــ شيخٌ آخر أعانه الله في أمور كثيرة، وكان مضنوكاً بالأمراض. حدث في ليلة الأحد أنه تهاون وزلَّ بإرادته ولم يتجلد، وكان ملقىً على فراشه منضغطاً بأفكار نجسة مدة. فأتاه صوتٌ دون أن ينظر أحداً، وهو ماسك أصبعه اليمين ويعصرها، وكتب له هكذا: أنت محتاجٌ للتوبة مائة وعشرين يوماً في السنة، كما أخبرنا هو. فخاف وقال: بالحقيقة إن الإرادة قد ضعفت وليست الطبيعة، ولأجل هذا أنا خائفٌ.

٦٣ ــ شابٌ آخر حادُّ الحركات كان قد دخل القلاية منذ فترة وجيزة، وكان يغلي بحرارة تَدْبِير العقل ويشتاق لعدم التألم وللعظائم. أخبرنا هذا الشاب قائلاً: عندما أقف، أَلتهب بالصلاة والدموع ليلاً ونهاراً، وفيما أنا جاثٍ في الخدمة التهب قلبي بغتةً وحَمي جسمي بلذة حلاوة دغدغة الشهوة حتى إني وقعت على الأرض وأردت أن أكدمها بأسناني؛ وبقيت بلا عقل ولا حاسة. وعندما رجع ذهني إليَّ قمتُ، فأحسستُ أنه لا يوجد شعور بألم الزنى على الإطلاق، بل بما هو ضده! وهكذا احترق قلبي بحب المسيح، حتى إنني ما أن أذكر حبَّه وأهذّ في تَدْبِير القديسين أو أقرأ أو أصلي إلا وتلتهب في قلبي نارٌ، ويحترق جسمي بلذة الدغدغات، ويحدث لي وجع رأس متواتراً، حتى إني إن لم أحفظ نفسي أكاد أن أسقط.

٦٤ ــ لقد كان يعقوب إسرائيل يحب راحيل جداً، ومع ذلك فإنه صبر وعمل لأجلها سَبْع سنين باشتياق وما أُعطيت له قبل ليئة أختها. ومع أنه تجلَّد أيضاً وعمل سَبْع سنين أخر، إلا أنه عندما أخذها لم تلد حتى أكملت ليئة جميع أولادها. هكذا هو المتوحد؛ فهو وإن كان يشتاق لتَدْبِير العقل وللفضائل المقدسة العالية، إلا أنه لا يؤهَّل لذلك إن لم يصنع الجهاد أولاً ويشفي حواسه الخارجية ويكمل أعمال الجسد والنفس ويوفي دَيْن الآلام بحفظ الوصايا.

٦٥ – كما أن الصيادين يغيرون اللقط للطيور والأسماك والوحوش حسب مأكول كل نوع منها في الأوقات المختلفة، هكذا الشياطين أيضاً يأخذون منا مادةً (أو عِلَّة) ويغيرون المجاذبات ويدغدغون بالآلام بحسب الناحية التي تميل إليها إرادتنا سواء للصلاح أو للشر.

٦٦ – مع أن جميع الشياطين متلهفون لهلاكنا، إلا أن بعضهم يقاتل مع التَدْبِير الجسداني، والبعض الآخر يقاتل مع تَدْبِير العقل، وآخرون يرصدون القلب ويخدعون بتنكُّرٍ الذين يشتاقون للكمال.

٦٧ – الشياطين التي تقاتل مع المبتدئين يُسمون مَرَدة، وهم يقاتلون بحدّة وبغير مادة. والذين يقاتلون مع النفسانيين هم لطيفون (أو حاذقون) كثيرو المادة ومتحايلون بأنواع كثيرة. والذين يقاتلون مع الكاملين هم هادئون ومتجلدون، يرصدون الأوقات المناسبة ويساعدون على السيرة، ولا يحاربون بحدّة بل بهدوء، ولكن بطول مدة القتال؛ أربعين أو ستين سنة كما كُتب في سير الشيوخ. والذين بالتغاير (أي بأشكال متغيرة) يقاتلون هم أشرار وقحون منافقون غير رحومين، ويُدعوْن خطافين.

٦٨ – المتوحد المُنحلّ في تَدْبِيره، وطُرقه سائبة، يزلُّ من أمواج إلى أمواج دون أن يدري أو يحسّ. وزلاّته هي تحذير وطب لآلام نفسه؛ لأنه عندما يتألم يندم ويتقوَّم.

٦٩ – لا تطلب أن تجد سلأمًا في القلب ما دامت الحواس تطيش والنية تُداس وتُطعن من اختلاجات المجد الفارغ. من الأفهام التي تنمو في القلب تعرف خفاياك – إن كنتَ حكيماً – ومن أحلامك أيضاً.

٧٠ – طهارة النفس تُقتنى ببر الجسد، وحقانية النفس بعدالة الجسد (أي باستقامته)، والصَّوْم بالصَلَوَات، والسهر بالرجاء، والرحمة بالحب. ومِن حِفظ هؤلاء وموافقتهم يتولد إنعام التَدْبِير الرُّوحاني فوق الطبيعة، ويتقدس المتوحد بالرُّوح ويصير مسكناً لله بالنور.

٧١ – القلب الذي قَبِل رسوم الحق، وبالهذيذ الرُّوحاني الدائم اصطبغ بالفضائل الرئيسية: السلام والحب الرُّوحاني، وجذور نظره الداخلي قد انحل من الكل وارتبط بالحب الإلهي، هذا القلب يفيض حياةً جديدةً.

٧٢ – الحق والنور والحياة العقلية في بعضهم بعض يسكنون داخلنا، ومن بعضهم بعض يُعرفون ويظهرون، ويُقيتون النفس. وإن كان الحق هو مُتعالٍ عن الخليقة، إلا أنه ساكنٌ فيها. ومع أن طبيعته غير مائلة إلا أنه يسكن في المائلين بغير مَيلان.

٧٣ – حياة القديسين الذين صاروا مسكناً لله هي مرتفعة عن الرعب، وهم لا يقعون تحت الموت العقلي.

٧٤ – الحي ليس هو ذاك الذي لا يموت، بل الذي يحيي الموتى.

٧٥ – مجد القديسين ليس هو من طبيعتهم، وفرحهم ليس هو من إرادتهم، وإكليل عقلهم هو موهبة من الله.

٧٦ – ممجدٌ جداً هو نور الشمس ولكن ليس كنور القديسين. السماء بهيةٌ جداً بنور الكواكب ولكن ليس مثل سماء قلب القديسين. بَهِجةٌ جداً هي الأرض في نيسان (أي في الربيع) وأكثر منها أرض قلب القديسين.

٧٧ – نجمُ الصلاةِ الذي يظهر في القلب هو سلام الله الذي يفوق كل عقل.

٧٨ – النفس التي بلغت السلام تُمجِّد الله بوداعة قلبها، ويكون العقل والضمير والأفكار كلها هادئة تختلج بفرحٍ ما له سبب. وفرح النفس يتولد من سلام القلب. وسكون الضمير هو علامة عدم التألم. وهدوء الأفكار يُولد من نور عدم الآلام.

٧٩ – الطياشة تُسمى رديئة حينما يطيش الذهن المُجسَّم في الأمور الجسدية العالمية. والطياشة الجيدة هي إذا ما طاش العقل بهذيذ معرفته الخصبة النفسانية بالانتقال من تَدْبِير إلى تَدْبِير ومن تاؤرية إلى تاؤرية ومن فهمٍ إلى فهمٍ.

٨٠ – جمع الذهن وسكون الضمير يكون إذا ما هدأت أفكار وحركات النفس من الهذيذ الرُّوحاني في عناية وسياسة حكمة الله التي في هذه (المعرفة) جميعها، وبدأت النفس تدهش بمجد الله المرسوم داخل القلب.

٨١ – بالفهم يكثر سلام القلب ونياح الضمير، ويكمل بسهولة.

٨٢ – عجب عظيم أنه إذا ما كان أحد أعضاء الجسد متألماً فإن الجسد كله يتألم ويتشوَّش. هكذا أيضاً النفس الناطقة إذا كان أحد قُواها منقسماً بالميالة، فلا يكون هناك سلام.

٨٣ – ما دام الضمير منقسماً على نفسه بخداع الأفكار أو الكلام أو الأفعال، فإن النفس تتكدر وتتسجس إلى أن يغلب الضمير بنعم أو لا.

٨٤ – حركات النفس تدبِّر حواس الجسد، والإرادة هي التي تدبِّر حركات النفس. فإن كانت الإرادة منعتقة من الآلام فهي تدبِّر (حركات النفس) بحسب إرادة الله، وإن كان فيها ألم فإنها تميل بزيادة إلى ذلك الألم الغالب فيها، مثل الجسد الذي ينحرف مزاجه بحسب الكيموس[٧٠] الغالب مزاجه في الجسد.

٨٥ – فكر الكآبة يرصد مثل الكمين في وسط أفكار الفرح؛ وعندما تتلهف النفس بالشهوة تقع في الكآبة وتتعذب بجحيم الحزن، لأن النفس عندما تُغلب من الآلام، تسلمها الآلام إلى الكآبة لكي تسحقها بوجه الفضيلة.

٨٦ – قيود النفس التي لا تتركها تقوم على الرجاء هي الكآبة. فعندما تنعمي النفس بالكآبة تخيب من معرفة أسرار الله.

---

[3] لخالص ال نظٌ ِالتتسهتم اها الأمعا من المواال نظٌ ..

٨٧ – الكآبة لا تقوى على النفس إلا عندما تنغلب من الشهوة أو من بعض الآلام.

٨٨ – دلائل كثرة الآلام وتَمكُّنها في النفس وفي المعرفة العالمية هي الكآبة.

٨٩ – المتوحد المكتئب في زمان الشيخوخة هو شاهد على نفسه أنه لم يعمل بالفضيلة في أيام ابتدائه، وقد ربطته الآلام بحبال الكآبة وأسلمته لجلد عذاب الندم والحزن.

٩٠ – النفس التي سُبيت بالكآبة لا تكون عادمة من الصلاة الطاهرة فقط بل ومن إشراق الشمس، وحياتها تكون مظلمة.

٩١ – إن كان طريق رَبِّنَا قد تدبرت بالنعمة وليس بالعدالة، إذاً لا كآبة في طريق رَبِّنَا.

٩٢ – الحزن الذي من أجل الله يملأ القلب فرحاً، ويُحلِّي كل مرارة تدنو من النفس، ويهدِّئها من سجس التكدر والغيرة، ويعطيها وجهاً ودالة بالرجاء في الله.

٩٣ – ليس طبٌ للكآبة مثل محقرة الذات والازدراء بالنفس وأن لا يحسب الإنسان نفسه شيئاً ولا يطلب مديحاً.

٩٤ – ليس في الكآبة سلام، بل تكون النفس مملوءة عذاباً وندماً وظلمة ومرارة قلب.

٩٥ – سلام النفس الدائم يتولَّد من بساطة الضمير ووداعته، أو من كمال الذهن والإفراز والتمييز المرتَّب على الدوام وحفظ الضمير والأفكار لكي لا تتحرك بالخباط والغيرة.

٩٦ – سلام النفس يشبه الماء الصافي الهادئ الذي ليس فيه دبيب من داخل ولا تكدر من خارج يحرِّك ويُعكِّر نقاوته؛ لأن صفاءها يكون مثل المرآة للعيون. هكذا هي نقاوة المرآة النفسانية، إن لم تتكدَّر بالأفكار من داخل من خلال السماع والنظر وبقية الأشياء التي تُدخلها الحواس من الخارج.

٩٧ – إذا ما كانت مرآة النفس صافية، فإن النفس تنظر وتتعجب بحسن طبيعتها.

٩٨ – لذيذة جداً هي تصورات تاؤرية عناية الله وسياسته، وعندما يجوز الذهن على المتجسِّمين وغير المتجسِّمين وعلى أفعال القوات الرُّوحانية الخفية الفاعلة في الكل، حينئذ ترفع النفس وتجعلها بغير اهتمام.

٩٩ – إذا ما جازت تاؤرية النفس على الطبائع وكافة أمور الخليقة، فهي ترتفع وتنحط معها بالانتقال من هذا إلى هذا، ومن الطياشة إلى نظرة الحق.

١٠٠ – أمَّا ثيؤريا الثالوث الْقُدُّوس فليس فيها مصاعد أو منازل ولا طياشة الانتقال (من شيء إلى آخر)، بل نظرة وَاحِدة تربط بالدهش بها جميع الذين استحقوا نظرتها.

المَيْمَر الثَّالِث

١ – الإيمان بمواعيد المسيح منح طبيعة البشر الرجاء والثقة بمحبة حقيقية. تعاليم يسوع أبطلت كافة علوم معرفة الطغيان.

٢ – إذا ما تثبت رجاء الإنسان بالإيمان بالمسيح، وملكت المواعيد داخل النفس، عند ذلك تلتهب النفس بالحب الإلهي، وتنفتح في الحال أبواب القلب الداخلية ويشرق بغتة النور والفرح والعزاء.

٣ – بقدر ما يلتهب الإنسان بحب المسيح ويتأمل رجاءه ويتلهف لمواعيده ويهدس فيها، هكذا يُبتلع بالسيرة ويستضيء ضميره بالرُّوح.

٤ – المتوحد المتيقظ الحريص في تَدْبِير السيرة، ونفسه متواضعة وضميره بسيط، إن كان يغلي بحب المسيح، ويحفظ حقوق سكون القلاية، ويحترس بما له، وفيه إفراز، هذا في السنة الأَولى من جلوسه في القلاية يُذيقه سرّ روح التوبة – مثل العربون – عزاءً لضعفه باقتصار حدِّ كل التَدْبِير. وإن كان لا يطيش ولا ينجذب في أمور كثيرة، بل ينعتق من المجاذبات ومن خباط هموم المرئيات ويقتني احتقار الذات ويحب الثبات في الهدوء ويسرع في تبع سلام القلب ويحترس في عمله ويحفظ حقوق سكون القلاية ويخرُّ كل وقت قدام النعمة، فإن النعمة تكمِّل بالفعل جميع ما أذاقته إياه بالسرِّ في السنة الأَولى حسب ترتيب عمله في السيرة.

٥ – الله ساكن في الكل بالتمام، لكن كل وَاحِد بمقدار إيمانه بالمسيح يقدر أن ينظر أفعاله.

٦ – بيت قدس الأقداس الداخلي الذي للقلب هو مسكن المسيح منذ العماد، ولن ينفتح إلا بكلية الرجاء به، هذا إن لم يدخل من داخل حجاب بابه شيء من اختلاجات حركات النفس البته، بل هو العقل العاري المتكمل بنور طبيعته وقد لبس الإيمان والرجاء والحب الحقيقي.

٧ – منذ أن خالف آدم الوصية إلى حين جاء المسيح لم يوجد مَنْ فَتَحَ هذا الباب الداخلي الذي للقلب، بل رَبَّنَا المسيح، بكمال طاعته لأبيه، فتحه بالرُّوح وسكن فيه.

٨ – كل مَن قد اعتمد بالرُّوح، عندما يتعرَّى الإنسان الآلمي العتيق مع جميع تقلبات الجسد وشهواته، ويلبس المسيح بالكلية بحفظ وصاياه بنور الإيمان والرجاء به، يؤهَّل عقله أن يدخل وينظر وجه المسيح بدالة ووجه مكشوف.

٩ – المتوحد الذي تتلهف نفسه أن يحس بأسرار الله الخفية إن كانت نفسه لا تشبع من شهوات إرادته فهو لا ينظر مجد الله ههنا.

١٠ – أيُّها التائب الحقيقي، لا تترك مبدأ ووسط درجات التوبة وتضبط بغتة درجات الكمال، وتقول إن الله رحوم إن شاء يعطيني مراحمه إنعاماً كما أعطى لكثيرين مواهب نعمته في كل الأجيال. لستَ بمعرفةٍ أنت تضمر مثل هذه الأمور؛ لأن العجائب والقوات لا تُعطى من أجل المؤمنين بل لأجل غير المؤمنين.

١١ ـ فضيحة عظيمة وحزن للنفس في العالم الجديد عندما تتعرَّى من البرِّ المظنون وتلبس الخجل والخزي أمَّام جميع الملائكة والبشر.

١٢ ــ البرُّ المظنون هنا يُعدّ للنفس في العالم الآخر خجلاً وخزياً وظلأمًّا في الجحيم.

١٣ ــ الشياطين يرصدون إرادتنا ليلاً ونهاراً لينظروا إلى أي ناحيةٍ تميل، وحسب ميالة الإرادة والضمير يُصلحون شِباك المجاذبات بكل نوع ويخدعون النفس. وهم في ذلك لا يعرفون إن كانت ستنجح ضرباتهم أم لا؛ لأنه ليس فيهم قوة أن يخطفوا حريتنا غصباً، فإن مشيئتنا هي حرة أن تميل ناحية الشمال أو اليمين.

١٤ ــ الإنسان هو تامٌ بطبيعته مثل ناسوت المسيح ويهوذا الدافع. وهو بحرية إرادته يميل؛ فأمَّا أن يرث مجد رَبِّنَا المسيح أو هلاك يهوذا الإسخريوطي.

١٥ ــ نفس الإنسان هي مناسِبة لملائكة النور والشياطين الأنجاس، وبإرادتها ترث أمَّا نور الملائكة القديسين أو ظلام الشياطين المنافقين.

١٦ ــ إذا ما عاد العقل ليفتقد أفكار الشهوة أو أحد الآلام التي كانت قد هدأت وسكتت، إن كان يثبت في مفاوضتها والتنازل معها بألمٍ، فهي حينئذ تحرك الفعل وتُغرِّقه بالذِكر وتنجس العقل الطاهر.

١٧ ــ التاؤريا العالية ونور الأفهام والمعرفة الدقيقة وفضائل السهر والصَّوْم والتورع والنسك ليست هي التي تُعدُّ الأكاليل للقديسين، بل الغرض والقصد الذي تُعمل الفضائل من أجله مقابل الآلام.

١٨ ــ مقبولٌ عند الله سقوط باتضاع وندامة، أكثر من القيام بافتخار!

١٩ ــ نور الضمير الذي تكلم عنه الآباء هو نور التواضع والهدوء الذي أظهره رَبِّنَا بذاته.

٢٠ ــ ليس لنا أن نتعلم علوم الحق من دون قراءة الكتب المقدسة والهذيذ بالفضائل وأعمال التوبة والصَلَوَات والدموع.

٢١ ــ قراءة الكتب المقدسة هي مادة لتعليم معرفة الحق.

٢٢ ــ أعمال التوبة والنسك والبقية هي أبواب يقبل الضمير نور عدم الآلام بواسطتها. والهذيذ بالفضائل الرئيسية هي رسوم روحانية ترتسم فيها مرآة القلب.

٢٣ ــ كما أن نور الضمير هو أشرف من نور الشمس لمن كان مستحقاً له، هكذا أيضاً النمو الذي ينبت من القلب الطاهر الغني بالله هو أفضل من المادة التي تُقبل من آخرين من غير العمل بأنفسنا.

٢٤ ــ وإن كان العقل من قوة الكتب المقدسة يتيقظ كي يقبل ثانياً زروع التعاليم الرُّوحانية، لكن الزروع الصالحة التي لطبيعة خلقتنا هي التي توقظه.

٢٥ – بلا منفعةٍ هي النطقية (أي القوة العاقلة) إذا ارتفعت عنها الحرية. وهكذا أيضاً الحرية هي بغير منفعة إذا ارتفعت عنها النطقية.

٢٦ – النطقية الحقيقية هي التي تكون تقانتها (أي ثبات قوتها) مُسلطة على حرية الإرادة، وأفعال حريتها تُمتدح من نِيَّتها الصالحة ومن الآخرين.

٢٧ – الينبوع الذي يسعد من جري السيول، عندما تبطل السيول ينشف نبعه. والقلب الذي يستغني من التصور الذي يكون من غير الهذيذ العقلي الدائم ومن أعمال القلب مع سكون اللسان، تبطل فرحته.

٢٨ – سعيدة هي الأرض التي ينبع منها الذهب والفضة والفصوص الكريمة، وأسعد منها هو القلب الغني بالحب والهدوء والسلام والفرح.

٢٩ – غِنى النفس المباركة هو نبات صالح ينمو من القلب بالنعمة.

٣٠ – كل غِنى يكون من الخارج وهو محدود من القلب، هو تحت الخوف والخطر. وكل فرح من خارج النفس هو تخيلات. وكل ذِكرٍ يكون خارجاً عن العالم الجديد هو ضلالة أحلام.

٣١ – طوبى للنفس الساكنة بالكلِّية، وقد ذاقت في داخلها شهد نمو نبات القلب (أي زهرة القلب النيرة).

٣٢ – طوبى ثم طوبى للعقل الذي تاجر بتصورات (أي تأملات) الآخرين واستغنى في ذاته بالغنى الرُّوحاني، وصار غنياً بما له وبالآخرين. هذا هو الكاتب الذي قال عنه سيدنا إنه قد تتلمذ لملكوت السماء.

٣٣ – ينبوع نور هو القلب الذي سالم كل إنسان واصطلح مع الكل ومع ذاته. شمس جديدة تشرق في قلب النفس التي ليس فيها شر، وهي تُفرح جميع الناس بالسوية.

٣٤ – لا يمكن لأحد حي أن يعيش بالبطالة إذا لم يرتبط بشيء. لأنه حسب الأمر الإلهي: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

٣٥ – المتوحد الذي يحفظ عقله وإن كان يُظن به من كثيرين أنه بطَّال من كل عمل، لكن ليس أحد أكثر تعباً منه ولا عمَّالاً مثله.

٣٦ – بسكون العقل فقط يبطل كل عمل؛ لأن العقل يكون قد ابتُلع فوق الطبع بالحب الإلهي، وصار إلهاً وسط الناس في خفية عقله.

٣٧ – مبدأ الهذيذ هو أن يغصب الإنسان ذاته قسراً أن يمتنع عن كل مفاوضة بشرية، ويداوم قراءة الكتب والمَزَامِير. لأنه من هؤلاء يتولد نمو الهذيذ الرُّوحاني داخل العقل. ومن مداومة الهذيذ يكون جمع العقل.

٣٨ – مبدأ نمو الهذيذ في العقل هو أن يجلس الإنسان في الأوقات في موضع مظلم ويهذ في قلبه الصَلَوَات والتسابيح التي يعرفها، ويرتب تلاوة من عنده حسب قوته، وهو هادئ وعقله مجموع بالهذيذ، ولا يقطع هذا الهذيذ أبداً لا ليلاً ولا نهاراً، ولا يخرج لعملٍ ما أو ينام.

٣٩ – فإن كان مُفرِزاً ويحفظ حقوق القلاية ويحترس فيما يخصه حتى لا يسقط جسده، ويحترس بلا فتور على الدوام بتيقظ كثير لئلا يُضحَك به من طغيان الشياطين، ويطيل روحه داخل السكون مدة، ويطلب نعمة الله بحزن ودموع بقلبٍ منسحق، حينئذ يؤهَّل لنمو نبات القلب الرُّوحاني.

٤٠ – خبَّر أخٌ: إنني من كثرة الحرارة التي في قلبي نمت بعد مَزَامِير الليل وأنا جالس، وعندما تيقظت خدمت مَزَامِير باكر بهذيذ قلبي جميعها دون نقص، مع التلاوة أيضاً وبقية الصلاة.

٤١ – كلام الرُّوح لا يُكتب على دفتر القلب بقلم اللسان، بل بهذيذ العقل.

٤٢ – لا يؤهَّل المتوحد لنور الضمير مادام يجري تبع أمور يجدها ليشبع بها جوعه، إلى أن يشبع من الكل ويقبض ذاته من الكل ويصير وَاحِداً.

٤٣ – ولا يستطيع الضمير أن يقبض ذاته من الكل إلا بهذيذ العقل المخفي من الكل.

٤٤ – كل غِنى وكل سلام ونياح وفرح يكون من خارج القلب ومحدوداً، هو ضلالة وتخيل أحلام.

٤٥ – المتوحد لا يقدر أن يقتني حرية النفس واتساع القلب من دون الابتعاد عن خلطة الناس. ولا القلب يؤهَّل للنمو الرُّوحاني الذي من النعمة مادام العقل لم يبطل ينبوعه من أن يفيض بكل (أنواع) المعارف.

٤٦ – لا يمكن أن نسكن مع القريب بالسلام من غير مراءَاة الحب. ولا يمكن أن تسكن المعرفة النفسانية مع نمو الرُّوح.

٤٧ – إذا أسلم المتوحد نفسه كلية لله بمفاوضة الصلاة والهذيذ الخفي وجمع الضمير وحفظ القلب من الطياشة، فإن الشياطين اللطيفة (أي الماكرة) لا يبتعدون من عنده بل يرصدونه دون أن يقاتلوه، ويزرعون فيه حرارة زائدة ويحتالون عليه بخداع بطلب سيرة عالية، لعلهم يستطيعون أن يُسقطوه إذا ما طمع بالسير إلى قدام كما كتب الآباء.

٤٨ – المتوحد الذي أسلم نفسه بالكمال للمسيح هو مفتقر إلى احتراس عظيم من خارج ومن داخل، وإلى محقرة الذات وإلى معونة النعمة وإلى هداية أب روحاني يكون قد جرَّب الأمور في ذاته وشقي في برية التوبة وصبر على الضيقات وأحس بكمينات الشياطين وحيلهم وسقط في الآلام وقام بنعمة الله وعبر الأردن.

٤٩ – صعبٌ جداً هو ألم رغبة ومحبة الذهب والمقتنيات، ومع هذا فهو لا يساوي رغبة النفس في اقتناء العلوم والبحث وراء أمور جديدة وتفهُّم أشياء كثيرة.

٥٠ – لذيذٌ جداً اقتناء الذهب، ولكن ليس مثل اقتناء الحكمة. حلوٌ هو الشهد في الفم، ولكن ليس مثل العلم للنفس. رديةٌ هي الشهوة الكلبية برغبتها، ولكن ليس مثل القلب الذي يحب أن يفيض أموراً جديدة.

٥١ – آه من النفس التي تستبدل برغبتها ألم الذهب والمقتنيات بألم الحكمة والعلم بالتحيِّل والصنائع؛ لأن الرب عارفٌ بما في القلوب، ويكافئ كل وَاحِد حسب غرضه وعمله.

٥٢ – غِنى الجسد سهل تبديده أكثر من جمعه، وغِنى النفس سهل جمعه بحرارة حدَّة الحركات من أن تُخفيه. أمَّا الاتحاد بالمسيح، فالمطلوب شيء وَاحِد فقط وليس آخر سواه: وهو الحب التام للقريب؛ لأن به يكمل حب الله.

٥٣ – مادام ضميرك يتقسم بتاؤرية ما بعد وجودها، (فإن) النفس والجسد (يكونان كلاهما) موتى. فإن كنتَ في عَوزٍ فأكثِر الدموع والصَلَوَات واجمع ضميرك من الكل إلى الوَاحِد.

٥٤ – حياة الصَلب مخفية في الميتوتة من الكل. ولا يمكنك أن تصعد لصلب الإرادة (أي بإرادتك) مادامت مرتبطة بشيء.

٥٥ – اطرد وانفِ من قلبك الاهتمام بمعرفة الخير والشر لكي يدخل ويسكن فيك المسيح شجرة الحياة، وتحسّ بالأمور الشريفة التي فوق الطبع وأسرار العالم الجديد.

٥٦ – المتوحد الذي لا يشخص في قلبه عندما يصلي ويزمر إنما هو يصارع الريح ولا يستضيء في الصلاة.

٥٧ – المتوحد الذي يشخص بعيني عقله في قلبه عندما يصلي يؤهَّل سريعاً للرحمة.

٥٨ – المتوحد الذي يقرن لسانه بضميره هو بالرُّوح يُزمِّر. وإن كان بقمع حواس الجسد يتضع القلب وينير، ولكن ثمار القلب أشرف من ثمار اللسان؛ لأنه من فضلة القلب تنطق الشفتان.

٥٩ – خطر هو للمتوحد الكثير الأوراق إن كان الثمر قليلاً ولو أن الورق حسنٌ في العين ولكنه لا يُعصر في قدح الملك. مكتوبٌ أن الورق هو طبٌّ وشفاء الحواس والثمر هو غذاء النفس.

٦٠ – لا ينعتق المتوحد من الطياشة إلا بمداومة مفاوضة الصلاة. ولا يؤهَّل لمفاوضة الصلاة إلا بجمع العقل. ولا ينجمع العقل من الطياشة إلا بهذيذ تَدْبِير الضمير. والتدابير الرُّوحانية لا تتولد في النفس إلا من القراءة الدائمة والثبات في السكون وتذكار الفضائل.

٦١ – لا يقبل القلب الزرع الرُّوحاني إذا لم تُمْحَ منه جميع صور الخُلْق والغضب والحسد والشر، وتصطبغ النفس بالفضائل الرئيسية، أي السلام والحب والفرح والعزاء بالرُّوح الْقُدُس.

٦٢ – أربعة غيارات للأرض أظهرها رَبِّنَا في بشارته، أي في قلب كل وَاحِد فوَاحِد منا. ولكن ينبغي أن يفهم كل وَاحِد نوع أرض قلبه لكي يعرف العاقل المفرز نوع عمل أرض قلبه والزرع الذي يوافق تربية أرض قلبه، لئلا يزرع شيئاً عوض شيء ويصير تعبه باطلاً. وحتى إذا ما زُرع الزرع الرُّوحاني في القلب فهو محتاج لسقي كلام الرُّوح الْقُدُس، وأعمال وسياج الحفظ، والتنظيف من ألم الزوان، وإلى مدة أيام لكي يتربَّى الزرع ويطول ويصنع أثمار الرُّوح، لئلا عوض السلام والنور ينبت علقم وصبر ظلام النفس.

٦٣ – الذي لا يشابهك في غرض ضميرك تجنَّبه بسلام ومعرفة ولا تعاشره. لأن الماء الذي من العلو ينزل بسهولة إلى أسفل، أمَّا الذي من أسفل فهو بعد جهد يصعد؛ لأنك عندما ترفعه إلى فوق ينحدر وينزل إلى أسفل.

٦٤ – ليس ألم يهدم بنيان برج الفضائل الرئيسية التي للسلام بسهولة مثلما أن تكون جالساً تفكر في أخيك لتعرف إن كان تَدْبِيره حسناً أم لا.

٦٥ – حياة المتوحدين العقلية الحقيقية مخفية في حفظ القلب. فالذي لا يحفظ قلبه بكل احتراس لا يمكنه أن يصير باراً بالفعل، ولا يقدر أن يتضيق ويحتمل التجارب التي تحدث عليه بغير تذمر.

٦٦ – أمَّا أن يكون وَاحِد صِدِّيقاً ويُحصى مع جملة القديسين فهذا سهلٌ، ويمكن من غير تصفية واختبار في كور التجارب، من أجل مراحم سيدنا المسيح المسجود له الذي صار وسيطاً بين الله والخليقة ليدعو الخطاة إلى التوبة. (ولكن) بعد جهد يوجد صِدِّيق قد اختُبرت صدوقيته في كور التجارب المختلفة والضوائق الصعبة والمرض والعوز مع المحقرة والعار والازدراء من الأصدقاء والمعارف، وحمل ذلك كله بغير تذمر كالآباء القدماء.

٦٧ – إن الشعب الإسرائيلي دفعة وَاحِدة قد تسمَّى (باسم) الله من أجل الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب يُوسُف وموسى وبقية الآباء الذين صُفُّوا واختُبروا وتنقوا بالتجارب والضغطات، وأخذوا رسم الختان والسنن والأحكام والشهادات. وعندما زاغ بنو إسرائيل عن الله، ولم يحفظوا السنن والأحكام الموضوعة لهم، وجاء عليهم التأديب بقصاص يستحقونه، صرخوا إلى الله قائلين: لم نطلبك ولا نريد السنن والأحكام التي وضعتها لنا، اتركنا نتدبر كالشعوب الغريبة التي لم يُدعَ اسمك عليها. أجاب الرب الرحوم: لا أترككم تتدبرون مثل الشعوب الغريبة التي بلا إله، من أجل آبائكم الذين صبروا لتجاربي واختُبِر حبهم الصادق لي، وأعطيتهم عهداً أن يكون أولادهم لي شعباً وأكون أنا لهم إلهاً. ولا يمكن أن أكون إلهاً للذين لم يحفظوا سُنني وأحكامي ووصاياي.

٦٨ – كل وَاحِد فوَاحِد منا نحن الذين بحرية إرادتنا قبلنا في ذواتنا رسماً مفروزاً وعاهدنا الله عهداً أن نحفظ برَّ المسيح بحفظ وصاياه المقدسة وأفرزنا أنفسنا من العالم بإسكيم البرِّ الطاهر، ينبغي أن ندين كل يوم نياتنا إن كان تَدْبِيرنا كل وقت يوافق العهد الذي عاهدناه منذ

الابتداء أم لا. فإن كان لا يوافق، فإننا – من غير إرادتنا – كالأَوْلاد المحبوبين نؤدَّب بالرحمة في كور التجارب والضوائق والأمراض والعوز والعار والازدراء من القريبين والبعيدين، لكي لا نبقى غرباء عن ميراث المسيح الذي إليه دعونا أنفسنا. ولنتجلد ونحتمل بشكر وفرح ولا نتذمر كالجهال الذين ليس لهم إله، بل نفرح برجائنا.

٦٩ – فلنتذكر، يا أحبائي في الرب، ذلك المكتوب أنه بضيقات كثيرة ينبغي لنا أن ندخل ملكوت الله، وأن من يحبه الرب يؤدِّبه كمثل الأب الذي يؤدِّب بنيه. وأيضاً إن أسلمتَ نفسك لله فاصبر على التجارب وما تبقى. فلنصبر بفرحٍ بإرادتنا لأنه ليس لنا مناص من التجارب، لأن الله لم يشأ أن الذين قد دُعي اسمه عليهم يكونون بني الهلاك، بل هو يقاصصنا بكل نوع ويدخلنا ميراثه المقدس لئلا نتخلف خارج الباب.

٧٠ – إن الله خالق طبيعتنا قرن الشفاء بميالة طبعنا، ومعرفة الخير والشر مع حرية إرادتنا. وزاد على يد موسى ناموس سُنة العدل، لكي كل وَاحِد عوض ميالته يقدم مُفرزاً اعتراف ذبيحة الغفران في الهيكل الذي في أورشليم. والمسيح رَبِّنَا خالق طبيعتنا الذي له السلطان على كل شيء كالسيد على بيته عوض العدالة جاد بالنعمة مجاناً قائلاً: (لَيْتَب) كل أحد في كل موضع بنفسه من الداخل ومن خارج.

٧١ – التوبة هي مراحم المسيح رَبِّنَا اللازقة للكل التي تشجع طبعنا قائلة: إن كنتَ قد زللتَ وأخطأتَ اعترف بذنبك وتُب، وأنا معك أساعد ضعفك.

٧٢ – ذبيحة التوبة لرَبِّنَا هي القلب الذي اتضع وانسحق وانكسر بدموع الصلاة قدام الله، ويطلب المغفرة لضعف ميالته وعجز قريبه وذاته هو.

٧٣ – نعمة المسيح رَبِّنَا حالة هي بالتوبة، وهي تسأل الناس أن اطلبوا بالصلاة وخذوا، لئلا يصير عليكم لوم من العدالة.

٧٤ – النفس التي تفرز بالعدل الصالحين من الأشرار والصديقين من الخطاة، فإن معرفتها تفرزها هي أيضاً من الله من غير أن تحس.

٧٥ – المتوحد الذي يدبِّر حياته بالعدل، ويزن صلاحه مقابل شروره، ويُدعى لابس المسيح، وينتظر مكافأة أعماله الصالحة، هذا إلى الآن لم يحس بضعفه ولا أحسَّ بنعمة المسيح الفائضة على الخطاة والصديقين مجاناً.

٧٦ – الناموس القديم جميعه يعلِّم العدل. أمَّا وصية المسيح فهي ضد العدل: نعمة ورأفة ورحمة مجاناً.

٧٧ – اعترفْ بما أخذتَ، وآمنْ أنك تأخذ ما أنت محتاج إليه، فاسأل واطلب بالصلاة وأنت تأخذ.

٧٨ – ألف وسَبْعمائة سنة وأكثر خدم ناموس العدل؛ ولم يوجد صدِّيق وَاحِد لم يذنب في حق الناموس ولم يقدم قرباناً عوض ذنبه. أمَّا نعمة المسيح في وقتٍ قليل عتقت ألوفاً وربواتٍ بلا عدد بالتوبة مجاناً، عتقتهم من الخطية وجمعتهم إلى أهراء الملكوت.

٧٩ – إن النفس الناطقة منذ أن خرجت من بلد بساطتها ووداعة طبيعتها قامت في مفارق الطرق بالشكوك بدم ذاتها على حدِّ سيف المعرفة النفسانية، تجذبها دغدغة الآلام والشياطين بقوةٍ إلى ههنا، وتجذبها أيضاً مجاذبات تنعم الملكوت ومجد القديسين إلى ههنا، والنعمة (واقفة) ترصد حاملة إكليل البر وسائرة تبع حرية الإرادة بلا تغصب، والنية تؤنِّب وتبكِّت وتدين وتهدد بشدة وتُري الأثمار التي تكون من الناحيتين، والحرية لها أن تميل أمَّا لليمين وأمَّا للشمال.

٨٠ – الخير والشر يلاقيان القديسين في طريق تَدْبِير الفضيلة ولا يُسميان برًّا أو خطية إذا ما نشطنا نحن إلى الحق.

٨١ – الخطايا تتولد من الآلام، والآلام من عدم الإيمان، وعدم الإيمان من عدم المعرفة.

٨٢ – من حركات شهوة النفس تتولد حرارة الغلوة. ومن الحركات الغضبية يتحرك النشاط الطبيعي في الإنسان إن لم يحتر ويلتهب بمحبة ذلك الشيء الذي يحبه ويقتنيه.

٨٣ – حينما تشتعل النفس بشهوة الشيء الذي تحبه، عند ذلك تتحرك الغضبية بالنشاط الطبيعي لتساعد الشهوة لتكميل إرادتها وتبدأ أن تحتر من الداخل وتنبح مقابل الذين يقومون لمضادة الشهوة.

٨٤ – الآلام تصنع لذة الدغدغات بحلاوةٍ إن كان ناحية اليمين أو الشمال. والآلام التي تتولد من الشهوة هي محبة المديح والكرامة والشره والزنى وما تبقى. وآلام الغضبية الخارجة عن الطبع هي الخلق الرديء والغيظ والكآبة والحسد والشر.

٨٥ – الرجل الشهواني وإن كان ليس رزيناً وهادئاً، لكنه تفيض منه حلاوة الحب والرحمة. والرجل الغضوب وإن كان متأسساً فهيماً لكنه عكر الدم الأسود، يفعل فيه ظلام، ونفسه مريرة ومملوءة كآبة وغيظاً، وهو كمثل الأكل والشرب يزيد عليها، ويكون دائماً متغير اللون سيء المنظر والحلم.

٨٦ – الشهوة الطبيعية إذا اشتاقت بحسب الطبع يكون اشتياقها نحو الإلهيات، والغضبية الطبيعية تنبح بطبعها مقابل الآلام والشرور. أمَّا الشهوة غير الطبيعية فتشتاق إلى الآلام النجسة والشرور، والغضبية غير الطبيعية تنبح أيضاً في وجه الفضائل وتضاد الصلاح.

٨٧ – الفضائل الطبيعية أعني البر والصدوقية وحفظ الوصايا مع غلبة الآلام تستطيع النفس أن تقتنيها مادامت قوَّتاها الاثنتان أي الشهوة والغضبية تتحركان طبيعياً وتعملان ضد الآلام والشرور.

٨٨ – أمَّا أن تحس النفس بالأسرار الإلهية المقدسة المكتومة فوق الطبع بمعرفة الحق والعالم الجديد فما تستطيع ذلك إلا إذا قمعت قوَّتاها الشهوة والغضبية وحشية الآلام، وهما أيضاً تضعفان وتهدآن، ويستيقظ العقل والذهن والإفراز والتمييز، ويتجدد بالسلام كلٌّ من القلب والأفكار والضمير من مقاومتها وغيرتها مقابل الآلام والشر.

٨٩ – آلام الجسد تتولد من بذخ البطن، وآلام النفس تتولد من قلة التأديب. ومن عدم معرفة العقل ومن قلة الأمَّانة تتشجع وتكمل بالإرادة إذا قبلتها، وهي تتحرك للفعل بالحواس بالتذكار.

٩٠ – آلام الجسد هي الشره والزنا ونياح الجسد وما تبقى. وآلام النفس هي الشهوة والغضبية وأفكار الحسد والضجر والافتخار والشر وما تبقى. وهي جميعها تأخذ من الشهوة مادةً لفعلها. فإذا لم تكن شهوة لا تفعل (قوة) الغضبية، وإذا لم تتحرك الغضبية ويملك الخباط لا تفعل الآلام.

٩١ – كل ألم يقاتل معنا إذا فتشنا عن سببه بلطافة (أي بتدقيق) لوجدنا أنه من الشهوة يأخذ مبدأه. فإن لم يكن للحواس (فعل) من خارج ولا تذكار من داخل، تتعطل الآلام وتصير بغير فعل. فإن كانت الإرادة شُجاعة قوية باليمينيات، فلو توقحت الآلام فإن العقل لا يقبلها بل يقمعها ويخضعها بطول روح وبالصبر، أو يزجرها وينتهرها بلا تكدر، أو يهديها بحيل المعرفة.

٩٢ – ميالة الناطقين وعدم ميالتهم إلى ألم الخطية مخفية في معرفة الخير والشر، وتظهر للفعل بحرية الإرادة. (إذاً) فمعرفة الخير والشر هي مولدة ومربية للآلام والشرور والبر والطهارة، ويظهر حسنها أو سماجتها بشجاعة الإرادة أو رخاوتها.

٩٣ – إذا ما اصطبغت النفس كلية بالصلاح انقلعت معرفة الشر من القلب. وإذا هي اصطبغت كلية بعمق الشرور انقلعت معرفة الخير من القلب. أمَّا إذا كان الاثنان يعملان في النفس بالسوية، في وقتٍ لمعرفة الخير وفي وقتٍ آخر لمعرفة الشر فلا سلامة لمثل تلك النفس، وهي تشبه من يبني بيدٍ وَاحِدةٍ ويهدم بالأخرى، إلى أن تحل الرحمة. وإنما يعرض هذا الأمر من رخاوة الإرادة.

٩٤ – صنارة النفس إلى الخير والشر هي الشهوة، لأن النفس إذا ما اجتُذِبتْ بالشهوة الصالحة التي للإلهيات فهي لن تقبل السهام المتقدة التي للآلام والشرور. وإذا اجتُذِبت بالآلام فهي تجسر (أو تتوقح) على الفضائل العالية كمثل المرذولات.

٩٥ – إن كان الناس يشربون الخمر على الدوام، لكنهم بالعارض (أي أحياناً) يسكرون. هكذا وإن كانت النفس على الدوام تستعمل وَاحِدة فوَاحِدة من الآلام مثل آلة العالم، فهي (قد) تميل وتسكر بها.

٩٦ – بغيارات (أي بأنواع) كثيرة يسكر الناس بالمشارب، وبغيارات كثيرة تسكر النفس بالآلام. وإذا ما سكرت لا يكون بمقدورها أن تغلِب؛ لأنها تكون حينئذ مفتقرةً للمعونة ظاهراً وخفياً.

٩٧ – المتوحد الذي أحبَّ اختيار عدم التألم، وقطع في ضميره بغضة نحو الآلام، وبدأ يجاهد مع الشرور والآلام، فليعدَّ نفسه بإرادته للصبر على الضيقات والتجارب المختلفة والعوز وربوات شرور، لئلا عندما تصادفه التجارب والأحزان بغير إرادته يتكدر ويتذمر، وباضطرار الغضبية يقبلها، فيصير ألم خَلقه (أي سخطه) مادة لألم الكآبة والحزن والضجر ويبقى عقله بطالاً. لأنه قد كُتب أنه إذا كنتَ تعمل الصلاح فانتظر أن تأتيك الشرور. لأن العالم المتألم المائل (إلى الشرور) لا يهدأ إلى أن ينتقم من الذين يحبون عدم التألم ويريدون أن يسيروا بغير ميالة في العالم المتألم الميَّال، ولا يجلب لهم كرامةً أو نياحاً، بل ضد هذه يُضنِك ويُحزن ويشبعهم ازدراءً ومقتاً وتعييراً بكل نوع وسبب، حسبما يقدر ويُسمح له.

٩٨ – الرَّاهِبُ الذي يريد أن يكون غير متألم، هذا قد نافق على العالم المتألم؛ لأنه يريد أن يضاد الآلام التي هي آلة العالم المتألم.

٩٩ – عدم الآلام وعدم الميالة التي اقتناها القديسون ببغضتهم للآلام هي فوق الطبع، وهم من دون معونة ومراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح وعونه في الخفاء وفي الظاهر ما يتطهرون.

١٠٠ – الانحلال والدالة هي آلة الشيطان؛ لأنه يحرك الآلام بواسطتها ويطمر الفخاخ ويصطاد الناس للخطية. الخوف والحياء والسكون والتحفظ هي آلات الملائكة القديسين التي بها يحركون الفضائل ويجذبوننا لمعرفة الحقائق.

المَيْمَر الرَّابع

١ – رأس النفس هو الإيمان الصحيح مع معرفة الحق. ومبدأ التدابير المتقنة هو القصد المستقيم مع صلب الإرادة مقابل الآلام بواسطة عمل الوصايا.

٢ – مبدأ التدابير المتقنة هو الميتوتة من كل مفاوضات الوجوه بشهوة الأمور الإلهية؛ لأن منها يتولد الحب والحرارة للتَدْبِير الحقيقي.

٣ – حرارة النفس تتولد من القراءة الدائمة في سيرة التَدْبِير المقترنة بالأعمال والصَلَوَات المتواترة.

٤ – مبدأ الصَلَوَات الحارة يكون من غلوة الاجتهاد. وهذه الصَلَوَات المتواترة في السكون مع القراءة الدائمة بإفراز توصل إلى هذيذ العقل.

٥ – جمع الفكر يتولد فينا من الهذيذ الرُّوحاني الذي للعقل. والانعتاق من الطياشة يتولد من انقباض الضمير. ومن هذه تتولد فينا مفاوضة صلاة العقل الخفية.

٦ – وإذ بتغصبٍ وقسرٍ دائم تُحفظ حقوق السكون وتتربى بالنعمة وهداية الأب الرُّوحاني، في مدة من الزمان تُمحى من القلب كل الصور والرسوم والتذكارات الغريبة الخارجة عن تَدْبِير السكون، وتصطبغ النفس بالفضائل الرئيسية أي السلام والهدوء والحب والبشاشة والفرح الرُّوحاني. وهذه الفضائل تصبغ النفس بالصلاة الرُّوحانية؛ ومن هذه تؤهَّل بالرحمة للصلاة الخفية مع الله بإحساس سري بالذهن. ومن ههنا نعيش ببساطة إيمان النفس وكلية الرجاء، ويُعطى لنا بالنعمة – فوق الطبع – عربون الحرية ودالة ثقة البنين، بشهادة النية، لصلاة الحب الإلهي.

٧ – صلاة الحب الإلهي هي سكون الضمير المتأله الذي قد ارتسم (كلية) بالله، ويختلج ويلغلغ خفياً بحس الذهن.

٨ – وإن كانت درجة الحب الإلهي أرفع من الصلاة، إلا أنه من دون الصلاة والتضرع والدموع المحزونة الدائمة مع السهر وبقية أعمال النسك لا يُقتنى الحب الإلهي.

٩ – الحب الإلهي الذي (يُقتنى) بالأعمال الدائمة والصَلَوَات والدموع والميتوتة من الكل، يرتسم في القلب الطاهر مثل صورة الملك المرسومة في الدينار. وكما أنه لا يمكن أن ننظر الدينار بدون أن نرى أيقونة الملك، هكذا أيضاً لا يمكن للذي قد ارتسم وابتُلع بالحب الإلهي أن يشخص نظر ذهنه في قلبه وقت الصلاة دون أن يحس ذهنه بسرِّ الحياة الجديدة وينسى ذاته ويصمت بالدهش.

١٠ – لا تضل أيُّها الإنسان الحقير، ولا تعجب وتنتفخ بالظنون. ليس هذا لك ولطبعك الميال، ولا هو لإرادتك الصالحة وإفراز أعمال النسك، بل هو إنعام النعمة التي تريد- بمذاقة الحياة الموضوعة في الصنارة الرُّوحية – أن تصيدك للحياة الجديدة العقلية، إن تشاء نفسك أو لا

تشاء. وفي الوقت الذي تتصفى فيه وتُختبر بكور التجارب والأحزان والضجر، قم أنت في ذاتك وأبعدها عنك؛ ومن دون الصلاة والصبر ما يمكنك ذلك.

١١ – افهم أيضاً هذا: إنه حتى العشارين والزناة لا تهدأ النعمة من أن تدعوهم وتوقظهم وتجتذبهم للتوبة، وتذيقهم مأكول الحياة بصنارة روحية جاذبة إياهم للحياة. وهي لهم ولنا نحن أيضاً أن نطيع الحق والحياة الجديدة العقلية أو (نخضع) لضلالة الآلام والخطية.

١٢ – مَن هو كفؤ أن ينعت أفعال النعمة التي بمجاذبات الرُّوح بعربون كنز البنوة الذي قبلناه داخلنا بالعماد المقدس تذيق طفولَيْتَنا سراً من وقت لآخر بحاسة الذهن، وبحلاوة مجاذبات الرُّوح أيضاً تجذب بساطة نقاوتنا إلى أعمال التوبة ومعرفة الحق بمصاعد الرُّوح في القلب؟

١٣ – مَن يجسر أن ينعت (عطر) نبات السلامة الذي ينمو بغتة من داخل القلب وينسكب على النفس وينفرش على الأعضاء، فتهدأ حركات النفس والحواس على غير العادة، وتنذهل الأفكار وتبقى بغير فعل؟

١٤ – من يقدر أن يهدس على نمو الفرح الرُّوحاني الذي يختلج في القلب بينما ترقص حركات النفس ببهجة وبشاشة على غير العادة؟

١٥ – من هو الذي ذاق حلاوة الحب الإلهي الذي يختلج في القلب ويحلي حنك النفس فتسكر وتنسى ذاتها من قوة لهيب المحبة الإلهية؟

١٦ – من هو كفؤ أن يعدَّ نُموَّات الأفهام والهذيذات الرُّوحانية التي تصعد وتنمو بالنعمة بمصاعد القلب (مز٨٣:٥) وتحسّ بنور الضمير بالقوات الرُّوحانية المحيطة الفاعلة خفياً في طبائع الخليقة، وتجوز بالتصور على عناية الله وتَدْبِيره بهذه (الطبائع) جميعها، وتبقى هي (أي النفس) في دهش عميق في أسرار الله الخفية التي لا يُنطق بها؟

١٧ – من هو الذي يقدر أن يُخبِّر عن مصاعد الرُّوح الكائنة في القلب عندما يسكر الذهن في سيرة السكون من وثبات الحرارة؟ أو من يقدر أن يتكلم عن نور التاؤريا المشرق في القلب من قراءة الكتب ومن الهذيذ بالصَلَوَات الحارة المتواترة؟

١٨ – من هو الذي أحس بالنعمة بالحزن الحاد الذي ينمو بغتة من القلب ويصعد إلى الرأس فتدمع العينان، وتجري الدموع المفرحة وتسري السخونة باللذة في جميع الأعضاء من الحلاوة المختلجة في القلب، وتضمحل الآلام وتصمت الحركات والأفكار بالدهش؟

١٩ – وإن كان الشيطان يُشبِّه بضلالته جميع أفعال الرُّوح، ولكنه بالأكثر يشبِّه في هذه (الحالة)؛ لأنه بحسس الكلى والأعضاء السفلية يدغدغ ويصعد إلى فوق، ويسكب سخونة لذة الدغدغات الشهوانية في جميع الأعضاء، ويبقى الإنسان بغير حس.

٢٠ – أي ضمير كفؤ أن يدرك شرف نور الفهم والعقل الذي ينبسط كالشمس الجديدة في رقيع القلب، ويفرز ويُظهر للنفس الحق من الطغيان؟

٢١ – من يهدس على نمو الرُّوح داخل القلب الذي من غير الإرادة يفرح ويسبِّح بلغلغة الرُّوحانيين، بحس الذهن بفعل النعمة؟

٢٢ – أي ذهن يستطيع بقوة نفسه أن يقبل في وقت الصلاة نور النعمة على نور عدم الآلام باستعلان الرُّوح فوق الطبيعة بالرحمة؟

٢٣ – من هو الذي افتقدته النعمة في وقت التزمير والصلاة وتغير بغتة وصار بخلاف ما كان أولاً، فسكت اللسان وتخلفت حركات النفس وهدأت بذهولٍ بفعل النعمة؟

٢٤ – من هو المتوحد الذي عرف تلك الرائحة اللذيذة التي تفوح بغتة وتجدد ضميره وتستأصل الآلام والحروب، وتوقظ النفس لتسبيح جديد، ويميز تلك الرائحة النجسة الرديئة التي تفوح بغتة وتحرك الأفكار النجسة وتلهب الآلام؟

٢٥ – الشم، وَاحِدة من الخمس حواس، هو الذي يقبل الإحساس بفعل الرُّوح ويفرز مع الذهن الأفعال إن كانت يمينية أو شمالية.

٢٦ – إن كان الشياطين يشبِّهون ضلالتهم للسذَّج في الابتداء بفعل النعمة، إلا أن الْعَارِفِين في طريق سيدنا الذين تجربوا بهذه التجارب وسقطوا وقاموا بالنعمة يفهمون حيلهم الماكرة. لأن فعل النعمة يبتدئ بالأكثر من القلب ويصعد إلى فوق وينشِّف الرأس والمخ ويضنك العظام؛ أمَّا فعل الشيطان فيبدأ بالأكثر من الكلى والأعضاء السفلية التي هي آلات الشهوة، وتصعد الأفكار إلى القلب والرأس وتهلك الإنسان.

٢٧ – وتبدأ النعمة أيضاً في وقتٍ من القراءة، وفي وقتٍ من الهذيذ، وفي وقتٍ آخر من الصَلَوَات الحارة. ولكنها تبدأ بالأكثر من الاشتياق والأمل والهدس بفضائل السيرة العالية المسطورة للروحانيين. (حينئذ) تُصوِّر في الضمير الأمور العالية الكائنة للقديسين، فيشخص فيهم دائماً ويتشوق للتشبه بتَدْبِيرهم. وكل ما كان مثل هذه بالأكثر يبدأ من القلب.

٢٨ – وأمَّا الأمور المضادة فالشياطين ترصد لها الأوقات ويأخذون منا مادةً وفُسحة، وعندما يحسون أن أعضاء النفس قد احتَّرت بهذيذ الفضائل وبالاشتياق بالإلهيات والتهبت بالتضرع والصَلَوَات الحارة، فهم للوقت يحركون بحيلهم الأعضاء السفلية بشهوة لذيذة، وتسري تلك اللذة إلى فوق، وعندما تحمى حواس الجسد تبقى الأعضاء بلا فعل، وهذا الأمر بعد جهد يفرزه الكاملون.

٢٩ – صدقني يا أخي القارئ إن العدو هو الذي يفعل هذين الأمرين في الإنسان على الدوام. ولو كان يُسمح له من الله أن يعمل (ما يشاءه) بالكلية في الإنسان ويقلب فعله الشرير إلى شبه الصلاح ما كان يُفرَز قط من فعل ملاك النور كما قال بولس الرسول. ولكن عليه اضطرار من

الله أن يغيِّر قتاله وأفعاله.

٣٠ – كم من وقت عندما تبدأ النعمة أن تعمل في القلب، يبتدئ الشياطين أيضاً أن يحركوا أفعالهم بتحيلٍ في أعضاء الشهوة. وفي هذا النوع (من القتال) تقبل حاسة الشم الإحساس بالرائحة اللذيذة والرائحة النجسة، فتمتلئ النفس سلامة واضطراباً (معاً)، وحب وتكدر، ويتقسم فيها النور ويختبل الذهن فما يستطيع أن يفرز الحق من التشبه والطغيان. وتتخلف الأعضاء عن الفعل؛ وهذا النوع هو أصعب من جميع الأشياء.

٣١ – لأن الشيطان بالأكثر يغير رائحة ألم النجاسة عندما يحركها في حاسة الشم. فكم من وقت برداءة صناعته يشبِّه الرائحة النجسة الرديئة بالرائحة اللذيذة الطيبة لكي يضل السذَّج عندما يتصور هذا الشبه في الضمير ويُغرِّق النفس الشقية باللذة السمجة.

٣٢ – إن غيارات أنواع الروائح التي تعرض من أفعال الشياطين هي بلا حدٍّ، كما أن غيارات أنواع أفعال الصلاح والسرور هي أيضاً ليس لها حد. ولكن كل وَاحِد يعرف على قدر ما جرَّب أو تَسلَّم من آخرين.

٣٣ – الذين يتشوقون لعمل الكمال يُسمح بالأكثر أن يُجرَّبوا بقوةٍ بقتال الشهوة لكي يُختبر حبهم للحق إن كان صادقاً. كما أنهم يُمقتون من نياتهم دائماً ويتدربون بدوام عمل الاتضاع والصبر، لئلا يتعظم قلبهم بالغرور وينتفخون ويسقطون في عظمة الشيطان.

٣٤ – فإن كنتَ تسأل كيف يمكن أن النعمة والشيطان يفعلان في نفسٍ وَاحِدةٍ بالسوية ولا يضمحل الشيطان من أمَّام النعمة؛ وأنا أيضاً أسألك: كيف يمكن أن البرَّ والخطية يعملان (معاً) بضمير وَاحِد وإرادة وَاحِدة وما تُستأصل الخطيئة (أمَّام) برِّ الصدوقية؟ ولكن هكذا هي أحكام رَبَّنَا أنه يترك المختارين والقديسين يتدربون ويتخرجون وينمقتون بتجارب كثيرة مختلفة لكي يحسُّوا بنعمة حافظهم ومُعتقهم برحمته الغزيرة.

٣٥ – أمَّا الشيطان فبكثرة دهائه ما يفتر من أن يشبِّه طغيانه بأفعال الرُّوح، ويحتال أن يعطي ضلاله للسذَّج والمختارين كشبه الحق. كما كتب بولس الرسول أن الشيطان يتشبه بملاك النور، وكذلك خدامه أيضاً. والأب مرقس كتب يقول إنه يوجد فعل للنعمة غير معروف للأطفال والمبتدئين.

٣٦ – وأمَّا نحن فينبغي لنا أن نخرَّ قدام نعمة الله ونسأل سيدنا بحزن الصَلَوَات والدموع ليخلصنا من ضلالة الشيطان ويسترنا تحت كنف نعمته وحقيقة مراحمه. ونُصعد له ولأبيه وروح قدسه التسبيح الدائم بتضرع ليحفظ سيرة تَدْبِيرنا في سبله الرُّوحانية خفياً وظاهراً بغير أذية سائر أيام حياتنا.

٣٧ – هذه كلها وأكثر منها مما لا يُدرَك ولا يوصف تذيقها نعمة الرُّوح الْقُدُس للذين يداومون السكون بقصد مستقيم كل مدة حياتهم بغير مَفَزَّات (أي بدون وَثَبات). فهي تعمل

وتجذب بأنواع مختلفة وغزيرة لتعزية الساذجين وتجتذبهم للحياة الجديدة في الله.

٣٨ – وهكذا أيضاً الشيطان يجذب ويوسوس ويخدع ويعمل بطغيانه بلا فتور بوجه البرِّ لعله يستطيع أن يضل المختارين.

٣٩ – هذه هي أثمار سكون القلاية، وهي التي كتب عنها الآباء أن قوة سلامة السكون تحل عليك.

٤٠ – لو كان عقل السُذَّج والورق فيه كفاية لقبول الحق لكان الآباء الرُّوحانيون قد كتبوا الأمور العجيبة الكثيرة التي تحصل لهم من نمو القلب بتحريك الرُّوح بفعل النعمة، تلك التي (يحظى بها) الذين قد تنقى قلبهم من الآلام ومن الشرور وصاروا مسكناً لله.

٤١ – تُقتنى وتنمو زيارات الرُّوح في البداية في قلب المتوحد الجالس في الهدوء تحت ظلال الرب. ويكون ذلك أولاً من استعداد نيته، عندما يغصب هو نفسه ويقسرها على التَدْبِير في السكون، ويدعو ويلتمس مراحم النعمة أن تأتي إليه وتساعده في الخفاء والظاهر، ويحترس في عمله ويتحفظ من جميع مفاوضات الوجوه ومن كل هذيذٍ غريب خارج عن تَدْبِير السكون، ويصلب ضميره ليلاً ونهاراً متشوقاً بتأمل رجائه أن يقبل العزاء الخفي من المسيح. ويحرص على القراءة المُفرزة بالجلوس المنفرد في كوخ ضيق مظلم، ويجمع عقله ويضبطه إليه من كل تذكار يكون خارجاً عن السكون بالصلب الفكري. ويكون مشتاقاً دائماً للعزاء الخفي من المسيح مترجياً ومنتظراً في كل حين مراحم النعمة بالصَلَوَات الحارة المتواترة النامية بفرح من حرارة القلب بلا انقطاع.

٤٢ – المتوحد الذي يشتهي ويشتاق لاقتناء الفضائل الرئيسية داخله (مع) أثمار الرُّوح التي كتبها الطوباني بولس، (يعرف أن) تلك الأشياء التي وجدها القديسون في كل الأجيال داخلهم (قد اقتنوها) بالصبر الدائم والضوائق الصعبة والتجارب الضاغطة التي قاسوها في السكون بقصد مستقيم وحب روحاني غزير لجميع الناس، ومن بعد الهذيذ الكثير بالصلاح والحب والرحمة قد انقلع ذِكر الشر من قلوبهم وما عادوا يعرفون شراً بعد كما كان داود.

٤٣ – المتوحد الذي هدَّأ ذاته وسالم نفسه مع الكل واتفق الثالوث الذي فيه (أي النفس والجسد والرُّوح)، هو مفتقر إلى جلوس الحرية في سلام السكون والانتظار والتأمل كل ساعة لعزاء الرُّوح. وهو محتاج أيضاً لمحقرة الذات والانحطاط (أو الانسحاق)، لأن هذين يعتقان الإنسان من الغيرة والخباط. كذلك هو مفتقر إلى انقباض الضمير وجمع الأفكار من الطياشة والاحتراس الكثير من فعل الضلالة الشيطانية. وهو محتاج أيضاً لهداية أب روحاني يرشده يكون قد مارس الأمور بنفسه، وقع وقام.

٤٤ – حركات الغضب والاضطراب والخلق والحسد والشر تنمو في النفس من القلب الشرير الذي يقبل الأفكار الشريرة بسهولة إن كان من الذِكر أو من الحواس، ويهدس بالشر على قريبه أو على كل من كان، ولا يزجر أفكاره ويقلبها لهذيذ صالح جيد؛ وضميره يقبل الهذيذ

الرديء حتى ومن غير ضرورة تغصبه لذلك.

٤٥ – الموضع الذي فيه حركة الغضب والخباط والخلق والحسد والشر لا يمكن أن تثبت أو تقام فيه الفضائل والصالحات الكائنة بمصاعد القلب. فلو أنها وُجدت فهي تنحجب بظلمة الغضب والغيرة والتكدر.

٤٦ – أعرفُ إنساناً قديساً عندما كان يلاقي أحداً مغلوباً من شيطان الغضب أو من ألم النجاسة كان بالشم يفرزه.

٤٧ – وإنسان آخر شيخ تغافل بإرادته عن تناول الأسرار المقدسة، فنظر في حلمه أنهم يوزعون الأسرار على كل الشعب أمَّا هو فلم يعطوه شيئاً، ولما جاهد لكي يتناول أخذ خبزاً ساذجاً.

٤٨ – أخبرنا موسى تلميذ القديس يوحنا المتَّاوي: «إني في أحد الأيام نظرت أحد الإخوة نائماً في شقٍ (أو مغارة) بالجبل وناديتُ عليه كثيراً فلم يُجبني. ولما أعلمت الشيخ أمرني أن أحمل له قليلَ خبز وماء وحذَّرني أن أكلمه. وبعد ستة أيام جاء هو في اليوم السَّابع إلى الشيخ وأظهر له أفكاره، فوعظه الشيخ ونيَّحه. وبعد أن أطلقه سألت الشيخ عن أحواله فقال لي: «إنه من يد السراق الذين بداخله (أي الأوجاع) وجد قليلَ راحةٍ فنسي الخبز والماء وهرب إلى السكون لكي يستريح قليلاً».

٤٩ – مضينا أنا وَاحِد الإخوة إلى جبل متَّى إلى عند الشيخ، وعندما قبلنا وسألنا عن الإخوة وعن جبرائيل رئيس الدير عرّفناه أن إنساناً بدوياً اغتاظ منه ويطلب أن يقتله. فنهرنا الشيخ وحرّك ذاته ودخل إلى قلايته الجوانية ومكث بعض الوقت[٧١]. وعندما خرج وقف بعيداً عنا فما قدرنا أن ننظر وجهه لأنه كان يتقد مثل النار، فكلمنا ببشاشة وقال: هل البدوي أحمر الذقن؟ قلنا له:نعم، فقال: قد مات. ولما رجعنا وجدناه قد مات بغتة.

٥٠ – معرفة الحق لا توجد من غير التدابير المتقنة. والتدابير المتقنة لا توجد من دون معرفة الحق والأعمال.

٥١ – الإيمان الحقيقي لا يُقتنى من دون طهارة التدابير المتقنة. ونظر النفس السري مفتقر إلى الإيمان الحقيقي ومحتاج إلى التدابير المتقنة والزكاوة وعدم التألم.

٥٢ – تيؤريا الطبائع الرُّوحانية وَاحِدة هي في المعرفة. وبالحرارة يرتفع وينحط الناس، وبالحرارة وبتيؤريا المعرفة يُفرزون. ولهذا فهم يُفرزون أيضاً بتدابيرهم.

٥٣ – بشهوة العين خرج آدم من ميراثه، وبشهوة الحب لصليب يسوع يرجع الناس إلى ميراثهم الرُّوحاني.

[٧١] وبقا طويلا (المترجم).

٥٤ ــ كما أن العين تنظر أشياء مختلفة والأذن تسمع أموراً متغيرة واللسان أيضاً يتذوق مذاقات متنوعة، هكذا الذهن أيضاً يغيِّر البلاد والمعرفة إذ يعبر بتصوره من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال مقترناً معه الذِكر وهدس الأفكار والفهم ليصطاد الصيد. ولأنه يخرج بحرية إرادته من بلد السلام ويدخل إلى بلد الغيرة والغضب، فكل موضع يدخله يتغير، ومعهم يتقلب ويتفاوض كما في السوق حسبما يعرض له.

٥٥ ــ نطقية النفس هي بطبيعتها مُحبة للزيادات، ولهذا فهي تلتهب بالشهوة وتزدري بما قد اقتنت وتعلمت وتسرع إلى العظائم لتدركها ولو كان وجودها عسراً.

٥٦ ــ كما أن الذي يغطس في الماء إذا كان غير معتاد فإنه يتضايق ويصعد لكي يتنفس الهواء، هكذا أيضاً العقل الزكي عندما يغطس بالنعمة (بعيداً) عن العالم، ويصير فوق الطبع في الأسرار العقلية التي للروح، فهو إن لم يكن قد تدرب، فإنه يتضايق وينتفخ ويدهش ويصمت ويرجع لَيْتَنفس في بلد غربته (أي في العالم).

٥٧ ــ عندما يملك بغتةً على جميع حركاتك وأعضائك سلام وهدوء من غير العادة، وتبتهج نفسك بالفرح ويتخلف عنك كل هذيذ وفكر، اعلم أنك في تلك الساعة قد أُهلت لفعل النعمة.

٥٨ ــ وإذا كنتَ من غير سببٍ (خارجي) يشتد عليك الضجر وصغر النفس، فتتكدر نفسك وتختنق وتتعذب بحزن الضمير، اعلم أنك أنت صرت السبب، وأن النعمة قد أسلمتك للمُعاقِبين من أجل منفعتك لكي تتحكم في الطريق الملائكية التي هكذا تُقتنى. فإن كنتَ تتجلد بغير تذمر وتقبل بشكر وتفرح في داخلك، فترجى بالأمل أن تقتني فعل النعمة.

٥٩ ــ الضمير المنفرد الذي بأعمال دم نفسه قد هدَّأ ذاته وسالم كل أحد وقبض نفسه من الكل بالسلام وانتقل من الجميع بتجديد عقله، وصار وَاحِداً باختفائه من الكل لكيما يتحد مع الوَاحِد بالسر فوق الطبيعة، هذا إذا ما وُجد داخله ضميرٌ غريب أو فكرٌ وهذيذٌ ملتوٍ برداءة يكون قد قبله بالحواس أو بالتذكار، فإنه يمنعه من المفاوضة مع الوَاحِد ويتعطل هو من الاتحاد مع الوَاحِد بالرُّوح بما يفوق الطبع.

٦٠ ــ ضمير المتوحد لا يقدر أن يتفاوض بالصلاة مع الوَاحِد سرياً ما دام بداخله ضمير آخر أو فكر وهذيذ غريب.

٦١ ــ لا يمكن التفاوض فوق الطبع بسر الصلاة مع الخالق ومع خليقته معاً. لأنه إذا ما أراد العقل أن يدخل بالسر عند الوَاحِد؛ فإنه يتعوَّق من الغرباء الذين عنده. وإن تجاسر يُقال له بمحبةٍ مثل الْعَظِيم موسى: اترك عنك جميع من هم معك وتعال إليَّ منفرداً. السر هو خفي، وبالتسارر (أي سرياً) يُنطق به بالرُّوح بما يفوق الطبع، ويُذاق بفعل النعمة: «السرُّ لي، السرُّ لي»[٧٢]، وأيضاً السرُّ لأهل بيتي.

---

[3] اش ٢٤: ١٦) حسب نسخ الكنيسة التي تقرن يوم الفصح بيوم الصليب.

٦٢ – كم من وقتٍ يتعب الضمير في طلب تاؤرية ما ولا يجدها. وحالما يقوم للصلاة يتحرك فيه ذِكر وجدانها، فإن وجدها ضيَّع أثمار الصلاة، وإن لم يستضيء بها يندم ويتكدر ويخيب من مفاوضة الصلاة.

٦٣ – واضح إذن أنه في وقت الصلاة الرُّوحانية ليس اثنان بل وَاحِد: ضمير وَاحِد بسيط مسالم هادئ هو الذي يقبل سر النعمة بالرحمة. فإن كان معه شيء غريب لا يستحق ذلك مثلما كان أولاً.

٦٤ – مثلما كتب القديس باسيليوس بالسرِّ إلى اغريغوريوس أخيه أن المجمع الذي به تعمل نفس المتوحد الفضائل هو الفم واللسان وقلايته التي يرتل فيها ويقدِّس خفياً بلسان الرُّوحانيين تسبيحاً ملائكياً بلا فتور بالقلب والعقل. ومن غير اتفاقها مع بعضٍ باطل هو كل العمل النفساني.

٦٥ – مادمنا في المجمع البراني، نُعوِّد لسان عقلنا على الهذيذ الرُّوحاني لكي ينبسط لسان العقل ليمجِّد بشبه الرُّوحانيين ولا نوجد بطَّالين عندما نهدس بتخريف ضميرنا. لأن الرُّوح الْقُدُس يفعل فينا بالأكثر ويصلي عوضاً عنا في سكون الضمير والأفكار بسرٍّ لا يُنعت كما كتب الرسول الطوباني.

٦٦ – تدابير الضمير هي التي تُهدئ وَتُثبات حرارة الأعمال الجسدانية.

٦٧ – يسهل اقتناء البساطة باتضاع الحواس مع الازدراء بواسطة نار حرارة الأعمال الجسدانية أكثر من اقتناء تدابير الضمير بواسطة الهدوء والذهول والصبر لأن ذلك عسرٌ جداً.

٦٨ – الذي له عزاء من الحواس البرانية لا يتضيق من الأفكار الداخلية؛ لأن الأفكار الداخلية تتشتت بالملاقاة النافعة والمخسرة التي تدفعها من موج إلى موج فلا تختنق النفس من الأفكار.

٦٩ – الذي له عزاء خفي من هذيذ تقلُّب الأفكار الداخلية وبتاؤرية تصور عقله يتجسس السماء والأرض وكل ما فيهما لكي يزيد على علم معرفته علم وجود معرفة جديدة تفيض عليه من كل ناحية، فهو ليس في حاجة إلى العزاء الذي من الحواس البرانية، (ولا إلى السلام الخارجي)؛ لأن الاثنين هما أنقص من الحق وغريبين عن الوحدة. فأي منفعة نقتنيها من السلام البراني إلا أن يملأ قلبنا من تردد شلش الأفكار؟

٧٠ – نمو الصلاة الرُّوحانية التي للعقل والكائنة بالنعمة هذه علامتها: أنه بكل نسمة يتحرك في القلب ذكر الله بحلاوة العقل، ويلغلغ بلسان الرُّوحانيين ويقدس التجديد [إذ يصرخ قائلاً: «قدوس» بغير انقطاع]، فيما تكون الأفكار والضمير في هدوء فوق الطبيعة.

٧١ – وَاحِد من متوحدين كثيرين قَبِلَ هذه الموهبة جزئياً، وآخر يقبلها بدرجةٍ أقل إلى حدٍ ما.

٧٢ – إلى أن تسكر النفس ويُستهزأ بها من الآخرين وتُداس وتُحتقر من الناظرين ليس بقليلٍ، ولم تُغلب على قلبها (أي لم تتضايق) ولم تبالِ، لا يتجدد الضمير الجسدي ولا تضعف الآلام ولا تنقطع من القلب تذكارات الشرور الأَولى مع تقلب الأفكار بالظنون ولا تتأسس أو ترتبط النفس بكلية الرجاء بالله. لأنه ما دامت هذه (الأشياء) موجودة فلا تكون هناك حرية ولا عدم آلام.

٧٣ – اشتهيتُ أن ألقى متوحداً هادئاً نقياً في حبِّه منبسطاً مع كل أحد وضميره ثابت (من جهة كل أحد) وهو وحيد في كل وقت، وبكل صدفة تلاقيه يَثبت عدم تألمه بغير ميالة فما وجدت.

٧٤ – إن كانت الآلام لم تضعف من داخل، والحواس ما زالت تتألم من خارج، إذ أنه بواسطتها يقبل الضمير تغير الميالة عندما يصادف الملاقاة العارضة، فإن الذِكر والعقل إلى الآن لم يموتا ولا قأمَّا واتحدا بالرُّوح.

٧٥ – المتوحد الذي في زمان الطاعة وعمل المجمع يختار لنفسه راحة حرية البنين، فهو في زمان الرَّاحَة الحقيقية بالعدل يبكي ويجوع وينضنك بالندم.

٧٦ – المتوحد الذي في زمان جمع أغمار الفرح يملك عليه الحزن والندم هو شاهد على نفسه أنه في زمان الزرع وخضوع طاعة المجمع لم يصبر على صعوبة البرد والجليد ليشق بالمحراث الرُّوحاني خطوطاً عميقة في أرض قلبه ليحفظ فيها بذار خبز الحياة، وهو الآن في زمان الحصاد ينضنك بالجوع.

٧٧ – صعبة جداً هي أعمال الضمير (أكثر) من أعمال الجسد، وإن لم يقرنها مع بعضها البعض فهذا يكون أصعب تعباً. أمَّا اقتران عمل الجسد مع عمل الضمير فإنه يُقني للمتوحد نوراً وحياة وتجديداً.

٧٨ – الذي لا يعترف بقيامة الجسد هو لا يعترف بالأعمال الجسدانية. والذي لا يعترف بالتجديد المزمع أن تقبله النفس فهو لا يعترف بتَدْبِير العقل. أمَّا الذي يعترف بالتجديد المزمع أن يقبله الاثنان على السواء فهو يعمل جاهداً بتربية المنزلتين (أي أعمال الجسد وتَدْبِير العقل) معاً.

٧٩ – كثيرون يعملون أعمالاً كثيرة بغير قصد مستقيم. أمَّا الأثمار الحقيقية إنما تخرج من القصد وليس من الأعمال.

٨٠ – جميع عمل المتوحد إن لم يكن مُصوَّباً لغرض مستقيم بحفظ الوصايا هو عمل بطَّال. وكل عمَّال غالب إن لم يغلب آلامه بشهادة النية غلبته هي انغلاباً ورذلاً لنفسه.

٨١ – ليس للمتوحد غلبة ونجاح إلا أن يقهر آلامه. وليس للمتوحد قهرية (أي انكسار) إلا أن ينغلب هو من الآلام المقاتلة معه.

٨٢ – المتوحد الذي يغلب قريبه بتحايل الطغيان، هذا قد خاب من تحقيق صدق نيته.

٨٣ – ثياب العرس الرُّوحاني الذي أعده المسيح للقديسين بني النور هي عدم التألم.

٨٤ – الثياب الوسخة التي تمنع المتوحد من الدخول لعرس القديسين هي الآلام.

٨٥ – أمَّا أن لا نتسخ بالآلام فهذه ليست لنا، وأمَّا أن نغتسل ونتنظف بصابون الأعمال والنسك ودواء التوبة التي أنعم بها الله على بيعته من قِبل مراحمه لكي نغسل ذواتنا من وسخ الآلام، فهذه (متروكة) لحرية إرادتنا.

٨٦ – لا يمكن أن نغلب الآلام ونتخلص منها بقوة أنفسنا بل بمراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح المسجود له، الذي صار لنا مثالاً صالحاً بالأعمال النشيطة. فلنطلب الرحمة والعون بالصَلَوَات والدموع الغزيرة.

٨٧ – أعمال التوبة وصَلَوَات الدموع باتضاع وانسحاق قلب لا تقلع الآلام من النفس فقط؛ بل ومن الموت تقيمها.

٨٨ – حفظ الحواس يقطع الخطايا. وحفظ القلب يقطع الآلام التي هي أب ووالدة الخطايا.

٨٩ – المتوحد الذي يجاهد مقابل الآلام بحفظ الوصايا ليقلعها من القلب لا تهدأ النعمة من أن تساعده خفياً.

٩٠ – إذا ما بدأت الآلام تضمحل وتضعف بقوة المسيح، فإن النفس تنير ويتشجع الضمير بالأعمال على الآلام، فتكون مثل الضعيف الذي انضنك بالأمراض مدة من الزمان ثم بدأ الطبع يتقوى على ألم المرض. فإن حَفِظَ (المتوحد) حقوق السكون وحراسة القلب فهو يغلب الآلام ويؤهَّل لعدم التألم.

٩١ – أجنحة النفس هي عدم الآلام، وأوساخ النفس التي تمنعها من الله هي الآلام.

٩٢ – ليس للمتوحد برٌّ وخطية أو تنعم الملكوت وعذاب الجحيم؛ بل نور عدم الآلام وظلام في الآلام.

٩٣ – النفس التي بنعمة الله جاهدت بالأعمال الجسدانية والنفسانية مقابل الآلام والخطية والشيطان ونجحت بالمعونة الإلهية، عندما تنتقل من الجسد تتنيح في المنازل التي أوصلتها إليها لواحظ عدم الآلام التي اقتنتها إلى يوم تجديد الكل (أي القيامة العامة). وما دامت هي متقلبة في الجسد فإن معرفتها تسري إلى بلد السلام وبيوت النور، تلك المواضع التي ترفعها إليها أجنحة عدم الآلام.

٩٤ – الشياطين يحركون الآلام في النفس لكيما بلذة دغدغة هذه الآلام يُغرِّقون النفس الشقية بتجاوز الوصية في الأمور غير الواجبة حتى تكون (دائماً) مغلوبة من الآلام. وعند انتقالها من الجسد يلاقونها في الهواء ويخطفونها إلى بلد الظلمة الميراث الذي لهم.

٩٥ – حسب قول الآباء فإن النفس تحس ببلد ميراثها أمَّا ههنا أو في وقت خروجها.

٩٦ – أكثر الآباء يقولون إن نفوس الصديقين يُسبِّحون الرب في الموضع الذي يكونون فيه. وآخرون يقولون إنهم كمثل مَن هم في نومٍ لذيذ يستريحون في مظلاتهم يختلجون بلا انتقال.

٩٧ – أنفس القديسين بالمسيح الذين قد استحقوا بتجديد ضمائرهم أن يقبلوا ههنا من وقتٍ لآخر استعلان الرُّوح الْقُدُس بما يفوق طبيعة الجسد، يقبل ذهنهم – بحسٍ غير منطوق به – عربوناً لمقدار ما سيكون لهم من الإدراك هناك، وبأي حال سيوجدون في منازلهم: متيقظين أم راقدين إلى حين تجديد العامة.

٩٨ – إن كان الإنسان من باكر إلى العشاء يجتهد بحرص ويعمل الفضائل، ولكن فليجتهد بالأكثر في وقت رقاده في النوم أن يضع البخور المختار الذي هو الهذيذ الصالح على مجمرة قلبه لكي يرفع البخور طول الليل حتى ينعتق من الأحلام السمجة والمناظر الليلية.

٩٩ – وإن كان الصديقون يعملون بسيرة تَدْبِير الفضائل من شبابهم إلى شيخوختهم، إلا أنهم عندما يغرقون في نعاس ما قبل الموت يعملون بالأكثر لكي يصعد بخور الفضائل والحب الإلهي في أنفسهم إلى حين ينتبهون في تجديد العامة.

١٠٠ – تَفكَّر في هذا المثال: أن الملك أرسل كِتَاباً إلى أخيْن بأن أحدهما في الغد يوضع على رأسه إكليل رئاسة الكهنوت، والآخر في الغد يقبل خروج قضية الموت، ثم غرق الاثنان في النوم. فمعلوم أن كل وَاحِد منهما بحسب ما تشهد له نيته وهذيذه بفرح أو بحزن هكذا يهدس بخيالات الأحلام.

المَيْمَر الْخَامِس

١ – الله كل شيء يريده يدركه، والعارف الحقاني كل شيء يدركه يختاره.

٢ – ليس كل شيء يريده ضميرنا في طبيعتنا قوة أن تعرفه؛ بل إن كل شيء في مقدور طبيعتنا أن تجده فإن ضميرنا أيضاً يستطيع أن يدركه.

٣ – الكنز غير المسلوب المُقتِني الحياة هو قدرة الإنسان أن يعرف ذاته ومنزلته ويتميز في آخرته.

٤ – النفس التي تحزن بالعوارض التي يصادفها بها الطبع هي عادمة من العزاء الداخلي.

٥ – المتوحد الذي كَمُلَ بالمعرفة الداخلية، قد ارتفعت نفسه عن الذين يفرحون ويحزنون من الخارج.

٦ – المتوحد الذي تدرَّب بالصبر واقتنى اتساع النفس ليحمل الصعوبات المصادفة إياه بغير تكدر، فهو عوض العزاء الذي من الأثمار الداخلية يؤهَّل عقله لقبول أسرار الرُّوح الْقُدُس.

٧ – الكِتَاب الطبيعي القلبي الذي هو طاهر ونقي طبيعياً يعطي معونة كثيرة للكاتب الخارجي لكي بتأديب التعليم يكتب عليه تَدْبِير معرفة الحق.

٨ – فرق كثير بين الكِتَاب الطبيعي النقي صِقالَهُ من الآلام وقصده غير ملتوٍ من التألم، (وبين كِتَاب تأثرت نقاوته بالآلام وتبدَّل قصده بفعل التألم)؛ مثل الفرق بين الورق المصقول جيداً والورق الردئ غير المصقول والرَّاحَة التي يحصل عليها الكاتب البراني (عندما يكتب عليه).

٩ – الورق الذي تُكتب عليه الكتب المقدسة لا يُصقل وينقى من دون الكلس المحرق المنظف، ولا يقبل الكِتَابة ورسم (الصور) والأحرف إلا إذا انجرد منه الشعر وكل شيء يوسخ بالكلس الحاد الذي يُعامَل به لكي ينقى ويصلح للكِتَابة.

١٠ – الكِتَاب القلبي لا يُصقل ولا يتنقى من الآلام لكي يصلح للكِتَابة عليه إلا بالحرارة ووثبات الغلوة وقسر الذات والتغصب في تَدْبِير الأعمال المؤلمة والمحزنة؛ ولا يصنع الأثمار التي كتب عنها الطوباني بولس ولا يقبل الرسوم الإلهية إلا إذا رجع وهدأ بالحب المغبوط الرُّوحاني، فيستريح من شغب الحركات المحزنة التي تزعج من الخارج والداخل، ويهدأ من كل انفعال.

١١ – الموضع الذي يشخص إليه نظر العقل الداخلي، إلى هناك يمضي الذهن وفيه يطيش ويتنيح، ويرتبط الذهن الذي يهدس فيه بمن يحبُّه.

١٢ – الانحلال من الكل هو الارتباط بالوَاحِد، ولا يمكن الارتباط بالوَاحِد إلا إذا انحل الضمير من الكل.

١٣ – إن كان ما فيك قوة أن تعتق ضميرك من طياشة الأفكار لكي يكون لك ضمير مصلوب إلى الوَاحِد بمحبة، كن مفسراً للكتب المقدسة واهدس بها، وفسّر بضميرك المَزَامِير والتسابيح والصَلَوَات والكتب بقصد مخافة الله روحانياً حسب قوتك. فبالهذيذ بها ينعتق ضميرك من طياشة تقلُّب الأفكار في الأباطيل، وتؤهَّل لجمع العقل؛ لأنه عظيم جداً هو سكون الضمير القريب لله.

١٤ – إن كانت سكَّة تنقلع بسكَّةٍ وعادةٌ بعادةٍ، فمعلوم أيضاً أن فكراً ينقلع بفكرٍ. وتنقلع (طياشة الأفكار من الضمير) بسكين تَدْبِير السيرة، أي بالاتضاع والصبر والنسكِ والسهر والميتوتة من العالم ومداومة الصَلَوَات التي تقويها وتثبِّتها قراءة الكتب على الدوام والهذيذ بالفضائل.

١٥ – يا من تطلب الهروب من الاضطراب الخارجي احترس من اضطراب تقلُّب الأفكار بداخلك. لأن الاضطراب الحاصل من تقلُّب الأفكار الداخلية النابعة في القلب والتي تختلج قبالة الضمائر هو أصعب جداً وأشر وأقسى من الاضطراب الخارجي الذي يصادف الحواس ويكدر القلب.

١٦ – إذا ما انحلَّ الضمير من التحفظ وزاغ عن الحق واندفع تابعاً الخرافة المتولدة من تقلب الأفكار في الأمور المضادة النابعة قبالة ذاك الذي حرَّك الفعل، حينئذ أكثر من جريان البحر ترتفع وتعلو أمواج جري بحر الضمير بأفكار الضلالة التي يظن بها أنها حقيقية وثابتة وواجبة ولائقة بعدالة قصد مخافة الله بوجه الفضيلة قبالة ذاك الذي سبَّب التحرك لبحر الضمير؛ فيبتدئ الإنسان بتزكية نفسه في ضميره بالعدل ويشجب رفيقه ويدينه ويزجره. ولكن لا ينبغي أن ننخدع بهذه الأفكار بل نضادها ونزجرها منذ بداية تحركها ونقمع وحشيتها الفاعلة بوجه فضيلة البرِّ قبل أن تخرجنا من بلد السلام وهدوء الحب.

١٧ – لا يمكن أن نحفظ وصايا الرب بتَدْبِير عدل الناموس، فهناك يقول: «عينٌ بعين وسنٌ بسن»، وهكذا، أمَّا نعمة المسيح فتأمر قائلة: «اغلبوا الشر بالخير»، أي «من ضربك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً»، «ومن يأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً».

١٨ – ليس في الضمير قوة أن يصبر على مضادة العدل والنعمة معاً؛ لأن العدل يحرك الغضب والغيرة بينما النعمة تسكب على الضمير السلام والحب والرحمة.

١٩ – لا يليق لضمير المتوحد الذي يسير تبع سلام قلبه أن يلوم أو يشجب إنساناً لا بالوجه ولا بالقلب؛ لأن بولس الطوباني يقول: «إنكم لستم تحت العدل بل تحت النعمة».

٢٠ – المتوحد الذي يقطع رأس النموَّات الأَولى للأفكار (حال ظهورها) هو مجاهد نشيط يؤهَّل بسهولة للنقاوة وينعتق من الطياشة.

٢١ – المتوحد الذي يتنازل مع الأفكار ويتفاوض معها هو عمَّال بالفسق خفياً داخل ضميره، ويعطي مادة (أو سبباً) للآلام لكي تتواثب عليه أخيراً.

٢٢ – المتوحد الذي قد انسحق قلبه بالنسك، وهو يشخص بنظر عقله على الدوام في المسيح ويتأمل بالرجاء كل حين لمعونة النعمة ويحرص على مفاوضة الصلاة ويحترس فيما يخصه، لا يطيش ضميره في الأباطيل ولا تجرحه سهام الشرير لتحرك فيه الآلام.

٢٣ – القصد المستقيم لتَدْبِير الضمير هو أن يشغف الإنسان بمحبة التعليم بقراءة الكتب ويستضيء بهذيذ أفهامها ويذوق حلاوة الأسرار الرُّوحية المخفية في الكتب. وليس هناك ما يمنع النفس من أن تسكر بالحب الإلهي إن كانت بتَدْبِير سيرة النسك تقطع الآلام ولا تنغلب من لذتها.

٢٤ – المتوحد الذي قصده مستقيم وضميره مصلوب إلى هذيذ وَاحِد، وقد قطع من ذاته كل هم وكل فكر لا يوافق ذلك الهذيذ الوَاحِد، وهو يهدس بلا فتور ويتفاوض ويتدرب ويعمل فيه مدةً (طويلة) من الزمن، فإنه يقبله (أي الهذيذ الوَاحِد) في قلبه من (فعل) النعمة والعادة ويرتسم فيه مثل الصورة المرتسمة على الدينار، حتى أنه في النوم أيضاً يهدس به ضميره ويتفاوض معه بغير إرادته.

٢٥ – الضمير المنقسم على ذاته الذي يعمل بقصد تَدْبِير ما يهدس فيه ويتفاوض، وفي وقتٍ (آخر) يقصد تَدْبِيراً آخر غير ذلك، فهو لا ينجح لا في هذا التَدْبِير ولا في ذاك أصلاً.

٢٦ – إذا ما عبر الذهن بتصور تاؤرية المعرفة على بلاد النفس المعقولة لكي يغتذي أو يلتجئ أو ينشرح فيها أو لكي يأخذ منها مادة، فهو يغيِّر زيَّه ولسان لغته للموضع الذي يدخل إليه لكي يتفاوض معها ومثلها، وعند ذلك يفيد ويستفيد منها، وبنوع وَاحِد يثبت وقت الصلاة. وبهذا كله يؤهَّل للأسرار المقدسة التي للثالوث الممجد.

٢٧ – بنوعين تُعمل تدابير السكون، وكل وَاحِد بنوع مختلف يتفلح. فهناك سكون حرية البنين وهناك كذلك سكون عبودية التغصب. وأعني بالتغصب: أنواع السكون المرتبطة بحدود القوانين التي للسكون الضيق (أي الحبس) لكيما تنعتق الحواس والضمير من الخباط والاضطراب الخارجي وتهدأ في السكون الداخلي وتنعتق من الملاقاة والمصادفات النافعة والمخسرة ومن الغيظ والخلق وتؤهَّل للنقاوة.

٢٨ – في هذا السكون الضيق من الانقباض الدائم الداخلي يتولد الخوف والحياء وانسحاق القلب، ومن تغير ضوائق الأعمال التغصبية يتولد التواضع والحفظ والصبر بتغصب وترتيب الحواس.

٢٩ – من الصَلَوَات التغصبية التي تُقدم بحزن وخضوع وانسحاق قلب تتولد صلاة النعمة الإرادية التي يُصلى بها بنياح وراحة. ومن صلاة المفاوضة التي تكون بتصور العقل بهذيذ الكتب والطبائع وأفهام الكلام عن اللاهوت تتولد صلاة الهذيذ. ومن صلاة الهذيذ التي تتقوى بقراءة الكتب يكون جمع العقل ويتكون الانقباض. ومن الصَلَوَات المتواترة والهذيذ الدائم بالله المتكون من جمع العقل وانقباضه يتولد داخل القلب نور الضمير ليميز بأفهام المعرفة الحق من

تشبّه الطغيان. حينئذ يؤهَّل (الإنسان) بالنعمة فوق الطبيعة للصلاة الرُّوحية التي للذهن ويكمل بالحب.

٣٠ – سكون الحرية هو سكون الضمير الهادئ المختلج بالله في الداخل والخارج. وهو ثمرة السكون التغصبي، هذه هي دلائله: حرية الأفكار، سلام القلب، نياح الضمير، عدم الخوف من جميع طبائع الخليقة المتجسمة وغير المتجسمة، البعد من جميع مفاوضات الوجوه، محبة قفر البرية حتى لا تتعبد حرية ضميره وأفكاره بغصبية خوف المراءاة للشرفاء والأدنياء المكرمين والمحتقرين، ولا ينقسم على ذاته ويتوبخ من نيَّته بميتوتة الضمير من الآلام، وارتفاعه عن العالم، واتحاد الذهن بالله حتى يصير هو في الله والله فيه، ولا أي تمرمر يكدر نقاوة نفسه؛ لأن ضميره يبقى بلا همٍ فلا جيد ولا رديء عنده ولا أعداء يتحفظ منهم ولا عذاب الحواس والحركات، ولا مادة للرياءٍ والأخذ بالوجوه، ولا خوف السقوط، ولا مادة للآلام لكي تتحرك للفعل. سُبي العقل وابتُلع بمحبة ذاك الذي أحبه، وصلى وطلب فوجد، وانمحت من ذكره السماء والأرض، وصار متوحشاً للمفاوضة البشرية (لا يأنس بها)، ونسي قصد هذا العالم وعزاءاته، ويفكر أن ليس خليقة أخرى مسكناً لله إلا هو، لا يريد أن يعيش مع الناس لأنهم لا يعرفون لغة بعضهم، لكونه قد أُهل للّغة الملائكية وبها يرتل خفياً بعقله.

٣١ – كما أنه لا يمكن أن يسكن الخوف المتولِّد من التغصب مع الحرية المتولدة من النقاوة، هكذا لا يمكن أن يسكن تَدْبِير التغصب مع تَدْبِير النقاوة، لأن تَدْبِير التغصب يولِّد التكدر والكآبة، بينما تَدْبِير النقاوة يولِّد سلاًمَّا وفرحاً.

٣٢ – وإن كانت الأثمار التي تولدها تدابير التغصب وتلك التي تولدها تدابير الحرية هي مضادة لبعضها البعض، فالوَاحِد يولِّد نوراً والآخر ظلام النفس، إلا أن الله يقبل كل تَدْبِير حسب غرض وقصد فاعله من الداخل وليس لغرض خارجي.

٣٣ – كثيرون يستعدون بكل نوع من الاستعداد يصلح لإيقاد سراج أنفسهم مع زيت الرحمة، ولكن قليلين هم الذين يؤهَّلون للنور، وذلك حسبما تعرف سياسة مراحم الله لمنفعة ذلك الإنسان نفسه أو لفائدة العامة، كل وَاحِد بمقدار ما فيه من القدرة ليحتمل.

٣٤ – المجازاة الكاملة العتيدة مقابل إيقاد المصباح هي من النعمة. أمَّا إعداد سراج فضائل نفوسنا مع الزيت بغير نقص فهو لنا؛ وأمَّا إيقاده من ههنا فهو ليس لنا بل لرب السراج.

٣٥ – العالم الجديد هو نور معقول، وكل إنسان حسب المادة التي أعدَّها من ههنا (يتقبل) النور المعقول الذي هناك، وللوقت يشعل سراج نفسه ويشرق حسب مقدار سيرة تَدْبِيره.

٣٦ – كل وَاحِد منا يحمل في داخله نور وظلام العالم الجديد. ومن داخلنا يشرق نور الفرح أو يحل ظلام الكآبة والندم، فلا يأتينا ذلك من ناحية أخرى بل من داخلنا.

٣٧ – إن كان اقتناء تَدْبِير الحرية صعباً جداً وعسراً ، فإن الجهاد الذي يقابله (هو أيضاً) شديدٌ ومرٌّ جداً.

٣٨ – مخاطر صعبة في جمع الغِنى الرُّوحاني، ومع هذا فإن جمعه وتحصيله أسهل من الاحتراس في صيانته وحفظه. لأنه إذا نام الإنسان قليلاً وتغافل ثم عاد ليطلب الشيء فإنه لا يجده.

٣٩ – سهلٌ هو المشي على حد السيف أكثر من القيام بلا ميالة في هذه السبل. مدة السيف (أي فترة الجهاد) هي مدة زمانٍ. ولهذا فمن المحقق أن الذين أُهلوا للكمال بين الناس ينيحهم المسيح برحمته حسب رجائهم كالقول: «أريد أن أنتقل لكي أكون مع المسيح».

٤٠ – قد يوجد أخوة طوباويون من قبل أن تسقط أجسادهم بسيرة الأعمال الجسدية والنفسانية ويتضعون بالنسك ويقعون في الآلام ويقومون، ويدخلون نار التجارب، ويحتملون في أنفسهم البرد والحر وشدة الظهيرة التي لصعوبة الأعمال بحسب ترتيب السيرة وحدود قوانين الآباء وتطيب هذه (الأمور) لمذاقتهم؛ من قبل أن يدركوا ذلك تجدهم يثبون على ما هو أزيد من مقدارهم بحدة الحركات، ويأخذون لهم مادة يحاجُّون بها من الكتب المقدسة ومن أقوال الآباء الرُّوحانيين في تَدْبِير العقل، ويتخيلون بفنطسة أذهانهم تَدْبِير الحرية، ويحترُّون بالهمج ويسكرون. فهؤلاء إلى الآن ما زالت آلامهم حية لم تمت، ولا زالت الحواس والحركات والعوايد القديمة والخصال الأَولى ثابتة كما هي ولم تتغير. فعندما تبطل الحرارة ويفيقون من السكر فإنهم إذا تيقظوا يجدون أنفسهم فارغة متجردة من جميع تَدْبِير سيرة الرهبنة الحقيقية. وقد تنشف رؤوسهم بتخيل مصاعد خرافات سابقة.

٤١ – القديس أوغريس أب جميع الْعَارِفِين قد تنقى قلبه بالمعونة الإلهية لأجل كثرة حرصه واجتهاده بأعمال وأتعاب مختلفة ونسكٍ خمس عشرة سنة. وأتت عليه تجارب كثيرة مختلفة ووثبت عليه ضغطات وضوائق وعذاب وجَلْدٌ من المضادين حتى كادت نفسه أن تخرج من الجسد كما جاء في كِتَاب سيرته، حتى تحنن عليه المسيح ونيَّحه بالسلام.

٤٢ – عسرةٌ جداً وردية هي السقطة من تَدْبِير السيرة (النسكية)، وهي مفتقرة إلى التوبة بمقدار السقوط من علوِّ الفضيلة. ولكن ما هو أشرُّ منها ومملوءٌ خطراً السقوط من علوِّ التَدْبِير الرُّوحاني الذي للحرية، ولو أن ضربته تُشفى بدواء التوبة بعد جهدٍ، قليلٌ من ينجو من الخطر.

٤٣ – سُرَّاقٌ حاذقون ذوو جلادة هم الذين يرصدون أثر الذي يشتاق للكمال، ولا يشفقون على تعب وعناء سنين كثيرة كما كُتب عنهم.

٤٤ – محبوب عندهم صيد جبار وَاحِد، كم من مرة قطع شباكهم وكسر فخاخهم وعَصيَ على لذة دغدغة المجاذبات واقتنى في ذاته كنز الحياة، أخْير من ربوات كثيرة من الثعالب الصغار الذين بلا تعب ولا عناء يُسقطون أنفسهم ويعثرون بهلاك ذواتهم من غير اعتناء من الصيادين.

٤٥ – الصيادون الماهرون إذا ما وقع في مصائدهم سَبْع جبار ضار، كم من مرة قطع حبال فخاخهم، فإنهم يُخفون أنفسهم ويكمنون له من كل ناحية ويضيِّقون عليه أوتار مصائدهم إلى

أن يعثر هو من نفسه ويرتبك وتضعف قوته. وعند ذلك يثبون عليه ويقلعون أظافره ويكسرون أنيابه ويأخذون منه سلاحه حتى تنعدم قوته ويتركونه مطروحاً وسط الناس ليلعب به الصبيان.

٤٦ ــ على هذه الصفة هو المتوحد الشجاع النفس الذي بمعونة الله كم من وقتٍ كسر فخاخ الشياطين وقطع حبال مصائدهم وأرعب صفوف عساكرهم ومرمر حياتهم بقوة النعمة. لأنه إذا نام بالغفلة والإهمال قليلاً، أو تعظم بالافتخار وانتفخ بالظنون وادَّعى العظائم وتكبر على الضعفاء مثل غالب قد قهر الآلام والخطية والشياطين، وكمن أخضع نفسه بالنسك والأعمال زماناً طويلاً فاستحقَّ الرحمة وجاء الوقت لكي يستريح ويتمجد من ناظريه وما إلى ذلك، ولم يُعطِ غلبته للرب بل لنشاط إرادته الجيدة، حينئذ ترتخي عنه العناية الإلهية وتسمح النعمة أن يقع في شِباك الشياطين الذين يصرُّون بأسنانهم عليه ويقهرونه.

٤٧ ــ الشياطين المنافقون يتلهفون دائماً لهلاكنا، وهم عندما يقع في فخاخهم بغتة متوحدٌ شجاع القلب لا يصدقون، بل يُخفون أنفسهم ويطرحون عليه حيلهم ويمتحنونه إن كان يتنازل مع أفكار الآلام التي لم يكن يقبلها سابقاً. ثم يسرقونه بالكسل والإهمال والتضجر، ويوسوسون له بشره البطن والزنا ونياح الجسد، الأشياء التي كان يزدري بها من قبل. فإذا نظروه قد ارتخى ضميره ومال لقبول الآلام المرذولة بسهولة واشتبك بالآلام بالكلية واعتاد الرَّاحَة، ولم يحس بالتخلية ولا أيقظ قلبه للتوبة، بل بالضد يفتخر عند السقوط ويخرف بأوهام القيام وأنه متشبث بالنهوض؛ عندئذ يجددون حيلهم ويوسوسون له بكمال الآباء القديسين الذين كملوا وأُهلوا للاستعلانات وعملوا العجائب، لكي يسقط بالتمام من النعمة ويُترك بيدهم ويستهزئون به.

٤٨ ــ ما دام المتوحد واقفاً في الجهاد بحرص ونشاط، فلا هو ينغلب كيفما اتفق ولا الشياطين يقاتلونه بقوة، بل يرصدون الأوقات الموافقة للصيد. وعندما يكمل الجهاد وتبطل الحرب إذا وثق المجاهد بغلبته وألقى عنه سلاحه مثل غالبٍ، عندئذ يتظاهر الشياطين أنهم مقهورون وقد انغلبوا من نشاطه ووقعوا إلى أسفل، ثم بحيل المديح يخدعونه بالأفكار لكي يصطادوه بسهولة.

٤٩ ــ المتوحد الذي قد أُهِّل للرحمة أي الكمال ينبغي له في كل حين أن لا يرمي عنه سلاحه الذي هو: التواضع، الهدوء، الانحطاط، حمل ضعف القريب، الصبر، الاحتمال، طول الرُّوح، الازدراء بالذات، ولا يُحب أن يَغْلب الآخرين الأمر الذي هو أصل كل الشرور، ويرفض محبة الذات أم جميع الآلام. وبصيانة ذهنه يفتش دائماً ضميره وأفكاره وإرادته، وينظر إلى أي الآلام تميل وأي الآلام تتحايل أن تسلب النفس خفياً بوجه الفضيلة ويعتق نفسه منها جميعها.

٥٠ ــ الأشياء الكريمة التي قد دُعي اسم الملك عليها وإلى الآن لم تُدخل لخزانة الملك تكون مكرمة لدى خدام الملك أفضل من التي أُدخلت بمجد وكرامة لخزانة الملك وانفسد جمال حسنها داخل الخزانة فأُلقيت خارجاً وتبهدلت وصارت موطئاً للناس وانتزعت العناية عنها.

٥١ – تائب يعمل على الرجاء في كرم المسيح حسب قوته ولو أنه عاجز، هو أخْير من صِدِّيق بار قد تفاضل بجميع محاسن الفضائل وأُهِّل بالرحمة لسر استعلان معرفة الحق، وفي النهاية فسد داخل بلاط المسيح وعَدِمَ من عناية الملائكة بتخلية النعمة.

٥٢ – تدابير حرية النفس إن لم يكن الإنسان محترساً فيها بصيانة وبشهادة النية، فهو عندما يظن أن القتال قد بطل عنه خفياً وظاهراً وسكنت الروراميز (أي الصور) الألمية عن النفس ووثق أنه قد بلغ الميناء – عند ذلك إن تهاون بإرادته بغتة ودون أن يدري أو يظن تتحرك الأمواج الخفية داخل بحر ضميره وتهدم سفينة النفس إن لم يستيقظ الذهن الرئيس وباتضاع القلب وانسحاق يصرخ بحزن إلى المسيح مُحيي كل الخلائق بمراحمه.

٥٣ – تدابير الحرية بدم النفس تُقتنى، وإن لم تُحفظ بمراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح وتكون النية مصلوبة مقابل الإرادة والضمير والأفكار ليلاً ونهاراً فإنها تخرج خارج حدود الحرية بالمراءاة.

٥٤ – تدابير حرية النفس هي مرتفعة عن تحيل غش الرياء الذي يولِّد النجاسة في النفس النقية.

٥٥ – تَدْبِير الحرية (يجعل الإنسان) عندما ينظر الحق ينادي بالحق[٧٣]، وعندما ينظر الضلالة يشهد ببساطة، وعندما ينظر أو يسمع يقبل بلا حريان (أي بلا فحص)، ويتكلم بلا رياء وأخذٍ بالوجوه، ولا يعتني لا بالكرامة ولا بالإهانة لا بغلبةٍ أو انغلابٍ في أحلام هذا الزمان (الزائل)، ولو دعاه الناس أبله مرذولاً بلا فحص. وبعد جهد يقدر أن يعيش في وسط كثيرين.

٥٦ – نقاوة القلب الحقيقية هي الحب الكامل التام بغير فرز لجميع طبع البشرية بالسواء. وهذا لا يمكن أن يكون من غير حفظ الوصايا والغلبة على الآلام ونور عدم التألم ومعونة النعمة.

٥٧ – ولا يمكن اقتناء هذه (النقاوة) باتفاقٍ وخلطة مع كثيرين طالما أن الحواس قائمةٌ منتبهةٌ. لأن الذي قد نقَّى قلبه يكون قد اقتنى بساطة الإيمان والمعرفة، فهو لا ينظر شرَّ إنسانٍ، وعندما يسمع أن فلاناً جيدٌ، وفلاناً رديءٌ، يصدق ببساطة بلا فحص مثل طفل. لأنه لو كان يفتش بمعرفة فلا تكون هناك طهارة ولا نقاوة؛ كما أنه يعسر على القلب بعد ذلك أن ينظرهما بالسوية بلا تفريق، لأن القلب يكون قد تنجس بغير إرادته حتى ولو لم يشأ.

٥٨ – في الهدوء وعدم الخباط يقتني الإنسان طهارة القلب وبساطة الإيمان بسهولة، ويؤهَّل للنقاوة إن حفظ حقوق السكون واحترس بواجبات السيرة وكان يهدس دائماً في مخافة الله.

---

[3] أو "تقفل الحق".

٥٩ – إن عقل الإنسان يوجد في المكان الذي يهدس فيه ضميره وأفكاره، وهو ينجذب بصنارة المحبة وعشق تَدْبِير السيرة التي أحبها. أمَّا الذي يسكن في المجمع فهو مثل الذي في السوق، ولو أنه يغمض حواسه لا يمكنه أن يفلت من الملاقاة النافعة والمخسرة التي تصادفه بالضرورة.

٦٠ – إن كان بين الحجر والحجر (أي علأمَّات الطريق) تُعبر السكة، فبالضرورة بين النظر والسمع والكلام والأفعال وتغير عوائد وخصال الذين هو ساكن معهم يتحرك الضمير من غير أن يشاء وينتقل مما يخصه ويقبل صوراً هيولانية حسب العلل والعوارض التي تتفق له. فإذا ما طار الذهن بأجنحة الرُّوح على البلاد الداخلية التي للسلام وعلى منازل النور كسابق عهده، فإن نظرته تتعطل من الظلام الهيولي الذي قَبِله ويخيب من النظرة الرُّوحانية. وعندما ينتبه ويغصب ذاته ويلقي عنه الأشياء الأَولى يرجع أيضاً ويقبل رسوماً (أي صوراً) أخرى.

٦١ – إن كان ليس للنفس أن تركِّب (من ذاتها) الأشكال والمناظر وخيالات النظر، ولا أن تحرِّك التذكار أو الهذيذ أو الفكر إن لم تقبل المعرفة بها من الجسد بواسطة حواسه الخمس، فطبيعتها إذاً لها شيء أرفع من طبيعة الجسد. وواضح أنها في وقت الصلاة (وهي في حالٍ) فوق تركيبها مع الجسد تقبل معرفتها بالنعمة حسساً جديداً لا شبه له: «ما لم تنظره عينٌ ولم تسمع به أذنٌ..»، والذي مع تركيب الجسد لا يمكن أن ينعته أحد.

٦٢ – وما هو الشيء الذي نحس به؟ نحن بالحق لا نعرف. لقد سكن (الضمير) وهدأ وقَبِلَ حسس الحياة الجديدة من غير انفعال.

٦٣ – السارافيم في قدس الأقداس يقدسون سراً بغير حركات، والملائكة في الهيكل يعملون جميعاً.

٦٤ – البرُّ هو ثمرة الأعمال الصالحة التي تُعمل (حتى) قبل ظهور شمس البر الأعظم.

٦٥ – القداسة هي ثمرة الرُّوح الْقُدُس الذي يقدس النفس عند كمال جري جهادها ويتوجها بإكليل المجد المزمع ويمنحها نظراً روحياً فوق الطبيعة.

٦٦ – إن كنتَ تظن أنه بالأتعاب الإرادية المفرزة التي لأبناء بيعتك الداخلية، أي بمحاسن فضائلهم، قد تزيَّن وتَكمَّل هيكل نفسك الداخلي، وتريد أن تعرف إن كانت قد فاضت الرحمة، وانفتح الباب الذي لقدس الأقداس الداخلي، وتقدس مذبح الغفران الداخلي وحلت (عليه) النعمة، وإن كان قد سُمح للكاهن الداخلي (أي الذهن) أن يدخل ويقدِّس سرياً ويقدم بخور الصلاة دائماً: فهذه الأمور وما أشبهها تفهمها من تغاير أنواع البخور الزكي، السلام والحب والفرح الرُّوحاني الذي يفوح على الدوام داخلك بواسطة الذِكر والهذيذ الدائم الذي انطبع فيه هَمُّ حب الله، وأيضاً من الفرح والعزاء الخفي الذي يختلج في نفسك، إن لم تكن أنت السبب فيه.

٦٧ – تَصور الورق وكلام العلوم واستضاءة إدراك العقل، والضمائر المختلفة والأفكار الدقيقة والأفهام العميقة والتاؤريات وإفراز تصور التاؤريات المختلفة، هي كلها أمور الزيادة

في المعرفة التي بها تفحص النفس وتدرك عناية سياسة الله وحكمته في خليقته السمائية والأرضية وتدابيره في كل الأجيال والعوالم بجميع تغيراتها.

٦٨ – من العمل القلبي الدائم وتدرُّب العقل وتخرُّجه بالهذيذ بمثل هذه الأمور ترتسم وتتصور قوة حقيقتها جسمانياً (بنوعٍ) منظور على ألواح مذبح القلب الزكي، لكي من ههنا ينعتق الذهن الكاهن من الطياشة والتفتيش والبحث على وجودها جميعها. ويصير ناظراً قوة الحق، فلا يعود ينشغل بحسس الأفهام والتاؤريات بهذا (النوع) وذاك من الأجسام وبغير المتجسمين الرُّوحانيين والجسدانيين، بل يهدأ ويستكن ويستريح من الكل عند سرِّ النعمة الموجود داخله.

٦٩ – ما كان يليق لقلبنا أن يفتقر ويحتاج إلى الأسطر (أي الأسفار المقدسة) لولا أن حريتنا قد ضيَّعت عزاء فهم الحق. فقد كان ينبغي أن تكون تدابيرنا نقية حتى لا نخيب من حقيقة فهم ما هو مكتوب على قلبنا بروح الله، والذي تشهد له نيتنا كقول الكِتَاب.

٧٠ – لو دام طبعنا مُقتنياً قلباً طاهراً لَمَا كان الله مضطراً أن يتكلم معنا برسم الأسطر، ولكن كمثلما تكلم مع نوح وإبراهيم وأيوب وموسى من غير واسطة الكتب.

٧١ – وحيث أن طبعنا قد تدهور وسقط في عمق الشرور، فقد تكلم الله معنا بأسطر منقوشة على ألواح حجرية علامة على قساوة قلوبنا.

٧٢ – حتى ولا سيدنا المسيح سَلَّم تعليمه لرسله القديسين بالأسطر، بل إنه عوض الأسطر أعطاهم موعد الرُّوح الْقُدُس، وقال: «هو يذكِّركم بكل شيء يليق ويوافق الحق».

٧٣ – وهكذا أيضاً كتب في النبي يقول: «أضع ناموسي في عقولهم وأكتبه على قلوبهم»، و«يكون الجميع متعلمين من الله».

٧٤ – وإن كان هو أمراً سمجاً عند النطقية التي قَبِلها طبعنا منذ البدء أن تتقوَّم تدابيرنا بمعونة الأسطر المكتوبة (حيث إنها لم تكن في حاجة إليها)[٧٤]، فكم بالأكثر نُرذَل من الله إذا ما رذلنا الكِتَاب الطبيعي القلبي، والكِتَاب المسطور على يد موسى والأنبياء، ونور بشارة الحياة أي إنجيل مخلصنا. فنحن نجلب على ذواتنا حكم الموت إذا لم ننتفع لا من الكِتَاب الخفي (أي القلبي) ولا من الكِتَاب الظاهر (أي الأنبياء) ولا من بشارة الوصايا المحيية التي لرَبِّنَا ومخلصنا يَسُوع الْمَسِيح (في الإنجيل).

٧٥ – حتى ولا الإنسان الذي يعمل ويداوم الصلاة والقراءة والتصور والفهم يمكنه أن ينجح في (إدراك) الحق ويستضيء عقله بالرُّوح ما لم يوافق غرض ضميره لقوة ذلك الشيء الذي قد كتب بالرُّوح على كِتَاب قلبه.

[3] انأرظلقرة 6.

٧٦ – حاجز الآلام الذي يغطي قلبنا لا يتركنا أن ننظر الحقَّ الذي كُتب بالرُّوح على قلوبنا. فعندما نصلي ونقرأ ونزمِّر يعوم ذهننا على سطح قلبنا فلا نحس بالحق الداخلي. فإن كنا نرفع حاجز الآلام بحفظ الوصايا، عندئذ ننظر بعين الرُّوح الحقَّ المرتسم في قلبنا.

٧٧ – ما دامت حريتنا تدان من نيَّتنا على الشرور الخارجة عن الواجب التي نفعلها، وأفكارنا تنقسم على كلامنا وكلامنا على أفعالنا، والثالوث الذي فينا ما اصطلح بعد، فلا ينبغي أن نسرع لنصالح الآخرين، لا الله ولا البشر، ولا ينبغي أن نظن أن بخور صَلَوَاتنا يصعد إلى الله ويُقبل أمَّامه.

٧٨ – فإن كان الثالوث الذي فينا قد اتفق بالحب والفرح، وحريتنا لا تتبكت من نيتنا وقت النور، ونفسنا تقدم الصلاة والشكر لله بغير فتور وهي هادئة، فجميع الخليقة تصطلح معنا بالحب والمحبة.

٧٩ – ولكن إذا كان النور الذي فينا هو ظلام فظلامنا كم يكون! أعني إن كان سلام قلبنا متكدراً بالخَلق والغيظ والحسد، وهو منقسم على ذاته من داخل، فكَدَرنا بالحري كم يكون!

٨٠ – عندما تكون مغتاظاً وفي نكدٍ انظر بتدقيق إلى الأعداء الصعاب المتحركين فيك من الداخل ومن الخارج معاً. من الداخل: الآلام المُرة والخلق والحقد والغضب والحسد والشر التي تثب على فضائل تقانة نفسك وتفسدها وتُخيِّبك من حلاوة الحب الإلهي. ومن الخارج: الناس الأشرار الذين يُخجلونك ويعيِّرون بك أصدقاءك. وعندما تكون حلواً بشوشاً طيِّباً انظر داخلك كيف يفرح بنو بيتك ويفرِّحونك، أعني السلام والهدوء والحب والود ونور المعرفة والرجاء بالله.

٨١ – ما دام كل يوم يصطبغ الضمير والأفكار بألوان وأشكال شتَّى مناقضة بعضها بعضاً بالملاقاة النافعة والمخسرة، إذ يسمح مع هذا لطيبة قلبه ومع الآخر لغرض إرادته، ومع هذا لنياح شهوته ومع ذاك لنياح غضبه وقساوة خلقه، فمتى يثبت الذهن فيما يخصه ويهدِّئ ذاته ولا ينقسم لأشياء كثيرة ويصير وَاحِداً عند الوَاحِد ويُصعد أثماراً روحانية لنياح إرادة الله؟

٨٢ – كما أن الوجوه مختلفة كذلك الإرادات والضمائر أيضاً والأغراض والعوائد والخاصيات. وكل موضع يلتقي فيه بضمائر متنوعة وبمشيئات وأغراض وعوائد متباينة. فَمَن كان يريد أن يجاور قريبه بسلامة ينبغي أن يكون معه ومثله بمراءاة الحب والرياء، فهذه هي الطريق التي تُثبِّت سلام القلب.

٨٣ – ولهذا فليكن السكون مفضَّلاً عندنا أعظم من جميع الفضائل؛ لأنه ينجينا من سائر الشرور. فلنهرب إلى السكون يا إخوتي لكي نخلص من نخز النية ونؤهَّل لتجديد الضمير.

٨٤ – الأسرار المقدسة تظهر خفياً للنفس التي قد تجددت بالرُّوح. وهي مرتفعة عن الأشكال المنظورة؛ لأن فعل الرُّوح الْقُدُس (يكون لها) مثلما هو للروحانيين.

٨٥ – كما أن الصوت الفَصاح (أي الواضح) يتركب بقوة النَفَس على النطق بالكلمة، ويتصور بالحبر على الورق فيظهر لأعين الجسد، هكذا العقل الحي بواسطة النعمة يصوِّر ويرسم صورةً عقلية لكلام الصلاة الرُّوحانية البسيط، بقلم الهذيذ الرُّوحاني، على لوح القلب لكي يقرأ فيها وقت أن يطيش الضمير أو يرقد أو يضعف الكينار (أي تتوقف الصلاة)، حتى يظهر نور عدم الآلام ويشرق عليه شعاع شمس البر الأعظم.

٨٦ – أرض القلب المفلَّحة المسمَّدة بمخافة الله، والمحروثة أولاً وثانياً بهذيذ الكلام الإلهي، والعطشانة المتلهفة لشرب كلمة الحياة، عندما يُزرع فيها العلم الرُّوحاني وتسقيها كلمة النور، تختلج بغتةً بالإيمان مقابل كلمة الحياة التي تثمر بدل الوَاحِد ثلاثين وستين ومئة.

٨٧ – أرض القلب القاسية ولو أن تُفلِّحها وتُسمِّدها فإنها لا تنتبه قبالة البذار وسقي كلمة الحياة، ويعوم عليها كلام النور والحياة مثل الماء على الصفا (أي على الصخرة)، فتبقى بلا ثمر بسبب الصفا الصماء المتسعة كالقول السيدي.

٨٨ – أن يكون الإنسان عارفاً الحق هذا هو جزء من الحق، وأن يعمل بسيرة الحق فهو فلاح الفضائل وهذا جزء من الحق. أمَّا أن يكون ناظراً مجد الحق ومُساراً (أي مشاركاً) بحسس الحياة الجديدة فهذا هو الكمال ههنا. وأمَّا أن نقتني الحق بالتمام بلا ميالة فهذا هو الكمال المزمع.

٨٩ – لا تتحير أيُّها القارئ العزيز ولا تصعد الأفكار على قلبك، فإن الرُّوح الوَاحِد هو الذي يدبِّر الكل، كل وَاحِد حسب ما يليق لحياته في الله وبحسب استطاعته أن يحتمل.

٩٠ – الذي من بعد أعمال التوبة والنسك والدُربة بالكتب والهذيذ الدائم بالتاؤريا الرُّوحانية مع بقية الفضائل، قد أُهِّل لنور الضمير، ينبغي أن يحترس متغصباً بغرض هذيذه وفي تاؤرية معرفته كما برأس إيمانه؛ لئلا بعد معرفة الحق ببساطة حب المسيح، عوض هذيذ وَاحِد بنور ضميره وعمق فهمه يتغير ويسرع ليُبتلع بمحبة التعليم والأدب اليوناني خلاف قصده الأَوَّل، وبحدَّة حركاته يقع في لجج الكتب والتفاسير والعلوم، وينجذب بكثرة العلوم والتاؤريات المختلفة المُتفننة، وبنور ضميره يُبدع أموراً جديدة ويفيض أشياء مدهشة، أو تصادفه شكوك وحسد فيقع من علو تَدْبِير سيرته المجيدة؛ وعوض رغبته في أن يكون ناظراً لمجد الحق ومدركاً لسر الحياة الجديدة، يتغرب من دعوته ووحدته.

٩١ – الظلام بالنور يبطل، والنور بكثرة الظلام ينحجب. هكذا المعرفة البسيطة التي للحق، بكثرة معارف الحِيل تُظلم وتتقتم (أي يشتد ظلامها).

٩٢ – عندما تعرف الحقَّ بنور ضميرك، احذر من التخيلات التي تَعِدك بكثرة المعارف المختلفة التي تخيِّبك من بساطة الحب والإيمان. والتصقْ ببساطة الحق في إنسانك الداخلي بالإيمان بغير شك، وبحبٍّ يغلي من كل قلبك ومن كل ضميرك ومن كل قوتك كالمكتوب، واهدس بذلك الهذيذ الوَاحِد بتأمل عقلك مثل العطشان المتلهف للماء البارد، ولتحب المسيح وحده

وليس المواهب والخيرات التي يعطيها لك.

٩٣ – العروس لا تشتاق ولا تأمل الهبات والخيرات التي يعطيها إياها الختن، ولكنها تطلب لذة الختن نفسه. ولو أن يُعطى لها تاج المملكة عوض الختن الذي خطبها، فإنها لا تقبل ولا تريد.

٩٤ – فلنقتنِ المسيح حياتنا في إنساننا الداخلي الخفي بحبٍّ يغلي بحفظ وصاياه. فإذا اقتنيناه واتحدنا معه بالسرِّ، فإن كل شيء له يصير لنا، إن كانت الحاضرات أو العتيدات. لأنه أمر سمج وغير لائق بنا أن نحبَّ عطائم الله ومواهبه أكثر من الله ذاته.

٩٥ – ونحن نقتني الله عندما نرفض كل شيء حتى ملكوت السماء من أجل محبته مثل الرسول الطوباني. فليكن هذيذنا ورجاؤنا وتأملنا مُعلَّقاً بيَسُوع الْمَسِيح وسيط خيراتنا بقلب حار يغلي بحبِّه في مفاوضة الصلاة خفياً وظاهراً. وعند ذلك بحسب اشتياقنا يظهر لنا ويريحنا مثلما يعرف هو.

٩٦ – المتوحد الذي طهَّر نفسه وزيَّنها بحسن الفضائل مثل عروس مزينة، وقَبِل المسيح في داخله وسلَّم له اختياره وإرادته وكل شيء له، ولم يعد يهتم بشيء آخر لا بجيِّدٍ ولا برديءٍ بكل ما يصادفه – هذا في كل وقت يغتذي بقوت الملائكة من مائدة المسيح. طوبى للنفس التي استحقت ذلك!

٩٧ – متعالٍ ومتفاضل جداً هو محبُّ الملك وصاحبُ سرِّه وجليسه على مائدته، أكثر من جميع الشجعان والجبابرة الذين يقاتلون في الحروب وينتصرون والمتَّسمين بالشجاعة وذوي الأموال الكثيرة.

٩٨ – بهذيذ الضمير الدائم هكذا يتأسس ويثبت فينا حب المسيح مثل الصورة في الدينار؛ لأنه في أي ناحية يهدس فيها العقل يجلو النفس ويحدّها وتُسبى به الأفكار والذهن فتطلب ذلك الشيء المتولد من هذا الهذيذ الوَاحِد.

٩٩ – ينمو من القلب بغتةً حزنٌ وَاحِد حار نوراني، ويسحق القلب وينظفه ويشقُّه ويلهبه بلهيب فرح روحاني ويصعد بخار حِدَّته إلى الرأس والعينين والأنف كمثل لهيب النار. حينئذ تهطل دموع الفرح مثل المياه الحارة ولا يقدر أن يضبطها بربوة حيل كثيرة، ويريح النفس من كل تذكار الآلام ويُهدِّئها من كل اضطراب وخباط.

١٠٠ – نوعٌ وَاحِد نوراني من (أفعال) النعمة ينمو بغتةً من القلب دون أن نحس ويسقي النفس ويرويها بالفرح، ويغرق الزوان بالمجاري السائلة من العيون، هو أخْير من ربوة صَلَوَات ومطانيات نعملها ونحن غير حاضرين بذهننا في الموضع حيث نصلي، بل تعوم على (سطح) القلب والضمير مثل السقط الذي لم يكتمل. فاحذر ههنا من ضلالة الشياطين لأنهم يشبِّهون طغيانهم بالحق، وأيضاً لا تدفع منك نعمة الله؛ لأن ضلالة الشياطين مع الانفعال بالقلب تحرك أيضاً الأعضاء السفلية التي للشهوة وتثيرها بلذة التنازل.

المَيْمَر السَّادِس

١ – كمال الحق يُقام من تدابير الفضيلة التي تُعمل بقصدٍ مستقيم، ومن معرفة الحياة الرُّوحانية الخفية الفاعلة في الطبائع، ومن الإيمان البسيط المتشوِّق لمعرفة الحق.

٢ – عدم الآلام يَكمل في النفس بتدابير الفضائل المُتقنة وحفظ الوصايا. والوصايا تُحفظ بالمعونة الإلهية بالتغصب الكثير عندما يسيل دم النفس مثل عرق الجسد.

٣ – معرفة الحق تُقتنى في الذهن بالصلاة والهدوء والاتضاع وطول الرُّوح والصبر على كل ما يعرض.

٤ – الحب الرُّوحاني يغلي ويتقد بحرارةٍ في النفس بالرحمة والبشاشة والحلاوة والشفقة بغير تمييز بين الجيد والرديء، أعني الصالحين والأشرار بالسوية.

٥ – الرجاء يتأسس ويثبت في الإنسان بالتشوق والتطلع إلى الصالحات المنتظرة.

٦ – الإيمان يشرق وينير في النفس برجاء مواعيد الرُّوح المزمعة أن تظهر فينا.

٧ – لا يتحد الإنسان (أي يصير وَاحِداً) بالكلية ويحس بجوِّ الحرية إلا إذا بَلَيْتَ وتخلَّفت جميع حركات وحواس الطبع القديم وذلك بحيل الأعمال وتَدْبِير السيرة، فينتبه ويقوم الإنسان الجديد المعمَّد الذي لبسناه من المعمودية متسربلاً بالسلام والهدوء والذهول والحب الرُّوحاني وما تبقَّى.

٨ – إن كان سلام النفس الجديد مع الهدوء والذهول والحب الذي من النعمة، تُقتنى من الأعمال الإرادية، مع ذلك فإنها حين تكتمل بالرُّوح الْقُدُس لا تكون بعد للطبع ولا للاختيار، كما لا تقع (أو تخضع) حقيقتها تحت الطبيعة والإرادة ولا تنطق (أو تُختبر) بدون النعمة.

٩ – طوبى لإنسان استحق عندما يزمر ويصلي أن تشخص عينا عقله بنور عدم الآلام، وينظر بالعقل كلمات الصلاة المكتوبة بقلم الرُّوح على مرآة قلبه، ومن هذه الكلمات يُصعد التمجيد للذي أعطاه موهبة نظر النفس.

١٠ – الذي أصلح ذاته ولم ينقسم على نفسه ليكون اثنين أو كثيرين بل هو وَاحِد عند الوَاحِد في كل حين وكل وقت وبكل مكان، هذا بالحقيقة قد أصلح الثالوث الذي فيه، وله زمان وهو يهدس بهؤلاء.

١١ – الحرية الحقيقية هي بنت نور عدم الآلام. السكينة والهدوء وسلام العقل وأفكار الحرية هي بنات الهدوء الْعَظِيم الذي لا يتحرك ولا يتزعزع ببحر الضمير.

١٢ – هدوء البحر يكون عندما تهدأ الرياح التي تحرك الأمواج. وهدوء الضمير يُحس به إذا ما سكن هذيذ التذكارات من طلب جميع الأفهام.

١٣ – لا تهدأ السفينة وتستكن وهي في البحر من الحركات المقلقة ولو أن يهدأ البحر ويسكن، بل إذا ما بلغت الميناء الهادئ والسلامة وأنزلوا القلوع من مهب الرياح في جميع النواحي وألقوا المرسى في العمق. هكذا فإن سفينة النفس لا تهدأ أو تستكن من تحريك الأمواج المضطربة من كثرة الضمائر والأفهام حتى يمكنها أن تنظر ذاتها ما دام العقل مع الضمير والفكر مصلوباً بشبه القلع مقابل الآلام بحفظ الوصايا، وهو (أي العقل) يسرع تبع تاؤرية الكتب والطبائع ليجمع لنفسه ذخيرة يلاقي بها الحروب المصادفة من الآلام والخطايا والشيطان، ولكي يهدم بها الأفكار النابعة ويجمع الذهن من الطياشة ويقبل جميع ما يأتي عليه بلا اضطراب ويفرز فهمها (في نور) معرفة الحق.

١٤ – إلى أن توفي النفس دين هذه الأمور (التي ذُكرت) جميعها ويكمل الذهن بما يخصه، وتغطس الحواس البرانية مع الحركات الداخلية من جريها تبع كل الضمائر والأفهام والتذكارات وتنتشي النفس وتستريح في الميناء الهادئ الذي هو الابتلاع بالحب الإلهي – فهي لا تستطيع أن تنظر ذاتها.

١٥ – ولا تهدأ جميع هذه (الحواس والحركات) أو تسكن من التدرج والطلب وتكميل ما يخصها إلا إذا امتلأت مداخل النفس من كل ناحية بنور عدم الآلام وملك السلام والحب والفرح والعزاء بالرُّوح الْقُدُس.

١٦ – إذا قامت النفس في حرية طبعها بنقصٍ قليل، فهي تنير سراج عدم تألمها بنور النعمة الجديد، وتنظر كنوز الأفهام التي جمعتها وتختبرها بإفراز بالرُّوح، بشبه الشبكة التي طُرحت في البحر وجمعت من كل جنس وفي الآخر جلسوا وانتخبوا (الجياد وجمعوها في أوعية)، عندئذ تتنيح وتتمجد بالنعمة التي حظيت بها.

١٧ – كما أنه لا يوجد إنسانٌ ذو إفراز يجلس باختياره في سفينةٍ ويطلقها في البحر الأعظم المتسع لكي يضنك نفسه كل أيام حياته بأمواج البحر الصعبة بغير أن يكون عنده رجاء الوصول إلى ميناء هادئ أو ملجأ آمن، هكذا لا يوجد تائب مُفرز يترك سفينه نفسه في بحر التوبة الْعَظِيم بدون رجاء قوي في بلوغ ميناء النعمة الهادئ وستر سلام المراحم الإلهية. وإلا فكيف يقبل قوله إن الذين يزرعون بدموع النفس يحصدون بفرح الرُّوح، هنا عربون كما في مرآة، وهناك وجهاً لوجه مثلما تَعرف وتُدبِّر سياسة مراحم الله.

١٨ – لا تضل أيُّها القارئ المُفرز، ولا تهدأ أو تستكن، ولا تُبطل فيك حركات نفسك من الهذيذ المُحق والأعمال بإفراز في السكون ولو أن تبلغ حدَّ الحدود؛ فإنه ليس لك هنا طمع في راحة تامة بالكمال في تَدْبِير الفضيلة.

١٩ – لم تصادفني راحة ولذة مثل هدوء بحر الضمير من حركات الغلوات. بَهِجَ جو القلب وهدأ وسكن، وهدأت حركات النفس من كل فعل وانفعال، وسكتت الإرادة والفهم والمعرفة والأفكار عن طلب كل جيدٍ ورديء، ودهشت النفس وغطست الحركات والحواس في لذةٍ كما

بنومٍ حلو.

٢٠ – ظلام هذه الموهبة وكل فعل الرُّوح هو تسييب اللسان في دالة المفاوضات والاحتداد والغضب والحيل المؤذية الغاشة وقساوة القلب، ويُظلمها بقتامٍ شديد أيُّ تذكار مُولِّد للاضطراب ومُحرِّك للغضب يتردد ويهدد في القلب.

٢١ – أدوات الآلة التي بها تتفلح الفضائل وتُحفظ الوصايا وتُغلب الآلام في المبتدأ هي: التغصب وقسر الذات والغيرة وصلابة القلب والعزم على الغلبة بمعونة الله.

٢٢ – بواسطة هذه (الأدوات) تُعمل الفضائل وتُغلب الخطية والشيطان. ولكن طالما كانت هذه الأدوات ثابتة في النفس فلا تكون هناك حرية حقيقية، بل تكون النفس إلى الآن تحت عبودية الفضائل وفي طريق الفضائل (تسير) وليس في حرية طبيعتها.

٢٣ – فحيث يكون التغصب الاضطراري لا تكون هناك حرية، وحيث تكون التحيلات لا توجد زكاوة، وحيث تكون غيرة لا تكون هناك نقاوة، وحيث معرفة الحيل لا يكون هناك موضعٌ لمعرفة الحق، وحيث توجد مرارة فلا هدوء أو اتضاع، وحيث توجد محبة الغلبة لا يكون هناك حب، وحيث لا يوجد الحب الرُّوحاني لا يوجد أيضاً نور عدم الآلام، وحيث لا يكون نور عدم الآلام فلا يسكن هناك نور النعمة. وحيث توجد ملاقاة نافعة ومخسرة لا توجد سلامة. وحيث لا يوجد حق قائم لذاته حرٌّ بغير رياء أو أَخذ بالوجوه فلا يكون هناك نخس للنية، وحيث لا نخس للنية فالنفس تكون معتازة وغير كاملة ومحتاجة للتقويم.

٢٤ – القديس أنبا إشعياء كتب عن حرية النفس يقول: إنه ما دامت النية تُبكِّت من أجل شيء خارج عن الطبع نفعله فنحن غرباء من الحرية. لأنه حيث يوجد تبكيت النية لا تكون هناك حرية. ونحن نكون أحراراً بالحقيقة ونكون قد دخلنا الرَّاحَة المقدسة كمسرة الله إذا كنا حين نصلي لا نتبكت من نيَّتنا بالقِسط (أي بالعدل) لا عن تذكار ولا عن فكر غريب، وتكون قد هدأت وسكنت حواسنا مع حركاتنا وبطلت المقاتلة بالأمور الشمالية بمراحم المسيح.

٢٥ – إذا وُجد فينا المسكن المعقول (أو العقلي) المستعد لقبول المسيح شمس البر داخلنا، وحفظنا هذا المسكن بالصلاة كمسرته، حينئذ تكون لنا الغلبة بالرب، وهو يحل في نفسك ويُصلح لنفسه فيك مسكناً لمحلِّه وبيت راحته بالنعمة. فإن كان هو لا يسبق ويُصلح فيك موضع راحته بعد الزكاوة إنعاماً منه، فباطلاً يكون جميع فلاحة عملنا، ولا تكون فينا قوة لنرضيه كإرادة الرُّوح الْقُدُس، ولا أن نحفظ المسكن بطهارةٍ بلا شرٍّ.

٢٦ – إن كانت سحابة السلام قد ظلَّلت مسكن الحب، وثمرة الحياة الصالحة قد حلَّت داخل المسكن، وظهرت إشراقات جو الحرية الممجدة، وفاحت تلك الرائحة اللذيذة، وتشجَّع القلب وتقوَّى وقَبل العزاء الرُّوحاني، ولم تعد تحرقك الشمس بحفظ النهار ولا القمر بضلالة عدم المعرفة، فهذه هي الحرية الحقيقية.

٢٧ – توجد بداخلنا مَدرستان: وَاحِدة لتدريب المعرفة النفسانية التي هي معرفة الخير والشر، وأخرى للتدرب بمعرفة الحق التي هي معرفة الحياة ونور النعمة. ومعرفة العدل التي هي معرفة الخير والشر تتفلح في مدرسة الفحص والتصفية. ومعرفة العدل هذه تلد للإنسان الغيرة والخباط والخلق والحسد والغضب ومحبة الغلبة وبقية الآلام. أمَّا مدرسة النعمة ففيها يُزرع الحب والسلام والهدوء والتواضع والصبر مع بقية أثمار الرُّوح التي كتب عنها بولس الرسول. ولأنه مكتوب أن من الثمرة تُعرف الشجرة، فميِّز أنت الآن ماذا تعلِّمك مدرسة الخير والشر وافهم من أين هي وممن تأخذ تعليمها.

٢٨ – إذا ما دخلت النفس مدرسة معرفة الخير والشر التي يُلقَّن فيها العدل، فهي تمتلئ من الغيرة والاضطراب والغيظ والحسد والحزن والغضب. أمَّا إذا دخلتْ مدرسة النعمة التي جميع أولادها يسعون تبع الحرية والموضع الذي تفيض فيه النعمة بالرحمة والتحنن على الصالحين والأشرار على السواء، فهي تمتلئ من الحب والسلام والفرح والهدوء والاتضاع والصبر وحمل ضعف القريب وعجزه وبقية أثمار الرُّوح.

٢٩ – إن كان انغلاب النفس هو الهذيذ البطَّال الذي يثير التكدر والغضب، وغلبتها هو الهذيذ بأثمار الرُّوح الذي يولِّد الحب والسلام والفرح، ومن هذين الهذيذين تكون شجاعة الإرادة أو رخاوتها مع المادة التي نستمدها من أقربائنا، فحسناً كُتب أن الموت والحياة هما من الرفيق، لأنه يعطي مادة لعمل المدرسة الداخلية.

٣٠ – أكثر الناس يكمِّلون حياتهم في مدرسة العدل وقد جعلوا أنفسهم قضاة وحكامًا لجميع الناس، ويَزِنون الأعمال الصالحة والرديئة التي للآخرين بالعدل، ولم يحسُّوا قط أن هناك مدرسة أخرى فيها تعليم النعمة والرحمة والتحنن الذي أظهره سيدنا في بشارته. وقليلون بعد جهد يفلتون من مدرسة العدل ويدخلون مدرسة النعمة والرحمة، وفي الحال يصادفون الحب الفائض والسلام والرحمة على الصالحين والطالحين بالسواء، ويعجبون بعظم مواهب الله.

٣١ – النطقية البسيطة التي للنفس هي نور عقلي يعطيه الله إنعاماً منه لطبع الملائكة والأنفس.

٣٢ – النطقية المركبة هي رباط وتركيب صفة الكلمة. (والكلمة) تتركب وتتسلط بتأديب التعليم والفهم، وهي تتزين في كور العقل وعلى سندان الذهن بمطرقة الفهم وكَلبة (أي ملقط) الذِّكر ونار العمل وحطب الأفعال وبالتدريج والتدريب والتخريج في مدرسة النفس الخفية.

٣٣ – ينبوع الكلمة البسيطة الداخلية هو غير مركَّب مع الصوت، إنما هو قوة عقلية مغروسة في النفس تختلج على الدوام مثل الهيولي البسيط غير مُتشكِّل ولا مزيَّن. غير أنها تتركب وتتزين بنور النطقية، وتخرج للفعل ككلمة بواسطة الأصوات والحواس.

٣٤ – كل صانع إذا أراد أن يصنع شيئاً ما، فهو أولاً يرسم في ذِكره (أي في مخيَّلته) هيئة ذلك الشيء وكيفيته وكميته. ثم يُدخله كور الإدراك ويمده بمطرقة الفهم ويفحصه على سندان

الذهن وينظره في نور النطقية ويميز ويتأكد إن كان كافياً لتركيبه ويقوم بذاته أم لا، فتميل الإرادة إليه وتقبله النيَّة من الداخل، وعند ذلك يخرج مِثال الفعل. كل هذا (يحدث) وما يحس الصانع بهذا المكتب الداخلي لأنه محجوب عنه بسبب حاجز الآلام. وعلى هذا المثال افهم ما يخص الحق وما يخص الضلالة، ويُشبَّه بالأفكار والكلام والأعمال التي نعملها ونُفلِّحها.

٣٥ – شعاعات العقل بخيالات الكلمة تنطلق إلى خارج وتُذاق من المفرزين، وهي ظلٌ وفيءٌ يصور الصلاح والشر المطبوع على مرآة القلب، ويرسم بالكلمة كل شيء يقع عليها. (وهكذا بواسطة الكلمات المرسومة منا) يعرف الذين في الخارج مقدار الحسن أو السماجة وما هو الشيء المطبوع على العقل والقلب.

٣٦ – إن كانت الحواس الخارجية هم كتبة يكتبون الكِتَاب القلبي، فالنسخة التي يكتبون منها هي مواد مأخوذة من الأمور العالمية. والملاقاة النافعة والمخسِّرة مع الآخرين الذين نسكن معهم هي بالضرورة التي تسبب حياة أو موت الإنسان.

٣٧ – إن كانت الحواس الخارجية هم فلاحون يزرعون أرض القلب، فمعلوم أن نوع البذار الذي يجدونه في أقربائهم هو الذي يزرعونه في القلب إن كان زواناً أو حنطةً، والشيء الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد.

٣٨ – إن كانت الحواس هي أنهار تسقي أرض القلب، فبالضرورة أنه بحسب نوع الماء الذي ينسكب من الخارج في مجرى الحواس هكذا تسقي القلب إن كان ماءً كدراً أو نقياً، حلواً أو مرًّا. ولا يمكن الانعتاق من العالم وأموره وملاقاته إلا بالموت، إن كان بالموت البسيط الاضطراري أو بالموت المعقول الذي من حرية الإرادة.

٣٩ – الذِكر هو خزَّان دار القلب، وما يقبله من ذخائر الصلاح والشرور يعود ويذِّكر القلب به بالهذيذ.

٤٠ – الأفكار غير المتميزة تنبع من الكلى كمثل بخار ماء وتقبل الرسم والتصور من القلب كمثل رسمه في ذلك الوقت إن كان لليمين أو للشمال.

٤١ – من بخار اليقظة تتولد الأفكار، ومن بخار السَّقط (أي ما هو رديء وحقير) في النوم تتولد الأحلام. وكما أنه قد أُمرنا أن نُنقي تدابيرنا بالنهار لكي تكون أفكارنا نقية، كذلك أُمرنا أيضاً أن نطهِّر أجسادنا وأنفسنا بالصلاة في الليل لكي ننعتق من الأحلام السمجة؛ لأن الشياطين يحركون حيلهم ويرسمونها فيها.

٤٢ – كلما يهدس (العقل) بشيء رديء يكتبه على كِتَاب القلب من نسخة الحواس والتذكار، يمحوه الإفراز الجيد من القلب ويستأصله حتى لا يخرج للفعل.

٤٣ – النية الصالحة في كل حين تؤنِّب وتبكِّت وتحكم النطقية أن لا تكتب الشرور، وتبكت الحواس وتعظها أن لا تعطي مادة ردية، بل أن تعين الإفراز حتى إذا انكتب شيء رديء تمحوه

فلا يخرج للفعل.

٤٤ – الضمير والتمييز والذهن هم المرتِّبون والمطقِّسون وسُرُج كل بيت القلب.

٤٥ – اللسان الكنعاني يسرق كنوز القلب ويفضح النفس ويُفقرها. أمَّا النعمة فإنها تعين كل من يريد لنفسه عمل الصلاح. والذي يختار لنفسه الشر يسقط من النعمة ويعضده الشيطان ويعينه لهلاكه.

٤٦ – كل أحدٍ منا على قدر ما يسدُّ منافذ الحواس ويحفظها من الملاقاة لئلا تدخل المياه المكدِّرة إلى داخله وتحرِّك التذكارات الغريبة وتنجس بيت القلب، هكذا يستنير في الصلاة كل حين.

٤٧ – إذا ما انقلعت الآلام بحفظ الوصايا، وتبدَّد ضباب ظلمة الطغيان بالأعمال، ولم يتبقَّ شيء من ظل الآلام على النفس، وقام الطبع بمجد طبيعة خلقته بالنعمة، فإنه عندئذ ينظر نفسه بنور عدم الآلام ويفرز الحق من التشبه والضلالة ويخرج الأفكار والكلام والأعمال إلى الفعل بلا بلبلةٍ ولا خباط.

٤٨ – متى لم يتبقَّ في وجه العقل آلام ورسوم هيولية للعالم المحسوس، لا بالذِكر ولا بالهذيذ ولا بالأفكار، حينئذ يقدر الذهن أن ينعتق من الهمِّ والأحزان والخلق والغيرة والمفاوضات والتحيلات التي تنجس الإنسان وترذله، ويزرع داخل القلب السلام الرُّوحاني والفرح السيدي.

٤٩ – إن كان ملكوت الله ليس فيه خباط ولا تكدر ولا حزن ولا كآبة أو ندم أو تَغصُّب أو خوف أو عذاب، فمن البيِّن أن الذهن قد مات عقلياً للخطية، وقام بالرُّوح للبر والصدوقية، وانعتق من الندم والحزن والخوف، وملك فيه السلام والحب والفرح بالرُّوح الْقُدُس.

٥٠ – احذر أن تطفئ وتبدل السلام (الذي من الرُّوح) بالسلام (الذي من العالم) والفرح والعزاء بالعزاء وما تبقى.

٥١ – كل سلام وكل فرح يتولد من سببٍ فليس هو قائمٌ بذاته؛ لأنه يتخذ سبب وجوده من العالم، والعالم ميَّال بطبيعته. فالموضع الذي ليس فيه حرية حقيقية منعتقة من ميالة الآلام لا يكون فيه سلام وفرح حقيقي.

٥٢ – الصبر والتجلد هما بنتا التغصب، وطول الرُّوح وسعة النفس والتمهل (أو طول الأناة) هي بنات الحرية. ولهذا فنحن بالصَلَوَات الدائمة والدموع المحزنة والتضرع والطلبة والتمرغ (على الأرض) والميطانيات وتلهُّف القلب المحزون بالله والاشتياق والاتضاع بانسحاق الندم، بهذه جميعها نتأمَّل ونترجَّى كل ساعة فعل النعمة، ونجلس في السكون تحت ستر ظلال العلي لنؤهَّل لإنعام ذلك السلام والعزاء الذي لم تنظره عينٌ ولم تسمعه أذنٌ ولم يخطر على قلب إنسان.

٥٣ ــ ما دام في داخلنا ألم، فالنفس باختيارها تكون مرتبطة بحبه، ولهذا لا يمكن أن يفعل فينا الرُّوح باستعلاناته المجيدة، وإن كان يفعل في بعض الأحيان يكون فعله لمجاذبة السذّج وعزائهم فقط.

٥٤ ــ قوة الفضيلة التي نعملها بتغصب وقسر مثل العبيد تحت اضطرار الشريعة والناموس والقوانين المحدودة، هي شيء يختلف تماماً عن قوة الفضيلة التي نعملها اختيارياً بحرية إرادة البنين من حرارة الحب بالسلام والفرح السيدي.

٥٥ ــ قوله اعبر عن الشر وتجاوزه، يعني به الفضيلة التغصبية التي بتَدْبِير الاضطرار القسري الشرعي تلد البرَّ. أمَّا التغصب في صنع الصلاح فهو فضيلة التَدْبِير الإنجيلي التي نعملها باختيارنا بحرية البنين، وهي تشركنا بالرُّوح الْقُدُس وتقدس النفس وتملأها سلاَمًّا وعزاءً وفرحاً.

٥٦ ــ التدابير الفاضلة التي تُعمل بالتغصب من أجل ضرورة الناموس وليس من أجل الرجاء المزمع، لا يوجد فيها فرح حقيقي ولا سلام أو حب روحاني يفرح في كل شيء ويصبر على كل شيء، بل هي برُّ التغصب من أجل الخوف والدينونة والعذاب.

٥٧ ــ والتدابير الفاضلة التي تُعمل باختيارنا بالحب الإلهي، ليس فيها تغصب أو اضطرار يطالب ويلوم ويهدد، بل هي النفس تكون قد ارتبطت بالحب الإلهي بالرجاء العتيد وامتلأت بفرح الرُّوح الْقُدُس.

٥٨ ــ لا ينبغي أن يطغى المتوحد روح فرز (أو شرح) الدعوات والأسماء والألفاظ فيخيب ضميره من حقيقة فهمها. كذلك لا ينبغي أن يقرأ بهمج دون أن يميز ما يقرأه نيِّراً. أمَّا النوع الأَوَّل فيولِّد الملاججة وتقسُّم الضمير، أمَّا الثَّانِي فيولِّد البطالة والطغيان (أي الضلالة).

٥٩ ــ حياة المتوحد وأمل رجائه هو أن يتعرَّى من العالم المنظور ويمحو تذكار تصوره من قلبه، ويصوِّر العالم الجديد في عقله ويرسم فيه ذكره والهذيذ به بلا فتور.

٦٠ ــ هذا العالم المتغير المملوء من الاضطراب والحيرة لا يوجد فيه حقٌّ قائم بذاته بغير ميالة. فإن نور عدم الآلام الذي يؤهَّل له القديسون بالنعمة هو إشراق نور العالم الجديد الذي من اشتياق حبهم للإلهيات يستحقونه كما في مرآة. كذلك أيضاً الحق الذي نعمل به الأعمال الصالحة هو شعاع الحق الذي في داخلنا.

٦١ ــ إذا كنتَ حقاً قد بدأتَ بكل قلبك أن تعمل الأعمال وأن تحفظ الوصايا وتجاهد مقابل الآلام وتكمل التواضع لأجل حب المسيح وسلامة قلبك، عدَّ نفسك أن تقبل كل ما يأتي عليك من المضاد ومن الأصدقاء والمحبين: كل ازدراء وتعيير ومحقرة وخسارة وهزء وأمراض مختلفة وانحلال الجسد وعدم وجود ما تحتاج إليه لاستعمال القوت الضروري مع ربوة شرور؛ لأنه قد كُتب أن حب الله يُختبر بالأشياء الضدية. فإن احتملت هذه الأمور كلها بغير تذمر بل بشكر، ثق وارفع رأسك واقبل داخلك فعل النعمة في الخفاء وعش بالسِّر لله بعزاء نفسك خفياً.

٦٢ – لا يمكن أن تنقلع الآلام من النفس بشيء ما مثل غلوة الحب الإلهي. هذه الحرارة هي جهاد النفس التي تقاتل بحدةٍ مقابل الآلام.

٦٣ – ليس سلامٌ في المجاهدة مع الآلام، بل عندما تحزن النفس على خيبتها من السلام تحتد باليقظة مقابل الآلام التي تخيبها من إدراك السلام، وتجاهد حتى إلى الموت. فأمَّا أن تغلب وتقهر الأعداء وتستريح بالسلام أو (تموت) وهي في حدَّة الغلوة بالجهاد مع الآلام التي تكدر سلامها الداخلي. لأنه يفهم ويعرف أنه إن كان يموت وهو في هذه الحرارة قبالة الآلام لأجل سلام قلبه، فهو ينعتق في العالم الجديد من الندم ويؤهَّل للسلام والتنعم مع المسيح.

٦٤ – ما دامت الآلام تعمل بوحشية فليس هناك موضع للزكاوة، لأن النفس تكون قد استُعبدت غصباً عنها لذلك الألم الذي انغلبت منه؛ فإن السلام يملك في النفس بعد الزكاوة والنقاء من الآلام؛ ويُحفظ بمراحم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح بالهروب من جميع الملاقاة النافعة والمخسرة.

٦٥ – الذي يسير في البحر مستجداً تطير به المركب مسرعة كما بأجنحة لكل ناحية تتجه إليها، أمَّا هو فيظن أنه واقف في مكانه لا يتحرك. هكذا الذي يزلُّ من الحق فإنه كل يوم ينحط إلى أسفل بسيرة تَدْبِيره الخائبة من النعمة، أمَّا هو فيظن أنه إلى قدام، ويقول إني وإن كنتُ لا أمتدُّ إلى قدام إلا إنني لا أتحرك من الموضع الذي أنا فيه (مع أنه يجري إلى الوراء). وهذا يعرض لنا عندما ندين ضعف وعجز رفاقنا ونقبل عليهم المثلبة ونبرر أنفسنا بالقياس إلى الآخرين.

٦٦ – الذي يريد أن يتشبَّه بالله بعظم معرفته، فهو عوض سلامة قلبه ولأجلها يحمل عجز الكل كالله بغير تبرم، ويثبت مع الضعفاء الذين هم أحط منه، ولا يتغير أو ينقلب من الصلاح الذي كان مرتسماً فيه أولاً، وإن اضطر في وقت من الأوقات أن يغير نوع زيِّه لأجل تقويمهم يحرس ويحفظ ما يخصه بشبه الله، لئلا فيما هو يقدِّم الشفاء للآخرين يتحكم فيه هو نفسه جرح قساوة القلب ويتمكن منه ألم الزهردة (أي الاعتداد بالذات).

٦٧ – الآلام هي أمراض النفس، والنفس التي لم تنعتق بعد من الآلام لا ترث ملكوت الله التي بداخلها.

٦٨ – الآباء لا يُظهرون لأولادهم أسرار (أمَّاكن) كنوز ذخائرهم ما دام الأعداء مستترين في بيوتهم. هكذا الرُّوح الْقُدُس أيضاً لا يُظهر سرَّ ملكوت الله الذي بداخلنا ما دامت النفس مرتبطة باختيارها بالآلام.

٦٩ – كل ألم أو فكر يدخل فينا ويُقبل ويثبت هناك، اعلم أن له ابن جنسه داخلنا وهو يغذِّيه ويهتم به. أمَّا إذا لم يكن له مِن جنسه فهو بسهولةٍ يضمحل ويُستأصل. فإن قبلناه بلذَّةٍ فهو يتسع ويتأصل ويمسك بالقلب إن كان لليمين أو للشمال، ولا يمضي أو يُطرد بدون تغصُّب

وقسرٍ وصلاة.

٧٠ – الإنسان الذي أوفى ديون الآلام وكَمُل بفطنة المعرفة لا يوجد عنده خوف عذاب الجحيم ولا حزن ولا كآبة مَن يخيب من تنعم الملكوت، فهو قد ابتُلع بدهشةِ عمق أسرار الله، وتعجَّب ضميره من شرف ومجد العالم الجديد. غير أنه يحزن على طغيان الناس الخائبين بإرادتهم من مائدة أسرار الله، وقد أعدموا ذواتهم من المائدة الرُّوحانية التي لأسرار المسيح الخفية، ويريد إن كان يمكن أن يُذبح من أجلهم ويرجعون هم إلى ميراثهم.

٧١ – خيالات سكون القلاية العميقة التي ترتقي مصاعد الظنون (أي العظمة) هي قوية جداً ومتفقة معاً، وقد أهلكت كثيرين بتردد الأفكار. ولا يمكن أن تنغلب إلا بالصلاة والتواضع وانسحاق القلب ومحقرة الذات، وأن يزدري الإنسان بنفسه ويمقت ذاته، ويتعجب من طول أناة الحامل والصابر على زلاَّت ضعفنا.

٧٢ – كل شيء تتكلم به بغتةً أو تفعله بحدَّةِ وَثبةِ الخباط (أي بعجلة واندفاع)، فأنت تكون بذلك قد أكملت شهوتك.

٧٣ – كل فكر يصعد بغتةً وتتعجب بحسنه وتدهش من دقته ومن الكرامة والمديح الذي يصادفك بعد أن تتكلم به أو تفعله، ولا تكون قد هدَّأتَ حدَّته واختبرته، ويحثُّك ضميرك أن تفعله سريعاً، اعلم أنه من فعل الشيطان الذي يُضل ويُزعج ويتحايل أن يكدر نقاوة نفسك.

٧٤ – وكل فكر يَعِدَك بغلبةٍ ومديح بحدَّة الوثب (أي باندفاع) من غير تمييز النية الحسنة، اعلم أنه يجلب لك محقرة ورذالة.

٧٥ – كثيرة جداً ودقيقة هي تعاليم المدرسة الداخلية أكثر من المدرسة الخارجية، وشرور كثيرة تُعمل بها بشبه الحق من غير تمييز وفحص النية الحقيقية. وتكون بالأكثر حادة الحركات منحرفة ومتحيرة، ولم يتَّزن ضميرها بسلام هادئ وثابت، بل إذا ما بنى الإنسان باليد الوَاحِدة فهو يهدم باليد الأخرى بلا قيام.

٧٦ – حدُّ معرفة الحق وَاحِد هو: أن يفهم الضمير المُفرز بالتأكيد أن هذا هو الحق وتشهد له نيَّته بشبه بولس الْعَظِيم أنه إلى الآن ما قد عرف حقيقة الفعل كما ينبغي أن يُعرف. ولعل بهذا يوجد السلام الهادئ والفرح السيدي داخلنا.

٧٧ – هوذا الحق قدام عينيك يا أخي، فتش وافهم إن كان قد أُعطي لك، واعجب بكل ما يُكتب نيِّراً وبما يقال مستقيماً ويُصدَّق في هذا العالم بحقٍ؛ ومع هذا فهو ناقصٌ جداً عن حقيقة الحق المزمع (أن يُستعلن) كمثل عوز ونقص الظل والفيء عن الجسم.

٧٨ – كما أن كل فضيلة تشرق في موضعها، هكذا أيضاً الحب الإلهي في بلد الرُّوح يُذاق للقديسين بالسرِّ.

٧٩ – كما أن الثوب النقي بعد جهدٍ يثبت بياضه بين الصبغات، هكذا أيضاً الذهن الطاهر بعد جهدٍ يُحفظ بلا عيبٍ وسط كثيرين.

٨٠ – إن كان الذهن العاري إذا ما عبر على الصالحات والشرور لا ينضنك، إلا أنه ما دام مشتبكاً مع اللحم والدم فهو يَثِبُ جزئياً على حدود السلام وعدم الآلام ثم يرجع إلى موضعه.

٨١ – كمال عدم الآلام هو الانعتاق من الميالة؛ لأنه لا يمكن أن يقام (عدم الآلام) مع الخلطة باللحم والدم التي تتركب من عناصر متغيرة. ولكن ليس كل مَن هو مُركَّب مع العناصر مربوطاً بالميالة أو خاضعاً للعناصر بالضرورة.

٨٢ – العقل الذي تنقَّى واستنار بالتمام، هو أيضاً في الأفكار الجيدة يقدر أن يقبل متواتراً[٧٥].

٨٣ – طالما أن التذكارات تثير الأفكار، والأفكار تزعج الذهن، والذهن بسبب انقسامه يشوِّش العقل والتمييز والفهم؛ فلا تتوقع أن تمتلك السلام في أرض قلبك.

٨٤ – عندما تصلي انظر إلى نفسك لترى ما إذا كانت أرضك خالية من الأوجاع حتى يضع الله فيك الأمور التي تطلبها منه، وإلا فهو سيجيبك بإشفاقٍ: «فرِّغ نفسك من أمورك الداخلية لكي أضع فيها أموري التي تطلبها».

٨٥ – الرؤية الإلهية النقية في وقت الصلاة تشبه ذبيحة روحانية موضوعة في صينية العقل على مذبح القلب، وهي تتفرس في القلب دون أن ترى أيَّ شيءٍ آخر.

٨٦ – عندما تشرق الشمس فهي تبدِّد بسرعة ظلمة الليل كلها دون أن تستعمل نوراً صناعياً؛ هكذا عندما يشرق نور المسيح فينا لا تحتاج النفس إلى معرفة مناهج معينة.

٨٧ – في الوقت الذي يُظلل فيه روح الله عندما يكون الباب الداخلي الذي لقدس الأقداس محروساً بالنعمة، بينما يملك الهدوء والسكون والذهول على الحشد الذي في الداخل، لا تتجاسر كرفيق جاهل وتثير بداخلك أيَّ تساؤل أو تأمل لئلا تندم بعد ذلك، بل أوقف نفسك من كل نشاطٍ كما لو كنتَ في نومٍ (عميق).

٨٨ – عندما تكون غير منشغل بشيء، لا تدهش إذا ظلَّلتك النعمة ووجدتَ نفسك في سلام عميق؛ فهذا لا يكون منك لكنه من رحمة الله التي تحثنا وتجتذبنا نحن الخطاة إلى الحياة.

٨٩ – عندما يفلت القديسون من سلطان الأوجاع وتتجدد نفوسهم بالرُّوح، فإنهم في وقت الصلاة يُحسبون مستحقين لدالة سرِّية أمَّام أبيهم، وتتبدد من أمَّامهم طبيعة (أو هيئة) هذا العالم ومادته.

---

[٧٥] هذا ما جاء بالمخطوطات العربية. وما لم يترجم لقتطفات وراتف للترجم الإنجليزي.

المَيْمَر السَّابع

١ – التجديد العقلي للقديسين هو تاج العقل والفهم الذي اقتنى شركة مع الله من خلال استعلان أسراره المجيدة. أمَّا التجديد الشامل للكون فهو القيامة العامة للكل.

٢ – عندما تكفُّ الأمهات تماماً عن إنجاب الأَوْلاد، فإن آخر عدو سوف يبطل، الذي هو الموت، وتشرق القيامة على الفور بجمالها المشع، وتُرى علامة صليب الرب، ويظهر المسيح متألقاً في مجد ملائكته الْعَظِيم، ويُرفع عن الجميع برقع الضلال، وتملك القيامة كما هو مكتوب. وبإشارةٍ تتغير كل المخلوقات وتنال التجديد.

٣ – سيُكشف العدل بغتةً مقترناً بالرحمة، وسيلتحف العصاة والشياطين بالخزي والظلمة والندم، ويخرج ثوب أعمالهم من داخلهم. أمَّا الأبرار فيتسربلون بثوب مجدهم. عندئذ تتدفق النعمة، ويسطع جَلد السماء مضيئاً، ويقف الملائكة والناس والشياطين برهبةٍ عظيمة. وسوف يُرفع الأبرار على أجنحةٍ من نور لملاقاة رَبِّنَا، ويدخل العريس إلى خدر العُرس الرُّوحاني المُعدّ لمدعويه، ومعه يدخل بنو النور المدعوون الذين بإخلاصهم وأعمال أمَّانتهم كانوا ينتظرون وليمة العُرس. حينئذ سيُغلق في الحال باب خدر العُرس، ويبقى الأشرار في النصيب السفلي الذي اقتنوه لأنفسهم بأعمالهم الغاشة.

٤ – سيحلُّ بغتةً فزعٌ رهيب على الذين يبقون في المكان السفلي عندما يرون الأبرار يُرفعون في نور لملاقاة الرب، ويتفجر من داخلهم فيضُ ظلمةٍ مرعبة وعذابٌ وندم محزن يبتلع حياتهم. وهكذا يُعاقبون بعدل رحمة الله، ويكون وجودهم كله هناك عويلاً وصرير أسنان.

٥ – حينئذ يقدِّم المسيح ابن الله الذي تخضع له كل الأشياء، إكليلَ النصرةِ ممجِّداً ذاك الذي أخضع له الكل، ويصير الله الكلَّ في الكلِّ، كما هو مكتوب.

٦ – وسيتكئ العريس السمائي أمَّام مدعويه مكلِّلاً إياهم بمجدٍ مضاعف، ويجعلهم يتكئون وهم مزيَّنون بمجد جهادهم إلى الأبد، ويسكب عليهم موهبة نعمته، ويكلِّلهم بإكليل من نور وبتألق لاهوته. وهو سيغطيهم بمجد ملكوته الأبدي ويضيئهم بالنور حيث يبتهجون بفرح الوجود مع المسيح في سعادة وبهجة لا نهاية لها.

٧ – ذهولٌ مليء بالخشوع سيحل على الطبيعة كلها عندما يحدث التغيير الْعَظِيم في طرفة عين، فتنال طبيعة البشر تجديداً كاملاً غير ناقصٍ لا يتضاءل قط. فهم سيوقَظون في القيامة العامة كما من نومٍ، حينئذ يضيء الأبرار كالشمس وكالقمر والنجوم العقلية.

٨ – كما أنه لا توجد هنا معرفة عن العالم الجديد ولغته، هكذا فإن لغة هذا العالم لن توجد هناك فيما بعد، بل سيملك على الكل هدوءٌ وسكونٌ عميق بمهابةٍ ومجدٍ لا يُنطق به. لأن الذين انتظروا العريس المسيح عبر جميع الأجيال سيسكرون بحبه.

١١ – إن فعل إعطاء الله الحياة الأبدية للبشر سيكون مستمراً، لأنه لو توقف فإن أبدية

حياتهم ستتوقف. ولهذا فإن عطيته لن تُسترد، وحياتهم لن تنقص، حيث أنهم لن يكونوا مُرهقين بالعمل بل سيكونون روحيين.

١٣ – دعونا لا نجري وراء أمور متعددة كثيرة من التي لها معانٍ سرية مخفاة؛ ودعونا لا نحيد عن الحق، بل فليكن إيماننا كافياً للحق. إن المعرفة الحقيقية فيما يختص بسر الثالوث الأقدس معروفة بـ: عدم الابتداء والبنوة والانبثاق. والثالوث يصير واضحاً للذهن المجرَّد عندما نصير مقتنعين تماماً بالقول وبالفعل بحقارة وضعف طبيعتنا. فطالما أننا نقبل حقائق الكنيسة المقدسة فيما يخص كل ما ليس له شبه، فنحن عندما نُرفع إلى العلا في مجدٍ سوف نبلغ إلى المعرفة الحقيقية للحق ذاته.

١٤ – هكذا أيضاً لا يمكن وصف الأسرار المجيدة التي للعالم الرُّوحي بتركيب الكلام، كما لا يمكن أن تُصوَّر في ذهن جسدي. لأنه يستحيل لأي استعلان للروح البسيط أن ينكشف للعقل الذي صيَّرته كثرة المناهج المعقدة مُركَّباً.

١٥ – ولكن النفس من خلال نور الإيمان وحده يمكنها أن تنال معرفةً بهذه الأسرار مما قبلته من الأسفار الإلهية المقدسة. لأنه حتى الكِتَاب المقدس لا يستطيع أن ينقل إلينا معرفةً لم نقبلها بخصوص هذه الأسرار، وهي بدون نور الإيمان تظل غريبةً عن معرفتنا.

١٦ – بواسطة الأمور الثمينة الجذابة التي نعتبرها جليلة وشهية يثير الكِتَاب المقدس استعدادنا الطفولي، ومن خلال الأمور التي تنبهنا وتخيفنا يُرعب خشونة تفكيرنا.

١٧ – عندما تشرق شمس الوداعة والاتضاع العقلية في القلب، وتنقشع ظلمة خداع الغرور، لن تحتاج النفس مرة أخرى إلى مناهج المعرفة لتبحث عن الحق بواسطتها.

١٨ – سكون العقل يتولد من فعل النعمة، وهو لا يختلف كثيراً عن حلاوة النوم عندما تكون النفس غير بعيدة عن المعرفة التي تعمل بغير معرفة (أي لا شعورياً).

٢٠ – أيُّها الإنسان، يا من تجتهد أن تحفظ سلام قلبك، لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر التي لرفقاء رحلتك. ولا تفحص طبيعة أعمالهم الداخلية، وأنت لا تفقد سلام قلبك. أمَّا إذا بدأت أن تفحص أعمال قريبك فلا تتذمر عندما تجد نفسك مضطرباً.

٢٣ – إذا أراد راهبٌ أن يرى رَبِّنَا في داخله بالرُّوح كما وعد في الإنجيل، ولكن مشيئته تميل بدلاً من هذه الرؤية إلى قبول منظر أو صورة أو تخيل وهمي، فهو لن يُحسب أهلاً لدخول خدر العُرس الرُّوحي الذي في داخله.

٢٧ – الرَّاهِبُ يشبه إنساناً يُطعم جسده ويسقيه كل يوم ويعتني بصحته؛ لأنه يدخل إلى إنسانه الباطن يسقيه ويهتم بصحته. فهو بالصَلَوَات الدائمة يُحضره إلى يسوع طبيب نفوسنا، وفي كل ليلة قبل أن ينام يُحضرة إلى المحكمة ويحاسبه ويُسدد ما هو مدين به ويطلب لنفسه الرحمة والتوبة.

٣٠ – الرَّاهِبُ الغني في الصلاة هو غني أيضاً في الدالة أمَّام الله؛ وبقدر ما يكون الجهاد في الصلاة متواتراً وبلا ملل بقدر ما يكثر انسكاب النعمة ويصير العقل مستنيراً.

٣٣ – يتغير العقل ويتجدد أثناء الصلاة بواسطة الحزن أو الفرح. أمَّا الصَلَوَات والتنهدات فهي تتناسب مع التَدْبِير والقراءة والهذيذ والتأمل والمصادفات.

٣٦ – السفينة حتى ولو كانت محمَّلة بذهب وحجارة كريمة، إذا هي فقدت طريقها وسط البحر الواسع الْعَظِيم وصارت بلا رجاء في الوصول إلى ميناءٍ هادئ، فلن يكون لها أية منفعة. هكذا النفس، فحتى لو كانت محمَّلة بالعلم والمعرفة والفطنة الثاقبة والأفكار العميقة وينابيع البصيرة، ولم يكن لها رجاء في بلوغ النقاوة والصفاء واللطف والسلام والصلاح والفرح، فلن تنتفع شيئاً.

٣٧ – لا يمكن للإنسان أن يتقبَّل استعلان الحق ويذوق حلاوة الله من تعليم الكلام المسموع أو المقروء ما لم تشارك روحه روح يسوع، ومن خلال فعل الرُّوح تقتني نفسه وداعة يسوع واتضاعه واحتماله لضعفات الآخرين ويغلب الشرَّ بالخير.

٣٨ – عندما يتنقى ينبوع القلب من قذر الأوجاع، وعندما يملك السلام والنور، فإن القلب لا يستاء عند ذكر سقطات الأشخاص البعيدين ولا يثيره الغضب والغيرة عند مواجهاته مع الخطاة، بل بالحري إنه في كلتا الحالتين: الذكريات والمواجهات مع الصالحين والأشرار، يكون عقله لطيفاً طيباً، ويكون ممتلئاً بالحب والهدوء الكثير متحنناً مثل يسوع مخلِّص الكل الذي لا يتأفف من سقطاتنا ولا يتحول عنا باشمئزاز من جروحنا المتواصلة.

٣٩ – عندما يُحسب العقل مستحقاً بالنعمة أن يرعى في مرج الأسفار المقدسة والكائنات المخلوقة وعناية الله المملوءة حنواً وحكمته في الخليقة وأعمال عنايته العديدة، حينئذ يُبتلع بحلاوة هذه الأمور لدرجة أنه لا يعود يدرك لا الخير ولا الشر الذي يحياه رفقاء رحلة عمره.

٤٠ – عندما يُحسب العقل أهلاً بالنعمة أن يدخل في سهول الطهارة الصافية، فهو يرعى هناك في أراضي السلام هذه التي لا يوجد فيها جروف صخرية ولا مرتفعات؛ ذلك لأن الحسد والغضب والعناد والشر والرياء قد طُرحت بكاملها إلى الخارج. وإن واجهتنا الأحداث فإن العقل يقبلها باعتبار أنها تختص به بالحق دون أن يضطرب لها.

٤٢ – إن كنتَ قد وجدتَ الحقَّ في داخلك فلا تسمح لنفسك أن ترتبك بكثرة الطرق المختلفة التي تُستخدم لأجل الفضيلة. فعندما يكون جو سماء قلب الإنسان منيراً هادئاً وساكناً سيعلم كيف اجتاز من الموت إلى الحياة.

٤٤ – الرَّاهِبُ الذي أفكاره مستغرقة في المسيح، وعقله غارق في النور والحق والحياة، لن يرى أيَّ شيء آخر.

٤٦ – أيُّها الإنسان الذي تبذل جهدك لتُسكّن حركات نفسك وتنقي مرآة قلبك من دنس الأوجاع، فيما أنت تهتم بأمورك الداخلية، اهتم أيضاً أن تغلق بإحكام منافذ حواسك الخارجية التي تستقبل الأوساخ وتعكِّر صفاء نقاوة نفسك.

٤٩ – طالما كانت مذراة اللسان لها قوة على كنوز قلبك حتى أنها تضايقك وتسبب لنفسك خزياً، فاحفظ أنت ثرواتك الرُّوحية مكنوزة داخلك.

٥٤ – عندما تقع بذرة من الأوجاع أو من الفضائل في حقل قلبك فهي تكون في البداية أصغر وأقل من أي بذرة تقع في حقل الأرض. وهي تموت وتهلك أو تنمو وتقوى وتعطي ثمراً حسب الفلاح الذي يتعهدها؛ فهو أمَّا أن يجعلها تنمو أو يتركها تذبل.

٥٨ – ويلٌ للإنسان الذي لا يكون حاراً في تَدْبِيره كما كان الرسل المباركون الذين تعرَّضوا للاستهزاء بهم من الناس لأنهم استحقوا الخمر الجديدة وصاروا سكارى. ولكنه مباركٌ ضِعفين هو الإنسان الذي بعد الحرارة الأَولى يُحسب مستحقاً للحرارة الثَّانِية، الذي ينال سلأمًّا وهدوءًا والذي يعطي الثمار التي ذكرها بولس الطوباوي.

٥٩ – تماماً كما أنه لا فائدة من أن يكون الإنسان غنياً بالأتعاب الجسدانية في حين أن عقله قد انعمى عن إدراك كلمة النور، هكذا وبنفس الطريقة يكون الإنسان الذي يحوم عقله حول أفكار الأوهام وتخيلات الذهن والتصورات غير المادية، بينما هو خالٍ من أعمال التوبة. لذلك قد أوصى رَبِّنَا أننا بالتساوي نعطي «ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

٦٠ – أيُّها الرَّاهِبُ المُفرِز، يا من تمسك بكلمات الصلاة ثم تطلقها حرة مرة أخرى لتطير في الهواء، تفرَّس في داخلك واستوعب ببصيرة أقوال الكِتَاب الموضوعة بالرُّوح، وتعجَّب من قوة محتواها الداخلي وليس من حلاوة نغماتك.

٦١ – أيُّها الرَّاهِبُ، يا من تُركِّب كلمات الصلاة من الأفكار المتجولة فيما يخص الطبائع وأمور الخليقة، استجمع فكرك من جولانه بالقراءة والنمو في الأمور الرُّوحية. اطبع كلمات صلاتك في كِتَاب قلبك حيث يسكن المسيح النور الحقيقي.

٦٤ – الرَّاهِبُ الذي يتفرَّس في قلبه ويطبع كلمات صلاته على لوحته يتحرر من التشتت ويُحسب مستحقاً لاستنارة العقل ودهش الرؤيا.

٦٥ – بِحَكّ خشب بخشب تشتعل النار، وبكلمات الصلاة مع التأمل داخل القلب تشتعل نار الحب وبتأجج الاشتياق إلى المسيح تتفجر إلى لهيب.

٦٦ – إخماد الرغبة الوحشية إلى الزنى أسهل جداً من إخماد الرغبة المتأججة إلى الأمور الإلهية؛ فالإنسان يُشتم ولا يعلم، ويُمجَّد ولا يدرك، ويجوع ويعطش ولا يفكر في ذلك.

٦٧ – عندما نوجد في مجال النقاوة الصافية فإن الأوجاع لا تجسر على مهاجمتنا قسراً، ولا حتى أن تستخدم مكائدها ما لم نخضع لها نحن بإرادتنا. وبنفس الطريقة، عندما نوجد في مجال

الأوجاع ليس من الصواب أن نحاول الدخول بالقوة في مجال النقاوة ما لم نطرح أولاً من أنفسنا مسرَّة الأوجاع ولذتها، ونستودع أنفسنا للصلاة الحزينة والدموع.

٧٣ – أيُّها الإنسان الذي تلوث ضميره واهتزَّ، ومع ذلك تمتلئ بالغيرة وتطلب العدل من جهة الآخرين؛ فعندما يبدو لك أن إخوتك يخطئون، لا تنزعج ولا تضطرب هكذا سريعاً ولا تعنِّفهم بسبب غيرتك الحمقاء. الأحرى بك أن تنظر إلى داخلك وتفهم أن مرآة ضميرك قد تلوثت بوسخ الحسد والحقد غير اللائقين، وأن عقلك بدأ أن يرى الأمور الطاهرة كأنها نجسة. افهم أن الأشياء الرديئة التي تراها في الآخرين هي ظل التصورات غير الطاهرة التي انطبعت على مرآة قلبك في الداخل، وهي تظهر خارجياً في انعكاسها على الأعمال الصالحة التي لإخوتك؛ وهكذا تبدو لك الأمور الطاهرة كأنها نجسة. فلا تحكم أنت بالخطأ على الأمور الخارجية بل على تلك الأمور الداخلية التي في ضميرك المزعزع الملوث.

٧٤ – كثيراً ما يحدث – كنتيجة للوَهم أو بسبب كلام الناس وما إلى ذلك – أن يصير الإنسان ملتهباً بغيرة إلهية، ولكن «ليس حسب المعرفة»، كما كتب القديس بولس، وهكذا يقع في التجارب. فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يرى قريبه كما هو إلا بواسطة عين قريبه الخفية، وهو أمر يستحيل تحقيقه، فمن الواضح إذن أن كل إنسان يرى قريبه مثل نفسه هو وليس كما يكون قريبه على حقيقته. فعندما ترى سقطات الآخرين ادخل إلى داخل نفسك وتفحَّص سقطاتك أنت، وافهم جيداً أنك إن لم تعتبر أنها هي السبب وليس شيءٌ آخر، فأنت لن تتحرر أو تجد سلأمًا. بعض الناس عندما يرون شبه ذباب يتحرك أمَّام عيونهم فإن الأطباء لا يعتبرون أن عيونهم مريضة بل بالحري المعدة الموجودة بداخلهم؛ ولهذا فهم يداون عيونهم بإعطائهم جرعة مطهرة داخلياً وليس بعقاقير للعلاج الخارجي.

٧٥ – عندما تبدو لك – بعطية رحمة الله – تدابير وأعمال كل الناس بالتساوي جيدة وجميلة، فافهم أن مرآة ضميرك قد صارت بالنعمة صافية ونقية من أوجاع الشر، وأن هذه فضيلة ليست منك بل هي آتية من معونة إلهية. فأعطِ مجداً لله كون نفسك قد بدأت تثمر ثمار الرُّوح. الإنسان الذي عين ضميره نقية لا يرى شرَّ قريبه. والإنسان الذي عين قلبه غير طاهرة لا يرى صلاح قريبه، بل بالحري يكون ذهنه دائماً مضطرباً مكروباً يتضجر من كل شيء يراه أو يسمعه أو يتذكره. هكذا يكون حال الإنسان الذي يعتد برأيه ويحتقر ويزدري ويستهين بقريبه الأضعف منه. فهو يطلب أن يُستوفى العدل في الآخرين، ولا يرغب أن يعبر إلى حياة النعمة السامية تلك التي استدعى نفسه إليها منذ أن هجر العالم والتصق بالمسيح بإيمان ورجاء ومحبة من خلال توبة صادقة وليس ببر الناموس.

٧٨ – كما أن الأشكال والألوان تزين الطلاء والصور واللوحات، هكذا فإن مشورات الشيوخ وتعاليم الحق تزين الكائنات العاقلة وتوجِّهها نحو طرق وعادات وممارسات سامية. فالنفس تتزين بالصَلَوَات المتواترة والتأمل في الأمور الإلهية وقراءة الكتب المقدسة واليقظة. أمَّا الإنسان الذي يفحص ويطلب معرفة أمور كثيرة، ولكنه لا يعمل إلا الأمور التي يجد فيها تكميل

مسرته فحسب، فهو يشبه الشياطين النجسة. وكما أن نور الشمس ليس له فائدة للأعمى، هكذا فإن نصيحة الشيوخ وتعليمهم ومعرفتهم لا منفعة لها للنفس التي تجردت من أعمال التَدْبِير الثابت، وقد أعمتها الأوجاع.

٨٠ – أيُّها الإنسان الذي صار مسكناً لله بالممارسات النسكية الراسخة، لا تثق بنفسك، وكذلك لا تستخف بأعمال تَدْبِيرك! لا تزدرِ – سواء داخلياً أو خارجياً – بالإنسان المُرضض بسقطاته وهو يعاني من مختلف الأوجاع التي تضغطه. بل خفْ أنت من الأوجاع ومن سقطاتك الخاصة إلى أن تصل إلى ميناء القبر، لأنك لا تعلم متى ستنزلق في السقطات نفسها التي جعلتك تزدري بالآخرين، أو إن كانت النعمة قد تتخلي عنك فتسقط مثل البرق من علو قمة تَدْبِيرك ولو كنتَ مرشداً لكثيرين.

٨١ – لقد ادّخر الرب بركةً عظيمة للإنسان الذي يُعزِّي آخر قد انكسر قلبه بالنسك وصار فقيراً معدماً باختياره ومزدرياً بنفسه. بل إن بركة فوق بركة محفوظة للإنسان الذي يظهر مشاركة عميقة في التألم مع آخر مذلول بالآلام والأمراض وبأحزان خاصة أخرى، كما ويشترك في الآلام مع آخر يعيش في مشقةٍ وحياة غير مثمرة، وهو محتَقر ومزدرَى به ومنبوذ ومنسحق القلب وسط زملائه وفي خزي أمَّام الآخرين وأمَّام نفسه أيضاً. فهكذا قال الرب: «طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون». ولكن ويل للإنسان الذي يطعن القروح التي بداخل قلوب الضعفاء ويسخر منهم! إنه يشبَّه باللص الشمال الذي سخر بالمصلوب.

٨٢ – الرَّاهِبُ الذي يصارع ويجاهد ليعالج الجروح الواضحة في نفسه ولكنه يدين ويحكم على المنسحقين والمرضى بالأوجاع بأنهم كسالى ومهملون، هذا لن يرى الكوكب المنير الذي يشرق في قلوب الذين يعرفون الحق. أمَّا الرَّاهِبُ الذي يعرف سقطاته ويعانق بحبٍ وشفقةٍ إخوته الأصغر والأضعف منه ويعزيهم، هذا سيجعله المسيح الرب مستحقاً أن يكون هيكلاً للشعاع الصادر من الآب، آمين فليكن! إنه مكتوب أن تعزية الجاهل هي كدمات وجروح للآخرين، أمَّا إكليل الحكيم فهو نصرة قريبه.

٨٤ – صلاة الخاطئ ذي القلب المنكسر والمذلول بالندم عند تذكُّره لأخطائه وسقطاته، هي أفضل من صلاة البار المتباهي والمنتفخ بالزهو والإعجاب بالنفس، الذي يمتطي جواد الكبرياء ويسلك بعجرفة لأنه يرى نفسه ثابتاً في المستوى الرُّوحي. لأن الخاطئ الذي يصير مدركاً لسقطاته ويبدأ بالتوبة، فهو بار؛ والبار عندما يصير واعياً لبرِّه وضميره راضٍ بذلك، فهو خاطئ.

٨٧ – البار المتباهي ببرِّه والحكيم في عيني نفسه، يشبه بحراً مُرّاً شديد الملوحة، وأمواجه ترتفع عالياً، ولكن بحّارته يهلكون عطشاً.

٨٨ – الإنسان البار الذي يبتدئ بدايةً ضعيفةً بأعمال فاترة، ثم يعود فيمتلئ حمية ويصبح جاداً صارماً، ويتحمل باختياره مشقات وصعوبة الفقر، ويتألم ويُظلَم ويجرَّب بالحر اللافح

والبرد الثقيل، وهو معذَّب بالتجارب من كل نوع، فهو في النهاية سيمتلئ بالحلاوة وذلك بطول أناته وبالسلام الذي يناله من الأعالي. إنه سوف يقتني حلاوة معرفة الحق؛ ولكن من النادر أن تجد إنساناً ينعتق من الصراع حتى آخر حياته. وهكذا كما يقول الكِتَاب، فإن ثمرة معرفة الإنسان الرُّوحية ستكون حلوة للأكل، ولكن أوراق شجرة نسكه المطلوبة لشفائه ستكون مُرَّة.

٩٢ – المعرفة السطحية التي تشتمل على أفكار ومعقولات دقيقة، وهي مثقَّلة بنير الأوجاع وبعيدة عن التدابير الراسخة وعن أتعاب التوبة والنسك (التي تكسر القلب وتذلّه وتدفع الإنسان بغيرة لكي يدرس في كلمات الكِتَاب المقدس ويهذ متأملاً في مراحم الله وفي الأسرار المجيدة التي للعالم الجديد)، هذه المعرفة السطحية قد اغتالت كثيرين وأنجبت أبناءً كثيرين لجهنم.

٩٣ – الإنسان البار حقاً، الذي يدرك العناية الحانية التي تظهرها مراحم الله نحو الكل، والتجديد الذي ستناله طبيعتنا عند النهاية، فهو يسكب رحمته بصفةٍ خاصة على الخطاة والضعفاء (من إخوته) لكي يأتي بهم إلى التوبة. إنه يفهم من خبرته الخاصة أنه رغم أن جميع أعضاء جسده تحتاج إلى عناية، ولكنه يجب أن يعطي اهتماماً خاصاً للعضو المريض أو المتألم أو المكسور؛ فعليه أن يضمِّده ويستعمل العقاقير ويهتم بشفائه حتى ولو كان أقل أعضاء الجسد كرامة. والآن فإن رأس جسد الكنيسة المقدسة كله هو يَسُوع الْمَسِيح، وكل وَاحِد منا هو عضو للمسيح في جسد الكنيسة سواء كان صالحاً أو طالحاً.

٩٤ – الإنسان البار في بدء صلاته يعظِّم الله ويمجِّده، ولكنه ينكر نفسه. إنه يبدأ كلامه بالصلاة من أجل سلام العالم والملوك والحكام. وفي بداية توسلاته يطلب من أجل هدوء الكنيسة وأولادها وقادتها. وفي بداية تضرعاته يسأل لأجل الخطاة والساقطين والضعفاء. وعندما يبدأ في البكاء والتنهد يتوسل من أجل التائبين والذين يعانون من الظلم ومن الشدائد والكروب والضيقات. وبعد ذلك، إذ يحتمي في صَلَوَاتهم يتقدم في طلب الشفقة والرحمة لنفسه.

٩٥ – الإنسان التائب بالحق، الذي قد تعمَّد بالماء والرُّوح وأخذ الحل من خطاياه بالنعمة، لا يمكن أن يرضى بأن يكون مقصراً في شيء. إنه بالحري يجاهد ويعب في التوبة بحفظ الوصايا، وذلك لكي يتطهر أيضاً من الأوجاع وينال التجديد بالفعل في ذهنه، ويدرك سراً عربون الرُّوح الذي ناله في المعمودية المقدسة، ويبتهج سرِّياً في عمق نفسه بفرح وتعزية روحانية.

٩٦ – عندما يعتنق الصديقون الإيمان البسيط بالمسيح بإخلاص وعدم شك، ويسمعون مواعيد الرُّوح أن «الذين يؤمنون بي يُخرجون الشياطين باسمي، ويحملون حيَّات، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون»، وما إلى ذلك، فإنهم بكل سهولةٍ يتممون بأيديهم الآيات والمعجزات ببساطة إيمانهم. أمَّا الإيمان الذي يأتي من معرفة الرؤية الإلهية فهو يفتش ويستكشف أسرار الإيمان. والإيمان أمَّا أن يتعوق عندما يدخل الإعجاب بالنفس ويتوقف عند مفترق الطرق، أو أنه يكون مسنوداً بالنعمة بسبب الأتعاب الدؤوبة والتَدْبِير الراسخ والدموع الحزينة، وإذ ذاك يكتشف نور المعرفة الحقيقية التي للعالم الجديد العقلي. فالإيمان هو عين

النفس، والرجاء هو رؤيتها، والمحبة هي النور الحي العقلي. والنفس لا يمكن أن تمتلئ بالفرح والتعزية الخفية إلا بفعل النعمة.

٩٧ – طالما أن الكرامة والهوان، والمكسب والخسارة، والصالحات والسيئات تأتي علينا من خلال الحواس وتزعجنا، فإن النفس تعاني من الخسارة وتحتاج إلى التعب والتمرين والتَدْبِير النسكي والسكون والابتعاد من كل خلطة. وباختصار، فإلى أن تُستأصل من قلوبنا تلك المدرسة التي تزرع فينا معرفة خير وشر القريب، وأن وَاحِداً صالح وآخر رديء، وأن هذا الإنسان بارٌّ وهذا الآخر خاطئ، وهلم جرا؛ وإلى أن تتأصل في قلوبنا مدرسة النعمة التي تزرع المحبة والرحمة والتغاضي عن جهالات الخطاة والضعفاء، وتسكب الرحمة بلا تفريق علىالصالحين والاشرار بالتساوي بشبه يسوع مخلص الكل – فإلى أن نفعل ذلك علينا ألا نتوقع أن تزهر فينا ثمار الرُّوح التي ذكرها الرسول بولس الطوباوي.

٩٨ – كل إنسان يجاهد في داخله ويأخذ لنفسه زاداً من الأسفار المقدسة ومن (التأمل في) الطبيعة وغير ذلك، فهو يزيِّن نفسه ويشبع جوعه. غير أن الشاب الذي يأخذ زاداً من الأسفار المقدسة ومن تأمل الطبائع المخلوقة، ثم يسرع إلى إشباع جوع الآخرين، يُهلك هو نفسه من الجوع. إنني أتوسل إليكم بحرارة أن تغفروا لي هذه الحماقة الشديدة، وليقل كل من يقرأ أو يسمع هذا الكلام بتنهدات: «يا رب أشفق على هذا الخاطئ!»

١٠٠ – لقد احتفظ الرب لنا ولكل الكائنات الرُّوحية بكمالٍ خالٍ من الانحراف كما هو الحال في العالم الجديد. أمَّا هنا فبحسب كلام القديس بولس: «الله أغلق على الجميع معاً في العصيان لكي يرحم الجميع»، أي الأبرار والخطاة. والرب يعلِّمنا في إنجيل الحياة أن نلتصق كل يوم بالتوبة، وأنه إن كنا مقصِّرين في الأعمال وليست لنا توبة يومية، فلا ينبغي أن نطلب علو المعرفة والإيمان والرحمة. له المجد وليجعلنا حكماء في حقه إلى الدهر آمين.

فليصلِّ كل من يجد هذا الكِتَاب. ولَيْتَ كل من يقرأه أو يمتلكه أن يصلي. ولنصلِّ كلنا معاً لأجل من يصلي، الآن وكل أوان وإلى الأبد وإلى دهر الدهور آمين.

أقوال للقدِّيس الْعَظِيم البابا أثناسيوس الرسولي

+ فلنتعلم لغة السماء التي هي الحب ونستعد للعيد الأبدي الذي لا ينتهي والفرح السمائي حيث الإتحاد بالرب يسوع والتمتع به بغيرحاجز.

+ + +

+ الله في استطاعته أنْ يطعم الفقراء الذين عهد لنا بهم لكنه يطلب ثمار البر ومحبة الناس.

+ + +

+ إن كانت الأرض مملوءة جمالاً فكم بالأكثر تكون المدينة السماوية لأنها دائما جديدة ولا تشيخ.

+ + +

+ إنَّ اتحادنا بالمسيح بتناولنا من جسده ودمه الأقدسين أسمي من كل اتحاد.

+ + +

+ الحسد يكسر رباط السلام الذي لرَبِّنَا ويتعدي على المحبة الأخوية.

+ + +

+ لزمنا أن نستعد للمعركة الرُّوحية غير واضعين أمامنا سوي مجد الحياة الأبدية وإكليل الإعترف بالرب غير مهتمين بما سيقابلنا من عذابات.

+ ++

+ إنْ كنا نتألم بسبب بغضة العالم فقد احتمل يسوع هذا.

+ + +

+ الذهن المُحب لله هو عطية الله غير المنظورة.

+ + +

+++ لو صمت ولم تحفظ لسانك فصيامك لا ينفع ويضيع باطلا +++
+++ التسبيح بالمَزَامِير دواء لشفاء النفس +++

+++ القديس أثناسيــوس الرســـولي +++

مَيَامِر
مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانـي
الجزء الْخَامِس

تمت الترجمة عن الكتاب:

C.S.C.O. Vol. 555 Lovanii 1955 by Sebastian Brock.

الفهرس

اليوم الأول: رسالة في تجلي رسوخ الكون ٤
اليوم الثاني: نور مطلق عن الانطواء قصور مرئي في النفس ٥٤١
اليوم الثالث: قائمة المعرفة ٨
اليوم الرابع: عن عمل الكون ١٨
اليوم الخامس: صلوات ٨
اليوم السادس: علامات الخصال هلل ٩
اليوم السابع: الإدراك الروح ٨
اليوم الثامن: الكون تشافات الكون ٥
اليوم التاسع: الثقة في الله 6
اليوم العاشر: الهذيان وممزقه ٥٦١
اليوم الحادي عشر: على توتر الصلب 6
اليوم الثاني عشر: على تجلي التوترا 3
اليوم الثالث عشر: على تجلي الإنسان الجوال 3
اليوم الرابع عشر: الزيارة خارج الصلاة 3
اليوم الخامس عشر: الصلاة القائمة الطاش 2
اليوم السادس عشر: التأمل الإله 23
اليوم السابع عشر: قائمة الفسوتراخ العقل 22
اليوم الثامن عشر: أوفى موضوع خاص 6
اليوم التاسع عشر: خصوصيات نول المعرفة الإله 6
اليوم العشرون: التأمل 63
اليوم الحادي والعشرون تجلي الرحمة ٤
اليوم الثاني والعشرون: غرارات التجلي ٥
اليوم الثالث والعشرون: خالق الكون ٥
اليوم الرابع والعشرون: أعمال الجسد وخامة الذهن 3
اليوم الخامس والعشرون بتبات الوقفة آل هاو والسلام 2

اليوم الحادي والعشرون: الباب التجارب المحزن ٦٠٥
اليوم الثاني والعشرون الخروج الأخير ٦١٠
اليوم الثالث والعشرون: على تراتيل الصلوات السابق ٦١١
اليوم الرابع والعشرون في وادي القرافة الأسفار إلهية ٦١١
اليوم الخامس والعشرون بالصلوات إلى الله الكون ٦١٣
اليوم السادس والعشرون: مسوتنا الله ٦١٥
اليوم السابع والعشرون: تراتيل تتأوهن بالصلاة ٦١٨
اليوم الثامن والعشرون: تراتيل تتقلدها من القراءة الكتب القديس ٦٢٠
اليوم التاسع والعشرون: تعزيات الكون ٦٢١
اليوم العاشر والعشرون: خاتم الذهن والركن الإلهية ٦٢٣
اليوم الحادي والعشرون في الصلوات عن المعرفة ٦٢٥
اليوم الثاني والعشرون: عن الاتضاع ٦٢٥
اليوم الثالث والعشرون: على التوبة ٦٢٦
اليوم الرابع والعشرون: على مواضع الأسرار ٦٣١
اليوم الخامس والعشرون: تحرض مع صراخ ٦٣٤
اليوم السادس والعشرون بأمثال خصوص جهنم ٦٣٥
الجزء السَّادِس ٦٣٧
الجزء السَّابع :..... ٧٢٩

المَيْمَر الأَوَّل

رسالة لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني

في تَدْبِير سيرة السكون

إنني لم أُقدم على هذا العمل كمجترئ ... ولكن من شدة محبتي لكم، حتى أنني في أحلامي كنت أجد نفسي متحدِّثاً إليكم؛ والمحبة دائماً تتخطَّى كل حدٍّ ...

١ ـ الحاجة إلى إيمان بالله بغير ارتياب:

إن بداية كل حياتنا في الله بالنسبة لك يا أخي، هي أن تكون صادقاً في إيمانك فيما أنت مسافر على طريق مسيرتك النسكية، لكي ما يمكنك من هنا أن تمتص كل الحلاوة التي أخفاها الرُّوح في الأسفار المقدَّسة. إنني لا أتكلَّم عن كيف تعترف بالله، لأن الكلام في هذا الأمر فضلة هو للذين هجروا العالم وهم الآن يتبعون الله؛ ولكنني (أكتب إليك) لكي ما تثبت في رجائك ـ بإيمان لا يعتريه شك ـ بكل الأمور الفاضلة التي وضعت على هذا الطريق، وتسلَّمناها في الأسفار المقدَّسة ـ هذه الأمور التي قد أدركها النساك وهم دائماً يسعون لكي يبلغوا إليها.

فحين تسمع شهادات الآباء بخصوص مجد السيرة التوحدية المملوءة أسراراً التي ضَمَّنها الرُّوح الْقُدُس في كِتَاباتهم كمحفِّز لنا، باعتبار أنهم قد سبقونا في سلوك هذه السيرة، لا تصغر نفسك حين تقرأ؛ لأنك سوف تصل إلى تمييز هذه الأمور (التي لم تدركها) من قبل، مع أن الرُّوح قد وضع فيك مذاقتها منذ أمد بعيد. فهي لك، ولكن لم يأتِ الوقت (لاستعلانها)؛ والرب يعرف الوقت الذي يراه مناسباً أن يكشفها لك. لأن هذه الأمور مدخرة عنده لك ولأمثالك؛ وسواء كان هنا أو هناك فهي على كل حال لك، بشرط أن تحيا داخل الحظيرة بحسب مشيئة ذاك الذي سوف يهبك إكليل الحياة. إنه يريد أن يعطيها لك، ولكنك لا تستطيع الآن أن تتقبَّلها بالكيفية التي ترغب فيها، إلى أن يأتي وقتها المناسب، حين يجعل الرب معرفتها تضيء داخلك دون أي سؤال من جانبك.

٢ ـ نتائج قلة الإيمان:

احترس من أن تكون غير مؤمن حين تطلب هذه الأمور ولا تجدها في متناول يدك، لئلاَّ يتولَّد لك من هنا شيءٌ ما لم تكن تطلبه ولم تعرفه؛ لأن عدم الإيمان ينال جزاءً. لا تقل: "إنني قد جاهدت وقتاً طويلاً ولم أجد شيئاً"، أو "إن حقيقة الأمر لا تتناسب مع عِظم الكلمات". احترس من هذا الرأي، لأن العقاب يتبع عدم الإيمان سريعاً، فالقلب غير المؤمن يُدان.

وما هو العقاب؟ هو أن تسقط من هنا في اليأس نتيجة للإحساس بالتخلية الذي يترتَّب على عدم إيمانك؛ ثم يسلِّمك اليأس إلى الكآبة، وتقودك الكآبة إلى التراخي، وهذا يحرمك من رجائك. وليس

هناك أمر آخر أعظم شرًّا من هذا يمكن أن يلحقك.

٣ - الحاجة إلى الثبات والمثابرة:

اعلم يا أخي وحبيب نفسي أن السكون وكل تَدْبِير يوجد إنما يعطي أثماره بحسب المدة المناسبة وانشغال الشخص به. وقد قال أحد الشيوخ القديسين: "إن السكون وهدوء القلاية يعطيان ثمرة على قدر مثابرة الشخص واحتراسه". فإن كنت خالياً من المثابرة ومساواتها بالخدمة (أي الصَلَوَات)، لا تنتظر أن يحصل لك منها عزاء حقيقي. إنك لم تبلغ بعد إلى أن يتأصَّل فيك الاعتياد على الممارسة الذي من شأنه أن (يخفِّف) من التعب المرافق لها. ولأنك مازلت بعد كمن يبتدئ من جديد في كل مرَّة، فلسبب طول المدة التي يلزم أن تثابر فيها (قبل أن يمكنك أن تجني الثمر) تظل غير متدرِّب جيداً على أي عمل، فقبل أن يبدأ العمل بإعطاء ثمره تكون أنت قد تراجعت عنه.

كل تَدْبِير بغير ثبات ولا مداومة تجده أيضاً بغير ثمر؛ ولست أقصد بقولي هذا أن أسبِّب لك ضيقاً، ولكنني أُظهر لك هدفاً وطريقاً. خذ مثالاً لذلك شجرة مزروعة يتعهَّدها رجل غير حكيم؛ فهو حين يراها تسقط أوراقها السابقة وقد بدأت تخرج براعمها الجديدة، تجده يمنع عنها الري المعتاد فتذبل تلك الشجرة وتجف. عندئذ تحتاج إلى وقت طويل حتى تنعشها قوة الماء من جديد وتبدأ أن تستمد الغذاء من التربة وتسترد الحياة. وربما ينقلها باستمرار من مكان إلى آخر ويضطر في كل مرَّة أن يهز جذورها وينفض عنها التراب لهذا الغرض. ومع كل هذا تراه يتعجَّب ويقول: "لماذا لم تأتِ الشجرة بأي ثمر لنا؟". هكذا هو حال أي شخص غير مُدرَّب؛ فهو لا يتصرَّف بموجب تَدْبِيره، ولكنه يطلب من الله ما يراه مناسباً له حسب تفكيره، ويدَّعي بعد ذلك أنه لم ينل شيئاً مما يحق له. إنني أترك جانباً الأمور الخفية التي على أساسها يحكم الله على أعمال أي إنسان، إلاَّ أنه سيطلب منا أيضاً هذه الأشكال الخارجية لتَدْبِير السيرة، ويريدنا أن نقتني الزيِّ الخارجي اللائق الذي يتناسب مع درجتها الحقيقية.

عندما يكون الشخص مفتقراً إلى أي شيء من الأشياء النافعة لتَدْبِير السيرة، فهو لا يكون بمقدوره أن يكمِّل سعيه في السكون أو ينال إكليله، بما أنه حين يأتي وقت لبس الإكليل يُزعج ويكدِّر ذلك النقص عين النفس. ولهذا فإنه لابد أن يكون تَدْبِير الإنسان شاملاً كل ما هو ضروري سواء بالنسبة للجسد أو للنفس.

كما أن ربان السفينة إذا نقص أي جزء من البكرات أو الحبال اللازمة لتحريك قلوع سفينته فإنه لا يستطيع أن يقوم بأي رحلة في البحر مهما كانت صغيرة إلى أن يقتني كل شيء يحتاجه بالضبط ويحتفظ بالكل معه في سفينته؛ هكذا أيضاً الشخص الذي يريد أن يسير على طريق الوحدة، ويتمنَّى أن يتمتع بثمارها، ويقتني الرجاء بالله في نفسه؛ فإنه إذا كان مفتقراً إلى أي شيء صغير مما تحتاج إليه رحلته، فذلك الشيء الصغير الناقص سوف يجعل كل الأشياء

الأخرى بغير منفعة عندما يحين الوقت الذي يحتاج فيه إليه.

إن تَدْبِير سيرة الوحدة تحتاج قبل كل شيء إلى الوقت وإلى المداومة أثناءه. لأنه إذا كان من غير الممكن لأي شخص أن يتعلَّم صنعة في هذا العالم ما لم يمكث وقتاً كافياً وهو يداوم الاشتغال بها، وبعدئذ فقط يلتقط ذهنه الغاية والطريقة التي يمارس بها المهارة التي سعى إلى اكتسابها؛ فكم بالأكثر ينطبق هذا الأمر علينا. فإذا كانت المهارة التي تُرى بالعين تحتاج إلى وقت طويل ودراسة مستمرة، فكم بالأكثر مهارة الرُّوح التي لا تراها العين، ولا يعرف أحد ممن يتعلَّمها، كما أنها تتطلَّب نقاوة كثيرة؛ فمعلِّمها هو الرُّوح الْقُدُس وخبرتها خفية، بينما الذين يسعون لتعطيلها هم غير متجسِّدين. إنها تتطلب وقتاً طويلاً ومداومة في الممارسة. والجسد أيضاً سوف يعمل بخداع ضد الإنسان طوال مدة تُعلّمه لها، والعقبات التي يضعها في طريقه كثيرة لا تحصى.

ولهذا يا أخي، فإن هذه السيرة تحتاج قبل كل شيء إلى وقت ومداومة، ثم مثابرة، طالما أنه بهذه الوسيلة يمكن للإنسان أن يصبر في الأتعاب ويثبت في الوحدة وفي الأحزان التي تخصها، فإن هذه هي أشق وأصعب ما في هذه السيرة، بسبب كثرة القتالات التي تحصل فيها نتيجة للعزلة عن كل أحد. وبالمثل فإنه من الضروري ألاَّ يغير الإنسان سريعاً ما بدأ به، بل بالأحرى أن يثبت فيه إلى أن يكمله مثل الأُم التي تحتمل أوجاع المخاض إلى أن تلد.

٤ - الحاجة إلى توازن صحيح:

هناك شيء آخر يحتاج إليه الإنسان، وهو توازن التَدْبِير، لكي تكون كل أنواع أعماله المختلفة متساوية. فلا ينبغي أن يزيد من نوعٍ وَاحِد أو اثنين من الأعمال التي يحبها تابعاً مسرَّة مشيئته فينشغل بهما فقط بينما يكون فارغاً من الأعمال الأخرى التي يكون في حاجة ماسة إليها. والأحرى أن يكون تَدْبِير الإنسان متساوياً في جميع نواحيه بوجود كل أعمال الفضيلة: كمقدار القراءة تكون الخدمة (صَلَوَات السواعي)، وكمقدار الخدمة يكون السجود، وكمقدار السجود يكون الصَّوْم، وكمقدار الصَّوْم يكون سهر الليل؛ ويقرن مع هذه جميعها العمل الخفي الذي للعقل، لكي حين يعمل الجسد لا يوجد القلب سائباً بطَّالاً. لأنه ينبغي أن تتيقظ القوة العقلية في القلب لكي ما تدرك ما هو مخفي في طبيعتنا البشرية هذه، وكيف أنها تحتاج إلى جميع الأعمال الظاهرة التي يقوم بها الجسد المرئي من أجل منفعتها.

إذا ما رأى الشياطين شخصاً يسير في نور ذهنه نتيجة تعادل خدمته وأعماله التي يعملها بقياس، فإنهم حينئذ يحاربونه ويحاولون أن يفقدوه اتزانه حتى يجعلوه أمَّا أن يزيد أو ينقص أحد هذه الأعمال، والأمران كلاهما متساويان في ضررهما. إن التوافق الذي نراه بين أعضاء الجسد يقدِّم لنا نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه التوازن بين أعمال التَدْبِير النسكي؛ لأنه إذا وُجِدَ هناك عدم انسجام في جزء وَاحِد منها فإن ذلك سوف يؤدِّي في الحال إلى اضطراب الجسد كله، ومن هنا يأتي المرض. هكذا الحال بالنسبة للأعمال النسكية: إذا أُضيف أحد الأمور التي

تؤدِّي إلى قيام صحة النفس الجيدة، أو إذا استبعد أمر آخر، فسوف يؤدِّي ذلك إلى النتيجة عينها (أي إلى مرض النفس).

فمن خلال الزيادة أو النقصان على السواء ينشأ الظلام في النفس؛ والشياطين ترتعد جدًّا من التَدْبِير المتوازن بقياس. وهي لذلك، إذا لم تتمكَّن من أن تعطِّل اشتياق الإنسان بواسطة مختلف العلل لكي ما تجعله يتوقَّف عن سعيه الثابت أو تفسد تَدْبِيره. فإنها تحارب مقابله بواسطة حرارة غيرته، وتحثه على الزيادات حتى ينهار تحت ثقلها. إلاَّ أن الإنسان الحكيم يحترس من الزيادة المفرطة كما من التكاسل على السواء.

كل شيء يكون بقدرٍ ومقياسٍ يمكن ممارسته بانتظام. ولكنه إذا تجاوز هذا الحد فإنه يقود إلى التشويش والارتباك، وحالما يرتبك الإنسان فإنه لا يعود يعرف ما يعمله.

يحتاج الإنسان أيضاً أن لا يبالي بالجسد في كل شيء حتى يمكنه أن يتمسَّك بالتَدْبِير الحسن في جميع أموره، فلا يطلب التدقيق الشديد في كل شيء، وفي كل التفاصيل ... بل يقتني عدم الاهتمام بكل تدابير هذا العالم، ويحقِّق فقط ما هو نافع منها. لأنه إذا استسلم لها فإنه لا يقدر حينئذ أن يحتفظ بسيطرته على كل شئونه.

٥ - الحاجة إلى قلب شجاع:

يحتاج الإنسان أيضاً إلى قلب شجاع حتى لا تصغر نفسه وسط غيارات أنواع القتالات التي تعرض له لأجل اختباره ولكي ما تنمو معرفته. لأنه من الضروري أن يكون الإنسان حكيماً في معرفة اليمينيات واليساريات، لأن بولس الرسول يراه جيداً أن «يكون الإنسان متأهِّباً لكل عمل صالح» (٢تي ٣:١٧)، وهذا يأتي من التدرُّب على المثابرة. كذلك يقول: «فاشترك أنت في احتمال المشقات كجندي صالح لِيَسُوع الْمَسِيح» (٢تي ٢:٧). ولا يستطيع أحد أن يغلب في الحرب بغير الحكمة، ولا أحد يقتني الحكمة بغير قتال، كقول أوغريس: "بقدر ما تتقدَّم النفس في الفضيلة بقدر ما يحيط بها المضادون الأشداء". أمَّا النفس التي لا تواجهها أية حروب فهي تُحرم من الفضيلة. لأن الفضيلة تتخذ اسمها من هذا الأمر عينه: أنها قد صارت مشرقة وتأهَّلت لنوال الإكليل كنتيجة للتجارب المتنوعة التي أتت عليها.

٦ - لا تيأس إذا تراءى لك أن الصلاة لم تُستجب:

كذلك يتطلَّب الأمر الاحتمال وطول الأناة حتى لا يخور قلب الإنسان إذا تأخَّر تحقيق تطلعاته. فإن كان يترقَّب شيئاً ولا يحصل عليه في الحال، أو يطلب ولا يُعطَى له بحسب تصوره، أو ينتظر وقتاً طويلاً استجابة طلبه، فلا ينبغي عندئذ أن يضعف رجاؤه ويصير في حيرة وكآبة نفس.

٧ - السكون والإيمان:

ثم بعد كل هذا ـ وبالأحرى قبل كل شيء وأكثر من كل شيء كما سبق أن ذكرت في البداية ـ فإن سكون الجسد والإيمان الراسخ في النفس، هما أمران لازمان للإنسان، لأنهما يحيطان بكافة الأمور الأخرى التي تكلَّمنا عنها. وعن طريق عناية الشخص واهتمامه يأتيان بها إلى الكمال. هذان الأمران هما اللذان ينبغي أن يطلبهما الإنسان في الصلاة بدموع كي يسمح الله أن يدوما له، طالما أنه بواسطتهما تُعمل كل هذه الفضائل وتُكمَّل، بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي لم تُذكر هنا. لأنه بدونهما لا توجد أي إمكانية أن تكمل ولا وَاحِدة من الأمور التي ذكرناها.

وهذا ينطبق على السكون، لأنه يحفظ الحواس من التشويش الخارجي ويهيِّئ الفرصة لأعمال الجسد والنفس كليهما بواسطة السلام الذي يفيض من خلال الحرية التي ترتبط به (أي بالسكون)، واليقظة التي تملك على الجسد والنفس كليهما، ومن خلال توقُّف العلل العادية التي تلاطم الإنسان في معاملاته الخارجية سواء كانت إرادية أو أحداثاً عارضة.

وهو أيضاً ينطبق على الإيمان لأنه يقوِّي الإنسان في الرجاء حتى يحتمل كل المخاطر التي تواجهه بفرح من أجل هذه الأمور الإلهية. ونتيجة لذلك فإنه لا يعود ينزعج حتى من الموت، ولا يشعر بأي ألم كأي كائن جسداني، بل مثل شخص يقتني رجاءً يفوق الجسد وقلباً شجاعاً يستمد قوته من الله وينتظر الرحيل عن الجسد كل حين، ويكون في فكره كمن يتمخَّض لكي يلد ذلك الرجاء الأبدي الذي من أجله يتألَّم كل يوم ويصبر على مواجهة كل هذه الضيقات راضياً لكي ما يبلغ بأمَّان إلى القيامة من الأموات. لأن فرح الرجاء الذي يُولد من الإيمان من عادته أن يتخطَّى كل الصعوبات.

بقدر ما تزداد الأتعاب بقدر ما تتدفَّق النعمة، ذلك حينما ترتبط بها المثابرة. وبمقياس ما يزداد الترقُّب تقل آلام الإنسان. وبقدر ما تشرق الحكمة يدخل الفرح. لأنه في الحكمة يتحد بالله ويغوص في محبته ويتخلَّص من رباطات الأوجاع، وبالفرح يغلب الأحزان. إنه من السهل على الفَرِح أن ينسى العالم والجسد كليهما.

٨ - التمييز:

ينبغي أن نتضرَّع إلى الله كي يمنحنا أيضاً أن نتعرَّف على كافة أنواع الأرواح المختلفة، ونميِّز بين الرؤى الحقيقية وتلك التي تأتي من الشياطين؛ كما ونفرِّق في الأحلام بين الدوافع التي تأتي من الملائكة وتلك التي تكون من الشياطين والأخرى التي تنشأ من النفس؛ وكذلك نميِّز بين الأفكار التي تستقر في العقل كنتيجة لهذه الثلاثة أنواع من الدوافع التي يحيط بها الإنسان ويميِّزها ـ كما يقول الآباء ـ من الهدوء أو التخبُّط الذي يصاحب كل نوع منها؛ ومن السلام أو الانزعاج؛ ومن الفرح والثقة أو الخوف والحزن: فالأَولى تخصها والأخرى هي من أصل غريب ـ سواء كانت تخص الأفكار أو الأحلام، أم أنها تنشأ في الحواس وباللمس.

وفي حالة دوافع النفس من الواضح أنه لا الفرح ولا الحزن، ولا الانزعاج ولا السلام تصاحبها؛ لكنها تكون دوافع بسيطة تعبر دون أن تحمل شيئاً من ذلك على الإطلاق. وينبغي أن تفهم أن المقصود بدوافع النفس هي تلك التي تخصها قبل أن تدخل مجال النفس الطبيعي الحقيقي الذي هو الصفاء.

وبالنسبة للدوافع التي يحرِّكها الجسد، سواء تلك التي تتصل بدوافع الشهوة أو بأي شيء آخر غير ذلك، فمن الواضح أن الجسد حين لا يكون مرتبطاً بها عن طريق أي قتال من الخارج، فهي لا تكون مختلطة مع تلك المجاذبات والمثيرات الشديدة التي يصعب ضبطها. إلاَّ أن الطبيعة تطلب ما تحتاجه في هدوء، وتبقى حركاتها ساكنة. لأنه لا يوجد أي تشويش في ما رتَّبه الله؛ فقد وضع في الطبيعة البشرية الاعتدال والانسجام الكامل.

أمَّا إذا اختلطت أي إثارة غريبة مع الحركات الطبيعية التي تنشأ فينا، ويعرف الإنسان ذلك من القلق والتشويش والتخبط الذي يصيبنا سواء كان هذا عن طريق إحساس ينشأ من الجسد أو عن طريق أفكار تتعلَّق بتذكار أمور متنوعة أو بواسطة أحداث طارئة، فإنه ينبغي أن نفهم ذلك ـ كما قلنا ـ على قدر ما يمكن إدراكها عندما تكون النعمة على مقربة منا.

هذه الأمور هي التي يكون من الضروري أن يُذكِّر بها الإنسان صديقه، وأن يتفطَّن فيها بنفسه كل وقت.

٩ - أهمية الانتظام في الممارسة:

الصَّوْم والصلاة وبقية الأعمال هي أمور عادية بالنسبة لكل أحد، ومع ذلك فلن أتأخَّر عن أن أُظهر في المكان المناسب المعونة التي تتوفَّر من هذه الأمور التي يسهل على كل أحد أن يقوم بها بالإضافة إلى تلك التي يعتبرها الجميع أموراً طفيفة. ومع أن كل الذين يهتمون بخلاص نفوسهم يمتلكون بعضها جزئياً، إلاَّ أنه لكونهم لا يعرفون لماذا يعملونها، فلا تجدهم جميعاً قريبين من الحصول على الثمار التي تأتي منها. وهذا يكون بالأكثر بما أنهم لا يدركون مدى أهمية هذه الأعمال التي يقومون بها. وذلك لأنهم يمارسونها بغير نظام أو ترتيب وبدون مقياس، ولأنه ينقصهم الثبات والمداومة لمدة كافية.

أي شيء يمكن أن يكون أضعف من نقط الماء؟ أليس أنها بطول الوقت والاستمرار تستطيع أن تثقب الحجر وتعمل شقوقاً في الصخور الصلدة؟ هكذا فإن العمل الدائم ولو أنه قليل، فلأجل دوامه يربِّي كنوزاً عظيمة.

١٠ - قانون سهل للضعفاء:

وأنا أدلّك الآن على قانون سهل يليق بالضعفاء، وبه يتقدَّم الإنسان، والحلاوة المتولدة منه بعد قليل فيها الكفاية لأن تجذب الذهن إلى الثبات فيه بمداومة لكي ما يمكنه أن يقوم بخدمته بحرصٍ وهدوء وبغير ضيق:

إذا ضعف الجسد وبدأت تتعب من الوقوف باستمرار لكي تتمِّم أعمال العبادة العادية، ولهذا غالباً ما تتعطَّل عن الصَلَوَات الدائمة التي تُكمَّل بالجسد، تلك التي تتولَّد منها الصلاة القلبية، خُرَّ على وجهك دفعات كثيرة بجوار كرسيك والكِتَاب بيدك، واثبت في التضرُّع بعض الوقت بحيث تمتزج مفاوضة القراءة مع الصلاة. فالنور الذي تتقبَّله من هذين النوعين يضيء فيك ويُبهج نفسك. لأن الصلاة تمنحك فرحاً بسبب القراءة، كما وتستضيء أيضاً في القراءة بمفاتيح الصلاة. لأنه بالصلاة ينفتح باب الأفهام أمَّام الذهن، وهذه الأفهام بدورها ـ بسبب طبيعتها المذهلة ـ تثير شهوة الصلاة نتيجة للتأمُّل الذي يتولَّد منها.

١١ - صلاة التأمُّل:

الصلاة التي تنشأ نتيجةً للتأمُّل ليست هي صلاة عادية؛ إنها تربط الذهن بقوة حتى ينجمع وتتولَّد منه صَلَوَات صادقة ونقية بطريقة تلقائية هادئة. والإنسان لا يستطيع أن يقوم كل الوقت في وجود قوة الأفهام، ولا أن يستعمل حواسه بحرية، فغالباً ما يكون من الصعب على الإنسان إزاء شدة قوتها أن يلتفت إلى نفسه ويقوم بالصلاة، إذ أنه كثيراً ما تُترك النفس غير قادرة أن تتحوَّل إلى الحواس وتنهضها للعمل، أو تستخدم الجسد بالكيفية الطبيعية، لأن النفس تكون حينئذ مبتلَعة بقوة الدهش. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على كافة الأفهام، فهناك أفهام تلد الصلاة وهناك أفهام أخرى تلد الصمت. والذي اختبر هذه الأمور يعرف الفرق بين الحالتين.

لهذا يا أخي، إذا كان الطريق الأعلى ـ الذي هو مداومة الوقوف ـ غير مستطاع لديك، ففيما عدا خدمة الأوقات السَبْعةً المحدَّدة، اعمل كما ذكرت لسبب ضعف الجسد. ولَيْتَنا لا نتوقَّف عن ذلك حتى بعد أن نكون قد حصلنا على معونة؛ لأن الكسل يولِّد الموت حتى في حالة الضعف.

لذلك ــ كما كتبتُ ــ خُرّ على وجهك بجوار كرسيك، وإن كان بيديك كِتَاب أو شيء تعمله، ضعه على الأرض واسجد واثبت في التضرُّع بعض الوقت. فليكن لك هذا القانون كل أيام حياتك وفي كل موضع سواء في البرية أو أي مكان تنجمع فيه إلى ذاتك. وليس في حقارتي كفاية أن أصف لك ما يتولَّد لك من هذا العمل بربوات سطور.

١٢ - لماذا تكون أعمال الجسد ضرورية؟

نحن لسنا بسبب الخوف نمارس الأعمال الجسدانية أو نهتم بالاحتراس في أنفسنا، ولكن لأننا نعرف أن الرَّاحَة الجسدية تبعدنا من الله وتُخيِّب ذهننا من الهمّ به الذي منه يتولَّد الاشتياق إليه في نفوسنا.

كما أننا نمقت التشتُّت ونرفض المفاوضة مع إخوتنا الأحباء المكرَّمين ليس لأننا نبغضهم ولا لأنهم ليسوا أفضل منا ـ إذ أننا في كل وقت نستعين بصَلَوَاتهم ـ بل لأننا نعدم التنعم مع رَبِّنَا بسبب المداومة مع الناس. لأن الوحدة تجعلنا نتحد بالله. وهكذا فإنه ليس لسبب الرعبة من عذابات جهنم أننا نحفظ القوانين بتدقيق ونظهر اهتمامنا بها ونجتهد في تتميمها، بل لأن الحديث مع الله يوجد فيها وهي تنشئ فينا تذكاره الدائم؛ لأنه بواسطة كل شيء يُعمل لأجله وباسمه بانجماع نُرفع إليه. فالاهتمام الدائم بهذه الأمور يولِّد فينا اهتماماً دائماً به. وعليه فإنه ينبغي لنا ألاَّ نترك وقت الصلاة بدون أي ضرورة ملحَّة؛ وإن حدث أننا تجاوزنا القانون مصادفة، فينبغي ألاَّ نترك أنفسنا بدون إحساسٍ بالحزن.

١٣ - السلوك الخارجي اللائق:

كذلك ينبغي أن نغصب أنفسنا على السجود في الخدمة حتى ولو كنا مرضى جدًّا. حتى ونحن على فراشنا فلنقترب بانتباه ووقار، قبل أن ننام، ونغصب أنفسنا بحريتنا ونتنهَّد أمَّام الله بقلب متوجِّع وقتاً طويلاً ونتضرَّع إليه لكي يحفظنا من دنس الأفكار ومن الأحلام النجسة؛ فينبغي أن نجتهد حتى يغلبنا النوم بينما الاهتمام بالله يملك في قلوبنا.

وينبغي أيضاً أن يكون جلوسنا في كل صَلَوَات الساعات باتضاع ومسكنة؛ وكما لو كنا تحت اضطرار الموت يجب أن نحفظ عدد صَلَوَاتنا. ولا تعوزني الحاجة أن أذكر أنه ينبغي أن نحدِّد وقتاً معيناً لتناول الطعام، وأن لا نأكل أي شيء نجده خارجاً عن الموعد المحدَّد، وأن تكون لنا وجبة وَاحِدة فقط ونحذر من تناول أية إضافات في أوقات أخرى من النهار، فيما عدا حالة الضعف الشديد الذي ينشأ من المرض. كما ويجب أن لا نكشف أجسادنا ونتفرَّس في أرجلنا العارية، وأن لا نداوم لمس جسدنا مثل الناس المنحلِّين فاقدي الأدب.

كذلك لست في حاجة أن أقول إنه ينبغي أن نحتفظ بالصمت الدائم حين يتصادف وجودنا خارجاً، وأنه إذا قابلنا أحداً نلتزم بأقل قدر من الكلام، فنتحدَّث فقط بما هو نافع، وليس بفضول أو بهذر أو ضحك. كما أنه ينبغي أن تكون نظرتنا دائماً منجمعة وحواسنا منضبطة بلياقة، ومسحة من الحزن على وجوهنا فيما نحدق على الدوام وفي كل لحظة في آلام رَبِّنَا؛ لأننا من خلال ذلك نرتفع إلى تذكار ما احتمله من أجل جنس البشر، والمحبة التي أظهرها من نحونا، والمواعيد التي وعدنا بها، والرجاء المحفوظ لجنس البشر في العالم الجديد ولجماعة المسيحيين بوجه خاص ــ وكل الأمور التي صارت معلنة للجميع بمجيء المسيح للعالم؛ لأننا بواسطته وجدنا

دالة للاقتراب من الله كما يقول الرسول. لأن «الوَاحِد قد مات من أجل الجميع» (٢كو ٥:١٤)، "وبذبيحة جسده صالح العالم مع أبيه" (قارن: عب ١٠:١٠)، وخلَّصنا من عبودية الشياطين وأنقذنا من تسلُّط سلطانهم.

١٤ - الإحساس بالله:

والنتيجة أننا نعبد الله ونحس بخالقنا، وكما أننا نعبده ونخدمه في كل مكان، كذلك لسنا نخاف من أي شيء، كما كان الحال في الأجيال السابقة حين كان الناس يعيشون في رعبة من الشياطين. وأي رجاء هذا الذي قد بُشِّرنا به، أن يسكر الإنسان بالفرح بهذه الأمور، وهو لا يدري أين هو أو إلى أي نوع من المعرفة أُحضرنا في المسيح!

ثم حين يعود الإنسان إلى نفسه، يتفطَّن كيف أن الله، رغم كل هذا، تناله منّا الإساءة، وكيف نحتقر ما يحبه ونزدري بما أوصانا به مع أن القصد من وصاياه هو خلاص نفوسنا ومؤازرة بعضنا بعضاً. فإذ نتفكَّر بهذه الأمور كل حين يتسحَّب الحزن على وجوهنا سواء كنا وحدنا أو تصادف وجودنا مع آخرين. هذا الحزن يحفظنا من التراخي، وهذه التذكارات تحفظ قلوبنا في وقارٍ وتخشُّع ويقظة كل حين.

١٥ - الحكم الخاطئ على أهمية الممارسات الرهبانية.

إن الاهتمام بهذه الأمور وما أشبهها، يا أخي، ليس هو لأن الله يغصبنا أن نعتني بممارستها. بعض الناس الذين يظنون أنهم حكماء ـ مع أنهم لا يدركون السبب في حفظنا هذه الأمور ويحكمون على كل شيء حسب ظواهره فقط ـ يزدرون بالإخوة الأعفاء بسبب هذه الممارسات ويقولون لهم: "أحقاً سوف يطرحكم الله في جهنم بسبب إهمالكم هذه الأمور؟"، أو "هل هي سترفعكم فعلاً إلى السماء إذا حافظتم عليها؟". كما ويعتبرون الذين يتمسَّكون بها "أميين" و"مرائين". أمَّا نحن الذين نعرف ما يتولَّد في نفوسنا نتيجة لحفظها، فعلينا أن نعتني بتتميمها بفرح؛ ولأننا ندرك المنفعة التي تحصل لنا من ذلك، فلتكن مسرتنا في مراعاة تكميل أعمالنا من أجل الله بكل اهتمام؛ وفي جميع الأعمال التي نعملها من أجل اسمه الْقُدُّوس لَيْتَنا ننتظر مترجين الخيرات التي تأتينا من عنده حتى في هذا العالم الحاضر.

١٦ - قيمة الأعمال الصغيرة:

إذا كان الجلوس في القلاية فقط ببطالة بغير عمل وحفظ حيطان القلاية من أجل المسيح هو رجاء عظيم، حسب قول أحد الآباء، فكم بالأكثر إذا ما كان الإنسان يظهر اهتمامه بهذه الأعمال في نفسه من أجل تذكار الله الدائم!

لا ينبغي يا أخي، أن نراعي حقيقة أنه لا يطلب منا هذه الأعمال الطفيفة، بل الأحرى بنا أن نتعجَّب من حقيقة أنه حين نهتم بتتميمها فإنه يرفعنا بواسطتها إلى الأمور الْعَظِيمة. إن ما

نكتشفه عن طريق هذه الممارسات الصغيرة هو أعظم وأمجد منها بقدر ما تكون النار أعظم من الحديد والصوان اللذين تصدر منهما.

إننا بواسطة هذه الأعمال نُحفظ من السُبل الدقيقة التي تقود إلى الشر نتيجة للإهمال، بل وأيضاً نُرفع عن طريقها إلى الأمور الفائقة.

كذلك فإن التأمُّل المستمر في هذه الأمور النذرة الدقيقة يلد فينا التأمُّل في الله؛ ومن خلال هذا التأمُّل العادي نجد أنفسنا أحياناً في حديث واضح معه، وتمتلئ أعيننا بالدموع وتبتهج نفوسنا أشد الابتهاج؛ وفي أحيان أخرى نجد أنفسنا كما لو كنا واقفين في قيامة الأبرار، ويقع علينا دهش بينما يجتذبنا التأمُّل من هذا العالم ومن هذه الحياة ومن تذكارات الاهتمامات الأرضية إلى الاتحاد بالله بذلك الاتحاد الذي يفوق العالم. وبهذه الكيفية يولد الحب في نفوسنا كنتيجة للتأمُّل الدائم والحديث المستمر معه؛ وبالحب نختلط مع الله كل لحظة وتمتزج حياتنا بروحه، بينما نتطلَّع إلى التَدْبِير الآتي.

والإنسان الذي يُحسب أهلاً للتأمُّل في الله يُحسب أيضاً أهلاً للتعجب الدائم بالله.

١٧ - نوع القراءة المناسب:

انتفع من القراءة؛ ليس من تلك التي تقودنا إلى اقتناء سائر أنواع المعارف، بل من تلك التي تميت أوجاعك وتُظهر لك الطريق القصير القاطع الذي يقود إلى الله، وترفعك بسرعة وبدون أي تعويق إلى الخدمة المضيئة والموضع الذي يتطلَّع إليه تَدْبِير الوحدة. وأعني ذلك النوع من القراءة التي لا يكون فيها تشويش حيث تنتقل من موضوع إلى آخر، وتقدِّم لك أحياناً أموراً ضارة تعكِّر صفاء هذيذك الرُّوحي الذي هو أعلى من العالم.

فلا تقرأ شيئاً يتعلَّق بالأمور المألوفة لك ولعامة الناس على السواء؛ أو مما يصلح للتعليم العام للجميع بمساواة؛ أو ذلك النوع الذي ينمِّي فيك القدرة على المجادلة والتدرُّب على حكمة هذا العالم؛ أو النوع الذي يخبرك عن القضايا والمنازعات التي حدثت في الكنيسة، أو عن قوانين وأوامر الملوك وسيرهم وانتصاراتهم، أو عن المجادلات والردود على الجماعات المعارضة.

فلنترك كل قراءة من هذه الأنواع وننصرف إلى القراءة الصحيحة، طالما أننا في مرضنا ينبغي أن نستفيد من الأدوية ـ فنهتم بالمواضيع التي جُمعت بعناية من أجل شفاء أوجاعنا، وسير القديسين الذي عاشوا قبلنا وتدبَّروا في الوحدة بسيرة أعلى من العالم؛ ونتعرَّف على الإعلانات والرؤى التي عاينوها، والتعليم الذي تقبَّلوه من الله فيما يخص تَدْبِير الوحدة، والأتعاب والحروب التي قابلتهم من أجل تعليمهم ومن أجل منفعة الذين يقتفون إثر خطواتهم، وفيما يخص سائر أنواع النصرة والهزيمة والقيام والسقوط التي احتملوها. وباختصار لَيْتَنا نشغل أنفسنا بالكتب التي تختص بالسيرة الرهبانية وحدها، والتي تشرح نظامها وتَدْبِيرها الخارجي.

إنه حتى الخبز الذي هو طعام مغذٍّ، لا يفيد المعدة المريضة، وغالباً ما تُصلح بواسطة أطعمة

أُخرى وبالأدوية. ليس هذا لأن الخبز هو بغير منفعة، بل لأن المعدة التي تتلقاه مريضة. فكل شيء حسن في مكانه الخاص. أمَّا لنا فليس كل شيء نافعاً.

أمَّا الإنسان الذي ـ قبل أن يقتني سلطة على أفكاره ويضبط عقله من التشتُّت إذ تكون حواسه مازالت مريضة وضميره ضعيفاً ـ يستعمل القراءة التي تجعله متثقفاً ومتعلِّماً ومفسِّراً غنياً في الأفكار، بينما هو في حقيقة الأمر خاضعٌ للأوجاع: مثل هذا الإنسان يكون قد جُرح بشهوة الافتخار وبالجهل.

ترى أية معرفة أكثر سمواً من النقاوة؟ فالنقاوة تكشف لعقلك كل شيء شريطة أن يكون كل اهتمامك أن تقتنيها وتحافظ عليها، وهي سوف تقرِّبك من موهبة التاؤريا الإلهية.

١٨ - ما هو الذي ينبغي أن نركِّز عليه؟

اجتهد أن تدرس كل شيء يجعل هذا العالم الحاضر مزدرى أمَّام عينيك، وكل شيء يُسلِّحك بالحكمة مقابل الشياطين الذين يطلبون هلاك نفسك، وكل ما من شأنه أن يؤهِّلك لاستنارة الأفكار وللترقُّب الدائم للرحيل عن الجسد، كما ويخلِّصك من الشهوات بواسطة تذكار العالم الآتي ومداومة التأمُّل فيه.

اجتهد أن تحرِّر عقلك من تذكار الشهوات لكي تهيِّئ في نفسك مكاناً لأمور الله المجيدة التي تُستعلن فيها، لكي ما يستغني قلبك بكل غنى روحي وتأسرك محبة الله كل حين.

من خلال العجب من الإعلانات الإلهية يسكر الأتقياء بمحبة الله. وحقاً قال أحد الآباء إن النفوس التي داومت التطلُّع إليه نست أمَّاكن سكناها. يقول ذلك عن تلك الرؤى التي تسكر النفس بتذكارها. وقد قال أحد الآباء القديسين لابسي الإله: "الرؤيا تلد المحبة، وتوجد هذه الرؤيا من خلال النقاوة حسب وعد رَبَّنَا".

والنقاوة ليست هي شيء يُجمع بالاستزادة من المعرفة في شتى المجالات أو من كثرة الدراسة لأمور متنوعة، ولكنها تنشأ من عملية تطهير الفكر من شوائب تذكارات أمور العالم غير اللائقة، ومن مداومة الهذيذ في عمل السكون. ضارٌ جدًّا بالنقاوة الانشغال بكثرة الأفكار وزحمة تذكارات الآراء الجديدة التي تتولَّد من البحوث والدراسات المتنوعة التي تقود النفس إلى التشتُّت.

لا تهمل ما هو ثمين وقيِّم إذ تزج بنفسك في الأمور التي لا تنفع إلاَّ للافتخار. ليس هدفنا هو أن نعرف أموراً كثيرة، بل أن تشع المعرفة نفسها من سيرتنا. إنني فيما أقول ذلك لست أمدح الأُميَّة، لكنني إنما أود أن أحذِّر من الأمور الزائدة التي لا تشكِّل حاجة ملحة في مسيرتنا، لأن طلب مثل هذه الأمور يعوق اهتمامنا بالنقاوة.

تفطَّن في مرضك واستعمل الأدوية اللازمة للشفاء منه. كن مدركاً لما تحتاجه لرحلتك وجهِّز الزاد اللازم لها. تفطَّن في الجهاد الموضوع أمَّامك، وتعلَّم المهارة اللازمة له. كن حكيماً في

تدريبك، واطلب لك مرشدين تتعلَّم منهم.

حتى ولو كان معلِّموك مستنيرين جدًّا، فإن عصاك ينبغي أن تكون في يدك دائماً: فلا تدخل البحر بغير عصا، ولا تمشِ في الضباب المظلم بغير عكاز، لأنك بها تطرد الكلاب وتسحق الحيَّات، وبها تتحسَّس البحر وتتخلَّص من الوحوش المفترسة. يوحنا المغبوط يدعوها "عكاز الضعيف"؛ توكأ عليها وأنت لا تسقط أبداً، فإنه ليس معين مثل الله، والذين يقرعون باجتهاد ومثابرة ينالون كل شيء.

طوبى لمن يتذكَّر أينما وُجِدَ أن لا يُهمل أبداً هذين الأمرين: الصلاة الدائمة، وتذكار الله الدائم. فالذي يصلِّي بمداومة يثبت في تذكار الله، والذي يداوم تذكار الله يصير مسكن الرُّوح. التأمُّل في الله هو صلاة، والذهن الذي تتحرَّك فيه دائماً حركات التأمُّل في الله هو ذهن مداوم على الصلاة، ولا يوجد لحظة وَاحِدة فارغاً منها.

١٩ - الصلاة:

الصلاة ليست هي مجرَّد تلاوة كلمات فقط، بل هي أيضاً حركات إلهية تنبع من أعماق القلب. ونتيجة للهذيذ الدائم بالله يعرض للذهن أحياناً أن يحدق فيه كما لو كان في عجب مذهل، وتتحد حركاته بالرُّوح وينظر إليه عن قرب بكيفية تفوق الوصف. طوبى للإنسان الذي يمكث دائماً عند بابه دون خزي!

لا تتكل على معرفتك لئلاَّ تُترك لأيدي الشياطين فيجتذبوك في مصائد خداعهم، حيث يملأونك فزعاً وتصير مرتبكاً تماماً لا تدرك أين أنت.

لا تشرع في المسير قبل أن تصلِّي، وخصوصاً في الطرق غير المعروفة. لا تدع فمك يكف عن التضرُّع، والصق بتضرُّعك الاعتراف بضعفك وجهلك، لكي تُحمل بالرحمة على الأقل من أجل اتضاعك حتى ولو كنت غير مستحق. عند نقص العمل الحقيقي يصير الاتضاع والاعتراف مقبولين عند الله عوضاً عنه؛ كما أن الإنسان الذي يظهر نفسه متواضعاً ينال أجراً حتى عن الأعمال التي لم يستطع القيام بها.

٢٠ - الاتضـــاع:

محبوبٌ عند الله هو الإنسان الذي يثبت في الاتضاع بسبب عجزه عن تكميل العمل المطلوب منه، أكثر من الذي يظن أنه يتفضَّل على الله بسبب كثرة أعماله. أمَّا الإنسان الذي يقتني العمل والاتضاع كليهما فهو قد غرس في نفسه كوكبين نيرين؛ وهو يبهج نفسه بهما ويُفرح الله بهما كل حين.

عندما ينقص العمل فإن تفوُّق الاتضاع يسد نقصه. قوة الاتضاع المهيمنة على النفس تظهر في شقاء الأعمال الاختيارية التي تحتملها في صورة تذكُّر الخطايا التي سبق فعلها؛ وبغير هذه

الأعمال يكون من الصعب عليها أن تهرب من الخطايا اليومية أو تحظى بالغفران عن المعاصي السالفة. حتى إذا لم تكن لنا أعمال فإننا نتمكَّن من الإحساس بالندم في قلبنا، ومن مداومة تذكار خطايانا بانسحاق أمَّام الله، ومن اللطف والسلام نحو الآخرين مقدِّمين كل وَاحِد في الكرامة، ومن انجماعنا إلى نفوسنا، ومن الالتزام بعدم الضحك أو الهزار، ومن الكلام الجيد لكل أحد، ومن اقتناء الشكر في قلبنا وقت التجارب، ومن الصمت بحكمة مع ترتيب الأعضاء، ومن التفطُّن في أننا مائتون على كل حال وأننا سوف نرحل عن هذا العالم. وكل هذه الأمور لا تحتاج إلى أعمال الجسد ولكنها تكون زينة للعقل.

فإذا كان أحد يهمل أن يقتني في نفسه حتى هذه الأمور التي لا تتطلَّب أعمال الجسد ولا تعتمد على قوته بل ويمكن أيضاً أن تُقتنى في حال الضعف ـ فمثل هذا الشخص يكون قد أسلم نفسه تماماً للغفلة ويُعتبر بعدلٍ مستحقاً للوم من قِبَلِ الله.

إن الله لا يطلب منا الخدمة المطوَّلة بقدر ما يطلب جودة الإرادة؛ والنفس الفاضلة لا تلقى قبولاً عند الله بسبب الأعمال ولكن من أجل الإرادة الفاضلة التي تتجه إليه والقلب المفعم دائماً بالانسحاق. وبالمثل فإنه لا يتخلَّى عن النفس الخاطئة نتيجة موازنة أعمالها؛ لأن الأعمال عادة ما تتوقَّف لأسباب متنوعة، كما أن أعمالاً كثيرة جيدة ورديئة تُعمل دون تدخُّل الإرادة. ولكن الله ينظر إلى اشتياق الإرادة ليرى ما الذي تجد مسرتها فيه. وهكذا فإن فضيلة النفس حتى بدون أعمال تكفي عندما تكون إمكانية العمل غير متوفرة. كما يقول المفسِّر: "إنه من الواضح أن رَبَّنَا في إعطائه وصاياه يُركِّز كثيراً على إرادة النفس أكثر من أعمالها". وفي موضع آخر يقول، كما لو كان عن شخص رَبَّنَا مستعيراً كلماته: "إنني أطلب الإرادة في الوقت الذي فيه لا أفحص ما يخص الأعمال؛ فإنه يكفيني أن تكون النفس متمسِّكة بالفضيلة بإرادة صادقة. فالذين هم تحت ناموس موسى يفحصون الأعمال وتنتخس ضمائرهم بسبب كل أنواع التعديات حتى الصغيرة جدًّا، أمَّا الذين ينتمون إلى شريعتي، فحتى لو أنهم قد يخطئون ـ بما أنهم بشر ـ فهم حين يعرفون أنهم يختارون في ضميرهم ما هو صالح، يعيشون في فرح".

٢١ - إنكار الذات:

إنني لست في حاجة أن أُذكِّرك بإنكار الذات. فليس هو قصدي أن أتكلَّم عن كل شيء، وليس الأمر كما لو كنت أتكلَّم إلى شخص لا يعرف الأسفار المقدَّسة. فإنك تُدرك جيداً أنه بدون التجرُّد لا يمكن أن يبلغ تَدْبِيرنا هذا إلى الكمال، لأنه طريق الفقر. ومن الواضح أن الإنسان الذي لا يمتلك إيماناً بالله في الأمور المرئية هو بعيد تماماً بقلبه من رجاء الآتيات مثل الأمور الأخرى التي لا يمكن للقلب أن يحس بحقيقتها إلاَّ بالإيمان فقط ـ وهي الأمور عينها التي يتركَّز هدف كلامنا منذ البداية حتى الآن في إظهارها: إنه بالرجاء تكمل سيرتنا هذه. وكما هو مكتوب فإنه ليس بإمكان أحد وهو يحمل ثقل أشياء أرضية أن يرتفع نحو السماء. لأن المربوط بمشاغل هذا العالم لا يستطيع أن يرضي مَنْ اختاره. ولكنني سوف أُذكِّرك فقط بما هو ضروري.

إن كنتَ قد اخترتَ أن تقتني الفضيلة، فلا تسمح أبداً لنفسك أن تشاهد وجه امْرَأَة أو تمشي بالقرب منها. هذه التذكارات هي مضادة لسيرتنا، لأنك متوحِّد وينبغي أن تسمو بعقلك فوق كل شيء خاضع للفساد. فإذا كان مجرَّد تذكار النساء يزعج العقل فكم بالأكثر تكون مشاهدتهن أو سماع صوت كلامهن. لا تتكل على كبر السن أو فضيلة عقلك، ليس لأنه بغير ذلك يسهل انغلابك ولكن لأن هذا تدريب نافع؛ لأنه لا ينبغي أن نطلب تجربة ما اختبره كثيرون قبلنا. أمَّا أنت فاجلس في قلايتك واهتم بخلاص نفسك منتظراً باشتياق ساعة رحيلك من هذا العالم مثل إنسان تحقَّق في نفسه أنه مائتٌ حقًّا.

٢٢ - لا تدِن الآخرين:

احترس من أن تفكِّر في أي شيء أو تنظر إلى أي إنسان كأنه رديء. لأنك في فرصة أخرى قد ترى الأمر مختلفاً تماماً بالنسبة للشخص الذي تراه الآن رديئاً. ولهذا لا تتبع الأفكار التي تُظهر لك الأمور كما يحلو لها. أمَّا إذا وُجِدَت المحبة فهي أيضاً تستر أخطاء الآخرين (يع ٥: ٢٠)، بينما غياب المحبة ينشأ من ظلمة النفس.

إن كان أحد لا يحب قريبه ويقول إنه يحب الله، فهو يكون قد ضلَّ تماماً في نفسه دون أن يدري. ولا يوجد شيء يغضب الله أو يكون مرذولاً أمَّامه مثل أن يكون الإنسان جالساً في قلايته يفكِّر في قريبه ويجعل قلايته قاعة محكمة يقيم فيها نفسه قاضياً يحكم على نقائص الآخرين. ومع ذلك يعتبر نفسه تائباً ويصلِّي قائلاً: "اغفر لي كما قد غفرتُ أنا"!

فإن كان الشخص الذي يحكم على الذين يخطئون ضدَّه يجلب على نفسه دينونة عظيمة أمَّام عدل الله، فماذا يحدث لنا نحن حين نحكم على أعمالٍ بعيدة عنَّا؟ فإذا كنتَ لا تستطيع أن تحتمل النظر أو تطيق أن تصبر في فكرك مقابل نقائص وضعفات الآخرين، فامضِ إلى موضع آخر. وإلاَّ فكيف تظن أنه بإمكاننا أن نرى كل إنسان صالحاً بينما نحن لا نمتلك السكون؟

كن مسالماً ومتواضعاً لكي ما تقتني شفقة على كل أحد. الظروف الخارجية تظهر بأوجه متنوعة تتناسب مع نشاط القلب إن كان مُوجَّهاً نحو ما هو خير أو نحو الشهوات. لا تكن موبِّخاً أو مبكِّتاً لأي إنسان، ولا محتداً ومضطرباً في نفسك. فالإنسان الذي يكون عقله دائماً في حالٍ من الاحتداد والانفعال تجاه رفيقه لا يمكن أن يصير أهلاً لذلك السلام الرُّوحاني الذي تتحرَّك فيه الأفهام عن لطف الله تجاه العالَمين، الاحتداد ينشأ في الإنسان نتيجة لتشتُّت العقل، حين يكون قد سُمح له أن يتجوَّل متفحِّصاً أعمال كل أحد كسفينة بغير ربّان.

الإنسان الذي يتشتَّت عقله ويمتلئ غيرة على شرور الناس لا يكون بمقدوره أن يصير مائتاً للعالم.

والإنسان تتملكه الغيرة دائماً على سيرة الآخرين عن طريقين مختلفين: أمَّا عن الكبرياء أو من الغباوة. خارجاً عن هاتين العلتين لا يكون هناك مجال للإنسان أن يمتلئ غيرة؛ وذلك أمَّا لأن

نقائصه الخاصة تكون أقل في نظره من نقائص الآخرين ـ بل وربما يظن أنه لا توجد عنده نقائص بالمرَّة! ـ ونتيجة لذلك تجده يعتقد في نفسه أنه قادر أن يجتذب الجميع إلى الحق، أو أنه يتصوَّر أنه حين يكره الخطايا يصبح صديقاً لله ـ وهذا تفكير في منتهى الغباء وغريب كلية عن كل معرفة حقيقية بالله؛ لأنه لا يدرك أن القديسين كانوا يقبلون كل أنواع الميتات من أجل أُناس أشرار وقتلة لكي ما يجتذبوهم إلى طريق الله بواسطة المحبة.

إن الذين يدركون قصد الله، وقد حسبوا أهلاً لمعرفة مشيئته تماماً، يرتضون أن يموتوا من أجل الخطاة على مثال ابن الله.

صـــــلاة:

أيُّها المسيح إِلهُنَا، الذي فرح رجائه الْعَظِيم يفوق جدًّا على فكر الإنسان، اِغرس رجاءك في أفكاري لكي بيقيني فيك يتحرَّر عقلي من التطلُّع إلى الأمور الأرضية. إنه من غير المستطاع يا رب، أن يتخلَّص العقل من التشتُّت في الأرضيات ما لم تجتذبه أنت إليك. ولا يمكن أن يرى أحداً شريراً ما لم يكن قد تغرَّب كلية عن معرفة رجائك، إذ تكون رؤيته منحصرة كالبهيمة على الأرض.

اجعلني أهلاً يا رب، أن أكون ميتاً من كل شيء، وفي هذه الميتوتة من كل شيء لَيْتَني أُحسب أهلاً للإيقان بسر الحياة الجديدة.

إن الذين يعيشون لهذا العالم لم يوجدوا أبداً أهلاً لإدراك تلك المعرفة، فالذين أدركوها هم فقط الذين صاروا أمواتاً طول عمرهم من أجل الرجاء الحقيقي المحفوظ لهم، مقدِّمين لله صَلَوَاتهم بدموع كل حين، وهم يتضرَّعون بمحبة شديدة أن لا يحرم أحد من جنس البشر من هذه البهجة.

هذا هو أسلوب تفكير القديسين، وهذا هو سبب الألم الذي يغشي أذهانهم دائماً، وهذه هي أيضاً صلاتهم التي يرفعونها إلى الله كل حين. وبهذه الإرادة يقبلون من غنى كنوز الله العطية التي لا يمكن أن يُقارَن بها العالم. طوبى للإنسان الذي يعرف ماذا يولد من المحبة تجاه الناس، وإلى أي علوٍ ترفع الشفقةُ النفسَ!

٢٣ - الحاجة إلى الصلاة النقية:

اهتم بهذه الأمور، يا أخي، وأنت تحيا حياة الملائكة في جسد مائت. ينبغي أيضاً أن تعرف هذا: إن المبدأ الأساسي لكل صلاح بالنسبة لرجل الله في هذه الحياة هو الصلاة النقية. وما لم يمت الإنسان عن كل كائن بشري ويلازم السكون مع نفسه دائماً مثل مائتٍ في قبرٍ، فإنه لا يستطيع أن يقتني هذه الصلاة النقية نظراً لأنها تتطلَّب تفرُّغاً كاملاً من كل شيء آخر لكي يمكنه عن طريق ذلك أن يقف أمَّام الله بطهارة وبدون تشتُّت وقت الصلاة، وقد انجمع عقله إلى ذاته من كل جهة، وأصبح يحدق في الله وحده في هدوء حركاته، فيستضيء بتذكار عظمته ويرفعه الله

إلى مجد جلاله. وبتذكار أعمال نعمته نحو جنس الكائنات العقلية يطوف على الأرض في دهش الفرح. ثم إنه أمَّام عظمة الله غير المدرَكة تمتلئ نفسه بكلَيْتَها بالتسبيح، وتتحرَّك بحركات مقدَّسة بخوفٍ وحبٍ على مجد ألوهيته الذي يجعل ربوات الكائنات الرُّوحية تمجِّد ولا تستطيع أن تتطلَّع إلى السحابة التي تغطِّي قدس أقداس خفيته. هو الذي أتى إلى الوجود بعوالم لا تعد وطبائع بلا حدّ؛ وهو الذي خلق من العدم جيوشاً لا تُحصى من الملائكة. وإذ هو ساكن في ذاته حيث لم يكن هناك أحد يدفعه ـ إذ لم يكن ثمة موجود غيره ـ سُرَّت مشيئته من تلقاء ذاته وبنعمته أن يأتي بالعوالم إلى الوجود لكي ما تدركه؛ وجبل الخليقة بنعمته جاعلاً إيَّانا نحن بني البشر ـ ونحن تراب من الأرض ـ مستحقين لتمجيده. لأنه بقدرته الخالقة رفعنا إلى درجة النطقية لكي ما نقف ونتكلَّم في حضرته بالصلاة، حتى نصير في ذهننا شركاء في مجد طبيعته الإلهية ـ إن كان تَدْبِيرنا يستحق ذلك ـ وحتى نضاهي ونحن على الأرض مثال غير المتجسِّدين.

فلأن كل هذه الخيرات وهذه العظمة تحصل لنا من السهر والنقاوة ـ حيث إن السهر هو أيضاً سبب النقاوة ـ فلنداوم السكون، ولنجعل أنفسنا مائتين عن كل أحد، ولنجمع أفكارنا كل حين من التشتُّت، وبواسطة هذه التذكارات يمكننا أن نسترد ذهننا وقت الصلاة والخدمة بغير تعب ونرفعها إلى الله بكل يقظة وانتباه.

فلنظهر اشتياقنا لاقتناء معرفة الله بتضرعنا الدائم إليه؛ ولنكن في وقت الصلاة راغبين ومترقبين أن نتقبَّل الإحساس به في نفوسنا. لأنه من الواضح أنه إذا أظهرنا اشتياقنا واهتمامنا بهذا الأمر، معتنين بما هو لائق، فإن الله الصالح الرحوم لن يخزينا، بما أنه هو نفسه الذي أعطانا كل هذه الخيرات من تلقاء ذاته.

٢٤ - نماذج من الصَلَوَات:

إنني أريد الآن أن أضع أمَّامك بضع صَلَوَات قَلِيلَة ثم أختتم رسالتي. وقد رأيت أنه من الضروري أن أرفق هذه الصَلَوَات بها لكي ما تزودكم بمادة للصلاة وبواسطة المعاني التي تحتويها يقتني العقل الاتضاع ويظل بعيداً عن التشتُّت الفارغ، وذلك من خلال مشاعر الانسحاق التي تشتمل عليها. فعند ما تأكل أو تشرب، وأنت واقف أو جالس أو ذاهب لتنام، أو كنت تعمل أي شيء ـ حتى حين تكون سائراً في الطريق أو موجوداً وسط أُناس كثيرين ـ ينبغي عليك أن تشغل نفسك في أعماق قلبك بكلمات هذه الصَلَوَات التي أُسطِّرها لك. وهي أيضاً تصلح للصلاة بها أثناء السجود. وعند الانتهاء من الصَلَوَات المحدَّدة، إذا أردت أن تثبت في تضرعك استمر في الصلاة بها. فبكل نوع من الحركات يتيقَّظ ذهنك كي يحدق في الله وقت الصلاة حين ترفق بها هذه الصَلَوَات.

٢٥ - صَلَوَات:

يا الله، اجعلني أهلاً أن أصير مدركاً للرجاء المحفوظ للأبرار وقت مجيئك، حين تأتي في جسدنا لكي تعلن مجدك للعالمين.

يا الله، يا مَنْ أظهرت حبك للعالم ولو أنه لم يتعرَّف عليك، وأعلنت ذاتك جزئياً للأبرار عبر الأجيال من خلال تلميحات الرؤى، أعد الحياة لحركاتي المائتة حتى تشعر بك، لكي ما أُسرع بالمجيء إليك ولا أنتظر إلى تلك الساعة التي يضع فيها الموت حدًّا لمسيرة حياتي في مرفأ السكوت.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، ميناء المراحم، يا مَنْ أظهرت ذاتك وسط جيل خاطئ؛ يا مَنْ انتظرك الصديقون في أجيالهم العديدة، ثم أتيتَ إلينا في ملء زمانك لتفرِّح الخليقة جمعاء: امنحني عيناً أخرى وأُذناً أخرى وقلباً آخر كي عوضاً عن العالم أرى وأسمع وأُدرك تلك الأشياء المحفوظة عندك لحين استعلان مجدك لجنس المسيحيين من خلال ذلك النظر والسمع والإدراك الأعلى من الحواس العادية.

حرِّك في داخلي يا رب، مذاقة الإحساس بك كي أُحسب أهلاً للعبور من هذا العالم إليك، لأن العالم قد أسرني بملذاته وأبعدني عنك. فطالما كانت عيناي تبتهجان لرؤية الأشياء القابلة للفساد، وعقلي يقتنني فهماً حسياً ومادياً؛ فإنه لا يكون بمقدوري أن أتحرَّر تماماً من تلك المشاعر الضعيفة الخاضعة للفساد التي تنشأ عنها.

اِجعلني أهلاً يا رب، أن أقتني تلك الرؤيا التي لا يكون للفساد أي أثر عليها، حتى إذا ما اقتنيتها وسهوت عن العالم وعن نفسي، تزول من قدَّام عينيَّ كل الصور الحسية.

أنت يا رب، مسرَّة جنسنا البشري، وتعزية حالتنا المعدمة، وسند حقارة طبيعتنا البشرية التي ترنَّحت وسقطت، ورجاء المحرومين، والاسم الممجَّد الذي أُستُعلن لبني البشر: هبني نهوضاً من سقطتي وقيامة من ميتوتي؛ حرِّك فيَّ إحساساً بالحياة، وأَخرِج نفسي من سجن الجهل لكي ما أُسبِّح اسمك. انفخ في أعضائي نسمة الحياة الجديدة: اِفتقد حالتي التي فسدت في القبر، وأخرجني من موضع الظلمة. لَيْتَ نور استعلانك يفتقدني في هاوية الجهل. الطبيعة البشرية التي وهبتها النطق أصبحت صامتة فيَّ: لَيْتَك يا رب، تردها مرَّة أخرى إلى حيويتها الطبيعية؛ لأنه ليس في الموت مَنْ يذكرك ولا في الجحيم مَنْ يحمد اسمك. ليس لي لسان ينطق اسمك، ولكن لَيْتَ الأحياء مثلي اليوم يحمدونك.

قد خرستْ حواسي، وسكتتْ حركات قلبي، وجفَّت الأفكار، وصار عمل الطبيعة البشرية فيَّ مفتقراً إلى الحياة الحقيقية: ليس فيَّ أي تذكار لك، ولا أي تسبيح لاسمك في الهاوية التي أسكن فيها، ليست هناك أصوات التمجيد المبهجة في نفسي الضائعة، وكل أعضائي المائتة هي في انتظار مخاض القيامة. وليس مَنْ يأتي إليَّ في قفر الهاوية.

إلهي، هبني أن أسمع صوتك الذي يقيم الكل بطريقة خفية، حقِّق فيَّ مثال لعازر حبيبك. أنا أعلم يا رب أنني لم أكن أبداً صديقاً مخلصاً لك، ولكني أنتمي إلى قطيعك، وقد اختطفني عدوي وأذلَّ في الأرض حياتي. يا إلهي، اجعلني أهلاً أن أحظى بنصيبٍ في المجد الذي أعددته لأحبائك في العالم الجديد، وفي إدراك معرفة حبك والاتحاد الذي لا يفترق ورباط المحبة الذي لا ينحل الذي يأتي من التأمُّل الدائم فيك. يا رب، لا تمنع عني أعمال نعمتك، ولا تحرمني من معرفتك المملوءة رجاء.

يا رب، نجني من ظلمة النفس. أيُّها الإله المتحنِّن، امنحني فرح الرجاء، اِغرس رجاءك في أفكاري، واجعلني أهلاً لتحننك عند إشراق إعلانك من السماء. يا رب، لا تسمح أن أكون مطلوباً للدينونة من أجل معاصيَّ الكثيرة حين تأتي في مجدك الْعَظِيم.

أنت يا رب، بنعمتك أتيت بي إلى الوجود، وبنعمتك سوف تؤهِّل جسدي للقيامة؛ لَيْتَ قيامتي من التراب لا تكون للدينونة والخزي. لَيْتَني لا أنهض من نوم الموت لأواجه الدينونة والحرمان منك؛ بل أقمني يا رب من التراب للفرح والبهجة، وللمجد الذي كان في قصدك منذ البدء أن تحضر الكائنات الناطقة المخلوقة إليه لمَّا جبلتهم.

أنت يا رب ، لم تخلقني لجهنم، فلا تسمح أن أكون آنية للهلاك، لأن الهلاك هو من نصيب مَنْ يُحرم كلية من نظرتك المفرحة يا رب.

اجعلني أهلاً يا رب، أن أكتشف تفسير ذلك الرجاء الذي من أجله صوَّرتني في مشيئتك من البدء، لكي أعاين مجدك الأبدي؛ لأنك أنت الذي ـ من قبل أن نوجد ـ أردت أن تأتي الخليقة إلى الوجود لكي تدرك عظمة مجدك.

٢٦ - ملاحظات أخيرة:

هذه هي الأمور التي ينبغي أن تطلبها في صلاتك، وهي المواضيع التي يجب أن تنشغل بها حين تصلِّي. اقتنِ اشتياقاً وتوجُّعاً، قدِّم تضرُّعك بحرارة، واجعل قلبك متقداً بحركات مثل هذه في صلاتك، إلى أن يتفجَّر لهيب حب الله فيك وترتفع حرارة شهوة محبته في قلبك.

بمفاوضة مثل هذه ينجمع الذهن إلى نفسه في بهجة، وقليلاً قليلاً ينسى التشتُّت ويُبتلع بالأفهام ويتحرَّر من الصور. مثل هذا الإنسان يشعر بتوجُّعٍ في الصلاة ويغشى ذهنه التوجُّع ممتزجاً بالإيمان، بينما يبتهج قلبه في الله ويطفر من الفرح ويبتهج بالحب. ويمتلئ بالرجاء وينهض من النوم. بهذه المفاوضة التي تخص صلاة الفهم تمكث النفس وقت الصلاة في ابتهاج عظيم.

أمَّا عن الحركات المضيئة التي تولد في الإنسان وقت التضرُّع، فهذه تحدث نتيجة للاشتياق الشديد وكثرة هذيذ العقل والحديث المستمر في الصلاة الذي يلازم الشخص دائماً في تفكيره وانشغاله بهدف معيَّن لتضرُّعه. **نهاية الرسالة** ✝✉✝

المَيْمَر الثَّانِي

عن العلامة التي تدل على أنّ نور طبيعتنا الناطقة قد ابتدأ أنْ يصير مرئياً في النفس

١ ـ إن الصفة التي تتميَّز بها الخليقة الناطقة هي التسبيح الدائم لله. لأن النفس المخلوقة ـ التي هي عجيبة في طبيعتها بهذا المقدار ـ قد خُلقت بواسطة جابلها ليس لأي غرض آخر سوى لكي تبتهج بمعرفة المجد الإلهي، تماماً مثلما أن القوات غير المرئية ـ التي هي ذات قرابة للنفس ـ توجد في حالة مستمرة من الفرح بمجد الكائن الكلي المجد.

٢ ـ هكذا فإن النفس التي تكون منشغلة على الدوام بالتسابيح الإلهية، تعيش في حالة خلقتها الطبيعية: فإنه لهذا الغرض بالذات أتى الله بالخليقة إلى الوجود، أعني لكي ما تعرفه وتمجِّده، وبهذا ترتفع إلى الفرح في مجده الأبدي الذي لا يقدر أحد أن يصفه أو يعيه. لأن مجد الطبيعة الإلهية ينكشف للنفس بواسطة الهذيذ الدائم بتسبيح الله.

٣ ـ كما أن خلقة هذا العالم بكل خصائصه كانت أيضاً لهذا الغرض عينه، أعني لكي يصير مجد الله معروفاً لفكر الكائنات الناطقة ـ وليس فقط لغرض الأكل والشرب والزواج، على الرغم من أنه قد يتراءى هكذا بالنسبة للكثيرين في جهلهم.

٤ ـ لقد كان الله قادراً تماماً أن يخلق جميع البشر على مثال الكائنات الرُّوحية في حالة لا تحتاج إلى التسلسل الوَاحِد من الآخر، وأن يكونوا مثلهم بدون أي احتياج إلى الطعام في عملية نموهم. ومن الواضح أن غاية هذه الخليقة لا تتوافق مع ما يُقال، لأن الكائنات البشرية لا تبقى مع هذه الأشياء عينها إلى الأبد، ولأن كل هذه الأشياء التي تُعتبر عظيمة وممتعة في هذا العالم ستؤول إلى الفناء، وأن الله مزمع أن يقيم الإنسان في نمط آخر من الحياة يُستعلن بواسطته للعالم الغرض الذي من أجله أراد الله أن يقود الخليقة أولاً في هذه الحالة (الجسدانية). فلم يكن القصد أن يعطي كرامة خاصة لمستوى المعيشة الحيوانية، هذا بالإضافة إلى أنها تُحتقر عند الكثيرين هنا على الأرض. ولكن الإله الكلي الحكمة قد هيَّأ أولاً هذه الخليقة المنظورة لكي ما يبدأ الإنسان من خلال هذه الأمور المرئية أن يقترب من معرفة تلك الطبيعة الممجَّدة (قارن: رو ١: ٢٠).

٥ ـ لأنه لا يليق بأي معلِّم يوصِّل المعرفة للتلاميذ أن يقود الدارسين منذ البداية إلى المعرفة الكاملة بالموضوع دون أن يكون أولاً قد درَّبهم جيداً على حروف ألف باء وعلى القراءة بصوت مسموع. كما أنه أمر رديء جدًّا أن يقدِّم لهم الأمور السامية قبل أن ينتهوا من استيعاب المواضيع الأَوَّلية الأساسية. وأيضاً إذا أراد أحد أن يدعو أصحابه إلى الوليمة، فهو يقدِّم لهم أولاً الأطباق العادية الأقل قيمة، ثم يقدِّم بعد ذلك تدريجياً الأصناف الفاخرة الشهية

التي تدعو للإعجاب بصنعتها.

٦ ـ على هذا المنوال أيضاً فإن الله رب الكل قد أعلن عن قدرة حكمته وحبه عن طريق مكونات هذا العالم المرئي، الذي هو أقل قدراً بما لا يوصف مما سوف يُستعلن فيما بعد؛ لأنه قد اِدّخر للنهاية مجد ذلك النعيم والمنظر المذهل لذلك العالم العجيب الذي أُعدَّ بواسطة قدرته الفائقة وحبه العميق ليصير إعلانه لنا أخيراً.

٧ ـ لذلك فحسبما قلتُ إن النفس حينما تتحرَّك نتيجة للحديث الدائم مع الله نحو التمتُّع بالمجد الإلهي، وتُسرُّ بأن تبقى هناك بلا انقطاع، فهي تصير مدرِكة ـ بنعمة الرُّوح الْقُدُس ـ للمرتبة الخاصة التي سوف تتسربل بها في النهاية، إذ تكون قد أدركت ذلك من قبل كعربون بقدر ما تسمح به حدود الطبيعة البشرية الآن، وقد حُسبت أهلاً لتَدْبِير الحرية الحقيقية وتذوقتها كما لو كان في عربون.

المَيْمَر الثَّالِث

مقالات المعرفة[٧٦]

[3] تتوشمل أبعمق الت مطوللمتُهترجتهاالى لل إلنجل ُزيُ ولكنها موجواة فتَ رجم حاُثيبالل إل ُطال ٍ فَلكتاب:

Discorsi Spirituali,
1985 – Edizione QIQATON,
Comunita Di Bose

وتوجا مخصرف ألجز الربلع من لمخطو طالعرب ٍ.

المَيْمَر الرَّابع

لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني: فصول رتبها بعد مقالات المعرفة

تنفع كإشارات جلية توضِّح عملنا المكرم في السكون

١ – والآن، إذ قد أكملنا – بنعمة الله مخلصنا – هذه الفصول عن المعرفة، التي تجد فيها قوة عظيمة، كان من الواضح أن النعمة هي التي رتبتها؛ فإن ضميري يشهد لي أنـها تحوي قوة فعالة لا يمكن أن تنسب إلى مقدرة بشرية، وبالأحرى لكوننا مقصرين في التَدْبِير النسكي، وتعوزنا المعرفة التي تسمح لنا أن نسمو إلى علو الأسرار المكنوزة في تلك الفصول. فإذ قد وصلنا إلى هذا الحد فيما كتبناه بمعونة رَبِّنَا، فإن غايتنا الآن هي أن نورد أساليب الصلاة الخفية موزعة على مواضيع مختلفة، ومرتبة على الحروف الأبجدية.

٢ – وهذا أيضاً ما يجب أن تعرفه، يا أخي، أن الذهن الذي قد استنار، لم يعد في حاجة إلى كلمات الصلاة المتنوعة: يكفي أن ينفتح باب وَاحِد للصلاة لكي يغوص الذهن داخل الصلاة، ويُسمح له بالخلطة مع الله.

٣ – تنوع أساليب الصَلَوَات يساعد كثيراً الذهن الذي يضنيه التشتت، لأنه منـها وبواسطة القوة المتولدة عنها، يشعر بتأثيب الضمير، وهكذا يقتني الصلاة المبهجة والسجود لأوقات طويلة، والتشفع من أجل الخليقة، والابتهالات المتواترة التي تستمد حركتها من الداخل. وهذا يحدث له لأنه مع كل كلمة يلاقيها في هذه الصَلَوَات، يكون مثل من نـهض من نوم عميق، فهو يجد فيها على الدوام أفهاماً مذهلة. ولأن هذه الكلمات عينها هي عطية من النعمة، لذا فهي تمتلك قوة خفية. وهكذا يُعان الذهن من خلال انشغاله بـها ومداومة تلاوتـها.

٤ – أثناء زيارات النعمة، حين تتمتع بـهذه الصلاة المبهجة، وتلك السجدات الممتدة، لا تكون هناك ضرورة كبيرة تدعوك لأن تتوقف عنها لتؤدي قانون صَلَوَات الساعات، أو تقلق من أجل تكميل تلاوة ما تبقى منها. لأن مثل هذه الصلاة قد احتوت داخلها جميع الصَلَوَات التي تتلى بحسب العدد المحدد، وهي قد جعلت القوانين خاضعة لك. أليس من الواضح إذاً أن بقاءك منطرحاً على وجهك أمَّام الصليب أغلب اليوم – الذي يعتبر في حد ذاته صلاة تحتوي كل صَلَوَات وخدمات الساعات داخلها – قد جعل القوانين خاضعة لك؟ فقد قيل: "إذا واتتك فرصة لعمل عظيم، لا تعد إلى ما هو أقل".[٧٧]

٥ – قال القديس مرقس هذا بقصد خفي؛ لأنه كان يعلم أنه ليس لكل إنسان أن يبلغ إلى الصلاة النقية، بينما أن الذين يبلغونـها يتعلمون من مذاقة حلاوتـها أنه ليس هناك عمل أعظم منـها. فإذا حدث أن توقفتْ؛ فمن الأفضل أن لا تـهمل تكميل قانونك. وإن كنت قد اقتنيتها جزئياً، فاهتم حينئذ بأن تحرص على تكميل قانون خدمتك فيما تبقى لك من وقت حتى آخر نسمة، ذلك لأنك

[33] الق ا س م ن س ا ك : ا ع م ا ل ا ر و ح

سوف تستنير مرة أخرى كنتيجة لحرصك على تكميل قوانينك وتتقدم إلى الصلاة النقية الدائمة.

٦ – كل ابن يعمل أولاً في عبودية لأبيه، ولكنه فيما بعد يُعطى سلطاناً على كل كنوزه، كما قال بولس الرسول: «مادام الوارث قاصراً لا يفرق شيئاً عن العبد؛ هو تحت أوصياء ووكلاء إلى الوقت الذي حدده أبوه» (غل ٤: ١-٢). فاجعل النواميس الإلهية وقوانين السيرة المقدسة تكون لك أوصياء ووكلاء يقودونك خلال مرحلة طفولتك (الرُّوحية)؛ لأنـها سوف تأتي بك إلى قياس إنسان كامل في المسيح.

٧ – لأنه ما فضل النواميس والقوانين بدون الاستنارة التي تتولد منها في النفس؟ فإن هدفها هو أن يقوِّم الإنسان نفسه بمعونتها كلما وجد نفسه في الظلام، سائراً في التيه، أي بمعونة صَلَوَات الساعات والخدمة. فكما أن الإنسان إذا ضلَّ طريقه يرجع إلى الوراء إلى بداية الطريق، ويبدأ من هناك مرة ثانية لَيْتَابع مسيرته إلى حيثما أراد؛ هكذا أيضاً فإن النواميس والقوانين تضع على الطريق الصحيح كل من وجد نفسه في الظلام سائراً في التيه. فإذا لجأ ذلك الشخص إلى القوانين مرة أخرى فهي ترده إلى السبيل الذي ضل عنه.

والآن، ما هو ناموس البنين الذي يقود الإنسان إلى الحرية ويهبه النور؛ وما هو ناموس العبيد الذي لا يسمح لهم بالتقدم، والذي بواسطته يتعلم الإنسان بطريقة تليق بالأبناء الصغار؟ كل هذا سوف نظهره في مكانه المناسب.

٨ – وينبغي أيضاً أن ندرك هذا: أنه طالما كان أحدٌ ما يقسم أوقات اليوم ويخصص جزءًا للخدمة، وجزءًا آخر للقراءة (في الكِتَاب المقدس)، وجزءًا للصلاة، وجزءًا للأعمال الأخرى، فهو ملزم بالضرورة، إذا ما حان الوقت المعين للصلاة، أن يؤدي ما هو واجب عليه في وقته المحدد: فليس بإمكانه أن يعبر عليه دون أن يوفي دينه الواجب. لأنه من الضروري أن يتمم ما هو مفروض عليه من قوانين خدمته، كل خدمة في مكانـها الصحيح ووقتها المحدد.

٩ – وفي حالة ما إذا كان الشخص ملتصقاً بالله في الانسكاب الدائم الذي يحدث في الصلاة، وهو ساجد باستمرار على الأرض، مداوماً التضرع إليه، ونفسه مُبتلَعة بالشوق، بينما هو منطرح أمَّام الصليب، فإن هذا الشخص لا يكون بعد تحت أي ناموس أو قوانين خدمة، ولا تكون للأوقات والفترات الزمنية المحددة أي سلطة عليه. فهو، بالأحرى، قد أصبح من تلك اللحظة أعلى منها، إذ يكون (في شركة دائمة) مع الله بلا حدود.

١٠ – والآن، دعنا نكف ونضع ختامًّا لكلامنا. ولنقترب ونجد مسرة في الحديث مع الله بالهذيذ بـهذه الصَلَوَات التي أنا مزمع أن أدونـها، لأننا بـهذه الصَلَوَات سوف نقتني عطية التقديس والقوة السماوية التي تكشف الأسرار للنفس.

المَيْمَر الْخَامِس

صَلَوَات

مقدمة:

أحاديث الصلاة الخفية، لمار اسحق، التي وضعها ورتبها وركَّبها من المشاعر والابتهالات، وجعل منها كأعضاء مرتفقة معاً جسداً وَاحِداً، لتكون نافعة لهذيذ الصلاة الخفية. ويمكن للإنسان أن يهذ بهذه الصَلَوَات بينما يكون واقفاً أو جالساً؛ فيما هو يعمل أو يمشي داخل قلايته؛ وأثناء ذهابه لينام إلى أن يغلبه النوم. وعندما يكون في الداخل أو مسافراً في رحلة، يشغل نفسه بها سراً في قلبه. وكذلك حين يكون راكعاً على الأرض، أو أينما كان واقفاً، حتى ولو لم يكن أمَّام الصليب، إذ يمزج اتضاع جسده مع حركات صلاته؛ لأنه بهذا سوف يجد منفعة مثلما يجد من تلك (الصَلَوَات) التي حددها كقانون لنفسه، ومن مصادر أخرى، مع ما يعود عليه بالمنفعة منها مقابل حالة ذهنه المتغيرة وأوقات السلام والقلق التي تأتي عليه. فهو إذ يستفيد من هذه (الصَلَوَات) التي رُتبت على نحو ملائم لكي يجد فيها عزاءً، سوف تقتني نفسه التقديس بواسطتها وتمتلئ من نعمة الرُّوح.

الصَلَوَات:

١- فيما تنحني نفسي إلى الأرض،أقدم لك بكل قلبي، وبجميع عظامي، السجود الذي يليق بك، أيُّها الإله الممجد، الساكن في سكون لا ينطق به. أنت قد هيأت لتجديدي، مظلة من الحب على الأرض، حيث سُررت أن ترتاح، مظلة جُبلت من جسد، وهيأتها بزيت المسحة المقدسة، ثم ملأتها بحضورك المقدس، لكي تُقام فيها خدمة عبادتك، مشيراً إلى السجود اللائق للأقانيم الأزلية التي للثالوث الأقدس، ومُظهراً للعوالم التي خلقتها بنعمتك، سراً لا ينطق به. قوة لا تدرك، ولا يستطيع أحد أن يفهمها من أركان خليقتك التي أتيت بها إلى الوجود. بالدهش والتعجب منه، تغوص الكائنات الملائكية في الصمت، بالرهبة أمَّام الغمامة المظلمة التي لسره الأزلي، وأمَّام فيض البهاء، الذي يتدفق من داخل هذا العجب المذهل، لأنه يتقبل السجود، في بلد السكوت، من كل عقل تَقدس وصار أهلاً لك.

٢- أطرح نفسي، يا رب، عند موطئ قدميك، وعند يمينك المقدسة، التي جَبَلتني وصَنَعتني إنساناً قادراً أن أشعر بك. لكني قد أخطأتُ وأثمتُ في نفسي وأمَّامك؛ لأنني تركت عني الحديث المقدس معك، وصرفت أيامي في الانشغال بالشهوات.أتوسل إليك، يا رب، لا تحسب عليَّ خطايا شبابي، وجهالات شيخوختي وضعف طبيعتي التي ثقلت عليَّ جداً، وجعلتني أغرق في التفكر بأمور بغيضة؛ بل حوِّل قلبي إليك،بعيداً من تشتت الشهوات المزعج؛

وليسكن فيَّ نورك الخفي. أعمال صلاحك نحوي لا تنتظر أي إرادة من جانبي لأعمل الصلاح،

ولا استعداد قلبي لاقتناء الفضيلة. أنت لم تؤخر أبداً عنايتك بي لكي تختبر حرية إرادتي:

بل كما يعتني الأب بابنه الصغير، هكذا أنت أظهرت عِظم اهتمامك بي؛ بتعطفك الأبوي افتقدت ضعفي، وما قصدتَ قط أن تمتحن إرادتي، لأنك تعلم دائماً أنني لست سوى طفل صغير لا أعرف أين أنا مسافر.

٣- أتوسل إليك، يا الله، أن ترسل معونتك من سماواتك العالية، لكي أُبعد من قلبي،كل فكر شرير، وكل شهوة جسدية.لا تطرحني، يا رب، من حمايتك،لئلا يجدني العدو المقاوم لي،ويدوسني كما يشاء.ويهلكني بالتمام.أنت هو الذي تمنح التوبة وندم القلب، للخاطئ الذي يتوب،وبهذه الوسيلة،أنت تريح قلبه من ثقل الخطية التي أثقلت عليه،بفضل العزاء الذي يأتي من الحزن، ومن عطية الدموع.

٤- على باب تحننك، يا رب، أنا أقرع؛أرسل معونة لحركات قلبي المشتتة،التي سكرت من كثرة الأوجاع وقوة الظلمة.ها أنت ترى، يا رب، قروحي المخفية داخلي،حرِّك فيَّ الندم،ليس بحسب ثقل خطاياي؛لأنني لو أدركت، يا رب، مقدار آثامي،لفنيت نفسي من الألم المر لأجلها.ساعد حركات نفسي الضعيفة،في طريق التوبة الحقيقية.ولَيْتَني أجد تفريجاً من عنف الخطايا،بالندم الذي يأتيني من عطيتك؛لأنني بغير قوة نعمتك غير قادر تماماً أن أدخل داخل نفسي، وأدرك خطاياي،لكي عندما أراها، يمكنني أن أحتفظ بالسكون بعيداً عن كل تشتت.

٥- يا إسم الرب يَسُوع الْمَسِيح،مفتاح كل العطايا،افتح لي باب مخازن كنوزك الْعَظِيمة لكي أدخل وأقدم لك التمجيد بالتسبيح الذي ينبع من القلب مقابل جميع مراحمك التي أدركتني في الأيام الأخيرة لأنك أتيت وجددتني بمعرفة العالم الجديد.

٦- أقدم التمجيد لطبيعتك الْقُدُّوسة، يا رب،لأنك قد جعلت طبيعتي قدساً لخفياتك،ومظلة لأسرارك،وموضعاً لسكناك،وهيكلاً مقدساً للاهوتك؛هذا الممسك بقضيب ملكك،الذي يتسلط على كل ما أتيت به إلى الوجود؛الخيمة المجيدة التي لجلالك الأبدي،ومصدر التجديد لكل القوات النارية التي تخدمك،والطريق إلى معرفتك،والباب المؤدي إلى رؤيتك،والمدخر فيه كل كنوز قوتك وحكمتك الْعَظِيمة، يَسُوع الْمَسِيح،الابن الوحيد، المولود من حضنك الأزلي،والبقية (التي أبقيتها لنا) من خليقتك[٧٨] المرئية والرُّوحية.

٧- أيُّها السر الذي هو أعلى من كل نطق،وأعلى من السكوت، الذي صار بشراً لكي يجددنا،لما اتحد بالجسد بحرية إرادته، اكشف لي الطريق،للسفر عبر سبيل واضح وهادئ،ومتحرر من اهتماماًت هذا العالم.اجمع عقلي إلى سكون الصلاة،لكيما تسكت داخلي جميع أفكاري الشاردة،أثناء التضرع إليك بالحديث المبهج، وبالعجب المملوء سراً.

[32] حرفياً: الطرق التي جُمعت من أجلك (ارن اش ٦:١؛ رو3:6 ،- 6(

٨- أطرح نفسي يا رب عند عرش جلالك،أنا التراب والرماد وحثالة البشرية.ألوف ألوف الملائكة وقوات السارافيم التي لا تحصى،تقدم لطبيعتك الْقُدُّوسة،المخفية عن حواس ومعرفة جميع المخلوقات،العبادة الرُّوحية في خفية طبيعتهم،بتسابيحهم النارية وحركاتهم المقدسة؛لأنك أنت، يا رب، قريب جداً،وتقدم معونتك للجميع في أوقات الشدة،وبابك مفتوح في وقت مناسب وغير مناسب لتوسلات الكل.أنت لا تأنف من الخطاة،وجلالك لا يشمئز من النفوس التي اتسخت بكل أنواع الخطايا؛بل تجتذب كل وَاحِد من الشرور التي بلا نهاية،بما فيهم أنا، المتدنس بكلَيْتَي،إذ قد جعلتني أهلاً أن أنطرح على وجهي أمَّامك،وأعطيتني جراءة أن أنطق باسمك بفمي،رغم أنني إناء مملوء من كل الأدناس،وغير مستحق أن أحسب بين أبناء آدم.امنحني، يا رب، أن أتقدس بتسبيحك،وأتطهر بتذكارك؛جدِّد حياتي بتغيير ذهني،وبالأفكار النافعة التي تحركها فيَّ بنعمتك؛ كن مرشداً لعقلي في هذيذي بك، وهبني أن أنسى عثرات سلوكي،بتجديد ذهني الذي تبثه فيَّ.حرِّك في داخلي اشتياقات جادة مضطرمة،ولتكن إرادتي وفق مشيئتك؛ لأنك أنت الذي تعطي الصلاة لكل من يصلي[٧٩].اغرس فيَّ إرادة وَاحِدة: إرادة تتطلع إليك كل حين،واشتياق لا يضعف رجاؤه فيك بالأمَّاتات المستمرة من أجلك،امنحني، يا رب، ألا تكون صلاتي أمَّامك مجرد كلمات تنطقها الشفاه؛ بل فلأكن منطرحاً على الأرض أمَّامك في اتضاع القلب الخفي وتوبة العقل.

٩- يا الله، يا من بطول أناتك مقابل خطاياي،تمنحني حياة في هذا العالم،لا تحرمني من حياة العالم العتيد،الذي ينتظره برجاءٍ،جميع الذين يتضرعون إليك هنا في شقائهم.

١٠- أيُّها المسيح إِلهُنَا،الحب الإلهي الذي أفرز القديسين من العائلة والأقرباء ومن حياة الترف البشري،وقد سكنت فيهم قوة الأهواء الطبيعية،مقابل حلاوة هذا الحب،لَيْتَك، يا رب، تمنحني أن أنكر حياتي بشهوتي فيك،ولَيْتَني أصير ميتاً جميع أيام حياتي لكل الأشياء التي تلد فيَّ لذة هذا العالم؛ وبقدرتك، يا رب، تهدأ العواصف التي تعمل في أعضائي؛ ولَيْتَ حبك يفصلني من العالم ومن الحديث معه. ارسم في ذهني صورة غير مرئية، تبطل بواسطتها تذكارات لذة هذا العالم الحاضر وجميع صورها (من قلبي).

١١- أركع قدام جلالك، يا الله،وأسجد على الأرض أمَّامك؛ لأنك دون أن أطلب، بل وقبل أن أوجد،أتيت بي إلى الوجود؛وقبل أن تصورني في الحشا،عرفتَ أنني سوف أحيا حياة مليئة بالاضطراب والنكوص؛ومع ذلك لم تمتنع عن أن تخلقني،وتهبني كل الصفات التي كرمت بها الطبيعة البشرية،رغم أنك كنت تعرف شروري مسبقاً.أنت تعرف كل احتياجاتي قبل أن أعرفها أنا،وتعرف صَلَوَاتي قبل أن أصلي بها أمَّامك:فهبني، يا إلهي، في هذه الساعة، كل ما تعرف أن طبيعتي البائسة تحتاج إليه في محنتها الحالية.أنت تعرف كرب نفسي،وفي يديك يوجد شفاؤها.

[36] اصم .:6سعنٌ ِ

١٢- أيُّها القدير، الذي بقوتك انتصر الآباء الأقدمون على هجمات المارد الشديدة المرعبة،وهم الذين، رغم مشاركتهم في الطبيعة البشرية الخاضعة لضرورات كثيرة، كانوا مثل من ليست لهم حاجة لشيء؛وأظهروا على الأرض شبه الأمور العتيدة، بينما جعلتَ أنت، يا رب،من القبور والمغائر وشقوق الأرض التي عاشوا فيها،مظلة استعلانات لهم.اسكبْ في قلبي غيرة أفكارهم، لكيما أتشجع وأطأ الشهوة الطبيعية،وأطرح عني كل خوف كل المقاومات المضادة.اِغرس فيَّ معرفة التواضع،وهبني حمية وعزماً،يليق بمتابعة المسيرة الصعبة إليك.يا ملجأ الضعيف، والطريق المستقيم للذين ضلوا السبيل،والمهرب لكل الذين أحاطت بـهم العواصف:أذلَّ تجبر المضاد وافتخاره عليَّ؛أبطلْ قوة أفعاله الخبيثة ضدي،اخفض علو كبريائه.سهِّل سبلك الخفية أمَّام أفكاري،وكن لي عزاء وقت الشدة، ومرشداً في المهالك.

١٣- يا شمس البر،الذي بواسطته رأى الأبرار نفوسهم،وصاروا مرآة لأجيالهم،افتح في داخلي باب معرفتك؛وهبني ذهناً مبتهجاً، يستطيع أن يبحر متخطياً صخور الخطأ،لكي أصل إلى ذلك الميناء الهادئ،كما فعل الآباء الذين أرضوك منذ القدم،بسيرتـهم المستنيرة.

١٤- قدسني، يا رب، بأسرارك،أَنِرْ ذهني بمعرفتك،واجعل رجاءك يشرق في قلبي،واحسبني أهلاً أن أتضرع إليك من أجله.يا الله، أبي ورب حياتي،أضئ مصباحك داخلي.ضع فيَّ ما هو لك،لكي أنسى ما هو لي.اسكب عليَّ هوة عَجبك،لكي تنضبط بـها قوة طبيعتي.حرِّك في داخلي رؤية أسرارك،لكي أدرك ما حلَّ بداخلي، في المعمودية المقدسة.لقد وضعتَ داخلي مرشداً،لَيْتَه يكشف لي مجدك كل حين.هيأني لأكون نوراً وملحاً للعالم؛لَيْتَني لا أصير عثرة لرفقائي.وإذ قد تركت العالم،لا أعود أنظر إلى الوراء إليه أبداً،ولا أتطلع إلى الأشياء التي طرحتُها عني،عند تقديم نذري لك. أقِم سياجاً من البهجة على قلبي،لكي لا تتطلع حواسي خارجاً عن سبل ناموسك.اضبط قلوع خواطري معاً،لسفينة التوبة،لكيما أبتهج فيها بينما أبحر عبر بحر العالم،إلى أن أصل ميناء رجائك:وحين تلاطمني التجارب،لَيْتَ ذهني يتقوى بتذكارك.أنِرْ أمَّامي، يا رب، الطريق المظلمة،بإشراق نور معرفتك.

١٥- اجعلني مستحقاً، يا الله،لاستعلان سر محبتك،التي ارتسمت في تَدْبِيرك للعالم المحسوس،في أعمال خليقتك،وفي سر ذبح ابنك الحبيب.

١٦- يا خالقنا، العارف بضعف طبيعتي،انزع عني عنف العدو المضاد؛أبطل من أعضائي سطوة الخطية؛أطفئ لهيبها من قلبي؛ مدّ يد الشفاء لنفسي المنطرحة اضبط حواسي الداخلية برباط الصليب؛زِدْ فيَّ فيض الحب لك،الذي ينبع من النظر إلى المصلوب؛ اجتذب ذهني إلى الداخل،الأمور الخفية للأسرار التي يحملها؛ثبِّت فيَّ تذكار اتضاع ابنك المحبوب؛ونَمِّ في داخلي العجب من تَدْبِيرك لي.

١٧- يا الله، يا مَن قبل أن تصنع المصالحة للعالم،أعطيته ابنك الوحيد؛وبعد أن أكملت المصالحة أعطيته أن يرث عرش لاهوتك، لا تدعني أمضي إلى القبر بلا رجاء،ولا أجلس مقيداً بخطاياي في الظلمة مثل ميت إلى الأبد.

١٨- نقدم لك الشكر، يا الله،من أجل عطيتك للعالم.هذه العطية التي لا تستطيع الكائنات المخلوقة أن تصف وفرة غناها.ولأنني، أنا أيضاً، جزء من (هذا) العالم،لَيْتَني لا أتأخر عن تقديم الشكر الواجب عليَّ لك.ولهذا سأحمدك وأعترف لاسمك.أنت قد أعطيت كنزك كله للعالم:فإذا كنت قد أعطيت ابنك الوحيد من حضنك ومن عرش مجدك،من أجل ربح الكل،فما هو الذي كان لك أكثر من ذلك ولم تعطه لخليقتك؟لقد صار العالم في شركة مع الله،الخليقة والخالق قد صارا وَاحِداً.السبح لك من أجل قصدك الذي لا يُدرك كنهه،حقاً، إن هذا السر لعظيم جداً.المجد لك، من أجل أسرارك المخفية عنا.اجعلني مستحقاً، يا رب،أن أتذوق هذا السر الْعَظِيم المخفي والمكتوم،السر الذي لم يستحق العالم أن يدركه،ولكنك قد أظهرت جانباً منه لقديسيك الذين يعيشون في الجسد فوق العالم، وهم في كل حين أعلى من حركات الجسد.

١٩- إن فيض أسرار المسيح يضغط ذهني،مثل أمواج البحر.أردت أن أصمت أمَّامها فلا أتكلم،ولكنها صارت كنار آكلة، اضطرمت في عظامي.يبكتني ضميري إذ يكشف لي خطاياي،أسرارك تذهلني،ولكنها تقودني لأعاينها؛وفي السكون تهمس إليَّ:"لا تتأخر من الاقتراب لكونك خائفاً بسبب خطاياك، أيُّها الخاطئ،لأنك بتأمل هذه (الأسرار)،تنفض وحل الخطية عن ذهنك".

٢٠- يا من تحل ربط طبيعتنا،حطم القيود الخفية التي التفت حول أعضائي الداخلية،وفك عن حواسي الخارجية الحواجز الظاهرة، حتى يمكنني أن أجري وأدخل فردوس أسرارك،وآكل من شجرة الحياة،التي لم يُسمح لآدم أن يأكل منها.

٢١- يا مخلصي، احفظني من خبث الشياطين.يا إلهي، أبعد عني رخاوة العزم.يا رجائي، اسكب في قلبي نشوة الرجاء فيك.يا يَسُوع الْمَسِيح، قيامة ونور كل العالم، ضع تاج معرفتك على رأس نفسي.افتح أمَّامي عاجلاً باب مراحمك،واجعل إشعاعات نعمتك تشرق في قلبي.كن مرشداً لخطوات أفكاري،إلى أن أبلغ صهيون، جبلك المقدس؛اجعلني مستحقاً لتلك المدينة المقدسة،التي دخلها القديسون في نهاية رحلتهم.يا خالقي ورجائي، مرساة حياتي وسط العواصف،عكازي حال مذلتي وهواني،ورافع رأسي التي انحنت إلى التراب،لا تسلمني لرغبة عدوي، ولا تعطه فرصة أن يعاملني بوقاحته؛ثبِّت هوة عظيمة أمَّامه لكي تمنعه من العبور إليَّ ليزعجني.احسبني، يا رب، مستحقاً أن أكمل حياتي القصيرة، السريعة الزوال، في خدمتك.لَيْتَني أوجد ملتصقاً بك في نهاية أيامي.لَيْتَني أوجد في كرمك عند غروب حياتي.اجعلني مستحقاً، قبل أن يحين وقت العبور،أن أحصل على ذلك الدينار الذي منحته لعمالك.بنعمتك، يا رب، وليس من أجل عملي،اجعلني مستحقاً، ولو في الساعة الحادية عشرة من حياتي،أن أوجد مجتهداً في خدمتك. لَيْتَ العالم لا يأسرني بمشاغله المؤذية،ولَيْتَه لا يحبسني في قفص اهتماماته الزائلة.

٢٢- أيُّها المسيح إِلهُنَا،يا من تسربلت بالنور كما برداءٍ؛يا من، لأجلي، وقفت عرياناً أمَّام بيلاطس،ألبسني تلك القوة،التي جعلتها تظلل القديسين،وبـها غلبوا عالم النـزاع.لَيْتَ ألوهيتك، يا رب،تجد مسرتـها فيَّ،وترفعني فوق العالم،لأكون معك.

٢٣- أيُّها الرب يَسُوع الْمَسِيح إِلهُنَا،الذي لا يستطيع الشاروبيم الممتلئون أعيناً،أن ينظروا إليك،من أجل عظم بـهاء وجهك؛لكنك من أجل عظم محبتك،لم ترد وجهك عن خزي البصاق؛انزع الخزي عن وجهي،وامنحني وجهاً مكشوفاً أمَّامك وقت الصلاة.

٢٤- أيُّها الرب يَسُوع الْمَسِيح إِلهُنَا،إنك بسبب خطية طبيعتنا، دخلتَ إلى البرية،وقهرت سلطان الظلمة،وانتزعت منه النصرة بعد خمسة آلاف سنة؛اطرد عني ذاك الذي في كل حين،يغصب الجنس البشري إلى الخطية.

٢٥- لَيْتَ صليب الخزي والعار،الذي ارتفعت عليه لأجلي،يصير جسراً ينقلني إلى ذلك المسكن الهادئ.لَيْتَ إكليل الشوك الذي كُلل به رأسك،يصير لي خوذة خلاص عند اشتداد القتال.لَيْتَ البصاق الذي قبلته على وجهك،يعدّني لاقتناء وجه مكشوف أمَّام كرسي الدينونة عند مجيئك.لَيْتَ جسدك المقدس الذي تعرى فوق الصليب، يصلبني للعالم وكل شهواته بالحب لك.لَيْتَ ثيابك التي اقترعوا عليها،تمزق أمَّام عينيَّ لباس الظلمة الذي ارتديه داخلي.لَيْتَ الدم والماء اللذين جريا من جنبك المطعون يصيران لي صكاً واهباً للحرية من العبودية القديمة.لَيْتَ جسدك ودمك اللذين اتحدا بجسدي،يبقيان داخلي ضمانة أنني لن أحرم من النظر الدائم إليك، في ذلك الملكوت الذي بلا نـهاية.لَيْتَ أسرار الإيمان التي حفظتها في نفسي بلا تحريف،تحفظ لي شيئاً أفتخر به،في ذلك اليوم الذي يصير فيه العالم مستعداً لتقبّل مجيئك،ولتحل هناك مكان قصور تَدْبِيري النسكي.

٢٦- لَيْتَه يُذكر، يا رب، على مذبحك المقدس،في تلك اللحظة الرهيبة،التي يتقدس فيها جسدك ودمك ذبيحة عن خلاص العالم: كل الآباء والاخوة الذين على الجبال،وفي المغاير والوديان وشقوق الأرض،في أمَّاكن وعرة مهجورة، مخفية عن العالم، ولكنها معروفة لديك،الذين انتقلوا، والذين ما زالوا أحياء يخدمون أمَّامك بأجسامهم ونفوسهم،أنت الْقُدُّوس الساكن في القديسين، الذين تجد فيهم ألوهيتك راحتها،إذ قد تركوا العالم الزائل وصاروا أمواتاً لحياته لأنـهم خرجوا يطلبونك.اذكر أيضاً، يا ملك كل العوالم،جميع الآباء الأرثوذكسيين،الذين من أجل صدق إيمانـهم، احتملوا النفي والشدائد على يد مضطهديهم.والذين في الأديرة والمجامع،في البراري وفي سكنى العالم،وقد جعلوا كل همهم أينما كانوا،أن يرضوك بأعمال الفضيلة:رافقهم – يا رب – وكن لهم حامياً على الدوام،وأرسل لهم عزاء في السر،واربط أذهانـهم بك في جميع جهاداتـهم؛لَيْتَ قوة ثالوثك المقدس تسكن فيهم، وليخدموك حتى نـهاية حياتـهم،بضمير صالح وسيرة مضيئة؛ واجعلهم مستحقين بينما هم ما زالوا في الجسد للراحة في ميناء الرَّاحَة.والذين يواجهون حروباً صعبة من الشياطين،سواء في العلن أو في السر،أرسل لهم، يا رب، نجدة،وظللهم بسحابة نعمتك، وضع على رأس ذهنهم خوذة الخلاص،وذِلّ تجبر العدو

قدامهم، ولتسندهم قوة يمينك كل حين،لئلا يضعفوا في أفكارهم ويخيبوا من التطلع الدائم إليك.سربلهم، يا رب،بسلاح التواضع،لكي تفوح منهم دائماً رائحة عطر لذيذة،ترضي مشيئتك.

٢٧- لَيْتَ الذين يعانون من الأوجاع الصعبة،ومن أمراض الجسد الأليمة،يُذكرون أمَّامك، يا رب.ولترسل لهم ملاك الرأفة،لكي يطيب نفوسهم التي اشتد عذابها،بسبب آلام أجسادهم المتعَبة.تراءف أيضاً، يا رب،على أولئك المذلولين،تحت أيدي أناس أشرار عديمي الإيمان؛أرسل لهم سريعاً ملاك الرأفة،وخلصهم من محنتهم. يا ربي وإلهي،هب العزاء لكل المتضايقين،والمضنوكين بكل نوع من الشدائد.

٢٨- ظلل، يا رب، كنيستك المقدسة،التي افتديتها بدمك،اجعل السلام الذي أعطيته لرسلك القديسين يسكن فيها.اربط أولادها بربط المحبة التي لا تنفصم،ولا تسمح للمعاند أن يتقوى عليها، وابعد عنها الاضطهاد والاضطراب والحروب،التي تأتي من الذين هم من الداخل،والذين من الخارج،ولتوحد الملوك والكهنة معاً في السلام والمحبة،لتكن أذهانهم دائماً شبعانة من التطلع إليك، وليكن الإيمان سوراً لقطيعك.اجعلني أيضاً، أنا الخاطئ،مستحقاً بصَلَوَاتهم أن أُحفظ دائماً تحت حماية يدك الْقُدُّوسة،التي هي عنايتك التي تحيط بالكل، آمين.

٢٩- أسألك وأتضرع إليك، يا رب،هب لكل الذين ضلوا الطريق، معرفة حقيقية بك،لكي يأتي الجميع،إلى معرفة مجدك.

٣٠- وجميع الذين رحلوا عن هذا العالم،وكانوا معوزين من حياة الفضيلة والإيمان،كن أنت لهم، يا رب، شفيعاً،من أجل الجسد الوَاحِد الذي أخذته منهم،لكي من الجسد الوَاحِد المتحد، من العالم، نقدم التسبيح،للآب والابن والرُّوح الْقُدُس،في ملكوت السموات، مصدر البهجة والفرح الأبدي،الذي بلا نهاية.

٣١ – هؤلاء الذين يترجون أن يقبلوا الرُّوح الْقُدُس في إنسانهم الداخلي، ينبغي أن ينشغلوا على الدوام بالهذيذ والتضرع بهذه الصَلَوَات. فبمثل هذه الصَلَوَات يتقدسون، وبنية صادقة مثلها، يوجدون أهلاً أن ينالوا موهبة من العلاء.

٣٢ – ينبغي لنا أن نصلي بتوجع؛ وينبغي أيضاً أن نقدم صَلَوَاتنا من أجل الأمور بتألم. وهذا هو واجبنا تجاه الآخرين: أن نصلي معهم بتوجع كما لنفوسنا. لأنه بهذا سوف يأتي الله ويرتاح فينا، ويجعل مشيئته تكمل فينا «كما في السماء كذلك على الأرض».

٣٣ – وأنت أيضاً، يا أخي، ينبغي أن يكون لك هذا الهدف في الصلاة والهذيذ جميع أيام حياتك؛ عندما تكون ساجداً على الأرض، وفي بقية ساعات النهار، بطريقة خفية في قلبك. فحتى لو كنت لا تشاء أن تلتزم بترتيبها وتركيب كلامها، فإن هدف الصلاة ينبغي أن يكون هو نفسه كل حين، أي أن نحسب أهلاً من خلال هذه النية، وهذا الهذيذ، لنوال الموهبة التي اقتبلها آباؤنا الذين صارت أجسادهم ونفوسهم هياكل للروح القدس.

المَيْمَر السَّادِس

إشارات وعلاَمَّات الحياة والأشكال الحقيقية للاتصال بالله، التي تظهر في النفس

١ – سأعطيك يا أخي علامتين أكيدتين، وحين يجدك الله أهلاً للاستنارة الداخلية، سوف تدرك بواسطتهما نور نفسك. وهما كما سترى تكفيان لأن تبيِّنا لك الحق الذي بدأ يشرق في نفسك.

٢ – إذا ما بدأت تشرق فيك – بنعمة ورحمة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح – استنارة الذهن التي تحدث عنها الآباء، فهاتان العلامتان تؤكدان لك ذلك؛ وإذا لم تجدهما في نفسك، فلو أنك كنت تظن أنك تتدبر حسناً، فاعلم أنك ما زلت بعيداً جداً عن ذلك.

٣ – العلامة الأَولى: إذا ما بدأ هذا النور الخفي يشرق في نفسك ستجد أنك حالما تخرج من القراءة (في الكِتَاب المقدس) أو الصلاة (قانون الخدمة)، ينحصر ذهنك من تلقاء ذاته في بعض الآيات أو فيما تشتمل عليه (من أفهام)، وينشغل بالهذيذ بها، ويفحصها ويتعمق في معناها الرُّوحي. ويكون الذهن مستغرقاً جداً فيها حتى أنه لا يستطيع أن ينتقل منها لينشغل بأي شيء آخر في الخليقة. يعرض هذا الأمر للذهن حتى ولو لم يكن لك أي اهتمام به من جانبك؛ لأنه يحصل من تلقاء ذاته، ليس كلياً، ولكنه بالتأكيد على أغلب الأمر.

٤ – العلامة الثَّانِية، وهي أكيدة كالأَولى: أنه عندما تخرج النفس من الظلام وتصير نوراً من الداخل، يُعطى للمتوحد سجود ممتد (لفترات طويلة)، ويصير الاستمرار فيه لذيذاً ومبهجاً له، حتى أنه قد يمكث ساجداً على الأرض في الصلاة ثلاثة أيام دون أن يحس بالتعب بسبب الحلاوة واللذة التي ترافقه؛ ولا يريد أن يقف بسببها، ويكون أنه كلما يرفع رأسه ويحاول أن يقف، يعود فيقع على وجهه بسبب تلك البهجة التي امتلكت قلبه، وتصبح الصلاة المستمرة مجرد عمل صغير بالنسبة له؛ لأنه في اللحظة التي دخلت فيها الصلاة إلى قلبه، صار في الحال مدركاً للمعونة (الإلهية)، وصارت لذة الصلاة قوية جداً فيه، حتى أن لسانه يقف صامتاً، يصير قلبه ساكتاً. وهكذا يملك على قلبه وأعضائه هدوء مبهج، حتى يظن – إن جاز القول – أن ملكوت السماوات لا يقاس نعيمها بهدوء هذه الصلاة، حيث يكون منطرحاً على وجهه ليلاً ونهاراً في سكون تام. لذلك فإنه بقياس الكيفية والدرجة التي يدخل بها الإنسان إلى استنارة الذهن، هكذا يُحسب أهلاً لحلاوة السجود هذه.

٥ – أكتب هذا، يا أخي، للذين يلازمون السكون، وليس لأولئك الذين تتراءى لهم الأمور الحادثة بين الله والقديسين بسرٍ لا ينطق به – كما لو كانت تدعو إلى السخرية.

٦ – وما هي الحاجة التي تلزمني، يا أخي، أن أخبرك عن شيء ليست هناك وسيلة للتحدث بها عنه، بما أنه أمر لا ينطق به؟ أعطِ نفسك لعمل الصلاة، وأنت تجد الشيء الذي لا تستطيع أن تسمع عنه من أي أحد آخر.

٧ – مضيتُ مرة لأرى أحد الآباء، فقال لي: "إنني لا أستطيع أبداً أن أحني ركبتي في الصلاة، إلا وفي اللحظة التي أبدأ فيها بالصلاة، سرعان ما يملك الصمت على قلبي. وإذا مكثت اليوم كله راكعاً في الصلاة، لا أستطيع أن أقول شيئاً، بل أظل ساكناً، وليس ذلك بإرادتي". ثم قال: "لقد وجدتُ ذلك فقط بعد أتعاب كثيرة، واقتنيته كنتيجة للسكون".

سمعت هذا من ذلك الشيخ وحده، ولم يسبق أن تقابلت مع أي شخص آخر يكون قد اقتنى هذه الأمور على هذه الصورة، أو تكلم عنها بيقين كما فعل هو. ولكن لأنه ليس كل أحد قادراً على السماع أو الوصول لنعمة الصلاة النقية هذه، والقوة المدخرة فيها؛ فحتى الذين بتوسط رحمة إِلهُنَا، وجدوا هذه الأمور، يحفظونـها لأنفسهم مقدمين الشكر لله الذي أعطاهم مثل هذه التعزية كدواء لأحزانـهم.

٨ – يا أخي، إن الشخص الذي يكتب هذه الأمور، يكتبها عن خبرة؛ وهو برحمة المسيح قد أدركها في نفسه إلى حد صغير، وحصل على يقين بخصوصها. أمَّا الأمور الأخرى التي هي أعظم وأعلى من مقداره، فقد استعلنت لذهنه بواسطة النعمة، وحصل على شهادات ودلائل لها من كِتَابات أشخاص مشهود لهم من القدامى. وفي الأوقات التي كان يفقد فيها هذا الشيء الذي يشكل الموضوع السابق ذكره، كان يخيب أيضاً من آثاره، ولا يعود ينظر بعد تلك العلأمَّات في نفسه. فينبغي لك إذاً أن تتيقن من ذلك وتطلب هاتين العلامتين داخلك. وحين يصير الركوع صعباً عليك، والمثابرة عليه تصبح متعبة لك؛ أو أنك عندما تخرج من قراءة الكلام الإلهي ومن الصلاة وعقلك في طياشة، وأنت بلا ثمرة، ولا يبقى في فكرك ذكر أي شيء منها، فاعلم حينئذ أن ظلأمَّا عظيماً قد تراكم داخلك.

٩ – ما دمت تحس بالضجر في الصلاة والخدمة، فباب الحياة لم ينفتح بعد داخلك. ولكن دواء هذا الظلام إنما يتولد من التعب نفسه الموجود في الصلاة، حين تجاهد وتطيلها وتثابر عليها؛ فإنك عندئذ سوف تحس سريعاً وفي وقت قليل بالمعونة التي تأتي من الصلاة، إن لم يكن هناك أي سبب للتشويش من الخارج أو من جهة أي شخص[٨٠].

[2] ج١ هذا المقال مترجم عن مخطوط طالعه: "إن من قد حضر من مقالة يوحنا في تجربة الرب وبر الملجأ الأول لكل جزء الثاني فصل ١٩- يصف حال ٣٠١-

المَيْمَر السَّابع

من أين يولد الإدراك الرُّوحي في النفس؟ وإلى أي حد ترتفع مرتبتها؟

١ – هناك إدراك روحي يولد من الهذيذ، وهذا النوع يعطي للنفس فرحاً وبهجة ومسرة. وهناك نوع آخر يحل في النفس طبيعياً. في بداية الإدراك الذي يولد من الهذيذ بمحبة التعليم الصحيح وممارسة التَدْبِير الصادق، يكون العقل منشغلاً باستمرار في الهذيذ بهذا الأمر أو ذاك. ومن وقت لآخر، كنتيجة لهذا الهذيذ الفاضل في محبة الله والتفكير في أمور الله، فإن الشخص الذي ينشغل في مثل هذه الأمور لمحبته للعمل الرُّوحي الذي يهدف إلى تثبيت خدمته الخاصة لله – تتولد فيه مَلكة الرؤية الرُّوحية للأمور. وعندما تكون نفسه قد تنقَّت قليلاً في الخدمة بيقظة وإخلاص، فإن تلك التاؤريا الرُّوحية تعرض لها من وقت لآخر دون أي جهد من جانبها. ويجد هذا الشخص في كل حين في عقله رؤية شيء ما؛ وفجأة يتوقف العقل عن الحركة كما لو كان قد دخل في غمامة إلهية مظلمة أذهلته وأسكتته.

٢ – وقد يعرض أيضاً للإنسان من وقت لآخر سكون خالٍ من أية رؤية، حيث ينجمع ذهنه إليه ويغطس داخل نفسه في دهش لا ينطق به؛ هذا هو ميناء الرَّاحَة الذي تحدث عنه آباؤنا في كِتَاباتهم، كيف أن الطبيعة (البشرية) تدخل هناك عندما تكون قد اقتربت من مدخل التَدْبِير الرُّوحي؛ لأن هذه (المرحلة) هي بداية الدخول في الدرجة العالية الثَّالِثة، أي التَدْبِير الرُّوحاني، والمتوحد يُصوِّب نظره إلى هذا الميناء منذ بداية تلمذته وإلى أن يصل إلى القبر، ويجتهد في كل أعمال الجسد والنفس، ويتقبل اللطمات من كل ما يعرض له من تقلبات الأحوال. فإذا ما اقترب من هذا المدخل، فهو منذ الآن يتجه مباشرة إلى ذلك الميناء ويدنو من التَدْبِير الرُّوحاني ومن هذا الوقت فما بعد تعرض له أمور مذهلة ويتقبل عربون العالم الجديد.

٣ – وهنا، لَيْتَ كل من يقرأ هذا يفهم الأمور التي تتعلق بجمع الفكر الذي سبق الكلام عنه قرب نهاية المَيْمَر الرَّابع من فصول المعرفة. لأنه بهذا يمكن لكل مجتهد أن يوجِّه مسيرته لكي يصل إلى ذلك الميناء. هذه هي خدمة المتوحدين الكاملين، التي بواسطتها تكمل مسيرتهم، وتدرك سفينة جهادهم النسكي المتعَبة هذا الهدف، لكي يكونوا أهلاً منذ الآن لمحبة يَسُوع الْمَسِيح رَبِّنَا، ومن وقت لآخر يحظون بلمحة خافتة لمجد طبيعته؛ لأن هذا هو إكليل الكاملين، وفيهم تكمل الكلمة: «أنت يا أبي فيَّ وأنا فيهم، ليكونوا هم أيضاً وَاحِداً فينا» (يو١٧: ٢١). لأن القديسين باتحادهم الكامل مع الله يمثلون بصورة رمزية اتحاد المسيح في الثالوث[٨١]. لأن "بكرنا" المسيح بمجيئه قد قرَّبَنَا إلى ذلك؛ وهذا هو الصلاح المخفي في الإنسان لا ينكشف له إلى أن يأتي إلى السكون، بعيداً عن الناس، ويتحول إلى تأمل نفسه.

[٨١] فقرة غير موجودة في النسخ: الاتحاد الذي قال مسيحنا.

المَيْمَر الثامن

على الأوجه المختلفة لما سبق ذكره. متى يرجع الإنسان إلى نفسه؟ وعلى الأمور التي تنكشف له في السكون: ما هي؟ وكيف تصير مدركة ومعروفة؟

١ – استعلان الصلاح المخفي داخلنا هو إدراك معرفة الحق: «ملكوت السماوات داخلكم» بصورة سرية. ومعرفة الحق هي مذاقة ملكوت السماوات. أمَّا بخصوص حقيقة أن ما هو حقيقي في هذا العالم ليس هو حق بالفعل، فاسمع: نحن نطلق كلمة "حق" على التأمل الحقيقي في الله الذي ينبع من عنده، ويصطدم البعض به في أذهانـهم، بنوع من العَجب؛ حيث تظهر في النفس أفكار مدهشة نتيجة للحركات الرُّوحية بأمور خفية، هي تعجبٌ من الأسرار الرُّوحية ومن اكتمال ثمار التَدْبِير النسكي للإنسان الداخلي.

٢ – وتَدْبِير الإنسان الداخلي هو رمز للوجود بعد القيامة. وهو لا يعتمد على أعمال الجسد، لكنه يوجد ويُدرك بواسطة حركات الذهن. أمَّا هنا (على الأرض)، فلأنه ما يزال رمزاً لذلك (الوجود) الحقيقي، فهو يكتمل بواسطة تأملات متعددة. أمَّا هناك، فلكونه هو مجموع كل الأشياء، فهو يشتمل على تأمل وَاحِد فقط – إن جاز القول – لأنه بالأحرى هو تأمل مبهج ورؤية لا تنتهي.

٣ – نقاوة النفس هي التجرد من كافة الاهتماماًت الجسدية ومن الانشغال بالأفكار البشرية.

٤ – التعجب من الطبيعة الإلهية هو استعلان العالم الجديد.

٥ – استعلانات العالم الجديد هي حركات الدهش بالله. وبـهذه الأسرار فإن كل الطبع الناطق مزمع أن يتحرك في ذلك الوجود العتيد، في المسكن السماوي.

٦ – القوات المقدسة تحيا الآن بواسطة هذه الحركات؛ فهذا هو تَدْبِير الملائكة؛ فهم يتعجبون كل حين بـهذا السر، بسبب الاستعلانات التي تأتيهم بطرق متنوعة أثناء هذه الحركات بخصوص الطبيعة الإلهية. هذه هي الحالة (المرتفعة) التي تكون عليها الحياة بعد القيامة.

٧ – استعلانات العالم الجديد تختلف تماماً عن الاستعلانات "عن" العالم الجديد. فالأَولى تختص بالطبيعة الممجدة للجلالة (الإلهية)؛ والثَّانِية تختص بالتغيرات العجيبة التي ستجوزها الخليقة وكل جوانب الحالة المستقبلة كما يُعرَّف بـها الذهن من خلال استعلان الرؤى المختلفة، (والتي تكون بدورها) نتيجة التأمل الدائم فيها مع الاستنارة.

٨ – الذهنية السليمة المفعمة بالحركات (الرُّوحية) هي التي تكون قد اقتنت اهتماماً سليماً بالأمور الإلـهية.

٩ – الذهنية الطفولية والمريضة الحركات هي التي تنشغل بتصورات ضعيفة للأمور الإلـهية، وتقتني أفكاراً بشرية عنـها لا تليق بعظمة جلال الله.

١٠ – القيامة الجديدة للجسد تكون حين يتقبل ذلك التغير الذي يفوق الوصف في المجد العتيد، عندما يخلع عنه الهيئة اللحمية الفاسدة وكل ما يتعلق بـها. والقيامة الرمزية للجسد تكون حين ينهض من كل خطية التصقت بحركاته، ويعكف على العمل الفاضل في خدمة الله.

١١ – بداية تَدْبِير الإنسان الجديد تقوم على ابتهاج المحبة والفرح في الله؛ وهذا الفرح يولد في النفس من المعرفة الحقيقية بالله.

١٢ – حرية النفس، مصورة في مثال، كما هي في تَدْبِير الحرية العتيدة التي ستكون لنا، تعرض للنفس التي نفضت عنها كل رباطات الاهتمامات الجسدية، ولم تعد خاضعة لأي شيء من حركات الجسد التي تدعوها للخوف من أي شيء في هذا العالم. هذا الخوف هو الذي يتولد من رعبة الشدائد التي تلاقيها في العالم وتعوقها عن طلب أمرٍ وَاحِد من الأمور الإلهية.

١٣ – كما أن تغير المكان بالنسبة للجسد يقابله تعديل في بنيته لكي يناسب الأجواء الجديدة، هكذا أيضاً التغير العقلي ينشأ عنه تغيرات في قوة حركات الفكر.

١٤ – الأفهام التي تعرض بخصوص أمور هذا العالم الحاضر تختلف تماماً في قوتـها عن التأملات المضيئة في الأمور المزمعة؛ لأن العقل بتأمله في مثل هذه الأمور ينتقل إلى حالة من الدهش.

١٥ – العقل يتقبل معرفة عن العالم الجديد باستنارة قوية، وبطريقة غير مقيدة، أكثر مما يفعل في حالة تقبله الأفهام التي تخص العالم المادي؛ ذلك لأنه في الحالة الأخيرة يحتاج الأمر إلى نقاوة خاصة ورجاحة عقل كبيرة، بينما في الحالة الأَولى لا يتطلب الأمر سوى اهتمام قليل، وبعدئذ يتقبل العقل سريعاً تحولاً عجيباً، ويدرك الاستنارة في التأمل بسهولة. وكذلك في الحالة الأخيرة، حتى ولو كان الشخص عمَّالاً بالفضيلة، فغالباً ما تعرض له ارتباطات كثيرة تعوقه عن إدراك درجة الاستنارة، وبالتالي لا تستمر هذه الأفهام بطريقة صافية؛ بينما لا يعرض هذا الأمر في الحالة الأَولى، لأن الطبيعة (البشرية) تثبت في الانشغال بأفهام العالم الجديد بلا أي عائق، وترتفع فوق الأهواء لكي تكون في حال الهذيذ الدائم بـها – وبجهد قليل من جانبنا – وتـهيئ للذهن تذكاراً دائماً لـها، فينحصر فيها وينشغل بالهذيذ بـها. لأن العقل يتقبل هذا النوع من الانشغال بغير جهد، ويقتني بسهولة الإحساس بالمعونة؛ وفي نفس الوقت تختفي منه أحاسيس الأوجاع سريعاً. وحسناً قال أوغريس: "تذكار العالم الآتي هو معمودية وصفح للنفس".

١٦ – بداية تجديد الإنسان الداخلي، إذاً، هي الهذيذ والتأمل الدائم في الأمور الآتية. وبـهذه الوسيلة يتخلص الإنسان قليلاً قليلاً من الاهتمام المعتاد بالأمور الأرضية؛ فيكون مثل حية قد انسلخت من جلدها القديم وتجددت واستعادت حيويتها. كما أنه على قدر ما تتناقص الأفكار الجسدية ويقل الاهتمام بـها في العقل، هكذا فإن التفكر في الأمور السماوية وتأمل الأمور الآتية ينمو بزيادة في النفس. والبهجة التي تكون من الانشغال بـهذه الأمور تغلب، وتكون أقوى من لذة الأفكار الجسدية.

١٧ – البكاء الدائم الذي يتولد من تأمل المعرفة الرُّوحية، هو دليل على أن النفس قد أصبحت مدركة لقصد رجائها؛ ليس من القراءة أو السماع، بل إنـها هي بنفسها قد أدركت رجاء عملها. لأنه إذا ما انفتح باب الأفهام أمَّام القلب، لا يعود ممكناً بعد لحدقة العين أن تمتنع عن البكاء، بسبب الشعور باللذة التي تتقبلها النفس. ويكون ذلك أحياناً من تبكيت الضمير والاتضاع، وفي أحيان أخرى من الفرح الذي ينبع في الإنسان. ومن الآن فصاعداً يقترب تدريجياً من الدهش بفضل بعض التأملات الخاشعة التي تملك على النفس من وقت لآخر.

١٨ – هذه هي الأمور الفاضلة المخفية فينا، والتي تشرق من داخلنا بواسطة تَدْبِير السكون. وكل من يثبت فيه بغير تشكك أو يأس أو فقدان الرجاء بسبب طول زمان جهاده، سوف ينال بالتأكيد تعزية رجائه.

١٩ – لا تحاول أن تستعجل مسيرتك بأكثر مما ترغبه المشيئة الإلهية. ولا تكن متسرعاً للدرجة التي تحاول فيها أن تسبق العناية الإلهية التي تقودك – ولكني لست أقول إنه ينبغي ألاَّ تكون شديد الاشتياق.

٢٠ – الإنسان الذي قد سلم نفسه لله بالإيمان والصلاة لن ينـزعج بعد بالاهتمام بنفسه.

٢١ – تسليم النفس لله يعني: أنـها من الآن فصاعداً لن تعد تُبتلع في القلق والخوف من أي شيء، أو تنـزعج مرة أخرى بأي فكر يصور لها أن الإنسان ليس له من يعتني أو يهتم به. لأنه إذا ما خاب العقل من هذه الثقة، فإنه يبتدئ في الوقوع في ربوات من التجارب بأفكاره، كما قال المفسر في كِتَابه على إنجيل القديس متى: "إن كل اهتمام الشيطان ينحصر في هذا الأمر: أن يقنع الإنسان أنه ليس لله عناية به. لأنه يعلم جيداً أننا طالما كنا ندرك هذه العناية بوضوح، وتترسخ فينا هذه المعرفة، فإن نفوسنا سوف تسكن في سلام كامل، هذا إلى جانب أننا سوف نقتني حباً لله واهتماماً بكل ما يرضيه. فهذا الفكر هو الذي يجاهد الشيطان أن ينـزعه منا".

٢٢ – بدون الإيمان لا يستطيع أحد أن يدنو من حرية الأفكار.

٢٣ – الحرية هي سلطة على الفكر. وهي تأتي من الله، ولا تسمح للخوف من أي شيء على الإطلاق أن يقترب من القلب، ولا لأية حركات مزعجة أن تُظلمه. وهذا يكون بسبب الثقة الْعَظِيمة التي يهبها الإيمان للضمير المخلص.

٢٤ – صلاة الإيمان حين يُصلى بـها إلى الله لا تكون بـهذا المعنى: "ماذا ستعطيني؟"، لأن النفس الحرة تثق أن الله لا يحتاج إلى مثل هذا السؤال؛ لكنها بالأحرى تطلب منه شيئاً أعظم، أي "احفظ في قلبي ذلك الكنـز الْعَظِيم، كنـز الإيمان، حتى لا يُخطف مني وأقع في عواصف الأفكار (المقلقة)" – ولو أن الله في الحقيقة ليس بحاجة إلى هذا الطلب أيضاً.

٢٥ – طالما أن الإنسان لم يفقد الإيمان الذي في قلبه، وأعني بذلك معرفة أكيدة بأن عناية الله تحفظه من الوقوع في ظلام العقل – الذي يتولد منه القلق والانزعاج – وتجعل نفسه ممتلئة دائماً بالنور والفرح، وتنعم بالابتهاج كل حين؛ فإن ذلك الإنسان يسكن، كما لو أنه في السماء، باستنارة أفكاره التي يغرسها فيه إيمان قلبه. ومن هنا فصاعداً يُحسب مستحقاً لاستعلان التاؤريا.

٢٦ – إذا ما شك الإنسان في عناية الله به، فسرعان ما يسقط في ربوات الهموم.

٢٧ – الله لا يهمل حتى الخطاة، فكم بالأَولى الذين جعلوا اهتمامهم فيما هو لائق؛ وهم يجتهدون كل حين أن يقتربوا إلى معرفته ومحبته. فكل من وجد في نفسه هذا الاعتبار، يسكن دائماً في سلام وفرح.

المَيْمَر التاسع

على الثقة في الله التي تولد من معرفة الحق ومن الإيمان الحقيقي؛ وعلى النوع الفاضل من الغيرة من جانب النفس؛ وكيف حين تستخدم النفس غيرتها بحسب طبيعتها، لا يمكن لأي دافع ينتمي لطبيعة الجسد أن يدوم في الإنسان.

١ ــ الذي يخاف من الخطية لا يخاف من الشيطان. والذي يتوق إلى اقتناء عطية الله لن يرهب التجارب. والذي يؤمن بثبات أن مشيئة الله الخالق تضبط الخليقة بأسرها لن يزعجه شيء.

٢ ــ معرفة الحق تملأ القلب بالسلام، وتثبته في الفرح وفي الثقة. كثيرة وعجيبة هي مشوراتها، ثابتة ومطمئنة، وهي تنير العينين (مز١٨:٨).

٣ ــ هذه المعرفة تنصح الإنسان قائلة: لا تضطرب، فالخليقة لم تترك للصدفة، ولا هي تتدبر من ذاتها؛ بل إن لها مدبراً «لا ينعس ولا ينام» (مز١٢١:٤)، ولا يفلت شيء منها على الإطلاق من ملاحظته.

٤ ــ الأفكار الباطلة والجهل تجعل الإنسان مثل البهائم؛ تُفرِّغه من الإيمان وتشوش ذهنه، وتملأه بخيالات أفكار تافهة. لأن غياب الإيمان يحرم الإنسان من أية معرفة بالحق فيما يخص الله، ومن الثقة التي يجب أن تكون له في الله كل حين.

٥ ــ عند اشتداد التجارب، حيث يكون الإنسان في ظلمة كهذه، ينبغي له أن يقع على وجهه في الصلاة ولا يقوم حتى تأتيه قوة من السماء، ونورٌ يسند قلبه لا تشوبه الشكوك. وذاك الذي بيده حياة الإنسان، وهو يضبط نسمة النفس مانحاً إياها القدرة على الشعور والتمتع، كم بالأكثر يكون مستوجباً التمجيد إذ هو يستحثنا كل حين، بكل أنواع أعماله، لكي نأتي إلى معرفته ولكي نقتني الحكمة في معرفة مدى عنايته بنا في السراء والضراء.

٦ ــ إذا ما حركت المشيئة الإلهية الخفية القادرة على كل شيء في إنسانٍ ما، قوة الإيمان المقدسة كباعث قوي يشرق في داخله فجأة حين يكون في خطر عظيم، فسرعان ما يبدو له كما لو كان ألف رجل مسلح قد أحاطوا به ليحرسوه (٢مل٦:١٧). لأن ربوة من الشهادات تتحرك داخله في هيئة أفكار صادقة عجيبة تشهد عن معونة الله للبشرية، وكيف أنها ملتصقة به جداً ليلاً ونهاراً، حتى لا يخاف بعد من أي إنسان أو من الشياطين، أو الحيوانات أو الزحافات. لأننا طالما كنا ملتصقين بالله بمحبة صادقة، فإن هؤلاء جميعهم يعملون لخيرنا وليس لمضرتنا بأي حال. بل إنهم بالأحرى في وجودنا يسلكون بهدوء تام كخدام لمشيئة الله.

٧ ــ كذلك، حين يصير إنسان ما مظلماً من جراء أي إهمال، ويختفي منه النور المقدس، فسرعان ما تهرب منه كل هذه المعونات وتختفي. ويصير مثل هذا الإنسان مرة أخرى جاهلاً ومفتقراً إلى إدراك أفكاره، ويناسبه حينئذ ما قيل: «قرضوا في الجب حياتي، ألقوا عليَّ حجارة»

(مرا ٣:٥٣).

٨ – وقد تفعل عناية الله المقدسة التي تظلل على الإنسان ذلك بنوعٍ من التَدْبِير، حتى لا ينتفخ الإنسان في تفكيره، ولكي يتحقق من أن ذلك السلام والهدوء ليسا من عنده. فبينما تتركه (هذه المظلة) في بعض الأحيان ليصير ضعيفاً وعاجزاً، تعود مرة أخرى لتسنده وتشجعه. ولكنها لا تكون قد ابتعدت عنه خلال تلك الفترات التي يعرض له فيها هذا الغيار، بل إنـها بالأحرى تفعل ذلك دون أن تفارقه نـهائياً. فهي تقبض نفسها بالفعل فتمنع حركات المعونة والتعزية المقدسة من أن تعمل فيه، وفي الحال تقع النفس في كربٍ شديد وتتعذب. ولكنها تعود فتظهر للنفس بطريقة خفية، فتتقوى وتفرح وتمتلئ شجاعة.

٩ – النفس المباركة التي تستسلم لقيادة التَدْبِير الإلهي، من خلال هذه الغيارات تقتني تدريباً وخبرة.

١٠ – والغيارات تحصل للإنسان لكي ما يثبت دائماً في الاتضاع.

١١ – وبـهذا الأسلوب يحدث التنقل للإنسان بين المعونة والضعف في جميع الأوقات وفي كل مراحل تَدْبِيره النسكي. فقد يعرض له ذلك أثناء القتالات التي تثور ضد العفة، أو في جميع أحوال الفرح والحزن. وقد توجد أحياناً حركات مضيئة ومبهجة، وفجأة يكون ظلام وغمام. وبالمثل بالنسبة للأمور التي تستعلن في أفهام إلهية وسرية بخصوص الحق: يجوز الإنسان الذي يخدم الله نفس هذه التغيرات، من إدراك لمعونة القوة الإلهية التي تلصق نفسها فجأة بالذهن، أو قد يكون العكس، حيث يكون الهدف من ذلك أن يقتني معرفة بضعف الطبيعة البشرية، ويتحقق من طبيعته الخاصة: كم هي ضعيفة، عاجزة، جاهلة، وتافهة؛ وإلى أي علو يرتفع في لحظة وَاحِدة في معرفته، وفي الأمور العجيبة الباهرة التي يدركها في نفسه.

١٢ – هذه هي أعمال الله، وهذه هي أشكال المعونة التي يظهرها بحسب مشيئته تجاه البشرية. ولكن قد يستلزم الأمر حين نلتصق بأي خطية – سواء في أفكارنا أو في أعمالنا – أن يأمر أحد الحراس الذين سبق أن ذكرناهم، الذين كانوا يعملون لخيرنا طالما كنا نسلك سبيلاً قويماً وإرادتنا موجهة تماماً نحو الفضيلة، فيجلدنا بقسوة، لكي ما بطريقة أو أخرى لا نتوه بعيداً عن الله.

١٣ – والآن بواسطة المؤازرة التي تأتينا من النعمة، دعنا ننهي حديثنا عن هذه الأمور، ونتقدم إلى غنى طبيعة الله وبحر قوته الخالقة وأمواج وإشراق بـهاء جلاله.

المَيْمَر العاشر

على مرتبة الهذيذ ومميزاته، ما هو مضمونه الأساسي. وعلى خدمة العقل المضيئة؛ وكيف يمكن للإنسان أن يدنو إلى المرتبة العالية التي هي تجاه الله، وما هي خصائصها.

١ – هناك أربعة أنواع مختلفة من التأمل في أمور الحياة، وهي التي يشتغل بها الذهن ليروي معرفته، لتربية الحياة في ميدان الاستقامة: معرفة العمل فيما يخص الجسد، ومعرفة العمل المكثف والموحَّد، ومعرفة القتالات الخفية ضد هذه، ثم معرفة الخدمة المضيئة في الله، والتي تحصل من ذاتها مع الله.

٢ – وهذا النوع الأخير ينقسم أيضاً إلى ثلاثة أجزاء متميزة: فهي (أي الخدمة المضيئة) لا تصل إلى الاستضاءة سريعاً، ولكنها تكون في البداية خافتة، ثم تصير بعد ذلك مضيئة. فكما أن بعض أنواع الأشجار تحصل لثمارها الحلاوة نتيجة لتعرضها لأشعة الشمس، هكذا أيضاً حين يشرق الرُّوح في قلوبنا، فإن حركات هذيذنا – الذي يدعى "التَدْبِير الرُّوحاني" – تدنو من الاستنارة. حينئذ ينجذب ذهننا، دون أي فعل إرادة من جانبنا، بنوع من الهذيذ، للتعجب من الله.

٣ – كذلك فالصلاة ليست شيئاً منفصلاً قائماً بذاته، بعيداً عن هذه الأمور لكنها مختلطة بها، تجدها أحياناً تلد هذه الأمور، وفي أحيان أخرى تولد منها.

٤ – إذاً فكل أحد سوف يجد الاستنارة في ذلك الهذيذ الذي يشغل نفسه به، وفي التأمل الذي يدقق النظر فيه بعقله؛ فهو سوف يقتني الحكمة بواسطته، وسوف يزداد تعمقاً فيها إذا كان عندما يهذ في البر، يتمعن في أعمال البر ويستضئ.

٥ – وهكذا يمكن للإنسان أن يرضي الله بين أولئك العائشين بقربه، ويدرك ما هو الذي يمكن أن يعوق خدمته؛ أو ما هي الأشياء التي ينبغي أن يتفوق فيها أكثر في هذا الهذيذ لكي يبلغ الاستنارة.

٦ – وكذلك أيضاً إذا كان يهذ في خدمة الفضيلة، كيف يمكن أن يرضي الله في طهارة جسده، وفي جهاد الصلاة، وتنقية الجسد، وتلاوة المَزَامِير، وفي القتال ضد كل ما يعوق ذلك؛ وأيضاً إذا كان يتمعن في كثرة أنواع الفضيلة التي تنقسم إليها. وفي أي نوع منها يجد الاستنارة ويحرز تقدماً بمثابرته عليه بصفة خاصة؛ وما هو الذي يقف عائقاً لكل نوع منها – بذلك سوف يتعمق في الحكمة.

٧ – أمَّا إذا كان يهذ في الأوجاع، وفي الأفكار وقتالاتها، وكيف ترتبط الأفكار بعضها ببعض، وأي نوع منها يلتصق بالآخر، وما هي بداية الأَوَّل وما هي نهايته، وأية قوة يمتلكها كل وَاحِد منها، ومن أين يستمد قوته، وبأي شيء يمكن تهدئته؛ فمثل هذا الإنسان يركز فقط على أمور هذه الأوجاع ويروض فكره بذلك.

٨ – أمَّا إذا انصرف إلى الهذيذ بالله، وشغل عقله بالتفكير في الأمور التي تخصه، طالباً الله وحده بكل قلبه، فسوف يدرك الاستنارة، ويحيط هنا بكل تلك الأمور السابقة أيضاً.

٩ – فتلك الأمور جيدة، غير أنها تنطوي على أشياء كثيرة مضادة؛ ويجب ألا تعوق العقل عندها خلال هذيذه وتفكره بأمور النفس والجسد. فالتأمل الذي ينحصر فقط في مقاومة الأوجاع، حتى ولو كان يمتد ليشمل جمال الخدمة ومعرفة الجهادات والقتالات، لا يتفق مع هدف الرجاء الذي تعلمناه ولا مع ما يقوله الرسول: «مدركين مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو» (أف٣:١٨)؛ أو «ممتلئين من كل حكمة وكل فهم روحي» (قا كو١:٩). فكيف يمكن أن ينمو في الحكمة ويصير مدركاً لهذه الأمور إذا كان يظل ليلاً ونـهاراً متسيباً في مجادلات مع أفكار الأوجاع والاهتمام الدائم بـها؟

١٠ – ومع ذلك فكثيرون يشغلون أنفسهم ويركزون على هذه الأمور، وخدمتهم فاضلة ونشيطة، إلا أنه ليس لهم أقل اهتمام بـهذا الجانب الآخر.

١١ – وفي هذه الحالة، سواء في الأمور التي تختص بعمل الجسد أو تركز على الأوجاع والفضائل، فطالما كان الإنسان يداوم الهذيذ بـها ويسمح لفكره بالانشغال بـها ليلاً ونـهاراً، فإنه سوف يحرز نصرة ثم يعود وينغلب، يسقط حيناً ويقوم حيناً آخر، يتنقى فكره ثم يعود فيتدنس، ينغمر في السقوط في وقتٍ ثم يتقوى بالتوبة في وقتٍ آخر. وباختصار فإنه يظل دائماً في هذا الصراع.

١٢ – أمَّا إذا انشغل الذهن بالهذيذ في الله، فإنه يرتفع فوق كل صراع. وليس أنه يتغلب على الأفكار والحركات والأوجاع تماماً، بل إنه يسود عليها فتتلاشى. وهي لا تنهزم حقيقة، إذ أنه ليست هناك نصرة، بما أن الأوجاع والتذكارات وكل ما ينجم عنها لم تعد موجودة؛ لأن هذا الشخص يكون قد ارتفع بالفعل عن هذا العالم تاركاً وراءه على الأرض – التي تنتمي إليها تلك الأوجاع – كل هذيذ بـها وبأعمالها بكافة أنواعها المتعددة وكل معرفة تختص بـها؛ بينما يكون الذهن قد أُخذ من وسطها. ولكن إذا كان ينبغي أن يُظن أن الفضيلة هي السيطرة على الأوجاع واقتناء الأعمال الفاضلة وما إلى ذلك، فسوف يتشتت الذهن حتماً على الأرض!

١٣ – ولكن إذا ما انشغل الإنسان بالهذيذ بالله وبغنى أمواج كل ما يخصه وما يحق له، فهو حينئذ يكون قد ارتحل من العالم وانغلق الباب في وجه كل تذكاراته، وتبقى الأوجاع ساكنة في أمَّاكنها، حيث يكون ذلك الإنسان قد رُفع بالفعل من الموضع الموجود فيه. لأنه لا توجد فضيلة إلا ويصاحبها جهاد دائم.

١٤ – هناك نوع من المعرفة تكمن قوتـها في انشغالها بالفضيلة؛ ولكن هناك نوع آخر ترتبط فيه المعرفة بـهذيذ العقل في الله كما قال الطوباوي مرقس الناسك:

١٥ – [العلم بالأمور شيء، ومعرفة الحق شيء آخر، وكما تسمو الشمس عن القمر، هكذا فإن معرفة الحق هي أعلى وأكثر منفعة من العلم بالأمور][٨٢]. فهو يدعو "المعرفة المختصة بالأمور" معرفة متولدة من الخدمة والجهادات مع الأوجاع، وهي تُكتسب بقدر ممارسة الوصايا، ويصير الإنسان حكيماً بقدر ما تكون الوصايا نفسها هي الهدف من الهذيذ بها وممارستها.

١٦ – أمَّا معرفة الحق، فهي معرفة تشرق كنتيجة لرفع الذهن فوق كل شيء، ومن الهذيذ الدائم بالله. وبالرجاء وحده، ومن خلال التأمل، يُرفع الذهن إلى الله. وهي لا تعلمنا أو تظهر لنا معرفة الأوجاع والخدمة، بل هي بالحري تغسلنا من القتالات والهذيذ بها، وتخلطنا (أو تشركنا) بحركاتنا مع الله.

١٧ – فكيف، إذاً، يمكن أن يُرفع الذهن إلى هذا النوع من المعرفة وما هي بداية هذا الهذيذ بالله؟ كيف يمكنني أن أجد موضعاً لأرتقي نحو الله؟ ومن أين أبدأ بالهذيذ على الأمور التي تخص الله؟ ومن هو الذي يظهر للعقل المكان الذي يصعد منه ويغطس في الله؟ كنتيجة للخبرة العملية بأمور الله، نجد أن الإنسان يُرفع إلى التأمل في الله في أفكاره؛ وهذا يكون بالرؤية الحقيقية لله: ليس لطبيعته، ولكن لسحابة مجده المظلمة. ومن هذه الأمور التي أوضحناها، فإن الهذيذ بالله هو الذي يبدأ أولاً أن يتحرك في الإنسان؛ ثم يبتدئ الهذيذ تدريجياً أن يكتنف ذهنه قليلاً قليلاً، ويحضره ويوقفه في سحابة مجد الله، وفي ينبوع الحياة (أي المسيح) الذي تفيض منه الحياة كل حين دون توقف لجميع أذهان الناطقين العلويين، والذين على الأرض؛ الذين عملهم كائن في الأعالي فوق الجسد، والذين عملهم هو على الأرض ويموت؛ أولئك الذين حركاتهم نار ملتهبة (مز١٠٤: ٤)، وهؤلاء الذين حركاتهم محدودة بثقل طبيعتهم.

١٨ – بماذا يشبه ذلك الكائن غير المرئي، الذي لا بداية له، الفريد في ذاته، الذي هو بالطبيعة أعلى من كل معرفة ومن عقول وشعور الكائنات المخلوقة. وهو فوق الزمان والمكان، إذ هو الخالق لكل هذه. الذي عند بدء الزمن عُرف بإشارات خفيفة وصار ظاهراً – كما لو كان – من خلال أعماله في تأسيس ملء الخليقة، وجعل صوته مسموعاً من جهة صنعة يديه. وهكذا عُرف مجد ربوبيته، أصل الطبائع التي لا تحصى، وهو الكائن المحتجب. لأنه إذ هو كائن بذاته منذ دهور لا تعد ولا تحد وليس لها بداية، سُرَّت نعمته وجعل بدءاً للزمن وأتى بالعوالم وكافة المخلوقات إلى الوجود.

١٩ – ولنتأمل أيضاً مقدار غنى ثراء بحر عمله المبدع، وكثرة أعداد مخلوقاته، وكيف أنه بتحننه يحمل كل الأشياء، وبعنايته يدبر الخليقة. وهو الذي بمحبته التي لا يمكن أن تقاس أتقن العالم وبدء الخليقة. وكم هو متحنن وطويل الأناة، وكيف يحب خليقته ويحملها، متحملاً بكل لطف لجاجتها في الطلب، ومتغاضياً عن آثامها وشرورها المتنوعة وتجاديف الشياطين والناس الأشرار الشنيعة.

[2] مقال) (عن الذين أنون لهم بتبررون بأعمال الناموس ف ١٣٥

فإذا ما وقف المرء منذهلاً، وقد ملأ ذهنه بجلال الله، ومندهشاً من جميع هذه الأشياء التي عملها وما زال يعملها، وحينئذ يتعجب بانذهال من كثرة رحمته: كيف أنه بعد كل ذلك دبر لهم عالماً آخر بلا نـهاية، لم ينكشف مجده ولا للملائكة ولو أنـهم يخدمون في مجال أعماله بقدر ما هو مستطاع في حياة الرُّوح، بحسب العطية التي وهبت لطبيعتهم. ثم يتعجب أيضاً من روعة ذلك المجد، ومن سمو قدر تلك الحياة العتيدة، ومن مقدار تفاهة الحياة الحالية بمقارنة ما هو مُعدّ للخليقة في الحياة الجديدة. ويتعجب كيف أنه لكي لا تُحرم النفس من تلك الحالة المغبوطة بسبب إساءة استعمال حرية الإرادة التي قبلتها، قد دبَّر برحمته عطية ثانية، التي هي التوبة، لكي يمكن للنفس بواسطتها أن تحصل على التجديد كل يوم، وبـهذه الصورة تتبرر كل حين. ثم إنه رسم أن لا تستلزم التوبة أوقاتاً أو حدوداً أو أتعاباً تفوق قدرة الإنسان، بل تعتمد على العقل والإرادة والضمير، وعلى قلب يتألم ويحس بتأنيب الضمير، حتى يكون من السهل لكل أحد أن يحصل منها على منفعة، سريعاً وفي كل حين.

٢٠ – ولكن ليس القصد من ذلك أن يرث الإنسان هذا المجد عن اضطرار أو ضد إرادته دون أن تكون هناك توبة؛ بل إن مسرة حكمة الله أنه ينبغي أن يختار الصلاح بحرية إرادته، وهكذا يجد طريقاً للمجيء إليه.

٢١ – ويكون الأمر هكذا حتى يمكن للإنسان أن يعتبر أنه يحصل على ذلك كما لو كان بعدلٍ، ويراه كشيء يمكن إدراكه بجهده الخاص، بينما هو في الحقيقة من عمل النعمة تماماً. وهذه الصعوبة التي سمح بـها الله (لإدراك ذلك) بإدخاله التوبة، تحمل في جوانبها سر حكمته، لكي يكون الإنسان تحت هيمنتها على قدر المستطاع. وإذا تكلمنا من وجهة نظر الإنسان، فيمكن على الأقل التحدث عن مجريات الأمور وليس لأن الله غير عالم بنـهاية مسيرة كل وَاحِد منا. أمَّا عن السبب في وجود هذا الأمر الذي نفحصه (أي التوبة)، ولماذا كان تَدْبِير التوبة ضرورياً ما دمنا سوف نُرفع إلى (إدراك) طريقة تفكير الله، وإلى سبق معرفته، وما يتولد من كليهما – كل هذا يظل مخفياً عن معرفة الجميع.

٢٢ – كما أنه ليس بالإمكان أن أقول إن الله قد أخذ بعض الخبرة عن كل إنسان، وأنه سوف يقدّر مكافأة كل وَاحِد على أساس هذه المعرفة، فليس من عادته أن يأخذ شيئاً من الخليقة كأساس لأفكاره – التي ليس لها نقطة بداية – لأن جميع أفكاره موجودة أساساً مثلما هو كائن. وبالنسبة لمعرفة نتائج أعماله، أقول إن الطبيعة الإلـهية هي أعلى بكثير من أن يتكلم الإنسان عنـها ناسباً إليها "الفكر" أو "القصد"، أو أن تكون هي نفسها موضوع فكر أو عقل أو تأمل الإنسان. وبخصوص الأمور التي ستكون مستقبلاً، فهو يعرف كيف يحدد مشيئته في كل أمر بأسلوب يناسب المخلوقات؛ وهو ليس بحاجة إلى أي شيء من خارجه لمعرفته – حتى وتعبير "داخل" و"خارج" لا يمكن أن ينسب إليه.

٢٣ – وكذلك فإن طبيعة الله لا تخضع لأي حوافز أو حركات مهما كانت صغيرة، وهو الذي من صلاحه الطبيعي الفائق قد أوجد العالم، ولم يكن ذلك لسببٍ نشأ معنا أنه دبَّر مثل هذا الخير لنا. كما أنه لا يمكن لسكون بحر سلام طبيعته أن يضطرب بواسطة أي عناد من جانبنا. لأن تلك الطبيعة الممجدة عظيمة جداً، مرتفعة ومجيدة، تامة وكاملة في معرفتها، وكاملة في محبتها. وليس هناك ثمة سؤال بخصوص الزمن "متى؟" فهو أبدي في كل ما يخصه ويتعلق به.

٢٤ – إنه، وهو الساكن في نور طبيعته، أراد أن تقترب الخليقة من السحابة المظلمة التي لمجده الأبدي. وهو الذي منح إكليل أبديته للخليقة التي صنعها. وهو الذي لم يبالِ بكرامة سلطانه وأظهر اهتمامه بكل ما يخصنا، ونزل إلى مستوانا. وهو الذي جعل ملء ما خلقه يشترك في أبدية ملكوته، وهو الرب الجوهري، الذي يرتفع فوق أي تصور ثانوي، والذي مشيئته هي مصدر كل الطبائع الأخرى والعوالم، والكائنات المخلوقة وسائر الطبائع، وكلها تفيض منه كما من نبع، بغير عدد وبلا حدود.

أمَّا الطبائع العجيبة التي للملائكة، والتي وُهبت عقلاً وفطنة، فقد خلقها من لا شيء بغتة؛ عوالم علوية بغير عدد، وقوات بلا حصر، وطغمات السارافيم النارية الرهيبة السريعة الحركة، العجيبة والشديدة القوة، والقادرة أن تنفذ قصد مشيئة القدير. وهي أرواح بسيطة منيرة غير متجسدة، تتكلم دون حاجة إلى أفواه، وترى بدون أعين، وتسمع بغير آذان، وتطير دون حاجة إلى أجنحة، وتعمل دون حاجة إلى أيدي، وتقوم بكل أعمال الأطراف دون أن تكون لها أعضاء: لا تتعب ولا تضعف، سريعة الحركة، لا تتأخر في أي عمل. مرعبة في منظرها، خدمتها عجيبة؛ وهي غنية في الإعلانات، مرتفعة في التاؤريا، تدخل إلى موضع "الشاكيناه" غير المرئي. وهي جواهر مجيدة ومقدسة، مرتبة في تسع درجات بواسطة "الحكمة" الذي خلق الكل. صوت صراخها "قدوس" لا يمكن أن يحتمله أولئك اللابسون جسداً، حيث يقول النبي: «فاهتزت أساسات عتب الهيكل من صوت صراخهم قدوس» (إش٦:٤). وهم ناريون في حركاتـهم، حادّون في الذهن، عجيبون في المعرفة، متشبهون بالله على قدر ما يكون ذلك ممكناً.

٢٥ – وهذه لمحات صغيرة من بداية الهذيذ "العملي" على الطبيعة الإلهية باستخدام المَلكات العقلية. مكرم وممجد هو الله في طبيعته، صالح في كل ما يخصه، رؤوف ورحوم وطيب، قدير وقوي؛ حكيم، معرفته تكفي لكي شيء، وتحتوي كل شيء داخل حدودها، وهو الذي يمسك بأقصاء الخليقة كلها. هو قريب جداً من كل أحد، ومع ذلك يظل أعلى من الكل بصورة يعجز عنها الوصف. هو في كل مكان وليس له مكان؛ يحيط بالكل، وكل مكان داخل محيطه. هو بإرادته يضبط الخليقة المترامية الأطراف بـهذا القدر، والمزدحمة بمثل هذه الكثرة من الأشياء المختلفة. وليس وَاحِد من الطبائع المخلوقة أو شيء مما في الخليقة يمكن أن يهتز أو يتحرك أو ينبض أو يهمس بغير إذن من مشيئته.

٢٦ – فلماذا تركنا ينبوع الحياة وبحر المعرفة، وتشتتنا على الأرض منشغلين بأمورنا الخاصة وبالأشياء التي تكتنفنا، حتى أننا صرنا مطروحين ليلاً ونـهاراً في مصارعات وجهادات وحروب مع الأفكار والأوجاع والتذكارات وكل إثاراتـها، بينما نحن نمتلك الوسائل التي تجعل هذه الأمور تذبل وتجف بدون صراع، وذلك بمجرد التحول إلى الرب؟

٢٧ – إننا لا نستطيع أن نتواجه مع عنف هذه الصراعات؛ لأنه مهما كنا حكماء في معرفة المكائد التي تحتويها الأفكار، إلا أننا سنظل عرضة للهزيمة والانغلاب لها. وسوف لا نخرج من دوامة الصراع معها، ذلك لأن نـهاية كل فكر منها تدعو العقل ليبدأ الصراع من جديد مع فكر آخر. وحتى لو أننا تفوقنا في هذا العمل، وكنا في الوقت نفسه متيقظين وحريصين، إلا أننا لا يمكن أبداً أن نتنقى من صدأ الأوجاع ومن شوائب الأفكار، ولو أننا قد نحظى بالنصرة عليها من وقت لآخر.

٢٨ – ولكن دعونا – يا أخوتي – نترك إلى حين التفكير والتشتت فيما يتعلق بما على الأرض؛ ولنعترف بأننا ضعفاء في مواجهة الأفكار والشياطين؛ ولنلتجئ إلى الرب ونرتفع قليلاً إلى ذلك المكان الذي تجف فيه الأفكار، وتختفي منه الحركات، وتضمحل التذكارات وتموت الأوجاع، وتصير الطبيعة البشرية هادئة وتتغير حين تقف في ذلك العالم الآخر.

٢٩ – إنني متعجب إن كان أحدٌ ما، لم تتقد فيه هذه الحركات المضيئة بخصوص تلك الطبيعة الإلهية، ومع ذلك يدَّعي أنه يعرف ما هي محبة الله. فإذا كنت، يا أخي، تروم أن تتذوق محبة الله، تمعَّن واهتم بالهذيذ بفهمٍ في الأمور التي تخصه والتي تتصل به وبطبيعته الْقُدُّوسة: تفطَّن وهذّ فيها عقلياً، واجعل فكرك يسرح فيها كل أوقاتك، وأنت بواسطة ذلك تصير مدركاً كيف أنك بجميع أجزاء نفسك قد التهبت بالحب كلهيب نار يشع على قلبك، فيغلب فيك الاشتياق لله؛ ومن محبة الله، سوف تبلغ إلى محبة كاملة لرفاقك من البشر.

٣٠ – بأحاديث مثل هذه – يا أخي – يرتفع الإنسان خلال نفسه من الأمور الأرضية، ويُسبى ويُقاد نحو محبة الله؛ ويكون مثل شخص نسي طبيعته الخاصة، ذلك لأنه لم يعد شيء من العالم يجتذبه إليه أو حتى يصعد على فكره. لكنه يصير مدركاً للعالم الآخر، يؤمن إيماناً راسخاً ويعرف أنه يوجد هناك شيء آخر خارجاً عن اللحم والدم.

٣١ – كل أحد يجتهد في اقتناء الفضيلة؛ أمَّا التأمل الفاضل المتحد مع الحديث المجيد مع الله، فهو شيء قليلون فقط هم الذين حصلوا عليه، وقد فعلوا ذلك من خلال استنارة أفكارهم بفضل نعمة المسيح. فإذا ما تفاضل هذا النوع من التأمل في أحد ما، وقد سُبي عقله بواسطة الأمور المجيدة التي هي أعلى من العالم، وبواسطة الله، فحالما ينفك العقل من هناك ويقيم مرة أخرى مع العالم لينشغل بالشؤون البشرية، فإن ذلك الشخص يرى نفسه كما لو كان غريباً عن العالم وعن منظره وكلامه وعن كل الأمور العادية التي تعمل فيه.

٣٢ – كثيرون يعتبرون التفكير في مثل هذه الأمور مجرد نوع من العبث. إنهم يشبهون شخصاً اعترته حرارة الحمى، حين يذكّره الناس بالطعام اللذيذ المفتخر، تنفر شهيته ويتقزز منه. وليس السبب هنا هو في الطعام نفسه، ولكنه في شهيته المريضة الضعيفة، والخلل الناتج عن المرارة، فكل ما يشتهيه هو الأطعمة المالحة والحمضية.

٣٣ – الذي يقتني السكون وهذيذ المعرفة سوف يصل بسرعة وبسهولة إلى محبة الله. وبواسطة محبة الله ينجذب إلى المحبة الكاملة لرفقائه من البشر.

٣٤ – وليس أحد على الإطلاق استطاع أن يدنو من هذه المحبة المضيئة للناس دون أن يكون قد وُجد أولاً مستحقاً لمحبة الله العجيبة التي تُسكر النفس.

٣٥ – أن يأتي أحد من التعب والمصارعة مع الأفكار إلى المحبة المضيئة للبشر، ويرتفع منها إلى محبة الله، هذا أمر مستحيل لمن يريد أن يكمل مسيرته، بهذا الأسلوب، في هذه الحياة وإلى أن يرحل من العالم، مهما جاهد كثيراً. لأنه بواسطة تكميل الوصايا وعمل الإفراز يمكن للإنسان أن يلجم أفكاره وينقي مشاعره تجاه الآخرين، وحتى أن يعمل الصلاح نحوهم؛ أمَّا أن يُدرك محبة مضيئة نحو الناس عن طريق الجهاد، فهذا ما لا أقتنع أن بإمكانه ذلك؛ فليس هناك من استطاع أن يقتنيه بهذه الكيفية، ولا من يقدر أن يبلغ إليه على هذا النمط في هذه الحياة. بدون الخمر لا يسكر أحدٌ ولا يطفر قلبه بالفرح؛ وبدون السكر في الله ليس لإنسان أن يدرك – من خلال المسار الطبيعي للأمور – أية فضيلة تخصه، بل ولا يمكن أن تبقى فيه بهدوء وبدون تغصب.

٣٦ – أمَّا الشخص الذي استحق أن يذوق المحبة الإلهية، فهو عادة ينسى كل شيء بسبب حلاوتها؛ فكل الأشياء المرئية تبدو بجانب مذاقتها حقيرة تافهة. مثل هذا الشخص تنجذب نفسه بمسرة نحو محبة مضيئة تجاه البشر، دون تمييز بين الصالح والرديء؛ وهو لا ينغلب أبداً أمَّام الضعفات التي توجد في الناس ولا ينزعج بسببها. وهو في هذا يشبه تماماً ما كان الرسل المكرمون: الذين وهم في وسط كل الأمور الرديئة التي كانوا يعانون منها من الآخرين، كانوا مع ذلك لا يستطيعون قط أن يكرهوهم أو يتأخروا عن إظهار المحبة لهم. وقد تبرهن ذلك بالفعل، لأنهم بعد كل الشرور التي احتملوها، ارتضوا أن يموتوا لكي يستردوهم للحياة. هؤلاء هم الذين من قبل فترة قصيرة سبق أن طلبوا من الرب أن تنزل نار من السماء على السامريين لمجرد أنهم لم يقبلوهم في مدينتهم! (لو٩: ٥٤). ولكنهم ما أن قبلوا العطية وذاقوا محبة الله، حتى صاروا كاملين في محبة الأشرار، واحتملوا كل أنواع شرورهم لكي يستردوهم، إذ لم يكن ممكناً أبداً أن يكرهوهم.

وهكذا أنت ترى – يا أخي – أن المحبة الكاملة للبشر لا يمكن أن توجد كمجرد نتيجة لحفظ الوصايا.

٣٧ – إنني لست أقول إنه ينبغي أن نتخلى عن الأمور التي تحدث وسط التعب والصراع، أو أن لا نقترب منها. ولكن، بينما نتعب فيها لفترة ما وفي مكان معين، ينبغي أن نترك مجال الصراعات (من وقت لآخر) ونلجأ إلى السكون. وإذا ما تعلمنا – حتى هناك – بعض المعرفة الجزئية عن التعامل مع الأفكار، نرجع مرة أخرى إلى المجال العقلي للصراعات. وفيما نكون مشغولين هكذا، ينبغي أن نحتفظ دائماً في عقولنا بالتأمل في أمور عجيبة، مع المؤازرة الدائمة الكائنة من الصلاة. وهكذا ننمو يوماً بعد يوم، وتبتهج نفوسنا بينما نتقدم تدريجياً إلى الكمال في الله.

٣٨ – الهذيذ المضيء بالله هو هدف الصلاة؛ أو بالأحرى هو ينبوع الصَلَوَات، بما أن الصلاة نفسها تنتهي بنا إلى التأمل الدائم في الله.

٣٩ – توجد أوقات ينتقل فيها الإنسان من الصلاة إلى هذيذ عجيب في الله. وفي أوقات أخرى تتولد الصلاة من الهذيذ بالله.

٤٠ – وهذه كلها هي مراحل مختلفة في مسار سعي العقل، بكيفية إلهية، في ميدان هذا العالم، وكل أحد يركز نظرته على إكليله (١كو٩:٢٤-٢٥). وإكليل المتوحد هو التنعم الرُّوحي في المسيح رَبِّنَا. فكل من وجد هذا، فقد اقتنى – وهو في هذا العالم – عربون تلك الأشياء العتيدة.

٤١ – أيُّها المسيح إِلهُنَا، ينبوع الحياة، اجعلني مستحقاً لمذاقتك، لكي تستنير عيناي بك (قا ١صم١٤:٢٧). يا رجاء كل الخليقة، كنز الرحمة والتحنن، الذي أُرسل إلى العالم، هبني أن أتذوق فرح رجائك، لكي ما أصير أعمى فيما يخص هذا العالم، ولكن مستنيراً في الرُّوح. ولَيْتَ نفسي ترتوي وتسكر بمحبتك لكي ما أنسى العالم وكل شؤونه.

لَيْتَنا نُسبى وننجذب إليك بأذهاننا، حين نتحدث مع بـهائك الْعَظِيم. لا تدع العالم يسبينا بالحديث الضار معه. بل اجعلنا مستحقين أن نخدم أمَّامك بيقظة، بحسب مشيئتك؛ ونقدم لك التسبيح بـهدوء وسلام عظيم كل حين.

هبنا، يا رب، فماً ممتلئاً من تمجيدك، وأيضاً عقلاً يحتمل الشدة والألم. اجعل فهمنا مشرقاً بنقاوة تطهر عواطفنا لكي نصير "ذبيحة مقبولة" لك بلا عيب، في جميع أوقات صَلَوَاتنا.

اجعل قوتك الخفية تسكن فينا، لكي ما تتقوى حواس نفوسنا، حتى تنشد نفسنا ترنيمة مملوءة عجباً، ونترنم بالتسبيح لك كل حين بتهاليل الساهرين في العلا، تمجيداً لعظمة جلالك. وكما لو أننا في السماء، فلنحمل في أعضائنا الخفية التقديس لألوهيتك. لَيْتَنا نشترك في الحمد مع جميع قديسيك ونخدم اسمك الْعَظِيم الْقُدُّوس، ولا نشبع من ذلك أبداً، أيُّها الآب والابن والرُّوح الْقُدُس الممجد في طبيعته إلى دهر الداهرين، آمين.

المَيْمَر الحادي عشر

على تيؤريا سر الصليب؛ وعلى القوة التي تصدر عنه بطريقة غير مرئية في شكله المرئي. وعلى أسرار أعمال اللّه الْعَظِيمة التي كان يجريها في العهد القديم، وإجمال ذلك في المسيح رَبِّنَا؛ وكيف يعكس الصليب القوي مجمل هذا كله.

١ – بأي معنى، وما هو الرمز الذي ترسمه لنا إشارة الصليب، هذه الإشارة التي نكرمها جداً ونوقرها بمسرة عظيمة وحب وشوق لا يشبع؛ والصليب قصته معروفة ويرددها العالم كله؟

٢ – كيف تستقر في الصليب سراً قوة الله، كما اعتاد الله أن يفعل في كل الأجيال كدليل على عجب قوته الْعَظِيمة أن يضع اسمه المكرم بطريقة فائقة على أشياء حسية في كل جيل، مظهراً فيها للعالم أموراً عجيبة ورائعة، ومانحاً بواسطتها منافع عظيمة للبشرية. كل هذا سوف نشرحه قدر المستطاع، في كلمات بسيطة، عن القوة الأبدية المجيدة التي في الصليب، حتى يمكن أن يتحقق لدينا أن الله هو الذي يحمل كل شيء، ويعمل كل شيء في الكل، بين القدامى، وبين الذين هم في أواخر الأيام وإلى الأبد.

٣ – ونحن لا نتحدث عن قوة في الصليب تختلف بأي حال عن تلك القوة التي من خلالها أتت العوالم إلى الوجود، قوة أبدية لا بداية لها، تقود الخليقة كل حين بدون توقف، بطريقة إلهية تفوق فهم الجميع، بحسب مشيئة الله.

٤ – فماذا إذاً؟ إن قوة الله غير المحدودة تسكن في الصليب، كما كانت تسكن بشكل يفوق الإدراك في تابوت العهد الذي كان يُكرّم بمجد عظيم وبكل رهبة من الشعب اليهودي؛ وكانت تُجرى بواسطته عجائب عظيمة بين الذين لم يستحوا أن يدعوه "الله" (عد١٠:٣٥-٣٦)، لأنهم كانوا ينظرون إليه بكل رهبة وخشوع كما الله، بسبب مجد اسم الله الْقُدُّوس الذي وُضع عليه. هذا التابوت لم يُكرّم فقط بهذا الاسم بين الشعب اليهودي، بل وأيضاً بواسطة الشعوب الغريبة من أعدائهم: «ويل لنا، فقد جاء الله إلى المحلة» (١صم٤:٧).

فهذه القوة التي كانت في التابوت قديماً نعتقد نحن أنها كائنة بهذه الهيئة المهيبة في الصليب، الذي نكرمه بمشاعر عظيمة تخص الله.

٥ – فما الذي كان في التابوت حتى جعله مهيباً ومملوءاً بكل نوع من القوة والعجائب، سوى قسط المن ولوحي الوصايا التي كتبها موسى وعصا هارون التي أزهرت؟ ألم يسجد موسى والشعب كله أمَّام التابوت بخشوع عظيم ورعدة؟ ألم يقع يشوع بن نون على وجهه إلى الأرض أمَّامه من الصباح إلى المساء؟ (يش٧:٦). ألم تظهر هناك إعلانات الله المخوفة، كما لو كان يعطي تكريماً للتابوت، بما أن "شاكيناه" الله كانت حالة فيه؟ فهذه الشاكيناه التي تستقر الآن في الصليب، قد انتقلت من هناك واستقرت سرياً في الصليب.

٦ – وقوة هذه الشاكيناه تستعلن في الصليب الآن بواسطة عجائب قوية ليست بأقل مما كانت في تلك الأيام، بل إنـها في الحقيقة أكثر مما كانت هناك. ألم تكن الأمور التي وردت في سفر الأعمال كالتي أُجريت بواسطة الرسل أعظم من تلك التي حصلت في القديم؟ ومن لا يقبل الأخيرة لن يصدق الأَولى أيضاً.

٧ – من خلال قوة الصليب كثيرون ردعوا وحوشاً، وواجهوا النار بجسارة، وساروا على المياه، وأقاموا الموتى، وأبطلوا الأوبئة، وجعلوا الينابيع تتفجر في أراضٍ صخرية وجرداء، ووضعوا حداً للبحار، وأمروا شدة أمواج الأنـهار الْعَظِيمة أن ترجع إلى وراء، وعكسوا مسار المياه.

٨ – ولماذا أذكر هذه الأمور؟ إن الشيطان نفسه بكل جبروته يفزع من إشارة الصليب ضده. وانصتْ أيضاً لما هو أعظم من هذه الأمور جميعها: في خدمة العهد القديم، على الرغم من كل الآيات والعجائب التي تمت أمَّامهم، لم يكونوا قادرين أن يقتلعوا حتى أصغر أنواع الخطايا، بينما في الخدمة التي تتم الآن بواسطة الصليب، تصير الخطية مثل نسيج العنكبوت الذي إذا تعلّق به شيء ثقيل لا يستطيع أن يحتمله. والموت الذي كان مرعباً إلى هذا الحد للطبيعة البشرية، الآن حتى النساء والأطفال صار بإمكانـهم أن يواجهوه مرفوعي الرأس. فالذي كان قبلاً قد تملك على الكل صار الآن أمراً سهلاً، ليس فقط للمؤمنين بل وللوثنيين على السواء؛ فقد تقلص الخوف منه إلى أقصى حد عما كان عليه من قبل.

٩ – مبارك هو ذاك الذي غيَّر حكمه علينا بالمصالحة التي صنعها هو بنفسه من أجلنا «عاملاً الصلح بدم صليبه» (كو١: ٢٠)، مبارك هو الذي أراد أن يظهر علانية – في أيامنا هذه – محبته الأبدية للخليقة.

١٠ – أمَّام ذلك التابوت الخشبي الذي قيل إن "شاكيناه" الله كانت حالة فيه، كانت العبادة المملوءة رهبة تُقدّم باستمرار لله بواسطة موسى والشعب.

١١ – فكيف إذاً قال الله في الناموس للشعب بواسطة موسى: «لا تسجد لصنعة الأيدي أو لأي صورة أو تمثال» (خر٢٠: ٤)، ومع ذلك فقد صُنع التابوت بواسطة نجارين، ونحت موسى لوحي الشهادة من الجبل وكتب عليهما بأصابعه (خر٣٤: ٢٨)؟ ألم يكن السبب في ذلك هو أن الأشياء الأَولى (الصور والتماثيل) قد اتخذوا لها أسماء الأوثان، بينما هذه الأخيرة قد ظهرت فيها قوة الله علانية بما أن اسم الله الْعَظِيم المكرم قد وُضع عليها. ولهذا حصلوا على المنفعة والنجاة بواسطتها وأُجريت بـها عجائب فائقة للطبيعة.

١٢ – وهنا أيضاً في حالة الصليب، نرى أنه في اللحظة التي يُرسم فيها الصليب على الجدار أو في لوحة، أو يصنع من ذهب أو فضة وما أشبه ذلك، أو يُخرط من الخشب، سريعاً ما يقتني ويمتلئ بالقوة الإلهية عينها التي كانت موجودة هناك في تلك الأيام؛ وهكذا يصير موضع "شاكيناه" الله، بل وأكثر مما كان في تابوت العهد؛ بما أن خدمة العهد الجديد هي أكثر

كرامة أمَّام الله من الأمور التي حصلت في العهد القديم بمقدار ما هناك من فرق بين موسى والمسيح، وبمقدار ما أن الخدمة التي حصل عليها يسوع هي أفضل من تلك التي أُعطيت بواسطة موسى.. هكذا هو الأمر بالنسبة لإشارة الصليب الذي نراه الآن يجد تكريماً أعظم بكثير من تلك الأشياء الصماء التي كان لها ظل الخيرات العتيدة في المسيح لا نفس صورتها (عب٨:٦؛ ١٠:١).

١٣ – وبالمثل، إذا نسبنا أي اسم آخر لشيء مصنوع باليد بهذه الهيئة وسجدنا له، لاستحققنا العقاب كما حصل للقدماء الذين استبدلوا عبادة الله بالأوثان. أمَّا الآن فالاسم الذي ينسب إليه الصليب هو رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح (غل٦:١٤)، الذي كانت تقال عنه دائماً مواعيد كثيرة في العهد القديم، الذي كانت الأسباط الاثنا عشر يمسكون بهذا الرجاء، يرجون نواله عابدين بالجهد ليلاً ونهاراً (أع٢٦:٦).

كل هذه الأمور نفهمها: فنحن كلما تطلعنا إلى الصليب وقت الصلاة، أو حين نقدم التكريم له، فمن أجل ذاك الذي صلب عليه. ونقبل من خلاله قوة إلهية، ونوجد أهلاً لنوال المعونة والخلاص والخير الذي يفوق الوصف، في هذا العالم وفي الدهر الآتي، أعني في الصليب.

١٤ – حتى في أمر الغطاء الذهبي الذي كان فوق التابوت، وهو مصنوع من ذهب نقي وكانت تظهر فيه قوة الله علانية؛ كان الكاهن إذا دخل هناك لا يجسر أن يرفع عينيه ويتأمله، لأن "الشاكيناه" المخوفة التي للاهوت كانت فيه، ولهذا كان منظره مخيفاً للغاية وموضع توقير عظيم أكثر من كل الأشياء التي كانت تشكل جزءاً من تلك الخدمة.

١٥ – والآباء المستقيمو الرأي يقولون إن ذلك الغطاء كان يرمز إلى بشرية رَبِّنَا. فإن كان الرمز مكرماً بهذا المقدار فكم بالأكثر تحقيق الرموز والأصل الذي تشير إليه كل الرموز والمثالات. لكن كانت تلك الخدمة تتطلب خشية ومخافة عظيمة، أمَّا هنا، على سبيل المقارنة، فنجد اللطف الفائق. فهناك كان كل من يسلك بازدراء تجاه تلك الرموز والمثالات والأشكال ينال عقاباً شديداً في الحال مثلما حصل مع أولئك الذين احترقوا بنار مجامرهم (عد١٦:٣٥).

١٦ – أمَّا هنا فإن النعمة قد انسكبت بغير قياس، واللطف الفائق قد ابتلع الرعبة، والدالة قد دخلت، وتولد نوع من الجراءة – وحاشا أن يكون ذلك تجاسراً حقيقياً! لكنه بالأحرى تعاظم الدالة في الحديث. ومن شأن الدالة أن تطرح الخوف خارجاً بسبب كثرة لطف الله الذي فاض علينا في هذه الأيام.

١٧ – ومنظر الصليب بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين ليس شيئاً صغيراً؛ لأن كل الرموز تُعرف أنه يحتويها. فإنهم كلما رفعوا أعينهم وتأملوا فيه، فإنهم – كما لو كانوا – يتأملون وجه المسيح، وبالتالي يزدادون توقيراً له، ويصير منظره عزيزاً ومهيباً عندهم. وفي الوقت نفسه محبوباً جداً. ولكونهم أبناءً فقد صارت لهم بالأكثر دالة كبيرة نحوه، كما أن الأبناء العاديين لهم عادة هذه الدالة مع آبائهم لسبب الثقة في محبتهم.

١٨ – وكلما نقترب من الصليب، نكون كما لو كنا نقترب من المسيح؛ فهذا هو ما يتراءى لنا بإيماننا فيه.

١٩ – ومن اقترابنا إليه، وعندما نثبّت نظرنا فيه، نرتقي في الحال بأذهاننا إلى السماء سرياً؛ وكما لو أننا بسبب رؤية ما لا يمكن رؤيته أو الإحساس به، وبسبب تكريمنا له، تُبتلع نظرتنا الجوانية بتأمل سر الإيمان.

٢٠ – ورسم الصليب يُظهر لنا بواسطة عين الإيمان المثال الذي يخص العهدين (القديم والجديد) كما تبين سابقاً (في بداية المَيْمَر) في مكانه المناسب؛ هذا فضلاً عن كونه ختم تَدْبِير مخلصنا.

٢١ – فنحن حين نتطلع نحو الصليب بهدوء، وكل مشاعرنا مثبتة فيه، فإن تذكار كل تَدْبِير رَبَّنَا يتجمع ويقف أمَّام عيوننا الداخلية.

٢٢ – ذاك الذي فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (كو٢:٩)، نراه يطوف كإنسان عادي على أبواب الخطاة، «محتقر ومرذول من الناس، لا صورة له ولا جمال» كما يقول النبي (إش٥٣:٣و٢).

٢٣ – يا للعجب، الخالق يأخذ شكل إنسان ويدخل بيت العشارين والزناة (مت٢١:٣١-٣٢). وعندما كانوا يتحولون إليه – بفعله الخاص – كان يقنعهم ويزودهم بواسطة تعليمه بيقين المصالحة معه. وختم كلمة الحق بشهادات صادقة في آيات ومعجزات. وهكذا انجذب العالم كله إلى محبته – من خلال بهاء منظره – وإلى الاعتراف الوَاحِد بالله رب الكل، وهكذا غُرست معرفة الخالق الوَاحِد في الجميع.

٢٤ – وأخيراً، فإن أولئك الذين قبلوا تعليمه ثبتوا في الرجاء الذي وهبهم إياه بكونه خَتم كلماته لهم بدمه الخاص. ومن خلال موته وقيامته ثَبَّت الاثني عشر تلميذاً المعينين سابقاً من قِبل معرفة الله من كل جنس آدم لهذه الخدمة. عندئذ رفعه الآب إليه بمجد لا ينطق به إلى السماء، إلى ذلك المكان الذي لم يطأه مخلوق؛ حيث دعي بواسطته كل الكائنات الناطقة، الملائكة والبشر، إلى الملكوت المبارك، لكي يتنعموا في النور الإلهي الذي هو الآن كائن فيه مع الله في كرامة ومجدٍ لا ينطق به.

٢٥ – هذه هي الأسرار التي يحملها شكل الصليب؛ وهي علة المعجزات التي يجريها الله بواسطته في العالم كله. هذا هو الصليب الذي نكرمه ونمجده بفرح، بينما علة ذلك معلومة في فكر الخالق منذ الأزل؛ لأن قصده كان أن يهب الكل من خلال الصليب معرفة مجده والحرية التي كان مزمعاً أن يحصل عليها بواسطته لكل البشرية.

٢٦ – مبارك هو الله، الذي يستخدم أشياء حسية دائماً لكي يجتذبنا بطريقة رمزية إلى معرفة طبيعته غير المرئية، ويغرس ويثبت في أذهاننا تذكار عنايته بنا العاملة عبر جميع الأجيال كي يربط أذهاننا بالحب لطبيعته المحتجبة بواسطة أشكال مرئية.

٢٧ – لَيْتَ قلوبنا تفرح بأسرار الإيمان الذي نمسك به، ولنبتهج بالله الذي يهتم بنا إلى هذا الحد. لَيْتَنا ندخل بتاؤرية أذهاننا إلى هذا العمل المذهل الذي اقتناه لنا. ولنفرح في الرجاء الذي استعلن لنا – نحن أولاد المسيح – في سر العهد الجديد الذي تقبلناه على يديه.

٢٨ – كم ينبغي أن نسجد لله، الذي من أجل خلاصنا صنع كل شيء في العالم ليقرَبِّنَا إليه، قبل أن يستعلن ما كان قد هيأه لنا، أي ذلك المكان الذي سوف ننال فيه الخيرات اللائقة بأبناء الله.

٢٩ – وكم ينبغي أن يُكرم رمز قوة الصليب؛ لأنه هو الذي أعطانا كل هذه البركات، وبواسطته صرنا مستحقين لمعرفة الملائكة، أعني من خلال القوة التي بواسطتها خُلقت جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية.

٣٠ – مستحق كل التسبيح والتمجيد هو الله الذي خلقنا وأعطانا كل هذه الخيرات، وسوف يعطينا أيضاً. له السجود والمجد والعظمة إلى الدهور الأبدية، آمين.

المَيْمَر الثَّانِي عشر

على تَدْبِير الثيوريا، وعلى منفعة الوحدة والسكون لإدراك المعرفة الرُّوحية

١ – ينبغي لمن بلغ تَدْبِير التاوريا أن يقضي الليل في مسكنه أو قلايته. لأنه في الليل أكثر من أي وقت آخر ينبغي أن ينقطع من كل أحد ويمكث وحده، لكي يزيد سكوناً على سكونه. لأن مخلصنا أيضاً كان في أوقات الليل يختار المواضع المنعزلة (مت١٤:٢٣)؛ كما كان يحب السكون ويكرمه في كل الأحيان، فتراه يقول لتلاميذه: «تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء واستريحوا» (مر٦:٣١)؛ وأيضاً: «انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفرداً» (مت١٤:١٣). وكان يختار بصفة خاصة تلك الأوقات ليعتزل عن الجموع ويمكث في السكون. ولم يكن ذلك لأنه كان في حاجة إلى أن يعمل هكذا، بما أنه قادر على كل شيء، في كل مكان. ومع ذلك لم يقضِ الليالي في الأمَّاكن المأهولة: «وصعد إلى الجبل منفرداً ليصلي، ولما صار المساء كان هناك وحده» (مت١٤:٢٣).فهو من أجل تعليم أبناء النور الذين سوف يسلكون فيما بعد في آثار خطواته بهذا التَدْبِير الجديد، اتَّبع هو هذه المفاوضة المنفردة للتناجي مع الله. هذه المناجاة التي تمتلكها الرتب السماوية وحدها، قد استعلنت أيضاً للبشر في شخص ابن الله الذي أتى إلى عالمهم وأظهر لهم خدمة غير المرئيين الذين ينحصر عملهم في حركات التسبيح لله في ذلك السكون الْعَظِيم الذي يشمل عالمهم؛ لكي من هذه التسابيح يُرفعون بالتاوريا نحو طبيعة الثالوث الممجد، ويمكثون في دهش عند رؤية جلال ذلك المجد الفائق للنطق.

٢ – في هذا التَدْبِير سوف تحيا الطبيعة البشرية بأكملها في القيامة العامة. لَيْتَنا نوجد مستحقين – كما لو كان عربوناً – للتنعم بالخيرات المزمعة هناك بواسطة نعمة المسيح رَبِّنَا، الذي له ولأبيه والرُّوح الْقُدُس المجد والكرامة للأجيال الأبدية، آمين.

المَيْمَر الثَّالِث عشر على تربية الإنسان الجواني[٨٣]

١ – بمقدار ما يقترب الإنسان من معرفة الحق، يقل فيه نشاط الحواس ويميل نحو صمت الإفراز دائماً. وبقدر ما يقترب من تَدْبِير هذا العالم الحاضر في خدمته يصير في حاجة إلى قوة ويقظة الحواس.

٢ – تَدْبِير هذا العالم الحاضر يؤدي إلى تشغيل الحواس، بينما تَدْبِير الحياة الآتية يقود إلى النشاط الرُّوحي. وعندما يصير الإنسان أهلاً لتلك المعرفة تتوقف فجأة أعضاؤه عن الحركة ويقع عليه سبات وصمت؛ لأن كل استعمال الحواس في تَدْبِير الحياة الجديدة يتعطل عن العمل. لأنه حتى في هذا العالم لا تستطيع الحواس أن تحتمل ملاقاة ذلك السر؛ حتى وإن كانت كما في نوع ما من النوم تتوقف عن نشاطها في وقت التوبة؛ مع أنها ليست هي التي تقوم بالمواجهة بل الإنسان الداخلي. لَيْتَ الله يهبكم أن تعرفوا قوة العالم الآتي (أف١:١٨-١٩)، وأنتم تتوقفون من الآن فصاعداً عن كل ارتباط بهذه الحياة الحاضرة. ✞

[2] الجزء الأول: ص ١٠ ف ٢١) من النفس الخالصة(

المَيْمَر الرَّابع عشر

أقوال عن الصلاة؛ وعن الزي الخارجي أثناء الصلاة

١ – يتضمن هذا المقال باختصار هذه الأمور:

إنه ليس من اللائق بنا أن نتكاسل – بآراء جاهلة – عن الأتعاب الجسدية والزي الخارجي الوقور المناسب للصلاة، حتى لو ارتفعنا في تَدْبِيرنا إلى أعلى الدرجات. وما أعنيه هنا هو بالنسبة لوقت الوقوف المحدد في خدمة الأوقات، وسجود الجسد الظاهري، وما إلى ذلك .

٢ - ومن أي شرور عظيمة تخلصنا خدمة المَزَامِير.

وعن أنه ينبغي في تلك الأوقات التي نوجد فيها مستحقين لهذه الموهبة، أن نعتبر أن نقاوة الصلاة ونظرة العقل المتصلة بـها، والتي تشمل الأفهام الرُّوحية، تتضمن خدمة الأوقات وكل ترتيبها.

٣ - وعن البلايا التي تحصل نتيجة لتخلية الله، لأولئك الذين يحتقرون الأشكال الخارجية المتخشعة والمتسمة بالتوقير مع الرهبة التي ينبغي أن نظهرها أثناء الصلاة.وعن مواضيع أخرى متنوعة.

٤ – هناك أربعة أنواع من غيارات الأعمال الموافقة لجميع الأشخاص في أية منزلة كانوا. فقد يغير الوَاحِد نشاطه برأي حكيم معقول وبتَدْبِير إلهي؛ أو قد يحدث التغيير نتيجة لفكر فاسد وتَدْبِير جاهل متهاون؛ أو تحت ضغط أسباب ملحّة وظروف محتمة؛ كما قد يحدث بفعل الرأفة الإلهية.

٥ – وهذا ينطبق أيضاً على التَدْبِير العجيب الذي للمتوحدين: فأي تغيير في التَدْبِير يعرض لأي شخص يمكن أن يُعرف، بما أنه يتبع أحد الأربعة أنواع التي ذكرتـها. فهو أمَّا أن يأتي من خلال حكمة محبة الله، حين يُثبِّت الإنسان وجهته على هدفٍ سامٍ؛ أو قد يكون نتيجة تَدْبِير جاهل، والتهاون الذي يتملك على الشخص، حين يستبدل خدمته المعتادة السابقة وتَدْبِيره المقبول بآخر أدنى منه؛ أو تلك الحالة التي تدرك الإنسان تحت ضغط الفرح الرُّوحي في الله الذي يلمحه بفضل العمل الإلهي، فيتبدل جهاده المعتاد في الفضيلة، ويتجدد بالنعمة لينتقل إلى نوع آخر من العمل الأكثر سمواً. حينئذ، وكنتيجة للمذاقة العجيبة واكتشاف معرفةٍ فائقة، يتوبخ أسلوب جهاده السابق حين يلمح شيئاً أكثر بـهاءً ومذاقة أكثر حلاوة من الجهاد الذي كان يُضني نفسه به من قبل. وأحياناً يمتلئ العقل دسماً من حركة الأمور التي ينشغل بـها وينحصر داخله بعيداً عن العمل الخارجي المرتبط بالحواس، حسبما هو معروف عند جميع النساك. وهذا يحدث بما يتناسب مع الوقت، ومع مقدار وقوة تَدْبِير كل شخص. وهناك أيضاً حالة ينشأ فيها التغيير بسبب صعوبة وضغط هجمات الشياطين، أو من المرض والضعف العارض.

٦ – ولهذا – يا إخوتي – متى ظهر في تَدْبِيرنا أي تغيير ينبغي أن نسرع لكي نفحص عن علة ذلك، ونعرف من أية ناحية تظهر هذه العادات المتغيرة، من أين يأتي هذا الأمر المخالف الذي لا يشبه السيرة المعتادة التي للمتوحدين أو التَدْبِير الرهباني المألوف. حينئذ، أمَّا أن يزداد فرحنا أو أننا نُسلَّم بواجبٍ للاضطراب والتشويش حين لا نسلك حسناً. وفي هذا نستطيع دائماً أن نقتني إدراكاً بالنسبة لما يخص تَدْبِيرنا، أعلى من ذلك الفهم الذي يفحص بأسلوب مادي المظاهر الخارجية للأفكار والكلمات والأفعال؛ بل نقتني الحكمة في الحال ومنذ البداية، التي (تُعتبر) هذه الكلمات حصيلتها.

٧ – وهناك أمرٌ إذا ظهر فهو علامة سيئة: أن يبدأ الإنسان بإهمال قانون خدمة الأوقات دون ضرورة تغصبه لذلك. أمَّا إن كانت الصلاة هي التي جذبت الشخص لإهمال هذه الأوقات، وكان اضطرار وضغط خبرة الانجذاب الدائم في الصلاة هو الذي قاده إلى تركها، أو كان الانشغال الناشئ عن فيض السعادة التي تغمره في الصلاة، هو الذي يجعله يهمل وقت الخدمة، فإن ذلك الشخص يكون قد صادف تجارة مربحة جليلة، كنتيجة للتغيير الذي يجلبه ذلك الشيء المشتهى الذي وقع بين يديه، كما هو مكتوب أن «حبال المساحة وقعت لي في المواضع الفائقة» (مز١٦:٦). وهذا يكون جيداً، إن كان لا يترك خدمة الأوقات نتيجة لرأي جاهل أو عن ازدراء، بل لأن لذة الفرح الذي يجده في الصلاة هي التي تضبطه نتيجة ضغط الحب الإلهي. لأن هذا (الحب) هو بالنهاية تكميل جميع عبادتنا التقوية الذي لا يُحد ولا يقع تحت قانون. وإن حدثت للإنسان هذه الأمور بصفة مستمرة، تكون علامة المواهب الإلهية والباب المفتوح بسعة الذي يقوده إلى نقاوة الصلاة؛ وبخاصة إن كان يُظهر في نفسه ترتيباً خارجياً وقوراً، وخشية وتخشعاً كثيراً أثناء الصلاة. حينئذ يُرفع ذلك الإنسان سريعاً إلى مرتبة الكمال.

٨ – ولكن إذا قرر شخصٌ ما أن يترك ما يخصه قبل كل شيء، دون أن يجد ما سوف يأتي فيما بعد، فيكون من الواضح تماماً أن الشياطين قد سخرت به؛ ومن خلال فعلهم هو عتيد أن يسقط تماماً من حياته؛ لأنه من الآن فصاعداً يبدأ الانحدار في الطريق إلى أسفل.

٩ – كما ويجب أن نكون على دراية أيضاً بهذا الأمر: أن البحث عن هذه الأمور لا يناسب المبتدئين حتى ولو كانوا على جانب كبير من التعليم. وهذا ينطبق أيضاً على الذين يريدون أن يدركوا هذه الأمور في نفوسهم دون أن يقتنوا أولاً يقظة شديدة مع المعرفة التي تكون من السكون.

١٠ – جمع العقل والنقاوة في الصلاة[٨٤]، لا يمكن أن يكونا بدون الاحتراس الكثير في الكلام والأعمال، مع حفظ الحواس. كما أن المعرفة التي تمنحها النعمة لا تأتي ما لم يقتنِ الإنسان الإفراز الكثير بواسطة السكون.

[٨٤] الجزء الأول ص ٢٠٣ ف ١٦ – ٢٠ من النسخة المنقحة.

١١ – وبحسب الكرامة التي يظهرها الإنسان في شخصه تجاه الله أثناء الصلاة بجسده وعقله كليهما، هكذا ينفتح له الباب لقبول المعونة، ويقوده إلى تطهير الحركات والاستنارة في الصلاة.

١٢ – من يُظهر الحشمة والتوقير أثناء الصلاة، إذ يبسط يديه نحو السماء ويقف بوداعة، أو يقع على وجهه على الأرض، يُحسب أهلاً لنعمة عظيمة من العلاء من أجل هذه الأفعال المتضعة.

ومن يزين صلاته على الدوام بمثل هذا الزي الخارجي يؤهل سريعاً لفعل الرُّوح الْقُدُس، من أجل أنه يعظم الرب في عينيه بالوقار والتكريم الذي يظهره في الذبائح التي يقدمها أمَّام الرب في الأوقات التي حُددت له بناموس الحرية.

١٣ – ينبغي أن تعلموا، يا اخوتي، أن الله يطلب كثيراً جداً أن نُظهر في عبادتنا الزي الخارجي الحسن، وأنواع التوقير والتكريم اللائق، والأشكال الظاهرة في الصلاة؛ ليس من أجله، بل من أجل منفعتنا نحن. لأنه هو نفسه لا ينتفع من أشياء مثل هذه، ولا يفقد شيئاً إذا نحن أهملناها؛ بل إنـها بالأحرى تكون من أجل طبيعتنا الضعيفة. ولو لم تكن ضرورية، لَمَا اتخذ لنفسه مثل هذه الأشكال في تجسده، وهكذا تكلم معنا في الأسفار المقدسة.

إن الله لا يُنقص من عظمته شيء، لأن مجده هو له بطبيعته الخاصة. أمَّا نحن، فبسبب عاداتنا العادمة الحشمة، وسائر أنواع أعمالنا الخارجية التي ينقصها التوقير، نقتني هيئة للعقل تـهين الله. ولهذا نسقط من نعمة حرية إرادتنا، إذ نصير خاضعين للانحراف: عندئذ تقتحمنا الشياطين بـهجماتـهم وخداعهم دون توقف، لأننا نقتني لأنفسنا طبيعة تحب الرَّاحَة والاتساع، وتستسلم بسهولة لأفعال الشر.

١٤ – كثيرون قد استهانوا بـهذه الأشكال الخارجية وزلوا بأفكارهم معتبرين أن الصلاة في القلب تكفي لله؛ ويدَّعون أنـهم إذا كانوا مضجعين على ظهورهم أو جالسين في أوضاع عادمة الاحترام، فيكفي أن يكون لهم فقط تذكار داخلي لله:؛ ولا يهتمون على الإطلاق بتزيين الجانب المرئي من عبادتـهم بالوقوف المستمر حسب قوة أجسادهم، أو برسم علامة الصليب الموقر على حواسهم. كما أنـهم لا يعتنون، حين يسجدون على الأرض، أن يعملوا ذلك برعدة كمن يتقدم إلى لهيب نار، ويتخذوا لأنفسهم من الداخل والخارج معاً صورة التوقير والخشية، أو يقدموا للرب توقيراً خاصاً ويكرموه بكل أعضائهم والخشية والحياء على وجوههم. وهذا يكون لهم لأنـهم لم يفطنوا إلى قوة العدو، ومن هاهنا أُسلموا لأفعال النفاق، ولم يفهموا أنـهم ما زالوا مائتين وقابلين للميالة بحركة نفوسهم التي صارت خاضعة للانحراف؛ وهم لم يتحققوا من أنـهم لم يبلغوا درجة الكائنات الرُّوحية، أو أن القيامة لم تحدث بعد، وأنـهم لم يدركوا بعد حالة عدم التغير. فبينما هم في حياة الجسد، حيث تحتاج الطبيعة الجسدية للجهاد والتدرب بمداومة بأشياء كثيرة، أرادوا أن يقودوا حياتـهم في حالة روحية بحتة، دون أن يهتموا بتلك الأمور التي تُقيّد بالضرورة العالم الخاضع للآلام كل الأيام. وفيما يظنون أنـهم حكماء، تصرفوا

بقلة احترام، حيث أظهروا علامة كبريائهم وعدم احترامهم لله في أعمالهم. ولهذا ضاعفوا هلاكهم من قِبل صلاتهم – التي هي في الحقيقة مصدر كل حياة – وهذا لأنهم تصوروا أنه يمكنهم أن يقدموا قلة احترامٍ لذاك المجد الأسنى الذي لا يلحقه أي تحقير، والذي ينبغي أن تكرمه وتمجده جميع الكائنات المخلوقة.

١٥ ـ ولسنا نغصب المرضى أو الضعفاء لكي يلتزموا بقانون، كما ولسنا نقول إنه ينبغي أن يُخضع الإنسان نفسه لما هو غير مستطاع. فكل شيء يُعمل بوقار ورعدة، تحت اضطرار الظروف، يراه الله كتقدمة مختارة، حتى ولو خرج عن حد القانون. وهو لا يلوم الشخص الذي يعمل هكذا؛ وليس هذا فحسب، بل إنه يقبل بمسرة تلك الأشياء الحقيرة الطفيفة التي تُعمل لأجله بنيّة جيدة كالأشياء الْعَظِيمة الكاملة تماماً. فحتى وإن كانت ملومة، فهي تُحمل بالرحمة، ويُغفر لفاعلها دون أي ملامة من قِبل الله العالم بكل شيء، الذي كل الأشياء مكشوفة لديه من قبل أن تحدث، والذي يعرف ضروريات طبيعتنا من قبل أن يخلقنا. لأن الله الصالح والرحوم لا يدين ضعفات ونقائص الطبيعة البشرية، أو الأعمال التي تُعمل عن اضطرار حتى ولو كانت تستوجب اللوم، لكنه يدين على الأعمال المستطاعة لدينا إذا احتُقرت وأُهملت منا. إنه لا يدين على ميالة الطبيعة البشرية نحو أي شيء، حتى ولو أنها قد تؤدي إلى خطية عظيمة عارضة تحت تأثيرها، ولكنه يدين على الفعل الذي تنتهي إليه، ويؤدب بالعدل، لعلمه أن ذلك سيقود إلى الندم وحزن الضمير وإلى تقديم عمل توبة، حتى ولو تكررت الأشياء نفسها ربوة من المرات.

١٦ – وهذا يكون بالأكثر إذا لم يسلّم الإنسان نفسه بالكمال للهلاك: فالحزن يؤثر فيه حين يرى القيود التي استعبدته وهي تقوده إلى حيث لا يعرف، فيرذل نفسه ويرغب في تقويم سيرته، يدفعه إلى ذلك حزنه على نقائصه أو على زلاته.

١٧ – مثل هذا الإنسان لا ترذله المشيئة الإلهية التي تكمل كل شيء، وليس هذا فحسب بل وبدون أدنى شك، فهو يكون قريباً من الرحمة.

وإن كنا قد تكلمنا بهذا كله، لكننا نلوم الذين يفسدون ترتيب الصلاة بعنادهم، إذ أنهم بحماقة فكرهم يتصورون أنهم صاروا كاملين، وبمعرفة زائفة يخترعون لأنفسهم شيئاً أو آخر بجهالة.

١٨ – إن القلب يقتني حرية أعظم في الحديث مع الله في الصلاة أكثر مما يفعل أثناء خدمة الأوقات. ولكن الإهمال التام للخدمة يقود للكبرياء؛ وبسبب الكبرياء يبتعد الإنسان عن الله. والحقيقة أن الإنسان حين يغصب نفسه للخضوع للقانون – في الوقت الذي يكون فيه حراً تماماً في تَدْبِيره – فهذا يحفظ نفسه متواضعاً، ولا يعطي لشيطان الكبرياء أية فرصة ليعرض له الأفكار الشريرة. وإذ يداوم على اعتبار نفسه أنه حقير وغير قادر على الحرية، فإنه يتضع ويمكنه بذلك أن يُخضع أي فكر من أفكار الكبرياء. فليس هناك لجام أكثر فاعلية من هذا يضعه الإنسان في فم العقل الذي يُعظم نفسه.

١٩ – وهذا هو السبب في أن الآباء القديسين، رغم أنـهم كانوا يقتنون الصلاة الدائمة، وكانوا ممتلئين من الرُّوح، ولم يتوقفوا أبداً لحظة وَاحِدة عن الصلاة؛ إلا أنـهم كانوا يهتمون بالترتيب الموضوع لكل وقت على حدة، والعدد المحدد للصَلَوَات بما في ذلك مشاركة الجسد التي تتمثل في السجود، ويلاحظون ذلك ليس في خدمة الأوقات فقط، بل وأيضاً في تلك الصلاة (الدائمة)؛ وكانوا يعملون هذا كله بموجب القانون الذي قرروه لأنفسهم.

٢٠ – ولم يكن عن غير هدف أن هؤلاء الآباء وضعوا على أنفسهم في بعض الأحوال مائة صلاة، وفي حالات أخرى خمسين أو ستين..، مع أنـهم كانوا قد صاروا بكلّيّتَهم مذابح للصلاة. فلماذا كانت الأعداد المحددة ضرورية إلى هذا الحد، رغم أنـهم لم ينقطعوا عن الصلاة أبداً؟

٢١ – لقد قيل عن أوغريس أنه كانت له مائة صلاة، والقديس مقاريوس ستون، وأنبا موسى الأسود خمسون، بينما ذلك المتوحد الْعَظِيم بولا كانت له ثلاثمائة، وهكذا.

٢٢ – إن السبب الذي جعل هؤلاء الآباء القديسين يغصبون أنفسهم، مثل العبيد أن يحفظوا بحرص واجتهاد مثل هذه القوانين هو الخوف من الكبرياء. لقد كانوا يحفظون هذه الأعداد المحددة من الصَلَوَات وما يصاحبها من تعب الجسد الذي يتضمن الأعمال الخاصة بالعبادة مع السجود أمَّام الصليب. وتلك الأعداد المحددة من الصَلَوَات التي نُسبت إليهم لم تكن مجرد صَلَوَات تُرفع في القلب فقط كما يقول عنهم اللائمون من أصحاب معتقدات جماعة المصلّين الذين يقولون إن الأشكال الخارجية للعبادة ليست لازمة.

٢٣ – حاشا أن يكون هذا هو رأي الآباء القديسين، وليس قصدنا هنا أن نوجه اللوم أو ننتقد أخطاء الآخرين، فليست هذه عادتنا، فضلاً عن أننا لا نلوم الذين يصنعون هكذا؛ ولكن لأننا مزمعون أن نتكلم عن الحق ونظهره، فما لم يُستعلن ويوبّخ أولاً الزيف والضلال، لا يمكن للإنسان أن يتيقن من الحق أو يثبّته في نفسه برأي واضح ومحدد بالحب، أو يكون حذراً مما هو ضده. فحتى الذين يسافرون على طريق مستقيم تجدهم يسيرون باطمئنان أكثر متى صار الطريق الذي يؤدي إلى الضلالة واضحاً أمَّامهم.

٢٤ – فأعمال العبادة هذه التي للآباء كانت حقيقية، وبواسطتها بوجه خاص كانت تحتفظ النفس بالاتضاع. لقد كانوا يمارسونـها بأكملها، ويهتمون بالوقوف كلما قاموا بـها – طالما لم يمنعهم عن ذلك أي ضعف جسدي – بتوقير عظيم واتضاع قلبي عميق، وبالوقوع على وجوههم أمَّام الصليب. وهذه الأشكال المختلفة من أعمال العبادة، كانت تفترق عن تلك التي كانت تُقدم من القلب. فهم في كل مرة يقفون فيها كانوا يقومون بالكثير من أعمال العبادة، وكانت أجسادهم تساعدهم على ذلك بقدر ما كانت تسمح به إمكانياتـهم، وكانوا يقبّلون الصليب خمس مرات أو عشر، ويحتسبون كل عمل منها وكل تقبيل للصليب صلاة وَاحِدة. وأثناء مثل هذه الأعمال قد يكتشف الوَاحِد بغتة جوهرة ثمينة في صلاة وَاحِدة تقوم موضع جميع (الأعمال) الأخرى. فقد يحدث إذ يكون الإنسان واقفاً على قدميه أو ساجداً، أن يُمسك عقله بدهش الصلاة – وهذه الحالة لا تقع تحت سلطان إرادة اللحم والدم أو حركات النفس – أو قد يوجد في إحدى حالات نقاوة الصلاة التي سوف نشرحها فيما بعد.

٢٥ – وعلى هذا النمط كان الآباء يقدمون أعداد صَلَوَاتـهم الكثيرة كما شرحت. وليس الأمر – كما يظن الكثيرون وكما يدّعي آخرون أيضاً – أنـهم كانوا يخصصون وقتاً محدداً للوقوف في كل صلاة على حدة؛ وذلك لأن الجسد الهزيل لا يقدر أن يقف في كل صلاة بمفردها هذا العدد الكبير من المرات. فلو أنه كان لا بد أن يقوم الإنسان من مكانه مائة مرة في اليوم أو ستين أو خمسين، هذا إذا لم نقل ثلاثمائة أو أكثر كما كانت عادة بعض القديسين، لَمَا أمكن تكميل كل هذه الصَلَوَات؛ كما أنه ما كان يتبقى وقت للقراءة أو لأي الاحتياجات الأخرى. وكذلك ما كانت تتوفر الفرص للصَلَوَات الطويلة إن حدث وحظي الشخص من النعمة بموهبة الدموع في الصلاة، أو بنقاوة الحركات التي تجتذب صلاته، كما هو الحال مع الذين استحقوا إحدى مواهب النعمة في مثل تلك الأوقات، بل عوضاً عن ذلك تصير خدمة مثل ذلك الشخص مشوشة ويمتلئ اضطراباً في كل ما يعمله.

٢٦ – وإذا لم يصدق أحد هذا، فليختبر هذا الأمر بنفسه ويرى إن كان يقدر أن يقوم بـهدوء من مكانه خمسون مرة في اليوم – لسنا نقول مائة مرة أو مائتين – دون أن يضطرب في نفسه وتظل صلاته هادئة ويكمل خدمته وقراءته المحددة في الكِتَاب المقدس، والتي تحتسب جزءاً كبيراً من الصلاة، بلا أي قلق أو انزعاج. فهل يستطيع أن يعمل ذلك لمدة سَبْعةً أيام متوالية، فما بالك إن كان يعمل ذلك كل أيام حياته؟

٢٧ – قد توجد في بعض الأحيان مواهب جزئية في الصلاة، مثل فيض الدموع، ووفرة الفرح النابع في القلب مثل العسل من قرص الشهد؛ أو تدفق الشكر الذي يُسكت اللسان مع مسكنة الفرح؛ أو قد تكون حركة الرجاء تتحرك فجأة أثناء الصلاة؛ أو تأمل في العناية الإلهية كالذي ينشأ عادة سواء من الصلاة نفسها أو من تذكر ما يكون قد قرأه قبل ذلك مباشرة. وهذا النوع من التأمل قد يدوم لعدة ساعات بينما يكون الإنسان مُلقى على وجهه مأخوذاً بتلك الحالات المتوالية التي تخص موهبة نقاوة الصلاة وما يصاحبها من المباهج والمسرات. أو قد يحدث حين يكون الإنسان واقفاً أو راكعاً. مثل هذه الأشياء تعرَّف لدى الآباء بنقاوة الصلاة وليس بتنعم الذهن. وهذه الأخيرة هي موهبة شاملة، وهي خلاصة الأعمال (الإلهية) التي تُمنح للكاملين. أمَّا هذه المواهب الجزئية فتُعطى للذين هم في المرحلة المتوسطة مثلما تُعطى للمتقدمين أثناء بقية وقت صلاتـهم. وهي تختص بالعالم الطبيعي، وتُمنح وفقاً لليقظة والمثابرة، بينما الموهبة الأخرى تفوق الطبيعية.

٢٨ – والمواهب مثل الاستنارة بالتأمل والفهم الدقيق لآيات الكِتَاب المقدس، هي بالنسبة لذهن القديسين – أثناء الصلاة وخدمة الأوقات – بمثابة حبل يجذب الذهن العاري من الطياشة ويقربه من الله. وبغيرها لا توجد وسيلة أخرى ناجعة تجعل الذهن يتوقف عن الأفكار الخارجية ويجمع نفسه من التشتت أثناء الخدمة وفي الصلاة، إلا إذا كان الإنسان يتبع أولئك الذين يعلّمون أنه ينبغي أن نترك التأمل الإلهي والبحث عن معاني الآيات، بينما يجعلون عقولهم تشرد في التصورات، وكأنما قد امتلكوا القدرة على هذا الشيء الذي يفوق إمكانية العلمانيين.

٢٩ – أمَّا ما يعرض من استنارة الأفكار أثناء الصلاة، كنتيجة لبعض الحركات أثناء الأسرار الإلهية، فهو شيء ينقص معظم الناس، ولا يوجد فقط سوى عند القليلين، لكونه يحتاج إلى السكون وإلى يقظة عظيمة ونقاوة الذهن. أمَّا تصورات العقل والقدرة على ربط الفكر بأي صورة أو خيال، فهو في متناول يد الشخص العلماني أيضاً؛ إذ أنه لا يحتاج إلى النقاوة أو السكون أو سكنى البرية. فلو كان هؤلاء الناس على صواب، فما هو الهدف من كل تعب السيرة التوحدية والنقاوة من "العالم"؛ أو من استنارة الأفكار التي تنشأ من أوقات الصلاة؟ سيكون تحمّلنا لهذا كله بغير هدف، وتكون جميع أتعابنا باطلة، إن كان موضوع رجائنا ينحصر فقط فيما هو في مقدور الشخص العلماني إدراكه رغم انشغاله وارتباطه بزوجة وأولاد.

٣٠ – الرؤية الحقيقية ليَسُوع الْمَسِيح رَبِّنَا، تكون بتحققنا معنى تجسده من أجلنا والسُكر بمحبته كنتيجة للأفهام الكثيرة لِما تحتويه هذه الرؤية من أمور عجيبة حقاً.

٣١ – خدمة الأبصلمودية هي قانون يخضع النفس لاتضاع العبودية.

٣٢ – في هذا القانون توجد الحرية، وفي الحرية يوجد قانون. والبعض يُختبرون ويتزكون كنتيجة للقانون، والبعض الآخر كنتيجة للحرية التي تتولد من القانون.

٣٣ – قد يقتني الوَاحِد تقدماً أكثر في الحرية مما لو كان خاضعاً للقانون. إلا أنه كثيراً ما تتفرع عن الحرية سبلٌ كثيرة تقود إلى الخطأ؛ لأنه في الحرية تتخفى أنواع كثيرة من السقطات، بينما في القانون لا مجال مطلقاً لأن يضل أحد. فالذين يثبتون تحت نير أي قانون ينقادون للسقوط فقط متى أهملوا القانون واستهانوا به. ولهذا فالقديسون القدامى الذين أكملوا سيرتهم دون أن يضلوا، كانوا يضبطون أنفسهم بواسطة القانون. وكثيرون تركوا متطلبات قانونهم؛ ومع أنهم أضافوا إلى جهادهم أعمالاً أكثر مما هو موضوع لهم، إلا أن أتعابهم التي زادوها لم تمنعهم من الوقوع بين أيدي الشياطين، طالما أنهم قد تركوا قانونهم. ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا، لأن أخبار هؤلاء الأشخاص تضيء أكثر من أشعة الشمس لإنارتنا.

٣٤ – يوجد قانون يشتمل على الحرية، وقانون للعبيد. أمَّا القانون الذي يستعبد، فيقول: "سوف أتلو كذا وكذا مزمور في كل خدمة، وفي كل وقت من أوقات الصلاة أقول نفس العدد المحدد". مثل هذا الإنسان يكون مرتبطاً بالتزام غير قابل للتغيير بهذه المَزَامِير نفسها جميع أيامه؛ وهذا لأنه ربط نفسه بضرورة الالتزام بحدود العدد والطول ونوع المَزَامِير التي حددها وقطع على نفسه بها. وهذا في جملته بعيدٌ تماماً عن سبيل المعرفة الحقيقية؛ لأن مثل هذا الشخص لم يأخذ في الاعتبار لا عمل النعمة ولا ضعف الطبيعة أو خطر القتالات المتعددة. إذ في الحالة الأَولى قد تُعطي النعمة حتى أنه يضطر أن يتأخر أكثر مما وضع لنفسه؛ وفي الحالة الثَّانِية قد يتبين ضعف الطبيعة الشديد وعجزها عن تكميل القانون تحت ضغط صعوبة قتال الشياطين الذين يهاجمونه، وهذا يكون – بصفة خاصة – بهدف قمع الكبرياء.

٣٥ – أمَّا ناموس الحرية، فيكون بحفظ دائم للسَبْعةً أوقات التي رُسمت لسيرتنا الطاهرة من قِبل الكنيسة المقدسة على أيدي الآباء المجتمعين بالرُّوح الْقُدُس في المجمع المقدس (بنيقية). وحاشا لنا نحن المتوحدين ألا نكون خاضعين للكنيسة ورؤسائها وقوانينها. ولأجل هذا نحفظ بتدقيق ترتيب السَبْعةً أوقات حسبما وضعته الكنيسة لنا كبنين لها. ومع ذلك، فهذا لا يعني أنه يجب على الإنسان أن يلتزم في كل صلاة بالعدد المحدد من المَزَامِير، أو أن يحدد عدداً ثابتاً من الصَلَوَات يصلي بـها بين هذه الأوقات بالليل والنهار، أو يحدد فترة معينة لكل صلاة من هذه الصَلَوَات أو يلتزم بكلمات معينة يقولها. بل بالأحرى ينبغي له أن يثبت في كل صلاة على قدر القوة التي تكون من النعمة، ويطلب بحسب ما تلح به الحاجة في تلك اللحظة، ويصلي بأي صلاة يتحرك بـها. فإذا صلى مثل هذا الإنسان (بـهذا الأسلوب) يكون بالأكثر عقله منجمعاً وغير مشتت، بسبب لذة هذا النوع من الصلاة. وعليه في مثل هذه الصَلَوَات أن يوازن بين طلبته وقوة الطبيعة البشرية والحكمة التي يمنحها له الرب.

٣٦ – وإذ قال أحد إنه ينبغي أن نتلو الصلاة التي نطق بـها مخلصنا في جميع صَلَوَاتنا مستخدمين الكلمات نفسها، ونلتزم بترتيبها بدقة، وبغض النظر عن معانيها، فمثل هذا الإنسان ناقص الفهم جداً بالنسبة للغاية التي من أجلها نطق مخلصنا بـهذه الصلاة، كما أنه لم يتعرف على الإطلاق على شرح "المفسر المبارك". إن رَبِّنَا لم يعلمنا هنا تسلسلاً معيناً للكلمات، بل إن التعليم الذي يقدمه لنا في هذه الصلاة يُقصد منه أن يُعرِّفنا ما الذي ينبغي أن نركز نظر أذهاننا عليه طوال مسيرة هذه الحياة كلها. فهو قد أعطانا المعنى والمضمون وليس ترتيب كلام نتلوه بشفاهنا فقط.

٣٧ – فهكذا كلما وضعنا هذه الصلاة أمَّام أذهاننا كهدف نسعى لتحقيقه، سوف نصلي حينئذ متتبعين معانيها، ونوجه كل حركات صلاتنا بما يتفق معه، إذ نطلب ملكوت الله وبّره، أو كما هو الحال في بعض الأحيان، نطلب النجاة من التجارب، وأوقاتاً أخرى نطلب من أجل حاجات طبيعتنا البشرية – أي قوت يومنا؛ وبالمثل في بقية الأمور نطلب ما يتناسب مع الأهداف التي قدمها لنا الرب، وعرّفنا ما الذي ينبغي أن نصلي من أجله. ولهذا ينبغي أن نستلهم صلاتنا من معناها؛ كما وينبغي حين نصلي أن نوجه أنفسنا لنكون في توافق دقيق مع هذه الصلاة التي علمنا إياها الرب.

٣٨ – بـهذا المعنى فهم المستنيرون والذين وُهبوا بصيرة نيّرة هذا التقليد المسلّم لنا من رَبِّنَا على شكل صلاة؛ ولهذا فهُم لم يعتنوا بترتيب الكلمات. كما أن رَبِّنَا في الحقيقة لم يكن مهتماً هنا بالترتيب المحدد للكلمات حين قدم لنا التعليم المناسب لمنطوق الصلاة، وغرس البصيرة في أذهان تلاميذه. فقد كان يقصد أن يعلمنا ألا نخلط صَلَوَاتنا – كما يفعل الأمم – بكل أنواع الأمور الأخرى المخالفة لوصاياه.

٣٩ – إنـها عقلية طفولية، تلك التي تبحث وتـهتم بالترتيب الدقيق للكلمات دون أن تركز أنظارها على معانيها التي منها تنبثق الصَلَوَات والطلبات والتأملات التي تناسب جيداً سيرة

العالم الجديد. ولذلك فإن تغيير الشكل الخارجي لكلمات الصلاة التي سلمها لنا رَبَّنَا لا يفرق شيئاً، طالما أن صلاتنا تنبع من معناها، وأن الذهن يتابع ذلك المعنى.

٤٠ – إن كل اهتمامي بالنسبة لكل من يحب التعليم هو أن يُحفظ من أية مضرة. وأعني بذلك أن كل من ينشغل بتفهم المعنى الحقيقي للأسفار الإلهية ينبغي ألا يعثر في شيء، ويعتبر الأشياء الضارة كأنها مفيدة، أو يفهم شيئاً على أساس شكله الخارجي البسيط وحده.

٤١ – فحين تسمع أخباراً عن بعض المتوحدين وكيف تأذوا بهذا الأمر أو ذاك في الصلاة الدائمة؛ أو أن بعضاً منهم قد أضلتهم الشياطين لأنهم رذلوا المَزَامِير، أو أنهم لم يعملوا شيئاً آخر سوى أن يصلوا باستمرار، وبعد ذلك تجد كثيرين منهم قد أدركتهم الأذية أو سخرت منهم الخيالات وما إلى ذلك، فلا تنزعج أو تضطرب لأنك سمعت أخباراً سطحية، ولا تنقدْ إلى الشك من جهة الأمور النافعة لتقويم فساد أحوالنا.

٤٢ – فالصلاة الدائمة ليست هي سبب الضلالة، ولا ترك بعض المَزَامِير، إن كان ذلك لسبب معقول؛ ولا يصل بنا الأمر إلى أن نعتبر الصلاة – التي هي مصدر الحياة، وما يتصل بها من أعمال – كأنها أمور تقود إلى الخطأ. بل إن الضلالة قد عرضت للبعض حين تركوا أشكال الصلاة الظاهرية المملوءة تقوى وخشوعاً، واستبدلوها بقوانينهم وعاداتهم الخاصة التي وضعوها لأنفسهم حسب هواهم الشخصي، وحين حرموا أنفسهم نهائياً من الأسرار الإلهية ورذلوها مستخفين بها. وفضلاً عن ذلك، حين حرموا أنفسهم من نور الأسفار الإلهية، وتوقفوا عن دراسة تعاليم الآباء التي تقدم النصائح بخصوص أساليب الحرب مقابل الشياطين؛ وحين تركوا عنهم سائر أعمال التواضع والسجدات والوقوع الدائم على الأرض، وحزن القلب ومظاهر الخشوع المناسبة للصلاة: من الوقوف بمسكنة وبأيدي مضمومة بأسلوب متخشع أو مبسوطة نحو السماء، وبمشاعر التوقير أثناء الصلاة. ولكنهم بدلاً من ذلك تمسكوا بأشكال الكبرياء المتنوعة التي امتزجت بصَلَوَاتهم وحولتها إلى إهانة لله؛ فقد صحبت صَلَوَاتهم مظاهر التشامخ، نسوا عظمة رفعة ومجد الطبيعة الإلهية، وأن طبيعتهم الخاصة ليست سوى تراب، مع أنه في كل هذا لم تختلف كلمات صَلَوَاتهم عن كلمات المَزَامِير.

٤٣ – والحقيقة، إن أغلب الصَلَوَات تتركب من كلمات منتخبة من المَزَامِير تحتوي على خواطر ومشاعر الحزن والتضرع، أو الشكر والتسبيح. وهكذا قد يحدث حين يكون الإنسان راكعاً ووجهه إلى أسفل، أو يداه ونظرته مرتفعة نحو السماء، وبذلك يضيف المشاعر إلى الكلمات ويكررها ببطء. وقد يعرض أن هذه المشاعر وحزن القلب تستلهم كل أنواع التعبيرات العميقة في كلمات الصلاة؛ أو أن الفرح الذي ينبع كاستجابة لشيء ما، يحرك هذا الشخص لكي يحول صلاته إلى تسابيح بسبب البهجة التي يشعر بها عقله. والأمر ينطبق بالمثل على الحركات الأخرى التي تحتويها الصلاة؛ ويحركها الرُّوح الْقُدُس في القديسين، ويكون النطق بها أسراراً وأفهاماً تفوق الوصف. وحين يبدو على مظهرهم الخارجي أية علامة تدل على الأفهام التي يحظون بها، يكون هذا دليلاً على ما يقبله القديسون من أسرار ومعرفة كاملة أثناء

صَلَوَاتـهم من خلال حكمة الرُّوح.

٤٤ – والإنسان أمَّا أن يقترب من الله أو يسقط بعيداً عن الحق؛ وهذا يعتمد على الاتجاه الذي يهدف إليه عقله، وليس على الأوصاف الخارجية لما يقوم به أو يهمل فيه. فإن كثيرين من الآباء الأَوَّلين – أعني بعض المتوحدين الكبار – كانوا لا يعرفون حتى المَزَامِير، ومع ذلك كانت صَلَوَاتـهم تصعد إلى الله مثل نار، من أجل جودة سيرتـهم واتضاع العقل الذي اقتنوه. وكانت كلماتـهم تطرد الشياطين كالذباب الذي يختفي طنينه عند اقترابـهم.

إلا أن كثيرين مع ذلك، اتخذوا الصلاة حجة للتهاون والكبرياء، وفشلوا في اقتناء النصيب الصالح، بل وفقدوا أيضاً ما كان لهم. فمع أنه لم يكن في أيديهم شيء، تصوروا أنـهم قد اقتنوا الكمال. وآخرون ظنوا أن مجرد التعليم الأَوَّلي الذي حصلوا عليه يكفي لكي يمكنهم من اكتشاف معرفة الحق مستندين إلى الثقافة العلمانية والقراءة العادية، ولهذا سقطوا من الحق، وفشلوا في إخضاع نفوسهم لكي ما يمكنهم القيام مرة أخرى.

٤٥ – إذا أُكملت الصلاة مع أشكالها الخارجية، فإن هذا يكون تكميلاً ليس لترتيل المَزَامِير فحسب، بل وتكميلاً لجميع الفضائل أيضاً. ولكي لا يكون سماعنا لهذا الكلام كأنما هو أمر عادي، دعنا نفحص ونتعلم الحق بالبحث الدقيق.

٤٦ – أَخْبرني، يا أخي، لو أن شخصاً ما مكث زهاء ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام ساجداً أمَّام الصليب، كما فعل بعض الآباء، أو أنه حظي بموهبة الدموع أثناء الخدمة – الأمر الذي اختبره أغلب الاخوة المحقون – تلك الدموع التي تغصب الأخ من غزارتـها حتى لا يعود قادراً أن يكمل خدمته مهما جاهد بشدة لكي يستمر فيها، ويضطره الأمر أن يترك الخدمة من أجل كثرة البكاء، إذ يكون مثل شخص قائم من الأعماق، وصار جسده كما لو كان نبعاً للدموع التي تنشأ عن تنهد القلب بسبب تلك النعمة التي تحركت فيه؛ فهو يغتسل بالدموع، وإذ يسكت لسانه تحت تأثير نوع خاص من الفرح، تنسكب الدموع وتبلل وجهه، بسبب الأفهام العجيبة التي تعرض له، بينما تتهلل نفسه وتمتلئ برجاء يفوق الوصف.

٤٧ – فهل تعتبر ذلك، يا أخي، بطالةً أن تُترك الخدمة في هذه الغيارات العالية، مع الأشياء الأخرى المتنوعة التي تحصل للمتوحدين وهم قائمون يصلون خدمة الأوقات، والتي لا يُسمح بالكشف عن جميعها؟ وما قلته ينطبق على ترتيل المَزَامِير، حين يُبتلع الذهن بنقاوة الصلاة؛ ولكنه لا ينطبق بأي حال على ما يحدث بعقلية جماعة المصلين الخرفة، أو بسبب الكسل والفتور. وإن خدمة الأوقات هذه يجب أن نعتبرها عملاً كاملاً؛ لأننا نقترب فيها للمعونة التي تأتي من النعمة.

٤٨ – فليجعلنا الله مستحقين لمذاقة نعمته كل حين؛ لأننا بـها ندنو من العجب المحيط به، بفضل إدراك عظمة جلاله، أثناء خدمتنا وصَلَوَاتنا. وليمنحنا حكمة أسراره، لأننا بـها ننفصل عن العالم ونتحد بحبه؛ بصَلَوَات آبائنا الذين سلكوا هذا الطريق وأرضوه بخدمتهم الصالحة أمَّامه. آمين

المَيْمَر الْخَامِس عشر

فصل يبين بإتقان ويشرح بوضوح ما هي الصلاة النقية التي بلا طياشة

١ – إذا ما ثبَّت الإنسان الحكيم وجهه نحو السعي في طلب شيء ضروري ولازم، وابتدأ يجاهد من أجل اقتنائه باشتياق ومحبة، ينبغي عليه ألا يعتمد على مجرد السماع عنه، أو يندفع لكي يحصل عليه دون فحص زائد، من غير أن يكون قد عرف أولاً ما هو هذا الشيء وما هي هيئته. وإلا فإنه إذا وقع بين يديه بالفعل فقد يضيعه بسهولة لعدم معرفته به. فلهذا يحتاج أن يسعى بكل اهتمام للحصول على معرفة وفهم لذلك الشيء، بمعرفة لا تحتمل الخطأ. ومتى عرف ما هو هذا الشيء وما هي صفته، فهو سيعرف كيف يهتم باقتنائه. كما ويجب أن يعرف بالتدقيق ما الذي يسعى في طلبه، وما هو الذي يأمله؛ وذلك لئلا يركز كل أمَّاله في أمور مستحيلة، وليس في حقيقة ما هو في متناول يده مما يمكن إدراكه.

٢ – اعلم، أيُّها الأخ المتتلمذ للحق، أن نقاوة الصلاة وجمع العقل الذي يكون فيها، هو هذيذ الفضيلة الحقيقي الذي ننشغل به باهتمام في وقت الصلاة. وكما أن نقاوة القلب التي يحثنا الآباء بخصوصها باجتهاد، ليس المقصود منها أن يكون الإنسان بدون أي تذكار أو تصور أو حركة مطلقاً، بل في الحقيقة تعني أن يكون القلب طاهراً من الشرور، يرى كل شيء حسناً، ويفكر فيه من وجهة نظر الله إليه. وهكذا أيضاً بالنسبة للصلاة النقية التي بلا طياشة؛ فهي لا تعني أن يكون العقل خالياً تماماً من أي فكر أو طياشة من أي نوع، بل أن لا يطيش في الأمور الفارغة أثناء الصلاة. فليس إنه إذا طاش العقل في شيء صالح يكون قد ابتعد حينئذ عن نقاوة الصلاة، بل إنه يمعن النظر في أمور لائقة ويفكر أفكاراً مرضية لله في وقت الصلاة. وليس هو مطلوباً من الإنسان أن لا تأتي إليه أية تذكارات باطلة على الإطلاق حين يصلي، بل أن لا يلتفت إليها (إذا أتت) ولا يطيش فيها أو ينشغل بـها.

٣ – لأنه توجد طياشة رديئة وطياشة جيدة. فإذا كنت تصلي لا تطمع أن تكون متحرراً تماماً من طياشة العقل، لأن هذا أمر مستحيل، بل اجتهد أن تكون طياشته في أمر جيد. لأنه حتى الصلاة النقية نفسها تكون بالطياشة في شيء ما، إلا أن هذه الطياشة جيدة، بما أن السعي في طلب شيء صالح هو أمر جيد.

٤ – وتكون الطياشة رديئة حين يطيش الإنسان في أفكار فارغة أو يهذّ في أي أمر رديء، ويراعي أفكاراً سمجة وقت صلاته قدام الله.

٥ – وتكون الطياشة جيدة حين يهذ العقل بالله طول مدة صلاته، متأملاً في مجده وعظمته بالتأملات النابعة من تذكارات الكِتَاب المقدس، ومن أفهام الأقوال الإلهية والكلمات المقدسة التي للروح. لأن الذي يجاهد أن يمنع فكره من الطياشة في مثل هذه الأمور، أو يمنع عقله من التأمل فيها من تلقاء ذاته أثناء الصلاة، يكون في جهل مطبق إن ظن أن هذا النوع من الطياشة غريب وخارج عن حدود الصلاة النقية. لأن التذكارات النافعة التي قد تنبع من كتب الرُّوح وقت

الصلاة، وتتولد عنها التأملات والفهم الرُّوحي للأمور الإلهية، هذه لا نعتبرها غريبة عن نقاوة الصلاة أو معوّقة لجمع الفكر في الصلاة. وإن كان الإنسان يفحص ويفكر بأسلوب منجمع (بتركيز ذهني) في موضوع تضرعه وسؤال صلاته، فهذا هو نوع جيد من الصلاة، إن كان موافقاً لقصد وصايا رَبِّنَا. هذا النوع من جمع العقل هو جيد جداً.

٦ – وإذ ينطلق العقل من هذه الصلاة ويهيم بأمور إلهية، أو يتحرك فيه فكر جيد نابع من أفهام الكتب عن الله، سواء كانت أفكاراً خاصة له أو هي تخص عامة الناس، عن تدابير الله وأعمال عنايته بالكل، إن كانت تدابير يومية أو عامة، فهي كلها تحرك أعماق القلب إلى تمجيد الله، أو إلى الشكر والفرح من فرط تحننه ومحبته لنا؛ هذا النوع من الطياشة – إن حدث – يكون أفضل حتى من الصلاة! ومهما كانت صلاة أي شخص نقية ومرتفعة، فهذا هو بلوغ غاية كل نوع من أنواع جمع العقل ومحاسن الصلاة.

٧ – عند ما يكون العقل خالياً تماماً من كل فكر فهذا هو صمت العقل وليس نقاوة الصلاة. أن تصلي بنقاوة، هذا شيء، وأن يكون العقل صامتاً تماماً من أي طياشة أو فهم لكلام الصلاة، ويدوم بغير حركة، فهذا شيء يختلف عنه كلية. فلا يبلغ الجهل بأحد أن يطلب وجود هذا بواسطة الجهاد وبقوة إرادته؛ لأن هذه هي موهبة استعلان الذهن، وهي ليست في متناول الصلاة النقية، ولا هي تحت سلطان الإرادة.

٨ – وفيما عدا ذلك يكون بمقدور العقل أن يطيش بأحد النوعين اللذين ذكرناهما؛ سواء بالتفكير في طلباته أو بالتأمل في الكِتَاب المقدس، أو بالتأمل الحكيم في الله، رب الكل، بوعي وفهم عميق.

٩ – وإن فكر أحد بشيء آخر بالنسبة لنقاوة الأفكار وجمع العقل، وظن أن هناك وسائل أخرى لبلوغها، فقد صار عاجزاً في جهله، وأمسك بفكرٍ (عامي) خرافي.

١٠ – أمَّا أنت، أيُّها الأخ الحكيم، فلا تطلب من العقل عدم الحركة كما يفعل الجهلاء؛ لأن هذا الأمر لا يُطلب من الطبيعة البشرية. بل جاهد لكي تجد حركات صالحة أثناء الصلاة كما يفعل الحكماء. وهذه تشمل: التأمل في أفهام الرُّوح، والفكر الحكيم الذي يهتم وقت الصلاة أن يكون مُرضياً لإرادة خالق الكل؛ فهذه غاية كل فضيلة وكل صلاة.

١١ – فإذا أخذتَ في هذه الأمور تلك القوة التي تنبع من النعمة، لكي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحركاتها الدائمة، فسوف تصير "رجل الله"، وتصبح قريباً من الأمور الرُّوحية، وتدنو أيضاً من اقتناء ذلك الشيء الذي تشتهيه وأنت لا تعرفه، أي الإحساس بالله، ودهش العقل المتحرر من كل الصور، والصمت الرُّوحي الذي تكلم عنه الآباء. وطوباك إن أُهلت للفرح الْعَظِيم والبهجة التي في رَبِّنَا؛ الذي له المجد والتسبيح الدائم، وليكملنا بمعرفة أسراره، إلى الأبد، آمين.

المَيْمَر السَّادِس عشر

"التظليل" الإلهي

١ – مع أننا قد تكلمنا عن هذا الموضوع من قبل على قدر ما سمحت به الفرصة، إلا أننا لا نجد مانعاً من أن نتوسع في إيضاحه هنا أكثر.

٢ – "التظليل" تعبير يشير إلى المعونة والحماية، كما يشير أيضاً إلى تقبل عطية سماوية؛ مثلاً: «الرُّوح الْقُدُس يحل عليكِ وقوة العلي تظللك» (لو١:٣٥). والنوع الأَوَّل نراه في: «تمد يدك وتخلصني يمينك. الرب يحامي عني» (مز١٣٨:٧و٨). وهو يُعتبر طلب المعونة؛ وهذا يشبه القول: «وأحامي عن هذه المدينة لأخلصها» (٢مل١٩:٣٤؛ إش٣٨:٦).

٣ – وهكذا نفهم نوعين من العمل في معنى "التظليل" الذي يكون من الله على البشر: النوع الأَوَّل سري وروحي، والآخر عملي. العمل الأَوَّل يتضمن التقديس الذي يتقبله الإنسان بواسطة النعمة الإلهية؛ وبمعنى آخر حين يتقدس بفعل الرُّوح الْقُدُس جسداً ونفساً، كما هو الحال بالنسبة لأليصابات ويوحنا المعمدان والقديسة مَرْيَم حاملة الإله المطوبة بين النساء، وإن كان يعتبر بالنسبة لها (القديسة مَرْيَم) أمراً فريداً أعلى بكثير مما هو عند سائر البشر.

٤ – والآن نأتي إلى "التظليل" الجزئي الذي يحصل للقديسين عامة، رجالاً ونساءً، كأعضاء في الجسد.

٥ – إن أنواع التظليل السري كالتي تحصل مع أي قديس هي قوة فعالة تظلل الذهن، وإذا ما استحق أحدٌ لهذا التظليل، فإن ذهنه يُمسك ويتسع بإحساس من العجب في نوع من الإعلان الإلهي. وطالما كانت هذه القوة الإلهية تظلل الذهن، فإن ذلك الشخص يُرفع فوق حركات النفس بسبب الشركة مع الرُّوح الْقُدُس. وهذا هو ما يتكلم عنه بولس الرسول في شكل صلاة: «كي يعطيكم إله رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون قلوبكم». وما هو الهدف من هذا؟ «لتعلموا ما هو رجاء دعوتكم، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين» (أف١:١٧-١٩).

٦ – هذا هو نوع سري من "التظليل"، حين تظلل هذه القوة على أي شخص، فإنه يصير أهلاً لمجد العالم الجديد بواسطة الإعلان. فهذا هو التظليل الجزئي الذي كان من نصيب أولئك «القديسين في النور» (كو١:١٢)، كقول القديس بولس عن الذين حسبوا أهلاً أن يتقبلوا من الرُّوح تقديس الذهن (٢تس٢:١٣) من خلال تَدْبِيرهم المقدس الفائق.

٧ – والنوع الآخر من "التظليل" الذي تعرف قوته بتعبيرات عملية، هو قوة روحية تحمي وترفرف على شخصٍ ما باستمرار وتبعد عنه أي أمر ضار قد يقترب من جسده أو نفسه. وهذا الأمر الذي يُدرك خفياً بواسطة الذهن المستنير الذي اقتنى المعرفة بواسطة عين الإيمان، وهكذا كان معروفاً عند القديسين. كما هو مكتوب: «ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم» (مز٣٤:٨)، وأيضاً: «كثيرة هي بلايا الصديقين ومن جميعها ينجيهم الرب» (مز٣٤:٢٠).

المَيْمَر السَّابع عشر[٨٥]

من أي شيء تُحفظ اليقظة داخل النفس، وما هي الأسباب التي تسمح بدخول التراخي والبرودة على العقل وتطفئ الحرارة المقدسة في النفس وتميت الشوق في الله للمسرات الرُّوحية والسماوية.

١ – ليس للمقاوم قوة أن يعوق مشتهى الفضائل إن لم يجد فرصة وتساهلاً من محبي الفضيلة أنفسهم ليمارس خبث شره. والأمر حسبما أقول: كل حركة تختص بمحبة الفضائل عند بداية حركتها تتبعها غيرة تشبه جمر النار في حرارتها. هذه الغيرة عادة تحيط بتلك الحركة كالسور، وتطرد من أمَّامها كل أمر يضادها ويعوقها. لأنها تمتلك عصمة عظيمة وقوة جسيمة لا ينطق بها، تحصِّن النفس وتقويها في كل حين لئلا تتراخى وتجبن من صعوبة الضواغط والضيقات بكل أنواعها.

والحركة الأَولى تنشأ من قوة الشهوة المقدسة المغروسة في طبيعة النفس، أعني بها تلك الغيرة التي تحركها قوة الغضبية المختلجة في النفس، وهي التي وضعها الله فينا لكي تحفظ حدود الطبيعة وتستعمل قوة حدّتها لتكميل شهوة النفس الطبيعية أي الفضيلة. ولا يمكن اقتناء الفضيلة بدون هذه القوة التي تسمى "الغيرة".

٢ – هذه القوة هي التي تمد النفس بالغيرة وتحركها وتشعلها وتقويها من وقت لآخر حتى يمكن للإنسان أن يجسر على الجسد في كل الضيقات والتجارب المهولة التي تصادمه، ويسلم نفسه باطمئنان للموت، ويواجه قوات العدو المارد، من أجل تكميل الشيء الذي تحبه نفسه بوجه خاص (بالنسبة للفضيلة).

٣ – وقد ذكر أوغريس هذه الغيرة في كِتَابه ودعاها "كلباً" حافظاً سنة الله وشرائعه، أي الفضيلة. فالفضيلة هي تكميل شرائع الله.

٤ – وتعتصم قوة هذه الغيرة وتتيقظ وتلتهب لتحفظ البيت بنوعين من الأسباب؛ كما وتضعف أيضاً وتنام وتتهاون بسببين آخرين. السبب الأَوَّل ليقظة الغيرة وحرارتها تكون عندما يتحرك في الإنسان خوف لأجل الفضيلة التي اقتناها في نفسه، أو هو مزمع أن يقتنيها. وهذا الإحساس يتحرك من العناية الإلهية في كل محبي عمل الفضيلة المحقّين، من أجل حفظ يقظة النفس وغيرتها على الدوام حتى لا تتراخى وتتهاون.

٥ – متى تحرك هذا الخوف في الطبيعة (البشرية)، عند ذلك ينهض "الكلب" الذي ذكرناه، ويلتهب بحرارة كالتنور المشتعل وينبه الطبيعة لتكون متيقظة كالشيروبيم (تراقب على الدوام كل ما يحيط بها). ومثلما يقال إنه لو عبر أمَّامه أي طائر فإنه يتحرك وينبح بحدة قوية تفوق الوصف.

[2] ج . م مر - لمحرر ص ١٩٩-) من النفس خل من ق ح(

٦ – فإذا كان هذا الخوف هو من أجل الجسد، فهو خوف شيطاني، لأن (الإنسان) يكون منقسم الفكر بالنسبة لعناية الله، وقد شك في إيمانه ونسي كيف أن الله يعتني بالذين يهتمون بعمل الفضيلة ويهتم بمصالحهم كل حين.

٧ – فكما قال الرُّوح على فم النبي: «عينا الرب على الصديقين وأذناه مصغيتان إلى طلبتهم» (مز٣٣:١٦)، وأيضاً «الرب عزٌّ لخائفيه» (مز٢٤:١٤). وفي موضع آخر يقول للمهتمين بعمل الصلاح – نيابة عن الله – «لا تأتي عليك الشرور، ولا تدنو ضربة من مسكنك، لأنه يوصي ملائكته من أجلك أن يحفظوك في سائر طرقك، وعلى أيديهم يحملونك» (مز٩٠:١٠-١٢)، مع بقية الكلام.

٨ – وإذا كان هذا الخوف هو من أجل النفس، بسبب العوارض التي تحيط بالفضيلة، لئلا تُسلب وتتأذى بأي نوع من الأنواع، فإن هذا الخوف يكون فكراً إلهياً واهتماماً صالحاً، وإن ما يحصل من حزن وضنك للنفس هو من العناية الإلهية.

٩ – أمَّا السبب الثَّانِي لقوة "الكلب" وتوقده، فهو يكون من ازدياد شهوة الفضيلة في النفس. فكلما ازدادت محبة الفضيلة في النفس يزداد معها لهيب هذه الغيرة (المغروسة في طبيعتها من الله) لأجل حفظ الفضيلة.

١٠ – أمَّا أسباب برودة الغيرة وضعفها، فالسبب الأَوَّل يكون متى بردت المحبة ونقصت من النفس. والسبب الثَّانِي يكون متى دخل الإنسان فكر ثقة بنفسه وسكن في قلبه، وجعله يتكل ويثق أن لا خوف عليه من أية جهة، وأن لا شيء يقدر أن يؤذيه أو يضره. وبهذه الطريقة يلقي عنه سلاح الغيرة، ويصير كبيت بغير حارس وينام "الكلب" ويتغافل عن الحراسة والحفظ.

١١ – بهذا المعنى بالأكثر – أي بفكر الثقة بالنفس – تُسلب البيوت الرُّوحية. وهذا يحدث عندما تظلم نقاوة شعاع المعرفة المقدسة من النفس. وما الذي يجعل هذا الشعاع يظلم؟ يحصل ذلك أمَّا من فكر كبرياء دقيق يدخل ويسكن في النفس؛ أو من زيادة الاهتمام بالأمور الجسدانية التي يعتني بها الإنسان، أو من لقاءات مستمرة تتفق له من العالم، أو من شره البطن سيدة كل الشرور.

١٢ – لأن المتوحد المجاهد كلما اصطدم بملاقاة العالم تضعف نفسه في الحال وترتخي، وبالأكثر من ملاقاة امْرَأَة. كما أن النفس بملاقاة الكثيرين (كالضيوف) تنضنك بالضرورة من فكر المجد الباطل. وباختصار، فإن العقل المدبر حين يلاقي العالم (في كل حين) يشبه النوتي الذي يسير في البحر بهدوء تدفعه ريح خفيفة نحو الميناء، ولا يلبث أن يقع بغتة بين الصخور (وتتحطم سفينته). [لأنه بمقدار ما يتهاون الإنسان بهذا العالم ويهتم بمخافة الله، هكذا تدنو منه العناية الإلهية ويحس بمعونتها خفياً، وتُعطى له حركات ومعاني يفهمها].

المَيْمَر الثامن عشر

أسئلة في مواضيع خاصة

١ – على سلام وهدوء الذهن، متى يبدأ الإنسان أنْ يحس به:

تقتني النفس الصفاء بعد خبرات مع القتالات المختلفة. فهي وإن كانت تعاني من الظلام أوقات القتال، إلا أنه حالما تعبر عنها يصير الذهن مثل الشمس في بهاء المعرفة. لأن النفس إذا انسحقت من الأوجاع والشياطين من أجل رَبِّنَا، تكون مثل الثمار التي يكتمل نضجها بقوة أشعة الشمس وتقتني حلاوة وتصير نافعة (كمصدر) للبهجة.

٢ – على محبة الله، ما هي، وكيف تقتنى، ومتى؟

إن محبة الله ليست هي نوع من الإحساس الذي ينشأ بدون معرفة أو بلا تمييز؛ ولا يمكن كذلك أن تتحرك في شخص ما لمجرد معرفته بالكتب المقدسة. كما أنه لا يقدر أحد أن يغصب نفسه بالقوة ليحب الله. وما يستطيع العقل أن يحصل عليه من القراءة والتحدث بما في الكتب ومعرفتها هو مجرد إحساس بالمهابة التي تنبع من تأمل عظمة الله، والشعور بالرهبة أمَّامه بإفراز، سواء كانت تلك الرهبة التي يحس بها الأبناء، أو خوف العبيد. وهكذا يمكن للعقل أن ينهض بغيرة الفضيلة وبرغبة حارة للصلاح. ولكن إن كان أحد يظن أو يصور لنفسه أو يُعلّم آخرين بالإضافة إلى ذلك، أنه بإمكان الإنسان أن يطبع محبة الله في نفسه كنتيجة لحفظ ما جاء في الشرائع (أو الوصايا) وما أشبه ذلك، أو كنتيجة للجهاد والتغصب من جانبه، أو أي تدريب أو وسيلة بشرية، مثل هذا الشخص لا يعرف ما الذي يقوله. ولا يمكن أن يُحبَّ الله حتى كنتيجة لحفظ القانون أو الوصية التي أعطاها عن المحبة (يو١٣: ٣٤)؛ لأنه من القانون يتولد إحساس بالرهبة وليس بالرغبة. فإلى أن يقبل الإنسان روح الحكمة والإعلان (أف١: ١٧)، وتتحد النفس بحركاتها بتلك الحكمة التي هي أعلى من العالم، ويصير الإنسان مدركاً لصفات الله الفائقة، لن يكون بمقدوره أن يدنو من مذاقة المحبة المجيدة. فالذي لا يشرب الخمر لا يسكر من مجرد السماع عن الخمر، والذي لم يستحق هو نفسه لمعرفة أمور الله العالية لا يمكن أن يسكر بمحبته.

٣ – على تتابع الطرق التي يمكن للعقل بواسطتها أن يتجه نحو أمور الله المجيدة:

كنتيجة لهذيذ العقل وتمعنه باستمرار في الأمور التي تخص الطبيعة الإلهية، وكنتيجة لأنواع المذلة والتأديب الذي يحصل (للإنسان) من القتالات والجهادات الرُّوحية، تُولد في القلب قوة خاصة ترافقه بشكل محسوس. وهذه القوة بدورها تلد الفرح الدائم، وبواسطة ذلك الفرح يقترب الإنسان من نقاوة الأفكار التي تسمى "النقاوة الطبيعية". وبواسطة هذه النقاوة يحسب الإنسان مستحقاً لعمل الرُّوح الْقُدُس؛ وحالما يصير نقياً حينئذ يتقدس. وقد يعرض هذا أثناء

التأمل في أي أمر يكون مهتماً به، بواسطة حركة مضيئة تفوق الجسد، حين يقتني السكون الداخلي في الله، الذي هو شبه الحالة المستقبلة التي تتمثل في الرَّاحَة التي لا ينطق بـها في الله.

٤ – متى يتولد البكاء الدائم؟

ذكر حالة بعض القديسين الذين لم يتوقفوا عن البكاء.

فيض الدموع الدائم يحصل للإنسان لثلاثة أسباب مختلفة: أولاً كنتيجة للعجب من المناظر المملوءة أسراراً التي تستعلن باستمرار للذهن، حيث تفيض الدموع بكثرة من تلقاء ذاتـها دون أن يحس ذلك الإنسان بأي ندم. ويكون ذلك لأنه يُمعن النظر في تلك الأفهام (أو المناظر) برؤية الذهن، ويكون مستغرقاً على الدوام في الدهش بالمعرفة التي تتولد بواسطة الأمور التي تُستعلن للعقل استعلاناً روحياً على شكل أفهام؛ حينئذ تفيض الدموع من نفسها دون أي شعور بالتعب بسبب شدة الحلاوة التي تمسك بالذهن من داخل رؤيته هذه. وقد اعتاد الآباء أن يدعوا هذه الأفهام "مثال المن الذي أكله بنو إسرائيل"، "والشرب من الصخرة – التي هي المسيح" (١كو١٠: ٤)، وبعبارة أخرى، الأفهام الرُّوحية السرية.

٥ – وقد تأتي الدموع من حرارة محبة الله التي تلهب النفس، فلا يحتمل الإنسان شدة لهيبها دون أن يبكي باستمرار بسبب حلاوتـها وبـهجتها.

٦ – وقد تأتي أيضاً من انسحاق كثير في القلب. وينشأ اتضاع القلب في الإنسان لسببين مختلفين: أمَّا نتيجة لمعرفة دقيقة بخطاياه؛ أو نتيجة لتذكر اتضاع رَبِّنَا – أو بالأحرى نتيجة تذكر عظمة الله؛ إلى أي حد تنازلت عظمة رب الكل لكي يتكلم معنا ويعلمنا نحن البشر بطرق مختلفة – وكيف وضع نفسه إلى درجة أنه اتخذ لنفسه جسداً بشرياً؛ ومقدار ما احتمله في جسده وما جازه في نفسه؛ وكيف ظهر مرذولاً ومحتقراً أمَّام العالم، بينما هو كل حين يملك المجد الذي لا ينطق به مع الله الآب في العلا، حيث ترتعد أمَّامه الملائكة إذ يشع بـهاء مجد وجهه بين طغماتـهم؛ بينما يُرى بيننا في مظهر وضيع حتى يمكن للبشر- بسبب هيئته العادية – أن يمسكوه وهو يعلمهم ويعلقوه على خشبة (الصليب).

٧ – والشخص الذي لا يمتلك فيض الدموع لا يكون ذلك لمجرد أنه لا دموع له، بل لأنه مجردٌ من الأمور التي تسبب الدموع، ولا يملك في نفسه تلك المصادر التي تلدها. وبمعنى آخر، لأنه لم يسبق له قط أن أدرك مذاقة حب الله، ولم يتحرك داخله أبداً تأمل الأسرار الإلهية كنتيجة لمداومته على المثول في حضرة الله، كما وأنه لم يقتن انسحاق القلب حتى ولو كان يظن أنه يمتلك الاتضاع.

٨ – ولا تذكر لي كمثال أولئك الذين هم متواضعون بطبيعتهم قائلاً إنه يوجد كثيرون من أمثال هؤلاء تشهد لهم طبيعتهم أنـهم متواضعون ومع ذلك ليست لهم دموع. فلا تتحدث هنا عما هو للطبيعة؛ لأن ما تقتنيه في هذه الحالة هو مجرد حركات منطفئة خامدة وعديمة الأثر، فاقدة لأي حرارة شديدة. فهم (أي المتواضعون بطبيعتهم) لا يمتلكون هذا الاتضاع الحقيقي الذي يشتمل على الأفكار المتخشعة، والتأمل العميق الدؤوب، وعدم اعتبار الإنسان لنفسه، وانكسار القلب وانسكاب الدموع الذي ينشأ عن حزن العقل وإفراز الإرادة.

٩ – فإن شئت اسألهم، وستجد أنه ليس لهم أي شيء من هذا القبيل: ليس لهم التأمل الذي يلد الانسحاق الحقيقي، ولا الاهتمام الحقيقي بضمائرهم. إنـهم لا يشغلون أنفسهم بالهذيذ والتأمل في اتضاع رَبِّنَا، ولا يُنخسون بتذكار العذاب القاسي الذي ينشأ عن معرفة خطاياهم، وليست تلك الغيرة الملتهبة التي تشعل قلوبـهم عند تذكر الخيرات العتيدة، وليس لهم ولا فكر وَاحِد نافع مما يتحرك عادة في القلب نتيجة ليقظة العقل.

١٠ – وإذا أدرجت هؤلاء، فينبغي أيضاً أن تضم إليهم الأطفال الرضع؛ لأنـهم يعيشون في هذا العالم دون أن يكون لهم أي فكر على الإطلاق. كذلك إذا كنت ستضم أولئك الذين هم بالطبيعة هادئون أو ودعاء إلى مرتبة المتضعين بمعرفة وبإرادتـهم، لكان يتوجب عليك أيضاً أن تدعو الخصيان الذين وُلدوا هكذا من بطون أمهاتـهم "بتوليين" وتضمهم إلى رتبة البتوليين والمكرسين، حتى ولو لم يكن هذا باختيارهم بل من الطبيعة التي منعتهم من الزواج ووضعتهم في حالة من البتولية. هكذا هو الحال تماماً بالنسبة للودعاء والمتواضعين بالطبيعة؛ فالطبيعة هي التي لطَّفت من حدة انفعالاتـهم، ولم يكن ذلك من قوة إرادتـهم.

١١ – هؤلاء الناس لا يتذوقون بل ولا يعرفون تلك النعم والبركات التي يتذوقها الذين يتضعون من أجل رَبِّنَا. وهذا هو السبب في كونـهم لا يحصلون على العطية الفائقة – عطية الدموع الدائمة التي تلد التعزية؛ تلك الدموع التي يعتبرها الآباء رمزاً لأرض الموعد: "ومتى دخلتموها لن تخافوا بعد من الحرب". فالتعزية قد صار الوعد بـها لذوي القلوب المنكسرة (مز٥١: ١٧). أمَّا الذين ينوحون ولا يترجونـها فلن تأتيهم التعزية، والذين لا يعطشون إليها باشتياق لن ترتوي نفوسهم من الشراب الرُّوحي.

١٢ – فلو أن هؤلاء أضافوا إلى ما هو لهم بالطبيعة، ما اقتنوه بتمييز إرادتـهم، لكان لك أن تعتبرهم مطوبين؛ لأنـهم حُسبوا أهلاً أن يجدوا مما هو عندهم بالطبيعة مساعدة لما يسعون لاقتنائه بإرادتـهم الصالحة، مما يؤدي إلى تكميل مسيرتـهم الفاضلة بلا صراع. وهذا هو السبب في أنـهم يحصلون أيضاً على التعزية التي تتبع الإرادة الصالحة.

١٣ – أمَّا الذين صفاتـهم هي من عطية الطبيعة لا غير، فلا تغبطهم بأكثر مما تمدح غير الناطقين وتدعوهم مطوبين!

١٤ – أمَّا أنت، فإذا لم تمتلك اتضاع القلب، أو التخشع الحلو الملتهب الذي يأتي من محبة الله، هذه الأمور التي هي مصادر تلك الدموع التي تسكب التعزية اللذيذة في القلب، فلا تنسب ذلك إلى عجز في الطبيعة، أو بسبب بلادة طبيعية في القلب، أو لخلل في الأعضاء الداخلية للنفس، تلك التي كان ينبغي أن تحرك قوة النطقية فيها. ولا تتخذ هذه كعذر لك عن عدم شعورك بأقل توجع تجاه نقائصك.

١٥ – والذين قد اقتنوا إلى جانب براءتهم الطبيعية وهدوئهم، حركات منيرة وملهمة بآن وَاحِد، من الواضح أنهم أيضاً سوف يقتنون الدموع؛ طالما أنه إذا اقترن اتضاع القلب مع التمييز يكون غير ممكن لهذا الشخص أن يمسك نفسه من البكاء ولو لم يرغب في ذلك. وهذا لأن القلب يفيض منه ينبوع دموع دائماً بسبب الإحساس الملتهب بالتوجع الذي لا يمكن ضبطه، مع انكسار القلب.

١٦ – وهذه الثلاثة (أسباب للدموع) يقتنيها الإنسان من السكون؛ سواء كانت محبة الله، أو التعجب من أسراره، أو اتضاع القلب. وليس حزن أحرّ من محبة الله. يا رب، أهلني لمذاقة ذلك الينبوع! ولهذا إن لم يقتن السكون فلن يأتي إلى معرفة أي شيء من هذا حتى ولو كان يمتلك فضائل أخرى كثيرة. فهو لا يستطيع أن يعرف ماذا تشبه محبة الله، كما ولن يحصل قط على المعرفة الرُّوحية أو الاتضاع الحقيقي من القلب.

١٧ – الذي لا يعرف هذه الثلاثة أمور الفائقة، أو بالأحرى العطايا المجيدة، سوف يندهش حين يسمع عن أناس يقتنون البكاء الدائم؛ ذلك لأنه يتصور أن البكاء يأتي باختيارهم، أو أنهم يغصبون أنفسهم من أجل الحصول عليه، ولهذا يبدو لهم الأمر أنه لا يمكن تصديقه.

١٨ – على حركات الأفهام التي تنشأ فجأة بالعجب من الله كيف خلقنا وأتي بنا إلى الوجود. وفي اللحظة التي تتحرك فيها يعود الإنسان إلى الصمت بالدهش ويمتلئ بالبهجة من الرأس إلى أصابع القدمين. والذي اختبر هذه الأوقات المملوءة فرحاً يعرف هذا:

الشكر لنعمتك يا الله، الشكر لنعمتك يا الله، الشكر لنعمتك يا الله! يا من أتيت بنا إلى الوجود من حيث لم نكن موجودين؛ ووهبتنا وجوداً لا نهاية له؛ وزودتنا بالحياة والإدراك والعقل وحرية الإرادة والسلطة، خمس عطايا عظيمة لا نظير لها. لأن محبتك لم تكتفِ فقط بأنك أوجدتنا، بل وأن نكون أيضاً قادرين أن نعقل، حتى ندرك ونتمتع ببهجة الفطنة ومسرة موهبة البصيرة المتسعة. ولأنه لم يكن ممكناً أن نكون بلا بداية مثلك، وهبتنا أن نكون بلا نهاية مثلك. الشكر لك من أجل المسرة التي تمنحها لنا عطيتك!

١٩ – الآباء المطوبون ذوو التذكار المقدس يقولون إن هذه اللحظات التي تولِّد الدهش بواسطة الأفهام التي تجلبها بتلك الحركات المضيئة، تكون من قرب الملائكة لنا. وأثناء تلك الأوقات يصبح الإنسان كما لو كانت عيناه قد صارت ينابيع دموع من شدة الفرح والعجب – أولئك الذين انسكبت عليهم هذه الإنعامات يعرفون هذه الإشارات. ويظل مثل ذلك الشخص مدة

طويلة بعد هذه الأمور مقيماً في نوعٍ من الهدوء والسكون. بعد مثل تلك الأفهام، من الذي لا يمدح السكون ميناء النعم والبركات؟!

٢٠ – هذا هو ما ينبغي أن تفهمه من كلامي بخصوص كل الأفهام التي تحصل من النعمة، أي تلك الأفهام التي لا تأتي نتيجة للفحص أو الإرادة، بل تعرض بغتة بإشارة من الله لخدمة العتيدين أن يرثوا الحياة كقول بولس الرسول (عب١: ١٤).

٢١ – إشارات من الآباء بخصوص هذه الأوقات:

أثناء هذه الأوقات ينبغي للشخص الذي تعرض له هذه الأمور، أن يتذكر قول أوغريس: "مكرم جداً عند القديسين هو التمييز بين الأفكار التي من الشياطين وتلك التي من الملائكة، لئلا يخطئ الإنسان وينسب النوع الوَاحِد للآخر".

٢٢ – "باتباع الأفكار التي تصدر عن الشياطين الملاعين تصير النفس في حالة اضطراب؛ أي أنـها تتحرك بسرعة بالأوجاع أو الشهوة، أو بالعظمة أو المجد الباطل. ولكنها باتباع الأفكار التي تأتي من الملائكة تتقبل سلامًا وهدوءاً لا يوصف لوقت طويل، مع اتضاع عظيم، بل وأيضاً حرارة وفرح ودموع دائمة وازدراء بالعالم الحاضر".

المَيْمَر التاسع عشر

ما هي الخاصيات الطبيعية التي يتقبل الإنسان الذي وُهب فطنة، عن طريقها، المعرفة الإلهية، وما هي تلك الخاصيات التي تنشأ أثناء مسيرته

١ – كل طبيعة عاقلة تهيأت لقبول التعليم الإلهي قد تأسست في تركيبها الخاص، من قِبل حكمة الخالق الْعَظِيم، من ثلاثة أجزاء رئيسية، هي: الرغبة، والغيرة، والعقل. والآن من الضروري أن نعرف ما هي الأشياء التي أُعدت كل منها لقبولها.

٢ – **الجزء الأَوَّل**: وهو جزء الرغبة، يختص بالاشتياق واشتهاء كل ما هو فاضل وجميل من الأمور التي تُعلِّم العقل الناطق وتوجهه نحو الشرائع الإلهية، والاتضاع، واللطف، وتحقير الذات، والرأفة الْعَظِيمة، وما إلى ذلك. فهذه هي الأمور التي تهيأنا لنكون قادرين على قبولها بواسطة الجزء الأَوَّل عندما نتحرك به. وهذا الجزء من خاصيات النفس حين يسود فيها، تظهر بعدئذ هذه الأمور في الطبيعة الناطقة.

٣ – **والجزء الثَّانِي**: أي جزء الغيرة، يختص باليقظة والاجتهاد مع الوقوف بشجاعة ومثابرة مقابل المحن وكافة أنواع البلايا التي قد تعرض للإنسان ويحتملها من أجل الأمور الإلهية، وكذلك الاستعداد والإقدام وثبات القلب والجَلَد مقابل كل ما يتسبب في المضرة والفزع، سواء كان من الشياطين أو من الناس أو من الزحافات والوحوش؛ أو من الجوع، أو التعب أو العوز أو الأمراض، وما أشبه ذلك مما يمكن أن يعرض من أمور مضادة لطبيعتنا البشرية هذه، من أجل اسم الله، بل وحتى الموت نفسه.

٤ – **والجزء الثَّالِث**: أي جزء العقل، ويختص بالإيمان القلبي المستنير، ضبط الانفعالات، الرجاء، والاستغراق الدائم في الحكمة الإلهية.

٥ – الجزءان الأَوَّل والثَّانِي يُدعيان معاً بالجزء الفعال من النفس، بينما يدعى الجزء الثَّالِث بالتاؤريا الإلهية، أعني الاستعمال الفاضل للجزء الذي وُهب الفطنة، أي العقل.

٦ – وعندما نُظهر الصبر في ذلك الجزء الفعال، فهذا يعني التركيز الدائم على نوع الفضيلة التي يمكن إدراكها بواسطة الجسد. أمَّا جزء التاؤريا (أو التأمل) الذي هو خاصية الفطنة، فيقرِّب الذهن من الشركة الكاملة مع الله، ويجعله يحدق في أسراره الإلهية التي توجد في حالة مضيئة أعلى من العالم.

٧ – عندما تسير الأمور بحسب الطبيعة، حينئذ فذلك السبيل غالباً ما يرافق مسيرة كل من التلاميذ والمعلمين (المرشدين). أمَّا إذا أردنا أن ننكر الطبيعة نفسها، فإنها من المحتمل أن تتجاوز الحد في الاتجاه نحو كل ما هو ضد ذلك، وتهيئ نشاط قدراتها الكامنة في الجسد

للأفعال المضادة، إذ تُحرك جزء الفطنة والذكاء إلى اكتشاف كل أنواع أفكار الشر.

٨ – والطريق القويم الذي يخص الطبيعة تصحبه عناية إلهية في صورة أحداث نافعة وتعزيات وأفراح إلهية بلا انقطاع. بينما الطريق الآخر، أي الخطأ، تصحبه التأديبات في صورة مصادمات دائمة مع بلايا تخلو من الرجاء، وتخلية في كل أنواع المخاطر والتجارب التي تقود إلى الإحساس بالتقويم.

٩ – وحينما نرغب في الأعمال المتعبة، ونفرز أنفسنا لكي نداوم عليها من أجل مخافة الله، فإننا بمعونة الله سوف ندرك أفراح الذهن على الدوام. أمَّا إذا كنا – بسبب رخاوة الجسد – نهرب منها كالطفل الذي يهرب من المدرسة راغباً في البطالة، فبالضرورة تردّنا الرحمة الإلهية ضد إرادتنا إلى تلك الأتعاب. إن انحراف الطبيعة الناطقة يحزن جداً «أبا الأرواح» (عب١٢: ٩) أكثر بكثير مما يُحزن انحراف الأبناء آباءهم بالجسد.

١٠ – وإذا لم تكن هناك أية وسيلة على الإطلاق للهروب من الأعمال المجهدة والشاقة، فعلينا أن نتقبلها باختيارنا، مثل الحكماء الذين يحترمون أنفسهم، لكي نصير أهلاً للكرامة والمسرة، ولا يحتاج الأمر أن نُحمل إليها بالجَلْد والقيود.

١١ – أمَّا إذا عجزنا عن أن نقبلها باختيارنا فعلينا أن نحتملها بشكرٍ، حتى تلك الشدة التي تأتي من الشيطان؛ لأنه حتى في تلك الحالة ستؤول إلى نتيجة جيدة. فما أعجب تحنن الله! من يستطيع أن يقيس عمق بحر نعمته؟

المَيْمَر العشرون

فصل آخر يبين بتدقيق التأمل الذي يتحرك في الذهن بما يتناسب مع مستوى التَدْبِير ومقياس المعرفة التي أدركها الشخص

١ – نبدأ أولاً بإيضاح حركات المعرفة في المستوى الأدنى من طبيعة النفس، وتلك الغلوات التي هي أعلى من الطبيعة.

٢ – حين يبدأ العقل يستنير في داخلنا، يصير الموت حقيراً ومُزدرى تماماً في أعيننا، ويتحرك في الشخص دائماً رجاء القيامة، ويظهر امتياز طبيعة النفس من خلال العلاَّمَات التي تتبين في أفكارها: إذ يكون الاهتمام بالدينونة الإلهية عند ذلك الشخص قوياً، ويبدأ يفحص سلوكه وكلامه وأفكاره ليلاً ونـهاراً؛ وإذا سلك في كل أنواع الصلاح والأتعاب الفاضلة، فإن هذا الاهتمام لن يبتعد عنه أبداً. لأن ذلك التحرك الطبيعي للنفس العاقلة قوامه هذا التأمل والتفكير. ولكن ينبغي أن تعلم أن الذين، قبل أن يبلغوا إلى المحبة، لا يمارسون هذا التفكير كثيراً، هم ناقصون في المعرفة لكونـهم يعتمدون على سلوكهم. فإذا لم تكن هناك حاجة لاعتمادهم على سلوكهم، فهذا يعني أمَّا أنـهم في حالة روحية أو أنـهم في رخاوة التَدْبِير: وفي كلتا الحالتين لا يمكن أن يوجد خوف الدينونة؛ فهم أمَّا يكونون مثل الحيوانات المحرومة من العقل ومن أي تفكير في القيامة، أو إنـهم بين الملائكة الذين يعيشون في نوع مختلف من المعرفة، وهم لا يهبطون إلى مستوى أفكار مثل هذه؛ لأن الحركات التي تنشأ فيهم مختلفة عنها كلية، ولأن تأملهم يتركز في الأسرار التي هي أعلى بكثير من التفكير في الدينونة. أمَّا الآخرون فإن هذا التأمل يخفت فيهم نتيجة نقص اليقظة، ومن ظلام النفس.

٣ – والذين يعيشون في تَدْبِيرهم على مستوى النفس، يحصل لهم هذا التفكير على الوجه الصحيح؛ لأن الطبيعة الجيدة تتحرك فيهم بصورة سليمة بواسطة تمييزها الطبيعي. وأمثال هؤلاء الأشخاص يكونون في حالة استنارة أفكارهم الطبيعية ومشاركة النعمة التي ترافقهم.

٤ – والذي لم يظلمّ فهمه بسبب الازدراء، فبينما يتقدم إلى الكمال بكل أنواع الأعمال الفاضلة، لا يرضى ضميره أن يرتاح أو يهدأ من هذه الحركة (الرُّوحية).

٥ – ولكني سوف أبيّن متى يتوقف الاهتمام بـهذا الفكر (أي الدينونة) بشكل صحيح وبالحق. ما أن يبلغ الإنسان إلى الحب الإلهي، فإنه يكون قد ارتفع فوق هذا التفكير؛ لأنه يعيش في حرية من الأفكار. أمَّا الحب الإلهي فلا ينشأ على الإطلاق نتيجة للتَدْبِير النفساني أو لحركة النفس الطبيعية في تربية الفضيلة؛ لأن الخوف هو الذي يلازم هذه الدرجة، ويكون من المستحيل تماماً أن يصير مدركاً للحب الإلهي؛ لأن هذا الأمر لا يكون في مقدور النفس، ولا هو يخص مسارها الطبيعي الذي ينشأ عنه هذا التَدْبِير. أمَّا الحب الإلهي فيخص التَدْبِير الرُّوحاني.

٦ – وهكذا ترى أن الفضيلة هي الطريق الطبيعي؛ وهي تشتمل على التواضع والأعمال، والصدقة واستقامة الضمير؛ وذبائح التسبيح والصَلَوَات والرحمة. أمَّا في العالم الجديد فليست هناك حاجة إلى شيء من هذا: فالتَدْبِير الرُّوحاني يقوم على نوع آخر من المعرفة، وخدمته لا تتحرك ولا تتألف من أعمال الجسد أو النفس. فالذين يخدمون في هاتين الدرجتين يناسبهم التفكير، بينما تَدْبِير الرُّوح يكون بدون فكر أو تصور، وبدون أقل تحريك. فالأفكار تتحرك على مستوى النفس، أمَّا مستوى الرُّوح فلا تكون فيه أفكار؛ لأن الذهن يكون قد ارتفع فوق أشكال هذا العالم الحاضر، ويتدبر بنوعٍ مختلف من المعرفة. معرفة أولئك الذين في المرتبة النفسانية توصف بلغة الكلام المتعارف عليه بيننا؛ أمَّا معرفة الذين في المرتبة الرُّوحانية فلا يمكن وصفها ولا بأسلوب عقلي هناك. فالمعرفة التي تخص ما هو هنا، تشتمل بالتأكيد على نبضات الأفكار؛ أمَّا في ذلك التَدْبِير (الرُّوحاني) فهي ترتفع فوق كل هذه الأمور: فهي تمثل الحالة التي نكون عليها في القيامة من الأموات، حين نوجد برفقة الملائكة القديسين، وهي الحالة نفسها التي يعيشها الملائكة فعلاً الآن. فهم ما لم يرسلهم الله إلى عالمنا في خدمة معينة، لا ينتقلون من هذا النوع من الرؤية التي تعمل في أذهانـهم.

٧ – وإن قال أحد: "فكيف إذاً يمكن أن يكونوا في حالة اندهاش وعجب دائم في الله، ويمكثوا هكذا دائماً دون تغيير، مع أنـهم في الوقت نفسه يُعطون أوامر بخصوص العناصر، وهم يرافقون كل كائن بشري؟ وكيف يمكن أن لا يتعطلوا عن تلك الحالة الدائمة (من التعجب في الله) كنتيجة لخدمتهم هذه؟"

٨ – مثل هذا الشخص يفكر عن تلك الطبائع الخفيفة السريعة الحركة من وجهة نظر بشرية بحتة؛ فهذه الخلائق لا تعوقهم الأجساد ولا الأفعال بسبب سرعة وإنارة أذهانـهم. كما أنـهم لا يتعبون بسبب تغيير نشاطهم، ولا يعانون أو يحتاجون إلى الزمان والمكان في كل ما يقومون به من أعمال، ولا من أي شيء يمكن أن يعوقهم من القيام بخدمتهم. فهم يكملون كل ما يؤمرون به بطريقة سريعة في لحظة، بما يتناسب مع القدرة والمهارة العجيبة التي مُنحت لطبيعتهم. فقد وضع فيهم الخالق، الذي هو أعلى من الكل، شبهه في كل شيء على قدر ما يكون ذلك ممكناً.

٩ – ولكن لنترك الآن الحديث عن هذه الطبائع الرُّوحانية، ونعود إلى موضوعنا وإلى أمور عالمنا هذا، ونستأنف حديثنا من حيث تركناه.

١٠ – حالما يرتفع الإنسان في معرفته وتفكيره فوق الخدمة على مستوى النفس، والتي تشتمل على سمو الأعمال والوجدان في عملية ارتقائه إلى مستوى تَدْبِير الرُّوح، إلى أعلى قياس يمكن أن تبلغه الطبيعة البشرية هنا، فسرعان ما تلتصق به حالة من العجب في الله، ويصير هادئاً وساكناً بعد (كثرة) حركات الأفكار السابقة، حيث ينبض ذهنه كله بفعل الحركات الرُّوحية المصحوبة بالحب. وفي هذه الحالة من الفهم، يزول الخوف تماماً من الإنسان، ويتحرك الذهن بحسب أسلوب ذلك العالم الجديد، متحرراً من الأفكار من جهة أي خوف أو

معاناة تعرض له، ذلك لأنه صار أهلاً، بفضل نعمة المسيح التي تخص تَدْبِير الإنسان الجديد، لتلك الحركات التي تنشأ طبيعياً حينئذٍ في ملكوت السماوات.

١١ – ثم إذا هو انتقل من هذه الأمور، يكون في حالة من فرح النفس، ويكون في تأمله وأفكاره مختلفاً تماماً عن الذين ينتمون إلى هذا العالم؛ لأنه منذ الآن فصاعداً يتمتع بالحرية من الأفكار، حرية ممتلئة بحركات المعرفة والعجب في الله. ولأنه يكون في حالة من الفهم أعلى بكثير من النفس ومرتفعة عن الخوف، فهو يحظى بحالة من الفرح في الله بحركات أفكاره كل حين كما يليق بالبنين.

١٢ – وفيما يلي حركات الأفكار في هذه الثلاث منازل ومستوى الفهم في حركاتـها:

١٣ – الإنسان الذي تكون معرفته على مستوى الجسد لا يمكن أن يكون أعلى من الخوف في أفكاره؛ بل بالأكثر يكون دائماً مرتعباً عند تذكرها. ولأنه قائم في مستوى الجسد فهو يفكر في أمور الجسد، ولذلك تجد عنده دائماً بعض الشك بخصوص القيامة من الأموات.

١٤ – والذي هو على مستوى النفس يحس بنبضات خوف النفس. فهو لا يفكر في الأمور التي تخص الجسد، موته وحزنه أو رفاهيته وبلاياه. بل إنه يقبل هذه كلها من أجل ما هو عتيد أن يأتي، وذلك لأنه حقاً قد وُهب عقلاً وفطنة. ولكنه يمتلك فقط مستوى النفس بالتأمل الدائم فيما يخص القيامة من الأموات.

١٥ – أمَّا الذي يكون على مستوى الرُّوح فلا تناسبه أية صفة من تلك الصفات. لكنه يقوم في المعرفة والفرح الذي في الله، لكونه قد أصبح ابناً وشريكاً في سر الله.

١٦ – وهكذا بإمكان المرء أن يعرف من هذه الصفات درجة معرفته ومنـزلة تَدْبِيره. ويمكنه أن يحكم، من الحركات التي تنبع داخله كل الأوقات، أين يقف في مسيرته وفي معرفته في زمانه القصير في مسكنه الحالي.

١٧ – وهناك أيضاً حالة شخص انتقل في معرفته من مستوى الجسد ولكنه لم يدخل بعد تماماً في مستوى النفس، الذي يتمثل في التوبة الدائمة وكمال سيرة النسك، وكنتيجة لذلك تنبع فيه الأفكار من كلا الناحيتين.

١٨ – وهناك أشخاص قليلون قد استحقوا إدراك مستوى النفس في كماله، الذي يتمثل في قمة التوبة؛ هذا هو تَدْبِير أمنا الجامعة (أي الكنيسة).

١٩ – وبالمثل أيضاً هناك حالة الشخص الذي أدرك كمال التَدْبِير على مستوى النفس، ولكنه لم يدخل بعد في تَدْبِير الرُّوح؛ فهو بالكاد بدأ يتحرك فيه قليلاً. وبينما هو ما يزال قائماً في التَدْبِير على مستوى النفس، فمن آنٍ لآخر يحدث أن تنهض فيه بعض حركات الرُّوح ولكن في غير وضوح، ويبتدئ يحس في نفسه فرحاً خفياً وعزاءً؛ وتظهر في ذهنه أفهام سرية خاصة، تتحرك فيه كنموذج ومثال وتكون كوميض البرق. عندئذ يتدفق الفرح في قلبه بغتة.

وحتى من الواضح أن ذهنه يظل مع هذا ممتلئاً بالرجاء.

٢٠ – أعرف إنساناً يعيش في منطقة مجاورة يختبر تلك الومضات الخاطفة، ولكن ولو أن نظرة الأسرار تجوز في ذهنه من لحظة إلى أخرى ثم ترحل، إلا أن تدفق الفرح الذي ينشأ عن خبرته هذه يدوم معه طويلاً، والهدوء الذي يتبعه ينسكب على عقله لفترة طويلة بعد انقطاعها. وعدا ذلك يملك على الجسد والأعضاء حالة من السلام والإحساس براحة عظيمة، بينما تظهر لذة مذاقة حلاوتـها العجيبة بصورة فائقة في حنك الذهن. وبسبب هذه الأمور يكون من السهل أن ينبذ عنه العالم الحاضر، وأن يأتي عزاء الرجاء إلى المتغرب عن العالم في حال تعبه. وهذا يكفي ليكون له كلمحة سريعة (أولية) لكي لا يضل في متاهة الحياة، لأنه منذ الآن لم يعد له رجاء آخر غير هذا.

٢١ – سفن كثيرة قد تاهت وسط هذا المحيط. لأنه وإن كانت الآذان قد تسمع والفم قد يقرأ، إلا أنـها لم تتذوق قوة الإحساس بـهذا الرجاء ولو بطرف إصبعها. ولهذا، فإنه على الرغم من تعب ومعاناة ملاحيها، ومهارتـهم وحذق معرفتهم، لم يقدروا في رحلتهم أن ينبذوا هذا العالم – الأمر الذي يحتاج إلى أمَّاتة القلب بالتواضع وعدم اعتبار الذات.

٢٢ – لا ينبغي أن نتصور أن عطية رَبِّنَا تنحصر في هذا الجزء الصغير الذي تحدثنا عنه. فهناك أشخاص يذوقون أسرار الحق، ليس فقط في هذه الهيئة من وميض البرق، بل إنه في جَلَد قلوبـهم قد بدأ «شمس البر» يشرق بانسكاب أشعته: لأن "السماء الجديدة ترتسم في القلب النقي"، منظرها نوراني، وبلدها روحاني.

٢٣ – ومن الواضح أنه إذا كان القلب قد صار أهلاً لأن يكون سماءً للرب، فإنه يكون إذاً قد حسب مستحقاً لكمال كل تاؤرية بنظر الاستعلان. ولهذا فهي تحصل ليس في لمحات من آن لآخر، كما هو الحال في الخبرات الأخرى، بل تدوم لساعات متواصلة، وليس فقط لساعات، بل لأيام. ويستطيع المرء أن يجد دليلاً على ذلك في سير الآباء القديسين.

٢٤ – أمَّا بالنسبة لي، أنا الذي قد قاحت جروحي وأنتنت، فهبني يا رب بتحننك أن أتخذ مثال التوبة في نفسي، لكي ما إذ أبسط يدي تجاه رحمتك، وأجلس على باب نعمتك، أُوجد أهلاً لذلك الرجاء الذي تقبله التائبون الحقيقيون منك.

٢٥ – اجعل عبدك، يا رب، مستحقاً أن يغسل نفسه من وحل أعماله بدموع عينيه، وباتخاذ معونتك على الدوام في وجه نقائص أفكاره؛ ولَيْتَه يجد بنعمتك مدخلاً للحياة، آمين.

٢٦ – والآن بمؤازرة نعمة رَبِّنَا، سوف نستمر في المقالات القادمة أن نشرح – مما تعلمناه من الآباء – نوع الجهاد الذي يلزم لمن يبدأ أن يقترب من طقس وتَدْبِير الحرية؛ وكيف أنه ليس لكل إنسان أن يعيش بـهذا التَدْبِير، ولكنه في الحقيقة ينبغي أن يكون هناك وقتٌ معينٌ. وسوف نبين أيضاً متى يكون هذا الوقت، وعلى أي مستوى ينبغي أن يتدبر، ومتى يكون

مناسباً له أن يتدبر تحت راية هذا العالم.

٢٧ – ومن الواضح أنه حينما تنقص حرارة الجسد وتخمد شدة اندفاعها السابقة، ينبغي عندئذ لمن يقتني هذا التَدْبِير أن يلازم الهذيذ الدائم. أمَّا نوع الأعمال التي تلزمه فسوف نبين ذلك في المكان المناسب مع أمور أخرى تناسب هذه الرتبة في وقت وَاحِد.

المَيْمَر الحادي والعشرون

كيف تنتفع النفس وتتقدم عندما تكفّ عن حرارة الأعمال الأولى. وكيف تدنو بجهد قليل من جانب الجسد، إلى تَدْبِير الحرية من خلال المعونة السماوية. وبأي هدف تربط تعب جهادها بعد ذلك

١ – إذا ما ألمَّ بك الضعف والإعياء بسبب خدمة التزمير التي تكون بمداومة التلاوة المعتادة، وتجد أنك لم تعد قادراً أن تتعب في ذلك العمل كما كنت تفعل من قبل بسبب كبر السن أو ضعف الجسد الشديد، عندئذ أجهد نفسك عوض ذلك في الابتهال والتشفع وما أشبه ذلك. اجتهد أن تثابر في ابتهالك لمدة طويلة وبحرارة، ولتكن طلباتك باهتمام، واتعب في توسلاتك بعمل القلب. صلّ بلجاجة وبلا ملل، وداوم على ذلك حتى ينفتح لك الباب.

٢ – لأن رَبِّنَا رحوم سوف يقبلك، ليس بسبب عملك، بل من أجل قصد ضميرك. حينئذ سوف تستنير نفسك وأنت تطيل ابتهالك، وتلتهب أفكارك بمحبته. وبهذه المعونة من الله في الأعمال الطفيفة التي يقوم بها جسدك الضعيف، دون أن تترك تماماً – قدر إمكانك – قوانين الخدمة المختصرة، حتى لا تكون مثل من لا يرغب أن يكون خاضعاً للقانون (الرهباني)؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يتسلط عليك شيطان الكبرياء، مثلما يحدث لمن يظن أنه لم يعد في حاجة إلى مثل هذه الأمور، أو أن الأمر ينتهي بك تدريجياً إلى الرخاوة الإرادية.

٣ – ولست أفرض هنا حداً مُلزماً من الوقت، ولكنني أتكلم عما يمكن أن يحدث.

٤ – وكذلك ليس هناك ما يستوجب اللوم إذا كنا بقدر الوقت الذي يتناسب مع قوتنا، أو حتى ولو بأقل من ذلك، حينما نقف أو نجلس، نحرص أن ترافقنا اليقظة والمهابة؛ وهكذا نمنع أن يداخلنا أي تحقير لله وقت قيامنا بتقديم خدمة عبادتنا له أو حين نرفع إليه ذبيحة صلاتنا.

٥ – فالأمر لا يعتمد على حدود ثابتة وتشتت، إنما على المعرفة والتمييز دون الانشغال الزائد بالكمية؛ لأن هذا عادة ما يكون سبباً في الاضطراب الداخلي. فينبغي أن يكون هدفنا هو أن نحصل على وسيلة تجعل قلبنا يقترب من الله في الخدمة والصلاة، وهذه هي الغاية من خضوعك للقانون الذي يختص بالبنين.

٦ – ولكن حتى أكثر من التزمير، أضف تلك الأمور (أي الابتهالات والتوسلات والتشفع) أيضاً، وانتفع منها بوجه خاص، أحياناً وأنت واقف على قدميك، وأحياناً وأنت راكع، وأحياناً أخرى جالساً.

٧ – وليس هناك ما يمنعك أن تقتني كمال هذه الأمور عينها من المَزَامِير وتستفيد منها. وعدا ذلك فهناك الكلمات العجيبة الموضوعة في الألحان التي وُضعت بالرُّوح في أناشيد منسجمة، هذه كلها يمكن أن تملأ مكان الصلاة الكاملة عند البعض. وذلك لأن الهذيذ بها يولد

فينا صَلَوَات نقية وأفهاماً عالية، وهكذا تقرّبْنَا من استنارة الذهن والعجب في الله؛ كما إنـها تقرّبْنَا من الأمور الأخرى التي بواسطتها يجعلك الله تستضئ بالحكمة في وقتها المعين، حين تنتخب المقاطع المناسبة وتقدمها لربك مع ابتهالك، حسب نيّتك، وتكررها طويلاً وبكل هدوء.

٨ – كما أن التزمير أيضاً حين نؤديه بـهذا القصد يفيد الشخص أكثر مما تفعل التلاوة المعتادة في خدمة الساعات. وهذا النوع يصلح لأشخاص بلغوا حالة متقدمة وأدركوا ذلك التَدْبِير أنـهم عند ابتهالهم يُوجدون أهلاً لنوال المواهب من الله. وبسبب حالة انجماع ذهنهم، يحرزون تقدماً كبيراً في الابتهال، وتميل نفوسهم إلى فضيلة عظيمة أثناء ذلك، وتُحسب دائماً أهلاً للمعونة من العلا. بل وكثيراً ما تتقبل نوعاً ما من استنارة الأفكار أثناء ترحالها وسط ابتهالاتـها الكثيرة.

٩ – ولكن لا ينبغي أن نطلب هذا حالاً؛ لأن ليس كثيرون يجدونه بل أشخاص قليلون فقط. ذلك لأن مثل هذه الأمور لا تحدث تبعاً لجهاد الشخص، بل بحسب قصد الله ومعرفته. أمَّا نحن من جانبنا، فلا يجب أن نكف عن الترجي والانتظار مدى حياتنا كلها.

١٠ – وإذا حدث ووجدناه (أي استنارة الفكر)، فلا ينبغي أن نتعظم أو نتصور أننا قد صرنا أهلاً لذلك بسبب سمو تَدْبِيرنا. كما أنه إذا تأخر عنا، لا يجب أن نحزن وتصغر نفوسنا مثل أناس يعملون لله من أجل المكافأة: فهذا هو رأي أولئك الذين لم يتدربوا في عمل الاتضاع وفي الاشتياق الحار لله. لأننا نعلم – كما قلنا – أن الله لا يمنح مثل هذه الأمور للإنسان بموجب أعماله الكثيرة، ولا يحجزها عنه بسبب نقص مثل تلك الأعمال، ولكنه يعطيها لمن يرى أنـها ستكون ذات منفعة له.

١١ – لأنه بالنسبة لهذه الأمور، ليست المسألة في الاستحقاق أو عدمه، بل في استعداد النية التي يظهرها الشخص نحو الله: إلى أي مدى يطرح العالم من عقله، وذلك بطريقة واضحة، بسبب محبة الله.

١٢ – ولكن لنضع أمَّامنا هذه العلامة لنعرف مدى تقدمنا: كلما لاحظنا أي وجع بدأ يضعف في نفوسنا من يوم لآخر، يكون ذلك علامة على أننا نقترب أكثر نحو الله، وأننا سنوجد أهلاً دون أن ندري، لنوال المواهب الْعَظِيمة التي تأتي من عنده.

١٣ – ينبغي أن نعتبر عمل القراءة (في الأسفار المقدسة) عملاً مفضلاً جداً، وأهميته لا تحدها أية مبالغة. لأن عمل القراءة هو الباب الْعَظِيم الذي بواسطته يدخل الذهن إلى الأسرار الإلهية ويتقوى لكي يدرك الاستنارة في الصلاة: وهو يغمره بالتنعم فيما يُسرّح فكره في أعمال تَدْبِير الله التي أُكملت من أجل البشرية؛ تلك الأعمال التي تجعلنا نقف دائماً منذهلين، والتي بـها أيضاً يتقوى الهذيذ الذي هو أول ثمار هذا التَدْبِير الذي نتكلم عنه، وبـها تستضئ الصلاة وتتقوى سواء تلك المأخوذة من الأسفار الإلهية أو من كِتَابات معلمي الكنيسة الكبار على موضوع التَدْبِير الإلهي، أو من أولئك الذين يعلّمون أسرار التَدْبِير (الرُّوحي أو النسكي).

١٤ – هذان النوعان من القراءة مفيدان لإنسان الرُّوح. وأي نوع آخر يسبب له خسارة ويُظلم ذهنه فعلاً، ويطمس هدفه الذي هو الوجود مع الله. كما أن تلك الأنواع الأخرى تجلب عليه ظلأمًّا وتراخياً أثناء الخدمة والصلاة.

١٥ – بدون القراءة في الأسفار المقدسة لا تكون للذهن وسيلة تُقرِّبه إلى الله. فالقراءة هي التي تجتذب العقل وتضعه في كل لحظة باتجاه الله؛ وهي تغسله من هذا العالم المادي بأفهامها وترفعه دائماً فوق الجسد. وليس هناك عمل آخر يمكن للإنسان بواسطته أن يحرز تقدماً أفضل، هذا إذا كان ذلك الشخص يقرأ من أجل الحق، فتلك هي أنواع الأمور التي يجدها فيها.

١٦ – هناك أشخاص لا يستفيدون حتى من القراءة عن أعمال التَدْبِير الإلهي، إذ لا يجدون فيها أية منفعة. وهؤلاء على العموم يزدادون ظلأمًّا، ذلك لأنـهم يحتاجون بالأكثر إلى الحديث المضيء والمستفيض عنه، وكذلك أيضاً الكتب التي كتبت عن ذلك الموضوع بعناية عظيمة بواسطة كِتَاب إلهيين مستنيرين. وبحفظ هذه الأمور في العقل، تبتهج النفس جداً وتنسلخ من الأوجاع.

المَيْمَر الثَّانِي والعشرون

على غيارات التَدْبِير: كيف يستبدل تَدْبِير بآخر بغرض إلهي؛ وكيف وبأية وسيلة ينتقل الفضلاء من تَدْبِير إلى تَدْبِير آخر أعلى منه؛ وإلى أي مدى يُجرون هذا التغيير، وإلى أي حد يبقون فيه؛ ومواضيع أخرى مختلفة.

١ – هذا أيضاً هو ما ينبغي أن يتحققه الإنسان: أن الطريقة والهدف بالنسبة للعمل (الرُّوحي) ليس هو وَاحِداً في البداية والوسط والنهاية. مرحلة البداية تتضمن العمل بكثرة التلاوة، وقمع الجسد بتعب الصَّوْم.

٢ – وحدّ المرحلة المتوسطة يقلل كمية ذلك، فيستبدل المثابرة فيها بالمثابرة على أمور أخرى؛ فينشغل بعمل القراءة (الرُّوحية) وبوجه خاص بالركوع باستمرار.

٣ – وحدّ المرحلة الثَّالِثة يقلل من مداومة أعمال المرحلة التي قبلها؛ وينشغل عوضاً عنها بالهذيذ وصلاة القلب.

٤ – وليس معنى ذلك أنه عند بلوغ نهاية كل مرحلة يترك خلفه المرحلة التي سبقتها تماماً؛ بل إنه يغير من هدف وطريقة ممارسته لها، ويقيس مداومته فيها مقابل أنواع الأفهام التي تتولد منها، حيث إن هذه الأفهام تتبع طبيعتها الأصلية، بينما هو ينتقل من ممارستها خارجياً إلى ممارستها في الداخل.

٥ – وإليك هذا المثال: تلاوة المَزَامِير وجهاد الصَّوْم يخص أيضاً المرحلة المتوسطة، ولكن ليس بدون معرفة (أو تمييز) أو بأسلوب مندفع كالذي يحدث في المرحلة الأَولى.

٦ – وبالمثل، حتى بعد إدراك الكمال، يُوجد عمل القراءة والسجود والتزمير، ولكن ما هو أكثر أهمية من ذلك هو مداومة الهذيذ بعناية الله مع الصلاة الخفية؛ لأنه لم تعد هناك حاجة لقدر كبير من الأعمال السابقة، طالما أنه بمجرد أن ينشغل بها وقتاً قليلاً يُمسَك الشخص بالدهش ويدوم فيه. وبالتالي فإنه يكفي قدر قليل من القراءة في الأسفار المقدسة ومن خدمة المَزَامِير. وأمثال هؤلاء الأشخاص لا يتعبون كثيراً في تلك الأعمال؛ لأنهم حالما يبتدئون بالمَزَامِير أو بالصلاة، ينجذبون إلى أمور أخرى أعلى من معرفة هذا العالم، فلا تترك أذهانهم طويلاً في هذه الأعمال.

٧ – هذه هي الغيارات والتبدلات التي ذكر الآباء القديسون أنها تحدث للساعين في طريق الفضيلة.

٨ – وهم بقولهم "غيارات" يقصدون أهداف الأعمال الرُّوحية، حيث يتغير الهدف تبعاً للتقدم في المعرفة كما شرحنا ذلك أعلاه.

٩ – وبقولهم "تبدلات" يقصدون أنواع الحروب المختلفة ومعونة النعمة التي تحصل للمتوحدين كل حين خلال مسيرتهم في السكون، وكذلك التبدلات في أعمال الرُّوح الْقُدُس والتعزيات المتنوعة التي يمنحها الله للقديسين.

المَيْمَر الثَّالِث والعشرون

مثال على خدمة القديسين مما نراه في الطبيعة

١ – يمكننا أن نرى في ما هو مخفي في البذور مثالاً للأتعاب التي يحتملها القديسون الأتقياء في نفوسهم من أجل الله. لأن البذور حين تزرع في الأرض تخفي تحت مظهرها العادي تلك التحولات العجيبة التي سوف تنكشف لنا في شهر أبريل، وجمال الألوان المبهجة التي سوف تظهر في حينها كثوب وزينة باهرة تكسو الأرض التي احتضنتها وغذّتها في باطنها.

٢ – هذا المثال الذي نتعرف عليه في البذور الدقيقة، ينقشه الأتقياء في عقولهم نقشاً روحياً في الأوقات التي تضعف فيها خدمتهم وتظلم، ليكون دليلاً على أن قوة الخالق سوف تتجلى فيهم، وينتظرون متوقعين أن يروا في أنفسهم، كنتيجة هذه الأتعاب العادية، تحولاً يفوق الوصف يصير محسوساً عندهم خلال عمل الرُّوح الْقُدُس الذي سيقبلونه بالتالي بحسب تربية تَدْبِيرهم.

المَيْمَر الرَّابع والعشرون

عدم نفع أعمال الجسد التي تعمل بدون خدمة الذهن؛ أعني إذا وضع أحد فيها كل ثقته في طريق مسيرته وحصر مسار الفكر في خدمته فيها وحدها.

١ – عمل الجسد إذا صاحبه تكاسل العقل يصير فارغاً عديم النفع، إذا كانت كلمة القديس مرقس الناسك صادقة: "كثيرون يشقون في جهاد التقوى، ولكنهم يفسدون الأعمال الصالحة بالأفكار الشريرة" (الناموس الرُّوحي: ١٧٠). وعلى أي حال، فإن من يكون عقله فارغاً من العمل الخفي والتفكر في المعرفة الرُّوحية والهذيذ، هذا قد جعل أفكاره مهيأة لقبول كل أنواع الأمور الفارغة.

٢ – أمَّا عمل العقل فلا يكون فيه الجسد بلا عمل، حتى ولو كان ضعيفاً جداً بما أن عمل العقل يجفف الجسد ويضعفه ويجعله مثل الخشب الجاف. لأنه يكفي الجسد ذلك الدفء الذي يأتيه من شعلة الفرح التي تتقد فيه دائماً. ومن خلال التوجع الحلو الذي يملك على العقل من أجل الله بواسطة الحزن مجدِّد الحياة الذي تكلم عنه الرسول (٢كو٧:١٠)، تتولد في العقل، بحسب اتجاهات الهذيذ المختلفة، هذه الأمور: حزن من أجل الله أو فرح به، وقلب مفعم بالرجاء الذي يتطلع إليه باستمرار. وهذا الحزن والفرح، يحرقان بشدة حرارتهما الجسد ويلفحانه ويجففانه بسبب تدفق الدم الساخن الذي تشع حرارته وتسري في العروق؛ لأن لهيب حركات الذهن الناجم عن توقد الخدمة الخفية يُسخن كيان الجسد كله. هذا العمل الخفي يتفجر منه على الدوام نوعٌ عجيب من التحول، أمَّا أن يعطي فرحاً للنفس والجسد كليهما، أو أن يحزنها بتوجع شديد. كما أنه يولِّد غيرة ويقظة ليلاً ونهاراً من أجل الخلاص، وابتهال دائم مع توسلات حارة تُقدم لله بقلب متقد وحركة لا تتحول.

٣ - أمَّام هذه التحولات، أي جسد – ولو كان من حديد – لا يحترق ويذوب ويختفي كظلٍ بسبب ضعفه؟ وبمقدار ما يجف الجسد ويضعف عند هذه التحولات الإلهية، هكذا تتجدد النفس يوماً فيوماً وتزهر خلال تقدمها نحو الله في معرفتها الرُّوحية.

٤ – والذين أمضوا كل أيام حياتهم في هذه الخدمة سوف يدركون الطبيعة العجيبة والثمينة جداً لهذا العمل المبهج.

٥ – إن حدود الرجاء الثابتة التي هي الصفة البارزة للعمل الخارجي، تخص أسلوب التفكير اليهودي الناقص عند أولئك الذين يفتخرون بأصوامهم وعشورهم وطول صَلَوَاتهم، كما يقول رَبَّنَا، دون أن يمتلكوا في الداخل أية فكرة عن الإحساس الرُّوحي أو التأمل الصحيح في الله، لكي يزيّنوا به داخلهم برجاءٍ متزايد.

المَيْمَر الْخَامِس والعشرون

كيف أنه عند حدوث أمور عارضة مؤلمة، يثبت العقل في الهدوء والسلام بدون أي انزعاج، إن كان يطلب معرفة الحق في نفسه. أمَّا إذا تكدر بأفكار جاهلة فإنه بالأكثر يسخط بشدة مقابل هذه العوارض وبذلك يزيد ألمه. فالمعرفة تعزي الإنسان فيرتاح؛ ويدبر الله وسيلة لخلاصه من وجعه حين يقبل تعب فكره هذا باعتباره من الله.

١ – إذا تذكر الإنسان أن أوقات الرَّاحَة وأوقات الضيق إنما تحصل له جميعها من قِبل مشيئة الله، فبأمره يجد الرَّاحَة وبحسب مشيئته يُسمح له أن يحزن لأي أمر قد يعرض له، فمهما كان عليه أن يعاني كثيراً، فإنه سوف يوجد دائماً وسط معاناته دون سخط أو تكدر في فكره كل حياته خلال كل التغيرات التي تضغطه، بتَدْبِير من العناية الإلهية، في الجسد أو العقل. فهو بهذه المعرفة سوف ينعم بالهدوء، ويتطلع إلى الله في سلام عظيم، وفي رجاء، مقدماً الشكر له من أجل عنايته بالبشر، هذه العناية التي يوزعها عليهم باستمرار بما يناسبهم. ومثل هذا الشخص لا يلوم الشياطين على ما يعرض له من تكدر، ولا رفقاءه من الناس، ولا الجسد – لأن هؤلاء الثلاثة هم المصادر التي يمكن أن تنشأ منها كل المتاعب – بما أنه يدرك أن الله هو الذي يدفع هؤلاء للحركة؛ فليس بمشيئة أحد هؤلاء الثلاثة تكون الرَّاحَة أو يحدث الانزعاج، بل هي بمشيئة ذاك الذي يحركهم. فلا يتحرك فكر وَاحِد مريح فينا ما لم يكن كعطية تأتينا من الله، وحتى مجرد أصغر إحسان يصنعه معنا أي شخص، فإن الذي يدفعه إلى ذلك هو الله، ويكون ذلك العمل لازماً لتقويم حياتنا.

٢ – إيه أيتها المعرفة، كم أنت ممتلئة من الرَّاحَة، وأي منفعة عظيمة مستمدة من الله توجد فيك! مغبوط هو ذلك الشخص الذي لم يتكدر في كافة ظروفه من أي انفعال متسرع حينما تعرض له.

المَيْمَر السَّادِس والعشرون

بخصوص السبب الذي من أجله تأتي علينا التجارب المحزنة، التي مع أنها تكون بسماح من الله، إلا أن الرب الرحوم يوافق على ذلك، لكي بشتى الطرق المعادية تعرض لنا الضيقات حتى أننا نحزن ونتألم بواسطتها

١ – لو أن عقولنا لا تُفسد وتُعطِّل ما قد أُعدّ لنا من تنعمات وتعزيات من قِبل الله عن أن تصلنا باستمرار، لكنا نرتع كل أيامنا في الرَّاحَة والبهجة. فإن عقولنا الغبية التي تحتاج دائماً إلى اللجام لكي تُحفظ في السبيل القويم، هي التي تُعدّ لنا كل حين الحزن عوض الرَّاحَة والتأديب بدلاً من المؤازرة[٨٦].

٢ – لهذا، فكلما تكدرتَ واضطربتَ لما يعرض من البلايا والمنغصات، عليك أن تلوم عقلك لسبب غباوته. لأن عقلك هو الذي يشرد دائماً ويجمع التجارب ثم يحضرها إليك.

٣ – وهذا يفعله العقل أمَّا بسبب الآراء الحمقاء التي يتمسك بها من جهة الله، أو كنتيجة لاعتداد الشخص بذاته، أو لأسباب اللوم الذي تقذف به قريبك من أجل أمرٍ ما، أو بسبب أنك تسعى في طلب الكرامة لنفسك من الآخرين كما لو كان هذا حقك الذي تتوقعه منهم!

٤ – والاتضاع هو الدواء الذي يشفي ويُقوِّم كل هذه الأمور بصفة شاملة.

٥ – فلو كان الاتضاع يملك ويعمل بحريةٍ في عقولنا، لَمَا كان هناك موضع لكل هذه الأمور حتى تتباطأ هناك.

٦ – حقاً إنه لا يوجد أمر رديء يستلزم المجازاة أكثر من العقل الجاهل الذي لا يريد أن يلوم نفسه ويوبخها، أو أن يكف عن أن يتشبث بغباوة بالادعاءات المختلفة، مثل ذلك الشخص الذي يقول إنه قد تيقن من أن الله غير موجود بالنسبة له، بينما أن الله هو الذي تأتي من قِبله كل هذه الأمور.

٧ – اقترب بعقلك قليلاً من الله في تجاربك، يا صديقي. هل تعرف ضد من أنت تتعاظم؟ ثق أنك سوف تجد عوناً وراحة سريعاً إن اقتنيت الحكمة كي تتذكر العناية الخفية التي لهذا الإله نفسه.

✝

[2] حلل في بعض النسخ: ان حاجة العقل الى التجارب أمر معروف جيدا من أجل التأديب لكي يتقرب بها ويلتصق بالله أكثر من العالم (أي أكثر من مما لو كان يتفرق بين التجارب).

المَيْمَر السَّابع والعشرون

سؤال بخصوص الاتضاع الداخلي

١ – ولكنك قد تقول: "ماذا أعمل، إنني لا أعرف كيف أقتني الاتضاع العقلي؟ هذا الأمر ليس هو في استطاعتي، ومعرفته أعلى جداً من أن أدركها". وأنا أيضاً، يا أخي، أعرف أنك ضعيف جداً عن أن تكتشف ذلك، ولكن ما هو مستحيل عند البشر ليس هو كذلك عند الله. فعوض أن تخصص صلاتك لهذا الموضوع أو غيره، أو فيما يتعلق بشيء ما أو بآخر، اترك هذا كله واركن إلى صلاة وَاحِدة قائلاً:

٢ – "هبني، يا رب، الاتضاع حتى ما أتحرر من الذم، لكي ما بواسطة ذلك أقترب من تنعمات الذهن التي أنا غير مدرك لها – رغم رغبتي الشديدة في التعرف عليها – قبل أن أقتنيها". حينئذ سوف يمنحك الله عطية روحه الْقُدُّوس، هذه العطية التي ليس بإمكانك أن تتحدث عن مقدار عظمتها أو أن تتصورها. لأنك بواسطتها تصير متضعاً بطريقة خفية، شرط أن يراك لا تريد أن تبتعد أو تكف تماماً عن السؤال لأجلها بغير كلل، وأن لا تكون قد مللت من مداومة هذه الصلاة دون تبديل[٨٧].

٣ – تأكد، يا أخي، أن ذلك الاتضاع هو قوة يعجز عن وصفها اللسان، ولا يمكن أن تُقتنى بقوة بشرية، بل هي تُعطى في الصلاة لأي شخص تُمنح له، ويتقبلها خلال الأسهار في الابتهالات والتوسلات الحارة.

٤ – أنصت أيضاً لهذا القول من آبائنا، إذا كنت تبتغي الحصول على هذه العطية: "الاتضاع الداخلي لا يمكن أن يقتنيه الإنسان ما لم يداوم الهذيذ متفكراً به في الصلاة فيما تكون وحدك".

٥ – "والسبب في أنه لم يقتنِ الاتضاع هو لكونه لم يطلب من أجله ولم يغصب نفسه في هذا (الاتجاه). وهو لم يجد راحة لأنه لم يسهر عند باب رَبَّنَا سائلاً متوسلاً بدموع وتنهد كي يعطى له هذا".

[23] حاشية في الطبعة الإنجليزية: من أجل موضوع ما ... ومن الملائم أكثر في حالة شخص ما أو ظرف معين الصلاة من أجلي إذا كان الله يعرف أن هذا سيكون لخلاصه.

المَيْمَر الثامن والعشرون

اعتذار في صورة نصيحة بخصوص الفصول على التجارب وعلى الاتضاع، ولماذا كُتبت بهذا الترتيب

١ – إنني أعرف أنكم متحاملون عليَّ لكوني تركت تسلسل الكلام في موضوع حلاوة السيرة والفرح والمواهب المختلفة، وأخذتكم عوض ذلك إلى فصول عن الأدوية المفيدة التي ترد الحياة وقت الخطر. ولكنني لست جاهلاً إلى هذا الحد حتى أطعمكم بالعسل وحده دون تغيير، وأترككم وأنتم غير مدركين تماماً أنكم لابسون طبيعة تتأثر بالأمراض بسهولة. فمن ذا الذي لا يضحك مقابلكم حين تكابدون ضيقاً وأنتم لا تعرفون وسيلة وَاحِدة للخلاص، أو ما هو سبب المرض؟

المَيْمَر التاسع والعشرون

على الفوائد الْعَظِيمة التي تتولد من القراءة في الأسفار الإلهية، ومن التمعن في الأمور التي تعلمها. والرد على الذين يعيبون على من يعكف على هذا العمل الإلهي العجيب. وأيضاً في مدح الذين استحقوا أن يقضوا حياتهم في هذا العالم في التأمل النافع والاجتهاد

١ – إنني أتعجب كثيراً من الذين حينما يرون أحداً يجتهد في قراءة الأسفار المقدسة، ويفتش بمثابرة عن الأفهام التي تحتويها، وينشغل دائماً بالهذيذ بها وبما يشبه ذلك من تأملات عن هذا العمل الخفي. وهم يخاطبونه بالفعل بكلام صعب خال من الفهم أو المعرفة، مثل قولهم: "إنك مهما قرأت وأتعبت نفسك، فلن يكون تعبك ذا منفعة". بل وأكثر من ذلك ما يقوله البعض: "ما الهدف من الدراسة في الأسفار المقدسة، وما هي المنفعة التي تحصل عليها من التكاسل فيما أنت تبحث عن المعاني الرُّوحية وما أشبه ذلك؟ بينما المطلوب هو العمل المجدي. فإذا كنا نعمل بما نعرفه، فلا حاجة بنا لهذا الجهد الكبير الذي نبذله بالنسبة للأسفار المقدسة أو أي شيء من هذا النوع".

٢ – أمثال هؤلاء الناس لا يدركون ما يقولونه، ولا يشعرون أن هذا الأمر بعينه – أعني أن يمتلئ عقل الإنسان بفكر التَدْبِير الإلهي، وبالتذكر الدائم في ذلك، وهو ما ينشأ عن التأمل العجيب المزروع في الذهن عن طريق القراءة في الأسفار المقدسة والبحث عن الأسرار المخفية فيها – هذا الأمر يتضمن خلاصة وصايا رَبِّنَا والتتميم الكامل لها.

٣ – أن يقوم إنسان ما بأي عمل بواسطة الجسد وحده، هذا هو الطريق العادي لعامة

الناس. أمَّا من كان فكره دائماً مرتبطاً مع رَبِّنَا عن طريق قراءة الأسفار المقدسة والصلاة، والسعي نحو هذه الغاية بحركات الذهن، والتعزية والرجاء بما هو مخفي فيها؛ وكان بواسطة ذلك يهيئ عقله ويمنعه من الطياشة في الأوجاع، وبواسطة السرور الذي يأتي من الحديث مع الله؛ فإن مثل هذا الشخص يكون قد ثبَّت في نفسه كل الأعمال الفاضلة، بل ويكون قد أكملها تماماً دون نقصان. بينما جميع أولئك الذين يعملون في جميع أنواع الأعمال الفاضلة في شتى المجالات، هم أدنى من ذلك الشخص في طريق (تكميل) الوصايا.

٤ – فلنفرح إذاً ونقدم الشكر لله، لأننا حُسبنا أهلاً أن يكون بإمكاننا، ولو إلى لحظة قصيرة، أن نـهرب من الكلام والدردشة مع الأوجاع. فحتى لو كنا قد ننشغل بـها تحت ستار القتال، ولو لمجرد لحظة وَاحِدة، فإننا من خلال المفاوضة مع أي تأملٍ فاضل، نوجد فوق القتالات وفوق تذكر صور الأوجاع وحروبـها. ولا يمكن إحراز ذلك بغير القراءة المستديمة في الأسفار المقدسة في السكون، والبحث العميق عن الأفهام المخفية فيها، والصلاة.

٥ – القراءة في الأسفار المقدسة هي في الحقيقة النبع الذي تتولد منه الصلاة؛ وبواسطة هذين الأمرين (أي القراءة والصلاة) نرتقي باتجاه محبة الله التي تنسكب حلاوتـها باستمرار في قلوبنا مثل العسل والشهد، وتبتهج نفوسنا بالمذاقة التي يسكبها عمل الصلاة الخفي والقراءة في قلوبنا.

٦ – من هو الذي عرف ذلك اللهيب الذي يتقد في القلب كنتيجة لهذه الأمور؟

٧ – إذا كانت حراسة القلب هي أعظم الأمور أهمية، وهذه لا يمكن إحرازها لمجرد الجهاد أو اتخاذ التدابير من جانبنا، بل بمداومة الحديث مع الله؛ إذاً فطوبى للذين حسبوا أهلاً لهذا، الذين من خلال التصاقهم برَبِّنَا بفكر قلوبـهم، وبأذهانـهم التي امتلأت بتذكاره، حسبوا أهلاً للتخلص من الحديث والمفاوضة مع الأوجاع، من خلال تأجج شهوتـهم للحديث مع الله. والقراءة المستمرة في الكِتَاب المقدس، مع التمعن في كل ما هو فاضل، والتفتيش عن الأسرار، هذه تنشئ فينا المفاوضة التي تقودنا إلى الله؛ والذي يداوم عليها ويثبت فيها سوف ترشده في السلسلة الكاملة لأعمال الجسد.

٨ – العمل الفائق والخدمة المفضلة عند المتوحد هو أن يلتصق برَبِّنَا في فكره وتذكاره، ولو كان بصفة جزئية. وحيثما وُجدت هذه الحالة، فأي عمل بعد هذا يطلبه منا هؤلاء "الحكماء" الذين هم في الحقيقة يتركون عقولهم تمرح في الكسل وبدون تأديب؟

٩ – طوبى للذهن الذي حُسب أهلاً أن يكون مستغرقاً على الدوام في التأمل في الله، مثابراً على إمعان الفكر في أسراره. هنا يتحقق في كل لحظة قول المزمور: «يا رب، قد جعلتَ سروراً في قلبي» (مز٤:٧)؛ وأي شيء أعظم من هذا: أن يكون الإنسان دائماً مبتهجاً بالله، مسبحاً له كل حين «تسبيحاً جديداً» (مز٣٣)، ينبع كنتيجة للعجب، من القلب الذي يفرح، ضمن أشياء أخرى مثل ذلك تتولد من هذا المصدر، كتلك الصلاة التي تنبع بغتة باستمرار

وبصفة غير إرادية من أعماق القلب الذي يفتش عن المعاني الرُّوحية.

١٠ – الملل في القراءة هو في الحقيقة يوبخ كل من يقرأ عنه، وهو من نصيب الكسلان. لأن الملل يطرد منا أي تفكير في الله، والتعاطف معه يجعل ذهننا يسرح في مشاغل العالم من الأباطيل والاهتمامات البشرية، ومن المجادلات وما إلى ذلك. أو قد يكون أن الذي يقرأ لمجرد التلاوة إنما يعمل ذلك لكي يستمد من الكِتَاب المقدس مادة للمجد البشري أو لتثقيف العقل.

١١ – أمَّا الذي ينشغل بالكِتَاب المقدس من أجل الحق، فهو قد جعل عقله ساكناً في السماء على الدوام، متفاوضاً مع الله كل حين، وأفكاره مفعمة بالحنين للعالم الآتي. ويتراءى هذا العالم له دائماً كشيء مُزدرى، فيما يتأمل عقله في الرجاء المزمع، وهو في كل أيام حياته لا يختار عملاً آخر أو خدمة أعظم من هذا العمل.

١٢ – وما يعادل هذا، هو أن يكون شخص ما متشبهاً بالملائكة، بينما هو ما يزال في هذا العالم، حيث يكون تفكيره منحصراً دائماً في الله وفي الإلهيات. مثل هذا الإنسان، حتى ولو أنه لكونه لابساً طبيعة الجسد، يظل ملتصقاً به نوعٌ من الأوجاع من وقت لآخر بما أنه كائن بشري، إلا أن هذا الوجع يعبر عنه سريعاً دون أن يتمكن من أن يصيبه بأي أذى. وإن كان قد يحدث أنه يتصرف أحياناً بالطريقة التي تتصرف بها الطبيعة المرتبطة بالجسد، إلا أنه يُشفى بلا تأخير، لكونه يتحول سريعاً عن ذلك الفعل ويعود إلى تأملاته المعتادة، أقصد بها تلك التي ينشغل بها قلبه دائماً من تلقاء ذاته، وهكذا يُجتذب إلى سمو مستوى مفاوضتها دون أن يكون لذلك الوجع أي أثر أو رائحة متبقية فيه على الإطلاق. 🕯 ✝ 🕯

المَيْمَر الثلاثون

على السبل الفاضلة المجيدة التي تقود إلى الله في السكون

١ – كما أنه ليس هناك ما يشبه الله، كذلك ليس هناك أي عمل أو خدمة تعادل الحديث مع الله في السكون.

٢ – وما هو الحديث مع الله؟ هذا الهذيذ والحديث مع الله له سبل كثيرة، وكل شخص يتخذ لنفسه السبيل الذي يتناسب مع مستوى معرفته ويمكنه أن يحرز فيه تقدماً ويزداد اقتراباً بواسطته إلى الله نتيجة لما يدركه من خبرة يومية. ويمكن للإنسان أن يسلك في أحد هذه السبل بحسب قياس قامته، لكي يبلغ عن طريقه إلى الفرح مع الله، ويمتلئ في ذهنه وفي هذيذه بتذكاره الدائم كل حين.

٣ – فكما قلت، توجد هناك طرق كثيرة لهذا الحديث مع الله في السكون؛ وكل أحد، بقدر ما يقترب إلى حضرته بمعرفة، سوف يختار بحسب ذلك الطريق الذي يناسب قامته. وليست كل الطرق تصلح لكل أحد، ولكن كل وَاحِد بقدر تقدمه في التربية الجوانية لتَدْبِيره (النسكي)، سوف يدله ضميره أي الطرق يتخذه دون أي تعليم من آخر، وذلك من خلال النعمة التي تشهد

له من الداخل؛ فهي تعلِّمه بإظهار طريقها الخفي. وهكذا فكل شخص، بحسب قياس قامته سوف يختار بنفسه عمله في الطريق الذي يمكن بواسطته أن يبلغ الحديث الفاضل مع الرب والعجب به.

٤ – فالوَاحِد قد يقضي اليوم كله في الصلاة والقراءة في الكِتَاب المقدس، ويُعطي قدراً قليلاً فقط للوقوف في تلاوة المَزَامِير، وبـهذه الكيفية يزيد في داخله تذكار الله الدائم.

٥ – والآخر قد يشتغل اليوم كله في التزمير فقط، دون أن يكون له اهتمام قط بالصلاة بوجه خاص. بينما قد ينشغل آخر ليلاً ونـهاراً في السجود المتواتر، ويدمج القوانين الثابتة لخدمة الساعات والصَلَوَات داخل مطانياته الكثيرة دون أن يخصص لها وقتاً معيناً. هذا هو الشخص الذي بحق قد صلب العالم داخله، وصُلب هو مقابل العالم (غل٥:٢٤) وقد علق نفسه على الصليب من خلال تخلِّيه عن كل شيء.

٦ – ولهذا، كما قلت، فهو إذ يكون قد أدرك ذلك في نفسه بأقصى ما في قدرته، بواسطة صلبه للجسد والعقل، فإنه يقضي كل أيام حياته مع المسيح. وإذ يتوقف أحياناً بعض الوقت وهو في سلامٍ في قلبه، يتحول قليلاً إلى الهذيذ في الكِتَاب المقدس.

٧ – وقد تجد آخر يشغل نفسه اليوم كله في قراءة الكِتَاب المقدس، ويكون هدفه من ذلك أن ينسى هذا العالم الزائل، ويصير مائتاً في عقله لأي تذكار لأموره الفانية، ولكل مفاوضة مع أفكار الأوجاع؛ لأن هذه كلها تظهر نفسها من خلال ما يراه العقل وتصوراته، التي هي مجمل كل حروبه. فهو إذ يتخذ تَدْبِير المعرفة هذا، يسدّ باب عقله مقابل العالم بواسطة المسرة الدائمة التي تنبع من القراءة، وبـهذا يمهد طريقه فيما يتقدم باتجاه الله بدون أي ظلام يكتنف عقله. وإذ يبتهج بأفهام الأسرار (الإلهية) وبالعجب في تَدْبِير الله كل حين، يُعطي نفسه قليلاً للوقوف في الصلاة والتزمير، إلا أن نصيب القراءة عنده يكون أعظم من نصيب الصلاة.

٨ – وبقولي "الصلاة"، أعني هنا بوجه خاص تلك التي تكون بالوقوف بعض الوقت، أو أي عمل آخر خاص بالعبادة. لأنه (في الواقع) إذ يكون الإنسان منشغلاً في قراءته، لن يكون مطلقاً لحظة وَاحِدة خالياً من نبضات الصلاة، لأن أية قراءة في الكِتَاب المقدس، يكون قد انشغل بـها بـهذا الاهتمام الرُّوحي، لن تخلو من فيض الصلاة، بما أن ذلك الشخص يكون بكلَيْتَه منتشياً بواسطة الأسرار التي يصادفها. فالصَلَوَات العميقة تصدر منه دون أن يدري وبطريقة عجيبة وبغير استعداد أو إرادة من جانبه. ولماذا نطلق كلمة "صلاة" هنا على سُكره المتواتر بواسطة بعض الأفهام، مع أنه لم يعد هناك أي مكان بعد لحركة وتذكار الصلاة؟ إن هذا الأمر هو أعظم بكثير جداً – بقدر ما يمكن أن يقال – حتى من مستوى الصلاة نفسها.

٩ – فالصلاة هي أقل مرتبة من أن تتحرك بالرُّوح، ليس في ذلك جدال؛ لأن الصلاة هي أدنى من هذا السر. وفي أحيان كثيرة عندما يتحرك الذهن بواسطة بعض الأفهام التي تنشأ عن أحداث أمَّا في الطبيعة أو في الكِتَاب المقدس، حين يحس بغايتها الرُّوحية، ثم يحدق، بمعونة

النعمة المرافقة له، إلى داخل قدس أقداس أسرارها، عندئذ لا يملك أدنى قوة لكي يصلي، ولا يبقى أي فكر له هناك؛ لأن هذا الشخص يكون قد تملك عليه السكون في الجسد والنفس كليهما.

١٠ – لكل حدث أو كيان طبيعي أو نطق يوجد هيكلٌ وقدس أقداس. فحينما يُعطى للذهن الإذن ويمنح القوة لكي يدخل هناك، لا تبقى فيه بعد قوة ولا حركة أو فعل للحواس أثناء تلك الأوقات.

١١ – يوجد الآن بين المجتمعين هنا شخص قد اختبر هذه الأمور دائماً: وأعلم أن قلبه يطفر سريعاً كلما صادف هذا النوع من القراءة الذي يأتي من الخبرة ومن إشارات هذه الأمور التي ذكرناها. ولكن لأننا ما زلنا مهتمين بالجزء الأقل من العمل الرُّوحي، سوف أسكت بالنسبة للجزء الأكثر أهمية.

١٢ – هذه إذاً هي أنواع السبل المختلفة التي يتبعها المتوحدون المُفرِزون، وهكذا يجدون البهجة في الحديث مع الله في السكون.

١٣ – فهل لك، يا رفيقي، أن تختار أحد هذه السبل الذي يناسب قامتك ومعرفتك. تقدَّم في هذا السبيل ولا تلتفت للآخرين، بل حوِّل كل انتباهك بعيداً عن العالم والناس وعن كل الاهتمامات البشرية. وليكن هدفك متجهاً إلى الله وحده وسرْ في الطريق الذي يقودك إليه. جاهد بأقصى ما يمكنك أن تقتني تذكاره الدائم، حينئذ ستكون مسيرتك سهلة وبدون توقف، فيما تتضرع إليه باستمرار.

١٤ – أظهر لي يا رب طرقك، وعلمني بالرُّوح سبلك الكثيرة جداً الفائقة الوصف، واهدني طريق الحق، وعلمني معرفتك الكاملة التي توجد في قديسيك الذين هجروا العالم. أيُّها المسيح، غاية طريق القديسين، أظهر لي طريق الحق في قلبي بواسطة حلاوة التطلع إليك، لكي ما أسير وأتقدم في هذا الطريق نحوك إلى أن أرى وجهك. 🕯 ✝ 🕯

المَيْمَر الحادي والثلاثون

شرح وإيضاح لما قيل، مع تحذيرات مناسبة لموضوع مسيرتنا نحو الله

١ – هذا أيضاً من الضروري أن تعلمه: مع أنه توجد كل هذه الطرق المتباينة في هذا العمل الهادئ المحبوب، عمل السكون، إلا أنه في البداية حين يشرع الناس في تَدْبِير السكون لا يبدأ كل وَاحِد باختيار أحد هذه السبل المتميزة ليسير فيه، بل يكون أول الطريق وبداية المسيرة وَاحِداً للجميع. وهذا الأمر يعرفه كل أحد، بسبب أسلوب الجهاد الوَاحِد الذي تكون عليه بداية عمل هذا التَدْبِير، أعني الجهاد الدائم في خدمة التزمير مع الصَّوْم، وأيضاً قراءة الكِتَاب المقدس لمن تتوفر لديه القدرة على ذلك، ولو أن مثل هذا الشخص لا يستطيع، بل ولا يسمح له على الإطلاق أن يحس بالمعنى الكامل لما يقرأه، حتى ولو كان متعلماً جداً ومتمرساً في

القراءة العادية والترجمة الدقيقة للكلمات. أمَّا المعنى الحقيقي الذي يتمشى مع المدلول الرُّوحي فهذا شيء تمنح القوة الإلهية مذاقته للشخص بما يتناسب مع نمو إنسانه الداخلي وتقدمه الخفي في السيرة النسكية، وهذه القوة هي التي تعمل كمرشد له عبر بحر السكون الْعَظِيم المترامي الأطراف.

٢ – وهكذا كما قلت أعلاه، عند أول وبداية المسيرة هناك طريق وَاحِد وبداية وَاحِدة لجميع الذين يسلكون في السكون.

٣ – أمَّا بعد ذلك، فمتى دخل الشخص في تَدْبِير النسك بطول الطريق وعرضه، فكل هذه السبل المتباينة والطرق التي تكلمنا عنها بوضوح في مستهل مقالنا هذا، تبدأ بعد ذلك في التفرع. لذلك فلنمسك بالفكرة عينها بخصوص أنواع الطرق المختلفة التي شرحناها هنا، كما سبق أن أثبتناها في الفصل عن التغيرات في الممارسات النسكية[٨٨]، والتي ذكرنا جانباً قليلاً منها من قبل في مكان سابق؛ ولو أن هذا المقال الحالي قد يختلف في بعض الأمور عنه في تلك الأخرى في مدى وضوح الكلام عنها.

٤ – كل الأشخاص يشتركون في جزء صغير أو كبير في سائر أعمال التَدْبِير النسكي، إلا أن كل وَاحِد بمفرده ينشغل في نوع وَاحِد متميز من هذه الأعمال، وينتفع منه بصفة خاصة؛ بما أنه يشعر أنه يحرز تقدماً أفضل من خلال القيام به؛ وبواسطة التدرب عليه يقترب من إضاءة الأفكار واستنارة الذهن أكثر مما يفعل بممارسته الأعمال الأخرى. وإذ يثابر على هذا العمل بصفة خاصة يجد أنه ينجح فيه أكثر من أي عمل آخر.

٥ – وهذا الأمر لا يأتي وسط تقلبات الجسد والصراع المعتاد ضده، بل من خلال خبرة طويلة وتمييز لما يتذوقه الشخص، فيدرك منفعة الجهاد العجيبة وثمار المعرفة، والكنز الذي يختزنه داخل نفسه كنتيجة لممارسته خدمته.

٦ – وهذا (قد يكون) أمَّا من القراءة في الكِتَاب المقدس أو من خدمة التزمير أو الهذيذ أو الصَلَوَات أو جهاد الميطانيات، أو ما يصلي به سراً في القلب. وهذا يطابق ما قيل: "إن الناموس لم يوضع للأبرار" (١تي١:٩)؛ وذلك لأنهم في كل ما يعملونه يكون هدفهم هو الاقتراب من الرب، ويستخدمون الجزء الذي يحقق لهم ذلك بسرعة، ويختارون أي جزء من القانون يمكن عن طريقه أن تضيء محبة الرب فيهم بأكثر بهاء. وهم لا يعنيهم إن كان هذا الجزء (الذي يختارونه) يخص قانون الجماعة أو أنه يفترق في هدفه عن عادات الآخرين؛ لأنهم لا يُستعبدون لعادة ولا يتقيدون بحدود التفاصيل الدقيقة لمجموعة قوانين الجماعة التي وضعت لغير المدربين. وكثيراً ما تأخذهم خدمتهم أمَّا إلى اليسار أو إلى اليمين (بالنسبة لها)؛ لأنهم مثل أناس قد اقتربوا من الحرية في معرفتهم لسبب استعداد إرادتهم أن يرضوا ربهم: فهم يشتاقون فقط أن يَصِلوا بأسرع ما يمكن إلى معرفة الرب والإحساس به؛ ولا ينظرون إلى

[22] المزمور الثالث والعشرون

أي إنسان أو إلى آراء الناس أو عاداتـهم.

٧ – وهكذا في كل شيء يبتدئون به مسيرتـهم يحصلون على المعونة في تقدمهم من أجل هذا الأمر الوَاحِد: أعني أنـهم في كل عمل يشرعون في عمله، تجدهم يؤدونه بكل اجتهاد وبشعور من الرهبة وليس بازدراء واستهانة. وكنتيجة لذلك يجدون مؤازرة بالأكثر بواسطة قوة إلهية، من أجل ذلك الشيء الوَاحِد الذي قلنا إنه يملك على خدمتهم.

٨ – ومع أنـهم يتدربون في مسيرتـهم بمثل هذه الحرية مع أنفسهم، بما أنـهم أعلى من أي قانون، بسبب الحق الذي اقتنوه في داخلهم، أعني المحبة الإلهية؛ إلا أنـهم عندما يأتون إلى الناس وإلى المجمع، يسلكون كما يفعل الآخرون تماماً، ويتبعون كل الممارسات التي تلتزم بـها الجماعة في كل شيء، ويكونون معهم جنباً إلى جنب في كل قوانينهم، ويتخلون تماماً عن ممارساتـهم المعتادة الخاصة بـهم. ولـهذا فهم مطَالبون بكل شيء، ويُحسبون أهلاً لنعمة الله؛ بما أن الاتضاع يرافقهم في كل مكان، وخشية الله وتوقيره أمَّامه. وحينما يكونون بمفردهم، يرافقهم الله في حريتهم بكل خدمتهم؛ لأنـهم يشعرون بالخجل والرهبة أمَّام الله كلما شرعوا في الصلاة إليه وخدمته وهم في حالة من الكسل أو الانحلال. وهم يعملون ذلك حتى ولو كان جسدهم ضعيفاً، ولو أنـهم قد يقدمون خدمتهم في شكل قصير ومختصر، إذ أنـهم يكونون (مع ذلك) مملوئين بإحساسٍ من التوقير والرهبة في جميع أفكارهم؛ وكذلك أيضاً بيقظة أمَّام الرب، هي علامة أن الجسد متحفظ بكل حواسه في تلك الأوقات؛ وبـهدوء وسكون النظر والأعضاء التي تقف في استعداد أمَّام الله بكل ما يليق بتلك اللحظة الخاصة، وهذا يتضمن انسكاب القلب والانتباه بكافة الأعضاء. ومع أنـهم قد يكونون في حالة من الحب، إلا إنـهم لا يستعملون الدالة في الحديث التي تأتي من الرخاوة، بل إن دالتهم في الحديث تكون نابعة من الاحترام.

٩ – إنه لأمر مخيف جداً أن نمثل أمَّام الله برخاوة وانحلال تحت ستار الدالة في الحديث أو متعللين بالحرية؛ فإنه قد يأتي علينا العقاب بغتة ونحن في تلك الحالة.

١٠ – هل تدري أيُّها الإنسان المتراخي أمَّام من أنت تقترب لتقدم ذبيحة حركات خدمتك؟ إنك لم تختبر بعد صرامة الرب حين يتحول من يمينه الفائضة باللطف إلى يساره مطالباً بحقه الواجب من أولئك الذين يسيئون إليه – فكم يشتد غضبه وكم يمتلئ غيرة في ذلك الوقت. إنه لن يرجع عن حمو غضبه حتى ولو توسلت إليه طويلاً، ما دمت قد أغضبته؛ بل إنه يتقد كالتنور (مل٤:١) في غضبه. فهل بعد هذا نجترئ نحن أن نظهر بكسل وانحلال في صلاتنا التي نقدمها إليه، وفي باقي أعمال خدمتنا أمَّامه؟ وهل نقترب ونكملها برخاوة الجسد؟ ينبغي أن نتفطن في أنفسنا بالنسبة لذبيحة الصلاة التي نقدمها: من هو الذي نقترب إليه لنقدمها له؟ لئلا نقبل هلاكاً لنفوسنا بعلة نوعٍ من الحرية الفاقدة الإحساس، حين نسيء إلى كرامة الرب؛ وحين نموت، أو يؤخذ عقلنا مناً، يجتذبوننا من هناك كما حدث لكثيرين من الذين قبلوا جلدات مثل هذه وقت الصلاة. لَيْتَ الله يمنحنا بنعمته فهماً كاملاً لكي ما نسلك أمَّامه كما يليق بعظمة جلاله كل أيامنا، آمين.

المَيْمَر الثَّانِي والثلاثون

على التغيرات التي تنشأ من الحركات المقدسة والسيرة الهادئة، التي تُوهب لنا من قِبل رحمة رَبِّنَا وقت الصلاة

١ – قد يعرض في بعض الأوقات أن يصير شخص ما أهلاً للصلاة الحارة نتيجة تدفق النعمة؛ حينئذ يختبر في هذه الصلاة حركات متزاحمة بلا عدد، حيث تتوارد الصَلَوَات بقوة، صَلَوَات نقية وحارة بآنٍ وَاحِد، تشبه جمر النار. وسط هذه الحركات يرتفع من أعماق القلب صراخ شديد (عب٥:٧)، ويمتزج بالاتضاع الذي يتولد من قوة الفرح. ومن المصدر الذي تأتي منه هذه الأمور، يتقبل معونة خفية في حركاته خلال تلك الأوقات من الصلاة نفسها، وتتحرك في النفس نار ملتهبة كنتيجة لهذا الفرح، حتى أن الإنسان يهبط إلى أعماق الاتضاع في أفكاره.

وهكذا تنبع هذه الحركات له في صلاته في صورة (صَلَوَات) نقية وقوية ومزدحمة تتدفق باندفاع شديد: وهي تكون في أعمق جزء من القلب، وتصحبها نظرة لا تحيد متجهة نحو رَبِّنَا. ويتراءى لذلك الشخص أنه إنما يقترب من رَبِّنَا في ذلك الوقت وهو بجسده هذا ، بسبب إخلاص أفكار صلاته التي ترتفع إليه.

٢ – وعندما يكون الشخص أهلاً لصلاة الفهم، ففي اللحظة التي يلاقي فيها أصغر كلمة في الصلاة، سرعان ما تجف الصلاة في فمه ويصير ساكناً من كافة الحركات. وينتهي به الحال إلى السكوت بغير حركة في نفسه وفي جسده كليهما.

٣ – والشخص الذي اختبر السير في هذا السبيل سوف يفهم علاَمَّات نوعي الصلاة هذين اللذين ذكرناهما.

٤ – هناك من يتصور أن مستوى وحركة الصلاة بالرُّوح يتضمن أحد هذه الأمور؛ فالذي يفكر هكذا عليه أن يعرف أن كل هذه الأمور وأموراً أخرى مثلها بلا عدد إنما تخص الصلاة النقية والأفكار النقية على مستوى النفس، وهي التي تنشأ في النفس تحت اسم الصلاة. أمَّا في الحياة بحسب الرُّوح، من جهة أخرى، فلا توجد بعد صلاة. وكل نوع من الصلاة تكون، هي بالتالي تتضمن أفكاراً صالحة، وتكون حركاتها على مستوى النفس. أمَّا في مستوى التَدْبِير الرُّوحاني، فلا تكون هناك أفكار أو حركات، بل حتى ولا أي إحساس أو أقل حركة للنفس بخصوص أي شيء؛ ذلك لأن الطبيعة البشرية قد ارتفعت كلية من هذه الأمور، ومن كل ما يتعلق بها هي نفسها. وعوض ذلك تبقى في سكون لا يوصف ولا يمكن تفسيره، بسبب فعل الرُّوح الْقُدُس الذي يتحرك فيها ويدفعها أعلى من مجال معرفة النفس.

٥ – فماذا نقول إذاً؟ وحيث لا تكون هناك أفكار، كيف يمكن أن نتحدث بعد عن صلاة أو عن أي شيء آخر؟

٦ ــ وبخصوص هذا المستوى، إذا كان هناك من يرغب أن يسمع عن ذلك بتفصيل، فليقرأ المقالة الكبيرة التي رتبناها عن صلاة الرُّوح؛ ومنها سوف يفهم بوضوح القصد الكامل لهذا الرأي عن تَدْبِير الصلاة والأمور المرتبطة بنقاوة الصلاة أو عدم نقاوتها؛ فهو سيعرف ما هي هذه الحركة الرُّوحانية، ولماذا يُسمى ارتفاع مستوى النفس فوق الحركات باسم الصلاة حتى ولو لم تكن هناك صلاة على مستوى التَدْبِير الرُّوحاني هذا، فكل هذه المواضيع قد تكلمنا عنها بوضوح في ذلك المقال[٨٩].

[26] الجزء الثاني ص ١٤٨ (النسخة الإنجليزية).

المَيْمَر الثَّالِث والثلاثون

على التغيرات الجيدة والرديئة التي نتقبلها من التغيرات في نظرتنا للأسفار المقدسة

١ – أذكّرك أيضاً يا رفيقي السائر في السكون بـهذا الأمر: ضع علامة عليه، ولسوف تجده أمراً صادقاً ومختبراً، أن القراءة بحسب طريقة اختيارها تخفف الظلمة والكآبة عن الأخ أثناء تواجده في قلايته، فتجعله يبتهج ويفرح بالله؛ ويصير ثقل أعماله خفيفاً لديه، ويجد عزاءً ويقبل يقين الرجاء وإدراك العقل. وأيضاً بحسب نوعية وطريقة القراءة التي يتمعن فيها، يصير مظلماً ومغموماً، حيث تظلم أفكاره ويصغر العالم في عينيه.

٢ – ولا تقل لي: "توجد أوقات يُترك فيها الأخ في هذا الحال بتَدْبِير من العناية الإلهية بدون أي سبب (واضح) كوسيلة للتدريب والاتضاع". وأنا نفسي لا أقصد أن أتغاضى عن الأشياء المستحيلة (عند الناس)، أو الأمور التي تختص بالتَدْبِير الإلهي – مثل هذه الأمور لا تفوتني. حاشا لي أن أناقض تَدْبِير المشيئة الإلهية؛ بل إنه في تلك الأحوال غالباً ما يكون هناك سبب لحدوثها مصدره نفوسنا. وأنا أشير هنا إلى السعادة والكآبة، وإلى الإحساس بالضيق والكلل، وإلى الدفء الشديد ونشوة القلب بالفرح، وانطفائها. ولو أننا في أحيان كثيرة نتصور أننا قد تُركنا من قِبل العناية الإلهية للظلام والاضطراب، وقد اقترَبَّنَا لأي سبب كان من كلمات مثل هذه – فإننا حالما نقترب من ذلك، يلاقينا الفرح والعزاء من داخل الكِتَاب المقدس؛ ونتحقق من أن حالتنا المضطربة هذه كانت هي السبب، وأن ظلمتنا مصدرها هو عدم اهتمامنا بالحديث بمعرفة مع الله.

٣ – وأنا نفسي كانت لي خبرات كثيرة في هذا الشأن. وما اكتشفته يطابق ما قدمته هنا كمذكر لكم، بدافع من المحبة الأخوية؛ لأن كثيرين حسب ظني ينتفعون من هذه الخبرات، ويحرزون تقدماً حين يتحققون من أن أكثر من نصف حالات الشعور بالضيق أثناء السكون تختفي بواسطة أنواع القراءة الرُّوحية؛ وفي بعض الأحيان بواسطة المعرفة (أو الأفهام) التي يتذوقونـها من الاستنارة التي تنبثق من خلال الحكمة المخفية في الكلمات.

المَيْمَر الرَّابع والثلاثون

على التعزيات التي يمنحها الله بتحننه للذين يلازمون السكون من أجل الله

١ – من يستطيع أن يدرك علو نعمة الله، ومن يقدر أن يسبر أعماق تحننه؟ إن الذين يخدمون في حضرته بإحساس من الواجب وليس كما لو كان من أجل أية مكافأة، هؤلاء يحسبهم أهلاً لتعزية عظيمة. فالذين يعملون من أجل الأجرة هم الذين لا يفرحون إذا كان عليهم أن يحتملوا الأحزان والشدائد وما أشبه ذلك من الأمور المؤلمة من أجل رَبِّنَا؛ فبعد أن يكونوا قد عملوا لوقتٍ قليل ولم يحصلوا على العزاء أو يجدوا الرَّاحَة حسبما يتوقعون، ينتهي بهم الحال إلى الملل والشكوى وصغر القلب. يحدث هذا لكونهم لم يضعوا في فكرهم أن الحزن من أجل الله هو في الحقيقة بمثابة عيد عظيم لنا، حتى ولو كان سيدوم معنا بدون عزاء وبلا انقطاع حتى نهاية حياتنا. والذي لا يقبل هذه المعرفة ولا يثابر في هذه الأمور (التي هي) من الله، سوف لا يجد الله يجمع ويكوِّم له بحسب ما هو له؛ ولا يجد هو في داخله مكاناً للحفظ. لأنه حقاً إن الذين يزرعون بالدموع بفكرٍ غير محدود كالأطفال، سوف يحصدون بالفرح أكثر مما يتوقعون (مز١٢٥: ٥).

٢ – في بعض الأوقات، حينما يكون الشخص جالساً في السكون يقظاً ومتحفظاً، وليس له من يدخل إليه ويخرج؛ فبعد مفاوضة كثيرة مع الأسفار المقدسة، وابتهال مستمر، وشكر في ضعفه، وهو دائم التأمل في نعمة الله، التي ترد بعد حزن كثير في السكون – من تلك البداية تتولد سعة القلب قليلاً قليلاً، ويحصل له انتعاش يولِّد فرحاً في داخله؛ ولو أن ذلك الفرح لا يكون له مصدر من الشخص نفسه كما لو كان بنوعٍ من فعل اجتهاد الفكر. فهو يدرك أن قلبه يمتلئ فرحاً، ولكنه لا يعلم السبب في ذلك. لأن نوعاً خاصاً من الابتهاج الشديد يملك في نفسه يتضاءل أمَّام لذته كل شيء موجود أو مرئي، ويرى الذهن من خلال قوته من أين ينشأ سرور الفكر هذا؛ أمَّا لماذا يحصل فلا يستطيع أن يدركه. وهو يرى أن الذهن قد ارتفع من الخلطة بكل شيء آخر، ويعلو ويجد نفسه في غلوتها أعلى من العالم، وأعلى من التذكارات التي تأتي من أسفل؛ وهي الآن تزدري وتُبعد العالم الزمني كله بعيداً جداً عنها؛ ولكنها لا تميز أي امتداد للذهن عند نشوة القلب هذه، أو انسحاب للعقل عند توجعه.

٣ – ولا يقدر أحد أن يستوعب طبيعة هذه الأمور التي تحصل معه من خلال نعمة الله. وكل ما نستطيع أن نقوله هو: كم هو مغبوط ذلك الشخص الذي بسبب الرجاء في نعمة الله قد احتمل الحزن، الذي هو اختبار لفضيلة العقل وتربيته (أي مدى تقدمه). إنه يشبه عتمة الشتاء التي تدفع البذور المخفية في الأرض لتنبت وتنمو بينما هي تتحلل تحب التربة بسبب تغيرات الطقس القاسية الشديدة. بنفس التوقع وانتظار الثمر في النهاية، إذ نحافظ على هذا الرجاء على امتداد الوقت، يمكن للإنسان أن يتخلص من صغر النفس، فلا يسلم عين نفسه للظلمة؛ وذلك بممارسة الهذيذ في الأمور التي يثبِّت نظر عيني نفسه بحرص زائد فيها؛ لأنه من خلال

ذلك عتيد أن يتفجر في نفسه الفرح ومسرة العقل. وهذه الأمور ينبغي أن ينتظرها طويلاً ولا يظن أنـها ستكون في متناول يده قريباً. لأنه إذا لم يقبل العزاء عن أعماله على المدى القريب، قد ينتهي به الحال إلى اليأس مثل العامل الأجير الذي أصابه الغبن ولم يحصل على الأجرة التي عمل من أجلها.

وقد يحدث أيضاً أن يضع شخص ما لنفسه توقعاً يتحقق في المستقبل القريب، وذلك بنوعٍ من الحكمة الماكرة والتحايل، لكي يقطع من نفسه الكآبة من خلال هذه الوعود ويحصل على الرَّاحَة لنفسه. لأن النفس تقبل بسهولة الأفكار التي تتعلق بالرجاء وكثيراً جداً ما تتحول من الحزن إلى الرَّاحَة من خلال التوقع.

٤ – لو لم يكن هناك قتال لَما كانت هناك حاجة للتحذيرات. كثيرون يظنون أن تحذيرات مثل هذه لا داعي لها، كما لو أنه لن يعرض للإنسان أي شيء على الإطلاق! فلو كان الأمر كذلك بالفعل، لكان كل وَاحِد يحظى بـهذه البركات بالتساوي، ويلاقي هذه الأمور الفاضلة التي للنفس على السواء، ولكان لا يُعرف عن شخص ما أنه متكاسل وعن آخر أنه متيقظ حريص – أو أن الكل سينقلبون أشراراً! لكنني أعلم هذا: أن مثل هذا الفكر هو نفسه من صنع الكسل الذي يولد من التراخي في مواجهة الكآبة، (التراخي) الذي يلد هذا التفكير نفسه؛ لأنه لا اليقظة ولا الصلاة ولا الابتهال تكون بعد شيئاً ذات قيمة: وليرقد الإنسان ولا يشغل باله! لأن الغواص إذا وجد لؤلؤة في كل صدفة يلتقطها لصار كل وَاحِد غنياً بسرعة! وإذا استطاع أن يحضر لؤلؤة لحظة قيامه بالغوص، دون أن يتعرض لملاطمة الأمواج أو يتلاقى مع سمك القرش المفترس، ودون أن يصبر على كتمان تنفسه حتى يكاد يهلك، ودون أن يحتمل الحرمان من الهواء النقي الذي يتمتع به كل أحد، وينـزل إلى العمق – لو كان ممكناً أن يتفادى كل هذه المخاطر، لكانت اللآلئ تأتي بكثرة وبأسرع من ومضات البرق!

٥ – وهذا شرح لما قلته: لنعتبر أولئك الذي يغوصون في بحر السكون كمعلمين، الذين يحطون على غنى البحر وينـزلون إلى قلب الأرض. ولنعتبر أن الأصداف هي الصَلَوَات التي يحط الذهن عليها، وأفهام التأملات، والمعرفة الإلهية، والحكمة والفرح في الرُّوح.

٦ – أمَّا الغواصون فيغوصون مرات كثيرة ويجدون أصدافاً كثيراً ما تكون مجرد أجسام رخوة لا غير؛ ومرة وَاحِدة من وقت لآخر يصادفون فيها لؤلؤة. فخبرتـهم هي أيضاً خبرتنا في صناعة الصلاة، فبالكاد نصادف لؤلؤة وَاحِدة داخلنا نجد فيها عزاءً وراحة مما أدركنا من الملل والضعف.

٧ – والماهرون في هذه الصناعة الذين يقتنون خبرة السنين والتمرس الطويل في هذا العمل، يعرفون أيضاً كيف يوجهون حركات أجسادهم لتغوص إلى المواضع العميقة حيث يمكنهم أن يجدوا اللآلئ الفاخرة كثيرة الثمن. وبالمثل فإن هذا يحدث بالنسبة لقدرة العقل الذي يعوم في مثل هذه المواضع وقت الصلاة – أمَّاكن ليس من السهل لكل أحد أن يعوم فيها.

٨ – أمَّا بالنسبة لنا نحن الضعفاء، حيث يكون عومنا قريباً من الأرض اليابسة، فلا نجد سوى اللآلئ الصغيرة التي تصادفنا – هذا إن صادفتنا بالمرة. فهي تصادفنا فقط حين نغوص بشوق واجتهاد المرة تلو الأخرى بمداومة، ونضبط تنفس أفكار العالم أثناء صَلَوَاتنا وقوانين خدمتنا التي تتضمن قدراً قليلاً من الدموع.

٩ – لأنـها (أي الدموع) تحمل إحساساً دافئاً يأتي من نعمة الله وينسكب علينا، وهي التي من خلالها ننال غفران خطايانا وحرارة وسلأمًّا لذيذاً، وفرحاً وشعوراً باستضاءة غير متوقعة؛ وأحياناً شهادة ليقين رجائنا الراسخ، وأفهاماً خاصة عن عناية الله وتعزيته لنا.

١٠ – من هو الذي لم يختبر وقتاً ما هذه الأمور في السكون كل نوع في وقته المناسب؟ أتراه سينكر ذلك ويقول إن نعمة الله التي ترافقه قد خدعته؟

١١ – فإذا كنا ونحن لا نزال في مستوى الطفولة تأسرنا الرغبة في أن نرى الغنى الذي أحرزه الآباء الأجلاء، وما زالوا، فنحاول بإصرار أن نتجه إلى المواضع الأكثر عمقاً في البحر حيث كانوا يغوصون، فإننا سوف نغرق في البحر.

١٢ – وإذا كنا لسبب أنه يتراءى لأعيننا أن اللآلئ التي نحصل عليها بسهولة هي صغيرة بالمقارنة بما لهم؛ أو إذا كنا قد تراجعنا بسبب أتعاب البحر، وتوقفنا نـهائياً عن جهادنا؛ فنحن لن نتعلم أبداً شيئاً عن العوم الذي يكون في الصلاة، ولن نبلغ إلى مهارة العقل التي تخص حكمة الرُّوح، كما ولن يمكننا أن نغوص إلى الأعماق التي تحمل كنوز الغنى. وقد لا نحصل على خبز يومنا الذي يكفي لقوام حياتنا القصيرة، وينتهي بنا الأمر إلى العوز، ونمكث دائماً في افتقار شديد. لأن يد الرب التي علّمت آباءنا عن العوم الرُّوحاني الذي يحصل في الذهن، وعن الثقة في رحلة البحر المملوء غنى هذا مقداره، لا تقصر عن أن تمنحنا نحن أيضاً عوناً في حينه، بذراعٍ قوية تسيطر على أمواج البحر المخيفة، لكي نصل إلى تلك المواضع التي حصل منها آباؤنا على الكنوز الرُّوحية.

المَيْمَر الْخَامِس والثلاثون

عن خدمة الذهن التي هي كمال التَدْبِير النسكي الذي يعمل بواسطة الحواس الجسدية، والتي بها يدخل الإنسان باستمرار في الشركة الكاملة مع الله

١ – حين يبلغ الإنسان في مسيرة حياته النسكية إلى الأفهام التي تتعلق بالخليقة، عندئذ يُرفع فوق (مستوى) الصلاة ذات الحدود: لأنه لا يلزمه من الآن فصاعداً أن يضع حداً للصلاة بواسطة أوقات ثابتة أو بخدمة الساعات؛ لأنه أصبح في حالة أبعد من أن تكون مرتبطة بتقديمه الصلاة أو التسبيح وقت ما يريد. فهو منذ الآن يجد أن الحواس قد صارت هادئة، والتحمت أفكاره بإحكام بقيود العجب، وهو ممتلئ دائماً برؤية زاخرة بالتسبيح الذي لا ينطق به بحركة اللسان. وأيضاً في بعض الأحيان، حين تبقى الصلاة كما هي، يُختطف الذهن منها كما لو كان إلى السماء، وتنسكب الدموع من عينيه كما من ينابيع مياه وتغمر وجهه بدون اختياره. ويكون الإنسان كل الوقت هادئاً ساكناً ومستغرقاً في رؤية ممتلئة عجباً. وأحياناً كثيرة لا يُسمح له حتى أن يصلي: وهذه في الحقيقة هي حالة توقّفٍ أعلى من الصلاة، حين يبقى دائماً بانذهال من عمل الله في الخليقة – ويكون كالثمل من الخمر؛ لأن هذا هو «الخمر الذي يفرح قلب الإنسان» (مز١٠٤: ١٥).

٢ – ولكن فلنكن حذرين لئلا يكون شخص ما، بسبب بطلان أفكاره، حين يسمع عن أمور مثل هذه يهمل الصلاة والتزمير، متصوراً أن السكوت الذي تكلمنا عنه يأتي بإرادتنا. فيجب على كل من يطّلع على هذه المقالات أن يعرف أن مثل هذه الحالة لا تأتي من جانب الإنسان، كما أنها ليست بحسب إرادته. فأولئك الذين في أوقات الصلاة، أو قد يكون في أوقات أخرى، يتحركون بذهن مشتاق لله، تجدهم يخضعون لحالة من السكوت والرهبة بواسطة رؤية روحية وبالأسرار التي يشاهدونها. ولكن مثل هذه المناظر تحصل بوجه خاص في وقت الصلاة؛ وذلك لسبب الانتباه الزائد الذي يرافق الإنسان خلالها.

٣ – ولست أقصد بقولي "الصلاة" صَلَوَات الساعات وتهاليل[٩٠] المَزَامِير وألحان اللَيْتورجية فقط. والشخص الذي أدرك هذه المعرفة (التي ذكرناها) يتوافر على الصلاة أكثر من كل الأمور الفاضلة الأخرى. هذه الصلاة تعرض فيها الأفهام (أو المناظر)، كما وتدهش بمناظر أكثر وأكثر، وهكذا تتحول إلى السكوت. والإنسان الذي حظي بالاستنارة هكذا، يتطلع إلى كل خليقة الله بعين عقله ويرى هناك تَدْبِير الله الذي يرافق كل الأشياء في جميع الأوقات؛ فهو يرى العناية الفائقة المملوءة رأفة وتحنناً التي تفتقد الخليقة بلا انقطاع، أحياناً على هيئة أمور مضادة، وأحياناً أخرى بالخير والصلاح. وتكشف نعمة الله لهذا الشخص أيضاً سائر أنواع الأمور المخفية عن كثيرين، أمور أو أحداث يستخدمها الله كوسائل عجيبة للمساندة لكل الكائنات الطبيعية سواء كانت عاقلة أو لا تمتلك نفسًا. كما وتكشف له أيضاً الأسباب المخفية

تم تحميل هذا الملف من موقع مزامير الرسل على الانترنت Hallale

وراء كل هذه الغيارات التي تحدث لكل شيء كنتيجة لإمداد المحبة المناسب للكل، ولتلك القوة الخالقة المدبرة التي تدبر الخليقة بعناية مدهشة تماماً.

٤ – حينما يتقبل شخص ما كل حين المعرفة بـهذه الأسرار بواسطة عينه الداخلية التي تسمى التاؤريا الرُّوحية التي تكون بالرؤية التي تمنحها النعمة، ويصير مُدركاً لأحد هذه الأسرار، يملك الهدوء في الحال على قلبه بنوع من العجب. ولا تتوقف الشفاه وحدها عن تدفق الصلاة وتصمت، بل إن القلب أيضاً تجف منه كل الأفكار لسبب الذهول الذي يحط عليه؛ ويتقبل من النعمة حلاوة أسرار حكمة الله ومحبته من خلال الرؤية بمعرفة للأمور والكائنات الطبيعية.

٥ – هذا هو كمال التَدْبِير النسكي في الجسد الذي يكون على مستوى النفس، وحدّ الخدمة أو العمل الرُّوحي الذي يكمل في الذهن. فكل من يشتاق إلى مذاقة حب رَبِّنَا عليه أن يطلب منه كي ينفتح له الباب. وسأكون مندهشاً إن كان ممكناً للذين لم يقتربوا إلى الله لهذا الغرض ولم يصيروا مدركين للمعرفة التي تنبع من هذا النوع من الرؤية للمخلوقات ولأعمال العناية الإلهية لها – إن كان ممكناً لهم في وقت من الأوقات أن يشعروا بذلك الحب الذي يأسر نفوس الذين يحط عليهم.

هذه إذاً هي الأمور التي تفتح لنا باب معرفة الحق التي هي أعلى من كل معرفة أخرى، والتي تُزوِّد الذهن بمعبر إلى الأسرار المجيدة التي للطبيعة الإلهية الممجدة.

٦ – إن ما يدعو للاندهاش أكثر من ذلك هو أمر أولئك الذين رغم وجودهم خارج السكون والتجرد، قد تجاسروا على الكلام أو الكِتَابة عن هذا السر، أي سر مجد الله في المخلوقات. مغبوط هو الإنسان الذي دخل هذا الباب بخبرته بنفسه؛ لأن كل قوة الحبر والأحرف تكون كلها قاصرة جداً عن أن تصف حلاوة هذا السر.

٧ – كثيرون من عامة الناس يتصورون أن نوعية هذيذ الفلاسفة هي سبق تذوق لهذه المفاوضة التي تعكس بـهاء كل أسرار الله. والقديس باسيليوس يتكلم عن هذا الأمر في رسالة إلى أخيه، حيث يفرق بين هذا النوع من المعرفة بالخليقة الذي يتقبله القديسون، أعني سُلَّم الذهن الذي تكلم عنه أوغريس، والارتفاع فوق الرؤية العادية – وبين معرفة الفلاسفة.

٨ – يقول القديس باسيليوس: "توجد مفاوضة تفتح الباب أمَّامنا لكي ننظر إلى أسفل نحو معرفة المخلوقات وليس إلى أعلى نحو الأسرار الرُّوحية". فهو يدعو معرفة الفلاسفة "معرفة متجهة إلى أسفل"، حيث يقول إنه حتى الخاضعين للأوجاع بإمكانـهم أن يقتنوا هذا النوع من المعرفة؛ أمَّا الإدراك الذي يتقبله القديسون بأذهانـهم من النعمة فهو يدعوه "معرفة الأسرار الرُّوحية العليا".

٩ – ولهذا فإن الشخص الذي يُحسب أهلاً لهذا (الإدراك) هو قائم في هذه الحالة ليلاً ونـهاراً، ويشبه إنساناً قد ارتحل من الجسد وهو الآن يعيش في عالم الأبرار.

١٠ – وهذه هي الحلاوة التي تكلم عنها ذو النفس النقية العجيب أمونيوس وقال إنـها أحلى من العسل وقطر الشهاد – ولكن ليس كثيرون من المتوحدين والبتوليين قد عرفوها.

١١ – وهذا هو المدخل إلى الرَّاحَة الإلهية التي تكلم عنها الآباء، والعبور من مواضع الأوجاع إلى النور وإلى حركات الحرية.

١٢ – وهذا ما قال عنه أوغريس الذي اقتبل رؤى روحية بلا حصر، إنه مكافأة المائة ضعف التي وعد بـها رَبِّنَا في إنجيله (مت١٩:٢٩)؛ وفي تعجبه من عظمة هذه البهجة أحسن إذ دعاها: "مفتاح ملكوت السماء".

١٣ – وأقول الحق أمَّام الله، إن أعضاء الجسد لا يكون بمقدورها أن تثبت أمَّام تلك اللذة، وليس باستطاعة القلب أن يحتملها بسبب عظم مسرتـها. وما الذي يمكن أن يقال أكثر من ذلك، بما أن القديسين يدعونـها: "معرفة ملكوت السماوات"؛ لأنـها مثال لذلك العجب من الله مستقبلاً، ليس أن مسرة الأبرار في ملكوت السماوات تكون بواسطة نظرة العالم المتجسد وسائر أموره، بل أنه بواسطة أمورٍ في ذلك العالم يرتقي الذهن كما لو كان بسلمٍ إلى الله الذي هو ملكوت القديسين، ويمكث في العجبِ. وحسناً دُعيت هذه المعرفة "سر (أو مثَّال) ملكوت السماوات"؛ لأننا نكون أثناء (معاينة) تلك الأسرار في حالة معرفة لذاك الذي هو الملكوت الحقيقي للكل. وهذا يكون متى تحرك الذهن بـها بفضل عطية القوة الإلهية.

المَيْمَر السَّادِس والثلاثون

فصول أخرى عن المعرفة، وعن السبب في خلط التغيرات المتباينة في سياق الحديث مع هدفها

١ – إننا لا نُترك دائماً مع هدف الهذيذ نفسه، لسبب سهولة التشتت والأسباب الأخرى الملازمة له؛ إذ نرى أن طبيعتنا البشرية بالضرورة تطلب التغيير في نوع انشغالها وتنتقل إلى نوع آخر، ونكون نتيجة لذلك غير قادرين أن نثبت في هدف وَاحِد للتأمل فيما نكتبه من مقالات: فقد تكون مرتفعة تماماً في معناها ومتجهة نحو السماويات، أو قد تثبت باتجاه هدف وَاحِد يتعلق فقط بالعالم الآتي، أو قد تكون بكلَيْتَها على مستوى النفس، أو تكون متجهة إلى التعليم فيما يخص الجسد. ولكن الطبيعة البشرية تغصبنا أن نكتب فصولاً متنوعة طالما أنـها أحياناً تحلق في السماء، وفي أحيان أخرى تتجول في تعب وعناء على الأرض؛ وأحياناً أخرى أيضاً ترتفع نحو الخالق، وأحياناً أخرى تبقى مع الخليقة في حال من العجب والاندهاش؛ وأحياناً تتجول في مجال الهذيذ بالمعاني الرُّوحية المخفية بالأمور الآتية، وأحياناً تتحول باتجاه سلطة الأزمنة.

ولهذا لا ينبغي أن يتشكك أحد من جهتي، متصوراً أن هذه الأمور قد كُتبت بكيفية مشوشة. بل عليه أن يتحقق أن الطبيعة نفسها بميلها إلى التغير قد علمتنا بحكمة ومعرفة عظيمة أن نقدم المعنى الرُّوحي لكلماتنا جنباً إلى جنب مع الأمور العرضية التي تصاحب حركات العقل. لأنه في اللحظة الوَاحِدة قد تتعدد وتتنوع التغيرات بتَدْبِير إلهي؛ ولهذا بالضرورة تكون الحاجة لتنوع الكلام تبعاً لمعانيها. وهذا الأمر يعتمد على الوضع الراهن للشخص، وعلى (مقدار) استضاءة حركاته، أو على بلادة ذهنه، أو على أوجاعه أو أي ظروف أخرى. ولهذا يبحث الذهن دائماً عن غذائه من الكلمات التي تتناسب مع مرض أو صحة حالته: حيث إنـها تتضمن مواداً مختلفة للتأمل؛ ويكون مثل النحلة التي تحط على أشجار مختلفة وتأخذ منها رحيق أزهارها لتصنع منه قرص العسل.

٢ – وإذا ما استنار الذهن، ولو قليلاً، حينئذ لا يحتاج كثيراً إلى زادٍ من الكلمات المحسوسة للتأمل؛ لأن طبائع المخلوقات والتدابير الإلهية المتنوعة فيها، يمكن أن تقوم مكان الكِتَابة بالنسبة للعقل. وكثيراً ما يتجاوز (الذهن) هذه الطبائع المرئية ويتحرك بتأمل الجواهر غير المرئية، وقد يحدث أيضاً أن يُرفع الذهن بواسطة هذه الجواهر ويقتني القدرة أن يتحرك بالتأمل في الخالق الممجد؛ وهذا يكون من خلال الرحمة الفائضة من ينبوع الحياة التي تقترب من حركات الذهن، فيلج بنظرته إلى داخل قدس الأقداس بقدر ما هو مسموح للكائن المخلوق؛ وهذا يتضمن نوعاً من النظر السري فيه، ومعرفة وثيقة بعظمة طبيعة الله الممجدة، وإدراك لحقيقة الأمور التي لم تجسر الكلمة المكتوبة أن تظهرها. وهناك حالات لا يمكن محاولة تسجيلها لأن هذا غير مسموح به نظراً لطبيعتها السرية؛ وهناك حالات أخرى لكونـها لم تُكتب فبالتالي لا يمكن النطق بـها.

المَيْمَر السَّابع والثلاثون

ما هي علاَمَّات الاتضاع التي يحس بها الإنسان في نفسه؛ وعلى الشكر في التجارب؛ وكيف يمكن له أن يصبر عليها دون أن يتذمر

١ – تبكيت الضمير الدائم هو علامة على التواضع، ونقصان ذلك في أي عمل هو علامة على قساوة القلب، ودليل على أن ذلك الشخص قد اعتاد أن يبرر نفسه ويأتي باللوم على قريبه بدلاً منه؛ أو ما هو أردأ من ذلك أن يلوم تَدْبِير الله نفسه. وبالعكس لا يمكن للإنسان أن يترك حدود الاتضاع ما لم يعتبر نفسه أولاً بلا لوم، ويلوم بدلاً منه الأمور والأحداث التي رتبها الله له.

٢ – لأن الإنسان صاحب الضمير المدقق حين يرى نفسه خاضعاً (ومتقبلاً) للأحداث، سوف يدرك أنه على درجة عظيمة من الاتضاع. ويمكن معرفة ذلك من حقيقة أنه يكون دائماً في سلام وهدوء مقابل كل ما يحدث له، مما يبرهن على عدم اضطرابه. وهذه هي حالة الرَّاحَة التي تخص الاتضاع، وهي ثمرة الكمال؛ والذي بلغ إلى هذه الحالة سوف يجد عند كل تجربة أن إحساسه بالرَّاحَة أعظم بكثير من إحساسه بالضيق أو القلق.

٣ – ولكن ما لم يجد الإنسان معرفة الحق، فإنه لن يمكنه أن يرى عصا الله التي تجلب الألم كأنـها أمر صالح؛ كما ولن يتوقف عن التذمر مقابل تَدْبِير عناية الله لأجله في كل ناحية، ومقابل كل الأمور التي تدبرها له حكمة الله على اختلافها تحت زيّ أشكال متنوعة متعددة الجوانب من المنغصات التي قد تأتيه أحياناً من جاره حين يواجهه بغتة بكلمة صعبة بخصوص أمر ما يتضايق له، أو قد تأتي على شكل خسارة لشيء يمتلكه وما يسببه ذلك له من مضايقات وتأديبات؛ وأحياناً قد تكون من خلال المرض أو العوز أو أي شيء آخر يتعلق بالجسد؛ وأحياناً أخرى قد تكون من ضغط الشياطين أو من تلف مقتنياته. والشخص خائر القلب لا يرى عمل المشيئة الإلهية في هذه الأحداث، ولكنه بدل ذلك يقفز فزعاً متضرراً ومتكدراً مقابل مظاهرها الخارجية. أيُّها الولد عادم الحس! لماذا تحكم على رفيقك أو على الشيطان أو على الأحداث المرئية القريبة؟ ابحث بدلاً من ذلك عن العلل البعيدة المخفية التي تخص هذه الأحداث. وكُفّ عن أن تتكدر من أعمال الله التي يجريها عن طريق الناس، ومن المظاهر الخارجية للأحداث، وأنت عندئذ تكتشف في هذه الأمور كلها معرفة الحق والاتضاع مع بركات أخرى كثيرة.

٤ – حينما تفحص الأمور التي تؤلم الجروح الخفية، وتدخل إلى أعماق نفسك وتدقق النظر فيما يختفي داخلك، وتفكر في نفسك أن الله، الذي يسمح بغتة بحصول البلية لشخص ما، ليس شراً؛ حينئذ سوف تجد سريعاً راحة من تجاربك وتعزية في حزنك، وتقتني معرفة الحق خلال التقدم الذي يحصل لك بواسطة تجاربك.

٥ – فإذا كنت وقت الأحداث المزعجة تنظر فقط إلى مظهرها الخارجي، وتعجز عن أن تنظر وتفحص قروحك الخفية التي حركت هذه الأحداث للعمل، حينئذ كلما زادت شكواك اشتدت بالأكثر صعوبة تجربتك، وزادت شقاواتك التي جلبتها على نفسك، وتُحمل من الوَاحِدة إلى الأخرى مثل أمواج البحر التي تدفع بعضها بعضاً وتُسلّم من الوَاحِدة إلى الأخرى. 🕯 ✝ 🕯

المَيْمَر الثامن والثلاثون

على التوبة

١ – إن الله يعلم من خلال معرفته المترفقة أنه إذا كان سيُطلب من البشر براً خالصاً، فإنه بالكاد يوجد وَاحِد من ربوة يمكنه أن يدخل ملكوت السماء؛ فلهذا زودهم في المقابل بدواء يناسب كل وَاحِد، أعني التوبة؛ لكي ما في كل يوم وكل لحظة تكون لهم فرصة للتقويم بواسطة قوة هذا الدواء: فمن خلال تبكيت الضمير يمكنهم أن يمحوا من نفوسهم في أية لحظة كل وصمة قد تلحقهم، وهكذا يتجددون كل يوم بالتوبة.

٢ – فما أعظم هذه الوسيلة التي زودنا بها بارينا المتحنن بحكمة ألوهيته من أجل حياتنا الأبدية؛ لأن هذه هي رغبته أن نتجدد كل يوم ونبدأ مرة أخرى بتحولٍ فاضل في الإرادة وبتجديد الذهن.

٣ – هذا هو معنى ما قيل: «إنه لا يُسر بهلاك الخاطئ». ولهذا فقد دبر وسيلة يمكننا بواسطتها أن نرجع إلى الاستقامة بدون أي جهد. هذا كله لكونه لا يشاء أن يهلك البشر منه بسبب الخطيئة. وقصده في ذلك هو أنه إن كانوا، سواء بسبب ضعف أو شقاء الطبيعة التي تسربل بها الناس، أو بسبب القتالات التي ترافقهم، أو من أي سبب مغروس فيهم طبيعياً، الأمر الذي يجعلهم عرضة كل حين للمصادمات التي تقودهم للخطية – يستسلمون وينغلبون لخطية أو أخرى بالأفكار والأقوال والأعمال، وبالحزن والألم يتوبون عنها؛ حينئذ سوف يصفح عنهم سريعاً لا محالة.

٤ – بتَدْبِير هذه النعمة سوف يدخل الكثيرون من الجنس البشري ملكوت السماوات دون أن يعانوا من عذاب جهنم. ولكن هذا الأمر يكون بعيداً من أولئك الذين بسبب قساوة قلوبهم واستسلامهم الكامل للشرور والشهوات، لا يظهرون الندم بالحزن على خطاياهم وتعدياتهم، ولأنهم لم يتأدبوا على الإطلاق. لأن طبيعة الله الْقُدُّوسة صالحة ومترفقة جداً حتى أنه يلتمس أن يجد أية وسيلة مهما كانت صغيرة لكي يردنا بها إلى الاستقامة، ولكي يغفر لبني البشر خطاياهم – كما في حالة العشار الذي تبرر بسبب حرارة صلاته، أو مثل الأرملة صاحبة الفلسين، أو اللص الذي نال الغفران على الصليب. لأن الله يبحث عن الوسائل لخلاصنا وليس عن أسباب لتعذيبنا!

٦ – ولأن كل اهتمام الله متجه إلى الغفران، فهو بواسطة أمور تافهة بسيطة وصغيرة للغاية تتوفر من وقت لآخر، وبواسطة ما يبدو أنه مجرد صدفة أو شيئاً يكون من غير تَدْبِير سابق – يسكب علينا سخاء نعمته التي هي كالمحيط الذي لا يُدرك له قياس.

٧ – فأي شخص بمجرد أن يظهر ولو حزناً قليلاً ورغبة في الندم من أجل ما بدر منه، سريعاً جداً وفي الحال بدون أي تأخير يمنحه غفران خطاياه. فمن لا يتعجب عندما يرى كل هذه الأمور التي صارت في المسيح يسوع رَبِّنَا وأجراها للعالم: الذي حينما ترك كل أقصاء الخليقة الله ونسوه، وتأصلوا في كل أنواع الشرور، نزل هو إلى مسكنهم بإرادته وحده وبدون أي طلب أو توسل من آخر، وعاش بينهم بجسدهم كوَاحِد منهم، وبمحبة فاقت كل معرفة أو وصف يخطر لكائن مخلوق، ترجاهم أن يرجعوا إليه، مظهراً لهم تأسيس العالم الآتي المجيد. وإذ كان قصده من قبل إنشاء كل العوالم أن يجلب سعادة مثل هذه للخليقة، أخبرهم عن وجودها، وغفر لهم كل الخطايا التي ارتكبوها من قبل، مؤكداً هذه المشيئة الصالحة بواسطة علاَمَّات وعجائب صادقة، وبإعلانه لهم أسراره؛ وأخيراً تنازل إلى هذا الحد أنه أراد أن يُدعى "أباً" للبشر الخطاة، وهم من لحم ودم، تراب من الأرض أدنياء ومحتقرون. أكان ممكناً أن يعمل كل هذا بغير محبة عظيمة؟

٨ – من هو الذي عندما يرى ويسمع هذه الأمور، حين يتحرك فيه تذكار خطاياه، لا يطرح عنه الشك الذي يقول: "هل يغفر الله لي إذا أنا طلبت إليه، ويصفح عن هذه الأمور التي تؤلمني وتذكارها يعذبني؟ هذه الأمور التي مع أني أبغضها أشد البغض أستمر في الانزلاق فيها، ولكن بعد أن تكون قد حدثت تسبب لي ألماً أشد قسوة حتى من لدغ العقارب؛ فمع إني أمقتها ما أزال مقيماً فيها، وحين أتوب عنها بحزن شديد أعود إليها بأسوأ حال".

٩ – بهذه الصورة يفكر خائفو الله الذين يراعون الفضيلة وينتخسون بحزن التبكيت وينوحون على الخطية، ومع ذلك تغصبهم ميالة الطبيعة أن يعانوا من الانتكاسات التي تنجم عنها، فيعيشون بين الخطية والتوبة كل الوقت.

١٠ – دعنا نطرح عنا الشك، يا رفيقي، من جهة رجاء خلاصنا إذ نرى أن ذاك الذي احتمل الآلام من أجلنا مهتم جداً بأمر خلاصنا، ورحمته أوسع مما يمكننا أن نتصور ونعمته أعظم مما نطلب. لأن يمين رَبِّنَا ممدودة ليلاً ونهاراً، وهو يرقب مستعداً لتقديم المعونة والرَّاحَة، ولكي يشدد الجميع. وهو ينتظر بوجه خاص أن يجد من يحتمل ولو قليلاً من الألم والحزن من أجل أن تُغفر له خطاياه، ويشجع كل من يحزن من أجل جزء الصلاح الذي يُختطف منه من وقت لآخر أثناء صراعه مع الأوجاع والخطية.فإذ يستخدم الله حتى مثل هذه البدايات الصغيرة، فإن هدفه من ذلك أن يجعلهم وارثين لملكوت السماوات، وأن يحضرهم بلا أي عائق إلى فرحه.

١١ – لأن لله مخلصنا المجد في المسيح رجائنا مع السجود والإكرام في العالميْن اللذين خلقهما لتدريبنا ولبهجتنا إلى الدهور الأبدية، آمين. 🕯 ✝ 🕯

على مواضيع الأسرار التي عرضت له في التأمل فيما كان يهذ بعظمة العالم الجديد؛ وعلى أمور تخص الطبيعة الإلهية؛ وعلى التَدْبِير الآتي. وباختصار على الفكر الذي قابله فيما يخص تَدْبِير الحياة الجديدة.[٩١]

١ – يا لعمق غنى وسمو فكر الله وحكمته! يا لتحنن وكثرة صلاح الخالق! بأي قصد وبأي حبٍ خلق هذا العالم وأتى به إلى الوجود! أي سر يهدف إليه من إيجاده هذه الخليقة! وإلى أي حال دُعِيَتْ طبيعتنا! أي حب عمل في خلق العالم! إن هذا الحب ذاته الذي أوجد به الخليقة هو الذي سبق أن أعدَّ بواسطته الأشياء التي تليق أن يزين بها عظمة (العالم) التي نبعت من قدرة محبته.

٢ – بالحب أتى بالعالم إلى الوجود، وبالحب أيضاً يدبره في هذا الوجود الزمني (المؤقت)، وبالحب هو مزمع أن يُحضره إلى تلك الحالة المتجلية العجيبة. بالحب سوف يُبتلع العالم في السر الْعَظِيم لذاك الذي عمل كل الأشياء، وبالحب أيضاً سوف يُحتوى كل مسار عمل الخليقة نهائياً. وبما أنه في العالم الجديد سوف يحكم حب الخالق على كل طبيعة عاقلة، فإن العجب من أسراره التي سوف تستعلن وقتئذ سوف يأسر لنفسه ذهن كل الكائنات العاقلة التي خلقها لكي ما تجد بهجتها فيه، سواء كانوا أشراراً أم أبراراً. لأنه بهذا القصد أتى بالكل إلى الوجود، ولو أنهم بعد ما أتوا إلى الوجود، أوجدوا لأنفسهم فيما بينهم هذا التمييز بين الأبرار والأشرار. إلا أنه في خطة الخالق ليس هناك مِن بين جميع الذين خُلقوا وأتوا إلى الوجود، أعني كل طبيعة عاقلة، مَن يكون في المقدمة أو في المؤخرة بالنسبة لحب الله. لأن الله محبة وَاحِدة متساوية تغطي كل امتداد الخليقة العاقلة المرئية وغير المرئية، وليس هناك موضع متقدم أو أخير عنده في هذا الحب لكل وَاحِد منهم كما قلت.

٣ – وكما أنه لا توجد طبيعة وَاحِدة في الخليقة يقال إنها في المقدمة أو في المكان الأخير في معرفة الخالق – هذه المعرفة التي كانت عنده منذ الأزل، أن ياتي بهم إلى الوجود؛ وليست أن يكون وَاحِد متقدم أو متأخر، بل الكل بالتساوي بدون "قبل" أو "بعد" وفي طرفة عين – بالمثل ليس هناك متقدم أو متأخر من جهة محبته نحو الجميع. فليس هناك قدر أعظم أو أقل من المحبة عند الله على الإطلاق. بل كما أن معرفته هي دائماً متساوية بالنسبة للكل، هكذا محبته هي متساوية بالنسبة للكل؛ لأنه قد عرف الكل (وأحبهم) قبل أن يصيروا أبراراً أو أشراراً. فالخالق ومحبته لم يتغيرا لكونهم خضعوا للتغيير بعد أن أوجدهم، كما لم يتغير قصده الذي كائن أبدياً. ولو كان الأمر خلاف ذلك، لكان هو أيضاً خاضعاً للتغيير مثل الكائنات المخلوقة – وهو رأي فظيع.

[٩١] المَيْمَر الثامن والثلاثون.

٤ – يا إخوتي، إن كان أحد يصعب عليه أن يصدق هذه الأمور، ينبغي أن يحترس لئلا بتهربه من أحد عناصر الموضوع يقع في التجديف في الآخر؛ وإذ يتصور أنه يرفض كلام إنسان رفيق له، يجد نفسه قد تجند ضد ما يخص الطبيعة الإلهية، ويضطر (بدافع من المنطق) أن ينسب إلى طبيعة خالقه الممجدة الضعف والتغيير.

٥ – ولكننا نعلم أن الجميع متفقون على هذا الأمر، أنه لا يوجد هناك تغير أو مقاصد سابقة وأخرى لاحقة عند الخالق، ليس هناك كراهية أو انتقام في طبيعته، ولا مكانة كبيرة أو صغيرة في محبته، ولا ما هو "قبل" أو "بعد" في معرفته. لأنه إذا كان الجميع يؤمنون أن الخليقة قد أتت للوجود نتيجة لصلاح الخالق ومحبته، إذاً فنحن نعلم أن هذا القصد الأصلي في طبيعة الخالق لن يضعف أو يتغير نتيجة انحرافٍ (طارئ) في مسيرة الخليقة.

المَيْمَر التاسع والثلاثون

تحريض مع نصائح ضرورية ومناسبة

١ – فلنحترس لنفوسنا يا أحبائي، وندرك أن جهنم مذاقة خبرتـها مرعبة للغاية. ولنجتهد بالأكثر أن نشترك في مذاقة محبة الله بالتأمل الدائم فيه، وأن لا تكون لنا أي خبرة بجهنم بسبب الإهمال. لَيْتَنا نحترس من البطالة في أشياء كثيرة، ومن التكاسل في الاهتمام بانجماع أفكارنا؛ لكي بـهروبنا من المشاغل الفارغة في السر ومن الكسل في الظاهر، نقتني إدراكاً لتلك المراحم في نفوسنا.

٢ – إذا كان الحديث عن الغنى، فمن الأصوب أن الذي يتكلم يكون هو نفسه غنياً؛ وإذا كان الموضوع عن الحرية فمن اللائق أن من يتكلم عنها يكون هو نفسه متمتعاً بـها؛ وبالمثل إذا كان الكلام عن الله فمن الضروري أن يكون المتكلم شخصاً مستحقاً لله من أجل تقواه. أمَّا من كانت أعماله تدينه وضميره يبكته، فما يليق له أن يتكلم حتى عن الصلاح؛ فكم بالأكثر إذا لم يكن قصده توبيخ نفسه، بل كما لو كان واثقاً من صلاحه! إنه أمر جيد ولائق أن نخبِّر بعظمة صلاح الله، وبأسرار مراحمه التي تظهرها أعماله؛ إلا أنه بالنسبة للمتراخي والأثيم فإنه لأمر مخزٍ أن يتجرأ حتى على الكلام عن هذه المواضيع أيضاً. فليحترس إذاً كل وَاحِد لنفسه جيداً حين يتكلم؛ لأن جمال الحق يليق فقط بالفم الطاهر، والأمور المقدسة تليق بالقديس، باتفاقهما وانسجامهما؛ النار تنتظر النار، وعلى القلب المقدس أن يحفظ قدسية حسنات الله. أمَّا بالنسبة لنا نحن المتراخين، فكيف نجرؤ وبأية ثقة أن نتكلم عن المناجاة التي تخص مرتبة البنين؟ لأنه حتى ولو كنا حين نمتلئ بالرحمة قد تعود البصيرة إلى قلوبنا التي كانت قد أخطأت، فمع ذلك ما يزال الخزي مقيماً هناك. لأن نار الهيكل لا تحتمل أولئك الذين لا ينتسبون إلى جماعة الكهنة (لا١٠: ١-٢).

٣ - زيِّن نفسك إذاً بالفضيلة أيُّها الإنسان الضعيف، لكي ما تحظى باستحقاق أن تكون كاهناً لله في بيت الأسرار، ولكي ما تُمسح بالرُّوح للتقديس كنتيجة للطهارة الفائقة التي تتزين بـها

في خدمة أعضائك من الخارج وفي قلبك بالسر من الداخل. ارسم في نفسك شكل الخيمة الرمزية من خارج ومن داخل. اجمع معاً في حواسك جماعة الفضيلة، وفي قلبك اخدم مثل كاهن لله مقدماً ذبيحة نقية. اصنع كفارة عن خطايا أولئك الذين هم خارجاً، بسبب قربهم من الأشياء التي تجعلهم عرضة للوقوع في الخطأ. وعوض الغطاء الذهب الذي فوق التابوت، ضع على قلبك تأمل أسرار مخلصنا؛ لأنه بهذا يُستعلن لك الله برؤية عجيبة أعظم حتى مما كان يستعلن فوق ذلك الغطاء الذي هو رمز للأسرار الحاضرة.

٤ – فهناك (في العهد القديم) كان يظهر الإعلان لرئيس الكهنة بالرؤية وبصوت مسموع، وكان موضوع الإعلان يخص أموراً ماضية وحاضرة. أمَّا هنا ففي شكل إعلانات غير مسموعة ورؤى غير مرئية تستعلن في هذا المسكن (أي الجسد) في الهيكل الداخلي للقلب عن سر معرفته، ورؤى عن العالم الجديد تنبه (إلى أمور) لا تقبل الشك. وهكذا فإن جمال (هذه الرؤى يجعلنا) نتعمق في معرفة الأسرار حتى لا يبكتنا ضميرنا حين نتكلم عن تلك الأمور، ولكي نكون مستحقين لثقة البنين بنعمة مخلصنا رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الذي له المجد مع أبيه والرُّوح الْقُدُس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

تأمل بخصوص جهنم على قدر ما تسمح النعمة للطبيعة البشرية أن يفكر في هذه الأمور[٩٢]

١ – حين يبلغ الإنسان في مسيرة حياته النسكية إلى الأفهام التي تتعلق بالخليقة، عندئذ يُرفع فوق (مستوى) الصلاة ذات الحدود: لأنه لا يلزمه من الآن فصاعداً أن يضع حداً للصلاة بواسطة أوقات ثابتة أو بخدمة الساعات؛ لأنه أصبح في حالة أبعد من أن تكون مرتبطة بتقديمه الصلاة أو التسبيح وقت ما يريد. فهو منذ الآن يجد أن الحواس قد صارت هادئة، والتحمت أفكاره بإحكام بقيود العجب، وهو ممتلئ دائماً برؤية زاخرة بالتسبيح الذي لا ينطق به بحركة اللسان. وأيضاً في بعض الأحيان، حين تبقى الصلاة كما هي، يُختطف الذهن منها كما لو كان إلى السماء، وتنسكب الدموع من عينيه كما من ينابيع مياه وتغمر وجهه بدون اختياره. ويكون الإنسان كل الوقت هادئاً ساكناً ومستغرقاً في رؤية ممتلئة عجباً. وأحياناً كثيرة لا يُسمح له حتى أن يصلي: وهذه في الحقيقة هي حالة توقف أعلى من الصلاة، حين يبقى دائماً بانذهال من عمل الله في الخليقة – ويكون كالثمل من الخمر؛ لأن هذا هو «الخمر الذي يفرح قلب الإنسان» (مز١٠٤: ١٥).

٢ – ولكن فلنكن حذرين لئلا يكون شخص ما، بسبب بطلان أفكاره، حين يسمع عن أمور مثل هذه يهمل الصلاة والتزمير، متصوراً أن السكوت الذي تكلمنا عنه يأتي بإرادتنا. فيجب على كل من يطّلع على هذه المقالات أن يعرف أن مثل هذه الحالة لا تأتي من جانب الإنسان، كما أنها ليست بحسب إرادته. فأولئك الذين في أوقات الصلاة، أو قد يكون في أوقات أخرى، يتحركون بذهن مشتاق لله، تجدهم يخضعون لحالة من السكوت والرهبة بواسطة رؤية روحية

٩٢ المَيْمَر التاسع والثلاثون.

وبالأسرار التي يشاهدونـها. ولكن مثل هذه المناظر تحصل بوجه خاص في وقت الصلاة؛ وذلك لسبب الانتباه الزائد الذي يرافق الإنسان خلالـها.

٣ – ولست أقصد بقولي "الصلاة" صَلَوَات الساعات وتـهاليل[٩٣] المَزَامِير وألحان اللَيْتَورجية فقط. والشخص الذي أدرك هذه المعرفة (التي ذكرناها) يتوافر على الصلاة أكثر من كل الأمور الفاضلة الأخرى. هذه الصلاة تعرض فيها الأفهام (أو المناظر)، كما وتدهش بمناظر أكثر وأكثر، وهكذا تتحول إلى السكوت. والإنسان الذي حظي بالاستنارة هكذا، يتطلع إلى كل خليقة الله بعين عقله ويرى هناك تَدْبِير الله الذي يرافق كل الأشياء في جميع الأوقات؛ فهو يرى العناية الفائقة المملوءة رأفة وتحنناً التي تفتقد الخليقة بلا انقطاع، أحياناً على هيئة أمور مضادة، وأحياناً أخرى بالخير والصلاح. وتكشف نعمة الله لهذا الشخص أيضاً سائر أنواع الأمور المخفية عن كثيرين، أمور أو أحداث يستخدمها الله كوسائل عجيبة للمساندة لكل الكائنات الطبيعية سواء كانت عاقلة أو لا تمتلك نفساً. كما وتكشف له أيضاً الأسباب المخفية وراء كل هذه الغيارات التي تحدث لكل شيء كنتيجة لإمداد المحبة المناسب للكل، ولتلك القوة الخالقة المدبرة التي تدبر الخليقة بعناية مدهشة تماماً.

٤ – حينما يتقبل شخص ما كل حين المعرفة بـهذه الأسرار بواسطة عينه الداخلية التي تسمى التاؤريا الرُّوحية التي تكون بالرؤية التي تمنحها النعمة، ويصير مُدركاً لأحد هذه الأسرار، يملك الهدوء في الحال على قلبه بنوع من العجب. ولا تتوقف الشفاه وحدها عن تدفق الصلاة وتصمت، بل إن القلب أيضاً تجف منه كل الأفكار لسبب الذهول الذي يحط عليه؛ ويتقبل من النعمة حلاوة أسرار حكمة الله ومحبته من خلال الرؤية بمعرفة للأمور والكائنات الطبيعية.

٥ – هذا هو كمال التَدْبِير النسكي في الجسد الذي يكون على مستوى النفس، وحدّ الخدمة أو العمل الرُّوحي الذي يكمل في الذهن. فكل من يشتاق إلى مذاقة حب رَبِّنَا عليه أن يطلب منه كي ينفتح له الباب. وسأكون مندهشاً إن كان ممكناً للذين لم يقتربوا إلى الله لهذا الغرض ولم يصيروا مدركين للمعرفة التي تنبع من هذا النوع من الرؤية للمخلوقات ولأعمال العناية الإلهية لها – إن كان ممكناً لهم في وقت من الأوقات أن يشعروا بذلك الحب الذي يأسر نفوس الذين يحط عليهم.

هذه إذاً هي الأمور التي تفتح لنا باب معرفة الحق التي هي أعلى من كل معرفة أخرى، والتي تُزوِّد الذهن بمعبر إلى الأسرار المجيدة التي للطبيعة الإلهية الممجدة.

٦ – إن ما يدعو للاندهاش أكثر من ذلك هو أمر أولئك الذين رغم وجودهم خارج السكون والتجرد، قد تجاسروا على الكلام أو الكِتَابة عن هذا السر، أي سر مجد الله في المخلوقات. مغبوط هو الإنسان الذي دخل هذا الباب بخبرته بنفسه؛ لأن كل قوة الحبر والأحرف تكون كلها قاصرة جداً عن أن تصف حلاوة هذا السر.

---

٩٣ تهاليل: Hallale

٧ – كثيرون من عامة الناس يتصورون أن نوعية هذيذ الفلاسفة هي سبق تذوق لهذه المفاوضة التي تعكس بـهاء كل أسرار الله. والقديس باسيليوس يتكلم عن هذا الأمر في رسالة إلى أخيه، حيث يفرق بين هذا النوع من المعرفة بالخليقة الذي يتقبله القديسون، أعني سُلَّم الذهن الذي تكلم عنه أوغريس، والارتفاع فوق الرؤية العادية – وبين معرفة الفلاسفة.

٨ – يقول القديس باسيليوس: "توجد مفاوضة تفتح الباب أمَّامنا لكي ننظر إلى أسفل نحو معرفة المخلوقات وليس إلى أعلى نحو الأسرار الرُّوحية". فهو يدعو معرفة الفلاسفة "معرفة متجهة إلى أسفل"، حيث يقول إنه حتى الخاضعون للأوجاع بإمكانـهم أن يقتنوا هذا النوع من المعرفة؛ أمَّا الإدراك الذي يتقبله القديسون بأذهانـهم من النعمة فهو يدعوه "معرفة الأسرار الرُّوحية العليا".

٩ – ولـهذا فإن الشخص الذي يُحسب أهلاً لـهذا (الإدراك) هو قائم في هذه الحالة ليلاً ونـهاراً، ويشبه إنساناً قد ارتحل من الجسد وهو الآن يعيش في عالم الأبرار.

١٠ – وهذه هي الحلاوة التي تكلم عنها ذو النفس النقية العجيب أمونيوس وقال إنـها أحلى من العسل وقطر الشهاد – ولكن ليس كثيرون من المتوحدين والبتوليين قد عرفوها.

١١ – وهذا هو المدخل إلى الرَّاحَة الإلهية التي تكلم عنها الآباء، والعبور من مواضع الأوجاع إلى النور وإلى حركات الحرية.

١٢ – وهذا ما قال عنه أوغريس الذي اقتبل رؤى روحية بلا حصر، إنه مكافأة المائة ضعف التي وعد بـها رَبِّنَا في إنجيله (مت١٩:٢٩)؛ وفي تعجبه من عظمة هذه البهجة أحسن إذ دعاها: "مفتاح ملكوت السماء".

١٣ – وأقول الحق أمَّام الله، إن أعضاء الجسد لا يكون بمقدورها أن تثبت أمَّام تلك اللذة، وليس باستطاعة القلب أن يحتملها بسبب عظم مسرتـها. وما الذي يمكن أن يقال أكثر من ذلك، بما أن القديسين يدعونـها: "معرفة ملكوت السماوات"؛ لأنـها مثال لذلك العجب من الله مستقبلاً، ليس أن مسرة الأبرار في ملكوت السماوات تكون بواسطة نظرة العالم المتجسد وسائر أموره، بل أنه بواسطة أمورٍ في ذلك العالم يرتقي الذهن كما لو كان بسلمٍ إلى الله الذي هو ملكوت القديسين، ويمكث في العجب. وحسناً دُعيت هذه المعرفة "سر (أو مثال) ملكوت السماوات"؛ لأننا نكون أثناء (معاينة) تلك الأسرار في حالة معرفة لذاك الذي هو الملكوت الحقيقي للكل. وهذا يكون متى تحرك الذهن بـها بفضل عطية القوة الإلهية.

مَيَامِر
مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانـي
الجزء السَّادِس

الفهرس

تقاُم..... 2
لليمِّيمر الثالث –مقالت عن المعرفِ..... 6
المقال الأول ً..... 6
المقال الثاُ ِ..... ً
المقال الثالِ ِ..... 33
المقال الرابع ِ..... 63
الجزاول..... 3
الجزء السَّابع :..... ٧٢٩

تقديم:[٩٤]

في عام ١٩٨٣ اكتشف العالِم S. Brock مَخطوطة سُرْيَانِية في مكتبة بودليان بِجامعة إكسفورد تتضمَّن مَجموعة من المَيَامِر ورؤوس المعرفة للقديس إِسْحَاق السُّرْيَاني، وقام بنشرها باسم الجزء الثَّانِي. ثُمَّ نَشَر ترجَمة إنجليزية لَها في عام ١٩٩٥، لَم يضمِّنها المَيْمَر الثَّالِث، وهو عبارة عن أربعة مقالات مئوية عن رؤوس المعرفة، وهذه التَرجَمة الإنجليزية التي ينقصها المَيْمَر الثَّالِث هي التي أُخذَت عنها التَرجَمة العربية (عام ٢٠٠٠) باسم الجزء الْخَامِس. ثُمَّ صدرت تَرجَمة فرنسية كاملة للمخطوطة في عام ٢٠٠٣ للأب André Louf ، وهي التي أُخذَت عنها التَرجَمة العربية الحالية (عام ٢٠٠٥) للميمر الثَّالِث الذي يحوي مقالات رؤوس المعرفة باسم الجزء السَّادِس.

وقد وُجِدَ في الجزء الرَّابع من مَخطوطة الدير (٣٦ مَيَامِر) مَجموعة من ثلاث مقالات فقط من رؤوس المعرفة تتضمَّن ٩٦ فصلاً فقط منتخباً من المَجموعة الأصلية مع بعض فصول أخرى لَم ترِدْ في المَخطوطة السُّرْيَانية، مِمَّا يُشير إشارة واضحة إلى أن هناك أجزاء أخرى باللغة السُّرْيَانية لَم يتم العثور عليها بعد.

وبالفعل فقد عثُر الأب S. Chiala من دير Bose على جزء جديد في مكتبة الأسقفية الكلدانية بطهران، جاري العمل في دراستها تَمهيداً لنشرها باسم الجزء الثَّالِث.

كذلك وُجِدَ في الجزء الأَوَّل من المَخطوطة العربية ١٧ فصلاً وردت في المَجموعة المُتَرجَمة حالياً. وسوف نورد في نِهاية الكِتَاب جداول تتضمَّن أرقام هذه الفصول وما يُقابلها في التَرجَمة الحالية.

ويُلاحَظ أنه تُوجَد في نِهاية بعض الفصول "إيضاحات"، يُرجَّح أنها لبعض النُسَّاخ القدماء، أُدرجَت فيما بعد ضمن النص الأصلي للمقالات.

والتَرجَمة الحالية أَخذَت الفصول التي وردت في المَخطوطة العربية كما هي دون تغيير إلاَّ في بعض المواضع التي استلزم الأمر توضيح مضمونها، وذلك باعتبار أن التَرجَمة العربية القديمة عن السُّرْيَانية قد تكون أكثَر دقَّة من التَرجَمة الفرنسية الحديثة التي أُخِذَت عنها بقية التَرجَمة الحالية.

[٩٤] أبونا منّا الفقاري الطوخي.

المَيْمَر الثَّالِث

وأيضاً لِمارِ إسحاق، الأسقف والمتوحِّد

فصول متنوعة على المعرفة تتضمَّن تأملات مرتفعة

ومعرفة كاملة، وأفهاماً عالية وعجيبة وأسراراً عظيمة،

تقود إلى الفرح وإلى تنعيم النفس ونُموِّها

في الأمور الرُّوحية

المئة الأَوَّلي

[١] الله هو في الحقيقة آب الناطقين الذين وَلَدَهم بالنعمة ليكونوا وارثين مَجدَه في العالَم الجديد، والذين يَمنحهم رؤية كنوزه التي يَجدون فيها تنعُّمهم بلا نهاية.

[٢] الحق مُخفَى في الله من أعين جَميع الذين خلقهم، والناطقين الذين أوجدهم، يعيشون بعيداً عنه، لزمانٍ كثير. وفي الوقت الذي يراه مناسباً، سوف يُظهِر الحق لَهم، بِحسب مسرته؛ ولكن ليس في كماله، الذي هو مُخفَى في جوهريته. (إيضاح: ينبغي أن يُفهَم من "الحق" المعرفة الدقيقة لطبيعة الله. فإذا كانت كل الأشياء الكائنة هنا هي رموز للآتيات أخيراً، مثلما يَخص الملائكة، فالحقيقة وراء هذه الرموز هي مَحفوظة بالتمام في الصمت، ومَخفية عن أعين الجَميع).

[٣] كل كلام منطوق ينتمي إلى ثلاثة أنواع: فهو أمَّا أن يُخبِر بِما هو كائن، أو يتحدَّث عمَّا هو أعلى بكثير مِمَّا هو كائن، أو ما هو أدنى منه. إلاَّ أن الكلام فيما يَخص الله أو الفكر في عظمته فلا يُمكن أن يعرض سوى لأمرٍ وَاحِد فقط. وليس بِمستطاع لدى المَخلوق أن يتخطَّى هذا الحدّ لَيْتَحرَّك بِمعرفته؛ فهو يرتدّ عن الطريق تغطيه الرهبة والشكوك.

[٤] الرؤية الأساسية لأولئك الذين سبق لَهم أن تثقَّفوا بِمعرفة خلقة الستة أيام، تتضمَّن أفكاراً مُعيَّنة بِخصوصها، وهي تُشكِّل جزءاً من التَركيب الطبيعي للعقل؛ وتُدعَى حركات. وهذه الأخيرة هي أقانيم (أي عناصر) بدون جوهر، ولكن مسرة الرب تأتي بِها لتعريف نفسه بطريقة حسّية، كما في اهتداء بولس[٩٥].

[٥] أربع غيارات فاضلة تَحدث لنا، أعني للطبع الناطق، وهي: الغيار الأَوَّل نَجده في الذي يرجع من رداءة السيرة إلى حسن السيرة. والغيار الثَّانِي في الذي يرجع من ضلالة العقل إلى الإحساس بالحق في الكائنات الثَّانِية (أي البشر). والغيار الثَّالِث في الذي يرجع من الدرجات

---

(١) أع ٣:٩-٦

السابقة إلى حركة خلقته الطبيعية بالمعرفة الرُّوحانية. والغيار الرَّابع في حركة الحياة الأبدية بِحسب التاؤريا الإنجيلية.

[٦] والمتقدِّمون في الكرامة هم الذين سبقوا بالتغيير وصاروا مرشدين له. ولِهذا عظيمٌ هو تغصُّب[٩٦] الذين بدأوا أكثر من الذين تقبَّلوا.

[٧] الكلام عن الأزمنة يرتبط مع حركة الأجسام. لأنه حيث لا توجد أجسام، لا توجد أيضاً تغيُّرات. وحيث لا توجد تغيُّرات، لا توجد أزمنة ولا متجسِّمون. وحيث لا يوجد متجسِّمون، لا يوجد هناك فوقانيون ولا سفليون، بل أقنوم وَاحِد للكل بِمساواة، حسب مساواة الجواهر غير المركبة. وإن كانت لا توجد مساواة بين ما يبدو مُختلفاً، لكنه توجد هنا أشكال وألوان، وعلى هذا الأساس تسير تاؤرية كل شخص بِمفرده.

[٨] لقد اقتنت الطبائع العقلية، مبكِّراً جداً، من قِبَل خالقها استعمال النطق. وكان أول ما نطقت به هو التمجيد للخالق، كما هو مكتوبٌ في سفر أيوب[٩٧]. ونحن أيضاً، بنو البشر، قد قبلنا من الخالق في حواسِّنا استعمال الصوت الحسِّي للكلام، ووصل إلينا أبّاً عن جدٍّ.

[٩] الذين يقولون إن رؤية مُخلِّصنا في هذا العالَم هي بنوعٍ آخر غير نظرة التأمُّل، هم رفاق الذين يعتقدون أنه يوجد في العالَم الجديد شيءٌ مَحسوس للتنعُّم بِملكوته، أو استعمال لِعناصر مادية أو كثافة أجسام. فهذان الاثنان قد زاغا عن الحق.

[١٠] جَميع إخوة المخلِّص ينتهي أمرهم بأن يصيروا بشبهِهِ... عدا وجود درجات مُختلفة في مَجدهم[٩٨]، فهم يرتفعون إلى شبهِهِ من شكلهم الأرضي إلى شكل مُمجَّد جداً. ولكن دون أن يُظلَم الجسد، لأنه يتكرَّم بالغيار الذي يقبله، شيئاً يفوق شكله الأَوَّل. أوغريس الشاهد الأمين، قال: "إن كان الجسد البشري هو جزء من هذا العالَم الحاضر، وكان شكل هذا العالَم الحاضر يزول، فمن الواضح أن شكل هذا الجسد أيضاً يزول".

[١١] النعمة التي تُدبِّر حياتنا سبق أن وَضَعَتْ في قلوب الذين في حرية تصرُّفهم، ولسبب سُمُوّ شوقهم وحرارة غيرتهم، وُجدوا أهلاً لأن يصيروا أولاداً لله – الحركات التي تؤهِّلهم أن يُخاطبوه كآبٍ لَهم. أمَّا الذين يتصرَّفون في أعمالِهم مثل عبيد، فقد وَضَعَتْ فيهم حركات العبيد نَحو سيدهم. وأخيراً، فالذين في أعمالِهم المتنوعة يتصرَّفون كغرباء، فقد وَضَعَتْ فيهم حركات كما لو كانوا أمَّام ديَّان، لسبب جلاله. فانظر، إذاً، يا أخي، كيف يذكر إنجيل الخلاص، أيضاً، هذه الأنواع الثلاثة، حينما يصف العلاقات مع الله: فهنا يدعوه أباً، وهناك رب البيت، وفي مواضع أخرى سيِّداً وديَّاناً.

---

(٢) قا مت ١٢:١١

(٣) أي ٧:٣٨

(٤) قا ١كو ٤١:١٥

[١٢] ويتقبَّل الإنسان الاستنارة بِحسب نوعية اشتياقه إلى الله؛ وبقياس ما ينجذب نَحو المعرفة، تصير النفس حرَّة أكثَر فأكثَر؛ وبقياس ما يُدرك العقل من الحرية، ينتقل من معرفة إلى أخرى، ويرتفع دائماً إلى ما هو أعلى.

[١٣] النور الذي لا يأتي من المعرفة هو نور يصدر عن العناصر (المادية)، أمَّا في العالَم الجديد فسيشرق نورٌ جديد. ولا تكون هناك حاجة إلى استعمال عناصر مادية ولا ما يصدر عنها. نور المعرفة هو الفهم المستنير بالمعرفة الإلَهية التي تنسكب بغير عائق في الطبيعة البشرية. أمَّا في العالَم الرُّوحي، فالنور يصبح نوراً روحياً؛ والظلمة هناك لا تشبه التي هنا، ولا النور هناك يشبه النور الكائن هنا.

[١٤] لا تتكلَّم من أجل الحق مع مَنْ لا يعرفه؛ أمَّا مَنْ كان يتوق إلى معرفته، فلا تُخفِ عنه الكلمة.

[١٥] مَنْ لا يقدر أن ينتفع بالمعرفة، اجعله ينتفع من صمتك أكثَر من كلام المعرفة. اقتَنِ الاتضاع مقابل ضعفه، وعلى قدر ما يُمكن للعصفور أن يقبل، تكلَّم معه باللغة التي تناسبه إلى أن تَجتذبه إلى معرفة الحياة.

[١٦] لا تقلق أبداً من أجل الذي يُجادل ضد الحق، ليس عن قساوة، ولا من أجل مَنْ يتكلَّم بالسيئات، ليس عن خُبثٍ، بل لأن الجهل هو سبب تعوّقهما؛ واجعل أذنك تستقبل أقوالَهم مثل مناغاة طفلٍ صغير.

[١٧] عندما حدث تَجاوز الوصية، ظهر الله للناس مثل قاضٍ. وحينما كان يظهر في الأزمنة المتوسطة (أي بين الخروج من الفردوس ومَجيء المسيح)، كان يُستعلَن مثل سيِّد، كما ظهر لنوح وإبراهيم والذين من بعدهما. فهو يقول: "عبدي إبراهيم، وعبدي موسى". أمَّا منذ مَجيء المسيح وما بعده، صارت الإعلانات تُعرِّفه كأبٍ كما هو بالحقيقة، دون أن تكون له أية رغبة في أن يكون لنا سيِّداً ولا قاضياً.

[١٨] ما أحرانا أن نقول: الويل بنا! من أي تأمّلٍ حرمنا أنفسنا بسبب رخاوتنا!

[١٩] الويل لنا نحن الذين نتجاهل اشتياق خالقنا من نحونا، ولأية عظمة سيؤهِّلنا، بينما نحن نرتاد أشياء الأرض ورائحتها النتنة. إنه لَمِن الواجب علينا أن نسكر بِهذا الرجاء، بأن نُوجَد دائماً في هذا المسكن الْعَظِيم والعجيب بتذكّره، ونتطلَّع بِمداومة بأفكارنا إلى الموضع الذي يُسْكِننا فيه خالقنا في النهاية. لأن مسكننا سيكون في السماء، حيث نصير نحن أيضاً كائنات سَمائية في تلك الحياة التي بلا نِهاية ولا تغيير. هذا هو ما سبق أن أعدّه الله لنا ولِمنفعتنا، والذي لأجله غرس فينا الرجاء بنعمة المسيح، كما يؤكِّد ذلك المفسِّر السعيد في كِتَابه عن السماء: "الآن نحن نعيش في الدهر الحاضر، في هذه الدنيا، أي في منتصف الطريق بين السماء المنظورة والأرض، ولكننا في الدهر الآتي نتغرَّب تماماً عن الفساد، ولن يُوجَد فينا بعد أي ميل (رديء)، ونعيش جَميعاً في السماء حيث المسيح مُخلِّصنا، هذا الذي صار بيننا،

من أجلنا، وهو الآن في السماوات، مشيراً هكذا أنه هناك أيضاً يكون مسكننا".

[٢٠] لا تَحسب أنها بطالة كثْرة الثبات في السجود بِمداومة قدّام الله، حتى المَزَامِير ليست أعظَمَ منها؛ لأنه ليس شيء من الفضائل التي يعملها الناس مثلها. ولِماذا أقول الفضائل؟ بِما أن السجود الدائم قدّام الله يفوقها جَميعاً. لأنه دليل الميتوتة من العالَم، وبِحسب قول المفسِّر، هو الطريق الصحيح للتوبة، واتضاع الجسد والعقل، وتوقُّف الوساوس الرديئة، وانحلال الشهوات، ورمز استعداد النفس للخروج الكامل من الجسد، وتوق شديد لِمحبة الله؛ وجَميع الخيرات الحاضرة والمزمعة به توجَد. فلا يكن هذا العمل مُحتقَراً في عينيك، بل على قدر استطاعتك تَمِّمه بلا توقُّف وداوم عليه بلا فتور، واثبت فيه وحده مُتخلِّياً عن كل ما تبقَّى حتى نفسك، فما تُنعَت طوباك بلسان بشري إن أنتَ بذلتَ نفسك له. وأنا أؤكِّد لكَ أن ما تَحظَى به وتلاقيه منه منذ الآن هو أمر عجيب ويفوق الوصف. هذا العمل هو بالحقيقة خروج كامل من هذا العالَم، وبالأكثَر خارجاً عن كل سيرة رديئة. إنه غاية كل الأعمال ووفاء دين كل الوصايا، وكمال سائر الفضائل.

[٢١] "أنتَ كاهنٌ إلى الأبد[٩٩]". عبارة "إلى الأبد" تعني أن المسيح مُخلِّصنا الآن أيضاً يُكمِّل الخدمة الكهنوتية من أجل تطهيرنا، وهذا بدون توقُّف، إلى أن نرتقي لنكون بقربه. لأنه عندئذ لن تكون هناك حاجة بعد لِممارسة كهنوته من أجلنا بذبائح مُصالَحة، لسبب الكمال الذي تكون قد حصلت عليه الطبيعة البشرية بأسرها بواسطته، ولكنه سيسكب علينا هبات أبيه بِغِنَى. والحقيقة، إن الذبيحة والصَلَوَات تتَرافق مع الخطية والميول الرديئة. (إيضاح: هذا الفصل يتمشَّى مع الفصل الذي يليه ويُؤكِّد وجهة النظر عينها).

[٢٢] كهنوت المسيح يقوم على الصلاة التي يُقدِّمها للطبيعة الإلَهية المتَّحدة به من أجل جَميع الكائنات العقلية. فإن كان قد صلَّى بلجاجةٍ حين كان على الأرض، كما يتبيَّن في مواضع كثيرة في الإنجيل، فهو بالأكثَر يعمل ذلك الآن أيضاً. ويشهد بذلك الرسول حين يقول: "ليظهر الآن أمَّام وجه الله لأجلنا[١٠٠]". فبقوله "لأجلنا" تَفهم أنه لأجلنا جَميعاً قد صعد أولاً، وأنه جلس عن يَمين الله، وأنه يشفع من أجلنا. وليس فقط من أجل البشر، بل وأيضاً من أجل الملائكة القديسين، لأن هؤلاء من ناحيتهم هم في شركة أخوية معه بنفوسهم. أمَّا نحن، بنو البشر، فلنا شيء بزيادة لأننا في شركة مزدوجة معه، بنفوسنا وبأجسادنا. وليس باطلاً أن الله أخذ باكورة من بيننا ومن أجلنا، أي المسيح، وأصعده إلى السماء قبل الوقت وأجلسه عن يَمينه. وهكذا، فإنه بواسطته أيضاً يَهبنا الخيرات الفائضة منذ الآن لكي نعرفها بِحواس الجسد وبِحركات النفس. لأن الله يُعلنها الآن بالرُّوح الْقُدُس لِجميع الذين يُسرّ بِهم. (إيضاح: ليس بعد بتقديم صلاة بكلمات، بل عوض الصلاة يجعلهم كاملين بقدرة عمله). ويشهد على ذلك أوغريس: "الكاهن الأعظم هو ذاك الذي يشفع أمَّام الله من أجل جَميع الطبائع الناطقة، ويبعدهم، بفضل

---

(٥) مز ١٠٩: ٤

(٦) عب ٩: ٢٤

وساطته، من الشرّ ومن الجهالة".

[٢٣] مع البطن الملآنة من المستحيل ألاَّ تُعرَض المُجاذبات للأفكار، وتنهض الحركات في الأعضاء. اِحذرْ إذاً، كالمكتوب: "لا تُهمل تذكار الرب وتأتي أية سيئة". لأنه بسبب الاضطراب الذي يُلمّ بالفهم، الذي يَحدث فجأة بعد امتلاء البطن، ينحرف العقل بسهولة ويقبل الأعمال المؤسفة. لا ينبغي أن نضلّ! فالكمال لا يوجد في بطن ملآنة. والازدراء يتبع الشبع، بسبب الخزي الذي يَملك داخلنا. أمَّا اليقظة والطهارة فتُرافقان البطن الخاوية، يقظة في ما يَخصّ الجسد والعقل على السواء.

[٢٤] اليقظة التي تُقتَنَى في التأمل تُحرِّر العقل من أي رأي ساذج عن الله، ولكنها تؤكِّد له الفرح الذي يوجد في الاعتقاد الواثق الثابت.

[٢٥] الذين يغتصبون المعرفة بِجهودهم الزائدة، تستولَى عليهم الكبرياء بدورها. وكلما انصرفوا بزيادة إلى الدراسة، كلما غطَّتهم الظلمات. أمَّا الذين تدخل المعرفة وتسكن في حركاتِهم، فيملك عليهم اتضاع عميق، ويَحصلون في داخلهم، بطريقة منيرة، على قناعة راسِخة تغمرهم بالفرح[١٠١].

[٢٦] سُرّاق المعرفة هم الذين يغتصبونها دون مُمارسة الوصايا. وبدلاً من الحق يَختطفون لأنفسهم شبه الحق. ولكن الحق يسكن تلقائياً في حركات أولئك الذين صلبوا ذواتِهم، والذين من داخل هذا الموت استنشقوا الحياة الحقيقية.

[٢٧] ما يُفكِّر فيه المرء من صفات الله، يتغيَّر في حركاته بِحسب تغيُّر تَدْبِيره. وعندما يتذلَّل الناس بسبب نقائصهم، تَجدهم ينسبون إلى الرب القساوة في كل شيء. ذلك يأتي من النعمة التي تعرف أي غذاءٍ يناسب لكل مزاج. ويقول سليمان: "التنعُّم لا يليق بالجاهل[١٠٢]"، كم بالأكثَر بالأجير الذي ترسَّخ في العظمة. أمَّا الذين يبلغون سيرة متقنة، فيجدون أن الحلاوة هي صفة الله. ومكتوبٌ: "الغريب وغير المُختَتَن لا يأكلان من سرّ الفصح[١٠٣]!".

[٢٨] السهر في التأمّل مع تَدْبِير المعرفة للذي قد أكملَ الأعمال الجسدانية ودنا من الشيخوخة وانحطاط الجسد – يُقدِّمه إلى التَدْبِير الرُّوحاني، فقط بالانقطاع من البشر ويقظة وحرص العقل على الدوام، حيث يكمل عليه القول: "الليل مثل النهار يُضيء[١٠٤]". فينبغي له أن يستيقظ قليلاً مقابل تَجارب التجديف في هذا الباب. فإن كان الاتضاع موجوداً عنده، فهو ينعتق بسهولة بواسطة نور الإيمان الذي يشرق له بالنعمة. أمَّا إذا مال إلى التشتُّت ومُحادثة العلمانيين، فإن تأمُّله سوف تشوبه الظلمة، وتدرك الضلالة عقله، ويُمتَحَن بالتجديف. لأنه إذا

---

(٧) قاكو ٢:٢

(٨) أم ١٠:١٩

(٩) خر ٤٨،٤٣:١٢

(١٠) مز ١٢:١٣٨

ما دنا من هذا التَدْبِير الرُّوحاني، فلن تؤذيه الرَّاحَة مثلما يضرّه الحديث مع العلمانيين وتشتُّت الحواس وطموحها.

[٢٩] الاستضاءة في التأمّل تسير دائماً مع الهدوء المتواصل، ومع قطع التصوّرات الآتية من الخارج، لكي يكون العقل قادراً أن يقوم دائماً ويتأمّل أية تاوُريا تظهر له. والذي يُقاومنا في هذا الأمر ليس فقط يُضلّ الآخرين، بل إنه هو نفسه قد زاغ عن الطريق دون أن يَحسّ؛ وهو يسير تبع الظل بتخيّلات عقله.

[٣٠] في القتال والظلام، ولو أن نكون في الطياشة، علينا أن نثبت في الصلاة وعمل الميطانيات. فإذا لَم يكن القتال متواتراً ولا الظلام مُحزناً، بل إنَّما هي طياشة عادية بسبب أفكار عارضة، فعلينا أن نزيد جزء القراءة أكثَر من إطالة الصلاة، ونَمزج الاثنين معاً، ونستمد من الكِتَاب المقدَّس دواءً نُقدِّمه للصلاة.

[٣١] الذين يندفعون إلى الأطعمة لكي يشبعوا، لك أن تعجب منهم حقاً إذا أمكنهم بعد الامتلاء منها أن يُحافظوا على العفَّة بغير اضطراب، أو على الحركات الإلَهية التي تكون قد أُعطيَت لعقلهم. ألعلهم، إذاً، لا يلبسون جسداً؟ أو أن لا أخلاط أو أمزجة عندهم؟ أو لعلهم من الآن قد امتلكوا جسماً روحانياً؟ هل بإمكانك أن تضبط الأفكار حتى لا تضطرب من الشبع الذي يضغط عليها؟ وماذا تفعل مع جسدك إذا ظهرت في عقلك حركات اللذة وسط هذا الاضطراب، بينما لا يعتمد الأمر على الإرادة أن تَخضع لَها أو أن تتخلَّص منها، أو أن تتبدَّل هذه الحركات الدنسة إلى حركات أخرى نقية؟ إنه بِمقدورنا أن نكبح الأفكار، إذا كُنَّا نَحتَرص مقابلها، ولكنه ليس لنا أي سلطان على الطبيعة. فالذي يتظاهر بأنه حرّ من الأوجاع مع شبع البطن إنَّما يَخدع نفسه بالتأكيد. فلنعكف إذاً على ملاحظة هذا الأمر!

[٣٢] النقاوة تقوم على إبطال التذكارات وذلك بشَغل العقل بتأمّلات عديدة. غير أن العقل غير منفصل عن الجسد، ولِهذا فهو لا يستطيع أن يبتعد عن مُجاذبات الحركات. فهو يُجرَّب لكنه لا يُستعبَد لَها. وهو لا يُصارع معها، لكنه يَحتقرها، فهو غالب وليس مصارعاً. غير أن الإثارات قد تبدو مُلحَّة، ولكنها لا تكون في الذاكرة ولا في حركات الجسد، بل إنَّها تأتي من الخارج. وتَحدث عندما يكون هناك ظلام وغالباً بدون قتال، لأنها تبطل بنقاوة التَدْبِير النسكي.

[٣٣] عدم التألُّم لا يكون بعدم الإحساس بالأوجاع، بل بعدم قبولِها بسبب سُكْر العقل بفعل المَجد الذي يُغطِّي النفس.

[٣٤] ليلاً ونَهاراً لا تُبطل هذه الصلاة من قلبك: "يا رب، نَجِّني من ظلام النفس!". لأن هذا هو حدّ كل صلاة مُفرِزة. النفس المظلمة هي جحيم ثانٍ. أمَّا العقل النيِّر فهو شريك السارافيم.

[٣٥] طوبى لِمَنْ انفتح قلبه وأحسَّ بالشيء الذي الله مُزمعٌ أن يعمله مع جنس الناطقين! يا للعجب، كيف تصبِر الطبائع العقلية (أي الملائكة) لِهذه البهجة! لأنهم يعرفون يقيناً لأي

رجاء قد دُعينا نحن وهم.

[٣٦] من السهل أن يقول الشخص لأخيه: "ينبغي أن تُحب الله!" بينما هو لا يعرف كيف! هذا يكون بالسكون دون خلطة، وبسيرة مضيئة مقرونة بالاتضاع الذي يلد في القلب العمل النفسي، الذي ندعوه التَدْبِير الخفي للعقل. وهناك الكثير ليُقال عن هذه الحقائق المَخفية التي يلدها السكون في النفس. وقد تكلَّمتُ عن خواصه المتنوعة في الفصل الذي يشرح صفة هذا التَدْبِير (النسكي). والبذرة الأَولى هي حزن القلب الذي يقود إلى الفرح. والعمل الذي يُدعَى "نفساني" يُقرَبِّنَا من العمل الرُّوحي الذي هو الدهش بالله. وهذا يقوم على الإحساس بأسرار الله الذي يَجعل النفس مضطرمة، بينما تصبح حركاتُها كما لو كانت مغمورة في السحابة المظلمة. وإن كان يجب أن نتكلَّم هنا عن الرموز، فيلزمنا أن نذكر السحابة التي غطَّت موسى النبي، والتي في داخلها (نعلم) أنه اعتمد واختفى عن أعين العالَم. فكل ما حدث في ذلك الوقت بشكل حسِّي، يَحدث الآن بنوعٍ روحي، وهكذا يتَرسَّخ فينا إيمان واثق تماماً. وهذا يضرم في الإنسان ناراً قوية تشمله من الرأس حتى أظافر القدَمَيْن. وقوة هذه النار هي المَحبة التي تدعو النفس بلا انقطاع أن تترك أمور الأرض وتُحلِّق في الله، بفعل حركاتِها.

[٣٧] التَدْبِير الرُّوحي هو عمل بغير حواس؛ وعقل مشتَرك مع الله باستعلان أسراره. والآباء يدعونه "عقلاً عارياً". ويدعونه أحياناً "نظرة تفوق الأجسام"، كما كتب أحدهم: "إن مثل هذا الإنسان يرى في ذاته نور بَهاء نفسه، وهو في وقت الصلاة ينظر في ذاته مناظر سَمائية"، أعني أنه يرى مَجد الله في نفسه الذي هو نظر أسراره.

[٣٨] ويذكر هذا الكاتب هنا بعض المناظر عن مَجد الله، لأنه في ذلك الوقت يتَحرَّك في العقل فهمٌ على عظمة طبيعته (الإلَهية)، ويرفعه من هذا العالَم بالحسّ به. وفي هذا الموضع يتحقَّق من الرجاء المزمع، وهذا هو قنوع (أي يقين) العقل الذي تكلَّم عنه الرسول بولس[١٠٥].

[٣٩] الصلاح موضوع في طبيعة النفس كالنار الموضوعة في طبيعة الحجر والحديد، وهي مفتقرة إلى ما يُحرِّكها، أي نعمة الله وحرص الإنسان واجتهاده. النعمة تتدخَّل طبيعياً وبلا تغيير، بينما الاجتهاد من جانب الإنسان يفتَرض رغبة خالصة حرَّة من أي اِضطرار.

[٤٠] وإلى أن نَخاف ونَمتنع عن الشرور، فإن مَحبة الصلاح لن تتحرَّك في الإنسان بِحلاوةٍ وحرارةٍ.

[٤١] الذين يطَّلعون على هذا الكِتَاب ويرون بعض الفصول عن المعرفة، من وقتٍ لآخر، مكتوبة أعلى السطور، لا ينبغي أن يظنوا بوجود خطأ ما، لأن هذه الفصول تفيد أيضاً في إيضاح الكثير من فقرات الكِتَاب، ولِهذا فهي تُعتبَر مفتاحاً للفهم وتعزية وفيرة للقاريء. فقد ألَّفنا هذا الكِتَاب ليكون مُذكِّراً لنا، نحن أنفسنا، بِمجموعة التأمّلات المقتبسة من الأسفار الإلَهية – كما ذكرتُ سابقاً – والبعض منها من التجارب الحادثة لنا نحن أنفسنا. ولِهذا فقد كتبنا أعلى

---

(١١) كو٢:٢

السطور بعض عناصر مُعيَّنة من هذه الفصول عن المعرفة، لإيضاح معنى الكلام في المواضع التي تبدو غامضة. وهذه الفصول، في الحقيقة، تتضمَّن أقوالاً جاءت في النصّ الأَوَّل بِمعنَى معيَّن بينما هي، في الوقت نفسه، تَحمل معنَى آخر مَخفي داخل الأَوَّل.

[٤٢] الصلاة التي ينقصها التأمّل تكون مُمتلئة ضجراً، ويكون من الصعب تكميلها بغير تغصُّبٍ كثيرٍ. وهذا يَحدث بسبب الظلمة الكثيفة التي تَملك على العقل؛ وهذه بدورها تنجم عن طياشة شديدة للحواس تقود إلى طياشة الذهن. ومن هنا تنبع الظلمة في العقل. أمَّا مَنْ يصلِّي بتأمّلٍ فيمكث في أفراحٍ؛ إنه يصلِّي بِمسرَّةٍ ويدوم في الصلاة دون أي جهد.

[٤٣] كما أن معرفة الآب هي منظورة عند الملائكة القديسين، هكذا معرفة المسيح هي منظورة في البشر.

[٤٤] والساكن في الهدوء يتنعَّم بتأمّل خاصيات المسيح، هذا قد أخذ، من ههنا، عربون الملكوت العتيد ميراثاً له.

[٤٥] الرَّاحَات تعمي الإنسان، لأنه لا ينظر أمور الله بِخوفٍ ودهشٍ، بل يتفرَّس فيها بطلبٍ فارغٍ.

[٤٦] الجلوس المنفرد يتبعه دهش العقل وعدم التشتُّت، لأنه بالسكون وأعمال النسك تتحرَّك فيه بالضرورة حركاتٌ مُدهشة تلدها الحكمة في القلب.

[٤٧] كشرب الماء للغروس الجدد، هكذا هو الصمت الدائم لتَربية النفس.

[٤٨] كثرة الكلام بالنسبة للحكمة هي كمثل التعرِّي للأعضاء الطاهرة.

[٤٩] رَبَّنَا يَسُوع الْمَسِيح هو بكر وهو وحيد. ولا يُقام هذان الأمران في طبيعة وَاحِدة: أن يكون بكراً لإخوة كثيرين وفي الوقت نفسه يكون وحيداً من غير أن يُولَد أحد قبله وبعده. لكن هذَيْن الأمرَيْن قد تَحقَّقا في الإله المتأنِّس المتَّحد في أقنوم وَاحِد، ولَم تَختلط خاصيات الطبائع بسبب الاتحاد.

[٥٠] إذا تبكَّتَ ضميرُنا من كل جانب بسبب الإنذارات والعقوبات التي وضعها الكِتَاب المقدَّس على الخطايا، لن يكون لنا ملجأ يُبدِّد خوفنا سوى التفكير في أن الله قد تصالَح معنا بِموت ابنه ونحن بعد خطاة[١٠٦]. فهو قد أرسل ابنه الوحيد حين لَم يكن هناك أي أثر لِمخافة الله في العالَم. وحقاً قد قيل: "وُجدتُ من الذين لَم يطلبوني، واستعلنت للذين لَم يسألوا عنِّي[١٠٧]".

[٥١] القول: "أحكامك لُجَّةٌ عظيمة[١٠٨]"، يشبه "وضبابٌ تحت رجليه[١٠٩]". فبقوله "تحت

(١٢) رو ٨:٥

(١٣) إش ١:٦٥

(١٤) مز ٧:٣٦

(١٥) مز ١٠:١٨

رجليه"، يُشير المرتِّل إلى الأمور التي تفوقه. والحقيقة هي أن أحكامه وتَدْبِيره لِخلاص جنس الناطقين يستحيل تأمّلها.

[٥٢] السحابة المظلمة التي تتميَّز بِها المنزلة الرُّوحية، تكون حينما يُبتلَع العقل بالدهش وبفهمٍ روحاني يقع بغتةً في النفس ويَجعل العقل بلا حركة، وتنحجب عنه كافة المنظورات ويبقى بلا معرفة وبلا حسٍّ تِجاه الشيء الذي يُحاول أن يتطلَّع إليه. وهذه السحابة تَجعل العقل يَمكث هادئاً كالسحابة المظلمة التي تُحيط بأي شيءٍ وتَحجزه عن نظر الجسد.

[٥٣] التائب الحقيقي هو شهيدٌ حيٌّ. لأن الدموع تغلب الدم بعمل الذين قد اقتنوها، والتوبة تتفوَّق على الشهادة. فشهادة الدموع تتقدَّم على شهادة الدم وقت نوال الأكاليل. والشهداء يأخذون الإكليل في نفس الوقت مع الآخرين؛ الذين عاشوا حياة التوبة أولاً ثُمَّ الآخرون. وهكذا يتبيَّن أن التائب الحقيقي إكليله مُضاعَف.

[٥٤] الغرض من التزمير هو الحديث الهادِيء مع الله بتضرُّعٍ سَكِينٍ وبغير سَجَسٍ. فلا نُكثِّر العدد كالجهَّال بينما نطيش بأفكارنا في الزبالة، حتى لا نَخرج من الصلاة ونحن فارغون من جَميع الخيرات التي من عادة العقل المُفرِز أن ينالَها في مثل تلك الأوقات.

[٥٥] أتريد أن تتَّخذ شكلاً حسناً بِجسدك، وتصلِّي وأنتَ واقفٌ بِخشوعٍ، أم أنك، على العكس، تطلب فرح قلبك؟ مكتوبٌ: "تكلَّم خَمس كلمات بذهنٍ[١٦]"، وتوقَّف حالَما يَملك الدهش على حواسك. أمَّا إذا كان غرضك مُصوَّباً نحو مرحلةٍ أعلى، فبإمكانك، حتى ولو كان لسانك يبقى صامتاً، أن تفعل ذلك أثناء سهرٍ طويلٍ، دون أن تُوقِف التلاوة بسبب ذلك. فالقلب عندئذٍ يَمتدّ في الفهم بفضل السكون الْعَظِيم الذي يَجلبه الكلام المنطوق.

[٥٦] كل معرفة تنقسم إلى جزئين: جزء يتعلَّق بالأحاسيس، والجزء الآخر بالمعرفة. وندعو الأَوَّل: "العمل"، أي عمل الفضيلة؛ والثَّانِي: "التأمّل". أمَّا الجزء الأَوَّل فينقسم بدوره إلى جزئين: العمل الجسداني والعمل غير المادِّي. أمَّا النوع الأَوَّل فهو عمل على علاقة بالآخرين، بينما النوع الثَّانِي يرتبط بعملٍ مع الشخص نفسه.

[٥٧] ومن أمثلة العمل الجسداني: خدمة المرضى، إضافة الغرباء، إراحة المتعبين، التصدُّق على المعتازين، تعزية حزانى وضعفاء القلب، تقديم التعليم النافع لتقدّم رفقائنا، وما أشبه ذلك. وبِهذا نحن نكمل مَحبة القريب حسب مشيئة الله.

[٥٨] وهذه أمثلة للعمل غير المادِّي: كل ما لا يُمكن للإنسان أن يعمله خارجاً عن نفسه، مثل العفة، الصَّوْم، الدموع، التلاوة، خدمة الأوقات، السكون، الصلاة، وما أشبه ذلك. الجزء الأَوَّل يُدعَى نصفاً من الجزء؛ بينما الجزء الثَّانِي يُدعَى جزء الأجزاء، لأنه يشتمل على مَجموع أعمال الفضيلة. لكن الجزء الجسداني لا يكفي لأن يُحرِّر الذهن من مادية الأفكار، التي تكمن

(١٦) ١كو ١٤:١٩

في حركة الأوجاع. بينما الجزء الثَّانِي، بالمقابل، يُطهِّر النفس من الحركات الجسدانية ويُقرِّبها من الجزء المُهم الذي يُدعَى التأمّل. ولِهذا تَجد المتوحدين المُحقِّين يغصبون أنفسهم باستمرار في عمل الفضيلة في ذلك الجزء غير الجسداني، وعندما يدركون النقاوة بواسطة ذلك، يرتقون بسهولة إلى التأمّل ابتداءً من الأفكار المادية.

[٥٩] توجد صلاة من أجل أمورٍ خاصَّة، وصلاة أخرى شاملة. هذه الأخيرة على سبيل المثال هي: "لتكن مشيئتك[١١١]". أمَّا الأَولى فهي مثل: "من جهة هذا تضرَّعتُ إلى الرب ثلاث مرَّات[١١٢]". ولأنه يوجد لنا خصم يُعادينا، فإن طبيعتنا هي في حاجة إلى أشكال متعددة للصلاة. فنحن متسربلون بنفس معرَّضة للسقوط، ولا يكفينا أن نصلي كل حين بصلاةٍ عامة. حتى أغلب الكاملين لا يقدرون أن يداوموا طويلاً عليها. ومن هنا نرى كيف أن القديسين أنفسهم كانوا يُمارسون أشكالاً متنوعة من الصلاة كما هو الحال عند بولس الطوباوي وبقية الرسل. ولِهذا السبب أيضاً نجد أن الآباء قد رتَّبوا تلاوة المَزَامِير في الكنيسة، كي ما تكون لَهم أشكالٌ مُختلفة من الصلاة. كما أنه لِهذا السبب عينه، في بداية كل الساعات القانونية، وُضعَت لنا، كأساس للخلاص، الصلاة التي علَّمنا إياها مُخلِّصنا. ويتبع ذلك الصَلَوَات التي وضعها الرُّوح على فم النبي الطوباوي (داود) لتعليمنا وتنعيمنا، وهي مَزَامِيره. ثُمَّ في صَلَوَات الساعات الباقية نُقدِّم صَلَوَاتنا الخاصة التي تدعونا إليها طبيعتنا وِفقاً لِمرضها الذي يغصبنا أن نتوسَّل إلى الخالق من أجله. الصلاة المتنوعة الأشكال تعين الذِهن الضعيف العاجز، وتُعلِّمه أن يُراعي طبيعته. ولكن عندما يكون العقل في كامل صحته وقد أدرك درجة مرتفعة، فهو يدنو إلى الله باشتياقٍ وبدون تعب.

[٦٠] كما أن الأذن لا تستطيع أن تقبل الكلام من دون تركيب الصوت، هكذا لا يُمكن للعقل أن يتفاوض مع الآلام داخله من دون الهيوليات.

[٦١] كما أنه لا يُمكن أن يظهر طبع الشيطان للعين إن لَم يتَّخذ شكل الحواس التي نحن لابسوها، هكذا لا يُمكن له أن يُحرِّك أفكاره داخل القلب ويُوجِّه العقل نحوها من دون تَخيّلات الحواس والأشياء.

[٦٢] غاية تأمّل العالَم الجديد تظهر في عقل الملائكة والقديسين، حينما نصير كلنا آلِهة بنعمة خالقنا، وهذا هو ما أجسر أن أؤكده. لأن هذا هو بالحقيقة غرضه منذ البدء، أن يكمل كل خليقة الناطقين إلى مساواة وَاحِدة، حيث لا يوجد فرق بين أولئك وهؤلاء، ولا بين رجلٍ متقدِّمٍ بطريقة مضاعفة وآخر بسيط، دون أن يبطل الجسد الطبيعي. لأنه عندئذ لا تبقى مثل هذه الأمور موضوعات للفحص.

---

(١٧) مت ٦:١٠

(١٨) ٢كو ١٢:٨

[٦٣] كثيرون إذا ما ضربوا مطانيات وكانت لَهم صلاة نقية ودموع غزيرة، يقطعون حركتهم ويبطلون الميطانيات وما يصحبها من صَلَوَات كثيرة نافعة، لظنِّهم أن ذلك يعوقهم عن تكميل المَزَامِير والقراءة والهذيذ، ولَم يفهموا منافع الثبات الكثير في هذا العمل الْعَظِيم. ولَم يعرف، هؤلاء الفضلاء، أن استعمالنا المَزَامِير والقراءة والتلاوة والهذيذ بها إنَّما هو لكي يتطهَّر الضمير من الطياشة، ويتحرَّك بنقاوةٍ في الصلاة التي هي المفاوضة مع الله، التي كل شيء نعمله إنَّما هو لأجلها.

[٦٤] الإيمان هو حركة مَملوءة يقيناً وثقةً بنعمة الله، تظهر في العقل من جهة أمور لا يُمكن أن ترسِمها الأسطر. لأن العقل المؤمن هو الذي له سلطان أن يعرف الأمور التي تُستعلَن للأصحاء، أمَّا المريض الذي غذاؤه البقل فلا يُعطَى له غذاء الأصحاء.

[٦٥] أسجد أمَّام الله لكي يَمنحك مذاقة الأفراح التي يَحظى بها المتوحدون وقت الخدمة والصلاة. إنَّهم يقتنون ثقةً ويقيناً بأمور حياة الأبرار بعد القيامة، بينما تَحظَى عقولُهم قبل الوقت بالهدوء الذي يَملك عليهم من عند الله وقت الصلاة دون أن يتوقَّعوا ذلك وخارجاً عن إرادتِهم الحرَّة أو انطباعاتِهم الطبيعية. وهم عندما يثبتون في الوقوف للصلاة، تصير أذهانُهم مشرقة بسبب المُحافظة على الهدوء، ومتسربلة بِمجد الله، ليس فقط أثناء الليل، بل وأيضاً خلال النهار.

[٦٦] شدِّد ذهنك أثناء الخدمة، بالإشراق الذي يتسربل به، الذي يأتيه من النار التي تضطرم فيه من القراءة.

[٦٧] تأمَّل بلذّةٍ في الكتب التي تُعرِّفك بقصد الله من خليقته، والتي تَجتذب عقلك وقت الصلاة إلى الدهش. إيضاح: نصيحة القراءة للمعلِّمين عن خوف الله تُتَّبَع بِحسب قامة كل وَاحِد. فكلام الذين يتحدثون عن الكمال يناسب الرهبان الذين يتعيَّن عليهم النمو نحو الكمال؛ أمَّا الإخوة الذين مازالوا مُحتاجين إلى التدرُّب في السيرة الفاضلة، وتعلُّم الجهاد مقابل الأوجاع، فلا يَجب أن يقرأوا شيئاً خارجاً عن أقوال الآباء المتوحدين.

[٦٨] أعتقد أنه يوجد نوعان من التأمّل يُعرضان للذهن بِخصوص الطبائع العقلية. فالتأمَّل الذي ندركه بِخصوص ما خَفِيَ من الأسرار التي صاحبتها وقت أن أتت إلى الوجود هو شيء، والتأمّل الذي يدلّ على أسلوب حياتِها والعطايا التي نالَتها من الخالق هو شيء آخر. التأمّل الوَاحِد يُعرِّفنا بسرّ القيامة العامة للخلائق: بأي طقس وبأية صورة هو عتيد أن يُستعلَن سرّ القيامة. والآخر يرمز إلى ذلك التصرُّف الجديد الذي يكون للناطقين في تلك الحياة الأخرى مثلما يليق بعِظَم إنعام الخالق الذي يؤهِّلهم لذلك البلد الرُّوحاني. وهكذا، من كلا هذَيْن التأمّلَيْن، تظهر لنا أسرار العالَم العتيد المستَتِرة التي تَحملها هذه الطبائع السعيدة، التي شاء الخالق أن يُعرِّفنا بِها، وقد سبق أن رَمَزَ منذ بدء هذا العالَم إلى الشيء الثابت عنده، ما أعدَّه للخليقة في المنتهى، أي فضل التكوين الثَّانِي التي هي عتيدة أن تقبله، وبأي نوعٍ يكون دخولُها وتصرّفُها في ذلك التجديد.

[٦٩] مُحب الأعمال ليس هو الذي لا يُحب راحة الجسد، بل هو الذي لا يُحب مفاوضة الجسد.

[٧٠] إذا ما ضعفت الأوجاع التي في النفس بواسطة السكون وصمتت، فإن الإنسان يستطيع أيضاً أن يقهر شهوات الجسد بسهولة.

[٧١] كل الذين يعطون قليلاً لأعمال النسك، لا يعني ذلك أنهم مُحبّون للراحة، كما أن الذين يجتهدون فيها بنشاطٍ زائد لا يُعتبَرون مُحبّون للأعمال. وبعض الذين يُمارسونها باعتدالٍ، تكون نفوسهم، مع ذلك، مُفعمة بالتوبة. والوَاحِد منهم يُعوِّض بعمل القلب ما ينقصه من أعمال الجسد بسبب ضعفه. وبفضل حرصه الدائم يُمكنه أن يكبح أفكاره حتى لا تُهاجِمه الأوجاع عن طريق الحواس. أمَّا الآخر فيتعب كثيراً في الأعمال، بِحسب قوة جسده، ولكنه يُعوِّض هذه الأتعاب بالرَّاحَة والاستِرخاء الذي يسمح به لنفسه فيما بعد لكافة الحواس. ومثل هذا الإنسان يَجهل الحلاوة التي تنبع من التعب. لأنه من الناحية الوَاحِدة فإن الأعمال التي تُمارس بتدقيق تبعث فيه الخيلاء، ومن الناحية الأخرى فإن الاستِرخاء والرَّاحَة الجسدية التي يسمح بها لنفسه تُوقِظ فيه الأهواء والشهوات الجسدية بزيادة.

[٧٢] الذي يعمل باستقامة يجب أن يكون له هذا الغرض في أعماله: أن يَجعل عقله غير مغلوبٍ من الآلام، وأن يُقيمه صحيحاً بلا أي تَحريك منها. أمَّا غرض المعرفة فهو أن تُدني العقل من موهبة النظر الإلَهي، التي هي كمال التأمّل.

[٧٣] حينما يتحقَّق العدو أن نفس المتوحد منعكفة باهتمامٍ على مقاومته، فإنه يُحرِّضها بزيادة دون أن تدرك ذلك. وهو يُدبِّر فرصة لكي يربط فكره، بكلِّ نوعٍ، بأشياء العالَم، ذلك لأنه لا يعرف كيف ينصب له فخّاً عظيماً مثل هذا. ومنذ تلك اللحظة، دون توقّف، بقدر ما يريد وبدون تعب، يَجعله مُستعبَداً لثلاثة أوجاع قاسية: النجاسة، والغيرة، والغضب. فإذا تركها المتوحِّد تتسلَّط عليه بعض الوقت، فهي تُقيِّد يدَيه ورجلَيه؛ فالوَاحِدة منها تَجعله يزلّ ثُمَّ تسقطه في الحال على الأرض. فإذا بدأ من جديد يَهتم بقانونه وبالصلاة النقية، فإنه يتخلَّص منها سريعاً.

[٧٤] المُعجَب بنفسه ليس هو الذي يجد مسرّةً في المدح الذي يتوجَّه إليه، بل هو الذي يتحيَّن الفرص لذلك بنفسه.

[٧٥] المتضع الفكر هو الذي إذا مُدِحَ بعدلٍ لا يجد في ذلك مسرّة.

[٧٦] الحسّ الرُّوحي بالنعمة، يوجد بعمل التوبة العقلي.

[٧٧] عمل التوبة الرُّوحي، هو بكاء الإنسان الجوّاني الملقَى في القلب على الزلل، من أجل حبِّ الآب وليس بسبب رعبة الدينونة. هذا البكاء الذي يتفاوض به الإنسان بالهذيذ الدائم بالله، بتضرّعٍ خفي بالعقل الحامل حزناً يُقدِّمه كذبيحة تُرضي الله في كل وقت.

[٧٨] الحسّ الرُّوحي للعقل، الذي يبلغ إليه الإنسان في سيرة السكون، هو التنعُّم بالرجاء المفرح بِمذاقة العقل للحبّ الفائض الذي ينبع من داخل القلب، وهذا هو معنى قوله: "طوبى للحزانى لأنهم يتعزون".

[٧٩] إذا ما بلغ الإنسان السالك في طريق الفضيلة إلى فرح الرجاء في عمله، عند ذلك يتخلَّف عنه الشقاء ويَخفّ عليه ثقل العمل. ومن ههنا يترْك عنه عمل المَخافة ويبدأ بعمل الحبّ، فينبذ عنه الرعب وخوف الطريق، ويثق قلبه ويبتهج ضميره، ولا يعود ينظر هذا العالَم بالكلّية. لأن رجاء المزمعات يتحرَّك دائماً في نفسه ويَملأه بَهجةً في كل وقت، فينحجب هذا العالَم من قدّام عينيه، ولا يعرف سبب ذلك قط، غير أن نفسه تفرح من وقتٍ لآخر كَمَنْ هو قائم في العالَم العتيد. وهذه الأمور، وأشياء أخرى كثيرة مثلها، ينظرها الإنسان في نفسه دائماً في السكون. وهي حسب قولِهم تكون في الوقت الذي تبتديء فيه النفس في الانعزال من الشركة مع الخطية، ويبتديء القلب بواسطة السكون الدائم أن يتنقَى من أنواع التذكارات التي تُولِّد فيه الصور التي تنبِّه أعضاء الإنسان العتيق.

[٨٠] فإذا ما بدأت حركة الرجاء في ضمير ذلك الإنسان، والبهجة التي تنمو منها في قلبه بلا سبب واضح بلا توقّف، فإنه من ههنا لا يعود يعرف تعباً ولا ثقلاً ولا ضجراً ولا رعبةً من الموت. لأني، بالحقيقة، أعرف أخاً قد سَكِرَ بِهذا الفرح جَميعه حتى أنه عندما يريد أن يُمجِّد الله ويشكره، ينكسر لسانه فلا ينبسط ليبارك به الله، فيلغلغ مثل الطفل، ويتكلَّم مع الله كطفلٍ صغيرٍ مع أبيه. هكذا يُسكِر الفرح الإنسان كلِّيةً. وعن هذا الفرح نقول إنه يَجعل القلب يصفو، وإنه هو الباب لدخول العقل إلى الاستعلانات الرُّوحية التي تُرَى في الصلاة. هذه هي المذاقة الأَولى التي بها يدخل قومٌ إلى الميناء الإلَهي. وهذا هو كمال التوبة، والعزاء الذي وُعِدنا به في الإنجيل المقدَّس. ولكن الإنسان يُحرَم من هذا العزاء من وقتٍ لآخر لكيما يتضع؛ حيث تثور عليه شكوكٌ ومَخاوفٌ، ويكتنفه ظلامٌ. لكنه يعود أيضاً ويفرح من جديد ويستعيد التنعُّم نفسه. هذا، يا إخوتي، هو ما يَحدث لنا من السكون الدائم والبعد الزائد من خلطة الناس، ومن الاشتغال بالتفاوض بِهذه القراءات وما يُشبهها.

[٨١] يا الله، أهِّلني لتلك المذاقة المفرحة الموضوعة في التوبة الحقيقية، والتي يغتذي منها التائبون المُحقّون كل يوم، هؤلاء الذين لا يرذلون البكاء أو يدعونه عمل الأطفال، بل يغتذون (منه) الشهد الذي كُتِبَ عنه في الأسفار الإلَهية[١١٣].

[٨٢] إلى جانب النظرة الرُّوحية، كان البكاء مُكرَّماً أيضاً عند الآباء، مثلما قيل عن القديس أرسانيوس أن الدموع كانت دائماً كَحارسٍ مستعدٍّ أمَّام جفون عينيه. وذلك الجبّار الطوباني بولس الإناء المُمتليء بالرُّوح، لَم تَهدأ عيناه من البكاء مدَّة ثلاث سنوات كما ذكر عنه القديس

(١٩) ٢ صم ١٧: ٢٨

لوقا في سفر الأعمال[١١٤].

[٨٣] إلى أن يبلغ الإنسان إلى مذاقة الإيمان في طريق سيرته يظل قائماً مقابل آلامه بعجزٍ وضعفٍ، وتثقل عليه كل أعمال الفضيلة.

[٨٤] يا سيدي، يا مَنْ جعلتني أخرج من العالَم الحسِّي بقوة يَمينك المقدَّسة، اجعلني مستحقاً أن أخرج منه أيضاً بعقلي، بالتجرُّد من كل حركات العالَم المادِّي، لكي أتبعك تماماً، ولا أرى سواك، ولا أريد شيئاً آخر، ما عدا أن أتعمَّق فهم أسرارك المَجيدة. أنتَ، يا ربي، تُطهِّر قلبي من كل هذيذٍ بأشياء الأرض، وتُوجِّه حركاتي بثباتٍ نحو الرجاء المزمع.

[٨٥] ميتوتة الجسد هي أن يصبح الإنسان غريباً عن كل معارفه: لبلده وعائلته وجنسه، ويسلك مثل غريبٍ على الأرض، ويَختار لنفسه موضعاً هادئاً حيث تتوقَّف كل الأصوات، ويسكن فيه بالفقر والعوز في الحاجات المادِّية، وأن يكون منفرداً ومبتعداً من كل خلطة مع الناس، ومن كل تعزية مرئية. ولْيَتوسَّل مثل هذا الإنسان إلى الله بالندم والدموع، وبقلبٍ متوجِّعٍ لكي يُطهِّره من كل شركةٍ مع الخطية، ويُميت كل أعضاء الإنسان القديم الخاطيء، التي هي الحركات العالَمية. وهذه الميتوتة (الجسدية) تلدنا للميتوتة النفسية.

[٨٦] أيُّها الابن الوحيد، المولود من حضن الآب، الذي بِجوهره وإشراقات مَجده تنضبط جَميع العوالِم الرُّوحية في دهشٍ دائمٍ، أنتَ الذي بِمحبتِكَ للمائتين أخفيتَ إشعاعات مَجدك تحت حجاب الجسد وفي أعضائنا وأظهرتَ ذاتَك للعالَم في هيئة عادية؛ أهِّلني، يا رب، بنعمتك، أن أنسى العالَم الزمني، بقوة الاشتياق إليك، وأن لا أعود أذكر الجسد الفاسد الذي حبسني فيه رئيس عالَم الظلمة. يا رب، اِرسِم أسرارك الخفية بأحرفٍ روحيةٍ في أعماق قلبي، فأبتهج بكَ في خفية نفسي، بالحركات التي تُرَى بالأعين البسيطة.

[٨٧] الميتوتة النفسية هي التي تكون بعدم اشتهاء القلب لِخيرات هذا العالَم وراحته الزائلة، وبعدم التلذُّذ بشهوات الأمور الأرضية، عندما يطيش الفكر فيها، بل أن يكون العقل عطشاناً باستمرار، متَرجِّياً ومنتظراً دون أي تراخٍ المزمعات، والقلب يَهذّ بلا انقطاعٍ، بكل غيرةٍ ونشاطٍ، في الحالة التي سيكون عليها بنو البشر بعد القيامة، في الحياة الجديدة. فهذا هو ما يجب على الإنسان أن ينشغل به، ويتأمَّله، ويَهذّ فيه كل وقتٍ، لكي، بسبب الغيرة الْعَظِيمة التي تظهرها حركات نفسه في هذا الشأن، ترتاد نفسه هذه الأمور في وقت راحته بنشاطٍ وتقوى، وتتصوَّرها حتى في حركات نومه. حقاً إن هذه هي الميتوتة الحقيقية للذي مات مع المسيح، أي مات بِموت يسوع، الذي هو قيامة العالَمين. هذه الميتوتة لا يُمكن أن تُقتنَى بغير فعل ومعونة نعمة الرُّوح الْقُدُس. وهي تلد لنا الميتوتة الرُّوحية.

[٨٨] أيُّها المسيح إِلهُنَا، الذي مات من أجل حبِّه لنا، اجعلني أموت للخطية، وانزعْ مني الإنسان العتيق، حتى يُمكنني أن أقف كل حين أمَّامك بفكرٍ متجدِّدٍ، كما لو كنتُ من الآن في

---

(٢٠) أع ٢٠: ٣١

العالَم الجديد. يا الله، الذي السماء وسَماوات السماوات لا يُمكن أن تَحتويك، اختَرتَ لنفسك في وسطنا هيكلاً ذا نفسٍ عاقلةٍ لتسكن فيه، اجعلني مستحقاً أن أكون مسكناً لِمحبتك، التي بِمذاقتها نَسِيَ القديسون نفوسَهم، وأصبحوا في دهشٍ، وأسرعوا خلفكَ؛ وفي سُكْرِهم التصقوا بكَ بلا انقطاعٍ، وبفضل حبِّكَ لَم يرجعوا إلى الخلف. والذين ارتوا من هذا النبع الحلو، لأنهم عطشوا إلى حبِّك، جعلتَهم سكارى منذهلين ومدهوشين أمَّام أسرارك.

[٨٩] الميتوتة الرُّوحانية هي التي تكون بنظر الأمور غير المنطوق بها، بتفاوض العقل بالانفعال بالإلَهيات، فتسكت منه كل الأفكار الأرضية بشبه التصرُّف العتيد (في الدهر الآتي)، ويحصل في دهشٍ بأفهام الأمور التي ليست من عالَم الموتَى هذا. ومن ههنا يقبل عربون ذلك الملكوت بِحواس الرُّوح بصعوده إلى تلك المنازل التي بلا جسدٍ ولا دمٍ. وهذا معنى قوله: "ليأتِ ملكوتُك"، وقد أمَرَنا رَبِّنَا أن نطلبه قبل الوقت في الصلاة. هذا الملكوت هو الذي ينبغي أن نَهذّ به كل حين ونتشوَّق إليه بلا فتورٍ. وهذه هي الوصية التي قبلناها من مُخلِّصنا لكي نكملها بكل اهتمامٍ.

[٩٠] أيُّها السرّ الخفي الذي ظهر بِجسدنا الذي كان قد بَلِيَ. أَظهِرْ فِيَّ سرَّ تَجديد القديسين الذي يقبلونه ههنا بالعربون لتحقيق الخيرات العتيدة؛ يا الذي بتعرِّي جسده فضح الأراخنة والسلاطين، وألبسَ طبيعتنا لباس عدم الفساد، عَرِّنِي، يا رب، من الإنسان الفاسد بسرِّ التجديد، وحرِّكْ في أعضائي الخفية حركات الإنسان الجديد الذي ألبستني إياه بالسرّ في المعمودية، والذي يُعطَى في العالَم الجديد المزمع، بالفعل، لتنعيم جَميع مُحبِّي مَحبتك الذين تعبوا لأجلك ههنا.

[٩١] القول عن اتحاد المؤمنين بالآب والابن الذي قاله الابن في وقت الآلام بنوع الصلاة إلى الآب بسبق إظهار السرّ، هذا القول يكمل بالفعل في العالَم الجديد إذا ما انتهت أمور هذا العالَم الحاضر وبدأ ذلك العالَم الجديد؛ عندما يرتفع رَبِّنَا له المَجد مع جوقات القوّات السمائية مُبجِّلين عظمته، وبعد أن يدين الأرض دينونة مُمتَزجة بالرحْمة، ويرتفع معه جَميع المستحقين من هذا البلد الوسطاني إلى ذلك البلد الأبدي، حيث الآب والابن والرُّوح الْقُدُس، بغير حدٍّ ولا قياسٍ، والوسيط يَسُوع الْمَسِيح رَبِّنَا الذي به نُعاين نظر الثالوث الْقُدُّوس غير المَرئي كما في مرآةٍ، وبه نتقبَّل التنعُّم الذي يفيض من ينبوع الحياة. عند ذلك بواسطته ندنو إلى الله الآب، نحن وجَميع الناطقين الأَوَّلين والأخيرين وننال الفرح الذي لن يفتَرق مِنَّا إلى الأبد.

[٩٢] وقد سلَّمنا الآباء، إنه في تلك الساعة التي فيها يُختطَف القديسون، بإشارة من الله، ليَرتفعوا إلى سعادة ملاقاة رَبِّنَا، تَجذبهم حياته كما يَجذب حجر المغناطيس إليه قِطع الحديد. عندئذٍ تنضم جَميع الرتب السمائية وجوقات أولاد آدم إلى كنيسة وَاحِدة، ويكمل قصد مشيئة الخالق الذي كان يراه منذ إنشاء العالَم. لأنه لَمَّا خلق الخليقة بالنعمة، جعل كل مسيرة هذا العالَم بإفرازاته وتغيُّراته في خدمة الناطقين... وحدَّد لَهم هذا المَخرج (أي النهاية) أن يكونوا مثل السيِّد في ديار الملكوت ينعمون بالعالَم الذي بلا انقضاء ولا غيار لتنعُّمات حياته.

[٩٣] الذبيحة الهيولية (أي التي بأعمال الجسد) هي ذبيحة جسدانية تشتَرك معها النفس بإرادتِها الفاضلة.

[٩٤] الذبيحة غير الهيولية هي ذبيحة نفسانية يشتَرك فيها الجسد بالخضوع العفيف.

[٩٥] الذبيحة التي بلا رسوم (أي بدون تصوُّر الأشكال) هي سجود العقل الذي يشخص بالرُّوح بفعل كلمة غير هيولية (أي بدون صوت)، وفي جَميع أنواع حركاته يُطاطيء رأسه قدّام العظمة.

[٩٦] المعرفة غير الهيولية في الصلاة هي أفضل من الصلاة التي بلا رسوم.

[٩٧] المعرفة غير الهيولية في الصلاة هي حسّ روحاني في الصلاة. والصلاة النقية هي كلمة بلا رسوم (أي بلا تصوّرات) في التضرُّع.

[٩٨] هناك كلمة هيولية بلا رسوم حسِّية في الصلاة؛ وهناك أيضاً كلمة غير هيولية بلا رسوم في الصلاة. الوَاحِدة يُشارِك فيها فعل الرُّوح الْقُدُس، بينما الأخرى تُشارك فيها الإرادة الصالِحة النشيطة، والنعمة بِمعونتها الخفية، بدون أن يُدرك الشخص ذلك، وبدون أن تَحسّ بها المعرفة.

[٩٩] وقد ترد أيضاً في الهذيذ الفاضل حركات بِخصوص بعض الأمور. ولكنها لا تنشأ من الآلام فقط بل وأيضاً من أشياء نقية وفاضلة، إلاَّ أنها لا تَحصل في الصلاة.

[١٠٠] كل رسوم أقنومية (أي صور مُجسَّمة) من أي نوعٍ آخر في الصلاة هي نقص للعقل. وإذا كان حدوثها بسبب العجز أو البلادة الطبيعية، فليس علَى العقل في ذلك لومٌ. أمَّا إن كان قد تأخَّر منها شيءٌ بسبب موافقة العقل لَها، وتوقّفه عن الجهاد مقابلها، فهي تَجعل المتوحِّد تحت اللوم أمَّام الله، سواء كانت ألَمية أو كان تصوّرها بغير ألَم؛ هذا إذا وُجدَت في العقل خارجاً عن الهذيذ الفاضل.نِهاية المقالة الأَولى عن المعرفة.

المئة الثَّانِية

[١] كما أن حركات الهواء تدلّ بتغيّرها على أنَّ هناك مَنْ يُوجِّهها، هكذا فإن الفكر يدلّ بتغيّراته المتضادة، سواء ناحية الخير أو ناحية الشرّ، على أنَّ هناك قتالات ومعونات من النعمة تصحب باستمرار حركاته تُمكِّنه يوماً بعد يومٍ من التقدُّم تدريجياً في تعلُّم حقائق جديدة.

[٢] هناك كلمة هيولية، ولكنها لا تَحمل أية صورة مادية؛ وهناك كلمة غير هيولية، ولكنها تَحمل صورةً ما؛ وبالنهاية توجد كلمة بسيطة إلى حدٍّ أنَّها لا تَحمل أية صورة على الإطلاق. وبِما أنَّ الكلمة البسيطة التي بلا أية صورة تتحرَّك في الصلاة، فهي تقود الكلمة الهيولية إلى نِهايتها، بل وتَمتدّ أيضاً حتى إلى التحوّل نحو مَنْ هو قبل الدهور ويقود الكل إلى نِهايته.

[٣] لقد أراد الله، مُدبِّر الكائنات، أن يستعمل لَها تقويماً ثانياً، لكي تنتهي كلها إلى مساواةٍ، ويُحرِّك القوام الأَوَّل للعالَم الحاضر الوقتي الكثير التغيُّرات بِهدف الوصول به للغاية التي سبق أن حدَّدها له كزارع. وهكذا يقوده سريعاً إلى أوان إلقاء البذار، ونظره مُثبَّت باهتمامٍ على الهدف الذي سبق هو نفسه أن وضعه له لكي يتحقَّق في نِهاية الأمر.

[٤] الصوت الأَوَّل هو تأمّل أزلية اللاهوت؛ والثَّانِي هو تأمّل سرّ صفات الأقانيم الإلَهية.

[٥] حينما نكمل التَدْبِير الفاضل بِجزئه المادِّي، لا نرى سوى الصفات التي تناسب هذا الجزء. أمَّا إذا أكملناه بِجزئه اللاَمَّادِّي، فيمكننا حينئذٍ أن نتأمَّل وحدة هذه الخاصيات معاً. وما هو أعظم من هذَيْن التَدْبِيريْن هو العمل الذي بلا مُسمَّى، الذي يتخطَّى التَدْبِير الفاضل ليَرتفع أعلى من جَميع هذه الخاصيات.

[٦] المنادى الأَوَّل بالنور (الأَوَّل) هو النور المَحسوس. وهو أيضاً قد أرشد المنيرين إلى النور.

[٧] أنظر النور، كيف أنه بنقاوته وانسجامه، قد حرَّك بِحسنه الطبائع الأُولى، قديماً، لتمجيد النور الأَوَّل. وهو أيضاً بتوزيع أنواره للإخوة الثَّانِيين، جذبهم من الظلمة إلى النور وإلى تَمجيد التأمّل الأَوَّل فيُسرّون ويرجعون إليه، ذاك الذي من معرفته صار الجَميع. وهو أيضاً الذي عند نهاية مسيرة العالَم، يصير رداءً للذي من أجله صار الكل، لكي يُمكن معرفته.

[٨] الناطقون الكبار قبلوا تعليم تأمّل الوحدانية بواسطة الأجسام. والثانون صار لَهم الوحيد نفسه مُعلِّماً، ولكن بشبه الأجسام التي هم لابسون إياها. المَجد لِعظمة حبِّك الذي لا قياس له! المَجد لِعجب نعمتك التي لا شبه لَها! المَجد لِتنازلك غير المُدرَك، الذي أقام الرُّوحانيين بالتعجّب الذي لا تفسير له، وفي النهاية يرفعهم بواسطته، بِحقيقة أجسادهم، إلى تأمّل قصده الأزلي فيما يَخصّ تقانتهم (أي كمال حسنهم في التجديد المُزمع).

[٩] تعرَّفوا جيداً على رجائكم، أيُّها المائتون! اقتنوا إدراكاً عالياً بنفوسكم، بِما سيكون لكم، وما هو مُخفَى عنكم. إن خلقتكم لَم تكن وليدة الصدفة بِحسب الظاهر وما هو خارجي فقط،

وليس هو بالشيء القليل، أو الذي لا يُمكن إدراكه، ما صحب تَدْبِير الخلاص من أجلكم منذ اليوم الأَوَّل وحتى الآن من تغييرات بِهذا القدر من الأهمية.

[١٠] كل وقتٍ يذوق فيه العقل التأمّلات الرُّوحية الأَولى بالوحيد، هكذا تنمو به الدالَّة إلى الشيء الذي يتقبَّله من التأمّل، وهناك يَمكث. وكل عقل يُعطَى موهبة بِحسب مقدار الأفهام التي يستنير بِها وتكون الدالَّة بِحسب كمية النور. ليس لأنه يوجد نقص أو زيادة في كمية النور، ولكن لأن صِغَر أو كِبَر النور يزيد أو ينقص في العقل الذي يقبله. ولِهذا يدنو البعض، بِمقاييس متفاوتة في الأفهام، إلى حدِّ الدهش. بينما البعض الآخر يسلكون بصورة معتدلة. ومن الأفهام وبواسطتها يُعرَف مقدار الفيض أو الاعتدال في قياس النور في العقل الذي يتقبَّله، كما تُعرَف نقاوة نظرته أو ظلامها.

[١١] ليس كل ظلام وصعوبة جهاد تتبعه موهبة النور وتنعُّمات الفرح، بل لابدّ لكل موهبة أن يسبقها ظلام وصعوبة جهاد، أمَّا من قبلها بوقت قصير، أو بيومٍ أو بشهرٍ أو بسنةٍ، وذلك حسب مقدار العطية. لأنه لا يُمكن بأي حال أن يأتي الصلاح في الفِكر إن لَم يسبقه السجس والتكدُّر وظلام عظيم وتَجربة. ولِهذا فكل وقتٍ يُؤهَّل فيه العقل لقبول موهبة راحة من نوعٍ ما، فهو يَجد جهاداً عظيماً ونوائب كثيرة، وبِخروجه من هناك يلاقيه النور. وبِحسب مقدار الضَغطة تكون عظمة النور؛ فإن كانت الضغطة شديدة كذلك تكون الموهبة عظيمة. لأننا نرى أن جَميع القديسين هكذا يَحصل لَهم، وبالأكثَر إذا ما أُهِّلوا أن يدنوا من النعمة الإلَهية. فإنهم في البداية يدخلون في تَجربةٍ عظيمة، أمَّا في جهادٍ مَحسوسٍ مع الشياطين، وأمَّا في تَجارب خفية. ولكن طوبى لِمَنْ لا يَميل إلى الانحلال، ولا يُسيِّب نفسه في المُحادثات والنياحات ويَهرب من السكون ويستعين بالرَّاحَة في هذه الأوقات المُختَبَرة. إيضاح: من البيِّن أن العقل لا ينبغي أن يُركِّز على الأفكار بِخصوص الأمور الفارغة والزائلة التي للعلمانيين. ولكنه يجب أن ينشغل بِمعرفة الله، في سيرة السكون، ويكون فكره ثابتاً على الدوام في الله، دون أن يضطرب بالمشاغل والاهتمامات من كل نوع.

[١٢] يقول الآباء إنه في اللحظة التي فيها يبدأ الإنسان بالانفصال عن الخطية الساكنة فيه، ولا يعود فيما بعد منطرحاً تحت سلطان روح هذا العالَم، يَحصل له ما يَحصل للمرأة متى جاءت ساعتها لتلد، فإن الخطية تُعذِّبه نَهاراً وليلاً، وتصل نفسه إلى حدِّ الاضمحلال، وتعرض له ألف تَجربة. ولكن حينما يصفو الجو أمَّامه ويرى من بعيد هدف رجائه، يتشجَّع قلبه مقابل المُجرِّب الذي يواجهه، ويُحرز نصراً كاملاً على الخطية. وكل يوم، حينما ينهض، يأتي الفرح لِمقابلته، والصعوبات المُختلفة التي كانت تواجهه، تنصرف عنه الآن من بعيد، إلى أن يصل قليلاً قليلاً إلى ميناء الرحْمة الذي كان جَميع القديسين ينتظرونه من بعد الجهادات الطويلة التي احتملوها من الأحزان والآلام من أجل الله.

[١٣] حرارة القلب التي تكون في وقت الصلاة، عندما تنحلّ الأعضاء، وتنقبض الحواس، ويضعف اللسان ويتخلَّف عن الحركة مع العقل، وتدوم الميطانيات وقتاً طويلاً – اِعلَم أن هذا

يَحدث من القراءة بِمعرفة، هذه التي بِها يُعرَف الحق منيراً بوضوحٍ. فعندما يدنو الإنسان إلى الصلاة، فإن تذكار القراءة يلهب العقل المُصلِّي بأفهام الكلام الصحيح الذي قيل عن الله وكان يتلو به.

[١٤] إلى أن يُؤهَّل الإنسان لاستعلان الأسرار الإلَهية التي بالطهارة التامة يُعرَّف العقل بها بفعل الرُّوح الْقُدُس، فإن الذين يسيرون في طريق المعرفة يذوقون التنعُّم الرُّوحي، إن كان في هذيذ المَزَامِير، أو في مفاوضة القراءة والصلاة، أو في هذيذ العقل، وكلها تتجه إلى هدفٍ وَاحِد، أن تَجعلهم يستحقون، من وقتٍ لآخر، لِفعل الرُّوح في العقل بِهذا الدهش الجزئي، ويتنعَّمون بسرور القلب وبالفرح بالله، ويقبلون فهم ذلك الشيء الذي كان متوارياً عنهم. وهؤلاء هم الذين من أجل معرفة الله يواجهون كل الأيام التجارب الْعَظِيمة، ويعدّون أنفسهم للموت، ولا تصغر نفوسهم أو يتْركون السكون.

[١٥] الخوف الذي يُولَد في الإنسان في الوقت الذي تكون فيه سفينته تبحر بِهدوء مع نسيم الفرح والأفهام التي تنبع في قلبه – ذلك الخوف الذي يكون مصدره نعمة الله، هذا لأن ذلك الإنسان هو، بلا شك، في خوفٍ من الضلالة – ينشيء في قلبه حزناً في الله، لكنه في الحقيقة يكون لتقوية نفسه. ومن هذا الحزن تتولَّد فيه صَلَوَات نقية متخشِّعة، مُحَمَّلة في الوقت نفسه بالفرح والحزن معاً، أي بالرجاء والخوف. لأنه يقول في نفسه: "ربَّما أسير خارجاً عن الطريق، أو ربَّما أضلّ فجأةً بعيداً عن الله في أحد دروب الضلالة". وهكذا يقتني ذلك الإنسان فكراً متضعاً جداً، لأن ذلك الخوف يَحفظ قلبه حتى لا يرتفع بسبب أي صلاح يقتنيه.

[١٦] الإيمان برَبِّنَا هو ملجأ النفس في أوقات التجارب والأحزان؛ والشكر بالنسبة للقلب الضعيف هو ملاذّ الناسك العمَّال.

[١٧] الذين ثبتوا في الرجاء المزمع، وصاروا مستحقين لفرح الرُّوح الْقُدُس، لا يطلبون إطالة هذه الحياة الحاضرة، ولكنهم طالَما لَم يتْركوها بعد، فإن قلبهم يتنهَّد كل حين مشتاقاً إلى وقت انطلاقهم إلى الحياة الأخرى. إنهم يدركون جيداً ما أقوله، هؤلاء الذين شغلهم هذا الفكر، وتراءى لَهم العالَم مضطرباً بسبب كثرة مباهجه التي لا تُحتمَل، وصاروا متغربين بالكمال عنه، وملأوا قلوبهم تماماً بِهذا الفكر، حتى أن الثقة الْعَظِيمة التي اقتنوها بواسطته رفعتهم فوق كل شكّ. هؤلاء تضطرم قلوبهم بالاشتياق إلى تلك الساعة التي يُمكنهم فيها ترك أجسادهم لكي يروا ميراثَهم بوضوح. وبنعمة الله صاروا مستحقين لذلك الفرح من قِبَل ذاك الذي أفاض عليهم بِغِنَى مثل هذا الإيمان كَخاصة المسيح، ليس بِحسب أعمالِهم، بل بِحسب صلاحه الذي لا يُقاس. فهو الذي يَهب لِمَنْ يشاء أن يتلذَّذ به بِغِنَى وهو لايزال بعد في هذه الحياة الحقيرة الفانية. مَنْ هو الذي يقدر أن يُقارن أمور هذه الأرض بإيمان القلب هذا، والموهبة التي يَمنحها الله، من وقتٍ لآخر، لبعض أحبائه؟

[١٨] آه، لَكَمْ يعجز المداد والأحرف عن وصف كل هذا بتدقيق في كِتَاب، بِما يتناسب مع معرفة أولئك الذين صاروا أهلاً لِهذه الأمور التي وُهِبَت لَهم من نعمة الله الوفيرة، وما تشملها

من مباهج الخيرات الرُّوحية!

[١٩] المَجد للذي قد صار لنا وسيطاً لِمثل هذه الخيرات وبه استحققنا أن نقبل ونَحسّ بالإيمان بذلك الشيء الذي لَم تره عَيْن، ولَم تسمعه أذن، ولَم تستطع حواس النفس أن تفحصه، الأشياء المكتومة في البكر، والآن قد أخرجها للظهور بواسطة الجسد الذي أخذه مِنَّا، ذاك الذي هو صورة حقيقية لِغير المنظور المتَّحد به الطبع الإلَهي، الذي لأجل رجاء الناطقين أخذه مِنَّا، وبه قد عرَّفنا بشيء من تلك الأشياء لكي نتحقَّق بقية الأشياء التي ستحدث لنا في التجديد الذي سوف تتقبَّله بشريتنا بواسطته.

[٢٠] حركة الغضب التي تَحدث في الطبيعة لا تُحسَب إثماً إذا كان مردُّها لِحدَّةٍ طبيعية، وهي في ذلك تشبه ألَم الجوع أو حركة الشهوة التي لا تطرأ أبداً بدون مُحرِّك. فالطبيعة هي التي تتحرَّك من خلالِها، وتبقى حركاتُها غير أثيمة. والشيء نفسه ينطبق على الغضب الذي لا يقع تحت أي لومٍ، طالَما كان يتحرَّك فينا لأسبابٍ تثيره. أمَّا إذا كُنَّا نحن نستخدم الغضب لأداء أي عملٍ، أو نعطيه فرصة لَيْتَباطأ في ضميرنا، ويَهدِّ العقل به، ففي هذه الحالة لا نكون مُدانين لأننا تعرَّضنا للغضب، ولكننا نُدان فقط إذا ما أخرجناه للفعل في أي أمرٍ، كأن نوجِّهه، على سبيل المثال، في قولٍ لاذعٍ يؤذي شخصاً آخر، أو أن تصدر عَنَّا أية حركة للتعبير عنه، بصورةٍ أو بأخرى. وكذلك يُعتبَر إثماً إذا ما استخدمناه في معارضة الآخر، أو بدافعٍ من الغيظ. والغضب المتكرِّر، السريع أو الذي يطول أمده، يُعتبَر عَرَضاً لأحد الأمراض النفسية الخطيرة. وعند المُهتمِّين يتولَّد الغضب عادةً من الكآبة، ومن حزن ضميرهم بسبب تراخيهم دون أن تكون نفسهم قد حصلت على الشفاء ولافتقارهم إلى طول الأناة في وسط أحزانِهم. أمَّا عند المبتدئين، بعكس ذلك، فيحدث الغضب نتيجةً لتعلُّقهم الزائد بِمشيئاتِهم. وأمَّا الآخرون، فينشأ الغضب عندهم بسبب الكبرياء ومَحبة المَجد الباطل.

[٢١] أمَّا عن ألَم الشهوة، فإذا لَم يكن هناك سبب خارجي للإثارة، فهو في حركته الطبيعية المألوفة لا يثير فينا بسرعة إغراءاته الملتهبة التي لا تُقاوَم. ومع ذلك، فإنه قد يَحصل لنا دون أي سبب خارجي، بل بتخلية من الله، لكي يَحثنا على الجهاد. إلاَّ أن مثل هذه التخلية في هذا المَجال، لا تَحدث خارجاً عن أحد هذَيْن السببَيْن: إذا صدرت مِنَّا أية إدانة أو احتقار لِشخصٍ في هذا المَجال، أو نتيجةً لأي عُجْبٍ أو افتخار من جانبنا يكون قد تباطأ بعض الوقت في ضميرنا: افتخار بأننا قد غلبنا هذا الوجع، أو لثقتنا في قوَّتنا الخاصة، وأنه بفضل مَجهوداتنا الشخصية قد أفلحنا في أن نكون فضلاء، بينما نكون قد تَجاهلنا عمل الله الذي يُكمِّل فينا كل ما هو صالِح، بِموهبة تأتي من عنده. وبعض الآباء يقولون إن الشيطان يُحارَبِّنَا بِهذا الوجع بنوعٍ من الحسد. إلاَّ أنه من غير المعقول أن يستطيع الشيطان بإرادته وبدون أية تَخلية بتَدْبِير من الله، أن يفعل ذلك، أو أي أمرٍ آخر يُجرَبِّنَا به. فلو أنه استطاع فلن يتْركنا ولا لِساعةٍ وَاحِدةٍ بغير عذاب. يُوجد مُدبِّر يرافقنا، والأسباب التي تدعو إلى هذه التخلية تأتي بتَدْبِيره. وهكذا يثبت لنا أن تَجربة الشهوة تَحصل لنا أمَّا بتخليةٍ (بسماحٍ منه)، أو لِسببٍ خارجي يطرأ لنا عن طريق الحواس، أو

من أي تذكار، أو من التلذُّذ بأية حركة داخلنا. ولا تبطل بسرعة سوى بالوسائل الآتية: الصلاة مع الميطانيات، والسجود الدائم أمَّام الصليب المقرون بالحزن وتوجُّع القلب، والصَّوْم الذي يفرضه الإنسان على نفسه.

[٢٢] ما مِن وجعٍ نبغضه بالحقيقة، ولا يفارق الخوف منه القلب أو العقل، فحتى لو أن يوجد المُجاهد مغلوباً أمَّامه أو أصابه بِجرحٍ بفعل إحدى ضرباته أياً كانت نوعيته أو طبيعته، فلن يُحسَب له ذلك أبداً كَخطيةٍ، طالَما أنه يثبت في بغضته له، لأن الله عادلٌ هو. في الحقيقة إن توبة نفسه تأتي دون تأخيرٍ على أثر الجرح، وهي تكون الدواء الذي لا يُستعصَى عليه شفاء أي جرحٍ. ومَنْ يبغض حقاً هذا الوجع يُمكنه أن يرى نفسه في الاضطراب وفي الألَم الذي يَجتاح أعضاءه من مُجرَّد تذكّره.

[٢٣] التواضع هو صفة العقل السليم. وطالَما يسكن التواضع في الإنسان، فإنه لا يتعرَّض للتخلية (من جانب الله) عند التجارب الموضوعة لامتحان الجسد أو الضمير، أو من الأوجاع ومن معاكسات الجسد أو النفس.

[٢٤] فلنتيقن أن كل وجعٍ نُحبه أو نتلذَّذ به، فحتى لو أنه لَم يأتِ إلى الفعل، هو بِموجب العدل الإلَهي يستحق الدينونة، ويُحسَب بِحقٍ أنه خطية. ونحن ننال العقاب عنه، سواء هنا أو في العالَم الآتي، كما لو كُنَّا قد أكملناه بالفعل؛ إن كان وجع الشهوة، أو الحسد، أو الحقد تِجاه أي إنسان، أو أي وجعٍ آخر، لأننا، في قلوبنا، قد أظهرنا مسرَّةً بِما نعرف أنه مُخالِف تماماً للمشيئة الإلَهية، ولأننا كُنَّا مستعدين للتلذّذ به، بل ونُحب أيضاً أن نتذكره كل حين.

[٢٥] إذا سكن المَجد الباطل في الضمير القائم في المنزلة الجسدانية، فهو يُسلِّمنا لوجع الشهوة. أمَّا إذا سكن في الضمير القائم في المنزلة النفسانية، فهو يُنمِي فينا النزعة إلى الكبرياء. الشهوة لأنها تُشبِع الجسد؛ والكبرياء لأنها تَجعل الإنسان يتمجَّد بعظمة أعماله أو بِمعرفته.

[٢٦] بعد أن يقتني العقل الحكمة الرُّوحية، فهو يرى نفسه، في الواقع، أنه بدأ يكتشف عيوبه بسرعة. وكما أن معرفة عيوبنا تكشف لنا إذا كُنَّا نشعر حقاً بالحكمة، بالمثل فمن غياب الحكمة يتبيَّن بوضوحٍ من حقيقة أن الشخص لا يشعر بنقائصه.

[٢٧] إذا ما بدأتَ بِممارسة أحد أعمال النسك الإلَهية، أو خلال التجارب التي تصحبه، ولازمك شعور بقوةٍ وبصبْرٍ غير عاديَيْن تظهران في نفسك، وبِمعونتهما تثبت في الجهاد دون أن تتضايق كما هي طبيعتك، بل بالعكس ترافق قلبك غبطة خاصَّة وتُشجِّعه، بِحيث تصبح الضغطة والشدائد المُصاحبة لذلك الجهاد، خفيفة ومُحتَمَلَة، ويستمد فكرك غيرة – اِعلَمْ أن النعمة قريبة منك، وأن الله مستعد للتدخل من أجل معونتك في هذا العمل.

[٢٨] حينما ترى أن أحد الأوجاع التي تبغضها، أو أي فكرٍ أياً كان، ينهض داخلك متواتراً على غير العادة، كُنْ حذراً، لأن هذا الأمر لا يحدث بغير سبب. والحقيقة هي أن قوة الله، الذي

كل شيء سهلٌ عنده، تستطيع بواسطة صلاة قوية، نُقدِّمها بغيرةٍ ملتهبة، أن تُبعِد عنَّا هذا المضاد الذي نتوسَّل مقابله بلا تكاسل، وتعطي قلبنا حكمة لِمعرفة أمور مَخفية مثل هذه، وتُحقِّق لنا في النهاية مَخرجاً مفرحاً. إيضاح: بِمساعدة الهذيذ في الصلاة، والاهتمام والحرص مقابل التجربة، فإن الفكر نفسه يستنير بعمل الله الذي يرافق مَخافته؛ فهو يبادر بالهرب ويتخلَّص من خطأه في الاستماع للشيطان الذي من عادته أن يستعبد الإنسان بظلمات النفس. لكن الصلاة مع الهذيذ بالله، تنير القلب طبيعياً.

[٢٩] يوجد حزنٌ يُظَن به أنه من أجل الله، أو من أجل خطايانا، أو من أجل أمورٍ إلَهية لا نَمتلكها، والتي غيابُها يَجعلنا نتألَّم، بينما هو فخٌ من الشيطان يُخفيه في الفكر (الذي يظن) أنه مشغولٌ جداً بِمخافة الله. وكما هو مكتوبٌ: "في الطريق التي أسلك أخفوا لي فَخّاً[١١٥]"؛ و"وضعوا لي أشراكاً في طرقي[١١٦]". لأن الشيطان يريد، بواسطة الحزن من أجل الله، أن يفصلنا عن الفرح والمسرّات التي نَجدها فيه، وبالخوف من الخطية يقودنا إلى اليأس. فكل خوفٍ من الخطية، وكل حزنٍ من أجل فضيلة (لَم نَمتلكها بعد)، لا يَمتَزج به الرجاء في تَحنُّن الله، بل يُركِّز دائماً على النقطة عينها ويُولِّد فينا اليأس، اِعلَمْ بكل تأكيد أن الشيطان هو الذي يثيره فينا.

[٣٠] أيُّها المسيح إلهُنَا، مُخلِّص الكل، الذي بتجسّده ظهر للعالَم، لكي ينهض جنس البشر، بينما كنتَ مَخفياً بلاهوتك عن أعين السيرافيم، اجعلني حكيماً في سلوك الطريق الذي يقود إليك. اِمنحنِي الحكمة لكي أعرف كيف أدنو من جلالك. ثَبِّت في قلبي الرجاء الذي وضعتُه فيك، حتى يُمكنني أن أسكر به على الدوام، وأنسَى العالَم المائت بفعل المسرَّة التي أجدها فيه. اِجعلني، يا إلَهي، مستحقاً، انطلاقاً من الحركات التي يُنهضها الرجاء الذي تضعه فِيَّ، أن أنسَى (هذا العالَم الحاضر) لكي أرى القديسين على الدوام. بالحقيقة، يا إخوتي، إذا قلتُ لكم إن الشيء الذي يَحصل للإنسان حينما يستنير قلبه بِمثل هذا الفكر، يشبه الجنون، فصدقوني إذا كنتُ أؤكِّده لكم، لأنني لا أكذب.

[٣١] الوحدة تُقرِّبنَا من العقل الإلَهي، وتقودنا، في وقتٍ قليلٍ، وبدون أي عائق، إلى صفاء الفكر.

[٣٢] في وقت انحجاب النور وعتمة الجو، استعمل الحيل الظاهرة باجتهاد، يعني ضرب الميطانيات، وإطالة التضرُّع وبقية ما يشبه ذلك. فيصفو الجو فجأةً، وتصعد الشمس من جديد، دون توقُّعٍ، وتطلق أشعتها من وقتٍ لآخر وسط السماء.

[٣٣] البَرِّية القفرة، لأجل العوز الْعَظِيم الذي فيها، تُقنِي لنا ميتوتة القلب، وتعطينا قلب طفلٍ وتَخلطه بالله، وذلك بسبب الشخوص والنظر الدائم إليه ليلاً ونَهاراً، ولا يقدر الإنسان أن

---

(١) مز ١٤٢:٤

(٢) مز ١٤٠:٦

يعمل أي شيء خلاف ذلك.

[٣٤] الاتضاع هو سرّ انجماع العقل. وحين يكون العقل مشتتاً، والإنسان مبتعداً عن التواضع، يكون انجماع العقل قد بطل وزال. وإن كنتَ تقول إن هناك مَنْ تكون أفكاره منجمعة داخله، وفي الوقت نفسه يَهدس في الشرّ، أرِنِي وَاحِداً من آلام الشرور يُمكن أن يُقام في العقل بدون تصوُّر الأمور. فإن كان العقل يتصوَّر أي شكلٍ مادّي، فلا يكون هناك إذاً انجماع؛ لأن الانجماع الحقيقي يُعرَف من كون العقل منعتقاً من تصوّر أشكال الآلام.

[٣٥] سكون العقل هو قيام الحق في النفس؛ لأن الحق إنَّما يُعرَف بغير تصوُّر أشكال. والحق هو بَهاء الهذيذ بالله الذي يشرق في الذهن.

[٣٦] كل هذيذ يرسم في العقل (صورة) الشيء الذي يَهذّ فيه. أمَّا الحق، فلأنه لا يتصوَّر بأشكالٍ، فهو لا يرسم في العقل أي شيء، إذا ما انشغل بالهذيذ به، لا بأية مادة، ولا بأية هيئةٍ في الأفكار. وبِحقٍ قال أحد الْعَارِفِين: "إن العقل الذي يتطلَّع إلى الله يكون حرّاً من كافة الصور والأشكال". فكل صورة توجد في العقل تكون إذاً أدنَى من الحق. والهذيذ بالله يَجعل العقل أعلَى من كل الصور والأشكال المادية.

[٣٧] ليس لأي وجعٍ سلطة أن يَملك في الفكر الذي مات للعالَم. والموتُ للعالَم هو انتظارٌ دائمٌ للموت. عندما يتحرَّك في الفكر تذكار حبٍّ أي شيء متواتراً وبشدَّةٍ، فإذا كانت شدته قد تَهدأ، فإن تذكاره، مع ذلك قد يستمر طويلاً. وإذا عاد مرَّةً أخرى فإنه يَحدث بصورةٍ أقل شدَّة وبشكلٍ بسيط، ولا يعود يُسبِّب لنا انزعاجاً في أي شيء. وهذه هي الميتوتة التي تكلَّمتُ عنها: حينما لا يوجد فينا أي حبٍّ من أي نوعٍ لأي شيء، فإن الوجع المصاحب له أيضاً ينطفيء، ولا نعود نَحسّ بأي اضطرابٍ لا بتذكاره أو برؤيته. ولكننا حينما نضطرب سواء بتذكاره أو برؤيته، فهذا دليلٌ على أن ذلك الوجع مازال حيّاً فينا بسبب الحب الذي نَحمله له.

[٣٨] الرحْمة التي يُبديها أي إنسان للآخرين هي استعلان لِرحْمة الله وشفقته. وهي تُمنَح كَموهبة في أحشاء أولئك الذين يتَّجِه قلبهم إليها، الذين يُبغضون العالَم ويَجحدونه من أجل اسم الله. لأنه ليس مُمكناً للمأسورين للعالَم ومَجده وسلطانه وراحته وميراثه أن يُصبحوا أهلاً لِهذه الموهبة الْعَظِيمة، التي هي الرحْمة، لأنها لا تنبثق إلاَّ في ضميرٍ نقي. ولَم يُشاهَد أبداً شخصٌ مربوطٌ بشهوة أشياء يطلبها، تَجد عنده رحْمة كاملة. البعض يَمنعهم الجهل، أمَّا جَميع الذين ينحصر فكرهم في وَاحِدةٍ أو أخرى من تلك الأشياء، فإنهم يتعوَّقون بسببها. إلاَّ أنه بِمقياس ما يتجرَّدون منها، سرعان ما تنبثق داخلهم هذه الموهبة المنقطعة النظير، بسبب العبء الذي يضعه هذا التجرُّد عليهم، وبقياس ما يتطهَّرون من كل ما هو مرتبط بِهذا العالَم، تفيض داخلهم مشاعر الشفقة والتحنُّن. وغياب الرحْمة، تماماً مثل القساوة، ينشأ عن عددٍ كبيرٍ من الأوجاع، لأنها هي التي تُقسِّي القلب ولا تسمح له باقتناء الشفقة. ومثل هذا الإنسان لا يعرف كيف يشفق على الآخر، أو يتألَّم من أجل المُحتاج، ولا يتأثَّر إذا رأى قريبه واقعاً على الأرض، ولا يَحزن من أجل الذين يسقطون في الخطية. بل إنه بسبب تلك الأوجاع التي ذكرناها، تشتدّ

سطوة الغضب والحسد فيه، وتَجده أحياناً مغلوباً لِغيرةٍ غبيَّةٍ، ويَحصل له أن يُؤخَذ في شهوة الانتقام، كما لو كان في مكان الله. وهو لا يفسح في نفسه أي مكانٍ للشفقة. وكذلك تَجد في كل شخصٍ كل ما ذكرناه في هذا الفصل. وإعطاء صدقة للفقراء ما هو إلاَّ الجزء الأقل قدراً من الرحْمة، ويُحسَب كلا شيء بالمرَّة بالمقارنة بالأجزاء الرئيسية التي تَملك في القلب ويشتَرك فيها العقل بالمذاقة التي يَجنيها من الألَم الذي يشعر به القلب فيها. ولكن لِماذا نتصرَّف، في أيامنا هذه، كما لو كُنَّا لا نَمتلك حتى هذا الجزء الأقل؟ بل وحتى عندما يُقدِّم أحدٌ قطعة خبزٍ لِجائعٍ، فالذي يراه قد يعتبِر هذا عملاً عظيم القدر. غير أنه من المؤكَّد أن الله لا يقبل العمل الخارجي دون أن يكون نابعاً من شفقة ورحْمة القلب.

[٣٩] اِحذَرْ ألاَّ يتسلَّط عليك وجعُ أولئك الذين يُصيبهم المرض بشهوة تقويم أخطاء الآخرين، والذين، بِمبادرةٍ شخصية، يريدون أن يكونوا نُقَّاداً ومُقوِّمين ضعفات مشابهيهم. يَحدث هذا من وجع القساوة. ويظهر بوجهٍ خاصّ لدى المرفوضين من قِبَل العناية الإلَهية، ولا سيّما إذا لَم تكن مُدبِّراً أو مسئولاً بل وَاحِداً من الرعية، ويُوجَد آخرون كثيرون مثلك. لأن هذا هو عمل المدبِّرين. وإذا قلتَ لي: "ولكني أفعل هذا بِمحبةٍ"، لا تنسب مثل هذه المَحبة لنفسك. الحقيقة أنه كان من الأفضل لكَ أن تُجرَّب بالشهوة وما يتبعها من خزيٍ، لا أن تشتبك بِهذا المرض. فلا تتحدَّث إلى إنسانٍ بِخصوص أخطائه، ولا تُلمِّح إليها أمَّام الآخرين. وإذا قيل لكَ: "كان يَجب أن تكون على علمٍ بِمثل هذه النقائص"، فأجب على ذلك قائلاً: "ليس لي عادة أن أفعل هذا، فإذا بلغني شيءٌ من نقائص الآخرين، لا أجد نفسي حرّاً للتفكير فيها بسبب الجروح التي بنفسي". فإذا كانت مَحبة الله في نفسك، فأعدد الدواء لِهذه النفس في الصلاة، واترك أمر تقويمها لربِّها الذي هو بالطبع أكثَر حكمةً منك. فإذا كان الله لا يُنهضها حينما تُصلِّي من أجلها، فلن تستطيع أنتَ ذلك بِمجهوداتك الشخصية. وإذا كان هو تلميذك أو خادمك، حاول أن تساعده بأن تقول له كلمة، مرَّةً وَاحِدة، فإذا لَم يستجب ابتعدْ عنه. هكذا كان تَدْبِير المتوحدين الكاملين الذين يَحفظون نفوسهم. وإذا كان هو صديقك، وكان يتخفَّى من الكثيرين ومن الأشخاص المُختبرين، تَجنَّبه، وبالأخصّ إذا كان مغلوباً من تقصيره ويعرف خزيه، ولكنه يزدري بالأمر. إيضاح: هذا يُشبه ما قاله القديس مرقس الناسك: "من الأفضل أن تصلِّي بإلحاحٍ من أجل قريبك من أن تُوجِّه له أي توبيخٍ على خطاياه"، وأيضاً: "الذي لا يُطيع من أولِ كلمة، لا تغصبه بكلمة ثانية، ولكن من خلاَل صبرك، اقتنِ رِبْحاً من احتقاره لكَ، من أجل نفسك ومن أجل الفضيلة. فإنَّ صبرك سيفيدك أكثَر من تقويمك له".

[٤٠] كل موضعٍ تحلّ فيه كُنْ منفرداً بضميرك، متَّوحداً وغريباً بقلبك، غير مُختلطٍ بأحدٍ.

[٤١] لا تُقايس كل السيرة والأعمال العجيبة التي بها بأن يكون الإنسان غير معروفٍ ولا مَحسوباً، وبأنه يَهرب من الكل. لأن الهروب ينشأ ويُحفَظ من أن يكون غير معروف ولا مَحسوباً.

[٤٢] إذا كانت جَميع مصادفات النظر والسمع تقود إلى تربية الأفكار بالداخل، فأية منفعة إذاً تكون للذين يسرعون باجتهادٍ للملاقاة، ويريدون، في الوقت نفسه، أن يُسكِتوا الأفكار بِخصوص ما سَمعوه؟

[٤٣] لقد تاهَ عن كثيرين هذا الأمر، فلَم يعرفوا ولَم يفهموا أننا نحن المتوحدين لسنا نَحبس أنفسنا داخل الباب من أجل أن نعمل الفضائل، بل وأن نكون أيضاً موتَى من الفضائل. لأن الفضيلة التي تُعمَل في السكنى مع كثيرين إنَّما يعملها الأحياء. فإن كُنَّا نحن نطلب في السكون عمل الفضيلة التي يعملها إخوتنا الأتقياء في المَجمع، فما لنا والهرب والحبس في قبْر القلاية؟ ولكننا إنَّما ننتظر أن نقتني من عمل السكون الشيء الذي إذا تعلَّقنا بِجفون عيوننا لا نقدر أن نَجده في السكنى مع كثيرين. ولو كان قصدنا عمل الفضيلة، فما هو المانع من عملها في السكن مع كثيرين؟ وما أعنيه هنا هو الصَّوْم وخدمة الأوقات والصدقة وما تبقَّى مِما يُشبه ذلك، وهي الأعمال التي يُنشِّط المَجمع بالأكثَر على عملها، ولا تُعرَف فضيلة خارجاً عنها.

[٤٤] التنعُّم الرُّوحي الذي يُوجَد في العمل الخفي لا يُحسَب مع الفضيلة؛ لأنه هو سيِّد الفضائل. أمَّا الفضيلة فهي كل عمل ظاهر بِحواس الجسد من أجل الله. ولِهذا نحن نعمل هذه الفضائل أولاً في المَجمع، وبعد أن نتدرَّب ونتَروَّض بها ندخل في السكون، ولكن متى صرنا مؤهَّلين له. من المعروف أنه حتى صوت الطير يُكدِّر السكون، فكم بالأكثَر الخروج والدخول الكثير والمناظر الدائمة! هو ذا أنتَ ترَى كثيرين من الآباء الرُّوحانيين لَم تكن لَهم في جسدهم قوَّة ليكمِّلوا الفضائل، ولكنهم ما رأوا أن يتْركوا السكون، بل كانوا مطروحين داخلاً والباب مسدودٌ في وجوههم، وكانوا هادئين فقط. ألعله كان ينبغي لَهم أن يتْركوا السكون لأنه ليس لَهم أعمال؟ أمَّا هم فما كانت حلاوة الوحدة تدعهم يعطون أنفسهم لنظر المَجمع على الدوام. لقد كان حلواً عندهم أن يُقدِّموا لله صلاةً وَاحِدةً بقلبهم، وهم ملقون في السكون، بِحزنٍ واتضاعٍ، أخيَر من ربوات صَلَوَات وأعمال يُقدِّمونها لله خارج قلاليهم، وأفضل من نظر ومفاوضة فضلاء العالَم وحضور الأعياد. حدّ الفضيلة هو المفاوضة الفردية والهذيذ العقلي الهادي مع الله. والمتوحِّد ليس له عيد على الأرض. لأن عيده هو حزن نوحه، وعوض الأعمال التي يفتخر بها كثيرون بالنزهة مع بعضهم، هذا عزاؤه هو شقاؤه في السكون. ألعلك، يا أخي، ما تعدّ عدم الأنس والمفاوضة مع الآخرين، والنوح، والحزن العقلي، والسجود أمَّام الله كل حينٍ – ما تعدّها عملا؟ أتَحسب الصَّوْم وكثرة تلاوة الصَلَوَات فقط هي عمل؟ ولكن اِعلَمْ أن عمل القلب والتجلُّد في الوحدة هو عملٌ عظيمٌ. وصَدِّقْ أنه سعيدٌ حقاً ومؤهَّل لله، مَنْ يأكل كل يومٍ وهو مداوم السكون وصعوبة الوحدة جَميع أيام حياته، ولو أنه يتنهَّد على نفسه دفعةً وَاحِدةً فَقط كل يومٍ وهو مَحزونٌ ومُلقَى أمَّام الله. تَميَّز أنَّ كثيرين، وربَّما جَميع النصارى، يعملون الأعمال الجسدانية بِحلاوةٍ وشَجاعةٍ، ويعملون كل الفضائل المذكورة بفرحٍ، أمَّا السكون فما يَجسرون عليه! فلا تَحزن أيُّها الأخ الضعيف الجسد الساكن في الهدوء، لأنَّه ليس لكَ أعمال جسدانية؛ فإن نصيبك هو أعظم من نصيب أولئك الذين يعملون الفضائل الكبار وهم خارج السكون.

عظيمةٌ حقاً هي الموهبة التي حظيتَ بها أفضل من كل أعمال الجسد، وهي السكون بتجلُّدٍ ومَحبة.

لقد أطلتُ هذا الفصل أكثَر من البقية، والسبب في ذلك أنني أرى أنه قد تَحصل لكثيرين خسارة ليست بقَلِيلَة من هذا الأمر. إذ أنهم يصلحون لتَدْبِير السكون من أجل استنارتِهم وتواضعهم وحرارتهم الكثيرة وازدرائهم بالعالَم، ولكن لأنه ليس لَهم قوّة جسدية في الأعمال، أي أنهم لا يقدرون أن يصوموا ويسهروا ويعملوا بالجسد مثل كثيرين، فإنهم يقطعون رجاءهم من السكون. والحقيقة إن كثيرين من الذين تعوزهم الحكمة، المفتخرين بأعمال الجسد يُعطِّلونهم بكلامهم الخَرِف من هذا العمل، أي من الحبس والانقباض مع نفوسهم في السكون، هذا العمل الْعَظِيم والعجيب جداً، الذي لَم يَحظَ به سوى أفراد قلائل فقط بنوع الموهبة والإنعام من الله: أن يتشجَّعوا وهم في ضعف أجسادهم، ويصبروا على الوحدة وصعوبتها، وعلى العمل وحزن القلب الذي ينفر منه الجبابرة والشجعان! بالحقيقة إن عمل مئة من الرهبان يصومون ويَخدمون الصَلَوَات وسط السجس والخلطة ما يوازن عمل راهبٍ وَاحِد في السكون، حتى ولو كان عاجزاً ضعيفاً، ما عدا أن يكون فقط عادماً من الخلطة ومفاوضة الناس، وحبيساً داخل قلايته بلا انقطاعٍ، وليس أحد يدخل إليه ويَخرج. ولا أعني بقولي هذا الذين يَمسكون السكون بالاسم فقط، ولَهم من يدخل إليهم ويَخرج بسهولة، بل أعنِي الذين يسدّون بابَهم من يوم الأحد إلى يوم الأحد، وليس لَهم خلطة ولا مفاوضة مع أحد، ويَحبسون أسابيع مَحدودة أو جَميع السنة، ما خلا تناول الأسرار الإلَهية، ولا يلاقون أحداً ولا يَحضرون الأعياد ولا الكنائس حيث الجماعات. فإن كان هناك متوحدٌ كفؤٌ لنعمة السكون، وقد حَظِيَ بِهذه الموهبة من الله، ومنعه أحد الأساقفة أو رؤساء أديرة الإخوة، أمَّا من أجل غيرةٍ أو حسدٍ، وأمَّا من أجل عملٍ جسداني أو نياحٍ، عليه دينونة قدَّام الله، ويكون مزمعاً أن يُعطي جواباً أمَّام منبَر المسيح. إيضاح: المقصود بالتنعُّم الرُّوحي هو معرفة حقيقية بالطبيعة الإلَهية يَحصل عليها الإنسان بيقينٍ ووضوحٍ باستعلان الرُّوح الْقُدُس الذي يَمنحه القدرة على تقبُّلها. وبدون هذه المعرفة تستند الفضيلة على الخوف تِجاه مهابة الله، والثقة بالمكافأة التي يأمل الحصول عليها من أجل عناء سيرته، وليس على رحْمة الله المَجانية.

[٤٥] الجسد النفساني الذي يَخصّ النفس هو هذه المعرفة المستقيمة للطبيعة الصحيحة، التي فيها تطلب الملجأ وقت الظلمة وأفكار التجديف والحركات التي تُدنِّس الفكر والعوارض الطارئة وأفكار الجحود، وغير ذلك. ولكي تَجد الإجابة الصائبة والمؤازرة الخفية وراحة القلب، هناك حالات تكون فيها تلك المعرفة ضرورية لتشجيع العقل على مواجهة حركات الكآبة التي تَحصل عادةً للنفس بسبب شدَّة التجربة وضيقة الوحدة، أو بسبب أي دوافع أخرى طارئة. وأيضاً نَجد فيها، أي في تلك المعرفة، عزاءً عظيماً. ليس على الدوام، ولكنه يكون بإمكاننا أن نُسكتها بواسطة الصلاة. ولكن قد يَحدث أن العقل لا يَحتمل، بسبب غيرته، أن يكتفي بالصلاة وحدها، بل يبحث في الحال عما يُمكن أن يسنده. هذا يكون من طبيعة صحيحة وحكيمة، وفي

نفس الوقت يكون مرد ذلك إلى معونة النعمة وتذكُّر الأسفار الإلَهية، أو إلى حركاتٍ حكيمة تَخصّ الطبيعة التي تُشدِّد الذهن. ولا تكون النفس قد تعطَّلت تماماً، سوى لوقتٍ قصيرٍ، حيث تَجتهد لكي تستعين بِهذا العمل سرّاً في داخل القلب، ليس بواسطة صوتٍ يُسمَع خارجاً، بل بواسطة اجتهادٍ داخلي، حتى لا تُصبح أضحوكةً للشياطين، الذين يُشدِّدون عنفهم أكثَر من العادة ضدَّنا، لكي يضعوا نِهايةً للصلاة ولِحلاوة هذيذ العقل، في علاقتنا مع الله. إيضاح: أُطرُدْ الأفكار التي تأتي من الشياطين بالتضرُّع، وأعنِي أن تُحوِّل التفاتك عنها لكي تتجه إلى الله بكل قلبك؛ وهذا أفضل بكثير من أن تظل طول النهار والليل مُداوماً القتال مقابلها.

[٤٦] قول اللص اليمين يَحمل طابع الإيمان والتوبة. والذين يؤمنون ويتضرَّعون إلى الله مثله، فبلا أدنَى شكٍّ، لن يكونوا بعيدين عن الاشتِراك معه في الموعد الذي قبله من الرب، حتى ولو كانوا قاتلين أو زناة، شريطة أن يتوقَّفوا عن أسلوب حياتِهم السابق.

[٤٧] الذين يفحصون باستمرار وبكل تدقيق مسار الفكر، يعرفون قوة العناية الإلَهية التي تُعلِّم وتُرشِد وتَحمِي طفولَيْتَنا: كيف تعمل على الدوام في تعليمنا، وتشجيعنا، وإعدادنا، وتثبيت رجائنا، حتى عندما يحين الوقت نكتشف كم نحن أذلاء وفارغون، مقابل كل المواعيد، ونُسلِّم بأننا حقيرون جداً... إلخ، وأننا نَميل، من جانبنا، إلى اليأس والكآبة. ولكن يَحدث فجأةً أن ننهض بشجاعةٍ، ونَجتهد في كل أنواع الأعمال والفضائل، ونستنير ونَمتليء غيرةً في كافة حركاتنا، بينما بداية المسيرة لَم تكن تشبه ذلك في شيء. ونحن، في الحقيقة، نبدأ في ضعفٍ وعجزٍ، وسط حركاتٍ فاسدة وبقلبٍ متثاقل جداً. لأنه بفضل مثل هذه التغيّرات يُمكن للشخص أن يتعرَّف على عناية الله التي تعمل على رفعة جَميع الذين يَجتهدون في عمل الفضيلة، وكيف تقودهم بطرقٍ متنوعة كما يفعل الهواء أيضاً بتغيّراته. وبالكاد يبدأون في النمو في الرُّوح وفي الفرح إلى أن يقتَربوا من معرفة مَحبته، ويُعطَى لَهم الإحساس بالمرشد الخفي الكائن معهم. ويَجعلهم يعرفون ضعفهم، وفي نفس الوقت يدركون مواهبه وعطاياه بلا انقطاع. ويقتنون أيضاً الاتضاع حتى لا يتفاخروا ولا يقعوا تحت سلطان الشيطان. ولكن، مع أن الخيرات لا تتوقَّف ولا تنقص في مسيرة البشر المائتين، إلا أنهم يكونون عرضةً لفقدان هذه التنعّمات والمعونات أكثَر من الاحتفاظ بها.

[٤٨] يلقى الناس العقاب من أجل خطاياهم؛ أمَّا ضلالة العقل والكبرياء فيكون عقابها بواسطة الشياطين، لأن كليهما مدعاة للتجديف. والخطية إذا ما أُدينَت يتقوَّم فاعلها، أمَّا التجديف فمجازاته هي الهلاك الكامل بيد الشياطين.

[٤٩] لا تُحب أن تنعتق من عبودية السنن والقوانين في سيرتك، إلى أن يكتب الرُّوح وثيقة حريتك من هذه العبودية وتَحسّ به أنه قد كُتِبَ ذلك على عقلك دون تشكُّكٍ، وأن قوة حركات الحرية – وهي مذهلة حقاً – تغصبك، بغير إرادتك، على ترك الدرجة (التي أنتَ فيها في تلك اللحظة). اِحتَرسْ من الذين يعتقون أنفسهم، وهم مازالوا مستعبدين لِحركاتِهم وإن لَم يُقِرّوا بذلك. إنهم مازالوا يَجهلون تنعّمات أولئك الذين يُقيمون في عبودية الرب، وهي الخضوع

باتضاع حلو: فهُم في كل لَحظةٍ يُقدِّمون للمعاند ضريبة الحركات المريضة التي اعتادوا عليها.

[٥٠] اِحتَرسْ من أن تنخدع للخيالات التي يَجعلك الشياطين تراها: إنهم يريدون أن يَهزأوا بكَ. مثل هذه الأشياء تَحصل في أغلب الأحيان لِفئتَيْن من الناس. أمَّا الذين هم بالأحرى سُذَّج وبسطاء، وعقلهم مشحون بالكبرياء: فهُم يلمحون الشياطين الذين يُظهِرون لَهم الخيالات، في اليقظة أو أثناء النوم؛ وأحياناً أخرى يَجعلونهم يسمعون أصواتاً مُضلِّلة تَجعلهم ينخدعون لضلالتهم، لسبب سذاجتهم، إلى أن يسقطوا أخيراً في قبضتهم. وأحياناً أخرى يَحدث هذا لأشخاصٍ يتعبون في الأسهار الزائدة ويثبتون في السكون. فهم في البداية يرعبونهم بالخوف، فإذا ثابروا، لِسبب إيمانهم بالمسيح، فهم يَحتقرونهم مع كل مناظرهم، لأنهم (أي المتوحدين) يقتنعون تماماً أنه ليس للشياطين أية قدرة ولا على الطبيعة الجامدة، وهم يرون أنفسهم مُحاطين بِمركباتٍ وخيول نارية تَحميهم كما ظهر لأليشع المغبوط بينما كان يصلي لكي يُشجِّع غلامه، كما أنهم يعلمون أيضاً أن التجربة تأتي بسماحٍ من الرب الذي يتخلَّى عنهم لكي يَمتحنهم ويراهم منتصرين، ولكي يُخزِي وقاحة الشياطين، وتصبح واضحة لِمَنْ يريد أن يرى، قدرة معونة الرب. كيف ترافق المُجرَّبين وتَحميهم وتُحيط بهم وسط جَميع مُقاوميهم. فإذا غلبوا الشياطين في المرة الأَولى، فإنهم يعودون ويُظهِرون لَهم نوعاً آخر من الخيالات: ويتَراؤون في منظرٍ مَجيدٍ على هيئة مركبة نارية ويُمثِّلون شبه ملكٍ مَهيبٍ متسربلٍ بالنار ويُحيط به جَمعٌ كبيرٌ كما لو كانوا ملائكة. وقد انخدع بعض الآباء القدَامَى على هذا النحو، والذين لَم ينغلبوا من شدَّة الخوف انخدعوا بشبه الحق؛ وضلّوا لِظنهم أنهم قد شاهدوا المسيح في منظر نارٍ، وأن الملائكة تراءوا لَهم. وأحياناً كانت الشياطين أيضاً تنهضهم للصلاة. فينبغي ألا ننصت لِخداعهم، بل نتمسَّك بالاتضاع، وبِهذا نَخلص. على مثال ذلك الشيخ الحكيم الذي أجاب الشيطان الذي ظهر له بشكل ملاك، قائلاً: "وهل يأتي الملاك حقاً إلَيَّ؟ ربَّما كنتَ مرسلاً لِشخصٍ آخر غيري. أمَّا أنا فإنسان خاطيء، ولا أطلب أن أرى مسيحي هنا على الأرض". إيضاح: يُدعَى الإنسان ناقص الفهم، ليس فقط مَنْ كان مفتقراً إلى التعلُّم، بل وأيضاً مَنْ كانت تُعوزه المعرفة. فالبعض يفحصون الأسفار الإلَهية ولكنهم بعيدون عن فهم الحقيقة. ومن ناحيةٍ أخرى هناك مَنْ يترك عنه الكتب فيتأخَّر في اقتناء معرفة قويمة.

[٥١] القداسة هي أن يتقدَّس الإنسان في الصلاة بقوة فعل الرُّوح الْقُدُس.

[٥٢] إلى أن يتقدَّس قلبنا بروح الرب، ما نقدر أن نُميِّز بوضوح بين الحركات الخفية التي من فعل الشياطين، والتي من الملائكة، والتي من الطبع، والتي من الرُّوح الْقُدُس.

[٥٣] وإلى أن تتقدَّس كلمتنا بقوة الرُّوح، لن تكون مُخوِّفة للشياطين، ولن تَخضع لَها الطبائع الناطقة أو الصامتة.

[٥٤] وإلى أن نتطهَّر من انفعال الخطية، ما يَحلّ في أنفسنا انفعال الرُّوح الْقُدُس، ولا نستطيع أن نكون أواني مُقدَّسة يُمكن للرب أن يُغطِّيها بظله.

[٥٥] إذا وقفتَ بِحرارةٍ في خدمة المَزَامِير بِحرس نفسك وجسدك بكل اتضاع – تلك المَخفي فيها ربوات الكنوز للذين يتلونها بفهمٍ – تضرَّع أولاً له في خفية قلبك لكي يفتح قدّامك ينبوع الحياة الذي من عادته أن يفيض في هذه الأوقات للذين جحدوا العالَم الزائل، والذين في كل حين يرون بداخلهم ميتوتة يسوع على أعضائهم الخفية. ثُمَّ اِبدأ بعد ذلك الترتيل بِهدوء، وليس لكَ هدفٌ أخر غير الصلاة، ولا تَهتم بكثرة المَزَامِير، بل بأن يُعطَى لكَ مفتاحٌ، ولو كان لفظاً وَاحِداً، لكي تدخل إلى كنْز الفهم الرُّوحاني الذي ينفتح لكَ بنعمة الرُّوح الْقُدُس. واطلب من الله أن يَمنحك ملء الثقة. ينبغي أن تتقدَّم إليه بِحزن القلب والهدوء لكي يُمكنك أن تتكلَّم أمَّامه بكل انتباهٍ عقلي، وتتقبَّل منه ما يسند فقرك، لأن العقل المتيقِّظ والقلب المستعد ضروريان من أجل تَمجيد الله، ولتقبُّل ختم الرُّوح وقت الصلاة حتى يُمكن للعقل أن يتخلَّى عن كل ما يَخصّ الجسد ويرتفع إلى تذكار مَجد الله، وهكذا، بإطالة الحديث معه، ينتبه لِمعرفة مَجده. واِعلم أنني بقولي هذا لا أقصد أن أعوقك عن إطالة الصلاة بسبب كثرة الأفهام الموضوعة في أقوال الرُّوح. والحقيقة أنه من الممكن إطالة الصلاة لثلاثة أيام بلياليها في قولٍ وَاحِد. وليس هناك ما يَمنع المتوحِّد من الثبات في آية وَاحِدةٍ في الصلاة كل أيام حياته، سواء في تلاوته أو خدمته، دون أن يُحسَب له ذلك تقصيراً. ولكن بِما أنه بتغيُّر المَزَامِير باستمرار نستخدم أفهاماً مُختلفة عديدة تَجعل العقل يتحرَّك بالدهش أمَّام الله، فكثيراً ما ننتقل من مزمورٍ إلى آخر بدون أقل اضطراب.

[٥٦] أمَّا عن المبتدئين في هذه السيرة، أو الذين هم بعد شباب، فليس من المناسب الاقتِراب من هذه الأمور، حتى ولو انفتحت أمَّامهم الأبواب، لكي، بسبب غياب المَزَامِير، لا يَمتلئون من الأفكار الرديئة، مع اعتبار أنهم لا يعرفون طريقاً آخر أو هدفاً آخر، ولكي لا يتوقَّف عقلهم عن التفكير في الآيات. فينبغي لَهم بالأحرى أن يَجتهدوا بكل قوتِهم في التلاوة اللفظية لصَلَوَاتهم، إلى أن يبلغوا إلى قياس ذلك التَدْبِير، لكي لا تضعف أجسادهم في الحياة الرهبانية. ذلك النوع من العمل، مُقتَرناً بالسكون يغرس فيهم بذرة روحية. وأنا أشهد بالحق، إن الذين لَم يصلوا بعد إلى السكون الدائم، فحتى ولو كانوا يعكفون على كل أعمال السيرة التوحدية من مبتداهم، فإنهم لا يكونون مستحقين للدنو من هذه الأسرار.

[٥٧] كل عطية تأتي من عند الله، وتظهر قوتها كعلامة واضحة لدى الذي يتقبَّلها، تُعطَى بِحسب نوعية التَدْبِير الجسداني؛ وكل موهبة تَخص معرفة الأمور العقلية وأسرار الرُّوح الْقُدُس تُعطَى بِحسب قياس طهارة العقل. أمَّا النوع الأَوَّل، فالحياة المشتَركة باتفاقٍ وانسجام بين كثيرين لا تُعطِّل تكميل عملها، بشرط أن لا يعمل أحد شيئاً مُخالِفاً بِحسب إرادته الخاصةَّ وبِمطلق حريته[١١٧]. أمَّا النوع الثَّانِي، فكثيرة هي العوائق والمعطِّلات التي تقف في سبيل اقتناء الطهارة. لأن زماناً طويلاً يُصرَف في القلاية يُمكن أن يتلاشَى بنظرةٍ وَاحِدةٍ إلى وراءٍ، في طرفة عين، وبالمثل فإن صوتاً وَاحِداً يبقى مُتخفِّياً، يُمكنه أن يزعج قلب المتوحِّد ويُخرِجه من

[٣] ملاحظة في الهامش: انتبهوا لِهذا الفصل يا إخوة!

سلام ضميره.

[٥٨] إذا ما سَجدْتَ أمَّام الصليب عند بدء الصلاة، فاسأل الله بوجع قلبٍ أن يعطيك فيها صبْراً، وألا يَحصل لكَ فيها قتال سجسٍ أو ضجرٍ، قائلاً: "أعطني، يا رب، حركات نيِّرة شاخصة فيك بِجميع هذه الخدمة بكل لفظةٍ تَخرج من فمي".

[٥٩] لا توافق الذين في وقت الصلاة يتخيَّلون صورة حسيَّة في ذهنهم، بدلاً من أن يقتنوا فكراً وحيداً بسيطاً فريداً، يتناسب مع حقيقة أن المُخلِّص هو غير مُدرَك بالحواس، ويُصدِّقون أوهام فكرهم. أمَّا نحن، فنتحوَّل عن هؤلاء وأمثالِهم الذين ينخدعون بتخيّلاتهم، وإذا ما نَهضنا للصلاة نستعد بكل قوتنا أن نُسلِّم كل حواس نفوسنا لِروح الله، في بساطة قلوبنا. ينبغي أن لا نقبل أي شكلٍ من أشكال الخيالات المركَّبة التي يتصوَّرها عقلنا، بل نثبت في الإيمان بأن شَمس معرفة الله تشرق في قلبنا، في الوقت الذي يعرفه هو وحده، بأفكارٍ صافيةٍ على عظمته، يضعها فينا، كما قال بولس المغبوط: "أفي الجسد أم خارج الجسد لستُ أعلم". لأن مرتبة هذه الرؤيا عميقة جداً، وحركاتها أعلى من صور تذكارات الأمور المرئية، وعن كل إيحاءٍ أو تأمّلٍ أو معرفةٍ يُدركها العقل أو يتَّخذها كَمثيلٍ لَها في هذا العالَم. وهذا هو ما حصل للقديس بولس من أجل تعليم الجَميع، لأن ما رآه بعقله في ذلك الوقت من استعلانٍ في الصلاة لِما هو مَحفوظٌ للعالَم الجديد، لا يُمثِّل شيئاً للحواس التي نحن متسربلون بِها، لا بالنظر، ولا باللون، ولا بأي شكلٍ من أشكال عناصر هذه الخليقة. وهذا هو السبب الذي من أجله، حين نصلِّي، نقول إننا "ننتظر حياة الدهر الآتي"، ونطلب، حسب وصية المُخلِّص، "ليأتِ ملكوتك"، الذي ننتظره، ولا يَجرؤ فكرنا أن يتصوَّر الشيء الذي هو بطبيعته غير مُدرَك عند المَخلوقين، بقياس معرفتنا الخاصة. لأنه مكتوبٌ: "ما لَم يَخطر على قلب إنسان، ولَم ينطق به لسان، ما أعدَّه الله لأحبائه"، أعلنه بنوعٍ غير مُدرَكٍ في قلوبنا هنا بفعل الرُّوح الْقُدُس الذي يُظهِره للذين يتَرجونه.

[٦٠] وربَّما يقول البعض وهم منذهلون: أمَّا كان من الأفضل لنا أن نشغل أذهاننا بتأمّل أي شيء بدلاً من تركها تتجوَّل في الأفكار الرديئة. يا لكم من حكماء عديمي الفهم! وكأن كل سيرة وحركات النفس تنحصر في الاختيار بين التوقّف عند الأشباه التي تتَركَّب من الصور والأشكال، وبين شرود الذهن في الوساوس الرديئة! أين هو إذاً الانفعال الذي يتقبَّله العقل في تفهُّم آيات الأسفار الإلَهية، واللهيب الذي يغمر مثل ذلك الإنسان من رأسه حتى قدمَيْه، وتُسخِّن تلك الحركة جسده كله كما في أتون نارٍ؟ ويرتَمي على الأرض بسبب تلك النشوة التي لا يَحتملها من الإحساس الأليم الذي يُبَرِّح بقلبه، حتى أنه يكاد أن يقضم الأرض بأسنانه بسبب ألَم الصلاة العنيف. بالحقيقة، إنني أعرف البعض ينطرحون على الأرض ثُمَّ يقومون مراراً كثيرة وهم يلهثون بسبب الألَم الشديد الذي تُسبِّبه لَهم الآيات. وأيضاً أين هو ذلك الفرح الذي ينبع فجأةً في القلب، والذي بشبه الأمواج، يغمر كل الحركات، ويأخذ بِمجامع القلب في نشوةٍ تفوق الوصف حتى أن المتوحد لا يعود يشبه الإنسان، بِما أنه قد أُخِذَ خارج الجسد، ولَم يعد فوق

الأرض، لأن قلبه صار مَحمولاً بتلك الأمواج؟ ثُمَّ أين هذا الحسّ الذي يَجعله فجأةً يفحص (أمور الله)، ويقبض لسانه بالصمت من فرط الاندهاش، ويظل واقفاً، بدون أي تذكّر أو تفكير، مأخوذاً بذلك الذهول الذي تَملَّكه من جرّاء الحسّ غير العادي الذي تقبَّله الذهن من آيات الأسفار الإلَهية وأَسْكَتَ الحواس والعقل؟ أمَّا الذين يرتبطون وقت الصلاة بالصور والأشكال، فيحرمون أنفسهم من كل هذه التنعُّمات. ولكن، أين هم الذين يدَّعون أن المَزَامِير ليست ضرورية في خدمة الأوقات؟ أقول الحق أمَّام الله: إنني أعرف إنساناً صار أهلاً لكل هذا في خبرته الخاصة: فجميع هذه الأمور جازها ابتداءً من تلاوة المَزَامِير، وبواسطة رأفة نعمة المسيح، وليس لِمرَّةٍ وَاحِدةٍ أو مرَّتَيْن. لقد كانوا بشراً ضعفاء وعاجزين مثلنا، نحن الذين يُعزِّينا الله من وقتٍ لآخر في هذيذنا وصَلَوَاتنا، ليس من أجل أعمالنا بل بسبب رأفته وكثرة تَحننه. وهو لا يعمل على الإطلاق من أجل استحقاقٍ يُنسَب لأشخاص غير مستحقين لأي شيء مثلنا، بل بالأحرى لأناسٍ مرموقين بلغوا نعمة الطهارة؛ ومنحهم هذه الأمور التي تشمل إعلانات هامَّة وأسراراً لا يُفطَن لَها، وحسّاً عجيباً بأمور الدهر الآتي، وتنعّمات معرفة فائقة للطبيعة.

[٦١] توجد قوة خاصة مرافقة لكل إنسان. وكل مرَّةٍ تبتعد عنه، يقتَرب الخوف من قلبه في الحال، وتضعف قدرات عقله، ويفتقر تماماً في المعرفة. ومثل هذا الإنسان يَجد نفسه أيضاً مُجرَّداً كلِّيةً من الثقة التي يَمنحها الإيمان، وتصبح أفكاره مثل أفكار طفلٍ صغيرٍ. وإذا ما بدأت تلك القوَّة تقتَرب منه مُجدَّداً، ففي الحال تتسربل نفسه بالشجاعة ويتقوَّى قلبه مثل جبلٍ، فلا يعود يَخاف من أية خليقة، ولا يستطيع أي شيء أن يَهزّ قلبه، لا خوف من الشياطين، ولا من الحيوانات المفتَرسة، ولا من الناس الأشرار الأردياء، ولا من أمراض الجسد، ولا من عري، ولا من عوز الطعام، وأخيراً ولا من الموت الذي تَخاف منه الطبيعة نفسها. وباختصارٍ فإنه يتسربل بغيرةٍ مثل جَمر النار. ولا يُمكن لأحدٍ على الإطلاق ولا أي شيء في خليقة الله أن يزعج فكره، لا بالنظر ولا بالتذكّر.

[٦٢] وأعتقد أن هذه القوَّة هي التي جعلت الشهداء المطوَّبين ينتصرون وسط آلام عذاباتهم، ويدوسون بكل شَجاعةٍ على ألوان العذابات التي تعرَّضوا لَها من مضطهديهم. وبواسطة تلك القوَّة أيضاً، استهان الآباء النسّاك بتجارب الشياطين البالغة الصعوبة.

[٦٣] وبعض الشهداء كانوا يعاينون هذه القوة بشكلٍ مَحسوس. والحقيقة، إن كثيرين قد رأوها بأعينهم عندما اشتدت عليهم العذابات. البعض شاهدوا كما لو كان رداءٌ قد بُسِطَ فوقهم، وآخرون رأوا يد إنسانٍ تُظلِّل عليهم من العلا، وآخرون أيضاً رأوا شاباً بَهي المنظر واقفاً بِجوارهم. وبفضل تلك الرؤية، لَم يقتنوا القوة فحسب، بل وصاروا لا يَحسّون تماماً بكل العذابات التي كانت تقع عليهم. وبينما كانت تُقطَّع أطرافهم، وتُشرَّح أجسادهم، وتسيل دماؤهم، وتُمزَّق مفاصلهم، ويتناثر جلدهم ولَحمهم، لَم تكن عقولُهم تَحسّ بشيءٍ على الإطلاق. وكثيراً ما كانت آلام الجسد تُرفَع عنهم، كما رؤى أحدهم أنه بينما كانوا يُقطِّعون أجزاءً كثيرة من جسده، كان هو يَحسّ بنشوة عظيمة مع قطع كل جزءٍ منه، وبينما كان مسروراً وفي غاية

الفرح، كان يزداد تَمجيده لله. ولكنه حينما بدأوا يُقطِّعون أحد أطرافه السفلَى، أحسَّ بالألَم. ولَمَّا سألوه عن السبب في أنه بالرغم من احتماله بصمتٍ وفرحٍ تقطيع الأطراف الأخرى، إذ به الآن يصرخ - الأمر الذي كان يُشجِّع مُعذِّبيه كما لو كان شهيد الله قد ضعف في جهاده - ، فأجاب بالحق: "اِعلموا أنني بالنسبة لقطع الأطراف الأخرى لَم أتألَّم، بل كان عقلي بالكمال في السماء، أمَّا بالنسبة لِهذا العضو، فقد تركني الله أتألَّم لكي أتذكَّر أنني إنسان، وأنَّها لَم تكن قوة الطبيعة هي التي كانت تسندني حتى الآن، بل قوة الله".

[٦٤] وهذه القوة عينها هي التي، في البَرِّية المرعبة، كانت تَحمي المتوحدين، بصورة غير مرئية، من المخاطر التي تُعرَض لَهم من الشياطين؛ مع أنَّهم كانوا لا يعرفون كيف يكون مُمكناً للإنسان أن يعيش برفقة الحيوانات المتوحِّشة أربعين أو خَمسين سنة، في جهادٍ مرعبٍ مع الشياطين، دون أن يصيبه أي ضررٍ أو ينال منه الخوف، بينما يبتهج قلبه ليلاً ونَهاراً ويَمتليء من فرح الملائكة، كما لو كان يسكن السماء من الآن. وهي تلك القوة التي يراها عقل المتوحدين الساهرين في كل جهادات سيرتِهم. وإذا كان أحد يطلب برهاناً على ذلك، فبإمكانه كل حين أن يدرك متى تبتعد عنه تلك القوة ومتى تقتَرب منه. وهو يَحسّ بذلك من التغيير الذي يَحصل داخله: إنه يشعر فجأةً بقوة تفوق الوصف تَحلّ عليه رغم ضعفه الطبيعي، وبعد فترة وجيزة تتضاءل تلك القوة، ثُمَّ يتوقَّف الغيار. وبِمعونة هذه القوة التي يَختبرها المتوحدون يزداد نشاطهم أيضاً في الجهاد. وفي أحيانٍ كثيرة تُغيِّر الفكر ومزاج الجسد مرَّةً وَاحِدةً. فليفهم ذلك كل مَنْ أحسَّ به! يا إخوتي، ينبغي لنا أن نَهذّ باهتمامٍ بفهم هذه الأمور. لأنه بِهذا الانتباه الدائم، نقتَرب من المعرفة الكاملة والحسّ الفائق الوصف. والذي يتثقَّف بِهذه المعرفة يقتني اتضاعاً عظيماً بلا حدّ، وإيماناً راسِخاً بالله.

[٦٥] مكتوبٌ: "بكر كل خليقة"، منظورة وغير منظورة. لأنه قد وُلِدَ أولاً لِحياة العالَم الجديد بقيامته من الأموات.

[٦٦] فهو بالحق قد صار لنا بكراً لكونه ليس أحدٌ وُلِدَ قبله هناك. وحسناً قد دُعِيَ بكراً، ليس لنا فقط، بل وللطبائع غير المتجسِّمة، لأن خلقتهم أيضاً تنتظر هذه الولادة.

[٦٧] إذا كانت أورشليم هي "مدينة الملك الْعَظِيم"، وكانت تُدعَى أيضاً "أورشليم السمائية"، التي تُشير إليها الأسفار الإلَهية (لأن أورشليم الأرضية، هي في الحقيقة، ترمز إليها)، فإن اسم "الصورة" الذي نُسِبَ إلى آدم وجد تَحقيقه عندما استُعلِنَ بالفعل (في المسيح) كما سبق أن أُعلِنَ عنه في أحد أقوال الأسفار المقدَّسة.

[٦٨] ينبغي أن تَسجد الخليقة كلها لصورة الملك، حتى الآن لَم ننظر أحداً من البشر سَجدت له الملائكة، إلا الذي الخليقة كلها، المنظورة وغير المنظورة، تتَرجَّاه وتسجد له وتدعوه باسم الله، وتليق به هذه التسمية وهذه الصورة التي الكل مزمعٌ أن يتقدَّم بِها نحو الله، وبِجسده الظاهر ننظر ذاك الخفي غير المُدرَك.

[٦٩] الملائكة المقدَّسون ليس فيهم وَاحِد أكبَر من الآخر بطبيعة خلقته، ولكنهم من بعد ما خلقهم الرب، قسَّم لَهم درجات وكرامَّات كما شاء. أمَّا من جهة المعرفة وحرارة الحب، فيوجد فيهم أولون ومتوسطون وأخيرون؛ وليس في الرتب الأقل مَنْ يتقدَّم بالاستعلان والمعرفة على مَنْ هو أعلَى منه رتبةً، ولا الأعلى يتأخَّر في التعقُّل بعد مَنْ يليه طقساً ودرجةً.

[٧٠] بين كل رتب الطبائع الناطقة، يوجد مَنْ يرتفع يوماً بعد يومٍ، وليس هناك مَنْ يَهبط. وفي ذلك الارتقاء، لا يوجد على الإطلاق أي حدٍّ بالنسبة للأقدمين منْ أولِهم إلى آخرهم. إنهم يرتقون كل الأيام منذ خلقتهم وحتى الآن.

[٧١] انتقال الوجود في القوام الأَوَّل (للبشر)، والنمو التدريجي في الجسد، وهما أمران مقبولان كلاهما، يوجدان أيضاً في العقل عند طغمات (الملائكة) القديسين وفقاً لكيانهم ونُموّهم الذي يكون على مستوى العقل. أمَّا عندنا فانتقال الوجود يكون من جسدٍ لآخر؛ أمَّا عندهم، فكل عقل يتقبَّل نُموّه من عقلٍ آخر. أولئك ينمون في كل شيء سرِّياً، أمَّا نحن فظاهراً.

[٧٢] إذا ما قبِلَ العقل الإحساس بِحسن طبيعته، فهو عند ذلك ينمو على نَمط نُموّ الملائكة سرِّياً، ومن ههنا يُؤهَّل للشركة مع الملائكة بالاستعلانات التي يتقبَّلها عقله، لأنه قام في طبيعة خلقته الأَولى، تلك التي فيها أيضاً يتقبَّل طبيعياً تأمُّل الصورة الأَولى (أي المسيح آدم الثَّانِي).

[٧٣] الحلاوة الأَولى التي للاستعلان العقلي تكون في تأمُّل عناية الله التي تظهر قوتُها الفاعلة للعقل بالحسّ بأفعال مَحسوسة. والحلاوة الثَّانِية تكون في تأمُّل عنايته بالكائنات. والحلاوة الثَّالِثة تكون في تأمُّل خلقته. والرَّابعة تكون في تأمُّل حكمته في الخلائق، وقوة فكرته غير المُدرَكة التي تُرَى في أحكامه المُختلفة. في النظرة الأَولى، يتخلَّى الإنسان عن التحايل البشري، وهذا هو الإيمان الأَوَّل للعقل. وفي النظرة الثَّانِية، يتحقَّق ويثبت في الثقة والاتكال على الخالق. وبالنظرة الثَّالِثة يُبتلَع بالحب كالطفل الذي قد أحسَّ بوالدته. وبالطقس الرَّابع، ينحجب بسحابة حكمة الباري المتعددة الأنواع. وبالاختلاج الْخَامِس يتحرَّك بذهول في عدم الإدراك العسر التفسير.

[٧٤] تتثقَّف النفس بِهذه النظرات الخمسة في الإدراك الرُّوحي منذ اللحظة الأَولى التي تبدأ أن تستنير فيها بتأمَّل الأمور الخفية، وإذ تتسربل (بثمار) هذه المنازل، تَمكث في طبيعة خلقتها. ويرتفع الإنسان وينزل كل حين بطول هذه الدرجات تبعاً لغيرته أو إهماله، وبِحسب الظلمات أو النور الذي يُصادفنا.

[٧٥] هذه الخمسة غيارات المُختلفة في نُمو النفس توجد في قمة المعرفة الوَاحِدة. وهي تقود إلى المنزلة الثَّانِية من المعرفة في الرُّوح الْقُدُس. وهذا هو ترتيب الخلقة الأَولى، والدنو من استعلان الطبائع الرُّوحية، التي تُدعَى "التكوين الطبيعي". وقال أحد الْعَارِفِين الحكماء عن تلك الإعلانات: "إن نُموّ المعرفة لدى الناطقين يوجد في رؤية الأشياء الزائلة وغير الزائلة؛ والتدرُّب عليها يكون في الأمور القابلة للفساد؛ أمَّا كَمالُها فيكون في الأمور غير القابلة

للفساد".

[٧٦] والحقيقة، إن الآباء يؤكِّدون أن مَنْ كان مستحقاً أن يرى شعاع نفسه في الصلاة، يكون أيضاً مستحقاً أن يتقبَّل سرّ الاستعلانات الملائكية في عقله، كَما يُؤهَّل لاستعلان أمورٍ تفوق الإدراك. ونقول عن "شعاع النفس" أنه هو بَهاؤها، حينما تكون قد تطهَّرت من كل شركةٍ مع الخطية، ويُشرق على النفس وقت الصلاة مثل الشمس. وهذا البهاء عينه تتألَّق به النفس في ذلك الوقت من الحركات في الصلاة وخدمة الأوقات، وينجذب العقل بفعل الرُّوح الْقُدُس، بنوعٍ من الفهم، نحو الحقائق الإلَهية المَملوءة أسراراً. هذا البهاء يُدعَى أيضاً الخلقة الأَولى للنفس. ويُدعَى أحياناً إشعاعاً؛ وأحياناً أخرى بَهاءً.

[٧٧] والمعرفة البسيطة للأسرار التي تُدرَك فقط بالتعليم والقراءة، يدعونها الآباء معرفة بسيطة. بينما المعرفة الرُّوحية تكون عند الذين، بواسطة روح الإعلان، يتحرَّكون في تفهُّم موضوعها، بواسطة حركات الدهش التي تتدفَّق في الذهن، مَصحوبة بفرحٍ قلبي لا يُوصَف. فلنفحص نفوسنا حالَما نرى تلك الحقائق تُشرق فيها، لكي نعلم من أين تأتينا المعرفة التي تَحملها، فيما إذا كُنَّا قد تعلَّمناها، وبأي شكلٍ انطلق الذهن نحوها، وبأية وسيلة ومع أي تعجُّبٍ يتمسَّك بِها كَشيء يفوق الوصف، وكيف يثب القلب ويلتهب بفرحٍ لا يقدر أي شيء أن يُوقِفه، والذي يَحتمله بصعوبة. ومَنْ كان بِمقدوره أن يفهم فليفهم، ولكن ليس كَمجرَّد أقوال عادية بلا مذاقة.

[٧٨] إن كان العقل قد ابتدأ من الآن أن يرهف الحسّ، ويبتعد من أي هذيذٍ غريبٍ، وينطلق لِملاقاة النور، فهذا تُدركه من العلاَّمَات الآتية: أنك أصبحتَ من الآن تقبل بسهولةٍ الأسرار العجيبة المَخفية في آيات الأسفار الإلَهية، سواء كنتَ تتلوها غيباً أو تقرأها مكتوبة. ويسكت قلبك على الفور من فرط السرور، ويلتجم لسانك بالصمت. كذلك لا تطلب دليلاً آخر على ظلام نفسك مثل فقدانها ذلك الفرح الذي ذكرته، والذي يغمر قلبك عند سَماع أو تذكُّر أقوال الله. مَنْ يستطيع أن يَحتمل هذه العذوبة؟ وأين هو الجسد الذي يُمكنه أن يلاقيها إذا حلَّتْ عليه مع النشوة التي تَخطف القلب من شدَّتِها؟

[٧٩] لا تكن مُحباً للراحة لئلا تصبح مَصدراً للظلمة، لا بل وإناءً مُمتلئاً من الرذائل. لا تُصدِّق، يا أخي، أنه يُمكن للإنسان أن يكون حرّاً من الأوجاع بدون أعمال، كَما ولا يُمكن للنور أن يسطع فينا ويُفرِّحنا بدونها. لقد رأينا أن الله يَمنح عطاياه الرُّوحية للذين يَحفظون الأعمال. وليس أحد، على الإطلاق، قَبِلَ العطايا من الله في الاسترخاء، ولا أضاء عقله بالمعرفة، ولا حصل قلبه على دالَّة الحديث مع الله، ولا انسكبت أية حرارة مثل هذه فيه. فبالأعمال خلع الآباء القدامى المطوَّبون الإنسان العتيق، وصاروا مستحقين لتجديد نفوسهم. فإذا سَمعتَ هذا، لا تظن أن النسك في الغذاء هو وحده عمل، ولا الوقوف في الصلاة. فالصَّوْم وخدمة الأوقات في حدّ ذاتهما لا يُقدِّمان الإنسان نحو النقاوة. بل إن الامتناع عن الخلطة مع الناس، والسجود الدائم أمَّام الصليب، إذا مارستَ ذلك بكل قوتِكَ، تَمنح القلب اتضاعاً عظيماً، مع بقية مُمارسات

السيرة التي توصِّل إلى المعرفة، والمكتوبة في كتب أناسٍ نيِّرين وعارفين، لتعليم كل ما يَخصّ الله، والتي تَجدها أيضاً، بِجهدٍ قليلٍ، مُفصَّلة جيداً في مقالات المعرفة هذه.

[٨٠] اِحذرْ أن تبطل شيئاً من خدمة الأوقات، بل قبل أن تنام، اتعب جسدك بِخدمات وصَلَوَات عديدة، لكي في وقت نومك تَحفظ الملائكة جسدك ونفسك ساهرين بعيداً من المناظر المَخوفة والخيالات السمجة وأذية الشياطين طوال الليل، لأن فراشك يكون قد تقدَّس بتماجيد الرُّوح وعمل الصلاة. وبدون تعبٍ كثير أو مرضٍ لا تنَمْ إلاَّ إذا وجدتَ جسدك مُتعباً جداً من كثرة القيام في الصلاة والترتيل والسجود؛ لأننا إذا نِمنا ونحن مستَريحين تسخر بنا الشياطين الليل جَميعه.

[٨١] هذا سؤال عجيب طرحه أحد الإخوة البسطاء على أحد الشيوخ، وإجابة الشيخ عليه. سأل أخٌ شيخاً: "يا أبي، إنني أحب الميطانيات جداً". فأجابه الشيخ: "يبدو لي أنك تشتاق إلى الكمال، لأنني أرى أنك قد وضعت نصب عينيك التحرُّر من جسدك. والحقيقة إن الجثو الدائم (أمَّام الصليب)، هو الباب الذي يقود إلى الكمال. فبواسطة هذا العمل تَحرَّر القديسون من جسدهم. فإذا كنتَ تقصد أن تُكرِّس نفسك لِهذا العمل، عليك بالأحرى أن تُمارس (تَحقيق) العهد. وهذا يكون بالتجرُّد عن أمور الحياة الأرضية، وترك واحتقار كل ما يَختصّ بِها. فالقول: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك" يكمل بِمثل هذا التَدْبِير. لأنه من غير المُمكن البدء في هذا العمل بِجدِّية مع مداومة الاهتمام بأي شيء آخر غيره. لكن ينبغي، على قدر المستطاع، عدم التخلِّي باختيارك عن خدمة الأوقات. فسوف يأتي الوقت الذي لا تعود تتذكَّر شيئاً منها. فمن وقتٍ لآخر ستكون مثل إنسانٍ منتشٍ من الخمر؛ ولكن لا تطلب هذا بسرعة: فإنه يأتي في حينه. غير أنه لن يطول انتظارك كثيراً. وطالَما لَم تغصبك أية ضرورة خارجاً عن إرادتك، فلا تتَراخَ، بل اِهتمْ بتكميل قوانينك وهو يكون لكَ. ولكنه لا يُعطَى لكَ وقتما تريد. مغبوطٌ هو الذي يبتديء ويكمل حتى النهاية، ويَحتمل التجارب التي تأتي عليه خلال هذا العمل، دون أن تضعف نفسه مقابلها وتترُك مسيرتها. ومغبوطٌ مضاعفاً الذي بعد أن يُدرك الهدف لا يصير مُهملاً أو يتوقَّف أو يرجع إلى وراء، إذ يكون قد شبع وصار كنْزه هائلاً كَجبلٍ. في البداية يبدو كنْزه متواضعاً، مِمَّا يَجعله مضطرباً لأنه لَم يتعوَّد بعد على الأمور الرُّوحية، ويتصوَّر أنه قد أدرك النهاية دون أن يتحقَّق من أنه وصل فقط إلى شمِّ رائحتها. والعديد من الأمور العجيبة المتنوعة صارت من نصيبه، غير أنه لَم يَختبِر أعماقها. إذا ما صلَّيْتَ فقُلْ هكذا في صلاتك: "أيُّها الإله المتحنِّن، أَرْسِلْ لي نعمة التوبة، من قِبَل صلاحك، لكي أستطيع أن أقتَرب من جلالك. يا إلَهي، اِفتَحْ قلبِي، لكي يُمكنني أن أحسّ بِمعونتك، بذلك الحسّ المُحتَرّ الذي لا يُمكن أن يثبت أمَّامه أي إهمال؛ الحسّ القادر أن يُبدِّد اضطراب الأوجاع".

[٨٢] الجسد المريض لا يُعطِّل تطلُّعات الضمير الراسِخ عن تكميل الخير، إذا لَم تتكاسل الإرادة؛ وبالمثل لا يُمكن لأي مُعوِّق خارجي أن يُعطِّل أي رغبة ينشغل بتكميلها بالحركات التي يتقبَّلها من الله، من أن تَجد مكافأتها.

[٨٣] شروق نَهار الطبيعة الناطقة يقوم على تركيز الذهن في السرّ، والغوص دائماً في الداخل. وهذا هو معنى: "حينئذٍ يُضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم".

[٨٤] إذا جلستَ بين صَلَوَات الأوقات وشغلتَ ذهنك بالهذيذ بالله، فافتكر أيضاً كيف أتيتَ للوجود بينما لَم تكن موجوداً من قبل؛ ما الذي عملتَه لكي تصبح موجوداً؛ أو كما يقول الكِتَاب: اِسألْ نفسك كيف خُلقتَ في بَهاءٍ منذ البداية، وكيف صرتَ رديئاً بإرادتك، بسبب أكلك من الشجرة – التي مازلتَ تأكل منها أيضاً كل يوم – ، وتتحوَّل إلى الشرّ بغواية المُخادع، مع أنك لَم تُخلَق لِهذا الهدف من قِبَل الخالق؛ وتأمَّل أيضاً ما الذي صرتَ إليه بإرادتك، وما وجدتَ نفسك فيه الآن من حاضرٍ بلا رجاء؛ ولكن تأمَّل أيضاً إلى أي رجاءٍ دُعيتَ فجأةً بكثرة تَحنُّن ذاك الذي دعاك في المسيح يسوع رَبِّنَا، وأعاد إليك بَهاء خلقتك الأَولى في الله، مع أنك كنتَ مُقيماً في عصيانك ومُداوماً في السقطة التي وقعتَ فيها. أمَّا هو فلم يَهملك، بل ظلَّ يقوتك من خيراته دون توقُّفٍ، ثُمَّ أتى لكي يُعيد لكَ الحياة، بينما كنتَ أنتَ لا تعرف ما هو مطلوبٌ منك؛ ثُمَّ فكِّر أيضاً في ما أنتَ عليه الآن في هذه الحياة، وماذا سيطرأ عليك بعد وقتٍ قليل، وإلى أي فسادٍ سينتهي تركيبك، وكيف ستصبح فيما بعد في حالٍ غير ما أنتَ فيه الآن، دون تذكُّرٍ، ودون اسمٍ أو تذكارٍ في جَميع المنازل اللاحقة في ذلك العالَم. ولكن ماذا أقول؟ أي عجب؟! من أي فسادٍ تنتقل إلى حالة مَجيدة! في أي مَخدعٍ من ذلك القصر! بل وأية مقارنة يُمكن أن توجد بين الأشياء الحاضرة هنا وتلك المستقبلة في العلاء، وبين نَمط الحياة الزمنية وتلك الكائنة هناك، وبين أفكارنا والمعرفة والرؤية الجليّة التي تكون لنا؟ وقد ذكرتُ أموراً كثيرة بِهذا الخصوص في الرسالة إلى أحد التلاميذ، التي تصلح لأن تكون مقدمة لتأمُّلٍ نافعٍ على سيرة السكون. في تلك الأوقات داوم على السجود في الصلاة أينما كنتَ، مُمجِّداً ذاك الذي أتى بكَ من العدم إلى الوجود، ومن تركيبٍ قابل للفساد إلى ذلك المَجد في الحياة السامية المَجيدة.

[٨٥] رتِّب أوقاتك بِحيث يكون لكَ، مهما كلَّفك الأمر، وفي كل الأيام، فسحة بين صلاة الليل وصلاة باكر تُخصِّصها لِمثل هذا الهذيذ الذي يصلح لِنُموّك في معرفة الله؛ لأن هذا أيضاً هو جزءٌ هامٌّ من عمل السهر. ولا تظن أن عمل السهر ينحصر فقط في تلاوة المَزَامِير، وأن الوقوف في الصلاة هو من أجل هذه التلاوة وحدها، كما لو كانت هي الأساس. فالمتوحدون، في الحقيقة، لَهم أنواع كثيرة من السهر تصلح لِنُموّ النفس وتَقدُّمها في المعرفة الرُّوحية.

[٨٦] النوم له علاقة أكيدة بالامتلاء من الأطعمة. وتقنين نومنا يعتمد على إرادتنا، وهو في متناول أيدينا. فإذا وضعنا حدوداً للبطن فسيكون بإمكاننا أن ننهض من النوم بسهولةٍ وقبل الوقت، حسبما نريد، وذلك لسبب خفة جسدنا. وبِهذا يتوفَّر لنا الوقت لِهذين النوعين من الصلاة (التلاوة والهذيذ).

[٨٧] وافعلْ هكذا أيضاً بالنسبة لساعات النهار، وقسِّم الأوقات: البعض منها للتلاوة، والبعض للخدمة ووقتاً ثالثاً للهذيذ. وإن وجدتَ متسعاً من الوقت فلنقاوة الحركات. وإن كان العقل يظلمّ من جرّاء ذلك، زِدْ من القراءة التي توافق في ذلك الوقت. لأنه من ههنا يكون ينبوع

النقاوة الذي تفيض منه مياهٌ طاهرة.

[٨٨] فإذا ما اتَّحد الهذيذ بالصلاة بنقاوة، عند ذلك تكمل كلمة الرب: "لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسْمي فهناك أكون في وسطهم". والثلاثة هم النفس والجسد والرُّوح؛ أو بالأحرى: العقل والهذيذ والصلاة. وينتهي أمر ثلاثتهم إلى الدهش.

[٨٩] إلى أن تَمتزج قوة الرُّوح بِهذيذ العقل، لا يُمكن أن يَختلط العقل في حركاته بالدهش بالله.

[٩٠] وإلى أن يصفو العقل لا يُمكن أن يشتَرك في فعل الرُّوح.

[٩١] فإذا ما بدأَتْ حركات العقل أن تصفو، عند ذلك يتضع القلب ويصير كَمَنْ هو مُقيمٌ في عمقٍ ما، ومن هذا التواضع يدنو للنقاوة.

[٩٢] أحبب الوحدة، يا أخي، ولو أنك عاجزٌ عن تكميل حقوقها. لأن صلاة وَاحِدة يُقدِّمها الإنسان وهو وحده أخْيَر من مئة صلاة يَخدمها مع الناس. بالحقيقة إن عمل مئة يوم في السجس والخلطة، حتى ولو كان يصوم فيها المتوحد ويصلي، ما توازن نوم ليلة وَاحِدة وهو وحده! صلِّ في وحدتك دائماً وقُلْ: "يا الله اِجعلني مستحقاً لِحزن النوح في قلبي. يا رب، اِقطعْ مفاوضات العالَم من قلبي". هذه الصلاة تُدخلك في أسرار الله، إن كنتَ تهتم بتحقيق معناها بعملك.

[٩٣] العمل الذي يُعمَل بين الناس فيه افتخار؛ بينما الضعف في السكون فيه انسحاق.

[٩٤] من دون السكون ما يتواضع القلب. ومن دون تواضع القلب ما يتوقَّد من الحركات المتواترة؛ ومن دون هذا فإن جَميع أعمال المتوحد ترابٌ ورمادٌ هي.

[٩٥] لا تنظر إلى الذين يتفاخرون بالثياب المُزيَّنة والصَلَوَات المبهرجة بين الجَماعات والموائد الزاخرة بلذائذ الأطعمة.

[٩٦] إذا ما رأيتَ سفينتك تبحر جيداً نحو الميناء، وأن نسمة هادئة ومناسبة لا تتوقَّف عن أن تَهبّ عليها، وأن تِجارتك تعطي ثَمراً كثيراً بين يديك، فالأحرى بكَ أن تَخاف لئلا تَخضع حريتك فجأةً لبعض التغيُّرات، ويعرض لكَ الإهْمال بسبب تبدُّل الحال، ولئلا يصير تعب الأسهار طوال الطريق باطلاً، لأن الظروف تدفعك إلى الاسترخاء برغبتك.

[٩٧] بالحقيقة، إن كثيرين كانوا قد بدأوا بالأعمال، والفقر، وأمَّاتة الأمور العتيقة، والصلاة بِمداومة، والدموع، والسجود المتواتر، وسيرة متضعة بغير أوجاع، وحبس طويل، والسكون، والغربة عن الناس، وما شابه ذلك؛ إلاَّ أنهم، في نهاية الأمر، استسلموا للرخاوة، والسعي وراء الشهرة، والخلطة مع الأغنياء، ومصادقة أهل العالَم؛ وأصبحوا مدبِّرين، وقضاة، ومرشدين، ووسطاء في أمور هامة، بعضهم بين الإخوة، وبعضهم بين العلمانيين. وآخرون قبلوا رؤية النساء ليسمعن نصائحهم وتعليمهم، حتى صارت قلاليهم مزارات يستقبلون فيها أناس القرى. وعوض الأمَّاتة السابقة، اختاروا حياة مضطربة وسيرة منحلّة قادتهم إلى الهلاك في الظلمة، وأنهوا حياتهم

في الأعمال الجسدانية، بعد كل ما كانوا عليه من حرارة وغيرة في سيرتهم واستنارتهم السابقة، حينما كانوا لا يتساهلون ولا حتى في رؤية وجه إنسان، وكانت سيرتهم قد ماثلت تلك الحياة المزمعة بالتشبه بغير الجسدانيين وبغيرتهم في تَدْبِير سيرة السكون.

[٩٨] مقابل كل وجع يقلقك ويُحاربك، عليك أن تتسلَّح بالخوف والحزن في الجهاد معه. وحتى لو حدث وكنتَ مغلوباً أمَّامه، فقد أُعدَّتْ لكَ مراحِم الله. وبالأخصّ إذا كنتَ وسط انهزامك لَم تفقد شَجاعتك ولَم تتَراجع، بل عُدتَ في الحال إلى مواصلة الجهاد بكل شَجاعةٍ وأنتَ مفعم بالحزن والتوجُّع والتوبة، وتسلَّحتَ ونَهضتَ لتقتني الغلبة. فإذا تصرَّفتَ بِهذه الطريقة، فإن كل وجعٍ يُقابلك سوف يعطيك فرصة لفهم شيء جديد. وبالعكس، فإن النفس التي تَمكث مغلقاً عليها تحت الدينونة، هي التي، بدون خزي، وبغير خوفٍ، وبالاعتداد بالذات، والخضوع للتصوّرات الشريرة، وهي تتجاهل التوبة والحزن على تعدِّياتها، سوف تَجد أمَّامها، بدون انقطاع، وسائل الاستمرار في خطيتها.

[٩٩] الحزن من أجل الله هو شفاء لكل مَنْ يَمسك به. ومكتوبٌ أن "الحزن من أجل الله يُنشيء توبة النفس، ويردّها إلى الحياة". فهو لا يكون فقط للإنسان رجاءً للشفاء. بل وفي حالة توجّه أي عقابٍ عليه، فإنه يَجد له أيضاً أصدقاءَ يشفعون فيه أمَّام الله، لكونه تألَّم وحَزِنَ من أجل الله.

[١٠٠] الله دائماً يريد أن يَمنح الشفاء للكل، إذا ما لَجَأ إليه المريض. فإن عظمته لا تَجزع من الأمراض الصعبة والمُقزِّزة. وبقدر ما تكون الأمراض رديئة وكريهة، وطالَما كان المريض يرجع إلى الله ويَحتمي به، بقدر ما يُظهِر له الكثير من العطف والاهتمام. لأن بابه غير مُغلَق، ولا توجد عنده أوقات مناسبة وأخرى غير مناسبة. بل في كل مرَّةٍ يدعوه الإنسان، يكون مستعداً لنجدته بكل اهتمام، وهو لا يَحتقر أحداً بسبب رداءة مرضه. وإذا كان المريض يدعوه سريعاً، فهو لن يتأخَّر، بل يُظهِر اهتمامه به بأقصى سرعة، بِحسب ما تتطلَّبه صعوبة الأمراض التي تكاد أن تؤدِّي إلى الموت.

[١٠١] من الواضح أن الله ينشد توبة النفوس المريضة. ويتيقَّن من ذلك تماماً، أولئك الذين، بعد معاناة سقطات صعبة وأليمة، اقتنوا هِبة التوبة، وبسبب هذه التوبة، اِعتُبروا من خاصته، وصاروا مستحقين لِدالَّة الحديث معه مرَّةً أخرى.

[١٠٢] تأمُّل الدينونة والعناية الإلَهية يَحتاج إلى تفسير، حتى للروحانيين، لأن هذه الحقائق تشبه سَحابة مظلمة، لكونها تفوق الإدراك بصورة مذهلة.

[١٠٣] الفهم بأسلوبٍ إلَهي، يكون بتقبُّل حركة حارَّة ومُضيئة، على مثال أولئك الذين بسيرة حياتهم الصالِحة بِحسب الطبيعة ونقاوة أعمالِهم يُصوِّرون أسرار التَدْبِير المزمع بعد القيامة.

نِهاية المقالة الثَّانِية من فصول المعرفة.

المئة الثَّالِثة

[١] كان وقتٌ لَم يكن لله اسمٌ معروفٌ، وسيأتي وقتٌ لا يكون فيه بعد.

[٢] ليس لأننا قد أخطأنا صرنا مائتين، ولكن لأننا مائتون نحن نَميل إلى الخطية. وقوة الحرية هي التي تفصل بين الحالَيْن. فأمَّا أن تعمل للحياة أو أن تقود للموت.

[٣] بعض الناطقين ليست لَهم أسْماء؛ والبعض لَهم أسْماء كثيرة. الأَوَّلون (الملائكة) هم بدون أسْماء؛ والذين خلقوا بطبيعة جسدانية أسْماؤهم كثيرة.

[٤] كما أن الاختلافات بين الأجساد تُعرَف في النور المَحسوس، كذلك التي بين الأرواح تُدرَك بنور الحياة.

[٥] كما أن النور المَحسوس وُجدَ لِمنفعة المتجسِّدين، وتستطيع الحواس أن تُميِّز به الأشياء المادية، ويأتي وقتٌ لا يوجد فيه ما يُدرَك بالحواس، فواضحٌ أن النور المَخلوق لاستعمال الحواس يُصبح هو أيضاً لا حاجة له بعد.

[٦] كما أن كافة الأسْماء التي تُنسَب لله بدأت وقت الخلق، هكذا فإن كل أسْماء الطبائع الرُّوحية هي أيضاً بدأت من تَحقيق تَدْبِير الخلاص بالنسبة لِعالَمنا، حيث أعطيناها نحن هذه الأسْماء. أمَّا في عالَم الطبائع الرُّوحية فلا يوجد بينهم أسْماء ولا تَحديد لطبائعهم، لأن جَميعهم بدون أسْماء أو تسميات. والعدد اللانهائي لعوالِمهم يشمل أيضاً طبائع بلا عدد. ولكنهم يعرفون بعضهم بعضاً دون مثل تلك الفروق، بواسطة معرفة وَاحِدة فائقة خلواً من أسْماءٍ أو علاَمَّات. وجُموع البشر سوف يوجدون يوماً ما بالقرب منهم في السرّ نفسه بعد القيامة.

[٧] تَدْبِير الفضائل يُمكن أن يقود للحياة، وأيضاً للموت. للحياة لأولئك الذين يَجتهدون في مُمارسته؛ وللموت للمتَراخين. وبالاختلافات التي تكون بين الاتجاهَيْن يُمكنك أن تعرف أي الهدفَيْن تَخدم.

[٨] الأسلوب الذي تَخدم به الحواس الأمور الجيدة كما الرديئة، يُمكن أن يظهر بصورةٍ وَاحِدةٍ في كلتا الحالتَيْن. ولكن العقل بإمكانه أن يُميِّز أي تعارض بينهما.

[٩] إن كل ما كُتِبَ عن التأمُّل الطبيعي الثَّانِي وكل مدلولاته سوف يزول في العالَم الآتي – لأنه مكتوبٌ أن "هيئة هذا العالَم الحاضر تزول" وكل متعلقاته – فمن الواضح أن التأمُّل في ما يَخصّه يزول هو أيضاً في الوقت نفسه.

[١٠] عندما لا يتبقَّى أي شيء يُحرِّك التأمُّل في الأمور المادية، ولا يعود العقل بِحاجةٍ إلى الحواس ولا لِمعونتها، إذ تَختفي الحواس تماماً عند استعلان العالَم الجديد الذي يَحدث في طرفة عين، فمن البيِّن أنه عندما يَختفي نِهائياً تذكُّر كل ما كان يشغل الحواس من الطبيعة البشرية، فهي تنشغل كلِّيةً بالحقيقة الجديدة التي ستنتقل إليها حينئذٍ.

[١١] الصلاة المقبولة هي تلك التي تتوافق مع مشيئة الله، وتُولَد فينا من مراعاة النواميس الإلَهية. فمع الانشغال بتكميلها، فإن الحب الذي نُظهره لَها، بإمكانه أن يُعلِّمنا كيف نُرتِّب الطلبات الحارَّة بِخصوصها. والاهتمام الذي يُظهره الضمير من أجل تكميل الوصايا، يكون حينئذٍ بِمثابة صلاة نقية، وأيضاً الألَم الذي يَحسّ به القلب عند إهمالِها، يُمكن كذلك أن يُعتبَر صلاة نقية. والحزن من أجل الله هو صلاة، أو بالأحرى الأقوال الفائقة، والحركات المتخشِّعة التي تلدها الصلاة أيضاً في العقل. فالذي يكون قلبه مُلتهباً ومضطرماً بِمثل هذه الأفكار، ولو أنه لَم يقف الوقوف اللائق، يُداوم الصلاة كل الأيام، وتكون جَميع حركاته متَركِّزة في الصَلَوَات الحارَّة المرضية أمَّام الله: فحزن القلب هذا يُكمِّل له ما يُقدِّمه له الصليب.

[١٢] الأقوال المَملوءة حكمة التي تُحرِّكها الصلاة بفعل العجائب المُذهلة المَخفية في آيات المَزَامِير، تَجتذب جَميع أجزاء النفس تدريجياً نحو الله، ونحو مَحبته، وتنهضها للاهتمام بالتطلُّع الدائم إلى الله بِمحبةٍ مضطرمة.

[١٣] وحينما أذكر الصلاة الحكيمة، لا أقصد تلك التي تأتي من حكمة العالَم، أو من العلم الخرف المَملوء حَماقة، والذي يَجعل النفس في خزيٍ أمَّام الله عندما تصلِّي، لسبب المَجد الباطل الذي يتحرَّك داخلها ويبعد عنها المعونة التي يَهبها الله لَها. لكنني أقصد تلك الأقوال الحكيمة التي تنبع في الصلاة من حكمة الله واستنارة النفس. حيث تصعد في القلب حركات حارَّة بسبب مَحبة السيرة الفاضلة التي سبقت الصلاة، والتي تُسخِّن القلب وتَجعله ينبذ الأقوال غير المقبولة ويفيض بتلك التي تنبع من تذكار الله. وكم من مرَّةٍ، على هذا الطريق نفسه، تفيض الدموع بسبب حرارة القلب ومعونة الله! هذه هي الصلاة التي يدعوها الآباء الصلاة النقية.

[١٤] والصلاة النقية لا تكون في مأمنٍ من التصوّرات والأفكار المادية، إلاَّ إذا خرجت من مَجال الصلاة إلى استعلان يَحصل فيها. لأنه في الاستعلانات فقط يتخلَّص العقل من الصور والأشباه، ويَمكث بِمنأى عن المؤثرات والأشياء، كما قال أوغريس: "العقل الذي يتطلَّع إلى الله وقت الصلاة، يكون حرّاً من المؤثرات والأشياء". هذا، في الحقيقة، يكون باستعلان ما وراء الكلمات. وفيما عدا كل صلاة تكون بالكلمات، بِمقياس ما يَمكث الفكر نقياً، يُمكن أن يكون حرّاً من التصوّرات. والأمر لا يرجع إلينا أن ترِد الأفكار الغريبة فينا وقت الصلاة أو لا ترِد، ولكن أن نتوقَّف لكي نَهدّ فيها أو لا نتوقَّف يعتمد علينا. كم من مرَّةٍ يَحدث أننا حينما نصلِّي صلاة نقية حارَّة، يطرأ على الصلاة، دون سببٍ وبغير إرادتنا، أحد المؤثرات، بينما تستمر الدموع في الانسكاب أغلب الوقت، ومع حرارة الصلاة، تتجه حركتها نحو الأمور المزمعة! ويُجاهد المصلِّي لكي يَجذب العقل خارجاً عن ثقل ذلك المؤثر الطاريء، ويبقى بعد ذلك دون أن يَحسّ بنفسه. غير أن هذا لا يَحصل بشكلٍ ألَمي، ولا يصبح أبداً هدف هذيذه. والحقيقة، أنه إذا كان العقل لَم يوجد بعد مستحقاً لتقبُّل الاستعلان في الصلاة بإحساس روحي، فمن المستحيل أن تتخلَّص حركاته من المؤثرات المختلفة وقت الصلاة. وطالَما كان يتصرَّف بطبيعة بشرية، فإن

الحركات التي تسمو فوق الأمور المادية لا توجد (لديه) سوى في التَدْبِير الرُّوحي. أن يثبت الإنسان عند الإحساس بأي شيء خارج الجسد، هذا يَختص بدرجةٍ أعلى من الطبيعة. وبِمقياسٍ ما أنه لَم يصبح بعد مستحقاً للتَدْبِير الحاضر، فإنه لا يقدر أن يأتي إلى تذكار هدف حركات الصلاة، ولا كل ما هو خارج عن كل شكلٍ من أشكال هذا العالَم؛ ما لَم يكن، كما قلتُ، قد استحق لاستعلانٍ روحي في عقله. وبِمقياس ما يسلك الآن أدنى من هذا الأمر، بالمعرفة التي تَخصّ سيرته الحاضرة، فإن أفكاره لا تستطيع أن تذهب إلى ما هو أبعد من أمور هذا العالَم. وحتى لو أنه، أثناء الصلاة، يُوجِّه هذيذه نحو أمور السماء، فإنه، بلا شك، يستطيع أن يعرفها بالمقارنة بأمور الأرض، إلاَّ إذا كان، أثناء صلاته، صار أهلاً أن ينتقل إلى التَدْبِير الرُّوحي الذي هو خارج عن كل شكلٍ من أشكال هذا العالَم، وأحسَّ قليلاً بشيء مِمَّا هو أعلى من معرفة البشر. وبالعكس، إذا كان المصلِّي لا يُجاهد مع حركاته لكي لا يتعوَّق فكره عند التصوّرات التي تُهاجِمه في تلك اللحظة، بل يتَراخَى ويَمكث عندها، ويبدأ في التكلُّم معها، فهو قليلاً قليلاً يتْرك هدف الصلاة. في حين أن عمل المصلِّي هو مداومة اليقظة لكي يَحفظ عقله نقياً، ويُخلِّصه باستمرار من كل كدر الأشياء المادية، إلى أن يصل إلى التَدْبِير الرُّوحي، ويرتفع في صلاته فوق أي قتالٍ، لأن عقله يكون حينئذٍ قد ارتفع فوق كل أشكال هذا العالَم الحاضر.

[١٥] الاحتراس مقابل الأفكار يُولَد من الاحتراس مقابل الحواس. والجهد الذي يُبذَل من أجل حفظ الحواس يُشير إلى الغيرة التي يقتنيها الإنسان في مواجهة الأفكار. والذي يستسلم طوعاً للوَاحِدة، يَخضع بالضرورة للأخرى.

[١٦] ذبيحة المصالَحة هي التواضع المُقدَّم لله من قلبٍ أحسَّ بالموت، بسبب تذكُّر الخطايا التي تَجعل الإنسان مذنباً أمَّام ذاك الذي هو حياة الناس، سواء لأخطاء الماضي أو لتلك التي ما زلنا نفعلها وتَجعلنا ضعفاء وخائرين كل أيامنا. مثل هذا الإنسان يوقظ قلبه ويُقلع عن خطاياه، وبتذكُّره لِمراحِم الله، لا يتوقَّف عن التوجُّه نحو التوبة. والله يرضي بِمثل هذه الصلاة أكثَر من كل الذبائح والتقدمات. إيضاح: هذا يُبيِّن أنه في اللحظة التي تُقَدَّم فيها التوسُّلات، ينتبه هؤلاء الأشخاص للمعونة التي يُؤتيها لَهم الله، ليس أنهم يَحظون بها بسبب توسُّلاتهم، ولكن لأنهم حالَما يُقدِّمونها يدركون ما كانوا يَمتلكونه منذ البداية، وهم يَجهلون أنه يأتيهم من الله.

[١٧] لا يستطيع الإنسان أن يُقدِّم لله ذُكصا وَاحِدة يقولُها بفرحٍ من عمق قلبه، دون أن تكون من أجل عطية خاصَّة من عنده. أغلب الناس يعرفون هذا جيداً من السماع به فقط. أمَّا الذين أحسّوا به بالفعل، فهم يتقبَّلون خبْرته في صَلَوَاتهم: أن الله يَجد مسرّته في النفوس التي بعد أن تكون قد أُثيرت بالغضب تتحوَّل إليه وتطلب المُصالَحة.

[١٨] طالَما كان الإنسان لَم يتضع بعد، لا تأتيه معونة الله. فنعمة الله تقف دائماً على مسافة ما منه وتلاحظه، وبوجهٍ خاص وقت الصلاة. وما إن يتحرَّك فيه أي فكر متواضع، فهي تدنو إليه دون تأخير، ومعها ألف معونة. إيضاح: الكلام هنا يدعونا إلى الانتباه إلى ما يعنيه، وتفهُّم عمقه الداخلي، ويُذكِّرنا بِما قيل: "صرتُ للكل كل شيء...إلخ". فهو لَم يطلب أن يفهم

هذا بالنسبة إلى سابق علم الله، بل بالنسبة للمعرفة العادية. ونعلم، نحن أيضاً، أن هذا صواب وخطأ في نفس الوقت، ولكننا نتخذ موقف الحرِّية، وأيّاً كان ما تُقدِّمه هذه الخليقة لأعين الذين قبلوا الاستنارة، فنحن نُمجِّد سرّ تَدْبِير خلاص الله الذي رأى أن تكون كل طرقه مَخفية عنَّا.

[١٩] المعونة التي تُعطَى لنا أثناء الصلاة هي أهم بكثير من تلك التي تأتينا في أي وقتٍ آخر، حينما نداوم جهادنا. ولِهذا فإن الشيطان، هو أيضاً، يثير مقابلنا قتالاً أعظَم في تلك الأوقات، لكي يعيقنا عن الدنو إلى الله بافكارنا.

[٢٠] كل تذكُّر لِحكمة العالَم يرِد على النفس وقت الصلاة، يكون لَها كَخصم قوي، لابدّ له أن يُسبِّب لَها أية أذية. أمَّا حكمة الرُّوح الْقُدُس فتواضع النفس وتُوقظها للتطلُّع إلى الله بالدهش، وتُغرِّقها في عمق الاتضاع بسبب الحق الذي تعلنه لَها بدون حجاب.

[٢١] الطبائع غير المرئية، هذه الخلائق العلوية التي تُدعَى الأبكار السمائيين، تنمو وتتجدَّد بلا انقطاع. وهي لا تنزل أبداً إلى ما هو أدنَى من مستواها من الرفعة التي هي فيها منذ بداية خلقتها. وهم لَم يعرفوا أبداً خبرة الشرّ، ولكنهم يوجدون بكلَيْتَهم أبعد من أي شرٍّ، ويُحبون حقائق الأعالي. واستثناء من هؤلاء، الذين منذ لَحظة سقوطهم، لَم يعودوا قادرين على الارتفاع أو التطلُّع إلى العلو مرّةً أخرى.

[٢٢] إذا أراد أحد أن يُدلِّل على حكمته، ويدَّعي أنني بذلك أؤكِّد أنهم بغير ميالة، فهو يفهمني خطأ. لأنهم لو كانوا بدون ميالة، فلن يكونوا بعد خاضعين للتغيير، بل مرتبطين دائماً بِمكانِهم. وبِما أنهم لا ينزلون من المكان الموجودين فيه، فهم بالأحرى لا يقدرون أن يرتفعوا فوقه. فقد أصبحوا هكذا طبائع مُقيَّدة في مكانها دون تغيير، وذلك لأنها لا تقدر أن تقتني أي انتقالٍ سواء إلى أعلى أو إلى أسفل، وغير قادرة على النموّ أو النقصان. أمَّا مَنْ كان باستطاعته أن ينمو ويرتقي فوق ما هو كائن فيه، فيكون بِمقدوره كذلك أن يرجع إلى وراء، إذا أراد ذلك، وهو أيضاً يكون خاضعاً للميالة. ومن الواضح أن مَنْ كان يَمتلك مثل هذه الإمكانية ويُوجِّه ميالته في اِتجاهٍ وَاحِد، إنَّما يفعل ذلك بِمحبة وفيرة للخير، وبفضل الاستنارة التي تقبَّلها، واليقظة وما أشبه ذلك من الصفات التي أدركها.

[٢٣] القول: "لبيتك ينبغي التقديس" يَحمل نفس مدلول القول الآخر: "القداسة تُعطَى للقديسين". فبيت الرب هو نحن الناطقين، وحينما نُطهِّر هذا البيت كما يليق بالرب، بالبعد عن كل شرٍّ، تسكن قداسته فينا، بِما أن القداسة تليق بالقديسين باتحاد المشيئات.

[٢٤] مكتوبٌ: "لبيتك ينبغي التقديس". فمن اللائق، بالحقيقة، أن يكون بيت الله مَملوءاً من القداسة والمَجد. وبالمثل، يليق بكل مَنْ يبتغي أن يكون مسكناً للروح القدس أن يُطهِّر نفسه من كل شرٍّ، لكي، على قدر ما هو مستطاع، يشبه السماء. لأنه كما أن السماء نقية من كل شرٍّ، وأنها عرش الله ومسكن السيرافيم، وأنها تفيض بكل خيرٍ روحي، هكذا ينبغي للنفس التي ترغب وتُجاهد أن تكون مسكناً للاهوتية، أن تتنقَّى من جَميع الحركات الرديئة وتَمتليء

بالتماجيد المتنوعة، وبعد ذلك يسكن الرب فيها وتَمتليء من بَهاء قداسته. إنَّها تصير مُحاطة من كل جانبٍ بالطبائع الرُّوحية، لأنها استحقت كرامة سُكنَى ربِّهم فيها. فالإنسان يتنقَّى أولاً من الشرِّ، ثُمَّ يَمتليء من كل رائحة طيِّبة، وحينئذٍ يُقدِّسه الرب بالرُّوح الْقُدُس.

[٢٥] إنه أمرٌ يدعو للاندهاش أن الذين وعدوا أن يَمتنعوا عن مُجرَّد التفكير في النساء، تراهم يتقابلون معهن بسهولةٍ، مع كونهم يعرفون جيداً أن الشياطين يُقاتلون القديسين عن طريق المرأة. إنَّهم يدَّعون كونهم لا يَحتفظون بأي تذكُّرٍ لِمثل هذه المقابلات، فضلاً عن الصور والأحاديث المتبادلة! فإذا كان أي فكرٍ عن امْرَأَة يبْرز فجأةً، يطرحنا في خطر القتال، فكم بالأَولى حين تَمثُل المرأة شخصياً أمَّام حواسنا، فهذا يُهيِّيء الفرصة للتطلُّع إليها، ويُلهب أفكار العفيف.

[٢٦] الرَّاهِبُ الذي يقبل بسهولة أن ينظر إلى امْرَأَة، فإنه أيضاً يقبل بسهولة تذكارها في داخله. ومن الواضح تماماً أن الذي يرفض رؤيتها يطرد عنه أيضاً أي فكرٍ بِخصوصها كَمَنْ يَهرب من نارٍ مشتعلة. والميل إلى الأمر الوَاحِد يفصح عن التلذُّذ المَخزي المُضمَر تِجاه الآخر؛ سواء كان الميل إلى التذكُّر يكشف عن الرغبة في التلذُّذ بالنظر، أو كان الميل إلى النظر يكشف عن الرغبة في التلذّذ بالتذكُّر.

[٢٧] نقِّ ضميرك من الأفكار الجسدية، لكي تذوق التنعُّم الذي لا يقع تحت لسانٍ بشري.

[٢٨] رجاء المزمعات يَجعلنا ننسى تذكار الأشياء الأرضية ونطرحها من الضمير. فارفعْ ضميرك باستمرار، واشخصْ في تلك المنازل التي أنتَ مزمعٌ أن تبلغها أخيراً.

[٢٩] غياب الرجاء يُخرج الإنسان من نقاء الأفكار، ويطمر قلبه في الأرض. أمَّا حفظ الرجاء فيُطهِّر القلب ويُسكره على الدوام، ويَجعله ينتقل بشهوته من الأرضيات ويطيش بِحركاته في المنازل السمائية. لأن القلب يُنقَّى بسهولة بواسطة الأمل.

[٣٠] مذاقة الملكوت هي حركة القلب بالفرح الذي يَملك في النفس بقوة من أجل المزمعات، فتنحلّ جَميع أعضاء الجسد قدَّامه؛ لأنه لا يقوَى على الصمود لتلك النشوة، وحتى الشرايين والعظام تتحلَّى بذلك السرور الذي يفوق طقس الطبيعة.

[٣١] طالَما كان الإنسان لَم يَحتقر الأمور المرئية القابلة للفساد، ولَم يطأ الحياة الزمنية تحت قدميه، فهذه تكون علامة على أن قلبه مازال بعيداً عن الحركة التي تدفعه نحو الأمور التي ينتظرها بالرجاء. لأن الفرح والإيمان اللذَيْن يولدان من الأفكار التي تَختص بالمنزلة النفسانية هما في الحقيقة مصدر قوة عظيمة، لكنه يتحرَّك هنا بفرحٍ يرتبط بالأمور الجسدانية. فالذي يكون فكره يفرح أو يَحزن من أجل المرئيات، فإن هذا الفرح الآخر لن يوجد عنده، لأن قلبه مازال مُقيَّداً بالشهوات الشبابية، وأن رخاوة الجسد تثقِّل عليه، والخوف من فقدان الأمور الأرضية لا يُشجِّعه على اعتبارها قَلِيلَة الأهمية.

[٣٢] بقطع رجاء الإنسان من حياة الجسد، وترك عاداته القديمة، يُدرك بسهولة اقتناء النفس الذي يوجد خارجاً عن تصوّرات حواس الجسد.

[٣٣] إذا كان الضمير ثابتاً في رجائه، فلو أن الجسد ينحطّ بالضعف، فإن النفس لا تنغلب ولا ينقص غناها. البكاء الدائم هو إذا ما ضعف العقل وانحطّ الجسد وتَخلَّف عن سيره.

[٣٤] اِحذرْ لئلا يُعطِّلك ضعف الجسد عن حياة الوحدة. بالحقيقة إن أفراحك في الحياة الهادئة مع الله تتضاعف مع انحطاط الجسد. اِحذرْ لئلا تقع في مرضَيْن مُولِّدَيْن الموت لغير المائت: اللذَيْن هما بطالة الجسد وانحلال حواسّ النفس، لأن مرض الجسد مع الحرص لا يؤذي شيئاً.

[٣٥] البِرّ هو مُمارسة الأعمال الفاضلة مع الناس بِحسب الناموس الطبيعي ووصايا الأسفار الإلَهية. أمَّا الفضيلة فهي مُمارسة الأعمال الفاضلة تِجاه الله، والتي تكمل دون وسيط بيننا وبينه، بغيرة إرادةٍ صالِحة. فالذي يُمارس الأَولى هو بارّ، والذي يُمارس الثَّانِية هو إنسان فاضل. لكن الرجاء الذي يضعه المتوحِّدون الحكماء في الطريق المستقيم بأمل أن يقودهم تَدْبِيرهم إليه، هو أكثَر عمقاً من هاتَيْن المُمارستَيْن. فهو لا يكون على مستوى وَاحِد مع البِرّ، كما أنه لا يتوقَّف أيضاً عند حدود الفضيلة. البرّ والفضيلة ليسا سوى غرفتَيْ انتظار يتجاوزهما رجاء المتوحدين على طريق مسيرتهم، ثُمَّ ينطلقون ليُوجِّهوا سعيهم نحو ذاك الذي هو عِلَّة الكل[١١٨].

[٣٦] كما أن الثَّانِيون يوجدون في درجة أسْمى من الأَوَّلين، هكذا أيضاً الثَّالِثون بالنسبة للآخرين. وكما أنه لا يوجد أي مُبَرِّر يَمنع توقُّف أعمال الدرجة الأَولى حينما يتقدَّم الشخص من الدرجة الثَّانِية، هكذا حينما تبدأ الدرجة الثَّالِثة في مسيرتنا لا يكون هناك أي مُبَرِّر لأن لا تترك الدرجة السابقة موضعها قبل أن تأتي الأخرى. غير أنه ينبغي الاستجابة لكل وَاحِدةٍ من الدرجات في وقتها وفي مكانها، حتى لا تتعرَّض حريتنا للخطر بسبب الجسد. لأننا حينما لا نكون قد أفسحنا المَجال لعمل الدرجة الثَّانِية، تلزمنا اليقظة حتى لا يدركنا الكسل ويَجعلنا نتخلَّى عن ما هو للدرجة السابقة.

[٣٧] الدموع التي تنسكب وقت الصلاة، وحلاوة الآيات التي تفيض في القلب وتُلذِّذه، واللسان الذي يَجتهد في تكرارها دون شبع وبِمحبةٍ فائقة، ولا يستطيع أن يتْركها لَيْتَابع تلاوته بسبب الأفراح التي يَجدها فيها، وأيضاً الفرح الجزئي الذي يَحدث فجأةً أثناء القراءة والهذيذ – كل هذا وما يُشبهه يأتي من تذوُّق معونة نعمة الله، بنوعٍ غير مُدرَكٍ، تلك التي يتلذَّذ بها أولئك الذين يُمارسون عملهم بغيرة ملتهبة، لكي تتقوَّى نفسهم ويتقدَّمون في سيرة الفضيلة،

(١) صدى بعيد للمسيحية "بسرعتَيْن مُختلفتَيْن"، تُقسِّم المؤمنين إلى فرقتَيْن: "الأبرار" و"الكاملين" مع اختلاف مُمارستهما، التي ظهرت في الشرق منذ القرن الرابع. وفي "كتاب الدرجات" نرى آثارها واضحة على الأقل في التقليد السرياني. ويبدو أن مار إسحق يُضيف هنا أيضاً فئة ثالثة هي فئة المتوحدين "في السكون"! ويُقصَد بالشرق: إيران والعراق والخليج الفارسي.

ويزيدون من حرارة غيرتهم.

[٣٨] يَحدث أحياناً بعد أن يكون العقل قد تَمتَّع بوقتٍ هاديء أثناء الخدمة أو الصلاة، فجأةً وبغير إرادته، يرتفع الجسد دون توقُّفٍ خارجاً عن طقسه – وهنا ينفتح أمَّامه بابٌ عظيم، وتبدأ موهبة الله في العمل! فلا يعود يشتاق للعطايا المتواضعة ولا التعزيات الجزئية التي تُوهَب لكل الناس. فلنجتهد، يا أخي، في طلب هذه المواهب، ونَجعلها هدفاً لعملنا. إنه لا يوافق أن نتكلَّم كثيراً عنها. فما ذكرناه حتى الآن يكفي لِهذا الغرض.

[٣٩] هدف الناطقين هو أن يكون بإمكانِهم معرفة الحقائق الفائقة؛ وهذه الإمكانية توجد داخل ما يَحسّ به كل وَاحِد، بنوعٍ غير مُدرَكٍ، في كل أجزاء عمله.

[٤٠] إذا كانت خاصية النور العقلي هي الإشارة بسهولة وبغير مشقة إلى النور الأَوَّل، وكان الشيء نفسه يَحصل منذ الآن للناطقين الأَوَّلين، الذين قدَّمهم المُخلِّص كَصورٍ للسرّ[١١٩]، فمن الواضح أن الذين يوجدون في العالَم غير المادي يقبلون أيضاً ميراث النور، وليس في ذلك العالَم الكثيف الفاقد العقل، كما يدَّعي كذباً أولئك الذين تُعوزهم المعرفة.

[٤١] كما أن عدم التألُّم لا يكون بتوقُّف الأوجاع عن حركتها في النفس، بل حينما لا يُصاحب إثارتها أي تلذّذ حسّي، كذلك فإن الصلاة النقية لا تكون بتوقُّف تصوُّرات الأشكال في العقل، بل حينما لا يعود العقل يُعطيها أي اهتمامٍ يقوده إلى التعاطف معها، ولا يرتاح إلى المفاوضة معها. ومن الواضح أن القتال ينجم منها، وأنه من دون القتال لا يُمكن للصلاة أن تصبح نقية سوى لِفترةٍ وجيزة بِمعونةٍ من الملائكة. هذا هو المرسى الوحيد لنا وسط القتالات، لأن طبيعتنا تتقوَّى سرّاً ضد الحركات الرديئة بفعل الملائكة، كما يقول الآباء. ولا يكون عدم التألُّم شيئاً آخر سوى أن يرتفع العقل فوق هذه الحركات والتصوُّرات الجسدانية. لأن توقُّف الأفكار، والحركات، والمواجهات التي تنشأ عن الأفكار، وتسلُّطها علينا، هذا لا يَخصّ الدرجة التي مازال يُمارس فيها عمل الصلاة، بل درجة الدهش، والاستعلان.

[٤٢] الصلاة النقية تقوم على عدم طياشة العقل في الحركات التي تنهض داخلنا، سواء من الشياطين، أو من الطبيعة، أو من التذكارات، أو بسبب حركة المزاج.

[٤٣] وكذلك توجد في الصلاة النقية أيضاً مقاييس متعدِّدة بِحسب قياس فكر الذين يُقدِّمونها.

[٤٤] بقدر ما يرتفع العقل فوق مَحبة أشياء الأرض، بقدر ما يتخلَّص من الصور التي تَجلبها الملاهي وقت الصلاة. وحينما يكون قد ارتفع تماماً فوق مَحبة أشياء العالَم، لا يعود بعد العقل مُصلِّياً، بل إنه يرتفع فوق الصلاة النقية، وذلك لأن إشراق النعمة يزداد باستمرار في صلاته، ومن وقتٍ لآخر يَجتذبه فعلٌ مقدَّس، من نوعٍ ما، خارجاً عنها.

---

(٢) قا: لو ٣٦:٢٠

[٤٥] بقدر ما تضمحل المَحبة للأمور الوقتية الزائلة، بقدر ما يتوقَّف التفكير فيها أيضاً، وبقدر ما يتوقَّف التفكير فيها، تضمحل الأفكار؛ وبقدر ما تصبح النفس نقية يُعطَى فعل الرُّوح الْقُدُس للعقل وقت الصلاة. لأنه من الواضح أن هذا الفعل يتبع بالضرورة ارتفاع النفس فوق مَحبة الأشياء المرئية والوقتية، وأعلى من التأثير الذي تزعج به الجسد، بنوعٍ من الحرية غير المنضبطة.

[٤٦] إذا ما وُجد العقل في درجة أدنى من الصلاة النقية حينما يكون منقطعاً للتشفُّع، تكون حركات نفسه أيضاً ضعيفة، ويَمكث تحت تسلُّط شهوات الجسد. ولكن حينما يَمسك تَدْبِيرها بالصلاة النقية، تصل إلى الدرجة الكاملة التي للمنزلة النفسانية. وحينما تصل صلاته بعد ذلك إلى ما هو أعلى من الحركات النقية، فهي تدخل في سيرة المنزلة الرُّوحانية، التي تكون فيها درجات الصلاة أدنى منها، كما هو الحال في سيرة الحياة المزمعة. عمل الصلاة وخدمتها يناسب الإنسان في الأوقات التي يكون فيها نشاطه ومعرفته في تَدْبِيره يتبعان المنزلة النفسانية، التي هي رتبة هذا العالَم الحاضر. ووسط كل المُمارسات التي تَخصّ المنزلة النفسانية لا يرتفع أحد أعلى من الصلاة. أمَّا في العالَم الآتي، فتختفي الصلاة نفسها، لأن الأشخاص يصبحون في مَجال مرتبة أعلى بكثير من مرتبة الصلاة. وهذه المرتبة التي تَخصّ ذلك العالَم، تُمنَح من حينٍ لآخر لقديسين كاملين أثناء صَلَوَاتهم.

[٤٧] حينما يتأمَّل أحدٌ في الملائكة في هذا العالَم، فهذا يعني أنه أدرك طبيعة خلقته الأَولى؛ ومثل هذا التأمُّل يُدعَى معرفة ثانية. وهي أعلَى من النقاوة. والأسرار التي توجد أعلَى من هذه المرتبة ليست تحت سلطان الملائكة، وهم لا يقدرون أن يرشدوا أحداً إليها، لأن رتبة معرفتهم الطبيعية وقدرة حركاتِهم لا تصل إلى ذلك. ولأنهم، أيضاً، حينما يصبحون أهلاً أن يرتقوا نحو أمورٍ أعلَى من مرتبتهم، فإن ذلك يكون بالنعمة، وليس بقدرةٍ موجودة فيهم طبيعياً، ولا بِمعرفةٍ تكون قد انتقلت إليهم.

[٤٨] الحركات التي يُنير بها الملائكة النفس سرّاً، وهي الحركات التي تصعد فينا بسبب قربِهم الدائم مِنَّا، ومَحبتهم الوفيرة لنا، والتي تَجعل طبيعتنا تنمو قليلاً قليلاً كما لو كانت تتدبَّر بواسطة مرشدٍ ما، وهذه هي الحركات التالية: تبدأ الملائكة بتحريك مشاعرنا سرّاً بِجمال الفضيلة على قدر ما يستطيع المرء أن يدرك ذلك من حينٍ لآخر، وفجأةً تنشأ فيه غيرة حارَّة مع شهوة متأجِّجة للصلاح، وغالباً ما يكون ذلك بسبب أي فعلٍ لا علاقة له بِمخافة الله. فبغير سببٍ واضح، ينشأ بداخله حافز خفي للتوبة أعلَى من أفكاره يدوم النهار كلّه، ويضطرم أيضاً، بصورةٍ فائقة، بتذكار ومَحبة الأمور الفاضلة. ويُنسَب هذا إلى أحد أفعال الملائكة، التي تسمح بها مشيئة الرب الصالِح مُحب البشر. ولا تَحصل مثل هذه الحركات لأناسٍ فضلاء فقط، بل وأيضاً للعشارين والخطاة والأشرار والقتلة. وبِهذه الصورة تَجتذبنا الملائكة على قدر استطاعتهم بعيداً عن الشر ونحو الفضيلة، ويبعدوننا عن الأعمال الرديئة ويُقرِّبوننا من النقاوة. وبِهذه الصورة أيضاً، حتى الأئمة الأشقياء يتوبون ويعملون مرضاة الله. وقيل عن

كثيرين منهم إنهم لَم يدركوا فقط نقاوة أعمالِهم، بل وأيضاً نقاوة ضميرهم؛ فقد تطهَّروا ليس فقط من الأعمال الرديئة، بل وأيضاً من الأفكار والتصوّرات المتعلقة بها. وهذه هي الغيرة الملتهبة التي يقبلها ذوو الاستعداد الطيِّب منذ بداية سيرتهم الرهبانية، ويزيدون إضرامها إلى أن يدركوا الكمال ويبلغوا النقاوة الفائقة. والملائكة يدفعوننا هكذا إلى التقدُّم، والانتقال من الشر إلى الفضيلة؛ وبواسطة الفضيلة يَجعلوننا ندنو من النقاوة، وما إن نتأصَّل في النقاوة حتى يقودونا منها إلى المعرفتَيْن اللتَيْن هما أعلَى منها، وَاحِداهما تَختصّ بالتركيب الطبيعي. وكل تعليمهم مُصوَّب إلى ذلك العلو الفائق، الذي يَحظَى بعض القديسين، بعده، برؤية الثالوث الأقدس، التي هي هدف ونهاية كل الاستعلانات التي تتطرَّق المعرفة إليها. وفي هذه الرؤية توجد كل الحركات التي تَخصّ ملكوت السماوات، عند الملائكة كما عند البشر، وتَمتدّ إليها السيرة بلا نِهاية.

[٤٩] كل استعلانٍ للمعرفة الرُّوحية، التي هي أعلَى من تأمُّل المتجسِّدين وغير المتجسِّدين، تأتي من إدراك استعلانٍ للعالَم الآتي، بينما الاثنان (السابقان) يَختصّان بتأمّل الكائنات. وهذه الأخيرات هي نتائج الكمال في هذا العالَم الحاضر، بينما معرفة العالَم الآتي، عند الناطقين، تأتي أعلَى من درجتَي المعرفة الأَوَّلتَيْن. إنَّها معرفة الجوهر. وفي هذا العالَم الحاضر، كل استعلانٍ فيما يَخصّ هذا السرّ، عند الملائكة كما عند البشر، يبدأ من استعلان العالَم الجديد. لأن تأمُّل الكائنات لا يَختلط بالناطقين: لأن حركاتِهم تعلو عن كل إدراكٍ ومعرفةٍ. هذه تَخصّ المعارف، غير أنَّها ليست هي المعرفة. لأن العقل لا يشتغل بِمعارف متضاعفة، لكنه يتجه إلى معرفة الوَاحِد، ويُؤخَذ متواتراً بالدهش. (وفي معارف العالَم الحاضر) يوجد كذلك نوعٌ يشتمل على درجات، ولكن في أعلاها لا تكون هناك أية حاجة بعد إلى مثل هذه الدرجات، بل توجد حركة (وَاحِدة) نحو الله، لا تتوقَّف بعد، ولا يستطيع الشخص أن يتْركها ليهتمّ بشيء آخر.

[٥٠] الصلاة التي لا يصحبها تَدْبِير فاضل تكون مثل نسرٍ انتتف ريش جناحيه.

[٥١] يوجد عقلٌ نقي، وآخر روحاني. الأَوَّل يفتَرض أن الأفكار والتذكارات بِخصوص أمور هذا العالَم هي كائنة فينا بدون وجع. أمَّا العقل الرُّوحاني، فيفتَرض أنه مع وجود هذه الأفكار والتذكارات، ينشغل أيضاً بتأمُّلها. وفي الحالة الأخيرة لا يكفي أن تبقَى فينا بِحال النقاوة وبدون وجع، بل ينبغي أن تسمح لِعين النفس، حالَما نَحسّ بِحركاتِها، أن تغوص بألْحاظها داخلها، لكي تستخلص منها مذاقة الرُّوح. والعقل النقي يُمكن أن يقتنيها بالاجتهاد واليقظة، أمَّا العقل الرُّوحاني، كمثل مُجاهدٍ نشيطٍ، فينشد الهدف الرُّوحي للمعرفة.

[٥٢] الجسد الذي يُنمي خاصيته مثل ذلك العمَّال شيءٌ، والعقل شيءٌ آخر. فالذي يُروِّض جسده يُطهِّر نفسه من حالتها الألَمية. والذي يُثقِّف عقله يَمنحها رؤية معرفة الحق، ويَجعلها تعود من ظلمة الجهل.

[٥٣] جَميع الذين يتعبون في عمل الفضيلة لا يُدركون المعرفة التي تَرى الحق، لكنهم يقدرون أن يقتنوا خبْرة العمل الذي يصحب الإفراز الجيِّد.

[٥٤] لا يوجد عارفون يَخلو تَدْبِيرهم من الفضيلة، ولكنك تَجد فضلاء كثيرين لا يَمتلكون المعرفة. فلنحثّ الخُطَى إذاً وراء المعرفة، لأنَّها هي التي تُكمِّل السيرة الفاضلة لنفوسنا، وتنهض عقلنا نحو رؤية الحكمة، التي توجد في أمور الله. لأنه إذا كانت نفسنا غارقة في الظلمة وبدون معرفة، فلا يُمكن لأعمال الفضيلة أن تُدرك النقاوة.

[٥٥] توجد حركات تتعلَّق بالإعلانات التي تنشأ فينا بواسطة الملائكة القديسين، وأخرى تكون من فعل روح القداسة.

[٥٦] الإعلانات حول قصد الله في هذا العالَم، وحركات التأمُّل في الكائنات، والتفكير والمعرفة فيما يتعلَّق بالفضيلة، وبِما لا يتجاوز قدرات طبيعتنا المَخلوقة، نتعلَّمها من الطغمات الملائكية المقدَّسة، التي تُوضِّحها لنا سرّاً بتَدْبِير الله. أمَّا الاستعلان فيما يَخصّ الطبيعة الإلَهية الْقُدُّوسة، والتأمُّل وإدراك أمور العالَم الآتي – تلك الأمور المَخفية عن الخلائق في فكر الخالق إلى وقت إعلانها المُحدَّد من قِبَل الله، حينما يُظهرها علانيةً لكافة الخليقة، والتي يكشفها أيضاً للعوالِم العلوية – فإن استعلان هذه الأسرار وأسرار أخرى تُشبهها ترتسم سرّاً داخل عقلنا بفعل الرُّوح الْقُدُس. والأمر لا يتعلَّق بالأسرار التي توجد معرفتها في الخلائق أو في الأسفار المقدَّسة، أو التي تكلَّم عنها الآباء القويمو الرأي بإسهابٍ، ولا تلك التي تعتمد على قدرة الملائكة، ولا التي تُشكِّل جزءاً من التقليد؛ ولا من كل ما يستطيع العقل البشري استخلاصه، أو التي يَمتلك الفكر القدرة على تفحّصها – ولكنه يَختصّ بالسرّ الذي يعرفه الرُّوح الْقُدُس وحده، والعقل الذي يتقبَّله. هذه الأسرار التي يَجد فيها الملائكة مسرّاتِهم بلا انقطاع، أمَّا البشر فعلى فتَراتٍ فقط. اِعلَمْ أن الشيء نفسه يَحدث لِجموع الرُّوحانيين. فهم يعرفون الإعلانات التي تتناقلها الملائكة ورؤساء الملائكة فيما بينهم، والطغمات للطغمات، والتي تنتقل بعضها للبشر؛ ما لَم يكن هؤلاء الأخيرون قد تداولوها فيما بينهم، واستناروا بعضهم من بعض.

[٥٧] جَميع الاستعلانات بِخصوص أمور هذا العالَم وخدمته، التي يريد الله أن تتحقَّق من أجل خلاص ومعرفة الكل، بتوسط أولئك الذين تعيَّنوا كَخُدَّام عاملين إرادة الله. هؤلاء (الملائكة) يتقبَّلون بعضهم من بعض، وكل طغمة من الطغمة الأخرى، ما يتوافق مع النهاية السعيدة للأعمال المرتَّبة لِخدمة الخليقة. وهم أيضاً يتقبَّلون الإنارة الوَاحِد من الآخر على أسرار وجودهم، وعلى ما ينبغي أن يدركوه. لكن استعلان أسرار المعرفة فيما يَخصّ الابن الوحيد وكافة الحقائق الأخرى التي تكلَّمنا عنها ويتعلَّمونها أو يدركونها بالتبادل فيما بينهم، ليس هي من اختصاصهم. لأنه ليس هناك تلميذ ومعلِّم، بل فقط تنعُّمات المعرفة والاستعلان الذي نحن بصدده. وكل وَاحِد من الناطقين صار أهلاً لِهذا السرّ، يتقبَّله من نفسه، مثلما هو مرسومٌ في عقله، دون وساطة، لتنعُّمه الخاص في الخفاء. وإلى أن يُكشَف هذا السرّ، يوجد معلِّمون وتلاميذ، ومتقدِّمون ومتأخِّرون، وكائنات متفوِّقة وأخرى متواضعة؛ ولكن عند إحساسهم بِهذه

النعمة، فجميع المعارف تكون متساوية، لأنه ليس هناك صعود أو هبوط. ولا يُقال هناك ما نُردِّده اليوم أن الوَاحِد يعرف قليلاً ويَحسّ ويُدرك تنعُّماتٍ قَلِيلَة في هذا الوقت، وفي وقتٍ آخر يتعلَّم ويستنير أكثَر. بالعكس! فإن كل وَاحِد يتقبَّل الملء دائماً، دون أي نقصان، وبغير أن يكون هناك أبداً ما يجب أن يُضاف أو يُنقَص. وعندما يصل (الكل) إلى ذلك الاستعلان، لن يكون هناك بعد كبير ولا صغير، كما هو الحال في الاستعلانات الأخرى، بل يكون الكل في رِفعةٍ وكمالٍ وَاحِد بعينه، دون تغيير أو تبديل. ولا يكون هناك غنيٍ وفقير، ولا مُعطٍ ومتقبِّلٍ. ويشهد على ذلك مار أوغريس حين يقول: "في التأمُّل الطبيعي الثَّانِي، هناك مقتدرون وآخرون خاضعون. ولكن في 'الوحدانية'، لا يوجد هنا مقتدرون وخاضعون، بل الكل آلِهة". وبِخصوص التساوي الكائن خارجاً عن الاستعلان الأَوَّل وذلك الآخر، يقول أيضاً: "في تأمُّل الكائنات، هناك مصاعد ومهابط، تبعاً للحرارة أو الإهْمال. ولكن ليس الأمر هكذا في تأمُّل الثالوث الأقدس. فتلك الرؤية تبقى دائماً متساوية دون صعودٍ أو هبوط".

[٥٨] الاستعلانات التي تَحدث للنفوس النقية، منها ما يكون بتوسّط الملائكة، ومنها ما يَحدث باستنارة العقل. فالنفس النقية يُمكنها طبيعياً أن تُركِّز نظرتها في الأمور البعيدة كما لو كانت قريبة، والأمور المَخفية والمُستَتِرة كما لو كانت مُعلَنة وظاهرة؛ فعينها تشبه تلك التي للملائكة، الذين تَختَرق نظرتُهم الأجساد كلها ولا يُخفَى عليهم شيء، وهم نافذو البصيرة ويَمتلكون نوراً كافياً لرؤية كل ما هو خفي أو بعيد. والنفس، التي تُشاركهم في طبيعتهم (الرُّوحية)، حينما تُضاهيهم في سيرتِها، تتقبَّل بدورها النور الذي يَجعلها ترَى الأمور المَخفية، دون أن يشوبَها أي خطأ أو جهل. غير أنه لا يوجد أي استعلان تتفوَّق فيه معرفة النفس على تلك التي للملائكة، لأنه، بالنسبة لأمور الإعلانات، تأتي تلك التي تَحصل للنفس بعد التي تَحصل عند الملائكة. والعين تكون صافية بنفس القدر الذي يكون عليه العقل. وهي أيضاً تغوص وتتعمَّق نظرتها في الأمور المَخفية بفعل الرُّوح الْقُدُس، الذي يسمح نوره للنفس، في الوقت نفسه، برؤية بَهاء الملائكة وجَميع القديسين الذين على الأرض، لأن الرُّوح الْقُدُس هو نور جَميع الرُّوحانيين. فحينما تُدرك النفس هذا المقدار، تصير ناظرة للخفيّات كالملائكة أيضاً. ففي بعض الأحيان تُدرك الأمور منهم، وفي أحيانٍ أخرى تراها بذاتِها، بفضل نقاوة بصيرتِها. وكل هذا يَحدث بِحسب قياس كل وَاحِد من المهتمِّين بالشيء نفسه. فالذين يرون يعرفون دلائل هذَيْن النوعَيْن من الإعلانات، سواء تلك التي تأتيه من الخارج ويتقبَّلها بواسطة الملائكة، أو تلك التي تنشر نورها في الداخل بقوة بَهائها. والإعلانات التي تأتي عن طريق الحواس لا حاجة لَها بنقاوة العقل، بل فقط تلك التي تأتي عن طريق العقل نفسه.

[٥٩] جَميع الإعلانات بَخصوص الأمور أو الأحداث، والتي تأتي من الملائكة القديسين تتمّ، كما نفهم من الكتب الرُّوحية وتعاليم القديسين، بإحدى الطريقتَيْن التالْيَتَيْن: في الأُولى تظهر في حلمٍ لِشخصٍ غارقٍ في النوم؛ وفي الأخرى تأتي عن طريق الحواس، وتتَّخذ شكلاً مرئياً لأى منظرٍ أو أي صوتٍ مَحسوسٍ، وذلك كما حدث مع يعقوب، ويشوع بن نون، وإشعياء

ودانيال والأنبياء الإثنى عشر، ومع يُوسُف وزكريا الكاهن، والعديد من القديسين الآخرين. فالبعض منهم حصلوا عليها برؤية حسّية أو بصوتٍ مسموعٍ يتكلَّم معهم؛ والبعض الآخر في حلمٍ أثناء النوم، كانوا يرون شخصاً يُكلِّمهم ويُعلِن لَهم الأمور السرِّية. وهاتان هما الطريقتان اللتان تأتي بِهما الإعلانات بتوسُّط الملائكة للكشف عن أمورٍ مستقبلة، والإفصاح عمَّا سيحدث بعد وقتٍ طويلٍ.

[٦٠] وبالمقابل، فإن الاستعلان الذي يكون من الرُّوح الْقُدُس لِعين العقل الذي يتقبَّل الاستنارة، عند النفس النقية، لا يعرف سوى طريقة وَاحِدة واضحة منذ القدم. والحقيقة هي أنه لا يَحصل إلا عن طريق إحساس القلب، في رؤية خفية. وليس عن طريق الحواس الخارجية، كما حصل مع صموئيل، وإليشع، وبطرس، ومع قديسين ناظرين آخرين، استطاعوا أن يتطلَّعوا، بعين النفس المضيئة، إلى الأمور البعيدة، وأيضاً أفكار الناس وحركات وأعمال الملائكة والشياطين، حتى أنَّهم كانوا يُدركونها بسهولةٍ وبسرعةٍ دون أدنى تأخير. والعديد من القديسين الآخرين كانوا يَمتلكون القدرة على كشف الأفكار والضمائر والرغبات المَخفية عند الناس، هذا بالإضافة إلى الأحداث التي سوف تَحصل بعد سنواتٍ وأجيالٍ كثيرة، والتي لَم تكن معروفة سوى لله وحده. ونحن نجد أمثلة لِهذه الأمور في سير المتوحدين الذين قبلوا معرفة الخفيّات واستطاعوا أن ينفذوا إلى أعماق مَخادع النفوس. والملائكة القديسون يتطلَّعون بعيون مُماثلة لتلك التي للنفوس النقية التي للقديسين. وبالأكثَر لأنهم أصبحوا مستحقين للدالَّة مع الله في استعلان أسراره.

[٦١] لقد شبَّه الآباء القدماء نفس المتوحِّد بالعين، لأنَّها كلما كانت هادئة من كل طنين السماع والنظر، يستطيع المتوحِّد أن ينظر الله وذاته بصفاءٍ، بينما تفيض داخله مياهٌ عذبةٌ صافيةٌ، التي هي الأفكار الحلوة التي لنقاوته الطبيعية. أمَّا إذا اقتَرب من السماع والنظر، فهو بسبب الاضطراب الذي تقبله نفسه، يُشبه إنساناً يسير في الليل وقت انتشار السحب في الجو، فلا ينظر أمَّامه طريقاً ولا سبيلاً، ويتوه بسهولة ويضلّ في مواضع قفرة مؤذية. فإذا ما هدأ مع نفسه فإنه يكون كَمَنْ تَهُبُّ له ريحٌ حسنة، وتَجعل الجو بَهِجاً فوق رأسه، ويبدأ أن ينير أمَّامه، فينظر ذاته ويتميَّز كيف هو وإلى أين ينبغي أن يَمضي. وينظر منزل الحياة من بعيد. ولأن جيلنا الرديء هذا، يا إخوتي، لا يساعدنا لكي نَجد الهدوء بالتمام والسكون الحقيقي مثلما كان في الأجيال الأَولى، فأي موضعٍ نكون فيه، فلنجلس مع نفوسنا، ولو كان ليومٍ وَاحِد، ليس في الدير فقط، بل وفي الطريق وفي أي موضعٍ كان، ولو لساعةٍ وَاحِدةٍ. فقد عَبَر ذلك الزمان الذي كان يوافق؛ ولِهذا لا ننتظر العدل والتَرتيب، بل يوماً بيومٍ نطلب أن نَهدأ قليلاً ولو تحت سقيفة أو في خرابة. باختصارٍ، كل موضع يقع بيدنا السكون فلنَضبطه حسناً بالانقباض إلَى نفوسنا، إن كان يوماً أو يومَيْن؛ لأن الحكماء هكذا يقتنون أنفسهم في هذه المدَّة القصيرة من حياتِهم، لئلا يُدركنا الموت بغتةً، وما نبلغ مقصدنا ولا ندرك أملنا. إيضاح: إن ما نراه عن بعدٍ من مساكن الحياة السمائية يرشدنا إلى الطرق المتنوعة التي ندرك بِها هذه الرَّاحَة الرُّوحية التي

يوماً بعد يومٍ تُشرق في نفسنا في السكون. فلنجتهد أيضاً أن ندرك هذه الطرق المتنوعة التي تؤدِّي إلى الإحساس بِها.

[٦٢] قصيرة هي مدَّة حياتنا، يا إخوتي، وصناعتنا طويلة وصعبة، ولكن الخيرات التي وُعِدنا بِها لا يُنطَق بِها.

[٦٣] ليس من الصواب أن يُقال إن الإنسان لا يقدر أن يَحسّ بالخيرات الرُّوحية ولا بإعلانات الحياة الجديدة قبل أن يتنقَى تماماً. فهو بالأصح يوماً بعد يومٍ يقدر أن يرى داخله آثار النقاوة على قدر الأوجاع التي غلبها. ومقابل كل وجعٍ يغلبه، يتألَّق مكانه نقيضه على الفور. فبمقياس ما يتطهَّر الإنسان من الخطية، هكذا تَملك مكانها الرَّاحَة الرُّوحية المساوية لنقاوته. وبِمقياس ما يتحرَّر ضميره من الأفكار الملتصقة بالأوجاع، بِمقدار ما يتألَّق في قلبه إشعاع المعرفة.

[٦٤] يا أخي، لا يثقل الأمر في عينيك، حين يعرض لكَ فكر يقول: "مَنْ يقدر أن يصل إلى نقاوة القلب، ويجد تنعُّمه في الرَّاحَة والسعادة هناك؟" لأنه بِمثل هذه الأفكار يصبح الأمر صعباً علينا ويقودنا إلى ترك الرجاء والتخلِّي عن الاجتهاد في طلبه. في الحقيقة، إن نقاوة القلب ليست بالأمر العادي أو التافه، كما أننا لا نقدر دُفعةً وَاحِدة أن نقتنيها ونُقيم فيها؛ وكذلك ليس بإمكاننا أن نصل إلى السعادة (التي تَهبها لنا) فجأةً ودون توقُّعٍ، أو نَحسّ بأسرارها. بل بالعكس تماماً، فإن النقاوة هي أرضٌ متسعة وتُخُمٌ مُمتدَّة، كثيرون من السائرين نحوها يبلغون إلى السعادة والأفراح العجيبة قبل أن يصلوا إليها، حتى ولو كان الفلسطينيون يُثيرون الحرب مقابلهم في الطريق، ودون أن تصادفهم أية معجزة أو راحة روحية. وأنتم تعلمون أن خروج بني إسرائيل من مصر لَم يتمّ في لَحظةٍ في طرفة عين، كما لَم يكن وصولُهم وامتلاكهم أرض الموعد بِمهارتِهم أو بسرعة. بل بالعكس، كان خروجهم تدريجياً، في حين أن مشقة الطريق لَم تكن تسمح لَهم أن يتعرَّفوا على أي شيء من خيرات أرض الموعد قبل أن يدخلوها. فقليلاً قليلاً كانوا يستولون على الأراضي التي كانت ملكاً للشعوب التي هزموها، ويرثون خيراتِهم. وجَميع هذه الشعوب التي ترمز أسْماؤها إلى الأوجاع كانوا يسكنون في أرض الموعد. ومع كل شعبٍ يُهزَم وكل أرضٍ تُمتَلك، كانوا يأخذونها كَميراثٍ لِجزءٍ من أرض الموعد. وهذه الأرض التي يُشير اسْمها إلى حالة النقاء، لَم تكن أرضاً زهيدةً أو مكاناً ضيِّقاً. وقبل أن ندخلها ونَمتلكها تماماً نحن لا ندرك لا الخيرات ولا المَجد الذي يغمرها. فمجالات النقاوة فسيحة وحدودها شاسعة؛ خيراتُها وفيرة، وتُخُمُها لا تتوقَّف عن الامتداد. فإذا كُنَّا لَم نَحصل بعد إلا على بعض حصونها، وجزء صغير من تُخومها، ومازلنا نواجه القتال من الشعوب الأخرى، إلا أن الحلاوات اللذيذة التي وجدناها ليست ضئيلة. ولِهذا، يا إخوتي، علينا أن نتشجَّع ونثبِّت أنظارنا على تلك الأرض، ونُسرِّع خُطانا باتجاهها. فحتى لو كُنَّا لَم نُدرك بعد حدود السعادة التي وعد بها الله آباءنا، فعلى الأقل، نتأكَّد من أننا لَم نُحرَم من جزئيتها. وأنتم تعلمون أن يشوع بن نون والذين تَجسَّسوا أرض الموعد لَم يدخلوا أورشليم، قلب الحصن، حتى ولو أنَّهم قد حَملوا

للشعب بعض أثْمارها، بل دخلوا فقط إلَى نواحيها وحقول ريفها. ونحن أيضاً، إذا كُنَّا لَم ندخل بعد إلى المدينة، فإننا على الأقل نسكن في تُخوم النقاوة وضواحيها. وإنَّها لَمُتعة كبيرة أن نَحصل على جزءٍ ونضع أرجلنا على أرضها.

[٦٥] يا إخوتي، لذيذة هي أسباب الأوجاع، ولكن ليس كأثْمار البِرّ. مريرة ومُحزنة هي أسباب البِرّ، يا أحبائي، ولكن ليس كنتائج الخطية.

[٦٦] الأوجاع والفضائل ليست أقانيم (ذات كيان مَحسوس)، فهي لا تظهر في النفس إلا في مناسبات. ومَنْ يُدرك ذلك جيداً، كيف يسمح لنفسه بعد أن يعرف أسبابَها، أن يُضاعف الفرص أمَّام الأوجاع الخارجية، بينما هو يُحب الفضائل التي اقتناها بداخله؟

[٦٧] لذيذةٌ هي أسباب الخطية، ولكن نهاية فعلها مرٌّ جداً. مريرةٌ هي الأسباب التي تُربِّي الفضائل، ولكن الثمار التي تُشرق منها حلوةٌ جداً. ولكن لا حلاوة الأَولى ولا مرارة الثَّانِية تدوم طويلاً. بل إن ما يثبت عند مَنْ يضبطها هو النهاية التي تكون منها.

[٦٨] الذي يعتبِر معرفة العالَم ميراث راحته الحقيقي، وأفراحه الميراث الثابت، يسخر منه الناس في اللحظة التي يُشيِّعونه فيها إلى مقرِّه الأخير بيدَيْن فارغتَيْن حيث لا يعود ينفعه شيءٌ.

[٦٩] يليق السجود لذاك الذي بِحكمته غير المُدرَكة وضعنا أولاً في سيرة المعرفة، في عالَمٍ مادِّي، ولكنه، بعد ذلك، بالموت، وضع حداً للخطايا التي أورثَتْ المعاناة، وأعدَّ لنا أخيراً عالَم المَجد حيث لا تعود الحياة تَخضع لِمثل تلك الآلام.

[٧٠] الله بنعمته قد أتى بالعالَم إلى الوجود، وهو بِمحبته يُدبِّر شؤونه. وبينما نحن كل يوم نُخطيء إلى صلاحه بِحماقتنا وتَحوُّلنا إلى الشرّ، لا تتوقَّف مَحبته عن تَدْبير الخيرات الْعَظِيمةَ من أجلنا يوماً بعد يومٍ، ويُكثِر معوناته لنا، كما لو كان متيقِّناً من أنه سيرفعنا يوماً ما إلى سيرة الحياة المزمعة. ومع أننا نعرف غِنَى مَحبة الخالق الفائقة، إذ أنه عند نهاية مسيرة هذا العالَم الحاضر التي ازدادت وتفاقمت فيها الشرور وعواقبها... – آه، إنني لا أعرف كيف أُعبِّر عن ذلك! -... كيف بعد كل هذ يرُدّ خلقتنا من التُراب إلى السمو الفائق، ويرفعنا جَميعاً إلى مَجدٍ مبهِجٍ مَملوءٍ مسرّة؛ ويقودنا إلى أن نصبح آلِهة وأبناء الله! كَم هو مناسب أن نذكر هنا قول المُفسِّر المغبوط: "من الواضح إذاً، أنه بعظم صلاحه ووفرة مَحبته، قد أتى بالخليقة إلى الوجود". والسبب الذي من أجله وضعنا أولاً في عالَمٍ مادِّي، في هذا الزمن الحاضر، هو، أيضاً، مَخفي عن الخلائق. وليس هو، بالتأكيد، كما يُفكِّر الكثيرون، من أجل اختبارنا ومعرفة إذا كُنَّا أخياراً أم أشراراً، كما لو كان فيما بعد سيُعطينا أجوراً مُختلفة. فكيف يُمكن لنا أن نُفكِّر على هذا النمط، ونستخلص من هنا أن هذا هو السبب في خلقة العالَم؟ بينما منذ البداية وقبل أن يُنشيء الخليقة، ليس فقط أن الله كان يعرف تماماً ما سيخلقه ، بل إنه، فضلاً عن ذلك كان يعرف الحال الذي تنتهي إليه خلائقه من البشر أو الطبائع غير المرئية. والدافع الدقيق في ذلك مَخفي. وإن كان قد أُعطِيَ لنا أن نعرف القليل ونتكلَّم عنه، إلا أن الله رأى أن تظل الحقيقة

الكاملة مَخفية حالياً. وفيما بعد رُبَّما لا تكون هناك أية حاجة بعد لِطرح أسئلة بِهذا الخصوص.

[٧١] إذا كان الله هو بالحقيقة آبٌ، وهو الذي أوجدَ الكلَّ بالنعمة، وإذا كان الناطقون هم أولاده، وكان هذا العالَم مكاناً للتثقيف حيث يُربِّي الأطفال في المعرفة ويُقوِّمهم إذا ارتكبوا الأخطاء، وإذا كان العالَم الآتي والميراث المُعدّ للوقت المُعيَّن (الذي يدرك فيه الكل قامة المسيح)، حينئذٍ يَحين الوقت الذي يصبح فيه الأطفال رجالاً، والذي فيه، بلا أي شكٍّ يُبدِّل الآب أيضاً بالفرح، في عالَم هؤلاء الكبار، ما يبدو الآن كنوعٍ من العقاب، حينما يكون هؤلاء الأطفال قد ارتفعوا، بدورهم، عن الحاجة إلى التقويم. ما أبعد أحكامك، يا رب، عن الفحص!

[٧٢] المَجد لكَ، أيُّها المُخفَى عن الكل، وأحكامك مُستَتِرة، ومعرفتك سابقة لكل الأشياء قبل أن تكون. ومع أن مَحبتك هي أكثَر فيضاً من المُحيط، فقد أسدلتَ حجاباً من الصرامة تجاه هذه المسرّات، كضابط لِميالتنا إلى الإهْمال. فلو كنتَ قد أردتَ، منذ البداية أن تَمنحنا المعرفة الكاملة، ما كنتَ قد وضعتنا في هذا العالَم الحاضر. وقد أخفيتَ، إلى حينٍ، ما يَخصّ طبيعتك، وأعلنتَ ما لا يَخصّها، مراعاةً لِضعف خلائقك؛ كما ولَم تُعلنها تماماً ولا بتدقيقٍ للكائنات السمائية العالية، إلى أن تأتي الساعة التي يُرفَع فيها الحجاب عن السرّ، في الموعد المُحدَّد بِمعرفتك غير المُدرَكة. والخلائق غير المَرئية تئنّ من أجلنا، بانتظار استعلان الرجاء الذي يعرفونه في تَدْبِير الخلاص الذي لنا في المسيح، عندما يُعتقون، هم أيضاً، من قيود الميالة إلى الفساد، ونحن من آلام حالتنا المائتة.

[٧٣] ما أعجب الفكر على جبلتك، أيُّها الإنسان! وأعجب منه هو سرّ قيامتك. ومُحزنٌ جداً هو الفحص عن انحلال تركيبك، ولكن عظيمٌ جداً هو مَجد قيامتك. نفسي حزينة حتى الموت، ولكني أتعزَّى وأتشجَّع بالإيمان من أجل ذاك الذي سبق ومات وقام، وأعطى بقيامته عزاء الرجاء لِجنس البشر.

[٧٤] لا تَحزن، أيُّها الإنسان المائت، لأنك ستدخل يوماً سكون القبر، وأنتَ أبْهَى من الكل، ويُطالك فساد الموت! لقد وضع الله حدّاً لرقادك في الانحطاط والانحلال التامّ، حيث لا أحد يتذكَّرك. بقدر ما هو جَميلٌ تركيبك، بقدر ما هو مُحزنٌ فسادك! ولكن لا تدعْ الحزن يتملَّكك من أجل هذا، لأنك مزمعٌ أن تتسربل به مُجدَّداً، مضطرماً بالنار والرُّوح، حاملاً داخله صورة خالقه. لا تقلقك الشكوك من جهة يقين مثل هذا الرجاء، لأن بولس الرسول المغبوط يُعزِّيك بِهذا الخصوص، ويقول: "إنه يُغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مَجده[٣]".

[٧٥] لا تَحزن، لكوننا سنبقى لسنين طويلة في فساد الموت، تحت التُراب، حتى نهاية العالَم، ولا ندعْ هذا الأمر يضغطنا. فالموت ينحصر في مدَّةٍ من الزمن، نكون خلالَها نائمين في القبر، وتَمر علينا مثل حلم ليلةٍ وَاحِدة. وفي الحقيقة، إن خالقنا الحكيم قد جعل موتنا خفيفاً، بِحيث لا نَحسّ فيه بأي أَلَمٍ. إنه يبدو ثقيلاً طالَما لَم نلقاه بعد، أمَّا بعد ذلك فلا نعود نَحسّ

(٣) في ٣:٢١

بفسادنا ولا بانحلال تركيبنا: كل هذا لا يوازي ثقله حلم ليلةٍ وَاحِدة عندما نستيقظ، أو كما لو كُنَّا نائمين وقت الصباح وقد حان وقت يقظتنا. بِهذا القدر يكون النوم الطويل في القبر خفيفاً لدينا، وضئيلة هي السنون التي تَمرّ بنا هناك.

[٧٦] خَمسة هي القوات النفسانية التي تقتنيها النفس الناطقة وهي في الجوهر المتَّحد بها (أي الجسد): الشهوة الطبيعية التي للنفس؛ والقوة الغضبية المُساعدة لِشهوتِها، لأن الغضبية هي بطبيعتها موضوعة لتتحرَّك بعد الشهوة؛ وحركة الحياة التي تَختلج في النفس بلا فتور؛ والنطق البسيط؛ والنطق المركَّب.

[٧٧] من هذه الخَمس قوات النفسية، اثنتان تبطلان بالكمال عند افتراقهما من الجسد، وهاتان هما القوة الغضبية والنطق المركَّب. فلا حاجة إلى أيٍّ منهما بعد في السيرة المزمعة، لأن هناك ليس شيءٌ يُنادَى به بالصوت، ولا أمرٌ مضاد للصلاح تستعمل الغيرة (أو الغضب) مقابله. وهناك اثنتان أخريتان أيضاً تُحفظان بلا حركة إلى ما بعد القيامة لأجل استعمالِهما في العالَم الجديد، لأن بِهما تكون السيرة السمائية: إحداهما هو النطق البسيط الذي هو العقل العارف، لأن به تتحرَّك النفس نحو تأمُّل تلك الأزلية التي هي حدّ كل ملكوت السماء، حيث ينضمّ داخل الدهش بِها جَميع الناطقين الأَوَّلين والآخِرين. والأخرى هي شهوتُها الطبيعية، لأن بِها تتحرَّك النفس بِحلاوة عِظم مَحبة الخالق التي بِها هو مُزمعٌ أن يُكمِّل عند ذلك جَميع طبع البشر والملائكة... أمَّا الملائكة فهم فيها من الآن بالكمال؛ وأمَّا البشر فمن حينٍ لآخر فقط. ويتبقَّى للنفس شيءٌ وَاحِد من قواتِها، وهو يثبت معها عند افتِراقها من الجسد إلى أن تعود لتلبسه بغمزٍ إلَهي من الخالق القوي، وهو حياتُها الطبيعية، هذه فقط تبقَى فيها وتصحبها إلى ذلك العالَم. والنفس التي مع الجسد وبه أخطأت أو تبَرَّرت، ليس من العدل أن تنال وحدها من دونه أفراحاً أو أحزاناً.

[٧٨] والملائكة أيضاً يقتنون ثلاث قوات تَخصّ السيرة المزمعة؛ وهي: حركة الحياة، والخاصية العقلية، والشهوة المقدسة التي لطبيعتهم، التي هي مَحبة مضطرمة لله. لكن النطقية والغضبية لا توجدان في عالَمهم، وبالأَولى في سيرتِهم، لأنه لا يوجد عندهم أية غيرة أو كلام. إلا أنَّهم قد يُظهِرون ذلك عندما ينزلون على أرضنا، كما ويتَّخذون أيضاً مشاعر مشابهة للتي عندنا لكي يظهروا لنا هكذا، بينما هم لا يَمتلكونها في طبيعتهم. وهم حينما يظهرون لنا قد يبدو عليهم الغضب أو يستخدمون الكلام مع أنَّهم لا يستعملون ذلك فيما بينهم. كما أن الله يستخدم أيضاً الغضب والكلام، بينما طبيعته هي أعلَى من هاتَيْن الخاصتَيْن، وهو من أجلنا فقط يستخدم ذلك مع أن طبيعته أعلَى من الغضب وأعلَى من الكلام. والبشر سوف يبلغون السرّ نفسه عند القيامة، كما قال أحدهم: "على صورة هذه القوات السمائية الذين تَمكث طبيعتهم المَخلوقة في سكوتٍ عظيمٍ وفي دهشٍ... بل وفي صورة الله نفسه".

[٧٩] الطبائع الناطقة قد تفاضلت بلا حدٍّ بِما فهمته من تَدْبِير تَجسُّد المسيح رَبِّنَا، الأمور التي لَم يكونوا يعرفونها من قبل، تلك التي من أجل عتقهم وتكميلهم هم ونحن قد أتى.

[٨٠] في البداية كانت الكائنات الرُّوحية، رغم ميالتهم للإهْمال، يَجهلون الشرّ الذي زحف وسطهم، ولكن، فجأة، بينما هم وقوف أمَّام الله، بِملء الثقة، إذ بِهم يرون وَاحِداً منهم، رئيس طغمة، ومعه عدد كبير من أتباعه، يسقطون من هذا المَجد الذي كان لَهم. وإذ ذاك تَملَّكهم خوفٌ ورعدة. ومن ذلك الحين أصبحوا مأخوذين بسبب الرعب الذي تغلغل وسطهم واستقرّ بينهم حتى كادَ يتملَّكهم اليأس من أنفسهم، لأنَّهم ظنّوا أنَّهم جَميعاً قد سقطوا، وسكن فيهم خوف الخالق. ولكن الله، من ذلك اليوم، جعلهم يعرفون عظمة قدرته ويتأكَّدون من أن كل شيء يقوم بإشارةٍ من قِبله. هذا الخوف جعلهم أكثَر يقظة، ومن ثَمَّ تيقَّنوا أخيراً من أن الميالة إلى الإهْمال والسقوط هي التي كانت السبب في ما حدث لِعددٍ كبيرٍ منهم. وهدأت نفوسهم بِخصوص هذا الأمر، مع أنهم كانوا مازالوا يَجهلون أنه سيأتي وقتٌ يتمّ فيه خلاصهم. ولكن بعد مَجيء المسيح، تبدَّد خوفهم. وهم من ذلك الحين يَحتملون بفرحٍ الثقل الموضوع عليهم، لأنَّهم تقبَّلوا وعد الخلاص المزمع. وقد كُتِبَ: "إنَّهم الآن يئنّون ويصرخون بسبب ثقل وضعهم الحالي، ولكنهم يتشجَّعون بِما سوف يأتي، لأنَّهم يعرفون الآن ما سوف يَحدث، وهو ما كانوا يَجهلونه من قبل، فيتعزّون بوعد الخلاص يوماً من الآلام ومن الخوف الذي يتملَّكهم اليوم".

[٨١] بعد مَجيء المسيح اقتنت الطبائع العقلية معرفة فاضلة بِحكمة الله، لأنَّهم نظروا بأية سياسة فائقة دبَّر أن يَجمع الكلَّ إلى وَاحِد بتجسُّد المسيح. الشيء الذي إذا نلناه، فنحن كلنا مزمعون أن نصير وَاحِداً، نحن الذين من ههنا نَجتهد بِمخافة الله. ونحن عتيدون – إن ثبتنا فيها – أن نَحظَى في السماء بِخيراتٍ كثيرة مع القوات غير المرئية ومع المسيح رَبِّنَا، وهناك نصير جَميعاً بيعة وَاحِدة لرَبِّنَا.

[٨٢] جَميع ما سوف يُحقِّقه الله للخليقة بطريقةٍ فائقةٍ لَم يرد على فكره في ملء الزمن فقط، بل كان منذ البدء وقبل كل الدهور قد تَحدَّد وأُعدَّ لتكميله بالفعل. ولكنه بَقِيَ مَخفياً عنده، ولَم يفصح عنه. ثُمَّ أُعلِنَتْ هذه الأسرار في النبوّات، وتَحقَّقت في تَدْبِير الخلاص بتجسُّد المسيح رَبِّنَا. وسوف يكتمل تَحقيقها نهائياً عند ظهوره في السماء فوق الكل، حيث يُقيمنا من التُراب، ويَهب التجديد والخلاص من كل معاناة لكل الخليقة، ولنا نحن، ويُصعدنا معه إلى المسكن السمائي.

[٨٣] تَمام مسيرة العالَم المادِّي الطبيعية هي نقطة البداية في قيام عالَم النور؛ وتَمام مسيرة العقل في الطبائع المَخلوقة، هي بداية الحركات فيما يَخصّ الخالق، والتي هي غاية عالَم المَجد.

[٨٤] سؤال: لِماذا كل الإعلانات التي يؤتيها الله للقديسين تَحصل لَهم أثناء الصلاة؟ الجواب: لأنه لا يوجد وقتٌ أكثَر موافقة للقداسة مثل الصلاة.

[٨٥] حينما تقوم الصلاة في حدود النقاوة تشتَرك في الحركات الطبيعية، ولكنها حينما تُبتَلَع في عدم المعرفة، فإنَّها تقوم في موهبة الرُّوح.

[٨٦] لو أن يصل المتوحد بالاستعلانات حتى عرش الله، ولكنه يستهين بالمَزَامِير، فهو يُسلَّم لأيدي الشياطين. المدخل للكبرياء يبدأ بأن ينسب الإنسان إلى نفسه أموراً عظيمة كأن يقول: "لقد أصبحتْ منذ الآن درجتي أعلَى من الذين هم في حاجةٍ إلى المَزَامِير"، وهذا هو ما أوحى به الشيطان لأبطلما المصري، حينما ظهر له في رؤيا زائفة، كما ذكر بلاديوس في كِتَابه الفردوس، ثُمَّ قال له: "فلا تضيِّع وقتك في تلاوة المَزَامِير، ولا ترهق جسدك بالأعمال، ولكن اِجعل كلَّ اهتمامك في أعمال النفس. وثبِّت دون انقطاعٍ نظرة عقلك فِيَّ، وأنا أجعلك ترى مَجدى". وهكذا هزأت به الشياطين، وأصبح في تَخليةٍ من الله. وبلغ به الحال إلى أن رفعوه ثُمَّ ألقوه على الأرض، وقيَّدوه بالحديد، وهو مستسلم بين أيديهم. ووصل به الحال أنه كان يشرب ماء غسيل إخوة مغبوطين. ومع أنه من أجل أتعابه عاد إلى عقله، لكنه لَم يعد أبداً إلى سيرته السابقة، خلال السنوات الكثيرة التي أمضاها في السكون مع أنه سكن موضعاً هادئاً.

[٨٧] أنتم تعلمون، يا إخوتي، من أين يأتي التوجُّه إلى الشرّ لدى الطبائع الرُّوحية. هذا ما فعله "لوسيفر، القائم وقت الصباح"، الذي اعتقد أنه أعلَى من أن يَخضع لأي قانون موضوع للخلائق. ومن ذلك الحين فارقته القوة التي كانت تسنده وسقط كالبَرق من مَجده.

[٨٨] فمن شهوة الحرية تصوَّرت الوساوس في الخلائق وبين عددٍ عظيمٍ من أعضاء طغمتَيْن من الطبائع الرُّوحية، الوَاحِدة تُدعَى الأراخنة، والثَّانِية الرئاسات والسلطات. الوَاحِدة سقطت في طرفة عين من مَجد طبيعتها السعيدة المنيرة، ومن مسكنها في السماوات مع الرؤساء الآخرين. وكمثل حيَّة حقيرة على الأرض انطلق (الشيطان) إلى الهاوية. وجَميع الذين يؤخذون في شباكه، ويَحيدون عن طريقهم، يكونون قد سبق لَهم أولاً أن أحبوا الحرية والتخلُّص من النظم والقوانين. حيث يستطيع حينئذٍ أن يزرع فيهم، متى أراد، ما صدر منه، لأنه لا يسمح للقوة الإلَهية، المَخفية في إطاعة رَبِّنَا أن تقتَرب منهم، ما لَم يكونوا قد أخضعوا أنفسهم بكل رضى لنيره. فهو متى أراد أن يغرس فيهم أوهامه، تَهبّ عليه تلك القوة فيهرب من أمَّامها. عندئذٍ يبحث عن طريقةٍ أخرى، ويُحاول بتملُّقه بالتخلِّي بِهواهم عن هذه الخدمة المقدَّسة.

[٨٩] ينبغي أن نلتَزم، يا إخوتي، بِحدود الطاعة لكي لا نسقط في أيدي شياطين الكبرياء، فنُحرَم من العناية الإلَهية التي تُحيط بنا وتَحفظنا من تَجربة الشهوة، ولندرك أننا كخلائق لا يليق بنا أن نرغب في إقتناء حرية لا تليق سوى بالخالق وحده. وبالنسبة للشباب والإخوة المتَراخين، فلا حاجة بِهم إلى الكبرياء لكي يُجرَّبوا بالشهوة. لأن التوقُّف عن الالتِزام بقوانينهم، يكفي لأن يقودهم إلى التفكير في الشهوات النَجسة المفسدة. ومن هنا كان القانون موافقاً للكاملين بقدر ما هو موافق للذين هم في منتصف الطريق أو الذين مازالوا في بدايته:

هذه المُمارسات تتوِّج جهادهم، وتغرس فيهم الاتضاع، وتَحفظ لَهم تماماً الغِنَى الذي اقتنوه.

[٩٠] هناك فكر ملائكي، وتأمُّل ملائكي. أمَّا الفكر الملائكي على الفضيلة فيُنشيء فينا ندماً حارّاً، أو تعجُّباً على طبائع الأمور... أمَّا التأمُّل الملائكي فعلى أسرارهم تقع نظرته في أنفسنا. أمَّا النوع الأَوَّل فيحصل لكل الإخوة الفضلاء الأتقياء؛ أمَّا النوع الثَّانِي فهو يَحصل لأناسٍ قديسين فقط.

[٩١] الملائكة القديسون يَجتذبوننا إلى النقاوة بإعلاناتِهم، ويَجعلون مِنَّا هياكل للروح القدس؛ وهو وحده الذي يُقدِّسنا بإعلاناته. فإعلانات الملائكة لا تقدر أن تُقدِّس النفوس، ولكنها تُقرَبِّنَا فقط من النقاوة بالنسبة للأوجاع. ولا يُمكن لأي إعلان بواسطة الملائكة أن يقود النفس إلى النقاوة، سوى تلك الإعلانات التي عن طريق العقل تُحرِّكها نحو الأفهام والتأمُّلات والأسرار الخفية، التي تكشف وتُعلِن عن الأمور التي تقتَرب النفس بواسطتها من المعرفة الخفية. كما أن الإعلانات التي ترد عن طريق الحواس، حتى ولو كانت رؤية الملائكة، لا يُمكن أن تُقدِّم أية نقاوة للنفس. ولا يقود إلى النقاوة سوى تلك الإعلانات التي تَحصل في العقل. وحينما تكون النفس قد تنقَّتْ بالتعليم وبِمعرفة الحقائق الخفية، حينئذٍ يسكن فيها الرُّوح الْقُدُس، وتتقدَّس وتصبح نقية بفعل قداسة تلك الإعلانات. ثُمَّ تصبح النفس مضيئة كالشمس، لتدرك عظمة وعلوّ وعمق وطول وعرض كل معرفة غير جسدية، وتفحص الأسرار والأمور البعيدة والأفكار العميقة. ولكنها طالَما لَم تتقبَّل إعلان الرُّوح الْقُدُس، فهي بالأَولى لا تتقبَّل النظرة العميقة للأمور الخفية، أو تستعلن أفكار الناس، وحركات وأفعال الملائكة والشياطين والنفوس، وتعرف الأمور المزمعة.

[٩٢] جَميع الإعلانات بشأن حالة ووجود الأمور وفعالَيْتَها، هي عمل هذه القوات المقدسة (أي الملائكة) بِمساعدة المناظر والأشكال الحسّية التي من شأنها أن تُعرِّفنا وترشدنا إليها. أمَّا فيما يَخصّ تأمُّل الملائكة الذي يُعلَن لنا بصورة خفية، بتوسُّط حركات العقل، فهو يتحرَّك بواسطة النور الذي يفيضونه داخلنا. ومن الواضح، أنه ليس بالصور ولا من خلال الحواس ولا بالتلقين، يُستعلَن لنا، ولكن بالأفكار التي تتحرَّك لنا من حضن السكوت، حينما تصبح النفس فجأةً مستنيرة، كما قال أوغريس: "حينما تقتَرب الملائكة مِنَّا، فهي تَملأنا بالمناظر الرُّوحية"، أي بالاستنارات والأفهام والتأمُّلات من كل نوع. أمَّا من عند الرُّوح الْقُدُس، المسجود له، فلا يوجد سوى نوع وَاحِد من الإعلان، لا يوجد إلا في حركات النفس. وأنواع الإعلانات المُختلفة التي تأتي من الرُّوح، إن كانت بِخصوص أفعال أو أمور، أو قوة الوَاحِدة والأخرى، سواء كانت تَخصّ الأمور الحسّية أو المعقولة، فهي تنشأ بدون صورة، ولا يُمكن إدراكُها إلا في السكوت، دون أن يكون هناك ما يُرَى أو يُسمَع. والنفس عندئذٍ تستضيء وتدرك ما تقبَّلته من أمورٍ مَخفية، بداخلها. وهذا هو إعلان فائق يتناسب مع الحالة الرُّوحية. وحينما يصل الإنسان إلى هذه المنزلة يكون قد أصبح إنساناً روحانياً.

[٩٣] الملكوت وجهنم ليسا مكافأة للصالِحين والأشرار، ولكنهما مكافأة للرغبات الإرادية.

[٩٤] عقاب الله لا يكون من أجل الانتقام من الخلائق، ولكن من أجل تقويم المُخطئين وكبح جِماح الآخرين. وحيث لا تكون هناك حاجة للعقاب والإدانة. لا يؤلِّم الله أحداً لكي يتلافَى الأفعال الرديئة، لأنه لا يُسرّ بِمعاقبة أحد سوى من أجل نُموِّه. فإذا كان يستخدم العقاب فذلك تَخوُّفاً من الميول الرديئة، ولكن إذا لَم يكن هناك مُبَرِّر لِهذا التخوُّف، فبالأَولى لا يكون هناك مُبَرِّر للعقاب. والمفسِّر المغبوط في كِتَابه عن الكهنوت يقول: "الله يستخدم معنا الشدائد لأننا في حاجةٍ إليها، ولأنَّها تلد المَخافة عند جَميع الناس". ثُمَّ يشرح لِماذا تكون هذه المَخافة نافعة، فيقول: "المَخافة نافعة ليقظتنا. والدليل على ذلك أنَّها تُرفَع عنَّا في العالَم المزمع، وتَملك المَحبة وحدها. لأنه حينما يرفع الله الخطية، يرفع أيضاً العقوبات، وإذا رُفعَت العقوبات، تُرفَع المَخافة أيضاً".

[٩٥] الفضيلة ليست وليدة العمل الجيِّد، ولكنها وليدة الرغبة الجيِّدة.

[٩٦] عندما لا تكون الرغبة مرتبطة بعملٍ جيِّد أو رديء، فلا تكون هناك مُجازاة، طالَما أنه لَم يُنسَب إليها أي عملٍ ظاهر.

[٩٧] إذا كانت الرغبة مُتَّجهة إلى شيءٍ ما، ولكن الإنسان، حسبما يرى، يُعدّ جسده لِعمل ما هو مضاد لَها، فيمكنه أن يفوز بِمكافأة خفية لا تتناسب مع العمل الخارجي. وإدراك هذا الأمر غير مستطاع لدى الإنسان. فحتى لو كان الجزاء يُمنَح لكل شخصٍ بِحسب عناء عمله، فهو لا يكون بِمقدوره أن يُميِّز ذلك. ولِهذا السبب، فكل عملٍ سواء من أجل ملكوت السماوات، أو من أجل جهنم، يبقَى مَخفياً داخل قلبه، ولا يتوافق دائماً مع ما يفعله في الخارج.

[٩٨] الأعمال الفاضلة شيءٌ، والبِرّ شيءٌ آخر. كم من مرَّةٍ قد يَحدث أن نعمل الأعمال الفاضلة بضميرٍ رديء؟ أمَّا البِرّ، فبعكس ذلك، هو رغبة تتوق دائماً أن تكون موافقة لِمشيئة الله.

[٩٩] العلم المستَمَد من الكتب أو المعرفة التي تُقتنَى بالدراسة هي شيءٌ، ومعرفة الحق الذي تَحتويه الكتب شيءٌ آخر. الأَولى تسندها الدراسات المُمتدَّة والاجتهاد في اتِّباع التعلُّم؛ أمَّا الثَّانِية فتقوم في النفس بِممارسة الوصايا الإلَهية وبعقلٍ مستنيرٍ متَّجه نحو الله.

[١٠٠] ثلاث معارف يُقال إنَّها أعلَى من الطهارة، جَميع حركات العقل في السيرة الرُّوحية تنحصر فيها: بالوَاحِدة يتدرَّب، وبالثَّانِية يكمل، وبالثَّالِثة يتكلَّل. اثنتان هما في حدود الطبيعة، والثَّالِثة هي فوق الطبع. الأَولى تُدعَى المعرفة الطبيعية الثَّانِية، والثَّانِية هي المعرفة الطبيعية الأَولى، والمعرفة الثَّالِثة التي يتكلَّل بِها العقل، هي معرفة الثالوث المسجود له بسرِّ الرُّوح بثباتٍ وتَحقيق.

المئة الرَّابعة

[١] منتهى التوبة هو مبدأ الطهارة؛ وكمال الطهارة هو مبدأ النقاوة. والطريق إلى الطهارة هو عمل الفضيلة، أمَّا النقاوة فتكون من فعل الاستعلانات.

[٢] الطهارة هي التعرِّي من الأوجاع. والنقاوة هي التعرِّي من الظنون واختلاف الضمائر والارتقاء إلى تَحقيق معرفة الأسرار.

[٣] الذي أحسنَّ وعرف الله، هو ذاك الذي في مَحبته، اتَّكل عليه من أجل منفعتنا. هذه الأمور هي هدف البَراهين الحسّية التي عن طريقها تعرض الأسفار الإلَهية لِحواسنا معرفة ما يُمكن معرفته عن العالَم غير الحسِّي؛ حتى ولو كانت هذه الحقائق لَم تُعرَف بِحسب مَنْ كانت تَخصّه، بل بِحسب ما قاله الله لِموسى: "أنا الرب. وأنا ظهرتُ لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأمَّا باسْمي يُهوه فلم أُعرَف عندهم". والفرق بين "الإله القادر" و "أهيه الذي أهيه" في سفر الخروج ٣:١٤ هو في أن الإعلان الأَوَّل قد وُجِّهَ إلى تلاميذ. والفرق نفسه يوجد أيضاً بين ما قيل لنا عن الله كَمعرفةٍ حقيقية بِهذا الشأن، وحقيقة هذه المعرفة الفعلية.

[٤] جَميع الأسئلة بِخصوص الله تكفّ في مواجهته، حينما تبلغ إليه بالحق وبوضوحٍ تامّ، والعقل وحده يقف أمَّامه ويعرفه منذ الآن أنه "الأبدي" الذي حقيقة جوهره لَم ترتسم في العقل بأي شكلٍ. هذا باستثناء أن الله منذ الآن هو معروفٌ لدى الطبائع غير المتجسدة التي كانت موجودة من قبل في منزلة العقل الفائقة.

[٥] بين الأمور التي بواسطتها يُعرَف الله الآن في الطبيعة، ليس هناك ما كان موجوداً معه منذ الأزل بدون بداية، ولا ما يبقَى معه إلى الأبد مثله بلا نهاية.

[٦] إن كان بِمساعدة الأمور التي هي بطبيعتها دلائل رمزية (عن الله) قَبِلَتْها الطبيعة في الزمن، يُمكننا أن نقبل نحن "الذاتي" الذي لا ينحصر في الزمن، فبناءً عليه ينبغي أن نؤسِّس هذيذنا بِحيث لا نَجعل أبداً هذه الأمور وسائط نرتقي عن طريقها إلى ذاك الذي حقيقته تُعرَف بدون وسائط.

[٧] يقول الآباء إن كمال حركات العقل هو أن يدوم ثابتاً في المنزلة الثَّانِية في الوقت الذي يكتشف فيه، وهو على طريق الطهارة، ما يَختصّ بدرجة الأمور المنقولة. هذه الحركات، مع ذلك، ليست هي إكليل مسيرة العقل. فما هو أدنَى من هذه القمَّة يَختصّ أيضاً بدرجة الأمور (أو الحقائق) المنقولة واللقاءات الأَولى: فهي هناك مثل معلِّمين يُعلِّمون تلاميذَ.

[٨] الكمال ليس هو قمَّة العقل النقي، بل ثبات تطلُّعه نحو ذلك الكمال.

[٩] يقول الآباء إن الكمال وكل ما يسبقه يَخصّ سيرة الطبيعة؛ وهو يتأثَّر أيضاً بِما يكتشفه داخل حدود النقاوة.

[١٠] جَميع الأمور التي يتقدَّم العقل عن طريقها تدريجياً، ويصبح منجذباً نحو تكميل حركاته، تُبتَلَع بالقرب من الوسيط (يسوع) عندما يبلغ إلى الاستعلان الذي تنتهي عنده الأسرار. وهو لا يعود يَحتفظ بأي تذكارٍ، كما لو كانت تلك الأمور لَم توجد أبداً. وهذا النمط من التصرُّف يدوم بدون نهاية في التَدْبِير المزمع.

[١١] الحسّ الرُّوحاني بتأمُّل الطبائع المتجسِّدة وغير المتجسِّدة هو طبيعي للعقل الناطق حسب قول الآباء. والعقل، بِحسب قولِهم، إذا ما هدس في الطبائع المتجسِّدة فهو يقوم بتكميل حركاته الطبيعية. وإذا ما أراد أن يتعمَّق فهمها الرُّوحي فهو يبلغ إلى ما هو أعلَى من ذلك الكمال. لأن الشيء الذي يصل إلى معرفته هنا يُدعَى موهبة أعلَى من الطبيعة.

[١٢] كثيرون يظنّون أن التَدْبِير الرُّوحاني يتضمَّن عدداً كبيراً من الأفكار بِخصوص كافة أنواع الأمور، والنظريات الجميلة، والتصوُّرات المبدعة، أو أي اعتبارات حول هذا الموضوع أو ذاك. وآخرون يظنّون أنه يشتمل على التفكير في بعض المعتقدات، وآخرون أيضاً، أنه يَجمع بعض المناظر الظاهرة للعين، ثُمَّ آخرون يقولون إنه امتلاك الحكمة بعقلٍ ثاقب. وهم يَجهلون أنه ليس شيئاً من كل هذا على الإطلاق، لا الأفكار ولا التصوُّرات ولا النظريات ولا المُدركات ولا الأفهام ولا المناظر. وتجد آخرين يُفكِّرون أنه يتضمَّن الفرح المتواضع الذي يَملك عليهم، بعد هدوء الأوجاع وسكوتِها وقتاً ما، بفعل إيمانٍ حارٍّ، أو بالهذيذ في الأسفار المقدَّسة، ويتخيَّلون أنَّهم قد بلغوا إلى التَدْبِير الرُّوحي. ولَم يأخذوا بعين الاعتبار أن كل هذه الأمور وما يُشبهها هي بالمقارنة بالتَدْبِير الرُّوحاني، تُماثل الطفل الذي لَم يتعلَّم النطق بالمقارنة بالبالغ القادر على الفحص وتعلُّم المعرفة ودراسة الكِتَاب المقدَّس. آخرون كذلك ظنّوا أنَّهم يقتنون التَدْبِير الرُّوحي بالصَلَوَات المتواترة والأعمال الكثيرة التي يُمارسونها؛ وآخرون بسبب علأمَّات وأعاجيب تَحصل على أيديهم؛ وآخرون من أجل سبق معرفتهم لأمورٍ مستقبلة وموهبة النبوّة؛ وآخرون بسبب المناظر وملاقاة الملائكة مواجهةً. وجَميع هذه الأمور، مع كونِها عظيمة وعجيبة، ولو أن أحداً لَم يَحصل عليها سوى من قِبَل الله ويستحق بذلك أن يُدعَى مغبوطاً – جَميع هذه الأمور، مع ذلك، لا توازن سوى النذر اليسير من ثقل العظمة الحقيقية، وأقل بكثير من قدر التَدْبِير الرُّوحي. والذين حصلوا عليها هم بعيدون إلى أقصَى حدٍّ من المرتبة الرُّوحانية. وجَميعهم لا يَحسّون بالمرَّة بِحقيقة التَدْبِير الرُّوحي. لكن الذي قد وُجد أهلاً لِهذا التَدْبِير، هو بلا أدنَى شكٍّ، يَمتلك جَميع هذه الأمور السابقة.

[١٣] التَدْبِير الرُّوحاني يكون بالدخول في الدهش مقابل الأسرار. ولا يتعلَّمه أحد لا من الناس ولا من الملائكة، ولكنه يُشرق في النفس بفعل الرُّوح الْقُدُس، بعد تكميل الوصايا، بتوسُّط الأفهام التي تَختصّ بالأسرار الإلَهية التي تتدفَّق في العقل.

[١٤] الحقيقة إنه حينما يتحوَّل الإنسان عن خطايا الفعل، ويغلب الإيحاءات الشريرة بالأفكار التي تستحثّه على طردها، وحينما يتطهَّر من التذكارات التي تُساندها، يبدأ العقل بعد ذلك في استدعاء الحركات بِخصوص الأمور الخفية. ثُمَّ ينتقل إلى الأفهام المتعلِّقة بالعالَم

المادِّي، ويرتفع إلى ما هو أعلَى من الهذيذ بالكائنات الرُّوحية التي تشتَرك في طبيعته، ويدركه الذهول أمَّام الله، ليس فقط بسبب أعماله العجيبة معنا، بل بسبب طبيعته، في ذلك السكون الكامل الذي يَحلّ في ذلك الوقت عليه. هنا الكمال الذي يقتنيه القديسون في هذا العالَم الحاضر، والذي – كما يقول الآباء – هو جزءٌ صغيرٌ من مذاقة ما سوف يتقبَّلونه أخيراً. وهو، بالحقيقة، يتضمَّن استعلانات عن مَجد العالَم الجديد، الذي تَحظَى فيه الطبيعة الناطقة بِهذه الأفراح بعد القيامة.

[١٥] التَدْبِير الرُّوحاني لا توجد فيه أتعاب ولا حروب ولا ضنك جسد ولا مُجاهدة مع الأفكار. كما ولا يوجد فيه هذيذ، ولا مُمارسة التفكير، ولا انشغال بشأنِها. ذلك لأن هذا التَدْبِير لا يعتمد على الإرادة، ولا على أي تفكيرٍ تسنده حركات النفس. فكل تَدْبِير يعتمد على قدرة الإرادة فيه حروب ويتطلب تعب الجسد وعناء الضمير. وأكثر المتوحدين يسيرون بِهذَيْن التَدْبِيريْن: عمل الفضيلة وتَدْبِير سيرة العقل الخفية، ويعتمدان على قوة الإرادة، وفيهما تعبٌ وجهادٌ، وهما ينحصران في الهذيذ والاهتمام البشري. أمَّا الحركة الرُّوحانية فلا تعتمد على حرية الإنسان، وعملها لا يُقتنَى بالتعليم أو التلقين من آخر. لأن كثيرين ظنّوها كذلك، فضلُّوا معتقدين أن المواظبة على التعليم والدربة وإرادة النفس يكفيان للوصول للتَدْبِير الرُّوحاني. فلو كان مُمكناً إدراك ذلك عن طريق التعليم والجهاد والإرادة، لكان جَميع المتوحدين الذين تحت السماء قد اقتنوا التَدْبِير الرُّوحي. لكن هذه المرتبة لا توجد إلا بنقاوة القلب، وهذه تُقتنَى بالابتعاد الكامل عن العالَم، بالجسد كما بالضمير. بين كل عشرة آلاف متوحد بالكاد تجد وَاحِداً في هذه الحياة صار مؤهَّلاً للتَدْبِير الرُّوحاني.

[١٦] وآخرون كثيرون التقطوا جُملاً قصيرة من كِتَابات أشخاصٍ قديسين وحفظوها، وأمعنوا النظر في أحاديثهم بِهذا الخصوص، وظنّوا أنَّهم بِهذا قد وصلوا بالفعل إلى التَدْبِير الرُّوحاني ولَم يُدركوا أو يُفكِّروا أنه ليس بالأقوال الباهرة، ولا بالتدريب، ولا بأي تعليمٍ يُمكن أن تُعرَف حقيقة هذا العمل عند الناس. فأسرار الله لا نتعلَّمها من الحِبْر والكلمات، ولكنها تُغرَس في القلب بواسطته، بالأفهام المذهلة على عظمته التي تنبع في أعماق العقل النقي.

[١٧] جَميع الذين اطَّلعوا على المواعيد سواء بالسماع أو من مادة الكتب، وحصلت حواسهم على معرفةٍ بالأسرار المزمعة لا يُمكنهم أن يدركوا أي تصوُّرٍ للعالَم الجديد سوى بواسطة أمورٍ حسِّية. فحتى لو كانوا متبحِّرين جداً، متوقِّدي الذهن، وحاذِقين بالرُّوح، فإنَّهم لا يقدرون أن يقتنوا أية معرفة بِها، إلا إذا كان ذلك بإعلانٍ من الرُّوح الْقُدُس.

[١٨] وقد كتب بولس المغبوط الكثير عن هذه الحقائق الرُّوحية، ولكن ما لَم يكن للإنسان شركة في الرُّوح الْقُدُس، فهو لا يستطيع، من هذه الأحرف وحدها، أن يَحسّ بِمذاقتها.

[١٩] فليكن مَحسوباً عندك مستحقاً لله ذلك الذي يُكمِّل أمور الله وأعمالَها بِحزنٍ؛ ولكنه أكثَر استحقاقاً ذلك الذي يُكمِّلها بفرحٍ بدون أي حزنٍ. ومع ذلك، فحتى ولو كان يوجد مُمتلكاً لذلك الفرح، فعليه أن يُسلِّم نفسه للطاعة.

[٢٠] أي تَدْبِير فاضلٍ باتجاه الكمال بدون أتعاب، عند المدعو ناسكاً عمَّالاً وحكيماً من أجل الله، يُحسَب من نصيب الشيطان: فهو يُرفَض ويُحتقَر عند الله. ينبغي له، على الأقل، ألا يتوقَّع أن يبلغ الكمال دون أن يتعب على قدر استطاعته، سواء كان في عمل العقل أو أعمال الجسد منذ أن يبدأ مسيرته. فلا ينبغي له إذاً حين يتعرَّض لأمورٍ أليمة أن يُفكِّر: "يا إلَهي!"، أن يبدأ العمل، فيما بعد، على وجهٍ صحيحٍ. اِعلَمْ هذا، أنه بقدر ما تقوم أنتَ بعمله شخصياً وبدون وساطةٍ، هكذا تنشط الفعاليات الأخرى التي تكون بتوسُّط الأمور أو الأشخاص.

[٢١] اِحتَرسْ أيضاً من إيعاز إبليس الذي، في الوقت الذي ينبغي لكَ فيه أن تنتظر الخيرات المزمعة، يُعلِّمك الحَماقات ويُشير إلى العقبات التي تعتَرض طريق المعرفة القويمة، ويضع أمَّامك أموراً أخرى غريبة تماماً عن حكمة العناية الإلَهية.

[٢٢] الذي لا يقبل انحلال الأعضاء والملل والضجر في وقت الخدمة، والاختناق والظلام المُحزن وبقية أحزان القلاية، ويفرح بِحمل صعوبتها كمثل عملٍ تامٍّ قدَّام الله، بل يريد الانفراج والرَّاحَة منها تماماً، هذا من غير أن يشاء يُسلَّم ليد شيطان الزنَى، وعوض ذبيحة جسده الزكية التي يُقرِّبها بتلك الأتعاب إلى الله كل يومٍ، يذبح للشيطان ذبيحة دنسة من أعضائه.

[٢٣] صدِّقني، يا أخي، إن الضجر والملل وثقل الأعضاء والسجس وتكدُّر الضمير وبقية المُحزنات الحادثة على النُسَّاك في الجلوس الفريدي هي عمل الله التامّ. ولا تظنّ أن الاستضاءة في الخدمة ونقاوة الضمير والتنعُّم وسرور القلب والعزاء الذي من الدموع الحلوة والهذيذ النقي مع الله، لا تظنّ أنَّها هي فقط العمل الإلَهي. بالحق حسب رأيي أقول: حتى وفكر التجديف والمَجد الباطل وحركات الزنا السمجة التي تَحدث بتغصُّبٍ على الرَّاهِبُ في سكون القلاية، وتألُّمه من أجلها، ولو أنه قد يوجد مغلوباً في وقتٍ ما قدَّامها، فيصبِر ولا يَخرج من قلايته؛ أقول إنه حتى هذه تُحسَب له ذبيحة نقية وعملاً إلَهياً، ما خلا العظمة فقط. لأنه تَجلَّد في جهاد الرب وصَبِرَ على اليمينيات واليساريات التي عُرِضَتْ له، إذا لَم يكن حدوثُها بسبب انحلاله وتَهاونه، بل بنوع القتال فقط، هذا إذا لَم ينغلب ويَخرج من مصاف المعركة، الذي هو الجلوس الفريدي بتجلُّدٍ. فإذا كانت هذه المُحاربات المُختلفة التي ترافق تَدْبِير المتوحد بطول الطريق تبدو لكَ أنَّها تتجاوز الحدَّ بالنظر إلى عمل الله، فكيف تتجاسر على انتظار العمل المُفرح، إذا كنتَ عند الضرورة لا تعتبِر الأتعاب التي من أجله كأنَّها لا شيء؟

[٢٤] إن تَهاون المتوحِّد من غير ضرورة مُلِّحة أو فعلٍ أو سببٍ ما بِخدمة السَبْعةَ أوقات الموضوعة كقانون لازم لِخلاص المُجاهدين مع الشياطين، ويقول لكَ إنه قد تَخلَّص من الخضوع لِروح الزنا، ولو أنه شيخٌ وله مدَّة كثيرة في هذه السيرة، أمَّا بالفعل أو بالفكر عن تَحقيق وبغير شكٍّ، فاعلَمْ أنه يَخدعك ويتحيَّل أن يُخفِي ويَستُر خجلتَه ويُبعد الإحساس من النفس لكي لا يترك عنه النياحات ويَخضع لقانون ألَم الجسد.

[٢٥] هناك فِعل من الله يُصاحب العمل النقي الذي للمتوحِّد، ومن وقتٍ لآخر يُظلِّل عليه وسط سكون القلاية، ويَحلّ في قلبه فجأةً ودون أن يعرف السبب، ابتهاجٌ يفوق الوصف، ويَحجب عنه في ذلك الوقت جَميع أفكاره المعتادة. بعض الآباء يدعون مثل تلك اللحظات "الموضع الصافي"؛ وآخرون "جو الحرية"؛ وآخرون أيضاً يتكلَّمون عن "موضع النقاوة الطبيعية"، ذلك لأن الشخص يكون كَمَنْ قد وُجِدَ في العالَم الجديد، نشوان بالله في كل ما يقوم به. والبعض يَمكثون في مثل هذه الأفراح والهدوء من المُحاربات خلال أيامٍ كثيرةٍ، لستة أيام أو سَبْعةً. ثُمَّ تعود هذه الموهبة لتختفي مرَّةً أخرى، ويوجد في ظلمات، ولكن بعد بضعة أيام يَحدث نفس الشيء، ويَمتليء مرَّةً أخرى من الفرح. وفي كل مرَّةٍ يُمسَك فيها المتوحِّد في هذا التنعُّم، لا يكون تحت ناموس أو خدمة أوقات، ولا صَلَوَات ولا تلاوة، ولا أي قانون موضوع لسائر الخلائق، لأن مثل هذه النعمة لا تأتيه بإرادته. ولكن متى ترك هذا الموضع، إن كان يستهين في ذلك الوقت بالقوانين، أو بالمُمارسات الموضوعة لتَدْبِير المتوحِّدين، فيما عدا ما تلزمه به الضرورة، أو بسبب مرضٍ، يُسلَّم لأيدي الشياطين؛ فحتى ولو كانت سيرته متشبِّهة بالملائكة، يَحدث هذا، ربَّما ليس سريعاً، ولكن مؤكَّداً لفترةٍ وجيزة.

[٢٦] إذا فكَّر أحدٌ أن الكآبة والظلمات واضطراب الضمير، التي ترافق العمل الفاضل بتَدْبِير من الرُّوح الْقُدُس، لا تُشكِّل جزءاً من الطريق بل تُعتبَر انحرافاً عنه، ويقول لكَ إنه لا يوجد سوى طريق وَاحِد طافح بالفرح دون توقُّفٍ، اِعلَمْ أنه يُخرِجك عن طريق الله ويريد أن يُسلِّمك لغشّ الشياطين.

[٢٧] آلام الجسد هي: الغضب والشهوة ومَحبة المفاوضة والحديث الباطل وما شابه ذلك، وهي تَهدأ بالصَّوْم وخدمة الأوقات والجلوس المنفرد بغير طياشة. وآلام النفس هي: الطياشة وعدم المعرفة والحسد والمَجد الفارغ والعظمة وما تبقَّى، وهي تبطُل بالصلاة والقراءة والمعرفة المتولِّدة منها. والذي يريد أن يُسكِت آلام الجسد أو يُنقِّي العقل، بغير ذلك، إنَّما يُشقِي نفسه باطلاً. لأنه بِهذه المُمارسات، حتى الأوهام الباطلة التي تَختصّ بأمور العالَم، والتي من عادتِها أن تُورِّث الظلمات في العقل، تتوقَّف.

[٢٨] الجسد المنفرد يلد عقلاً منفرداً؛ وما يَختلط بالجسد يَختلط أيضاً بالعقل.

[٢٩] كما أنَّ أي وعاءٍ لا يتنظَّف من الأوساخ إن لَم يُغسَل جيِّداً بالمنظفات المناسبة، هكذا فإن القلب لا يتنقَّى من الأوجاع إن لَم يتألَّم الجسد ويُدعَك بالسكون.

[٣٠] هناك تَدْبِير يُقدِّمك بسرعةٍ في الطريق ويُعلِّمك الاتضاع والمعرفة؛ ويَجعلك تُحب الله بزيادة، وتكون من خاصّته وأحبائه. وهناك تَدْبِير آخر، وإن كان يبدو لكَ أنه ذو فوائد كثيرة، إلا أنه يقودك في مسارٍ دائري خارجاً عن الطريق؛ ويعرض عليك مسيرة طويلة، وإذا عرض لكَ أي مَخرجٍ منه يَمنعك من رؤيته ويَجعلك تدور حوله. في هذَيْن النوعَيْن من التَدْبِير ينطلق جَميع السائرين نحو الرب الوَاحِد، ولكن ليس الجَميع يرون الطريق المُختصَر الذي يقود إليه. ليفهم القاريء!

[٣١] ليس شيءٌ مَحبوبٌ عند الله ومُكرَّمٌ في أعين الملائكة؛ وقاهرٌ للشياطين ومُرعبٌ للجن ويَهزم الخطية ومُفيضٌ للمعرفة وجاذبٌ للرحْمة ويستأصل الخطايا ويُقنِي الاتضاع ويُحكِّم القلب ويَجلب التعزيات، ويتجدَّد به العقل، كمثل أن يوجد المتوحد على الدوام جاثياً على الأرض أمَّام الله في الصلاة. هذا هو ميناء التوبة الذي تُصَوَّب إليه جَميع أفكار الندم والدموع. وهو كنْز الغفران وغسل القلب ومنهج النقاوة وطريق الاستعلانات وسُلَّم العقل. هذا يَجعل العقل شبه الله ويَختلج دائماً بأفكار المزمعات. هذا لديون إهْمال وقتٍ طويلٍ يفي في وقتٍ قصير، وأنواع أعمال مُختلفة تُوجَد داخل حدوده. ليس شيءٌ أيضاً أعظَم من مداومة المَزَامِير بزيٍّ عفيف. وإن كان يغفل عنها قليلاً من أجل أنه (أي الرَّاهِبُ) قد ابتُلِعَ بشهوة هذا السجود، فإنه لا يُحسَب كَمتهاون بل كَمَنْ قد ارتفع إلى حالةٍ أفضَل وعملٍ أعظم يدنو بِهما إلى الله ويتداخل أكثَر ويكون قد استحق موهبة. ولكنه يكون مستحقاً لكل لومٍ مَنْ يَحتقر المَزَامِير، إذا توقَّف عنها بسبب الكبرياء، أو كان قد نبذها مثل جَماعة المُهرطقين المصلِّين، أو تركها بسبب التَراخي. ولكنه إذا أدرج بعض الآيات ضمن هذا النوع المتضع من الصلاة الذي هو الميطانيات المتواصلة، فهذا يُكمِّل تعب المَزَامِير، ولا يُعتبَر توقُّفاً على الإطلاق. ومثل هذه المُمارسة تسحق أيضاً الجسد، وتُثقِّف العقل بالحكمة في الحقائق الجديدة، بفضل ما يَمنحه له الرُّوح الْقُدُس من مواهب، ويَجعله مُقدَّساً بكل أنواع التقديسات. إنَّ تعب السجود يُشكِّل جزءاً من العمل، ذلك لأن التعزية تكون في ذلك الوقت، بالتأكيد، مُهيَّأة للتدفُّق. وهي تَجعل الأتعاب خفيفة وحلوة كالعسل وشهد العسل عند الذين يصبِرون عليها. والذي أحسَّ قليلاً بِهذه الحلاوة المَخفية في الأتعاب، يكون حَمْل الصليب أيضاً لذيذاً عنده، من أجلها.

[٣٢] نقاوة الصلاة هي صمتٌ عن مفاوضة الأفكار بِخصوص الأمور الجسدانية، وحركة لا تنقطع بالأمور التي تَجلب البهجة للنفس.

[٣٣] نقاوة القلب هي معرفة نقية بدون حروب، تفيض تلقائياً وباستمرار، بِحقائق خفية، بينما تُمحِي تذكارات ما تركته الأمور الجسدانية في العقل.

[٣٤] لا تشتهِ أن لا تصلِّي إلا عندما تتنقَّى من طياشة الأفكار، بل اِعلَمْ أن من مداومتك على الصلاة وكثرة التعب فيها تبطل الطياشة وتنقطع من القلب. فإن كنتَ لا تصلِّي إلا إذا ارتفع الفكر تماماً من تذكار هذا العالَم، وإذا نظرته هكذا عندئذٍ تبدأ في الصلاة، فإنك لن تصلِّي إلى الأبد. لأن انقباض الفكر من الطياشة إنَّما يكون من الصلاة. والحقيقة أنه قد يَهدأ الفكر وقتاً ما ويَجتمع إلى ذاته من الصلاة، وهذا الأمر يعرض للذين يداومون الصلاة مدَّةً طويلة من الزمان، فيجدون من أنفسهم هذا الاحتراس الحقيقي بعد جهدٍ، ولكن لوقتٍ قليل وليس في كل وقت. لأن هذا الأمر يَحدث أحياناً بسبب مداومة الصلاة. ولا سَمعنا قط أنه ما ينبغي أن نصلي إلا إذا ارتفع الفكر تماماً من أشكال الأمور الحاضرة وعندئذٍ نسجد ونصلِّي. والذي يَخرف بكلامٍ مثل هذا إنَّما يطلب الكمال قبل البدء في العمل. فلو كان في استطاعته أن يبلغ إلى سكون العقل في مأمنٍ من الطياشة في أمور العالَم وتذكاراتِها، فلن يكون بِحاجةٍ بعد إلى الصلاة، لأن العقل

يكون قد أصبح كاملاً واتصل بالله وصار الله فيه. فأنتَ أيُّها السائر قبالة وجهه، إن كنتَ تريد أن تكون منقبض الفكر من وقتٍ لآخر فقط، فبئس ما ترى؛ لأن الشيء الذي يُمكن دوامه أنتَ تطلبه جزئياً. وإن كنتَ تريده على الدوام ههنا، فاعلَمْ أنك تطلب الكمال المزمع وأنتَ على الأرض، من غير عملٍ، كبدعة المصلِّين[١٢١].

[٣٥] إنه في مقدورنا أن لا نوافق الأشياء التي تتشكَّل للعقل عندما نصلِّي، أمَّا أن يَمكث الفكر في الصمت مبتعداً من كل ما يظهر له ومتعالياً عن كل شكلٍ وجهادٍ، فهذا ليس في قوة الطبيعة. فإن كنتَ تريد أن تنقبض من طياشة الأفكار وتَجد فسحة للصلاة بعقلك، اِجْمَعْ ذاتك وابتعد من الأمور المادية، ومن الاهتمام بالأشياء، ومن الطموح والطياشة بالحواس؛ لأنه كلما نقصت هذه الأشياء وجدتَ للصلاة الطاهرة موضعاً وفسحة من الطياشة. وهذا الهدوء يُمكن أن يَحصل جزئياً وليس على الدوام؛ ولكنك حين تُمارسه بدون تراخٍ، فيمكنك حينئذٍ أن تَحظَى بقليلٍ من الرَّاحَة. وفي هذا المَجال، نحن لا نُدان لأجل تَحرُّك الأشكال والأفكار فينا، بل نَجد نعمة إذا لَم نوافقها وقاتلنا معها. ولكننا نُدان إذا كُنَّا نوافقها ونعطيها موضعاً فينا، أو لِمُجرَّد التباطؤ قدَّامَها بدلاً من أن نبادر بطردها عَنَّا.

[٣٦] ولستُ أعني بقولي هذا أن نعطي للطياشة فسحةً فينا، جَهلاً منِّي بكل ما تَجلبه علينا من أضرار، ولكن لكي أدعوكَ أن لا تكفّ عن الصلاة بسببها. وكذلك ليس لأننا لسنا مستحقين أو جياداً، نتوقَّف عن التوسُّل. بل بالعكس، إذ نتضع عندما نتحقَّق من ضعف طبيعتنا، ومن أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً بقدراتنا الخاصَّة، فلنحزن، ورغم مثل هذه الضعفات نُقدِّم كل حين صَلَوَاتنا إلى القدير، مُعتَرفين ببكاءٍ كثيرٍ مع الفتية الثلاثة في الأتون، وكانوا أطهاراً – بينما نحن مذنبون – نقول معهم: "لقد أخطأنا وصنعنا الشرَّ أمَّامك... لكَ يا سيد البِرُّ، أمَّا لنا فخزي الوجوه... والآن ليس لنا أن نفتح أفواهنا أمَّامك بسبب خزينا وعارنا من خطايانا[١٢٢]". ولنصرخ نحن النجسين، مع إرميا النبي، ونقول: "أنتَ يا رب إلى الأبد تَجلس. كرسيك إلى دورٍ فدورٍ. لا تنسانا إلى الأبد ولا تتركنا طول الأيام. أرددنا يا رب إليك فنرتدَّ[١٢٣]". وإذ نعود إلى الحياة، نصلِّي؛ أو نكون مضنوكين، نصلِّي؛ أو أطهاراً، نصلِّي؛ أو مذنبين، نصلِّي؛ جروحنا دامية، نُصلِّي؛ مطروحين على الأرض، نصلِّي؛ الرب يعبُر عَنَّا، نصلِّي؛ أو كُنَّا في ظلماتٍ، نصلِّي. فلا ينبغي لنا، بأي حالٍ، أن نتوقَّف عن التضرُّع بِحجة أننا غير مستحقِّين أو غير لائقين للصلاة. لأن رَبَّنَا قال: "لا يَحتاج الأصحّاء إلى طبيب، بل المرضى". إننا لا ننتظر حتى نكون أصحّاء لكي نذهب إلى الطبيب، ولكننا لأننا مرضى، فلنسرع بالأحرى لنسعى إليه، ونعرض نفوسنا عليه بالصلاة. فلو كُنَّا نعاني من التشتُّت، أو من السقوط، أو كُنَّا مرضى بأي نوعٍ، فلنكشف كل هذا أمَّام الله في الصلاة. إذا أوقفنا الصلاة، فإننا بذلك نكون كَمَنْ يفسح

---

(١) هم جَماعة من الجهلة المتكبِّرين الذين يقولون عن أنفسهم إنَّهم متى شاءوا يُمكنهم أن يُصلّوا "الصلاة الروحية".

(٢) دا ٣:٢٩ ؛ ٣:٣٣ ؛ ٩:٢٧ سبعينية.

(٣) مراثي ٥:١٩-٢١ .

المَجال للخضوع لِمَنْ يريد هزيمتنا. والحقيقة، إنه طالَما كُنَّا نطلب معونة الله، فإننا نُظهِر بذلك أننا لسنا متكاسلين، وأن إرادتنا مُوجَّهة تماماً إلى تَحقيق كل ما يَخصُّه.

[٣٧] خفة أو صعوبة الجزاء لا تتبع عدد وثقل الخطايا فقط، بل بالأكثَر مقدار معرفة ذلك الذي يُخطيء؛ كما أنَّها تتناسب مع طباعه ومع الأسباب والظروف. فالشخص يُدان بِحسب ثقل معرفته أكثَر مِمَّا بسبب عدد وثقل الأعمال التي فعلها.

[٣٨] ليس شيءٌ مَحبوباً لدى الله، وليست طلبة تُستجاب سريعاً، مثل طلب الصفح عن الخطايا والحصول على القوة والمعونة للإقلاع عنها. مثل هذه الطلبة تعفي بسهولة من الوقوع تحت الدينونة، حتى ولو كانت بِخصوص خطايا ثقيلة. فذاك الذي يَهتم بتقويمنا يُرحِّب، بلا أدنَى شكٍّ، بِمثل تلك الطلبة. أمَّا إذا كان مَنْ يطلب الغفران لا يُضيف طلب تقويمه، فطلبة مثل هذا لا تَجد قبولاً، ولا تعفي من الدينونة. فحتى لو كان يُكثِر الصَلَوَات، فهي لا تُستجاب لكي لا تقود الآخرين إلى التمثُّل به.

[٣٩] كل عقابٍ أو إجراءٍ قهري للإدانة بغية تقويم شخصٍ ما، هو مَملوء بالفخاخ ولا يُوصِّل إلى أي تغيير. وإن وُجِدَ تغيير، فهو يكون إلى أسوأ، وليس باتجاه التقويم. أمَّا إذا كان العقاب هو للتشجيع والتقويم في نفس الوقت، وكان يتميَّز بطابع الرحْمة واقتَرن الألَم فيه بالتعزية، مثل هذا العقاب يكون صعباً ومُعتدلاً بآنٍ وَاحِد، في حين أنه في الحالة الأَولى لا يعرف سوى أسلوبٍ وَاحِد للعمل، مُفعَم بالقسوة. وعلى هذا النمط نفهم الجهادات الخفية. فأحياناً تقمعنا وأحياناً أخرى تُعزِّينا، وتضعنا يوماً في المشقة، ويوماً آخر في الرَّاحَة. وعلى مَنْ يَجد نفسه في هذا الحال أن يعرف أنه يسير في طريقٍ عادي تماماً يشتمل على التأديب والتعليم بآنٍ وَاحِد. لأن الطريق الذي لا توجد فيه سوى المِحن والبلايا، دون أي رجاء في التغيير، يكون علامةً على تَخلية الله. ولا أتكلَّم هنا على القتالات التي تَحصل من الرخاوة، ولا عن الحزن الناتج عن الإهْمال، إذا جاز أن تُدعَى مثل هذه أيضاً قتالات. ولكني أتكلَّم عن النسَّاك المتيقِّظين، الذين يثبتون في سيرة فاضلة، ويَحرسون حواسَّهم وأفكارَهم بكل اهتمامٍ، فهؤلاء هم الذين تُعرَض لَهم القتالات بتَدْبِير من الله. وثِمَة مِحن أخرى تُعرَض من العقل الجاهِل المظلم المستسلم للكآبة والحزن. وأمثال هذه المِحن لا تنتهي عند مَنْ ينقصه الصبْر. أمَّا العقل الحكيم، فيعرف أن يبتعد عنها بالتواضع والشكر، وبالطاعة لِمشورة أناسٍ عارفين قد اقتنوا خِبْرة بِهذه القتالات، حتى ولو كانوا، بالمقارنة بآخرين، يبدون كبسطاء يُعوزهم التبحُر في العلم والمنطق في القول.

[٤٠] المعرفة التي تُقتنَى من القتالات شيءٌ، وتلك التي تُقتنَى من التعلُّم ومن فطنة العقل شيءٌ آخر. لأن المعرفة بِما يَخصّ القتالات تَحتاج إلى خبْرة. كم من مرَّةٍ يتعرَّض الذين حصلوا على معرفتها من العقل والحكمة للاضطراب حينما يواجهون التجارب. أمَّا البسطاء وغير المثقَّفين في أمور المعرفة فيمتلكون خبْرتَها بِممارسة أعمالِهم.

[٤١] كما أنه يستحيل تعلُّم تصويب السهام وسط الجموع وفي الأسواق، بل يكون ذلك في موضعٍ خلاء ومناسب لِمسيرة الخيول وإطلاق السهام حيث يُمكن الجري دون عوائق نحو الهدف المُحدَّد. هكذا ليس في إمكان أي شخصٍ أن يتعلَّم فنون القتالات الرُّوحية والجري بِمهارةٍ نحو الهدف الإلَهي، ولا دقة تصويب الأفكار وحكمة الملاحة الرُّوحية عبْر ذلك البحر المُخيف، ما لَم يقتَنِ معرفةً بأصولِها وحيلِها الكثيرة، بالإقامة في سكونٍ دائمٍ مبتعداً عن كل ما يشغل العقل أو يُعطِّله عن التضرُّع المستمر. والذي لا يسلك هكذا، يسقط.

[٤٢] كل جهاد سيرة السكون هذه يوجد في ثلاث منازل: منزلة البداية، ومنزلة الوسط، ومنزلة الكمال. الأَولى يُصاحبها الخوف والحزن والكآبة بسبب ذكر ما تقدَّم من الإنسان من خطايا، وخوف مِمَّا يُوجَب عليه في الدينونة بالعدل. والثَّانِية تتميَّز بتشجيعاتٍ وتعزياتٍ متنوعة، لأنه بواسطتها يقتَرب التائب الحكيم من عطايا الله، بواسطة الطهارة التي تُقتنَى بالدموع والتوبة.

[٤٣] والتائب الحكيم، بدوام سكونه ونسكه التَعِب وهذيذه بِخطاياه التي تضغطه بالحزن وتُؤلِمه، إذ إنه في العادة يلزق به ههنا بكاءٌ مديد، إذا ما أكمل هذه المنزلة بالأعمال المتواترة، واختلاف أنواع التوبة بِمعونة المسيح رجاء حياتنا، وبدأ يَمتدّ إلى المنزلة الثَّانِية، يتحوَّل غرض توبته إلى فرحٍ بغير إرادته، إلا أنه يَحتَرس ويَخاف لئلا تكون ضلالة.

[٤٤] وعلامة وصوله إلى هذه المنزلة الثَّانِية هي أن يبدأ الرجاء يتحرَّك في الضمير بفعل التوبة، ويبدأ أن يَمتَزج فيه العزاء تدريجياً، وتنهض داخله من وقتٍ لآخر أفهامٌ مفرحةٌ، ويجد أنه أصبح قادراً الآن أن يَجمع فكره من الطياشة بسهولة. ويَحصل هذا حينما يكون قد تداخل في المنزلة تماماً؛ أنه يُبدِّل هذيذ العادة بِهذيذٍ آخر، له زِيّ من نوعٍ آخر لا يُشبهه، وأمور أخرى تَحلّ في العقل ليست لِهذه الطبيعة. ويبدأ أن يلاحظ الأفهام السرِّية المَخفية في المَزَامِير، وفي القراءة، وفي بقية الأفعال المَحسوسة، وفي تأمُّل أتعاب عمله. ويبدأ الفرح يَمتَزج بعمل سيرته، إن كان بالصَّوْم أو في خدمة الأوقات وبقية أعماله. وحالَما يبدأ الصلاة تنقبض الحواس من غير الإرادة، وتبتديء الأفكار في الانجماع من الطياشة إذ يكون العقل قد أحسَّ بالهدوء أعلَى من كل القتالات. ويرى أن سفينة فكره تسير بنقاوةٍ، بواسطة ترتيب الصلاة والفضائل، وتتقدَّم إلى الأمَّام يوماً بعد يومٍ. هذه الأشياء مع أمورٍ أخرى أعظَمَ منها، تلزق بِهذه المنزلة الوسطَى، إلى أن يرتفع الإنسان بِموهبة رحْمة المسيح، إلى تَدْبِير السيرة التي هي أعلَى من الطبع البشري.

[٤٥] طالَما أنتَ في المنزلة الأَولى، فأكثَر من جَميع الأشياء، داوم على خدمة المَزَامِير والتلاوة الكثيرة مع القراءة في الأسفار الإلَهية. واقرنْ بِها الجوع الدائم، لأنه هو الذي يُطهِّر ويُنقِّي الجسد بِحرارته. لأن الجوع له كفاءة أكثَر من جَميع الأعمال أن يَمنح غفران الخطايا لأجل صعوباته المُضغِطة، لأنه هو قوة التوبة. والعادات القديمة التي اعتادت النفس أن تتجاوز بِها الشريعة بِسماجةٍ، هي أيضاً تَضعُف بالجوع.

[٤٦] وعندما تدنو بالمعونة السمائية لِهذه المنزلة الثَّانِية، فحسب قول الآباء: تبتديء أن تَحسّ في ذاتك أنكَ قد وصلتَ إليها من العلأمَّات التي رسَمناها آنفاً، إذ تنظر في نفسك شيئاً فشيئاً تلك الأمور. عند ذلك أَنْقِصْ قليلاً من أعمالِك الأَولى، ولكن لا تقطع أصول دوامها، بل استبدل شيئاً منها بشيء آخر. فاثبتْ في الصلاة أكثَر من المَزَامِير، ولا يعني هذا أن تُبطِل المَزَامِير، بل أن تُعطِي موضعاً فسحة للصلاة أكثَر من التلاوة. وفي الخدمة أيضاً تُعطِي موضعاً وإمكانية للصلاة مع باقي السواعي الأخرى. فمن ههنا سوف تنظر الدالة التي تنالُها يوماً بعد يوم، ويأخذ قلبك قوة، والأفكار والآلام تضعف، ويفرح ضميرك على الدوام بالسرور وينشي (أي يسكر) بالصلاة. وترى نفسك من وقتٍ لآخر أنك قد صرتَ شيئاً آخر غير ما كنتَ أولاً، بسبب الفرح الذي تناله بِمعونة النعمة، وتَحلّ عليك قوة إلَهية إذا كنتَ في السكون والتحفُّظ.

[٤٧] إنه من حيث يبدأ الإنسان بتَدْبِير سيرة الفكر، الذي هو الهذيذ الدائم بالإلَهيات، وإلى أن يصل إلى تَدْبِير السيرة الرُّوحانية الذي هو الدهش بالله، فهو أكثَر من كل الأعمال مضطر للصَلَوَات بتغصُّبٍ مَصحوبة بالميطانيات، وأن لا يُبطل من الصَّوْم أبداً. وأن يأخذ من الغذاء على قدر ما يقوم به الجسد في عمل الصلاة هذا. فإذا ما دنا واقتَربَ من سيرة المنزلة الثَّالِثة، وحَظِيَ بِحدودها، فإنه من ههنا يَجد أن الأشياء التي كان يعملها بتغصُّبٍ في هذا الموضع، أصبح الآن ينجذب إليها باضطرار الحلاوة في كل وقتٍ، ويتخلَّف عنه التغصُّب. والذي يَجذبه إلى هذا بغير إرادته هو الدهش، حيث يوجد على الدوام – من أجل تنعُّمه بالأفهام – جاثياً على وجهه، بلا أفكارٍ ولا حواسّ الصلاة، وبلا طياشةٍ ولا هذيذٍ. بل يكون له إحساس بِما هو هناك. ولا أعني بذلك عن الدهش الكامل في طبيعة المسجود له سيد الكل، بل إن العقل يرتفع عن هذه الأمور السفلية، ويبقَى في حسِّ الدهش بسياسة تدابير الله المَملوَّة إفرازات، وبالعوالِم والأجيال. ويقع هذا في النفس، وبالأشياء التي تنفعل بِها كل يومٍ وفي كل وقتٍ، إن كان في الخفاء أو في الظاهر.

[٤٨] متى تَحرَّك العقل من النعمة في الأمور الرُّوحانية، فلأجل حلاوة المعرفة يتخلَّف عن الهذيذ والذكر وقتاً كثيراً وهو في دهشٍ. ولا أعني هنا الانقباض الكامل الذي يكون عند التأمُّل في الله، حيث تتغيَّر حركات العقل إلى الدهش ويبقَى بلا حركة يوماً أو يومَيْن أو أكثَر، أو ما يَحدث فجأةً أثناء التأمُّلات أو الإعلانات الأخرى، فليس هو ذلك التوقُّف الكلِّي بالفكر ولا انتقال الطبيعة البشرية من المعرفة (الواعية) إلى عدم المعرفة التي هي أعلَى من كل معرفة، حسب قول الآباء، بل إنَّما هو سُكْر وحرارة قلب وسلام وفرح. فالدهش الكلِّي في الصلاة يلازمه عدم إحساس تامّ بِهذه الأمور الحاضرة أو بشيء من المعارف أو بِحلاوة الرُّوح، ماخلا هذا الشيء الوَاحِد فقط. أمَّا النوع الآخر من الدهش فهو عندما يَحصل للإنسان ويذوق حنك عقله التنعُّم الرُّوحاني، فإنه لا يكون خالياً من معرفة الأمور التي هنا، بل إنَّما تنقبض الحواس داخله وتصمت عن هذيذ العادة فقط بينما تبقَى عنده المعرفة: فهو يعرف ويسمع ويَحسّ. وهو في الحقيقة قائم داخل نفسه، بعيداً عن كل تشتُّتٍ، ولا يُمارس أي هذيذ، ولكن لأن حلاوة التذوُّق

الرُّوحاني تشدّه، وهو يندهش فيها، مُقيَّداً برباطات تلك اللذَّة التي تفوق الوصف، يظل واقفاً في صمتٍ، وبوجه مطاطيء إلى الأرض. ولأن جسده لا يَحتمل ذلك، ولا تعد حواسه قادرة أن تضبط شيئاً، وتضعف أعضاؤه، يقع غصباً عنه بوجهه على الأرض، ويكون عقله قد انجذبَ مرتفعاً عن الأمور الأرضية، كما لو كانت سفينته قد بلغت ذلك التَدْبِير المزمع، ولكن يبقَى عنده إحساس خفي بأمور العالَم الحاضر، بدون أي جهدٍ في الهذيذ. وكل هذا يَحصل بسبب لذَّة الأفهام الرُّوحية التي يُمكنه أن يُثبِّت نظرته فيها. والذين اقتنوا خبْرةً بِهذه الأمور بأنفسهم يفهمون ما أريد أن أقوله، وأن هذا هو معناه. أمَّا أن توجد الطبيعة (البشرية) أعلَى من الأفكار ومن المعرفة ومن الحسّ، أيأمَّا كثيرة، كما كتب الآباء، فهذا يَحصل فقط حينما يَحسّ الإنسان بالله. وفي الحالات الأخرى، حتى ولو كان العقل في راحةٍ وهدوءٍ، فهو يظل مُحتفظاً بالحسّ بالأشياء الحاضرة. أمَّا إذا حصل للعقل استعلان بالله، فلا يبقَى فيه عند ذلك أي حسٍّ آخر.

[٤٩] بقدر ما تقلّ أفكار العالَم من الضمير، هكذا ينفتح قدَّامك الباب إلى فرح رَبِّنَا، ولا يُمكن أن يَحسّ عقلك بِهذا الفرح إلا بعد انقباضٍ دائم في الصلاة. جَميع الآباء القديسين من أجل نقص المُجاهدة مع الأفكار، التي هي القيام من السقوط في الطياشة، جعلوا سكنهم في المواضع التي تُسبِّب نقص الأفكار وليس كثرتَها. فهم لَم يقدروا أن يَجدوا انقباض العقل في الصلاة بشجاعتهم في الجهاد مع الأفكار، ولكنهم عندما نقصت الأفكار حظوا بالهدوء ووجدوا فسحةً للصلاة. واعلَمْ أن هذا الأمر لا تَحظَى به مع مداومة ملاقاة البشر والبشريات. ولعلَّك تقول: "إنه ليست لي مقدرة على الحبس الدائم الذي بلا انقطاع، ولا على البعد الكلِّي من العالَم بالسكن المنفرد". فإن كان، يا أخي، هذا حالك فلا تطلب الشيء الذي لا يَحظَى بوجوده إلا الذين يتدبَّرون بِما يفوق العالَم، أي بالسكون من تواتر الأفكار. لأن السكون من تواتر الأفكار هو سبب الفرح الحاصل من الانجماع في الصلاة بفكرٍ وَاحِد متشوِّقٍ بالله، ومن ههنا يُؤهَّل لنقاوة القلب، وينتقل على الدوام من العالَم بغير إرادته، بقيام العقل دائماً بالله. فبحسب موضع سكناك، تنقص أو تكثُر الأفكار، وبالتالي يقلّ أو يزداد الجهاد الذي يدنو به الإنسان من النقاوة.

[٥٠] من بُعد موضع السكن، كم من وقتٍ يحسّ فيه المتوحِّد بِحركةٍ تفوق الجسد، ولو أنه قليل الأعمال! وهذا يكون بسبب كثرة الميتوتة من الناس.

[٥١] لأنه بِمقدار ما يبعد الإنسان من سكن العالَم ويدخل في قفر البَرِّية، هكذا يَحسّ القلب بالبعد من الطبع، وبِحسب ذلك يقبل سكون الأفكار ولا يتعب كثيراً في الجهاد معها؛ لأن نظر القفر هو بطبيعته يُميت جَميع الحركات العالَمية من القلب ويَحميه من تواتر الأفكار.

[٥٢] كما أنه لا يُمكن أن تصفو نظرة مَنْ هو قائمٌ بِجانب الدخّان إلا إذا فرَّ وابتعد من هناك، هكذا لا يُمكن أن يقتني الإنسان طهارة القلب والسكون من الأفكار من دون الوحدة المبتعدة من دخّان هذا العالَم الذي يُبخِّر قدَّام الحواس ويُعمِي عينَي النفس.

[٥٣] لا ينبغي لأحدٍ أن يَخرف بِمعرفةٍ باطلةٍ لكي يُقاومنا في هذا: أنه إذا كُنَّا قرب سكن الناس فأفكار السكن تَحدث لنا؛ وإذا كُنَّا في القفر فأفكار القفر تَحدث لنا؛ وإذا خالطنا كثيرين

فأفكار كثيرين تَحدث لنا؛ وإذا انفردنا من الكلِّ فإننا نقتني ضميراً منفرداً. وما هي أفكار القفر غير حركات تَخرج من قلبٍ مائتٍ؟ وإذا كُنَّا موتَى عن العالَم في حركاتنا، فبالضرورة لا يُمكن أن لا نتحرَّك بالله. لأن سكون الحركات العالَمية يُعطِي فسحةً وموضعاً للتحرُّك بالله، وأحزان الجسد تُقتينا ضميراً منفرداً.

[٥٤] أضنِكْ الجسد بالأتعاب والأعمال في مواضع القفر؛ لأنه من شقاء وتعب الجسد نقتني أيضاً ضميراً منفرداً. أمَّا في الخلطة فلو أن الجسد يسقط ثُمَّ يتَريَّض فهو مع ذلك يَميل إلى الرخاوة والانحلال ويَمتليء آلأمَّا بسبب المفاوضة مع الناس. أمَّا في وحدة القفر، فإن طهارته تثبت فيه؛ وبِهذا يُمكننا أن نترك أعمالنا الأُولى (أي العادات القديمة) ونتجرَّد منها. ثُمَّ بواسطة الأعمال وتعب الجسد مع نقص الأفكار الحادث من القفر وسكونه، هكذا ندخل سريعاً إلى حرية النفس التي تفوق العالَم، ونأخذ في أنفسنا إشارات إلَهية بتجديد العقل، ونقبل بسهولةٍ موهبة الله.

[٥٥] إن كنتَ ترى، يا أخي، أنه من أجل البعد والشقاء في السكون والوحدة تصغر نفسك وتَحزن إذ تَجد هذه الحياة قد اضمحلَّت، والجسد قد تَخلَّف وضَنِيَ، وترى فكرك قد ضعُف وفزع لِهذا الأمر، ضَعْ قبالة ذلك فكراً عادلاً وضمير مَخافة الله، وعزِّ نفسك بِهذا الشيء الذي هو حقٌ: أنه أوفَق لكَ حياة قصيرة تَحياها بالبِرِّ حسب إرادة الله، ولا عُمْراً طويلاً بِما يُغضبه. واذكرْ حياة القديسين القدماء الذين لَم يَحسبوا أنفسهم شيئاً بالقياس إلى إرادة الله، وبِمثل هذه الحياة صبِروا جَميع أيام حياتِهم، إن كان في المسكونة أو في القفر، إلى حين انتقالِهم وتركِهم جسد هذا الاتضاع، وبعد جُهدٍ كثيرٍ قدروا أن يُكمِّلوا طريق مَخافة الله. وعند انتقالِهم من هذا العالَم فرحوا فرحاً عظيماً جداً، لأنَّهم استطاعوا بضيقاتٍ قَلِيلَة حاضرة أن يتخلَّصوا من الشرور التي تُحارب لكي تُهلِك النفس، ووُجدوا في وقت انتقالِهم في أهلية الله وما يَخصُّه.

[٥٦] إذا رُمتَ أن ترتفع فوق الآلام، اِفهَمْ أولاً فنون مثل هذا الجهاد. وعن هذا أقول لكَ كلأمَّا لَيْتَك تُنصت إليه: لا تُحاول أن تغلب الآلام بالقتال معها. إنَّها لا تنهزم بالقتال، ولكن اغصبْ ذاتك أن تُضعفها قدر ما تستطيع دون أن تُقاتل معها على الإطلاق كما يفعل غير الخبيرين من الناس. لا تدخل أنتَ أبداً في القتال من أجل طهارة النفس. فالذي يريد أن يدخل موضع الطهارة بِهذا الأسلوب، لا يَحسّ أبداً بسلام الأفكار، لأنه لَم يرتفع فوق اضطراب الضمير ولَم يبلغ بعد إلى بلد النقاوة. أمَّا أنتَ، فعليك أن تَمنع عن الأوجاع غذاءها، لأن هذا هو هدف الجهاد. لاحظْ على أي غذاءٍ يتَربَّى كل وجعٍ، وتَحرَّك بِمهارةٍ لِمواجهته. فإذا كانت الأوجاع ترافق الأفكار وهي التي تقوتُها، انقِصْ الأفكار أيضاً. وإذا ما نقصت الأفكار يتوقَّف العقل عن أن يتسلَّح بالقوة. وما إن يَجد العقل راحته، فإن انجماعه داخله يصبح أمراً سهلاً، ويسمح له أن يرى طبيعته، وبسبب انجماع العقل، نتداخل بسهولةٍ في الطهارة كَموهبةٍ من المسيح.

[٥٧] طالَما كان الإنسان مازال قائماً وسط القتالات ويُضيف جهاداً على جهادٍ، فهو لا يقدر أن يبلغ إلى نور العقل أو يَحسّ بسلام الأفكار. وقد قال أحد الحكماء: "لا توجد أخبارٌ سارَّةٌ وقت القتال". لأن كل ما يدركه من الأمور الإلَهية يكون بتعبٍ عظيمٍ وبدون أقل عزاء، حتى في أقلّ مُمارسةٍ نسكية. فإذا تَحوَّل إلى الصلاة، أو الخدمة، أو أية مُمارسة أخرى فهو لا يقدر أن يقوم بِها بغير جهدٍ كبيرٍ، لأن كل عمله مازال حتى الآن مُختلطاً بالكآبة. وإن كان يَجد قليل عزاءٍ من القراءة في الأسفار الإلَهية، ولكن في نفس الوقت يصبح كل شيءٍ أمَّامه ظلاَمًا، لأن عقله من أجل الله مازال يَجوز في مَجالٍ معتمٍ. وتكون نفسه في ذلك الوقت قائمة تحت الاختبار، وتُمتَحَن إرادة الإنسان في كل ما يتعلَّق بالله. فإن كان يَحتمل برضَى التجارب التي ترهق جسده وعقله من أجل الحق، فما إن ينقضي وقت القتال بنعمة الله، فإن نفسه تدخل مَجال الفرح. وكل يومٍ يَمضي، تكتشف داخلها تغييراً مذهلاً، كقول الآباء. ولكن طالَما أنه لَم يرتفع بعد فوق مَجال الحروب، فإنه لن يَجد عزاءً حقيقياً، كما ولا يُمكنه أن يتجاوز تَدْبِير التغصُّب المَملوء تماماً من الكآبة.

[٥٨] إذا ما اجتاز المتوحِّد إلى المنزلة التالية، وبدأ يَحسّ بالرَّاحَة من الأوجاع، فهو يدرك أيضاً نور العقل، وبسبب السلام الذي يَحصل عليه من توقُّف الأفكار يُؤهَّل لانجماع الذهن. وهذا الانجماع يسمح له بالدخول في نور العقل الذي تكلَّم عنه الآباء. أمَّا الاضطراب الناشيء عن عددٍ كبيرٍ من الأفكار، فهو دليل على وجود عددٍ كبيرٍ من الأوجاع.

[٥٩] الطهارة هي بلد الهدوء للطبع الذي قد أغلق مقابله باب الآلام؛ هذا الذي إذا فتحه إنسانٌ لا يُمكن أن يدخل إلى بلد الطبع الهاديء؛ لأنه إذا أُهِّل للدخول، فهو حسب ظَنِّي يقبل حسَّ تَجديده بواسطة الإشارات النقية المتحرِّكة في عقله.

[٦٠] في الحقيقة، إنه في الوقت الذي فيه يترك الإنسان ترتيب مصاف الجهاد لكي يدخل إلى المنزلة التالية، فإنه يبتديء باتساعٍ خصب العقل الذي هو طقس تَدْبِير الإنسان الجوّاني.

[٦١] إذا انقبض الإنسان، بِمعونة الله، من الْهَمِّ الذي خارجه، ومن الْهَمِّ الذي من الهذيذ بأمور الكثيرين، وصار إنساناً وَاحِداً، فإنه من ههنا يبدأ أن ينظر في ذاته أموراً جديدة وإشاراتٍ وعلاَمَاتٍ حِسِّية وخفية، ومن ههنا يُؤهَّل لذلك التجديد الذي يكون في قيامة الكل، ويذوقه بالغمز، إذ إنه دفعات كثيرة، في وسط النهار، يَحسّ في نفسه أنه قد انقبض إلى ذاته، في صمتٍ لا يُفسَّر، من غير أن يعتني هو بذلك، ليفهم القاريء! وهذا يَحدث أحياناً في وقت الخدمة، وأحياناً أخرى في وقت القراءة. والذين أُهِّلوا للنقاوة تَختلف حركات أحلامهم في النوم عن الذين هم متألِّمون بالعقل، إن كانوا الآن يُجاهدون في القتال مقابل هذه الآلام.

[٦٢] إذا ما أردتَ أن تعرف مقدارك، فانظرْ أين أنتَ، هل تسلك نفسك الطريق القويم، أو خارجاً عنه، وما هو مقدار صلابتك، وأين هي نقائصك. اِختبِر نفسك أثناء الصلاة، لأن الصلاة هي مرآة النفس التي تكشف عيوبَها وجَمالَها. وهي التي تُظهِر خداع ومَحاسن العقل. الصلاة تفحص ما إذا كانت متوانية أو مَملوَّة غيرة؛ وإذا كان الإنسان يتعب فقط بالجسد أو بالعقل، أو

بكليهما في آنٍ وَاحِد؛ وإذا كان قد انعزل عن العالَم بعقله أو مازال ملتصقاً بشخصٍ أو بشيءٍ ما. في وقت الصلاة يكون بِمقدورنا أن نرى بوضوح بأي شيءٍ يتأثَّر العقل، وبأي الحركات ينفعل: الإلَهية أم الطبيعية أم العالَمية؟ هل يتغلَّب على الأوجاع أم ينغلب لَها؟ فتِّشْ نفسك على ضوء كل هذه الأمور، في أوقات الصلاة أكثَر من الأوقات الأخرى. وأقول هذا واثقاً من أنك إنسان ذو ضميرٍ حي تَجتهد لكي تدرك بسهولة ما يَخصّك، بسبب دقة تَدْبِيرك. وفي أوقات الاستِرخاء، إذا كان الإنسان لا يعمى بسبب الأوجاع العارضة، فسيعرف ذلك أيضاً في غير أوقات الصلاة. وهذه النصائح، التي جُمعَت خلال وقتٍ طويلٍ، نافعة لتَدْبِير السكون، لأن الطرق المؤدية إليه دقيقة. وقد يتساءل الإنسان ما إذا كان سائراً على الطريق الصائب أم الرديء.

[٦٣] ينبغي أن نتحقَّق من هذا الأمر أيضاً: إن التعزية التي تُمنَح للإنسان في الصلاة وأثناء خدمة الأوقات هي أفضل من التعزية التي تأتي من القراءة أو التأمُّل في العالَم المَخلوق؛ ولو أن هذه هي أيضاً أفعال هامَّة. ومن بين أنواع التعزيات نوعٌ خاصّ يُعطِي البهجة والفرح للذين هم في المنزلة الوسطى، وهي تعزيات يقبلها أيضاً مَنْ هم في منزلةٍ متقدِّمة، من الكِتَاب المقدَّس وآيات المَزَامِير التي تَجتذبهم للدهش. ولكن ينبغي أن تفهم أن التعزية التي يقبلها المتوحِّد من مصادر خارجية – سواء من حركة اللسان أو بالنظر أو السمع – هي أدنَى من التعزية التي تنبع من القلب فقط دون أية وساطة. وهذه قد تنشأ من الصلاة التي هي أعمق من أية صلاة باللسان؛ أو أنَّها تنشأ بغتةً في العقل وتظهر بدون أية وسيلة مَحسوسة. ومثل هذا الاستعلان يَختصّ بالرُّوح، وهو نوعٌ من النبوّة؛ حيث يكون القلب في حقيقة الأمر في حالة تنبؤ، لكون الرُّوح يُعلن له أموراً مَخفية، ليس للأسفار المقدَّسة سلطة عليها. فما لا يكون مَسموحاً للكِتَاب إعلانه، هذا يُعطى للذهن النقي سلطاناً أن يعرفه، أموراً هي أعلَى مِمَّا أُؤتِمنتْ عليها الأسفار الإلَهية! على أن المصدر الأصلي لكل هذه الأشياء هو قراءة الأسفار، فمنها يستمد العقل بَهاءه. إيضاح: تتولَّد كل هذه الأشياء من قراءة الأسفار المقدَّسة؛ وحتى الصلاة النقية نفسها تتولَّد من مثل هذه القراءة. وبالمثل يكون جَمع العقل من هذه القراءة؛ فمنها تنشأ كل هذه الأشياء وتصل مدارك العقل. وأية صلاة لا تُولَد من كثرة الشغف والحرارة في قراءة الأسفار المقدَّسة تكون مثل جسدٍ ليس له رجلان، وهو يريد في الوقت نفسه أن يَجري. وأتكلَّم هنا عن نوع القراءة التي تليق بِهذه العقول، والتي تستحثّها للسعي نحو الهدف بالأفهام التي تنبع منها.

[٦٤] ونحن بصدد التحدُّث عن الصلاة، ولَمَّا كان كثيرون يرغبون معرفة المرحلة التي وصلوا إليها بواسطة تلك الدرجات المعروفة في الصلاة، نستعرض باختصارٍ درجات الصلاة. أَرهِف حواسك ونقِّ واجْمعْ فهمك من التشتُّت، حينئذٍ دعنا ننتبه إلى الذهن ونحن نعبُر به، وبِمساعدته نَمتدّ إلى مَحطة الدهش التي تَهب الرَّاحَة لكل مسافرٍ عبْرَ طريق الحياة، حيث توجد تلك الرَّاحَة الإلَهية. حقّاً إن مسيرة الصعود بأكملها، وكل جِهادٍ فاضلٍ للذين اِزدروا بِمناظر الأشياء المرئية التي مآلُها إلى الفساد، تتلخَّص في التركيز على هذا الهدف: أن يوجدوا أهلاً

للصلاة النقية والتمتُّع بِها.

[٦٥] وقبل كل شيءٍ ضعْ هذا الأمر نصب عينيك: إننا لسنا مُهيَّئين لأن نتكلَّم عن أي أشياء أعلَى من طبيعتنا، بل عن الأشياء التي تَخصّ طبيعتنا فقط، والتي تتضمَّنها الصلاة النقية، لأن كثيرين يَحجمون عن مثل هذه الأشياء. وأتكلَّم بِهذا لأن غالبية الإخوة النشطاء والمستنيرين يَختبرون هذه الأمور، وقد وصلوا إلى هذه المنزلة، كل وَاحِد بِحسب درجة تقدُّمه في مسيرته. ومن هذه الأشياء أيضاً يُمكن للطبيعة البشرية أن تتقدَّم إلى تلك المراحل الأخرى.

وأي شخصٍ حريصٍ، يَحفظ قانون الصلاة، وهو متتلمذ للسكون، سوف يَجد القراءة عن هذه الأمور مناسبة له؛ أمَّا بالنسبة للبعض مِمَنْ لَهم طريقة مُختلفة في الحياة، وهم في منزلة مُختلفة، فالتعب الملازم لِهذه الأشياء، إلى جانب الجهد المطلوب لفحصها، يبدو لَهم مضيعة للوقت. وبالمثل ما يُقال عن حراسة حدود العقل في الصلاة، والتعرُّف على سائر حركاته.

لِهذا اِفحصْ بعنايةٍ طريق العقل أثناء أوقات الصلاة، لكي ترى ما هو هدف مسيرته، وانظرْ إن كانت صلاته تنطلق بِهدوءٍ ومداومةٍ، أم أنَّها تتوقَّف وتعود بطريقةٍ متقطعةٍ: فإذا كان الأمر كذلك، فافحصْ إن كان السبب هو تلعثُم العقل، أو أنه يَمتنع عليه التقدُّم بسبب النور المُبهر الذي يُشرق عليه من بعض الأفهام. والصلاة قد تتدفَّق بِمداومةٍ بالنسبة للوَاحِد، بينما للآخر تكون الحالة الأخرى موافقة له. كذلك قد تكون صلاة شخصٍ ما هادئة، بينما صلاة الآخر حارَّة ملتهبة. الوَاحِد يصلِّي من أعماق قلبه، بينما الآخر من فيض أفكاره. وأحياناً تنشأ الصلاة من تنهُّد الإنسان وأنينه، وأحياناً أخرى تتفجَّر من حدَّة الحركات الداخلية التي لا يستطيع أن يَحتملها.

وتتضح الحالة الخاصة لكل شخصٍ من هذه الأشياء المُختلفة التي تَحدث له؛ وتتبيَّن أية حالة هي السائدة، من نوع الحركات التي تلازم كل حالة من هذه الحالات (أو المراحل). فمن استمرار نوعٍ مُعيَّنٍ من الحركات، يعرف الإنسان أنه قائمٌ في مرتبة التائبين؛ وبنفس الأسلوب يُمكن أن يعرف الوَاحِد إن كان قد بدأ يرى بَهاء نفسه، أو أنه مازال في منتصف طريق التوبة، أو أنه قد أكملها وبدأ يقبل عربون الأفراح، وأعني بِها المواهب التي تأتي بعد التوبة. إلا أن جَميع هذه الأشياء تَخصّ النشطاء فقط، أمَّا المُلُل والمتكاسلون فلا ينطبق عليهم أي شيءٍ مِمَّا ذكرناه؛ لأنها تتوفَّر فقط للذين يَهتمّون بأمر الصلاة والذين رتَّبوا لأنفسهم قانوناً مُحدَّداً للصلاة يضمن نُموّها وازدهارها على الدوام.

ولكن لنتقدَّم الآن إلى الصلاة الحقيقية، ونلقي الضوء باختصارٍ على المراحل الأَولى، من خلال شرح المراحل الأكثَر رفعةً.

[٦٦] حدَّة الحركات في الصلاة ليست بِحالة مرتفعة في الصلاة النقية، ولو أنَّها جيِّدة في حدِّ ذاتِها؛ فهي تُنسَب إلى الحرارة. فإذا حصلتْ واتَّخذَت التوبة هدفاً لَها، وكانت مُمتَزجة بالحزن أو ملازمة للفرح فهي جيِّدة جداً. ومع ذلك فهي تَختصّ بالمرتبة الثَّانِية أو الثَّالِثة.

ولا أعني بذلك، أنه إذا عرضت لكَ هذه الأشياء، أنك لا تكون سائراً على الطريق الصحيح؛ ولكني أقول فقط إن هذه الأشياء لا تَخصّ المراحل العالية، بل المراحل المتوسطة وحدها. لأن القاعدة الأساسية والأعظم قدراً في الصلاة النقية هي قِصَر وصِغَر أية حركة من الحركات؛ إذ أن الوقت الذي فيه تتضاءل الصلاة التي بالحركات، ينظر العقل ببساطةْ كما في دهشٍ. ومن ههنا يَحصل للعقل أحد أمرَيْن بالنسبة للحركة القصيرة التي تتحرَّك فيه: فهو أمَّا أن ينجذب إلى السكوت كنتيجةٍ لضغط قوة المعرفة التي تَقبَّلها العقل من آيةٍ مُعيَّنةٍ (من المَزَامِير مثلاً)، أو أنه يُؤخَذ بالفرح عند بلوغه إلى الهدف الذي كان ينشده أثناء الصلاة عند حدوث تلك الحركة، ويَهدّ به القلب بغير شبَعٍ باشتياق المَحبة.

هذه هي الصفات الأساسية للصلاة النقية، فاتَّخِذْها كَعلاَمَّاتٍ تساعدك أثناء الصلاة. وافحَصْ في أي هذه الحالات المُختلفة ينبغي أن يثبت العقل أثناء هذه الأوضاع المتنوعة للصلاة، إن كان في الحالات السابقة أو التي تليها.

[٦٧] إذا تدفَّق القلب بسهولةٍ وغزارةٍ بصلاةٍ مستطالة، مُمتَزجة بِحدَّة الحركات المتنوعة، فهذه هي علامة الحرارة؛ وهي تدلّ أيضاً على أن العقل لَم يدرك بعد النور المَخفي في الكلمات، ولا تقبَّل بعد خِبْرة المعرفة التي تُنير العين الداخلية أثناء الصلاة؛ لكن العقل مع ذلك يَحصل على القوة من الأشياء التي يفيض بِها القلب أو الشفاه. وإذا صار العقل مُدركاً للقوة المُختفية فيما يُصلِّي به، واقتنى الاستنارة بواسطة الحق المَخفي في الكلمات، فهذه علامة على أن هذا الإدراك سوف لا يسمح له أن يستمر في مسيرته ويزيد من تلاوته، لكنه على وشك أن يُجتذَب بأحد الأمرَيْن اللذَيْن ذكرناهما آنفاً.

[٦٨] وهذا أيضاً ما يجب أن نتحقَّقه: أن طول الصلاة واستدامتها لا يأتي من كثرة الكلام أو باستخدام عباراتٍ متنوِّعةٍ طويلةٍ، بل بالأحرى هو نتيجة فيض المعرفة وقوة الكلمات التي تُستعلَن للعقل في ذلك الوقت. ومن هنا يجب أن نعلم أنه حين يستنير العقل أيضاً في الصلاة، لا تشرق فيه الأفهام من جَميع كلمات التضرُّع أو من جَميع العبارات التي نُردِّدها في الخدمة؛ كلا، فإن العقل يقبل فقط قوة عبارة وَاحِدة صغيرة تُضيء له؛ وكَنتيجةٍ لتلك العبارة التي أُضيئت يتحوَّل العقل إلى الفهم. وحتى هذه اللحظة يظل تدفُّق الصلاة مستمراً، ولكن طالَما استمرت تلك الاستنارة في العقل بواسطة العبارة ذاتِها، تصير القوى الطبيعية عاجزة لا تقدر أن تتركها لتنتقل إلى غيرها. ولكن متى توقَّفت الاستنارة يصبح بإمكانِها أن تنتقل إلى ما بعدها من عبارات (أو آيات)، ولو أن العقل حين يستنير بوَاحِدةٍ منها يَمكث هناك ويتوقَّف، فما هي الحاجة إذاً لكثرة فيض الحركات إن كان الأمر يَخصّ العقل وحده؟ أو ما هو لزوم كثرة الاسترسال في الكلمات وتتابع الآيات المتنوعة، طالَما كان الإنسان يصلِّي بيقظةٍ وانتباهٍ وقاده ذلك إلى انفتاح الفهم؟

[٦٩] وفي كل هذا لستُ أمدح تعطُّل العقل؛ ولكن كل ما أقوله هنا هو أن العقل قد يتوقَّف عن مسيرته نتيجةً للاستنارة الكثيرة. كذلك لستُ أُقلِّل من قدر شدَّة الصلاة، أو أعتَرض على

الخدمات الطويلة، بل بالأحرى أحاول أن أُظهِر التَرتيب الأعظم قدراً الذي ينبثق منها، مُبيِّناً المواهب التي تُمنَح خلالَها، وهكذا أُقدِّم الدليل على القامة (العالية) التي قد وصل إليها العقل أثناء الصلاة وخدمة الأوقات. ولِهذا لا ينبغي أن نقيس استنارة عقلنا أثناء التضرُّعات من كثرة وغزارة كلمات صلاتنا، بل ينبغي أن نرتكز على حقيقة أنه حتى ولو كانت صلاتنا مُختصرة فقط، فمن السهل أن يتبيَّن لنا أنه حين يقبل العقل القوة الموجودة فيها، فهو يُسربِل نفسه بالفرح الذي يكمن في هذه الكلمات التي اتَّخذها مادةً لصلاته، والتي من خلال التأمُّل فيها يتقبَّل الذهن فيض الكلمات التي هي أعلَى من كل نطقٍ، والتي يُقيم فيها سكون المعرفة؛ وهذه بالضبط هي الصلاة التي توجد طبيعياً داخلنا في هيئةٍ غير متجسِّمةٍ؛ إنَّها الذهن المستنير!.

[٧٠] لا ينبغي أن نتضجَّر من إطالة الخدمة وامتداد الصلاة والتلاوة الكثيرة أثناءها؛ لأنه من العمل في تلاوة الكلام والصبْر بثباتٍ في الخدمة والصلاة تتولَّد المداومة (التي بِها تبطل الطياشة) كما قلتُ. وينبغي لنا أن نعلم أن هذه (الأمور) ليست هي الثمرة (التي نشتهيها)، بل هي الأصول التي من دونِها لا تظهر الثمرة ولا تقع بأيدينا. ونعلم أنه كما أننا مُحتاجون إلى الثمرة كل يومٍ وفي كل وقتٍ لكي نغتذي بِها ونتنعَّم، هكذا إذا رذلنا تلك الأصول كما لو كانت لا حاجة لنا بِها، فإننا نبْرد، بل ونَخيب أيضاً من الثمرة التي من عادتِها أن تظهر فينا بواسطتها من وقتٍ لآخر. لأننا لسنا نتساغى (أو نستغني) عن المداومة بِها طالَما نحن لابسون هذا الجسد، ولا يظنّ أحدٌ أن لَها حدّاً في هذا الوقت الحاضر.

[٧١] الذي هو كامل في القامة ومقتَنٍ تشوّقاً إلى الله، هذا من بعد خروجه من العالَم لا يليق به أن يَمكث طويلاً في المَجمع بالدخول والخروج مع كثيرين، بل بعد وقتٍ قليلٍ إذا ما تعلَّم تَدْبِير الإخوة وترتيبهم ونوع الإسكيم وزِيَّه واتضاعه، يفرز نفسه ليكون منفرداً في قلايةٍ، لئلا بوجوده مع كثيرين يقتني اعتياد المكر، وتنقلب بساطة ابتدائه بسبب مفاوضة الإخوة المُنحلِّين الذين يوجدون بيننا. لأني رأيتُ كثيرين عند خروجهم من العالَم لَمَّا جاءوا إلى مَجمع الإخوة، كانوا ودعاء أنقياء، وبعد أن مكثوا زماناً كثيراً في المَجمع صاروا ماكرين وقحين، ولَم تعد لَهم تلك الوداعة الأَولى. فهذا (الأخ المشتاق إلى الله) ينبغي له أن يفرز نفسه وتكون مفاوضته مع شيخٍ فاضلٍ مشهود له بِحسن السيرة ومعرفة السكون. فيتفاوض معه فقط ويُعلِّمه بسرِّه ويتعلَّم منه سيرة السكون، ولا تكون له من ذلك الوقت مفاوضة مع إنسان آخر غيره، لكي يُؤهَّل في وقتٍ قليلٍ لِمذاقة المعرفة.

[٧٢] ليس بالعلم الكثير ولا بالكتب المُختلفة تُقتنَى النقاوة أو نَجدها، بل بالاعتناء بالصلاة. فماذا تنفع معرفة كتبٍ كثيرة وتفسير معانيها، وأية حاجةٍ بِها لِجَمع الضمير ونقاوة الصلاة؟ في الحقيقة إن الرَّاهِبُ بعد أن يكون قد ترك العالَم، إن هو عاد فقرأ شيئاً من الكتب ماخلا سيرة الرهبنة، فسواء كان عالِماً حكيماً أو أمِّياً، فهو يكون قد ضيَّع هدف طريق الرهبنة، وقد مال ضميره ليطلب الانشراح بتلك الكتب الأخرى. ولو أصعدَتْكَ الكتب البَرَّانية إلى السماء، فالقراءة فيها لا تنفعك؛ لأنَّها تُعلِّمك طرقاً أخرى غريبة. تكفيك كتب العهد الجديد والتي على سيرة

الوحدة لتُرشدك إلى كمال المعرفة وحُسن الضمير. وبعد أن تبلغ إلى النقاوة قليلاً قليلاً، إن قرأتَ في تلك الكتب لست تتأذَّى. هو ذا قد أشهدتك الحق فيها. إيضاح: طبقاً لِمنزلة كل وَاحِد، مَحبتنا تنصح بأن نكتفي بكِتَاب يليق بالهدف ومناسب للسنّ (الرُّوحاني) لكل وَاحِد. فمُحتوى الكِتَاب يجب أن يتناسب مع الدواء المطلوب. والبعض مِمَنْ أدركوا الشفاء التامّ، بإمكانِهم أن ينتفعوا من كل شيء. هذه النصائح نافعة لِمَنْ كان هدفه هو التوبة ومَنْ يشتهي الطهارة.

[٧٣] إن تطلب عزاءً حقيقياً في الصلاة، اِهتمْ بتنقية نِيَّتك؛ وإن تطلب تقويم النيَّة وتعديلها، اِهتمْ بالصلاة. لأن الاهتمام بكل وَاحِدة من هاتَيْن يصنع طهارة رفيقتها. فإصلاح النيَّة يصنع طهارة الصلاة، ونقاء الصلاة يَجلب دالَّة النيَّة.

[٧٤] النقاوة مع الخلطة لا يُمكن أن تُحفَظ، ولا تذكار الله يُمكن أن يُحفَظ مع الْهَمّ بالأعمال وخلطة الأمور. كثيرون بشهوة البِرّ يلقون أنفسهم في اضطراب الأمور فيخيبون من نصيب هذا البِرّ الأعظَم (أي مداومة ذكر الله)؛ لأنَّهم يظنّون أن جَميع أنواع البِرّ وكل وصايا رَبِّنَا تلزم لكل وَاحِد من الناس، وأنه ينبغي لكل وَاحِد حفظها جَميعها، ولا يعرفون أن وصايا رَبِّنَا قد وضعها لسائر الرتب، لكل رتبةٍ ما يليق بِها، وليست جَميعها موافقة لرتبةٍ وَاحِدة. فكيف يشبه قوله: "طوبى للباكين لأنَّهم يتعزّون"، قوله: "طوبى لصانعي السلام لأنَّهم أبناء الله يُدعَون"؟ فكيف يقدر الذي هو جالس في النوح يبكي ليلاً ونَهاراً أن يبذل ويدور في العالَم لكي يُصلِح المتغاضبين ويصنع السلام بين كثيرين؟ أو كيف يشبه قوله: "اِسهروا وصلّوا كل حين"، وقوله: "اُدخل خزانتك وأَغلقْ بابك وصلِّ لأبيك في الخفاء"، قوله: "كنتُ مريضاً فافتقدتُموني وغريباً فأويتموني ومسجوناً فزرتُموني"؟ فالذي أُمِرَ أن يسهر ويُصلِّي في خزانته، كيف يقدر أن يفتقد المرضى ويدور على السجون ويَحمل الاهتمام بالغرباء؟ بل إن قوله: "اُدخُلْ إلى خزانتك"، و"اِسهرْ وصلِّ إلى الله في الخفاء"، تناسب قوله: "طوبى للنوَّاحين". لكي بالحزن والسكون تُنقَّى الصلاة، وبالصلاة يقبل الباكون العزاء الذي لا يكون ولا يكمل إلا بالنوح، وبأن يسكن الإنسان وحده مع نفسه.

فالذي هو وحده منقبض مع ذاته، حتى وفي العالَم، هذه هي سنَّته: البكاء. إنه لا يَهتمّ بشيءٍ آخر في أيام بكائه إلا بالنوح فقط، وهو عادم الاهتمام بكل شيء آخر. لأن النوح هو حزنٌ وَاحِد فريد يضبطه النائح كَسورٍ وأُسٍّ في القلب الذي لا يرضَى أن يُخفِّف منه إن لَم يَجد العزاء من الداخل في الشيء الذي ينوح من أجله. لأنه يوجد بكاءٌ خفيٌّ داخل القلب غير البكاء الظاهر. والذي يَحمل في قلبه حُزناً دائماً من أجل خطاياه، أو قد انفرشت على قلبه كآبة بتذكار آلام رَبِّنَا له المَجد، أو هو حزينٌ لأجل أناسٍ خطاة، أو حزينٌ من أجل الأمور السمائية بانتظارها دائماً؛ هذا لا يتعزَّى بشيءٍ من أمور هذا العالَم، ولا يتسلَّى إلا إذا وجد شهوته التي ينوح من أجلها. هذا هو النوح الدائم الذي يكون بغير دموعٍ ظاهرة بالجسد، نوح الإنسان الذي يبكي دائماً في خفاياه. والذي قد اقتنَى أي نوعٍ من هذه الأنواع داخل نفسه فله "طوبى للنائحين لأنَّهم يتعزّون". ولو أبطأ عزاؤكَ أيُّها النائح بتمييز، فلا تَحزن؛ لأنه قبل أن تنتقل من

هذا الجسد يُظهِر لكَ سعادتك وعند ذلك ينقلك من الجسد.

[٧٥] اِعلَمْ أن مباديء سيرة تَدْبِير المتوحِّدين هي: التجرُّد والسكون وعدم الارتباط بإنسانٍ أو بأمرٍ ما. والعمل الذي فيه هو: الصبْر على ما يعرض والاتضاع والصلاة. والأثْمار التي من هذه كلِّها هي: الدخول إلى الرجاء والتنعُّم بالفرح في الله. والمَخرج الصالِح بِها هو تناول مفاتيح أسرار الرُّوح المُمجَّدة. وحدّ الطريق هو مذاقة الحب والدالة التي نقتنيها من الآن إلى ذاك الذي نُحبُّه. والذي ليست له مباديء الطريق، أي التجرُّد والسكون، واضح أيضاً أنه لا تواضع له ولا صلاة. والذي هو بطَّال من هذا، هو أيضاً بالضرورة مشتبك بالخطية. والخاطيء ليس فقط أنه لا مكان له في الملكوت، بل إنه قد اقتنى في الجحيم موضعاً معروفاً!

[٧٦] إذا أردتَ أن تعرف رجل الله، فاستدلّ عليه من دوام سكوته ومن بكائه ومن انقباض نفسه إلى ذاته.

[٧٧] وإن أردتَ أن تعرف الرجل السائب القلب، فاستدل عليه من كثرة كلامه ومن تَخبُّط حواسه ومن مقاومته لكل شيء يُقال، ودائماً يريد أن يغلب. لأن مَنْ ذاق الحق لا يُقاوِم ولا يَحرُن حتى ولا على الحق أيضاً. لأن الذي يظنّ أنه يُغير لأجل الحق بِحِرَانه مع الناس، هذا إلى الآن لَم يعرف الحق كيف هو؛ لأنه لو اختبَره بتحقيق ما كان يَحرُن بالغيرة لأجله. لأن مَحبة الله ومعرفته ليست هي سبباً للسجس والصراخ، بل هي مَملوَّة سلامًا وهدوءاً. فإنه حيث يَحلّ الرُّوح، هناك أيضاً يوجد الحب والاتضاع. وهذه هي علامة وجود الرُّوح، أنه بِهذا يُكمِّل مَنْ يَحلّ فيه.

الله هو الحق. والعقل الذي يَحسّ بالله ليس له لسان يتكلَّم به؛ إنه يسكن في قلبه في سلامٍ عظيم. مثل هذا الإنسان لا يلتهب بالغيرة ولا يتأثَّر بأية حركة للجدال أو الغضب. وهو لا يتنازع أبداً بِخصوص الإيمان ولا من أجل شهوة أي شيء، ولا من أجل رغبةٍ شخصية يتمناها مَهما كانت، لكن نفسه تسكن في سلامٍ عظيم يفوق الوصف، وفي هدوءٍ كاملٍ. لِهذا فإنه هو نفسه يَجهل كيف يتحرَّك بالغضب مقابلَ الجهَّال أو من أجل تقويم الآخرين.

[٧٨] لو أن الغيرة كانت نافعة من أجل تقويم الناس، فلماذا اتَّخذَ ابن الله جسداً واستعمل اللطف والوسائل المتضعة لكي يرد العالَم إلى أبيه؟ ولِماذا تَمدَّد فوق الصليب من أجل الخطاة، وسلَّم جسده المقدَّس للألَم من أجل البشر؟ إنني على يقين أن الله فعل ذلك من أجل أمرٍ وَاحِد فقط: أن يُظهِر حبَّه للعالَم، لكي نُحبُّه نحن بقدر إمكاننا، وإذ نتحقَّق من هذا، نصبح أسرى مَحبته. وهكذا فإن قدرة ملكوت السماوات الفائقة التي تقوم على المَحبة، قد وجدت فرصة للتعبير عنها في موت ابن الله على الصليب. ولَم يكن بأي حالٍ من أجل تَخليصنا من خطايانا، ولا لأي سببٍ آخر، أن رَبَّنَا مات، ولكن من أجل غرضٍ وَاحِد، هو أن يَحسّ الناس بِحبّ الله لِخليقته. لأنه لو لَم يكن لِهذا العمل العجيب سببٌ آخر غير مغفرة خطايانا لكانت تكفي أية وسيلة أخرى لتحقيق ذلك. فما الذي كان يَمنعه من أن يُكمِّل ذلك بِموتٍ عادي ليس إلاَّ؟ ولكن إذ قد سَلَكَ هذا المسلك ولَم يشأ أن يَموت ميتةً بسيطةً، لكنه ذاق الموت عبْر آلام الصليب

المريعة، فذلك لكي ندرك نحن السرَّ المَخفي هنا. فلماذا احتمل اللطم والبصاق؟ وقد كان الموت وحده كافياً لفدائنا بغير ما صاحبه من آلام؟

يا للحكمة المُحيية! لقد أدركتَ الآن وأحسستَ السبب في مَجيء رَبِّنَا وكل ماتبعه، كما سبق وأعلنه هو بنفسه لنا بكل وضوحٍ بفمه الطاهر، حين قال: "هكذا أحبَّ الله العالَم حتى بذل ابنه الوحيد"، مُظهِراً تَدْبِير الخلاص والتجديد. فلا ينبغي أن نَخجل من مضمون أسرار خلاص رَبِّنَا؛ لأننا إذا كُنَّا ننسب ذلك إلى مُجرَّد افتداء الخطاة فقط، فنحن نُقلِّل تماماً من قدر موت المسيح ومَجيئه إلى العالَم. وتكون قوة الخطية إذاً أعظم من قوة الله بِما أنه لكي يُمكن إبطالُها استلزم الأمر موت المسيح – أي سرّ تَدْبِير خلاص رَبِّنَا لفدائنا من عبودية الخطية. وكذلك إذا كُنَّا لَم نُخطيء لَما كان المسيح قد أتى ولا ماتَ حيث لَم يكن هناك داعٍ لأن يأتي ويتَّخذ جسدنا الذي كان يلزم أن يتسربل به بسبب خطايا البشر، هذا على الأقل إذا تَمسَّكنا بِحرفية الكِتَاب فقط! وإذا لَم يكن الموت قد تسلَّط علينا بفعل الخطية، لَما كان قد استُعلن سرّ التجسُّد، ولكان البشر والملائكة قد حُرِموا من كل هذه الاستنارة وكل هذه المعرفة. ألعلَّه يكون من المناسب إذاً أن ننسب الفضل إلى الخطية، بِما أننا بسببها قد حصلنا على كل هذه الخيرات، كما ننسب إليها كل هذه العجائب؟ وكذلك فإنه بسببها حتى الملائكة أيضاً حصلوا على الخيرات الْعَظِيمة التي يتمتَّعون بِها الآن، لأنَّهم بسببها يكونون قد استحقوا سرّ مَجيء المسيح. ولو أن الخطية لَم تكن قد ارتُكبت، هل كان بإمكاننا أن نقول إنه يوجد لَهم ولنا رجاء العالَم المزمع، الذي هو الآن موضوع فرحنا الكامل؟ فلماذا إذاً نستنكر الخطية، إذا كانت هي التي جلبت لنا مثل هذه الخيرات، وكان موت مُخلِّصنا وآلامه وكل سرّ تَجسُّده وتَدْبِيره على الأرض، قد أُكمِلَ بِهدف افتدائنا من الخطية وتَخليصنا من جهنم فقط – وهو بنفسه الديّان والذي بآلامه أوفَى الدَيْن بآنٍ وَاحِد – دون أن تكون هناك أسرارٌ أخرى مَخفية، تكون الخطية بالمقارنة بِها كلا شيء؟ لِماذا كانت مثل هذه الشدَّة ضرورية إلى الحدّ الذي تعرَّض فيه ابن الله لِمثل هذه المَهانة، في حين أننا، كما قلتُ، ننسب الفضل للخطية في كل هذه العجائب، كما لو أننا في حالة عدم خضوعنا لَها كُنَّا سنُحرَم من كل هذا، وأن الخطية هي التي هيَّأت لنا هذه العطية التي لَم نكن سنُؤهَّل لَها لو كُنَّا قد بقينا أبراراً.

ولكن ليس الأمر هكذا! أرجوك! لا ينبغي لنا أن نفحص تَدْبِير خلاص رَبِّنَا كأطفال، ولا نُفكِّر في سرِّه العسر الفهم، ونقف عند حرفية الأسفار. ولو أنه لا يُسمَح لنا أياً كان أن نطرق هذا الباب ونرتفع فوق حدود الطبيعة، إلا أنه، في صمت اللسان، ذلك الموضع الذي تَختفي فيه الأسرار، يُسمَح لأبناء السرّ بفحص هذا الأمر بِخوفٍ، وبالتعجُّب أمَّام تَدْبِير خلاص الله. وأمَّام الغِنَى المَخفي والمُستتَر في إعلان آيات الأسفار المقدَّسة. والذين بالنعمة تقبَّلوا موهبة ومعرفة الأفهام، وتعمَّقوا داخل الأسرار التي تضمَّنتها أحرف الكلام المَحسوسة يعرفون حقيقة تَدْبِير خلاص المسيح المذهل، ليس فقط فيما هو ظاهرٌ ومعروفٌ.

للثالوث الأقدس المسجود له، الذي كشف لنا سرَّ الثلاثة أقانيم في سرِّ المَحبة، والذي

استُعلِنَ في جسدنا من أجل فرح الكل، المَجد والسجود والحَمد والتسبيح من بداية الأجيال والآن وإلى دهر الدهور. آمين.

[٧٩] السبب في وجود العالَم وفي مَجيء المسيح إلى العالَم وَاحِد؛ وهو إعلان مَحبة الله الْعَظِيمة الذي دبَّر الأمرَين كليهما.

[٨٠] المرآة التي يُمكننا أن نرى بِها قوة مَحبة الله لِخليقته هي مَجيء المسيح إلى العالَم؛ ومرآة مَحبة المسيح هي آلامه المتنوعة.

[٨١] لقد أعلن الله أن المَحبة هي أسْمى من كل ما عداها، وهي التي بِها أوجَد كل العوالِم، في كونه كرّر إعلانَها مرّةً أخرى من أجلنا بتَدْبِير الخلاص الذي أكمله المسيح؛ وبالمثل، فهو حينما أعاد إعلان هذه المَحبة في المسيح، أظهر أنه سوف يستجليها بوضوحٍ أكثَر للخلائق الناطقة في الدهر الآتي.

[٨٢] شدَّة الفرح الذي يَحصل بواسطة حرارة المَحبة لله، هي التي تُعطِي في العالَم الآتي تأمُّلاً دقيقاً للآلام وسائر أنواع المَهانة التي احتملها المسيح من أجلنا.

[٨٣] كما أن العالَم الحاضر لا يُمكنه أن يستوعب مَجد وعظمة العالَم المزمع، هكذا فإن ضعف الطبيعة التي نحن متسربلون بِها هي غير قادرة أن تقبل سرَّ الأمور المزمعة التي يستعملها الله للعالَم الجديد.

[٨٤] السرّ المَخفي في تَدْبِير الخلاص، يا أحبائي، مرتفعٌ جداً عن مُجرَّد مَحو الخطايا أو إبادة الموت. يا إخوتي، إن الرجاء المَخفي عنَّا الآن، هو أكثَر عجباً وأعظَم قدراً مِمَّا هو بإمكاننا أن نستوعبه اليوم من أجل نُموِّنا. ومن خلال الأمور القَلِيلَة التي بأيدينا الآن ينبغي لنا أن نفهم ما سنحصل عليه فيما بعد، لأن ليس الجَميع يَمتلكون إدراكاً كاملاً بالإيمان أو يلاحظون سيرة البنين الفاضلة. كثيرون، في الحقيقة، ينبغي لَهم الآن التعرُّف على الأمور التي تُثبِّط همَّتنا وتواضعنا.

[٨٥] كما أنه عندما يرتقي أحدٌ إلى التأمُّل الحقيقي بقوة الرُّوح الْقُدُس، ينكشف له الكثير من الألفاظ والمقارنات بصورةٍ ضعيفة وناقصة بالنسبة للحقيقة التي تُمثِّلُها، (حيث إن كلَّها تعبيرات مرتبطة بأوجاعٍ مثل الغضب والشدَّة والدينونة، بالصفة المَحسوسة لإصطلاحاتٍ بعينها حول تَدْبِير خلاص الخلِيقة) – بالمثل، فإن الكثير من النصوص الكِتَابية التي تَختصّ بالهدف من مَجيء المسيح، هي أيضاً ضعيفة وغير كافية بالنظر إلى الهدف الحقيقي من تَدْبِيره لِخلاص العوالِم. والطبائع الرُّوحانية تشهد لَها، وهي لا تعرف الخطاة، الذين لَم يوجدوا أبداً في صفوفِها، وإنَّما تضمّ الذين ارتقوا إلى مثل تلك المنزلة، بواسطة استعلان المسيح.

[٨٦] تَدْبِير الخلاص المُعلَن من أجل هذه العوالِم المرتفعة والأسرار التي استُعلنَتْ لَها، هي أعظَم بِما لا يُقاس من الأسرار التي تَختص بنا، ولو أن موضوع ذلك الإعلان للأولين يَخصّنا نحن؛ وبالمثل هُم أيضاً أكثَر علُوّاً وأعظَم فطنةً مِنَّا في طبائعهم وفي مساكنهم، وهُم أكثَر قرباً

إلى الله مِنَّا، بِما أَنَّهم قائمون خلفه مباشرةً، أنوار خلف النور، البعض منهم خُدَّام مُرافقون للملك. والبعض الآخر قوات ملتهبة وقوف أمَّام عرشه، وهُم قادرون على تنفيذ أوامره، وعلى النظر بدقَّةٍ، دون أي عائق جسدي في أسرار قدسيته. إنَّهم خالون من كل وجعٍ، متشبِّهون بالله على قدر ما يُتاح للعقل المَخلوق أن يكون. وهُم الخدَّام الأَوَّلون لأسرار المسيح، ووسطاء عمل التقديس الداخلي، بِما يُطابق تَدْبِير خلاصه. إنَّهم وقوفٌ حول عرشه الناري بصراخ تقديسهم، أعلَى من العالَم المادِّي، متسربلون بالمَجد والنور غير المرئي.

[٨٧] كل ما قبلته طبيعة الملائكة المرتفعة مِمَّا هُم عليه أو الكرامة التي وُهِبَتْ لَهم، هو أعلَى بكثيرٍ وأعظَم بِما لا يُقاس من أمور خلقتنا. وفي العالَم الآتي، سوف يَهبنا الله بسخاءٍ كل ما يَخصّهم دون نقصان، كل ما قَبِلَتْه دون تَمييزٍ بين الخليقة الثَّانِية وبين ما هو للأولَى، أي الذين هُم الآن الكائنات الرُّوحية. فالمرتبة الرُّوحانية، وعدم الموت، وعدم الأوجاع، والتداخل في الأسرار، والمسكن العلوي (السمائي)... إلخ. كل هذا سبق أن أعطاه الله للملائكة، بِحسب مسرَّته، ولكنه في نِهاية الزمن، سيجعلنا نحن أيضاً كاملين مثلهم في كل ما يَخصّهم، وهذا دون غبنٍ لأي جزءٍ من الخليقة. وحاشا أن يكون ذلك! فمحبة الله هي وَاحِدة لنا وللملائكة القديسين وللخطاة والأبرار على السواء. وما عمله الرب من أجلنا نحن البشر يشهد على ذلك. ونقائصنا الحالية تَحتاج بالضرورة إلى هذا، لأنه بسببها كان تَدْبِير خلاص الله؛ وكأَنَّما كانت نقائصنا تعمل لِمنفعتنا نحن والملائكة بآنٍ وَاحِد في المواضع العالية المُعدَّة لنا. فقد كان من اللائق، حقاً، أن يُستعلَن اشتياق كل وَاحِد مِنَّا من خلال هذه الأفعال. ليس من أجل الله بل من أجلنا نحن. ومع كل مراحِمه التي لا تُحصَى التي يُعلنها، سنصبح أيضاً في فرحٍ عظيمٍ، رغم عدم استحقاقنا، كما قيل في الإنجيل: "الذي يُغفَر له قليلٌ يُحبُ قليلاً". ولكن قَوية جداً هي مَحبة الذي غُفِرَ له الكثير. لأن الإنسان إذا لَم يكن قد سبق له أن تعرَّض للحكم بالإدانة، بسبب ثقل دينه، قد يظنّ أن ما سوف يَحصل عليه بالنهاية هو بِحسب استحقاقه. والحقيقة إنه لا يوجد حكمٌ عادلٌ عند الدينونة لا يقف إلى جانب المذنبين.

[٨٨] ولِهذا، فحتى أمراض الخليقة الحاضرة – كما أوجدنا الله بصفةٍ وقتية أدنَى من الملائكة –، ومكاننا ومسيرتنا في هذا العالَم، والميالة التي تُثقِّلنا، ربَّما كان الله قد دبَّر كل هذه، الأمور التي نَخافها والأمور المَجيدة على السواء، في تَدْبِير الخلاص من أجلنا؛ كل هذا، منذ البداية وحتى الآن يُعلن عن عظمة رحْمته التي لا تُحدّ واقتدار قوته. والذين يستحقون الدينونة يعرفون ذلك، ولا يوجد مَنْ يقول للخالق: "لِماذا لَم تَجعلنا، منذ البداية، مثل الملائكة، ولِماذا لَم تضعنا مباشرةً في المَجد المزمع؟" أمثال هؤلاء لا يعرفون ماذا يقولون، ولا الأسباب الواضحة التي من أجلها وُضعَت علينا الضعفات، وأنه كان يجب أن تكون حلاوة ملكوت السماوات أعظَم بِما لا يُقاس من أمور هذا العالَم الحاضر.

[٨٩] ولِماذا كان يجب أن يُعرَف عندنا طول أناة الله وصبْره، سوى بواسطة عجز الطبيعة وضعفها؟ ولِماذا كان يجب أن تُعرَف شدَّة قدرة الخالق، وأن توجد هذه التغيُّرات في الطبيعة،

وأن تتفجَّر قوة عظيمة في العناصر، لِعقاب المُخالفين؟ وكيف كان يُمكننا أن ندرك الباعث على مَجيء الرب والأمور العديدة التي أُظهِرت بواسطته في تَدْبِير الخلاص لإظهار عظمته وإعلان مَحبته؟ وكيف كان بِمقدورنا أن نتمتَّع بِحلاوة المَحبة، في ملكوت السماوات، بِما أن المعطي هو غير مرئي، ما لَم يكن قد اتَّخذَ، من أجلنا، هيئة مرئية، نستطيع بواسطتها أن نراه بِجلاءٍ ووضوحٍ؟ فبغير ضعفات هذا العالَم الحاضر، تصبح كل الأمور المزمعة كأنَّها مُجرَّد تصوُّرات... غير أن الله الكلِّي الحكمة رب الكلّ، قد زيَّن هذا العالَم الحاضر بكل بَهاءٍ، رغم ضعفاته، وقد ارتضَى أن يصنعه بِهذه الصورة التي هو عليها الآن، وليس بأي شكلٍ آخر: كالعصمة من الخطأ، وعدم الميالة نحو الشرور، والمناعة مقابل البلايا والضعفات. وخارجاً عن إرادته لا يُمكن استبدال أي شيءٍ بآخر، حتى ولو أنه كان يرغب في أن تأخذ الأمور لَها مَجرى آخر مُختلفاً. كل هذا، مع أن الأسفار المقدَّسة تعرض وتُوحِي بأسباب أخرى: مرّةً إلى الشيطان، ومرّةً أخرى إلى عصياننا الوصية الأَولى، وأحياناً لأسبابٍ أخرى، في حين أن السبب الحقيقي هو مَخفي عَنَّا، ومُختلف تماماً عن تصوُّرنا، فقد كُتب: "لو لَم يكن آدم قد أخطأ، لَما كان الموت قد دخل إلى الطبيعة"، في حين أنه من الواضح أن الإنسان، كما يشهد بذلك تركيبه، قد خُلِقَ لكي يَموت، حتى ومن قبل أن أخطأ. أو كما قيل: "فحزن الرب أنه عَمِلَ الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه[١٢٤]"، كما لو كان لَم يعرف ذلك إلاَّ بعد سقطة آدم، وأنه لَم يدرك الأمر من قبل أن يَخلقه، حيث قيل: "كل تكوين العالَم كان في عِلْم الخالق[١٢٥]". أو عندما قيل: "وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثُر وخطيتهم قد عظُمتْ جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلَيَّ. وإلاَّ فأعلم[١٢٦]"، كما لو أن الله كان في حاجةٍ لأن يعلم! وهناك أيضاً أمورٌ كثيرةٌ يُنسَب فيها تَدْبِير الخلاص إلى أسبابٍ أخرى تَختلف بعض الشيء عن تلك التي تُقدِّمها الأسفار الإلَهية بِهذا الشأن، لِمنفعة التلاميذ الذين مازال قلبهم غير كاملٍ ويُعوزه التثقيف. غير أن الله قد أعطَى لِجيلٍ آخر أن يُدرك قصد الأسفار المقدَّسة، مثل ترتيب وأسباب تَدْبِير الخلاص الذي أكمله لصالِح الأَوَّلين، من أجل أبناء سرِّ الحق، جيل أكثَر كَمالاً من الجيل الأَوَّل. وقد فعل هكذا مع بولس الرسول ومع تلاميذٍ آخرين بعده، مِمَنْ قبلوا، بنعمة الرُّوح الْقُدُس، الأفهام والإيضاحات بِهذا الشأن. وعلى نفس النَمط، سوف يُعطَى إدراك السرّ الذي يضبط مسيرة هذا العالَم الحاضر، وما يَحمله من معنى مَخفي داخله، ويُعلنه الله جزئياً وبالتدريج، لبعض الأشخاص، بِما يتناسب مع الوقت ومع تقدُّمهم، بينما يظلّ هذا المعنَى مَخفياً عن عامة الناس.

[٩٠] يا إخوتي، إذا كُنَّا في فصولٍ أخرى قد قدَّمنا أقوالاً مُختلفة حول هذه المواضيع أو غيرها مِمَّا يُشبهها، لأن قصدنا كان إذ ذاك مُختلفاً، فلا يظنّ أحدٌ أننا نلغي ما قلناه سابقاً. اِعلموا أننا إنَّما كُنَّا نتبع المعنَى الظاهر في الأسفار الإلَهية، وأننا تكلَّمنا بِما يتوافق مع هذا المقياس وهذا المَجال، ولكن كلامنا لَم ينفذ إلى أعماق ما هو مَخفي في الأسفار الإلَهية. ولكن

(٤) تك ٦:٦

(٥) بن سيراخ ٢٠:٢٣

(٦) تك ١٨:٢٠،٢١

اِعلموا أيضاً أن الأسلوب الوَاحِد والآخر كلاهُما صادق على التساوي. ففي الحالة الأَولى كان الكلام يدور حول المعرفة العامة للمعنَى الظاهر التي تُقدِّمها لنا الأسفار المقدَّسة؛ وفي الثَّانِية، حول المعرفة السرِّية. وطالَما كانت هذه الأخيرة ليست على قدر قامة الإنسان، فإن الأذن لا تستطيع أن تتقبَّل الأقوال. ولكن عندما يريد الله أن يَهبها، لِمعونة الإنسان، وإذا ما حان وقته، تصبح الأذن قادرة أن تتقبَّل الموهبة. وابتداءً من هذا القول يتقدَّم بعد ذلك إلى معرفةٍ أخرى أعظَم من هذه، وإلى حقائق أخرى أكثَر فأكثَر اختلافاً، تُستعلَن له ليس في الإمكان تسطيرها في ورقٍ؛ بالإضافة إلى تقبُّله شهادة القلب.

[٩١] يقتني العقل يقيناً خاصّاً من المعونة التي يَجدها في الصلاة، لكل ما يطلبه باهتمامٍ وما يَجده في تَجاربه بِحسب طلبات صلاته. ويجد الإنسان من الآن فصاعداً ثقة عظيمة في الصلاة، ويتشدَّد إيمانه، ويقتني قناعة قوية في نفسه تقوم على رجائه في الله. إيضاح: هذا هو صلاح الله الذي يُكمِّل في الإنسان مشيئته الأزلية، ويَجعله مستعداً للعمل بِما يوافق صَلَوَاته، بسبب كثرة تَحنُّنه علينا. وإذ يعمل ذلك، لا يلغي، دون سببٍ، من أجل قدِّيسٍ، قصداً وتَدْبِيراً أساسياً، ولكنه يُنهض في ذلك الإنسان حركات الصلاة من أجل الأشياء التي هو مزمع أن يستجيب لَها، إذ قد أصبح مثل ذلك الإنسان من خواص الله، بسبب الرجاء الذي اقتناه في عقله، ولأنه يَهتمّ بالصلاة الدائمة، التي تكون بتذكار الله الدائم.

[٩٢] هذه هي الموهبة الأَولى التي تُمنَح للمتوحد الذي يعيش في السكون بيقظةٍ وتَحفُّظٍ: عندما يبلغ نِهاية المنزلة الثَّانِية، التي تتوسَّط تَدْبِير الوحدة، ويضع قدمه على عتبة المنزلة الثَّالِثة، التي هي التَدْبِير الرُّوحاني، وتُغطِّيه نعمة الرُّوح الْقُدُس بتظليله – يُعطَى له، قبل كل شيءٍ، انجماع العقل؛ ومن ههنا يقتَرب من المواهب الْعَظِيمة التي تكلَّم عنها الآباء.

[٩٣] وإذا حصل انجماع العقل هذا خلال المنزلة الثَّانِية، التي هي التَدْبِير النفساني، تكون المعونة التي تأتي من الله قَلِيلَة الأهَمية، ولا تُعطَى سوى في وقت الخدمة والصلاة فقط، على قدر ما يَحفظ المتوحِّد سكونه وانعزاله عن الناس. هذه المعونة تصبح الآن مصحوبة بالنقاوة، ولكن ليس بصورةٍ كاملةٍ بعد، كما يشهد القديس يوحنا المتوحِّد: "نادراً ما يثبت انجماع العقل، لأنه لَم يتنقَّ تماماً من كل طياشة". وحينما يصل إلى المنزلة التي ينتهي عندها التَدْبِير النفساني، يتقبَّل المتوحِّد تدريجياً مزيداً من الموهبة التي تَعظُم وتتقوَّى، لأنه يبدأ بِمشاهدة الميناء أمَّامه. وإذا ما وصل إلى مدخل التَدْبِير التالي (أي التَدْبِير الرُّوحاني)، تَحتضنه هذه القوة تماماً تحت ظلِّها، وتُعطَى له منذ الآن ليس فقط وقت الخدمة والصلاة، بل وأيضاً في أوقاتٍ أخرى. ويكون في كل حينٍ كَمَنْ هو مُنتشٍ بالله، ويكون عقله باستمرارٍ وبصفة تلقائية مُنجمعاً في دهش السرّ الذي لا يُنطَق به. وإذا حدث وانشغل في أي هذيذٍ، أو قرأ في الأسفار الإلَهية، تتوقَّف حركته بغتةً ويَمكث على هذا الحال وقتاً طويلاً. هذا يَحصل (فقط) للمتقدِّمين جداً. لأن مثل هذا التوقُّف يَحصل بِحسب مقدار كل وَاحِد. البعض يَمكثون هكذا ليلةً ونَهاراً على الأكثَر، والبعض أقل من ذلك. إيضاح: التَدْبِير النفساني هو سيرة التوبة؛ ويُمثِّل المنزلة

المتوسطة من تَدْبِير الوحدة، أي درجة التائبين. والمعرفة التي تناسب هذه المنزلة آنذاك هي إدراك عميق للعقل، ولكنها لا تصل بعد إلى إدراك الأمور الرُّوحية، لأن هذه الأمور تفوق المعرفة المُتاحة في ذلك الوقت.

[٩٤] لا يعجب أحدٌ من هذا: أنه ليس بسهولةٍ يوجد جَمع العقل، حتى ولا الانجماع الجزئي الذي يكون في وقت الخدمة والصلاة. لأن جَمع العقل لا يكون من أعمال الجسد فقط، كما ولا يكون لأناسٍ مبتدئين، ولا كيفما اتفق؛ ولا يصبح سهلاً في وقتٍ قليلٍ، بل بسكونٍ كثيرٍ وبعمل القلب يُعطَى لأناسٍ قد تركوا العالَم بالكلِّية، وماتوا بالكمال من نظر الناس ومن سَماعهم. فإن كان أحدٌ يُعدّ نفسه هكذا ويتهاون (أي يزدري) بالجسد وبالعالَم من أجل مَحبة الله، فهو أولاً، كَمَن يذوق شيئاً ما، يُؤهَّل لِجمع العقل الجزئي (أي الذي يكون وقت الخدمة والصلاة)، وبعد ذلك ينمو به هذا الأمر مثل الزرع، ويبلغ بنعمة المسيح إلى تلك الموهبة التي ليس لَها قياس. فلتجذبنا، ياأحبائي، شهوة هذه الموهبة فنقطع مِنَّا أمور هذا العالَم وننبذه، ونُسرِّع سيْرنا تبع المسيح له المَجد.

[٩٥] إذا سأل أحدٌ: "أين يوجد العقل في هذه الأوقات التي يكون فيها منجمعاً متسامياً؟" هو ذا ما تقوله الأسفار الإلَهية: "ولَمَّا صارت الشمس إلى المغيب وقع على أبرآم سباتٌ[١٢٧]"؛ وأيضاً: "فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام[١٢٨]". وتُتَرجَم كلمة "سُبات" أو "سكون" في اليونانية إلى "دهش". وهذا هو ما يقوله المفسِّر في معنَى "الدهش": "الدهش هو ما يكون خارجاً عن النظام العادي، وبعيداً عن كل ما يُمكن للإنسان أن يَحسّه". والآباء المتوحِّدون يدعونه "انجماع الذهن" الذي يكون من النعمة، وهو عربون أفراح الدهر الآتي.

[٩٦] إلى أن تبدأ فيكَ بنعمة المسيح حركات أفكار الاتضاع قليلاً قليلاً، فلستَ تَحسّ بِمذاقة جَمع العقل ولا بالمعونة التي تكون من أعمالك، ولا ينقبض ضميرك من الطياشة، ولا يُمكنك أن تصبر بثباتٍ وبغير اضطرابٍ ولا سجس مقابل العوارض التي تَحدث لكَ وتُصادفك. فإذا ما بدأَتْ تتحرَّك وتتأسَّس فيكَ أفكار الاتضاع برحْمة الله، فقبل كل شيءٍ يُرفَع عنك الضجر ويُعطَى لكَ اعتِرافٌ وشكرٌ دائمان. حتى إذا كنتَ جائعاً أو عطشاناً أو مريضاً أو مضنوكاً من إنسان، فإنك تعتَرف وتشكر دائماً، ولا يَهدأ لسانك من الشكر ساعةً وَاحِدةً. كما أنك تَجد ذاتك على الدوام أنك أنتَ مُذنب لكل أحدٍ في كل حينٍ وفي كل شيءٍ. ولن يظهر لكَ أن أحداً من الناس أساء إليك أبداً؛ بل إنك أنتَ هو السبب في جَميع الشرور التي تَحدث لكَ، وفي كل ضنكٍ وحزنٍ يصيبك.

[٩٧] وأقول لكَ الحق باختصارٍ: ما دمتَ لَم تَجد الاتضاع بعد، فإنك تُجرَّب بالضجر أكثَر من كل شيءٍ؛ والضجر يُولِّد لكَ إلقاء اللوم على الآخرين دائماً، ويَجعلكَ ترى أن أكثَر الناس قد

---

(٧) تك ١٢:١٥

(٨) تك ٢١:٢

أساءوا إليك. وإذا كنتَ تنظر في الصلاة حسناً فإنك بِموجبها ترى أنك مُدبِرٌ وغير جيِّدٍ؛ وإلا فإنك سوف ترى كل شيءٍ بضد الواجب.

[٩٨] والإنسان يرى كل الأشياء التي تعرض له أنَّها حسنة، حينما يكون قد وصل إلى الدرجة التي يتلامس فيها مع تكوينه الداخلي.

[٩٩] يا يسوع، ملكنا، أنتَ عزَّتنا، وكل فمٍ يُمجِّدكَ؛ وفي كل زمانٍ تُقدَّم لكَ باكورات أفكارنا الخفية؛ يُمجِّدك كل بني آدم، ونحن نرفع لكَ التسبيح بفرحٍ عظيمٍ ومَحبةٍ مُلتهبة، لأننا بواسطتك علمنا مسرَّة أبيك التي كانت مَخفية منذ الأزل، ونلنا خيرات جَمَّة رغم أننا نستحق العقاب. بواسطتك حصلنا على المعرفة، بينما كُنَّا نسلك بالجهالة كالحيوانات المتوحِّشة. لقد صرتَ كباكورةٍ لكل بني جنسنا، وتقدَّمتَ إلى الله، ورفعتَ إليه توسُّلاتنا، وهو الذي ليس بِحاجةٍ إلى تضرُّعاتنا، لأنه من قِبلكَ ارتفعت صَلَوَاتنا أمَّامه، وقد مُزِجَتْ صَلَوَاتك بالتي لنا من أجلنا. أنتَ هو ديَّان الكل، لأنك احتضنتَ الكل، ومن أجل الكل، بالحب، وصالَحتَ جَميع الخطاة مع الله. أنتَ لَم تُقدَّم من جانبنا مثل باكورات القطيع. فطبيعتنا لَم تكن تقدر بعد على مثل هذه الرؤية. بل هو الإله الفائق الحلاوة صالَحنا هو لنفسه، وسُرَّتْ مشيئتُه أن تبذل أنتَ ذاتَك من أجلنا قبل أن نتصالَح نحن معك، بل ولَم يكن شيء مثل هذا قد خطر على بالنا، لكي لا يفتخر البارّ مُدَّعياً بأنه هو السبب في كل هذا الذي حصل. "لأنه ليس بارٌّ ولا وَاحِد"، كما قال بولس الرسول مؤكِّداً قول داود النبي. وحِمل شرورنا لَم يكن ثقيلاً جداً بالنسبة لكَ، لأنك لَم تعرفه اليوم فقط، بل قد كنتَ تعلم تماماً كل هذه الأوجاع من قبل أن تأتي بطبيعتنا إلى الوجود، فبعد أن وضعَتْ الخطية بصمتها على جَميع بني جنسنا البشري تصالَحتَ أنتَ معنا.

[١٠٠] مَنْ ذاك الذي يُمجِّدك كما يليق بكَ، يا الله، آب الكل، واهب الخيرات دون أن يسألكَ أحدٌ؟ يا ربي، لَيْتَ رجاءك لا يُمحَى من قلبنا لكي يظلّ تذكارك أيضاً ثابتاً على الدوام في عقلنا. لَيْتَ الذي رفعته إليك من أجل الكل، لكي يثبت جَميع البشر في الرجاء، يُقدِّم لكَ باسْمنا كل الشكر. لَيْتَ ولا وَاحِد من الناس الذين هم أعضاء في جسد المسيح، يستَريح في البعد والانفصال عنه، بل ينجذب الكل إلى ذاك الذي هو الآن في السماء، والذي العالَم كلّه يُقدِّم له المَجد. ويفرح الكلّ بالذي صار باكورة في ذلك المَجد الْعَظِيم، الذي يفوق قدرة أي لسانٍ جسدي على النطق به. آمين.

نهاية المقالة الرَّابعة من رؤوس المعرفة.

أشكرك يا ربي وإلهي يَسُوع الْمَسِيح

أذكُروني في صَلَوَاتكم

الجداول[١٢٩]

النسخة العربية وما يُقابلها في الأصول السُّرْيَانية المتَرجَمة

النسخة العربية		المخطوطات الأجنبية
الجزء الأول	=	وراثية ١٧ فصلاً في الميمر الثالث من الجزء الثاني لفرنس. وقيمته غير موجودة أيضاً في مخطوطات أخرى.
الجزء الثاني الجزء الثالث	=	يقابلهما الجزء الأول الإنجليزي.
الجزء الرابع	=	رؤوس المعارف وراثية 6 فصلاً في الميمر الثالث من الجزء الثاني حسب المخطوط لفرنس.
الجزء الخامس (مخطوط)	=	تترجم الجزء الثاني عن الإنجليزي ما عدا الميمر الثالث (رؤوس المعارف).
الجزء السادس (مخطوط)	=	تترجم المقدمة من الجزء الثاني عن مخطوط فرنسي وتشمل رؤوس المعارف الكاملة.

[١٢٩] نُشر بالتعاون مع الدكتور الراحل.

جداول المقابلة بين التَرجَمة (الجزء السَّادِس)

وما جاء منها في الجزئين الأَوَّل والرَّابع من النسخة العربية

أولاً:

المقابلة بين التَرجَمة (الجزء السَّادِس)

وما جاء منها في الجزء الأَوَّل من النسخة العربية

المقال الأولى	الجزء الأول	المقال الرابع	الجزء الأول
ء	م ء : ا	١٥	م ٌ : 3
المقال الثالث	الجزء الأول	ي ء	م ٌ : 2ي 6
6ً	م ٌ : ء	ء	م ٌ : ء
ٌ	م ٌ : ٢١	3	م ٌ : ا
36ي 2	م ء : 3ي 2	٣١	م ء : ي ٣١
2 – 22	م ٌ : ء	ا – ا	م ء : ء – ا
المقال الخامس	الجزء الأول	ٌ - 3ً	م 3 : 6 - ١٥
٦١	م 3 : ١٥ي ١٦		

ثانياً:

[١] المقابلة بين المقالة الأَوَّلي من التَرجَمة

وما جاء منها في الجزء الرَّابع من النسخة العربية

المقال الأولى	الجزء الرابع	المقال الأولى	الجزء الرابع
١	م ء : ١	ً	م ء : ً
ّي ً	م ء : ء	ّي ٦١	م ء : ٢١
3	م ء : ا	ً	م ء : ء
6ي ١٠	م ء : ٌ	ً	م ء : ٤
ً	م ا : ّ ا	ٌ	م ء : ٌ
2	م ء : 2	2ً	م ء : ّ
6	م ء : 6	6ّي 3ً	م ء : ً
ً ا	م ء : ١٠	3	م ء : ً ي 3
ّي ّ ا	م ء : ١١ ي ١٢	3ً - 32	م ء : 3
3ي 2	م ء : ١٣	36	م ء : 2
6ي ٌ	م ء : ١٤	2ً	م ء : 6
ٌي ٌ	م ء : ١٥	٨١ي 2	م ء : ً ا
ٌ - 2ٌ	م ء : ١٦	2ي 26	م ء : ٣١
6ٌ	م ء : ١٧	6ً	م ء : ٤
ّ	م ء : ١٨	٩١	م ا : ١
ّ ا	م ء : ١٩		

[٢] المقابلة بين المقالة الثَّانِية من التَرجَمة

وما جاء منها في الجزء الرَّابع من النسخة العربية

المقال الثاني	الجزء الرابع	المقال الثاني	الجزء الرابع
3 – ١	م ١ : ١	١	م ١ : ١٢
2	م ١ : ٢	٢ - ٤	م ١ : ١٣ ي ١٤
١٠	م ١ : ١٠	٤ي ٢	م ١ : ١٥ – ١٦
١١	م ١ : ١١	١٥ - ١٦	م ١ : ١٦
١٣	م ١ : 3	١٦ي ٢	م ١ : ١٧
١٤	م ١ : 2	2ي 6	م ١ : ١٨ ي ١٩
١٩	م ١ : 6	3ي 3	م ١ : ٢٠ ي ٢١
٢٤	م ١ : ١٠	26	م ١ : ٢٦
١	م ١ : ١١		

[٣] المقابلة بين المقالة الثَّالِثة من التَرجَمة

وما جاء منها في الجزء الرَّابع من النسخة العربية

المقال الثالث	الجزء الرابع	المقال الثالث	الجزء الرابع
٥	م ١ : ٤	٣	م ١ : ٦
٦ – ٣	م ١ : ٤	٣	م ١ : ٨
٨	م ١ : ٤	٣ي 33	م ١ : ٣١
٤١ – ٨	م ١ : ٣	36	م ١ : ٤١
٨	م ١ : ٦	٦	م ١ : ١
٥	م ١ : ٦	١٠٠	م ١ : ٨

[٤] المقابلة بين المقالة الرَّابعة من التَرجَمة

وما جاء منها في الجزء الرَّابع من النسخة العربية

المقال الرابع	الجزء الرابع	المقال الرابع	الجزء الرابع
١ي ٤	م ١ : ٥	٦ - ٦١	م ١ : ٢ - ٥
١٥	م ١ : 3	٣ - ٣	م ١ : ١٠ – ١٥
٢ي ٨	م ١ : 3 ي 2	٣ - 33	م ١ : ١ي ٤
٤١ي ١	م ١ : 6	٦	م ١ : ١
٤١ي	م ١ : ٥	63 ي ٦	م ١ : ٨
٢ - ٥	م ١ : ٤١ - 3		

مَيَامِر

مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانـي

الجزء السَّابع

Ⲇⲣⲓⲡⲁⲙⲉⲧⲓ ⲇⲉⲛ ⲡⲉⲕⲱⲗⲏⲗ: ⲡⲓⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ

Ⲁⲑⲁⲛⲁⲥⲓⲟⲥ ⲡⲓⲣⲉⲙ Ⲙⲁⲕⲁⲣⲓ ⲡⲓⲣⲉⲙ Ⲣⲁⲓⲁⲛⲏ

Αθανασιος τοῦ Μακαριου τοῦ Ραιιανη

אתאנאסיוס אֲתַנָשְׁיוּשׁ

مَيَامِر

مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي

الجزء السَّابع

Oeuvres Spirituelles – III

no 88،Spiritualité Orientale

Edditions Bellefontaine 2009

مَيَامِر مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي – الجزء السَّابع

ترجمة بتصرف عن

Isaac le Syrien

Ouvres Spirituelles – III

daprés wi manuscrit récement découvert

ترجمة : **الأب مينا المقاري المتوحد، وبعض الآباء الرهبان والإخوة الأحباء. يناير** 2010**م.**

كِتَابة على الكمبيوتر والتنسيق الرَّاهِبُ أَثَنَاسِيُوس الأَنْبَا مَكَارْيُوس - الْبَرَّيَّان.

אתאנאסיוס אתנשיוש

دَير الْقِدِّيس الْعَظِيم الأَنْبَا مَكَارْيُوس القس السَّكَنْدَري الأثري

- بَرِّيَّة الْبَرَّيَّان – الفَيُّوم – مِصْر. ١٧٣٠ ش – ٢٠١٣م

الفهرس

تقدم : ٧٣١
اليوم الأول : 3
اليوم الثاني : 3
اليوم الثالث : 33
اليوم الرابع : 3
اليوم الخامس : 32
اليوم السادس : ٧٥١
اليوم السابع : 3
اليوم الثامن : 33
اليوم التاسع : 33
اليوم العاشر : 33
اليوم الحادي عشر : 32
اليوم الثاني عشر : 322
اليوم الثالث عشر : 36
اليوم الرابع عشر : 2
اليوم الخامس عشر : 2
اليوم السادس عشر : 22
اليوم السابع عشر : 2 6
تأمل : ٨١٠
صَلَوَات : القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني الْعَظِيم في الْعَارِفِين : ٨١١

تقديم[١٣٠]

في مقدمة الجزء السَّادِس من مَيَامِر مارِ القدِّيس إِسْحَاق السُّرْيَاني كانت قد وردت إشارة إلى أنَّه قد تم العثور على مخطوطة آخرى في مكتبة طهران تحتوي على مجموعة من المَيَامِر لم يسبق نشرها. وكان الأب Sabino Chiala من دير Bosa بشمال إيطاليا قد تمكن من الحصول على صورة منها وعكف على دراستها.

وقد وصلتنا مؤخراً ترجمة فرنسية لهذه النسخة للأب Andre Louf، وهيَ التي نقدم هنا بمعونة الله ترجمة لها لمنفعة الجميع تحت عنوان "مَيَامِر مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني – الجزء السَّابع".

ويضم هذا الجزء ١٧ مَيْمَراً، وجدنا من بينها بضعة مَيَامِر تضّمنتها الأجزاء التي سبق نشرها سوف يتم الإشارة إليها في أمَّاكنها.

بركة صَلَوَات جميع القدِّيسين تعين ضعفنا. ولرَبِّنَا وإِلهُنَا يَسُوع الْمَسِيح المجد والتسبيح الدائم مع أبيه الصالح والرُّوح الْقُدُّوس إلى الأبد. آمين.

8 – 12 - 2009

شهادة القديس بطرس خاتم الشهداء.

[١٣٠] نُشر بإذن القمص مِنَا الفارس المحترم.

المَيْمَر الأَوَّل

عن حياة الوحدة وما تتضمنه من تصوير للأمور العتيدة المرسومة فيها للذين يحفظونها

١ – حياة المتوحدين فائقة لهذا العالم، وتَدْبِيرهم يشبه تَدْبِير العالم العتيد، كما هو مكتوب : "لأَنَّهُمْ فِي الْقِيَامَةِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يَتَزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةِ اللهِ فِي السَّمَاءِ."مت ٢٢ : ٣٠". لكنهم في المقابل "يتقبَّلون" الخُلطة مع الله وجهاً لوجه. وبفضل هذه المشابهه الحقيقية للعالم الفوقاني فهُم يلتصقون به بلا إنقطاع في الصلاة. لأنَّ الصلاة بحسب تَدْبِيرها هي التي أكثر من كل شيء تُقرَّب الإنسان من فكر الله، لَيْتَحد به وتجعله يتألق في جميع تدابيره.

٢ – إنني أُركِّز بشدَّة علي أن تكون طلباتنا المُعتادة في صَلَوَات الساعات بحسب ما تسلَّمناه من الذين سبقونا، حتى نتحصَّن بصَلَوَات هؤلاء الفضلاء. فإن إستقامة الصلاة وكل أنواعها الحسنة التي إستلمناها منهم تجعلنا نذكرهم بالأكثر. وهكذا فإنَّ الغيرة التي نستلهمها من تفوُّقهم تحفظ صلاتنا نقية من كل تراخٍ وكسل، وتمنعها من الطياشة نحو الأفكار.

٣ – ومن أجل هذا فإنَّ الله، سيد الكل، يتنازل ليستجيب صَلَوَاتنا كلما اشتعلنا بالغيرة من نحوهم."فهو بذلك" يُزكِّي أمَّامنا التَدْبِير الحسن، ويُرينا كم هو كريم عنده. وهكذا فإنَّ الذين سلكوا هذا الطريق يصيرون ملجأً للأخرين ليس فقط أثناء حياتهم بل ومن بعد نياحهم أيضاً.

٤- وأنا أُؤكّد ذلك بحسب الكُتُبْ، لأن الله يصنع كل شيء بحسب القصد الذي وضعه فيها، وأعظَّم أيضاً قديسيه، بحسب المكتوب : "وَأُحَامِي عَنْ هذِهِ الْمَدِينَةِ لأُخَلِّصَهَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِي وَمِنْ أَجْلِ دَاوُدَ عَبْدِي"٢مل١٩ :٣٤ ، إش ٣٧ : ٣٥ .

٥- وهذه هي الطرق التي ندرك بها العِشرة مع الله، واثنان منها تختصان ببداية عمل القلب الذي يقتنيه الجالس في السكون، وبهما يتقوى الفكر ويتنقى ويطرد التواني ويشتهي كل حين الإنشغال بالأمور الطاهرة النقية.

٦- تعهَّد إذن أنْ تتخلص من ذِكر العالم الذي لازال مُتسلطاً علي فكرك، حتى تبلغ بواسطة حرارة الذكريات الحسنة الدائمة إلى الإنشغال النقي الذي للفكر، ومن هذا الإنشغال الحسن يتولد أمران يختصان ببدء تَدْبِير الذين يهتمون بالأمور العليا: وهما الإهتمام الفاضل والهذيذ الحسن.

٧- أول هذين الأمرين المرتبطين بالبداية يتضمن تأمل الكائنات المخلوقة والدهش أمَّام قصد الله من نحونا – سواء كان قصده الأزلي من قبل البداية أو قصده من نحو البشرية في نهاية الزمان. أمَّا الأمر الثَّانِي في تَدْبِير البداية فهو الهذيذ.

- طوبى لمن يبقى منفرداً في الله، ويمكث طويلاً وعلي الدوام مأخوذاً بالدهش أمَّام الطبيعة "الإلهية"، الذي ارتفع وعيه فوق ذاته، وأصبح فكره منذ الآن متحكماً بالرُّوح، الذي إقتبل معرفةً فائقة وإيماناً بالأسرار، الذي يضاعف تأملاته في العالم الجديد وتفكيره وهذيذه

بإهتمام في الأمور العتيدة، الذي يتغرَّب بإستمرار وينطلق نحو هذه الأمور، الذي تُستعلَن له الأسرار والعوالم المتجلِّية.

٩- حينئذ تتغير الأفكار داخل الجسد، بل والجسد نفسه يبدو وكأنه غير جسدي، والفكر يتحول من مقرٍّ إلى آخر- وكل هذا يحدث دون أنْ يشتهيه الإنسان. فلا يبقى أمَّامه سوى أنْ يرى مسيرته تنضم وتتحد بالجوهر الإلهي. لأنه حينما تقترب هذه المسيرة من نهايتها، ينتبه الفكر إلى أصل وبدء كل شيء، والطبيعة العاقلة تفحص بإستعلاناتٍ الجوهر الإلهي من خلال سمو حبِّه الفائق.

١٠- كل هذا يكون من نصيب العاقلين دون أنْ يحتاجوا إلى طلبه بإلحاحٍ"مندفعين" برغبةٍ صالحة. حينئذ لن يكون البعض معلِّمين والبعض الآخر متعلِّمين. بل يصير الكل مجموعين في حالةٍ وَاحِدة، والكل يكفُّون عن العمل لكونهم مأخوذين بالدهش أمَّام الحُبِّ، مثل هذا الشيخ ؟ الْعَظِيم. فإنهم يرتفعون معه إلى سيرة حسنة، مهتمين بالعمل الفائق.

١١- وبفضل هذا الإنشغال مع الله وليس بأمور العالم السفلي، ينظرون إلى هذا التَدْبِير بأعين النفس، مقارنين أمور هذا العالم بتلك التي فوق، لأنَّ المتوحد يصير بلا عمل ويكون هذيذه الدائم في الأمور العليا، لأنه ملتصق بها سواء تكلم أو حفظ السكوت. وحينما يصلون إلى هذا الحد، يبذلون قصاري جهدهم منذ الآن لضبط لسانهم"حتى" عندما يتلون كلام الله، دون التشديد علي تكميل القانون المفروض حينما لا يكونون مضطرين إلى ذلك، إلا إذا جاءهم دافع أثناء الصلاة أو الترتيل ليعينهم ويجعل ذهنهم مأسوراً في الله.

١٢- وعندما يثبتون في هذه المراتب العليا، ملازمين طقس العلويين ومحتفظين بالسكوت الكامل بدون أية تجربة- الأمر الذي كانوا عاجزين عنه تماماً فيما سبق- حينئذ يهتمون بالجسد كإناء في خدمة الخالق، فيظهرونه بكل تدقيق، ليس كشيء أرضي يخدم احتياجات الأرض، بل كإناء للقداسة مستعد أن يرتفع إلى السماء من أجل الملكوت الذي سينعمون به شخصياً في العالم الآخر.

١٣- بل إنهم ينعمون به وهم ههنا، بسبب اشتياقهم الشديد إليهِ، فيشتهونه كإشتهائهم للأسرار، ويتحوَّلون إلى مشابهته بنعمة الرُّوح. لأنَّ الإشتهاء الشديد قادر حتى بدون عملٍ أنْ يعطي شركةً، بفعل التصور، ويجعل النفس كأنها مُخَّبلة بالفرح، ويلاشي كل ما في الفكر، إذ يجعله متحداً بذاك الذي يفوق الكل، ولا يكون الذهن حينئذ مرتبطاً بشيءٍ.

١٤- وبسكون الجسد وإختفاء كل أمور العالم، يتصوَّر المتوحدون حينئذ ذلك السكون الحقيقي وتلك الرَّاحَة من كل ما للطبيعة اللذين سيكونان حينما ينحل هذا العالم المادي، وحينما يتحدون بعقولهم بالعالم الرُّوحاني، فينطلقون في ذلك الآفاق العليا بالهذيذ، وينعمون بلا انقطاع بحلاوة الدهر الآتي.

١٥- يا أخي، مثل تاجر مجاهد، لنهتم أكثر من كل شيء بتَدْبِير الفكر. لو كان السعي نحو الله وحبّه موجوداً في الأمور الخارجية فقط، لاستطاع الفلاسفة أفضل منا الإقتراب من هذا الحب. فحيث إنَّ كل جهادنا هو فيما يخصَّ الجسد، علينا إذاً أنْ نبذل قوانا في أموره. ونطلب من الله بغيرةٍ لائقة ما هو ضروري لذلك.

١٦- ليس شيء يقدر أنْ يحلَّ الفكر من الإرتباط بهذا العالم مثل ملازمة الرجاء، وأيضاً ليس شيء يقدر أنْ يوصلنا إلى الدالة مع الله مثل طلب حكمته، كذلك ليس شيء يقدر أنْ يجعلنا نرتفع في الحب مثل التعرف علي محبَّة الله لنا، وليس شيء أيضاً يقدر أنْ يرفع الذهن إلى الدهش بعيداً عمَّا يُرى، ويجعله يستقر عند الله بعيداً عن العالم مثل أنْ نتأمل أسرار طبيعته.

١٧- طبيعة الله غير المرئي تُعرف من أسراره، تلك الأسرار التي يشتهي الله أنْ يعلنها لنا، والتي تُعرف بالهذيذ في تكوين الكون. فأفضل مَنْ يتمعَّن بلا انقطاع قصد الله من الخلاص وكافة استعلاناته وما يُنعم به لتقويم المعرفة، هو هو المؤمن ذو الذهن النشيط الذي يتأمل بلا ملل في هذه الحقائق.

١٨- هذا هو الهذيذ الممدوح والإنشغال النقي لدي الله. هذا هو ما يزرعه في النفس التأمل الصالح، إذ تجد فيه النفس الحكمة العليا. وهو أيضاً الذي تقوم عليه سيرة المتوحدين المجيدة وإقامتهم علي الدوام في الوحدة ومسكنهم الكائن بكلَيْتَه في العلاء وقد اختاروا البعد عن العالم كلية : هذا هو الجلوس العجيب الذي يكشف سر القيامة والوجود في السماء، وهو دليل الحياة مع الله. لأن المتوحدين قد ماتوا سرًّا، وصاروا أحياءً سرًّا، وارتفعوا سرًّا إلى السماء، بينما لاتزال أجسادهم علي الأرض. والرُّوح هو الذي يفتقدهم ويعمل كل ذلك بتوسط العقل.

+ ملاحظات :

+ مُلازمة الرجاء ـــــ لتحل الفكر من الإرتباط بالعالم.

+ طلب حكمة الله ـــــ لتصل إلى الدالة مع الله.

+ التعرف على محبة الله لنا ـــــ يجعلنا نرتفع في الحب الإلهي.

+ التأمل في أسرار طبيعة الله ـــــ يرفع الذهن إلى الدهش.

+ التأمل في تكوين الكون ـــــ الهذيذ فيه.

المَيْمَر الثَّانِي

عن تَدْبِير الجسد في السيرة التوحدية، وفي الزِّي المتواضع للأعضاء الخارجية.

+ ينبغي علينا أنْ نبدي اهتماماً كبيراً أيضاً في كل ما يخص المظاهر الخارجية لقانوننا، لأن الهدف منها هو حفظ سلام الأفكار. فالترتيب الخارجي يُعرِّف فكر القلب كيفية العمل والسلوك في كل موضع، ذلك لأنه هو الذي يلقِّنه كيف يتدبَّر في الداخل في مواجهة الشر، حتي ولو كانت أمور العالم بعيدة عنه. فالزِّي الحسن للجسد ضروري جداً من أجل سمو الفكر، تماماً مثلما يتأتي من الإهمال وعدم ترتيب الجسد تشويش كبير للفكر.

٢- وعلى ذلك، ينشأ في القلاية جهاد شديد مقابل الرذيلة، لأن أفكاراً عديدة سبق وخمدت من قبل وصار الفكر في سلام من جهتها بسبب إهتمامك، تعود للحياة من جديد نتيجة لتراخي العيون والحواس. وعلى الرغم من أنَّ كل أمورك تصير في سلام بأمَّاتتها، إلا أنَّ عادات كثيرة تكون قد إنغرست هناك من سلوك الجسد ومن عثرات السيرة السابقة. لهذا ينبغي زيادة الإهتمام بشأن صلاة القلب والحزن والتواضع والهذيذ في الأمور العالية.

٣- هذه الأشكال المتنوعة التَدْبِير بسيرة فاضلة، تجعل النفس تتقدَّم في جمال تَدْبِيرها، وذلك يؤدي حتماً إلى أنْ تقتني في ذاتها مشابهتها تماماً.

٤- بمعنى أنَّها تقتني المثابرة، والفرح في الضيقات، وسكون السيرة، والثبات في الوحدة، وطهارة الأعضاء، والإزدراء بشهوات الجسد، والإهتمام الدائم بالقداسة، وعدم التفكير في الذات الذي تأتي منه القدرة علي كبح الجماح غير الإرادي للنفس التي مازالت للآن تعوزها الحرية، وهو ما يكشف عن كونه عَرَضاً للكبرياء الكامنة في داخل الإنسان.

٥- هذا بالإضافة إلى فحص النفس كما في مرآة، وعن طريق استخدام التفاسير والشروحات التي يستطيع الإنسان أن يجدها في أقوال جميع القديسين، يمكنه أنْ يرسم لنفسه منها صورة لما يجب أنْ يكون عليه الجزي في طريقه دون كلل، بفضل تذكُّر مثابرتهم وبهائهم الذي يملأ النفس بالفرح.

٦- وبسبب الإنتصارات التي أحرزها القديسون فإن المتوحد ينأي بنفسه بعيداً عن أمور العالم، ويجد عزاءً في الحروب التي تأتي عليه، ويقتني ضميراً جاحداً لذاته وقلباً متواضعاً . إنه يتزيَّن بتدابير فائقة ويحيا منذ الآن بلا حيرةٍ أو خوف، لا يدرك سوى شيء وَاحِد: أن الله أبوه، وهو إبنه، لأنه لا يوجد بعد الآن شيء "يفصل" بينه وبين الله!.

٧- هذه الدرجة من الكمال تتطلَّب عزماً صادقاً للالتزام بالسيرة النُسكية في السكون وجهاد الوحدة في مغارةٍ، مع جسد واهن، وضمير متشبِّب، وحواس ضعيفة، وأفكار متألقة بالنور، وذهن يطير ويرتفع في تأمله نحو الله، وضمير ينقبض من العالم ويطيش بهذيذه في الله، مع جسدٍ يقيم فيه، ولا يجد أي فكر له مكاناً عنده.

٨- وعندما يُسرُّ القلب بهذه الحقائق التي تفوق عليه، وتدوم معه، يتوقف كل إنشغال مادي ويصير مُوجِعاً. القلب يطفر بالفرح، وإنْ كُنا لا نعلم، لأنه يُقال : لئلا يرتفع القلب.

٩- أيُّها الرب يَسُوع الْمَسِيح إِلهُنَا مغني الكل، أخرجني من الظلمة إلي معرفتك ونورك لكي أسبحك تسابيح القلب لا الفم وحده.

المَيْمَر الثَّالِث[١٣١]

في الصلاة،وكيف أنها تربط عقلنا بالله، وكيف تتبع الهذيذ الذي تتضمنه وتحققه، وبفضل الحركات الفاضلة التي تحتويها تشدِّد الذهن ضد محبة العالم التي تجلب الأوجاع.

+ ليس هناك تَدْبِير يقدر أن يُخرج العقل من هذا العالم وينجّيه من الخطايا مثل الهذيذ الدائم بالله. هذا العمل عسر هو جداً وصعب، ولكنه مدهش، خفيف أيضاً ولذيذ. وأنت يا أخي الحبيب جداً، أحبب الهذيذ الدائم بالله ،فهو الباب الذي ينغلق أمَّام كل الأفكار الفاسدة، فابدأ بكثرة الصَلَوَات على الدوام. والصَلَوَات الدائمة هي هذيذ دائم بالله.

٢- فالهذيذ الدائم بالله هو يجعلنا مداومين الصلاة. ومداومة الصلاة بغير انقطاع،هذه تُحرك القلب للهذيذ بالله بغير فتور، وتجعل العقل سماوياً بالحركات الفاضلة الموافقة للتعليم الإلهي، وبالأقوال التي توجد فيها وتقود إلى مخافة الله.

٣- وبحسب ما تُعلَّمنا وصايا سيدنا عن الصلاة، وكيف ينبغي أن تكون حياة المسيحي، وما هو الذي ينبغي أن يطلبه في الصلاة، فإنه بالضرورة مثلما نريد أن يكون تدابيرنا بحسب التعاليم الإلهي، هكذا ينبغي أن تكون طلباتنا ملتهبة غيرة بالدنو إلي الله في الصلاة. والمرء يحسّ حينئذ أن تلك الأفكار تتفجَّر داخلنا ابتداءً من هذه التدابير وقت الصلاة. لأنه مثلما نريد أن يكون تَدْبِيرنا هكذا ينبغي أن تكون صلاتنا.

٤ – ومن بين الأمور التي تطابق تعليم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح، وهي هامة للحياة الفاضلة وليست غريبة عن الكمال، ما قاله يوماً ما أنه ينبغي ألا نكرر الكلام باطلاً كالأمم " مت ٦: ٧ "، بل أن نقدم طلباتنا لله بحكمةٍ مطيَّبةً بالرجاء السمائي. وبهذا أظهر اهتمام الله بها، لكي لا يتعوَّق الذهن عند أمور العالم والأزمنة، بل يقتني فهماً سامياً بالأمور الموافقة التي يطلبها الله.

٥- لهذا ينبغي أن يكون اهتمام "الْعَارِفِين" موافقاً لغرض صَلَوَاتهم. لم يكن الله محتاجاً إلى صلاةٍ عند الخلق ولا إلى توسلٍ من قِبل خلائقه، في حين أن العطايا التي رافقتهم كانت مهمة جداً بهذا المقدار. بل لكي بالصلاة يقتنون هذيذاً عميقاً في الأمور غير المرئية، عندما يمتلىء الذهن فهماً. ويحسَّ برجاء الأمور المزمعة.

٦- وما هو الحال إذاً ؟ بينما هم يجتهدون في هذا التأمل العجيب، بداية من الإفراز الذي يرتبط بكلٍ من الطِلبات التي يقدمونها بكل اهتمام أمَّام الله ، يتوقون بواجبٍ أن يوجدوا عندئذ في التدابير الملائمة التي تتناسب مع الخيرات والمجد الذي دُعوا إليه. ولهذا، فإنهم يكونون دائماً كأبناء مرتفعين فوق هذا العالم، بالدالة والقُرب من الله، في مفاوضة ومعرفة أسراره.

٧- ولهذا، إذا كان حقاً أنَّ كل صلاة تكون هي تعليم عن الخلاص، كما قال المفسِّر الطوباوي،فإنه بكل نوعٍ يصلي العارف يأخذ الذهن فهماً ما – بحسب ترتيب التعليم الإلهي –

[١٣١] ج-١:م١: ٦ – 2.

لكي يبعد عن الجسد، وبالهذيذ يرتبط بالحقائق التي تُعرِّفه بأمور الخلاص، وتطبع فيه تذكار الحياة غير المائتة التي فوق، وهذا يحدث في الصلاة"تحت شكل"تعليمٍ عالٍ وفاضل.

٨- وبإختصار، فإنَّ المعرفة الفاضلة عن الحياة غير الفانية وعن الرُّوح الْقُدُّوس تترسخ فينا من قِبَل رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح،مُبدع كل شيء،عندما نصلي. وربوات أفهامٍ تختلج حينئذ في ضميرنا: من أين أتت طبيعتنا؟ أترى من الأرض؟ من أين أتينا؟ وبيَدِ مَنْ؟ ومن أي ارتفاع هبطنا؟ وبأي أسرار اتّحدنا؟ وإلى أي شيء اجتُذبنا؟ وما هو التَدْبِير الذي يصوّره هذا السر؟ كيف يمكننا منذ الآن أنْ نفهم أمور رجائنا عبر المثالات والصور؟ ولأننا قد اتحدنا بها بالذهن وحده، وبه ندنو من حقائق الحياة المزمعة والتدابير الباهرة التي تناسبه،لذلك نحن نشهد لهذا السر في هذه الحياة بأعمالنا.

٩- الصلاة التي تليق بالكمال،تلك التي لأولئك الذين اختيروا لتلك السيرة المزمعة،الذين يرغبون في السماء باشتياق مضطرم، والذين قَبلوا الوصايا الكاملة،هيَّ هذه:" لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ." مت ٦ : ٢٥، ٣١ "، وأيضاً:لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ."مت ٦ : ٣٢ "، كونوا ثابتين في الثقة . ولكي يرتفعوا فوق كل الأمور الأرضية بكمال الضمير قَبِلوا من رَبِّنَا هذه الوصية : "لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ.مت ٦ :٣٣ ".

١٠- هذه الصلاة التي تتفق مع السيرة الكاملة، تُمارَسُ باهتمام بحسب تلك الوصية الإنجيلية، وهي استقامة الضمير، واهتمام بالتدابير الحسنة،وارتباط بالأمور المرتفعة،وهذيذ روحي، وتذكار السمائيات،والهمّ بالخفيّات، وبإختصار:هوذا كل الأفكار تحتويها صلاة تعلِّم كمال الأمور المزمعة.

١١- مثل هذه الصلاة تشجَّع كما ينبغي ضمير أولئك الذين يجتهدون أن يتدبّروا على هذه الأرض بالسيرة الكاملة التي للحياة المزمعة المفعمة أسراراً والمغبوط باسيليوس يقول: إنَّ الصلاة الدائمة التي تكون من الحب تُلبس العقل قوة.ولكن أي عقلٍ؟ من الواضح أنه يشير إلى الذين يتوقون إلى الحياة السمائية، والذين يتشجعون بذلك القول:إنهم يحتقرون أمور الأرض، ويتطلّعون باشتياق شديد لتلك التي للسماء،وقد رسموا أمَّام عيونهم صورة الكمال المستقبَل.

١٢- من ذلك الحين تصير صلاتهم استعلاناً وهذيذاً في الأمور التي تتضمنها بنوع مرتفع. وهم يتشجعون ويصيرون أقوياء في ذهنهم، لأن الرجاء يلهب ضميرهم. وإذ يتشبثون بقوة بالأمور التي أدركوها آنذاك، يقبلون منذ الأن قوة تجعلهم يحتملون بفرح شرور الأرض، وإذا قايسوها بالخيرات الموعود بها تكون عندهم كلا شيء.

١٣- هذه الخيرات تدركهم سريعاً، من وقتٍ لآخر،بنعمة ومعونة الرُّوح، ويتغيرون منذ الآن لذاك الشبه بمرآة ضميرهم. وهكذا، فإنَّ التشوق الإرادي العارم يُلبس الذهن بالقوة التي تناسبه، بفضل الصلاة الكاملة، لينير طريق الصعود لما يفوق العالم.

١٤- وفي الوقت نفسه بفضل تذكّر هذه الأمور السمائية المتضمّنة في الصلاة، تصير الطلبات مُلحَّة إلى درجة أنَّ النفس التي تزدري هذا العالم الحاضر تنتشي"بالسمائيات" وترتفع فوقه منذ الآن برأفة الله،وتتشجع على الحروب وتتقوى بالرجاء مسنودة بالطلبات الفائقة التي علَّمنا سيدنا أنْ نقدّمها في صلاة "أبانا الذي في السموات".

١٥- يالرأفة وكثرة صلاح الله! إلى أي علو لا ترفع هذه الصلاة الطبيعية المخلوقة! وكيف لا تشهد لقداسة الطبيعة الإلهية، خالقها، الذي بنعمته جعلها مستحقة أنْ تسمو إلى الوقوف أمَّامه، وأعطاها نصيباً في قداسة بهذه الرفعة، القداسة التي تخصه بطبيعته، والتي وهبها بنعمته للطبيعة التي لم تكن تمتلكها من قبْل.

١٦- إنَّه بمثل هذه الخشية ينبغي أنْ تُقتنى مسيرة الحياة على الأرض مثلما قال الله لأبينا موسي النبي: "تَكُونُونَ قِدِّيسِينَ لأَنِّي قُدُّوسٌ الرَّبُّ إِلهُكُمْ.لا ١٩ : ٢ ". إذا كانت القداسة تناسب العبيد نظراً إلى القول الذي قاله الله بخصوصهم، فكم بالأَولى تليق بالأبناء الذين أثمر هذا الهذيذ فيهم مثل هذه الأفهام! والتأمل في الصلاة ينصب سلّماً للذهن بفضل كل أنواع الطلبات التي قوّتها، مطابقة للتعليم الإلهي، تتمشى مع آيات الإنجيل.

١٧- والشيء نفسه يخص بقية الآيات التي بواسطتها تنبع أفهاماُ أخري تنير لنا سمو صعودنا الْعَظِيم، وكيف ستكون سيرتنا في الملكوت القادم، وأنه لن يكون بمقدورنا أنْ نقتنيه بأي شيء فاسد في هذا العالم الحاضر. فعندما يقيم العقل أمَّام الله، يصير أسيراً لمحبته، إذ إنه يليق بأولاد الله أنْ يعتبروه أمراً شائناً أنْ يتعوّقوا عند الأرض وعند الأمور التي تحتويها.

١٨- هكذا يتطلب الأمر المعونة، لكي يمكن أنْ تكمل مسرة الله في ما نصل إليه فيما بعد، ولكي تنحني نحونا تلك النعمة التي تُدعي الملكوت. لكي بالحسّ بها ننسى الأرض، ولكي نوجد سرّاً في هذه الأمور، بانتقالٍ من نوعٍ ما، ونتعلم بإدراكٍ متضاعف. لأنه بالقرب منه توجد القوة للتغيّر، والثبات في الأمور الفاضلَة، وللتدبّر علي الأرض بالسيرة التي تنتسب إلى السماء.

١٩- وهناك أيضاً حافز، يجعلنا نحسّ أنه يوجد شيء ما يجعلنا أقوياء، وأنَّ قوة غير منظورة تُقدم لنا المعونة من السماء، قريبة من على الدوام، تجعلنا ندنو من الأمور التي ترفع الطبيعة إلى أبعد حد، حتى تمكث بعيداً عن الأفكار والحركات والرغبات الجسدية التي للطبيعة الضعيفة. فلو أنه كان يتعذر أنْ ننتقل هكذا من وقت لآخر، وأنْ يوجد المرء في هذه الأمور المرتفعة، بقوة الرُّوح الْقُدُّوس، لَمَا كان رَبَّنَا يَسُوع الْمَسِيح قد أوصانا أنْ نطلب ذلك من الآب، حتى مِنْ قبْل أنْ يُدرَك ذلك الكمال.

٢٠- ولكن لأننا مازلنا في الجسد، فقد علَّمنا أنْ نطلب خبز يومنا الذي بدونه يستحيل أنْ نعيش في الوقت الحاضر، ومن أجل السمو أيضاً، كيما نظهر أفضل من الأشياء الوقتيه. إنني، بالتأكيد، أدرك ما تتطلبه طبيعتكم:اطلبوا إذن، ولكن لا تطلبوا شيئاً سوى ماتحتاج إليه طبيعتكم.

والسبب في ذلك هو حتي لا يهتم بتعليمنا كل دقائق حياتنا، بواسطة طلبات من هذا النوع المتواضع بالنظر إلى راهبٍ متعفف، ولكي يشجعنا على هذا الأمر.

٢١- ويعلّمنا أيضاً أنْ نُقدّم طلبات الغفران، فيُخبرنا أنه يغفر بالمقابل لمَنْ يطلب إليه من أجل خطاياه، مثل شخص مدفوع بأحشاء محبته الأبوية، لأنه يُظهر أنه يجب أنْ يغفر. إنه الآب الذي قال كل هذا، وهو عادل يمنح لنا ما نطلبه لكي نحصل على الشيء نفسه.

٢٢- لكن الحروب والتجارب غير المتوقعة وأمور أخرى أيضاً تنتظرنا: سواء كانت تلك التي للجسد، أو التي تحصل لنا بقصدٍ عالٍ من الله. ونحن نمتلك كيف نُحفظ وسط كل هذه الشدائد، وكيف ينبغي أنْ نُصلى من أجل هذا الأمر،طالما كانت لنا الطلبة التي تعلمنا ذلك، أي بتوسلنا إلى الآب : "لا تُدخلنا في تجربة".

٢٣- ونحن هكذا نجد ملجأً عند ذاك الذي جاء ليفتدينا من كل ما يأتي من الجسد، وأيضاً من كل ما يعيق الخلاص فذاك الذي له القدرة علي كل شيء وليس شيء غير مستطاع عنده، الذي له المجد بطبيعته، والذي مُلكه أعلى من الكل، وقدرته تملك على كافة التّخم، أراد أنه بطلبة الصلاة التي بواسطتها نهتم بالأمور المزمعة أمَّامه، وتذكاره الدائم يملك فينا – نتقدم إلى سحابة عدم المعرفة الفائقة التي لمعرفته ولمحبته للبشر.

٢٤ – حسن جداً ما قاله القديس مرقس الناسك :" إن الذي يصلي بفهم ينبغي أن يصبر على جميع ما يأتي عليه " (الناموس الرُّوحي،١١٥)؛ لأن هذا هو زِيّ الصلاة أنها بالأفهام المتنوعة المدهشة تجعل عقلنا شجاعاً وتُعدّه ليكون غير خاضع للآلام. حسب قول مار أوغريس: أنَّ كل من يصلي بفهمٍ من المحتّم أنه قد أعد نفسه من الآن للجهاد مع الجسد بحسب هذا القول الفائق أي: الصلاة بفهمٍ، وبلهيب مثل هذا تشعله بمحبة أمور الدهر الآتي حتى تتحرك فيه معرفتها.

٢٥- وإذا استعد هكذا ليغلب الطبيعة، ويميز ما يخصها وكذلك ما ينتمي إلى الإدراك البشري، تلزمة حينئذ قوة عظيمة لكي يحتمل الحركات التي تتبع، والأفهام التي تنبع من الصلاة والهبات التي تتضمنها. والضيقات التي تقابله، حتى ولو كانت صعبة للغاية، تبدو أمَّام عينيه كلا شيء، والمغبوط أوغريس يؤكد أنَّ الصلاة تشدّد العقل وتسنده حتى لا يخضع للأوجاع.

٢٦- والقدِّيس مرقس يشير أيضاً إلى هذه الحروب الصعبة التي تأتي بعد الأفهام التي تُقتني في الصلاة والمعرفة التي توجد فيها.

٢٧- ولمَّا كان كل هذا يعرض لنا، بينما يُسمح لنا أن نتبيّن الأمور المزمعة، ونحن مازلنا على الأرض، كما لو كنا خارج الجسد، فمِنَ المُحتم أنَّ هذا يعلّمنا أنْ نحتمل العواصف التي تواجهنا، بينما تُركّز العين نظرتها على هذه الأمور، والحقيقة أنَّ مثل هذه التجارب التي تأتي من الطبع أو من الشياطين أو من الناس تهاجم كل من يحب أن يسلك هذا الطريق.

٢٨- وهذا هو ما قاله مار أوغريس : إنَّ الذي يمكث في حلاوة مانرجوه يحظي بالمعونة التي تأتيه من الصلاة، وليس فقط لكي تكون كافة الحروب عنده كلا شيء بل وأيضاً لكي تكون الأمور المستصعبة عنده سهلة، ولكي يزدري بالجسد الذي هو سبب القتالات.

٢٩ - هذا إذاً، يا أحبائي، هو تَدْبِير الصلاة، وهذه هي منفعة الهذيذ الإلهي الذي فيها، وهذا هو العمل الكامل الذي يعمله الذهن في المصعد الإلهي (أي في طريق الصعود إلى الإلهيات). وهذا إنَّما يكون بالجلوس المنفرد والوحدة والبعد من جميع هموم العالم؛ لأن هذا يولِّد الهدوء وسكون القلب، لكي بمداومة الهذيذ بالله والسكون من الأفكار يستطيع الضمير أن يتفرس في كل أنواع الصلاة ويقتبس معرفةً عن الله، وبواسطة الألفاظ يكون الدخول إلى الأسرار.

٣٠ – هذه، إذاً، هي الصلاة التي بهذيذها تُقرِّب العقل كل حين إلى الله، وتشجعه وتُنقيه بغياراتها، وتناوله القدس بهذيذها. هذا هو الهذيذ الذي يحبس كل هذيذ؛ والذي هو الأم لها، لأنه بالضرورة يربط العقل بالله، ويجعله يستضيء بالخفيات الداخلية.

٣١- ومنه أيضاً يتقبل المتوحد معرفة الله، ومن هنا نحس بالفعل أننا بنو الآب الذي في السماوات، ورثة وبنو ميراث يَسُوع الْمَسِيح." فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا، وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ.رو٨ :١٧ " ومن الآن يقتني جراءة أن يقول " لأَنِّي مُسْتَعِدٌّ لَيْسَ أَنْ أُرْبَطَ فَقَطْ، بَلْ أَنْ أَمُوتَ أَيْضًا فِي أُورُشَلِيمَ لأَجْلِ اسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ.أع ٢١ : ١٣ " وأيضاً :" وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ.غل٦ : ١٤، إني مصلوب للعالم والعالم مصلوب لي، بل وأيضاً :

" مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ؟ أَشِدَّةٌ أَمْ ضَيْقٌ أَمِ اضْطِهَادٌ أَمْ جُوعٌ أَمْ عُرْيٌ أَمْ خَطَرٌ أَمْ سَيْفٌ؟ ... فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا. رو ٨ : ٣٥ ، ٣٧ ".

٣٢ - كل التماجيد تليق برَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح الذي بتَدْبِيره الخلاصي رفعنا من النظر للأرضيات، وأرشد عقلنا للمصاعد الإلهية التي تفوق العالم، وبمفاوضة الصلاة قدَّمنا لنظرة ملكوت السماء والهذيذ الدائم بها. ذلك الموضع هو الذي نحن مزمعون أن نقدِّم فيه دائما السجود بالرُّوح للآب الْقُدُّوس " وَلكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ، وَهِيَ الآنَ، حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ، لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. يو ٤ : ٢٣ ".

٣٣ – هذا " السجود " الذي ليس هو بمحدود لا بالجسد ولا بأقطار العالم ولا بالانحناء الظاهر، بل بعقل يتجلي بحركات الدهش به بلا انقطاع ودون انقضاء في بلد غير المتجسدين، بذلك التَدْبِير المرتفع عن طقس الصلاة. لأنَّ الدهش هنا يكون عوض الصلاة، وعوض الإيمان الذي هو أجنحة الصلاة تكون النظرة الحقيقية التي هي مملكتنا ومجدنا.

٣٤- حيث يظهر لنا هناك أن الله، ليس محتاجاً إلى تمجيد المخلوقين، بل هو في الحقيقة تنازلٌ منه لهؤلاء جميعهم (أن يشاركهم في التلذذ بمجده). لأننا هناك نعرف بكل يقين أنه من أجلنا

تنازل تماماً مُظهراً أنه محتاج إلى مدائح البشر وتمجيد الرُّوحانيين.

٣٥ - لأننا هناك نقبل حقيقة كل شيء عن الله الخالق، ليس عن طبيعته بل عن ترتيب عظمته ومجده الإلهي وحبه الفائق لنا، هناك حيث ترتفع من أمَّام العقل كل الحُجُب والتسميات والمفاهيم والأنواع وكل أشكال السياسة التي تُعبِّر عن تَدْبِير الخلاص، ويتبين لنا أنه ليس لأجل طلباتنا يعطي مواهبه، ولا إنعامه بكيلٍ ومقدار، لأن الله رأى حقيقة حالنا فأعطانا"وليس" لأننا طلبنا ذلك، بل إنما جعل طلبتنا واسطة وألبسها زِيَّ كلامٍ يوصل العقل إلى الطياشة في أزلَيْتَه ومعرفة اهتمامه بنا.

٣٦- فعندما نقبل (معرفة) تلك العظمة التي لم يدركها قط طقس الصلاة، ولا تَصوّر أبداً في العقل شكل الطلبات لأجلها؛ لأن هذا الشيء الذي يقبله الناطقون لم يخطر أبداً على قلب إنسانٍ"١كو٢ : ٩"، لأنه ليس في طبعهم معرفته حتى يطلبوه. ولكننا نفهم أنه بالحب يُعطى لنا إن كان هنا أو هناك، وقد جعل السبب (في هذا الإنعام) نحن، كما لو كان لحُسن سيرتنا وصَلَوَاتنا،والحقيقة إنَّ مواهبه هي من أجل إنعامه الغزير.

٣٧ – يا للجنس البشري! أي رب هذا الذي لك ! يا للعذوبة والجودة التي بلا قياس ! عندما نأخذ كل هذه المعرفة ، نعرف هذه الأبوة الحقيقية والحب والصلاح الأزلي، ونعرف أن الله غير محتاج إلى العالم ولا للتجديد المزمع ولا لملكوت السماء؛ لأن الملكوت والتنعم والنور هي طبيعته.

٣٨- ومن أجل جوده أتى بهذا كله (أي المخلوقات والعالم) للتكوين، فخلقنا ومن أجلنا خلق هذه كلها ليعطينا ملكوته ومجده وعظمته وكرامته وكل سلطان أزلَيْتَه، ويجعلنا أزليين بلا انقضاء مثله، ولابسين نور حياتنا بغير انقطاع، وليس لأزلَيْتَه انقضاء ولا نهاية لملكه.

٣٩- إنه بإنعامه قد أدركنا كل هذه المعرفة، وقد دُعينا، نحن ذوي الطبع المائت، بنينَ للآب السماوي، نحن الذين نعرف ذاك الذي منذ الأزل له المجد برَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح إلى دهر الدهور. آمين. آمين. آمين.

المَيْمَر الرَّابع

المَيْمَر الثَّانِي عن الصلاة؛

ما هيَ الصلاة المُتقنة التي تُكمَّل بالعقل

١- الصلاة المتقنة تقوم على الإحساس بالله. ليس على مجرد انشغال العقل بالطلبة بل على كمال الحب. وهي لا تعني أن يتمم المرء في الصلاة تلاوة كل أنواع الطلبات من الله، بل أن يركَّز ذاته، ويكون في ساعة الصلاة، اعتباراً من ما يخصه طبيعياً، في دهشٍ تام، يتلع في الله بنظر عينيه.

٢- توجد ثلاث صفات طبيعية تخص أساساً هذه الطبيعة المجيدة، وهي لا تقبل أي زيادة أكثر مما هي عليه، ذلك لأنَّها (صفات) كاملة. كما أنها لا تنقص أيضاً ولا تضعف لأي سب يعرض. هذه الصفات تُعرف، بالفعل، بالعقل الذي اعتاد أن يؤخذ بالدهش أمَّام الأفهام على الطبيعة الإلهية.

٣- وهكذا، فإنَّه في كل مرة يطلب العقل أن يتطلع إلى هذا (الشيء) المخفي والذي يعوزه لأنَّه غير مرئي، فهو يفحص، بفضل هذه الصفات، فيما يكون مأخوذاً بالدهش، هذه الطبيعة التي لا يحيط بها أي نظر لا بالعقل ولا بأي فكر.

٤- أؤكد إذاً، أنَّه توجد ثلاث صفات خاصة لطبيعته : الصلاح والحب والحكمة. الصلاح، كون الله خلق المخلوقات، وأنَّه بالحب كان يعرفها من قبْل أن يخلقها، وبحكمته قد رتَّب كل الأشياء لكي توفِّر كل ما هو ضروري لتساعد الخلائق، ولتجد مُتعتها في الأمور الحاضرة كما وفي تلك المزمعة، والتي بها تُعرف محبته الحقيقية التي لا تنقص نحو كافة الخلائق.

٦- كما أنَّ المحبة الكاملة لا يعوزها أنْ تطلب بأي حال سوى أنْ يتمكن العقل من التطلع إلى الله فقط دون شِبع على الإطلاق. وما لم يغُص العقل في المحبة وفي معرفة الله، فإنَّه يظل يرغب في تقديم التوسل من أجل كل أنواع الأمور، وإن كانت مرتفعة جداً وفاضلة.

٧- ولكنه عندما يتطلع إلى جلاله بمحبة ملتهبة لأسراره، فإنَّه يحسّ أنَّ ما يتقبله هكذا بالشعور يكون أعظم قدراً مما يتسلى به خارجاً عن الله، ومما لا يخص طبيعته. لأنَّ صلاة التوسل والطلبات تتركب من أفكار متنوعة وصَلَوَات تتعلق بأشياء ملموسة. أمَّا هبة المحبة في الصلاة فهي سكوت الرُّوح. لأنه عندما يكون العقل منشغلاً بالله، فإنَّه يتوقف عن التوسل وعن الصلاة.

٨- إذا أوقف إنسان الطلبات (المُعتادة) برأيه الخاص، ولم يكن عقله منجذباً بدهشٍ قوي بإحساس عميق بالله، فإنَّه يخضع حينئذ لسلطان الطياشة ويمتليء بتذكارات غير نافعة. لأنَّه طالما لم يدرك بعد العذوبات العالية التي تقابله في الصلاة، لا يكون من المناسب أنْ يتوقف عن التوسل باستمرار، لأنَّه بمثل هذه التوسلات يقترب دائماً من الأمور الْعَظِيمة التي نتكلم عنها.

٩- تُرى ما هو أعظم من الصلاة التي سلّمها فادينا لكنيسته؟ غير إنَّها تتألف بجملتها من طلبات وتوسلات! ليس لأنَّ الله بحاجة إلى مثل هذه الطلبات، ولا لأنه يريدنا أن نطلب منه كل شيء باسمه. فمن الواضح أنَّ الله لا يحتاج أبداً أنْ نقول له: "هبنا هذا الشيء أو ذاك"، كما لو كان بهذا يُعَرَّف بما يجب عليه أنْ يُعطينا إياه، أو كما لو كان قد نسى أو لم يعبأ به. نحن عندما نُصلي لا نذكر كل شيء باسمه بوجه خاص، لأنَّ هذا يكون برهاناً على أنَّ العقل مازال يفكر بشكلٍ طفولي، ولم يدرك بعد قامة الرجال بفهم أذهانهم البالغة، التي تمتلك إدراكاً مرتفعاً عن الله خالق كل شيء.

١٠- والقدِّيس مَكَارْيُوسْ، ذلك الرجل الْعَظِيم بين القدِّيسين واللابس الرُّوح، عندما سُئل كيف يجب على الإنسان أنْ يصلي، قال أيضاً: "ليست هناك حاجة إلى كثرة الأقوال، بل يكفي أنْ يبسط يديه نحو الله ويقول: يا ربّ، كما تريد وكما يسرّك. فالله يعرف جيداً ما نحتاجه".

١١- هذه هي صلاة الكاملين: إنَّها صلاة أولئك الذين يعرفون مَنْ هو الله! هذا هو الإنسان الذي يقتني إيماناً ثابتاً. ولكن أيضاً! كيف يمكن لرَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح أن يبدو كما لو كان يتجاهل العناية التي يقدمها الله لخليقته، حين يعلِّمنا تحديداً للصلاة إلى الله بطلب هذا الشيء أو ذاك؟ هذا بسبب ضعفنا، ومن أجل تشجيعنا، أنَّه أعطانا أن نجد بعض التعزية في أقوال الصلاة. إنَّه إذاً نافع من أجل تعزية ضعفنا، وبالأكثر، لكي يجتذبنا إلى حضرته.

١٢- والشيء نفسه ينطبق على العبارات التي، من أجل تلاميذه، استخدمها للصلاة وقت آلامه. والحقيقة أنَّه من أجلهم قدَّم توسلاً مُخاطباً به أباه بصوتٍ مرتفع (= يصرخ) لكييجعلهم يسمعون أقوال التشجيع. وهكذا عرَّف تلاميذه، بعبارات الصلاة، الأسرار ومعرفة الحقائق الخفية، في حين أن طبيعة رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح البشرية لم تكن أبداً بحاجة إلى توسلٍ أو صلاة يتوجه بها إلى الآب.

١٣- بينما كان يبدو وكأنه يريد أن يقنع أباه، كان في الحقيقة مطابقاً لمشيئته. لأنَّ مشيئته كانت قادرة دون تأخير أن تستجيب الصلاة مع كل ما كان يتمناه. والحقيقة، كما نؤكدها، إنَّها لم تكن صلاة تلك التي سُمعت من رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح في ذلك الوقت، لكن كانت هذه العبارات أسراراً أراد أن يعلنها لنا عن طريق تلاميذه.

١٤- كانت تلك الليلة تمثل إتمام تَدْبِيره الخلاصي، وكانت تبدو له أنَّها لحظة مُشاركة هذه الحقائق مع تلاميذه. وكانت ستتحقق في الدهر الآتي. فمن أجل تعليمهم ومن أجل الذين في العالم كله استخدم رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح عبارات الصلاة. وبواسطتها جعلنا نعرف المجد والجلال الذي له عند الآب، وأنَّه ليس له أي احتياج لتوسلٍ ولا لصلاة يخاطب بها الله الآب.

١٥- ومع ذلك فقد أراد أن يُصلي، وهكذا أظهر إلى أي حدٍّ كانت (تلك الصلاة) مفعمة تعاليم. وهو نفسه لم يكن محتاجاً للتوسل وقت آلامه، كما قال "المُفسر" المغبوط في شرح إنجيل يوحنا، عندما كان يتكلم عن ما قاله رَبِّنَا يَسُوع الْمَسِيح عندئذ تحت شكل صلاة: "الذي يصل

إلى هذا الفصل ينبغي أن يفهم ما الذي يدور عليه الكلام في هذه الفقرة من الإنجيل: إنَّه يتعلق بنبوة بخصوصما كان على وشك أن يحدث للتلاميذ. هذه العبارات التي قيلت تحت شكل صلاة يجب ألا تُفحص بحسب صيغتها ولابحسب أشكالها المتنوعة ولا بحسب محتوى الصلاة الذي نُطِقَ به".

١٦- وقبْل ذلك بقليل، في السدروSedrô (أنتيفونة)، عندما كان يتكلم عن تناسق وترتيب العبارات التي نطق بها مُخلصنا، يؤكد: "إنَّه الآن قد أظهر بوضوح المعنى الذي ينبغي أن تُفَسَّر به، بمعنى أنه لم يكن ينطق بتوسلٍ (بكل معنى الكلمة)، بل كان فقط يتفوه بإحدى عبارات التوسل. لقد قال هذه العبارات تحت شكل المَثل. فإذا أراد أحد أن يحكم عليها بالطريقة المألوفة، وبحسب ما تعنيه من هيئتها الخارجية، فسيجد أن الكثير منها لا يتمشى مع منطوقها".

١٧- وبحسب ما يقترح"المُفسر" المغبوط: فإنه ينبغي، إذاً، أن نفهم جميع ما يعلِّم به رَبِّنَا اعتباراً من الهدف ومن صيغة التعليم الذي يتضمنه. لأنه هكذا يفسّر هذه الصلاة بإتمام ما جاء بها من أقوال، وأنه بنفس الأسلوب يطلب من أبيه أن يعلن سرّها ومعرفتها الرُّوحية، ويعطيها كتعليم بخصوص الأمور الخفية.

١٨- وبهذا القصد، علَّمنا الصلاة تحت عدة أشكال وهو يطلب هذا الشيء أو ذاك من أبيه، كما لو كانت تعوزه معرفتها، إنَّما كان ذلك لكي يجعلنا نحن نعرف أنَّه لم يكن أبداً من الضروري أنْ يدعو أي شيء بالإسم أمام الله في الصلاة، أمام ذاك الذي يعرف القلوب ويعتني بالكل، ذاك الذي هو مُخلصنا، والذي له علم كل شيء، وهو الذي من أجل محبته يهتم بكل ما يختص بنا، ويأتي لنجدتنا ويعلّمنا. وقد فعل هكذا لكي يُسلّمنا بتدقيق تقليد الصلاة والطلبات التي تضمَّنتها بالتحديد.

١٩- ولماذا ذلك؟ لأنَّه بالهذيذ الدائم بهذه الأقوال، يرتفع الفكر فوق الأمور الأرضية، وأنَّه عبر الأسرار التي تضمنتها هذه الأقوال، يدنو من أمور الرجاء العالية. هذه الأقوال تتضمن، في حقيقة الأمر، طريقة لتقويم عاداتنا، وتعليماً عن الأسرار، وعن سلوكنا، وعن المعرفة، وعن الهذيذ بالله، وعن الألفة الحميمة معه، هذه التي وجدناها في المسيح يسوع رَبِّنَا منذ زمان. وتفسير هذه الأمور نجده باختصار وإنَّما بقدرٍ كاف، كما أعتقده في الميمر السابق. ومَنْ سبق له أنْ تذوق هذه الأمور المتنوعة لا يحسّ بغرابتها عندما يقرأها.

٢٠- ويجب علينا الآن، فضلاً عن ذلك، أنْ نشدِّد على شيء وَاحِد فقط، هذا الأمر الصعب الذي خصصنا له هذا الميمر المُختصر: فَلْنَسْمُ بفكرنا نحو الجزء الذي يستمد منه هذا الموضوع بدايته، ونلقي الضوء على هدفه، ونوجزه باختصار.

٢١- بعد أن يقتبل أحدٌ عطية الرُّوح الْقُدُّوس الذي بحسبه يستنير بالأمور التي يتعلمها، يبدأ العقل بلأكثر أن يتأمل في وقت الصلاة، وعندما يحاول التركيز على بعض الطلبات، تفتر رغبته فيها بسبب الإستعلان الذي يتقبّله، لأنَّ معرفة الرُّوح هذه تفيض بكل أنواع الخفيات بالإستعلان

الحاصل منها، وتجعله يتخلى عن كل ما كان يشتهيه لنفسه، وذلك لأنَّه منذ الآن. يتمتع باملاك هذه الأمور الصعبة المنال وحدها.

٢٢- ومن الآن فصاعداً، تنحصر صلاته فقط في الدهش أمام الله، كطقس الرُّوحانيين الذين في السماء، والذي يكون أيضاً في الدهر الآتي. لأنَّ عطية الرُّوح الْقُدُّوس تجعله يعاين بلا انقطاع أموراً تفوق الوصف بالإستعلان والسرّ غير المدرَك. لأنَّ التعليم بخصوص الخفيّات محفور في الذهن بقوة الرُّوح الْقُدُّوس، وتأمل الأمور العميقة مطبوع في قلبه كما لو كان مكتوباً في ألواح. وإذا حصل في وقت ما أن إنطلق في الصلاة بدون هذه الأمور، فإنَّ قلبه لا يقدِّم سوى التسابيح.

٢٣- لأنَّ الإنشغال بالله يعيقه كلما أراد أن يقدّم طلبات خارجاً عن هذه العبارة: "كما تريد وكما يسرّك"، لأنَّه يعرف جيداً أنَّ الله هو الذي جعله أهلاً لعطية مثل هذه، فلا يعود يطلب منه شيئاً بحسب شهوته وليس بحسب الرُّوح الذي يعرفه ويقوده.

٢٤- وإذا ما صارت النفس نقية، فهي ما إن تلمس أمراً يخص الله سرعان ما تنجذب نحو السكوت، وتنشأ فيها حرارة روحية مصحوبة بمحبة هادئة ومأخوذة بالدهش. وحالما يصير الفكر مأخوذاً هكذا بالدهش، فإنَّه يتجمع بسهولة في كل وقت، ويدخل إلى أعماق نفسه دون أي جهد أو عناء من جانبه.

٢٥- يا حبيبي، أتريد أن تصل هنالك؟ اهتم بنقاوة نفسك. لا تتركها تنشغل سريعاً بأمورٍ سرعان ما تتلاشى محترقة. لأنَّها إذا كانت قريبة منك فستلتهب بها وبغيرها مما يظهر ويختفي أو مما يقابلك مصادفة. وهذه كلها أمور الأرض بكل أنواعها.

٢٦- لا تحب أي إنسان بصورة خاصة، ولا تحتسب أحداً حقيراً، ولكن أحبب الشخص دون أن تفحص تصرفاته، كما يفعل الله. لأنَّ التصرفات يمكن أن تتغير، أما أنت فاثبت دون تغيير بالنسبة إلى أخيك في الطبيعة، على مثال الله، هذا المثال الذي وهبه لك في جرن التجديد (أي المعمودية)، حتى تصير غير فاسد بالسرِّ. حافظ إذاً بضمير غير فاسد على تلك الصورة التي أخذتها.

٢٧- أتريد أن تحظى بصورة هذه الهبات العليا، وتنال مشابهةً تراها مجيدة في هذه الدنيا؟ سوف أجعلك الآن تقترب من أُم العمل الذي يجري في نفسنا. فوق كل شيء، اهتم بالوداعة: إنَّها تجلب لك كل ما هو نافع للنفس والجسد، وتجعلك تثبت بلا انقطاع في سلام الأفكار.

٢٨- إنَّها (أي الوداعة) سِمَةُ نفسٍ عادمة التألم. وهي علامة التنازل، والتنازل هو ثمرة الإتضاع. إذا لم يتنازل أحد عن استعلاء فكره، فهو لا يقدر أن يظهر وديعاً تجاه جميع الذين يلتقونه. اشْتهِ هذه الشهادات على النقاوة التي تعمل في النفس، مثل علامات عدم الموت التي تطرد وتبعد عنها الغضب، هذا الذي يعكّر النفس.

٢٩- الاحتداد ينبع من الكبرياء. عزّوا أنفسكم بهذا القول. بقدر ما تمتلك في داخلك من أفكار متضعة، لن يقدر أي حافز للغضب أن يقترب منك. لأنَّ الإتضاع يقدر أن يثبت دون غضب في الضعفات والمسكنة، وفي الصادمات التي يسببها الأقرباء. يوجد غضب يأتي من تقلّب المزاج، ولا يكون شاقاً، وسرعان ما يهدأ، ويرافقه الإعتذار دون تأخير. والذي لم يقتن هذا مسبقاً، لا يقدر أن يقبل عطية الرُّوح.

٣٠- أمَّا عن بولس الرسول فهو لم يكن أبداً معارضاً لوجود هذه المسرات في أمور الرُّوح، أثناء مسيرتنا وسط أمور الجسد.

٣١- وإن كانت الأمور التي تخص العقل لا تقود النفس إلى كمالها بسبب سمو الفكر وبسبب كل أنواع الأمور المجيدة التي تليق بالله، فإنَّ مثل تلك النفس تكون لا تزال سائرة في سبيل إنجاز ما يخص الجسد حتى ولو كانت غنية بالأفكار الْعَظِيمة النابعة من قراءاتها، ومن عملها الجسداني.

٣٢ – نعمة الرُّوح الْقُدُّوس لا تُستقبل في الجسد بل في القلب، وفاعلَيْتَها تنتش في أعضاء النفس الداخلية، وتُعرف بواسطة الذهن، لأنَّه في الداخل ينبغي أنْ تتزين، مثل المساكين الذين يقبلون المسيح.

المَيْمَر الْخَامِس

عن الخليقة وعن الله

١ – حتى لو كان هناك وقت لم تكن الخليقة موجودة فيه، فإنه لم يكن هناك أبداً وقت لم يحب الله فيه خليقته، لأنه حتى حين لم تكن قد وُجدت بعد لم يكن هناك وقت أبداً لم تكن فيه موجودة في فكر الله، وأيضاً لئن كانت الخليقة لم تعرفه، حيث أنها لم تكن قد خُلقت بعد، إلا أنه هو كان دائماً يعرفها، وهو الذي وهب الوجود للطبائع المختلفة عندما أراد ذلك.

٢ – محبة الله الحقيقية لخليقته يمكن أن تُعرف من حقيقة أنه بعدما أكمل تكوينها بكل ما تضمَّنته من تميُّزات، وحَّدها كلها معاً في وحدةٍ وَاحِدة، وجمع الأمور الحسِّية وتلك العقلية معاً برباط وَاحِد، وهكذا وحَّدها بألوهيته، ورفعها إلى أعلى السموات وأجلسها على عرش أبدي، وجعلها آلهة فوق الكل.

٣ – فإذا كانت الخليقة قد قبلت في طبيعتها درجة عظيمة بهذا المقدار، ألا يقنعك هذا، يا إنسان، كعلامة صادقة بمدى عظمة محبة الله لخليقته؟.

٤ – أي طلبة قدمتها الخليقة لكي تحظي بهذا؟ وأي صلاة رفعتها بهذا الخصوص؟ ومتى خطر هذا على بالها ؟ (١ كو ٢ : ٩)، وأي عمل قدَّمته مقابل أن تصبح آلهة؟ لماذا تطيش أفكارنا في أمور مائتة وليست ذات بال، ولماذا لا نقترب نحن من هذا الغنى الْعَظِيم الذي قبلناه، ولماذا لا نحسّ به ؟ نحن لا نهذّ الليل والنهار في بهائنا، في حين أننا قد صرنا آلهة ! قُل لي، يا حبيبي، إذا كانت قد أُعطيت لنا، أكثر من كل طبيعة، كل الإمكانية أن نختار ونفضّل شيئاً نستحسنه ونراه أكثر أهمية، فمن منا لا يختار لنفسه أو للطبيعة البشرية بجملتها، ما سبق أن دبَّره الله لنا؟.

٥ – أترى توجد هناك مرتبة أكثر أرتفاعاً كتلك التي رُفعت إليها الخليقة؟ أو ترى أي درجة أكثر عظمة من الألوهية؟ بَيد أن الخليقة صارت آلهة!.

٦ – إننا لا نعرض هنا هذة التفاصيل لنتخذ منها برهاناً على حقيقة المحبة القوية التي يحملها الله لخليقته، ولكننا نمتد إلى حيث تنطوي الصفات العديدة التي لمحبته على رؤية وَاحِدة، ونجد أننا نقدر أن ندقق النظر فيها بجملتها، وأن لا يتوزع تفكيرنا في أمور متعددة في وقت وَاحِد بينما نحن نقترب من تأمل تفاصيل محبته.

٧ – هكذا فإن العقل لا يتشتت بواسطة كل وَاحِدة من العجائب المتنوعة التي تعمل عندنا، بل إن كل شيء يقرِّبه على حدةٍ يكون قادراً أن يقدم أدلة على شدة محبته لخليقته.

٨ – أمَّا نحن، فنقترب من الفكر الذي يلخصّها جميعها، حيث يكون تمييز الأمور الأخرى هو أيضاً موضع اهتمام، كما ويكون ذهننا غير شارد بين كثرة الأشياء التي ندقق النظر فيها، ولكن حيث الدهش يسمو رؤية وَاحِدة لا تشتت فيها ويُنهض الأفكار بواسطة اقتناع قوي بقدرة

الضمير.

٩ – في بدء الخليقة، عندما خلق الله آدم الذي لم يكن يعرف شماله من يمينه، ما إن خُلق حتى طمح إلى مرتبة الألوهية، وما إلي زرعه الشيطان فيه من شرٍّ : " تكونان كآلهة " (تك ٣ : ٥) وصَّدقه آدم في سذاجته. لكن الله حقق واكمل العمل، وأعطى له تاج الألوهية في نهاية الأيام، من أجل عظم محبة خالقه. وأهتزت مشاعر الآباء بالرُّوح الذي تكلم فيهم. وقوة الله حققة ذلك وأعلن لهم السر هكذا :

١٠ – "وحدة المسيح في اللاهوت، قد أظهرت لنا سر وحدة كل من هو في المسيح. وهذا هو السر : إن الخليقة كلها قد اقتربت من الله في السر، بفضل وَاحِد فقط، وان هذا قد انتقل إلى الكل. وهكذا اتحد الكل به كالأعضاء بالجسد، وهو رأس الجميع. وهذا العمل يتم بالنسبة للخليقة بأسرها، لأنه سيأتي وقت حين لا يعود أي جزء من الخليقة معوزاً. لأن هذا الوعي الرُّوحي الْعَظِيم لا يُدرك فقط ببعض التفاصيل، لكن الله سوف يُجري أمراً عظيماً جداً أيضاً حين يُظهر هذا ويكشفه منذ الآن".

١١ – المجد لك، يا خالقنا ورَبِّنَا، يا من بتأمل سديد لمحبتك، غمرتني بالتعزية والفرح. لقد رفعت فكري من أعماق الأرض، وقبلته أمام عرش مجدك لكي يغوص في سعة ورخاء طبيعتك، ويَدهش بالأسرار الفائقة التي لمحبتك، إذ يتوقف عن الطياشة بين العناصر العديدة التي للخليقة، ويصعد إلى محل خالقه.

١٢ – رؤيته. إذ هو غير مرئي بطبيعته، تسكرني، ومجده يغمرني بالذهول، أسراره تلهبني، ومحبته تدهشني. إنه يكشف لي أسراره، و يجعلني أرى غناه، وعندما يبدو لي أنني بلغت نهاية مسيرتي، تعود هذة لتتفجَّر داخلي من جديد، لأنها أكثر بهاءً من المواضع التي مررتُ بها، وكلما ظننت انني قد نفذْت إلى أعماقها، أعود وأراها وَاحِدة فوَاحِدة، لأنني أجدها أمامي مثل بحرٍ لا نهاية له ولا يشبع النظر من التطلع إليها. وحينما أروي عنها تتبدّل رؤاها وتتضاعف أسرارها، وما يكون المرء قد رآه يتحول في العقل (إلى ذهول).

١٣ – إذا كانت فيما يتعلق بنا وبطبيعتنا، تُرى هذه الأسرار في جملتها بغير حدود، فمن يقدر أن يتطلع نحو ما يختص بطبيعته ؟ مِن أين تأتي للإدراك طبيعة ذاك الذي حتى الملائكة الكثر قدرة منا تعجز عن معرفتها ؟ وإذ كنا في ما نراه ونلمسه (١ يو ١ : ١) تُرى طرق تَدْبِير خلاصه مذهلة للذهن ولمسيرة العقل، فماذا تكون اموره غير المرئية ؟

١٤ - يا للمحبة التي بلا قياس، محبة الله لعمل يديه (= خليقته)! نحن ننظر هذا السر بإحساسٍ لا يُعبَّر عنه! لكي يعرف المرء أن الله آتى بالخليقة إلى الوجود ليس لأنه كان محتاجاً إليها، لكن خلقها لكي بقدر ما يُقرِّبها إليه يشرطها في غناه، ويهبها ما يخصه ويعرِّفها الصلاح الأبدي الذي لطبيعته. لقد أودعها شرف ومجد ألوهيته، ومقابل الله غير المرئي، قد دُعيت الخليقة المرئية آلهة، ومقابل ذاك الذي هو غير مخلوق والذي هو كائن قبل الأزمنة، هكذا توج

الله بإسم الثالوث ما خلقه بعد بداية الزمن. هذا هو الإسم المجيد الذي لا تقدر أفواه الساهرين (أي الملائكة) لسبب افتقار نقاوتهم أن تنطق به، لكنه قد وضعه على خليقته.

١٥ – هذا هو الإخلاء الذي قيل عن الله في الكِتَاب المقدس :" لكنه اخلي نفسه" (في ٢ : ٧) كما قال المغبوط بولس، مأخوذاً بدهش لا يُعبَّر عنه، والذي لا يُفسَّر سوي بالحسّ الداخلي فيما يتعلق بقصة محبة الله، الذي أحب الخليقة بأسرها، إلى درجة أن تُدعي آلهة، و تصير أهلاً لما يُعرب عنه إسم جلالته.

١٦ – عظيم هو هذا السر ! غني لا أعرف من أين لي أن أتأمل حتى يمكنني أن أَسبح في هذا البحر الْعَظِيم. مَن يعطيني اذرعاً قوية لكي أبحر بابتهاج في هذا العمق الذي لا يُسبر غوره، دون أن أُنهك، لأننا كلما تقدمنا إمتد البحر أمامنا دون حدٍّ منظور، وبهذا القدر تزداد رحلتنا عذوبة، ويتفجر الفرح بالأكثر داخل قلبنا عوض التعب. إنني لا أعرف كيف صرت أهلاً لهذة النعمة أن أتمكن من شرح محبة الله، وأفسّر الأمور التي لا يمكن تفسيرها بلسانٍ مخلوق. حتى عقول الملائكة تجدها ضعيفة جداً ولا تقدر أن ترتفع إلى العلو اللازم لتأملها، ولإستيعاب كل غني محبةٍ عظيمة بهذا القدر.

١٧ – لأنه ليس لكي نفحص مثل هذا العلو أننا نتكرس له، بل لكي نجد فيه مسرتنا، هذة المذاقة سرعان ما توهب لنا، لكي نكون قادرين على إعلان معونته. ونحن نتوقف إذاً عن الكلام، ونمكث في السكوت، بعد أن تكون قد أنارت لنا الشيء الذي ليس له حدود : أعني محبة الله لخليقته. وطالما أننا لم ندرك بعد اللحظة التي فيها نلاقي بالفعل نموذج سرّه، في العالم الآخر حيث يُعدّ الله لاستعلان المحبة، ننهي هنا حديثنا، ونحن مثابرون بكل ثبات في ما هو للتعزية المرئية، كمرآة للأخري، ومرتبطون في الوقت نفسه بالصورة الجزئية التي لمعرفتنا عن المحبة، الصورة التي نكرس لها إيماننا، إلى يوم الاستعلان الْعَظِيم والمجيد حين نرى جميعنا وعن قرب، هذا الغنى غير المرئي الذي صار الأن لنا.

١٨ – مَنْ يقدر أنْ يصمد أمام الدهش والفرح الذي أعدّه الله لنا بسعةٍ، في محبته الأبدية، وحنانه اللانهائي، ودون أن نطلب منه ذلك. لقد قيل : " اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ - بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ - وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لِيُظْهِرَ فِي الدُّهُورِ الآتِيَةِ غِنَى نِعْمَتِهِ الْفَائِقَ، بِاللُّطْفِ عَلَيْنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. (أف ٢ : ٤-٨). له المجد إلى جيل الأجيال.

.آمين.آمين.آمين.

المَيْمَر السَّادِس

تشجيع مناسب للمَيْمَر السابق

لطف الدينونة الإلهية، وقصد تَدْبِير الله لنا

١ - إنْ كان ليس حسناً أنْ نتأخر عن عمل ما يجب علينا، فبالأكثر من غير المناسب ألا ندقق النظر في ما قبلناه، لكي نتعرف عليه ونعترف به قدر استطاعتنا. هذا غالباً يكون بسبب ضعف طبيعتنا وبرودة أشواقنا. مَنْ يقدر أنْ يعترف كما يجب بمحيط نعمة الله هذه؟ بل إنَّ مَنْ سيعرف ذلك سيكون بعد غير قادر على التعبير عن الإعتراف بالعظمة اللانهائية التي تظهرها لنا هذه الطبيعة الإلهية.

٢ – لأنَّ نعمته ومحبته وافرتان تماماً، وتفيضان في الذهن بطوفان من الأفكار المذهلة والتأملات الغنية، وتغمر العقل وقت الهذيذ، وتقوده إلى السكوت وتضع نهاية للمعرفة التي تقدر أن تحس بأمور الله. بل وتجعله أيضاً مضطراً أن يتوقف عن التسبيح، و تُقيِّد قوة الدهش الذي يحل عليه.

٣ – والإحساس بعدم استحقاقه للمكافأة يتساوي مع عدم قدرته على معرفة قياس محبة الله، لأن المجازاة الكاملة ونتيجة العمل ترجع إلى الله، فهو وحده بالحقيقة، يعرف كم يحبنا. فعمل صغير من جانبنا يكفيه، إذ كنا غير قادرين على أكثر من ذلك، والتحقق من أننا نجهل حجم أعمالنا يُعتبر أساس كل معرفة عندما نوجد أحياناً في تلك الحالة، حيث تستنير نفوسنا، مَن يكون عندئذ قادراً أن يحتمل الفرح الذي يحظى به؟.

٤ – يا أحبائي، تلك هي أمور الله كيف هي وكيف ترتّبت كثرتها المتنوعة، قد توسّعتُ في شرحها حسب معرفتي الفقيرة، في ميمر سابق، وهذا الميمر ينحصر في اثبات الحقيقة بما يكفي ليقود الذهن المجتهد، الذي يهذّ في هذه الأمور نحو الدهش والفرح.

٥ – فلنذكِّر أنفسنا دون انقطاع بهذه الأمور التي ملأتنا بهجة، ونحشدها أمام أعين ذهننا، نفحصها ونحن ممتلئون فرحاً، ولنرفع قلوبنا نحو الله عالمين أنه قيل : " مَنْ افتخر فليفتخر بالرب " (١ كو ١ : ٣١) يأله من مجد عجيب، أمور الله هذه التي رتَّب لنا أن نتذكّرها دون توقف، لأنَّها بالحقيقة جديرة جداً بتذكّرنا لها بقياس ما أن التنفس ضروري لنفسي، فعلينا أن نعتبرها تخصّنا أكثر من أي شيء آخر.

٦ – نحن نتبرر بما يأتي من الله، وليس بما هو منا. نحن نرث السماء بعمل الله، و ليس بعملنا. قيل : "لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ." (رو ٣ : ٢٠). وأيضاً: "لا يتمجد إنسان بأعماله، بل بالبر الذي يكون من الإيمان" (رو ٤ : ٣) . مَن هو الذي قال أن البر لا يأتي من الأعمال بل من الإيمان وحده؟ هو يَسُوع الْمَسِيح.

٧ – هذا هو تفسير المقولة التي قيلت، إن الإنسان لا يتبرر بالأعمال. إنها لا تتحدث عن الأعمال المرئية وحدها التي بحسب الناموس. لأن الجسد وحده لا يقدر على تكميل كل ما هو مطلوب حتى يتبرر أي شخص. إنه إذاً بأعمال الإيمان يتبرر الإنسان. اسمع إذاً : مَنْ يزعم أنه يمتلك البر بأعماله الجسدانية التي بحسب الناموس، هو مُلزَم أيضاً بتكميل كل ما يأمر به الله، وبهذا وحده يُعتبر شرعاً متبرراً.

٨ – إن كانت نعمة الإيمان : التي تبرّر الضمير، لا تتدخل كوسيط، فإذا ما نقصت الأعمال، ومِنْ ثَمَّ تُرتكب خطيئة ما، أو تتوقف الأعمال، يصبح بإمكان الاشتياق أن يحل مكان الأعمال. وهذا لا يعني أن البر بالناموس هو أمر مستحيل، لأنه حيث لا تكون توبة، لا يوجد غفران بل استحقاق دينونة.

٩ - البر الذي يأتي من التوبة أو من الضمير الصالح لا يُمنح بدون النعمة. فالمذنب ينهض سريعاً ويتبرر بدون الأعمال، من أجل توبته. وليس الناموس هو الذي يعمل ذلك. بل (بالعكس) إنه إن أطاع كل الناموس وعثر في نقطة وَاحِدة لا تُحسب له النقاط الأخرى التي التزم بها، هذا بالنسبة للإنسان الذي يترجى أن يتبرر بأعمال الناموس وليس النعمة، فمن أجل هذه النقطة الوَاحِدة التي استهان بها يقع تحت الدينونة بحسب الناموس : " كل من لا يقيم كل ما جاء في الناموس يهلك ..... " (تث ٢٧ : ٢٦).

١٠ – مَنْ يظن أنه يتبرر بأعمال جسدانية حسب الناموس، أي برٍّ ينتظره عندئذ طالما أن الطبيعة تضعف دائماً، أن عجزه يؤدي في جميع الأحوال إلى حكم الله عليه، إذا كان سيُدان بحسب الناموس، إذاً، طالما كان ينتظر أن يتبرر أمام الله، فهو يكون قريباً من الخطر بل وأيضاً من فقدان الخلاص، بما أنه يستحيل ألا تخطيء الطبيعة البشرية، وأنها لا تقدر أن تكمّل كل البر كما يطلبه الله، أن ليس ولا وَاحِد لم يخطيء. وكالمكتوب : " كل مَنْ لا يقيم كل ماهو مطلوب يهلك ". هذا هو معنى بر الناموس !

١١ – ولكن إذا قلت : " إنني متبرر بالضمير وبرغبة النفس، وأنا أُظهر قلبي لله "، فهذا هو ما يأتي من النعمة التي التمستها حتى ولو لم يكمل العمل، أو أنك صنعت خطيئة، أو الظروف جعلتك تقع في زلّةٍ ما، ولكنك كنتَ مقتنعاً بأن ما تمتلكه (بداخلك)، في ضميرك، يُحسب لك مكان العمل، في حين أنه لا يوجد عمل كما وليس لك ما تفتخر به من أي عمل أيـّاً كان، فأي مجد تطمع فيه عندئذ ؟ أين هو الفرح الذي يأتي من سيرتنا النسكية ؟

١٢ – فليستدّ فمنا إذاً، لأن الرب هو وحده الذي له الغلْبة، وهو الذي خلّص البشر بنعمته وليس من أجل أعمالٍ. إنه بالإيمان يتبرر الإنسان، وليس بأمثال هذه الممارسات النسكية. الذي لا يمتلك أعمالاً ولكنه يؤمن فقط بذاك الذي يبرر الخطاة، فإن إيمان ضميره يُحسب له براً أمام الله. هذا هو ما قاله الرسول : "الإنسان يتبرر بالإيمان وليس بالأعمال" (غل ٢ : ١٦).

ولكن إذا أراد المرء أن يُحتسب العمل كبرٍّ، فمكتوب أن: "كل من لا يقيم كل ما هو مطلوب

يهلك" (تث ٢٧ : ٢٦). هذا هو البر الذي يأتي من الأعمال النسكية.

١٣ - وبالعكس، هذا هو البر الذي يأتي من النعمة : عندما يعمل أحد عملاً متواضعاً، حسب قدرته، ولكنه يؤديه كاملاً برغبته، حتى ولو لم يوفَّق تماماً ولم يكن عملاً بكل معني الكلمة، فإن الله بنعمته يعتبره كمال البر، إذ يحتسبه عملاً كاملاً، لأنه قيل : " عندما لا أقدر أن أعمل شيئاً فإنني سأعمل حسب قوتي، لأنه ليس بإمكاني ان أكون بلا عيب وبدون خطية ". أما أنت، يارب فمن اجل أي عمل زهيد، تهبني البر.

١٤ – يحدث أحياناً أنه حتى هذا الشيء القليل القدر يكون شاقاً جداً عليَّ ، وأنه ليس فقط أنني لا انجز العمل، بل وكثيراً ما تبتعد عني الإرادة المخلصة التي تفرض عليَّ أن أكون ذا رغبة جيدة، وتتورط في الشر وتفارقك، يارب، كما ويحدث أيضاً أن تعوزني الرغبة المخلصة لك، هكذا، بينما تهجرني الأعمال والرغبة في وقتٍ وَاحِد، فبفكر التوبة وحده، أنت، يا الله، تقبلني وتمنحني في الوقت نفسه البر الكامل، بالرغم من أن الأعمال تعوزني، وحيث لا الوقت ولا نسك الجسد يقدر أن يوفرّه لي.

١٥ – ولكن عندما أمكث منتظراً كل هذا، أنت تقبلني، بنعمتك، وبدون الأعمال، وتحسبني باراً وتقيمني في المرتبة العالية التي لم تكن لي من قبل فبتحوّل رغبتي وحده، ورغم كوني غير قادر علي شيء، أنت تنهض ضميري من الموت وتمنحني براً يلغي الدينونة. أين هو البار الذي يقدر أن يتجاهل هذه النعمة، وبعد أن قبِلها لا يحفظ خطواته في طريق جهاده النسكي؟

١٦ – فالذي يدرك ويميّز على الدوام هذه الأمور لا يقدر أن ينسب فرحه إلى أعماله، بل إلى صلاح الله وحده، و الذي يكون صلاح الله مصدر فرحه حقاً لا يدَّعي أبداً، هذا الفرح له وحده، ولكنه يفرح أيضاً لأجل كافة الخلائق. مثل هذا الفرح هو أكثر فيضاً من المحيط، ذلك لأن حلاوة صلاح الله تتوجه إلى العالم كله، ولأن الخليقة بجملتها تفرح، ولأن حتى الخطاة يشاركون فيه.

١٧ – لأنه ليس بعيداً هكذا عن أن يفرح من أجل الخطاة، لأنهم قريبون من الرحمة، يقول، بسبب صلاح الرب الذي يتوجه إلى الكل، بما أنه لي أنا أيضاً قد أُعطي بدون الأعمال، هذا يعني – بما أن الجميع هم مشتركون في هذا الصلاح، مثلي أنا، لأن الله صالح – أن ثمة اشتياقاً متواضعاً قد تشفّع، وأن الله أعطى نعمته بسخاء ومحا الخطايا.

١٨ – هذه هي النعمة التي تشدّد الأبرار وتحفظهم بقربها، وتغفر لهم خطاياهم وهي قريبة أيضاً من كل مَن كان في خطرٍ، وتخفّف آلامهم، وتسعي بكثرة تحننها لإلغاء عقوبتهم، لأنها في العالم الآتي، هي النعمة التي ستدين وليس العدل. الله يقصّر مدة عذاباتهم، وبرحمته يجعل العالم كله مستحقاً لملكوته، لأن أي بار ليس يقدر أن يوجّه طريقه إليه.

١٩ – إذا كانت الأمور البشرية تُفحص ويحكم عليها بحسب العدل، وإذا كان يجب علينا أن نسمع أقوال الكِتَاب المقدس بحسب دلالتها الظاهرة، ونرفض التعمق فيها بفهمٍ روحي، فأين نجد البر في هذه الدنيا ؟ لقد قيل : "الرب رحوم في سائر أعماله" (مز ١٤٥ : ١٩). وهو إن

كان يؤدب في هذا العالم أو في العالم الآخر، فليس من المناسب أن نعتبر هذا كفعل عدلٍ، بل كعمل حكمة أبوية.

٢٠ – إنني لا أعتبر الأمور الصعبة التي يفتقدنا بها الله بمظهرٍ من القسوة هنا أو هناك كعقوبةٍ، ولكني أراها كتعليمٍ، لأنها تنتهي بطريقة سعيدة. إذاً، وكما قلت: لا يوجد إنسان يتناسب تَدْبِيره مع هذا الملكوت وهذه السيرة التي تُمنح لنا بالرحمة.

٢١ – وهكذا شرحتُ ما قلته : إننا بالنعمة التي تأتينا من الله نحن نرث السماء، وليس من أجل أي شيء يأتي منا، كما أن هذه النعمة هي دائماً رهن إشارتنا وليس من حين لآخر، فإذا ما تقبَّلنا كل النعمة، نفرح بالمانح، وبفرحٍ أكثر كذلك، نعبده ونشكره على هذه العطية، وبهذا تزداد وفرتها بلا قياس.

٢٢ – الفرح الذي يجده المرء في جهاده النسكي هو إذاً فرح وهمي، كما أنه حقير. والذي هو كذلك هو أيضاً حقير ليس فقط بسبب فرحه هذا، بل وأيضاً من أجل نقص معرفته، لأنه قيل : " إنني أفرح لأنني علمت حقاً أن الله صالح ". هنا تكون التعزية التي لا تزول أبداً وفرحه فرح حقيقي، لأن نفسه تفهم تدرك جيداً معنى ما قيل، أعني : إن صلاح الله بلا قياس.

٢٣ – والواقع إن الطبيعة البشرية لا تقدر أن تتبرر بنفسها، وهي التي تنهزم كل يوم بسبب ميولها وضعفها، وبسبب الجسد والعوائق التي تعرض له، أو بسبب الأعراض التي تصادفه من الخارج، والهدف من كل هذه الأمور هو لكي يفحص البار نفسه على الدوام، بحسب ما سمعه (من الإنجيل).

٢٤ – عند الله، الخطية الوَاحِدة لا تصنع الخاطيء، إنه يرضيه أ، يحسب الإنسان حساباً لمصادفات الخطايا قدر استطاعته، أما إذا ارتكب خطية فهذا لا يُنقص من رحمة الله الذي لا يُشِّهر بخطايا جسيمة كتلك التي سقط فيها، بل يغطيها بستارٍ لكي لا تصير معروفة لدي كل الناس، وهكذا يُسرع لمعونة الخاطيء. أما عن المخالفات الكبيرة فهو لا يشهرها إلا بقدر ما يجعل المُنحلين يخافون. والخطايا الصغيرة يسمح الله بإشهارها لكي يظهر بذلك رفضه بالتالي لتلك الخطايا الكبيرة الخفية.

٢٥ – إذا ما أخفى إنسان بعض المساويء البغيضة والمخزّبة، فإن الله لا يُظهر منها سوي النقائص الصغيرة لكي ينبّه الشخص. وغالباً ما تكون صغيرة بالمقارنة بالنقائص الأخرى، فهو يكشف الأمور غير الهامة لكي يشفيها. وبالمقابل، بالنسبة إلى برٍّ قليل يجده في أعمال مثل ذلك الإنسان، لا يتأخر مع ذلك عن تكريمه، بمكافاته مضاعفة، ذلك لأنه يحوّل نظره عن الخطية بكل وسيلة ممكنة. الله هكذا ينظر إلى خطايانا برحمةٍ، مثلما يراعي أي قدرٍ صغير من الغيرة والحِمية في اتِّباعه.

٢٦ – إنه يتغاضي عن الخطايا وأيضاً عن إهمالً طال أمده، ويلتمس أي وسيلة لكي لا يَظهر الشخص كخاطيء أمامه. لقد قيل : "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك، لا تموت" (٢ صم ١٢ :

١٣). وحتى إذا كنت أنت مثل هذا الخاطيء، ولم تهتم بالتوبة، فإن الله مع ذلك يهبك الغفران من أجل آخرين، ولأنه يحب أن يجد وسيلة للغفران. وفي حالة هارون والعجل الذهبي كانت صلاة موسى هي التي شفعت فيه، وهو من أجل نفسه ومن أجل داود غطى بظلّه على المدينة المملوءة أصناماً (قابل ٢ مل ١٩ : ٣٤).

٢٧ – حيثما توجد توبة (ولكن) بالإسم فقط، وتحت مظهرها الخارجي لا غير، ينحني الله مع ذلك ليسكب غفرانه بفرح. حتى ولو كان الأمر يتعلق بخطايا صعبة، وهو الذي يعرف قلب الإنسان. لَيْتَنا نتذكر موت نابوت وتوبة آخاب (١ مل ٢١).

٢٨ – حقيقة أن الله يغفر تُثبت أنه لا يُسر بالخطايا وهو فضلاً عن ذلك يُظهر بطريقةٍ واضحة رحمته حين يقول : "إنني أحب الغفران، ولست أغفر كيفما اتّفق، ولكن لأن هذا يتناسب مع صلاحي وأنه يحلو لي أن أمنح الغفران للناس، سواء كانت هناك معصية أم لا، ونعمتي تتدفق في كل مكان بهيئة مستترة، وتنكشف عندما يكون ذلك نافعاً ".

٢٩ – شخصان مدينان لدائن وَاحِد يتوسلان إليه. كان على الوَاحِد خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. هذا يشير هنا إلى خطايا جسيمة، وينطوي أيضاً على خطايا فرعية وأخرى صغيرة، ولم يكن لكليهما ما يوفيان، فسامحهما الدائن جميعاً (لو ٧ : ٤١ - ٤٢). الله يظهر هنا بكل وضوح أنه يحب الغفران وليس المعاصي.

٣٠ – تَدْبِير الله للخلاص يردّ سبب المعاصي إلى الإهمال، ذلك لأنه ليس لها أية منفعة بل بالأكثر تكون فرصة للرجوع إلى الوراء. إنه يُعرِّفنا هكذا بكل وضوح بمجمل قصده، ولكن لأنه في حالة ما إذا كان غير قادر على شفاء ميولهم الرديئة، فتزداد جسامة الشر، فإن هذا لا يعيقة عن أن يمنح النعمة عينها بكل طريقة وبصورة علانية، تلك التي أظهرها نحو المديونَيْن بخمسمائة وبخمسين دينار على السواء.

٣١ – ليس لأنه يحب الوَاحِد كثيراً والأخر قليلاً أنه تصرّف هكذا معهما، لأنه لا يحب الآخرين أقل منهم، كما أنه لا يحب أفراداً بوجهٍ خاص، بل الطبيعة البشرية بوجهٍ عام، وإذا كانت الطبيعة هي التي يحبها، فإن جميع الأفراد صالحين وأردياء، هم داخل حدود محبته. وإذا كان لم يتأخر عن أن يمنح الغفران ويستر المعاصي، فالمدانون بكثرة الشرور، يجعلهم بهذا المقدار أهلاً لملء تلك الرحمة أكثر من الذين شرهم أقل قدراً.

٣٢ – إنه يمنح الغفران لمن كان مُداناً بلا حدود ولمن كان دَينه صغيراً، في حين أن الذين يتقبلونه لا يقدرون أن يحصلوا عليه علناً وبمساواة. أما بالنسبة لله فالحالتان متساويتان. لأن الله لا يُتعب نفسه بإجراء حسابات، وهو لا يغضب ولا يغتاظ ولا يسخط عندما يغفر لمن أخطأ أكثر من أن يغفر لمن أخطأ أقل. لأنه يحب الإنسان ولا يحب أن يُعطّل العدل عمل الرحمة. " لأن أفكاري ليست كأفكاركم، ولا طرقي كطُرقكم، لأني إله رؤوف " (إش ٥٥ : ٨ ؛ إر ٣ : ١٢).

٣٣ – لمَّا تأملت هذا كله أذهلتني هذه الحكمة. عجيب هو الرب عند الكل. لقد امعنت النظر في رحمته التي عظمتها تفوق قدرة أي عقل على تصوّرها. إن مسرّته هي أن يغفر كافة المعاصي لجميع بني البشر!.

٣٤ – مَنْ كان خاطئاً بزلّةٍ صغيرةً، يدعوه للوقت باراً. ولأنه كان صالحاً خلال يومٍ وَاحِد، يغفر له كافة شرور العمر كله. من أجل عملٍ وَاحِد صالح يقرّر براءة ذاك الذي أمضي جميع أيامه في الخطيئة. ومن أجل وخزة ضمير وَاحِدة في توبته، ينسى تعدّياتٍ بلا حصر. إنه يقبل من الخاطيء رغبةً وَاحِدة متواضعة عوض كثرة أعمال. وتكفية لحظة توبة مقابل خطايا ثقيلة لسنين كثيرة طال أمدها.

٣٥ – حتى ولو كان الجسد لم يتمكن بعد من أن يضع نهاية لجميع الخطايا السابقة، فإن الله يعتبر هذه التوبة براً، لأنه يقول : " لا تخطيء بعد، وأنا سوف لا أحسب لك خطيتك بعد، عليك فقط أن تستوعب النعمة التي مُنحت لك ". العشار في الهيكل والإبن الضال يشهدان بذلك، وهما قد حظيا أكثر من الآخرين بالغفران سريعاً مع أنهما كانا قد ارتكبا خطايا أكثر من جميع الآخرين. لأنه قِيل : " ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً " (رو ٥ : ٢٠).

٣٦ – مع أن الله هو الذي يمنح القوة للإرادة حتى لا تطيع الخطية، حيث كل شيء قائم هكذا بالنعمة، إلا أنه يُسرّ بأن يدعونا أبراراً. وكما قلت فإن القصد من كل هذا هو لكي باستخدام كل الوسائل، يمكن لله أن يفرح بأن يكون جميع الناس أبراراً ويُحسبون كذلك.

٣٧ – أنظر إلى أي حدٍّ طبيعتنا ضعيفة ! وكيف على الرغم من أن كل وَاحِد منا كان موجوداً هكذا في برٍّ أسمى، هو يدعونا أبراراً من أجل أمورٍ ضئيلة. إنه الرب الرحوم ! أترى يوجد من يشك في ما قلته ؟ أو هل يوجد ضمير لا يشهد لهذه الحقائق المجيدة عن الله ؟ لَيْتَ تذكار اللص اليمين يكون فرصة للبركة، لأنه من الواضح أنه هو أيضاً قد شارك الذين قبلوا الرحمة مجاناً.

٣٨ – أ يوجد إنسان عاقل عميت بصيرته إلى هذا الحد ولم يفهم كل هذا، وقد حوّل وجهه واضعاً فرحه في تدابيره النسكية ؟ أيّ عاقلٍ لا يتمعن في هذا الليل و النهار – ليرى جميع عجائب الله وأحكام محبته : كيف لا يدين اللله أمورنا بحسب العدل، بل بالمحبة يحوّل الحكم العادل لحسابنا، ويحلو له أن يتغاضى عن أمورنا الرديئة.

٣٩ – إذا شغل الإنسان نفسه بالهذيذ وداوم على ذلك ليلاً ونهاراً، وإذا كان الفرح الذي يجده في هذا العمل هو مصدر بهجته، فهو يدهش بالله، ويفرح كما لو كان قد اكتشف كنوزاً إلهية. إنه غني في فقره : وفرحه هو فرح ياتي من النعمة وليس من الإنسان. وكل ما حُرِم منه من أعمال، يمتلكه كله بالإيمان، لأن ذاك الذي بواسطته كل شيء قائم هو مصدر فرحه.

٤٠ – لأن مَن كان عنده كل الفرح، يمكن للمرء أن يقول عنه أن كل ما يخصه جميل هو، هنا فقط يكون فرح النفس: فرح ذاك الذي يفرح بطبيعة الله وبسبب الغِنى الذي نمتلكه في هذه

الطبيعة الفائقة السمو، لأن الله فائق الغِنى، ولأنه هو أيضا أيضاً غنانا، أعني الرحمة والمحبة والصلاح. والذي يتدفّق الفرح فيه بهذه الأمور، يكون فرحه فرحاً من أجل الكل، لأ، كل مايخص الله يخصنا نحن أيضاً.

٤١ – مع كل ما يخصه، لقد أراد أيضاً أن يعطينا ابنه الوحيد كما قال رَبِّنَا : " هكذا أحب الله العالم حتى بذل إبنه الوحيد الجنس، لكي لا يهلك كل من يؤمن به" (يو ٣ : ١٦). وكما قال أيضاً المغبوط بولس: "ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (رو ٥ : ٨). وأيضاً : " لأنه وإن كنا ونحن بعد أعداء قد صولحنا مع الله بموت إبنه، فكيف إذاً بعد مثل هذا الغِنى، لا نكون الآن مُخلَّصين بحياته؟ " (رو٥ : ١٠). فَمن كان فرحه كائناً في هذه الأمور، فإن فرحه هو خلاص الخليقة!.

٤٢ – لَيْتَ نفوسنا تنشغل دون انقطاع بهذا الفكر الفائق الذي هو تذكّر محبة الله لنا. ولنقدّس قلوبنا بهذا العمل أعني بمداومة الصلاة، بهذا التامل نتطهر من خطايانا. لَيْتَنا بالتوبة والإيمان نجدّد دائماً نفوسنا، لأن البر بدون أعمال يكمن في اقتناء الندم وفي إيمان الضمير وبهذا أيضاً يكون التصالح.

٤٣ – لَيْتَ كل وَاحِد ينهض نفسه بشجاعة وقناعة راسخة ويقول لها : " إذا كنت اليوم غير قادر أن أخلص بالأعمال، فإنني غداً سأخلص بالنعمة ". ولنوقظ ضميرنا في كل حين برجاء رحمة الله. وليبتهج قلبنا بحبه، لأنه يحبنا كثيراً حسب قول المغبوط بولس.

٤٤ – لَيْتَ فكرنا يجتهد باستمرار في الهذيذ بتَدْبِير الله لنا، ولتنسكب نفسنا على ذلك التأمل، لأن الإحساس الذي يحتويه عظيم هو، وفرحه بلا نهاية، هذا هو عمل الملائكة، إنه هكذا ينمو ويزداد العاقلون في حكمة الله. التي بفضل الكنيسة تكون ممتلئة أفهاماً كما قال الرسول (أف ٣ : ١٠). ونحن أيضاً ننمو بواسطة هذا الهذيذ في معرفة محبة الله.

٤٥ – إذا كان هذا التأمل يغمر الملائكة بالتعجب ويزيد بهجتهم، فأي منفعة عظيمة يجتنيها الناس أيضاً منه، إذا ما داوموا الانشغال به، إنه لا يأتي مصادفة، بل عن طريق إحساس داخلي عظيم واضح، إحساس يجعل نفسنا هيكلاً لله، لأنه بتذكار الله الدائم يسكن الله فينا علي الدوام. والتذكارات المماثله هي عون عظيم لنا، نحن الذين نتمتع بهذه الحكمة الإلهية.

٤٦ – لَيْتَ نظر ضميرنا يتطلع بلا انقطاع نحو جميع هذه الحقائق، بمعنى أنَّ الضمير الإلهي قد تصالح منذ الأزل معنا، حتى مِن قبل خلقة العالم، هذا هو ما نحن بصدد شرحه في هذا الميمر، و الذي يفيض بلا انقطاع بالدهش والرجاء على أولئك الذي يثابرون على الانشغال بهذا الهذيذ ويتبارون في ذلك مع طبيعة الملائكة.

٤٧ – فلنحصر أيضاً في أفكارنا أتعاب التدابير النسكية التي مارسها القديسون عبر جميع الأجيال، ولنصوّرها في ضميرنا كدليل للشفاء؛ ولنفهم كيف جذبتهم نقاوة تدابيرهم وحياتهم السامية وأعمالهم للسكنى في عزلة من العالم، وكيف كان اهتمام أذهانهم بالتأمل المجيد يهبهم

القدرة على تقبل الدهش بلا انقطاع بهذه الأمور، عندما تتأملها عقولهم، وكيف أن هذا كان يرفعهم تماماً فوق أمور هذا العالم وكافة التذكارات الفاسدة.

٤٨ – ولا نخاف أن نقول، إنهم صاروا أمثلة للحياة بالرُّوح، منذ بداية تدابيرهم النسكية هنا على الأرض، وكيف وهم مازالوا بعد في الجسد، كانوا موجودين كل حين خارج الجسد، ليس لأن ذلك كان ممكنا بدون غذاء وبغير آلام طبيعتهم المضنوكة، بل بالأكثر إلي جانب اختبارهم ذلك، قد شعروا بالفرح، لأنهم كانوا في أذهانهم ممثالين للقوات غير المرئيه، ووْجدوا في عقولهم أعلى من العالم.

٤٩ – وبفضل الهذيذ الملائكي الذي سبق الحديث عنه، يُثقّفون أنفسهم، ليلاً و نهاراً ، بينما نظر ذهنهم ينبسط كل الوقت إلى الله، وإذ يتحول بالرُّوح نحوه ينتظرون هذا الاتحاد غير الفاسد الذي هو فوق العالم، كما قال القديس أموناس في إحدي رسائله حيث يُعلِّم كيف يتسنى للإنسان أن يصير مستحقاً لهذه الموهبة العجيبة التي لا يستحقها العالم.

٥٠ – يقول : " امتدوا بأفكاركم ليلاً ونهاراً نحو الله، وأنتم تطلبون الرُّوح الْقُدُس فيُعطي لكم" (رسالة ٨). وهو في قوله " امتدوا بأفكاركم " يقصد بالأفكار الذهن. فيقول " اغصبوا أذهانكم الليل والنهار في الهذيذ بالله، لأنكم حينئذ تكونون مستحقين لعمل الرُّوح الْقُدُس؛ وهذا هو ما يعنيه قوله : "اطلبوا الرُّوح الْقُدُس فيُعطي لكم".

٥١ – إن من يشغل عقله كل حين بهذه الأمور، بلا شك، يحتقر الأشياء الزمنية، ويمتلك منذ الأن سيرة نقية دائماً، أنتم إذاً بكل تأكيد جديرون بالاتحاد الذي لا يُعبَّر عنه مع الله الآب، والذي يُدرك عن طريق إعلانٍ، وقت الرحيل إلى الحياة الأخرى، بانتقال العقل، حسب قول الآباء، في جميع أحوالكم، يرى النَاظر أن اسلوب حياتكم مختلف عن سائر الناس الذين مازالوا بعد في الجسد، وفي العالم، أصبحتم منذ الأن مرتفعين نحو الحياة، حياة رَبِّنَا، بفضل الطالعة وبأسلوب تفكيركم.

٥٢ – وليس ذلك لأننا نكون متغربين عن اهتمامات الأكل والشرب والملبس كما قلت سابقاً، ولكن لأنه من الواضح أننا في كل مايخصّنا نوجد غرباء عن أمور هذا العالم، و يبدو كما لو كنا نعارضه : في جهادنا واسلوب تفكيرنا، في أشغالنا وأقوالنا، إلخ.

٥٣ – البعض يجتهدون من أجل امتلاك هذه الأرض ميراثاً، أما نحن فنجاهد لنرث ملكوت السموات.

٥٤ – أبناء هذا العالم يسهرون ويحرمون انفسهم من النوم لكي يُكدِّسون الذهب والفضة، أما نحن فنسهر ونجهد أنفسنا لكي نتذوق في أسهارنا حلاوة القيامة.

٥٥ – هم يتزينون لهذا العالم لكي يعثروا به، أما نحن فنتزين للمسيح نور حياتنا.

٥٦ – هم يسكرون بالخمر، وتنسى عقولهم العذابات المعدَّة لنفوسهم، أما نحن فنسكر بمحبة الله، وفي نشوتنا ننسى أمور هذا العالم الزائل.

٥٧ – هم يتعبون لتحصيل معرفة ضارة، لا يقدرون أن يأخذوها معهم إلى العالم الآتي، ونحن نجهد أنفسنا في الهذيذ بالله.

٥٨ – هم يتكلمون عن أمور لا أخلاقية وشنيعة، مملوءة من كل الأشياء الدنيئة والمفسدة، أما نحن فنتحدث عن افتداء النفوس، وعن أمور الدينونة، ونبحث في أمور ما بعد القيامة، نبشر بما سيكون من مصالحة مع الله، ونقدم تعليماً عن الخلاص يملأ النفس بالتوبة، ونروي قصصاً تحرّض على اشتهاء القداسة، وعن أعمالٍ تدعو إلى رجاء ما سيكون بعد موتنا، من فرح برَبِّنَا وتهليل في الرُّوح الْقُدُس، واحتقار للعالم الفاني، وتذكار فرحنا بالرب، وتقديم الشكر من اجل افتدائنا، وسر الخلاص الذي يتحقق عبر أجسادنا، وتذكار الذبيحة التي قدّمها مخلصنا (على الصليب) من أجلنا، ودموع الفرح والحزن معاً، والشفاة تتحرك على الدوام لتمجيد الله.

٥٩ – فلنكن مجتهدين في هذه كلها، لأن جميع هذه الأمور تشهد برحمة الله التي يظهرها لجنسنا البشري. ينبغي ألا نلتمس لأنفسنا أي عذر عن إهمالنا، بل لَيْتَنا نقتني بالأحرى غيرةً للبرِّ، حتى لا نوجد مرفوضين بسبب سلوكنا المخالف.

٦٠ – كما قال العجيب بين القديسين ثيؤدروس المفسّر في شرحه للرسالة إلى أهل رومية : " ليس من المناسب أن تقود رحمة الله أولئك الذين تدركهم إلى الإهمال، بل بالعكس يجب أن يظهروا بالأكثر كل غيرة، لأنه من المخجل أن نظهر جُفاة تجاه من كان صالحاً تماماً، ومن كان، بإختصار مهتماً بكل هذه الخيرات، لكي نتمجد نحن بها، إنه بمقدورنا أن نبلغ حسناً إلى القيامة من بين الأموات دون أن نواجه تجربة هذه الدينونة المحفوظة للذين أسلموا أنفسهم تماماً للشر في هذا العالم الزائل، وهكذا طالما كان المرء متمسكاً بالوعد بدخول تلك الرَّاحَة، يجب ألا يتوقف أي وَاحِد منا عن الاهتمام بالأمور التي فوق ".

٦١ – هناك أيضاً أمر ليس بغريب عن محبة الآب : عندما نسعى في هذا العالم ومع كوننا عقلاء، نهتم بكل ما نتطلع إليه، فنحن لا نعيش فيه بطريقة عاقلة، كما ولا نحس بشيء من أمور هذه الحياة التي نتوجه إليها، حيث لا يشاء الله أن يعذبنا على الدوام، ولكن إذ قد علمنا أننا نستحق لمثل هذه العذابات، نتقبل (الآن) سبق تذوّقٍ لها في أنفسنا.

٦٢ – والحقيقة أنه بقياس ما يكون المرء جاهلاً بالعواقب، تجده يقوم بأي عمل. أما بالنسبة لفكر الله الأبدي والذي يتوافق مع عظمة محبته لنا، فإن الهدف الوحيد لمشيئته منذ البداية، لكافة الأجيال هو الإحساس الذي يفسِّر لنا مجمل قصده، حتى ننهض منذ الآن من الخطايا التي نركض فيها، وبنوعٍ خاص جداً بفضل وخزِ محبته، بعد انطلاقنا من هذه الدنيا. فقد قيل حقاً : " الذي قد غُفرت له خطايا كثيرة يحب كثيراً " (لو ٧ : ٤٧)، وهكذا أيضاً يتحقق قول الكِتَاب المقدس : " كي يكون الله الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨).

٦٣ – لإِلهُنَا يليق المجد، من اجل عنايته الحكيمة التي تفوق كل فحصٍ من جانبنا، إلي دهر الدهور. آمين.

المَيْمَر السَّابع

صلاة مُرتّبه على الأفهام السابقة التي قلنا عنها أنّ فحواها هام. والذي يسترجعها مِنْ وقت لآخر أثناء صلاته، لكي يتأمل فيها، ثم يعود بعد ذلك إلى الصلاة، ليقدِّم مباشره أفكاراً مدهشة، بذهنٍ يلهج بالتمجيد، مِنْ أجل كافة الأمور الْعَظِيمة التي تحدث فينا

١ - يا الله، أُمجِّد عظمتك، أنتَ الذي خلقتني بمحبتك، وبالمسيح افتديتني من ظلمات المعرفة التي هيَ جهالة النفس، أنتَ الذي أنقذتنا من أزمنة الضلالة، حتى لا نعود نسلك بعد في الليل من جهة ما نعرفه عنك، كما حدث للأجيال السابقة.

٢ – المجد لك، يا مَنْ برحمتك، احتملت شرورنا، وفي رأفتك برّرت الخطاة الذين هم نحن، وفي لطفك تغاضيت عن نقائصنا، ومنحتنا أن نضع ثقتنا فيك، كما يليق بعظمتك. أنت لم تنظر إلى عنادنا الذي لا يتوقف أمامك، لأنَّك إله رحوم. وبِنَدى نعمتك أنتَ تُطفيء بلا انقطاع نار خطايانا.

٣ – أي فمٍ يقدر أنْ يُسبّحك كما ينبغي! أي لسان يكفي لتمجيدك! بالمزيد من نعمتك أنت تكبح خطايانا، وعوض صك الدينونة، تفيض كنوزك على الخطاة لأنَّك لا تشاء أنْ تدخل في المحاكمة معنا، بل أنْ تجعلنا قريبين منك، لأننا نحن خليقتك. نعمتك فاقت كل قياس معرفتنا، حتى أن الطبائع الملائكية المجيدة يقدمون لك الشكر عوضاً عنا، وهم الذين أودعت فيهم قوة كافية لاقتناء الحركة التي تدفعهم إلى الدهش أمام قداستك.

٤ – إنَّهم يسبّحونك نيابة عنا، لأنَّ طبيعتنا ضعيفة جداً وتعجز عن أن تحمدك (كما يليق بك)، لَيْتَنا نقدر أنْ نخلط تسبيحنا بحركات تسبيحهم المملوء دهشاً، وهم الذين يلمّ بهم الحزن لكوننا ضللنا بعيداً عنك، لأنك قد فصلتنا منهم ولم تُرد أن ننضم إلى جماعتهم في معرفة خفيَّاتك، لكنك منحتنا، دون أن نطلب، هبة الإيمان الْعَظِيمة التي بفضلها نقترب من أسرار المعرفة، والتي بها يقترب الرُّوحانيون تدريجياً من " شاكيناه " جوهرك.

٥ – لأنَّك، يارب، لأجلهم أيضاً، (جعلتهم) بواسطة سرّ الإيمان يتقدمون داخل سحابة مجدك. لأنه بالإيمان أيضاً أنت قريب منهم وليس بالعيان (٢ كو ٥ : ٧)، لأن ما يُقبَل بالعقل النيّر وبمعرفة عظيمة هو أيضاً جزء من الإيمان. أنت تمنح عطية الإيمان للكائنات العاقلة لكي تسعي عقولهم للتصديق، بواسطة الأسرار التي تعلنها لهم بمحبتك. تلك التي لا يمكن ادراكها أو معرفتها : أسرار هذا الجوهر الإلهي، المخفي عن الكل.

٦ – يقيني بهذا الشأن هو أنَّك، أيُّها الإله الأزلي، لا يمكن أنْ تُدرك في مكان ما، لا بواسطة البشر الضعفاء، بل تُستعلن فقط من نبع محبتك الذي تفتحه على الدوام للجماعات العلويه والتي هنا على الأرض. حقاً، إنَّه وفقاً لقياس كل وَاحِد من هاتين المجموعتين، تفتح كنز مراحمك، لكي تظهرها لهم قليلاً أو كثيراً بالمعرفة.

٧ – وعطية نعمتك تكون كوسيط، بها ترفع عقلنا حتى علو العشرة معك بإيماننا، حيث الرؤية، بسبب الظلمة التي تحيط بقداستك، تنحجب حتى عن أعين الشيروبيم، إذا ما تطلّعوا إلى الخباء المخفي في غمامة مجدك.

٨ – وما لم تسندهم نعمتك قليلاً أو كثيراً لكي يرتقوا حتى قمة جبل الإيمان، بفضل معرفة الرُّوح ما كانوا يحتملون ومضات النور التي تلمع فوق العقل، من هذا التوهج الرهيب، وتشع أضواؤها من الموضع الداخلي للإيمان. هذا يُدعي الهيكل الداخلي لمجد الجوهر المجيد المسجود له، الذي لم يدخله أي كائن مخلوق على الإطلاق، ولن يدخله سوى "الوحيد" الذي تقدَّس لكي يدخله طبقاً لعلم الله السابق بحسب قصد صلاحه الذي قصده وبهذا الشأن، لكي يغفر على الدوام خطايا شعبه (عب ٦ : ٢٠).

٩ – حقاً، إنه بالإيمان يدخل الإنسان إلى الموضع الأكثر عمقاً من ذلك الذي للملائكة، بفضل "الوَاحِد" الذي جعلته الرحمة يدخل ويجلس. ومنذ هذه اللحظة، أعطى الله العقول البشرية التي تقدست القدرة على الدخول والمثول أمامه بالإيمان، وأعني بقوة ذلك الموضع – لأنه لا يمكن إدراكة، لأنه بعيد عنا، وهو الذي حتى أعين الملائكة تماماً مثل أعيننا لا تقدر أن تحدق فيه ولو للحظة وَاحِدة. أمَّا عن الرؤيا، فالملائكة يسبقوننا بما أنهم أكثر قرباً مِنَّ، إلى اللحظة التي تظهر فيها لخلاصنا.

١٠ – أنت هو رجاؤنا الحقيقي، حلاوة جنسنا، وسمو طبيعتنا ومعين ضعفنا أنت الذي في كل حين تغفر خطايانا، قوة عملك من أجل اقتناء غفراننا قادرة جداً، ياربي، أكثر من ذبائح إسرائيل. إذا كانت لحوم الحيوانات ورماد محرقاتهم كتقدمات من أجل الإسرائيلين، تطهرهم وتقدسهم وتجعلهم بدون إثم فكيف لا تطهرنا أنت كل حين، وأنت التقدمة المُقدسة المُقدمة من أجل العالم.

١١ – أنت تُقدّم وأنت تُطهّر، أنت هو الكاهن الذي يقدِّم وأنت هو ما يقدَّم، أنت هو الذبيحة وأنت هو مَن يَقبلها. إذا كانت صفيحة من معدنٍ (لا ٢:١٦) بغير عقلٍ هي التي تشير إلى سر تجسدك، تمنح الغفران لمن يطلبونه، فكم بالحري جداً أنت، الصورة المجيدة للألوهية ! ثم إذا كانت أسرارك تسكب كل هذا الغنى على المعوزين، كيف وأنت النموذج الأصلي الحقيقي للأسرار لا تغمرنا بمراحمك الوفيرة !.

١٢ – لأنَّك أنتَ هو مَنْ كان الأنبياء والملوك ينتظرونك في أجيالهم، والأبرار في أنسالهم، وكانت الشعوب تترقب يومك، أما نحن فقد قبلناك عندنا، وامتلأنا فرحاً بك. هم كانوا يرونك في رؤياهم، ويتملكهم الدهش ويشتاقون إلى ملاقاتك وها نحن قد رأينا تحقيق أسرارهم. إذ أنت خالقنا، سكبت علينا جيحون نعمتك (تك ٢ : ٣ ؛ ١ مل ١ : ٣٣)، لقد فتحتَ كنزك بكامله لبني جنسنا وامتلكوه، واعلنتَ لنا أسرار مسيحك، هذا الذي كانت اجيالها يضنيها الاشتياق لمجيئه، ورقدوا دون أن يحظوا بالعزاء، لأنَّ أيامه كانت بعيدة عن عصرهم.

١٣ – ارجعي، يا نفسي إلى راحتك، لأنَّك قد رأيتِ ذاك الذي كانت تنتظره جميع الشعوب، وقد حملتِه على يديك، وبه قد نلتِ الغفران عن شرّكِ وكافة خطاياك. "بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوس". (مز ١٠٢ : ١). سَبِّحِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. (مز ١٤٦ : ١). "أُغَنِّي لِلرَّبِّ فِي حَيَاتِي. أُرَنِّمُ لإِلهِي مَا دُمْتُ مَوْجُودًا". (مز ١٠٣ : ٣٣). قَلْبِي وَلَحْمِي يَهْتِفَانِ بِالإِلهِ الْحَيِّ. (مز ٨٣ : ٢).

١٤ – أسبّحك يا ربّ: فَمِي يُحَدِّثُ بِعَدْلِكَ، الْيَوْمَ كُلَّهُ بِخَلاَصِكَ (مز ٧٠ : ١٥) لأنَّك اهلتني للدنو من عظمة ربوبيتك، وجعلتني أشترك في تسابيح الملائكة وتمجيد جماعتهم، أنت لم تفصلنا، يارب من شركتهم (في الإيمان)، لأنَّه في هذا الإيمان تقوم طبيعة كل الكائنات الرُّوحية، وفيه تكوون أجنحة الملائكة إذ هو مرآة استعلاناتهم. إنَّ شركتنا مع الملائكة وخُلطتنا بجماعاتهم تقوم على مطابقة اشتياقنا معهم، في روح الإيمان الذي قبلناه.

١٥ – إنَّه مجد الرُّوحانيين، وقوة الاستعلانات العجيبه عن الإلوهية، وأمور الإيمان المتعددة التي تتدفّق بأفهامهم. لأنك أنت لهم أيضاً هدف الإيمان وليس الرؤية. طبيعتك المقدسة والمستترة لا تقع تحت لمس أو نظر أي كائن مخلوق، ولكن بالإيمان تحصل الطبائع المخلوقة منها على مباهجها، بفضل إشعاعات رحمتك التي تتألق في طبيعتهم.

١٦ – أنتَ جعلتنا نقترب من أسرار هذا المجد من أجل ابنك الحبيب، لأنك جعلتنا ندنو بأقدامنا من جبل الإيمان، الذي تسكن فيه تسعة طغمات الرُّوحانيين، وتقوم أساسات مدينتك المقدسة.

١٧ – يا إِلهُنَا الحي والمُحي، لقد تحدَّث خادمك بولس عن هذا الجبل وقال : "قد أتيتم إلى جبل صهيون" – الذي هو الإيمان ومعرفة الرب – "وإلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية " – التي هي الشركة في التأمل الإلهي - " وإلى ربواتٍ من محفل ملائكة " – مشيراً إلى الذهن المتحد بالاستعلان، لكي معهم، بواسطة درجات سُلَّم الإيمان، نصعد إلى صهيون، جبل الله (عب ١٢ : ٢٢).

١٨ – وإذ تمحو شرورنا، تجعلنا، يا إلهي، نقترب من هذه الأمور، وأنت بارٌّ لا تغضب على الدوام، بل دائماً تحوِّل وجهك حتى لا ترى الخطايا. أنت لم تشفق على ابنك الحبيب، بل بذلته لأجلنا اجمعين (رو ٨ : ٣٢)، لكي بموته يبرِّرنا. لقد جعلتنا في المسيح نعرف حكمتك المخفية منذ الدهور، وجعلتنا ندنو من معرفة إيمانك.

١٩ – يا ربي لا تتركني حتى لا أُحرم من هذه الرحمة التي هيأتها لي، لأنك دعوتني، يا ربي، وفي محبتك الأبدية، قد قرَّبتني، دون طلب من ناحيتي، إلى ملكوت مجدك غير المحدود. إنني لَنْ أتوقف عن الهذيذ بمحبتك. يا ربي أَرسِل قوَّتك لمعونتي ولتسندني وتنتشلني من محيط حياتي عبر الزمن. يا محيط المعونة، أدِم معونتك لي، ولا تُسلِّمني لهاوية المساويء.

٢٠ – يا مُرشد الأحياء، قُدْ ذهني نحوك، وافتح الباب أمام أفكاري، حتى يمكنني أنْ أتأمل فيك.

أنت الذي تجعل كل شيء جديداً، جدِّدني بمعرفتك، حرِّك في قلبي رجاءً ثابتاً في تَدْبِيرك. يا محيط الرأفة والتحنن، اجتذبني بعيداً عن كَدَر الطياشة التي تبعدني عنك، وارفعني حتى قلب اللهيب المشتعل، لهيب الإيمان بك. أعطِني أن أشرب من الخمرة التي تجعلني أحسّ بالرجاء أنني ثابت فيك، واجعلني مستحقاً لحرارة القلب التي تضطرم فيَّ دون أن تطفيء، طالما أنت تسكب عليه قطرات ندي رجائك.

٢١ – مضن يقدر أن يستقبل هذا الفكر ويحتمل شدّته؟ مَن يقدر أن يتذوقه ويتذكّر نفسه بعد ذلك ؟ أين هو الجسد والذهن الذي يستطيع أن يحتمل رائحته بدون الإيمان بك؟ أيُّها المسيح، غاية الحق، اجعل حقك يشرق في قلوبنا، بالقوة التي أضاء بها في القديسين. إنهم بقوة محبتك قد انتصروا على العالم وملذاته. أيُّها القدير الذي تَسرْبل بجسدنا، اجعل أفهام حقك تنير نفسي المظلمة. أيُّها المحيط الذي يسند العالم، انقذ نفسي من طوفان أمواج عديدة عاتية.

٢٢ – أنت تعلم، يا ربي، أنني أعاني كل أيامي من الخطايا التي ارتكبتها أمامك. الدموع تنسكب خفيةً داخلي، عندما أرى ضعف نفسي، ولكن عندما، بقوة النوح، أريد أن أتخلص من خطاياي، أجد الشهوات (الرديئة) تبادر إليَّ في الوقت نفسه مثلها، لكي تضاعف أحزان قلبي، وتغصبني على ترك الصلاة والنكوص عن الهذيذ بك.

٢٣ – أنت هو الطبيب المحنّك القادر على شفاء أوجاع قلبي، والقوة التي تلاشي هذه الأوجاع، لأنك تعرف أنني لا أمتلك القدرة على غلبة هذا الجنس (من الشياطين). إنها قوَّتك التي تنتصر، وإنَّ كانت تنسب إليَّ هذه النصرة. اِغلب فيَّ كما هي عادتك، وانسبْ إليَّ النصرة بحسب حكمتك. حقاً، إنَّ أولئك الذين يغلبون بهذه الرُّوح، هم الذين تُنسب إليهم النصرة.

٢٤ – ندم قلبي يشهد أمامك، يا رب، أنَّ مشاغبات الجسد أقوي بكثير من رغبتي.

٢٥ – بالرغم من أنني أبكي دائماً على ما مضي، فإنني في كل لحظة أعاني من الأمور نفسها وأنزلق إلى عمل ما كنت قد تبتُ عنه. أيُّها الغالب، يا من تمنح النصرة للأثمة الذين لم تعرف طبيعتهم أبداً كيف تغلب، هبني القوة لكي أغلب طبيعتي، وإن كان الخطأ هو من جانبي، وأن أُدعي، بنعمتك، غالباً في حين أن طبيعتي لم تعرف أبداً خبرة النصرة عليه.

٢٦ – إنَّها قوة آخر، هو الذي يضفر له إكليلاً، قوة ذاك الذي بحكمته، هيأ لضعفي استعلان صلاحه. إنه يعلم ميل طبيعتي إلى التغيّر، حتى أنه كل يوم يهتم أن يغطي بغفرانه كثرة زلاتي، ليس لأنه لا يدعها تكون عقبة أمامي فحسب، ولكن لكي بالأكثر، يُظهر صلاح طبيعته. وهكذا يُقوِّم ضعف الطبيعة البشرية بعمل الكارز بحلاوته والشاهد لرحمته.

٢٧- لَيْتَ الهذيذ في الإحساس بك يغلب فيَّ قساوة الصراع. لَيْتَ حلاوة مذاقة الرجاء فيك تتغلب على الإذعان للجسد. لَيْتَ عذوبة معرفتك تفصلني من طُرق الطبيعة. اجعلني مستحقاً يا ربي، للإحساس بحقيقة مشيئتك من نحونا. اجعلني أهلاً لذلك الهذيذ الذي يُغيّر نهج أفكاري حتى تقدر أن ترى عالماً مختلفاً لا يشبهه في شيء.

٢٨ – لَيْتَ القوة التي تعلّمني أن أطلب هذه الأمور تضع فيَّ رائحة محبتها، بما أنَّك جعلتني اقترب إليك بفضل ما غرسته في حواسي، وتُرسِّخ بأعماق قلبي معرفة كاملة بكل معانيها.

٢٩ – وإذ قد وحدتني، بالسرِّ، بمجد لاهوتك، ثبِّتْ فيَّ رجاءه بيقين الإيمان لأنك جعلتني يا رب، أقترب من هذه المعرفة بابنك الحبيب. عَلِّمني سراً كيف أتأمل عظمتك. امنحني ذهناً صائباً يكون كل حين منشغلاً بتأملٍ صافٍ، ثابتاً عندك على الدوام.

٣٠ – أَبْعِدْ عني الفكر الجاهل الذي يهذّ في امورٍ صبيانية، و نَبِّه فيَّ تلك الأمور النبيلة التي تفكر في مجدك لكي أمتد بالتأمل في أحكامك الإلهية، ليس على نسق الفكر البشري المريض بأوجاعه، ولا بالتفكير بكل أنواع الشهوات البشرية، بل بإرتياد الطرق التي هيأتها بمعرفتك لخلاص نفوسنا. مهِّد فيِّ طرق حكمتك، وافتح امامي الباب للهذيذ في مشيئتك المجيدة، لأنني يا رب، أجهل بأي طريق أدخل عندك.

٣١ – أيُّها المسيح، باب الأسرار، اجعلني أتناول بإحساس أسرارك: إنني بك ادخل قدام أبيك، وأتقبل في أعماقي نعمة الرُّوح الْقُدُس، أيُّها المسيح، مفتاح الأسرار، والطريق إليها، إنه بك يا ربي، ينفتح لنا باب الأسرار المخفية منذ الدهور في أبيك، لأن محيط جميع أسرارك مخفي في تَدْبِير خلاصك.

٣٢ – اجعلني أهلاً أن ألاقيك في داخلي، لكي بك أفتح الباب، وأدخل لأعاين الأسرار ماضيها ومستقبلها. يا رب، اجعلني مستحقاً لمذاقة حلاوة رجائك. مَن هو ذاك الذي تذوّق هذا السر ولم يقدر أن يجتهد حتى يضبط نفسه ويعلّمها لأن مذاقته تشبه عصير العنب، فهو حلو لقلب الذين يتقبلونه.

٣٣ – أنت يا من تجعل كل شيء جديداً، جددني بأن تجعلني أحس بالرجاء الذي لي فيك. يا فرح الخليقة، اجعلني اهلاً للفرح المرتفع فوق الجسد، والذي يُقتنى في سكون النفس. اضرم في اعضائي لهيب محبتك. قَيِّد قلبي بسلاسل الدهش امامك. اربط حركاتي بسكون معرفتك، لأن معرفتك كلها حركة. اجعلني مستحقاً أن أراك عندما ألتقيك بداخلي، وبالأكثر بأعين منفتحه.

٣٤ – اخلق فيَّ أعيناً جديدة، أنتَ الذي جبلت للأعمي عينين جديدتين (يو٩) سد أُذُنيَّ الخارجيتين، وافتح لي تلك المخفية في الداخل، التي تسمع سكوت وهمسات الرُّوح، لكي بروحك يمكنني أن أسمع قول السكوت، هذا الذي يدوِّي في القلب دون أن يُكتب، ويتردد صداه في الذهن دون أن يُعبَّر عنه، الذي يُنطق به بشفاة الرُّوح، ويُسمع بأُذنٍ غير لحمية. يا مُحيط الرحمة والغفران، انهضني واغسلني من دنس الطبيعة، واجعلني مناسباً لقداستك.

٣٥ – أنتَ لم تجعلني، يا رب، كآنية فخار، التي إذا انكسرت لا يمكن أن يعاد تشكيلها، أو إذا اتسخت بالقذارة، لا تعود تصلح للأستخدام كما حين كانت جديدة، ولكنك بحكمتك خلقتني على صورة الذهب والفضة، كي تقدر أن تعيد صيلغتها بحرارة الشمس وتجعلها تتلألأ بالأمور المؤلمة، بفضل ألم الندم الذي يعمل مثل شخصٍ يجليها وينظفها، وتردني إلى شكلي السابق،

بفضل كور التوبة. أنت يا رب، الصانع الماهر الذي يُنقي ويصلح طبيعتنا، لأنني قد أفسدت جمال المعمودية وصرت مدنَّساً، ولكني فيك أستعيد جمالاً أفضل، جمال الخلقة الأصلية، أنت يا من استعدت لي الجمال الذي سُرق مني في الفردوس.

٣٦ – أيُّها الشمس الجديد، أَوقِد سراجاً في عقلي المظلم. أيُّها المسيح الذي يجفف دموع الخليقة، أعطني دموعاً خفية وعبرات تنسكب في الداخل، تلك التي للعقل الذي يعرف التمييز، دموعاً لا تنبع بفعل الجسد، بل تفيض من حرارة توبة خفية تؤدي إلى فرحٍ حقيقي داخلي، إلى تلك التعزية التي تضبط الفم بالسكوت، وتُقدم غذاءً غير مألوف للقلب، وتقيم هذه التوبة شاهداً صادقاً في الداخل، تشهد دون توقف بأن رحمتك قد منحتني باكورات غفران خطاياي.

٣٧ – كثيرة هيَ خطاياي، يا ربّ ولكن مراحمك كثيرة جداً. آثامي تزايدت قوتها، إلا أنَّها لا تقارن برحمتك. بمقدار ما تتضاعف خطاياي، أرى محبتك تغلب كثرتها، وتقودني إلى السكوت حتى لا أستعلى. أستطيع أن أتذوق زياراتك عندي، والذهول يمسكني، لأنَّك أنت تكافئني بخلاف ما أستحق.

٣٨ – عطيتك، وليس عقابك، قرَّبني من معرفتك، ورحمتك رَوتْني من عذوبة حلاوتك، وليس أعمالي. إذا كنت قد سرْبلتني بطبيعة ضعيفة، فذلك بقصد أن تشهد كل لحظة لنعمتك، ولكي يمكن لحكمتك ان تُظهر محبتك لنا من خلال ضعفاتنا. لقد وضعت فينا ميولاً (شريرة) لكي تشهد لطبيعتك (الصالحة)، لأن طول اناتك تتفوق كثيراً على نقائصنا وخطايانا.

٣٩ – أنت لم تجد، يا ربّ، وسيلة لتمارس صبرك، أفضل من (مجرد) التذكير بالعذابات الشديدة (التي نستحقها). لا تجعلنا نحسب صلاح طبيعتك علَّة لشرِّنا. إذا كنا نتجاسر ونقتني مثل هذه الحجة لأنفسنا، فهو نقص في المعرفة قد ترسَّخ فينا. لأنَّك أنتَ، يا ربّ، تحتملنا دون أن تقلق، بما أنَّك لا تُضار مطلقاً بنقائصنا السالفة : فانت تتغاضي عن خطايانا.

٤٠ – سهل لديك يا ربّ، أن تحتمل ضعفاتنا كما أنه لم يكن بعسيرٍ عندك أن تُخرج من العدم خليقتنا. بالنسبة لنا، يا ربّ، نحن نواجه هاتين الصعوبتين، ولا نستطيع أن نحتمل ولو ضيقة صغيرة تواجهنا. نحن نحكم بحكمٍ شخصي. يا ربّ، فيما يغمر محيط محبتك بأمواجه كافة خطايانا، نتصور نحن، بحسب فكرنا البشري، أنك انزعجت، بينما أنت، يا خالقنا مازلت تحتملنا. أن ألمنا يمكن أن نعتبره مرآة لما يخصنا : فمن الوجاع التي مارسناها، يمكننا أن ندرك، يا رب، عظمة غناك.

٤١ – هبنا، يا ربّ، المعرفة، حتى نراك كما ترى انت ذاتك، وليس كما نتصور نحن، وأن نتأمل فيك بحسب ما يليق بك، أنت المعطي جميع الهبات التي تلقيناها. عظيم هو ما وهبته لنا، أعني معرفة الحق، حرِّك فينا تذكار صلاحك المخفي، يا رب، لأن صلاحك ومحبتك وقوة الخير التي تخص طبيعتك هي التي توازن بها ثقل خطايانا. ولهذا فانت لا تنتظر حتى توبتنا نفسها بما أنك تُدبر الوقت المناسب للخاطيء.

٤٢ – لا تتركنا نسلك، بحسب أسلوب فهمنا، طريق المعرفة الظاهرية تماماً بالكِتَاب المقدس الذي يحذرنا من ملابسات الخطية، بل اجعلنا مستحقين لإدراك الحق الموجود بداخله. أعطنا أن نفحص دون توقف، وندهش، مقابل العلّة التي من أجلها لا تتوقف عن احتمال الخطاة، ليس أنك ترغب في معرفة ما لم تكن تعرفة قبلاً، أو تعطي الفرصة لترى إن كان هذا سيتم اخيراً أم لا. لأنه من المؤسف أن نتساءل عن سبق معرفتك للبداءات لأنك تعرفنا حتى ومن قبل أن تخلقنا، وتعرف أيضاً سائر حركات طبيعتنا، وكل ما يناسب المخلوقات التي تجهل ما سوف يحدث في المستقبل.

٤٣ – هذا مع أنه حق، إلا أنه في الوقت نفسه يليق بنا أن نتأمل في طبيعتك المقدسة. كيف أنك لسبب صلاحك وكثرة مراحمك التي بلا مقياس، تحتمل الخاطيء، حتى ولو كنت تعرف أنه لن يهتدي، ليس كمن يجهل أفعاله، بل بسبب رأفتك، ومثل من يعرف كل شيء تماماً، خالقنا، الذي لا يمكن ان تُقاس مراحمه تجاه البشرية.

٤٤ – صلاحك، يا ربي، الذي تغمر به الكل، يجب أن لا يصير لي باعثاً على ارتكاب الشر، كما لو كنت اتجاسر على فعله بسبب لطفك وطول أناتك. اضبطني بلجام رأفتك، حتى أستطيع أن اقاوم الحركات التي تهاجمني، والمصادمات التي تواجهني. أرسل لي ملاكك القديس حارساً. اشفني من نقائص أفكاري، لنني مثل مائت قد امتلأتُ بها. احفظ خطواتي من الفخاخ التي نصبها لي العدو ليجتذبني بها إلى فعل الخطية.

٤٥ – وبوجهٍ خاص، يا إلهي، احفظني من طياشة العقل الذي يتروَّى في التصورات الخاطئة، الممتلئة من الجهالات التي تستحق البكاء عليها، والتي يجسر المرء أن يفكر فيها أمام عظمتك، ويقبل افكاراً بغيضة بخصوصها. وأخيراً هبني يا رب، الاتضاع الذي يعرف قدر الطبيعة البشرية وبؤس حالها وضعفها، وامنحني فكراً يتروَّى باسلوبٍ صائبٍ يليق بالكائنات العاقلة.

٤٦ – أَرشِد حياتي، ارفعني، واجعلني انظر، بالأفكار، السبل التي تجعل المرء يحيا في عِشرة معك. اشرق بداخلي النور الرُّوحي الذي هو معرفة المسيح، ربي، لكي أجد فيه حقك واقتني الأفكار السديدة عن ألوهيتك، وعن امور نفسي. ليتني، يا ربي، لا اتعرض لغوايةٍ بفعل عدوي، ولا أكون هزءاً لدي الشياطين، كما يحدث للذين استسلموا لهم في تجربة الكبرياء.

٤٧ – بل ليتني تحت حماية الاتضاع الذي وهبتني إياه، أستطيع أن أنمو في معرفتك بالمعونة التي تمنحني إياها نعمتك. أسجد لنور الخليقة الْعَظِيم، يَسُوع الْمَسِيح، الذي قام في حينه بحسب معرفة الله الفائقة الوصف، خالق كل الأشياء، الذي دبّر مسبقاً في كل حين وفي سائر الأزمنة، أن يرسل الكرامة والفرح للخليقة : النور، الابن الوحيد المولود من طبيعته، النور الذي أشرق بكل تأكيد عند خلق هذا العالم. والذي أشرق في قلوبنا. لقد جعلنا ندنو منه في الوقت الذي سُرَّت به مشيئته وبحسب معرفته.

٤٨ – لقد قادني إلى بيت أبي، واطلعني على ميراث المجد الذي أعده لي فوق حدود العوالم. إنه من اجل هذا أتي بي إلى الوجود، وخلقني، لكي يصير مرئياً وجود وعمل خليقة ذاك الذي هو صالح وقد أحضر كل شيء إلى الوجود. المجد لعظمته إلى دهر الدهور. آمين.

المَيْمَر الثامن

كيف يعتزل القديسون

ويتكرسون لكي يصيروا مسكناً للروح القُدُّوس

١ – هيكل الله هو بيت صلاة. فالنفس إذاً تصبح بيتاً للصلاة إذا ما أمسكت بتذكار الله الدائم. إذا تكرَّس جميع القديسين بالرُّوح ليصيروا هيكلاً للثالوث الْقُدُّوس المسجود له، فإن الرُّوح يهبهم ذلك بفضل تذكار الله الدائم. والصلاة الدائمة حقيقةً ، تكون بتذكار الله الدائم، فبواسطة الصلاة الدائمة، إذاً تكرَّس القديسون ليصبحوا بيتاً لعمل الرُّوح الْقُدُس، كما قال أحد القديسين: "اقتن تذكار الله بلا انقطاع فيصير عقلك سماءً".

٢ – فإذا كانت نفسنا، إذاً، تصير سماءً ثانية بفضل الصلاة الدائمة. فأي خير لا يوجد في السماء؟ وأي شرٍّ يمكن أن يطوف بها؟ و أي تجربة تقترب منها؟ فلا أوجاع القلب أو النفس، ولا تذكار الشرور، ولا ألم جسدي، ولا ظلمة أو انكسار النفس يمكن أن تدنو منها. فإذا كانت هذه التجارب تعرض لنا، فإن السبب في ذلك هو اننا نشرد ونبتعد عن تذكار الله، وهكذا كثيراً ما نسقط في كافة أنواع الشرور. فالصلاة، إذاً، هي هدف تذكار الله الذي يوقف الخطايا الناجمة عن النسيان، الذي بسببه نعاني من كل هذه الشرور.

٣ – فلنداوم إذاً على الصلاة، التي هي الصورة المضيئة لتذكار الرب إِلهُنَا. و لنطرد كافة المجاذبات - التي تصادفنا وتعطل تذكار الله - نطردها بابتهالٍ حار وبصَلبْ الذهن نحوه. لأن هذه المجاذبات هي التي تغصبنا بالضرورة كجلادين لنسلك طريق الخطأ، كما قال أحد القديسين: "صلّ بلا انقطاع فيهرب منك روح الضلال".

٤ – وإذ نسلك هكذا، نُعد في نفسنا مكاناً لتذكار الرب، بالصلاة الدائمة التي نخاطبه بها، وبهذا العمل تُطرد المجاذبات وتهدأ الأوجاع، ويهرب ابليس مُبتعداً، ولا يجد الشقاء موضعاً بعد في نفسنا، وتسكن العواصف، وتترك جميع الشرور المكان وتخليه لتذكار الله، وتبطل قوتها وتهرب من أمام وجه الرب.

٥ – الملائكة ينشدون في ذلك المسكن حيث يقوم المذبح المقدس، بغير سكوت لسرِّ ربهم. وحيث التذكار الدائم لله هناك المذبح الذي أُقيم في القلب، والذي منه ترفع جميع الأسرار إلي قدس أقداس الرب. كافة الأمور المضادة التي سبق ذكرها لا تجد إليه سبيلاً. لأنها كلها يأخذها الهلع أمام سطوع النور الإلهي الذي ينير وسط الأسرار. وهكذا ينهزم كافة المضادين بالضرورة حيث يدعي بإسم الله.

٦ – إذا حدث، فيما نحن نردد الصلاة، أن يُسمح لبعض تلك الأمور أن تواجهنا وتظهر وقاحتها لتخيفنا، فهذا يكون لأننا لم نبدأ حسناً بالتذكار الدائم للرب، ولننا أفسحنا لها لكي تهاجمنا فجأة بمقياس ما يكون تقصيرنا في الصلاة. فالأعداء ليس بإمكانهم أن يزعجونا ولا أن يقتربوا من مسكن الملك طالما كان هو حاضراً هناك.

٧ – الألوهية، إذاً، تسكن في الإنسان، ليس بطبيعتها، لأن طبيعتها لا نهائية وهي لا تُحد ولا تنحصر في مكان. والحقيقة أن السماء والأرض مملوئتان منه، ولا يمكن لأي موضع أن يحتويه. إنه في كل مكان وهو في الوقت نفسه بعيد عن الكل. ولأنه ليس بمقدور أحد أن يدركه، كما أنه مرتفع في لا نهائيته وسمو طبيعته، لهذا لا يمكن ان يقال أن الله يسكن في موضع ما سوي بمشيئته وبفعل قوته، كالمكتوب: "وأجعل مسكني في وسطكم ... وأسير بينكم" (لا ٢٦). وبعبارة اخرى: "أُظهر لكم اقتدار قوتي". وبالمثل، مكتوب: "أسكن في الهيكل الذي في أورشليم، أو في الخيمة التي أقيمت بواسطة موسي".

٨ - ولمّا بُني المسكن وأُكمل بواسطة سليمان، كُتب: "وسحابة (شاكيناه) حلّت عليه وامتلأ البيت من مجده" (١ مل ٨ : ١٠ ، ١١). و بالمثل قيل: "ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الله" (٢ أي ٥ : ٤). وكان هذا علامة على أن الله ملأ المكان وسكن فيه. وهذا هو ما يحدث للنفس، التي جُبلت من عناصر فائقة، في وقت الصلاة إذ تححس بتلك السحابة التي تغطي بظلها العقل في الصلاة.

٩ – وهذا يحدث بصورة غير مرئية، ولا تكون النفس عندئذ في حالة تسمح لها بأن تكمل تلاوة الصلاة، ذلك لأنها قد هدأت أمام مجد الرب الذي استُعلن للذهن عبر أحد الأفهام، ولأنها، وقد أُخذت بالدهش اضطرت للسكوت. هذه هي العلامة علي أن الرب قد وضع مسرته فيها، وأنه قد أتي وغطاها بظلّه. وذلك كما رأي حزقيال النبي عندما ظهر له بناء الهيكل في رؤيا: فحالما جاء مجد الرب أمامه في الرؤيا الإلهية، رأي في الوقت نفسه كيف غطت السحابة (الشاكيناه) الإلهية المسكن بظلّها وملأته.

١٠ – هذا ظهر له في الرؤيا التي رآها مثل فعل إلهي انطبع في نفسه، بفضل هذه الرؤيا العجيبة التي سبقت ما كان سيتم و لم يكن قد تحقق بعد. لأن حزقيال وهو بالجسد في بابل، شاهَد الرؤيا (كما لو كان) في أورشليم التي كان يبعد عنها ليس أقل من ثلاثمائة ميل. لقد أعلن له ذاك الذي أتي به إلى المسكن، ومجد الله الذي غطاه بظله، كما قال هو نفسه: "ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى الْبَابِ، الْبَابِ الْمُتَّجِهِ نَحْوَ الشَّرْقِ." (حز ٤٣ : ١). وكان الرجل الذي أراه ذلك في رؤيا ملاكاً حيث قال له: "وَاجْعَلْ قَلْبَكَ إِلَى كُلِّ مَا أُرِيكَهُ، لأَنَّهُ لأَجْلِ إِرَاءَتِكَ أُتِيَ بِكَ إِلَى هُنَا." (حز ٤٠ : ٤).

١١ – بواسطة هذه الرؤى يُكشف لنا أمران، إنَّ جميع الإعلانات قد صارت للقديسين بتوسط ملائكة، وأن هؤلاء قد اطّلعوا عليها قبْل أنْ يقترب أحد من رؤية الله بزمن طويل، والأمر الثَّانِي

هو أن الرؤيتين الملائكيتين سبقتا الرؤيا الإلهية، وبالمثل التَدْبِير الذي يتحقق فيهما عمل الرُّوح الْقُدُس، كا هو كائن منذ الأن. ولهذا قال حزقيال: "ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى الْبَابِ، الْبَابِ الْمُتَّجِهِ نَحْوَ الشَّرْقِ. وَإِذَا بِمَجْدِ إِلـهِ إِسْرَائِيلَ جَاءَ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْقِ وَصَوْتُهُ كَصَوْتِ مِيَاهٍ كَثِيرَةٍ، وَالأَرْضُ أَضَاءَتْ مِنْ مَجْدِهِ." (حز ٤٣ : ١ ، ٢).

١٢ – هذه الرؤيا تتعلق أيضاً بأمورٍ على الأرض، حيث يقول: " وَالأَرْضُ أَضَاءَتْ مِنْ مَجْدِهِ ". ثم يكمّل: "فَخَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي. فَجَاءَ مَجْدُ الرَّبِّ إِلَى الْبَيْتِ مِنْ طَرِيقِ الْبَابِ الْمُتَّجِهِ نَحْوَ الشَّرْقِ." (حز٤٣: ٣، ٤)، وفي موضع آخر يقول: "وَالسَّحَابَةُ مَلأَتِ الدَّارَ الدَّاخِلِيَّةَ. فَارْتَفَعَ مَجْدُ الرَّبِّ عَنِ الْكَرُوبِ إِلَى عَتَبَةِ الْبَيْتِ. فَامْتَلأَ الْبَيْتُ مِنَ السَّحَابَةِ، وَامْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ لَمَعَانِ مَجْدِ الرَّبِّ." (حز ١٠ : ٣-٤) وأيضاً: "فَحَمَلَنِي رُوحٌ وَأَتَى بِي إِلَى الدَّارِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَإِذَا بِمَجْدِ الرَّبِّ قَدْ مَلأَ الْبَيْتَ،". (حز ٤٣ : ٥). أو في مواضع أخري مماثلة، حيث عرَّفتنا الأسفار المقدسة بفعل شاكيناه قوة الله وكيف يأتي ويقيم مسكنه في المكان المخصص لإسم قداسته، والذي يُكرَّم فيه تذكاره بلا انقطاع. وهكذا، من أجل تعليمنا، عرَّفتنا الأسفار الإلهية بفعل مجده عن طريق رؤيا واضحة.

١٣ – إذا كان الأمر يتعلق بالسكني والاقامة، (ينبغي أنْ نفهم أنَّ الله) لا يسكن بطبيعته، بل يحل بمجده وفعله على كل موضع يختاره لقداسته، سواء كان على بناءٍ أقيم بأيدي بشرية أو على أشياء غير عقلية تُدعى آنية القدس، أو في هياكل عقلية التي هي النفوس التي كُرّست وأُفرزت بفعل قوة الرُّوح الْقُدُّوس، هناك حيث يتمجد الرب بمداومة تذكاره، والهذيذ بالسرار التي استُعلنت هناك، وليس بإقامة سكناه (فينا)، لكي نتوق نحن إلى خيرٍ مثل هذا مكرسين دواماً اعضاءنا ونفوسنا لتمجيد الله.

١٤ - فلنقدّس أنفسنا إذاً، بتذكار الله الدائم، وهذا هو ما يمكننا أن نعمله بالصلاة. لأننا بها نصير هياكل مقدسة، ونقبل في نفوسنا عمل الرُّوح الْقُدُّوس المسجود له، كما قال الرسول: "كل شيء يُقدَّس بكلمة الله، وبالصلاة" (١ تي ٤ : ٥) فهو يقول: "إنه يتقدس بتذكار الله الذي بواسطته نذكره هنا على الأرض، وباسم الرب الذي يُدعي به، وهكذا فإن كل نجاسة وكل قوة غريبة تُطرد بعيداً عنا".

١٥ – وقد قيل أيضاً: "في كل مكان تذكر فيه إسمي، آتي إليك وأباركك، ويذكرون الله بلا انقطاع" (إش ٢٠ : ٢٤ بيشيتا). نحن إذاً، نذكر الله على الدوام، ونباركه بأفواهنا كما قال قديماً أحد القديسين مخاطباً تلاميذه الذين كانوا جالسين: "قوموا وحيّوا المتوحدين، لكي تنالوا البركة بدوركم لأن أفواهم مقدسة، وذلك لأنهم كانوا يتحدثون بلا انقطاع مع الله" (بموا : ٧).

١٦ – ها أنت ترى كيف يصير الفم الذي يتحدث بلا انقطاع مع الله مستحقاً للقداسة، وكيف يتقدس القلب الذي يتبارك فيه إسم الرب دون توقف. بارِكْ الله بلا انقطاع في نفسك لكي تتبارك أنت بدورك. لا تتوقف عن التمجيد، وقدِّس نفسك وكافة أعضائك بتمجيدك وترنمك قائلاً: "

باركي يا نفسي الرب وكل ما في باطني ليبارك اسمه الْقُدُّوس" (مز ١٠٢ : ١). "أرفعك يا إلهي وملكي" (مز ١٤٤ : ١)، إلخ.

١٧ – فلينطق فمك بتمجيدك، ولا تشبع أبداً من التسبيح، وليكن تعظيمه وتمجيده ملء نفسك. عَظِّم الله كل حين في قلبك، ولا تملّ أبداً من تمجيده ومباركته. املأ نفسك من هذا المجد الذي رآه النبي يحل على أورشليم عندما قال: "الأرض امتلأت من مجده" (حز ٤٣ : ٢) وأيضاً: "لأنك لم تتوقف عن تذكار الله، تصير نفسك سماءً".

١٨ – فلنطلب بإشتياقٍ حار أن نصير هيكل لله، بتذكاره الدائم في الصلاة وفي التسابيح، كقول الأسقف القديس باسيليوس: "الصلاة النقية هي تلك التي تثمر في النفس تذكار الله الدائم، فنصير هكذا هيكل لله، لأنه يسكن فينا بتذكاره الدائم الذي نحفظه (رسالة ٢ : ٤). هذا المجد السمائي يتأهل له الذين يصبحون بيوت صلاة والهيكل الذي يسكن فيه التذكار الدائم للرب و يضيئون كالبروق التي ترسل ومضاتها من بعيد.

١٩ – تذكار الله الدائم هو سرّ العالم الآتي، السرّ الذي فيه نتقبَّل بكل تأكيد، ونحن مازلنا على الأرض، وفرة نعمة الرُّوح الْقُدُّوس. فلَيْتَ هذا التذكار لا يتركنا أبداً على الأرض، ولَيْتَنا نصير هيكلاً كاملاً له. لقد كان القديسون يشتاقون بكل حرارة أن يحظوا بسرّ هذا الفرح المستقبل وهم بعد على الأرض، من أجل تـوْقهم الشديد المستمر وحرارة صَلَوَاتهم، مترجين أن يصيروا مستحقين له بنعمة ورأفة المسيح، إِلهُنَا ورجائنا، مع جميع قديسيه إلى دهر الدهو . آمين.

المَيْمَر التاسع

مُختصر يتضمن جميع أنواع أعمال إماتة الذات: أي قوة وأي فاعلية يمتلكها كل نوعٍ منها

١ – الصلاة هيَ المجال الذي تجد فيه كل الفرائض الجسدية (للمتوحد) الفرصة لتكميلها. والفرائض التي تخص نشاط الجسد هيَ: الصَّوْم، خدمة الأوقات، الصدقات، الأعمال النُسكية، العفة، خدمة المرضى، السكوت، الدموع، الطاعة، الفقر، الرحمة، وما أشبه ذلك – ما يقرب الألف مثلها.

٢ – هذه الفرائض تشغل حدود النشاط الجسداني. أمَّا الصلاة في المُقابل فهيَ تأمل النفس الذي يتخطى حدود الجسد وكل نشاط مرئي. إنَّه إدراك الحقائق الأكثر غوراً من الممارسات الجسدية والتي تُدرك بالذهن ولا تنتمي إلى الأرض. وإذا لم ترافق حرارة الصلاة ممارسة الفرائض الجسدية تصبح هذه عندئذٍ جزءاً من نظام العمل الجسداني. ولو أن ما تتميَّزه النفس وقتئذ حَسن هو، فإن ممارستها النسكية ماتزال للآن تُحسب أموراً ظاهرة.

٣ – ما تقدمه قوة الصلاة للمارسات يوازي ما تقدمة التلاوة للصلاة. كل صلاة لا تتغذى بالاستنارة التي تجدها في الأسفار الإلهية، تتأثر بالمعرفة الجسدانية: حتى ولو كانت تتوسل من أجل الحصول على أشياء حسنة، ومن أجل أنْ تتدفق فيها حركات جيدة. ولكن، بالنظر إلى

مثل تلك المعرفة، فإنَّها تكون ضعيفة جداً لا تقدر أنْ تمتد نحو الأمور التي لا يقدر العقل أنْ يعرفها، أو لتعرف كيف تقدر رغبته أنْ تتوافق مع مشيئة الله في الصلاة.

٤ – ينبغي أنْ تعلم إلى أي حد تظل هذه المعرفة (الجسدانية) بعيدة عن الله بينما تظن (النفس) أنها تشتغل بأمور مجيدة وبالعجائب التي تتمناها. حتى ولو كانت أهداف تأملها جيدة، فهي لا تقدر أن تدركها، ولكن فيما يسير كل شيء حسناً أمامها، فهيَ لا تكون قد أدركت سوى تأمّلٍ نابعٍ من مشيئتها الخاصة. وكل هذا ليس سوى توبيخٍ لها، لأنها تجهل المعرفة الصائبة التي تأتي من إنارة الأسفار المقدسة.

٥ – الفريضة هي الجسد، والصلاة هي النفس، أمَّا رؤية الذهن فهي تختص بالتَدْبِير الرُّوحاني. وأقصد بالرؤية العقلية هنا استعلان الأمور الخفية ومعرفة حقائق واضحة، واقتناء العقل لها بفعل الرُّوح الْقُدُس. وبالتلاوة تتقبل القوة التي تسمح لها بتعمّقها وترتفع قليلاً قليلاً نحو معرفتها، وَاحِدة فوَاحِدة، وكلها ممتلئة عجباً وأكثر إضاءة. أمَّا عن الصلاة التي تطلب سمو النفس، والتوسلات التي تُقدَّم بالتماس المعونة، فقد قيل: "جيد أن تقتني النفس ما يناسبها، وتثبت في ما تقتنيه".

٦ – أمَّا عن الهذيذ، فهو انشغال بالله وحده يُذهل من يهتم به، حيث يتأمل العقل في الله وحده وفي عظمته، دون أن ينشغل بأشياء على الأرض ولا يتذكر جمال وبهاء الجسد وسائر الأشياء المادية، بل ينشغل فقط بتأمل الجوهر الإلهي. ولا يمكن لأي تأمل في أمور هذا العالم أن يلتصق به. حيث كثرة منها يمكن أن تواجهك قادمة من الخارج. والواقع أن العقل من الأن فصاعداً يحتقر كل ما يختص بالطبيعة، سواء كان فخامتها أو الخوف الذي توحي له إليه، وذلك بفضل تذكار الله الذي يدوم وحده في العقل.

٧ – كم مِنْ مرّة يتولد مثل هذا التأمل في الصلاة! ومنه ينفذ العقل إلى علوٍّ فائق الوصف، بينما تحظى النفس، أثناء الصلاة، بمعونةٍ من النعمة. وبالمثل، فهيَ حين تحظى بالمعونة في التأمل والتلاوة، فَلَنْ يكون بمقدور أحد أنْ يصف إلى أي حركات (= أفهامٍ) عجيبة ترتفع أثناء توسلها، ونحو أي اشتياقٍ تمتد، وبأي تنعّمات يتمتع الضمير. مثل هذا العمل ومثل هذا التأمل تمنحه تلاوة بهذه الصفة لِمَنْ يمارسها، وهيَ التي منها تأتي العجائب حتى أنَّها تُطيل فصول التلاوة، الضرورية لهذا العمل.

٨ – الحكيم الذي يشتهي النمو في الأمور الرُّوحية يُمارس التلاوة بالمعرفة التي تتولد من التأمل. وليس كل نوعٍ من التلاوة يفيد النمو في الرُّوح، بل فقط تلك التي تروي أمور الله، فهي التي ترفع العقل نحو الأسرار الرُّوحية، وهي التي تزوِّده برجاء الأمور التي تفوق الجسد، وتنقل الأفكار من الأرض إلى السماء، وتشغل بمثل هذه السيرة طبيعته الزائلة.

٩ – وهي (أي التلاوة) تُحفِّز حواس نفسه لكي تلقي نظرة على الأسرار الخفية التي للحكمة الإلهية، وتجعلها قريبة من المعرفة التي لا يقدر المرء أن يصل إليها ومن حقيقة الطبيعة

الإلهية، وتضبطها بالدهش أمام جوهره الخفي، وتجعل أفكاره تتأمل الأسرار التي يترجاها المرء في المستقبل، وتعرِّفه غنى محبة المسيح، المعلن للكل والذي تحقق بالفعل. إنها أصل الهذيذ الرُّوحي الذي يسمو بالعقل دون توقف إلى فَهْم ما يختص بما فوق، ويجعله يُبحر ويتمتع بهذه المباهج الإلهية التي تفوق الكل، وبرجاء البشر المحفوظ عند الله. وهي تَدلّه على خواص طبيعته التي فيه من أجلنا ومن أجل العالَمَين كليهما، عَالم الكائنات الرُّوحية وعَالم البشر القابلين للموت وكل ماهو ضروري لهم.

١٠ – إذا ما ترسَّخ هذا العمل (أي الهذيذ) وصار قوياً في النفس، فسوف لا تبقي هناك ضرورة مُلحَّة بهذا القدر للتلاوة، ليس لأنها تستطيع أن تُدرك الكمال بدونها، بل لأنه لا حاجة بعد إلى إطالتها، كما أن الهذيذ المطول في الأسفار الإلهية لم يعد ضرورياً لها، ولو أنه يجب ألا تفارق الأسفار يديها أبداً والواقع أن الأمر لا يحتاج إلى كثرة التلاوة كما لو كان بغير قدْرٍ كبير منها لا يمكن للمرء أن يُدرك الكمال، في حين أن القليل يكفي. ليست هناك إذاً ضرورة إلي قدْرٍ كبير من التلاوة، وطبعاً بشرط أن لا تفارق الأسفار يديه، لأنه ولو كان لا يتناول سوي جزء صغير منها، فبالقوة التي يمتصها منها، يصير أسيراً أمام الرب مضبوطاً بالتأمل.

١١ – لأنَّ مثل هذه التلاوة تكون هي نفسها هذيذاً وصلاة بآنٍ وَاحِد. فهي هذيذ لأنها لا تنحصر في جزء القراءة وحده، بل هي تُعتبر كوسيلة فريدة من نوعها تقود الذهن إلى الفهم. وهي صلاة لأنها توجد بلا انقطاع أسيرة تذكار الله ممتلئة شوقاً، في الداخل كما في الخارج، ومنشغله بتأمل الأمور السمائية إنها تكون بكلَيْتَها ممتزجة بالصلاة التي تلائم هذه الحوافز، وتبتهج دون تعب في الذهن بفعل الجزء الخفي من العقل الذي استسلم له. تلك هي الصلاة التي تفوق الجسد، والتي ندعوها نحن لا هيولية، ذلك لنها لا تتحرك بواسطة أشياء حسِّية، ولا تظهر في الجسد.

١٢ - هذه التلاوة تلد الصلاة التي بلا حدود، وهي التي يتفجر منها الهذيذ في الذهن سراً، والتي يصبح العقل أسيراً لها على الدوام، وممتلئاً كل حين بالله، وحيث يكون الذهن مأخوذاً ومستغرقاً في أمور الرب، كما قلت من قبْل. هذا النوع من الصلاة مرتفع جداً أكثر من كافة الممارسات النسكية، ولا يمكن مقارنته بها، لأنه هو نفسه الذي يلدها كلها، بفضل قوة الحياة التي يجدها في الله. هذه الدرجة ترفع النفس إلى السماء، ليدرك مرتبة الرؤيا، وتمهّد أمامه سلّماً يرتقي به قليلاً قليلاً نحو العلو الذي ينشده.

١٣ – إذا ما ارتقي شخص إلى هناك، فإنه يجد أعمالاً أخرى، فهو فجأة يتعلق هناك بالعمل الذي ارتفع من أجله إلى العلو، وطالما لم يرتد وينزل إلى الأرض، فهو لن يكون بحاجة بعد إلى سُلَّم. فإذا كانت الصلاة تعمل هكذا مثل السُلَّم قائمة ومرتفعة نحو السماء، يصعد الذهن عليها دون توقف، فهي أيضاً التي تقوم بعمل السلَّم العقلي في خدمة العقل. وطالما كنا على الأرض فنحن نظل دائماً في حاجة إلى تلك السلم التي هي الصلاة، التي بواسطتها نرتقي كل حين إلى

الله، لكي نُحسب أهلاً لنور السماء.

١٤ – أمَّا عن الهذيذ، فهو يقوي ويمنح النصرة ويُنقي صلاة القلب، ويُظهر للعقل الطريق الذي يقوده نحو أمور السماء و الأسرار، لكي تبتهج بها وقت الصلاة. وهكذا تقوم الصلاة مقام سُلَّم يرتقي العقل درجاتها.

١٥- هذه الصلاة، التي تُقدَّم إلى الله وتخاطبه، إذا لم تكن مصحوبة بالهذيذ والتلاوة، تكون ضعيفة جداً وعاجزة عن أن ترفع الذهن وتجعله يدرك أمور السماء. ولكن بما أنه عوض الذبائح والمحرقات التي كانت تُقدَّم بواسطة القدماء وهبنا الله نعمة فائقة بهذا القدر مقابل التقدمات الصامتة التي هي حركات ضميرنا – أعني التسابيح والتماجيد – التي نقدمها في الصلاة كذبيحة مقبولة نرفعها كما لرَبِّنَا، علة خلاصنا والمهتم بنا.

١٦ – حتى ولو كانت صلاتنا فقيرة ومفعمة ضعفاً، يجب علينا أن لا نتأخر عن تقديمها، وإن كنا لا نحظى بأي استعلانٍ، إلا أننا بشكلٍ أو بأخر نُحسب مُشاركين في عظمتها حين ننطرح على الدوام بوجوهنا على الأرض، ونقدم لخالق الكل حركاتنا المملوءة حرارة كذبيحة اعتراف. فلنهتم بتقديم حركاتنا، كدَيْنٍ علينا نوفيه لخالقنا، ولا نهمل أن نرفع التمجيد الواجب علينا، بالسجود بوجوهنا على الأرض. هذا هو عمل الصلاة عند الناس.

١٧ – طالما نحن على الأرض، هذا هو دور الصلاة للذين يعيشون في هذه الدنيا، والذين يطلبون بلا انقطاع أن يرتوا إلى الأعالي. الصلاة طريق يختص بالطبيعة، كما إنها في الوقت نفسه السلَّم الذي يقود إلى ما فوق الطبيعة، أي إلى السماء. بدون الصلاة لا يوجد طريق يمكن بواسطته الصعود إلى فوق. وفي السماء لا توجد خدمة بعد. الصلاة هي إذاً ملكة الواجبات والفرائض، أي أنها حياة كافة الفرائض، التي تحوِّل أمور الأرض إلى أمور السماء، وهي أيضاً التي تجعل الأشياء المادية تتألق بالحياة.

١٨ – ولكن طقس الصلاة هذا هو أيضاً أدني بالمقارنة برتبة الاستعلان. فهي عندما تقترب من هذه الأخرى، لا يكون لها بعد لا مكان ولا عمل، ولا ذِكر، لكي ترتقي من جديد إلى ما فوق الموضع الذي أدركته النفس، والذي يُدعي علو الأمور العقلية ومعرفة أسرار الرُّوح. لأنه عندما يغطي الرُّوح الْقُدُّوس ذهن الإنسان، يقتني هذا الذهن حركات الشيروبيم، ومعرفة الرُّوح، وتأمل الرُّوح، ويصبح كله في الله يتمتع بمذاقة عذوبة المباهج التي تفوق الطبيعة. إنه يتقدم من فهمٍ إلى فهمٍ، ومن هنا نحو رؤية التأمل.

١٩ – يُعتبر التأمل فائقاً أو بسيطاً على حسب ما يصاحبه من أفهامٍ مطابقة لاتجاه الأمور التي تصدر عنه وهذه تختص بنسق استعلان الأسرار، هذا النسق الذي هو أعلى من كل ما تـمَّ في النفس، هنا يكون التَدْبِير الخاص بالرُّوح، وليس بعد حركات النفس. غير أن هذه (الأفهام) لا تكتمل بدون الصلاة، كما أن الصلاة لا تستضيء بدونها ولا تتقوي، لأن الصلاة هي خاصة النفس.

٢٠ – الذي يكون مدفوعاً هكذا نحو الأمور الخفية يمكث في الرُّوح وفي الاستعلان الذي يتقبله الذهن من عند الله. إنني لا أعطي اسم الاستعلان لما يُرى بالأعين أو يُسمع بالآذان، ولا أيضاً لما نحسّه على الأرض أو وسط الناس. أي مكان لهذه الأشياء في الاستعلان الرُّوحي وفي حركات الذهن الذي قد استنار بواسطة الرُّوح، كما اختبره الآباء الذين ارتفعوا فوق الأرض والجسد؟.

٢١ – هذه الأمور التي تقع تحت سلطان النظر أو السمع، والتي تتصور أمام الحواس بفعل ملائكة، تكون نافعة بالنسبة لاحتياجات هذ االعالم الحاضر ولتَدْبِير هذه الدنيا، ذلك لأنها تنمي في النفوس مخافة الله. وهي تشبه تلك التي تأتي عن طريق استعلان مرئي، كتلك التي أُعلنت لموسى بواسطة ملاك عن قصد الله بخصوص الشعب وعن الأمور المجيدة التي حصلت وسطهم.

٢٢ – وهي تشبه تلك التي وردت سابقاً في حالة موسى، كما جاء في الأسفار المقدسة: "وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلَّيقة، ونظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق" (خر ٣ : ١، ٢)، ومع أن هذه الرؤيا أتت من قِبل الله وصارت بتَدْبِيره لتعلن عن أمورٍ مذهلة تفوق الطبيعة، إلا أنها أتت إليه بتوسط ملاك جعله يرى كيف يقود الشعب.

٢٣ – وكما قال الطوباوي بولس : " لأنه إن كانت الكلمة التي تكلم بها ملائكة قد صارت ثابتة " وما يلي ذلك (عب ٢ : ٢)، وكما قال أيضاً اسطفانوس: " وأرسل الله موسى رئيساً ومُحَّرراً بيد الملاك الذي ظهر له في العليقة. هذا أخرجهم صانعاً عجائب وأيات في أرض مصر، وفي البحر الأحمر، وفي البرية" (أع ٧ : ٣٥ – ٣٧)، مُشيراً بذلك إلى أن ملاكاً هو الذي ظهر لموسي في العليقة، وأن هذا الآخر هو الذي أؤتمن على كل تَدْبِير الله هذا، وعلى كافة الأحداث الرهيبة التي حصلت.

٢٤ – لقد كان ملاكاً هو الذي ظهر بطرقٍ متنوعة في رؤيا رهيبة وعظيمة، وأكمل كل هذا باسم الله، كما قيل في سفر الخروج: " ها أنا مرسل ملاكاً أمام وجهك ليحفظك في الطريق، وليجيء بك إلى المكان الذي أعددته احترز منه واسمع لصوته ولا تتمرد عليه، خشية ألا يصفح عن ذنوبكم، لأن إسمي فيه" (خر ٢٣ : ٢٠).

٢٥ – الكِتَاب المقدس يرينا بكل وضوح أن كافة هذه الأمور قد قيلت من قِبل شخص الله: الإعلان الْعَظِيم الذي ظهر على قمة جبل سيناء، وجميع ما قيل لموسى في الناموس كانها آتية من الله ذاته، وأقوال الناموس التي أؤتمن عليها كانت رؤى حصلت من ملائكة بما أنه قال : "وإسمي يكون عليه" (إش ٢٢ : ٢٠)، لأنه باسم الله ظهر الملاك، وتكلم، وأعطى الوصايا، وعلَّم، وقدَّم الناموس، وقاد الشعب، في السحابة والنار والظلام، في الدخان، في الغمامة

المظلمة، وفي جميع الأمور التي استعلنت. هكذا قاد الملاك قطيع الله، برؤى وكافة أنواع الأستعلانات، بعلامات وعجائب، بأصواتٍ وأقوال رهيبة وعظيمة.

٢٦ – ولهذا قال القديس بولس: "إن كانت الكلمة التي تكلم بها ملاك صارت ثابتة" (عب ٢ : ٢)، لكي يبين أنه لم يكن الله هو الذي ظهر في الرؤى والمناظر، بل ملاك. لم يكن هناك موضع للأشياء العادية لدى الله. فعندما يتراءى الله بذاته، فإنه يفعل ذلك بدون صور، لأن رؤياه غير مرئية وفائقة الوصف. وبالمثل فإن إعلانات الرُّوح تأتي في السكوت وهي ذات عذوبة هادئة بطبيعتها، ولكنها لا تُقدم شيئاً يُرى بالعين.

٢٧ – كما أن الله لا يمكن أن يُدرك، ويبقى دائما غير مرئي، هكذا هي إعلاناته. لم يسمعه أحد أبداً قبْل مجيء رَبِّنَا متجسداً. كما أن تَدْبِير الدهر الآتي لم يُعرف أيضاً في التاريخ، ونعمة الرُّوح الْقُدُّوس الكاملة لم تكن قد أُعطيت بعد قبل أن يحل على الرسل. ثم بدأت الإعلانات بخصوص الأمور الخفية والأسرار المستقبله، التي لا تحمل أي مشابهة مع العالم الحاضر، بدأت إذ ذاك أن تُعرف وتُمنح لبعض القديسين. كما لو كان ملاكاً من بعيد، بأمر الله، يظهر جميع هذه العجائب.

٢٨ – حاشا لله أن يتخذ صوراً! حاشا أن يكون هذا! وذلك كما قال رَبِّنَا لليهود: "لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتم هيئته" (يو ٥ : ٣٧) فهو إذاً بالتأكيد عمل ملاك، بما أن قول الله الذي نطق به (في سيناء) قد تثبت بلوحي حجر، وبالكُتُب والصوت الذي سُمع في الجبل، كي لا يتعدي بنو إسرائيل الوصايا: "كل الذين تعدوا وعصوا نالوا مجازاه عادلة، فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره؟ قد ابتدأ الرب بالتكلم به إلينا" (عب ٢ : ٢ ، ٣).

٢٩ – بهذه الكيفية يعرفنا الرسول أن ما يختص بهذه الإعلانات الحالية لا يشبه الاعلانات السابقة. في الحالة الأولى، كان يكفي أن يعلنها ملاك، أما في الحالة الثَّانِية، فقد كان الله نفسه، الكلمة الذي صار جسداً، كما قيل: "إن الرُّوح الْقُدُّوس قد أُعطي وتوزع حسب إرادته" (عب ٢ : ٤) الأمر الذي يدل على أن هذه الاعلانات الأخيرة صارت بفعل الرُّوح الْقُدُّوس، في حين كانت إعلانات هذه الدنيا تُنسب لفعل ملائكة، وكانت الأَولى لخدمة مسيرة هذا العالم ولا تقوى سوى إلى معرفة مخافة الله، وليس إلى استعلان الخفيات.

٣٠ – وبالمقابل، فإن تلك (الاعلانات) التي تعلن بواسطة الرُّوح الْقُدُّوس تقود إلى معرفة الدهر الآتي. فكما قال موسى للشعب، عندما ظهرت تلك الرؤيا الْعَظِيمة الرهيبة على قمة الجبل أمام أعين الشعب جميعه، مصحوبة بالبروق والرعد والنار والعاصفة والسحابة المظلمة، مع صوت أبواقٍ تدوي محدثة ضجيجاً مخيفاً ومملوءاً رعدة، مما جعل الشعب في خوفٍ عظيم أمام تلك الأمور المرعبة التي ظهرت، ولم يستطع أن يحتمل الفزع من المنظر ومن قوة صوت الأبواق، وصار يرتجف بقوة من العلامات التي أظهرتها الملائكة، بينما كان موسى يشجع الناس ويفسر لهم سبب هذه الرؤيا الرهيبة: "لا تخافوا، لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا" (خر ٢٠ : ٢٠).

٣١ – من هذا كله، واضح أن المناظر المرئية التي تُدرك بالحواس إنما تخدم تَدْبِير هذا العالم، من أجل تقوية الإيمان ومخافة الله. أما تلك التي تستعلن في الذهن وفي العقل موضع المعرفة التصويرية، والمباهج التي ترد في السكون، فهي تكون من نصيب الكاملين، وعن هذه سوف نتكلم فيما بعد، عندما نعالج موضوع الصلاة التي بواسطتها يرتفع الانسان نحو هذه المباهج. لأن هذه الصلاة تحمل فيها مرآة العالم الجديد، والتي بواستطها نتقبل، بفعل الرُّوح الْقُدُّوس، رائحة الحياة المزمعة التي أُعدت لنا. لأن الرُّوح وحده قادر أن يجعلنا نعرف كل ما يأتي من قِبله، هذا السر إن قدرته مستعدة أن تقود إلى ذلك التَدْبِير الفائق الذي يسمو فوق كل كلام. له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

المَيْمَر العاشر

نماذج لصَلَوَات المتوحدين. هذه الصَلَوَات تتركب من أقوال مُرتَّبة بقياس وفي حدود الفهم الرُّوحي؛ فهيَ تخطف القلب بحلاوتها، وتعيقه عن الطياشة في الأمور الأرضية. لقد صُنِّفت لتعزية المتوحدين ليشتغلوا بها أثناء الليل بعد صَلَوَات الأجبية لكي تخفف عن أجسادهم ثقل النوم.

١ – في الليل، عندما تسكن كافة أصوات وحركات الإنسان وسائر أشكال المشاغل، لَيْتَ نفسنا تجد فيك نوراً لحركاتها، يا يسوع نور الأبرار. في هذه اللحظة حيث تمتد الظلمات مثل ستارة تغطي كل شيء لَيْتَ نعمتك تشرق لنا، بدلاً من نور الشمس المادية المحسوس الذي يناسب شهوات عيون أجسادنا. لَيْتَ نورك يسطع وسط ظلماتنا الكثيفة وبأكثر قوة من الشمس.

٢ – أثناء الليل الذي يسكن كل ما يتحرك في العالم منذ الآن ويوقف عمله، اقبل نفسنا لتدهش بك، وتحظي بذلك الهدوء الأعظم من السكوت، الذي للحظة قصيرة يهبها أن ترتاح من الأتعاب، بفضل نعاسٍ أكثر حلاوة من الكل. وفي تلك الساعة التي يتخلص فيها الذين ينامون من الاهتمام بالأمور الفانية، لَيْتَ أفكارنا تسكر بك، يا رب، يا فرح وسرور القدِّيسين.

٣ – يا رب، أيقظ في قلوبنا المعرفة التي لا تضل أبداً، وفي الوقت الذي يسربل فيه جميع الناس أعضائهم بالثياب، اِكْسُ، يا رب، بالفرح إنساننا الداخلي.

٤ – خلال النهار الذي يكون فيه كل وَاحِد مدعواً لمباشرة أعمال الأرض، اجعلنا يا رب مستحقين أن نجد تعزياتنا في مسيرتنا السمائية، وفي اللحظة التي ينزع فيها كل وَاحِد عن جسده ثوب الليل، انزع، يا رب، عن قلوبنا تذكار العالم الزائل.

٥ – وقت الفجر، فيما يقفز الملاحون إلى مُحيط العالم، لَيْتَ نفوسنا يا رب، تهدأ وتستريح من كافة الحركات في مينائك. في الساعة التي يخرج فيها كل أحد للعمل في عالم يطفح بالحزن والأسى، اجعلنا مستحقين، يا رب، أن نحتمي بالتعزية التي لا تزول. في الساعة التي تدرك فيها

الظلمات نهايتها وتبدأ كافة الأعمال، اعطنا يا رب، أن نستمد تعزيتنا ومسراتنا من حركات الدهر الآتي.

٦ – أنت، يا رب، أصل مسار النور، وأيضاً أصل الخليقة، ضع، يا رب، في ضميرنا أسس ذلك النهار الذي لا نهاية له. لَيْتَ الشمس الجديدة تشرق داخلنا، وقت ظلمة الليل لكي بها نجد ملجأ في تلك المعرفة التي نترقبها في القيامة.

٧ – أعطنا يا رب، أن نتمثل منذ الأن بيقظة القيامة، حتى يمتد عقلنا إليك ليلاً ونهاراً. اجعلنا مستحقين أن نرى في نفوسنا حياة القائمين من الأموات، حتى لا يمكن لأي شيء أن يمنع عقلنا من الحصول على تعزياته فيك، وفي ذلك اليوم الذي لا يتبع مسيرة الأنوار الأرضية، اغرس فينا يا رب سرّك بمثابرتنا على الوجود الدائم في حضرتك.

٨ – نحن في كل يوم نعانقك في أسرارك، ونتقبلك في جسدنا، اجعلنا مستحقين أن نحس في ذواتنا بما نترجاه عند القيامة. هبنا يا رب أجنحة لأفكارنا تطير مع أقل نسمة، حتى نُحمل كما بأجنحةٍ إلى مسكننا الحقيقي.

٩ – لقد أخفيت كنزك في جسدنا بواسطة النعمة التي ننالها من مائدة أسرارك المقدسة. اجعلنا يا رب ننظر تجديدنا، لأننا أخفيناك في أنفسنا.

١٠ – لَيْتَنَا من مائدتك الرُّوحية، يا رب، نحسّ بحقيقة التجديد الآتي، ولَيْتَنَا نرى بهاء نفوسنا. بفضل بهائك الرُّوحي المودَع في قلب طبيعتنا البشرية. اظهر فينا علامات عدم الموت. صَلبك، يا فادينا، هو الحد النهائي للعالم المادي أعطنا أن نصلب فكرنا بسرّ العالم الرُّوحي الذي لك.

١١ – يا يسوع، إن قيامتك هي مجد إنساننا الرُّوحي. لَيْتَ رؤية أسرارك تكون لنا المرآة التي تعطينا المعرفة. تَدْبِير خلاصك، يا مخلصنا، يكمن في سرّ العالم الرُّوحي، أعطنا أن نتقدم نحوه بحسب إنساننا الرُّوحي. إن بشريتنا البائسة تجتذبنا لكي نُبحر في عالم الظلمات. اجعلنا يا رب مستحقين لهذا العمل الذي يمنحنا القوة لاختراق أسوار الظلمات.

١٢ – يا رَبِّنَا، لا تحرم عقلنا من الهذيذ الرُّوحي بك، ولا تسمح أن تبرد حرارة تعزياتك في أعضائنا، طبيعة جسدنا المائتة تغمرنا بنتانتها، لَيْتَ بهجة محبتك الرُّوحية تمحو أثرها من قلوبنا. المور البغيضة التي تكمن في أعضائنا تقودنا كالأسري، لَيْتَ رائحة نتنها تزول من جسدنا بفعل نشوة الفرح بعطاياك.

١٣ – الجسد يشبه مُحيطاً يغمر قارباً بلا انقطاع، وجَّه أنت يا رب قارَبِّنَا إلى مرفأك الإلهي. في الوقت الذي ننعزل فيه عن الناس ومشاغلهم، كن أنت يا رب، رِبحنا وبنعمتك نستبدل نحن حزننا بفرحٍ. لقد خرجنا من العالم لكي نحيا في الوحدة، واضعين ثقتنا في نعمتك، اجعلنا يا رب نرى بوضوح حقيقة قوة تذكارك الدائم.

١٤ ـ أَفِض يا رب سلامك على قلوبنا وهدوءك على حركاتنا، لكي يصبح لنا الليل المفعم ظلاماً، نهاراً منيراً. في الوقت الذي نُحرم فيه من النور لأن الليل يحيطنا بظلمته، وقد تركنا جميع الناس، فلتكثر لنا التعزية التي نجدها فيك، وفي هذا المكان المقفر والبعيد عن الكل، حيث ليس صوت يُعزِّينا أتوجه إليك يا رب قائلاً : " احفظ أذهاننا داخل سور نعمتك. انقذنا يا رب من نعاسنا بقوة المعرفة التي لا تخطيء، حتى لا يغرق عقلنا في سُبات الشهوات.

١٥ – لَيْتَ نعمتك يا رب، تجعلنا مستحقين للدخول مع العذارى الحكيمات، اللواتي كنَّ مستعدات للقائك بأعمالهن، ولنكن دائماً متيقظين حتى لا تغطينا الظلمات. إذا ما اظلمَّت أذهاننا، فليُشرق دائماً في صَلَوَاتنا نور نعمتك. لَيْتَ ليل عقلنا ينضم إلي نهار معرفتك، بواسطة شمسك الأعظم بين النجوم، يتجدد نذرنا لحفظ العفة.

١٦ – امنحنا أن نسهر الليالي في صَلَوَاتنا، مع الأبرار، ومصابيحنا موقدة بنور شمس استعلانك. الأبرار يسكرون بمحبة الله خلال الليل، ونحن أيضاً لَيْتَك تُعزّي مسكنتنا أثناء الليل. امنحنا يا رب عقلاً يجتهد دوماً في تذكار إشراقك المقدس، بينما تتهلل نفوسنا بحرارة حُبّك.

١٧ – في تلك الساعة حين يجتهد القديسون في الصلاة، اجعلنا مستحقين يا رب أن نشاركهم في التعزية التي يستمدونها في أسهارهم. امنحنا أن نحسّ في أنفسنا بالتعزية التي ارتبطوا بها وقت انطلاق افكارهم، وأن نقتني عبيرها في تسابيحنا كل حين.

١٨ – أيُّها المسيح إِلهُنَا، الذي من أجلنا سهرتَ في الصلاة لدى أبيك، امنحنا الإحساس بالغفران الذي تتقبله حقارتنا في الصلاة كعربون لسعادتنا المستقبلة. أيُّها المسيح إِلهُنَا الذي انطلق يصلي من أجلنا أثناء الليل، اجعلنا مستحقين أن نتذوق في أذهاننا ما أكملَتْه آلامك من أجل فدائنا. أيُّها المسيح إِلهُنَا، يا مَنْ تسكب عطيتك على القدِّيسين أثناء الصلاة، أَبْهِجْ يا رب ضميرنا بمذاقة نعمتك.

١٩ – يا الله الذي بيده الأيام والليالي، أَبهجنا بالرجاء الذي نضعه فيك وقت تلك الليلة الحالكة الظلام. وفيما نكون منشغلين بتوجيه صَلَوَاتنا إليك، حيث نتقدم إليك حانين رُكبنا أمامك، اغمر عقولنا بالبهجة، لكي بالصلاة تتحد بك. أَنِرْ حركات أذهاننا، لكي إذ يستولى علينا الدهش، يمكننا أن نتأملك، ويكتسي بك ضميرنا.

٢٠ – لَيْتَ كل صلاة تطول حتى صباح يوم مجيئك! لَيْتَ عقلنا يتقبل إشراقك، وتدرك قوّته العقلية التَدْبِير غير المادي. امنحنا يا رب، أن نُسرِّع خطواتنا إلى مدينتنا المقدسة، ومثل موسى النبي على قمة الجبل، هبنا نعمة استعلانك، ومع أن جسدنا يتألم وبؤسه يجتذبنا إلى أسفل، لَيْتَ نعمتك، يا رب، تتغلب فينا على الناموس العامل في جسدنا.

٢١ – إنني بقلبي يا رب، أُحب ناموسك الرُّوحي، ولكن الناموس الكائن في أعضائي يأسرني بعيداً عن فرائضك، كما لو كانت نفسي تحت العبودية للعمل البغيض، أو تُساق بالقوة بعيداً عن الفرائض الرُّوحية، مع أنها لا تريد أن تكون مسكناً للأوجاع الجسدية، وتئن وتنوح بسبب هذه

التعاسة التي تفوق الوصف، مثل الأرملة المظلومة التي كانت تشكو حالها المؤلم إلى الله، وقد صار مدحها في الإنجيل من أجل لجاجتها التي وجدت استجابتها : " انصفني، قالت في صلاتها، من جسدي الذي هو خصمي" (لو ١٨ : ٣) وهذا القاضي المتحنن كافأ توبتها.

٢٢ – بما أننا نوجد كل حين مغمورين كما في محيطٍ من جراء الحركات الجسدية ، اغسل يا رب، ذهننا من أدناس أعمالنا المخزية. نحن نتوسل إليك وندعوك من وسط الأمواج، أنت ربَّاننا الحكيم، اسمح بأن تهبَّ لنا نسمة هادئة، وانتشلنا من المياه لئلا نغرق. عند منتصف الليل أنهضُ، يا رب، لكي أسبِّحك بحبٍ عظيم، وأقدِّم لك التمجيد اللائق، أيُّها القاضي العادل، حتى لا تنسي عوزنا ولا الضربات التي تصيبنا كل حين.

٢٣- نعم! أنت يا رب، تعلم بأي بحرارة يتوق ذهني إلى السمو، فحتى لو كانت ضعفاتنا هي الغالبة فينا، ونحن نغرق ألف مرة كل يوم في الخزي، فإننا لا نتوقف عن التطلع إليك. يا فادينا، أنت يا من أتيت لكي تغسل دنس الخطأة أعطِنا التوبة في كل حين، لكي يمكننا أن نغسل بها ضمائرنا من الأدناس. قدسِّ يا رب قلوبنا، واملأها من روح مجدك، من أجل الهيكل الذي صار فينا بتذكارك الدائم، لكي نتقبل روح البهجة.

٢٤ – اخلق فينا، يا ب، قلباً جديداً واغرس فينا روحاً جديداً (حز ١١ : ١٩) لكي في ذهننا المتجدد نستطيع أن نلبس ثياب الملكوت (مت ٢٢ : ١-١٤) نحن نتجدد بأسرار روحك الْقُدُّوس ونتقدس بنعمتك طالما كنا في كل حين ننسى كل شيء بمداومة الوجود في حضرتك لكي نحس هكذا بالرجاء المقدس الذي لنا، عندما نصلي ونكون منقادين دون توقف بعيداً عن العالم المادي. هذا العالم الزائل أدنى كثيراً من أن يقاس بعطيتك، فأنت من وفرة غناك تفيض بغن كل ما هو لك على ضعفنا.

٢٥ – نفوسنا يا رب، تعطش إلى هذا الرجاء عندما توجد في الحزن، املأنا فرحاً لكي نعاين تحننك فينا. في هذا العالم إذ نكون منعزلين عن الناس واهتماماتهم، كن أنت لنا، يا فادينا، كل حين المرشد ورفيق الحياة. في تلك الساعة التي نبتعد فيها عن العالم واهتماماته، كن أنت يا رب مُعزِّينا ولا تحرمنا من محبتك.

٢٦ – قلوبنا مفعمة من المتضادات، ونحن لا نكفُّ عن معاناة الأحزان، اجعلنا مستحقين يا رب، لتعزيتك التي هي أقوي بكثير من الحزن، ولأن نفوسنا ممتلئة اشجاناً ودموعاً مُرَّة لا تتوقف، رُدَّ الفرح ، يا رب، إلى نفوسنا المغمومة، وأنعِش قلوبنا بلهيب محبتك. بالنهار والليل نحن مستهدفون للأتعاب والأحزان، أَضرِم يا رب، في الخفاء شعلة قلوبنا.

٢٧ – لأنه ليس لنا رجاء بعد أن نجد ما يعزّي حالتنا المنعطفة للشهوات، قرِّب إلينا اصبعك الذي ينعش كل شيء، ويبدد الحزن الخفي من قلوبنا، ولأن المصادمات هي نصيبنا الذي لا يتوقف نهاراً و ليلاً، وتُضعف الرجاء الذي نضعه فيك، كن أنت قائد جيشنا وسط القتال. العبرات

والدموع تنسكب سراً في أعماقنا، لأننا لا نكف عن الخوف من أن نفقد رجاءنا فيك، شدِّدنا يا رب، بصوتك الخفي في السكون الذي يعرِّفنا بمعونة الرُّوح، الهدف السري لجهادنا.

٢٨ – أيُّها المُخلِّص، لَيْتَ عقلنا لا يُحرم من تعزيتك، حتى لا يغرق في محيط أوهام اليأس، أعطنا يا رب أن نعاين من بعيد رجاءنا الحقيقي، لكي تجعلنا هذه الرؤية أقوياء نقدر أن نستخف بكل أتعابنا، ولأننا عادمي الخبرة في الجهاد، لماذا نهتز الأن رعباً وقت القتال؟ طفولتنا يا رب، تصبح حكيمة فيك في هذا العمر الرُّوحي. ونحن نبلغ الحكمة بمداومة الوجود في حضرتك، ونتقبل معونة روحك الْقُدُّوس الذي يرشدنا على الدوام إلي الطريق الصاعد إلى السماء.

٢٩ – امنح يا رب، لقلوبنا ختم روحك الْقُدُّوس، لكي نصير كهنة مستترين، نخدمك بحركاتنا في قدس أقداس المعرفة التي حصلنا عليها منك. لَيْتَ ومضات نعمتك تزداد قوة في أذهاننا، بفعل الحركات التي يقتنيها هذيذنا بك، ونصير دائماً منجذبين بموهبتك نحو مساكن غير المتجسدين، وإلى موضع راحة القدِّيسين، ولكي نبلغ بالإيمان، بفضل الاشتياق الحار الذي تغرسه فينا النعمة، ذلك الموضع المرتفع الذي لأولئك الساكنين هناك. بإعلانك يا رب، هَب لنا الحكمة لنسلك الطريق الذي يقود إلى السماء، وقوِّم مسيرتنا عَبر هذا العالم وصراعاته.

٣٠ – يا يسوع، يا من نزلت مِن علو مجدك لكي ترفع المنخفضات المليئة بالطغيان، لَيْتَ عطاياك تتضاعف فينا لكي ننمو في محبتك. هبنا فكراً مقدساً لكي نقتني مثالك في أعمالنا، وارسم فينا الصورة الحقيقية لاتضاعك. أَعطنا أن نحس سراً بعذوبة حبك، ويطير عقلنا كل حين إليك.

٣١ – بمذاقتك لَيْتَك تروي نفوسنا اليابسة، لكي تأتي بثمار التمجيد اللائق، وتصير هيكلاً مقدساً ومسكناً لمجدك. ضُم يا رب، أعضائنا إليك، أنت رأس الجسد كله، حتى لا يبقي أحد بيننا غريباً عن الشركة في مسرَّاتك. أيُّها الابن الحقيقي لجنسنا الذي سيأتي ليملك، لا تنبذ بني جنسك عند مجيئك علي السحاب نفوسنا عطشي إلى ظهورك، وإلى استعلان عظمتك الفائقة العلو أعطنا يا رب أن نضع ثقتنا منذ الآن في عربون شركتنا معك.

٣٢ – بما أننا فقراء وسلالتنا ليست سوى تراب، اجعلنا ننمو بما يتناسب مع عظمتنا الحقيقية، وارفعنا حتى نصبح خاصة الله. يا للرأفة التي بلا قياس!

يا لمُحيط الرحمة الفائضة! يا للنعمة التي بلا حدود! والمحبة التي يتجاوز التعبير عنها بالكلام! حقاً إنَّ نظرنا ضعيف جداً ويعجز عن إدراك محبتك، وعن الإحاطة بغناها في معرفتنا! أيُّها الخالق، لَكَم هي عظيمة نعمتك للخلائق إذ تحيط الكل بلطفك وعطفك : ابن جنسنا صار ابن ملك، وانطلق ليعدّ الملكوت لعموم البشر!.

٣٣ – حتى لو كانت أكثر من ربوة حرة تتعرض للإساءة وتصبح هدفاً للاحتقار، فإنني يا رب لَنْ أنكر أبداً عظمة الرجاء الذي لنا فيك. حماقتي تفوق الوصف، والمحيط لا يكفي ليطهرني! لقد قلت وأكرر : إن محبتك أعظم كثيراً جداً من ديوني: أمواج المحيط لا توازي عدد خطاياي، ولكن

إذا ما وزن المرء خطاياي بالمقارنة بمحبتك تكون ضئيلة كما لو أنها لم توجد أصلاً أمامك هي جميع شرورنا والجبال ترتعد أمام تعدياتنا ومع ذلك بفضل محبتك لا أشك في أنك ستدعونني باراً.

٣٤ – لك المجد، يا رب منا جميعاً! لك، يا " بقية " جنسنا البائس، ألا تجب العبادة لك والحب بلا انقطاع؟ خيراتك التي تمنحنا إياها يداك تفوق الوصف، نحن نسجد عند عتبة عرشك، بدموعٍ وبفرحٍ أليم. فَمُنا ضعيف جداً عن أن يفي بتمجيدك، ومع ذلك فإن رأفتك تغمرنا بالمكافأة التي تفوق استحقاقنا كبشر مائتين وقد اعتنت بنا ومحت أدناسنا، ومن أجل محبتك التي تكنَّها لطبيعتنا حتى إنك لم تخجل من أن تدعونا أعضاءً لك، وقد حملت آثامنا في جسدك، يجب لك المجد من كافة الخلائق!.

٣٥ – يا أحبائي هوذا هذيذٌ روحي وافر رهن إشارة العقل، تكمن فيه قوة الانشغال بالرب في الرُّوح. فلنفسح له مكاناً صغيراً في أنفسنا، لكي نجد تعزية وسط راحة سكوننا، ولكي يمكن لذهننا أن يرتفع إلى أن ينشغل برَبِّنَا. أنتم، بالحقيقة تعلمون جيداً أن ارتياد العالم هو ضد العشرة مع الله. فلتكن حكمتك إذاً قائمة على ممارسة مثل هذا التَدْبِير وتكريم "النصيب الصالح" (أنظر لو ١٠ : ٤٢).

٣٦ – وفضلاً عن ذلك، إذا كان شخص أو شخصان يرتادان هذا السر، ويحددان لهما موضعاً يلتقيان فيه ليقضيا يوم الأحد معاً، ينشغلان فيه بالله في السكون، يكون عملهما ذا نفع كثير، نظراً إلى الربح الذي يجدانه في وحدتهما. لأنهما إذا كانا مستنيرين، فإنهما يحصلان أيضاً على معونة بواسطة الإنارة التي يتقبلها الوَاحِد من الآخر، وبدون اتصال. ذلك هو السكون الكامل، هذا إذا لم تندس فيما بينهما خِدعٌ غريبة عن قصدهما، وإذا احترسا من الأقوال السطحية.

المَيْمَر الحادي عشر

علي أقوال رسول الرب : "قد قمتم مع المسيح" (كو ٣ : ١)؛ وبخصوص الذبيحة الإلهية التي تكمِّلها كنيسته المُقدسة للأحياء والأموات بالنظر إلى حقيقة الرجاء في الأمور المزمعة، ويمارسها بوجه خاص أهل العالم المؤمنون نظراً إلى متانة رجائهم.

١ – كيف تكون قيامتنا وتجديدنا الذي يتحدث عنه الرسول مراراً في مواضع متعددة، مرئية؟ الذين قبلوا الاستنارة هم يعرفون على ماذا تقوم قيامتنا! أعني أننا نقوم من الأموات بالإيمان، وأننا نتجدد في السر والوصول يؤكد أن قيامتنا وتجديدنا لا يكونان في جسدنا، ذلك لأن جنسنا هو للآن خاضع للموت والفساد، وأن الحياة في هذا العالم مازالت للآن متأثرة بجسدٍ تُغطيه الأوجاع. كيف يمكن القول بأن الذين مازالوا يوجدون في مثل هذه الحالة هم قائمون ومتجددون، بينما مصائب الطبع المائت ماتزال تسودهم دون توقف؟

٢ – يجب علينا أن ننظر إلى ما هو أبعد من الجسد، وذلك بالحسّ الداخلي الذي يُعطي لنا بواسطة الكِتَاب المقدس. أعني أننا نقوم بالسيرة الفائقة، نقوم بالإيمان بالأمور المزمعة، نقوم بمعرفة طبيعة الله، بفعل الإحساس بجوهره وعظمته والموضع العالي الذي لطبيعته، نقوم بالرجاء في تلك الخيرات المحفوظة لنا وبمعرفة أسرار العالم الجديد، وبالإيمان بالتجديد العجيب الذي تحظى به الخليقة مستقبلاً.

٣ – لقد كان الرسول، إذاً، على حق حين أعلن لنا هذه القيامة الحقيقية في الرب التي هي الآن لنا، أعني أننا نقوم بتجديد أذهاننا. في الأجيال القديمة لم يكن تذكار الله موجوداً لقد كانوا محرومين تماماً من تذكاره، أما بالنسبة للأجيال المتوسطة، فمع أنَّهم كانوا يعرفون الله، فقد كانت معرفتهم له بصورة محدودة.

٤ – أمَّا بالنسبة لنا، فنحن قد تجددنا في أذهاننا بفعل معرفة جديدة لم يسبق أن تُستعلن لهم. إننا الآن نعرف هذا الكائن الذي لا بداية له ولا نهاية، بينما كان فكر الأقدمين عن الله ما يزال كفكر طفلٍ، حيث يقولون: إن الانتقام الإلهي سيكون شديد القسوة! والجزاء عادلاً! لأن الله حين يجازي يكون عادلاً، غضبه يشبه ما لنا: فهو يتذكر خطايا الآباء منذ كانوا أطفالاً صغاراً!.

٥ – أمَّا نحن فنمتلك إدراكاً أَسمى من ذلك عن الله، ومعرفة أعلى بكثير من معرفتهم لأننا نعرفه كمَنْ يغفر، وكصالح ومتواضع، والذي من أجل حسنةٍ وَاحِدة، ولو بالفكر، ومن أجل حركة توبة وَاحِدة، يغفر خطايا سنين عديدة، وليس فقط أنه لا يعود يذكر الخطايا التي ارتكبها آخرون فلا يحسبها مع التي لنا، لكنه يتغاضى أيضاً عن خطايا الذين ماتوا في خطاياهم، ومن أجل كثرة تحننه يمحو كثرتها (من أجل توبتهم هذه).

٦ – كما أنَّه قد أعدَّ أيضاً في حكمته تَدْبِيراً فائقاً وأفضل من الكل، لكي يمنح به الغفران سريعاً للأحياء والمنتقلين. فالذبيحة التي تُقدَّم في الكنيسة – سرّ جسد ودم رَبِّنَا – تشهد على رجاء الغفران هذا: إنَّها تُقدَّم من أجل المنتقلين من جيل خطأة قد رحلوا عنا. لأنه إذا كان أولئك الذين غادرونا لم يحصلوا على أي معونة فكم تكون الفائدة عظيمة بتقدمة سر جسد المسيح من أجلهم (كما يقضي التقليد) الذي تحفظه الكنيسة، أعني بتقدمته من أجل المنتقلين برجاء الغفران!.

٧ – هل يبدو هذا كتقليد باطل ولا طائل منه؟ أو أنه تفكير الأرقّاء؟ أو أنه تقليد يحتاج إلى تفسير؟ لكنه حقاً يوجد رجاء بغفران الخطايا متى أُكمل السر من أجل المنتقلين. أيكون هذا نافعاً للأبرار؟ ألا يكون نافعاً أيضاً للخطأة الذين من أجلهم تُقدَّم الذبيحة، بينما يتلو الكاهن الطلبة والتوسل أمام المذبح، حيث يذكر المنتقلين وقت تقديم ذبيحة رَبِّنَا على رجاء هذه الأمور؟.

٨ – ما لم يجد الخطأة عوناً من التقدمة، فإن ثقل وكثرة خطاياهم لا تخفّ عليهم. إنهم في كل مرة تُقدَّم التقدمة من أجل خطاياهم العديدة، يجدون فيها عوناً عظيماً، هذا باستثناء الذين لم يرتكبوا خطايا (بسيطة) بل تقدموا إلى التناول بعدم تقوى: المرتدّون والمجدّفون، إذا داوموا على التناول للخلاص. أعتقد إذاً أنه بالنسبة لأولئك يوجد فرق فيما يتعلق بالتناول، عندما ننادي في الكنيسة وقت تقديم الأسرار كما من فم ملاك: " ولجميع أبناء الكنيسة المستحقين لتقبّل هذه الذبيحة أمامك".

٩ – هذا القول لا يميز بين الخطأة وغير الخطأة، بل بين الخطأة والذين لا يستحقون أن يحصوا بين أبناء الكنيسة بسبب الإثم الذي ارتكبوه ضد أسرار الكنيسة مثل الهراطقة وأصحاب البدع، وكافة الذين يعتبرون الأسرار المقدسة التي للكنيسة كأمور عادية. لكن هذه الأقوال لا تشير إلى الخطأة العاديين كما لو كانوا لا يجدون الشركة ممكنة لهم، أو لأنهم لا يقدرون أن يجدوا عوناً من الأسرار الموجودة في الكنيسة.

١٠ – فأولئك الذين لم يرتدوا عن الإيمان ولم ينفصلوا عن الكنيسة بل مازالوا يعترفون بها وبأسرارها سائر أيام حياتهم، وقد حافظوا على اعترافهم ومعموديتهم بغير دنس، ولكنهم أذنبوا بالخطايا بعض الشيء بسبب ضعفهم – فحتى ولو كانوا لا يمتلكون الرجاء الكامل كأبرار صدقين، لكن ذهنهم مع ذلك يدنو كل حين من الطبيعة الإلهية – هؤلاء ليسوا غرباء عن الشركة (أي التناول) بالرجاء الذي لنا في المسيح، ولا عن فيض المعونة التي يمكنهم أن يحصلوا عليها في أنفسهم من لدن الكنيسة.

١١ – وكما قال الرسول: "أي من أكل من هذا الخبز أو شرب الكأس الرب، بدون استحقاق، يكون مجرماً في جسد الرب ودمه، لأنه لم يميز جسد الرب" (١كو ١١ : ٢٧ ، ٢٨) ولكن الرسول عندما يتكلم هنا عن الاستحقاق، لا يذكر الأفعال السيئة أو الصالحة لكنه يتكلم عن التمييز الذي ينبغي أن يجري في الذهن ، ولكي يبرهن علي أنه لم يكتب هذا لأجلها (أي الأعمال) فهو يشرح بكل وضوح في الرسالة عينها مغزي ما كتبه حتى لا يظن أحد أن الأبرار

وحدهم هم الذين لهم حق الاشتراك في الأسرار المقدسة ، أو الذين لا غبار عليهم والذين يمكثون في توبةٍ صارمة.

١٢ – إذا لم يكن الحال هكذا لوجب إذاً التوقف تماماً عن إقامة القداسات في المدن، حيث يكاد لا يوجد فيها وَاحِد يُمسك بالتوبة ويهتم بها. الذين يفهمون أقوال الكِتَاب المقدس هكذا، يستندون إلى نظرة شخصية، وهم بذلك يتسببون في الخسارة ليس فقط لأنفسهم. لأن كثيرين هم الذين يضلّون بواسطتهم، ولأن كثيرين في جهالتهم هكذا يفهمون قول الرسول هذا. أمَّا المعنى الحقيقي فقد تعلّمناه من سياق كلام هذه الأقوال.

١٣ – لقد وجّه القديس بولس هذه الأحاديث للكورنثيين. وكان لهؤلاء عادة الاجتماع يوم الأحد المقدس في الكنيسة، ويرون الأغنياء الذين بينهم يشتركون في الأسرار المقدسة تماماً مثل الفقراء كما كانت العادة المتبعة في الكنيسة. وكان الجميع بعد ذلك يجلسون للأكل ويتلذذون بما أعده كل وَاحِد لنفسه في البيت. غير أن الفقراء الذين كانوا يجلسون أيضاً، كانوا يلاحظون (الأغنياء) يتلذذون بالخمر ويسكرون فيما كانوا هم يعانون من الجوع.

١٤ – لقد سمع القديس بولس بهذا الأمر، ولهذا كتب لهم يقول : إنهم يشتركون بالتساوي في تناول الأسرار، ومع ذلك يحكمون في أنفسهم أن الفقراء غير مستحقين للشركة معهم عندما يتعلق الأمر بأشياء جسدية، مما يدل على أن مائدة كل الأيام هي أهم عندهم من مائدة الأسرار، فيقول لهم :"إذا كنتم تعتبرون الأسرار أمراً تافهاً وأنها لا تفترق عن مائدة كل الأيام فسيكون هذا دينونة لنفوسكم أن تأكلوا من الخبز وتشربوا من كأس مائدة رَبِّنَا".

١٥ – وهذا يؤكده أيضاً المفسر المغبوط بخصوص الأمور التي تكلمنا عنها سابقاً حين يفسر في أحد شروحاته فكر الرسول بعد أن شرح الدافع الذي جعله يتعرض للموضوع، ويوضح مغزي حديثه :"من البيّن أن الرسول أراد أن يُعرِّفنا أنه ينبغي التقدم للأسرار بضميرٍ كامل، وليس باستهانة كما لو كان (يتناول) خبزاً عادياً". وفي ختام شروحاته أضاف يقول :"إن كان أحد يمتلك إيماناً كاملاً بأسرار المسيح – الأسرار التي يعنيها الرسول بقولة – فأنا لا أظن أبداً أنه ينبغي حرمانه من الخيرات التي يترجاها" .

١٦ – أترى، يا إنسان! إن الرسول لا يدين الغرباء عن الخيرات التي ترجي من هذه الأسرار، ومن كانوا غير مستحقين لها بسبب تصرفاتهم، بل يدين أولئك الذين لا يستحقون لها بسبب ضميرهم الفاسد. إنه لمؤسف أن يكون إنسان لم يستوعب عقله التعليم المرتكز على الفهم المستمد من أقوال الكِتَاب المقدس. بالنسبة لنا، إذاً، فنحن لا نعلق أهمية على فكر الإنسان المحدود، لكني قلتُ وأكرّر ولا أملّ :"إنه توجد معونة كبيرة للخطأة المنتقلين، في تقدمة رَبِّنَا من أجلهم".

١٧ – وإذا كان التذكار يُقدَّم فقط عن الأبرار، فلماذا، إذاً يذكر الكهنة جميع الخطأة من جنس آدم في الصلاة أمام المذبح؟ إنني لا أقدر أن أنكر هذه العبارات المقدسة، المرضية لدي الله

والافتدائية التي يُرددها الكاهن بمشاعر متأججة وهو مطاطيء الرأس أمام التقدمة الفائقة فوق المذبح. إنني لا أتجاهل هذا الأمر وليس بإمكاني أن أتجاوز الحقيقة.

١٨ – وكذلك لا أعتبره عبثاً أن مثل هذه الطلبة قد وردت في "السيدرو" (sedro) في هذا المكان كيما يعرف كل أحد القوة التي يحتويها سرّ جسد المسيح حتى إنه يشمل بمعونة نعمته الأموات أيضاً، وتمتد أشعته القوية كذلك حتى إلى الجحيم. لَيْتَ غير "الْعَارِفِين" يفهمون أن هذا ليس بأمرٍ تافه أو عن طريق الصدفة أن هذه (الطلبة) قد وُضِعت هنا لتأكيد أحد الأسرار التي ائتُمنت عليها الكنيسة المقدسة.

١٩ – جميع هذه الأمور مفعمة بالرجاء، ومخفي فيها معنى عظيم للذين يتممونها. إنها تكشف كم هي عظيمة قوة الإيمان وكم هي مرتفعة معرفة المسيحيين وأي وعي لهم بخصوص الله، طالما نحن نؤمن أن قوة هذه الأسرار تكفي في تَدْبِير ابنه الوحيد لأن تهب الغفران للمنتقلين وأنه حتى وفي الجحيم تُقدَّم المعونة للذين في حياتهم آمنوا بها. إنه هكذا يطمئن الذين يُعلِّمون عن أمور القيامة والرجاء الذي لهم بخصوص أمواتهم، حتى أنهم يتشفعون من أجلهم بإيمانٍ عظيم، ويطلبون الغفران أيضاً للمنتقلين.

٢٠ – فكما لو كان تحقيق ذلك هو بين يديه، يُقدِّم الكاهن الذبيحة بإيمانٍ ثابت ويكِّمل تذكار ذبيحة المسيح، متوسلاً أمام الله من أجل الغفران للخطأة الأحياء والأموات، حتى يتطهر الأحياء بتقبل الأسرار، والموتى بالتذكار الذي يُقدَّم عنهم. لأن الكاهن دون أي تردد يقول :" نعم يا رَبَّنَا وإِلهُنَا بنعمتك تقبَّل منا ذبيحة التمجيد هذه التي هي الثمر الرُّوحي لشفاهنا ".

٢١ – ولماذا؟ "لكي بها يُرفع التذكار أمامك عن الأبرار القدامى والأنبياء القدِّيسين والرسل الأطهار والشهداء والمعترفين ....." ثم يضيف: "وعن جميع أبناء الكنيسة المقدسة الذين رحلوا عن هذا العالم في الإيمان القويم" وأنت ترى أنه وإن كان يذكر هنا الإيمان صراحة إلا أنه لم يقل: "الذين ماتوا بدون خطايا والذين رحلوا عن هذا العالم بالبر" بل بالعكس هو يقول: "الذين رحلوا عن هذا العالم في الإيمان القويم والذين فرحوا بنعمتك اغفر لهم يا رب كافة خطاياهم وتعدياتهم والذين أخطأوا في هذا العالم وانكشف جهلهم أمامك في جسدٍ مائت وفي نفسٍ متقلبة ".

٢٢ – ها أنت ترى كيف أن الكاهن لم يخجل من الصلاة من أجل المنتقلين وطلب الغفران لهم من الله أنت تسمع كيف يقدم هذه الصلاة المهيبة أمام الله بإيمانٍ لا يتزعزع وبأسلوب مؤثر دون أن يفكر للحظةٍ أن الله لا يلتفت إليها. أنت تعلم ما هو رجاء كنيسة المسيح! أنت تدرك الطريقة التي علَّم بها الناس وغرس فيهم الإيمان بما يريده لنا ولهذا قد تضمَّنته الصلاة التي تُقدَّم أمامه ! أترى تجد صلاة بمثل هذه الجراءة؟ يا قليل الإيمان! يا لك من معاند لمشيئة الله.

٢٣ – لأنه مما لا شك فيه أن الله هكذا أراد وأن الرُّوح الْقُدُس علَّم أن يوضع هذا في الكنيسة تحت شكل توسلٍ، وفقاً لقدرة المسيحية الْعَظِيمة ومع المسرة التي تُفرح الله فيما يخص طبيعتنا

الترابية، لأن مشيئته هي معلنه بواسطة الكنيسة منذ القِدم بأسلوب رمزي. أما المتكبرون والجهال فلا يريدون الإيمان بسرِّ مشيئته الصالحة تجاه جنسنا.

٢٤ – يا لتعاستنا نحن الذين نتردد بخصوص هذه النصوص المفعمة بكل الحقائق المقدسة تلك التي يحبها الله والتي تُعِّبر عن مشيئته، والتي أرفقتها الكنيسة بصلاة الشكر من أجل الأسرار وأدمجتها بالتقدمات المقدسة والإلهية، كما لو كان الله الكلي القدرة قد ارتضي بها وهذا هو السبب الذي من أجله قد ارتبطت أقوال هذا السر بذبائح المصالحة، الويل لنا إذا كنا ننكر هذا القول ونحن نعرف جيداً قدرة هذه الصلاة المقدسة الكاملة المفعمة بالرجاء لجميع جنس البشر.

٢٥ – إنني لا أكتب هذا لكي بتلك الثقة تستسلم للرخاوة بل لكي تثبت في رجائك ولكي ينمو ضميرك في الله ولكي تزداد فيك كل أنواع الحقائق التي تتعلق بالدهر الآتي، ولكي تصير أمور الأرض مزدرى بها في عينيك ولكي يملك الدهش عقلك أمام الله ولكي تشتعل محبته في نفسك ولكي تنشغل بواسطة الهذيذ في الأفهام حول هذه الأسرار بالموضع الذي هو أعلى من هذا العالم.

٢٦ – إنَّه ليس من المناسب أن نستر حقيقة إيماننا خوفاً من أن يقودنا ذلك إلى التراخي أو نختصر تعليم أسرار ليترجيتنا، أو ننكر قوة الاعتراف بعجائب تَدْبِير الله من أجلنا أو أن نتوقف عن الدهش أمام الله وعن التسبيح بفرحٍ منقطع النظير. فإذا كان أحد يلتمس لنفسه عذراً من ضعف الإيمان والجهل، فعليه أن يهتم بمراجعة نفسه.

٢٧ – أمَّا نحن، فإننا بواسطة هذا الإيمان قد خلصنا وانتعشنا بالحياة الحقيقية غير المائتة وقد أُخذنا بالدهش مقابل مراحم الله لمّا رأينا كيف أنَّه بحكمته المعِينة لجنسنا المائل إلى الخطية قد دبَّر كل ما هو لمعونتنا وكيف هيأ لنا بإعلانٍ كمال مشيئته الصالحة الأزلية السرية بتَدْبِير تجسد المسيح رَبِّنَا، وكيف رتَّب لنا شفيعاً لكي لا نصير مرفوضين، جسد ودم فادينا، الذي لا يحب أحداً بين سائر المخلوقات بقدر ما يحب خاطئاً!.

٢٨ – لا تتخيل إذاً أنني مزمع أن أدافع عن الخطية إنني أريد فقط أن أوكد قدرة ذاك الذي في السماء يحامي عن الخطأة وأُظهر الرجاء الْعَظِيم المكنوز في الليتورجية التي تقيمها الكنيسة والقوة التي تتفوق كثيراً على كلمة وقدرة سائر المخلوقات، بما أن معرفة جنسنا الضعيف لا تقدر أن تمتلك ولا أن تقترب من حقيقة هذا الرجاء الآن.

٢٩ – ليس أنني أظهر كل هذا الحماس دون أن يُطلب مني ذلك بخصوص قضية الخطية، بل لأنني مأخوذ بالدهش أمام حكمة الله ولأنني منذهل أمام تَدْبِير تجسد المسيح وقوة أسراره، وعندما أتقدم لكي أفهم أتحول إلى الدهش والسكوت، إذ أرى كم هي من كل جانب مفعمة فداءً للناس، بما أنه بهذا التَدْبِير تُغفر خطايا كثيرة لهؤلاء الذين تصرفوا بجهالة وذلك بفضل ذبيحة جسد يسوع التي تُقدَّم لأجلهم وأيضاً من أجله سيكون الحكم مفعم بالرحمة بما أنه من

المستحيل أن يُفرض عليهم ألف عقوبة يستحقونها.

٣٠ – قد لا يحاسب الله أولئك الذين خطاياهم طفيفة لا يُعتد بها، وأيضاً الذين انغماسهم في الخطية عظيم ومتواتر يخفف العقوبات التي يستحقونها بدافع مشيئة الخالق الذي يحب أن يرحم ويتراءف، والذي منذ القِدم قد دبَّر الغفران للذين يضعون رجائهم في دم المسيح ولكن قليلون هم الذين يستحقون لمثل هذا الإيمان ومثل هذه المعرفة بالأسرار في الرجاء الذي يمتلكونه في جسد ودم يسوع.

٣١ – هذه إذاً هي القيامة الحقيقية التي بفضل المعرفة والإيمان الراسخ وبفضل تجديد الذهن يتقبل (منها) أولئك الذين اعتمدوا في المسيح كل ما يشدد فيهم رجاء الدهر الآتي، والمغبوط بولس يقول: "وأقامنا معه وأصعدنا وأجلسنا معه في السماويات" (أف ٢ : ٦) لأن كل إنسان يدخل داخل "السحابة المظلمة" التي للمعرفة وللإيمان ويعرف قوة أسراره يوجد في كل حين في السماء بعقله ويكون جالساً بمعنى سرّي مع المسيح بفضل نظرةٍ دائمة لتَدْبِيره المفعم عجائب.

٣٢ – هذا هو التَدْبِير الذي تحت كل مظاهره وغالباً يُمنح لمختاريه في الأسرار المفعمة رجاءً مشيراً بذلك إلى أننا بعطية من الله نحن نؤمن بالمعرفة الحقيقية للأمور التي ترضي الله ذلك لأنهم يؤمنون به وليس بسبب قوة الطبيعة أو من أجل رغبة أو كفاءة بشرية.

٣٣ – مَنْ هو كفؤ أنْ يدرك مصدر مثل هذه الأسرار؟ هذا الذي ينفتح أمامه باب لمثل تلك الأفهام التي تتدفق كما مِنْ نبعٍ وتفيض بالمسرات لتلذذ نفسه والتي فيها لا يتوقف عن أن يجد أموراً جديدة في كنز ذهنه، هذا هو ما قاله مخلصنا: "من آمن بي كما قال الكِتَاب تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يو ٧ : ٣٨) له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

نهاية المقالة على الأسرار المُقدسة التي لرَبِّنَا، وضعها المغبوط القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني المتوحد والأرثوذكسي الذي كان أسقفاً على مدينة نينوى[١٣٢].

[١٣٢] نُسب لهذا القمص من الأقباري المتوحد.

المَيْمَر الثَّانِي عشر

رسالة تشجيع بخصوص السيرة التوحدية، وعن الخلطة بالجموع، أرسلها إلى أحد المتوحدين طلب منه إرشاداً بهذا الأمر، وعلاقة ذلك بالأفكار التي ضمّنها في سؤاله فيما إذا كان الله سيعاقبه عليها؛ وفيما يحثّه القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي على تسليم نفسه للأحزان التي تصادفه، وعلى استعداد ذهنه لفحص أسبابها المخفية عند الله.

١- يا أخي، يبدو لي أنَّه يكفي لتعزيتك وتشجيعك، وأيضاً لكي يعيد الثقة لنفسك وقت هذه المعاناة التي تعرض لك، ما قد صار واضحاً للجميع، ابتداءً من اللحظة التي بدأت فيها الأيام مسيرتها، ومن قبْل أجيال عديدة، أن طريق السيرة التوحدية هذا، والخروج من العالم المأهول، هو من أجل تهدئة العقل من جهة كل ما اختاره. هذا الطريق يتواصل وينتقل من جيل إلى جيل، لكل من يرغب في راحة ضميره، أياً كان الدافع الذي يدعوه ويحثه على الخورج من العالم.

٢- هكذا هو الحال أيضاً بالنسبة للأحزان والأوجاع الجسدية التي يتعرض لها الناس في كل حين، أو من أجل كل مطلبٍ جيد وكل رغبةٍ صالحة تُحرِّك مشاعرهم، بقوة إيمان لا يعرف الشك: هذا الذي ينبعث في أذهانهم، وهو الذي قال عنه المسيح الرب أنَّ غير المُستطاع عند الناس هو مُستطاع عند الله (مت١٩: ٢٦). والحقيقة أنَّه لمَّا كان من المؤكد تماماً بالنسبة لهم، دون أقل تردّدٍ، أنَّه بالإعتزال الكامل عن العالم وبالخروج منه يحصلون على الحرية من كافة الآلام العارضة، أصبح بمقدورهم اكتشاف الإشتياق الفائق الذي لنفسهم.

٣- ومما جاء في سير حياتهم، يمكننا أن نلاحظ أن الدوافع لخروجهم من العالم كانت متنوعة ولم تكن متشابهة بينهم بوجه عام، وأن قصد ضمائر القدِّيسين وقت خروجهم من العالم المأهول لم يكن هو نفسه لدى الكل، وأن الدافع لخروجهم لم يكن وَاحِداً. ولهذا السبب على كل وَاحِد أن يجد وجهة النظر الدقيقة التي يمكن أنْ تخدمه كمرآةٍ، من بين الدوافع التي كانت تدعوهم إلى هذا الطريق قديماً.

٤- عند البعض، كان الدافع لخروجهم يتمثل في الضعف والشقاء؛ وعند آخرين، الفرح والحمية والمحبة والمخافة وحزن التوبة والمضايقات التي تحصل لهم من الناس ...إلخ، أو من التفكير في الدينونة، أو من أجل التوبة عن خطاياهم. وبإمكانك أن تجد كل هذه الدوافع لدى الذين سبقونا.

٥- والواقع أنه بسبب دوافع متنوعة قد تركوا البشر والمتاجرة في الأشياء البشرية، وخرجوا يتبعون الله، وأسلموا نفوسهم للموت، وصاروا مستحقين لمحبة الله وعنايته بهم، واستقبلتهم نعمته بكل ترحيب.

٦- وعند البعض، كان خروجهم بسبب الإضطهاد من أجل الإيمان، أو الخوف من شرور الناس، مثل أنبا بولا، أول المتوحدين الذي عهد بنفسه إلى الله وخرج وطاف عرياناً في البرية. والبعض قادهم اضطرام محبتهم لله، وبحرارة مشاعرهم، مثل "أُنسيما" الطوباوية التي خرجت عارية هي أيضاً، لأنَّها لم تأخذ معها ثوباً وَاحِداً لتغطية جسدها: فخرجت عارية جسداً وأقداماً. وكثيرون آخرون شوهدوا أيضاً هكذا كما تحدّثت عنهم سيرة حياتهم.

٧- البعض يتركون العالم لأنه يزعجهم بسبب خداع ونفاق سكانه. إنهم يزهدون فيه ويرحلون، مثل هذين الأخوين أولاد أحد النبلاء، اللذين رآهما سيرابيون في البرية. فهو حين سألهما عن الدافع الذي جعلهم يأتون إلى موضعٍ صعب هكذا وأجبرهم على الاحتمال طويلاً لماءٍ بهذه المرارة، أجاباه أنه عند موت والدهما كانت لهما وفرة من الغِنى. ولمَّا نفذ لأن أصدقاء وأحباء كثيرين قد استفادوا منه، عاد هؤلاء وغيّروا سلوكهم معهما، ورغم قرابتهم لهما صاروا أعداءهما.

٨- فإذ قد تحقّقا هكذا من أن الخداع والغدر اللذين ملكا في عالمٍ لم تكن المحبة فيه صادقة أبداً، وأن محبة الله لم تكن مُتأصلة، بل كان أصدقاؤهما متقلّبين تتبدلُ مودَّتهم بكل نوعٍ من الدوافع – والحقيقة أن وَاحِداً في الألف فقط يُحب من أجل الله – فقد اختارا أن يتركا العالم ليعيشا مع الله، الذي محبته لأحبائه لا تسقط أبداً.

٩- آخرون خرجوا من العالم خوفاً من السقوط بسبب خداعٍ وحروب يثيرها الشيطان بتوسط النساء اللاتي يدفعهن لملاقاتهم. فقد تركوا العالم المأهول ولجأوا إلى صحراء نائية، لكي لا يُعرِّضوا طهارة أجسادهم للخطر، كما فعل "مارتينيانوس" الذي، بعد أن أفلت من فخ النساء بحرقه قدميه، لجأ إلى جزيرة وسط البحر حيث يخيم السكون، في غيبة تامة من البشر.

١٠- وما حدث مع "كاربوس" المغبوط يشبه ذلك، وهو الذي رآه القدِّيس سيرابيون في قلايته على قمة أحد الجبال في برية نائية. وكاربوس هذا هو الذي من "بيت كيليرى"، وكان قد تعرَّض لخداع الشيطان عن طريق امْرَأَة الحاكم الذي كان صديقه، حيث كانت تمضي بلا إنقطاع إليه في قلايته لتراه، والتي بفعلٍ من الشيطان كانت تتطلع إليه بأسلوب شهواني...إلخ. هذا بالإضافة إلى المناسبات الأخرى التي كانت يستطيع الشيطان فيها دون توقفٍ أن يُثير في أفكاره المناظر الدنسة التي يصوّرها له بسبب قرب مسكنه. ولكي لا يحدث له شيء ما مكدِّر، ارتحل من هناك، وقصد موضعاً وجد فيه كل ما يحتاجه بما يتناسب مع تقشف معيشته، كما تبيّن من سيرته.

١١- والبعض ممن نهضوا من سيرتهم السابقة في السقطات، سواء بسبب خوف شديد من الدينونة المزمعة، أو لكي يعيشوا أياماً قَلِيلَة في التوبة قبل الموت، خرجوا وهم يائسون من خلاصهم، معتقدين أنه ليس من العدل أن يشفق عليهم أحد – وقد امتلكهم خزي شديد من سوء حالهم. مثل ذلك الناسك الذي خلال ستة أشهر كان يسقط في الخطية مع إحدى العذارى، ولكنه نال الشفاء من تلك المرارة بواسطة ملاك.

١٢- أو مثل ذلك الأسقف الذي ارتد عن الإيمان القويم ولكنه اعتزال في البرية ليقدّم توبة. وقد ذهب هناك دون أن يأخذ معه أي مؤنٍ للجسد، لإعتقاده أنه كان قد أشرف على الموت.

١٣- وأيضاً مثل "يعقوب" الشارد الذي سقط في الخطية. فقد زنى ثم قتل شريكته وألقى جثتها في النهر. ولكنه بعد كل هذا، ارتحل إلى البرية وتشجع بعلامةٍ من الله: وأقام في قبراً مدة عشرة سنوات. لأنه مثل آدام. بقلبٍ منكسر دخل في ذلك الكهف الذي صار له قبراً. وكل ما حصل له ورد في سيرة حياته. وكما قيل أيضاً بكل وضوح أن غذاءه كان من الأعشاب مثل الحيونات، يتناولها مرتين كل أسبوع.

١٤- وهناك أيضاً دوافع أخرى مماثلة من أجلها كثيرون من القدِّيسين اعتزلوا عن الناس، ونزحوا إلى البراري والجبال، بعيداً عن كل مؤونة في متناول أيديهم. وقد احتشدوا في شقوق وكهوف الجبال، أو في حفرٍ عميقة مرعبة، دون أن يفكروا في حياتهم أو يهتموا لأنفسهم بشيء. لقد سكنوا هناك وأضعفوا قواهم الحيوية، في انتظار موتٍ أكيد.

١٥- فإن أردتَ، تَشبَّه بأحد هؤلاء واسلك في إثره، واقتنِ لنفسك الدافع لخروجه. وسواء كنت مثل أولئك الذين انطلقوا بدافع من غيرتهم الملتهبة أو لإدراكهم مُتطلبات العدالة، أو مثل أولئك الذين انتبهوا بسبب هموم هذا العالم، أو بسبب الخوف، أو بفعل توبة أليمة واهتدائهم من الخطية، أو مثل أولئك الذين تملّكهم الخوف فهربوا حتى لا يدنسوا نقاوة أجسادهم. ليت مثال أحد هؤلاء يصلح لتعزيتك، إذ يتلاءم مع قصدك. اتخذه لتعزيتك وقت خروجك وفي الآلام التي تعرض لك، لأنك في مسيرتك لست الوحيد في مجالك.

١٦- لقد قلت هذا ليعيد السلام لنفسك. لأنه بإلحاح دوافع متنوعة قد اذدرى الناس بالحياة وأسلموا نفوسهم للموت، باقتنائهم هذا الفكر، ومن ثَمَّ باختيارهم الموضع المناسب لسكناهم. وليس فقط أنهم نجوا من سخط الله عليهم، ولكنهم صاروا أيضاً مستحقين عناية خاصة بهم من قِبله.

١٧- ذكِّر نفسك بتلك الفتاة الصغيرة، التي كانت قد ارتكبت خطايا كثيرة وأتت أعمالاً شريرة ومهينة جداً، وهي التي ذكرها كاتب سيرة القديس يوحنا حيث قال: "إنَّها بعلامةٍ تقبَّلتها من الله تابت عن خطاياها ومضت إلى مقبرةٍ، ومن الوضح أنَّها ذهبت بدون مؤن ولا ضروريات الحياة، ودون اهتمام بأي شيء آخر. وظلت هكذا تصوم الأسبوع كله، مداومة الدموع والعويل من أجل خطاياها، دون أن تذكر أو تفكر أبداً في معيشتها. أضف إلى ذلك، فقد عانت لمدة ثلاث ليالٍ آلاماً مبرحة، وبعد كل ليلة لم تشغل بالها بمعرفة ما إذا كانت ستعيش أم لا، دون أن يعتريها أقل خوف من الموت.

١٨- إنْ شئت، تمثَّل بها، وسوف لا يطرحك الشيطان في الإهتمام وانشغال البال فيما إذا كنت ستموت أم لا. هوذا أمامك أيقونات تمثِّل كل نماذج الخروج من العالم. كن أنت شهيداً بإرادتك كوَاحِدٍ منهم.

١٩- لَيْتَ هذا أيضاً يطمئنك: إنه صحيح هذا القول الذي يؤكد أنَّه مِنَ المُستحيل أنَّ الذي يرحِّب بأحزان التوبة، ويُعدّ نفسه لإحتمال الآلام المُرتبطة بالحياة الفائقة، ويواجه المعاناة والتجارب بخوف الله – أن يُهمَل من العناية الإلهية.

٢٠- أُسلكْ بالإيمان على طريق الحياة الفائقة، وضعْ رجاءك دائماً على خلاص الله، حتى لا تجلب على نفسك الملامات مثل ذلك الشعب أعمى القلب، الذي وبَّخ النبي عدم إيمانهم، قائلاً: "لأنهم لم يؤمنوا بالله، ولا اتكلوا على خلاصه" (مز٧٧: ٢٢). لأنَّهم بالرغم من رؤيتهم عجائبه كل الأيام والاهتمام الذي أَظهره لهم، لم يكن لهم أقل رجاء في نفوسهم. إنَّ فقدان الرجاء في عناية الله هو بكل تأكيد ما يغرسه الشيطان في الذهن.

٢١- وكما قال أيضاً الطوباوي " ثيؤدور" في شرحه لإنجيل مُعلمنا متّى: "إنَّ اهتمام الشيطان هو أن يقنع جميع الناس بأنَّ الله لايعتني بهم، لأنه يعلم أنه ما إن نعرف يقيناً عنايته بنا، فنحن نحبه ونعمل ما يتفق مع وصاياه. فلنكن إذاً بلا همٍّ في جميع شدائدنا، منشغلين فقط بالسيرة الفائقة. ولنقتن هذا الفكر لكي نتقوى به.

٢٢- "هكذا تعامل الشيطان مع أبانا آدام، بعد أن دبَّر الله كل ما يلزم لمعونته، حيث همس له أن الله يعلم جيداً أنه إذا ما أكل من الشجرة سوف تنفتح عيناه ويكون كالله عارفاً الخير والشر(تك٣: ٥). فلمَّا جعله هكذا يصدِّق أن الله ليس فقط لا يعين بل وأيضاً يقطع عهوداً كاذبة، نجح بسرعة في جعله يتخلى عن حفظ الوصية".

٢٣- أنت إذاً، لا تكن مثل هؤلاء! ينبغي ألا تكون في فكرك أمام الله مثلما كان اليهود، ومثل هذا الشعب. ولا أيضاً مثل طفل، كما فعل أبانا آدام، لكن تمسَّك بالإيمان، فهو الذي، في طريق السيرة الفائقة، يلد الرجاء وسط كافة التجارب والملمَّات. وهكذا، لا تعدم القوة، ولا تكون خائفاً هيَّاباً في ضميرك، بل أكثر جدِّية في طريق التوبة وفي الأتعاب والأحزان، تحتملها من أجل الحياة الفائقة.

٢٤- مَنْ كان ضعيفاً في إيمانه بعناية الله به، يصبح على الدوام خائفاً مُثبط العزيمة في فكره، ومحروماً من الغنى الْعَظِيم الذي للسيرة الفائقة.

٢٥- إذا كان أحد، حال تذكّر خطاياه، يتوهم أنه ليس مُستحقاً لعناية الله – وكل ما هو صالح وجميل فيه – عليه أن يتذكر مراحم الله لكي يتشجع! الثقة الحقيقية في الله تنعش النفس فلا تضعف مهما كانت الأحزان التي تطرأ عليها، وتمنحها صبراً وشجاعة. والإيمان بعناية الله هو نورٌ للذهن، يُشرق داخله بفعل النعمة.

٢٦- التشجيع الذي يصاحب التجارب هو الذي يسند أولئك الذين يسلكون طريق الحياة الفاضلة، بفضل الثقة في إلهٍ قريب يعين الذين يحبونه ويعمل معهم للخير، حسب قول الرسول (رو٨: ٢٨)؛ ولأنَّ الخلاص قريب من جميع خائفيه حسب قول النبي (مز٨٤: ١٠).

٢٧- لأنَّه حتى ولو كنت في الماضي خصماً كبيراً (لله)، فأنت من اليوم تلتصق بمشيئتك بأتعاب التوبة. فالأن أنت عامل البرّ، بما أنَّ نعمة الله ترافقك أينما كنت. وحتى لو أنَّها أسلمتك لتجارب مؤلمة، فهذا لا يعني أنَّها ابتعدت عنك، بل إنَّها ترغب في أنْ تختبر أنت معونتها، وأن تحصل عليها بمخافة الله، وأن تهيء لك وسيلة لاختبار نفسك، وتبرهن على أنَّك من أجلها تحتمل أموراً صعبة. هكذا يوجد في عقلك موضعٌ لحرية الاختيار، ذلك لأنه لا يتسنى لك أن تعيش في راحةٍ تامة دون أن تقتني لنفسك خبرة ما بأمورٍ أليمة تعيشها مع الله، (أمور) تتناسب مع أخطاء الماضي.

٢٨- لَيْتَ الخاطيء الذي أخطأ ودنَّس جسده، والذي أصبح منذ الآن محسوباً ضمن التائبين – لَيْيه لا يسمح لنفسه أن تغتمّ من قِبل خوف الله، طالما أنه لم يقتن بعد داله مع الله، وأنه لم يمتلك بعد يقين القلب، ولا الثقة في غفران خطاياه الماضية.

٢٩- الذي يعرف أنَّه خاطيء وهو يتألم في قلبه لكونه أخطأ، والذي لايخاف لا مِنَ الآلام ولا مِنَ الموت، بل بالعكس يفرح إذا أدركه الموت بينما هو في حزن التوبة ولم يتوقف الألم بعد عن أنْ يعصر قلبه، بل بالأحرى يعتبرها جسارة أنَّه مازال بعد على قيد الحياة ولم يمت في الآلام التي وضعها على نفسه لكي يتوب عن خطاياه؛ وهو بالأحرى يعتبرها خطيئة أنَّ قلبه لم يقتن حُزناً محسوساً مِنْ أجل خطاياه، لأنَّ تذكارها مازال يشغله.

٣٠- الآباء القدِّيسون الذين كانوا يعيشون ببرٍّ فائق، كانوا يفرضون على أنفسهم أصواماً طويلة وصَلَوَات لا تتوقف لأربعة، وخمسة بل وسَبْعةً أيام متوالية. لقد كانوا يُضعفون أجسادهم بصومٍ صارم، ويسكنون مواضع قاحلة، وفي نهاية صومهم كانوا لا يتناولون أيضاً سوى اليسير من الطعام، دون الشبع أبداً، غذاءً بسيطاً زهيداً. وغالباً بدون خبز، حيث كانوا يكتفون بقدرٍ من البقول المُبلَّلة بالماء، أو بثمار الأشجار، كما كُتب عن كثيرين من القدِّيسين أنه هكذا كان غذاؤهم طوال حياتهم عندما ينتهي صومهم، ذلك لأنهم كانوا لا يسمحون بتناول الخبز وكل ما يحتاج إعداده إلى النار. فهم بمثل هذه الآلام المُبرحة كانوا يُذلّلون ويُضعفون أجسادهم كل يوم، وإذ يحسبون أنفسهم أمواتاً لكل هذه الأشياء كانوا يعتبرون ذلك ذبيحة مرضية (ذبيحة شكر) أمام الله. فكم بالأَوَّل يكون هذا لائقاً بإنسان خاطيء!.

٣١- لقد كان الأبرار يؤلمون أنفسهم ويفرحون بالموت الذي كانوا يعتبرونه كذبيحة مرضية عند الله. كثيرون منهم غالباً ما كانوا يوجدون مطروحين على الأرض في قلاليهم أومغائرهم (كهوفهم)، في مواضع نائية ومُخيفة: لأنهم بسبب ابتعادهم وعزلتهم، لم يدرك أحد أنهم كانوا مرضى، ولم يساعدوهم ساعة انتقالهم. فكان يبدو لِمَنْ يراهم أنَّهم كانوا ساجدين يُصلّون، ساعة مفارقة نفوسهم أجسادهم.

٣٢- وآخرون كانوا كثيراً ما يعانون أياماً كثيرة من الثلوج في أماكن وعرة جداً. كما أنَّ البعض كانوا يتألمون من العطش، ولكنهم كانوا يُسبِّحون الله بإبتهاج. فإذا كان هؤلاء الذين لم

يكن العالم مُستحقاً لهم (عب١١: ٣٨)، هكذا كان تصرّفهم مُحتملين مثل هذه الأتعاب، التي من أجلها خرجوا من العالم، ألا يكون من العدل إذاً أن يهتم الخاطيء بنفسه وبالربح الذي يجنيه من حياته المكرَّسة لله!

٣٣- ذكِّر نفسك كل حين بخطاياك لكي تحرسها، حتى بتذكارها تبذل قصارى جهدك تدريجياً على قبول الأحزان ولآلام التي تعرض لك، بفضل الغيرة التي تهبك قلباً مُنسحقاً؛ تألَّم فيما تتذكر عددها وجسامتها. لا تذكر برَّك الماضي وتنسى هلاكك، حتى لا توجد مذنباً دفعتين: مرةً لكونك نسيت دَيْنك أمام الله وغفرانه لخطاياك العديدة والجسيمة، والنعمة التي حباك بها بنسيانه الخطايا الصعبة التي ارتكبتها، ولم يدعْك تهلك، بالرغم من ذلك، بل قرَّبك إليه برأفته وكثرة تحننه.

٣٤- والمرّة الثَّانِية، لكونك حين تعتبر نفسك باراً، تتراخى في جهادك على طريق السيرة الفاضلة، وتبرد همتك مُقابل الأحزان التي يتوجب عليك أنْ تحتملها من أجلها طالما كنت حيَّاً، وتسقط في التذمر وفقدان الشجاعة، وإذ ترتفع تسقط تحت قبضة إبليس، بنسيانك ماضيك الدنس البغيض بهذا المقدار.

٣٥- الذي ينسى مقدار خطاياه، ينسى بالتالي مقدار النعمة التي أظهرها الله نحوه، وإلى أي حدٍّ إذاً هو مدين لله بأن يتألم ويعوض عن ما ارتكبه ضده وسلطانه. والذي يكون أميناً في تذكّره لنقائصه وخطاياه يَعتبر كل الآلام والأحزان التي تعرض له، سواء باختياره أو بالضرورة، شيئاً زهيداً، وإذ يصير متواضعاً، يقدّم الشكر لله من أجلها.

٣٦- هدِّيء أفكارك بتذكار دينونة الله العادلة، فتأتيك التعزية سريعاً في السرِّ، وتحظى بالسلام في جميع أتعابك. وإذا أحاط بك الشر لا تنسَ الخير، وأنت تغلب.

٣٧- وإذا اشتدّت عليك (التجارب) وعذّبتك وأحزنتك في الطريق الفضيلة، ذكّر نفسك بأولئك الذين تألموا وأحتملوا كل أنواع العذابات التي وُضعت عليهم بالقوة، من قِبل العالم كُرهاً، وأَعْطِ المجد لله لأنه جعلك أهلاً أن تتألم أنت طوعاً، من أجل مخافته والخلاص الذي اقتنيته بفضل التوبة بمحبة السيرة الفاضلة والخوف من الخطية، وكل هذا بحرّية إرادتك.

٣٨- وإذا تعذّب فكرك أيضاً، تذكّر الشهداء القدِّيسين الذين احتملوا باختيارهم عذابات كثيرة بمحبة الإيمان، لدرجة أنه لم يكن أي شيء آخر يشغل ذهنهم، واحتملوا بفرح كل هذا بالرغم من أنَّه كان بمقدورهم أنْ يخلصوا بالسعي للحياة في سلامٍ بدون محبة الله. أولئك لم يكونوا رجالاً فقط، بل ونساءً أيضاً وفتيات، الذين هم بطبيعتهم مرتبطين بهذا العالم بالجسد والأشياء الجسدانية. فقد أرهقتهم جميعاً كافة أنواع هذه العذبات التي تفكر أنت فيها الآن.

٣٩- وإذا ذكرتَ الجوع والعطش ولآلام التي احتملها أولئك، وكيف عذَّبهم المضطهِدون أيضاً، بالإضافة إلى الرقاد على الرماد المُلتهب، الذي تحرق حرارته الأجساد، هذه أيضاً احتملوها.

٤٠- لقد قيل عن أحد هؤلاء الشهداء القدِّيسين، أنَّه بعد أنْ عذِّب بطُرق متعددة، نزعوا عنه جلده ومدَّدوه مُعرَّضاً للشمس خلال أيام شديدة الحرارة حتى التهب كله؛ ثم عادوا وقيدوا الطوباوي ومدَّدوه بالليل أيضاً على أرضٍ صلبة ومُلتهبة، وكان هذا من العذابات التي كان يتعرض لها.

٤١- وإذا أردتَ أنْ أذكر لك كيف كانوا يتعرضون للصقيع الشديد بالثلج والجليد، أقول إنَّ كثيرين من هؤلاء القدِّيسين كانوا ينزعون عنهم ثيابهم عندما كانوا يعرِّضونهم للتعذيب أثناء عواصف ثلجية كثيرة، في أماكن شديدة البرودة.

٤٢- وبالأسلوب نفسه أيضاً، كانوا يُعزلون عن أصدقائهم وأقاربهم، ويُبعَدون عن معارفيهم ويعيشون في مواضع مُنعزلة؛ كما أنَّهم كانوا يتألمون بالأشغال الشاقة أو بالسجن لمدة طويلة، محرومين من لقاء جميع أقاربهم وأصدقائهم ومعزّيهم، هذا بالإضافة إلى التعذيب بالضرب وتقطيع الأعضاء والموت على الصليب. وكان البعض يتعرضون للخنق، أو التعلق في الشمس ورؤسهم في أسفل، فوق الجبال، أو على الأبواب أو على الأشجار، بكل قساوة، ويموتون أشنع ميتة. آخرون كانوا يُرجمون، وآخرون فارقوا الحياة وسط آلام مُبرحة، ولقطوا أنفاسهم الأخيرة فيما كانوا يتعرضون لتقطيع أعضائهم، وأثناء عذابات أخرى كثيرة مماثلة.

٤٣- حتى النفس الأخير لم تفتر همّتهم مُقابل هذه العذابات، لا بالفكر ولا بالقول. الكثير من هذه الأمور التي كُتبت احتملتها نساء وفتيات صغيرات كُنّ في العالم مرتبطات بمحبة الجسد وملذاته، ولكنهن احتملن بكل غيرة ونشاط وأظهرن شجاعة منقطعة النظير، وقدَّمن بذلك الدليل على سمو نفوسهن، عندما طُلب منهن احتمال كل هذا من أجل محبة الله، كما كُتب في سيرتهن العطرة.

٤٤- فقد كتب أحد المؤرخين يقول: "في ذلك العصر، الذي فرض فيه الوثنيون الكفار هذه العقوبات على أبناء العهد[١٣٣]، كثير من النساء كُنَّ متزوجات منهم، والبعض كُنَّ من بنات العهد، وأخريات كُنَّ في العالم، البعض منهن أحرار وأخريات تحت العبودية، البعض من الأغنياء وأخريات من الفقراء. لكن ضعف طبيعتهن لم يعقهن عن أن يصبحن شهيرات في الجهاد من أجل مخافة الله، بل مثل بواسل الرجال احتملن بشجاعة، العذابات والآلام المرير التي تعرَّضنَ لها بالضرب على أيدي رجالٍ لا قلب لهم، ومعاناة شدة القسوة بوضعهن في السجون مربوطات بسلاسل ثقيلة، في جوع وعطش، في حرٍّ وبرد، في بؤس وشقاء".

٤٥- التعذيبات والفظائع، كُنَّ يعتبرنها مثل تسلية ما ومسرَّة، ويعترفن بصوتٍ مرتفع بإيمانهن أمام العالم كله: "لا يوجد سوى وَاحِد وحيد هو يسوع الذي من أجله نحن نتألم كما تألم هو من أجل فدائنا". والكفارة الذين كانوا يحيطون بهن مثل شياطين مُفسدين يُقودهن بغير شفقة إلى حتفهن بكل أنواع التعاذيب. البعض منهُنَّ بعد أنْ يتم تعذيبهُنَّ، كُنَّ يُطرحن في أماكن شديدة الحرارة، حتى الموت. وأخريات كُنَّ يُضربن بالسيوف إلى أن يفارقن الحياة.

[١٣٣] لقد كان معظم الناس الذين ماتوا رسل.

٤٦- أخريات أيضاً كُنَّ يُحكم عليهُنَّ بالموت بضرب رمحٍ، والبعض بالطعن بخنجرٍ يخترق أجسادهن من أمامٍ إلى خلف. وأخريات كُنَّ تُقلع أعينهنَ وهكذا يَمُتن. وأيضاً أخريات كُنَّ يتعرضن للرجم بالحجارة حتى الموت. البعض مِنْهُنَّ كُنَّ تُقطع أنوفهن وشفاههن بقسوة بالغة وتمتليء أفواههن بالدم من جراء تحطيم أسنانهن، ويَمُتن. أخريات كان المُعذِّبون يأخذون أولادهن الذين ربَّينهن في الإيمان الحقيقي، بغضبٍ، ويذبحونهم أمام أعينهن، ويسكبون دون رحمة دم أمهاتهم في أفواههم قبْل أنْ يقتلوهم.

٤٧- محبة العالم لم تكن تثني عزيمتهن، ولا محبتهن لأطفالهن، ولا تذكار أحبائهن وأصدقائهن، ولا التعلق بممتلكاتهن ومساكنهن، ولا التخاويف كانت تستطيع أن تضعف إرادتهن. البعض منهن كُنَّ يتعرضن للنشر والتقطيع إلى أجزاء تطرح على جوانب الطرق التي كانت تسير فيها جيوش الملك ...! هذا كله احتملته الطبيعة الضعيفة، طبيعة النساء، وصرن قويَّاتٍ. وأنت أيُّها المُتوحد الفاضل تضجر من الجوع والعطش ومن تذكّر النوم على الأرض، ومن الحرِّ والبرد، ومن ولائم الشياطين!

٤٨- كل هذا كان يحدث بالفعل ولم يعبأن به، ولم يتراجعن إلى وراء! ولكن هنا متوحد يتملكه الآن الخوف لمجرد التفكير فيه، ويتفاخر بجهدٍ زهيد، ولا يتذكَّر أبناءً للكنيسة هذا عددهم، رجالاً ونساء، من جيل إلى جيل كانوا يسلكون بشجاعة وغيرة مُلتهبة، ويلتقون المسيح دائماً! أمَّا هو فتُنهك قواه مُقابل الأتعاب التي قَبِلها طوعاً، في حين أنه بحرّيته قد باشرها والتزم بها في جهاد، فبردت همته متذكراً موته، وصار يخاف من سفك دمه من أجل المسيح!

٤٩- الذين كانوا مرتبطين بالعالم وبمصالحه المادية، قد تركوا العالم وهجروه عندما طُلب منهم ذلك، حتى لا ينكروا الله، ولا يوجدوا مذنبين ولو بكلامهم، في حين أنَّ من كل يُظن أنَّه قد ترك العالم من مدة طويلة، وصار مائتاً لكل ما يختص بأمور جسده، يفزع من الجوع ومن صعوبة الآلام الجسدية، خوفاً من أنْ يموت!

٥٠- إنَّ السماء لَتَدهش لرؤيتها إلى أي حدٍّ تسيطر علينا محبة هذه الحياة، بسبب محبة الملذات السائدة بهذا القدر بيننا. افحص إذاً، يا أخي، ما كتبته لك، ومحِّصه جيّداً في بوتقة ذهنك لكي تحكم بالعدل وتقنع ضميرك وتسكِّنه. إذا كنت ستصمم على أنْ تظل خائفاً من هذه الآلام، وإذا كنت سترتدّ إلى وراء لكي تدوم في وسخ الحياة العالمية، فسوف تشابه أولئك الذين يتملكهم الخوف أمام الآلام، والذين يتنازلون عن الحياة الحقيقية مفضلين الحياة الوقتية عليها.

٥١- ولهذا السبب قال أحد القدِّيسين: "جميع الآلام والمفزعات التي تعرض لك على طريق الحياة الفاضلة، إعتبرها كجلّادين يعذبونك بأمر ملكٍ ظالم مُستبد ورؤساء قساة القلوب، فاحتملها، وصلِّ طالباً المعونة من الله، وذكِّر نفسك بالإكاليل المُعدّة للشهداء الطوباويين، وصرْ مُشاركاً ميراثهم"..

نهاية رسالة القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني

المَيْمَر الثَّالِث عشر

وأيضاً رسالة بخصوص المنازل التي يلج إليها القديسون بفعل لذّة الحركات التي تلاقيهم على الطريق نحو بيت الله.

١ – بالإضافة إلى ما كتبته سابقاً أريد أيضاً أنْ أُعلِمك أيُّها الأخ الموقر، من أين يولد فرح القدِّيسين، وإلى أين يقودهم، وفي أي موضع يتوقف إذا ما وصل إليه القديسون وبأي طريقة يتغير اِعلم يا أخي الحبيب أنه في أي مكان يوجد الفرح بالله فإنه يأتي من حرارة الصلاة فالحرارة هي علة وجوده وحيث لا توجد الحرارة لا يوجد هناك بالتالي هذا الفرح. لكن موضع الفرح هذا ليس شيئاً يُذكر بالمقارنة بموضع الكمال: فموضع الكمال هو المعرفة غير أن الفرح لا يأتي من المعرفة ولكن من الحرارة كما قلت.

٢ – هذا (الفرح) يُوضع بين سمو التدابير النسكية وتلك التي للذهن. أدني من سمو التدابير لا تجد الحرارة ولا الفرح وأعلى من سمو الذهن لا توجد أيضاً الحرارة ولا الفرح وذلك لأنه أدنى من سمو التدابير (النسكية) تملك البرودة وأنه أعلى من فضيلة الذهن يوجد موضع سكون الأسرار. حقاً إنه عظيم هذا الفرح في الله غير أنه أدنى بكثير من الحركات (الخواطر) والتعزيات التي يجلبها الرُّوح الْقُدُس.

٣ – إذاً ابتداء من اللحظة التي يشرع فيها أحد في أعمال السيرة الفاضلة أمام الله تنبع فيه الحرارة والفرح وبصحبتهما يتقدم منذ الأن حتى يدرك سيرة الذهن التي تشمل النور الذي يتقبله واستعلان الخفيات وإذا وصل إلى هذا الموضع تبدأ حينئذ حركات الفرح في التناقص إلى أن تنطفيء فيه ذلك لأنه يكون قد اقترب منذ الآن من راحةٍ مُعيَّنة.

٤ – وحينما يدركها إذا ما نزل إلى الأعمال الفاضلة يعود إليه فرحه وعندما بفضل تلك الأعمال الفاضلة يقترب من جديد قليلاً قليلاً، من سيرة الذهن يتوقف الفرح في الوقت نفسه لا تتعجب إذا كنت كما قلت لك عندما تبلغ سيرة الذهن تبدأ الحرارة تهدأ ويتوقف الذهن عن أن يفيض بالفرح.

٥ – من بين الأمور الإلهية يوجد أمرٌ أكثر تفوقاً من الفرح: وهو دهش الأفكار حقيقةً إنه عندما يبدأ العقل في التقدم نحو الأمور الخفية يبدأ كذلك يتأثر بدهش الأفكار هذا وبقياس تقدمه يتقبل قوة إلى أن يصل إلى ما قاله القديس بولس: "أفي جسدي أم خارج جسدي لست أعلم" عندما تحدث عن انخطاف عقله (٢كو ١٢ : ٢ ، ٣).

٦ – ليس فجأة وليس دفعة وَاحِدة ولا لمرةٍ وَاحِدة يدنو المرء لمثل هذا الكمال ولمثل هذا العمل، بل إن النفس تستضيء أولاً بالأسرار الأقل، وبعدئذ تثبّت نظرتها بالذهن في دهش الأفكار منذ اللحظة التي يبتديء فيها العقل أن يتقبل النور ويتدرج في الأمور الخفية هذا الدهش (أيضاً) يزداد جزئياً حتى يصل إلى كمال ذهن بولس الرسول الذي يعطيه المفسر اسم

"استعلان واضح بخصوص الله" يُمنح للآباء المتوحدين.

٧ – هنا تكون قمة الاستعلانات عن الله وقبل هذا توجد معرفة السر وبإمكان الذهن أن يدنو من هذه الحقائق الجزئية بقوة الرُّوح الْقُدُس التي يمنحه إياها من وقتٍ لآخر، عندئذ يتقوى تَدْبِيره بالرُّوح نفسه ويتقدم في كل مرة نحو سكونٍ معيَّن لكي يوجد فوق الأفكار المألوفة وحركات الفرح غير أنه ينبغي أن نعرف أن المرء لا يظل هكذا دون توقف ذلك لأن مثل هذه الهبة الدائمة بلا انقطاع هي محفوظة لنا في الدهر الآتي ورجل الله إذاً لا يفقد الفرح والحرارة تماماً ولكنه في كل مرَّة يدخل فيها ذلك المسكن يرتفع فوق كافة الأمور الطبيعية.

٨ - إذا حدث أن تواجد مُجدداً وسط الأمور الطبيعية مثل التأمل والأفكار والأعمال النسكية والصلاة وما إلى ذلك فإنه يمكث فيها بحرارةٍ وفرح ولو أنها مواضع ينبغي له أن يتجاوزها، إنه يقيم فيها بحسب قياس تَدْبِيره تارةً بقرب الأمور الطبيعية وتارةً أخرى في المواضع التي هي أعلى من الطبيعة إذا ما صار حراً من جميع الأمور الطبيعية ومن شهوته الخاصة بمعونة تَدْبِير نعمة الرُّوح الْقُدُس.

٩ – وبحسب ما قاله الآباء فإنه توجد ثلاثة منازل للمعرفة يتداخل فيها الذهن في تدرجه: منزلة الطبيعة، والتي خارج عن الطبيعة، والتي فوق الطبيعة.

١٠ – عندما يتقدم الذهن وسط الأمور الطبيعية التي تتضمن العمل النسكي والأعمال الخاصة بالسيرة الفاضلة التي تحدثت عنها فيما سبق، يوجد أيضاً وسط الفرح والحرارة في كافة الجهادات، والظلمات، والمجاذبات، والأوجاع التي ترهقه، وجميع الأشياء التي تصاحب الأمور الطبيعية. ولكنه متى دخل في الموضع الذي هو خارج الطبيعة، بإهماله تدابير السيرة الفاضلة مستسلماً للأهواء وللخطية، يوجد مرَّة أخرى في برودة عظيمة وفي الكآبة التي تصاحب كل من يهمل الأعمال الحسنة ويستسلم للأوجاع؛ هذا هو الموضع الذي تبرد فيه الهمم ويتملك فيه اليأس في غياب كل حرارة وكل فرح.

١١ – أمَّا إذا ارتقى فوق الطبيعة، بفضل سمو الأمور التي تعتمد عليها النفس يرتفع الذهن فوق الأوجاع والقتالات، وفي الوقت نفسه فوق العمل النسكي، وبفضل هذا التأمل المرتفع في الله يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرى وهو مأخوذ بالدهش، ما هو مرتفع جداً فوق جميع الحركات وهو ما يقوم على التحرر من كل ما هو على الأرض وعلى صفاء الذهن الذي يعلو على النطق.

١٢ – جميع هذه الأمور توجد داخل نور الذهن لأنه بدأ يدرك هذا النور من اللحظة التي بدأ فيها الجهاد مقابل الأوجاع، وهو الآن على وشك التغلب عليها. وبقياس ما ينتصر عليها، هكذا يُسكتها ويتقدم في نور الذهن وتنكشف له الأمور الخفية. إنه إذاً بعد النصرة على الأوجاع يبدأ الذهن أن يستنير، وبقياس هذه النصرة يمكن للمرء أن يتحقق أن السلام قد ملك هناك.

١٣ – من تلك اللحظة يتقدم في رؤية الأمور الخفية ويدنو بلا انقطاع من دهش الأفكار. درجة الفرح بأمور الله هي للآن كدرجة طفل. لماذا يكون الفرح قريباً فقط من درجة الكمال؟ ولو أن

رؤية الله شيء عظيم هي، إذا كان المرء يفرح لسبب معقول وليس لأسباب سخيفة، غير أن كمال الذهن هو أعظم بكثير من الكل.

١٤ – وهكذا أيضاً أن نفهم هذا من الأمور الطبيعية حيث نجد أن الشباب تلتهب طبيعتهم وتتضرم فوراً بالفرح بسبب أشياء ليست بذات أهمية لكنهم يتغيرون أيضاً بسرعة بصورة عكسية طالما كان شبابهم لم يصل بعد إلى قياس سن الرشد حيث يقتني بالأحرى حركات هادئة وأكثر اتزاناً، والشيء نفسه يحدث لخواص الله (أي الذين ينتمون إلى بيت الله) في كل مرة يتقدم المرء نحو المعرفة ويحس بالله، تتضع أفكاره وتهدأ وينظر مجد الله وهو مأخوذ تماماً بالدهش وبسكوتٍ لا يعبَّر عنه.

١٥ – ثم يستحوذ عليه شعورٌ بالتوقير لدرجة أن فكره لا يرتفع ولا يجرؤ أن يتطلع إلى عرش الجلالة كما تعلَّمنا مما أعلنه النبي لنا بخصوص السيرافيم الذين ينشدون الثلاثة تقديسات (إش ٦ : ٣) إنهم يغطون وجوههم بأجنحتهم حتى لا يتطلعون بجسارة زائدة إلى شعاعات المجد الإلهي هكذا يحترس الذين يبلغون إلى معرفة الله هذه التي تقوم على الاحساس والذين كمن يمتلكهم الدهش يتطلَّعون إليه هذا ما يذكره أيضاً القديس يوحنا الذي من أبامية.

١٦ – " ما يتبقى من النفس عندما ترتفع فوق حركات الأوجاع يتحول إلى سكوت وترى الأمور الخفية وكيف أن معرفتها هي في أمور الرُّوح "ويقول أيضاً" والنفس عندما تجلس في السكون تحسّ بأمورٍ تفوق الوصف" كما أن درجة الفرح تكون أيضاً بقياس الطفولة، إذا قورنت بالمسرات التي تصدر عن الإحساس الذي يتحرك بفعل الرُّوح الْقُدُس بخصوص معرفة طبيعة الله . "يا لعمق غني أسراره وحكمته..." (رو ١١ : ٣٣) التي يمكن للمرء أن يرسِّخها في الذهن، عندما تتوقف كثرة الأقوال التي تصدر عن الحرارة الطبيعية لهذه الحركات، في ميناء الرَّاحَة الذي هو معرفة هذه الأمور.

١٧ – إنني لا أتحدث عن المعرفة التي تأتي من حركة ما صادرة عن العقل أو عن جزء المعرفة في الإنسان، بل من إحساسٍ يُسكِّن الملَكة العقلية بعذوبةٍ تشكِّل جزءاً من الدهش ويُقرِّبه من الهدوء والسكينة بعيداً عن مسار أي فكر أيّاً كان في هذا السر، إذا كانت تدابيرنا تستحقه، نوجد في ملكوت السموات. هذه هي مذاقة الكمال المزمع الذي هو موضوع هذه الحياة بشكلٍ سري، وأيضاً مجازي ،عندما يتعلق الأمر بالفرح بصفته المذاقة الموجودة في عربون الملكوت، للذين لا يكونون قادرين بعد على فهم ما يختص بدرجة الكمال حتى ولو كانوا بواسطة هذه المذاقة يمكنهم أن يفهموا هذه الأمور التي هي أعلى من قامتهم.

١٨ – هكذا من اللحظة التي يبتدئ فيها الذهن أن يستنير ويكون القتال وضجيج الأوجاع التي تجذب النظر من جراء التشتت الحاصل من الأفكار الباطلة، قد بدأت تهدأ قليلاً وتصمت، يملك الدهش الأفكار فتبدأ تثبّت نظرتها بفعل نور الذهن الذي أصبح من الآن في حالة المعرفة.

١٩ – كم من مرة في اليوم تنبثق حركات الدهش عند مِثل هذا الإنسان وينجمع ذهنه داخله ويصير صافياً ويملك في راحة وفي هدوء وفي الدهش! وهذا يمكن أن يحصل سواء في وقت الصلاة أو في وقت الخدمة مَنْ هو الذي بإمكانه أن يعرف الحلاوة الفائقة التي لهذا السكون وهذا الصفاء إلا أولئك الذين ترسَّخوا فيه؟ في البداية لا يدوم تجميع الذهن هذا سوى جزءٍ من الساعة يعود بعدها الذهن إلى وضعه، إلى أن تبدأ حركات أخرى تنبثق فيه من جديد.

٢٠ – ويطول به المقام هنا بحسب مقداره فليس في كل حين عندما يشاء ولا بقدر ما يسعى يدرك الذهن هذا، مهملاً تلاوة المَزَامِير لكنه يحدث أنه في اللحظة التي يبدأ فيها الخدمة، يُكرَه لسانه على التوقف والسكوت، بفعل حركات الدهش التي تجعل النظر يستقر في الذهن، حتى أن الآيات تختفي من أمامه، فلا يمتد أكثر من ذلك في التلاوة، لأن الذهن قد توقف وأُرغم على الهدوء.

٢١ – وهكذا لا يعود المرء قادراً على ترتيل المَزَامِير أكثر من ذلك، لأن نظر ذهنه قد سُلب بعيداً بعيداً عنها، وتحوَّل باتجاه الأمور الخفية التي نبعت داخله. إنه لم يعد تحركه الأفكار العادية بل الأفكار المدهشة التي تفوق الوصف. أما إذا توقف أحد بإرادته عن خدمة التلاوة والصلاة دون أن يكون قد أحسّ بذلك بعد، فإنه يمتلئ بأفكارٍ رديئة، وتتسلط عليه الطياشة في الأمور الباطلة.

٢٢ – جمع الفكر ونظر الذهن يُولدان من عزلة تامة عن الناس بفضل حراسة الأفكار والجهاد مقابل الأوجاع وكما قلت إنه متى حصل جمع الفكر وحركات الدهش هذه في البداية لا يدوم هذا سوى لوقتٍ قصير ثم يعود الذهن بعد ذلك إلى ما هو عادي له إلى أن تدركه حركات أخرى مُجدداً.

٢٣ – إذا ما وصل المتوحد إلى هذه الدرجة وبدأت تمتزج عذوبة ما بعمله الخفي أمام الله تُرفع عنه الكآبة بدرجة كبيرة فلا يعود تبرد همته أو يغتم من السكون ولا من العزلة الطويلة من الناس كما كان يحدث له أحياناً ذلك لأن مباهج فكره وتعزية قلبه تُبعد وترفع عنه مثل تلك المنغّصات وما لم يتقبل المتوحد هذا العزاء الخفي لا يخف عنه ثقل الكآبة.

٢٤ – أمَّا إذا استرد أنفاسه قليلاً أو كثيراً فالوجه الشاق للسيرة التوحدية يختفي من أمام عينيه لقد قلت هذا من قبل، ومازلت أكرّره هنا، لأساعد بوجه خاص أولئك الذين يتوقون إليها بكل نفسهم: هذه التعزيات وهذا الإحساس تنبثق عندما تنسكب النعمة على الذهن ويلبس قوة الرُّوح الْقُدُّوس.

٢٥ – هذه القوة هي قوة سرّية (من الرُّوح الْقُدُّوس) لا تأتي من دراسات ولا من إعمال الفكر بشكلٍ اعتيادي. فهي تصل إلى المتوحد بقياس ما يضبط أوجاعه ويبتعد عن العالم ليقيم في السكون والبعد عن الناس.

٢٦ – لَيْتَ الربّ يمنحك ما لا يمكن أن تعرفه من القراءة العادية وحدها، بل ما تحس به وتتذوقه بخبرتك الشخصية وبنعمة الرُّوح الْقُدُّوس الساكن في ذهنك. آمين.

المَيْمَر الرَّابع عشر[١٣٤]

على إفرازات كثيرة في الصلاة، وعلى سلطان العقل، وإلى أي حد له سلطة أن يحرك حركاته الإرادية بتغيير أشكال الصلاة؟ وما هو الحد الذي وُضع للطبيعة في الصلاة الذي إذا وصل إليه لم يعد له سلطان أن يصلّي بعد؟ وإذا ما عبر هذا الحد لم تعد الصلاة تدعي صلاة، وإن كان هذا الشيء (الجديد) الذي يكون عندئذ يدعى صلاة لأنه يشبهها.

١ – السبح للذي قد أفاض مواهبه بغنى على جنس البشر! ومع أنهم جسديون فقد جعلهم يخدمون برتبة الطبائع غير المتجسدة وهم بعد على الأرض، وأهَّل طبيعة الترابيين أن تتكلم عن مثل هذه الأسرار، وبالأكثر الخطأة مثلي أنا الذي لا استحق ولا لسماع الكلام عن شيء من هذه الأمور لكنه بكثرة انعامه فتح عيني قلبي لكي أفهمها من تصوّر الكُتُب ومن تعليم الآباء الكبار.

٢ – فإني لم استحق من حرص ذاتي (أي اجتهادي) أن أحصل على خبرة وَاحِدة من آلاف مما أكتب وبالأكثر في هذا المَيْمَر الذي أقوله لأجل اجتذاب ونفع كثيرين وتنوير نفسي والذين يصادفونه لعلنا ننتبه بشهوة هذا الشيء وندنو من العمل (وما هو هذا الشيء؟).

٣ – اللذّة التي تكون بالصلاة هي شيء أما النظرة في الصلاة فهي شيء آخر والثَّانِية أفضل من الأَوَّلي كأفضلية رجل كامل على طفل صغير فالتلذذ بالصلاة يكون حين تحلو الألفاظ (المَزَامِير) في الفم، وكل لفظة من الصلاة يتلوها الانسان بلا عدد ولا يعرف الشبع منها ولا أن يتركها ليعبر إلى لفظة أخرى، والنظر في الصلاة يكون حين تتولد من الصلاة ثيوريا وتصوّر ما، وتقطع الصلاة من الشفتين ويكون ذلك الشخص المنجذب بنظرتها كجثة لا نفس فيها بالتعجب – وهذه ندعوها "النظر في الصلاة" وهي ليست شبهاً ما أو شكلاً يتصوّر حسب جهل الجهلاء ويضيفون أن هذه هي أيضاً تأمل في الصلاة (وهذه الثيوريا التي تحصل في الصلاة) فيها أيضاً منازل وأنواع مواهب وحتى إلى هذا الحد فهي مازالت صلاة لأن الفكر لم يعبر الحدَّ بعد ولا وصل إلى ذلك الشيء الذي هو أفضل من الصلاة لأن حركات اللسان والقلب هي مفتاح لذلك الشيء الأفضل، ومن بَعد يكون الدخول إلى بيت الكنز.

٤ – ومتى وَصَل هناك، عندئذ تهدأ كل الأفواه والألسن، والقلب كنز الأفكار، والذهن مدبِّر الحواس والضمير الطائر الرشيق الخفيف المتجاسر، وكل التخيلات واستعمالاتها والتضرع، هذه تتوقف ههنا، لأن، صاحب البيت قد أتى!

٥ – كما أن قوة السنن والوصايا التي وُضعت للبشر من قِبل الله، حدُّها هو زكاوة (أي نقاوة) القلب حسب قول الآباء، هكذا جميع أنواع وأشكال الصلاة التي يصلي بها الناس أمام الله، حدُّها هو الصلاة النقية فالتضرع والحزن والسجود والابتهالات القلبية والدموع الحلوة وجميع أنواع

١٣٤

الصلاة الأخرى حسبما ذكرت، حدّها وسلطة حركتها هو الصلاة النقية وهي كلها في مقدور الإنسان أن يقتنيها ومن نقاوة الصلاة إلى ما هو داخل إذا ما عبر الذهن هذا الحد، لا يكون بعد للضمير صلاة ولا حركة ولا دموع ولا سلطان ولا حرية ولا شهوة ولا اشتياق إلى شيء مما يُرجى ويُنتظر في هذا العالم أو في العالم المزمع.

٦ – ولهذا لم تعد الصلاة النقية بعد صلاة، لأن جميع حركات الصلاة وأشكالها توصل العقل إلى هذا الحد بسلطان حريتها ولأجل هذا يكون فيها جهاد وعناد. ومن بعد هذا الحد لا يبقى سوى دهش وتعجب وليس صلاة. وتتخلف الصلاة من هذا الوقت والعقل ينظر نظراً ولا يصلي صلاة.

٧ – لأنَّ كل أنواع الصلاة تكمل بالحركات النفسية وبها يكون تحريكها فإذا ما دخل الذهن إلى الحركات الرُّوحانية لم تعد هناك صلاة لأن الصلاة هي شيء والثيؤريا أي التصوّر بها شيء آخر وإن كانت كل منهما علّة للأخرى.

٨ – أمَّا تلك (أي الصلاة) فهي بذار وزرع وأمَّا هذه (الثيؤريا) فهي حمل الأغمار (أي حُزم الحصيد) لأنه بالنظرة غير المنطوق بها يدهش الحاصد ويتعجب، كيف من حبوب حقيرة عارية (أي البذور)، نبت قدامه بغتة أيُّ سنبل مجيد، فيتوقف عندئذ بنظرته عن كل حركة.

٩ – إنَّ كل صلاة هي طلب شيء أو ابتهال أو تمجيد أو شكر، فتّش وافحص إن كان العقل عندما يخترق هذا الحد ويعبر إلى تلك البلدة يكون فيه طلب شيء ما من هذه الأنواع، وسؤالي هذا هو لمن يعرف الحق لأن هذه الإفرازات ليست هي لكل من يبحث عنها، بل للذين قد صاروا هم أنفسهم ناظرين وخداماً لهذه الأمور، أو لمن تربّوا قدام آباء عارفين بها، وقبلوا الحق من أفواههم، وبهذه المفاوضات أمضوا كل أيام حياتهم بأسئلة وأجوبة على حقيقة هذا الأمر.

١٠ـ كما أنه بعد جهد تجد وَاحِداً من بين ربوة من الناس قد أكمل السنن والوصايا أُهِّل لنقاوة النفس هكذا أيضاً تجد وَاحِداً من بين كثيرين قد استحق – بعد حِفظٍ واحتراس كثير – للصلاة النقية واخترق هذا الحد واستحق هذا السرّ ليس كثيرين يستحقون حتى الصلاة النقية بل أفراد قليلون أما السر الذي هو بعدها ومنها يمتد إلى فوق فبعد جهد قد تجد وَاحِداً بين كل جيل وجيل قد دنا من هذه المعرفة بنعمة الله.

١١ – الصلاة هي تضرع وهذيذ واشتياق لشيء ما، أو للخلاص من الشرور الحاضرة أو شهوة المواعيد أو طلب شيء ينتفع به الانسان ويجد عوناً من الله بهذه الحركات تنحصر وتُحد كل أنواع الصلاة، أما طهارة الصلاة أو عدم طهارتها فهي هكذا: إذا بدأ العقل في هذه الأوقات أن يذبح (= يقدّم) احدى حركاته التي ذكرناها واختلط معه فكرٌ غريب أو طياشة بشيء من الأمور، تُدعى هذه الصلاة غير طاهرة لأنه أصعد على مذبح الرب – الذي هو القلب والقائمة العقلية (تك ٢٨ : ١٨) – ذبيحة من الحيوانات التي لم يأذن بها الناموس.

١٢ – أما إذا غاص العقل باشتياق بشيء من حركاته إلى الداخل في وقت التضرع تحت اضطرار الباعث ولأجل الاشتياق الكثير ينجذب نظر حركته بعين الإيمان إلى داخل حجاب باب

القلب هذا الحجاب الذي تتسيَّج به مداخل النفس مقابل الأفكار التي تُدعى "الغرباء" وهى التي لم يُؤذن بدخولها إلى داخل قبة الشهادة (خر٤٤ : ٩)، فهذا هو ما يُسمَّى ذبيحة "القلب المقبولة" و"الصلاة الطاهرة" وحدودها إلى ههنا ومن ههنا إلى فوق لا تُدعى بعد صلاة.

١٣ – وإن ذكر إنسان ما يسميه الآباء "صلاة روحانية" ولم يفهم قوة (أي معنى) كلامهم وقال إن هذه هي أيضاً ضمن حدود الصلاة فلو أنه وصل إلى حقيقة الفهم لأدرك أن القول بأن الصلاة الرُّوحانية هي صلاة يُصلَّى بها، هو تجديف، لأن كل شيء يُصلَّى بالصلاة هو أدنى من بلد الرُّوحانية وكل شيء روحاني هو مرتفع عن حركة الصلاة.

١٤ – فإن كان بعد جهدٍ يقدر الإنسان أن يصلي صلاة طاهرة فماذا نقول عن الصلاة الرُّوحانية؟ إن من عادة الآباء أن يدعوا كل حركة فاضلة وكل انفعال روحاني بإسم الصلاة، وليس الآباء فقط بل كل من استناروا بالمعرفة يعتبرون حتى الأعمال الصالحة أنها صلاة، بينما أنه من الواضح أن الصلاة هي شيء آخر غير الأعمال التي تُعمل أما هذه (أي الصلاة) فهي تُدعى في بعض المواضع "صلاة روحانية".

١٥ – وهي تُسمى أحياناً "طريق" (أو تأمل) وأحياناً أخرى "معرفة" والبعض يسميها أحياناً "استعلان المعقولات" انظر الآن كيف يغير الآباء أسماء الأمور الرُّوحية إن هذه التسمية بالأمور الحاضرة تتم هنا، أما أمور العالم الجديد فليس لها أسماء حقيقة بل معرفة وَاحِدة بسيطة مرتفعة عن كل الأسماء والعلامات والصور والألوان والأشكال والصفات المركَّبة ولهذا إذا ما ارتفعت معرفة النفس عن دائرة هذا العالم المنظورة، فإن الآباء يستعملون الدلائل (أي الإشارات) من أجلها حسبما يريدون أما الأسماء الحقيقة فلا يعرفها أحد لكنهم يسندون إليها التسميات والأمثلة المختلفة بحسب حاجة الأفكار النفسية.

١٦ – أمَّا نحن، فنستخدم هذه التسميات حسب معناها الصحيح، وذلك حسب قول القديس دِيُونِيسِيُوسُ: "إننا نستعمل العلامات والدلائل والحروف ومقاطع الكلام بما يتناسب مع الحواس ولكن إذا ما تحركت نفوسنا بالإلهيات بفعل الرُّوح تصبح الحواس وعملها زيادة وفضلة وبالمثل فإن حركات الرُّوحانية التي للنفس تصبح لا حاجة لها إذا ما صارت أنفسنا شَبه اللاهوتية بالاتحاد غير المدرك حيث تشرق بإشعاعات النور المرتفعة بحركاتها التي بلا أعين".

١٧ – لهذا يا أخي فلتعرف يقيناً أن العقل ليس له سلطان أن يميز حركاته إلا إلى حدود الصلاة الطاهرة، وإذا وصل إلى هناك فهو إما يرجع إلى وراء أو يتخلف عن الصلاة لأن الصلاة تكون له (من الآن) كوسيط بين النفسانية والرُّوحانية فطالما تحركت (الصلاة) فهي في بلد النفسانية وإذا ما دخلت ذلك البلد الرُّوحاني بطلت الصلاة فيه كما هو الحال عند القديسين في العالم الجديد إذ يُبتلع العقل بالرُّوح فهم لا يُصلّون صلاة (هناك) بل يُقيمون بدهش ذاك المجد المبهج.

١٨ – هكذا أيضاً إذا أُهِّل العقل للإحساس بتلك السعادة المزمعة، فهو ينسى ذاته وكل الأشياء الحاضرة ولا تكون له منذ الآن حركة بهذيذ أي شيء من الأشياء ولهذا يجسر الإنسان أن يقول

بثقة إن حرية الإرادة هي التي تُحرِّك وتُدبِّر كل فضيلة وكل رُتب الصلاة سواء كانت بالجسد أم بالفكر بل وتحرك العقل الذي هو سلطان الحواس.

١٩ – ولكن حالما يتسلط تَدْبِير الرُّوح على العقل – مُدبِّر الحواس والأفكار- تُرفع الحرية من الطبيعة ومنذ ذلك الحين يخضع العقل لتَدْبِير آخر، ولا يكون هو الذي يدبِّر نفسه بعد فكيف يمكن الصلاة في ذلك الوقت الذي لا يكون فيه للطبع سلطان على ذاته لأنه ينساق ويتدبر من قوة أخرى إلى حيث لا يدري ولا يكون هو (العقل) يقوِّم ويصوِّب حركات الفكر كيفما شاء ولا حيثما أراد؟ لأنه يملك على الطبع في ذلك الوقت سُباتٌ يخطفه حيث لا يعود يحس بشيء.

٢٠ – وهكذا فإنه لا تكون للإنسان في تلك الساعة لا إرادة ولا مشيئة ولا يعرف بالتالي إن كان هو بالجسد أو بغير الجسد حسب شهادة الكِتَاب (٢كو ١٢ : ٢) فأي صلاة تكون هذه للذي قد سُبى هكذا وهو لم يعد يعرف حتى نفسه؟ ولهذا لا يجدف أحد ويجسر أن يقول إن الصلاة الرُّوحية في الإمكان أن يُصلَّى بها بهذا يتكلم جماعة "المُصلِّين" المخدوعين عادمي المعرفة ويكذبون على أنفسهم مُدَّعين أنهم يقدرون أن يُصلّوا بالرُّوح عندما يريدون.

٢١ – أمَّا المتواضعون ذوو الفهم، الذين ينحنون ليتعلموا من وعظ الآباء الْعَارِفِين حدود الطبيعة فإنهم لا يسمحون لأنفسهم بهذه الوقاحة ولأي سبب تسمى هذه الموهبة غير المنطوق بها صلاة، إذا لم تكن هي صلاة؟ ينبغي أن نقول إن السبب في ذلك هو لأنها تحل على المستحقين لها في وقت الصلاة ويكون منشأها من الصلاة فبحسب قول الآباء لا تحل هذه الموهبة إلا في وقت الصلاة.

٢٢ – ولماذا تُدعى باسم "صلاة"؟ لأن العقل يُختطف من الصلاة لهذه السعادة ولأن الصلاة تكون هي السبب في وصوله ولا يمكن أن تحل في أي وقت آخر حسبما نفهم من كُتُب الآباء فقد جاء في سيرتهم أنهم كانوا عندما يقفون للصلاة كانت عقولهم تُختطف.

٢٣ – وإن سأل إنسان لماذا في هذا الوقت فقط تكون هذه المواهب الْعَظِيمة الفائقة الوصف؟ نقول: لأنه في وقت الصلاة – أكثر من كل الأوقات – يكون عقل الإنسان مجموعاً إليه وشاخصاً إلى الله ومنتظراً بكل اشتياق أن تأتيه الرحمة من عنده وأقول باختصار إن هذا هو الوقت الذي ينبغي أن يقف فيه (الإنسان) على باب الله ويسأل وفي هذا الوقت يليق أن تُعطَى للسائل المتضرع طلبته.

٢٤ – فأي وقت آخر يكون فيه الإنسان مستعداً محترساً مثل وقت الصلاة؟ أ لعله في وقت نومه أم إذا كان يباشر عملاً ما، أم عندما يكون عقله مشتتاً يؤهل لهذه الموهبة؟! إلا أن القديسين لم يكن لهم وقت يوجدون فيه بطالين (من العمل) لأنهم كانوا في جميع أوقاتهم يتفاوضون في الأمور الرُّوحية أي عندما لا يكونون مستعدين للصلاة.

٢٥ – فكثيراً ما تجدهم منشغلين في قراءة سير القديسين أو في تأمل أقوال الكُتُب المُقدسة أو يتصوّرون بعقولهم ثيوريات المخلوقات أو أشياء أخرى تُعتبر هذيذات فاضلة نافعة ولكن في

وقت الصلاة (بوجه خاص) تجد نظر عقلهم يشخص في الله وحده وإليه يمدُّ ويوجِّه كل حركاته ويقدِّم له التضرع العقلي متواتراً بحرصٍ وحرارة ولأنه في هذا الوقت بالذات حين لا يكون في النفس سوى هذيذ وَاحِد فريد يكون مناسباً أن تفيض عليه المراحم الإلهية.

٢٦ – إننا نرى أنه في الوقت الذي يكون فيه الإنسان واقفاً مستعداً باحتراس، وهو يتضرع بالصلاة وعقله مجموع إليه يحل الرُّوح الْقُدُّوس على الخبز والخمر الموضوعين على المذبح، وأيضاً وقت الصلاة ظهر الملاك لزكريا وبشَّره بالحبل بيوحنا، والقديس بطرس حينما كان يصلّي على السطح وقت الساعة السَّادِسة ظهر له الاستعلان يعرِّفه بدعوة الشعوب إلى الإيمان بشكل ملاءة مدلّاه من السماء ملآنة بالحيوانات.

٢٧ – وأيضاً كرنيليوس في وقت الصلاة ظهر له الملاك وقال له الأمور المكتوبة عنه، ويشوع بن نون أيضاً تكلم الله معه عندما كان يصلي وهو منطرح على وجهه، وأيضاً الطاس الذي كان موضوعاً فوق تابوت العهد الذي كان رئيس الكهنة يعلم منه بالاستعلان الأشياء الضرورية عندما كان يدخل مرة وَاحِدة في السنة في وقت الصلاة، وكل أسباط إسرائيل واقفون بخوفٍ في الصلاة بالقبة الخارجية في ذلك الوقت المرهوب كان عظيم الأحبار يدخل إلى القدس الداخلي ويقع على وجهه، ويسمع أقوال الله من ذلك الطاس الذي فوق تابوت العهد باستعلانٍ مخوف جداً.

٢٨ – كم كانت تلك الأسرار الحادثة في ذلك الوقت مرهوبة جداً ! هكذا أيضاً جميع الاستعلانات والمناظر التي كانت تظهر للقديسين كانوا يحظون بها في وقت الصلاة لأنه ليس هناك وقت يكون أقرب وأوفق ويليق به التقديس وقبول المواهب مثل وقت الصلاة لأنه فيه يتكلم الإنسان مع الله لأنه في وقت الطلب والتضرع والكلام مع الله تكون حركة الإنسان وفكره منجمعة إليه بتغصّبٍ كثير، وبالله وحده فقط يهذّ ويشخص، ويُبتلع ضميره بالكلام معه، ويكون قلبه مملوءاً فيه.

٢٩ – من ههنا يجود الرُّوح الْقُدُّوس على الإنسان بأفهامٍ غير مُدرَكة حسب منزلة كل وَاحِد وتتحرك فيه ويأخذ منها مادة – أعني من ألفاظ صلاته – ليحرّك فيه الأفهام، حتى أنه بفعل هذه الأفهام تنقطع الصلاة من الحركة ويُبتلع العقل بالدهش وينسى شهوة الشيء الذي كان يطلبه وتغوص حركته في سكرٍ عميق وكأنه لم يعد موجوداً في هذا العالم ولا يكون له في ذلك الوقت تمييز لأي شيء سواء من جهة الجسد أو النفس ولا ذِكر أي شيء وحسب قول القديس أوغريس :" إن الصلاة هي تقانة العقل، أي هيئته الصافية التي لا تنقطع إلا من الدهش بنور الثالوث المقدس فقط ".

٣٠ – فانظر الآن كيف تنقطع الصلاة بدهش الأفكار التي تتولد في الفكر منها حسب قولنا في بداية هذا المَيْمَر وفي مواضع أخرى كثيرة: إن كمال العقل يكون في علو المعقولات المتشبه بلون السماء الصافية الذي يشرق عليه نور الثالوث الْقُدُّوس وقت الصلاة.

٣١ – هذه النعمة يؤهل لها الإنسان في وقت الصلاة وأقول: إذا ما تعرى العقل من الإنسان العتيق ولبس بنعمة الله الإنسان الجديد عندئذ ينظر هيئة ذاته في وقت الصلاة شبيهة بالصافيلا (خر ٢٤ : ٩) ولون السماء الأزرق الذي يُدعى "موضع الله" حسبما ظهر لشيوخ اسرائيل في الجبل ولهذا فكما قلت لا يليق أن تدعى هذه الموهبة صلاة روحانية. فبماذا تدعى إذاً؟ إنها تدعى وليدة الصلاة النقية التي تُبتلع بالرُّوح.

٣٢ – ويكون العقل في ذلك الوقت مرتفعاً عن الصلاة لأنه عندما وجد شيئاً أفضل بطلت منه الصلاة وتوقفت ومن ههنا لا يعود يصلى صلاة بل ينظر بدهشٍ في الأمور غير المدركة المرتفعة عن عالم الموتى ويصمت العقل ويهدأ بعدم معرفته بجميع الأشياء الحاضرة وهذه هي "عدم المعرفة" التي هي أرفع من جميع المعارف، والتي قيل عنها: " طوبى لمن وصل في الصلاة إلى عدم المعرفة" التي لا يفوقها شيئاً.

المَيْمَر الْخَامِس عشر

شرح لترتيب التدابير النسكية؛ والقوة التي تحتويها ممارسة كل نوع منها.

١ – النسك الجسدي الذي يمارس في السكون يطهر الجسد من مادته؛ ونسك الفكر يجعل النفس متواضعة ويحررها من الحركات المرذولة، التي تتعلق بالأشياء الفاسدة. والنسك الرُّوحي يبدأ بهذيذٍ مضرم بالأمور التي تخطر في التأمل ويستشعرها الذهن العاري؛ والتي تدعى أيضاً تأملاً غير مادي.

٢ – هذا يجتذب العقل بعيداً عن أمور الأرض، ويقربها من التأمل الرُّوحي الذي كان منذ البدء، عندما خلق الله الإنسان على صورة المجد الفائق الوصف. وبالعقل يحصل الإنسان على هذه المباهج في رجاء الأمور المزمعة.

٣ – ما هي؟ وكيف هي صفة كل وَاحِدة منها؟ نحن ندعو الجهاد الجسداني من أجل الله: التدابير النسكية التي تهدف إلى طهارة الجسد في العمل الفاضل الذي يكون في بالأعمال المرئية التي يقوم بها كل إنسان، والتي بها يتطهر الجسد من الفساد.

٤ – أمَّا تَدْبِير العقل فهو يقوم على عمل القلب الذي يتأمل دون توقف في الدينونة المزمعة، وبصلاة القلب الدائمة. وهو يتأمل أيضاً في تَدْبِير وعناية الله التي تشمل العالم الحاضر، بالإضافة إلى الأمور الجزئية والخاصة وتلك المشتركة عند الكل. وهو يضبط في الوقت نفسه حدود الأوجاع الداخلية حتى لا تصل وَاحِدة منها إلى الموضع الخفي والرُّوحاني.

٥ – وهذا هو عمل القلب الذي يُدعى التَدْبِير النسكي للعقل، الذي ينقي القلب ويفصله من كل اتحاد مع حياة الفساد خارجاً عن طبيعة هذه الدنيا. إنه يُمارس كلما بدأ الشخص يتأثر بإحساسٍ ما، اختص بالأمور التي يشعر بها، تلك التي وجدت لخدمة نمو الجسد، والتي بمعونتها توفر القوة لأربعة عناصرها.

٦ – التَدْبِير الرُّوحي هو عمل لا علاقة له بالحواس. وهو الذي يصفه الآباء: عندما تتقبل أذهان القديسين إمكانية تأمل ذواتهم، وأيضاً عندما تُرفع طبيعة الجسد الكثيفة، وتصير إذ ذاك رؤيتهم روحية.

٧ – تأمل طبيعتهم الخاصة، بهذه الصورة، يذكرهم بطبيعة خلقتهم الأصلية.

٨ – ومن ذلك الحين، يمكن للإنسان أن ينفعل بسهوله بما يُدعى بالمعرفة الخاصة بأقنومه الشخصي، والمرادف الواضح له: الدهش في الله.

٩ – وهذا هو ترتيب التَدْبِير المرتفع المزمع الذي يُمنح في حرية الحياة الخالدة، حياتنا بعد القيامة، حيث لا تعود الطبيعة البشرية تتوقف أبداً عن الدهش المستمر في الله، لتمتد نحو شيئاً ما من المخلوقات إن لم يكن نحو شيئاً آخر يشبه الله: إنها تُبحر إذ ذاك مرة هنا وأخرى هناك،

لكن لما كانت مباهج التَدْبِير المزمع هي أدنى من التي له، فكيف يمكن للذهن أن يتخلص منها لكي يثبت في رؤيتها؟.

١٠ – وما هي الغموم التي لا تنجم عن حالنا هذا الزائل: ثقل الجسد، تذكار الأقارب، حاجات الطبيعة، الشدائد العارضة، انتشار الجهالة، النقص الطبيعي، الانشغال بأشياء مادية، المُلاقات المتواترة، آلام الكآبة، ضعف الجسد!.

١١ – ولكن إذ كانت من وقت لآخر، في هذا العالم الحاضر حيث يحدث كل هذا، تزول الأوجاع من أمام عين ذهنك، وتتركز نظرته في هذا المجد، يُؤخذ العقل فجأة بالدهش، حتى أن الشخص لا يخرج أبداً منه ما لم يكن الله قد وضع حداً لهذه الأمور في الحياة الحاضرة، حتى لا يوجد أبداً أي تعطيل في هذا طيلة حياته، بل يكون دائماً من نصيبه.

١٢ – هكذا إذاً، بعد كل ما هو مِنّى، يوجد هذا التَدْبِير بغير حدود، وبواسطة هذه الأعمال هنا نصير نحن أنفسنا أعضاء في أجيال الملكوت، هذه إذا كانت تدابيرنا تستحق ذلك. غير أنه يكون بإمكان العقل أن يترك هذا من جديد، ويبتعد من تأمل عجائب الله وينصرف خارجاً عنها. الويل لنا نحن الذين لا نعرف نفوسنا، ولا ندرك إلى أي سيرة نحن مدعُوّون، بل نظل واقعين تحت نفوذ هذه الحياة المريرة، ومقيدين بقانون أمور تخص الحيوانات، بالعالم وبأحزانه وبشروره، ومباهجه التي نظن أنها ذات قيمة وهى لا تساوي شيئاً.

١٣ – يا مسيحنا، القادر على كل شيء وحده، لسعيدٌ هو الإنسان الذي أنت معينه، والذي رتب مصاعد في قلبه (مز ٨٢ : ٦) حوِّل نظرنا عن العالم، بشهوتنا فيك، لكي نرى ما هي حقيقة هذا العالم الحضر، وايضاً لكي لا نعود نعتبر سخافته كأنها حق. اغرس، يا رب، في قلوبنا الشجاعة مقابل الموت، لكي في وقت رحيلنا نعرف كيف يكون الدخول والخروج باتجاه العالم الآخر، ولكن إذ نكون قد أكملنا، بحسب مسرتك، الأعمال التي من أجلها قد دُعينا إلى الوجود، ننتظر بضميرٍ واثق الحياة السعيدة التي أمامنا، ونحظى بالعجائب التي أعدَّتها لنا محبتك حسب مواعيد الأسفار المقدسة بالخليقة الجديدة التي نحفظ تذكارها بالإيمان بالأسرار الإلهية.

١٤ – الطهارة الجسدية تكمن في النقاوة من نجاسة الجسد. ونقاوة النفس تكمن في الحرية من الأوجاع المستترة التي تتحرك في الضمير. ونقاوة الذهن تكون بالتطهر بفعل الاستعلانات، من كل الحركات التي تخضع للحواس وتقود إلى الكثافة التي تخصها. لكن الأطفال الصغار الذين هم أطهار نفساً وجسداً وبدون أوجاع، هؤلاء لا يُدعون أنقياء بأذهانهم. نقاوة الذهن هي كمالٌ يكمن في استقصاء التأملات السمائية، التي تتحرك فيها بدون الحواس، بخصوص القوات الرُّوحية التي في العوالم المزمعة. إنها أمور مذهلة لا تحصى، تلك التدابير المتنوعة الدقيقة التي لليترچية غير المرئية التي بحسب حركات الاستعلانات الإلهية، غالباً ما تتغير ودون توقف.

المَيْمَر السَّادِس عشر

الصلاة النقية والصلاة الرُّوحانية

١ – توجد صلاة نقية وصلاة روحانية. هذه الأخيرة هي أفضل من الأَولى بقدر ما أن نور الشمس هو أفضل من نور مصباح صغير.

٢ – الصلاة النقية هي التي تتخطى طياشة الأفكار وتأمل أمور الأرض وذلك بالانشغال بتأمل خيرات السماء وتذكار العالم المزمع. وهي تتضمن طلب أشياء حسنة كما وتخلو من أي اضطراب بسبب أمور زائلة.

٣ – الصلاة الرُّوحانية تبدأ عندما يستنير الذهن بفعل الرُّوح الْقُدُّوس، بفضل حركة تمنحه الإحساس بما هو فوق معرفة المخلوقات. إنها لا تتضمن أي طلبة حتى ولا من اجل الحياة الفاضلة، ولا أي شهوة لرؤية تحقيق المواعيد، ولا ملكوت السموات، بل فيها تخرج الطبيعة عن ما يخصها دون أن تقصد هي ذلك، بفضل فعل الرُّوح الْقُدُّوس بينما تكون النفس مأخوذة بالدهش بغير أمام مجد الله، حسب رتبة القوات المقدسة وقت تسابيحهم الفائقة الوصف. وبولس الرسول هو الذي ألمح إلى كل ما تبقى من كلامهم.

٤ – الصلاة الأَولى تقتضي جهداً وتخضع لسلطة الإرادة: حركاتها بنظام حسن، ذلك لأن النفس والجسد والذهن هم الذين يُصلّون.

٥ – في الصلاة الثَّانِية، لا النفس ولا الذهن ولا الحواس الجسدية هي التي تُصلي وهذه الصلاة لا تخضع بعد لسلطة الإرادة، بل الرُّوح الْقُدُّوس هو الذي يحقق إرادته فيها، بينما يظل كل الباقين ملتزمين بالهدوء. والأمر لا يتعلق بعد بالصلاة بل بالأكثر بالسكوت. هذه هي تلك الليتورچية غير الحسِّية التي يقيمها القديسون بحسب طقس الكائنات السمائية على الأرض كما في السماء.

٦ – عندما ترى النفس، بفضل الذهن، التأملات التي توجد فيها، تفيض الأعين دموعاً بفعل حلاوة كل ما تشهده وكثيراً ما تؤثر الأفكار في النفس، ولكن عندما يمتلكها التعجب أمام الله، ولا وَاحِدة منها تنفذ إليها.

المَيْمَر السَّابع عشر

بخصوص المعرفة الحقيقية التي تتكشف نتيجة أحداث أليمة

١ – إذا سأل أحد كيف يرسّخ ذهنه في السكون والسلام، دون انزعاج، عندما يواجه أحداث أليمة، في حين أنه يضطرب من أجل أي فكرٍ تافه، مما يدعوه إلى التذمر فيضيف ناراً إلى آلامه، ليته يدرك أن المعرفة الحقيقية هي التي تُعزِّي وتسلي الإنسان في ذلك الوقت. والله بدره سرعان ما يوفر مخرجاً من تجربته، ويخفف معاناته.

٢ – ذاك الذي يتذكر أن مشيئة الله من جهة الإنسان تشمل في الوقت نفسه فترات راحة وفترات تجارب، وأنه يجد عزاء عندما يشاء الله ذلك، ولكنه بإرادته أيضاً يُسلّم للحزن بطرق كثيرة، وأنه يجاهد إذ ذاك بتعب كثير، ويظل ذميره بدون غضب وبدون حزن طيلة أيام حياته، أيَّ كانت التغيرات التي تصيب جسده أو نفسه تَدْبِيراً (= تَدْبِير من الله). وبفضل هذه المعرفة، يوجه قلبه إلى السكون ويحفظ رجاؤه بسلام عظيم ثابت في الله، معترفاً بعنايته بسائر البشر إذ يهتم بهم ويرشدهم بحسب ما هو نافع لهم. وهو في آلامه لا يهتم، بأي حال، لا الشيطان ولا البشر ولا جسده الخاص، كما هو معروف أن كل هذه الآلام تصدر عن هذه الثلاثة أسباب، وذلك لأنه يعرف أن الله هو الذي يحركها في هذا القصد وأنه ليس بإرادتها يتعزى أو يُبتلى، بل لأن الله هو الذي يحركها. لأنه ليس فكر تعزية وَاحِد يغمرنا دون أن يكون عطية من عنده: حتى ولو كانت عبارة تعزية صغيرة يوجهها شخص ما إلينا، فهو أيضاً الذي يحفزه على ذلك، لأن هذه التعزية هي ضرورية لتقويم حياتنا. يا للمعرفة التي تقدر أن تعطينا ملء التعزية! أي عون لا يمكن لأحد أن يجده فيك، ومن لدن الله شخصياً! لَسعيد هو الذي لا يستسلم للشجن لكونه يصير مضغوطاً جداً إذ ما عرضت له بعض الأحداث الأليمة. – نهاية قول القدِّيس مارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني.

أشكرك يا ربي يسوع

+ قُلْتُ: « أَتَحَفَّظُ لِسَبِيلِي مِنَ الْخَطَإِ بِلِسَانِي. أَحْفَظُ لِفَمِي كِمَامَةً فِيمَا الشِّرِّيرُ مُقَابِلِي ». صَمَتُّ صَمْتًا، سَكَتُّ عَنِ الْخَيْرِ، فَتَحَرَّكَ وَجَعِي. حَمِيَ قَلْبِي فِي جَوْفِي. عِنْدَ لَهَجِي اشْتَعَلَتِ النَّارُ. تَكَلَّمْتُ بِلِسَانِي: «عَرِّفْنِي يَا رَبُّ نِهَايَتِي وَمِقْدَارَ أَيَّامِي كَمْ هِيَ، فَأَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا زَائِلٌ. هُوَذَا جَعَلْتَ أَيَّامِي أَشْبَارًا، وَعُمْرِي كَلاَ شَيْءَ قُدَّامَكَ. إِنَّمَا نَفْخَةً كُلُّ إِنْسَانٍ قَدْ جُعِلَ. سِلاَهْ. إِنَّمَا كَخَيَال يَتَمَشَّى الإِنْسَانُ. إِنَّمَا بَاطِلاً يَضِجُّونَ. يَذْخَرُ ذَخَائِرَ وَلاَ يَدْرِي مَنْ يَضُمُّهَا. «وَالآنَ، مَاذَا انْتَظَرْتُ يَا رَبُّ؟ رَجَائِي فِيكَ هُوَ. مِنْ كُلِّ مَعَاصِيَّ نَجِّنِي. لاَ تَجْعَلْنِي عَارًا عِنْدَ الْجَاهِلِ. صَمَتُّ. لاَ أَفْتَحُ فَمِي، لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ. ارْفَعْ عَنِّي ضَرْبَكَ. مِنْ مُهَاجَمَةِ يَدِكَ أَنَا قَدْ فَنِيتُ. بِتَأْدِيبَاتٍ إِنْ أَدَّبْتَ الإِنْسَانَ مِنْ أَجْلِ إِثْمِهِ، أَفْنَيْتَ مِثْلَ الْعُثِّ مُشْتَهَاهُ. إِنَّمَا كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْخَةٌ. سِلاَهْ. اِسْتَمِعْ صَلاَتِي يَا رَبُّ، وَاصْغَ إِلَى صُرَاخِي. لاَ تَسْكُتْ عَنْ دُمُوعِي. لأَنِّي أَنَا غَرِيبٌ عِنْدَكَ. نَزِيلٌ مِثْلُ جَمِيعِ آبَائِي. اقْتَصِرْ عَنِّي فَأَتَبَلَّجَ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ فَلاَ أُوجَدَ».مزمور٣٩.

تأمل

+ إنَّ العالم يُشبه الساقية، والإنسان يدورُ بها مُعصب العينان، وعندما يَكِلْ، تُرفع العُصابة عن عينيهِ، فينظر وإذ هو يجري وراء سراب! ترك الهدف "الله والإلتصاق به"، وسار وراء الوسيلة "إثبات الذات"، مُعصب العينان!

فإستيقظ وإذ الصوت "صوت الله" يقول له : يَاغَبِيُّ! هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ هكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيًّا لِلهِ» لو١٢: ٢٠.

+ إنَّ حياة الرهبنة هيَ حياة الوحدة، الوحدة مع الله والإلتصاق به في كل حين وفي كل مكان وكل الحياة. حيثُ إنَّ كلمة راهب Μοναχος تعني مُتوحد.

فأنظر لِما خرجت مِنْ أجله، هل الله هو الهدف؟ أَم تحوّل الهدف إلى وسيلة، والوسيلة "الصَّوْم – السجود – الألحان – القرأة – الدراسة ... وما إلى ذلك مِنْ أعمال جسدانية مادية" إلى هدف! حيثُ ليس كمال إلاّ في طريق الوحدة، حيثُ تهدأ العواصف، وتكشف حقيقة طبيعة الإنسان!.

+ إنَّ الصلاة بالألحان جميلة جداً، وهيَ تُساوي الصَّوْم والسجود مِنَ الأعمال الجسدانية. ولكن إحذر أنْ تصير هيَ الهدف وليس الوسيلة! حيثُ تسمع صوت الله القائل للكَتَبَةٌ وَالفَرِّيسِيُّونَ : يَقْتَرِبُ إِلَيَّ هذَا الشَّعْبُ بِفَمِهِ، وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا. وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ» إش٢٩: ١٣، مت١٥: ٨، ٩. الَّتِي هِيَ جَمِيعُهَا لِلْفَنَاءِ فِي الاسْتِعْمَالِ، حَسَبَ وَصَايَا وَتَعَالِيمِ النَّاسِ، الَّتِي لَهَا حِكَايَةُ حِكْمَةٍ، بِعِبَادَةٍ نَافِلَةٍ، وَتَوَاضُعٍ، وَقَهْرِ الْجَسَدِ، لَيْسَ بِقِيمَةٍ مَا مِنْ جِهَةِ إِشْبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ.

+ أنظُروا يا إخوتي وأخواتي إلى ماذا دعاكم الله، أتركوا الشكليات وإلتمسوا الآبديات، إقتربوا إلى الله لكي تستنيروا. وإحذروا أنْ يخدعكم العالم ببريقه الزائف(الأَنْبَا مَكَارْيُوسْ القس). إحذروا مِنْ عمل الذات، وإلتمسوا عمل الله. عمل الله حيثُ يُلازمه سلام ومحبة وخلاص للنفس والرُّوح والجسد.

يوم الخميس ٢٠١٤/٨/١٤م، صوم والدة الإله القدِّيسة مَرْيَم الْعَذْرَاء، ٨مسرى ١٧٣٠ش.

دير القدِّيس الْعَظِيم مَكَارْيُوسْ القس الإسكندراني الأثري

بَرِّيَّة الريَّان ١٧٣٢ ش - ٢٠١٥م

صَلَوَات

لمارِ إِسْحَاق السُّرْيَاني

أيُّها المسيح أخرجني من الظلمة إلى النور لكي أُسَبِّحَكَ تسابيح القلب لا الفم.

– ١ –

يا الله، اجعلني أهلاً أن أصير مدركاً للرجاء المحفوظ للأبرار وقت مجيئك، حين تأتي في جسدنا لكي تعلن مجدك للعالمين. يا الله، يا مَنْ أظهرت حبك للعالم ولو أنه لم يتعرَّف عليك، وأعلنت ذاتك جزئياً للأبرار عبر الأجيال من خلال تلميحات الرؤى، أعد الحياة لحركاتي المائتة حتى تشعر بك، لكي ما أُسرع بالمجيء إليك ولا أنتظر إلى تلك الساعة التي يضع فيها الموت حدًّا لمسيرة حياتي في مرفأ السكوت.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، ميناء المراحم، يا مَنْ أظهرت ذاتك وسط جيل خاطئ؛ يا مَنْ انتظرك الصديقون في أجيالهم العديدة، ثم أتيتَ إلينا في ملء زمانك لتفرِّح الخليقة جمعاء: امنحني عيناً أخرى وأُذناً أخرى وقلباً آخر كي عوضاً عن العالم أرى وأسمع وأُدرك تلك الأشياء المحفوظة عندك لحين استعلان مجدك لجنس المسيحيين من خلال ذلك النظر والسمع والإدراك الأعلى من الحواس العادية.

حرِّك في داخلي يا رب، مذاقة الإحساس بك كي أُحسب أهلاً للعبور من هذا العالم إليك، لأن العالم قد أسرني بملذاته وأبعدني عنك. فطالما كانت عيناي تبتهجان لرؤية الأشياء القابلة للفساد، وعقلي يقتني فهماً حسياً ومادياً؛ فإنه لا يكون بمقدوري أن أتحرَّر تماماً من تلك المشاعر الضعيفة الخاضعة للفساد التي تنشأ عنها. اِجعلني أهلاً يا رب، أن أقتني تلك الرؤيا التي لا يكون للفساد أي أثر عليها، حتى إذا ما اقتنيتها وسهوت عن العالم وعن نفسي، تزول من قدَّام عينيَّ كل الصور الحسية.

أنت يا رب، مسرَّة جنسنا البشري، وتعزية حالتنا المعدمة، وسند حقارة طبيعتنا البشرية التي ترنَّحت وسقطت، ورجاء المحرومين، والاسم الممجَّد الذي أُستُعلن لبني البشر: هبني نهوضاً من سقطتي وقيامة من ميتوتي؛ حرِّك فيَّ إحساساً بالحياة، وأَخرِج نفسي من سجن الجهل لكي ما أُسبِّح اسمك. انفخ في أعضائي نسمة الحياة الجديدة: اِفتقد حالتي التي فسدت في القبر، وأخرجني من موضع الظلمة. لَيْتَ نور استعلانك يفتقدني في هاوية الجهل. الطبيعة البشرية التي وهبتها النطق أصبحت صامتة فيَّ: لَيْتَك يا رب، تردها مرَّة أخرى إلى حيويتها الطبيعية؛ لأنه ليس في الموت مَنْ يذكرك ولا في الجحيم مَنْ يحمد اسمك. ليس لي لسان ينطق اسمك، ولكن لَيْتَ الأحياء مثلي اليوم يحمدونك.

قد خرستْ حواسي، وسكتتْ حركات قلبي، وجفَّت الأفكار، وصار عمل الطبيعة البشرية فيَّ مفتقراً إلى الحياة الحقيقية: ليس فيَّ أي تذكار لك، ولا أي تسبيح لاسمك في الهاوية التي أسكن فيها، ليست هناك أصوات التمجيد المبهجة في نفسي الضائعة، وكل أعضائي المائتة هي في انتظار مخاض القيامة. وليس مَنْ يأتي إليَّ في قفر الهاوية.

إلهي، هبني أن أسمع صوتك الذي يقيم الكل بطريقة خفية، حقِّق فيَّ مثال لعازر حبيبك. أنا أعلم يا رب أنني لم أكن أبداً صديقاً مخلصاً لك، ولكني أنتمي إلى قطيعك، وقد اختطفني عدوي

وأذلَّ في الأرض حياتي. يا إلهي، اجعلني أهلاً أن أحظى بنصيبٍ في المجد الذي أعددته لأحبائك في العالم الجديد، وفي إدراك معرفة حبك والاتحاد الذي لا يفترق ورباط المحبة الذي لا ينحل الذي يأتي من التأمُّل الدائم فيك. يا رب، لا تمنع عني أعمال نعمتك، ولا تحرمني من معرفتك المملوءة رجاء.

يا رب، نجني من ظلمة النفس. أيُّها الإله المتحنِّن، امنحني فرح الرجاء، اِغرس رجاءك في أفكاري، واجعلني أهلاً لتحننك عند إشراق إعلانك من السماء. يا رب، لا تسمح أن أكون مطلوباً للدينونة من أجل معاصيَّ الكثيرة حين تأتي في مجدك الْعَظِيم.

أنت يا رب، بنعمتك أتيت بي إلى الوجود، وبنعمتك سوف تؤهِّل جسدي للقيامة؛ لَيْتَ قيامتي من التراب لا تكون للدينونة والخزي. لَيْتَني لا أنهض من نوم الموت لأواجه الدينونة والحرمان منك؛ بل أقمني يا رب من التراب للفرح والبهجة، وللمجد الذي كان في قصدك منذ البدء أن تحضر الكائنات الناطقة المخلوقة إليه لمَّا جبلتهم. أنت يا رب، لم تخلقني لجهنم، فلا تسمح أن أكون آنية للهلاك، لأن الهلاك هو من نصيب مَنْ يُحرم كلية من نظرتك المفرحة يا رب. اجعلني أهلاً يا رب، أن أكتشف تفسير ذلك الرجاء الذي من أجله صوَّرتني في مشيئتك من البدء، لكي أعاين مجدك الأبدي؛ لأنك أنت الذي - من قبل أن نوجد - أردت أن تأتي الخليقة إلى الوجود لكي تدرك عظمة مجدك.

- ٢ -

فيما تنحني نفسي إلى الأرض، أقدم لك بكل قلبي، وبجميع عظامي، السجود الذي يليق بك،

أيُّها الإله الممجد، الساكن في سكون لا ينطق به. أنت قد هيأت لتجديدي، مظلة من الحب على الأرض، حيث سُررت أن ترتاح، مظلة جُبلت من جسد، وهيأتـها بزيت المسحة المقدسة، ثم ملأتـها بحضورك المقدس، لكي تُقام فيها خدمة عبادتك، مشيراً إلى السجود اللائق للأقانيم الأزلية التي للثالوث الأقدس، ومُظهراً للعوالم التي خلقتها بنعمتك، سراً لا ينطق به. قوة لا تدرك، ولا يستطيع أحد أن يفهمها من أركان خليقتك التي أتيت بـها إلى الوجود. بالدهش والتعجب منه، تغوص الكائنات الملائكية في الصمت، بالرهبة أمَّام الغمامة المظلمة التي لسره الأزلي، وأمَّام فيض البهاء، الذي يتدفق من داخل هذا العجب المذهل، لأنه يتقبل السجود، في بلد السكوت، من كل عقل تَقدس وصار أهلاً لك.

أطرح نفسي، يا رب، عند موطئ قدميك، وعند يمينك المقدسة، التي جَبَلتني وصَنَعتني إنساناً قادراً أن أشعر بك. لكني قد أخطأتُ وأثمتُ في نفسي وأمَّامك؛ لأنني تركت عني الحديث المقدس معك، وصرفت أيامي في الانشغال بالشهوات. أتوسل إليك، يا رب، لا تحسب عليَّ خطايا شبابي، وجهالات شيخوختي وضعف طبيعتي التي ثقلت عليَّ جداً، وجعلتني أغرق في التفكر بأمور بغيضة؛ بل حوِّل قلبي إليك، بعيداً من تشتت الشهوات المزعج؛ وليسكن فيَّ نورك

الخفي. أعمال صلاحك نحوي لا تنتظر أي إرادة من جانبي لأعمل الصلاح، ولا استعداد قلبي لاقتناء الفضيلة. أنت لم تؤخر أبداً عنايتك بي لكي تختبر حرية إرادتي: بل كما يعتني الأب بابنه الصغير، هكذا أنت أظهرت عِظم اهتمامك بي؛ بتعطفك الأبوي افتقدت ضعفي، وما قصدتَ قط أن تمتحن إرادتي، لأنك تعلم دائماً أنني لست سوى طفل صغير لا أعرف أين أنا مسافر.

أتوسل إليك، يا الله، أن ترسل معونتك من سماواتك العالية، لكي أُبعد من قلبي، كل فكر شرير، وكل شهوة جسدية. لا تطرحني، يا رب، من حمايتك، لئلا يجدني العدو المقاوم لي، ويدوسني كما يشاء. ويهلكني بالتمام. أنت هو الذي تمنح التوبة وندم القلب، للخاطئ الذي يتوب، وبـهذه الوسيلة، أنت تريح قلبه من ثقل الخطية التي أثقلت عليه، بفضل العزاء الذي يأتي من الحزن، ومن عطية الدموع.

على باب تحننك، يا رب، أنا أقرع؛ أرسل معونة لحركات قلبي المشتتة، التي سكرت من كثرة الأوجاع وقوة الظلمة. ها أنت ترى، يا رب، قروحي المخفية داخلي، حرِّك فيَّ الندم، ليس بحسب ثقل خطاياي؛ لأنني لو أدركت، يا رب، مقدار آثامي، لفنيت نفسي من الألم المر لأجلها. ساعد حركات نفسي الضعيفة، في طريق التوبة الحقيقية. ولَيْتَني أجد تفريجاً من عنف الخطايا، بالندم الذي يأتيني من عطيتك؛ لأنني بغير قوة نعمتك غير قادر تماماً أن أدخل داخل نفسي، وأدرك خطاياي، لكي عندما أراها، يمكنني أن أحتفظ بالسكون بعيداً عن كل تشتت.

يا اسم يسوع، مفتاح كل العطايا، افتح لي باب مخازن كنوزك الْعَظِيمة لكي أدخل وأقدم لك التمجيد بالتسبيح الذي ينبع من القلب مقابل جميع مراحمك التي أدركتني في الأيام الأخيرة لأنك أتيت وجددتني بمعرفة العالم الجديد.

أقدم التمجيد لطبيعتك الْقُدُّوسة، يا رب، لأنك قد جعلت طبيعتي قدساً لخفياتك، ومظلة لأسرارك، وموضعاً لسكناك، وهيكلاً مقدساً للاهوتك؛ هذا الممسك بقضيب ملكك، الذي يتسلط على كل ما أتيت به إلى الوجود؛ الخيمة المجيدة التي لجلالك الأبدي، ومصدر التجديد لكل القوات النارية التي تخدمك، والطريق إلى معرفتك، والباب المؤدي إلى رؤيتك، والمدخر فيه كل كنوز قوتك وحكمتك الْعَظِيمة، يَسُوع الْمَسِيح، الابن الوحيد الجنس، المولود من حضنك الأزلي، والبقية (التي أبقيتها لنا) من خليقتك[١٣٥] المرئية والرُّوحية.

أيُّها السر الذي هو أعلى من كل نطق، وأعلى من السكوت، الذي صار بشراً لكي يجددنا، لما اتحد بالجسد بحرية إرادته، اكشف لي الطريق، للسفر عبر سبيل واضح وهادئ، ومتحرر من اهتماماًت هذا العالم. اجمع عقلي إلى سكون الصلاة، لكيما تسكت داخلي جميع أفكاري الشاردة، أثناء التضرع إليك بالحديث المبهج، وبالعجب المملوء سراً.

أطرح نفسي يا رب عند عرش جلالك، أنا التراب والرماد وحثالة البشرية. ألوف ألوف الملائكة وقوات السيرافيم التي لا تحصى، تقدم لطبيعتك الْقُدُّوسة، المخفية عن حواس ومعرفة

[١٣٥] حرفياً: الخلق الذي جُمِعت من خليقتك (انظر اش ١:6؛ رو3:6 .- 6)

جميع المخلوقات، العبادة الرُّوحية في خفية طبيعتهم، بتسابيحهم النارية وحركاتـهم المقدسة؛ لأنك أنت، يا رب، قريب جداً، وتقدم معونتك للجميع في أوقات الشدة، وبابك مفتوح في وقت مناسب وغير مناسب لتوسلات الكل.

أنت لا تأنف من الخطاة، وجلالك لا يشمئز من النفوس التي اتسخت بكل أنواع الخطايا؛ بل تجتذب كل وَاحِد من الشرور التي بلا نـهاية، بما فيهم أنا، المتدنس بكلَيْتَي، إذ قد جعلتني أهلاً أن أنطرح على وجهي أمَّامك، وأعطيتني جراءة أن أنطق باسمك بفمي، رغم أنني إناء مملوء من كل الأدناس، وغير مستحق أن أحسب بين أبناء آدم. امنحني، يا رب، أن أتقدس بتسبيحك، وأتطهر بتذكارك؛ جدِّد حياتي بتغيير ذهني، وبالأفكار النافعة التي تحركها فيَّ بنعمتك؛ كن مرشداً لعقلي في هذيذي بك، وهبني أن أنسى عثرات سلوكي، بتجديد ذهني الذي تبثه فيَّ. حرِّك في داخلي اشتياقات جادة مضطرمة، ولتكن إرادتي وفق مشيئتك؛ لأنك أنت الذي تعطي الصلاة لكل من يصلي[١٣٦]. اغرس فيَّ إرادة وَاحِدة: إرادة تتطلع إليك كل حين، واشتياق لا يضعف رجاؤه فيك بالأمَّاتات المستمرة من أجلك، امنحني، يا رب، ألا تكون صلاتي أمَّامك مجرد كلمات تنطقها الشفاه؛ بل فلأكن منطرحاً على الأرض أمَّامك في اتضاع القلب الخفي وتوبة العقل.

يا الله، يا من بطول أناتك مقابل خطاياي، تمنحني حياة في هذا العالم، لا تحرمني من حياة العالم العتيد، الذي ينتظره برجاءٍ، جميع الذين يتضرعون إليك هنا في شقائـهم.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، الحب الإلهي الذي أفرز القديسين من العائلة والأقرباء ومن حياة الترف البشري، وقد سكتت فيهم قوة الأهواء الطبيعية، مقابل حلاوة هذا الحب، لَيْتَك، يا رب، تمنحني أن أنكر حياتي بشهوتي فيك، ولَيْتَني أصير ميتاً جميع أيام حياتي لكل الأشياء التي تلد فيَّ لذة هذا العالم؛ وبقدرتك، يا رب، تـهدأ العواصف التي تعمل في أعضائي؛ ولَيْتَ حبك يفصلني من العالم ومن الحديث معه. ارسم في ذهني صورة غير مرئية، تبطل بواسطتها تذكارات لذة هذا العالم الحاضر وجميع صورها (من قلبي).

أركع قدام جلالك، يا الله، وأسجد على الأرض أمَّامك؛ لأنك دون أن أطلب، بل وقبل أن أوجد، أتيت بي إلى الوجود؛ وقبل أن تصورني في الحشا، عرفتَ أنني سوف أحيا حياة مليئة بالاضطراب والنكوص؛ ومع ذلك لم تمتنع عن أن تخلقني، وتـهبني كل الصفات التي كرمت بـها الطبيعة البشرية، رغم أنك كنت تعرف شروري مسبقاً. أنت تعرف كل احتياجاتي قبل أن أعرفها أنا، وتعرف صَلَوَاتي قبل أن أصلي بـها أمَّامك: فهبني، يا إلهي، في هذه الساعة، كل ما تعرف أن طبيعتي البائسة تحتاج إليه في محنتها الحالية. أنت تعرف كرب نفسي، وفي يديك يوجد شفاؤها.

[١٣٦] لصم .:6سبعنٌ ِ

أيُّها القدير، الذي بقوتك انتصر الآباء الأقدمون على هجمات المارد الشديدة المرعبة، وهم الذين، رغم مشاركتهم في الطبيعة البشرية الخاضعة لضرورات كثيرة، كانوا مثل من ليست لهم حاجة لشيء؛ وأظهروا على الأرض شبه الأمور العتيدة، بينما جعلتَ أنت، يا رب، من القبور والمغائر وشقوق الأرض التي عاشوا فيها، مظلة استعلانات لهم. اسكبْ في قلبي غيرة أفكارهم، لكيما أتشجع وأطأ الشهوة الطبيعية، وأطرح عني كل خوف كل المقاومات المضادة. اِغرس فيَّ معرفة التواضع، وهبني حمية وعزماً، يليق بمتابعة المسيرة الصعبة إليك. يا ملجأ الضعيف، والطريق المستقيم للذين ضلوا السبيل، والمهرب لكل الذين أحاطت بـهم العواصف: أذلَّ تجبر المضاد وافتخاره عليَّ؛ أبطلْ قوة أفعاله الخبيثة ضدي، اخفض علو كبريائه. سهِّل سبلك الخفية أمَّام أفكاري، وكن لي عزاء وقت الشدة، ومرشداً في المهالك.

يا شمس البر، الذي بواسطته رأى الأبرار نفوسهم، وصاروا مرآة لأجيالهم، افتح في داخلي باب معرفتك؛ وهبني ذهناً مبتهجاً، يستطيع أن يبحر متخطياً صخور الخطأ، لكي أصل إلى ذلك الميناء الهادئ، كما فعل الآباء الذين أرضوك منذ القدم، بسيرتـهم المستنيرة.

قدسني، يا رب، بأسرارك، أَنِرْ ذهني بمعرفتك، واجعل رجاءك يشرق في قلبي، واحسبني أهلاً أن أتضرع إليك من أجله. يا الله، أبي ورب حياتي، أضئ مصباحك داخلي. ضع فيَّ ما هو لك، لكي أنسى ما هو لي. اسكب عليَّ هوة عَجبك، لكي تنضبط بـها قوة طبيعتي. حرِّك في داخلي رؤية أسرارك، لكي أدرك ما حلَّ بداخلي، في المعمودية المقدسة. لقد وضعتَ داخلي مرشداً، لَيْتَه يكشف لي مجدك كل حين. هيأني لأكون نوراً وملحاً للعالم؛ لَيْتَني لا أصير عثرة لرفقائي. وإذ قد تركت العالم، لا أعود أنظر إلى الوراء إليه أبداً، ولا أتطلع إلى الأشياء التي طرحتُها عني، عند تقديم نذري لك. أقِم سياجاً من البهجة على قلبي، لكي لا تتطلع حواسي خارجاً عن سبل ناموسك. اضبط قلوع خواطري معاً، لسفينة التوبة، لكيما أبتهج فيها بينما أبحر عبر بحر العالم، إلى أن أصل ميناء رجائك: وحين تلاطمني التجارب، لَيْتَ ذهني يتقوى بتذكارك. أنِرْ أمَّامي، يا رب، الطريق المظلمة، بإشراق نور معرفتك.

اجعلني مستحقاً، يا الله، لاستعلان سر محبتك، التي ارتسمت في تَدْبِيرك للعالم المحسوس، في أعمال خليقتك، وفي سر ذبح ابنك الحبيب.

يا خالقنا، العارف بضعف طبيعتي، انزع عني عنف العدو المضاد؛ أبطل من أعضائي سطوة الخطية؛ أطفئ لهيبها من قلبي؛ مدّ يد الشفاء لنفسي المنطرحة اضبط حواسي الداخلية برباط الصليب؛ زِدْ فيَّ فيض الحب لك، الذي ينبع من النظر إلى المصلوب؛ اجتذب ذهني إلى الداخل، الأمور الخفية للأسرار التي يحملها؛ ثبِّت فيَّ تذكار اتضاع ابنك المحبوب؛ ونَمِّ في داخلي العجب من تَدْبِيرك لي.

يا الله، يا مَن قبل أن تصنع المصالحة للعالم، أعطيته ابنك الوحيد؛ وبعد أن أكملت المصالحة أعطيته أن يرث عرش لاهوتك، لا تدعني أمضي إلى القبر بلا رجاء، ولا أجلس

مقيداً بخطاياي في الظلمة مثل ميت إلى الأبد.

نقدم لك الشكر، يا الله، من أجل عطيتك للعالم. هذه العطية التي لا تستطيع الكائنات المخلوقة أن تصف وفرة غناها. ولأنني، أنا أيضاً، جزء من (هذا) العالم، لَيْتَني لا أتأخر عن تقديم الشكر الواجب عليَّ لك. ولهذا سأحمدك وأعترف لاسمك. أنت قد أعطيت كنزك كله للعالم: فإذا كنت قد أعطيت ابنك الوحيد الجنس من حضنك ومن عرش مجدك، من أجل ربح الكل، فما هو الذي كان لك أكثر من ذلك ولم تعطه لخليقتك؟ لقد صار العالم في شركة مع الله، الخليقة والخالق قد صارا وَاحِداً. السبح لك من أجل قصدك الذي لا يُدرك كنهه، حقاً، إن هذا السر لعظيم جداً. المجد لك، من أجل أسرارك المخفية عنا. اجعلني مستحقاً، يا رب، أن أتذوق هذا السر الْعَظِيم المخفي والمكتوم، السر الذي لم يستحق العالم أن يدركه، ولكنك قد أظهرت جانباً منه لقديسيك الذين يعيشون في الجسد فوق العالم، وهم في كل حين أعلى من حركات الجسد.

إن فيض أسرار المسيح يضغط ذهني، مثل أمواج البحر. أردت أن أصمت أمَّامها فلا أتكلم، ولكنها صارت كنار آكلة، اضطرمت في عظامي. يبكتني ضميري إذ يكشف لي خطاياي، أسرارك تذهلني، ولكنها تقودني لأعاينها؛ وفي السكون تهمس إليَّ: "لا تتأخر من الاقتراب لكونك خائفاً بسبب خطاياك، أيُّها الخاطئ، لأنك بتأمل هذه (الأسرار)، تنفض وحل الخطية عن ذهنك".

يا من تحل ربط طبيعتنا، حطم القيود الخفية التي التفت حول أعضائي الداخلية، وفك عن حواسي الخارجية الحواجز الظاهرة، حتى يمكنني أن أجري وأدخل فردوس أسرارك، وآكل من شجرة الحياة، التي لم يُسمح لآدم أن يأكل منها.

يا مخلصي، احفظني من خبث الشياطين. يا إلهي، أبعد عني رخاوة العزم. يا رجائي، اسكب في قلبي نشوة الرجاء فيك. يا يَسُوع الْمَسِيح، قيامة ونور كل العالم، ضع تاج معرفتك على رأس نفسي. افتح أمَّامي عاجلاً باب مراحمك، واجعل إشعاعات نعمتك تشرق في قلبي. كن مرشداً لخطوات أفكاري، إلى أن أبلغ صهيون، جبلك المقدس؛ اجعلني مستحقاً لتلك المدينة المقدسة، التي دخلها القديسون في نهاية رحلتهم.

يا خالقي ورجائي، مرساة حياتي وسط العواصف، عكازي حال مذلتي وهواني، ورافع رأسي التي انحنت إلى التراب، لا تسلمني لرغبة عدوي، ولا تعطه فرصة أن يعاملني بوقاحته؛ ثبِّت هوة عظيمة أمَّامه لكي تمنعه من العبور إليَّ ليزعجني. احسبني، يا رب، مستحقاً أن أكمل حياتي القصيرة، السريعة الزوال، في خدمتك. لَيْتَني أوجد ملتصقاً بك في نهاية أيامي. لَيْتَني أوجد في كرمك عند غروب حياتي. اجعلني مستحقاً، قبل أن يحين وقت العبور، أن أحصل على ذلك الدينار الذي منحته لعمالك. بنعمتك، يا رب، وليس من أجل عملي، اجعلني مستحقاً، ولو في الساعة الحادية عشرة من حياتي، أن أوجد مجتهداً في خدمتك. لَيْتَ العالم لا يأسرني بمشاغله المؤذية، ولَيْتَه لا يحبسني في قفص اهتماماته الزائلة.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، يا من تسربلت بالنور كما برداءٍ؛ يا من، لأجلي، وقفت عرياناً أمَّام بيلاطس، ألبسني تلك القوة، التي جعلتها تظلل القديسين، وبـها غلبوا عالم النـزاع. لَيْتَ ألوهيتك، يا رب، تجد مسرتـها فيَّ، وترفعني فوق العالم، لأكون معك.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، الذي لا يستطيع الشيروبيم الممتلئون أعيناً، أن ينظروا إليك، من أجل عظم بـهاء وجهك؛ لكنك من أجل عظم محبتك، لم ترد وجهك عن خزي البصاق؛ انزع الخزي عن وجهي، وامنحني وجهاً مكشوفاً أمَّامك وقت الصلاة.

أيُّها المسيح إِلهُنَا، إنك بسبب خطية طبيعتنا، دخلتَ إلى البرية، وقهرت سلطان الظلمة، وانتزعت منه النصرة بعد خمسة آلاف سنة؛ اطرد عني ذاك الذي في كل حين، يغصب الجنس البشري إلى الخطية.

لَيْتَ صليب الخزي والعار، الذي ارتفعت عليه لأجلي، يصير جسراً ينقلني إلى ذلك المسكن الهادئ. لَيْتَ إكليل الشوك الذي كُلل به رأسك، يصير لي خوذة خلاص عند اشتداد القتال. لَيْتَ البصاق الذي قبلته على وجهك، يعدّني لاقتناء وجه مكشوف أمَّام كرسي الدينونة عند مجيئك. لَيْتَ جسدك المقدس الذي تعرى فوق الصليب، يصلبني للعالم وكل شهواته بالحب لك. لَيْتَ ثيابك التي اقترعوا عليها، تمزق أمَّام عينيَّ لباس الظلمة الذي ارتديه داخلي. لَيْتَ الدم والماء اللذين جريا من جنبك المطعون يصيران لي صكاً واهباً للحرية من العبودية القديمة. لَيْتَ جسدك ودمك اللذين اتحدا بجسدي، يبقيان داخلي ضمانة أنني لن أحرم من النظر الدائم إليك، في ذلك الملكوت الذي بلا نـهاية. لَيْتَ أسرار الإيمان التي حفظتها في نفسي بلا تحريف، تحفظ لي شيئاً أفتخر به، في ذلك اليوم الذي يصير فيه العالم مستعداً لتقبّل مجيئك، ولتحل هناك مكان قصور تَدْبِيري النسكي.

لَيْتَه يُذكر، يا رب، على مذبحك المقدس، في تلك اللحظة الرهيبة، التي يتقدس فيها جسدك ودمك ذبيحة عن خلاص العالم: كل الآباء والاخوة الذين على الجبال، وفي المغاير والوديان وشقوق الأرض، في أمَّاكن وعرة مهجورة، مخفية عن العالم، ولكنها معروفة لديك، الذين انتقلوا، والذين ما زالوا أحياء يخدمون أمَّامك بأجسامهم ونفوسهم، أنت الْقُدُّوس الساكن في القديسين، الذين تجد فيهم ألوهيتك راحتها، إذ قد تركوا العالم الزائل وصاروا أمواتاً لحياته لأنـهم خرجوا يطلبونك. اذكر أيضاً، يا ملك كل العوالم، جميع الآباء الأرثوذكسيين، الذين من أجل صدق إيمانـهم، احتملوا النفي والشدائد على يد مضطهديهم. والذين في الأديرة والمجامع، في البراري وفي سكنى العالم، وقد جعلوا كل همهم أينما كانوا، أن يرضوك بأعمال الفضيلة: رافقهم – يا رب – وكن لهم حامياً على الدوام، وأرسل لهم عزاء في السر، واربط أذهانـهم بك في جميع جهاداتـهم؛ لَيْتَ قوة ثالوثك المقدس تسكن فيهم، وليخدموك حتى نـهاية حياتـهم، بضمير صالح وسيرة مضيئة؛ واجعلهم مستحقين بينما هم ما زالوا في الجسد للراحة في ميناء الرَّاحَة. والذين يواجهون حروباً صعبة من الشياطين، سواء في العلن أو في السر، أرسل لهم، يا رب، نجدة، وظللهم بسحابة نعمتك، وضع على رأس ذهنهم خوذة الخلاص، وذِلّ تجبر العدو

قدامهم، ولتسندهم قوة يمينك كل حين، لئلا يضعفوا في أفكارهم ويخيبوا من التطلع الدائم إليك. سربلهم، يا رب، بسلاح التواضع، لكي تفوح منهم دائماً رائحة عطر لذيذة، ترضي مشيئتك.

لَيْتَ الذين يعانون من الأوجاع الصعبة، ومن أمراض الجسد الأليمة، يُذكرون أمَّامك، يا رب. ولترسل لهم ملاك الرأفة، لكي يطيب نفوسهم التي اشتد عذابها، بسبب آلام أجسادهم المتعَبة. تراءف أيضاً، يا رب، على أولئك المذلولين، تحت أيدي أناس أشرار عديمي الإيمان؛ أرسل لهم سريعاً ملاك الرأفة، وخلصهم من محنتهم. يا ربي وإلهي، هب العزاء لكل المتضايقين، والمضنوكين بكل نوع من الشدائد.

ظلل، يا رب، كنيستك المقدسة، التي افتديتها بدمك، اجعل السلام الذي أعطيته لرسلك القديسين يسكن فيها. اربط أولادها بربط المحبة التي لا تنفصم، ولا تسمح للمعاند أن يتقوى عليها، وابعد عنها الاضطهاد والاضطراب والحروب، التي تأتي من الذين هم من الداخل، والذين من الخارج، ولتوحد الملوك والكهنة معاً في السلام والمحبة، لتكن أذهانهم دائماً شبعانة من التطلع إليك، وليكن الإيمان سوراً لقطيعك. اجعلني أيضاً، أنا الخاطئ، مستحقاً بصَلَواتهم أن أُحفظ دائماً تحت حماية يدك الْقُدُّوسة، التي هي عنايتك التي تحيط بالكل، آمين.

أسألك وأتضرع إليك، يا رب، هب لكل الذين ضلوا الطريق، معرفة حقيقية بك، لكي يأتي الجميع، إلى معرفة مجدك.

وجميع الذين رحلوا عن هذا العالم، وكانوا معوزين من حياة الفضيلة والإيمان، كن أنت لهم، يا رب، شفيعاً، من أجل الجسد الوَاحِد الذي أخذته منهم، لكي من الجسد الوَاحِد المتحد، من العالم، نقدم التسبيح، للآب والابن والرُّوح الْقُدُس، في ملكوت السموات، مصدر البهجة والفرح الأبدي، الذي بلا نهاية.

- ٣ -

أيُّها المسيح إِلهُنَا، ينبوع الحياة، اجعلني مستحقاً لمذاقتك، لكي تستنير عيناي بك (قا ١صم١٤:٢٧). يا رجاء كل الخليقة، كنز الرحمة والتحنن، الذي أُرسل إلى العالم، هبني أن أتذوق فرح رجائك، لكي ما أصير أعمى فيما يخص هذا العالم، ولكن مستنيراً في الرُّوح. ولَيْتَ نفسي ترتوي وتسكر بمحبتك لكي ما أنسى العالم وكل شؤونه. لَيْتَنا نُسبى وننجذب إليك بأذهاننا، حين نتحدث مع بهائك الْعَظِيم. لا تدع العالم يسبينا بالحديث الضار معه. بل اجعلنا مستحقين أن نخدم أمَّامك بيقظة، بحسب مشيئتك؛ ونقدم لك التسبيح بهدوء وسلام عظيم كل حين. هبنا، يا رب، فماً ممتلئاً من تمجيدك، وأيضاً عقلاً يحتمل الشدة والألم. اجعل فهمنا مشرقاً بنقاوة تطهر عواطفنا لكي نصير "ذبيحة مقبولة" لك بلا عيب، في جميع أوقات صَلَواتنا. اجعل قوتك الخفية تسكن فينا، لكي ما تتقوى حواس نفوسنا، حتى تنشد نفسنا ترنيمة مملوءة عجباً، ونترنم بالتسبيح لك كل حين بتهاليل الساهرين في العلا، تمجيداً لعظمة جلالك. وكما لو أننا في السماء، فلنحمل في أعضائنا الخفية التقديس لألوهيتك. لَيْتَنا نشترك في الحمد مع جميع

قديسيك ونخدم اسمك الْعَظِيم الْقُدُّوس، ولا نشبع من ذلك أبداً، أيُّها الآب والابن والرُّوح الْقُدُس الممجد في طبيعته إلى دهر الداهرين، آمين.

- ٤ -

الشكر لنعمتك يا الله، الشكر لنعمتك يا الله، الشكر لنعمتك يا الله! يا من أتيت بنا إلى الوجود من حيث لم نكن موجودين؛ ووهبتنا وجوداً لا نـهاية له؛ وزودتنا بالحياة والإدراك والعقل وحرية الإرادة والسلطة، خمس عطايا عظيمة لا نظير لها. لأن محبتك لم تكتفِ فقط بأنك أوجدتنا، بل وأن نكون أيضاً قادرين أن نعقل، حتى ندرك ونتمتع ببهجة الفطنة ومسرة موهبة البصيرة المتسعة. ولأنه لم يكن ممكناً أن نكون بلا بداية مثلك، وهبتنا أن نكون بلا نـهاية مثلك. الشكر لك من أجل المسرة التي تمنحها لنا عطيتك!

- ٥ -

بالنسبة لي، أنا الذي قد قاحت جروحي وأنتنت، فهبني يا رب بتحننك أن أتخذ مثال التوبة في نفسي، لكي ما إذ أبسط يدي تجاه رحمتك، وأجلس على باب نعمتك، أُوجد أهلاً لذلك الرجاء الذي تقبله التائبون الحقيقيون منك. اجعل عبدك، يا رب، مستحقاً أن يغسل نفسه من وحل أعماله بدموع عينيه، وباتخاذ معونتك على الدوام في وجه نقائص أفكاره؛ ولَيْتَه يجد بنعمتك مدخلاً للحياة، آمين.

- ٦ -

"هبني، يا رب، الاتضاع حتى ما أتحرر من الذم، لكي ما بواسطة ذلك أقترب من تنعمات الذهن التي أنا غير مدرك لها – رغم رغبتي الشديدة في التعرف عليها – قبل أن أقتنيها".

أظهر لي يا رب طرقك، وعلمني بالرُّوح سبلك الكثيرة جداً الفائقة الوصف، واهدني طريق الحق، وعلمني معرفتك الكاملة التي توجد في قديسيك الذين هجروا العالم. أيُّها المسيح، غاية طريق القديسين، أظهر لي طريق الحق في قلبي بواسطة حلاوة التطلع إليك، لكي ما أسير وأتقدم في هذا الطريق نحوك إلى أن أرى وجهك.

مَنْ يُعاتبكَ بمحبةٍ ويوبخكَ على زلاتكَ حبه مثل نفسكَ وأتخذه لكَ صديقاً وأخاً. القديس الْعَظِيم البابا أثناسيوس الرسولي البطريرك العشرين على كرسي القديس مرقس الرسول.

يوم الثلاثاء ٢٠١٥/١١/٢٥م، تمام مرور٥٥ سنة (١٩٦٠/١١/٢٥- ٢٠١٥/١١/٢٥م) على صلاة أول قداس إلهي في كنيسة رئيس الملائكة الجليل مِيخَائِيل (مغارة الْقِدِّيْس الْعَظِيم أبَا مَكَارْيُوسْ القس الإِسْكَنْدَرِاني، التي بدأ فيها التعبد من سنة ٣٥٥- ٣٩٥م على فترات، وفي فترات الصوم الكبير فقط من ٣٧٣ – ٣٩٥م).

كُتُبْ طُبعت وأخرى تحت الطبع للكاتب

- ✓ سلسلة كُتُب القدِّيس مكاريوس القس الإسكندراني (حياته، فضائله، تلاميذه، أماكن سكناه، الآثار...) تم طُبع الأجزاء الأولى منها. من المصادر القبطية واليونانية والعربية، والمراجع الأجنبية.
- ❖ كتاب إبصاليات وميامر للقدِّيسة مريم العذراء والدة الإله. من المخطوطات العربية.
- ✓ كتاب إبصاليات وميامر لرئيس الملائكة الجليل ميخائيل. طُبع. من المخطوطات العربية.
- ❖ سلسلة تاريخ مصر القديمة والقبطية.
- ❖ سلسلة روحانية الألحان والتسبحة "رحلة توبة مِنَ الأرض إلى السماء".
- ✓ كتاب قواعد اللغة القبطية (لُغتنا القبطية نتعلمها ونقرأها). طُبع.
- ✓ كتاب ألحان التسبحة باللغة القبطية بالهزات. طُبع.
- ✓ كتاب ألحان القداس الإلهي باللغة القبطية بالهزات. طُبع.
- ✓ كتاب ثمار أقوال القدِّيسين "رهبانيات".
- ✓ نبذة عن اللغة العربية. طُبع.
- ✓ الدفنار طبعة جديدة. من المخطوطات القبطية والعربية.
- ✓ مَيَامِر مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي العظيم في العارفين.سبع أجزاء. طُبع.
- ❖ سلسلة مارِ إِسْحَاق السُّرْيَانِي العظيم في العارفين "مُبوبة."
- ✓ الأجبية قبطي / عربي. طُبع.
- ❖ رسالة رهبانية مِنْ سفر العظيم في الأنبياء أبانا إشعياء الرائي.
- ❖ محاضرات في تاريخ الكنيسة. للمتنيح الأنبا يوأنس أسقف الغربية.
- ❖ محاضرات عن الرهبنة. للمتنيح الأنبا يوأنس أسقف الغربية.
- ❖ كتاب التاريخ القدِّيس غريغوريوس إبن العبري.
- ❖ الشيخ الروحاني.
- ❖ كتاب تاريخ الأنطاكي.
- ❖ نبذة عن اللغة العبرية.
- ✓ كتاب إبصاليات وميامر لرئيس الملائكة الجليل رَافَائيل. طُبع. من المخطوطات العربية.
- ✓ سيرة الشهيد أباسخيرون القليني. طبع. من المخطوطات العربية.

المراجع

كُتُب مار بِرْيِجاقل الْمتنوِّح أفهيا مِنا مُطران جرجا.

كِتاب قُطُفات مار بِرْيِجاقل الأنبا تاؤس أرقف وريُّس الْقس الإسْكَنْدَراني يومْيُّم السْيُّان.

كِتاب القس الإسْكَنْدَراني أُم مار بِرْيِجاقل الْمتنوِّح أفهيا صموئل سأرقفشبُّن القناطر وتوابعها.

كُتُب مار بِرْيِجاقل الأب مِنا القاري الْمتوحا.

كُتُب مار بِرْيِجاقل ألينا السباك رلس.

كُتُب مار بِرْيِجاقل قمصتاارس السْيُّل ً.

كُتُب مار بِرْيِجاقل قمص أغسطِنوس البرموس ً.

كِتاب سِنكسات بِرْيِجاقل السْيُّل ً ألب بِرْيِجاقل عطا الله.

كِتاب مُختارات من يوميات مار بِرْيِجاقل السْيُّل ً أرشُّاكون ا.مِيخائل لمس سكندار.

الرَّاهِبُ أثَنَاسِيُوس أبَا مَكَارْيُوسْ الريَّان

تأفون

01273133270

01016795091

Αριπαμενι δεν πεκϣλημ: πιμοναχος Αθαναcιος απα Μακαριος πιρεμ Ραιιανη

Αθανασιος τοῦ Μακαριου τοῦ Ραιιανη

دير الْقِدِّيْس الْعَظِيم الأنْبَا مَكَارْيُوسْ القس الإسْكَنْدَرِاني الأثري.

بَرِّيَّة وَادِي الْرَّيَّان – مَرْكَز يُوسُف الصِّدِّيق - الفَيُّوم – مِصْر.

١٧٣٢ ش – ٢٠١٥م

الفهرس العام

مقدمة ١١
الجزء الأَوَّل : ١٥
الجزء الثَّانِي : ٩٥
الجزء الثَّالِث : ٢٦١
الجزء الرَّابع : ٤٠٩
الجزء الْخَامِس : ٥٢١
الجزء السَّادِس : ٦٣٧
الجزء السَّابع : ٧٢٩
صَلَوَات : القدِّيس مارِ إِسْحَاق الْعَظِيم في الْعَارِفِين : ٨١١

ⲡⲓⲁⲃⲃⲁ ⲡⲁⲡⲁ ⲁⲁⲕⲁⲣⲓⲟⲥ
ⲡⲣⲉⲙⲣⲁⲕⲟ† ⲉⲧⲃⲉⲛ ⲡⲓⲧⲁⲱⲟⲩ
ⲛⲣⲁⲥⲁⲛ ⲛⲧⲉ ⲫⲛⲟⲩ ⲛⲟⲩⲟⲓⲛⲓ

دير القديس العظيم الأنبا مكاريوس
القس الإسكندراني الأثري
برية الزيتون - القلوم - مصر

صدر للمؤلف

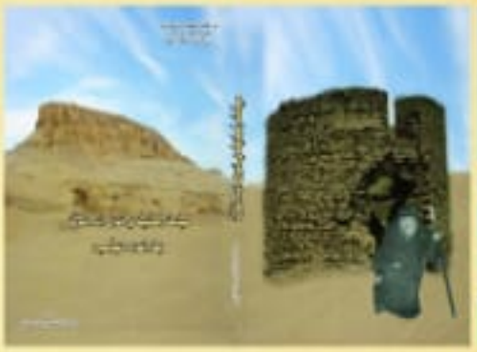

مَيامِر مار إسحاق السرياني

المطيم ضي العارضين

الراهبُ أثناسيوس الأنبا مكاريوس

إعداد